المنار

١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

« تصدر في كل شهر عربي مرة »

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد الثاني عشر

سنة ١٣٢٧

قيمة الاشتراك عن سنة ستون قرشاً صحيحاً في مصر والسودان وفي المملكة العثمانية ثلاثة ريالات ونصف وفي الخارج ١٨ فرنكاً و١٥ شلناً في الهند و٧ روابل في روسيا والدفع سلفا

الطبعة الاولى

طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر

﴿ فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد الثاني عشر ﴾

ا

هذا الفهرس يشمل أكثر المسائل المهمة الواقعة في تضاعيف الكلام . والاصفار التي عن يسار الأرقام فيه تشير إلى ان المسألة مكررة اولها تتمة فيما بعد الصفحة التي يدل عليها الرقم . ويليه فهرسان: واحد للاحاديث والآخر للمطبوعات التي ذكرت في هذا المجلد

ب

٢

﴿ فهرس للاحاديث المخرجة والمذكورة ﴾

« تأييدا للموضوعات في هذا المجلد »

٣

﴿ فهرس للكتب والجرائد التي قرظت في هذا المجلد ﴾

٤

﴿ فهرس لاسماء الكتاب الذين لهم كتابات في هذا المجلد ﴾

﴿ اغلاط يجب تصحيحها بالقلم ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧٤٠	٢٣	بالدخول بهن	
٨٠٢	٧	الحكيم	الحليم
٨٠٣	٦	ويتعدى	ويتعد
٨١٦	٢١	انه يسقط	انه لا يسقط
٩٠٣	١٨	من	في
٩٠٤	٤	بعد (تلحقه)	تزاد كلمة (به)
٩٢٩	٢٠	المشتركين	المستركين
٩٣٠	٦	تعرف	تعرف بها
٩٣٠	١٦	بعضهم	قائل منهم

* * *

﴿ خطأ المنار ﴾ فاتنا أن ننبه في الجزء الاخير الى خطأ المنار بقوله : ان ممن كتب اليهم سلطان لحج امام اليمن وشريف مكة . فانه لم يكتب اليهما

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كنار الطريق

﴿ مصر — الأحد ٣٠ المحرم ١٣٢٧ — ٢١ فبراير (شباط) سنة ١٩٠٩ ﴾

فاتحة السنة الثانية عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي أنزَلَ على عبدِهِ الْكتابَ ولَمْ يَجعَلْ لهُ عِوَجاً ، ولا جعل علينا فيما شرعه لنا من الدين حرجا ، بل جعل مع العسر يسراً ومع الشدة فرجا ، ومن يتق الله بإقامة سننه يجعل له مخرجا ، ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً

والصلاة والسلام على من بعث الى الابيض والأحمر ، وقام بأمر ربه ١٥ : ٩٤ فَاصْدَعْ بمَا تُؤْمَر ، فمكر به قومه ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، فهاجر من وطنه ووطنهم فتبعوه وحاربوه ، حتى شجوا

رأسه ، وكسر واسنه ، وعذبوا من اتبعه من ضعفاء المؤمنين ، فصبر وصبروا حتى كانت العاقبة للمتقين ، ٣٧ : ١١٦ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ *

وبعدُ فإنا نقص في فاتحة منار هذه السنة وهي الثانية عشرة له ، نبأ من تاريخه الصريح ، الذي كنا نشير اليه بالتلويح ، تذكيراً وتفصيلا للقراء السابقين ، وعبرة للقراء اللاحقين ، وأخص العثمانيين الذين طالما ارتعدت فرائصهم عند ذكر المنار ، حتى ربما كنى عنه محبوه بلفظ النار ،

أنشئ المنار في أواخر شوال سنة ١٣١٥ وكان صحيفة ذات ثمان صفحات ، وقد بينت في العدد الأول منه الغرض من انشائه ، ومذهبه في الاصلاح الديني والاجتماعي والأدبي ، وسكت عن بيان منهاجه في الاصلاح السياسي ، مع التصريح بنزعته العثمانية ، وخدمته للدولة العلية ، وانما أسكتني عن ذلك الأستاذ الامام (الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى) فقد كنت استشرته في انشائه ، وقرأت له تلك الفاتحة قبل طبعها ، وكان فيها ان من مقاصده بيان حقوق الامة على الامام ، وحقوق الامام على الامة ، فاستحسن كل ما أودعته تلك الفاتحة الا هذه الكلمة ، فاقترح عليّ ان أحذفها ، ولم يراجعني في شئ غيرها ، وكان مما قاله في ذلك : « ان المسلمين ليس لهم امام في هذا العصر غير القرآن » ، وان الخوض في السياسة العثمانية فتنة يخشى ضررها ولا يرجى نفعها ، وان الناس ههنا لا يحبون ان يسمعوا في السلطان والدولة الا مايشتهون ، ومصر ليس فيها سياسة ، والمسلمون لا ينهضون الا بالتربية والتعليم ، فلا تخلط السياسة بمقاصدك الاصلاحية لئلا تفسدها عليك ، فانها ما دخلت في عمل الا وأفسدته

هذا معنى ما قاله ، وقد حذفت تلك الكلمة استجابة له ، وليت

السياسة تركتني كما تركتها ، أو سالمتني كما سالمتها ، ولكن أبى عليها الخرق والعتوّ ، الا ان تجاهد مني غير عدو ، فأذنتني بالحرب ، وآذتني في الأهل والصحب ، حتى ألجأني اعتداؤها على حقيقتي ، الى التقصي في استعراف ظلمها لامتي ، ثم الى الدخول في زمر المجاهدين ، لرؤسائها واعوانها الظالمين ، ٥١ : ٤٥ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ

جئت مصر وأنا أحسنُ الظنّ بالسلطان ، دون من يحيط به من الوزراء والقرناء والخصيان ، وأسيء الظن بطلاب الاصلاح من الاحرار ، واعتقد أنهم انما يطلبون الرتب والاوسمة والدينار ، وقد كنت أصرح بهذا وذاك في السنة الاولى مع المطالبة بالاصلاح ، والشكوى من عاقبة الظلم والافساد ، وما كنت لا قول الا ما اعتقد ، وأبثّ الا ما أعلم وأجد ،

منع رشيد بك والي بيروت (أحد أركان الافساد في حكومة الاستبداد) توزيع العدد الثاني من السنة الاولى وأرسل البرقيات الى جميع أنحاء الولاية بوجوب جمع ما وزّع منه واحراقه ، ولم يكن فيه شيء مما كانت تنكره الحكومة في ذلك الوقت ، وانما فعل ذلك مرضاة للشيخ أبي الهدى افندي الصيادي ، الذي كان يعلم اني من حزب السيد جمال الدين الافغاني ، فهو الذي أوعز الى الوالي بأن يصادر المنار ، كما أوعز بذلك الى بدري باشا متصرف طرابلس الشام ، فصار كل منهما يمنع بعض الاعداد ، التي يؤذن بتوزيعها في الاستانة وغيرها من البلاد ، حتى هبطت الارادة السنية ، وصدرت الاوامر العلية ، بمنعه من جميع الولايات العثمانية ، وذلك قبل ان يتم له نصف سنة !

لم يشف هذا غيظ أبي الهدى أفندي فأوعز الى بدري باشا واعوانه

بأن يؤذوا والدي واخوتي ، وينذروا عشيرتي وذوي مودتي ، ولما رأى بدري باشا أن مجلس ادارة اللواء ، لا يوافقه على ما يقصد من الايذاء، وان الايذاء بغير يد الحكومة ، لا يشبع تلك النفس الضارية المنهومة ، أبدى هو وشيعته للسيد الوالد (رحمه الله تعالى) نواجز الشر، ثم أشخصوه الى مصر ، ليحملني على مشايعة ابي الهدى ، وعدم المبالاة بمن دونه من الورى ، وبعد طول المذاكرة رضي مني بأن اكتب اليه كتابا مني أبين له فيه أنه ليس من قصدي الطعن فيه واني لا أريد الا الإصلاح ما استطعت ، وكتب هو اليه كتابا آخر ، فما عتم أن جاءنا منه الجواب وهذا نص ما كتبه الي بخطه :

الحمد لله وحده

من الفقير اليه تعالى محمد ابو الهدى الصيادي الرفاعي عفي عنه الى جناب الاديب الكاتب الشيخ رشيد رضا افندي كان الله لنا وله وللمسلمين.
وصلني قبل كتابكم وفي هذه المرة أخذت كتابا من والدكم وكتبت له الجواب في بريد اليوم فكن ريض الخاطر طيب البال نعم اني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان زعمها زورا وقد ثبت في دوائر الدولة رسميا أنه ما زندراني من من أجلاف الشيعة بعد المخابرة مع سفارة ايران بدار السعادة والسفارة السنية في ايران وهو حيّ وما قدر على الدفاع ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية، واراك تملأ جريدتك كل يوم بانتقاد الصوفية بأبحاث جلها ما هي من طريقهم وكذا أولتها وفي بعضها أنت محق بلا شبهة الا انك تعلم ان العلماء الآن ما هم كالشافعي وابي حنيفة وعظماء السلف

تمسكا بالشرع ولا عامة الأمة كالعامة الاول فلو انصفت وخدمت دينك بغير هذه المواضيع واذا ألزمك طورك وقلمك بالتطرق فهنالك تنتقد أعمال الامم السائرة من غير الاسلام انتقاداً عقليا يستميل لك القلوب ويرضي عنك ربك لكان أولى، ولما طاب قلبنا لك نصحناك والموعد الله في كل غاية والسلام في ١٩ رجب سنة ١٦

***

ومن هذا الكتاب يعلم أن ما كان يؤلمه من المنار محصور في أمرين أحدهما التنويه بالسيد جمال الدين الافغاني وذكره بلقب « السيد » ولم أكن أمنح أبا الهدى هذا اللقب لأني لا أعتقد شرفه - وثانيهما انتقاد خرافات أهل الطريق التي جعلها أساس مجده ، ولكنه كان يوهم السلطان أن المنار لم ينشأ الا لأجل الطعن فيه كما يعلم مما يأتي. فكتبت اليه كتابا بينت فيه انني لم اكتب ولا اكتب الا ما اعتقد أنه نافع وذكرت له رأيي في السيد جمال الدين فلم يلبث ان أجابني بهذا الكتاب بخطه:

ولدنا الروحاني الأديب الأريب الفاضل الشيخ محمد رشيد افندي آل رضا المحترم

أدعو لكم ولوالدكم بالخير والعافية ودوام التوفيق، وجدا صرت ممنونا من تحريراتكم المرسلة والمأمول من عناية الله وفضله أن يديم لكم التوفيقات فيما يرضيه وقد حصل الآن قيد رؤس أدرنه من مراتب العلمية الشريفة لك فهي ان شاء الله أول الفيوضات ولا يجنحن لبالك ان ذلك لغوائش هذه الدنيا بل اني أعجبني قولك واطمأن قلبي لصدقك ولبراءتك وارجو الله اصلاح شأنك في الله كما هو مطويّ في كل من له للجناب الرفيع نسبة . وأوصي رفيقك بالثبات والاستقامة على ما يبيض الوجه حالة القدوم على الله

ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم (١) وبحوله تعالى عند مجيئكم الينا وانفكاكم عن هذه العوارض الحاضرة الزائدة التي لا تنطبق على مجد النسبة نوعاً ما وان كان قصدكم حسنا فهنالك تتبلج فيكم أنوار نسبتكم بالتحقق في الطريق الأقوم تحت نظر سرّ الوجود صلى الله عليه وسلم وتكون اذن خدمتكم للدين وللمسلمين على النهج الشرعي الصحيح الأمين ومني لكم الدعاء وهو المطلوب منكم والسلام؟

١٦ شعبان سنة ١٦ — كتبه محمد ابو الهدى
عفي عنه

قرأت هذا فبادرت الى ارسال كتاب اليه جزمت فيه بأنني لا أقبل الرتبة العلمية التي طلبها لي وانني من الذين يرغبون عن الرتب والاوسمة فيجب الرجوع عن طلبها وانني لا استبدل بخدمة المنار للملة خدمة أخرى مهما كان مظهرها وفائدتها وانني لا اطلب من الاستانة الا الاذن بدخول المنار لسوريا وغيرها من ولايات الدولة . واعدته في هذا الكتاب او فيما قبله بترك التنويه بالسيد جمال الدين مادام المنار مأذونا له بدخول بلاد الدولة . وسكت على ذلك وسكتنا

وبعد ثلاثة أشهر وأيام من هذه المكاتبة كتب ناظر خارجية انكلترا الى لورد كرومر عميد دولته في مصر يقول ان سفيرهم في الاستانة كتب اليه يخبره ان رئيس كتاب السلطان جاءه وقال له ان في مصر جريدتين معاديتان لشخص السلطان وهما المنار والقانون الاساسي وان الخديو ومختار

(١) يريد برفيقي عبد الحليم حلمي افندي سراد وكان يومئذ مديرا لاشغال المنار وكان سافر الى الاستانة قبل ذلك وبلغني انه اجتمع بابي الهدى ولم أدر ماذا كان بينهما ولم يكن لذلك السفر علاقة بالمنار

باشا الغازي يساعدانهما وان السلطان يرغب اليه بأن يسعي لدى حكومته بابطال هاتين الجريدتين ويتخذ ذلك يدا يكافئه السلطان عليها !! فأخبر اللورد الامير بذلك فعجب أشد العجب لانه لم يكن هو ولا مختار باشا يساعد للمنار ولا للقانون الاساسي بل لم يكن يعرف من مشرب المنار الا ما اخبره الاستاذ الامام من أنه جريدة دينية أدبية.

سألني الامير عن ذلك سرا في يوم عيد الاضحى (سنة ١٣١٦) عند ما أردت الخروج مع العلماء من مقابلة التهنئة له بالعيد وأمرني بأن أذهب الى مقابلة أحمد شفيق بك وكان رئيس القلم التركي (وهو اليوم احمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي) فذهبت من حضرة الامير الى غرفته وكان يقرأ المنار ويعلم انه ليس فيه تحامل على السلطان بل لا يخلو من مدح له ، ورأيته جازما بأن أبا الهدى هو الذي سعى عند السلطان هذه السعاية وضرب سهامه فيها الى عدوين من أعدائه : الامير ومختار باشا الغازي . فأخبرته بأن بيني وبين ابي الهدى سلما وذكرت له هذين الكتابين فطلبهما مني لأجل ان يحتج بهما فقلت له ان المراسلة بالامانة وانني لا اجيز لنفسي ان أظهرهما مادمت أعلم أن اظهارهما يؤذيه بتغيير السلطان عليه، واستدلاله بهما على خيانته له ، اذ يجعله ترسا يدافع به عن نفسه . وأما اللورد فقد جرى في المسألة على ماتعود من المحافظة على حرية الصحافة ولكن بعد البحث ومعرفة الحقيقة

كرّ اعوان ابي الهدى على أهلي كرة ثانية وكانت الدولة دولتهم فضربوا احداخوتي وهو خارج من طرابلس الي القلمون ليلا وسرقوا فرسا لنا وحاولوا اخذ مسجدنا منا وأغروا جريدة طرابلس الشام بالطعن في المنار والتمسوا لها المساعدة من كل من يكتب في طرابلس حتى اصدقائي

فاضطررت الى كتابة مقال عنوانه « مؤاخذة العلماء » (٣٩ص و٥١م٢) اسكتها به عن التمادي في الطعن ، ولكن ألسنتهم لم تسكت عن السب واللعن ، الا بعد ان أديل منهم ، وخضدت شوكتهم وذهبت ريحهم ، وخرج بدري باشا من طرابلس مذؤما مذموما ، وبدلنا به عبد الغني باشا العابد وكان لنا وليا حميما ، بل غلب نفوذ عزت باشا العابد على نفوذ الشيخ ابي الهدى في جميع البلاد السورية ، فازداد انتشار المنار فيها وان لم يرسل الا في البرد الاجنبية ، وأمن الاهل والقراء على انفسهم طائفة من الزمان ، حتى كان منذ اربع سنين ما كان ،

ذلك ماكان في السنة الاولى والثانية من سني المنار . وفي أواخر الثانية وأول الثالثة صار يتردد علينا بعض جواسيس ممدوح باشا ناظر الداخلية في الاستانة ويعرض علينا الرتب والوظائف اللائقة اذا نحن تركنا المنار ، وغادرنا هذه الديار ، فلو شئت ان اكون يومئذ قاضيا أو مفتيا في الشام أو بيروت او آخذ مرتبا شهريا عظيما من الدولة لفعلت ، وقد قبل عبد الحليم افندي حلمي أن يترك مصر ويكون معاونا لناظر النفوس في بيروت بمرتب كرتب الناظر فنال ذلك على انه لم يكن كاتبا ولا سياسيا ولا ذا شأن في المنار وقد بلغني وقتئذ أن ذلك الجاسوس اخذ من ممدوح باشا ٨٠٠ ليرة عثمانية سماها ثمنا لمطبعة المنار ولم يكن للمنار يومئذ مطبعة تساوي ٨٠٠ قرش !

وفي أثناء السنة الرابعة غضب عليّ أمير هذه البلاد وآذنني صديقي حسن باشا عاصم (وكان رحمه الله يومئذ رئيس التشريفات) بانه لا يرضى ان أقابله بعد وكان يقول لي قبل ذلك إن لك ان تجيء اليّ في قصر عابدين أو قصر القبة متى شئت . وكان غضب أيضا على الاستاذ الامام وكلما اشتد غضبه على أحدنا يشتد على الآخر ولا احب ان اذكر الآن شيئا

مما سمعته او علمته من آثار هذا الغضب الا ما قيل من عزمه على اخراجي من مصر فقد قال مصطفى كامل باشا للاستاذ الامام مرة ان افندينا يريد ان ينفي صاحب المنار من مصر ويطلب منك ان تسكت على ذلك ولا تحمل لورد كرومر على المعارضة فيه ... وسمعت مثل هذا الخبر بعد وفاة الاستاذ الامام . وقال لي أحد معارفي في ٢٢ من المحرم سنة ١٣٢٦ ان السرغورست على وفاق مع الخديو وهو لا يعارضه في الانتقام ممن يغضب عليه ولا سيما اذا كان عثمانيا لانه ليس كلورد كرومر في المحافظة على الحرية الشخصية وقد علمت أن الخديو غضبان عليك فيجب ان تسعى في استرضائه لئلا ينفيك من هذه الديار وانه ربما يفعل ذلك . فقلت له انني لا أكتب في هذه السنين شيئا عنه ولا أعلم ان في المنار شيئا يسوءه فماذا ينقم مني ؟ قال دوام الثناء على الشيخ محمد عبده . قلت ليس في المنار ثناء ، وانما هي اقوال عنه وآراء ، ولا يمكن أن يخلو المنار من ذكره ، وان مصر لا مزية لها عندي الا لحرية العلم والصحافة والحرية الشخصية فاذا كان الخديو ينفي منها من كره وجوده فيها ، فلماذا أحرص أنا على الاقامة بها ، أو آسى على البعد عنها !؟ انني اذاً أظعن الى الهند ، واني لأعلم انه يكون لي فيها مقام كريم لا اجد مثله في مصر . هذا وان مثل هذا الخبر ليس برهانا يقينيا على صحة ما قيل عن الامير برأه الله وحماه مما لا يليق به ، وان كان عند بعض الكبراء ونظار الحكومة نبأ منه ،

وفي السنة الخامسة نشرت « سجل جمعية أم القرى » في المنار ومقالات « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » فتضاعف قراء المنار في القطر المصري

واشتدت الحكومة العثمانية في المراقبة عليه والبحث عن قرائه ولا سيما في القطر السوري ،

وفي السنة السادسة شرعت في نشر رسالة في مالية الدولة العثمانية فرغب اليّ الاستاذ الامام أن لا أتمها فوافيت رغبته ولكني ضقت ذرعا بسوء حالنا السياسية فصرت اكثر في تفسير القرآن الحكيم من السياسة وهو يجيز ذلك لانه أنما ينهي عن التصريح بسياسة حكوماتنا وحكامنا لئلا يصدونا عن خدمة الدين والعلم

وفي السنة السابعة كثر دبيب عقارب السعاية من جواسيس المابين بمصر وتواترت التقارير في الاستاذ الامام وفي صاحب المنار، وكان الذي بُلغها السلطان هو عزت باشا العابد الذي كان بينه وبين الاستاذ مودة سابقة مذ كانا في سورية ولم يحدث بينهما ما يوجب هذا الانقلاب الاصنعة عزت الجديدة في المابين وعلاقته بمصر وكان حزب الشيطان الذي يدبر هذه السعايات والمفاسد قد زوّر رسائل بتوقيع (محمد عبده) وأرسلها الى الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد العربية تشتمل على الدعوة الى الخلافة العربية وهو يعلم انها تقع في الايدي التي توصلها الى المابين فاشتد خوف السلطان من الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد عبده لا علم له بما يكتب في شأنه ولا ما يكتب عن لسانه مما هو مخالف لرأيه واعتقاده حتى انه هو الذي ارجع بعض المستشرقين عن السعي لإنشاء دولة عربية لاعتقاده ان التفريق بين الترك والعرب يضعف الفريقين ويسهل على الدول الطامعة محو الدولة الاسلامية من الارض وانني ما وقفت على ا كثر ما اشرت اليه هنا الا بعد موته

وما دخلت السنة الثامنة الا وقد صار النفور والخلاف بين الامير والاستاذ على اشدهما كما ان السعاية الى السلطان فيه قد بلغت غايتها ، وقد اشتد المرض على الاستاذ حتى كان يجود بنفسه في الاسكندرية والحكومة العثمانية تبحث عنه في سواحل بيروت لان الجواسيس قد بلّغوا المابين انه سافر الى بيروت متنكراً ليؤسس الخلافة العربية في سورية !! ألا قاتل الله اولئك التحوت الاشرار ما كان اشد عبثهم بالسلطان وخيانتهم له وللدولة والامة . وفي هاتين السنتين كان الاستبداد قد شد الخناق على محبي العلم والاضطهاد لمقتني الكتب ومنيت بيروت بخليل باشا واليا ، وطرابلس بحسني بك متصرفا ! وكانا من شر اعوان الاستبداد والمخلصين له فيما يحاول من الظلم والافساد ، فأسرفا في تفتيش البيوت ! واخذ الكتب والاوراق منها ! والمؤاخذة على اقتنائها ! حتى صار الناس يحرقون كتبهم وأوراقهم بالنار ! ومنهم من كان يدفنها بل يئدها كما تئد الجاهلية البنات ! حتى احرق في سنة واحدة عشرات الألوف من المجلدات !

كيف لا وقد كانت الكتب والجرائد تعد من الجرائر ، منها الصغائر ومنها الكبائر ، وكان اقتناء المنار اوما طبع بمطبعة المنار ، هو اعظم الذنوب وأثقل الاوزار ، وكان الحكم على مجرمي الكتب بالهوى لا بالشرع ولا القانون ، لا تأخذ الحاكم فيهم رأفة ، ولا تُقبل منهم شفاعة ولا عدل ولا هم ينصرون ، على أن أولئك الولاة ومن دونهم من المستبدين ، لم يستعملوا بأس الحكومة الا في منع كتب العلم واضطهاد المتعلمين ، دون سفك الدم وافساد الأمن ، واهلاك الحرث والنسل ، فماذا كان حظنا من حكمهم؟

دمروا الدار ، واجتاحوا الكتب والاسفار ، وحبسوا من وجدوا

من الاخوة ، وحصروا الوالد المريض مع النساء ، ووضعوا على داره الحراس والخفراء ، فكان ذلك الشيخ الجليل ، والسيد الشريف ، يجود بنفسه ، وينتظر أمر ربه ، وبناته مع أمهن امام سريره يطلقن العبرات ، ويصعدن الزفرات ، فقد عز عليهن ، وعظم المصاب في قلوبهن ، أن حيل بينه وبين أولاده الابرار ، في وقت توديعه لهذه الدار ، فمنهم القريب الذي هو في حكم المبعد ، والسجين الذي هو في حكم المستبعد ، . هذا والجنود السلطانية تحيط بهن ، وتطوف حول منزلهن ، شاكية السلاح ، مستعدة للكفاح ، تدل بيأسها وشدتها ، وتمثل قوة « الخلافة الحميدية » وعظمتها ، ليعرف الشيخ المحتضر عجزه عن تأسيس خلافة عربية في قرية القلمون ، وهكذا قضى الوالد نحبه فانا لله وإنا اليه راجعون ،

ثم كان من ظلم الحكومة المستبدة لنا أن ولت على مسجدنا رجلا آخر بغير حق واطمعته في الاستيلاء على عقاراتنا بدعوى انها وقف كما اطمعت غيره من أشقياء طرابلس فنهبوا ما وجدوا في الدار من الثياب والحلي والماعون وغير ذلك ، وقد أسقط الله حكومة الاستبداد ، ولما تكون حكومة الدستور ، فحقوقنا لا تزال مهضومة لفساد الحكام ، واختلال الامن العام ، فهذا مجمل من خبر ظلم الحكومة لنا ، وهو قليل من كثير ظلمها لغيرنا ، ممن أجرموا كاجرامنا ، فشكوا من الظلم والجهل ، ودعوا الى العلم والعدل ،

كان يصل الينا قليل من أخبار الاستبداد ، ووقائع العتو والافساد ، وبعد وفاة الاستاذ الامام صرفنا وقت الفراغ والراحة الذي كنا نجالسه فيه الى مجالسة اخواننا العثمانيين المقيمين في القاهرة فازددنا علما بسوء

الحال ، وخطر المآل ، فأسسنا جمعية الشورى العثمانية لاجل جمع كلمة العثمانيين ، على استبدال حكومة الشورى بحكومة المستبدين ، لعلمنا بأن جمعية الاتحاد والترقي خاصة بالمسلمين ، وان العثمانيين ما داموا متفرقين شيعا ، ومتقطعين مللا وأمما ، فكلمتهم هي السفلى ، وكلمة الاستبداد هي العليا ، فتألفت الجمعية من المسلمين عربهم وتركهم وألبانهم واكرادهم ، ومن النصارى عربهم وروميهم وأرمنهم ، ودعي اليها بعض اليهود ولكن لم يكن في مجلس ادارتها أحد منهم ، وقد انتخب هذا العاجز (صاحب هذه المجلة) رئيسا لمجلس ادارة اللجنة المؤسسة لهذه الجمعية وكانت ترسل جريدتها ومنشوراتها السرية ، الى الروملي والاناطول بل والاستانة العلية ،

اهتم السلطان بهذه الجمعية حتى هجر النوم مضجعه ثلاث ليال ، كما علمنا من رواية العارفين الثقات ، فقد كان — وأقر الله بالدستور عينه ، ولا سهد في عهد الحرية جفنه ، — كثيراً ما يشارك أحرار أمته في أرقهم ، ويساهمهم في قلقهم ، وان كانا في هذا الامر ، كضيف عمرو وعمرو ! ، وصار للجمعية لسان صدق عند جميع أحرار العثمانيين ، فكانت مبدأ ما كان من وحدتهم بعد حين ، وقدم أحمد رضا بك من باريس الى مصر فرغب الينا ان نضم جمعيتنا الى جمعية الاتحاد والترقي فأبى مجلس الادارة ذلك عليه ، وكان مما قلته له ان تعدد الجمعيات مع وحدة الغاية والمقصد لا يعد تفرقا ولا يحدث ضعفا ، واننا نرى انه لا نجاح للعثمانيين الا باتفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور ، قال ان قانون جمعيتنا لا يمنع قبول غير المسلمين فيها ، قلت نعم واننا لا نشكو من القانون ولكن من عدم تنفيذه فما قانونكم — وليس في جمعيتكم رومي ولا أرمني ولا سوري نصراني — الا

كقوانين السلطنة «حبر على ورق» ولو نفذ السلطان قوانين الدولة على علاتها لما طالبناه بمجلس المبعوثان لاشراك الامة معه في الاحكام

هذا ملخص تاريخنا السياسي في السنين الخالية: سالمنا السياسة فساورت وواثبت، وأسلسنا لها فجمحت وتقحمت، وكنا نهم بها في بعض الاحيان، فيصدف بنا عنها الاستاذ الامام، ولم نتل منها ما نهواه، الا بعد ان اصطفاه الله، وليس للمنار حظ في السياسة العملية، وإنما همه أن يكون حرا فيما فرض عليه من الخدمة الملية، واذا كان (كسائر الصحف) قد أمن على حريته واستقلاله من استبداد الدولة، فقد بقي عليه أن يجاهد مع غيره استبداد الامة. فان في الامة أعداء للحرية والاستقلال، في العلوم والافكار والاعمال. يحبون ان تكون الصحف كما يرون لا كما يرى أصحابها، وان ينشر فيها ما يعتقدون لا ما يعتقد كتابها، وما كتاب الصحف الا معلمون ومرشدون، وهل يعلم الاستاذ تلاميذه ما يعلمون ويربي المرشد مريديه كما يريدون !!؟ وقد جرى على هذا كثير من أصحاب الصحف المصرية وما كانوا مصلحين، ويجري عليه الآن بعض أصحاب الصحف العثمانية وما هم بمهتدين، وسيبقى المنار على صراطه لا يبالي بالمخالفين،

نعم ان المنار يستقبل جهاداً جديداً في البلاد العثمانية، وقد فرغ من مثله فيما عداها من مصر وسائر البلاد الاسلامية، فأكثر المسلمين العثمانيين، لم يألفوا حرية البحث في السياسة والعلم والدين، ينظر اغلب الباحثين الى القائلين دون الاقوال، وينصرون التقليد على الاستقلال، ولكن يوجد في كل بلد أفراد سلمت فطرتهم، واستنارت بالحق بصيرتهم، يشعرون بشدة الحاجة الى اصلاح حالنا الاجتماعية والدينية، ويعلمون

انه يتوقف على استقلال الفكر والحرية، وان هؤلاء على قلتهم، ليغلبون أولئك على كثرتهم، وسيبرزون لهم بعد استقرار الدستور مجادلين لا مجالدين، يتلون (٢ : ٢٤٩ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) فهذه الفئة هي التي يشد المنار أزرها ويشد بها أزره، وينصرها في جهادها ويتقاضاها نصره، ٤٠:٢٢ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز *

سيقول السفهاء من الناس، وأهل الارجاف والوسواس، ان هذا المنار يدعو الى الفوضى في الدين، بترك مذاهب الائمة المجتهدين، وبنصر مذهب الوهابية، على مذهب السنة أسيء الحشوية، ويبطل القول بالكرامات، بأبحاثه على الدجل والخرافات، وحجة انصار المنار على هؤلاء، ومن يقلدهم من الدهماء، الذي يثبت انه يتحرى الحق والصواب، ولا يريد الا الاصلاح ما استطاع، دون التعصب لمذهب على مذهب، هي قبوله انتقاد المنتقدين، في مسائل الدنيا والدين، اذا أيدت الاولى بالعلم والعقل، والثانية بما صح من النقل، مع التزام النزاهة والآداب، واجتناب الحشو والاطناب، فمن زعم ان في المنار باطلا فليكتب اليه، دون أن يعصي الله بغيبته والطعن عليه، وللحق السلطان على الباطل (٢١ : ١٨ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق، ١٩:١٣ فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال)

منشئ المنار ومحرره
محمد رشيد رضا الحسيني

﴿ خطاب صاحب المنار ﴾

على طلاب الكلية الامريكانية المسلمين في بيروت

ايها الاخوة الكرام:

انكم انتم محل رجاء البلاد بتربيتكم وما تتلقون من العلوم العالية لذلك أحب في هذا الوقت القصير ان اذكركم بما ينبغي لطالب العلم ان يكون عليه ليتحقق رجاء أمته فيه

ان العلوم تطلب لغرضين صحيحين : احدهما تكميل النفس وترقية العقل . وثانيهما العمل بالعلم . والعمل به مسلكان احدهما جعله حرفة ومستغلا للعامل والآخر جعله وسيلة لترقية الامة واعلاء شأنها ويمكن الجمع بينهما

الغرض الأول لابد منه لكل عاقل وهو العون الاكبر على الغرض الثاني فان من استنار عقله بالعلوم وصار صحيح الحكم فيها تعلو همته ويكون جديراً بالاحسان في العمل والاتقان للصنع فيجب اذاً ان يكون هو أول شيء تتوجه اليه همتكم وتعظم فيه رغبتكم

يظن بعض ضعفاء العقول وصغار النفوس ان طلب العلم لأجل ترقية شأن الامة به ينافي ما أودع في الغرائز من كون منفعة الانسان لنفسه هي العلة الغائية لكل عمل من اعماله وان من توجه الى ذلك وجعله همه من حياته تفوته مصالحه ومنافعه التي لا بدله منها

تلك خديعة الطبع اللئيم ووسوسة شيطان الخسة والصغار لصغار الهمم فقد رأينا بأعيننا وسمعنا وروينا عن التاريخ ان الذين يقفون حياتهم على خدمة أممهم لا يعوزهم الطعام واللباس اللائق بهم بل كانوا يفضلون عيشتهم على كل عيشة سواها لما لهم من الكرامة ورفعة الذكر ان لم يكن في بداية أمرهم ففي نهايته

ان من يسلك في طلب العلوم مسلك الاحتراف ويكون قصده منه ان يجعله دكانا يتجر به أو بستانا يستغله ليعيش منه لا يرتفع به الى ما هو أعلى من هذا القصد فان قيمته في الوجود لا تعلو قيمة غيره من اصحاب الحرف والصناعات العملية كالنجارة والحدادة والزراعة . لا أقول ان هؤلاء لا قيمة لهم وكيف أقول ذلك واعمالهم لابد منها للمجتمع الانساني وانما اقول ان هؤلاء هم أهل الطبقات الدنيا من الناس الذين لم يرتقوا في افق الانسانية ويسهل على طلاب العلوم لاجل الكسب والاحتراف

ان يكونوا في افق اعلى من افقهم بان يوجهوا نفوسهم الى اعلاء شأن الامة بكسبهم واعمالهم

ايها الاخوة : ان استعداد البشر للكمال لاحد له يعرف، ولا طرف له يوقف عنده، وان الانسان قد فطر على طلب الكمال فلا يصل الى شيء منه الا ويطلب مافوقه، وان افراده يتفاوتون في ذلك تفاوتا لا نظير له في غيره من المخلوقات فمنهم من يكون وجوده بمقدار محيط جسمه لايكاد يهمه شيء وراء توفية مطالبه كبعض الحيوانات الدنيا، ومنهم من يتسع وجوده حتى يملأ بلدا كبيرا أو مملكة عظيمة، وربما تعلو ببعض الناس همتهم الى جعل وجودهم المعنوي ساريا في أمم كثيرة ما دامت للارض التي يعيش فيها الانسان . ولا تتكلم في هم الانسان واستشرافه لما هو وراء ذلك من عالم الغيب

اذا كان فضل الانسان وسعة وجوده الانساني على قدر نفعه بعلمه وعمله فلا شك ان من تتوجه نفسه الى نفع جميع البشر يكون افضل واكمل ممن لا يتوجه الا الى نفع أمة واحدة أو شعب واحد ولكن كيف يتأتى للفرد من الناس ان يخدم امما كثيرة؟

الجواب عن هذا السؤال يعرف من القاعدة المعقولة التي جاء بها الحديث النبوي وجرى عليها الشرع الاسلامي وهي « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول : الاقرب فالاقرب » وقد قال فقهاؤنا ان من وجد من القوت زيادة عن كفايته قدمه للاقرب اليه من ولد وزوج الخ فان وجد فضلا انفق منه على غير الاقربين من ذوي الحاجات حتى قالوا انه يجب على المسلم ان ينفق على المضطر من غير المسلمين مالم يكن محاربا لنا وانه يقدم الجار على غيره لقربه !

فعلى هذا يجب علينا ان نبدأ بنشر العلم والقيام بالاعمال النافعة في امتنا ومملكتنا وان يقدم أهل كل بلدة خدمة بلدهم الذي يقيمون فيه على غيره من بلادهم ثم نفيض بعد ذلك من علومنا وأعمالنا النافعة على غيرنا من الامم على الوجه الذي سبقتنا اليه الامم الحية في هذا العصر وامامكم العبرة في المدرسة التي تتعلمون فيها

أليس منشئو هذه المدرسة يقصدون بها جعل العلم الذي ينفع الناس وسيلة لنشر لغتهم وبث تعاليم مذهبهم الديني في نفوس من يعلمونهم ؟ بلى وان في حالهم هذه لعبرة لنا يجب علينا ان نعتبر بها وان نرفع انفسنا لنكون أولى بهذه المنقبة منهم

يجب عليكم ان تتعاونوا وتعتصموا بعروة الاجتماع وانكم بما تلقون كيدا واحراجا لتشذوا وتتنكبوا جادة الاعتدال في استمساككم بدينكم وحرصكم على الاجتماع والتعاون

فيجب ان تتسع صدوركم لجميع ماتنكرون من معاملة من معكم وان تقابلوهم بالادب في القول والفعل لان الادب من الفضيلة وهي مطلوبة لذاتها ولئلا يكون لهم عليكم حجة بعد ان ثبتت لكم الحجة عند دولتكم ودولتهم

انكم لم تقصدوا بما كان منكم الا إرضاء ضمائركم والمطابقة بين عقائدكم واعمالكم فحسبكم ان يتم لكم ذلك بالهدوء والسكينة والادب. واني اجلكم عن قصد العناد لرؤسائكم واساتذتكم او الجنوح للاستعلاء بالظفر لذاته

وأوصيكم بالمحافظة على الصلوات الخمس ولو منفردين في حجراتكم وبالحرص على صلاة الجماعة كلما تيسر لكم ذلك ولو على ارض حديقة المدرسة فقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم «جعلت لي الارض مسجدا وتربتها طهورا»

انكم قمتم بواجب ديني سلبي وهو الامتناع من دخول الكنيسة لسماع تعاليم دين غير دينكم فعليكم بهذا العمل الايجابي الذي هو عماد الدين «واستعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين»

﴿ المسلمون في مدارس الجمعيات النصرانية ﴾

المدرسة الكلية الامريكانية

المدرسة الكلية الأمريكانية في بيروت كسائر مدارس الجمعيات النصرانية في الشرق غرض مؤسسيها منها جعل العلم وسيلة الى الدين، ولبعضها غرض سياسي ايضا فهي طريق من طرق الدعوة الى مذاهب مؤسسيها في دينهم. ولهم وسائل أخرى كالمستشفيات والمكتبات وحجرات القراءة يبثون فيها دعوتهم، وينشرون بها مذهبهم، الا أن المدارس الأمريكانية أحسن من غيرها تعليما وأعلى تأديبا وأشد استقلالا وأقل تعصبا على المخالفين في الدين والسياسة، اذ ليس لأمريكا مطامع سياسية في هذه البلاد ولكن قد تؤيد هذه المدارس سياسة انكلترا

إن عقلاء المسلمين يقدرون غيرة مؤسسي هذه الجمعيات الدينية حق قدرها ويعرفون مقدار المستخدمين فيها لنشر دينهم والتوسل اليه بالوسائل النافعة للناس في أجسامهم وعقولهم، ويتمنون لو يوجد في أمتهم الاسلامية اسخياء اجواد يبذلون المال لنشر الاسلام مع العلم النافع الذي هو أساس بنيانه، والعمل الصالح (كالمستشفيات) الذي هو أقوى أركانه،

وان عامة المسلمين يشعرون بشدة الحاجة الى هذه المدارس التي أسست على دعوة النصرانية لما فيها من العلم، ويعلمون بما فيها من الضرر لأولادهم في الدين، فالعلم يقتضي الإقبال عليها، والخوف على عقائد النشء الجديد يمنع من الثقة بها، والجمهور مختلفون في الترجيح بين المانع والمقتضي

فمنهم من يرجح المقتضي من غير تفكير في عواقب المانع لأن الشعور بالحاجة الى العلم قد استحوذت على فكره، حتى حال بينه و بين سلطان قلبه، ومن يرجحه لاعتقاده ان المسلم لايكون نصرانيا لأن الدين قد سار على سنة الارتقاء تبعا لاستعداد البشر فكان الاسلام منتهى ارتقائه وهو الدين المعروف تاريخه، المتواتر كتابه، المحفوظ سند سنته، ومن وصل الى الدرجة العليا في شيء لايرضى لنفسه ان يهبط الى مادونها، ولذلك يبذل دعاة النصرانية الألوف المكررة من الدنانير في دعوة المسلمين الى دينهم بالاساليب العجيبة و يقضون السنين الكثيرة في البلد من بلادهم ولاينجحون باستمالة رجل واحد و إرجاعه عن الإسلام! وان كانوا يوهمون جمعياتهم التي تمدهم بالمال فيكتبون اليها في كل عام انه قد تنصر في هذه السنة على أيدينا فلان وفلان، ويذكرون اسماء سموها بأقلامهم لم يعرف مسمياتها الزمان، ولكن الاسلام يجذب الى رحابه الفسيح في كل سنة ألوفا من الناس بغير دعوة ولا ترغيب كترغيب دعاة الانكليز والامريكان، ولا ترهيب كترهيب دعاة الروس في بلادهم!

نعم ربما يقذف الفقر في كل حقبة من الزمن برجل من المسلمين جنسية لاحقيقة فيلقيه في ملجأ من ملاجئهم أو فناء من أفنيتهم فيسهل له العوز انتحال اسم من اسمائهم، أو لقب من ألقابهم وربما أغراه المال بأن يكون داعيا من دعاتهم، كما فعل «أرميا الحزين» الذي استجاب لرقيتهم بمصر ثم فضحهم وهو يبشر لهم في الجزائر، اذ كتب مقالات في المؤيد بيّن فيها انهم يدّعون في كل بلد إسلامي نجاح دعوتهم في غيره، ويدعون في تقاريرهم التي يرسلونها الى جمعياتهم انهم ناجحون في كل بلد، والغالب فيمن يجنح لهم ان يعود الى الاسلام ولو بعد حين

وقال السيد جمال الدين الافغاني في بيان سبب إخفاق دعوة المبشرين بين مسلمي الهند: ان المسلم لايمكن ان يكون نصرانيا لأن الاسلام نصرانية وزيادة

فإنه يقرر الايمان بعيسى وبما جاء به من عند الله تعالى دون مازاده الغلو على ذلك ويزيد على ذلك الايمان بمحمد (عليهما الصلاة والسلام) وبما جاء به مصدقاً لما قبله.

وحدثني شاكر بك الذي كان رئيسا للجزاء بطرابلس الشام من بضع عشرة سنة انه كان في بلدة ليس فيها مدرسة للبنات الا لجمعية للراهبات فوضع بنتاله فيها فرأتها أمها يوما ترسم شكل الصليب على وجهها أو صدرها فوجمت وامتعضت، وشكت وبكت، وقالت لا بد من إخراجها من هذه المدرسة. قال فهونت عليها الأمر وكنت أقول لها: جانم ان ابن المسلم لا يكون نصرانيا أبدا ولم أقبل توسلها الي باخراجها وقد تعلمت حتى أتمت تعليمها عند الراهبات وهي الآن تقرأ القرآن الشريف وتصلي وتصوم ولم يضرها حرص الراهبات على تنصيرها

هذا ما يراه بعض الذين يعلمون أبناءهم وبناتهم في هذه المدارس الدينية. ومنهم من يرجح المانع على المقتضي كما هو المعتمد في المسألة عند أهل الاصول كما أشار الى ذلك الشاعر بقوله

قالوا فلان عالم فاضل ... فأكرموه مثلا يرتضي
فقلت لما لم يكن عاملا ... تعارض المانع والمقتضي

ومبلغ حجة هؤلاء ان مذاهب الفقهاء المتبعة تحظر على المسلم المتمكن في دينه ان يدخل مع النصارى وغيرهم من المخالفين لنا في أصل الدين معابدهم بهيئتهم الدينية التي يدخلون فيها وصرحوا بأنه إذا تشبه بهم في ذلك بحيث يظن انه منهم صار مرتدا وان بقي متميزا عنهم بحيث لا يشتبه بهم لا يكون مرتدا الا اذا قال أو فعل أو اعتقد ما يخالف ما هو مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة. ويقولون ان من الخطر على دين غير المتمكنين في دينهم كالأولاد الذين يوضعون في هذه المدارس ان يسمح لهم بهذه الأعمال التي يغلب ان تكون عندنا كفرا وردة وأهونها ان تكون معصية فاذا علق النوع الأول في ذهن التلميذ منا ومات قبل ان يصحح اعتقاده بمعاشرة المسلمين العارفين أو مراجعة العلماء الراسخين مات مرتدا لا نرثه ولا نعامله معاملة موتانا اذا كنا عالمين بحاله واذا مات أبوه أو أمه أوغيرهما من الاقربين في حياته لا يرث هو منهم شيئا. ويقولون أيضا ان بعض فقهائنا صرح بأن الرضى بالكفر كفر فاذا رضينا بشيء من ذلك نكون نحن مرتدين أيضا

وهذا الذي يتخوفونه على دينهم ليس ببعيد عن مدارس الكاثوليك والأرثوذكس ولا سيما مدارس الجزويت كما بلغنا من مصادر كثيرة تصل الى درجة التواتر المعنوي من انهم يلزمون أولاد المسلمين بجميع تقاليدهم الدينية حتى تعظيم الصور والتماثيل والاستغاثة بالقديسين وذلك في حكم الاسلام شرك تعتقد أنه طرأ على النصرانية بعد المسيح عليه السلام وحوارييه عليهم الرضوان بعدة قرون وان كان القرآن لا يدخلهم في لقب المشركين ولا نحن نخاطبهم به لأنهم يتبرؤن منه ويتأذون به وإيذاؤهم محرم علينا سواء كانوا ذميين أو معاهدين وقد بينا ذلك في المنار أكثر من مرة. أما ما ذكرناه في هذا المقال فبيان لما يعتقده المتساهلون وغير المتساهلين منا نرجو ان يكون سببا لحسن التفاهم بيننا وبين العقلاء المعتدلين منهم كعمدة المدرسة الكلية الامريكانية في بيروت

قد قلنا في أول المقال ان مدارس الامريكان أقل تعصبا على المخالفين وقد جرى بيني وبين أحد أساتذة المدرسة الكلية الامريكانية ببيروت حديث في الخلاف الذي جرى بين تلاميذ المسلمين وعمدة المدرسة على دخول الكنيسة لسماع الوعظ الديني اذ امتنع التلاميذ من الدخول بعد ما صارت الحكومة العثمانية دستورية حرة وأصرت المدرسة على إلزامهم أحد الأمرين إما الاستمرار على دخول الكنيسة كما كان الأمر على عهد الحكومة الاستبدادية وإما الخروج من المدرسة وترك التعلم فيها، فاجتمعوا وتقاسموا لنثبتن على رأينا: لا ندخل ولا نخرج. حتى رفع الامر الى الاستانة وبعد مراجعة حكومتنا هناك لسفير الولايات المتحدة تقرر بينهما ما بلغته نظارة الداخلية لوالي بيروت وهو انه لا يلزم المسلمون دخول الكنيسة بل يجب ان يبنى لهم مسجد يصلون فيه. وان السفير بلغ معتمد (قنصل) حكومته في بيروت ذلك ليبلغه المدرسة الكلية. وقد كان الحديث بيني وبين ذلك الاستاذ قبل ورود هذا البلاغ من الاستانة وحضره جماعة من فضلاء النصارى

قال الاستاذ ما معناه: ان المدرسة الكلية لا تعلم التلاميذ التقاليد والاعمال الدينية التي يقررها بعض مذاهب النصرانية ولا تطعن في أديانهم ولا مذاهبهم التي تخالف مذاهب مؤسسيها وانما تلقي عليهم مواعظ عامة تتفق مع كل دين وان كانت من الكتاب المقدس لأجل ان تغرس في نفوسهم تقوى الله وحب الفضيلة

وتبعدهم عن الالحاد والتعطيل فان المؤسسين لها من أهل الدين والمحافظة عليه أهم مقاصدهم . وان المكان الذي تلقى فيه المواعظ الدينية ليس كنيسة مؤسسة لاجل العبادة بل هو مكان تلقى فيه الخطب العلمية والادبية وغيرها ويعزف الحسان فيه بآلات الموسيقى . (قال) فهل يحرم الدين الاسلامي على المسلمين دخول هذا المكان ويوجب عليهم مخالفة نظام المدرسة ؟

قلت ان المسلمين فريقان منهم من يأخذ بالدليل ومنهم من يتبع فقهاء مذهبه والمشهور عن فقهاء المذاهب التي عليها هؤلاء التلاميذ ان الدخول الى معابد المخالفين لنا في الدين ومشاركتهم فيما هو خاص بهم من أمور الدين فيها وكذا في خارجها إما محرَّم وإما كفر في تفصيل لهم في ذلك فلعل تلاميذكم يعتقدون ان دخول المكان الذي ذكرته من هذا القبيل وحينئذ يجب احترام اعتقادهم وان كان لا يقوم دليل في الاسلام على تحريم دخول مكان مثل الذي ذكرت ليس معبدا دينيا ولا يلقى فيه شيء مخالف للاسلام

(ثم قلت) ان احترام النظام في المدارس والبيوت وكل مكان ركن عظيم من اركان التربية ومن لم يتربَّ على احترام النظام والتزامه لا يكون رجلا عظيما نافعا لأمته ووطنه . ولكن احترام الاعتقاد والضمير أقدس وأعلى من احترام النظام فان من لا يحترم اعتقاد نفسه يكون منافقا لا يوثق به في شيء من الاشياء . وان اكراه التلميذ على ذلك أشد إفساداً لاخلاقه من كل ما يخطر في البال انه يفسد الاخلاق اذ لا يرجى ممن لا يحترم اعتقاده ان يحترم أسرته ولا امته فضلا عن احترامه لمن لا يتصل به في وشيجة رحم ولا مصلحة وطن

(قلت) انني اذا رأيت إنسانا يعتقد بأن هذه البلاطة من الرخام (واشرت الى بلاطة في الارض) تنفع وتضر ورأيته يعبدها ويحترمها فانني لا أجيز لنفسي أن أكرهه على دوسها والوطء عليها ولا أن آمره بذلك الا بعد أن أقنعه ببطلان اعتقاده فيها . وقد وقع لي واقعة في ذلك : وهي ان رجلا أخبرني بأن خصما لي في محاكمة شرعية حمله كتابا الى آخر وسألني ماذا يفعل فيه وأنا اعلم انه يطيعني في كل ما آمره به وان في الكتاب حجة لي على خصمي تصلح فصلا للنزاع وتوفر عليَّ وقتا طويلا ونفقة كثيرة ولو شئت لأخذت الكتاب فان حامله لا يخالف أمري ومع هذا لم استحل أن آمره بالخيانة

ولما حدثت مشكلة القضاء الشرعي بمصر من زهاء عشر سنين وعزم الانكليز على إلزام الخديو بعزل القاضي المولى من السلطان وتولية قاضٍ مصري مكانه كره الخديو ذلك ولكنه لم يهتد الى المخرج منه فطلب ان يجيء الاستاذ الامام من القاهرة الى الاسكندرية (وكان الخديو في مصطافه فيها) فجاء (رحمه الله) ليلا وقابل الامير في الصباح فقال له انني طلبتك بلسان البرق لاستشيرك في مشكلة القاضي وبعد خروجك من هنا سيدخل لورد كرومر لأجل ان يكلمني في وجوب عزل جمال الدين افندي وتولية احد علماء مصر منصب قضاء مصر الشرعي وسيجتمع بعدها به مجلس النظار هنا لتقرير ذلك فبماذا أدفع اللورد بحسب رأيك ؟ فقال الاستاذ إن الانكليز من أشد خلق الله احتراما لحرية الضمير والاعتقاد حتى انهم ربما ذكروا ذلك في قوانينهم فانهم لما وضعوا قانون التلقيح للوقاية من الجدري كان من مواده انه يجبر عليه كل أحد الا من يقول إن ضميره لا يجيز ذلك . فاذا كنتم تعتقدون ان تولية القاضي من حقوق السلطان وانه لا يجوز لكم ان تعينوا القاضي من قبلكم فيكفي في إقناع اللورد بالرجوع عن طلبه ان يقول له افندينا ان ضميري لا يسمح لي بذلك لأنني اعتقد ان هذا حق السلطان وحده . فمتى سمع هذا الجواب يذعن له ولا يمكن لمثل لورد كرومر في تربيته الانكليزية العالية ان يقول لكم خالفوا ضميركم وقد كان الامر كما قال الاستاذ وبذلك انحلت المشكلة بعد ان كان عزل قاضي السلطان قد صار في الأمر المقضي الذي لا مراجعة فيه حتى ان جمال الدين افندي باع داره وتهيأ للسفر من مصر الى الاستانة

هذا ما أجبت به احد اساتذة المدرسة الكلية وقد استحسنه من سمعه واعترفوا بأن من افساد الاخلاق ان يؤمر الانسان بفعل ما يعتقد انه قبيح او محرم عليه ، ثم جاءني بعض تلاميذ الكلية من المسلمين وسألوني عن رأيي في مسألتهم وسألتهم عن سببها وعلتها فاستفدت من المراجعة ما يأتي

(١) ان التلاميذ يُلزمون الدخول كل يوم الكنيسة (Chapel) والمكث ربع او ثلث ساعة لسماع نبذة من العهد الجديد او العهد العتيق تختم بالدعاء الذي يعبرون عنه بالصلاة ، وكل يوم احد ثلاث مرات يمكثون كل مرة زهاء ساعة ونصف

(٢) انه يوجد في المدرسة جمعية ارمنية لتلاميذ الأرمن وجمعية يونانية

لليونانيين وجمعية للمصريين من المسلمين والنصارى وجمعية مسيحية تسمى جمعية الشبان المسيحيين وجمعية لليهود

(٣) طلب التلاميذ المسلمون إنشاء جمعية إسلامية تبحث في ترقي المسلمين مع عدم الخوض في السياسة فرفض طلبهم

(٤) طلبوا ان يجتمعوا ليلة المولد النبوي للبحث في سبب الاحتفال في مثل ذلك اليوم وما يحسن فيه فمنعوا . فهذا هو السبب لتألب المسلمين . وذكر لي عبارات شاذة في الطعن في الاسلام تصريحا او تلويحا سقطت من بعض رجال المدرسة الأمريكانيين هاجت النفوس وأعدتها للحركة التي ظهرت بعد ذلك عند ما جاء وقتها ولا نذكرها في هذا المقال لانها ليست من نظام المدرسة ولا من اعمالها المطردة

بعد هذا كله نقول ان مؤسسي المدرسة بأموالهم ومديري شؤونها والمعلمين فيها كلهم من أهل الفضل والخير والعلم بطبائع الأمم واخلاق البشر وأحوال الاجتماع فهم يعلمون ان الظلم (ومنه منع المسلمين من الاجتماع كاليهود بَلْهَ النصارى) ينتج في المستقبل ضد مايراد منه في الحال، وان الأمم لا ترهق في زمن الدستور والحرية، بما كانت ترهقه في زمن الاستبداد والعبودية، فكان عليهم ان يتذكروا هذا فيلينوا ويتسامحوا مع التلاميذ المسلمين عند امتناعهم عن دخول الكنيسة ثم يستميلوهم إلى احترام المدرسة بالعدل والمساواة بينهم وبين غيرهم من الملل والشعوب في تأليف الجمعيات بأن يأذنوا لهم بتأليف جمعية إسلامية فان الرئيس الذي لايعدل لايطاع بالاحترام، وكيف يطالب بالنظام من يتعصب ويحابي في النظام !، ثم يجعلون تلك المواعظ خالية مما يخالف الاسلام ويعارضه ويقنعون أولئك التلاميذ بأن حضورها بهذه الصفة لا يحظره الاسلام فيكون نفاقا — وما أسهل ذلك عليهم اذا جاؤه من بابه

ان جميع من في المدرسة الكلية من الرؤساء والمعلمين يعلمون أن مايلقى فيها من المواعظ عادة لايرد المسلم عن الاسلام الى النصرانية ولكنه لايخلو من نوع من الألفة والمودة وتقريب الطوائف بعضها من بعض، وهذا المقصد العالي الذي يسعى اليه الحكماء الذين يخدمون الانسانية خدمة خالصة من شوائب السياسة والهوى . فاذا كان رؤساء المدرسة يرمون الى هذا الغرض فعليهم ان يتذكروا ان الرمي اليه

عن قوس العزة والإدلال، والإكراه والإذلال، هو الذي يطيش سهمه، ويفضي الى ضد ما يراد منه وأن الحب لايكون بالغصب، وإنما التحبب داعية الحب،

بلغني أنهم يقولون ان المدرسة مسيحية انشئت بمال المسيحيين لأجل بث الدين المسيحي فمن لم يرض بدخول الكنيسة وتلقي التعليم المسيحي فيها فلا يدخلن مدرستنا!
وهذا القول على مخالفته لفحوى ماسمعته من أحد معلمي المدرسة يمكن ان يقوله بعض رؤساء المدرسة احتجاجا وانتصارا لأنفسهم وما أظن ان جميع أولي الشأن في المدرسة يرضون بأن يكون فصل الخطاب في المسألة حرمان المسلمين من المدرسة أو إخضاعهم لما سبق بيانه من المعاملة التي تنفر القلوب وتورث العداوة والبغضاء والتعصب الذميم

وصفوة الكلام في هذا المقام أنه يتعذر على المدرسة الآن الزام من فيها من المسلمين ما ذكروا بعد ما اجتمعوا وتقاسموا واتفقت حكومة الاستانة مع سفارة الولايات المتحدة على عدم جواز ذلك . وان أمامها في السنة الآتية أحد أمرين : إما التساهل والتسامح في قبول التلاميذ المسلمين لتأليف النفوس وجذب القلوب بعضها الى بعض والاكتفاء من الخدمة الدينية بهذا المقدار مع ترقية العقول بالعلم والنفوس بالتربية الادبية الاجتماعية ، وإما عدم قبول المسلمين في مدرستهم وهم أحرار مختارون في ذلك

فان اختاروا الأمر الأول حمدهم المسلمون وحمدتهم الإنسانية وكانوا أقرب الى مقصد الدين الحقيقي الذي لاخلاف فيه بين المسيحية والاسلامية وهي خير البشر وتآلفهم ، وان اختاروا الامر الثاني فانهم يعلمون المسلمين درسا جديدا قد يضرهم ويضر من يعيش معهم من جهة تباعد القلوب وقوة التعصب الذي يشكو منه محبو التأليف والتوفيق ولكنه ينفعهم من جهة أخرى بما ينهض من هممهم ويرفع من نفوسهم ويدفعها الى الاعتماد على ذاتها ومباراتهم في تأليف الجمعيات الدينية لإنشاء أمثال هذه المدارس لأنفسهم

سيقولون ان المسلمين لايستطيعون الآن إنشاء مدارس كالمدرسة الكلية بل

كثيرا ماقالوا ·ولكن هذا القول لاحجة له الا مايعهدون من بخل اغنياء المسلمين بالمال في سبيل العلم والدين · وهذاعرض لايدوم فها نحن أولاء نرى اخواننا المصريين قد بدأوا يبذلون الالوف من الدنانير لإنشاء المدارس وقدسبقهم الى ذلك مسلمو الهند ومسلمو روسيا · وقد دبت الحياة في المملكة العثمانية فيرجى ان تسبق غيرها في هذا المضمار لمكانتها العالية من سائر بلاد المسلمين

ان مسلمي العثمانين لا بد ان ينشطوا في هـذا العصر من عقالهم ويعلموا ان التعليم الاجنبي المحض مهما عظم نفعه لا يؤمن ضرره ، فانه ان خلا من الطعن في الاسلام أو تفضيل غيره عليه فانه لا يخلو من اضعاف للعاطفة الملية ، وحل للرابطة القومية ، فانه يحوّل مجاري الفكر في العلوم ومهابّ أهواء النفوس في الاخلاق والآداب الى جهـة المعلمين والمربين من الاجانب فيجعل عقول نابتتنا وقلوبهـا ملكاً لهم أو وقفا عليهم أو مجذوبة اليهم أو مفضلة لمقومات أمتهم على غيرها و بذلك ينقص من مقومات أمتنا ومن احترامها في نفوس نابتتنا بمقدار ما يزيد في نفوسها من عظمتهم فلا نطمع في مجاراتهم ومباراتهم ، فضلا عن مسابقتهم ومقاومتهم ، بل نكون دائما عيالا عليهم · ناهيك بما في العلوم من الشبهات على الدين التي يسهل دفعها عن الاسلام لو كان المعلمون عارفين بحقيقته ، واردين عين شريعته

فهذه العلوم التي تؤخذ من هذه المدارس لا تكون حياة حقيقية لأمتنا الا بعد ان يصير زمام التعليم والتربية في أيدينا · فيجب على تلاميذنا في المدرسة الكلية الامريكانية في بيروت وعلى امثالهم في غيرها ان يعدوا انفسهم ليكونوا عونا لنا على ذلك باتقان اساليب التعليم ونقل العلوم الى لغتنا ، وسيرون من الامة نهضة مباركة في إمدادهم بالمال ، وان لايكرهوا ما يرون من هضم حقوقهم وعـدم مساواتهم برفاقهم من ابناء الملل الاخرى فان هذه المعاملة هي التي تحرك غيرتهم وتجمع كلمتهم فليتقبلوها بسعة الصدر ، واطالة الفكر ، وحسن المعاملة ، وكثرة المجاملة ، وطاعة النظام ، ولين الكلام ، والتواصي بالحق والصبر ، حتى تكون حجتهم هي الناهضة وعاقبتهم هي الحسنى « وعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ·

الاصلاح الاهم المقدم

﴿ في المملكة العثمانية ﴾

كثر حديث الناس في الحكومة العثمانية الجديدة وما ينتظر منها من الاصلاح بعد ان قضى أحرار الامة وجيشها على الحكم الشخصي الاستبدادي ، وأدالوا منه حكم الشورى الدستوري ، وكثرت اقوال الجرائد في ذلك ، ولكننا نرى اكثر الحديث في الأمور الكمالية التي لا يكون إصلاحها الا في السنين الطوال كالمالية والمعارف والحربية والبحرية والعدلية (الحقانية) والزراعة ، وقلما نرى أحدا يذكر أهم المهمات الذي يجب تقديمه على كل شيء بلا استثناء ، ألا وهو تنظيم الشرطة (الضابطة والبوليس) لأجل حفظ الأمن العام وتنفيذ الشرع والقوانين بالعدل والمساواة

أعلن الدستور وأعيد القانون الاساسي فصاح الصائحون بالناس في كل بلد أن احتفلوا به فاحتفلوا ، وقيل لهم اخطبوا واهتفوا فخطبوا وهتفوا ، وقام الاحرار والمستعدون للحرية في وجوه أعوان الاستبداد والعبودية ، فانزلوا اناسا عن مراتبهم ، وعزلوا افرادا من مناصبهم ، وانذروا آخرين بلاء يحلّ بهم ، و بشروا العامة بالخير القريب ، والعز العتيد ، والنعيم المقيم ، فذهبت النفوس في فهم ذلك مذاهب ، ووردت منه مشارب ، حتى فسره بعضهم بإباحة الحقوق وإلغاء الاتاوات والضرائب ! ، وقد انقسم الناس في فهم الدستور الى اقسام ليس من غرضنا بيانها في هذه المقالة وإنما نقول إنه يوجد في البلاد العثمانية كثير من المستخدمين في الحكومة والذين عزلوا بعد الدستور او استقالوا ومن اصحاب النفوذ والجاه — يمقتون الحكومة الحاضرة ويحنون الى الاستبداد السابق لاعتقادهم انه ينمي مالهم ويوسع دائرة جاههم لانهم يتبعون هوى رؤسائه مهما كان فيه من خراب ذمتهم ودينهم وخراب بيوت معظم الأمة والقضاء العاجل على الدولة · فهؤلاء يوسوسون للعامة : ماذا استفدنا من الدستور والحرية ؟ كان يستبد بنا في البلد رجل واحد فصار يستبد بنا جميع الاشقياء ·ومثل

هذا الكلام يروج عند العامة التي تنتظر الراحة والسعادة من الحكومة الجديدة اذا لم تكذبه هذه الحكومة بالعمل في اقرب وقت

ماذا يجب على الحكومة قبل كل شيء ؟ الجواب عن هذا السؤال بديهي وهو ان الواجب قبل كل شيء حفظ الأمن العام والحرية الشخصية ولا يتم هذا على وجهه الا بتنظيم الشرطة (الضابطة) ولذلك نرى الولاة والمتصرفين يتململون من كثرة الاعتداء بالضرب والقتل فاذا طولبوا بتربية المجرمين يقولون اننا ننتظر التعليمات الجديدة في إصلاح الشرطة من الاستانة في أول السنة المالية القادمة

هكذا قالوا لنا عندما تكلمنا معهم ورأيناهم يعلمون كما نعلم ان من في البلاد من الشحنة والشرطة قد افسد اكثرهم حكم الاستبداد الماضي فصاروا اعوانا للاشقياء والمجرمين ، وقد اقترحنا عليهم ان يستبدلوا شرطة لواء بشرطة لواء آخر فاعتذروا عن ذلك بقلة الرواتب وقالوا ان من ينقل من بلد الى بلد يحتاج الى نفقات جديدة لا يفي بها راتبه وستزاد الرواتب في اول العام القابل فيتيسر نقل هؤلاء الى بلاد لا صلة لهم بأشقيائها ويكونون تحت مراقبة شديدة

هذا ما ينتظره والي الشام وجميع ولاة المملكة لأجل حفظ الأمن وحماية الحرية الشخصية ويحسبهم الجمهور غير مبالين بما يقع حينا بعد آخر من الجنايات والمظاهرات التي تنبئ بأحتقار العامة للحكومة

لولا أن الاجل المضروب للبدء بالاصلاح المطلوب قريب لخشينا ان يفضي إهمال الحكومة للعامة الى الفوضى وان كان أكثر أهالي بلادنا لا يزالون على حظ عظيم من حب السلامة وحسن الاخلاق على ما أفسد الاستبداد من أخلاقهم ، فقد رأينا مثال ذلك في مصر فان الجنايات واهلاك الحرث والنسل في القطر المصري أشد وأكثر مما هو في القطر السوري على كون الحكومة المصرية أرقى من الحكومة العثمانية . والسبب في ذلك ما أعطته الحرية للعامة من احتقار الحكومة والأمن من سطوتها الا ان تثبت تهمة على متهم في المحاكم مع جهل أكثر الاهالي وإفساد الاستبداد السابق لاخلاقهم ولا تزال الحكومة المصرية في حيرة من أمر

الأمن العام على كثرة بحثها وبحث أصحاب الجرائد وغيرهم من الكتاب وأهل الاختبار في وسائل ذلك منذ سنين

لو أخذ ولاتنا بالحزم في أوائل العهد باعلان الدستور وساعدتهم جمعية الاتحاد والترقي التي أخذت بيدها صولجان السلطة عدة أشهر لدى حكومة الاستانة بأمرها فقبضوا على كل من يرتكب جناية وعجلوا بمجازاته حتى بالقتل ان قتل لأراحوا أنفسهم وأراحوا الأمة في الحال مما تشكو منه والحكومة في المستقبل مما سوف تشكو منه إذا كانت تريد ان تبقى على سياسة الرقة واللطف (النزاكة) التي اتبعتها منذ أعلن الدستور إلى اليوم وتقيد الحكام بظواهر ألفاظ القوانين

رأى زعماء سياسة الرقة واللطف اننا قد أخذنا الدستور نظيفا غير ملوث بالدم فيجب ان نتقي سفك الدم في دور الانقلاب ونداري المفسدين والمجرمين الى ان يستقر الدستور في نصابه وهو على نظافته . ولكن هذا الرأي إنما يصح في بلاد يخشى فيها من الفتن والثورات الداخلية إذا فوجئ أهلها بما يكرهون كبلاد الحجاز لا في بر الشام الذي ليس فيه استعداد للثورة ولا خطر في بال أحد من أشقيائه انه يمكنه ان يقف في وجه الحكومة بنفسه أو بعصبته اذا هي حاولت ان تسلط العدل على الأخذ بناصيته ! !

ألا إن أكثر زعماء سياستنا ليجهلون حال الأمة في جميع الولايات ويولون عليها من الولاة والمتصرفين من لا وقوف لهم على حقيقة حالها حتى انني أحسب ان ناظم باشا لا يزال غير محيط علما بحال ولايتي بيروت وسورية على ذكائه واختباره لها في سني الاستبداد وشهور الدستور فما ظن القارئ بأدهم بك والي بيروت الجديد الذي كان عائشا في أوربا فانتقل منها بعد الدستور الى الاستانة فبيروت ! ؟ ثم بمثل متصرف طرابلس جاويد بك ؟ . ولقد يعز على هذا المتصرف وذاك الوالي ان يعرفا حال البلاد وأهلها في زمن قريب لعلتين فيهما : عدم التكلم بالعربية ، والعزلة ، فإنهما يكادان لا يكلمان أحدا في غير أمور الحكومة الرسمية في دار الحكومة ! ومن كان هذا شأنه كيف يقف على حقيقة حال البلاد ، ومن لا يقف على حقيقة حالها كيف يسوسها على وجه الحكمة والسداد ! ! ؟

يظن امثال هؤلاء أنه لا يطلب من الوالي او المتصرف الدستوري الا ان يكون عفيفا مستقيما مراعيا في سيرته للقوانين وفاتهما ان معرفة حال الناس الذين وضع القانون لاجل إصلاح شأنهم مقدمة على معرفة القانون والحرص على تنفيذه لان العدل في التنفيذ لا يكون الا بتطبيق المواد على الوقائع وهذا التطبيق يتوقف على معرفة حال المتلبسين بالوقائع التي تطبق عليها تلك المواد . وان وراء ذلك من الاجتهاد في حسن الادارة مالا تغني عنه القوانين وان نفذت بالعدل

يتوهم بعض الولاة والمتصرفين أن للاشقياء الذين اشتدت جرأتهم في عهد الدستور عصائب تشد أزرهم وان الحكومة لا تقدر على تربيتهم الا بعد تنظيم الشرطة وانها اذا حاولت الآن ان تقبض على المشهورين منهم أو تلزم الشراذم الذين يفتاتون عليها حدهم وتحفظ هيبتها في نفوسهم يثورون عليها ويقاومونها بقوة السلاح اوان تركهم على ما هم عليه هو الواجب الآن عملا بقاعدة ارتكاب اخف الضررين وهذا وهم باطل بالنسبة الى ولايتي بيروت وسوريه فان هذه البلاد وان ساءت حالها وكثر اختلالها في أواخر عهد الاستبداد فهي لم تصل في الشر والهمجية الى هذا الحد الذي قد يتوهمه بعض حكامها

هذا التوهم هو الذي كف أيدي الحكومة الجديدة عن تربية المجرمين فامتدت ايديهم الى مالم تكن تمتد اليه في عهد الاستبداد حتى صار العقلاء يخشون ان يفضي احتقار الاشقياء للحكومة الى الفوضى ، وهم لا يعذرون الولاة على إهمالهم ولا يعرفون سبب هذا الاهمال اذ لو عرفوه لاجتهدوا في إقناعهم بأن البلاد ليس فيها عصائب ذات قوة ولا جمعيات سرية وان الوالي اذا شاء ان يقبض على مجرم وينفذ القانون على أي معتد فعل الا ان يفر الشقي الذي تأمر الحكومة بالقبض عليه قبل ان تصل يدها اليه ، وأنه لا يوجد في مدن سورية كلها شقي تحدثه نفسه بأن يعصي على الحكومة جهرا ، او يغري الاهالي بعصيانها سرا ، على ان إفهام هذا لوالي بيروت لأجل حمله على القيام بعمل لحفظ الأمن قد يعد من العبث فانه لا يتوجه إلى عمل ما في ذلك إلا بعد ورود ما ينتظر من تنظيم الشرطة والشحنة في أول السنة المالية القادمة وما هي ببعيد

يجب ان يعدّ الولاة ومن دونهم من رجال الادارة لهذا الاصلاح عدته فانه هو الاصلاح الذي يتوقف عليه كل إصلاح . يجب ان يستخرجوا من المحاكم اسماء المحكوم عليهم بالاعدام وما دونه من العقوبات وينفذوا ذلك كله بمنتهى الجد والحزم ثم يمنعوا الافتئات على الحكومة بالمظاهرات التي لا يبيحها القانون أو يطلب بها ما لا يبيحه القانون ومن أصرّ على غيّه يؤخذ منه باليمين

ويجب على الآستانة ان لا تقيد الولاة بقيود كثيرة وان لا تجعلهم عيالا على نظارة الداخلية فى كل شيء ولا في اكثر الاشياء بل فيما لا بد منه ولا غنى عنه من الأمور الإجمالية . يجب ان يباح لرؤساء الحكام من الولاة وغيرهم الاجتهاد في فهم القوانين وتنفيذها بالمشاورة كل فيما يختص به مع تشديد التبعة (المسئولية) عليهم وجعلهم تحت مراقبة المجالس العمومية التي يجب توسيع اختصاصها وكذا اختصاص مجالس الادارة . واذا أعيد التفتيش على الولايات يكون للأمة اربعة انواع من الضمان الذي يحول دون استبداد الولاة ومن دونهم من رؤساء الادارة : مجالس الادارة في كل لواء ومركز وناحية ، والمجلس العمومي في الولاية ، والتفتيش ، وشدة التبعة يضاف اليها من قبل الأمة نفسها انتقاد الجرائد وما وراءه من إثارة سخط الرأي العام .

وكذا يقال في المحاكم مع ما يجب من استقلال القضاء وجعل المحاكم الشرعية المؤلفة من عدة أعضاء يحكم فيها بالاتفاق او اكثر الآراء وايجاد محاكم استئنافية شرعية في كل ولاية

هذا ما عنّ لنا ان نكتبه الآن ، ويغلب على ظننا ان حكومتنا تحتاج في تنظيم الشرطة والشحنة الى الاستعانة بالاجانب كما تحتاج الى ذلك في كثير من الأعمال فان الرجال القادرين على الاصلاح عندنا قليلون كما سيظهر بالعمل وندعو الله ان يوفق مجلس الأمة الى خير الاصلاح المنتظر

تنبيهُ الجرائد السورية

الى الاعتبار بتاريخ الجرائد المصرية (*)

اذا كانت تربية الاطفال فنا من ادق الفنون وهو لما يبلغ درجة الكمال على عناية العلماء والفلاسفة به فماذا تقول في تربية الامم ؟

يوجد الوف كثيرة من المربيات والمربين في كل امة من الامم المتمدنة ولكن الذين يربون الامم قليلون في كل امة وكل زمان

ان للأمم اطوارا كما ان للأفراد اطوارا، ولا يحتاج المربي للافراد في طور من اطوارهم الى العلم الواسع والخبرة الدقيقة والعناية العظيمة كطور الانتقال من المراهقة الى البلوغ او من التقليد والالزام الى الرشد والاستقلال، وان المربي للامم يكون عند انتقالها من حكم الاستبداد والعبودية الى حكم الشورى والحرية احوج من مربي الافراد الى العلم والخبرة والبصيرة والحكمة

ان خطباء الامم والقائمين على تربيتها بالارشاد والتعليم وانتقاد الحاكمين والعاملين هم اصحاب الجرائد ، وقد كانت الجرائد العثمانية في مأزق لا تستطيع فيه حراكا ، فخرجت الى مجال فسيح وميدان واسع، ولكن الجولان في هذا المجال والجري في هذا الميدان لا ينبغي الا للفرسان المهرة، فان الارض على رحبها غير ممهدة ، والطرق على سعتها غير معبّدة، فامام من يريد الجولان عواثير يخشى عليه من التردي فيها، وعقبات يصعب اقتحامها ، واعلام مشتبهة لا يؤمن الضلال بينها

فنون الكلام في الجرائد كثيرة، والانتقاد ادقها مسلكا واصعبها مركبا واشدها على النفوس وقعا واكثرها ضرا ونفعا، فمن وظائف الجرائد نقد الحكام والاحكام، ونقد العمال والاعمال، ونقد العلماء وكتب العلوم، فلا شيء الا وهو معرض لنقدهم، فان احسن كتّابها النقد كانوا خير العون على الاصلاح ، وان اساؤا كانوا من عوامل الفساد

(*) نشرناها اولا في جريدة «ابابيل» البيروتية ونقلتها عنها جريدة الاتحاد العثماني

والافساد ، لا سيما في مثل الطور الذي دخلت فيه الامة العثمانية الآن

لا يعرف أحد كنه تأثير الجرائد في مثل هذا الطور كما يعرفه أهل البصيرة الذين خبروا بأنفسهم أمة كان الاستبداد يسومها سوء العذاب، فانتقلت الى الحرية فجأة ووجد فيها جرائد كثيرة مرخية العنان مطلقة من القيود ورأوا باعينهم ما كان لها من التأثير في تلك الامة . وان هذا الوصف ليصدق على بعض العثمانيين الذين اقاموا في القطر المصري زمنا طويلا موجهين عنايتهم الى اكتناه احواله الاجتماعية فاذا اشتغل هؤلاء بالصحافة العثمانية رجونا ان يفيدوا الامة جميعا

لقد نفعت الجرائد في مصر كثيرا واضرت كثيرا ، واذكر على سبيل العبرة للجرائد السورية مثالا من نفعها ومثالا من ضررها :

ان للجرائد المصرية احسن الاثر في النهضة العلمية في القطر المصري حيث صار الموسرون يتبارون في دفع الوف من الجنيهات لانشاء المدارس ، ويقفون عليها وعلى الجمعيات التي تقوم بادارتها الاراضي الواسعة ذات الريع العظيم، وقد كان اشتراك الجمعية الخيرية الاسلامية لا يخرج من كيس الغني الكبير منهم الا نكدا بعد مطالبات كثيرة ، وما ذلك الاشتراك الا جنيهان أو اربعة جنيهات في العام !

لم يكن الحث على انشاء المدارس والدعوة الى التربية والتعليم غرضا خاصا لجريدة من تلك الجرائد، ومذهبا ملتزما تدعو اليه وتجعله مدارا لنهضة الامة وسعادتها الا مجلة المنار التي صرح في فاتحة العدد الاول منها بهذه الكلمة « وغرضها الاول الحث على تربية البنات والبنين، ثم كنا نستطرد من كل موضوع يكتب فيها الى الحث على التربية والتعليم. ولا أريد بهذا الاستثناء ان انيط بالمنار ما ذكرت من النهضة العلمية فادعي انه هو روحها الذي به حياتها ونماؤها ، بل لا أنكر ان الجرائد اليومية أعم تأثيرا منه في ذلك ، ناهيك بنشرها لاسماء المتبرعين بما قل أو كثر مع الحمد والثناء. ولو انها جعلت الدعوة الى ذلك مذهبا متبعا ومشربا مورودا لكان النفع اعظم ، ولكن شغلتها السياسة عن ذلك وهو أنفع لهم في سياستهم

فهل للجرائد العثمانية ان تعتبر بهذا فتجعل الدعوة الى التربية والتعليم ديدنها،

والحث على التبرع لذلك وتأسيس الجمعيات لاجله مذهبها الذي توجه الى نشره جل عنايتها ؟ فاذا كان للجرائد المصرية بعض العذر في جعل جل همها في السياسة فان جرائد سورية لانصيب لها من هذا العذر، لأنه ليس في بلادها سلطتان متعارضتان احداهما اجنبية بيدها الحل والعقد بالفعل، والاخرى رسمية لها الاسم ومالا يعارض سياسة الاولى من الفعل . على اننا قد نبهنا اصحاب الجرائد السورية الى تقصير الجرائد المصرية في الدعوة الى التربية والتعليم على الوجه الذي هو ارجى لتكوين الامة وجعلها أمة عزيزة مستقلة في نفسها استقلالا يفضي الى استقلالها في احكامها وسياستها

هذا: وأما المثال لضرر الجرائد المصرية فهو طريق انتقادها ولاسيما للحكومة، فقد سلك اكثرها فيه مسلكاً أسقط هيبة الحكومة من النفوس بعد ما كان لها من هياكل العظمة في كل خيال، وشعور الخشية والبأس في كل قلب، فوثبت الجرائد بالشعب المصري من طرف الى طرف، من غير ان تمر به على الوسط أو ما يقرب من الوسط.

ذلك المسلك هو اتهام الحكومة بمشايعة الانكليز على ما يريدون من السوء بالبلاد، فكان أولئك الكتاب ينحون بقدحهم وطعنهم على الوزارة «مجلس النظار» في الجملة وعلى رئيسها وافرادها وعلى المديرين وغيرهم من رؤساء الاعمال في التفصيل، فذلك الانتقاد أو الطعن كان الغرض منه تأييد سياستهم في مقاومة الاحتلال والتشفي من الانكليز وبيان ان الامر كله في أيديهم وتبعته عليهم، وان النظار وسائر الموظفين المصريين آلات صماء، تحركها هذه الايدي كما تشاء، ولكن فيما يضر البلاد ولا ينفعها وفيما يسلب السلطة الشرعية من أميرها، وهو الذي يريد لها الخير لولا انه عاجز عنه . وكان يقوم في وجه هذه الجرائد الكثيرة جريدة أو جريدتان أو ثلاث تندد بالامير و بطانته، وتلمز ذلك المقام بما يخفض من قدره — فبذلك كله زالت هيبة الامير وحكومته الرسمية من النفوس، فتجرأ الاشقياء على السلب والنهب، واهلاك الحرث والنسل، وكثرت الجنايات في الارياف حتى ان الحكومة لاتزال في حيرة من حفظ الامن الى هذا اليوم

نعم انه قد استقر في أذهان جميع المصريين ان الامر كله للانكليز، وأنهم

يستطيعون ان يفعلوا ما أرادوا من حيث لا تستطيع الحكومة المصرية من دونهم شيئا، ولكنهم علموا مع هذا أن الانكليز لا يحفلون بالمسائل الجزئية التي تتعلق بافراد الاهالي وانما يكلون الامر فيها إلى الحكومة المصرية تنظر فيها بحسب القوانين، فلا يستطيع المأمور ولا المدير ولا رئيس النيابة (المدعي العمومي) ولا القاضي ان يعاقب جانياً الا اذا ثبتت جنايته في المحكمة، وقلما يقدم الجناة على عملهم الاوهم آمنون من ثبوته عليهم!

فاختلال الامن في القطر المصري نشأ من سقوط هيبة الحكومة من نفوس العامة، والتطرف في الحرية والانتقال من حكومة استبدادية عرفية، الى حكومة قانونية حرفية، اي يجري فيها الحكام على ظواهر الفاظ القانون من غير تطبيق على المصلحة العامة التي وضع لاجلها القانون . وما كان لاكثر الجرائد من عمل في ذلك الا ما ذكرنا، فما كان من خطأ يقع كانوا يحملونه على سوء النية من الحكومة، وما كان من صواب يسكتون عنه او يحملونه على غير محمله، حتى كانوا ربما يطعنون في أنفع الاعمال كانشاء الخزان في اسوان — فلهذا ولغيره من الخطأ الذي لا يتسع هذا المقال لشرحه كان الاستاذ الامام يقول «جرائدنا احدى بلايانا»

فيجب ان تعتبر الجرائد السورية بخطأ الجرائد المصرية التي سبقتها في الاستقلال والحرية كما تعتبر بصوابها، فكما يجب عليها ان تتخذ لها مذاهب في الاصلاح الاجتماعي لا تشغلها عنه السياسة يجب عليها أن تتخذ لها اسلوباً حكيما في انتقاد الحكومة يرجى نفعه ولا يخشى ضرره، ويجمع بين حفظ هيبتها في نفوس العامة من حيث هي امينة على مصالحها ومنفذة لشريعتها وقوانينها التي اقرها نوابها ووكلاؤها، وبين تكريم الامة واعلاء شأنها وغرس مبادىء الحكم الذاتي في نفوسها .

كيف تنتقد الحكومة

تنتقد اعمال الحكومة لغرضين شريفين: أحدهما وهو الاصل صيانة الحقوق وحمل الحكام على العدل واداء الأمانة بالتزام الشريعة وتطبيق القانون على المصلحة العامة . وثانيهما عرضي تمس اليه حاجة الامة أو ضرورتها في مثل الطور الذي نحن فيه الآن في بلاد الدولة عامة والقطر المصري خاصة، وهو بث مبادى الحكم الذاتي في نفوس الامة (أي حكم نفسها بنفسها)

اما الأول فطريقه ان يبحث الكتاب عن الاعمال والاحكام ، ويبينون ما يجب بيانه في انطباقها على الشرع والقوانين وعدمه من غير بذاء ولا استعلاء ولا طعن يسقط المهابة ويذهب باحترام الحكومة من نفوس العامة . وانما نعني بالاعمال اعمال الحكومة دون الاعمال الشخصية التي لا دخل لها ولا تأثير في المصالح العامة .

ومن كان مخلصا في انتقاده يتحرى الحق فيه ، فاذا ظهر له انه اخطأ فيما كتبه رجع عنه رجوعا صريحا وبين سبب خطإه الاول ومشرق انبلاج الصواب له وبذلك يكون كلامه موثرا في القلوب ذا سلطان على النفوس فيقدره قدره الحاكمون ، فاذا لم يرجع به المسيء عن غيه آخذه رؤساؤه على سوء فعله

ومن آيات الاخلاص ان يسعى مريد الانتقاد ان تيسر له كأن يراجع الحاكم فيما يرى انه يسيء أو يجور فيه ، فان تم له ذلك والا لجأ الى الانتقاد

وينبغي ان يبدأ بالرمز والتلويح ، ثم يترقى في سلاليم التصريح ، فاذا استقام الجائر ، وعدل الظالم ، وجب ان يقف الناقد عند الدرجة التي ارتقى اليها في نقده ثم يثني على العمل الذي يستحق الثناء

ومما يتحتم مراعاته ان تكون الفقرة التي ينتقد بها القضاة ورؤساء الادارة بحيث يفهمها الخاصة دون العامة ، كأن تورد بضروب من المجاز والاستعارة وتستعمل فيها الالفاظ الغريبة لئلا تزول مهابة الحكومة من نفوس العوام وتقل ثقتهم بالقضاء ويعتقدوا انه لا سبيل الى قضاء مصالحهم الا بالرشوة ، ويطمع المبطلون منهم بهضم الحقوق ويضرى الاشقياء ، بالتعدي على الضعفاء ، اعتماداً على ضعف الحكام وظلمهم

وإنما تجب مراعاة ما ذكر في انتقاد من يسيء مستخفيا ، واما من يجهر بالسوء ويعرف عنه الظلم فأولئك هم الذين لا تحفظ لهم حرمة ، ولا ترقب فيهم ذمة ، فيجهر الكتاب بانتقادهم ، ويحرضون الامة على الشكوى منهم ، اذا لم يبادر رؤساؤهم والمفتشون عليهم الى النظر في أمرهم ، ولكن الشكوى الى المجالس العمومية في الولايات ثم الى مجلس المبعوثان في الاستانة بعد مراعاة ما اشترطه القانون الاساسي في ذلك

اما الطعن في الحكومة على الاطلاق فضرره عظيم جدا في مثل بلادنا ولا سيا

في أول العهد بالانقلاب كهذا الزمن . مثال ذلك طعن المتقهقرين أو الرجعيين (على الخلاف بين كتاب العرب وكتاب الترك في لقبهم) في حكومة الشورى الحاضرة من حيث شكلها والاستدلال على ذلك بالخلل والفساد الذي أظهرته الحرية في الأمة والحكومة جميعا بزعمهم ، وما هو إلا من رزايا الحكومة السابقة التي يتعذر تطهير الارض من نتنها في بضعة شهور أو بضع سنين

ومن أمثلته استبطاء كثير من المحبين للحكومة الحاضرة لاعمال مجلس الامة واظهارهم قلة الثقة به وشكهم في أنفسهم وتشكيكهم للناس في قدرته على القيام بما عهد اليه من اصلاح حال الدولة ، وترقية شؤون الامة ، وما ذلك إلا لجهلهم بحاله وبحال الحكومة التي ينظر في أمر اصلاحها

ان مثل مبعوثينا ونوابنا في مجلسهم كمثل مهندس كلف وضع رسم أو رسوم لبناء بلد كمسيني « لا مسينا كما تضبطه الجرائد » قد دمرته الزلازل وان يستحضر البنائين لاعادة بنائه على أحسن مما كان عليه ، ويراقب عملهم الى ان يتم ثم يكون أمينا عليه حافظا له فأراد ان يشرع في العمل فوجد معظم انقاض البلد مفقودة قد تلف بعضها وسرق بعض ولم يجد من البنائين المهرة والصناع والنجارين عددا كافيا للاسراع في العمارة ! ! فهل يلام المهندس ويرمى بالتقصير وحده وينسى ذلك الزلزال الذي دمر البلد وأولئك اللصوص الأدنياء الذين كانوا ينهبون انقاضه وما يهيأ لبنائه ! ! ؟

ألا ان عذر مبعوثينا أظهر من عذر ذلك المهندس ، فان زلزال الاستبداد قد توالى على المملكة العثمانية من زهاء ثلاثة اجيال ، وقد اشتد في عهدنا هذا من أول هذا القرن الهجري حتى كاد يجعل المملكة أثرا بعد عين . وقد كان أكثر رجال حكومتنا في ذلك الدور كأولئك التحوت الذين اقترصوا زلزال (مسيني) فسارعوا الى نهب كل ما وصلت اليه أيديهم الاثيمة من أموال الهالكين والمشرفين على الهلاك فماذا عسى ان يفعل نوابنا في أيام أو شهور ؟

قال أمامي بعض هؤلاء المتقدين الطية قلوبهم النائمة عقولهم أو القليل اختبارهم : ان بعض المبعوثين يسأل في المجلس أسئلة سخيفة تدل على ان مجلسنا في سن

الطفولية ! قلت هل كان فيها أسخف من سؤال بعض نواب الانكليز في مجلسهم الذي هو أعلى وأرقى مجالس نيابي في الأرض عن الكنف (المراحيض) في القاهرة وكونها قليلة أو غير موجودة في الاحياء الوطنية ! !

ومن أمثلة الانتقاد المطلق في الحكومة الحاضرة ما يلهج به الناس من جميع الطبقات في جميع البلاد من تقصيرها في حفظ الامن وارسالها حبال الاشقياء على غواربهم! وهذا الانتقاد واقع ماله من دافع لظهور موجبه لكل أحد ، وهو هو علة الانتقاد الذي ذكر قبله ، ولأمر ما كان كلام الجرائد فيه دون كلام الناس في أنديتهم وسمارهم و بيوتهم وسائر مجامعهم وفي الطرق والاسواق ! .

واذا طال العهد على هذا الاهمال فانني اخشى ان يتفاقم امره، و يستشري شره، وقد كلمت فيه والي بيروت قبلا « والي سورية الآن » ووالي بيروت الآن والمدعي العمومي لولاية بيروت ومتصرف طرابلس فرأيتهم ينتظرون أول السنة المالية التي قربت خطواتها لاصلاح حال الشحنة والشرطة والدخول على حفظ الامن من بابه

ان عذر الولاة والمتصرفين في التقصير في حفظ الامن محصور في ظنهم انه لا يمكن بطريقة قانونية لا استبداد فيها ولا ظلم الا بعد تنظيم الشرطة وايجاد قوة عسكرية كافية لتلافي ما ربما يحدث من الثورات الداخلية ! وهو عذر مبني على عدم اختبار حال البلاد في مثل ولاية بيروت فقاسوها على مثل ولاية الموصل وعلى حوران من ولاية سورية ، و يعسر علينا إقناعهم بان هذه البلاد لم تصل الى هذه الدرجة من الشر والفساد ، وانه لا يوجد فيها احد من الاشقياء يفكر في مقاومة الحكومة قط ، وان اي وال أو متصرف أخذ بالحزم يسهل عليه ان يحفظ الامن . على ان من يقنع منهم بذلك لا يتجرأ على الاقدام عليه وتحمل تبعته في عهد هذه الحكومة ولا سيما مع بقاء الاستانة مستأثرة بالسلطة العليا ومقيدة لسلطة الولاة بَلْهَ المتصرفين فمن دونهم!

اذا طال العهد على الحال التي نحن عليها ــ وما هو بالذي يطول ان شاء الله ــ يتقوض بناء مهابة الحكومة من نفوس العامة فلا يبقى منه شيء، وتصير البلاد فوضى ، ولو لا ان سلامة القلوب ومحاسن الاخلاق لا تزال ذات السلطان الغالب في بلادنا لكانت بضعة شهور كافية لانتشار الفوضى وطمع الاشقياء في الخروج على

الحكومة ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ولن يكون ان شاء الله تعالى ان الحكومة قادرة الآن على التنكيل بالاشقياء فكيف بها بعد التنظيم الذي اظلنا زمانه وادركنا ابانه . وان ما حصل طبيعي في طور الانقلاب فما هو بالامر الغريب الذي يبيح للناس ولا للجرائد الطعن في الحكومة على الاطلاق

اذا رأينا بعد استقرار الحكومة الجديدة واقامة النظام المنتظر عجزا عن حفظ الامن في ناحية لسوء ادارة مديرها او في قضاء لجهل القائمقام او في لواء لضعف المتصرف او في ولاية لعلة في الوالي ـ فاننا نسعى لدى مرجع كل واحد من هؤلاء لاستبداله، اذا اعوزنا اصلاح حاله، ولا نطعن في الحكومة طعنا مطلقا يذهب بثقة العامة بها ، ولا نتهمها بالخيانة والفساد ، ولا نرميها بالعجز والضعف ، فان ذلك كله تسوء عاقبته على كونه لا يمكن أن يكون صحيحا على اطلاقه

حسبنا هذه الكلمات في بيان الغرض الاول من غرضي الانتقاد الصحيحين فان المخاطب بها هم الكتاب الالباء واللبيب تكفيه الاشارة

واما الغرض الثاني من ذينك الغرضين وهو تقوية روح الحكم الذاتي في الامة فقد يحتاج اليه في البلاد المصرية اكثر مما يحتاج اليه في البلاد السورية ، لمكان الظنة في استئثار الانكليز بالسلطة وجعل المصريين الآن في أيديهم . ومع ذلك نرى الجرائد المصرية قد قصرت فيما يجب عليها من الرمي الى غرض نفوذ الامة فكان معظم نضالها أو جميعه دون نفوذ الامير نفسه، أي لتقرير الحكومة الشخصية والانتقال من استبداد أجنبي محدود إلى استبداد شخصي وطني لا حد له ! . الا انه قد كثر خوض هذه الجرائد في هذه السنين الاخيرة في طلب المجلس النيابي لمصر وكون ذلك موافقا لرغبة الامير في رأي بعضها . ولكن الصحيفة المصرية التي اتخذت تقوية سلطة الامة نفسها مذهبا لها تراعيه في انتقادها على الحكومة هي (الجريدة) التي أسسها جماعة من الوجهاء وأهل الرأي تنفيذاً لما كان دعاهم اليه الاستاذ الامام في آخر حياته . ويعلم الله ان هذا ما كنت اقترحه عليه من بضع سنين حتى انني كنت قد اخترت له المحررين ووضعت له الميزانية بعد المذاكرة الطويلة معه في المذهب السياسي ــ وهو سلطة الامة وفي المنهاج الاجتماعي الأدبي وجله في

انتقاد الاخلاق والعادات . فهل للجرائد السورية ان تفكر في هذا وتقدره حق قدره؟

ان الجرائد العثمانية كلها تحتاج الى انتقاد الحكومة فيما يختص بسلطة الامة عند وضع بعض القوانين التي تقوي سيطرة الحاكم وتضع العثرات في سبيل الامة كقانون المطبوعات وقانون الجزاء (العقوبات) وقانون المعارف ولوائحها ونظام مدارسها؛ بل يجب ان تنتقد مجلس الامة اذا لم يجعل تنقيح القانون الاساسي مقيدا للحكم الشخصي، مطلقا لحكم الشورى من تلك القيود المعروفة، واذا نازعته الحكومة فيما يقوي به سلطة الامة وجب على الجرائد ان تحمل عليها حملة شعواء ، وان لا ترضي اقلامها بما دون الطعنة النجلاء

كذلك يجب على الجرائد في كل ولاية ان تنتقد الولاة اذا هم حاولوا الاستبداد في أمر المجالس العمومية ومجالس الادارة أو اظهروا التعصب لجنسهم كتعصب التركي للترك والعربي للعرب فان العصبية الجنسية من الحكام تضعف الجامعة العثمانية وتحدث فيها الاحداث والمفاسد

ولا يجوز بحال من الاحوال ان تتهم الحكومة في جملتها بهضم حقوق الامة وكراهة حكمها الذي هو حكم الشورى ، وان كان الكثيرون من الوجهاء والرؤساء السابقين قد قل انتفاعهم ونقص مالهم وجاههم في عهد الحكومة الحاضرة، فهم يحنون الى الاستبداد ويتمنون الرجوع اليه حتى صارت جرائد الاستانة تسميهم الرجعيين. فمن بقي في الحكومة من هؤلاء ومن يدخل فيها على عهد الدستور للجهل بحالهم أو للحاجة اليهم على عوجهم لا يألون جهدا في الاستبداد إذا وجدوا منفذا من المنافذ، وأمنوا المراقب والمؤاخذ

فمن أقدس وظائف الجرائد وواجباتها ان تتبع عوارهم، وتقلم اظفارهم، وتكبت انصارهم ، مع مراعاة ما أشرنا اليه من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي أحسن كما أرشدنا الذكر الحكيم . وليكن الاخلاص رائدنا ، وإيثار المصلحة العامة غايتنا؛ فلا شيء انفع وأرفع من العمل لخير الناس، ولا مرشد إلى ذلك اهدى من الاخلاص.

باب المراسلة والمناظرة

﴿ شيخ الاسلام ابن تيمية وما قيل فيه ﴾

غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا منشيء المنار المنير بمصر

سلام الله عليكم ورحمته، ولا زلتم في نعيم مقيم

سيدي: من العجب انكم لم تتعرضوا لما قاله ابن حجر الفقيه في فتاويه الحديثية من الطعن على ابن تيمية بالتفصيل الشافي المعهود من حضرتكم ومحاكمة ابن حجر فيما قاله حتي يتبين الرشد من الغي ! . وهنا نجد اكثر الجامدين من اصحاب العمائم يتمكنون بتنفير البسطاء عن مطالعة المنار لكونه ينقل عن ابن تيمية وان المنار يلقبه بشيخ الاسلام ناسياً ما قاله ابن حجر في فتاويه حيث يقول « عبد خذله الله تعالى واضله واعماه واصمه وأذله »

ونجد محب المنار الغير المطلع على اقوال ابن تيمية التي اوجبت خذلانه وانحرافه عن الطريقة الجادة يلتجيء الى السكوت . نعم ربما انه سبق لحضرتكم كلام في بعض أجزاء المنار السابقة بخصوص هذه المسألة . « لان مثل هذا مما لا يحسن سكوت حضرتكم عنه كل هذة المدة »

ولكن يتجدد قراء كثيرون في المنار في كل عام وكثير منهم لم يطلعوا على ما سبق نشره في ذلك مع حاجتهم للاطلاع وذلك يلجئكم ان توضحوا المسألة ثانياً. وقد بلغني أن كثيرًا من العلماء العظام انتقدوا كلام ابن حجر . فهل لسيدي نقل بعض اقوالهم ؟ ولكم من الله جزيل الفضل ومنا الشكر .

ع . س (دلي — سمطرا)

(المنار) لا غرابة ولا عجب في عدم تعرضنا لما ذكرتم قبل ان نُسأل عنه، على اننا كنا

عازمين على كتابة ترجمة لابن تيمية بعد إتمام ترجمة الغزالي . ويغلب على ظننا ان الفقيه ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى لم يطلع على كتب ابن تيمية وانما رأى ما انتقده عليه بعض معاصريه كالشيخ تقي الدين السبكي وغيره فانكر ذلك عليه ولا يبعد ان يكون بعض المفسدين قد دس في كلام ابن حجر ذلك السباب والشتم الذي يجل مثله عن مثله وذلك مما حدث كثيرا كما بينه الشعراني في كتاب اليواقيت والجواهر وغيره حتى ذكر ان بعض كتبه نسخ في عصره ودسَّت فيه ضلالات كثيرة ولم يقتنع العلماء بأن تلك الضلالات من دسائس المفسدين الا بعد أن أبرز لهم ما كتبه بخطه . ويظهر انه لم يطلع أيضا على ما قاله حفاظ الحديث والعلماء والمؤرخون في الثناء على ابن تيمية بما لم يثنوا بمثله على أحد حتى شهد له معاصروه ومناظروه بالوصول الى رتبة الاجتهاد المطلق ومن كان كذلك لا بد ان يخالف غيره من المجتهدين في بعض المسائل . ويعز على الفقهاء المقلدين ان يوجد في عصرهم من يخالف أئمتهم بل من دون أئمتهم ممن يجلون من الميتين حتى كأن الموت يجعل العالم معصوما !.

ولذلك ترى ان سبب قيام الشيخ كمال الدين الزملكاني والشيخ نصر بن المنبجي على ابن تيمية هو إنكاره على الشيخ محيي الدين بن عربي، وسبب قيام ابي حيان عليه هو إنكاره على سيبويه وتخطئته له . فهؤلاء الثلاثة والشيخ تقي الدين السبكي هم اعظم العلماء الذين انكروا عليه في عصره ومن اسباب حنقهم عليه تشدده في الانكار عليهم هم فيما انتصروا به لابن عربي وسيبويه ولكن كل واحد منهم قد اثنى عليه ثناء عظيما قبل وقوع النفور بينهم كما سيأتي

وقد ألف بعض العلماء كتبا خاصة في الثناء على ابن تيمية والانتصار له، منها (القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي) للعلامة المحدث السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيل نابلس . ومنها (جلاء العينين في محاكمة الاحمدين) اي احمد بن تيمية واحمد بن حجر وانا ننقل عن كل منهما طائفة من النقول عن العلماء في ترجمة ابن تيمية، قال صاحب القول الجلي في أول كتابه ما نصه :

« ولد رحمه الله تعالى في عاشر ربيع الاول سنة احدى وستين وستمئة وقرأ القرآن والفقه وناظر واستدل وهو دون البلوغ، وبرع في التفسير وأفتى ودرس وله

نحو العشرين، وصنف التصانيف وصار من اكابر العلماء في حياة شيوخه، وله المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراسة وأكثر، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين . وكان يتوقد ذكاء وسمع من الحديث أكثره، وشيوخه أكثر من مئتي شيخ ومعرفته بالتفسير اليها المنتهى وحفظ الحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه . وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلا عن المذاهب الاربعة فليس له فيه نظير، واما معرفته بالملل والنحل فلا أعلم فيها نظيرا، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جدا ومعرفته بالتفسير والتاريخ فعجب عجيب . انتهى ملخصا من كلام شيخ الاسلام أبي عبد الله الذهبي فيما نقله عنه الحافظ الكبير ابن ناصر الدين الدمشقي الشافعي

قال الحافظ الذهبي الدمشقي الذي قال فيه الحافظ ابن حجر هو من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال وتبعه على ذلك الحافظ السيوطي فيما نقله الحافظ ابن ناصر الدين : ابن تيمية أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله ولا والله هو ما رأى مثل نفسه في العلم

وقال الحافظ شمس الدين السخاوي الشافعي في فتاواه في حديث « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » وفي حديث « كنت نبياً ولا آدم ولا ماء ولا طين » حيث أجاب باعتماده كلام ابن تيمية في وضع اللفظين وناهيك به اطلاعا وحفظا أقر له بذلك المخالف والموافق قال وكيف لا يعتمد كلامه في مثل هذا

وقد قال فيه الحافظ الذهبي ما رأيت أشد استحضارا للمتون وعزوها منه وكانت السنة بين عينيه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة وعين مفتوحة

وقال حافظ الاسلام الحبر النبيل أستاذ أئمة الجرح والتعديل شيخ المحدثين جمال الدين أبو الحجاج يوسف ابن الزكي عبد الرحمن المزي الشافعي فيما نقله عنه الحافظ ابن ناصر الدين : ما رأيت مثله يعني ابن تيمية ولا رأى هو مثل نفسه وما رأيت أحدا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أتبع لهما منه . اه

وقد تقدم عن الحافظ الذهبي نحوه وناهيك بهذا الكلام من الحافظين العدلين المستوعبين أبي الحجاج المزي وأبي عبد الله الذهبي

وقال الشيخ الإمام بقية المجتهدين تقي الدين بن دقيق العيد الشافعي لما اجتمع به وسمع كلامه : كنت أظن ان الله تعالى مابقي يخلق مثلك . وقال أيضا : رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد. ذكره الحافظ المذكور

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعي : وبالجملة كان رحمه الله تعالى من كبار العلماء وممن يخطىء ويصيب ولكن خطأه بالنسبة الى صوابه كنقطة في بحر لجي وخطؤه أيضا مغفور له لما صح في صحيح البخاري « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران واذا اجتهد فأخطأ فله أجر »

وقال الامام مالك بن أنس : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك الا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وآله وسلم . وما قاله في غاية الحسن والحافظ المذكور ثقة حجة باتفاق وقد ترجمه الحافظ ابن حجر بترجمة جليلة جدا فلا التفات الى ما نقله عنه الشيخ تقي الدين الحصني. نعم كان يقول بقول الشيخ ابن تيمية في مسألة الطلاق فأوذي بسببه ومع انه خالف الائمة الاربعة في ذلك فلم يتفرد به كما هو مبين في موضعه وهو وان كان خطأ فاحشا فلا يوجب التفسيق فافهم

(فان قلت) ما ذكره الامام الحافظ ابن كثير مبني على ان الشيخ قد بلغ رتبة الاجتهاد وأنى له بهذه المرتبة وقد انقطع الاجتهاد من زمان طويل!! (قلت) وقد نص على انه بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء منهم الامام أبو عبد الله الذهبي فيما ذكره ابن ناصر والحافظ ابن حجر كما سيأتي والحافظ السيوطي في طبقات الحفاظ فيما أحفظ ولم يتفرد بمسألة منكرة قط وان كان قد خالف الائمة الأربعة في مسائل قد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين ومن اشنع ما وقع له مسألة تحريم السفر الى زيارة القبور وقد قال به قبله أبو عبد الله ابن بطة الحنبلي في الابانة الصغرى وسنذكره عن قريب إن شاء الله تعالى

وقال الحافظ ابن حجر فيما كتبه على الرد الوافر لشيخ الاسلام الحافظ الهمام ابن ناصر الدين الدمشقي الشافعي مانصه :ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة مرارا بسبب أشياء أنكروها عليه من الاصول والفروع وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة و بدمشق ولايحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ولا أفتى بسفك

دمه مع شدة المتعصبين عليه رحمه الله من أهل الدولة حتى حبس بالقاهرة ثم بالاسكندرية ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه وورعه وزهده ووصفه بالسخاء والشجاعة وغير ذلك من قيامه في نصر الاسلام والدعاء الى الله في السر والعلانية فكيف لاينكر على من أطلق عليه انه كافر بل من أطلق على من سماه بشيخ الاسلام الكفر وليس في تسميته بذلك مايقتضي ذلك فانه شيخ الاسلام بلا ريب والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عناداً، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبرئ منه ومع ذلك فهو بشر يخطىء ويصيب، فالذي أصاب فيه وهو الا كثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لايقلد فيه أي كمسئلة الزيارة والطلاق بل هو معذور لان أئمة عصره شهدوا بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه حتى كان أشد المتعصبين عليه والقائمين في إيصال الشر اليه وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني يشهد له بذلك، وكذا الشيخ صدر الدين ابن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره. ومن أعجب العجب ان هذا الرجل كان اعظم الناس قياما على أهل البدع من الروافض والحلولية والاتحادية وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة وفتاواه فيهم لا تدخل تحت الحصر، فياقرة أعينهم اذا سمعوا تكفيره ويا سرورهم اذا رأوا من يكفر من لايكفره . فالواجب على من تلبس بالعلم وكان له عقل ان يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشهورة أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل فيفرد من ذلك ماينكر فيحذر منه على قدر قصد النصح ويثني عليه بفضائله فيما أصاب من ذلك كدأب غيره من العلماء، ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب الا تلميذه الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظمة منزلته فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم والتميز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من الشافعية وغيرهم فضلا عن الحنابلة. فالذي يطلق عليه مع هذه الاشياء الكفر أو على من سماه شيخ الاسلام لايلتفت اليه ولا يعول في هذا المقام عليه بل يجب ردعه عن ذلك الى أن يراجع الحق ويذعن للصواب والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

حسبنا الله ونعم الوكيل

وقال شيخ الاسلام صالح ابن شيخ الاسلام عمر البلقيني رحمه الله تعالى فيما كتبه على الكتاب المذكور — :ولقد افتخر قاضي القضاة تاج الدين السبكي في ثناء الائمة عليه بان الحافظ المزي لم يكتب لفظة شيخ الاسلام الالأبيه وللشيخ تقي الدين ابن تيمية وللشيخ شمس الدين ابي عمر فلولا ان ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل ماقرن ابن السبكي أباه معه في هذه المنقبة التي نقلها، ولوكان ابن تيمية مبتدعا أوزنديقا مارضي أن يكون أبوه قرينا له . نعم وقد ينسب الشيخ تقي الدين لاشياء أنكرها عليه معارضوه وانتصب للرد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في مسألتي الزيارة والطلاق وافرد كلا منهما بتصنيف وليس في ذلك مايقتضي كفره ولا زندقته أصلا، وكل أحد يوخذ من قوله أو يترك الا صاحب هذا القبر» (١) والسعيد من عدت غلطاته ، وانحصرت سقطاته، ثم ان الظن بالشيخ تقي الدين انه لم يصدر ذلك تهورا وعدوانا، حاش لله بل لعله لرأي رآه واقام عليه برهانا، ولم نقف الى الآن بعد التروي والفحص على شيء يقتضي كفره ولا زندقته، وانما وقفت على ماردّه على أهل البدع والاهواء أوغير ذلك مما يظن به براءة الرجل وعلو مرتبته في العلم والدين. وتوقير العلماء والكبار وأهل الفضل متعين قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون؟) وصح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا — وفي رواية — حق كبيرنا » وكيف يجوز ان يقدم على رمي عالم بفسق أو كفر ولم يكن ذلك فيه انتهى

قلت وسنذكر ان شاء الله تعالى قريبا مايكون صريحا في تنزيهه عما نسب اليه من التشبيه والتجسيم

وقال قاضي القضاة عبدالله التفهني الحنفي عامله الله بلطفه الخفي فيما كتبه على الكتاب المذكور : ان الشيخ تقي الدين كان على مانقل الينا من الذين عاشروه وما اطلعنا عليه من كلام تلميذه ابن قيم الجوزية الذي صارت تصانيفه في الآفاق عالما متعنيا مقللا من الدنيا معرضا عنها متمكنا من إقامة الادلة على الخصوم وحافظا

(١) حكاية لكلمة الامام مالك التي كان يقولها في الحرم المدني ويشير الى القبر الشريف

للسنة عارفا بطرقها عارفا بالاصلين أصول الدين وأصول الفقه قادرا على الاستنباط في تخريج المعاني لايلومه (لعله لاتأخذه) في الله لومة لائم على أهل البدع المجسمة والحلولية والمعتزلة والروافض وغيرهم (قال) فمن كان متصفا بهذه الاوصاف كيف لايلقب بشيخ الاسلام بأي معنى أريد منه؟!! (قال) وإنما قام عليه بعض العلماء في مسألتي الزيارة والطلاق وقضية من قام عليه شهوده . والمسألتان المذكورتان ليستا من أصول الاديان و إنما هما من فروع الشريعة التي أجمع العلماء على ان المخطيء فيها مجتهد يثاب لايكفر ولا يفسق . الخ ما قال

وقال شيخ الاسلام العيني الحنفي فيما كتب على الكتاب المذكور: وما هم أي المنكرون على ابن تيمية رحمه الله تعالى الا صلقع بلقع سلقع ، والمكفر منهم صلعمة بن قلعمة وهيان بن بيان وهي بن بي وضل ابن ضل وضلال ابن التلال . ومن الشائع المستفيض ان الشيخ الامام العالم العلامة تقي الدين بن تيمية من شم عرانين الافاضل ، ومن جم براهين الاماثل ، (قال) وهو الذاب عن الدين ، طعن الزنادقة والملحدين ، والناقد للمرويات عن النبي سيد المرسلين ، وللمأثورات عن الصحابة والتابعين ، فمن قال انه كافر فهو كافر حقيق ، ومن نسبه الى الزندقة فهو زنديق ، وكيف ذلك وقد سارت تصانيفه الى الآفاق ، وليس فيها شيء مما يدل على الزيغ والشقاق ، ولكن بحثه فيما صدر عنه في مسألتي الزيارة والطلاق ، عن اجتهاد سائغ بالاتفاق ، والمجتهد في الحالين مأجور ومثاب ، وليس فيه شيء مما يذم أو يعاب ، (قال) ولا ريب انه كان شيخا لجماعة من علماء الاسلام، وتلامذة من فقهاء الأنام ، فاذا كان كذلك كيف لا يطلق عليه شيخ الاسلام ، لأن من كان شيخا للمسلمين يكون شيخا للاسلام .

وقال شيخ الاسلام البساطي المالكي . واما قول من قال انه يعني ابن تيمية كافر وأن من قال في حقه انه شيخ الاسلام كافر فهذه مقالة تقشعر لسماعها الجلود، وتذوب لسماعها القلوب ، ويضحك ابليس اللعين بها ويشمت ، وتنشرح بها أفئدة المخالفين وتسمت ، ثم يقال كيف لو فرضنا انك اطلعت على ما يقتضي هذا في حقه فما مستندك في الكلام الثاني وكيف تصح لك هذه الكلمة المتناولة لمن سبقك ولمن

هو آت بعدك إلى يوم القيامة ؟ وهل يمكنك ان تدعي ان الكل اطلعوا على ما اطلعت انت عليه ؟ وهل هذا الا استخفاف بالحكام ، وعدم مبالاة ببني الايام؟ والواجب ان يطلب هذا القائل ويقال له لم قلت وما وجه ذلك ؟ فان أتى بوجه لا يخرج به شرعا عن العهدة بأن كان واهيا برح به تبريحا يردع أمثاله عن الاقدام على اعراض المسلمين . اه

(قلت) فتأمل رعاك الله كلام هؤلاء الاعلام ، في مدح هذا الامام ، فكيف ينسب إلى بدعة التجسيم أو يعاب بشيء غير ذلك أو يلام !»

(المنار) هذا ما أورده الشيخ صفي الدين الحنفي البخاري في ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية في أول كتابه (القول الجلي في ترجمة تقي الدين ابن تيمية الحنبلي) ويليه فصل في عقيدته التي هي عقيدة سلف الأمة أهل السنة والجماعة رضي الله عنهم . واما السيد نعمان خير الدين الآلوسي فقد جاء في كتابه (جلاء العينين . في محاكمة الأحمدين) بترجمة أوسع وأكثر نقلا عن كبار العلماء والحفاظ في الثناء عليه والاعتراف له بمشيخة الاسلام ،

قال بعد ترجمة بليغة ملخصة من كلام طائفة من الحفاظ والمؤرخين مانصه:

« قال الذهبي وما ابعد ان تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمئة مجلد . وترجمه في معجم شيوخه بترجمة طويلة منها قوله : شيخنا وشيخ الاسلام وفريد العصر علما ومعرفة وشجاعة وذكاء وتنويرا إلهيا وكرما ونصحا للامة وامرا بالمعروف ونهيا عن المنكر . سمع الحديث واكثر بنفسه من طلبه وكتابته وخرج ونظر في الرجال والطبقات وحصل ما لم يحصل غيره وبرع في تفسير القرآن وغاص في دقائق معانيه بطبع سيال ، وخاطر وقاد الى مواضع الاشكال ميال ، واستنبط منها اشياء لم يسبق اليها وبرع في الحديث وحفظه فقل من يحفظ ما يحفظه من الحديث مع شدة استحضاره له وقت الدليل ، وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين ، واتقن العربية اصولا وفروعا ، ونظر في العقليات وعرف اقوال المتكلمين ورد عليهم ونبه على خطئهم وحذرمنهم ، ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين ، وأوذي في ذات الله من المخالفين ، واخيف في نصر السنة المحفوظة حتى أعلى الله

تعالى مناره وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له ، وكبت اعداءه ، وهدى به رجالا كثيرة من أهل الملل والنحل ، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالبا وعلى طاعته ، واحيا به الشام ، بل الاسلام ، بعد أن كاد ينثلم خصوصا في كائنة التتار وهو اكبر من ان ينبه على سيرته مثلي ، فلو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله وانه ما رأى مثل نفسه لما حنثت اه

وقال الحافظ ابن كثير : وفي رجب سنة سبعمئة واربع راح الشيخ تقي الدين بن تيمية الى مسجد التاريخ وأمر أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذرلها فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما . وبهذا وأمثاله ابرزوا له العداوة وكذلك بكلامه في ابن عربي واتباعه . فحسد وعودي ومع هذا لا تأخذه في الله لومة لائم ولم يبال بمن عاداه ولم يصلوا اليه بمكروه واكثر ما نالوا منه الحبس مع انه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام ولم يتوجه لهم عليه ما يشين وإنما اخذوه وحبسوه بالجاه . اه

قيل من جملة اسباب حبسه خوفهم انه ربما يدعي ويطلب الامارة فلقي عليه أعداؤه طريقا من ذلك ، فحسنوا للامراء حبسه لسد تلك المسالك . وكتب الشيخ كمال الدين الزملكاني : كان الفقهاء من سائر الطوائف اذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه اشياء ولا يعرف انه ناظر احدا فانقطع معه ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علم الشرع او غيره الا فاق فيه أهله واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها

(قلت) ورأيت في نثر الدر الذائب ، في الافراد والغرائب من كتاب الاشباه والنظائر النحوية للامام السيوطي عليه الرحمة ما نصه : جواب سؤال سائل عن «لو» لسيدنا وشيخنا الامام العالم الاوحد الحافظ المجتهد الزاهد العابد القدوة امام الأئمة علامة العلماء وارث الانبياء آخر المجتهدين اوحد علماء الدين بركة الاسلام حجة الاعلام برهان المتكلمين قامع المبتدعين ذي العلوم الرفيعة والفنون البديعة محيي السنة ومن عظمت به لله علينا المنة ودامت به على اعدائه الحجة واستبانت ببركته وهديه المحجة تقي الدين ابي العباس احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن

عبدالله بن ابي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني اعلى الله تعالى مناره وشيد من الدين اركانه

ماذا يقول الواصفون له   وصفاته جلت عن الحصر
هو حجة لله قاهرة   هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة   أنواره اربت على الفجر

نقلت هذه الترجمة من خط العلامة فريد دهره ووحيد عصره الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني : بسم الله الرحمن الرحيم، نقلت من خط الحافظ علم الدين البرازلي قال سيدنا وشيخنا الامام العالم العلامة القدوة الحافظ الزاهد العابد الورع امام الائمة خير الأمة مفتي الفرق علامة الهدى ترجمان القرآن حسنة الزمان عمدة الحفاظ فارس المعاني والالفاظ ركن الشريعة ذو الفنون البديعة ناصر السنة قامع البدعة تقي الدين ابو العباس احمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن ابي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني ادام الله تعالى بركته ورفع درجته : الحمد لله الذي علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ، واشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له الباهر البرهان ، واشهد ان محمدا عبده ورسوله المبعوث الى الانس والجان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما يرضى به الرحمن ، سألت وفقك الله تعالى عن معني حرف « لو » وكيف يتخرج قول عمر رضي الله عنه « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » على معناها المعروف وذكرت ان الناس يضطربون في ذلك واقتضيت الجواب اقتضاء أوجب أن اكتب في ذلك ما حضرني الساعة مع بعد عهدي بما بلغني مما قاله الناس في ذلك وانه لا يحضرني الساعة ما اراجعه في ذلك فأقول. اه بحروفه. ثم ساق الامام السيوطي آخر الجواب الى نهايته، واقر المترجم على ترجمته، فان اردته فارجع الى الاشباه والنظائر، فان فيه جلاء الابصار والبصائر، (*)

وكتب الحافظ ابن سيد الناس : ألفيته ممن ادرك العلوم حظا، وكاد يستوعب

(*) وفي هامش الكتاب عند هذه العلامة مانصه : وكذا المدقق ابن هشام في شرح الشذور نقل عنه بعض الاقوال النحوية معبرا عنه بالامام العلامة وكذا غيرها ممن سلمت له الامامة

السنن والآثار حفظا ، ان تكلم في التفسير فهو حامل رايته ، وان افتى فى الفقه فهو مدرك غايته ، او بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، او حاضر بالملل والنحل لم ير أوسع من نحلته ولاأرفع من درايته ، برز في كل علم على أبناء جنسه ، ولارأت عيني مثل نفسه ،

وقال ابن الوردي في تاريخه وقد عاصره ورآه : وكانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث مع حفظه لمتونه الذي انفرد به وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه وإليه المنتهى في عزوه الى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه ان يقال كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الاحاطة لله تعالى . غير انه يغترف فيه من بحر وغيره من الائمة يغترفون من السواقي . وأما التفسير فسلم اليه . وكان يكتب في اليوم والليلة من التفسير او من الفقه او من الاصلين او من الرد على الفلاسفة نحوا من اربعة كراريس. وله التآليف العظيمة في كثير من العلوم وما يبعد ان تصانيفه تبلغ خمسمئة مجلد. وله الباع الطويل فى معرفة مذاهب الصحابة والتابعين قل ان يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الاربعة . وقد خالف الاربعة في مسائل معروفة وصنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة . وبقي سنين يفتي بما قام (عليه) الدليل عنده . ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية . وكان دائم الابتهال كثير الاستعانة قوي التوكل ثابت الجأش، له اوراد واذكار يديمها لا يداهن ولا يحابي ، محبوبا عند العلماء والصلحاء والامراء والتجار والكبراء . وصار بينه و بين معاصريه وقعات مصرية وشامية لبعض مسائل افتى فيها بما قامت عنده الادلة الشرعية : واجتمع بالسلطان محمود غازان السفاك المقتال وتكلم معه بكلام خشن ولم يهبه ، وطلب منه الدعاء فرفع يديه ، ودعا دعاء منصف اكثره عليه ، وغازان يؤمن على دعائه اه ملخصا واطال في ترجمته

وقال العلامة الشيخ عماد الدين الواسطي في حقه بعد ثناء طويل جميل مالفظه :
« فوالله ثم والله لم ير تحت اديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علما وعملا وحالا وخلقا واتباعا وكرما وحلما وقياما في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته . أصدق الناس عقدا واصحهم علما وعزما وانفذهم واعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة ، واسخاهم كفا

وأكملهم اتباعا لنبيه محمد صلي الله تعالى عليه وسلم ما رأينا فى عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وافعاله الا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح ان هذا هو الاتباع حقيقة . اه

ونقل في الشذرات عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وقد سئل عن الشيخ ابن تيمية بعد اجتماعه به كيف رأيته ؟ قال « رأيت رجلا سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء » فقيل له فلم لا تتناظران ؟ قال « لأنه يحب الكلام وأحب السكوت »

وقال ابن مفلح في طبقاته : كتب العلامة تقي الدين السبكي الى الحافظ الذهبي في امر الشيخ تقي الدين بن تيمية ما نصه : « فالمملوك يتحقق قدره وزخارة بحره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وأنه بلغ في ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف . والمملوك يقول ذلك دائما وقدره في نفسي اكبر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله تعالى له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف واخذه من ذلك بالمأخذ الاوفى وغرابة مثله في هذا الزمان بل في أزمان » اه

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمته المطنبة : ان الفتنة لما ثارت على الشيخ ابن تيمية من جهة بعض كلماته تعصب له القاضي الحنفي ونصره وسكت القاضي الشافعي ولم يكن له ولا عليه . وكان من اعظم القائمين عليه الشيخ نصر بن المنبجي لانه كان بلغ ابن تيمية انه يتعصب لابن عربي فكتب يعاتبه على ذلك فما أعجبه لكونه بالغ في الحط على ابن عربي وتكفيره فصار هو يحط على ابن تيمية و يغري (به) بيبرس الجاشنكير وكان بيبرس يفرط في محبته ويعظمه . واتفق ان قاضي الحنفية بدمشق وهو شمس الدين بن الحريري انتصر للشيخ ابن تيمية وكتب في حقه محضرا بالثناء عليه بالعلم والفهم وكتب به في خطه ثلاثة عشر سطرا من جملتها « إنه منذ ثلاث مئة ما رأى الناس مثله » اه

ونقل الامام العسقلاني ايضا عن الحافظ الذهبي انه قال حضر عند شيخنا ابو

حيان المفسر فقال ما رأيت عيناي مثل هذا الرجل ثم مدحه بأبيات ذكر انه نظمها بديهة وانشده إياها وهي :

لما أتانا تقي الدين لاح لنا ... داعٍ الى الله فرد ماله وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهره حِبرا ... بحر تَقاذفُ من امواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيمٍ اذ مضت مضر
وأظهر الحق اذ آثاره اندرست ... واخمد الشر إذ طارت له شرر
يامن يحدث عن علم الكتاب أصخ ... هذا الامام الذي قد كان ينتظر

يشير بهذا الى انه المجدّد . وقد صرح بذلك ايضا العماد الواسطي . ثم دار بينهما كلام فجرى ذكر سيبويه فأغلظ الشيخ ابن تيمية القول في سيبويه فناظره ابو حيّان بسببه ثم عاد ذامًّا له وصير ذلك ذنبا لا يغفر (ويقال) إن ابن تيمية قال له : ما كان سيبويه نبي النحو ولا معصوما بل اخطأ في الكتاب في ثمانين موضعا ما تفهمها انت . فكان ذلك سبب مقاطعته إياه وذكره في تفسيره البحر بكل سوء وكذا في مختصره النهر اه

وقد ترجمته علماء المذاهب المعاصرون له وغيرهم بتراجم مفصلة واثنوا عليه بالثناء الحسن وذكروا له كرامات عديدة ومواظبة على الطاعات والعبادات وتجنبا عن البدع وشدة اتباع للسنن وطريق السلف الصالح وانه لم يتزوج حتى مات

وكان ابيض اللون اسود الرأس واللحية قليل الشيب شعره إلى شحمة اذنيه عيناه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين جهوري الصوت . وقد ذكر نبذة من اختياراته العلامة ابن رجب المتوفى سنة سبع مئة وخمس وتسعين في طبقاته، وفصل ايضا سيرته واحواله والثناء عليه

وقد توفي سنة سبع مئة وثمان وعشرين سحر ليلة الاثنين عاشر ذي القعدة الحرام في السجن! فأخرج الى جامع دمشق فصلوا عليه فكان يوما مشهودا لم يعهد بدمشق مثله ، وبكى الناس بكاء شديدا وتبركوا بماء غسله واشتد الزحام على نعشه ودفن بمقابر الصوفية بعد ان صلوا عليه مرارا . وحزر من حضر جنازته بمئتي الف

ومن النساء بخمسة عشر الفا وختمت له ختمات كثيرة ورثي بقصائد بليغة

(المنار) بعد ان اورد المؤلف هنا مرثية الشيخ عمر ابن الوردي احدى تلك المراثي التي يشنع فيها على من آذوه وحبسوه قال :

(قلت) وما زال الناس ولا سيما الكبراء والعلماء يبتلون في الله تعالى ويصبرون وقد كانت الانبياء عليهم السلام يقتلون وأهل الخير في الامم السابقة يقتلون ويحرقون وينشر احدهم بالمنشار وهو ثابت على دينه ولولا كراهة التطويل لذكرت من ذلك ما يطول : وقد سمّ ابو بكر وقتل عمر وعثمان وعلي وسمّ الحسن وقتل الحسين وابن الزبير وصلب حبيب ابن عدي . وقتل الحجاج عبد الرحمن بن ابي ليلى وسعيد بن جبير وغيرهما . وقتل زيد بن علي . واما من ضرب من كبار العلماء فكثيرون منهم عبد الرحمن بن ابي ليلى ضربه الحجاج اربعمئة سوط ثم قتله ، وسعيد بن المسيب ضربه عبد الملك بن مروان مئة سوط وصب عليه جرة ماء في يوم شاتٍ وألبس جبة صوف ، وحبيب بن عبدالله بن الزبير ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد مئة سوط وذلك انه حدث عن النبي صل الله عليه وسلم انه قال « اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا » فكان عمر اذا قيل « أبشر » قال « كيف بخبيب على الطريق » وابو عمرو ابن العلاء ضربه بنو أمية خمسمئة سوط ، والامام موسى الكاظم سجنه هارون حتى مات ، والامام ابو حنيفة توفي في السجن بعد أن ضرب وقيل او جر سمًّا ، والامام مالك بن أنس ضربه المنصور ايضا سبعين سوطا في يمين المكره وكان مالك يقول لا يلزمه اليمين . والامام احمد امتحن وسجن وضرب في أيام بني العباس ، وللشيخ ابن تيمية في هؤلاء الائمة أسوة . ولو اردنا استقصاء ما ذكره معاصروه من الثناء عليه وبيان سيرته ومفصل أحواله لافضى بنا إلى الطول ، والقلم – لاملت – ملول ، ويكفي من القلادة ما احاط بالجيد .

(المنار) وعقد بعد هذا فصلا في تبرئة الشيخ مما نسب اليه ، وثناء المحققين المتأخرين عليه . فنقل عن صوفي الفقهاء وفقيه الصوفية الشيخ ابراهيم الكوراني المدني الشافعي وعن علامة العراق الشيخ علي السويدي البغدادي الشافعي ، وعن والده

السيد محمد الآلوسي المفتي ، وعن عالم بلد الله الحرام المنلا علي الهروي ، وعن امير العلماء وعالم الامراء ابي الطيب حسن صديق خان الحسيني البخاري . ثم عقد فصولا أخرى ذكر فيها كل ماقاله العلامة ابن حجر الهيتمي و بين الحق فيه فليراجعه من شاء . فمن اشتبه في مسألة معينة من المسائل التي انتقدت على ابن تيمية ولم يتمكن من مراجعتها في كتاب جلاء العينين أو راجعها و بقي في نفسه شبهة منها فله ان يسألنا عنها إن احب . واننا كنا نعتقد ان ابن تيمية وصل الى درجة الاجتهاد المطلق قبل ان نطلع على قول العلماء في ذلك بل نعتقد انه لا نظير له في علماء الاسلام قط الا تلميذه ووارث علومه ابن قيم الجوزية رحمهما الله تعالى ونفع المسلمين بعلومهما

الحجاز بعد الدستور (*)

بعث الدستور بعد ان قبر ، و بذلك كذب الله إعداء الاسلام الزاعمين ان الشورى غير ملائمة لروح الاسلام ، فهل سبق ان رأوا أمة قد أكل عليها الاستبداد وشرب زمنا طويلا ، فما هي الا عشية أو ضحاها حتى استحالت الصهباء فاصبح افرادها بحمد الله اخوانا ، لا فضل لاحمر على اسود إلا بتقوى الله ، قد ألف الله بين قلوبهم ، لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم

كذّب الله بقيام الدستور زعم اولئك كما ايد به قول القائلين بسداد نية مولانا السلطان وفائق حكمته ووافر عقله وقوة ادراكه زاده الله توفيقاً إذ لم يكن من احد من قادة الامم ما كان منه فله الشكر والدعاء اذ صان كيان الامه ودماءها وأموالها وشرفها فالمملكة مدينة له بما فعل

وقد شرق الاعداء بما رأوا من اتحاد عناصر المملكة ، ولم يرق في اعينهم فقاموا بما قاموا به ، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وابدت ظبابها النافقاء ، وماتخفي صدورهم اكبر . قل موتوا بغيظكم .

*) لأحد فضلاء المسلمين في سنغافوره (س . س . ي)

ولكن قل لي اين هم اصدقاء الاسلام ؟ اين ما قاموا به ؟ اين مواساتهم في هذه الازمة؟ اين من مد لنا يده في طور انتقالنا المخيف؟ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا !؟؟

شاهت الوجوه ، وقبح اللكع ومن يرجوه، نعم قد سمعنا عن الانكليز جعجعة ولم نر طحنا ، فشكرا لهم على ذلك ان لم يك استدراجا ومكرا ،

ولقد كانت نعمة الدستور عامة على كل الممالك العثمانية ، وكان حظ الحجاز منها غير قليل، لو لم يكن غير تطهيره من ذلك الطاغية وابالسته فكيف وغير ذلك كثير؟

ولكن الحجاز لكونه اول ولاية عثمانية ، وهو قبلة المسلمين كلهم ومحل نسكهم ، ولطول عهده بالخراب والدمار والاستبداد يحتاج الى اكثر مما صار ، وهو أحق بلاد الله بالاصلاح والمصلحين ، واصلاحه يفيد الدولة فائدة عظمى وهو اوجب عليها من اصلاح غيره بحكم الشرع والعقل . ولست احتاج الى إقامة الدليل الشرعي لبداهته ولكني اشير الى العقلي السياسي: وذلك ان الحجاز هو المكان الذي تحشر فيه وفود المسلمين وجلهم في هذه العصور محكوم بالاجانب ، وقل من يقصد منهم من بلاد المسلمين غير الحجاز ، فاذا لقوا فيه اصناف الشقاء وانواع التعاسة مع ما يعلمون له من المكانة الدينية والسياسية وكونه الانموذج المعروض لو فود كل الامم ، وكون السلطان حفظه الله ينعت كل جمعة على كل منبر في الدنيا افتخارا بخادم الحرمين الشريفين وحاميهما، فاذا كانت حاله كما هي الآن فكيف يكون الحكم على باقي المملكة وعلى ساستها ؟

لو قلت لا يجد اعداء الدولة معولاً يهدمون به نفوذها في المسلمين ، وصابونا يغسلون به حبها من قلوب الامة ، وحجة يقيمونها للأمم على ان الترك اعداء الانسانية والاسلام والعرب خصوصا - اكبر وأوضح من الحال التي كان بها الحجاز ونرجو ان لا يعود الى ما يقاربها — لو قلت هذا لم يفند قولي عاقل عالم منصف

إن الاصلاحات التي يجب إجراءها في الحجاز كثيرة جدا ولندع ما كان منها فنيا او قانونيا لمن هو أقرب عهدا منا بها واوسع اطلاعا منا ،ولكننا نلمع إلى شيء قليل مما لا يجوز السكوت عنه :

إن الحرم الشريف وهو المسجد الوحيد المشترك بين اكثر من ثلاث مئة واربعين مليونا من البشر على حال يتأفف منها العقلاء، قد احاطت به بيوت يسمونها المدارس يسكنها الوف من الناس وكلها فيها كنف (مراحيض) ذات بلاليع في الارض تختزن بها الاقذار ، فاذا سالت السيول امتلأ الحرم بتلك النجاسات و بقي عفنا عدة اسابيع وقد تكرر وقوع ذلك . واذا نزلت الامطار تشربتها الارض فيتصاعد حينئذ منها بخار منتن من كل ارض المسجد، فلا يقدر احد أن يضع جبهته للسجود الا كأنما نفسه كأنه واضع انفه على ثقب كنيف مسدود ، ولو كان ثخن سجادته شبرا !!هذا امر عرفته بنفسي ويعرفه كل من اقام هناك ، مع ان تلك المدارس (البيوت) واجب ازالتها اذ هي قائمة على ارض لا يجوز تملكها البتة ولكن اقامها الجور ودعمتها الرشوة !

ثم ان المياه التي تشربها الارض تنحدر الى المنخفضات ، ولا ريب بأنه يصيب بئر زمزم حظ من تلك النجاسات السائلة ، فلذلك صار ماؤها كثير الديدان والجراثيم الضارة . فاذا كنا لا نقوم بتطهير ما يقارب تلك البئر المقدسة ولا نبعد عنها السوائل النجسة القذرة السامة ولا نعيد الحرم كما كان في العصور الصالحة كامل النظافة اذ كانت مواضع الاقذار بعيدة عنه وعلى ظهر الارض - فأي حجة لنا على الاجانب اذا حكموا باراقة ما تزوده الحجاج من ذلك الماء المبارك كما تراق المستقذرات ! ومنعوا إدخاله الى بلادهم حرصا على حفظ الصحة !!!

إننا لو قمنا بالنظافة المطلوبة التي هي من الايمان ، وطهرنا ما جاور البيت من الانجاس والادران ، لكان لنا من ماء زمزم المبارك مورد عظيم ، ولوجدنا مئات الشهادات من نطس الاطباء فيما له من الخواص العجيبة الحسية فضلا عن الخواص المعنوية ، واذ ذاك يمكننا ان نبيع منه في اقطار العالم ملايين من القوارير

فمتى نرى تلك الاراضي المغتصبة من المسجد الحرام ومن حواشي المسعى قد أعيدت ؟ ولو ارادت الحكومة ان تبذل لاصحابها الظالمين بدل تلك البنايات الغير محترمة فانها تجد من كرام المسلمين تلبية تسرها ببذل الاموال حبا في تطهير الحرم الطاهر من آثار الاستبداد والجور

ثم انه لا بد من انارة الحرم الشريف بالنور الكهربائي لوفور ضوئه وحسنه وبهائه، وبذلك يتوفر أكثر من نصف ما يصرف الآن عبثا للاسراج بتلك القناديل الوسخة التي لا يتجاوز نورها زجاجها ! ويستغنى عن جيوش السراجين . ويمكنهم استخدام تلك الآلات نهارا في جلب الماء من زمزم واجرائه في مواسير الى خارج المسجد فيسلم من بلل قِرب السقائين المخرقة ونحو ذلك

ولا غناء عن هدم مقامات الائمة لأنها مبتدعة فيكتفى بامام واحد يرضى فضله وعلمه ودينه، ولينزه البيت وصحنه من خدمة الاغوات الذين هم تركة العصور المظلمة الظالمة وخدمة الجبابرة من الملوك الذين لجهلهم بالدين أحبوا ان يجعلوا خدمة الكعبة وحجرة النبي (ص) من جنس ما يستخدمون في بيوتهم ! وهيهات هيهات، ويمكن ان يوظف بدلهم نحو ثلث عددهم من الأخيار الاتقياء الحسني السيرة المعروفين لدى العدول، ولا شك بأنه يكفي لمن ذكرنا قليل مما يذهب ضياعا مع أولئك الأغوات .

انني كنت في بعض جهات أوربا فزعم بعضهم ان الخصاء مما يأمر به الاسلام! وانه من الحتم عند المسلمين ان لا يخدم السلطان ولا يعمل في الكعبة ولا يتولى سدانة الحجرة المنيفة الا الخصيان ! وقد أفدت محدثي بتحريم الشريعة المحمدية للخصاء وبراءتها من تلك البربرية فلم يقتنع، ولم تكن له حجة الا هذه النقط المحزنة المسيئة سمعة الاسلام، ولعمر الحق ان التغالي في اثمانهم لما يغري النخاسين الطامعين فالواجب حسم الداء من أصله

وأرى ان يمنع من رمي الحبوب للحمام حتى تضطر إلي مفارقة الحرم بحدوده وهناك تقنص، فلقد جلبت كثرتها أذية للمسلمين وتنجيسا وتوسيخا للمسجد، ونشأ عن ذرقها الكثير أمراض ضارة، ولكثرة الحمام يسهل اقتناصه على الهررة فتأكل بعضه وتدع البعض يتعفن فتنبعث منه أمراض كثيرة الى نحو ذلك

ومن الواجب طرد الكلاب من الحرم كله ثم تسميمها بعد ذلك، فلقد صح أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقتلها إلا ما استثني، والموجود بمكة جله من المرضى

المجرّحة فيقع عليها الذباب الكثير فينقل عنها مواد التلقيح لجملة امراض الى بني الانسان صغارا وكبارا

ويمكن ان يصرف لطلبة العلم الشريف جميع ما يصرف الآن على الحمام والكلاب فان ذلك خير وأبقى

ونحن نرغب إلى مشايخنا الأجلاء ان لا يجعلونا مضغة في الافواه وهزؤا لدى العقلاء، وان لا يلصقوا بديننا النقي ما برأه الله منه من النقائص والسفاسف وعلى الله الاعتماد وحده

هذه أمور نلفت اليها انظار رجال الدولة واعضاء مجلسي الأمة والشورى ومولانا الشريف الحسين وصاحب الدولة والي الحجاز كاظم باشا ليعملوا ما يرونه أقرب للتقوى .

آثار علمية ادبية

العام الهجري الجديد (*)

سنة ١٣٢٧

هلال رآه المسلمون فكبروا ... اطلّ على الاكوان والخلق تنظر
على الدهر حسنا انها تتكرّر ... تجلى لهم في صورة زاد حسنها
وغرته والناظرين مبشر ... فبشرهم من وجهه وجبينه
به توّج التاريخ والسعد مسفر ... واذ كرهم يوما اغرّ محجلا
يحف به من قوة الله عسكر ... وهاجر فيه خير داعٍ الى الهدى
ملائكة ترعى خطاه وتخفر ... يماشيه جبريل وتسعى وراءه

(*) احتفل المصريون بدخول العام الهجري الجديد، وقررت الحكومة جعل أول يوم منه عيدا رسميا تقفل فيه دواوينها وتعطل اعمالها، ولقد نظم الشعراء القصائد في ذلك، فآثرنا ان نثبت منها هذه القصيدة

يسراه برهان من الله ساطع   هدى ويمناه الكتاب المطهر
فكان على ابواب مكة ركبه   وفي يثرب انواره تتفجر

***

مضى العام ميمون الشهور مباركا   تعدد آثار له وتسطر
مضى غير مذموم فان يذ كروا له   هنات فطبع الدهر يصفو ويكدر
وإن قيل أودى بالالوف اجابهم   مجيب لقد احيا الملايين فانظروا
اذا قيس احسان امرىء باساءة   فاربى عليها فالاساءة تغفر
ففيه افاق النائمون وقد أتت   عليهم كأهل الكهف في النوم اعصر
وفي عالم الاسلام في كل بقعة   له أثر باقٍ وذكر معطر
سلوا الترك عما ادركوا فيه من منى   وما بدلوا في المشرقين وغيروا
وان لم يقم الا (نيازي) و (أنور)   فقد ملأ الدنيا نيازي وانور
تواصوا بصبر ثم سلوا من الحجى   سيوفا وجدّوا جدّهم وتدبروا
فسادوا وشادوا للهلال منازلا   على هامها سعد الكواكب ينثر
تجلى بها عبد الحميد بوجهه   على شعبه والشاه خزيان ينظر
سلام على عبد الحميد وجيشه   وامته ماقام في الشرق منبر

***

سلوا الفرس عن ذكرى اياديه عندهم   فقد كان فيه الفرس عميا فابصروا
جلا لهم وجه الحياة فشاقهم   فباتوا على أبوابها وتجمهروا
ينادون: أن مني علينا بنظرة   واحيي قلوبا أوشكت تتفطر
كلانا مشوق والسبيل ممهد   الى الوصل لولا ذلك المتغشمر
اطلّي علينا لاتخافي فاننا   بسرك أوفى منه حولا واقدر
سلام عليكم امة الفرس انكم   خليقون ان تحيوا كراما وتفخروا
ولا اقرئ الشاه السلام فانه   يريق دماء المصلحين ويهدر

***

وفيه هوى عبد العزيز وعرشه   واخنى عليه الدهر والامر مدبر

ولا عجب إن ثُل عرش ممالك   قوائمه عود ودف ومزهر!!
فألقى إلى عبد الحفيظ بتاجه   ومرّ على درّاجة يتعثر!
وقام بأمر المسلمين موفق   على عهده مرّاكش تتحضر

***

وفي دولة الافغان كانت شهوره   وايامه بالسعد واليمن تزهر
أقام بها والعود ريان أخضر   وفارقها والعود فينان مثمر
وعوّذها بالله من شر طامع   إذا ما رمى (أدورد) أو راش قيصر

***

وفيه نمت في الهند للعلم نهضة   أرى تحتها سرا خفيا سيظهر!
فتجري الى العلياء والمجد شوطها   ويخصب فيها كل جدب وينضر
وفيه بدت في أفق «جاوة» لمعة   أضاءت لأهليها السبيل فبكروا
وياليته أولى الجزائر منة   تفك بها تلك القيود وتكسر
وفي تونس الخضراء ياليته بنى   له أثرا في لوحة الدهر يذكر

***

وفيه سرت في مصر روح جديدة   مباركة من غيرة تتسعر
خبت زمنا حتى توهمت انها   تجافت عن الاسراء لولا كرومر
تصدى فأوراها وهيهات ان يرى   سبيلا الى اخمادها وهي تزفر
مضى زمن التنويم يا نيل وانقضى   ففي مصر أيقاظ على مصر تسهر
وقد كان «مورفين» الدهاء مخدرا   فاصبح في اعصابنا يتخدر
شعرنا بحاجات الحياة فان ونت   عزائمنا عن نيلها كيف نعذر
شعرنا وأحسسنا وباتت نفوسنا   من العيش إلا في ذرى العز تسخر
اذا الله احيا أمة لن يردها   الى الموت قهار ولا متجبر
رجال الغد المأمول انا بحاجة   الى قادة تبني وشعب يعمر
رجال الغد المأمول انا بحاجة   الى مصلح يدعو وداع يذكر
رجال الغد المأمول انا بحاجة   الى حكمة تملي وكف تحرر

رجال الغد المأمول انا بحاجة ... الى عالم يدري وعلم يقرر
رجال الغد المأمول انا بحاجة ... اليكم فسدوا النقص فينا وشمروا
رجال الغد المأمول لا تتركوا غدا ... يمر مرور الأمس والعيش أغبر
رجال الغد المأمول ان بلادكم ... تناشدكم بالله ان تتذكروا
عليكم حقوق للبلاد أجلها ... تعهد روض العلم فالروض مقفر
قصارى منى أوطانكم ان ترى لكم ... يدا تبتني مجدا ورأسا يفكر
فكونوا رجالا عاملين أعزة ... وصونوا حمى أوطانكم وتحرروا
ويا طالبي الدستور لا تسكنوا ولا ... تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
اعدوا له صدر المكان فانني ... أراه على أبوابكم يتخطر
ولا تنطقوا الا صواباً فانني ... أخاف عليكم ان يقال تهوروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ... وما ناله في العالمين مقصر
لقد ظفر الاتراك عدلا بسؤلهم ... ونحن على الآثار لا شك نظفر
هم لهم العام القديم مقدر ... ونحن لنا العام الجديد مقدر
ثقوا بالامير القائم اليوم انه ... بكم وبما ترجون أدرى وأخبر
فلا زال محروس الاريكة جالساً ... على عرش وادي النيل ينهي ويأمر

محمد حافظ ابراهيم

باب الأخبار والآراء

خطبة السلطان (*)

« في ضيافته للمبعوثين »

أيها المبعوثون الافندية

إني اصبحت في الحقيقة ممنونا جدا لتناولي الطعام هذه الليلة مع سائر وكلاء أمتي العثمانية ورعيتي الشاهانية فكأنني مع جميع افراد أمتي العزيزة !! زاد حضرة الحق تعالى عددها وسعادة حالها . ان هذه الليلة لمباركة وسعيدة وأظن أنها اول ليلة من نوعها في تاريخ دولتنا العلية ولذلك فاني ابارك عليها وأسأل الله ان يشرفنا جميعا بدوام وقوع أمثالها .

ان هذا الاجتماع المسعود هو مبدأ دليل الآثار الفياضة التي منحها القانون الاساسي لدولتنا وامتنا ووطننا والتي سيمنحها في المستقبل الى ماشاء الله تعالى . فهو اذا جدير بالتبجيل

ايها المبعوثون الافندية

كونوا على علم بأن الله هو حامي حقوق السلطنة والمملكة والدولة أولا ، ثم الامة ومجلس نوابها الذلك كانت وظيفتكم هامة ومقدسة ، وغاية مطلوبي ان تجعلوا سعيكم وغيرتكم وقصدكم ونيتكم بنسبة تلك المكانة الهامة وهذه القدسية . واني اؤكد لكم بأني نصبت نفسي بعناية الكريم للمحافظة على أحكام القانون الاساسي الضامن والكافل

(*) ادب السلطان للمبعوثين مأدبة حضرها معظم المبعوثين ، وتخلف فريق منهم عن حضورها ، وكانت أعدت خطبة سلطانية للترحيب بالمبعوثين لازالة ذلك الأثر السيء الذي علق بأذهانهم من خطابه في افتتاح مجلسهم (راجع ص ٨٨٠ م ١١)

لهذه الحقوق المقدسة . وأؤكد لكم بأنه اذا وجد من يخالفه فأني سأكون أول خصم وأول عدو له أيا كان بصفتي خليفتكم وسلطانكم

نضرع إلى الله تعالى أن يكون معينا وظهيرا لنا في سعينا وغيرتنا في سبيل دولتنا وأمتنا وسلامة وطننا المقدس (١)

* * *

جواب رئيس مجلس المبعوثان

﴿ عن خطبة السلطان ﴾

إن التاريخ الذي ينقل الوقائع الماضية للخلف لم يسجل الى الآن في حياتنا السياسية يوما عظيماً بهذا المقدار . ان السلطان والامة اللذين كان يتحسر أحدهما على رؤية الآخر من زمن طويل يأكلان اليوم على مائدة واحدة ويشربان من إناء واحد ! . ولم يعرف مثل هذا الائتلاف والاتحاد الا في عصر السعادة (٢)

مرت ثلاثة عشر قرنا والشرق محروم من رؤية السلطان مع الأمة وجودا واحدا. ان العرب قد أظهروا للوجود مدنية عظيمة وكذلك العثمانيون سيكونون متمدنين قلبا وقالبا مع سلطانهم، وبذلك يكونون موفقين لاعلاء شأن الوطن والتوفر على حفظه وصيانته ويكسبون موقعا ممتازا في عالم المدنية . ونواب الأمة يعرضون لذاتكم السلطانية تعظيمهم واحترامهم لقاء ما نالوه في هذه الليلة من جلالتكم من الاعزاز والالتفات

---

(١) بعد ان اتم جواد بك رئيس كتاب المابين هذه الخطبة التفت السلطان الى احمد بك رضا رئيس المبعوثين قائلا « انني لا اذكر دقيقة واحدة من عمري كنت سعيدا فيها بهذا المقدار! »

(٢) يريد بذلك عصر النبوة وزمن الخلفاء الراشدين الذي كان الخليفة فيه لا ميزة له على أحد من أفراد الامة ، ذلك العصر الذي كان يجرأ فيه رجل من آحاد اليهود أن يمد يده الى النبي صلى الله عليه وسلم ممسكا بثوبه مخاطبا اياه بقوله: انكم يابني عبد المطلب قوم مُطْل! انه لعصر جدير بأن يسمى عصر السعادة

نهضة الازهريين

عسير على المفكر أن يحيط علما بكل ما يقع تحت نظره ، وعزيز عليه ان يجهل اسباب أمر واقع، ولهذا كان الفكر كثير الدأب والتجوال ،لا يقر له قرار حتى يكون له إدراك صحيح لما يرى ويشاهد ، واذ ذاك يرى أنه اذا حكم على شيء كان ذلك الحكم مدعما بالاستقراء ، ناتجا عن مقدمات لا تنتج غيره .

ان فيما يتفق عليه جمهور المفكرين كثيرا مما يكون موضعا للشبهة، وللأفكار فيه مسارح ومذاهب ،لطموس معالمه وخفاء كنهه ،ولذلك لم يتحقق الإجماع على ما لا يعد من البديهيات الا فيما ندر وقل،وان مما اتفق عليه العلماء استحالة وقوف عمل ما عند حد محدود ،لا يتنزل الى هبوط ولا يتوقل الى صعود ،

لا يبعد ان يذهب قصار النظر إلى إمكان ذلك ،واني لا اوجه كلاما الى هؤلاء، بل اخاطب به أرباب العقل ، وأريد بهم أولئك الذين لا يهملون أمر الفكر، بل يستعملونه فيما خلق له ، ولكل وجهة ومنحى

تأمل في أي عمل من الاعمال تأمُّل نافذ البصر ثاقب البصيرة ، ثم ارجع الى نفسك، وأنا ضمين بأنك تحكم إما بترقيه واما بتدليه ولا وسط بينهما

كل هذا مما اثبتته المشاهدات،واستفاضت بتفصيله النظريات،حتى بات من المقررات، التي لا نزاع فيها بين من يعقل ويفكر ، ولذلك كان في حال الأزهر وبقائه في نقطة محدودة لا يتجاوزها قيد شبر لمن ينظر اليه بادي الرأي حيرة للعقول ومضلة للافهام ! !

افرغ ذلك العاقل الحكيم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده جهده في سبيل إصلاح الازهر وقضى دائبا على ذلك سنين لو أمضاها في التأليف والكتابة لملأ الخزائن حكمة وعرفانا

صاح بالازهريين صيحة صمت منها آذان وتفتحت بصائر ، فأصاخ قوم لقوله، وثار آخرون ينبزونه بالالقاب ، ويعرقلون مساعيه العظيمة ، فريق منهم عانده عن غي وجهل ،وآخرون كانوا يُمنون ويوعدون ،وكثيرون منهم حملوا على ذلك وهم

كارهون !! ولكن الامام كان في أول الامر مؤيدا من الامير فلم تؤثر في عمله صيحاتهم ، ولم تصدف به عن سعيه سعاياتهم ، فأسس للازهر مجلس ادارة على نمط ديمقراطي لايدع لكبير نفوذا فيه ، ولا للامير سلطة عليه ، ونفخ روح الاستقلال في رجاله ، بما كان يريهم من جلائل اعماله ، وجلس من الطلاب مجلس مفيض الحكمة على العقول ، ومربي الاخلاق والنفوس

لم تكن العقبات والعواثير الأولى صادّة له عما انتدب له وصمم عليه ، بل كان لا يأبه لها – وذلك شأن أرباب النفوس الكبيرة – الى ان ظهرت له بشكل جديد ، يمدّها نفوذ قويّ ، ويؤيدها مقام عليّ ، فتنكر لها كما تنكرت له ، وواثبها حينا كما واثبته ، حتى كانت تلك الوقفة المشهورة للامير ، وفيها نطق بما كان اكنّه ، واظهر ما اخفاه واجنّه ، قال :

« ولقد كنت اود ان يكون هذا شأن الازهر والازهريين دائما ولكن من الاسف رأيت انه وجد فيه من يخلطون الشغب بالعلم ومسائل الشخصيات بالدين ويكثرون لذلك من اسباب القلاقل حتى انه لما بدا شيء من بعض المغاربة المجاورين فيه عند اسكانهم في المحال التي خصصت لهم في الاروقة التي عمرت حديثا على نفقة ديوان الاوقاف كان من اهل الازهر نفسه من يهددهم بالعساكر ويتوعدهم بالنفي ويستفز نفوسهم بمثل ذلك للقيل والقال والاضطراب والهياج » الى ان قال :

« وأول شيء اطلبه انا وحكومتي ان يكون الهدوء سائدا في الازهر الشريف والشغب بعيدا عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته الا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء »

نطق الامير بخطبته تلك ففهم الامام من بواطنها أكثر مما فهم الناس من ظواهرها ، فاستيقن أن العراقيل التي تقف في سبيله إن لم تقدر على زحزحته عن مكانه ، فانها كفيلة بتعطيل عمله واصلاحه ، فخرج من حضرة الأمير والأسف مشتمل على نفسه ، ورأى ان الخروج من مكان أراد ان يجعله كعبة للاصلاح ، فحيل بينه وبين مايريد — أصبح واجبا محتما ، فاستقال من ادارة الأزهر هو وصديقه العامل الشيخ عبد الكريم سلمان ، ولقد كان لتركهما الأزهر اضطراب وحزن

شاركت مصر فيه سائر انحاء العالم الاسلامي ، لان الرجاء بالاصلاح الاسلامي كان معقوداً بهذين الرجلين الزعيمين به . ثم مضى الامام إلى ربه ولسانه يتلجلج بقوله :

ولكنه دين أردت صلاحه   أحاذر أن تقضي عليه العمائم

استحوذ اليأس على النفوس من إصلاح الأزهر بعد ذلك ، وحكم الناس بأنه سيصير طللا دارسا ، لان طريقين يسير الناس فيهما في هذه الدنيا : فإما فناء وإما ارتقاء ، ولا ثالث لها ، ولا وسط بينهما كما مرّ من قبل ، واجمع الكثيرون على ان الأزهر سائر في الطريق الأولى ، وصادف عن الأخرى ، وكان أناس في حيرة من أمر الأزهر ، ظانين انه واقف ساكن لايسير الى تدلٍ ولا إلى رقي !! وهذا هو المحال بعينه . وقد كان الاستاذ الامام يقول : يستحيل ان يبقى الازهر في هذا العصر على ماهو عليه فان لم يعمر ويرتق فلابد أن يخرب ويزول

رأى الأمير بعد ذلك ان يصرف عنايته في سبيل إصلاح الأزهر ، وتغير رأيه في حظ الحكومة منه ، وادخال العلوم الجديدة عليه ، حتى أصبح يراها من الفروض المحتمة ، فألف له مجلسا عاليا ، وترئسه في بعض الاحيان ، فقرر المجلس وضع نظام جديد للازهر ، ودأب اعضاؤه يجمعون نظامات المدارس الاميرية وما كان وضعه المرحوم الاستاذ الامام ، وخلصوا من كل ذلك نظاما جديدا وضعوه ليسير عليه الازهر ، فكان من عيوبه الكثيرة ان الاساتذة أنفسهم لا يستطيعون السير عليه ، فقد وضعوا فيه علوما جديدة أوجبوا على الطلاّب ممارستها ، وأكثروا فيه من العلوم والفنون التي يستحيل على طالب لم يتوفر على تحصيلها من قبل ان يلمّ بها ، وحتموا على من أوشكوا ان ينتهوا من الامتحان تأدية الامتحان فيها ، مع علمهم بأن هذا من الارهاق الذي لا يستطاع حمله ، فان الطالب الذي بلغ الثلاثين أو ما فوقها يعسر عليه أن يرجع إلى مدارسة كتب السنة الأولى وبينه وبين الامتحان سنة أو سنتان ! ! على انه لا يوجد من الاساتذة من يحسن تدريسها بل لا يوجد من ألمّ بها أو زاولها !

سألني أستاذ عهد اليه تدريس تاريخ آداب اللغة ماذا أفضل من التواريخ لإقرائها ؟ أ ابن خلكان أم ابن الأثير ! ! ! وجاءني أستاذ آخر يسألني ما هي المحاضرات ؟ ! وربما كان السائلون لغيري أكثر ، على أنهم يسألون عن موضوعات

ليست غريبة عنهم فما بالك بعلوم الطبيعة والرياضة ونحوهما ؟

جاء البرنامج الذي وضعوه حاويا أ كثر من عشرين فنا مابين قديم وجديد، وأوجبوا على طلاّب السنة الثانية عشرة ان يمتحنوا فيها فكأنهم بهذا فرضوا عليهم أن يعودوا الى السنة الأولى ! ووزعوا العلوم على من لا يحفظ حتى أسماءها ! فمن ذلك أنهم فرضوا على ضرير ان يقوم بتعليم الاملاء ! وأرادوا على تدريس الرياضة من لا يحسن القواعد الأربع ! وهكذا كان توزيع سائر العلوم على المدرسين فكانوا كلما توغلوا في تطبيق النظام ازداد التهويش والاضطراب

رأى الطلاب انهم مسوقون في طريق غير معبّدة ونهج غير سوي، فاستيقنوا أن النهاية ستكون شرا من البداية، وكان كثيرون منهم ممن حضروا دروس الاستاذ الامام عرفوا منها ان للانسان أملا في هذه الدنيا يسعى اليه، وغاية يقصدها بعلمه وعمله، ورأوا أنفسهم انهم ليسوا من ذلك في عير ولا نفير، فاضطربت أفئدتهم وحزنت نفوسهم

اطلوا على مستقبل مظلم، مسبوق بالنكد والارهاق، ورأوا الأهواء تصرفهم، وبؤس العيش يؤذيهم، فهبوا من رقدتهم، واستيقظوا من غفوتهم، ونهضوا نهضة من نفخت فيه نسمة من الحياة كانت ساكنة ولا محرك لها فحركتها حرارة هذا النظام وبرودة تنفيذه من جهة فصارت ريحا عاصفا

ولا يقيم على ضيم يراد به ... الا الاذلان عير الحي والوتد

من ذا الذي كان يظن ان طلاّب الأزهر سيخرجون من الازهر بقضهم وقضيضهم وهم بضعة آلاف ليعلنوا للملأ ان ماهم فيه لا يرضى به من كان إنسانا، وان ما أوتوه من النظام الجديد انما هو نتيجة افكار تستطيع ان تحشر المؤتلف والمختلف معا، ولكنها لا تحسن النظام بل لا تعرف طرقه ؟

خرج الطلاب من أزهرهم حذر ما أريدوا عليه، وابتغاء الوصول الى خير منه، فطوّفوا في الشوارع، وذهبوا الى الجزيرة فخطبوا، وكان مظهرهم من أجمل ما تقع عليه العين، وكان أحسن ماهم فيه نظامهم وأناتهم، فقد كانت صفوفهم متوازية، وأبصارهم خاشعة، تأدبا بأدب الدين، وتخلقا بأخلاق حملة العلم.

سرّ الناس بهذا المظهر الجميل أو المظاهرة كما يقول الكتاب، وارتاحت نفوسهم

إلى الأزهريين بعد ان حكموا عليهم بالموت الزؤام، ولكن القيمين عليهم من المدرسين والمفتشين ريعوا وغضبوا، وصوروا الحال للأمير بعكس ماوقع، فأوهموه ان فريقا أو أفرادا حقيرين «وكلمتهم الحقيقية : هلافيت !» قاموا يصخبون ويصيحون، وأن تأديبهم من السهولة بمكان، فلم يحفل الأمير بندائهم، ولم يستجب لقولهم، ولكن ظهر بعد ذلك غشّهم لانفسهم وللأمير، ورأوا من اتحاد الازهريين وصدق عزيمتهم أ كثر مما عندهم من القسوة والصلف، وان الامر واقع ماله من دافع، فلم يزدهم ذلك الا تشددا وعتا، ظنامنهم أن الشدّة تفرق جمعهم، وتحل عرى اتحادهم، فجاءوهم برجال الشرطة وركبانها، فأحاطوا بالأزهر من كل جهة، وسدوا من دون طلابه كل منفذ، حتى ان فريقا منهم لم يرض بما دون التحرش بقاله وأعماله، فاين من هذا تهديد المغاربة الذي عده الامير بدعا ? ولكنهم ألفوا الطلاّب مدّرعين بالأناة والصبر، معتصمين بحبوة التؤدة والسكينة، فما استطاعوا حملهم على ما يكره من مثلهم، ولا إرادتهم على غير ما أرادوا أنفسهم عليه،

لم تقف الحكومة موقف الحكمة امام حركة الازهريين، بل وقفت شاخصة ببصرها كمن تعرض امامه أنواع من الصور المتحركة ! ولم تحفل بمطالب الازهريين الذين اضربوا عن حضور دروسهم رجاء نيلها، على انه لم يكن من العسير اجابتهم الى بعضها، ولو انهم اجيبوا لرضوا وشكروا، وتنازلوا عن المطالب الاخرى واعتذروا

طلبوا المساواة بين المعاهد الدينية في حقوق الطلاب ورواتب المدرسين حتى لا يكون راتب المدرس في الازهر مئة قرش وراتب ضريعه في الاسكندرية ثمان مئة قرش كما هي الحال الآن مع ان الازهر رأس المعاهد الدينية. فمن ذا الذي لا يقول انهم طلبوا حقا والتمسوا مساواة وعدلا ؟

طلبوا مدرسين من ارباب الكفاءة والاضطلاع ولا سيما الذين يعهد اليهم تدريس العلوم الجديدة التي لا يقدر غير الضليع بها على تدريسها، وان تلقى اليهم على نحو القائها في المدارس النظامية، وأن ينفذ النظام الذي وضع لهم بالتدريج اتباعا لسنة الارتقاء الطبيعي، لا أن يدفعوا به في صدورهم مرة واحدة، ويحملوا على الجري عليه كلمة كلمة، افليسوا بهذا المطلب محقين، وبه جديرين ؟

طلبوا أن يكون لحملة الشهادة الابتدائية والثانوية منهم حظ من الاستخدام في المحاكم الشرعية والاوقاف والخطابة والوعظ وغير ذلك من الوظائف الحقيرة . فهل هم بذلك مخطئون بما طلبوا ؟

طلبوا أن لا يحمل الطالب الذي يؤدي الامتحان في هذا العام على تأدية الامتحان في العلوم الجديدة التي لم يدرسها ولم يعرف من امرها شيئا ، لأن حمله على اداء الامتحان فيها من الارهاق والظلم البين فهل اساءوا وظلموا !

طلبوا ان يكون لهم احترام امام ذوي السلطة ، وأن يسمح لهم بالسفر بنصف اجرة في السكك الحديدية ولشيوخهم من دون اجرة مساواة لهم برؤساء الاديان الاخرى ، فهل كانوا بذلك بدعا ، ام اتوا امراً إدا ؟

تلك معظم مطالب الازهريين فأي منصف بل اي مجحف يبيح لنفسه الادعاء بأنهم ليسوا احق بها واهلها؟ رأوا أنهم هضموا وظلموا، واعطي اخوانهم في الاسكندرية فوق ماسألوا ، فطلبوا المساواة بهم . ورأوا أن العلوم وزعت على مدرسين لم يحيطوا بها علما ، بل لم يعرفوا لها حدا ولا رسما ، وقد مر على القارىء ان الإملاء عهد في تدريسه الى اعمى ، والرياضة الى من لا يعرف لها مسمى ، فكيف مع هذا لا يكونون محقين في طلب المدرسين الا كفاء ، والعلماء الفضلاء ! . ورأوا ان الحامل منهم للشهادة الابتدائية اسوأ حظا من حجاب المحاكم ، وغيرهم من مزاولي ما هو دون مهنتهم ، فطلبوا ان يكون لمن يحملها نصيب في بعض الوظائف الحقيرة ! فهل هم بذلك ظالمون ؟ رأوا انهم ممتهنون مزدرون وان واحدهم اذل من قيسي بحمص ، وان أندادهم واقتالهم من ارباب الديانات الاخرى لهم من الاحترام عند رجال الحكومة ومن الميزة في بعض الشؤون ماحملهم على الطلب بأن يعاملوا مثلهم ، فهل يعد هذا من الافتيات !

وهنا لك مطالب أخرى ما كان لهم أن يطلبوها وان كانت حقا وعدلا ، كطلب تعيين شيخ الجامع الازهر بالانتخاب وغير ذلك وربما يكونون طلبوا كل ذلك ليجابوا الى بعضه ، على ان الحكومة هزأت بهم وسخرت منهم ، فكان ذلك داعية لصدور حكم المجلس العالي للازهر عليهم وهذا هو حكمه بعد ذكر الاسباب :

« قرر المجلس ما يأتي : حرمان طلاب العلم بالجامع الازهر من المرتبات

والجرايات والامتيازات الحائزين عليها بحسب تبعيتهم للازهر ويمنعون من دخوله !! الخ »

جوزي الازهريون بهذا الحكم لطلبهم تلك المطالب ، وسيحفظه التاريخ الذي لا ينسى شيئا ، ويكون لمن بعدنا حكم عليه واي حكم !!

لم ار فيما رأيت في هذه البلاد امرا عنيت به الامة واضطربت له عنايتها واضطرابها بأمر الازهريين ، وليس لهذا من سبب الا الشعور العام بأنهم مغموطون مضطهدون ، فكان اندفاع الامة في الرغبة الى الحكومة والالتماس من الامير بمعاملة الازهريين بالرفق والحسنى ، وإجابتهم الى ما طلبوه بحق وعدل - كان ذلك سببا لنهضة النظار ورغبتهم الى الامير ان يصفح عما عده ذنبا للازهريين ، وقد كان ذلك وقرر إرجاع الازهر الى قانون سنة ١٣١٤

سكنت ثائرة الأزهريين وارتاحت نفوسهم الى هذا القرار ، وأفرخ روع الأمة بعد القلق والاضطراب ، ولكن قام فريق من اصحاب الجرائد وكتابها الذين يتكلمون بغير وجدانهم ، ويكتبون بمؤثرات كاذبة يخلقونها لأنفسهم ، — يصيحون ويصخبون متململين من هذه المغبة ، متبرمين من سوء النتيجة ، ناعين على جرائد أخرى كانت تشد أزر الازهريين لأنها كانت تؤيدهم ذلك التأييد ، وذلك ليوهموا الأمة ان الرجوع الى ذلك القانون خسران مبين !!!

لو لم يكن في الرجوع الى ذلك القانون إلا حصر سلطة الازهر في مجلس ادارته لعد هذا وحده غنما واي غنم ، على ان نظام القانون القديم الدراسي كان وضعه على نمط يجعل للطلاب حظا من العلوم الجديدة من دون أن يرهقوا أو يحملوا على مالا يستطيعون ، فقد كان القانون يخول لمن كان في السنة السادسة الاختيار في الامتحان في العلوم الجديدة ، فله ان يمتحن فيها اذا شاء ويكون اذ ذاك مقدما على غير الممتحن فيها ، وذا حظ من الجوائز المالية التي كانت خصصت لمن يبرز فيها . فأين هذا من القانون الجديد الذي يقضي حتى على من كان في آخر سني الدراسة ان يمتحن في تلك العلوم كلها ؟

ليس من يحملك على مالا يستطاع حمله بالقسر كمن يسوقك الى صنع المستطاع المبين بما في وسعه من أنواع الترغيب والتحبيب ، وهذا ماجعل الطلاب يتلقون القانون القديم بالرغبة والجذل ، وحملهم على النفور من الجديد بالكراهة والسخط ؛ وذلك

أمر منتظر والمثل يقول « ان رمت ان تطاع فسل ما يستطاع »

يقول المتفيهقون اللاغطون إن نفور الازهريين من النظام الجديد دليل على جمودهم ، وأنا أقول إنه دليل على استقلالهم ونهضتهم ، وحجة أولئك زعمهم ان الازهريين لم يرتضوه لانفسهم لانه يحملهم على ممارسة العلوم الجديدة وهم لا يشاءون ان يضربوا بسهم فيها !! وسلطاني انهم رفضوه لكونه مشوهامضطربا لا يمكن السير عليه ، وقد مر على القارىء الالماع إلى شيء من مساوئه ، أما العلوم الجديدة فانهم عرفوها أيام كان كثيرون من واضعي النظام يحاربونها ، ويرمون مزاوليها بالتضليل والتكفير . فالرياضة والهندسة والهيئة والميقات وتقويم البلدان والتاريخ — كان يدرسها الازهريون ولكنها كانت تدرس لمن لم يتجاوزوا السنة الرابعة الدراسية ، لا كما قضى النظام الجديد بإرغام جميع الطلاب عليها !

الغرض الاول من الازهر تخريج الاخصائيين في علوم الشرع ، ومن الضروري ان يكون العالم الشرعي ذا إلمام بالعلوم الجديدة لأن الجاهل بها في هذا العصر هو والأعمى شرع ، ولكن من الرعونة والبلاهة ان يراد من العالم الشرعي ان يكون إخصائيا في الرياضة والطبيعة والهندسة وغير ذلك ،

ألا ان الاصلاح الحقيقي لا يكون بزيادة العلوم ووضع القوانين ، وإنما يكون بالرجال الا كفاء الضليعين الذين يزنون الاشياء بميزانها ويضعون كل شيء في موضعه اذا كان لديهم المال الذي يقتضيه ذلك الاصلاح . وإن بين ظهرانينا كثيرين من هؤلاء وهم من متخرجي الازهر وموظفي الحكومة ، فماذا على الحكومة لو عهدت الى هؤلاء اصلاح الازهر - وهم القادرون وحدهم على ذلك - اذا كانت تريد الاصلاح !

واحسن ما نختم به هذه المقالة الثناء على الشيخ حسونه النواوي الذي ظهر من استقلال فكره وكمال رجوليته ما ذكرنا بكلمة الاستاذ الامام فيه « انه افضل من يليق لمشيخة الازهر » بل ما حمله على الاستقالة لأنه لم يجب الى مطالب الازهر بين اذ سألها ، فكان ضنينا بكرامته ان تهان ، وبارادته أن تتلاعب بها الاهواء ، وهذا هو الرجل الفذ ا كثر الله فينا من أمثاله

حسين وصفي رضا

ندوة العلماء الهندية

« تأسيسها داراً للعلوم »

ان لندوة العلماء في الهند مساعي في خدمة الدين الحنيف جليلة ، وسعياً في خير النوع الانساني مبرورا ، وقد اتجه عزمها الى انشاء مدرسة كبرى للعلوم (جامعة) دعتها (دار العلوم) واحتفلت في أول شهر ذي القعدة الماضي بوضع الحجر الأول من اساسها ، وقد قالت في ذلك مجلة البيان التي تصدر في مدينة لكنؤ (الهند) :

« عقدت حفلة ندوة العلماء في ٢٨ و٢٩ و٣٠ نوفمبر الفارط في مدينة لكنوء فامها المسلمون من كل الاصقاع من الامراء والعلماء والوجهاء ، وكانت الحفلة بهيجة لم ير الناس مثلها في حسن انتظامها وبلاغة ما ألقي فيها من الخطب الداعية الى نشر المعارف وإعادة مجد العربية في بلاد الهند ومحو المراسم والبدع التي تجري عليها العامة باسم الدين ورفع الخصام الملي واصلاح ذات البين وتوطيد الاخاء والوئام بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وآرائهم ، وتمت الحفلات ولم يحدث فيها ما يريب ذوي الالباب أو يشين الجمعية المعروفة بندوة العلماء

وقد اجتمع في هذا الاحتفال جمهور كبير من صنوف الناس فيهم المسلمون والافرنج والهنود وكان بين المسلمين اهل السنة وعلماؤهم والشيعة ومجتهدوهم والمقلدون والمستقلون والصوفية والاحناف والوهابية والمتفرنجة . وهو أول اجتماع ديني حفل أهل المدن المختلفة كأنما هو طاقة رياحين مختلفة نفحاتها والوانها

ولما حانت الساعة المعينة اتى الوالي السرجون هويت وقرينته فاستقبلهما اعضاء الندوة واتوا بهما الى الدكة المقامة لجلوسهما فجلسا على كرسيين من الفضة وافتتح الاحتفال بعد ان تلا القارىء آيات من القرآن الحكيم ، وقدمت الى الوالي عريضة الحال فأجاب بخطبة مسهبة اثني فيها على الخطة التي سارت عليها الندوة من رفع الخصام

ونشر المعارف الحديثة ممزوجة بعلوم الدين وعدّ اعضاء الندوة من مخلصي دولته وقام بعد ذلك مع جماعة من وجهاء المسلمين ووضع حجر اساس المدرسة »

وهذا نص العريضة التي قدمت الى الوالي نقلناها عن المجلة الخاصة التي تصدرها الندوة باسمها :

مولاي الاكرم : نحن اعضاء ندوة العلماء نرحب بكم من حيث كونكم نائب الحكومة في هذه الايالة ونشكركم على اجابتكم دعوتنا لوضع حجر أساس دار علوم الندوة فيشكركم على ذلك كافة المسلمين فان الندوة كأنها لسان حال الامة ولا يوجد قدر شبر من الارض الا وفيه انصار الندوة وحماتها وقد استبان بهذا ما للدولة من التسامح الديني الذي هو من مزايا الامة الانكليزية خاصة والذي هو ملاك الحكومة وعمودها فان الندوة ليست إلا جمعية دينية

مولاي الاكرم : نحن نستدعى من حضرتكم ان تسمحوا لنا بابداء مطالب الندوة وطوارئها التي من احد مظاهرها الجلية دار علومنا هذه

مولاي الاكرم : ان المسلمين منذ وجدوا الى يومنا هذا لم تزل فيهم طائفة تلقب بلقب العلماء وهم قادة الحزب الاسلامي في أمور الدين واحكامه والامة كانت تقفو اثرهم وتتبع هداهم في كل ما يمس بالدين ولو في أمور الدنيا وكانوا انموذجا لتمدن الاسلام ومكارم اخلاقه . والامر الذي استوجب وجود هذه الطائفة هو ان ما تقوم به جنسية المسلمين ليست خصوصية الاقليم ولا الشعب ولا الاسرة كما هي للامم الأخرى بل كل من اعتنق دين الاسلام يحصل له كل ما كان للمسلمين قاطبة على اختلاف جنسيته وعشيرته ومبدئه، ولما لم يكن للمسلمين حزب يختص بدعوة الدين كانت الامة تحتاج الى مثل هذه الطائفة لكي لا يحيدوا عن قصد المحجة . وهذا الامر دعا الى أن نشأت طائفة كبيرة من العلماء لا يقل عددهم عن امثالهم في الامم الأخرى ومن مزية امة الاسلام ان العلم كان فيها يكتسب لاجل العلم فقط مع صرف النظر عن كل مرمى وغاية - وما في هذه الأمة من احترام العلم والخضوع له والتفاني امر لا تشاركها فيه أمة حتى ان الرؤوس المتزينة بالتيجان كانت تخضع لها كرامة . والحق ان تأخر الامة ما كان الا بعد ما فقدت هذه الطائفة مزاياها فذهب ما كان لها من

المكانة عند القوم وحينئذ حرمت الأمة من قيادتها وتبدد نظامها وعند ذلك اشتغلت هذه الطائفة بمحقرات الامور وبلغ الحال الى أن رفعت الشكاوي الى المحاكم السلطانية فقام حينئذ حزب من العلماء لسد الخلل واقامة معالم الاصلاح وكان من اول مظاهره هذه الجمعية المسماة بالندوة، انعقدت حفلتها الاولى في كانفور سنة ١٨٩٣م وفي سنة ١٨٩٨ م صادقت الحكومة عليها رسميا وبلغت حفلاتها اثنتي عشرة حفلة اجتمعت فيها العلماء وعامة الناس على اختلاف اهوائهم واذواقهم - أما مطالب الندوة فتنحصر مهماتها في أربعة أمور :

(١) ترقية المدارس العربية واصلاحها (٢) رفع المخاصمات الدينية (٣) اصلاح امور المعاشرة والاخلاق (٤) نشر الاسلام وكل ما يتعلق بالمنافع العمومية

في بدء الأمر ظهر الترحيب بالندوة من جميع الامة كافة فتوسعت حينئذ مطالبها وكان من أول مساعيها انها اجتهدت، في رفع الخصام الحادث في احزاب الأمة واصلاح ذات البين وفازت في ذلك الى حد لا يستهان به، وكذلك سعيها بتخفيض نفقات عوائد الفرح والالم لم يذهب ادراج الرياح، ثم ان الندوة أقامت دار الافتاء في لكنوء ومحلا للايتام في كانفور ولكن كان اهم مطالبها امر التعليم ،اصلح ما فسد منه ليكون سبباً لوجود شرذمة تهدي الناس في الأمور الدينية

ومن البين ان التعليم الصحيح هو الذي يزيل كل داء اعترى الامة وحجزها عن سبيل رقيها ونظرا الى ذلك اسست الندوة في سنة ١٨٩٨م مدرسة سمتها بدار العلوم كانت في أول الامر مدرسة ابتدائية ثم تحولت الى كلية في سنة ١٩٠١م وصارت كأنها أساس لجامعة دينية ولما كان أمر التربية اعظم خطرا من التعليم اسست دار اقامة للطلبة ولكن كان من شؤم الحظ ان الأمة لم تقدر مسعى الندوة حق قدره فالفئة القديمة اساءت الظن ان ادخال الفلسفة الجديدة في نصاب التعليم يورث وهناً في الدين ! حتى أُلفت كتب ورسائل في تكفير حزب الندوة . وفوق ذلك ان الناشئة الجديدة ايضا كانت تتقاعد عن الاخذ بناصرنا فانها كانت تحسب ان الندوة تقيد حرية الافكار وكانوا عاجزين عن فهم منافع احياء العلوم العربية اصلا ومع أن الندوة كانت هدفا لسهام كلتا الطائفتين لم تزل لها قدم ولزمت محجتها واختارت

لنفسها جادة وسطا فرتبت نصابا جديدا رجح فيه جانب الادب والعلوم الدينية ، ومع ان دار العلوم لم يمض عليها ردح من الزمان انشأت تلاميذ يقدرون على ارتجال الخطب من غير روية وهذا شيء لم يسبق له مثيل ! وكان يعد امرا نادرا في إبان الحكومة الاسلامية ايضا وقد اضفنا الى نصاب التعليم الفلسفة الجديدة وكانت هذه بدعة تعد وكفرا في المدارس القديمة ، ومما زاد الطين بلة أنا أدخلنا في نصابنا تعليم اللسان الانكليزي لزوما ، فكان من ثمرته حرمان الندوة من بعض المساعدات المالية حتى أن بعضا منهم استرجع ارضا كان وقفها على دار العلوم ! ولم نأل جهدا في الاستفادة مما لاهل الغرب من الاكتشافات الجديدة في العلوم العربية وخزانتنا تحتوي على اكثر ما كتبه المستشرقون في امثال هذه المسائل وعلى كتب غير هذه تصلح أن تكون زينا لكل متحف علمي ، وتلامذتنا لهم مزيد شغف في الاستفادة من تلك الخزانة ، ويوجد فيهم من يكتب في مجلة الندوة مقالات علمية يستحق التنويه بها

والآن اردنا أن ننشيء لجنة يكون اعضاؤها تلامذة مدرستنا الذين يقفون حياتهم على الفحص عن المسائل العلمية المهمة . و بناء على ما توارثنا من آبائنا لا نأخذ للتعليم اجرة ، ونريد ان نوسع نطاق التعليم حسبما تعيننا على ذلك المساعدات المالية

ومن أهم مزايا مدرستنا ان الذين بقوا على الحيادة عن المدارس الدولية لاجل التعصب الديني أو لاجل عدم الثروة لا يجنحون الا الى مثل التعليم الذي اختارته الندوة فانها جعلت تعليمها تحت سيطرة التعليم الديني

ونحن نجترىء على ان نعرض على مسامعكم ان دار علومنا مع قلة بضاعتها وقصر باعها او بت على امثالها من كلا النوعين بنوع خاص ، فانهم ابعد ذيلا عن التقشف وبراء من الفخفخة الفاسدة . ومع ان مدرستنا لا تقدر على احداث طائفة يصلحون للتوظف في اعمال الدولة ولكن نحن على ثقة ان مدرستنا تنشيء رجالا يقدرون على اطفاء الثورات الحالية التي تريد امحاء سيطرة الخالق والمخلوق معا - رجالا يكون من شيمتهم الاستكانة للاكابر والمواساة للجار والتواضع للعامة وفوق كل ذلك : الانقياد للحكومة والخضوع فمدرستنا تنفخ في طلبتها روح المسامحة الدينية التي فتحت أبوابها لكل حزب ، فلم يعتن طلبتنا ولا اساتذتهم بالمشاجرات التي حدثت اليوم بين الفئتين العظيمتين من المسلمين وعلماء

لجنتنا لا يزالون يدعون الناس الى الخير والصلح فترجو من دار علومنا والمدارس التي تتبع سبيلها انها تخرج طلبة سيسودون الامة ويملكون ازمتها مرة اخرى ويحسمون الشقاق ، و يشقون عصا النفاق ، و يصبحون لتوسعهم في المعارف الحديثة والقديمة واسطة موصلة بين الفئة الناشئة وحزب التقهقر العتيق ، ونحن على يقين من ان المسلمين كما يسلم اذعانهم لحكومتهم يزيدون من هؤلاء العلماء الناشئين طاعة وانقيادا للحكومة . والآن تقدم الى جنابكم ازكى التشكرات حيث تفضلتم علينا بقطعة من الارض لترفع عليها قواعد مدرستنا و بعد ذلك نحن نشكر الذين بلغنا من مساعدتهم ومساعيهم الى هذا الحد ، ونخص من بينهم أولا سمو النظام أمير (حيدرآباد) الذي نستغرف من جود امارته من نعومة أظفارنا وان لم نرزق زيارته حتى الآن ، و بعد ذلك نؤدي مفترض الولاء الى سمو الملكة اميرة بوفال التي تمنحنا وظيفة اعانة سنوية ونبث ايادي امارة بهاو بالفور التي رفدت اميرتها غير ما تسمح به امارتها سنويا بمنحة تساوي خمسين الف روبية ، هيأتنا لنتشرف بان تضع سعادتكم حجر اساس كليتنا ونرى من واجباتنا ان نذكر من غير هؤلاء الكرماء الذين اخذوا بايدينا وساعدونا بما توخينا من الخير كرنل خان بهادر عبد المجيد خان وزير خارجية امارة بباياله ونحن نشكر المستر أي - ال - ساندرس - والمستراس ايج بطلرسي . اي . اي والمسترال ام جابلنك الذين نصرونا بتحصيل القطعة التي انعمتم بها علينا . وفي الختام نشكر جنابكم من صميم افئدتنا حيث نصرتمونا بما ثنيتم الينا من اعانة فضلكم ونعيد مرة اخرى تشكرنا الذي تقدمه الى جنابكم حيث قبلتم ان تضعوا بيدكم الكريمة حجر الاساس . والآن نسألكم ان تأخذوا بهذا العمل الخطير الذي يبقى على كر الدهر .

﴿ لقب حاكم المسلمين ﴾

لصاحب الامضاء

رأيت في بعض جرائد الاستانة كلاما عن الخلافة واتهام خديو مصر بالسعي في التلقب بها الى نحو ذلك ولا أدري أي عقل صبياني يقبل تلك المفتريات الباردة ! ان لقب الخلافه لقب شريف وله شروط والخلفاء الحقيقيون الذين هم خلفاء بدون شك قد مضوا رحمهم الله تعالى كما في الحديث المشهور « الخلافة بعدي

ثلاثون ثم يكون ملكا عضوضا » وفي رواية « ملكا وجبرية » انتهى باللفظ أو بالمعنى فمن كان بعد ذلك من علوج أمية أو فساق بني العباس فليسوا خلفاء بل هم ملوك ولم يستثن الا من استقام على الطريقة المثلى ولم تغن عنهم قرشيتهم شيئا ولا ديلمتهم

ثم ماذا جني المسلمون من لقب الخلافة؟ إنهم لم يجنوا غير الافتراق والقلاقل ومنذ استشرى سلاطين آل عثمان لهذا اللقب فتحوا على انفسهم أبوابا من التعصب بدون مقابل، قل لي أي فائدة حازوها بهذا الاسم الضخم؟ أي مملكة افتحوها بهذا اللقب! أي حق استحقوا بهذا المنصب! انني لا اعرف شيئا وما اراهم استفادوا غير نفرة مجانين الملوك وزيادة التفريق الذي اودى بنا. السلطان مفروضة طاعته في المعروف، حرام الخروج عليه لغير سبب مسوغ. كل هذا معلوم فماذا يجب غير هذا له لو كان خليفة مستكمل الشروط!؟ اننا لو اردنا أن نقتصر لأقل ملوك المسلمين الآن على ما كان لابي بكر وعمر رضي الله عنهما ثم شكوا في استحقاقهم له وارجعوه لم يقبل أحد منهم ذلك مع أن اعلاهم كعبا لا يقوم للمسلمين بعشر معشار ما قاما به. لا اقول ان ذلك الاوان مساوٍ للوقت الحاضر يكفي فيه ما كفى في ذاك لا بل اقول بعد مراعاة الأزمنة والاحوال

إذاً يجب النصح والمساعدة لسلطان المسلمين على كل أحد منهم بما قدر عليه سواء سماه امير المؤمنين أو الخليفة أو السلطان أو سلطان كذا أو امبراطورا أو ملكا أو فلان بن فلان بلا فرق. ومن المحسوس أنه ليس للمسلمين سلطان أحق واولى بالاعتبار من السلطان عبد الحميد خان زاده الله توفيقا فالنصح له بعد النصح لله وكتابه واجب وكذا الدعاء له لكن لا على نحو ما يفعله الجهلة وخطباء المنابر في الدعاء او بان يقدموا امامه ما يكون سببا لعدم قبوله من المبالغات والنعوت الكاذبة وما يدل على الخيلاء والابهة والكبرياء فكل ذلك بدعة روجها الوسواس الخناس عليهم وعمل بها علماء السوء عباد الدرهم والدينار. والتواضع والخضوع والصدق في الدعاء والاتباع فيه لما جاء عن سيد المرسلين من أعظم أسباب قبوله. هذه آرائي أعرضها للتمحيص واقترح على خطباء المنابر أن لا يزيدوا على قولهم عبدك الفقير اليك فلان وكأني بهم اذا عملوا باخلاص وقد رأوا علامات الاجابة والله الهادي

سنغافوره س. س. ي

﴿ التاريخ الهجري الشمسي ﴾

عند ما شرعت بوضع النظام أو القانون للجمعية الخيرية الاسلامية في طرابلس الشام خطر لي أن تكون سنيها هجرية شمسية وان يكون أول سنتها شهر مارث (آذار) كالسنة المالية العثمانية وذكرت ذلك في القانون ثم خطر لي أن اذكر هذا التاريخ في المنار إحياء له مع ذكر السنة القمرية التي عليها المعول في الامور الدينية للاستغناء فيها عن الفلكيين والحاسبين. وقد جاء في حسابي ان سنة ١٩٠٩ الميلادية توافق ١٢٨٥ هجرية شمسية لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولد سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح صلى الله عليه وسلم وبعث على رأس الاربعين وأعلن بعثه بعد ثلاث سنين من نزول الوحي عليه أول مرة وهاجر بعد عشر سنين من إعلان الدعوة فتلك ٥٣ سنة تجمع الى سنة الولادة فتكون معها ٦٢٤ تطرح من ١٩٠٩ فيبقى ١٢٨٥. ولكن رأيت بعد ذلك ان الدولة العلية عزمت على ان تجعل حسابها المالي على السنة الهجرية الشمسية وأن سنة ١٩٠٩ وافقت على حسابها ١٢٨٨ هجرية وكأن الحاسبين الذين قالوا بذلك لم يحسبوا سني الفترة بين أول الوحي وإعلان الدعوة وهي ثلاث على المشهور فيجب ان يتقوا مثل غلط النصارى في تاريخ الميلاد فقد أخطأوا فيه بعدة سنين ثم لم يمكنهم الرجوع الى الصواب بعد أن ملئت الكتب والدفاتر بالخطإ

﴿ أهم ما نطلب من مجلس المبعوثان ﴾

(١) إصلاح نظارة الأوقاف وجعل أموال الأوقاف التي تراعى شروطها والتي جهلت شروطها والتي وقفت على الخير مطلقا — كلها لاحياء العلم والدين ونشرهما في جميع البلاد وسنفصل ذلك في وقته

(٢) إصلاح المحاكم الشرعية وأهم أركان هذا الاصلاح جعل المحاكم الشرعية كالنظامية مؤلفة من رئيس وأعضاء وتأليف كتاب لها كالمجلة وجعلها درجات ابتدائية واستئنافية وتمييزية (محاكم نقض وابرام) وترتيب رواتب شهرية كافية للقضاة والكتاب ومنعهم من أخذ الرسوم

(٣) جعل اللغة العربية محتمة في جميع مدرس الحكومة وإنشاء مدارس معلمين ومدارس زراعة

﴿ ذيل لكشف الظنون ﴾

كنت شرعت منذ ست عشرة سنة بتأليف ذيل لكتاب (كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون) تصنيف العلامة منلا كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧ جمعت فيه ما فاته ذكره من أسماء الكتب والمصنفات مع اسماء المؤلفات التي حدثت بعد عصره في اللغات الثلاث الشرقية الى يومنا هذا . رجعت في ذلك الى كتب التراجم وفهارس المكاتب العمومية و بعض المكاتب الخصوصية وضممت الى ذلك الكتب التي وقفت على اسمائها في اثناء مطالعتي لكتب شتى مختلفة المواضيع وأسماء كتب كثيرة دخلت في يدي مع ما وقفت عليه من اسماء المولفات التي اعلنت الجرائد والمجلات طبعها وقد احببت ان اطبع هذا الذيل الحافل اجزاء متتابعة كل جزء مائة صحيفة بقطع الاصل بحيث يصدر في كل شهرين جزء منها . وبما انني قد ذكرت في كتابي هذا كثيرا من مولفات المعاصرين احببت ان لا يفوتني ذكر كثير منها مما لم اطلع عليه لتعذر الاحاطة فارجو من فضلاء العصر وكتابه وادبائه ان يتحفوني في مدة شهرين ونصف باسماء مولفاتهم ومولفات اسلافهم كآبائهم واقربائهم مع ذكر شيء من خطبة الكتاب ونبذة من ترجمة مؤلفه وتاريخ ولادته وان كان متوفى فتاريخ وفاته ومحل طبع الكتاب ان كان مطبوعا وسنة طبعه . وبما انني رتبت هذا الذيل على حروف المعجم كالاصل فاذا أخَّر أحد ارسال اسماء مؤلفاته الى ما بعد الاجل المعين وكان فيها كتاب يدخل في الحرف الذي تم طبعه فاتني ذكر ذلك الكتاب. وأرجو أيضا من أصحاب الجرائد والمجلات ان يتحفوني باسماء جرائدهم ومجلاتهم وتاريخ انشائها و بيان وصفها إجماليا حيث اجعل ذكرها والتنويه بشأنها خاتمة للكتاب وانني اسلف كل من تفضل عليَّ بآثاره كل شكر جزيل وثناء جميل .

يخابرني من شاء بهذا العنوان : (محاسب المعارف في بيروت جميل العظم)

المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب
قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق
﴿ مصر — الاثنين ٢٩ صفر ١٣٢٧ — ٢٢ مارث (آذار) سنة ١٢٨٥ هـ ١٩٠٩ م ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٦٦ : ١٧٠) وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٦٧ : ١٧١) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٦٨ : ١٧٢) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦٩ : ١٧٣) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ *

لما كان ما كان من فوز المشركين في أحد وما أصاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن معه من المؤمنين أظهر بعض المنافقين كفرهم وقالوا لو كان محمد نبيا ما أصيب وغير ذلك مما سبق نقل بعضه · وما سارع هؤلاء في إظهار ما يسرّون من الكفر وتثبيط المؤمنين عن نصر الايمان إلا لظنهم أن المسلمين قد قضي عليهم. وقد كان هذا مما يحزن النبي (ص) فكان من تسلية التنزيل له في هذا السياق قوله عز وجل ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ كما كان يسليه عما يحزنه من إعراض الكافرين عن الايمان أو طعنهم في القرآن، أو في شخصه عليه الصلاة والسلام، كقوله تعالى (١٠ : ٦٥ ولا يحزنك قولهم، إن العزة لله جميعا) وقوله (١٨ : ٦ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وقوله (٣٥ : ٨ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أو المراد من السياق تسليته (ص) عما ساءه وحزنه من اهتمام المشركين بنصرة شركهم ومعاودتهم للقتال بعد أحد في حمراء الأسد أو بدر الصغرى لولا خذلان الله لهم · وقد روي القول بتفسير الذين يسارعون في الكفر بالمنافقين عن مجاهد وكذا قال في الذين اشتروا الكفر بالايمان في الآية التالية لهذه الآية وقيل هم المرتدون خاصة · وروي عن الحسن ان الذين يسارعون في الكفر هم الكفار قالوا المسارعة فيه هي الوقوع فيه سريعا · وقال الاستاذ الامام : المسارعة في الكفر هي المسارعة في نصرته والاهتمام بشؤونه والايجاف في مقاومة المؤمنين، وما كل كافر يسارع في الكفر فان من الكافرين القاعد الذي لا يتحرك لنصرة كفره ولا لمقاومة المخالف له فيه · والمسارعون المعنيون هنا هم أولئك النفر من المشركين كأبي سفيان ومن كان معه من صناديد قريش، وذهب بعض المفسرين إلى ان المراد بهم المنافقون ورووا في ذلك روايات في سبب النزول · وإنما يأتي هذا لو قال « يسارعون إلى الكفر » ﴿ انهم لن يضروا الله شيئا ﴾ أي انهم

لا يحاربونك فيضرونك بذلك وإنما يحاربون الله تعالى ولا شك في ضعف قوتهم وعجزها عن مناوأة قوته عز وجل فهم لا يضرون بذلك الا أنفسهم · أقول وقد بين هذا بقوله ﴿ يريد الله أن لا يجعل لهم حظا في الآخرة ﴾ أي انهم على حالة من فساد الفطرة تقتضي حرمانهم من نعيم الآخرة بسنة الله وارادته فلا نصيب لهم فيها ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ فوق عذاب الحرمان من نعيمها ولم يقيد هذا العذاب بكونه في الآخرة فهو أعم كما هو ثابت وقوعا ونقلا بمثل قوله تعالى في المنافقين (٩ : ١٠١ سنعذبهم مرتين) فقوله « انهم لن يضروا الله » تعليل للنهي عن الحزن وقوله « يريد الله » الخ بيان لكونهم يضرون انفسهم ولا يضرونه تعالى، وجعله الاستاذ الامام تعليلا آخر اذ قال ما مثاله : فان كنت تحزن عليهم رحمة بهم وشفقة عليهم لأن النور بين ايديهم وهم لا يبصرون، والهداية قد أهديت اليهم وهم لا يقبلون، وتطمع في هدايتهم وترجوها وكلما رأيت منهم حركة جديدة في الكفر، حدث لك حزن جديد – فعليك أن لا تحزن ايضا · هذا ما عندي عن الاستاذ الامام وتركت بياضا في دفتر المذكرات عنه لأتم فيه ما قاله ثم نسيته ولعل معناه ان هؤلاء ممن طبع الله على قلوبهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلم يبق في نفوسهم استعداد ما للايمان فلا مساغ للحزن من حالهم · ولكن هذا لا ينطبق الا على من ماتوا على الكفر فالأظهر أن الآية في مردة المنافقين وإلا فهي في مجموع من كان مع ابي سفيان لا جميعهم · والقول الاول أشد اتفاقا مع قوله تعالى

﴿ ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم ﴾

قالوا ان الآية تكرير للتأكيد وتعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين عن القتال أو المرتدين من الاعراب وقال الاستاذ الامام : اعاد المعنى وعممه وأكده بهذه الآية وهو في بادي الرأي تكرار ليس فيه زيادة فائدة ومن فقه الآيتين علم ان تلك في المسارعين في الكفر وهذه في الذين اشتروا الكفر بالايمان أي اختاروه ورضوا به كما يرضى المشتري بالسلعة بدلا من الثمن ويراها بعد بذله فيها متاعا ينتفع به بل الشأن في المشتري ان يرى ما أخذه انفع له مما بذله فهذا الوصف أعم من الاول كأنه يقول ان اولئك الكفار الذين تراهم يسارعون في نصرة الكفر وتعزيزه والدفاع

دونه ومقاومة المؤمنين لاجله لاشأن لهم ولا يستحقون ان تهتم بأمرهم فانهم إنما يحاربون الله ويغالبونه والله غالب على أمره، ثم لاينبغي ان تحزن عليهم ايضا لأنهم محرومون من رضوان الله — فلما بين هذا كان مما يمكن ان يخطر في البال انه حكم خاص بالذين يسارعون في الكفر فبين في هذه الآية انه عام يشمل كل من آثر الكفر على الايمان فاستبدله به . ففي اعادة العبارة بهذا الاسلوب فائدتان: إحداهما ان فيها قسما من الكافرين لم يذكروا في الآية الاولى، والثانية ان فيها مع تأكيد عدم اضرارهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بيانا لحال من احوالهم يدل على سخافتهم وضعف عقولهم اذ رضوا بالكفر واختاروه وحسبوه منفعة وفائدة فكأنه يقول إن هؤلاء لاقيمة لهم فيخاف منهم أو يحزن عليهم.

(قال) وقد يعرض لبعض الافكار وهم في هذا المقام ويجول فيها صورة ما يتمتعون به من اللذات والقوة و إمكان نيلهم من المؤمنين اذا أذنبوا كما نالوا منهم يوم أحد بذنبهم وتقصيرهم فيقول الواهم : آمنا وصدقنا أن هؤلاء سيعذبون في الآخرة ولا يكون لهم نصيب من نعيمها ولكن أليسوا الآن متمتعين بالدنيا ؟ أليس لهم فيها من القوة ما يمكنهم من الاعتداء علينا ؟ وقد كشف هذا الوهم قوله تعالى

﴿ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾ فبين لنا سنة حكيمة من سننه في الاجتماع البشري وهي ان الانسان يبلغ الخير بعمله الحسن ، ويقع في الضير بتقصيره في العمل الصالح وتشميره في عمل السيئات والعبرة بالخواتيم، فكأنه قال ان هذا الإملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم وانما هو جري على سنته في الخلق وهي أن يكون ما يصيب الانسان من خير وشر هو ثمرة عمله . ومن مقتضى هذه السنة العادلة ان يكون الاملاء للكافر علة لغروره، وسببا لاسترساله في فجوره، فيوقعه ذلك في الاثم الذي يترتب عليه العذاب المهين

هذا ما عندي عن الاستاذ الامام في معنى الآية متصلا بما قبله . وقرأ حمزة « تحسبن » بالتاء على أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم او لكل من يحسب

وفتح سين يحسب في جميع القرآن ابن عامر وعاصم وحمزة وكسرها الباقون. والاملاء الامهال والتخلية بين العامل وعمله ليبلغ مداه فيه من قولهم : املى لفرسه. إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء أي : لا تحسبن يا محمد هؤلاء الذين كفروا إملاءنا لهم خيرا لأنفسهم فقوله أنما نملي لهم بدل من المفعول . أو لا يحسبن هؤلاء الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم فان الخير ليس في الامهال وارخاء العنان للانسان ليعمل بحسب استعداده ما يشاء ، فان هذه سنة الله في جميع البشر يعملون باختيارهم ما يشاؤون في دائرة الإمكان، وانما يكون الخير للانسان في الاملاء وطول الاجل ، مع التمكن من العمل، اذا كان يزداد فيه عملا صالحا ينتفع به في نفسه بارتقائها في الاخلاق العالية، والصفات الفاضلة ، وينفع به الناس في تهذيب أنفسهم ، وتحسين معيشتهم، وهؤلاء الكافرون من المنافقين والمشركين وامثالهم لا يزدادون بجهلهم وسوء اختيارهم، الا إثما يضرهم في انفسهم ، بالتمادي في مكابرة الحق، والاسترسال في الفسق، وتأييد سلطان الشر في الخلق ، فاللام في قوله « ليزدادوا إثما » هي التي يسمونها لام العاقبة والصيرورة أي لتكون عاقبتهم بحسب السنة العامة في الخلق ازدياد الاثم فانهم بمقتضى كفرهم وباطلهم يقاومون أهل الحق من المؤمنين، وكلما عمل الانسان على شاكلته قويت بالعمل، والاثم داعية الاثم ، كما ان الخير يمد بعضه بعضا ، فما من خليقة ولا شاكلة في الانسان الا ويزيدها العمل بمقتضاها قوة ورسوخا في نفسه فهذه سنة من سننه تعالى في طباع البشر

وقد يرد هنا إشكالان (أحدهما) أن من الكافرين من يعمل الخير فاذا طال عمره ازداد منه . وهذا شيء ثابت بالنظر والاختبار ونصوص القرآن التي تحكم بالضلال على الكثير أو الاكثر واذا أطلقت الحكم أو عممته أتبعته باستثناء الأقل كما تقدم ذلك في التفسير. (ثانيهما) أن من الكفار من اذا أملي له يظهر له في أثناء عمله بكفره انه مخطئ، فيتوب ويؤمن ويعمل الاعمال الصالحة . فالقاعدة التي ذكرت في ازدياد الاعتقاد والخلق قوة ورسوخا بالعمل غير مطردة وإطلاق الآية غير ظاهر في جميع الكفار . وإننا نحل الاشكالين كليهما بالمسائل الآتية حلا لا مرية فيه لمن تدبرها (الأولى) إن الكلام في الذين ثبت كفرهم في علم الله وانهم لا يرجعون عنه لأن تربيتهم.

وسيرتهم التي كانوا عليها مذ كانوا ران على قلوبهم وأحاطت بهم خطيئاتهم الناشئة عنها حتى لم يبق للهداية طريق الى نفوسهم (الثانية) إن ما ذكر من ازديادهم إثما بالاملاء لهم هو شأنهم من حيث هم كافرون فهم من هذه الحيثية لا يزدادون على تمادي الزمان الا إثما بعداوة النبي والمؤمنين وصدهم عن سبيل الله ومن تاب منهم وآمن لا يصدق على الاملاء له أنه من الاملاء للذين كفروا . (الثالثة) إن في كل أمة مهما كان دينها أناسا تغلب عليهم سلامة الفطرة وحب الفضيلة فهم يعملون الخير وان غلب الشر والفساد على من حولهم من قومهم وهؤلاء اذا دعوا الى الدين الحق دعوة صحيحة لا يسارعون في مجاحدته و معاداة الداعي و إيذائه بل هم الذين يسارعون الى الايمان به عند ما يظهر لهم صدق دعوته وقد يتثبتون قبل ذلك . وإنما الكفر الحقيقي هو جحود الحق بعد ظهور حجته كما قال تعالى (٤: ١١٤ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) (٤٧: ٣٢ ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط اعمالهم) فهؤلاء هم المراد بالذين كفروا في الآية . (الرابعة) ان من يستثنيهم القرآن من الحكم على الأمم التي يصفها بالكفر لا يستثنيهم من عمل السوء والشر فقط بل يستثنيهم من الكفر نفسه ايضا فكما قال في أهل الكتاب (٧: ١٥٨ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون) وقال (٣: ٧٥ ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك) وقال (٥: ٦٩ منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) — قال فيهم ايضا (٤: ١٥٤ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم : قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا) . (الخامسة) قد كان كثير من أولئك الكافرين المحاربين للنبي (ص) ومن معه مؤمنين بالقوة والاستعداد وكان إيمانهم يظهر حينا بعد حين عند ما تتم اسبابه ، كما كان كثير من المؤمنين معه في الظاهر ، كافرين في الباطن ، وكانت نواجم الكفر تبدو منهم آنا بعد آن ، كما ظهر منهم يوم أحد — وما العهد بتفسير الآيات التي نزلت فيها يبعيد — وكما ظهر يوم الاحزاب وفي غزوة تبوك التي فضحهم الله تعالى فيها كما سيأتي في تفسير سورة الاحزاب وسورة التوبة ان شاء الله تعالى — فالله تعالى يحكم على الشيء بحسب الواقع ونفس الامر، ولا تنس المسألة الاولى من هذه المسائل

ثم ان في الآية من مواضع العبرة أن من شأن الكافر أن يزداد كفرا بطول العمر والتمكن من العمل على شاكلته وبحسب استعداده ، ويقابله ان المؤمن كلما طال عمره كثرت حسناته ، وازدادت خيراته ، فعسى ان يتخذ هذا ميزانا من موازين الايمان ومحاسبة النفس ، فانه مما يذهب بالغرور ، ويخرج من فقهه من الظلمة الى النور

ومن مباحث اللفظ أن قوله « أنما » الأولى المفتوحة الهمزة كتبت في المصاحف متصلة أن فيها بما اتباعا للمصحف الامام ويجب بحسب فن الرسم فصلها و«ما» هذه مصدرية على ما جرينا عليه في تفسير الآية . وقيل موصولة وهي مع صلتها في تأويل مصدر ، وهو لا يصح حمله على « الذين » الا بتأويل كتقدير مضاف او حال . وذهب صاحب الكشف الى ترجيح البدلية وقالوا فيه ان البدل ما يستغني به المبدل منه وهنا لا يصح الاستغناء . واجاب الزمخشري بأن عدم الاستغناء متعين في المعنى لا في اللفظ . ذكر ذلك الاستاذ الامام وقال : الحق انه يتسامح في أن المصدرية وما دخلت عليه ما لا يتسامح في المصدر نفسه ولا حاجة في الآية الى التقدير .

اقول وفي الآيات الثلاث التفنن في وصف العذاب بين عظيم وأليم ومهين ، والاليم ذو الألم والمهين ذو الاهانة وهذه الاوصاف يتوارد بعضها على بعض كما لا يخفى وهذا لا يمنع مناسبة كل وصف لآيته ككون الجزاء بالعظيم على المسارعة في الكفر لأن من شأن المسارعة ان تكون في العظائم ، و بالأليم على شراء الكفر لأن المشتري المغبون يتألم ، و بالمهين على ازدياد الاثم بالاملاء لأن من ازدادوا إثما ما كانوا يطلبون الا العز والكرامة

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ قرأ حمزة « يميز » بتشديد الياء من التمييز والباقون بتخفيفها من ماز قال الاستاذ الامام كان الكلام مسترسلا في بيان حال المؤمنين في واقعة أحد وما بعدها وجاء في السياق بيان حال من ظهر نفاقهم وضعفهم و بيان حال المجاهدين والشهداء ومن هم بمنزلة الشهداء ، وحال الكفار المهددين للمسلمين ، وكون الاملاء لهم واستدراجهم بطول البقاء في الدنيا ليس خيرا لهم ، وقد كانت واقعة أحد أشد واقعة أحس المسلمون

عقبها بألم القلب لانهم لم يكونوا يتوقعونه بعد روية بوادر النصر في « بدر » ولانه ظهر فيه حال المنافقين ، وتبين ضعف نفوس بعض المؤمنين الصادقين ، ولذلك كانت عناية الله تعالى ببيان فوائد المسلمين فيها عظيمة ، ومنها ختمها بهذه الآية الكريمة ، المبينة لسنة من السنن التي ذكرت في سياق تلك الآيات الحكيمة ، والمعنى ما كان من شأن الله تعالى ولا من سنته في عباده ان يذر المؤمنين على مثل الحال التي كان عليها المسلمون عند حدوث غزوة أحد حتى يميز الخبيث من الطيب . وكيف كانوا؟ كانوا يصلون ويمتثلون كل ما يأمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم ومنه ارسال السرايا المعتاد مثلها ولم تكن فيها مخاوف كبيرة على الاسلام وأهله ولذلك كان يختلط فيها الصادق بالمنافق بلا تمييز إذ التمايز لا يكون الا بالشدائد . أما الرخاء واليسر وتكليف مالا مشقة فيه كالصلاة والصدقة القليلة فكان يقبله المنافقون كالصادقين لما فيه من حسن الأحدوثة مع التمتع بمزايا الاسلام وفوائده ، وربما خدع الشيطان المؤمن الموقن بترغيبه في الزيادة من اعمال العبادات السهلة ولا سيما اذا كان داخلا في دين جديد لما في ذلك من الرياء والسمعة ، والاستواء في الظاهر مدعاة الالتباس والاشتباه

الشدائد تميز بين القوي في الايمان والضعيف فيه فهي التي ترفع ضعيف العزيمة الى مرتبة قويها ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين ، وفي ذلك فوائد كبيرة : منها ان الصادق قد يفضي ببعض اسرار الملة الى المنافق لما يغلب عليه من حسن الظن والانخداع بأداء المنافق للواجبات الظاهرة ومشاركته للصادقين في سائر الاعمال فاذا عرفه اتقى ذلك -- ومنها ان تعرف الجماعة وزن قوتها الحقيقية لانها بانكشاف حال المنافقين لها تعرف انهم عليها لا لها ، و بانكشاف حال الضعفاء الذين لم تربهم الشدة تعرف انهم لا عليها ولا لها

هذا بعض ماتكشفه الشدة للجماعة من ضرر الالتباس واما الافراد فانها تكشف لهم حجب الغرور بأنفسهم فان المؤمن الصادق قد يغتر بنفسه فلا يدرك مافيها من الضعف في الاعتقاد والاخلاق لان هذا مما يخفى مكانه على صاحبه حتى تظهره الشدائد

فلما كان هذا اللبس ضارا بالافراد والجماعات ولم يكن من شأن الله ولا من حكمته ان يستبقي في عباده ما يضرهم مضت سنته بأن يميز الخبيث من الطيب

فتظهر الخفايا وتبلى السرائر حتى يرتفع الالتباس ، ويتضح المنهج السوي للناس

قد يخطر في البال أن أقرب وسيلة لرفع اللبس هي ان يطلع الله المؤمنين على الغيب فيعرفوا حقيقة أنفسهم ، وحقائق الناس الذي يعيشون معهم ، ولكن الله تعالى أخبر ان هذا ليس من شأنه ولا من سنته كما ان ترك الالتباس والاشتباه ليس من سنته فقال ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ وإنما لم يكن من شأنه إطلاع الناس على الغيب لأنه لو فعل ذلك لأخرج به الانسان عن كونه إنسانا فانه تعالى خلق الانسان نوعا عاملا يحصل جميع رغائبه ويدفع جميع مكارهه بالعمل الكسبي الذي ترشده اليه الفطرة وهدي النبوة ، ولذلك جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ويميز بين الخبيث والطيب بالابتلاء بالشدائد وما تتقاضاه من بذل الاموال والأرواح في سبيله التي هي سبيل الحق والخير لا سبيل الهوى كما ابتلى المؤمنين في واقعة أحد بجيش عظيم ، وابتلاهم باختيار الخروج لمحاربته ، وابتلى الرماة منهم بالمخالفة واخلاء ظهور قومهم لعدوهم ، ثم ابتلاهم بظهور العدو عليهم جزاء على ماذكر حتى ظهر نفاق المنافقين ، وزلزال ضعفاء المؤمنين ، وثبات كملة الموقنين ،

﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ اي يصطفيهم فيطلعهم على ما شاء من الغيب وهو ما في تبليغه للناس مصلحة ومنفعة لهم في الايمان كصفات الله تعالى واليوم الآخر وبعض شؤونه والملائكة . وهذا هو الغيب الذي أمر المكلفون بالايمان به ومدحوا عليه في مثل قوله تعالى (٢ : ١ آلم ٠ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ٢ الذين يؤمنون بالغيب) . أقول والدليل على كون المراد ان من يجتبيهم من رسله يطلعهم على ما شاء ان يبلغوه لعباده من خبر الغيب هو مثل قوله تعالى (٧٢ : ٢٦ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ٢٧ الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ٢٨ ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم) وعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ متضمنا للايمان بما اخبر به رسله من خبر الغيب ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ أي ان انتم آمنتم بما جاؤا به من خبر الغيب

وقرنتم بالايمان تقوى الله تعالى بترك المنهيات وفعل المأمورات بقدر الاستطاعة فلكم أجر عظيم لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه

ذكر التقوى هنا مع الايمان في قرن وترتيب الاجر عليهما معا هو الموافق للآي الكثيرة في الذكر الحكيم وهي اظهر واشهر واكثر من أن ينبه عليها بالشواهد كلما ذكر شيء منها

وقد ذهب وهم بعض الناس الى أن الآية تدل على ان من اجتباهم الله من رسله يعلمون الغيب كله واستثنى بعضهم علم الساعة لكثرة ما ورد من الآيات التي تنفي علمها عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وزعم بعضهم أن الله تعالى أطلعه على علم الساعة قبل وفاته . وكل ذلك من الجرأة على الله تعالى والقول عليه بغير علم (٦: ٥٠ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ، إن اتبع الا ما يوحى اليَّ ، قل هل يستوي الأعمى والبصير افلا تتفكرون) هذا ما أمر الله خاتم رسله ان يبلغه خلقه وهو ما أمر به من قبله من الرسل كما قال حكاية عن نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام (١١: ٣١ ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك) فهم كانوا ينفون ان يكونوا متصرفين في خزائن الله بالاعطاء والمنع وان يكونوا يعلمون الغيب وان يكونوا ملائكة أي من غير جنس البشر . وامر الله نبيه ان يستدل على عدم معرفته الغيب بقوله (٧: ١٨٧ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، ان أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقال عز وجل (٦: ٥٩ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) يقولون انه لا يعلمها غيره بعلم ذاتي استقلالي ونقول اذا اجزنا لأنفسنا ان نقيد كل ما حكاه الله عن نفسه فان ذلك يفضي الى تعطيل جميع صفات الالوهية بالتأويل فيجب ان نقف عند حدود النصوص في أمر الغيب لأنه لا يعرف بالقياس ، ولا مجال فيه لعقول الناس ، وسيأتي لهذا البحث مزيد بيان في سورة الانعام وغيرها ان شاء الله تعالى

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، وانا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا. ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

أوراق اليانصيب وسندات المصارف

(س ١) من بورت سودان لصاحب التوقيع

حكيم الاسلام وفيلسوف الأنام مربي الأمة ومرشدها وغرة عصرها وعالمها سيدي المرشد السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء نفعني الله بعلومه آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فقد جمعني وجماعة من نبغاء بورت سودان وفضلائها مجلس انعقد بمنزل فضيلة قاضيها الشرعي لسماع درس التوحيد وبعده أخذنا نتجاذب اطراف الحديث الذي وصل بنا إلى تحليل أو تحريم أوراق اليانصيب وطال الجدال في هذا الموضوع وانقسمنا إلى قسمين

قسم منا حرمها من أولها لآخرها سواء في ذلك سندات سكة حديد تركيا (الروملي) والبنك العقاري جديدها وقديمها

والقسم الآخر فصَّل في الموضوع حيث حرم كل الأوراق ما عدا سندات البنك العقاري وسكة حديد تركيا فقال بالحل فيهما إلا انه لم يجزم بهذا القول واشترط في أوراق البنك العقاري عدم أخذ (الكبون) أي الربح السنوي

وبالنسبة لكوننا لم نوفق للفصل في هذا الموضوع نهائيا قر القرار على الاستعلام من حضرتكم وأخذ رأيكم في هذا الموضوع للاهتداء بهديكم وكلفوني أن أسألكم لذلك ولعلو مقامكم وكرم اخلاقكم جئت اليكم بهذا راجيا إرشادنا في هذا

الموضوع أرشدكم الله والفصل فيه ليحق الحق ويبطل الباطل ان الباطل كان زهوقا
كما اني أرجوكم إن كان سبق لسيادتكم التكلم عنه في مجلدات غابرة ان تجيبوني عليه وأكون ممنونا لو تفضلتم بالإجابة في أول عدد لأهميته عندنا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كاتبه
أحمد كريم
أحد قراء المنار

(ج) افتينا في المنار من قبل (ص٤٧ م ١٠) بأن اليانصيب من القمار المحرم لما فيه من الضرر الظاهر فان المقامر يضيع ماله لتوهم الربح وقد فصلنا القول في ضرر الميسر في تفسير قوله تعالى «٢ : ٢١٩ يسألونك عن الخمر والميسر» فليراجع في (ص٣٢٩ ج٢) من التفسير · واما مثل سندات البنك العقاري فهي نفسها ليست من «اليانصيب» وان كان يعمل لها «يانصيب» بل هي ضرب من ضروب التجارة لأن لها أثمانا كأثمان سهام الشركات المالية تزيد وتنقص وتشبه من جهة أخرى الدين بربح قليل لأن صاحب المال يأخذ عليه كل سنة ربحا «كوبون Coupon» ولكنها خالية من ضرر القمار لأنه ليس فيها إضاعة مال محقق لربح متوهم ومن ضرر الربا المعبر عنه بقوله تعالى في خاتمة آيات الربا «لا تَظلمون ولا تُظلمون» وهي مع ذلك مشكلة والظاهر من اقوال الفقهاء وقواعدهم انها غير جائزة لذاتها ولكن بعضهم يجيز ذلك في غير دار الاسلام أو مع الحربيين لأن التزام العقود الاسلامية إنما يجب في البلاد التي يحكم فيها الاسلام ولهم في ذلك تفصيلات كثيرة (راجع ص ٦٣٩ م ٧ وص ٢٦٨ و ٢٩١ و ٥٩٠ م ٨)

ثم ان الفقهاء قد جعلوا الشرع العملي قسمين عبادات ومعاملات فالمعاملات ليس فيها امور تعبدية بل كلها معقولة المعنى منطبقة على مصالح الناس ومنافعهم ودفع المضار عنهم فلا يحرم منها الا ما هو ضار بفاعله أو بغيره وما يتراضى به الناس من المعاملات من غير غش فلا يحرم عليهم الا انه اذا كان من شأنه ان يضر لا يلزمهم القاضي ما كانوا تراضوا به اذا هم اختلفوا بعد ذلك وتحاكموا اليه ولا يفتيهم المفتي بوجوبه شرعا فقد جاء في الآثار الصحيحة عند البخاري وغيره ان المقترض اذا اعطى افضل مما

أخذ أي كيفا او كما فلا بأس بذلك ما لم يشترط ذلك أي يجعل حقا شرعيا · وهذا في الربا الذي هو اغلظ المحرمات المتعلقة بالمعاملات المالية فاذا اعطي صاحب سندات البنك العقاري مالا من البنك قد ربحه بالسحب برضى اصحاب البنك فانه لا يظهر لي ان أخذه محرم عليه ولا سيما اذا كان اصحاب البنك من الاجانب الذين لا يلتزمون أحكام شريعتنا من انفسهم ولا توجد حكومة اسلامية تلزمهم العمل بها ولا يظهر لي ان هذا من القمار الا بالنسبة لمن يشتري أوراق السحب التي تباع في الاسواق والشوارع لأن هؤلاء يضيعون اموالهم على التوهم واما اصحاب السندات فان اموالهم محفوظة لهم لا يضيع منها شيء والله اعلم واحكم

***

﴿ دين المستقبل وهل يكفر من له رأي فيه ﴾

(س ٢) من بغداد لصاحب التوقيع الذي عهد الينا بكتمان إسمه

حضرة سيدي المحترم محمد رشيد رضا افندي أدام الله مجده

أما بعد فقد جئت طالبا من فضلكم نشر سؤالي هذا على صفحات (المنار) الأغر وسرد جوابه بما يتراءى لكم لأن الامر أشكل في بغداد والاقوال تضاربت فجئت طالبا فتواكم ولكم الأجر

إن أحد الكتاب نشر مقالة في جريدة بغداد في عددها الأول وقال فيها : ان حضرة السيد البكري نقيب أشراف مصر قال سألت الشيخ جمال الدين الافغاني عن دين البشر في المستقبل فأجابني بقوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمنَ بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) فقام بعض المدعين للعلم وقال

(١) المنار : سمعنا هذه المسألة من البكري وقال أمامنا إن السيد قال له انقشوا هذه الآية على هرم الجيزة الى أن يجيء المستقبل فيفسرها · وليراجع في المنار ما قاله الاستاذ الامام في تفسيرها

ان هذا الناقل الذي نشر المقالة قد كفر وخرج من دين الاسلام وطلب من الحكومة مجازاته وهو القتل كفراً لا حدا والعياذ بالله ثم وكل الأمر الى أربعة من المدرسين وهذا المكفر معهم خامس فاما أحدهم فقال إن الرجل ناقل وليس عليه شيء من دون ان يعمق البحث في أصل الموضوع فرفضوا قوله واجتمع الاربعة على انه يجب تعزير هذا الناقل تعزيرا شديدا وقدموا قرارهم هذا للعدلية ولا ندري ماسيكون منه فنرجوكم تدقيق هذا البحث باطرافه بحق قائله وناقله والحاكمين فيه ليتضح الحال خدمة للوطن والدين والامة دامت أفضالكم

الامضاء
غيور اغتار للدين

(ج) لا وجه للقول بكفر هذا الناقل، ولا ذلك القائل، ولا بتعزير من يرى ذلك الرأي سواء كان خطأ ام صوابا والظاهر أن أولئك العلماء لم يفهموا معنى سوال البكري ولا جواب الافغاني لأنهم لم يفكروا في مثل هذا البحث ولا في سببه لا لبلادة في أذهانهم ولا لجهلهم باللغة التي عبر بها القائل والناقل. نعم ان المشتغلين منا بالفقهيات، الجامدين على التقاليد والعادات، كثيرا ما يتجرءون على التكفير، بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير، واظن ان من ذكرتم من علماء بغداد، لو فهموا معنى السوءال والجواب، لما خطر في بالهم ان يعدوا القول به ذنبا، فضلا عن ان يعدوه كفرا،

يقول كثير من علماء الاجتماع إن البشر في مجموعهم يسيرون الى الكفر والإلحاد عاما بعد عام وان هذا السير ينتهي بترك الامم كلها للتدين بعد قرون كثيرة اوقليلة ومن هوءلاء القائلين بهذا الرأي من هو متدين بالاسلام ومنهم من هو متدين بغيره ومنهم من هو ملحد لا يدين بدين

ويقول آخرون ان البشر لايمكن ان يستغنوا عن الدين ولا عبرة بما نراه في هذا الوقت من كثرة الكافرين فلا بد ان يبقى الناس متدينين وان يبقوا مختلفين في الدين

ويذهب آخرون الى انه لا بد ان يسود في المستقبل دين يكون عليه اكثر البشر وهل يكون ذلك دينا جديدا ام أحد الأديان الحاضرة بعد تنقيحه وتطبيقه على حال الناس في المدنية المستقبلة؟ انهم مختلفون في هذا وسمعت الاستاذ الامام

يقول اكثر من مرة انني اعتقد منذ عشرين سنة ان دين المستقبل هو الاسلام ولي على ذلك أدلة اجتماعية وادلة نقلية كالوعود الالهية بإظهاره على الدين كله وهو عندي في مرتبة اليقين. ولا يخفى ان أصول الدين الالهي الحق التي دعا اليها جميع رسل الله هي الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. والكتاب والسنة تفصيل لهذه الاصول. وعبارة السيد جمال الدين مجملة فلا يدرى أرأيه كرأي تلميذه الاستاذ الامام ويريد بالاصول المجملة في الآية ما هو مفصل في غيرها من الآيات أم يريد ان البشر لا يتفقون على تفصيل الاسلام ولا غيره وإنما يستقر رأيهم على تلك الاصول المتفق عليها ويتركون لكل فرد رأيه واجتهاده في تفصيلها؟ الله اعلم بتفصيل رأيه ولكن الذي يجب الجزم به انه لا يجوز ان نكفره ولا أن نفسقه برأيه لأنه لا علاقة بين مثل هذا الرأي وبين قوة الايمان وصحة الاسلام بل لا يجوز ان نقول بكفر من يرى ان البشر يتركون كل دين ولا بتعزيره او لومه على ذلك. فليتق الله علماؤنا في المسلمين وليعلموا أن عاقبة هذا التشديد والجراءة منفرة عن الاسلام وانها يوشك ان تفضي الى مالا يحبون لانفسهم ولا لدينهم

أما العدلية فلا أدري ما هي علاقتها بآراء الناس وافكارهم فاذا كان رجال العدلية في بغداد كمن ذكرتم من العلماء فهماً لهذه المسألة وكان رأيهم في العقوبات القانونية، كرأي اولئك الفقهاء في العقوبات الشرعية، فياحسرة على بغداد، فانها لا تزال ترسف في قيود الجهل والاستبداد،

***

﴿ تعدد صلاة الجماعة في وقت واحد ﴾

(س ٣) من بغداد لصاحب التوقيع

حضرة سيدي الفاضل صاحب مجلة المنار   دام فضله

اتفقت أقوال العلماء على أن لا فرق بين أقوال الائمة الاربعة المجتهدين رضوان الله عليهم وانهم تجمعهم السنة والجماعة ولكن مع الأسف نرى في أغلب جوامع بغداد تقام للصلاة جماعتان حنفية وشافعية في آن واحد وكل يصلي بصلاته بحيث

لا يكاد يميز السامع بين تكبير إمام وآخر فما القول في ذلك ؟ واغرب منه ان يقوم مع وجود الامامين إمام ثالث حنفي و يصلي بالناس مع ان صف الجماعة المقتدين به متصل كال الاتصال بصف المصلين خلف الشافعي بحيث لا يمكن معرفة الحد الفاصل بين الجماعتين قط . و بعد تمام صلاتها تقام جماعة حنفية أخرى ! فما القول في الامامين الاولين على ان الشافعي راتب والحنفي فضولي والحنفي الذي يصلي أخيرا راتب ؟ أرجوكم دفع هذا الالتباس ولكم الاجر

الامضاء
مسلم لا يحب تفرقة الاسلام

(ج) ان تعدد الجماعة في وقت واحد بدعة مذمومة لا سبب لها فيما نعلم إلا جعلها وسيلة للمرتبات التي يأخذها أئمة المساجد من الاوقاف أجرة على الامامة وفي هذه الاجرة ما فيها . ولا التباس في المسألة فنحتاج إلى إزالته لان هؤلاء المفرقين لا يقولون ان إقامة جماعتين فأكثر في مسجد واحد في وقت واحد مشروع فترد عليهم . ولا يرجى ان يترك هؤلاء الائمة ذلك باختيارهم الا بأحد أسباب ثلاثة (١) علم أولئك الائمة بالسنة والحرص على اتباعها (٢) رغبة المأمومين عن التعدد كأن يقيض الله لهم من يعلمهم ان أمتنا أمة واحدة وديننا واحد حرم الله علينا التفرق فيه بمثل قوله « أقيموا الدين ولا تتفرقوا » وان سلفنا الصالحين ما كانوا يقيمون جماعتين أو جماعات في وقت واحد مع مخالفة بعضهم لبعض في بعض الفروع الاجتهادية كما عليه الشافعية والحنفية وغيرهم ، وأن هؤلاء الخلف ما تفرقوا عن الجماعة إلا لاجل الدنيا . فاذا علم العامة ذلك لا يلبثون ان يصلوا مع الجماعة الاولى في كل وقت ، ولكن هذا أبعد مما قبله لان علماءنا أهملوا تعليم العامة دينهم وصار أكثرهم يكتفي من خدمة الدين بتكفير من يخالف رأيه أو هواه من المسلمين ، فحسبنا الله ونعم الوكيل . (٣) أن يصير للمسلمين رياسة دينية محترمة عند الحكومة وعند الناس يوكل اليها الفصل في أمثال هذه المسائل كأن يجعل ذلك من شأن المفتي ، فان قيل إن الدين الاسلامي لا رياسة فيه كغيره من الاديان قلنا لا نعني ان يكون له رؤساء يسيطرون على الناس في دينهم بل رؤساء يحترمون في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أمر الدين المتفق عليه ،

﴿ منع غير المسلمين من سكنى الحجاز ﴾

(س ٤) من الخواجه إلياس لطف الله بو سليمان بتينوغستا (الارجنتين)

حضرة العلامة العامل والأستاذ الكامل السيد محمد رشيد رضا أدامه الله

بخضوع واحترام أقدم كامل الواجبات لشخصكم الشريف وارجو من سيادتكم الافادة إذا كان منع غير المسلمين من الدخول إلى أرض الحجاز المقدسة هو أمر ديني مقرر في الكتب الشريفة المنزلة أو في الحديث الشريف أم هذه عادة وفي الحالين ارجوكم إذا لم يكن من مانع ان تكرموا بالايضاح في احد اعداد مناركم المنبر ولكم جزيل الفضل والمعروف . قال سعادة الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد الاغر في عدد ٥٥٦٧ ما معناه ان المهندسين العثمانيين في سكة حديد الحجاز انفردوا بالعمل كله من العلا إلى المدينة لعدم جواز دخول غير المسلم ارض الحجاز . اختم بتكرار رجائي والله يديمكم مرجعا في جميع الامور كي تستنير منكم ومن مناركم العموم سيدي

(ج) روى أحمد والبخاري ومسلم من حديث ابن عباس قال اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يوم الخميس وأوصى عند موته بثلاث « اخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » ونسيت الثالثة . والذي نسي الثالثة هو سليمان الاحول وهي النهي عن اتخاذ قبره وثنا أو تجهيز جيش أسامة

وروى أحمد ومسلم والترمذي وصححه عن عمر انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا ادع فيها إلا مسلما »
وروى أحمد من حديث عائشة قالت : آخر ما عهد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يترك بجزيرة العرب دينان . وروى أحمد أيضا والبيهقي من حديث أبي

عبيدة ابن الجراح قال آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب »

وذكر الحافظ ابن حجر في كتاب الجهاد من شرحه للبخاري ان الجمهور على ان الذي يمنع منه المشركون من جزيرة العرب هو الحجاز خاصة قال وهو مكة والمدينة واليمامة وماوالاها لا فيما سوى ذلك مما يطلق عليه اسم جزيرة العرب لاتفاق الجميع على ان اليمن لا يمنعون منها مع انها من جملة جزيرة العرب . أقول قال في القاموس: جزيرة العرب ما أحاط بها بحر الهند وبحر الشام ثم دجلة والفرات أو ما بين عدن أبين إلى اطراف الشام طولا ومن جدة الى ريف العراق عرضا .

والذي جرى عليه العمل هو إخراج غير المسلمين من الحجاز ففي صحيح البخاري ان عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز . وذكر يهود خيبر فقال أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء . وجعل بعضهم حديث أبي عبيدة مخصصا لتصريحه بلفظ « أهل الحجاز » وقال بعضهم انه لا يصلح مخصصا

وليس من غرضنا هنا تحقيق الخلاف وتحرير الدلالة وإنما نقول ان الحجاز هو الذي نفذ فيه الامر وجرى عليه العمل فهو عند المسلمين كالمسجد ولا يشاركهم في مساجدهم الا من دان بدينهم وشاركهم في عبادتهم . وهذا التخصيص على كونه دينيا يتعلق بسياسة الاسلام فانه لما فيه من التساهل مع المخالفين لا يستغني أهله عن بقعة خاصة بهم لا يزاحمهم فيها غيرهم يأرزون اليها عند إلجاء الحوادث ومطاردة الكوارث .

وليس الحجاز مما يصلح لكسب الدنيا والتمتع بزينتها فما منع غير المسلمين الا من مكان لاحظ لغير المسلم فيه الا ان يريد مزاحمته أو الافتيات عليه في خاصة دينه .

وقد بين المحققون ان حكم الاسلام في مكة انها وقف للمسلمين عامة . قال ابن القيم : وأما مكة فان فيها شيئا آخر يمنع قسمتها ولو وجبت قسمة ما عداها من القرى (اي التي تفتح عنوة) وهي انها لا تملك فانها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد فهي وقف الله على العالمين وهم فيه سواء، ومنى مناخ من سبق قال تعالى «٢٢: ٢٥ ان الذين كفروا ويصدون

عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد » — الى ان قال — فالحرم ومشاعره كالصفا والمروة والمسعى ومنى وعرفة ومزدلفة لا يختص بها أحد دون أحد بل هي مشتركة بين الناس اذ هي محل نسكهم ومتعبدهم فهي مسجد من الله وقفه ووضعه لخلقه » الخ

ثم ان لسائر ارض الحرمين احكاما خاصة فلا يحل صيدها ولا يختلى خلاها فمن هنا يعلم ان منع غير المسلمين من سكنى بلاد الحجاز ليس هو الحكم الذي يختص به وحده هذه البلاد . واما دخولها لغير السكنى ففيه أقوال اصحها عندي قول الشافعي انه لا يمكن غير المسلم من دخول ارض الحرم الا باذن الامام لمصلحة المسلمين . على ان المشهور في مذهبه أنه يجوز لغير المسلم دخول مساجد المسلمين بإذن اي مسلم لا يختص بالامام الاعظم ولا يقيد بالمصلحة العامة . وقال بعض العلماء يجوز دخولهم ماعدا المسجد الحرام والحجاز

***

(الزكاة في القراطيس المالية « الانواط »)

(س ٥) من الشيخ محمد بسيوني في (سمبس برنيو)

حضرة الأستاذ الحكيم الشيخ العظيم سيدي السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء متعني بوجوده أمين .

وبعد أهديكم ازكى التحية والاحترام أرجو من فضيلة سيدي الجواب عن هذا السؤال . لا زلتم مشكورين .

ما قولكم في الانواط هل تجب فيها الزكاة أم لا ؟ وما العلة في وجوبها أو عدمه افتوني سيدي بالقول الصحيح المعتمد مأجورين .

(ج) بينا في الفتوى ٢٨ من المجلد العاشر (ص ٥٣٩) ان القراطيس المالية التي تسمى (بنك نوت وانواط) من قبيل النقود الذهبية . وفي الفتوى الاولى من المجلد الخامس كلام في الخلاف فيها واعتماد كونها من قبيل النقد لا عروض التجارة وكون الزكاة تجب فيها والربا يحصل بها فليرجع الى ذلك ولو قلنا ان الزكاة لا تجب

في هذه القراطيس لأمكن للغني الذي يملك ألوف الألوف من الذهب أن لا يودي زكاة قط ولأبيح الربا بسهولة في أكثر معاملات المصارف (البنوك)

***

﴿ حديث من آذى ذميا ﴾

(س ٦) من محمد افندي احمد شمس بالاسكندرية

ملخص السوءال انه اطلع على خطبة للشيخ بشير الغزي العالم الحلبي الشهير فرأى حديثا لم يطرق سمعه وهو « من آذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » وسأل عن تخريجه ليباهي بتساهل الاسلام فيه

(ج) الحديث أورده السيوطي في الجامع الصغير وعزاه الى معجم الطبراني الاوسط واشار الى انه حديث حسن . وفي معناه أحاديث أخرى في الوصية بالذميين والمعاهدين منها حديث عبدالله بن عمرو عند احمد والبخاري والنسائي وابن ماجه « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة اربعين عاما » وحديث علي عند الحاكم « منعني ربي ان أظلم معاهدا ولا غيره » والاسلام يأمر بأكثر من ذلك فقد قالوا انه يجب على المسلمين اطعام الذمي عند الضرورة ويستحب مع غير الضرورة كما تجب حمايتهم والدفاع عنهم ولو بمحاربة المعتدي عليهم

***

﴿ شرب الدخان في مجلس القرآن ﴾

(س ٧) من الشيخ ابراهيم حسين بهوارة عدلان (الفيوم)

حضرة العلامة الكامل والاستاذ الفاضل صاحب مجلة المنار الغراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته سيدي ومولاي : جرى الخلاف بين طائفة من أهل العلم في حكم التدخين أي شرب الدخان في مجلس تلاوة القرآن الشريف فمنهم من حرّمه ومنهم من جوزه مع الكراهة مراعاة للآداب ولم يذعن احد الطرفين

لقول الآخر وحيث ان سيدي ممن يرجع اليه في فصل الخلاف فقد حررت هذا لفضيلتكم راجيا التفضل بالجواب مبسوطا في العدد الآتي في مجلتكم موءيدا بالحجج الاقناعية بدون احالة على مانشرتموه سابقا في المجلة لاجاله ولصعوبة العثور عليه الآن على مثلنا ولفضيلتكم جزيل الشكر

(ج) قد بسطنا الكلام على هذه المسألة في الفتوى ٧١ من المجلد السابع (ص ٥٣٧) وحاصل رأينا فيها أن شرب الدخان في مجلس القرآن يعد محظورا إذا كان العرف العام يعده من إساءة الأدب والاوجب على كل امرئ مراعاة ما يعتقده وتطمئن اليه نفسه مع الاحتياط في التزام الادب . وان الجرأة على التحريم من أكبر الجنايات على الدين إذا لم يكن الدليل عن الشارع واضحا نصا أو دلالة ولا نص في مسألتنا ولا دليل إلا ما يقال في مسألة الادب وهو شيء يتعلق إما بالعرف وإما باعتقاد الشخص وهو ما اعتمدنا عليه من قبل وما نقوله الآن والله أعلم

***

﴿ استعمال ساعة الذهب ولبس خاتمه ﴾

(س ٨) من كتاب للشيخ عبد اللطيف أبي عوف بدنقله (السودان)

أرجوكم إفادتي بوجه السرعة على صفحات مجلتكم الغراء عن حكم لبس الساعة التي داخلها شيء من الذهب وكذا الخاتم ومقدار ذلك الذهب أعني عيار ١٢ او اقل ولكم الشكر

(ج) في الفتوى ٥٧ من فتاوى المجلد السابع (ص ٤١٩) تفصيل لمسألة التحلي بالذهب واستعماله ومنه بعد ذكر الأحاديث الواردة في المسألة والبحث فيها « وجملة القول انه ثبت في الصحيح النهي عن الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة مع الوعيد والنهي عن التختم بالذهب وفي حديث مسلم انه شبهه بجمرة من نار ولم أره في المنتقى . واما مذاهب العلماء فيها فقد حمل الاقلون النهي على التنزيه دون التحريم وذهب داود الى تحريم الشرب في أواني النقدين وإباحة ما عداه من أنواع الاستعمال وقاس كثير من الفقهاء غير الاكل والشرب عليهما

حتى حرم الشافعية اتخاذ الاواني وان لم تستعمل ، ثم بحثنا في علة ذلك واختلافها باختلاف الزمان . وذكرنا في آخر الفتوى ان الاحتياط أن يجتنب المسلم ما ورد به النهي الصريح ويراعي المصلحة فيما وراء ذلك بحسب اجتهاده مع الاخلاص . وراجع التفصيل ان شئت (في ص ٤٢١ — ٤٢٤ م ٧) والظاهر ان المراد بالذهب في النهي ما يعم التبر الخالص والمزيج من الذهب وغيره ما سمي ذهبا ويحتمل ان يقاس الذهب على الحرير عند من يقولون ان الثوب المحرم منه هو ما كان ابريسما خالصا أو ما كان الابريسم هو الغالب فيه وزناً أو نسيجاً . وانني أعتقد ان استعمال الساعة الذهبية انما تحرم إذا كان فيها إسراف أو مخيلة وكذا غيرها مما لا نص في النهي عنه والا فهو مباح او مكروه في الاكثر والله أعلم

***

﴿ رابطه النقشبندية ﴾

(س ٩) من ع . ب . ح في سنغافوره

حضرة الفاضل صاحب المنار بمصر

نحن معاشر اهل الطريقة بهذه الجهات قد عثرنا على فتواكم في رابطة اهل الطريقة فحمدنا الله على صنيعكم وما ايدتم طريقتنا بقولكم (يمكن للمريد العارف بعقيدة الاسلام ان يجمع بين التوحيد وبين تخيل شيخه. الى أن قلتم - فمثل هذا لا يعد مشركا لشيخه مع ربه» ونحن فلله الحمد عرفنا بعقيدة الاسلام وان احضارنا صورة شيوخنا عند ذكر الله لانه من آكد الآداب والاستمداد منه هو استمداد من النبي صلى الله عليه وسلم وقلبه يحاذي قلوبنا الى صاحب الطرق نبينا محمد (ص) وقلبه (ص) دائم التوجه الى الحضرة الالهية كما هو مقرر في كتب الطريقة وقد عمل بالرابطة اولياء الله الصالحين ونحن من متبعيهم ومتبعي النبي (ص) وسلسلة طريقتنا متصلة اليهم والى حضرة النبي (ص) فكيف يقول محرر الامام بسنغافوره ان الرابطة بدعة لم يعمل بها النبي ولا اصحابه ولا التابعون! بل قال الرجل ان اختراع الرابطة لم يكن في عهد الامام الغزالي وعبد الوهاب الشعراني وعبد القادر الجيلاني فهل يتصوران

كبار العلماء القائلين بالرابطة اخطأوا فيها وهذا المدعي واضرابه مصيبون فيتركهم الناس ويتبعون المدعي واضرابه كلا ثم كلا وقد تجرأ المدعي على أهل الطريقة قال ما معناه: ومن قال ان الدين الاسلامي يأمر بالرابطة فهو اكذب من خطيب سمبس لان ذلك الخطيب وغيره قد نشروا ردودا على مجلة الامام بالجرائد ومن قول ذلك الخطيب ما معناه حيث ان الامام قد انكر الرابطة وقال انها بدعة لم يأمر بها الدين بل هي ممنوعة وجبت عليه التوبة ووجب عليه اعلان توبته بمجلته و بالجرائد التي كتب فيها مسألة الرابطة لئلا يغتر الناس بقوله في الدين اه ونرجو من المنار بسط الجواب هل هي بدعة ممنوعة ام لا

(ج) قد علم من جوابنا السابق ان الرابطة لم يرد فيها شيء من كتاب ولا سنة نبوية وانها ليست من أعمال الدين فيطالب كل مسلم بها و يعد مقصرا في دينه اذا تركها وينكر عليه اذا أنكرها كما يعد مبتدعا اذا فعلها . وانما هي طريقة في تربية النفس كغيرها من الطرق التي استحدثها الناس في التربية والتعليم واستفادوا منها بالتجربة ما كان عونا لهم على مقصدهم فمن قال ان الدين يثبتها أو ينفيها لذاتها فهو مخطئ. لأنه ليس فيها نص ديني ومثله كمثل من يقول إن طريقة كذا في التعليم مطلوبة أو ممنوعة دينا . نعم ان ما يستحدثه الناس من طرق التربية والتعليم قد يخل عرضا بأمر من أمور الدين فيكون محظورا دينا لذلك العارض كما اذا اعتقد المريد ان شيخه يملك بالرابطة نفعه أو ضره وهدايته ورشده أو غوايته وضلاله .

واعلم يا أخي في الدين والطريقة انك لا تستطيع أن تدافع عن الرابطة الا اذا قلت اننا لا نتخذها دينا وحينئذ لا يضرك كونها بدعة لأن البدعة إنما تكون ضلالة اذا كانت في الدين وأما البدعة في غير الدين فمنها الحسن ومنها القبيح كما يؤخذ من حديث مسلم «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الي يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة» ومن البديهي انه ليس لأحد بعد انقطاع الوحي ان يسن في الدين شيئا وانما هي السنن المتعلقة بأمور الناس في تربيتهم وتعليمهم وسياستهم وسائر مصالحهم التي تنفعهم في دينهم ودنياهم ولكن ما ينفعهم منها

في دينهم لا يعد حكما دينيا يطالب به الناس على انه دين لان شارع الدين هو الله تعالى على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام ولا شرع بعد انقطاع الوحي وختم الرسالة

ثم اعلم ان عمل بعض الصالحين بالرابطة لايدل على انها من الدين لأنه لم يقل أحد من أئمة المسلمين وعلمائهم ان عمل الصالحين حجة في الدين وقد وقع كثير من الصالحين في البدع أو المعاصي عن جهل بالحكم الشرعي ويجوز عقلا ان يخطىء بعض أولئك الصالحين في مسألة ويصيب فيها مثل صاحب مجلة الامام من المعاصرين . ولو شئت لأفشيت سر الطريقة وزدت بيانا ولكن لا محل لذلك هنا ولا حاجة اليه

وجملة القول ان صاحب مجلة الامام قد أصاب في قوله ان الرابطة ليست من الدين ولكن يظهر لي انه بالغ في الإنكار حتى جعل الدين محرما لها لذاتها وان لم يترتب عليها محظور أو تجعل شرعا ودينا كما بالغ المنتسبون الى الطريقة فجعلوها دينا كأنه وقع بها التكليف من رب العالمين على جميع المسلمين حتى صار المنكر لها كالمنكر بعض ماورد في الكتاب والسنة من أمور الدين . وهذا ما ننكره على الفريقين . وأوصي أهل الطريقة بترك المراء والجدل والنبز بالالقاب وأن لا يجعلوا ذلك سببا للتفرق والخلاف في الدين فان ذلك يخرج صاحبه من حظيرة الدين (٣: ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم)

تذكير مجلس المبعوثان

﴿ ببعض شؤون الاصلاح (١) ﴾

المحاكم الشرعية

ما زال حظ المحاكم الشرعية في البلاد العثمانية دون حظ المحاكم النظامية وسائر دواوين الحكومة ومصالحها فإننا لم نسمع حتى الآن صوتا قويا من المبعوثين في مجلس الأمة بطلب ما يجب من إصلاحها فهل تهيب حكومتنا إصلاح هذه المحاكم أو تتقاعس عنها كما فعلت الحكومة المصرية ! ؟

ان المحرك للحكومة المصرية والمرسل لها إلى الاصلاح أو الممسك لها عنه انما هو الاحتلال الانكليزي وكان الرؤساء من الانكليز يقولون اننا لا نمس الامور الدينية لانها لا تقبل الاصلاح أو لأن المسلمين لايريدون اصلاحها أو يتهموننا فيها تهمة نحن في غنى عن التعرض لها ثم محاولة تبرئة أنفسنا منها . وقد ضج مسلمو مصر بعد ذلك بطلب إصلاح هذه المحاكم فكانوا مع الانكليز كالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء .

ان المحاكم الشرعية في القطر المصري أمثل منها في سائر الولايات العثمانية من بعض الوجوه على ان اختصاص هذه أوسع من اختصاص تلك وليس لمجلس الامة في الاستانة ان يتعلل بمثل ما يتعلل به الانكليز عند مطالبتهم باصلاح هذه المحاكم فمتى نسمع صيحة أهل العلم المحبين للاصلاح في المجلس ببيان ما يجب من إصلاحها ؟ .

أينسى أولئك المبعوثون أصحاب الغيرة على الشرع ان هذه المحاكم كادت تكون حجة على الاسلام وفتنة للمسلمين ؟ أينسى أولئك الاحرار الواقفون للاستبداد

(١) نشرناها في جريدة المفيد ببيروت

بالمرصاد انه لا يوجد معهد من معاهد الحكومة يباح فيه الاستبداد بغير تبعة ولا مسئولية إلا في المحاكم الشرعية حيث يحكم القاضي برأيه بلا مشاورة في الامر ولا مشاركة في الرأي ولا معرفة للمتقاضين بالمسائل التي يجب بها الحكم !! . فهل يرضى مجلس الامة ان تبقى هذه المحاكم على هذه الحال وهي المنسوبة إلى الشرع الذي بني على الشورى وأمر الرسول المعصوم بالمشاورة (صلى الله عليه وسلم) وجرى الخلفاء الراشدون على الحكم بها ؟

ألا يعلم نوابنا الكرام ان فساد هذه المحاكم مفسد لكثير من البيوت (العائلات) التي هي مرجعها في مسائل الطلاق والنفقات وغير ذلك من أمور الزوجية؟ أيستهينون بأمر الاوقاف وما لها من العلاقة بالامور الدينية والاعمال الخيرية التي لها شأن كبير في صلاح الامة وفسادها ؟

أول شيء يجب الالتفات اليه في إصلاح هذه المحاكم هو إدخال الشورى فيها بجعلها مؤلفة من اعضاء يحكمون بأكثر الآراء كما هو الشأن في المحاكم النظامية حتى ما يحكم فيها بالشرع الشريف كمحاكم الحقوق التي يحكم فيها بالمجلة . وقد سبقت مصر إلى هذا الاصلاح في محكمة القاهرة التي برأسها القاضي الأكبر الذي يرسل اليها من دار السلطنة العثمانية . فإقامة هذا الركن الاسلامي في المحاكم الشرعية يبطل استبداد القضاة في الاحكام ويقلل ارتكابهم لجريمة الرشوة ويجعل الاقضية سريعة الانجاز فيصل الناس إلى حقوقهم في وقت أقرب مما يصلون فيه الآن ان وصلوا !.

يلي هذا الركن وضع كتاب في الاحكام التي تختص بها هذه المحاكم ككتاب مجلة الاحكام العدلية في سهولته وترتيبه وتقسيمه إلى مواد معدودة ومسائل محدودة تلزم الحكم بها و بيان عدد المسألة التي يستند في الحكم اليها . ولا حاجة إلى التذكير بفوائد هذا الكتاب التي (منها) كون المتقاضين يعلمون منه الاحكام التي يحكم بها في دعاويهم فيطبقونها عليها و يطلبون الحكم بها . (ومنها) توحيد الاحكام في الدعاوي التي موضوعها واحد لا كما يقع الآن كثيرا من حكم المحاكم المختلفة بل المحكمة الواحدة في مثل هذه القضايا باحكام مختلفة يؤخذ فيها مرة بقول فلان ومرة بقول غيره ، ناهيك بما في

كتب فقه الحنفية من الخلاف في التصحيح والترجيح وما يكون في هذه الاحكام المتعارضة من الفضائح وضعف الثقة بالدين واهله (ومنها) سهولة تناول الحكم وتضييق مسالك الخلاف فيه بين اعضاء المحكمة - و بوجود مثل هذا الكتاب تتحقق قاعدة كون الجهل ليس بعذر . وانه ليعسر الآن على من زاول كتب الفقه عدة سنين أن يعرف الحكم الذي يحكم به القاضي الشرعي في قضية ما فما بالك بمن لم يزاول هذه الكتب وا كثر المسلمين لا يستطيعون ذلك

ولا بد من تعزيز هذين الركنين بثالث وهو وضع نظام لسير هذه المحاكم في اعمالها وكتبتها وسجلاتها ويجب ان تغل فيه يد رئيسها عن الاستبداد في الاعمال كعزل الكتاب ومتولي الاوقاف وموظفي المساجد واستبداد غيرهم بهم أو تقديم بعض القضايا على بعض بل يجب ان يكون كتبة المحكمة كسائر عمال الحكومة لا يعزلون الا بمحاكمة يثبت فيها عليهم ما يوجب عزلهم . وانا لننتظر من حكومتنا الجديدة قانونا عادلا لمجالس أو محاكم التأديب التي يحاكم فيها جميع عمالها

اما الرسوم التي تؤخذ في هذه المحاكم وتقسم بين القاضي والكتبة فيغلب على ظني أن المالية تبطلها ان لم تكن قررت ابطالها بالفعل في الميزانية الجديدة وحددت مرتبات القضاة ورؤساء الكتاب وسائر الكتبة فان في أخذ المحكمة للرسوم مفاسد كثيرة لا تخفى على اولي الامر وما هم لها بمهملين

الركن الرابع من اركان الاصلاح جعل هذه المحاكم ابتدائية واستئنافية في كل ولاية كالمحاكم النظامية وابقاء التمييز في الاستانة ما بقي تمييز الاحكام العدلية فيها وان كان في ذلك مشقة على أهل الولايات البعيدة وتعويق للاحكام النهائية يرجى ان تتلافاها الحكومة أو يتلافاها مجلس الامة

وأقترح على باب المشيخة الاسلامية وعلى مجلس الامة ان يعهدا الى اللجنة التي تنظر في اصلاح المحاكم الشرعية بمطالعة تقرير الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) الذي قدمه لنظارة الحقانية في شأن محاكم القطر المصري وما يلزم لاصلاحها ومطالعة لائحة محاكم ذلك القطر القديمة والنظام الجديد الذي وضع اخيرا فان في ذلك عونا كبيرا

والله الموفق

خطبة

﴿ على اعضاء المجلس العمومي ببيروت ﴾

دعا كامل بك الاسعد كبير عشائر جبل عامل رفاقه أعضاء المجلس العمومي بولاية بيروت الى داره فيها وأعتدلهم مأدبة حضرها صاحب هذه المجلة و بعض وجهاء بيروت. و بعد الفراغ من الطعام وقف دعاس افندي جريس أحد الاعضاء وأثنى على رب الدار ،وأطرى صاحب المنار، وأشار الى رغبة الحاضرين في استماع شيء منه في موضوع المجلس العمومي ورأيت الانظار موجهة اليّ تنتظر الاجابة فشكرت وقلت بعد مقدمة فكاهية ماملخصه :

ان للمجلس العمومي فائدتين فائدة اجتماعية وفائدة عملية أما الفائدة الاجتماعية فهي تنشئة الامة وتربيتها على الحكم النيابي اعني حكمها لنفسها بنفسها

ان أمر هذه المجالس العمومية من أفضل مافي القانون الاساسي من الاصلاح فلو لم يكن للامة أحد من قبلها ينظر في مصالحها إلا المبعوثون في عاصمة السلطنة لأمكن ان يبقى أهل الولايات ولاسيما البعيدة عن العاصمة جاهلين لمعنى مشاركة الامة للحكومة في ادارة مصالحها ولكن وجود أفراد من كل قضاء بكل ولاية في مجلس قريب منهم يشرف على اعمال حكومتهم وينظر في مصالحهم ومنافعهم هو الذي يعلمهم بالعمل معنى الحكومة الديمقراطية ويجعلهم واثقين بان حكامهم عمال مخلصون لا سادة قاهرون وانهم لايستطيعون ان يستبدوا فيهم أو يظلموهم الا اذا ظلموا هم انفسهم !

ان المبعوثين يشتغلون بأمور الدولة الكلية فمصالح الاهالي لاتتعلق بهم مباشرة وانما تتعلق بحكومتهم المحلية فذلك المجلس ينظر في القوانين العامة ولكنه لاينظر في كيفية العمل بها في كل قضاء بحسب حاجته ولكن هذه المجالس العمومية هي التي تنظر في ذلك فتقرر اصلاح كذا من الطرق وانشاء كذا من المكاتب والمدارس في الاماكن التي تعينها والاهالي يرون ذلك بأعينهم و يعلمون انهم نالوه برأي نوابهم ونفوذهم في

حكومتهم فبذلك يتربون على الحكم النيابي ويعرفون قيمته فلا يرجعون عنه ولا يرضون بالحكم الشخصي بعده

ان مجلسكم هذا صورة مصغرة لمجلس المبعوثان فاذا قمتم بما عهد اليكم كما يرجى من غيرتكم وخبرتكم فانكم تكونون أولى من غيركم بالترجيح في الانتخابات القابلة لأن الاهالي يكونون قدوثقوا بكم عن تجربة وخبرة كما يكونون أكثر عناية بالانتخاب وأكبر أملا في المتخبين

ان ماذكرت في معنى تربية الامة على الحكم النيابي أمر عظيم يجب ان يكون نصب أعينكم فان له علاقة عظيمة بمستقبل البلاد وعظمة الدولة . ان الدولة لاتكون دولة دستورية الا اذا استقر الحكم الدستوري في كل ولاية من ولاياتها وعمرت به البلاد وارتقى أهلها

ان كل ولاية من الولايات تعد عضوا من أعضاء جسم الدولة ولا يمكن ان يكون الجسم حيا قويا سويا اذا كان بعض أعضائه صحيحا و بعضها مصابا بالفالج .

ثم انني أذكركم بما لا تنسونه من ان في الامة حزبا يرى وجوب استقلال كل ولاية من ولايات الدولة في ادارتها الداخلية كالولايات الالمانية أو الولايات المتحدة فاذا كانت البلاد العثمانية غير مستعدة لذلك الآن واذا كان هذا الحزب الآن ضعيفا لايستطيع تنفيذ رأيه فما يدرينا ماذا يكون في المستقبل البعيد أو القريب من أمره وأمر البلاد ؛ ألا يجوز ان يقوى بعد وان تكون الوزارة في يوم ماً من أعضائه والرأي الغالب في مجلس الامة هو رأيه ؟ ؛ (يجوز يجوز) اذاً كيف يكون حال ولايتنا هذه وسائر الولايات العربية التي هي دونها ودون سائر ولايات الدولة في الاستعداد للاستقلال الاداري ؟. اننا نعترف باننا عاجزون الآن عن ادارة شؤون ولايتنا بدون استعانة باخواننا من الترك مع ان ولايتنا أرقى الولايات العربية وقد قلت من قبل وكتبت في المنار ان الولايات السورية تعد وسطا في الاستعداد والارتقاء بين ولايات الروملي و بعض ولايات الاناطول و بين سائر الولايات العربية كالعراق والحجاز واليمن . فيجب ان نرقي انفسنا وان نكون مصدرا أو عونا لسائر الولايات العربية على الارتقاء بل أقول ان اخواننا الترك الذين نعترف لهم بانهم أرقى منا لا يستغنون الآن

عن الاستعانة بالاجانب لترقية ولاياتهم كما نحتاج نحن اليهم والى الاجانب

وهذا الرأي عندي قديم وقد كاشفت به متصرف طرابلس والوالي ايضا فمن المحتم ان نوجه جل عنايتنا للحكم الذاتي والاستغناء بانفسنا عن الاجانب

ايها الاعضاء الكرام: ان هذا الغرض الذي تطالبون به عظيم ولكن قوة الارادة في الانسان تصغر كل عظيم وتسهل كل عسير فاذا وجهتم عزائمكم الى ذلك بالاخلاص فانكم تصلون الى الغاية باذن الله

وقل من جد في امر يحاوله واستعمل الصبر الافاز بالظفر

يرى بعض الفلاسفة ان الانسان لا يجزم ارادته بامر ممكن الا وينفذ وكان الاستاذ الامام على هذا الرأي وقد قال اكثر من مرة انه لم يجزم ارادته بطلب شيء جزما تاما لا تردد فيه الا وحصل وقد كان حكماء الصوفية على هذا الرأي وعبر عنه بعضهم بقوله « ان لله عبادا اذا ارادوا اراد » اي اذا صح توجه ارادتهم الى شيء تعلقت به ارادة الله وما تعلقت به ارادة الله نفذ حتما فعلى الانسان ان يعرف قيمة نعمة الارادة فيوجهها الى خدمة وطنه جازما بانه أهل لأن يرقيه وهو بهذا يكون اهلاً له مهما كانت معارفه فان تفاضل الناس بالإرادة فوق تفاضلهم بالمعرفة فما كل عالم ينفع وكل من اراد ان ينفع فانه ينفع على قدر استعداده

هذا ما أحببت ان اذكر به من أمر الفائدة الاجتماعية في المجالس العمومية واما الفائدة العملية فهي قسمان مادية وأهمها إصلاح الزراعة وتسهيل المواصلات وتعديل الاموال الاميرية. ومعنوية وهي التربية والتعليم والبحث في هذه المسائل يطول وأنتم أعلم بحاجة البلاد وطرق عمرانها من رجل مثلي ليس له مثل اختباركم ولكنني أذكركم بثلاثة أمور تتعلق بالتعليم هي أهم المسائل في رأيي: مراقبة التعليم والتربية في المدارس، وإنشاء مدرسة للمعلمين، واحياء لغة البلاد

ان مدارس الحكومة ليس فيها تربية ولا تعليم نافع بل ربما كان ضررها أكبر من نفعها وانما كان حظ الحكومة المستبدة السابقة منها هو التمتع بصورة الملك دون التربية التي تكوّن النفوس الفاضلة والتعليم الذي يربي العقول الكبيرة

ان الدول تؤلف في هذا العصر من عدة وزارات منها وزارة المعارف وهذه

الوزارة لا تكون بغير مدارس فكان بقاء المكاتب والمدارس في عهد الاستبداد الماضي لدولتنا لاجل استكمال صورة الملك والتمتع بها فان التمتع بالمظاهر الصورية له لذة كما ترون في تمثيل القصص والا فإن الاستبداد كان يحارب العلم حربا عوانا فان أردتم ان يكون التعليم نافعا في مدارس الحكومة فيجب ان تبدأوا بالامر الاول وهو مراقبة التعليم بان تطلبوا تعيين مفتشين ممن يرضى الاهالي معرفتهم وغيرتهم وصدقهم يتعاهدون هذه المدارس ويراقبون سيرة مديريها ومعلميها في التربية والتعليم. ثم ان فساد التعليم في الزمن الماضي قضى بان يكون المعلمون الا كفاء فينا اندر من الكبريت الأحمر فالاصلاح الحقيقي للتعليم يتوقف على إنشاء مدارس لتخريج المعلمين القادرين على التربية والتعليم بالطرق العصرية القريبة. يجب ان يكون الاستاذ المعلم على علمه بالفن الذي يعلمه مهذبا ليكون قدوة للمتعلمين في الفضيلة فان فاقد الشيء لا يعطيه. ويجب ان يكون مع ذلك عارفا بطرق التربية والتعليم فما كل مهذب يعرف كيف تتكون ملكات الفضائل في النفوس ولا كل عالم يعلم كيف ترسم مسائل العلوم في الاذهان فلابد من إنشاء مدرسة للمعلمين في مركز الولاية

واما احياء لغة البلاد واعني بها اللغة العربية فالذي نطالب به الحكومة من وسائله هو جعل تعليمها في مدارسها كلها الزاميا كأختها التركية وجعل دراسة العلوم في الولايات العربية بلغة أهلها وفي سائر الولايات بالتركية كما كان بحسب القانون والذي يقرر هذا هو مجلس الامة في الاستانة وانما على المجالس العمومية المطالبة به

لا يقال ان هذا يفتح علينا باب تعصب الجنسيات في الدولة واننا في أشد الحاجة إلى الاتفاق والتئام الاجناس فان الفرق بين العرب وبين ما عدا الترك من الاجناس واضح جدا

ان الشعب العربي يعد نحوا من ثلثي نفوس الدولة ويقل فيه من يعرف التركية وأما سائر الاجناس: الالبانيين والاكراد والارمن والروم فكلهم يعرفون اللغة التركية فلا يحتاج الحكام والموظفون فيهم إلى معرفة لغاتهم ليحسنوا القيام باعمال الحكومة فيهم بل ان أكثرهم ليس لهم لغات علمية ذات فنون ومعاجم تصلح للتعليم، فالارمن قريبو عهد بتدوين لغتهم وجعلها تعليمية والألبان والاكراد

لما يتم لهم ذلك بل قرأنا فى بعض جرائد هذا الشهر ان الالبان قد عزموا على اختيار الحروف العربية للغتهم التي يشتغلون بتدوينها ومن المقرر ان غرض الحكومة الأول من مدارسها هو تخريج الموظفين الأكفاء فاذا كان المتخرجون فيها جاهلين باللغة العربية التي هي لغة أكثر العثمانيين يتعذر عليهم ان يقوموا بوظائفهم كما يجب فى أكثر بلاد الدولة فان من يجهل لغة قوم يتعذر عليه ان يعرف حقيقة حالهم وما ينبغي لهم وما يتظلمون منه . ولا يقول عاقل انهم يستغنون بالمترجمين لما في ذلك من العسر والنفقات وأين يتعلم المترجمون ؟ على أن العربية ركن للتركية فتعلمها يزيد المتعلم كمالا فيها اما جعل اللغة العربيـة هي لغة العلوم والاكتفاء من التركية في بلادنا بالقراءة والكتابة فذلك ان الامة التي لا تتلقي العلوم بلغتها لا تكون امة علم وانما يكون مبلغها من العلم أن يوجد فيها بعض المترجمين لبعض ما يقرره العلماء المستقلون ولا يوجدفيها المحققون والمخترعون والمكتشفون

ان لغة الامة صفة مقوّمة لها واللغات التي يتعلمها بعض افرادها اعراض تعرض لها وتفارقها فاذا تلقت العلم بلغتها يصير صفة لها حية بحياتها نامية بنمائها واذا تلقته بلغة اجنبية فقصاراه أن يكون زينة عارضة لبعض افرادها ولا ارتقاء للامم في هذا العصر الا بالعلم فيجب علينا أن نبذل جل عنايتنا في تحصيل العلوم العصرية ونقلها الى لغتنا ولا حياة لنا بغير ذلك واننا في عملنا هذا لا نبعد عن اخواننا الترك بل نكون اخوة متساوين في المزايا والحقوق كما يجب أن يكون الاخوة . والمساواة الحقيقية لا تكون مع التفاوت في العلم والعرفان (فليس سواء عالم وجهول)

ارجو عفوا فقد اطلت عليكم عقب الاكل ووقت طلب الراحة فان خلطت في الكلام فربما كان سبب ذلك الخلط في الطعام ، وتوجه اكثر الدم الى المعدة واقله الى الدماغ والسلام

الحرية واستقلال الفكر

آخر خطبة لي ببيروت

دعيت الى حضور الاجتماع الشهري لجمعية الجامعة العثمانية ببيروت في أوائل هذا الشهر (آذار) فاقترح علي رئيسها ان أخطب فيهم بما يفتح الله به حاكيا عن رغبة الجمهور فقمت وقلت ما ملخصه بحسب ما أتذكر

أيها الاخوان الكرام

إن المسائل التي نحتاج الى البحث فيها واستجلاء غوامضها كثيرة جدا فمن الناس من اذا اقترح عليه ان يخطب يبادر الى الكلام في الموضوع الذي يتبادر الى ذهنه سواء كان مطابقا لمقتضى الحال يرجى ان يستفيد منه السامعون مايصحح أفكارهم أو يقوم أعمالهم أم لا . ومنهم من يرى هذه الطريقة منتقدة وانه لابد ان يخاطب الناس بما يتعلق بحالهم وما ينبغي ان يكونوا عليه في أفكارهم وأعمالهم فلا يحثهم على ماسبيل اليه ولا يقرر لهم مالا يفهمون حقيقته

مثال من ذلك : ان بعض الخطباء يقف فيقول أيها العثمانيون عليكم ، بالاتحاد عليكم بالائتلاف ان الاتحاد هو مفيض العمران ومرقي الأوطان ورافع شأن الإنسان . ويكتفي بمثل هذه الخطابيات المجملة التي لا يعلم السامعون كيف يمكن العمل بها فان اتحاد المختلفين في التربية والتعليم والعقائد والافكار والاخلاق والتقاليد والعادات من الامور لا يمكن ان تحصل بمجرد الحث عليها ومدحها وإنما يجب بيان مايشترك فيه من يرادحثهم على الاتحاد واقناعهم بأن منافعهم ومصالحهم مرتبطة به وانها إنما تحفظ وتنمو باتحادهم واتفاقهم وتذهب أو تضعف بتخاذلهم وتفرقهم

أما أنا فأقول ان كل كلام صحيح المعنى لا يخلو من فائدة والفكرة الاجمالية لا تخرج الى حيز التفصيل إلا بابرازها بالقول أو بالكتابة ومن لم يستفد اليوم من الكلام

الصحيح فائدة تامة يرجى أن يستفيد غدا فليقل كل أحد مايرى أنه حق نافع وليقدم الاهم على غيره وهوما كانت حاجة الناس اليه اكثر . واذا قيل لناما هو أهم مانحتاج اليه الآن ؟ قلنا أننا محتاجون الى اشياء كثيرة من العلوم والاعمال لاجل ان ننهض لمانكون به أمة عزيزة ولكن نهوضنا يتوقف على أمر عظيم لايحصل بدونه . فما هو هذا الامر الذي هو شرط للارتقاء في كل علم وكل عمل بحيث يلزم من عدمه العدم ؟ ألا إنه هو الحرية الشخصية واستقلال الفكر

قد قلت في بعض الخطب التي تكلمت فيها عن الحرية ان استعداد البشر للارتقاء ليس له حد يعرف ولا غاية تحدد فاذا عاشوا ملايين من السنين يمكن أن يكونوا في ارتقاء مستمر لا ينقطع اذا كانت حريتهم في العلم والعمل مصونة من عبث المستبدين فهكذا ترتقي الامم على قدر صيانتها واحترامها للحرية وتتخلف عن الارتقاء بل ترجع الى الوراء على قدر عبثها بالحرية وتحكمها في الباحثين والعاملين

مضت سنة الله في البشر بأن الفكر يسبق العمل فاذا كانت أفكار العقلاء والاذكياء مضغوطة ممنوعة من الحركة والنمو فإنها لاتكون مستقلة والامة لا تخطو خطوة واحدة الى الأمام الا اذا أطلقنا العنان لجياد الافكار تجول في ميادين الكتابة والخطابة بلاحجر ولا ضغط لا فرق في ذلك بين المسائل الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها

يجب علينا أن نحترم رأي من يخالفنا كما نحترم رأي من يوافقنا لأن الفلاح متوقف على ظهور الحقائق وظهورها يتوقف على استقلال الأفكار وحرية البحث والكتابة والخطابة ولا يخاف على دينه من حرية البحث إلا من لاثقة له بدينه ومن كان واثقا بأنه على الحق فانه يعلم أن مخالفته فيه لا تزيده الا قوة وظهورا فقد نطق الكتاب العزيز بما هو ثابت عقلا واختبارا من أن الحق يعلو ولا يعلى وانه ماتصارع الحق والباطل الا وصرع الأول الثاني « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »

علينا أن نبحث بعد هذا عن أنفسنا لنعلم هل نحن نحترم استقلال الفكر وحرية القول والعمل ؟ هل قمنا بحق هذا الشرط الذي يتوقف عليه كل مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية واسبابها ؟ إن حكومتنا تركت الضغط على عقولنا وافكارنا

والحجر على ألسنتنا وأقلامنا لنكون احرارا في أقوالنا واعمالنا فهل صرنا أحرارا بالفعل ؟

نعم أن الحكومة تركت الاستبداد والاستعباد وأباحت لنا الحرية طوعا أوكرها ولكننا ما قبلناها فان الافكار لاتزال مضغوطة محجورا عليها أن تبرز من مضيق الدماغ الى فضاء الوجود الخارجي والحرية الشخصية مهددة لا من الحكومة بل منا أنفسنا

في البلد حوادث حيوية كثيرة لا يكتب أحد من أصحاب الجرائد رأيه فيها بالحرية . ولماذا ؟ أيخاف من « المراقب » أن يرجها له ؟ لا إن الجرائد لا تعرض الآن على المراقبين كما كانت تعرض في زمن استبداد الحكومة ولكن ما سقط مراقب الحكومة الا وتقاسم مثل عمله من لا يحصى من دهماء الأمة يفتاتون على أصحاب الجرائد وكتابها وعلى الحكومة نفسها وربما كان هذا الاستبداد أشد وطأة واثقل ضغطا من استبداد الحكومة

إن جرائد بيروت كان لها مدير واحد لسياستها هو المراقب وكانت نسبة أصحابها ومحرريها اليه كنسبة محرري الجرائد الكبيرة في البلاد الحرة الى رئيس التحرير أو مدير السياسة . فكانوا اذا أرادوا كتابة شيء يتحرون أن يكون بحيث يرضيه وقد عرفوا ما يرضيه ويجيزه فلم تكن مراعاته متعذرة عليهم ولكن يتعذر عليهم الآن أن يعرفوا ما يرضي هؤلاء المراقبين الذين حلوا محله لأن عقولهم وآراءهم ليس لها قاعدة ترجع اليها ولا ميزان توزن به . فهل يمكن أن ترتقي الصحافة أو الافكار في بلاد يفتات على حملة الاقلام وارباب الافكار فيها كل أحد حتى البحار والحمال و بائع الحمص والفول !!

اننا قد تغنينا باسم الحرية في أيام إعلان الدستور وألقينا الخطب الكثيرة في وصفها ، وانشدنا القصائد العديدة في مدحها والتغزل بها، وكان هتاف الجماهير للخطباء والشعراء ' يعلو في الجو حتى يبلغ عنان السماء ' وكتبنا ذلك الاسم الجميل « الحرية » بالخطوط الجميلة وزينا به البيوت والمعاهد العامة والخاصة والحدائق فظهرنا بمظهر العاشق الولهان لهذه الحرية الجميلة ولكنني اخشى أن نكون في عشقنا لها كعاشق أم عمرو ؟ ولعل بعض الحاضرين لايعرف خبر هذا العاشق فاذكره إعلاما له وتذكيرا لغيره مر بعض الناس بصديق له مرة فرآه على غير ما يعهد : رآه قلقا مضطربا فسأله

عن حاله فقال إنني عاشق ولهـان لا يقر لي قرار ، ولا يطيب لي اصطبار ، ولا يهنأ لي طعام ، ولا يزور جفني منام ، قال له صاحبه من عشقت ؟ قال عشقت أم عمرو ، اجمل نساء العصر ، قال من هي أم عمرو ومتى رأيت وجهها المليح ، فبرح بك هذا التبريح ؟ قال لا أدري من هي ولا لمحتها عيني وانما سمعت رجلا ينشد في الطريق:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردّي عليّ فؤادي اينما كانا

فقلت في نفسي لولا ان أم عمرو هذه أبرع النساء جمالا وحسنا، وأوفرهن من القسامة قسما ، لما قال الشاعر فيها هذا القول فعشقتها

وقد طال على هذا العاشق الاحمق عشق تلك المعشوقة المجهولة حتى مرّ به صاحبه يوما فاذا هو يبكي وينتدب قد ساورته الاحزان ، وواثبته الاشجان ، فسأله مادهاك ؟ فصاح أواه واويلاه ! لقد بليت بأشد المصائب وأعظم النوائب فقد ماتت أم عمرو . وغلبه النشيج وأخذ في النحيب ، ولما سكت عنه الروع قال له ومن أخبرك بموتها فهل رأيتها وعرفتها ؟ قال لا ولكنني سمعت الشاعر ينشد في الطريق:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت لولا انها ماتت لرجعت ولما قال الشاعر هذا القول

نعم انني أخشى ان تكون حريتنا المعشوقة ، هي أم عمرو المجهولة ، فان الحرية الحقيقية قد تعرفت الينا فنكرناها ، ورغبت فينا فرغبنا عنها ، وأحبت القرب منا فاخترنا البعد عنها ، والا فما بال الكثيرين منا ، يسلطون العامة على من يبدي رأيا يخالف رأيهم أو هوى أنفسهم ، يهددونه ويهينونه ، واذا لم يوجد له عصبة تمنعه منهم فانهم يضربونه ، ومتى كانت الحكومة المستبدة تضطهد حرية الفكر والعلم أشد من هذا الاضطهاد ، وتحاول استعبادا أقبح من هذا الاستعباد ، أي العبوديتين اذل ، آلعبودية للحكومة أم العبودية للعامة ؟

كان الخطباء والشعراء يقولون في أيام عيد الحرية في مدح الأمة نحوا مما يقولونه في مدح الحرية نفسها لإظهار التناسب بينهما ولا يزال كثيرون منهم يسمعوننا مدح أنفسنا ، ويشيدون بفضلنا وفضل سلفنا ، ويتمثلون بقول شاعرنا : نبني كما كانت أوائلنا الخ أما أخوكم هذا فيقول ان ما كان يقال في أيام عيد الحرية لا ينبغي أن يقال اليوم ولا في كل يوم . ان الأعياد في عرف الناس هي أيام السرور والابتهاج فيحسن ان

يتناسى فيها ما يسوء ويتحرى فيها ما يسر ، وهذه أيام الجد والعمل فيجب ان نعرف فيها ما نحتاج اليه في هـذا العصر لنجاري الامم العزيزة القوية ، الرائعة في بحبوحة المدنية ، لان أن نمني النفس بالأقوال التي يلذ سماعها ، ونترك السنن التي نرقى باتباعها ،

ياقوم انا مرضى ومن كتم داءه قتله ، انا مرضى ويجب علينا ان نداوي أنفسنا ، ان الادوية لا يقصد بها اللذة ، بل يقصد بها المنفعة ، هل سمعتم ان الأطباء يداوون المريض المدنف باطعامه اللحوم المعالجة بالبقول والافاويه والكنافة والبقلاوة والاشربة المثلوجة ؟ لا لانهم يداوونه بالمسهلات البشعة الطعم والكينا المرة وربما داووه بالسكين ينال شيئا من بدنه . وكذلك تكون أدوية الامراض النفسية . وانه ليسوءني ان أصرح لكم بما يولمكم ولكنها الحقيقة لا بد منها وان كانت مرة كالدواء « أخوك من صدقك لا من صدّقك »

ان من فضل الحرية علينا ان صرنا قادرين على البحث عن مرضنا وعلى الاجتهاد في معالجته فيجب ان نعرف قيمة هذه النعمة وان نشكر الله تعالى عليها بالعمل الذي نستفيد به منها

أعود فأقول اننا لا يجوز لنا ان ندعي اننا عرفنا الحرية واننا نقدرها قدرها الا اذا كنا نحترم استقلال الفكر فلا نعارض أحدا في إبداء رأيه واظهار علمه باللسان أو القلم ولا يمكن ان نخطو خطوة واحدة الى الامام بدون هذا

فعليكم أيها الفضلاء المحبون لخير أمتكم وتقدم بلادكم أن تنصروا الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية وأن تبذلوا الجهد المستطاع في بث هذا الفكر في طبقات الأمة وتقنعوا أولئك الذين نسمع أخبار افتياتهم على الكتاب وأصحاب الجرائد بأن عملهم هذا ضار ببلادهم وان الذين يغرونهم بذلك هم اهل الاهواء الذين يتبعون حظوظ أنفسهم ولو فيما يضر بلادهم

انصروا حرية البحث والطباعة لكي تتجلى للأمة الحقائق فتعرف مايضرها وما ينفعها ولكي تتربى فيها العقول الكبيرة بعد رفع الضغط عنها . ان تعملوا هـذا تخدموا بلادكم أجل خدمة . وأراني اطلت عليكم في هذا الكلام الحار مع حرارة الجو بكثرة الاضواء وازدحام الناس فحسبي هذا والسلام

———

خوارق العادات

في الاسلام (*)

اطوار البشر والمعجزات - المعجزات العقلية والحسية ـ علم الغيب ـ التنويم المغنطيسي
استحضار الارواح ـ الكهانة ـ الاحلام ـ السنن الكونية والمعجزات
جرائم الامم والافراد والعقوبات الالهية عليها

أتى على الانسان حين من الدهر كان في طور أشبه بطور الطفولية ، فسادت الأوهام والخرافات على العقول البشرية ، وكثر بين الناس الدجالون والمحتالون ، والسحرة والمشعوذون ، وملكوا نواصي الناس بافكهم وكذبهم ، وصاروا يتصرفون في جميع أمورهم ، فما كان أحد يقدم على عمل ما إلا بعد مشاورتهم ، والاسترشاد برأيهم ، فكان الناس في أيديهم كالانعام بل هم أضل سبيلا : عقول فاسدة ، وآراء كاسدة ، وأفهام ساذجة ، وبصائر قاصرة ، وجهل وأوهام ، وخرافات وخزعبلات ، تقيمهم وتقعدهم ، وتفرحهم وتحزنهم ، وتخيفهم وتزعجهم ، فاذا برق بارق من السماء ارتجفوا واضطربوا ، وإذا نزلت صاعقة من السحاب ماجوا وارتعبوا ، وإذا أصابهم مرض ما علقوا لدفعه الاوراق ، أو استنجدوا براق ، وإذا نظر إلى بنيهم ناظر حوطوهم بالتمائم ، وأطلقوا حولهم بخور المباخر ، وإذا كسفت الشمس أو خسف القمر صاحوا ودقوا الدفوف وقرعوا الطبول لإرضاء آلهتهم على مايزعمون — إلى غير ذلك من الأوهام والأباطيل.

هذا كان شأن الجماهير إلا من شذ منهم وندر، وأضاء الله عقله بشيء من نور العلم ومع ذلك ما كان يسلم عقله من جميع ترهاتهم

سار الله تعالى مع تلك الأمم في هذا الطور سير الأب الحكيم مع أبنائه في طفوليتهم فأكثر فيهم الهادين والمرشدين والأنبياء والمرسلين فأكثروا من وعظهم ونصحهم وانذارهم ووعدهم ووعيدهم . وخذلوا من كانوا متسلطين على عقولهم من

(*) بقلم الدكتور محمد افندي توفيق صدقي الطبيب بسجن طره

السحرة والمشعوذين . بما أجراه الله على أيديهم من المعجزات ، وأظهره لهم من الآيات البينات ، التي تركت السحرة مغلوبين في أمورهم ، حيارى في شأنهم ، ولولا تلك الآيات لما قدر الانبياء على تخليص أممهم من حبائل الدجالين والمحتالين ، بل الابالسة والشياطين ، فكانوا إذا ظهرت تلك المعجزات بهرت منهم العقول وحيرت الافكار وأعجزت السحرة وأدهشت الناس فيخضع المستعد منهم لهيبة من ظهرت على أيديهم فيؤمنون له ويتبعونه . ويطيعونه فيما يأمرهم به (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) ثم يأخذ الله المعاندين الذين خالفوا ضمائرهم وكابروا عقولهم وأبصارهم ولم يميزوا بين الغالب والمغلوب ، والصادق والكذوب ، بأنواع من العقوبات تناسب أحوالهم جزاء لهم وعبرة لغيرهم لعلهم يرشدون

مضت الأيام والأعوام ، وتوالت القرون والأجيال ، وانتقل البشر من حال إلى حال ، وارتقوا من طور إلى طور . فأخذت العقول تستنير ، والأفكار تضيء والسحر يضمحل ، والانبياء من بينهم تقل ، حتى ختمت النبوة ببعثه سيد الانبياء والمرسلين . وأكبر الهادين والمصلحين

كان البشر في عهد البعثة المحمدية ، قد خرجوا من طور الطفولية إلى سن الرشد فأصبحوا لايناسبهم من الدلائل والبراهين ما كان يناسبهم في القرون الأولى وقل فيهم تأثير المحتالين والدجالين والسحرة والمشعوذين . وصاروا يرجون الهداية من طريقها ، فساعدهم الاسلام على ذلك ونهج بهم منهجا لم يسبقه به دين من قبل ، فجعل الحجج العلمية والدلائل العقلية رائده في جميع دعاويه وعليها معتمده في كل مبانيه ، وقلل من شأن المعجزات الحسية بقدر الامكان ، حتى لاتكون عقبة في رقي عقل الانسان في مستقبل الزمان ، (وما كان لرسول ان يأتي بآية إلا باذن الله لكل أجل كتاب ٭ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فان البشر في عهد النبوة المحمدية ، أخذوا يدركون قيمة المعجزات الحسية ، وأنها لاعلاقة بينها وبين دعوى النبوة ، وأنها لا يسهل تمييزها عن غيرها من أعمال السحرة والمشعوذين ، والصناع الماهرين ، وأنها إن أقنعت تلك العقول القديمة وأرهبت تلك النفوس وهي صغيرة وحملتها على الايمان فانها أصبحت لاتغني العقل فتيلا ولا تزيد الأمور إلا تعقيدا . وأن الدليل

إن لم يكن له من العقل أكبر نصير فهو أضعف ضعيف. ومن كان يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم تلك المعجزات فما كان يريد بها إلا الاعنات والاعجاز ، والسخرية والاستهزاء ، والإفان أمامه من البراهين والآيات مايشفي علة النفوس ويروي غلة العقول (أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وأما ماأظهره الله تعالى على يديه من المعجزات الحسية فلم يكن يراد به إلا إفحام المعاندين المستهزئين ، والزيادة في تثبيت ضعفاء المهتدين . وقد كان جل اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم في إثبات دعوته على القرآن وحده . كما يتضح ذلك لمن تدبر آياته . فانه هو المعجزة التي تلتئم مع الدعوة، وتعلو بالعقل إلى مستوى العلم والفهم ، وتناسب حال الاجيال من بعده فلا تقف عقبة في سبيل نظرياتهم وتفكيرهم، ومعلوماتهم واختراعاتهم، ولا تلتبس عليهم بحيل الدجالين وتدليس المحتالين، ولا بكذب القصاصين وافك الراوين، وتخيل الواهمين واختراع الكاذبين، بل تساعدهم على البحث وتحضهم على التفكير والنقد والتمحيص والاستدلال والاستنتاج

فبعثة محمد صلى الله عليه وسلم ختم عصر العجائب والغرائب وبدأ عصر العلم والعقل فهو الحد بين العصرين فلذا كانت معجزاته تشمل هذا وذاك وكان أجلها وأكبرها والباقي منها وهو القرآن مناسبا لزمنه عليه السلام ولكل ما أتى ويأتي بعده من الازمان فلا يناسبها غيره

وكما ختم عصر المعجزات ، وتمت النبوات ، كذلك أغلق باب الكهانة فكأن الله تعالى في العصر الأول والبشر في طور الطفولية كان يتجلى لأبصارهم وفي العصر الثاني وهم في طور الرجولية صار يتجلى لبصائرهم أكثر مما يتجلى لأبصارهم . فان بصائرهم في العصر الأول كانت ضعيفة لصغرها فلا تتحمل أن تراه فلذا كان يظهر لأبصارهم بأنبيائه ورسله الكثيرين وآياته ومعجزاته وبعض مخلوقاته كالجن الذين كانوا يسترقون السمع من الملأ الاعلى فيخبرون به بعض البشر وذلك لأن الأب مع أطفاله يكثر التكلم معهم وتأديبهم وتهذيبهم وترغيبهم وترهيبهم ومكافأتهم بالماديات أو معاقبتهم على حسب ما يدرك منهم فاذا صاروا رجالا كف عن ذلك

واكتفى بابداء بعض تعاليمه العامة وإرشاداته المكتسبة من طول التجربة والاختبار وتركهم يستعملون عقولهم فيما يرونه صالحا لهم كذلك فعل الله تعالى (وله المثل الاعلى) بعد أن بلغ الانسان رشده أعطاه الشريعة العامة والقواعد الثابتة وأباح له التصرف في الامور بحسب ما يرشده إليه عقله فبعد أن كان يوحي للأمم السابقة كبني اسرائيل مثلا في كل جزئية من جزئيات الامور اكتفى الآن بما في القرآن الشريف من القواعد العامة والاصول الثابتة فانها مع ما يوحيه إلينا العقل كافية لهدايتنا في جميع الامور بعد أن بلغنا رشدنا

لذلك أغلق الله تعالى باب الوحي والمعجزات والكهانة وأخبرنا بذلك كله صريحا في الكتاب العزيز فلم يبق لمحتال علينا حيلة. ولا لمشعوذ أدنى وسيلة. وبذلك خلص العقل البشري من الأوهام والخرافات والترهات ، وأصبح طريق العلم أمامه واضحا لا يحجبه عنه حاجب ولا يقف أمامه فيه واقف . ولكي لا يبقى هناك ثلمة في نفس أحد من المؤمنين يصل إليه منها شيطان من الشياطين نص الكتاب العزيز نصا صريحا لا يقبل التأويل على أن الغيب علمه عند الله لا يعلمه إلا هو وأن الأمور كلها بيد الله يصرفها كما يشاء لا يراعي فيها مجاملة أحد من عباده فقال مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) ومثل ذلك في القرآن كثير يصعب ان يستقصى في مثل هذه المقالة

يقول واهم إذا كان الغيب لا يعلمه أحد إلا الله فما بال التنويم المغنطيسي واستحضار الارواح والأحلام الصادقة تكشف كثيراً من الغيب وكانت الكهانة تكشف كثيرا منه من قبل ؟

فاعلم أن الشخص في حالة التنويم المغنطيسي لا يمكنه أن يعلم شيئا مما لم يوجد فلا يمكنه أن يطلع على الغيب أي لا يمكنه أن يعرف شيئاً مما لم يكن له وجود وهو في تلك الحالة المخصوصة وغاية الأمر أنه لا يحجبه عن رؤيا بعض الموجودات حاجب لصفاء روحه عن كدورة المادة إذ ذاك ومن هنا تتسع دائرة معلوماته عن بعض

الموجودات فيمكنه أن يخبر بالقياس أو الاستنتاج مما علم عن بعض أشياء قبل وقوعها كالامراض التي ستصيبه مثلا بعد وقوفه على حالته الجسمية كما يخبر الطبيب عن بعض الاشياء المرضية قبل حصولها لمعرفته الأمراض واسبابها ومسبباتها وأعراضها وكما يخبر الفلكي عن الكسوف والخسوف قبل وقوعهما أي إن الشيء إذا لم يكن موجودا فلا يمكن العلم بوقوعه إلا قياسا أو استنتاجا اواستنباطا من موجود و إلا فالغيب (وهوماغاب عن الانسان لعدم وجوده مطلقا أولعدم وجودمايستدل به عليه) علمه عند الله لا يعلمه إلا هو ولا يعلمه أحد من عباده إلا إذا أطلع هو (جل شأنه) أحدا على شيء منه فيخبر به ويفشو بين الناس كما أطلع الله رسله (الملائكة والانبياء) على بعض الغيب فعلموه وعلمه الناس منهم وكما كان يعلم بعض ذلك بعض الجن قبل إبطال الكهانة واستراق السمع من الملأ الاعلى فيخبرون به بعض البشر فيخيل للناس أنهم يعلمون الغيب والحقيقة أنهم أخبروا بما أخبروا به لصلة بينهم وبين عالم الأرواح وإن كانوا يكذبون في كثير مما أخبروا به . ولنا الآن في مسألة استحضار الأرواح دليل قاطع حسي على إمكان اتصال البشر (ومنهم الكهنة) بالعوالم الاخرى الروحية (ومنهم الملائكة والشياطين) وبذلك يمكن البشر الاطلاع على بعض المغيبات من هذا الطريق كما يمكنهم أن يطلعوا على بعضه في طريق الاحلام الصادقة، فانها من بقايا الوحي إلى بعض النفوس الصافية، وفيها يُري الله تعالى بعض عباده شيئا مما سيكون بارادته كما كان يوحي إلى الانبياء من قبل وليس للبشر في معرفة شيء من ذلك اختيار بل هو شيء يفعله الله متى شاء وكيف شاء

أما علم أحد من تلقاء ذاته (أي بدون وحي أو سماع من غيره) بغيب حقيقي (أي لا يستدل عليه من موجود) فهو محال إلا على الله الفاعل المختار الذي يفعل ما يشاء متى شاء وكما شاء ودعوى معرفة أحد غيره الغيب دعوى باطلة كاذبة ولا يمكن لأحد الجزم بوقوع شيء من الغيب باليقين وما يقع منه مطابقا للخبر فلا يكون إلا اتفاقا مالم يكن موحى به

فالغيب المنفي علمه في القرآن الشريف هو هذا الذي ذكرناه أي الغيب الحقيقي لا مطلق الغيب . فان الغيب أمر اعتباري فما غاب عنك لا يغيب عن

غيرك وما لم تعرفه لجهلك بشيء مما يعرفه غيرك ممن علم هذا الشيء

أما مسألة إنكار المعجزات بسبب مخالفتها لما اعتاده الناس فهي من السخافة بمكان . نعم إن سنن الله تعالى في هذا العالم لا تتبدل ولا تتغير كما نطق به القرآن الشريف في عدة مواضع منه ولكن خرق العادة ليس خرقا للسنة فان من سنة الله إيجاد الشواذ في كثير من الاشياء المعتادة إذا اقتضت حكمته ذلك . ولذلك نشاهد في عالمي الحيوان والنبات من الشواذ التي يسمونها (الفلتات الطبيعية) ما يصعب حصره وما قال أحد بأن هذه الشواذ خارقة لسنن الكون ونواميس الوجود وإن كانت خارقة للمعتاد . ولو سألتهم عن حكمة وجودها أو عن كيفية خلقتها لعجزوا عن الجواب . أما نحن فنقول إن الحكمة في وجود مثل هذه الاشياء الشاذة هي أن الله تعالى يريد أن يرينا شيئا من مبلغ قدرته وعظمته وأن قدرته تعالى لا تقف عند الحد الذي عهدناه بل هي أوسع من أن تحيط بها مداركنا وأما كيفية خلق هذه الشواذ والعلل المباشرة لتوليدها فانا نجهلها الآن كال الجهل وربما علمنا عنها شيئا في المستقبل . كذلك نحن نعلم حكمة إيجاد الله تعالى للمعجزات وهي أنها تخيف الناس وتلجئهم إلى الاحتماء بالانبياء فيتعلقون بهم ويؤمنون لهم ويتبعونهم فتصلح حالهم . وتنفرهم من أعمال السحرة والمشعوذين وتبعدهم عنهم . ولكنا إلى الآن لا يمكننا أن نفهم كيفية إيجادها ولا الأسباب التي تنشئها وغاية ما نقول إنه هكذا أوجدتها القدرة الإلهية كما يقول الطبيعي عن الشواذ هكذا وجدت وإن كان عقله لا يدرك كيفية وجودها .

قد يقول قائل إن هناك فرقا عظيما بين المعجزات وبين هذه الشواذ الطبيعية التي اتخذتها مثالا لها فالمعجزات لا يشاهدها أحد الآن بخلاف الشواذ فانها تشاهد كل يوم فان كانت المعجزات حقيقية وجارية على سنن الكون فلم انقطعت الآن ؟ ؟ ونقول أما انقطاع المعجزات فهو لانقضاء زمن الأنبياء ولو وجد داع لها الآن لوجدت كما أن كثيرا من الشواذ في العالم الطبيعي قد انقرضت الآن لانقراض الحيوانات، والنباتات التي كانت تظهر فيها . فكأن سنة الله تعالى في هذا العالم هي أنه إذا وجدت الحكمة لظهور المعجزات تظهر،

ولو وجدت بعض الانواع من الحيوانات والنباتات البائدة لوجد فيها من الشواذ المخصوصة فى خلقتها وكيفية معيشتها مايدهشنا الآن ويعد من العجائب والغرائب. وقد كانت الاحياء فى مبدأ أمرها تتولد من الجمادات مباشرة وهو ما يسمونه (التولد الذاتي) وقامت البراهين القطعية على ذلك والآن لا يوجد شيء منه مطلقا فلمَ لاينكره المنكرون لانقضاء عهده الآن كما انقضى زمن المعجزات ؟ ؟ إن هذا لامر عجاب ! !

بقيت كلمة واحدة تتمة لهذا الموضوع وهي أننا قلنا فيما سبق مامعناه إن الله تعالى كان يؤدب الأمم السابقة ببعض أنواع من العقوبات المادية كالخسف والمسخ والقحط فهل ما يقع الآن بالأمم من ذلك هو جزاء لهم على أعمالهم أم لا ؟

الجواب — إن ما يفهم من القرآن الشريف هو أن ما يقع بالأمم من المصائب المهلكة هو عقوبة لهم على أعمالهم (وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) وكذلك ما يصيب الاشخاص من المصائب هو في الغالب جزاء لهم على ذنب ارتكبوه (إن ربك لبالمرصاد) (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) ولكن لا يفهم من ذلك أن جميع المصائب هي بسبب ما كسبه الانسان بل إن ذلك بحسب الغالب. فان الآية لا تدل على التعميم وإذا فهم منها العموم فانه يخصص بمثل قوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات) الآية. أي إن بعض المصائب قد يراد بها الاختبار أو غيره لا العقوبة كما أن قوله تعالى (وأوتيت من كل شيء) لا يراد به ظاهره مع أنه أصرح في إفادة الكلية من قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة) الآية. فالله تعالى لم يترك البشر في هذا الطور (طور العلم والعقل) بدون مراقبة ومجازاة لهم على أعمالهم كلا ! ! بل هو أرحم من الأب الحكيم لا يترك أبناءه إذا كبروا بدون تأديب لهم إذا كثر إجرامهم بل قد يتداخل في أمورهم ويعاقبهم على ما يجرمون. فلا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون،

(المنار) اتبع الدكتور فيما ذكر من ترقي الدين رسالة التوحيد وهذا هو الاصل في نسخ الشرائع الذي يحتج به عليه الشيخ صالح اليافعي في الرسالة التي بعد هذه وهو لاينكره. ويرد عليه ان الخوارق لم تنقطع ولكنها لم تعد حجة للدين في هذا العصر كالعصور الأولى

باب المراسلة والمناظرة

رد الشبهات على النسخ وكون السنة من الدين (*)

١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا آله الا الله واشهد أن محمدا عبده ورسوله (ص) وانه بلغ الرسالة وادى الأمانة صلى الله عليه وعلى آله واصحابه واتباعه الى يوم الدين

أما بعد فاني قد وقفت على الكلمات التي كتبها في الرد عليَّ حضرة العلامة والمفضال الفهامة الدكتور محمد توفيق صدقي وفقنا الله وإياه للهداية والتوفيق آمين وحيث إني رأيته لم يأت بدليل جديد وانما كرر كتابة ما قد بينت للقارئين فساده في رسالتي السابقة أردت اختيار السكوت وان أفوض الى قراء المنار وغيرهم من علماء الاسلام تولي ترجيح أحد القولين والحكم بتخطئة أحد الخصمين بعد الفحص عن أدلة الطرفين. ولكن ألح علي في كتابة جواب الجواب من يعز علي من أهل البيت الاطهار نخبة الاخيار سيدي احمد بن حسين العطاس باعلوي سلمه الله وحفظه وكذلك كثير من حزب الله المفلحين المصلحين الصادقين محبي المنار الأغر فاخترت الله واستعنته على كتابة هذه الجملة المختصرة لأنبه اخانا الفاضل على أن ما كتبه في

(*) جاءتنا هذه الرسالة من الشيخ صالح اليافعي يرد بها على الدكتور محمد توفيق صدقي ثانية فأثبتناها على طولها ليأخذ الموضوع حقه من البحث فانه من أهم المسائل الدينية في هذا العصر

هذا الرد هو نفس ما كتبه سابقا مما قد بينا ولله الحمد خطأه وايضا هو لم يبطل شيئا مما كتبناه في رده لا بنص نقلي ولا بدليل عقلي

واما ما ذكر من شبهات غير المسلمين فهي مما لا قيمة لها اذا عرضها الفاحصون على معيار التحقيق وغاية محصلها أن تكون من اضعف الشبهات التي ربما تعرض وتعلق بخيالات غير الواقفين على حقيقة دين الاسلام ــ وها أنا ذا أقدم للواقفين بيان قيمة كل شبهة اوردها العلامة الممدوح عنهم ووجه دلالتها ثم اتبع ذلك بردها وألتمس من حضرة سيدنا شيخ الاسلام ومرشد الانام مولانا السيد محمد رشيد رضا منشيء المنار أن يصلح ما فيها من القصور والخطل وان ينبه أحدنا على زلته، ويدله على محل عثرته، ولولا أن بذل النصيحة في الدين واجب لم اكتب ولا حرفا واحدا ولكن امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم «تناصحوا في العلم فان خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله وان الله مسائلكم» ولنشرع في المقصود بعون الجواد المعبود فاقول:

قال العلامة الفاضل سلمه الله ووفقنا وإياه للصواب «الكلمة الاولى في تقرير بعض شبهات غير المسلمين على مسألة النسخ في القرآن» الى آخر ما نقل عنهم وحاصله أنهم اعترضوا على صحة دين الاسلام ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بوجود النسخ الذي يسلمه المسلمون في القرآن لانه أي النسخ لا يكون الا اذا كان المنسوخ ناقصا ومعيبا إما في مغزاه أي غاياته أو معناه أي مدلول لفظه أو بلاغته المخل باعجازه أو ان الحكم لا يرضاه الناس أو أنه لا ينفعهم أو انه قد يضر بمصلحتهم

فمحصل ماذكروه ان النسخ لا يكون الا لذلك وكأنهم يريدون ان صدور ذلك من الرب واجب الوجود محال واستنتجوا من ذلك استحالة أن يكون دين الاسلام منزلا من الرب أي لوقوع ذلك فيه واعتذروا عن قبول العقلاء لذلك بأن سببه كمال محمد (ص) في الدهاء والتحيل بحيث صار يلعب بعقول اصحابه وذكر عنهم ماملخصه وحاصله ان محمدا (ص) لم يتم له ما أراد من التشريع الا بعد اصلاح ماوقع في دينه من العيب والنقص وابدال ماانتقده عليه المنتقدون أو عارضه المعارضون أو عرف انه يكون كذلك ولو بعد حين ولذلك تعلق بدهائه الى اخفاء عيبه وعيب دينه بتجويز وترويج مسئلة النسخ في قرآنه ونقل عنهم انهم قالوا وقد ضاع بسبب ذلك مما أتى به

من القرآن آيات كثيرة جاء ذكرها في أحاديث المسلمين وكأنهم يريدون بذلك انه كما انه يستحيل بزعمهم ان يكون القرآن منزلا من الله فهو أيضا غير محفوظ ولم ينقل الينا كله. ودعوى المسلمين ان ذلك مما نسخ الله لفظه تحكم غير مقبول، اذلم يقدر المسلمون على تعليل ذلك بعلة معقولة ــ ونقل عنهم أيضا انهم يزعمون ان مابقي من القرآن في أحكامه شطط وان عباراته متناقضة مختلفة ــ وذكر عنهم اعتراضا على بعض أجوبة المسلمين التي ذكرناها في رسالتنا السابقة لتسويغ نسخ لفظ القرآن حيث قلنا ماأدى وظيفته لايلزم بقاؤه فنقل عنهم في معارضة ذلك ان القرآن مشتمل على مسائل خاصة بمحمد (ص) وأهل بيته ولافائدة منها لأحد سواه قال فاذا صح عند المسلمين نسخ الفاظ الآيات التي أدت وظيفتها وانقضى زمنها فلماذا لم تنسخ ألفاظ مثل هذه الآيات الواردة في حالات خاصة وفي وقائع خاصة وقد أدت وظيفتها وانقضى زمنها وما حكمة آية الرجم مثلا مع بقاء حكمها في شريعة المسلمين !! انتهى

أقول والكلام على ماأورده عنهم من وجوه

(احدها) ان نقول ان بعض هذه الشبهات كقولهم وما بقي من القرآن بعد هذا التصحيح والتنقيح نجد شططا في كثير من أحكامه فضلا عما في عباراته من المتناقضات والاختلافات الى آخره لاترد علينا ولا على من يقول ان القرآن الموجود فيه ناسخ ومنسوخ وانما ترد على خصوص مذهب الدكتور وهو لاينفصل عن هذه الإيرادات ولا يستقيم مذهبه الا اذا سلك مسلك التأويل المناقض لظاهر الدلالات في هذه المواضع، والتأويل اذا صار لايصح الا بحيث يكون المعنى المؤول اليه انما يدل عليه بالفاظ غير ماعبر الله به عنه فهو يكون لامحالة من باب التبديل والتحريف للذين ذم الله أهلهما ونهى عنهما وكما ان مثل هذا التأويل مردود عند أهل الحق من المسلمين فغير المسلمين أيضا لا يقتنعون به وهو أعظم منفر لهم عن الاسلام، لجواز ان يعتقدوا ان ذلك إصلاح خلل وتكميل نقص في القرآن والدين — فاعتراضاتهم السابقة على النسخ هي واردة على مثل هذا التأويل وقبولهم تكذيب ما نقله المسلمون فيما تقدم ضرب من المحال،

اما نحن القائلون بجواز النسخ في الأديان ووقوعه في القرآن فلا ترد علينا هذه

الشبهات لا في الدين ولا في خصوص القرآن ، وانما يلزمنا الاستدلال على جواز النسخ عقلا ويحسن منا إذا بينا حسنه وحكمته في المورد المعين ومن قصر عن إدراك ذلك فلا يضره ذلك ولا يضر الدين أيضا — لان جهلنا بالشيء لا يستلزم عدمه في الواقع — وانما يضر لو كان بعض ما علمنا انه من الدين مخالفا للحقيقة في نفس الأمر وليس في الاسلام شيء من ذلك — وفضلا عن الايرادات والشبهات الواردة على دين أو مذهب مؤلف من هذه التأويلات المنفرات لمن يريد انتحاله التي لو أردنا إيرادها لطال بها الكلام فان مدلول النسخ الذي يمكن ان ينكر وقوعه المنازعون أو يورد الشبهات عليه الزائغون والتأويل الذي يؤول القرآن اليه حضرة الفاضل الدكتور متحد لا فرق بينهما الا أن هذا الاخير يكون من الرب الذي يفعل ويأمر بالحكمة والعدل فليتأمل الناظرون ولينصفنا اخونا الدكتور الفاضل — ثم ليدلنا على مورد شبهات غير المسلمين الصحيح — أهو على من يقول بوقوع النسخ في القرآن للمصلحة الراجحة والحكمة العادلة أم على من يعترف بصحة شبهاتهم ثم يعدل الى التأويل المذموم الذي لم يأذن الله به ولا دل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم

وليعلم القراء الكرام ان ما اعترض به علينا في نسخ الاحكام غير المسلمين هو وان كان فاسدا كما سيأتي إلا انه وارد عليه أيضا لانه قائل بوقوع ذلك في السنة بل السنة القولية منسوخة عنده كما صرح بذلك مرات وناسخ ذلك احتمال تقدير سبب من جملة احتمالات لحديث أبي سعيد (رض) المختلف في رفعه ووقفه المعارض بما هو أصح وأصرح منه ومتأخر عنه كل ذلك مع ترك العلة والسبب المنصوص في ذلك كما سيأتي بيان ذلك في الكلام على وجوب العمل بالسنن القولية النبوية فانتظره —

فاذا عرفت ذلك لم يبق مما ذكر من شبهات غير المسلمين ما يخصنا الجواب عنه دونه إلا ما يورد على نسخ اللفظ فقط

(الوجه الثاني) ان مثل هذه الشبهات فاسدة في نفسها لا يصح ان يوردها الا من كان لا يجوز النسخ في الشرائع مطلقا أي ولا يجوز نسخ شريعة نبي متأخر

لشريعة نبي متقدم عنه مطلقا حتى ولا من بعض الوجوه في حكم من الاحكام لان من جوز ذلك في شيء مخصوص لزمه تجويزه فيما سواه اذا وجدت العلة أو نظيرها وبالاولى فيما هي به أولى . فاذا جاز نسخ شريعة نبي لشريعة نبي قبله فمن باب أولى جواز نسخ بعض شريعة لبعضها الآخر . لأن نسخ دين النبي المتقدم وشريعته الثابتة المقررة عند أمته وأتباعه أشق وأبعد من كل بعيد عن معتقداتهم الموروثة لاسيما اذا كان قد تدين بها أنبياء كثيرون لان ماجاء به العدد الكثير قد تستبعد بعض العقول نسخه بما جاء به الواحد — فما يسلمه الدكتور الفاضل من النسخ هو أولى بايراد الشبهات مما ينكره — ولما كان نسخ بعض الشريعة لبعضها الآخر يكون منوطا بمناسبة الاحكام لافراد معتقيها المعينين — كان كلما كثروا تتجدد الاحكام وتعدل على الحد الوسط المشترك بين أكثر مجموع الامة ليكون الدين شريعة عامة فلهذا ونحوه كان النسخ في الشريعة الواحدة لطفا حسنا وعليه فالنسخ في شريعة أي نبي من الانبياء حين حياته أبعد عن اعتراض المعترضين عليه منه فيها بعد ثبوتها فثبت ان حكم نسخ شريعة لشريعة أو بعضها لبعضها سيان مطلقا ان لم تقل جواز ذلك في الاخير أظهر والله أعلم

ثم نقول لمن لا يجوز النسخ مطلقا انا لا نسلم ان النسخ لا يكون الا لنقص أو عيب في المنسوخ بحيث يستلزم نقص الشارع ومعاذ الله من ذلك لانا نقول إن النسخ في الأديان لازم ومساوق لترقي نوع الانسان فلنا ترق ديني وترق طبيعي ولا يكون الاول الا لحكمة ومصلحة راجحة ، فالحكم الثاني الناسخ يوجد عند ما تكون الامة مستعدة له وتخطو إلى التقدم من المقام الاول الذي يحسن ان تنتهي مدة الحكم المنسوخ بجوازها له — لان ما يناسب البشر في أول نشأتهم قد لا يناسبهم بل قد يجب ان لا يكلفوه في أوان تكاملهم وما كانت الأمم السالفة محجورة عنه لمصلحة سد الذريعة قد يجب في هذه الازمان رفع حجرهم عنه إذ لو كلف الجهال ونحوهم ما يتسع له العلماء للزم وضع الشيء في غير موضعه المناسب له وهذا من لازمه قلب الحقائق ولو حجر على العقلاء البحث في الحقائق المستعدين لادراكها

وتقديرها قدرها لكان في ذلك الظلم المنزه ربنا عنه ولو كلف الضعيف عقلا أو جسما ما لا يطيقه هو أو ما لا يطيقه إلا من هو أكمل منه لكان كذلك واذا استحال كل ذلك فلا شك ان حالات الامم السالفة واستعداداتهم تخالف حالات الأمم واستعداداتهم اليوم فتكليف بني الانسان اليوم بشرائع أولئك أو العكس اقل حالاته ان يكون تكليفا بما لا يناسب النشوء الفطري والترقي التعليمي وحينئذ لو كان ذلك تكون احكام الدين من باب تكليف ما لا يطاق أو من باب الحجر على المستعد عما هو مستعد له فيكون الدين سدا دون العلوم والمعارف. ولو أطلق للاولين الحرية واذن لهم بولوج ابواب هي مجهولة لديهم او لم يستعدوا لمعرفتها لكان ذكر تغريرا لهم وتكليفا لما لا يطيقونه وما كان كذلك فالله لا يرضى بقاءه بل لا بد من تغيير وتبديل فيه مساوقين لترقي معارف البشر وهذا هو حقيقة النسخ وما ذكرناه هو سببه وحكمته في الشرائع فالنسخ لا يكون لعيب ونقص في المنسوخ ولا لجهل الشارع تعالى عما يقول الظالمون بل يكون لاستعداد المكلفين لما هو خير لهم في الحال أو الاستقبال ونحو ذلك مما لا يخلو عن زيادة الخيرية التي ذكر الله انه لا بد منها في النسخ فالنسخ يكون قبل فحش التفاوت في مناسبة المنسوخ لحالة المكلفين كما ذكرنا ذلك في رسالتنا السابقة

فثبت بما ذكرناه وما لم نذكره من الحجج البينة أن النسخ في الشرائع لازم ومستحسن عقلا وكذلك هو واقع فعلا وثبت ذلك نقلا فان كثيرا من شرائع الانبياء قد نسخت واندثرت وأنسيت بشرائع انبياء بعدهم وذلك ظاهر لا نطيل بذكره وان أبى المعترضون لزمهم فوق ما قدمناه من المحالات ان تكون شرائع الله المحكمة المحتم على البشر قبولها وامتثالها والايمان بها متضاربة متناقضة، وذلك بأن يجب على الشخص الواحد المؤمن بجميعها فعل الشيء الواحد وتركه في آن واحد وهو محال من الله وعلى العباد

والاديان والشرائع قبل الاسلام وقع فيها كثير من الخلط والقلب — أما التكاليف والصعوبات الشاقة والكلمات الموهمة خلاف الواقع والحكايات المستبعدة في كتبهم الدينية فما أوجب على العقلاء منهم ومن غيرهم الجزم بان تلك الكتب

قد وقع فيها من التحريف والتبديل ما أوجب أن يحكم بعدم الوثوق بها وما كان كذلك فمن اللازم ان لا يبقى دينا للبشر الى آخر الدهر — ولذا ونحوه قال نبينا صلى عليه وسلم « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » الحديث افليس من اللازم ان يبدل الله بهذه الشرائع شريعة عادلة محكمة محفوظة عن تغيير المبدلين وعبث العابثين ؟ ان تلك الكتب وشرائعها لا تصح وهي بالحالة التي عرفت حجة لله على عباده فارسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة وأيده بالمعجزات الباهرات والآيات البينات فما من دليل يستدل به على رسالة رسول من الانبياء والرسل السابقين الا وقد ايد نبينا (ص) بمثله و بأظهر واوضح منه وصح لدينا نقلا لا يعتريه شك باسانيد صحيحة متواترة متصلة . ولو لا شهادة الله في كتابه القرآن وشهادة رسوله محمد (ص) في خطابه بصحة معجزات الرسل السابقين لم تبلغ تلك النقول والقصص فيها الى مرتبة الظن فضلا عن اليقين لأنها لو وزنت بميزان التحقيق في شرائط النقل لم يتحصل منها ما يصح اعتباره مسندا متصلا عن النقلة المعروفين بشروط الرواية

و بناء على ما ذكرناه نقول اذا كان وجود النسخ في تلك الشرائع غير قادح فيها لكونها قد ايدت بالمعجزات — فكذا وجود النسخ في الاسلام أو في القرآن لا يصح أن يكون قادحا في صحته عن الله تعالى لما عرفت . وايضا فمن يقدح بذلك في دين الاسلام ورسالة محمد (ص) يكون في الحقيقة قادحا في صحة دين من تقدمه من الانبياء عليهم السلام من حيث يعلم اولا يعلم رضي ام أبي

ونقول في الجواب أيضا (الوجه الرابع) ما يدري هؤلاء المشككين ان النسخ الواقع في شريعة الاسلام أو في القرآن قد كان سببه تلك التهم التي أوردوها ؟ فهل عندهم نقل يؤيدها و يصححها أو دلالة عقل تعينت على ما ذكروه أم هو احتمال فرضوه وأوهام توهموها أو مماراة أو معاندة انتجتها الاحقاد الموروثة ؟ وهل هذا الاحتمال متعين فما الدليل عليه وهل يصح ان يقوم مقامه احتمال غيره ينقض مزعومكم أم لا ؟ وحينئذ لا يصح ان يدفع الثابت و يرد باحتمال من احتمالات هذا حالها واذا كان النسخ في التشريع والاديان لازما عقلا وواقعا حتما يكون مستحسنا

كذلك نقلا وكانت رسالة نبينا (ص) ثابتة بالحجج اليقينية بأصح مايمكن ان تثبت بها رسالة أي رسول — فتعين ذلك الاحتمال والوهم وحاله ماعرفت مع وجود مايدفعه ويكذبه باطل لا يجوز لعاقل ان يلتفت اليه أو يعتني بايراده

أما قولهم ان محمدا (ص) قد بلغ من الدهاء أن صار يلعب بعقول اصحابه فجعلهم يقبلون منه مالا يقبل من غيره. فالجواب عنه ان محمدا (ص) بأبي هو وأمي لم يكن من أهل الحيل والدهاء وانما كان من الانبياء الاتقياء وقد عرف بالصدق والوفاء حتى صار ذلك وصفه الثابت حتى عند اعدائه أما أصحابه فقد عرفوا صدقه وصحة دينه بالدلائل الصحيحة الثابتة وهم لم يصدقوه فيما جاء من النسخ وغيره لضعف في عقولهم وهو ماجاء بما في دينه من النسخ بدعا مما جاء به المرسلون قبله واذا كان كذلك فمن البهت ان يقال ان اصحابه صاروا يصدقون و يقبلون منه مالا يقبل من غيره لان نقول هو (ص) لم يأت الا بما يأتي به المرسلون ولم يقبل عنه أصحابه الا مايقبل عن المرسلين والا لانقلب الامر وكان النسخ في الشرائع محالا وقدمت فساده عقلا وشرعا

فبما ذكرناه يعرف الناظر فساد تلك الشبهة وانها في غير محلها وانها لا يتعين ورودها على شريعة دون غيرها من الشرائع — بل لو صح ايرادها على بعض الشرائع السابقة لركاكة ماعرف من تلك الشرائع وعدم صلاحيته لتدين جميع البشر الى آخر الابد وللوهن في نقلها وضبطها — فان صحة توجيهها على الاسلام ضرب من المحال ونقص عن الكمال لما في القرآن من الدلائل والبراهين على صحة كل احكامه وشرائعه وما كان فيه من منسوخ وناسخ موجود فقد ذكر سببه وحكمته بالصراحة تارة و بالتضمن والالتزام أخرى يعرف ذلك بطرق يعرفها من تلقى فهمه عمن أنزل عليه (ص) فمنها ان يذكر الحكم الاول مقرونا بسببه أو بفائدته وغايته أو غير ذلك مما يصح ان تدرك به علة هذا الحكم فاذا نسخه بأن انزل بعده حكما يناقضه بوجه من الوجوه فهو يذكر سببه أو غايته أو غير ذلك كذلك مما تعرف به الحكمة في النسخ وهذا بخلاف الشرائع السالفة فانها وان كان فيها أشياء من الاستدلال الصحيح الا انه لا يوجد في كل شيء ومع ذلك هو لم يبلغ بالاستدلال فيها الى المراتب الكاملة في التحقيق كما هي في القرآن ودين الاسلام ومع ذلك كله نحن لانحمل ذلك على

نقص فيها كما يقول هؤلاء المعترضون وانما نقول إن تلك قد سبقت فيها الشرائع على طريقة تناسب عقول البشر واستعدادهم اذ ذاك وهي غير مؤيدة فناسب ان تكون كذلك حتى يترقى الانسان الى أعلا مقاماته مما تطوح به اليه خلقته وفطرته المخصوصة وحينئذ يناسب ان يشرع له دين بالغ في التحقيق اقصى غاياته فكان الامر كذلك بدين محمد (ص) وشرعه (لها بقية)

آثار علمية ادبية

التربية والامهات

أنشدنا الشيخ معروف الرصافي شاعر العراق الاجتماعي لنفسه ببيروت في المحرم سنة ١٣٢٧

هي الاخلاق تنبت كالنبات ... إذا سقيت بماء المكرمات
تقوم إذا تعهدها المربي ... على ساق الفضيلة مثمرات
وتسمو للمكارم باتساق ... كما اتسقت أنابيب القناة
وتنعش من صميم المجد روحا ... بازهار لها متضوعات
ولم أر للخلائق من محل ... يهذبها كحضن الامهات
فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسنا ... بأخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا ... كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنان ... كمثل النبت ينبت في الفلاة

* * *

فيا صدر الفتاة رحبت صدرا ... فأنت مقر أسنى العاطفات
نراك إذا ضممت الطفل لوحا ... يفوق جميع الواح الحياة
إذا استند الوليد عليك لاحت ... تصاوير الحنان مصورات

لأخلاق الصبي بك انعكاس   كما انعكس الخيال على المراة
وما ضربات قلبك غير درس   لتلقين الخصال الفاضلات
فأول درس تهذيب السجايا   يكون عليك يا صدر الفتاة
فكيف نظن بالابناء خيرا   إذا نشأوا بحضن الجاهلات
وهل يرجى لاطفال كمال   إذا ارتضعوا ثدي الناقصات
فما للأمهات جهلن حتى   أتين بكل طياش الحصاة
حنون على الرضيع بغير علم   فضاع حنو تلك المرضعات

***

أأم المومنين اليك نشكو   مصيبتنا بجهل المومنات
فتلك مصيبة يا أم منها   «نكاد نغص بالماء الفرات»
تخذنا بعدك العادات دينا   فاشقى المسلمون المسلمات
فقد سلكوا بهن سبيل خسر   وصدوهن عن سبل الحياة
بحيث لزمن قعر البيت حتى   نزلن به بمنزلة الاداة
وعدوهن اضعف من ذباب   بلا جنح واهون من شذاة
وقالوا شرعة الاسلام تقضي   بتفضيل الذين على اللواتي
وقالوا ان معنى العلم شيء   تضيق به صدور الغانيات
وقالوا الجاهلات اعف نفسا   عن الفحشا من المتعلمات
لقد كذبوا على الاسلام كذبا   تزول الشم منه مزلزلات
أليس العلم في الاسلام فرضا   على ابنائه وعلى البنات
وكانت امنا في العلم بحرا   تحل لسائليها المشكلات
وعلمها النبي اجل علم   فكانت من اجل العالمات
لذا قال ارجعوا ابداً اليها   بثلثي دينكم ذي البينات
وكان العلم تلقينا فامسى   يحصل بانتياب المدرسات
وبالتقرير من كتب ضخام   وبالقلم المد من الدواة
الم تر في الحسان الغيد قبلا   اوانس كاتبات شاعرات

وقد كانت نساء القوم قدما   يرحن الى الحروب مع الغزاة
يكن لهم على الاعداء عونا   ويضمدن الجروح الداميات
وكم منهن من اسرت وذاقت   عذاب الهون في اسر العداة

***

فماذا اليوم ضر لو التفتنا   الى اسلافنا بعض التفات
فهم ساروا بنهج هدى وسرنا   بمنهاج التفرق والشتات
نرى جهل الفتاة لها عفافا   كأن الجهل حصن للفتاة
ونحتقر الحلائل لا لجرم   فنؤذيهن أنواع الاذاة
ونلزمهن قعر البيت قهرا   ونحسبهن فيه من الهنات
لئن وأدوا البنات فقد قبرنا   جميع نسائنا قبل الممات
حجبناهن عن طلب المعالي   فعشن بجهلهن مهتكات
ولو عدمت طباع القوم لؤما   لما غدت النساء محجبات
وتهذيب الرجال أجل شرط   لجعل نسائهم متهذبات
وما ضر العفيفة كشف وجه   بدا بين الاعفاء الاباة
فدى لخلائق الاعراب نفسي   وان وصفوا لدينا بالجفاة
فكم برزت بحيهم الغواني   حواسر غير ما متريات
وكم خشف بربعهم وظبي   يمر مع الجداية والمهاة
ولولا الجهل ثم لقلت مرحى   لمن ألفوا البداوة في الفلاة

تقريظ المطبوعات الجديدة

﴿ نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ﴾

اهدانا المعلم عبدالحميد الفراهي (من العلماء في الهند) بضع رسائل في تفسير سور متفرقة من القرآن العزيز سماها بما ذكر في العنوان. وهي سورة التحريم والقيامة والشمس والعصر والكافرون والمسد أو «تبت» وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من

النظر فاذا طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير يشترك مع طريقنا في القصد الى المعاني من حيث هي هداية إلهية، دون المباحث الفنية العربية، ولكنه لا يفسر كل آيات السورة وكلماتها ولا يتكلم على ما يفسره بالترتيب وإنما يتكلم عن المسائل الكلية والمقاصد التي تهدي اليها الآيات كلاما عاما مبسوطا مفصلا معدودا بالأرقام. فمن فصول تفسير سورة التحريم: (١) نظام السورة وموقع آياتها (٢) سنة الله في الاحتساب (٣) عمود السورة هو الاحتساب والتشمير له (٤) دين الفطرة هو الاعتدال بين الفسق والرهبانية (٥) تفرق الفسق والرهبانية (٦) نزول القرآن حسب احسن المواقع (٧) شأن نزول هذه السورة حسب الكليات (٨) شأن نزول آيتين ١ — ٢ حسب جزئيات الواقعة والفوائد الكلية منها وهي ست. الخ وان للمؤلف لفهما ثاقبا في القرآن وان له فيه مذاهب في البيان، وطرائق في الاستطراد منها القريب والبعيد وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدها فقد كتب في تفسير كلمة «صغت» من قوله تعالى «ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما» اكثر من صفحة على انه قد صنف كتابا في مفردات القرآن كما فعل الراغب الاصفهاني. وإن أدري أفسر القرآن كله على هذا النمط أم هو يشتغل بذلك الآن ويريد طبع تفسير كل سورة عند إتمامها. وقد رأيت فيما قرأت ذكر كتب أخرى له في القرآن والدين كالمفردات وتاريخ القرآن والامثال الإلهية وأصول الشرائع فعسى أن يتفضل باخبارنا عنها أهي تامة أم لا، أطبع منها شيء أم لا؟

هذا وقد أرسل الينا عدة نسخ من تفسير بعض السور لاجل بيعها عندنا وهي مطبوعة طبعا حجريا عن خط فارسي حسن فمن أحب ان يطلع عليها فليطلبها من ادارة المنار وثمن تفسير سورة التحريم قرشان وماعداه فثمنه قرش او قرش ونصف

***

﴿ رحلة الحبشه ﴾

هذه الرحلة من أحسن الرحلات أسلوبا وفائدة وفكاهة ألفها بالتركية صادق باشا المؤيد العظم الفريق الأول بالجيش العثماني للسلطان عبد الحميد بأمره وهو الذي أرسله الى نجاشي الحبش بكتاب منه فكتب ماراه وشاهده في طريقه وفي البلاد

والمواقع التي نزل بها لاسيما الصومال وماراه واستنبطه من المسائل العسكرية والاجتماعية وماعلمه من التقاليد والعادات مع شيء من التاريخ القديم والحديث عن الحبشة فجاءت رحلة جامعة لكثير من الفوائد المتنوعة من كل فن وذكر في آخرها الوقائع الحربية بين ايطاليا والحبشة مفصلة وختمها بذكر من نال شرف صحبة النبي صلى الله عليه وسلم من الحبش رجالا ونساء. وقد ترجمها بالعربية رفيق بك العظم وحقي بك العظم وطبعتها شركة طبع الكتب العربية على النسق الذي طبعت به في التركية مزينة بالصور والرسوم ومنها صورة النجاشي بلباسه الرسمي ومتصلا بها خريطتان احداهما رسم فيها الطريق الذي مر به والثانية رسمت فيها بلاد الحبش. وقد زادت صفحات هذه الرحلة على ٣٢٠ وثمنها اثنا عشر قرشا صحيحا

وانا ننقل شيئا من كلامه عن مسلمي الصومال وتعلقهم بالدولة العلية. قال في سياق كلامه عن جيبوتي حاضرة مستعمرة الصومال الفرنسية مانصه

«ومنذ خرجنا الى البر أخذ الاهالي وكلهم من المسلمين يفدون علينا أفواجا مرحبين بنا بعبارات الاحترام والتعظيم ولم يكتفوا بذلك بل انتظرونا بينما كنا عند الوالي و«آتو يوسف» خارج المحل وعند ماخرجنا رافقونا مهللين مكبرين واستمروا كذلك كلما نخرج يرافقوننا من محل الى آخر وينتهزون كل فرصة لاظهار سرورهم العظيم من ورودنا ثغرهم فاذا طلبنا مركبة يجري العشرات منهم لاحضارها واذا سألناهم الطريق يقدم مئات انفسهم للقيام بخدمتنا وما كنا نحتاج لهم لأن الوالي كان عقب وصولنا عين سكرتيره ليكون (مهماندارا) لنا مدة اقامتنا في جيبوتي ولكن اعتذرت عن ذلك شاكرا انسانيته واكتفيت بجنود الشرطه الذين خصصهم لخدمتنا

« وبعد قليل من وصولنا الفندق تكأكأ المسلمون بعضهم على بعض في الرحبة الكائنة امام الفندق وأخذ يزداد عددهم كثيرا فكانوا لايقنعون برؤية الوفد المرسل من قبل خليفة الاسلام مرة واحدة بل كانوا يريدون أن يروه كثيرا على قدر استطاعتهم واستمر الزحام على هذا المنوال امام المنزل الى مابعد العشاء»

ثم ذكر انه قبل السفر من جيبوتي آذنه خادم الفندق بقدوم رؤساء بعض القبائل لزيارة الوفد السلطاني . قال

« هذا وقد غاب الخادم قليلا ثم جاء ومعه الزائرون وكان عددهم ثمانية وهم رؤساء قبيلتي عيسا ودانجالي وهم سمر الوجوه لون البعض منهم يميل للجوزي وكلهم طوال القامة متناسبو الاعضاء تجللهم سمات الوقار والمهابة ويلبس البعض قميصا طويلا وعلى رأسه طاقية والبعض ليس عليه سوى (فوطه) وهو مكشوف الرأس .وشعرهم الكث فوق رؤوسهم يشبه العمامة المدورة الكبيرة يضعون في خلاله سهما طويلا مصنوعا أغصان الاشجار مثل (الدبوس) الذي يربط به السيدات الغربيات قبعاتهن على شعورهن .ويستعملون هذا السهم لحك جلد رؤوسهم عند اللزوم لانه لا يمكن وصول أصابعهم لجلد رؤوسهم بسبب كثافة الشعر . وكان بعضهم وهم الذين كانوا يترددون على الحجاز يتكلم اللغة العربية جيداً والباقون لا يعرفون منها إلا قليلا

وبعد المصافحة والسلام اخذوا يدعون وهم وقوف على الاقدام للحضرة العلية السلطانية وابلغني انه سيصل مساء وفود من طرف القبائل القريبة من جيبوتي للتسليم على الوفد السلطاني .ثم جلسوا فصاروا يسألون عن احوال الاستانة مستفسرين عن عدد سكانها وعن مساجدها الجامعة والمحلات المباركة فيها وعن الوجهه التي أقصدها وسبب سفري اليها

« وكسوة هؤلاء الرؤساء بسيطة جدا والبعض منهم حافي القدمين والبعض يلبس في رجله نعلا مثل النعال الحجازية .ومع كل ذلك ترى الانسان يشعر بهيبتهم ووقارهم حال رؤيته لهم .وسمات الشجاعة والبسالة الظاهرة على وجوههم تجعل كلا منهم شبه تمثال للحرب والكفاح صنع من (البرونز)

« بينما كنا نتجاذب اطراف الحديث اذ جاء الموسيو بونهور والي الصومال الفرنسية لرد الزيارة ومعه حاشيته والكل مرتدون ارديتهم الرسمية وكان يمشي أمام مركبة الوالي فارسان من جنود الشرطه فلما رأى الوالي المومأ اليه رؤساء القبائل الصومالية هش في وجوههم وصافحهم جميعا يدا بيد وسأل عن أحوالهم وصحتهم ولم يمض قليل من وصول الوالي حتى جاء أيضا (آتو يوسف) قنصل الحبشه في جيبوتي وبعد ان

مكث الوالي برهة استأذن بالذهاب مذكرا إياي بالاجتماع عنده في دار الحكومة مساء لحضور المأدبة التي أعدها اكراما للوفد السلطاني وقد كان الوالي دعاني ومن كان معي لهذه المأدبة يوم وصولنا الى جيبوتي »

ثم قال بعد كلام في حال البلد وشؤونها

« وفي الساعة العاشرة على الحساب الشرقي سمعت انغاما وأصواتا آتية من بعيد وبينما أنا أتفكر في ما عسى أن يكون ذلك إذ أخبرت بورود وفد قبائل عيسا فخرجت إلى شرفة الفندق فرأيت جمهورا من الناس نحوا من خمسمائة ذوي ألوان نحاسية كبيري الاجسام متناسبي الاعضاء مسلحين بالحراب والهراوات ويكبرون مرة وينشدون الأناشيد الحربية مرة أخرى وجماهير الناس تمشي معهم محاطين بهم للتفرج عليهم وبعد أن وصلوا أمام الفندق أخذوا يسلمون علينا بلسانهم ولما انتهوا من السلام تحلقوا وصاروا يغنون ويرقصون والبعض منهم كانوا يتبارزون داخل تلك الحلقة ويمثلون حروبهم بأصوات خشنة مدهشة وبأوضاع خفيفة وسرعة عجيبة مما يدل على انهم اقوام حربيون أولو بأس شديد وميل للحرب والطعان . وبعد ذهاب هذا الوفد أتى وفد الدانقاليين وبعدهم وصلت وفود العرب الوطنيين بطبولهم وزمورهم ثم انصرف الجميع شاكرين لما لقوه منا من الاكرام وكانت قد دنت الساعة الثامنة على الحساب الافرنجي فارتديت الكسوة الرسمية البيضاء وذهبت أنا ورفيقي لحضور المأدبة التي دعينا اليها » اه المراد

وفيه من العبرة ان للدولة العلية وسلطانها نفوذا معنويا في نفوس جميع المسلمين لم تحسن الانتفاع منه ولا النفع به في الماضي فعسى أن تنتفع به في هذا العهد الجديد الذي دخلنا فيه وهو آخر الرجاء في حياة هذه الدولة فعسى ان لا يقطعه أصحاب النفوذ بالمنازعات الجنسية والأهواء الشخصية . وفيه أيضا ان الوالي الفرنسي يعامل أولئك الناس الذين يعدهم متوحشين بالاحترام ليؤنسهم بحكمه ويأمن جانبهم ويكسب مودتهم ودولتنا تحتقر أمثالهم في اليمن والحجاز والعراق فيتبدل حبهم لها بغضا وميلهم اليها نفورا وإعراضا فعسى ان لا تعود إلى ذلك في هذا الزمان

وقد انتقدنا على الرحلة ذكر الشهر الذي سافر فيه المولف (وهو نيسان) دون

ذكر السنة في أولها وجريانه على ذلك في اثنائها حتى انتهت في ١٢ تموز (يوليو) ولكن يعرف القارئ أن الرحلة كانت سنة ١٨٩٦ م من ترجمة براءة الوسام الذي اهداه النجاشي الى صادق باشا وترجمة المكتوبات التي ارسلها اليه نظار النجاشي وآل بيته

***

﴿ عقود الجوهر . في تراجم من لهم ٥٠ تصنيفا فما فأكثر ﴾

نشرنا في آخر الجزء الماضي اعلانا لجميل بك العظم محاسب المعارف ببيروت عنوانه « ذيل لكشف الظنون » علم منه انه يعنى منذ ١٦ سنة بجمع مافات صاحب كشف الظنون من أسماء الكتب وما حدث بعده منها . وقد استحسن في اثناء بحثه ان يضع كتابا في تراجم المكثرين من التصنيف الذين لهم خمسونا مصنفا فما فأكثر وقد أتم الجزء الأول من هذا الكتاب وسماه « عقود الجوهر » وطبعه وهو يذكر للعالم ترجمة مختصرة ثم يذكر مصنفاته مرتبة على حروف المعجم فجزاه الله خيرا . وقد اقترحت عليه في بيروت أن يجعل الذيل رأسا فيؤلف كتابا مستقلا في اسماء الكتب والفنون فعسى أن يلقى من المساعدة مايرجح ذلك عنده

***

﴿ الاشتقاق والتعريب ﴾

قد علم قراء المنار في العام الماضي ما كان من أعضاء نادي دار العلوم من المناظرات في مسألة التعريب . وقد عني الشيخ عبد القادر افندي المغربي أحد محرري جريدة المؤيد في أثنا ذلك بوضع كتاب مستقل في المسألة وطبعه في هذا العام فبلغ زهاء ١٥٠ صفحة بقطع كتاب الاسلام والنصرانية . وقد ترجم المؤلف كتابه بقوله فيه « يبحث في مايعرض للغة العربية من تكاثر كلماتها بواسطتي الاشتقاق والتعريب ، وأن هذا الاخير طبيعي في لغتنا وفي غيرها من اللغات ، وان استعمال المعرب لايحط من قدر فصاحة الكلام والاستشهاد على ذلك » فهو اذا مؤيد الرأي القائلين بجواز التعريب والتصرف في اللغة بحسب الحاجة بل توسع في ذلك بما لا يوافقونه كلهم عليه فيما يظن

ودعم كلامه بضروب من الأمثلة والشواهد والدلائل لم يسبقه اليها الباحثون وقال في أواخر الكتاب ما نصه :

نتائج وملاحظات

قد تحصل معنا أن الكلمات التي تستعمل اليوم في اللغة وينطق بها المتكلمون بتلك اللغة — قسمان قسم عربي محض وقسم دخيل . والدخيل أنواع : منه ما أدخله أهل اللغة أنفسهم إلى لغتهم قبل الاسلام كسندس وابريق . ويسمى في الاصطلاح معربا . ومنه ما أدخله المولدون في صدر الاسلام ويسمى مولدا . ومنه ما أدخله المحدثون بعد هذين الدورين ويسمى محدثا أو عاميا . والطريقة في احداث النوعين الأخيرين المولد والعامي — قد تكون الاشتقاق : كالعربية والبارود والفسقية . وقد تكون التعريب : كالبوس والبازهر والماهية وقد تكون التصرف في الاستعمال : بأن نستعمل الكلمة على خلاف المعنى المستعملة فيه عند العرب : كالقطر والقطائف .

والدخيل بأنواعه الثلاثة لا يحط من قدر الكلام العربي إذا وقع فيه وان كان في أصله غير عربي لما قدمناه من الأدلة على ذلك عند الكلام على التعريب ، والأدلة المذكورة تصلح أن تكون مقدمات منطقية نتيجتها « ان الكلمات العربية المعربة عربية أو بقوة العربية » حتى لا يكون ثم فرق في صحة الاستعمال بينها وبين تلك التي تكون عربية الأصل : بحيث يصح لك أن تستعمل كلمة « رصاص » الأعجمية المعربة في كل موضع تستعمل فيه كلمة « صَرَفان » العربية . ومايدرينا أن صرفان وأمثالها من الالفاظ القديمة التي نحسبها عربية والتي لا رائحة فيها للاشتقاق من مادة عربية — غير عربية في أصلها وإنما هي دخيلة .

وقد ذكرنا في جملة تلك الادلة دليلا لانزاع في صدق دلالته : وهو ان علماء البلاغة أنفسهم حصروا شروط فصاحة المفرد في ثلاثة أمور : خلوصه من تنافر الحروف ومن الغرابة ومن مخالفة القياس ولم يشترطوا في فصاحته قط أن يكون عربيا قحا لا شائبة فيه للعجمة .

إذا راعيت في الكلمة الدخيلة التي تودعها كلامك خلوصها مما ذكره علماء

البلاغة كان كلامك فصيح المفردات . وعليك بعد ذلك ان تراعي سائر ما اشترطه أولئك العلماء في فصاحة الكلام و بلاغته . حتى إذا فعلت كان كلامك فصيحا بليغا .

لا يكون كلامك فصيحا إذا أودعته من الكلمات العربية ما كان غريبا عن افهام المخاطبين أو ما تنبو عنه اذواقهم وتتجافى طباعهم مثل أن تقول « وكان الطهاة يغرفون ألوان الطعام بالفشليل » والفشليل كلمة معربة عن قفليز الاعجمية . ومعناها المغرفة — كما لا يكون فصيحا إذا أودعته من الكلمات العربية المحضة ما كان من بابة تلك الكلمات : كأن تقول « أتانا مختالا في مشيته . منفشلا للحيته » تعني منفشا لها . أو تقول « لحاه الله من رجل عفنجش » أي فظ جافي الطباع . ومن هذا القبيل الكلمات الانكليزية أو الالمانية مثلا التي تكون مخارج حروفها صعبة متنافرة يتعذر أو يتعسر علينا النطق بها . ولم نعهد مثلها في مخارج لغتنا . حتى اذا اضطررنا إلي ادخال كلمة من هذا الصنف في لغتنا كان علينا حينئذ ان نشذبها ونهذبها ونوفق بينها و بين أوزان لغتنا ما استطعنا الى ذلك سبيلا . كي تواتينا ويسهل علينا النطق بها . والا كان علينا أن نهجرها ونعد الكلام الذي يتضمنها غير فصيح . كما اذا تضمن كلمة متنافرة مثلها من الكلمات العربية الاصل كالهعخع وهو اسم نبات . قيل لأعرابي أين تركت ناقتك؟ قال تركتها ترعى الهعخع . وكأن تقول لآخر : اياك أن تتزوج الهمقعة بضم الهاء وتشديد الميم المفتوحة . تعني الحمقاء الورهاء . (١)

واعلم أن الكلمات الدخيلة في لغتنا مهما كان اصلها ترجع إلي قسمين : قسم مدلوله الجواهر والاعيان مثل نرجس ولجام . وقسم مدلوله المعاني والاحداث مثل البوس : فكلمات القسم الاول إذا شاعت بيننا . وحلت في اسماعنا وتداولتها الخاصة كما تداولتها العامة . وتنزهت عن أن تكون من « الفاظ السفلة » كاسيجي

(١) المنار : ان بعض ما مثل به من الغريب ليس مما يثقل على اللسان كنفشل ولكنه غير مألوف لعدم صقله بالاستعمال فهو لا ينافي الفصاحة . وما كان ثقيلا كالهعخع الذي يذكرونه في كتب البلاغة انما ينافي مثله الفصاحة ويكره استعماله اذا كان له مرادف يقوم مقامه والاحسن استعماله عند الحاجة اليه ورأيت اكثر ادباء عصرنا غافلين عن هذا وذاك

في قول ابن المقفع — ينبغي أن يجوز لنا استعمالها وادماجها في كلامنا : لأن الكلمة التي من هذا القبيل إما ان لا يكون لها مرادف في لغتنا أو لها مرادف مهجور وحينئذ يكون الوجه في استعمالها ظاهرا . وعذرنا فيه مقبولا . وإما أن يكون لتلك الكلمة مرادف معروف ومشهور فيكون لنا الحق في أن نستعملها ايضا اقتداء بأهل اللغة انفسهم الذين كانوا يتركون كلماتهم العربية الى مرادفاتها من الكلمات المعربة الدخيلة . مثال ذلك كلمة « كوسج » الاعجمية فانهم لا يكادون يطلقون على الكوسج سواها . وقلما تراهم يستعملون كلمة الأثط العربية . بل اذا وردت هذه في كلامهم فسروها بالكوسج . لكونها أشهر منها واعلق بأذهان الناس كما يفسر شراح الحديث كلمتي « الدجر » و « الليا » العربيتين بكلمة اللوبياء الاعجمية المعربة

وقد كثر استعمال الدخيل والاعراض عن الاصيل في كلامهم كثرة تشعر بأن هذا الصنيع طبيعي في اللغة وضرورة لا يمكن دفعها . بل يشبه أن يكون قياسيا لأهل اللغة من ورائه غاية محمودة : هي توسيع نطاق لغتهم وتسهيل أمرها على ممارسها

هذا في كلمات القسم الأول الذي مدلوله الجواهر والاعيان . اما القسم الثاني الذي تدل كلماته على المعاني والاحداث كالبوس فهذا ربما ضر الإستكثار منه فيما أظن : اذ يكون مدرجة لضياع اللغة ومسخها وتحويلها عن اصلها . وقلما تجد العرب نقلوا إلى لغتهم فعلا أو مصدرا أو اسلوبا خاصا من أساليب كلام الاعاجم . وشاهد ذلك معاجم اللغة ودواوين آدابها وان كان شيء من ذلك فهو قليل جدا ككلمتي « الهرج . والنفاق » الحبشيتين . (١)

واكثر ما كان حدوث هذا النوع من الكلمات في زمن ترجمة الاصطلاحات العلمية في العصر العباسي . أما في زمن الجاهلية فلعله لم يتخط القبائل التي عاشت مع الاعاجم وكثر امتزاجها بهم كغسان ولخم وجذام . ومثل هذا لا يصلح حجة للقياس والجواز العام . نعم أن اللغة بمجموعها جواهر واحداثا محولة عن لغة اعجمية كما اثبتناه

(١) المنار : الكلمتان عربيتان ومعنى الأولى الفتنة التي يحدث فيها تداخل واضطراب وقتل وقول ابي موسى ان الهرج في لسان الحبشة القتل لايدل على ان العرب اخذتها عن الحبشة وربما كان العكس . والثانية مشتقة من النافقاء (راجع ص ٨٨٥ م ١١)

في صدر هذا الكتاب . ولكن هذا في تحول اللغة وتولدها المتوغل في القدم . لا في التحول التدريجي الذي يفهم من إطلاق كلمة التعريب. والذي كان يحصل على ألسنة العرب بعد أن قامت لغتهم بنفسها واستقلت بأصولها وقواعدها فانهم اذ ذاك ما كانوا يرجعون في وضع كلمات الاحداث والمعاني إلى الاستعانة بلغات غيرهم . وانما يرجعون الى فضل ذكائهم وذلاقة لسانهم . وحسن طريقة الاشتقاق في لغتهم . فهم يضعون أو يشتقون للمعاني التي تجول في نفوسهم من الكلمات مايغنيهم عن التطفل في ذلك على سواهم . أما الجواهر والاعيان. فقد يتعذر أو يتعسر عليهم أن يضعوا لها كلمات. بعد ان ضرب المستبضعون والتجار في طول جزيرتهم وعرضها. وهم ينادون باسم الخيار واللوبيا والباذنجان والكوب والابريق والمسك والبنفسج والسندس والإستبرق والفيروز والبلور واللجام والدانق والدرهم والدينار والعربون الى غير ذلك . اسماء الادوات والفرش والماعون . وقد ضاق ذرع العرب بهذه الاسماء. وأعجزتهم كثرتها فاضطروا الى أن يرحبوا بها ويلقوا حبلها على غاربها اه المراد منه

وثمن الكتاب خمسة قروش وهو يباع في المكاتب المشهورة

باب الأخبار والآراء

نصيحة

﴿ لمسلمي بيروت عامة ، وفتيانهم الشجعان خاصة ﴾

انني في كلامي عن البلاد السورية قد فضلتكم على غيركم ، ورجوت منكم لخير البلاد ، مالم أرجه من سواكم ، وانما كتبت ما اعتقدت ، بحسب ما رأيت واختبرت ، تنشيطاً للعاملين ، وتنبيها للخاملين ، ذلك بأنني رأيت من احترام الحرية عندكم مالم أر مثله في طرابلس ولا دمشق ولا غيرهما من البلاد ورأيت

فيكم حركة الى العلم والتربية لم أر نظيرها ـ على ضعفها ـ في غير بلدكم فحمدت الله تعالى على ذلك وحمدتكم .

ثم إنني أقمت في بلدكم سبعة أسابيع متصلة بعد تينكم الزيارتين المتعاقبتين فرأيت فيه أمرا استنكرته وحزنت لأجله حزنا شديدا ، فأحببت أن أنصح لكم فيه كتابة كما نصحت فيه لكثير منكم مشافهة وخطابة، عسى أن تكون الكتابة أعم وأنفع، ولا أقول ان هذا الامر المنتقد خاص بكم وإنما أرجو أن ترجعوا عنه بمجرد النصيحة وربما بقي عند غيركم الى ان تتكون الحكومة الجديدة وتستقر فترجعهم عنه بالقوة القاهرة ان لم يرجعوا خوفا منها .

ذلك الامر المنكر هو ما ذكرته في آخر خطاب ألقيته في نادي الجامعة العثمانية عندكم (ونشرت محصله في هذا الجزء) وأعني به ازعاج الحرية الشخصية في بعض الاوقات لا سيما حرية أصحاب الصحف . وقد حمدكم العقلاء لاستنكاركم حادثة الشام وحملكم على المفسدين الذين أثاروا الفتنة فيها كراهة لحرية العلم والاستقلال في فهمه ونشره ولكن جرائد الشام الآن أوسع حرية من جرائدكم كما يعلم ذلك جميع القراء منكم فهل ترضون بهذا الانقلاب ؟

كاد يقع الخصام بل الالتحام في الصدام بين طائفتين منكم لان شيطانا من شياطين الانس وسوس الى بعضهم: إن جريدة كذا نشرت آية من القرآن الكريم ونشر القرآن في الصحف إهانة له فيجب أن يهان صاحبها حتى لا يعود إلى ذلك. ذكر ذلك في مجتمع فيه كثير من العامة والخاصة فاشتد في الانكار بعض الشبان فانبرى للدفاع عن صاحب الجريدة آخرون من ابناء حيه فتساهل الاولون وانتهى الكلام بانتداب رجلين لسؤال صاحب الجريدة عن حقيقة الامر ولما جاءاه للسؤال كنت عنده وكان هو قد خرج لحاجة فراجعنا جريدته أولا فلم نجد فيها شيئا من القرآن وأقنعتهما بأن الاهانة لا تكون الا بالقصد وان من يقصد إهانة القرآن بعمل عمله يصير به مرتدا لا عاصيا فقط ولا يقع هذا من مسلم وانما يكتب الآيات من يكتبها لاجل ان يكون في كلامه روح ربانية مؤثرة ينفع بها القارئين . وقلت لهما ان جميع جرائد المسلمين

في مصر وفي بيروت وغيرهما من البلاد تزين بعض كلامها بالآيات الكريمة وتناولت من جرائد كانت بجانبي نسخة من المؤيد فأطلعتهما على عدة آيات فيها بعضها في خطبة لأحد الاساتذة بنظارة المعارف المصرية. وما زلت بهما حتى خرجا مقتنعين بأن من من حرك هذه الفتنة لم يكن مخلصا في قوله وقبلا يدي بعد أن كانا حدثيهما معي حديث الخصم مع الخصم فدل ذلك على حسن نيتهما

ثم ان صاحب جريدة أخرى كتب في جريدته ان المسلمين مقصرون فيما يجب عليهم من العناية بالتربية والتعليم وما تقتضيه حال العصر من سعة الثروة وان جيرانهم وخلطاءهم من النصارى قد سبقوهم في هذا المضمار. فوسوس شيطان التفريق الى بعض الفتيان المتحمسين قال ان صاحب جريدة كذا قد أهان المسلمين وفضل النصارى عليهم!! فاضطربوا وغضبوا وأخذ بعضهم نسخا من بائع تلك الجريدة فمزقها وحاول طائفة منهم إهانة الكاتب بل اهانه بعضهم بالفعل، وطاف آخرون على بعض المشتركين بالجريدة فرغبوا اليهم أن يقطعوا اشتراكهم فيها

وقد رأيت شابا يتأثر صاحب هذه الجريدة في بعض الشوارع فلما رآني استوقفته وتحدثت معه ثم تركته تبعني وسألني عما كتبه عن المسلمين فقلت له كتب كيت وكيت ليحث المسلمين على إنشاء المدارس والعناية بتربية أولادهم حتى يكونوا أرقى الأمم واعلها وعلى تحصيل الثروة ليكونوا من أغنى الناس واعزهم. وأقنعته بأنه لا يعقل أن يكون قصد إهانة أهل دينه الذين يهان بهوانهم ويعتز بعزتهم ويشرف بشرفهم من غير ان يكون له فائدة في ذلك ولا مجال للقول بأن له فائدة أو ربحا من الإهانة ثم ذكرت له شيئا من مفاسد هذا الشقاق الذي يلقيه بعض أهل الاهواء بين المسلمين وهو أضر عليهم لا سيما في هذا الوقت من كل ما يتصور أن يضرهم. فانثنى مقتنعا شاكرا

هذا ما تركت عليه بيروت يوم سافرت منها وقد دخلت القاهرة ليلة الخميس وفي اليوم الثاني من وصولي اليها صليت الجمعة في أحد المساجد فاذا بالخطيب فيه يصدع الناس بوعظ يقول فيه ما معناه: انكم قد تركتم الاسلام وأين الدليل على إسلامكم وأنتم تعملون كذا وكذا حتى قال وتشبهت نساؤكم بالعاهرات. فقلت في نفسي لو كان

هذا الخطيب في بيروت لأنزلوه عن المنبر بالقوة ومنعوه من إتمام خطبته

مع هذا كله أقول الآن كما قلت من قبل ان مسلمي بيروت أقرب الى الخير والاستعداد للترقي من غيرهم وأبعد عن الفتن التي تحول دون الأعمال النافعة واكثر ماينتقد عليهم مما ذكر يقع منهم بحسن النية غالبا لا أعرف فيهم غير رجل واحد يحب إثارة الفتن بسوء نية ولعله يندر ان يوجد له أمثال ونظراء في ذلك

فالذي ننصح به لهم ولغيرهم هو ان يعلموا انه لا شيء أضر على الأمم من التفرق والشقاق لأجل الخلاف في الفهم والرأي سواء كان في أمر الدين أو أمر الدنيا فضرر أكبر الكبائر — كالقتل والزنا وشهادة الزور — هو دون ضرر التفرق والشقاق في الأمة لأن هذا الجرم هو المانع من وحدة الأمة وعزتها وقوتها وهي متى قويت تقدر على منع سائر الجرائم ومتى كانت ضعيفة بالتخاذل لا تقدر على منع شيء من المفاسد ولا على إقامة شيء من المصالح. ولذلك توعد الله تعالى على التفرق والخلاف بما لم يتوعد على غيره بل جعل المتفرقين في الدين برآء من النبي صلى الله عليه وسلم ومن دينه فقال (٦: ١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) وأنزل يوم تلاحى نفر من الأوس والخزرج وذكروا ما كان من مشاقة بعضهم لبعض يوم بعاث (٣: ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم)

فالمتدبر للقرآن يرى انه تعالى ينهانا ويحظر علينا التفرق والخلاف ويحتم علينا أن نكون أخوة متحابين ويفرض علينا مع ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن أهان أخاه واحتقره أو آذاه لأنه قال أو كتب ما يخالف رأيه لا يكون آمرا بالمعروف وهل يوجد أحد من الناس يقول ان الاهانة والايذاء من المعروف ؟ ؟ وإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه بأن يجادل المشركين بالتي هي أحسن فهل يرضى

منا ان نجادل إخواننا المؤمنين بالتي هي أسوأ وأقبح؟ أما ماقال الله عز وجل (١٦: ١٢٥ أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) اما قال مع ذلك (٣٣: ٢١ لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)؟

ان الله تعالى ما ذكر فرضية الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع النهي عن التفرق والاختلاف الا لأن هذه الفريضة هي سياج وحدة الأمة وحفاظها فإقامتها تمنع التفرق كما قال الاستاذ الامام فاذا جعلنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببا للتفرق والخلاف والعداوة بين المسلمين نكون قد قلبنا مقصد الدين ونقضنا ميثاقه وقطعنا ماأمر الله به ان يوصل وافسدنا في الأرض (١٣: ٢٥ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط وآداب فصلناها في التفسير المنشور في الجزءين الثامن والتاسع من مجلد المنار العاشر ولا يصلح لها على الاطلاق الا أهل العلم والعرفان. فأي إفساد في الدين والدنيا شر من إغراء العامة بالافتيات على أهل العلم وحملة الاقلام والتصدي لأمرهم ونهيهم. بل وجد من شياطين الافساد والتفريق من اغرى العامة بمنع بعض خطباء المساجد من خطبة الجمعة!! حدثني بذلك بعض شبان بيروت فقلت له ان الخطبة فريضة دينية كالصلاة فهل يجوز لنا ان نمنع مسلما من اداء الصلاة لأننا غضبنا منه بحق أو بباطل؟ إذا جاز لنا هذا جاز لنا ان نمنع كل من اذنب ذنبا من اداء الصلاة والصيام والزكاة والحج وأن نشترط العصمة في كل طاعة من الطاعات. ولا يبيح لنا ديننا ان نقول بعصمة أحد بعد الانبياء وقد ختمهم الله تعالى ببعثة نبينا صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم ولم يقل احد من المسلمين الذين يعتد بإسلامهم بعصمة أحد من بعده الاماقاله الامامية من الشيعة في الائمة الاثنى عشر من آل بيت النبي عليه وعليهم السلام

فعلم مما بيناه أن التصدي لإهانة الناس الذين يظن أو يعلم انهم اخطأوا هو من المفاسد المحرمة شرعا والقبيحة عقلا وكل من يغري بها فهو شيطان رجيم يجب

عصيانه والبعد عنه والاستعاذة بالله من شره. والاجتماع لأجل هذه الجريمة والتعاون عليها يزيد في قبحها وإثمها قال الله تعالى (٥: ٢ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب)

بعد هذا كله أقول لفتيان بيروت الذين يعرفون بلقب «الأبضايات» انكم أيها الشجعان البواسل قد عطرتم الأرجاء بمحمدة عظيمة ظهرت منكم في أيام إعلان الدستور ولا تزالون تحافظون عليها حتى اثنى عليكم العقلاء في غير بلادكم بما لم يثنوا به على سواكم ألا وهي محاسنة خلطائكم وعشرائكم في وطنكم من المشاركين لكم فيما عدا الدين من شؤون الحياة. فهل يليق بكم بعد فضيلة مسالمة هؤلاء ان تتلوثوا برذيلة معاداة من يشارككم في كل شيء حتى في الدين فتكونوا كمن نزل فيهم قوله تعالى (٥٩: ١٤ بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)؟ حاشاكم ان ترضوا بذلك عالمين به وانما يغشكم الغاشون فلا تكونوا آلة لهم في اهوائهم

لا أقول انه ينبغي ان تخدموا بلدكم باتقان كل واحد منهم لعمله فقط فانكم تستطيعون أكثر من ذلك. انكم تستطيعون ان تتعاونوا دائما على منع العدوان حتى يصير نادرا وتتعاونوا على إصلاح ذات البين عند ما يقع شقاق أو خصام بين اثنين أو جماعتين ولكنكم لا تقدرون على الهيمنة على العلماء والسياسيين والمراقبة على الخطباء والمحررين ونفع الامة بايقاف هؤلاء عند حدود لا يتعدونها. وانكم اذا تصديتم لذلك تضرون الامة ضررا عظيما. ولا تستقلوا ماقلت انكم لا تستطيعونه فانه أمر عظيم مقدم على كل أمر لأنه يتعلق بالامن والراحة العمومية وهو أول شيء تطالب به الحكومة فاذا قمتم في بيروت بعمل لا تزال الحكومة مقصرة فيه في كثير من البلاد فانكم تستحقون من الناس الثناء الجميل ومن الله الثواب الجزيل

رحلة صاحب المجلة

﴿ في سورية ﴾

٤

حمص. وحالها الاجتماعية

سافرت في اليوم الثاني من شوال من بعلبك الى حمص والمسافة بينهما في القطار الحديدي ثلاث ساعات وقد وصل القطار الى محطة حمص الساعة ٨ و٤٥ دقيقة مساء فاذا بالصديق الكريم والولي الحميم السيد عبدالحميد افندي الزهراوي ينتظرني فيها مع طائفة من أهل العلم وكرام البلد في مقدمتهم الشيخ احمد نبهان الذي حببه الينا على البعد مانمي الينا من عقله واخلاقه وحبه للاصلاح مع علمه وحسن سيرته

أقمت في حمص أربع ليال وثلاثة أيام في دار الزهراوي ولقيت فيها اكثر أهل العلم والمكانة من المسلمين والنصارى اذ كانت الدار غاصة بهم ليلا ونهارا وقد رأيت في هذه البلد من الوفاق بين الفريقين وحسن الألفة مالم أر له نظيرا في سائر البلاد السورية ولا بيروت فان جل مامدحناه من أهل بيروت هو ترك التقاتل والتسافك ولا يزال كل فريق فيها بعيدا عن الآخر في المعاشرة والمعاملة الا مالا يخلو منه مكان بحكم طبيعة الاجتماع وحاجة بعض الناس الى بعض حتى انني قلت لكثيرين منهم انني أرى الوفاق الذي حمدناه لكم على البعد سلبيا لا إيجابيا وصرحت بذلك في نادي الجامعة العثمانية ودعوت الناس في خطبة خطبتها في ذلك الى التزاور والتعامل وغير ذلك من اعمال الوفاق الايجابي

وقد كنا توهمنا ونحن بمصر ان الشقاق بين مسلمي حمص ونصاراها شديد لحادثة جرت في الاحتفال بعيد الحرية كبرتها الجرائد فوجدنا الأمر على ضد ما كتب في ذلك فانني ما رأيت في بيت من بيوت طرابلس ولا بيروت مثلما رأيت في بيت الزهراوي من اجتماع الفريقين كل ليلة من ليالي الشتاء للسمر ومبادلة الآراء .

ثم انني لم أر في حمص ما رأيت في غيرها من الاضطراب والاعتصاب والافتيات على الحكام والتبرم من جمعية الاتحاد والترقي . ومن أسباب ذلك ان اعضاء لجنة الجمعية المركزية كانت مؤلفة من أناس مؤتلفين متعارفين لا ينقم الناس منهم شيئا ولا يشكون منهم إهانة ولا شذوذا وقلما اتفق هذا للجنة أخرى كما يعلم مما نكتبه بعد عن الجمعية

نعم انه ينتقد على أهل حمص ما ينتقد على أهل طرابلس من الخمول والسكون فهم لم يشرعوا في عمل مفيد للبلاد . وقد حثثت طائفة من الوجهاء على تأليف جمعية خيرية إسلامية لأجل إنشاء المدارس الاهلية ومساعدة الفقراء على تربية أولادهم وتعليمهم فألفيت منهم ارتياحا واستحسانا وقد مرت الشهور ولم يشرعوا في العمل ولكننا لم نيأس من همتهم وغيرتهم فعسى ان يسمع منهم عن قريب ماتقر به العين

هذا وان عمران حمص ينمو نمواً عظيما والزراعة والصناعة تتقدم فيها تقدما مبينا ولكنها متخلفة عن طرابلس في ترف الحضارة وان كانت سابقة لها في مضمار العمران بل هي وسط في التأنق في الاطعمة بين مثل طرابلس وبيروت ودمشق وبين القرى الكبيرة التي يوجد فيها أغنياء يعيشون في بلهنية فالظاهر ان التأنق في حمص خاص ببعض أهل السعة والبيوت المطروقة وان الفقير في طرابلس ليتنوق في طعامه مالا يتنوق الاغنياء في كثير من المدن ، وانى لأعلم ان المصري المقيم في القاهرة نفسها الذي يزيد دخله في الشهر على دخل الطرابلسي في السنة لا يأكل من الحلوى في السنة كلها بقدر ما يأكل الطرابلسي منها في شهر واحد . فقلة التنوق في الاطعمة بحمص محمدة لها عندي إذا كانت تحفظ ثروتها من التلف في غير ذلك من ضروب السرف وتجعل حظا منها عظيما للتعليم والتربية

طرابلس أيضا

سافرنا من حمص قبيل الفجر من يوم السبت سادس شوال (٣١ اكتوبر) في مركبة من مركبات «شركة الشوسة» فوصلنا الى طرابلس بعد العصر وطفقت أتهيأ للسفر الى مصر ، وكنت عازما على السفر في يوم السبت التالي لهذا السبت (١٣ شوال و ٧ نوفمبر) ولكن عرض ماحال دون ذلك

جمعية خيرية اسلامية بطرابلس

في يوم الاربعاء (١٠ شوال) رغبت إلى مفتي طرابلس أن يقوم بتأليف جمعية خيرية إسلامية كالجمعية التي بمصر وذكرت له موضوعها وأعمالها ووجوه الحاجة إلى مثلها في طرابلس وأهمها إنشاء المدارس لتعليم أولاد الفقراء على نفقة الجمعية وأولاد الاغنياء بالاجرة . فأجاب بأنه مستعد لذلك بماله وحاله واستحسن أن أدعو الوجهاء والاغنياء إلى ذلك فقلت له انت كبير البلد وزعيمها وانا قد صرت غريبا او كالغريب لانني مسافر بعد ثلاث فاذا لم تقم انت بهذا العمل لا ينجح. ثم رضي بأن يكون هو الداعي لهم إلى الاجتماع على انهم متى اجتمعوا أخطب فيهم فان أجابوا الدعوة التي أوضحها لهم وأبين وجه الحاجة اليها كان هو أول العاملين والمساعدين في التنفيذ

وأقول ههنا ان رشيد افندي كرامي مفتي طرابلس على كونه سيد بلده وأوسع أهلها ثروة وجاها هو أقرب وجهائها وأغنيائها إلى الخير وأبعدهم عن كل شر وأطيبهم نفسا وأبسطهم مع القصد والروية يدا كما يظهر ذلك لمن يعاشره خلافا لما عليه أكثر الاغنياء في بلادنا فهو لا يدع لطالب الاصلاح في العلم أو العمل حجة عليه بل يجيب كل داع إلى خير كعبد الرحمن باشا اليوسف في دمشق ولكن لا يقدم واحد منهما على ابتكار العمل والنهوض به بل يقولان مثلما كان يقول هنا حسن باشا عاصم (رحمه الله تعالى) أوجدوا العمل وطالبوني بالمساعدة أجبكم اليها . وإنما كان هذا يساعد بالعمل وذانك يساعدان بالمال فهما خير أغنياء بلادهما

كان عذر حسن باشا عاصم في عدم الاقدام على الابتكار وإيجاد « المشروعات » هو عدم الثقة باجابة الناس وثباتهم على العمل ولابن اليوسف في دمشق وابن كرامي في طرابلس مع مثل هذا العذر أعذار أخرى ككثرة أعمالها وما لا حاجة إلى بيانه الآن من حال البلاد وغير ذلك

ذهبت في ذلك اليوم (الاربعاء) إلى القلمون فهيأت ثيابي وحاجي وأرسلتها إلى الميناء في يوم الجمعة وعدت إلى طرابلس مع كثرة الأمطار مساء لان المفتي كان وعدني بجمع الوجهاء ليلة السبت لاجل تأسيس الجمعية الخيرية فألفيته قد ارجأ

دعوتهم للاشتغال بانتخاب المبعوث عن طرابلس لان الولاية أمرت بإتمام الانتخاب يوم السبت ولكثرة الامطار التي كان يظن انها تحول دون عودتي من القلمون على قرب المسافة وقال ان أقرب وقت يمكن ان يجتمعوا فيه إذا نحن دعوناهم بعد انتخاب المبعوث غداً هو ليلة الثلاثاء فرأيت ان أرجئ السفر أسبوعا لأجل إتمام هذا العمل الشريف

ملخص خطبته

وفي ليلة الثلاثاء اجتمع في دار عمر باشا المحمد نحو من عشرين رجلا إجابة لدعوة المفتي وهم من وجهاء لواء طرابلس لا المدينة نفسها فقط فخطبت فيهم خطبة بينت فيها فوائد الجمعيات وأنواعها وتأثيرها في ترقية البشر في العلوم والأعمال الدينية والدنيوية وكون الخيرية منها من الضروريات التي لا يخلو منها بلد من البلاد المرتقية حتى ان الرجل الأفرنجي إذا مر في سياحته على بلد وأراد أن يبذل شيئا من ماله لمساعدة فقراء أهله فانه إنما يرسله إلى الجمعية الخيرية في ذلك البلد وربما وضع أحدهم حوالة مالية في كتاب وكتب عليه « الجمعية الخيرية » ووضعه في صندوق البريد من غير أن يسأل هل يوجد في هذا البلد جمعية خيرية أم لا كأن الجمعيات الخيرية من الامور الضرورية التي لا يمكن ان يخلو بلد منها . وذكرت ذلك المشعوذ الذي جاء القاهرة وأراد بعد ان ربح بألعابه فيها ربحا عظيما أن يخصص ليلة يجعل دخلها للجمعية الخيرية الاسلامية فيها فكان ذلك سبب تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية

ثم قلت: أيها السادة، ان حكومتكم قد دخلت في طور جديد فصارت ديمقراطية أمرها بيد الشعب بعد أن كانت استبدادية شبه الارستقراطية بالأغنياء والشرفاء من النفوذ فيها . واعلموا ان كثيرا من الاحرار الذين اقتلبت السلطة الاستبدادية بسعيهم متطرفون في الديمقراطية وان معظم الاحكام ستكون في أيديهم عاجلا أو آجلا وأن الشعب سيشعر بهذا فتدب اليه كراهة الكبراء والاغنياء فيكرههم وتنفخ فيه روح الاشتراكية فيهيج عليهم بالفعل فاذا جاء طرابلس متصرف متطرف من الديمقراطيين الذين أشرت اليهم وكان والي الولاية منهم أيضا فاعلموا ان ما تعودتموه من

الجاه والكرامة في وطنكم لا يبقى لكم الا اذا كان الشعب يحكم بتحكيمكم اليه قبل ذلك والا دهوركم واسقطكم كما فعلت قبله الشعوب الافرنجية بأولئك النبلاء الذين كانوا يملكون أوربا ويتصرفون فيها تصرفا لم تصلوا الى مثله من كونت ودوق ومركيز ثم يقوم من طبقات الشعب الدنيا من يتولى الزعامة في البلاد بحق أو بغير حق . وما أظن ان صدوركم تنشرح لتلك الحال ولا ان اعينكم تبتهج برويته. واني أحب ان تكونوا أنتم زعماء بلدكم في زمن الحرية وتحت ظل الدستور بأن تحببوا الى الشعب مذ اليوم بنشر التربية والتعليم فيه ومواساة الفقراء والمساكين من أهله

اني لا أحب الارستقراطية وان كنت من بيت شريف، واني ما زلت من دعاة الديمقراطية بلسان السياسة ولسان الدين، وانما أميل الى بقاء زعامة وطني في وجهائه وايا كم أعني لاعتقادي انه لا يوجد في دهمائه من يصلح للزعامة كما وجد في فرنسا عند ما صارت ديمقراطية

الفرق بيننا وبين فرنسا بعيد ، ان فرنسا كانت قبل ثورتها المشهورة قد استعدت ما لم نستعد بمثله نحن اليوم حتى نبغ فيها من دهماء الشعب من يصلحون للزعامة بعلومهم وأعمالهم وآرائهم وأخلاقهم

اني لعلمي بهذا الفرق ولما رأيت في بلاد مصر التي تمتعت بالحرية قبل بلادنا من العبر وهبوط قوم وصعود آخرين أقول ما أقول عن خبرة وبصيرة وأحب ان نعتبر نحن العثمانيين بحال الامة الانكليزية التي هي أعرق الامم في الحرية وأكثرهن استفادة منها فهي الامة التي حافظت على كرامة النبلاء وحرمة البيوتات فيها بعد الديمقراطية الراسخة واستفادت من ذلك كثيرا . وأرى ان إسقاط الشعب لكرامة أصحاب البيوتات منا وتسلق أفراد الطبقات الدنيا للزعامة فينا مع ما هم عليه من الجهل يقف في طريق نهضتنا وأن عناية وجهائنا بحفظ كرامتهم وحرصهم على ان يكونوا هم زعماء الشعب يكون أسرع في تقدمه إذا هم أتوا البيوت من أبوابها فانهم في الغالب على شيء من الاخلاق والعلم أو الاختبار

ثم قلت ان خدمة الأمة والتحبب اليها انما يكونان بالتعاون على تربية أولادها وتعليمهم ما به قوام حياتهم ومواساة المنكوبين والمعوزين من فقرائها وذلك لا يتيسر

الا بتأليف جمعية خيرية يجعل معظم ريعها لانشاء المدارس وباقيه لإعانة المنكوبين والمعوزين وهذا ما أدعوكم الى الاكتتاب له بلسان فضيلة المفتي الحريص على هذا العمل المبرور الراغب في هذا السعي المشكور وسيجمعكم في ليلة أخرى لاجل المذاكرة في القانون الذي يوضع لذلك وانتخاب الاعضاء العاملين . ثم شرعنا في الاكتتاب وافتتحه المفتي في ورقة كتبت في اعلاها ما نصه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« وتعاونوا على البر والتقوى »

هذا بيان ما تبرع به الذوات المذكورة اسماؤهم بخطوطهم ادناه لتأسيس جمعية خيرية إسلامية في طرابلس الشام لنشر التعليم الديني والدنيوي على الطريقة العصرية ولإعانة المصابين والمنكوبين المعوزين بمقتضى قانون يجري العمل بموجبه بعد إقرار المكتتبين له في اجتماع خاص وقد جري هذا في ليلة ١٦ شوال سنة ١٣٢٦ للهجرة الشريفة .

﴿ اسماء المكتتبين لتأسيس جمعية خيرية اسلامية بطرابلس الشام ﴾

ونذكر أسماء المكتتبين مع الألقاب وهم كتبوها مجردة كما هي العادة ورتبها على حسب قيمة الاكتتاب

ليرة عثمانية

١٠٠ مفتي اللواء رشيد افندي كرامي

١٠٠ عمر باشا المحمد من اعيان اللواء

٠٣٠ عثمان باشا المحمد «

٠٢٠ علي باشا المحمد «

٠٢٠ مصطفى افندي عز الدين من كبار التجار

٠١٠ عبد القادر باشا الملا رئيس شركة الترام والشوسه

٠٠٥ ابراهيم بك الاحمد من الاعيان

ليرة عثمانية

٠٠٥ احمد افندي سلطان وكيل الدعاوى (المحامي)
٠٠٥ خير الدين بك عدره من كبار التجار
٠٠٥ عبد الحي افندي الملك من الوجهاء
٠٠٥ عبد القادر افندي القباني البيروتي الشهير (وكان في طرابلس)
٠٠٥ عبد القادر افندي الذوق من كبار التجار
٠٠٥ محمد فؤاد افندي الذوق «
٠٠٥ محمد سعيد بك (مميز قلم متكوبجي الولاية) الذي كان وكيل المتصرف يومئذ
٠٠٥ محمد كامل بك البحيري صاحب جريدة طرابلس
٠٠٣ عبد اللطيف افندي الغلاييني وكيل الدعاوى
٠٠٣ محمود افندي الحداد من التجار
٠٠٢ الشيخ اسماعيل افندي الحافظ رئيس كتاب المحكمة الشرعية
٠٠٢ صبحي بك شريف
٠٠١ عبد الرحمن افندي أديب من التجار

٣٣٦ المجموع

وقد وعدني بعض هؤلاء بأن يدفعوا أكثر مما كتبوا منهم مصطفى افندي عز الدين والشيخ اسماعيل افندي الحافظ كما وعد بعض من حضر وكتب اسمه ولم يعين مبلغا كعبد الله افندي الثمين من كبار الوجهاء أصحاب النفوذ الادبي في اللواء وعضو مجلس الادارة الآن

هذا وان الذين أجابوا الدعوة وحضروا الاجتماع هم زهاء خمس من دعاهم المفتي . وقد أبى حضورها بعض المفتخرين بالمجد التليد الذين يرون انهم يستغنون به عن المجد الطريف ومنهم من صار يسعى بعد ذلك في إبطال العمل ويثبط عنه وكان لسعيهم هذا تأثير أوقف التنفيذ إلى أجل ولولا ذلك لما ذكرت من أمر هذه الجمعية إلا ان جماعة من أهل الفضل في طرابلس أسسوا جمعية خيرية إسلامية فلهم الشكر والثناء

يوجد في كل بلد أفراد مجردون من حب الخير ويرون أنهم أهل لأن يوصفوا بكل خير ويؤلمهم منظر الخير في غيرهم لأنه بعمله تحلى بما أعوزهم وأعجزهم فهم يقعدون بكل طريق من طرق الخير يصدون عنها ويبغونها عوجا . لأجل هؤلاء أحب مفتي طرابلس أن لا تؤسس الجمعية الخيرية إلا بعد دعوة جميع الوجهاء حتى لا يعتذر بعد ذلك أعداء الخير بأنهم لا يساعدون هذا العمل لانهم لم يدعوا اليه عند التأسيس ونعم ما أحب وما رأى

على أن بعض من دعي ولم يجب ممن ذكرنا وصفهم انتدبوا لإحباط العمل والتثبيط عنه حتى ان منهم من لم يستح من مخاطبة المفتي نفسه بذلك ولما لم يجد وجها وجيها للتثبيط قال له انه لا ينبغي لسماحتكم ان تقوموا بهذه الجمعية عن دعوة فلان فأجابه المفتي جواب العاقل الفاضل فقال أولاً ان هذا العمل خير لا ريب في نفعه وفائدته فسواء كان من دعاني اليه دوني أو مثلي أو فوقي لا فرق في ذلك وثانيا ان الداعي الى ذلك هو واحد منا ومن أهل العلم والشرف فينا وليس له منفعة شخصية ولا غرض ذاتي حمله عليه ولا هو يريد الاقامة في هذه البلاد فتقول انه ينفرد بشرف العمل فيه حبا بالشهرة الخ

إني لما علمت بمثل هذا القول الذي قيل للمفتي ولغيره كففت عن السعي فيما كنت آخذا فيه من تأليف لجنة موقتة لادارة العمل والدعوة إليه الى ان يشترك في الجمعية عدد كثير تتألف منه الجمعية العمومية التي تنظر في القانون وتنتخب من افرادها اعضاء للادارة . وكنت اسعى الى من اظن فيهم الخير في بيوتهم ومحال عملهم . وإنما كففت لأرى ماذا يصنع المعذرون او المثبطون هل يتفقون مع المفتي وينهضون بالعمل ام يرتاحون الى السكوت عنه لأنه هو المقصود لهم بالذات؟ فتبين بعد ذلك انهم لا يريدون الا إحباط العمل لانهم لا يعملون الخير ولا يحبون ان يعمله غيرهم

وقد كتبت في مذكرتي في أوائل شهر ذي القعدة مانصه : ذكر لي غير واحد من الوجهاء أن نجاح الجمعية الخيرية الاسلامية بطرابلس لا يرجى وان الذين كتبوا إنما استحيوا مني وهم لا يعتقدون انهم يدفعون شيئا بل قالوا ان المفتي نفسه يسايرني مسايرة ويعدني بأن سيبذل جهده وهو يعتقد ان التقصير سيظهر من غيره . وأخ علي (فلان) …

بأن اترك التشبث بالجمعية . وظهر لي انه يرى ان ذلك ينفر القوم مني من حيث لا أستفيد مما أريد شيئاً » الخ ما كتبته في شأن افراد معينين من قائل ومقول فيه

أ كتب هذا ليعلم أصحاب النية الصالحة في طرابلس كالمفتي وغيره السبب في اكتفائي بعد ذلك بانتقاء نفر من يرجى نجدتهم لإدارة الجمعية موقتاً وايذان المفتي بذلك في يوم الاربعاء ٢٣ ذي القعدة (١٦ دسمبر . ك ١) بعد دعوة كل واحد منهم على حدته ووعده لي ببذل الجهد في ذلك الا واحداً منهم (وهو محمود افندي الملا) قال انه لا يدخل في العمل إلا بعد ان يشرعوا فيه بالفعل . وان لي رجاء قويا في همة المفتي وغيرته وهمة أولئك الامجاد بأن ينهضوا بهذه الجمعية نهضة صالحة بعد هدوء الاضطراب الذي احدثه ضعف الحكومة الجديدة والاستواء على حال ثابتة . وانني اساعدهم بالقلم من هنا وا كون عوناً لهم على اليائسين الذين لم ا كتب ما كتبت الآن الا ليعلموا ان كيدهم في تضليل «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل »

حقوقنا المهضومة ونائب طرابلس الشرعي

لقد علم القاصي والداني من عثماني وغير عثماني أن حكومة الاستبداد الماضية قد أسرفت في الجور على بيتنا وظلم أهلينا انتقاما مني (راجع فاتحة السنة الثانية عشرة في الجزء الماضي)وكان من ذلك الظلم انه لما توفي والدنا تغمده الله برحمته صرت أنا المستحق بعده للتولية على جامع القلمون الذي جدده فيها جدنا الثالث بحسب نظام التوجيهات الناطق وفاقا للشرع بأن يوجه ماينحل عن الوالد من الوظائف المتعلقة بالاوقاف الى أكبر أولاده ولكن حكومة الرشوة والاستبداد وجهت تولية مسجدنا على رجل آخر اسمه عثمان النصري واشتهر انه اعطى القاضي (نوري افندي) على ذلك اربعين ليرة .ثم اعطاه رجل آخر اسمه الشيخ محمود حسن – على ماشاع وذاع – سبعين أو ثمانين ليرة فعزل عثمان النصري بعد دعوى ملفقة ووجه التولية على محمود حسن

فلما أردت السفر من طرابلس الى مصر قدمت دعوى الى المحكمة الشرعية ملخصها ان تولية محمود حسن على جامع القلمون غير صحيحة وانني أنا صاحب الحق في هذه التولية فأطلب توجيهها علي عملا بالنظام واذا فرضنا أن توليته صحيحة فانني أثبت خيانته بترك معاهد الوقف عرضة للخراب وترك عمارة ماخرب منها في زمن

توليته والزيادة في النفقات والنقص من الريع . ووكلت عني وكيلين شرعيين ثم تهيأت للسفر فحدث ماذكر آنفا من التشبث بتأسيس جمعية خيرية ثم جاء نبأ برقي بأن نيابة طرابلس (أي قضاءها الشرعي)وجهت الى عبد المجيد افندي الجعفري وانه سيسافر من الاستانة قاصداً طرابلس ثم لم يلبث ان حضر

عرضت الدعوى على هذا النائب فقال لي انني أقول لك وان كان لا ينبغي للقاضي ان يصرح برأيه قبل الحكم ان حقك ظاهر وانني سأعيده لك بعد استيفاء المعاملة الشرعية – ولما كنت على ثقة من ظهور هذا الحق اعتقدت ان الدعوى تنتهي في اسبوع أو اسبوعين فأجلت السفر وتابعت سير الدعوى بنفسي وأنا أظن في كل أسبوع انني افرغ فيه من الدعوى وأسافر في الذي بعده وكنت عازما على الاقامة في سورية خمسة اسابيع فقط لكثرة شغلي في مصر فأقمت ستة اشهر والدعوى على حالها يزيدها النائب كل يوم تعقيدا

انني لم أ كد اجالس هذا القاضي مرتين أو ثلاثا الا وقد جزمت بأنه سيهان في طرابلس إهانة لم يسبق لها نظير فكنت حريصا على إنجاز قضيتي قبل ظهور حقيقة حاله التي تقتضي ما توقعته بالفراسة وكاشفت به غير واحد ولكن هذا القاضي لا ينجز عملا لمن يعتمد مثلي في نيل حقه على انه محق وقادر على إثبات حقه

انشأ هذا القاضي يؤجل جلسات الدعوى ويحث وكيلي الخصمين على كتابة ماشاءآ في جريدتها ويماطل في قراءة ما كتبا وقد ثبت لديه ان تولية المدعى عليه غير صحيحة وانه خائن تارك للعمارة الواجبة شرعا كما تبين بالكشف من قبل المحكمة وشهادة الشهود ومع هذا لم يحكم بشيء حتى آن الأوان وضج الالوف من الناس بالشكوى منه واجتمعوا عند المحكمة وهم ألوف ينادون فليسقط القاضي الخائن المرتكب وشكوا أمره للمشيخة الاسلامية فامرت بالتحقيق وهم يشكون منه أمورا كثيرة ذكرت في جريدة لسان الحال وغيرها منها التطويل في المرافعات وعدم الحكم فيها بعد انتهائها كما حدث معنا حتى امتنع الوكلاء (المحامون) عن المجيء الى المحكمة ومنها أنه قد يحكم ثم يرجع بحكمه بعد كتابته ومنها كراهته للحكومة الدستورية واعتزازه بكونه من جمعية «فدا كاران ملت » وقد علمنا بعد ذلك انه كان نائبا في صيدا فأحدث فيها فتنة حتى هرب منه ليلا وان ذلك شأنه في كل بلد كان فيها حاكما

(لها بقية)

قانون المطبوعات وتقييد الصحافة بمصر

لم تكد تستقر قدمنا بمصر بعد عودتنا من سورية (في الاسبوع الاخير من هذا الشهر) حتى صخ سمعنا نبأ عزم الحكومة على العمل بقانون المطبوعات الذي وضع عقب الثورة العرابية لئلا تعيد الجرائد ذلك التهييج سيرته الاولى ثم سمعنا ان هذا كان عن اتفاق بين الامارة المصرية والحكومة الانكليزية وان نظار الحكومة المصرية لم يكن لهم به من علم الا ان يكون رئيسهم الجديد بطرس باشا غالي وانهم عندما فوجئوا بطلب تقرير ذلك القانون ابوا وفضلوا الاستقالة على ذلك وروت بعض الجرائد الافرنجية ان سعد باشا زغلول ناظر المعارف ومحمد سعيد باشا ناظر الداخلية هما اللذان عارضا وكادا يستقيلان ثم اقنعا فلم يستقيلا وان الوزارة لم ترض اخيرا بتنفيذ ذلك القانون الا بعد تعديل ما واتفاق على عدم التضييق به على المطبوعات ولا المراقبة على الكتب التي تطبع ولا المطابع التي تطبعها وانما تخص المراقبة بالجرائد لتمنعها من الاسراف في الطعن والهجاء الذي لم يسلم منه الامير ولا رجال الحكومة فضلا عن غيرهم ومن تهييج الناس على الأعمال التي قد تحدث الاضطراب وتثير السخط العام على الحكومة . ولقد كان وقع نبإ هذا القانون أليما شديدا على رجال الصحافة وغيرهم ويخشون ان يكون مبدأ الشر اعظم منه الا من هم على رأي السلطة التي أعادته

كان للادارة الانكليزية في مصر مزيتان عظيمتان لا نزاع فيهما ويقول الكثيرون انه لم يكن لها من مزية سواهما الاولى هما يسر البلاد المالي وحرية الطباعة وقد ذهبت العسرة المالية منذ سنتين بالمزية الأولى وكانت انكلترا قادرة على تفريجها كما فرجت عسرة أمريكا التي هي أعظم منها بكثير من الاضعاف فاذا زالت المزية الثانية بقانون المطبوعات القديم الجديد فأية مزية تبقى لهم في مصر يمنون بها على البلاد ويفاخرون بها الامم ؟ وكلا الأمرين حدث بعد مغادرة لورد كرومر لمصر وهو الذي كان صاحب المزيتين على ان الحزب الوطني وجرائده واكثر الجرائد الاخرى ومنها المؤيد كادوا يحصرون شكواهم من الاحتلال في شخصه فصار اكثرهم اليوم يتمثل بقول الشاعر :

رب يوم بكيت منه فلما ... صرت في غيره بكيت عليه

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الاربعاء ٣٠ ربيع الاول ١٣٢٧ — ٢١ ابريل (نيسان) سنة ١٢٨٥ ﻫ ١٩٠٩ م ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٨٠ : ١٧٥) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨١ : ١٧٦) لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨٢ : ١٧٧) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٣ : ١٧٨) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى

هو موكول الى اجتهاده الذي يتبع عاطفة الايمان. وإنما نفى أولا كونه خيرا ثم أثبت كونه شرا مع أن الثاني هو الظاهر الذي لايمارى فيه لأن المانع للحق إنما يمنعه لانه يحسب ان في منعه خيرا له لما في بقاء المال في اليد مثلا من الانتفاع به بالتمتع باللذات، ودفع الغوائل والآفات، وتوهم التمكن من قضاء الحاجات، فان قيل ان التحديد كان أوضح وأنفى للابهام قلنا ان القرآن كتاب هداية ووعظ يخاطب الارواح ليجذبها الى الخير بالعبارة التي هي أحسن تأثيرا لا ككتب الفقه وغيره من كتب الفنون التي تتحرى فيها التعريفات الجامعة المانعة. وكتاب هذا شأنه لايجري على السنن الذي لايليق الا بضعفاء العقول الذين فسدت فطرهم بالتعاليم الفاسدة (يعني تلك التعاليم التي تشغل الاذهان بعباراتها الضيقة وأساليبها المعقدة فلا ينفذ الى القلب شيء مما يعتصر منها ولذلك قال) وان مثل هذه العبارة المطلقة التي تخطر في البال بذل كل مافي اليد — أي لولا الدلائل الاخرى — تحدث في النفس أريحية للبذل تدفعها الى بذل الواجب وزيادة عليه. وأقول ان هذه العبارة الاخيرة مبنية على القول بأن المراد بما يبخل به هو المال فاذا جرينا على القول الآخر المختار وهو انه يعم المال والعلم والجاه وكل فضل من الله على العبد يمكنه أن ينفع به الناس يمكننا ان نجعلها من قبيل المثال ونقول ان التحديد في بيان مايجب بذله للناس من الجاه والعلم متعذر، اذا فرضنا ان مايجب تحديد بذله في المال متيسر، وبهذا كانت الآية شاملة لما لا يتأتى تفصيله الا بصحف كثيرة وكان الجواب أظهر والايجاز أبلغ في الاعجاز وأكبر

أقول ويؤيد العموم في قوله «بما آتاهم الله» العموم في الجزاء على ذلك البخل

في قوله ﴿ سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ﴾ ولم يقل سيطوقون زكاتهم أو المال الذي منعوه أما معنى التطويق فقد يكون من الطاقة فيكون بمعنى التكليف أي سيكلفون ذلك في الآخرة فلا يجدون اليه سبيلا كقوله (٦٨: ٤٢ ويدعون الى السجود فلا يستطيعون) وقد يكون من الطوق أي سيجعل مابخلوا به طوقا في أعناقهم يوبقون بما يلزمهم من الجزاء عليه فلا يجدون عنه مصرفا. وسيأتي نحو ذلك في المأثور. وقال الاستاذ الامام إن الآية لم تبينه ولا اشارت الى كيفيته فان ورد في صحيح الاحاديث

ما يبينه اتبع الوارد بقدره لا يزاد عليه ولا ينقص منه ووجب الايمان به عند من صح عنده على أنه من خبر الغيب الذي أمرنا بالايمان به لمحض الاتباع. وذهب بعض المفسرين الى أن معناه أنهم يحملون تبعة أموالهم يقال طوقني الأمر أي الزمني إياه فحاصل المعنى على هذا أن العقاب على البخل لزام لا مرد له

أقول فسر بعضهم التطويق بحديث ابي هريرة عند البخاري والنسائي «من آتاه الله ما لا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع (ثعبان معروف) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه (أي شدقيه) يقول أنا مالك انا كنزك» ثم تلا هذه الآية. وفي رواية للنسائي «إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يخيل اليه ماله يوم القيامة شجاعا اقرع له زبيبتان فيلزمه أو يطوقه يقول أنا كنزك أنا كنزك» وهناك روايات عند ابن جرير وغيره أن ذلك يكون طوقا من النار في عنق من يبخل. والتمثيل والتخيل خلاف الحقيقة فهو نحو مما يرى في النوم ولكن هناك روايات عند ابن جرير وغيره ليس فيها لفظ التمثيل ولا التخيل وما ذكرناه أصح وابن عباس (رضي الله عنهما) لايقول بهذا التفسير لأن الآية عنده في البخل بالعلم لانها نزلت في بخل اليهود بإظهار صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم. روى ابن جرير من طريق محمد بن سعد عنه أنه قال «قوله سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ألم تسمع أنه قال يبخلون ويأمرون الناس بالبخل يعني أهل الكتاب يكتمون ويأمرون الناس بالكتمان» وروى عن مجاهد أنه قال في تفسيرها «سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة» ولقول مجاهد وجه في اللغة أشد ظهورا على قول ابن عباس في الآية اي يكلفون بيان ما كتموا ففي لسان العرب «وطوقتك الشيء كلفتكه، وطوقني الله اداء حقك قواني» وذكر ذلك وجها في الآية وفي حديث بمعناها قبل هذه العبارة فقال بعد أن أورد قولهم تطويقه الشيء بمعنى جعله طوقا له «وقيل هو أن يطوق حملها يوم القيامة فيكون من طوق التكليف لامن طوق التقليد» أقول وأما تفسيره طوقني الله اداء حقك بقواني فهو من طاقة الحبل وهي إحدى قواه لا من الطوق. والمختار ماقلناه أولا

﴿ ولله ميراث السموات والارض ﴾ أي ان له وحده سبحانه جميع ما في السموات والارض مما يتوارثه الناس فينقل من واحد الى آخر لا يستقر في يد، ولا

يسلم التصرف فيه لأحد، الى أن يفني جميع الوارثين والمورثين، ويبقى المالك الحقيقي وهو الله رب العالمين، او معناه انه هو الذي ينقل كل ما يورث الى من شاء من عباده فقد يدخر المرء مالا لولده فيجعله الله بسننه في نظام الاجتماع متاعا لغيرهم كأن يموتوا قبل والدهم او يضيعوا ماجمعه لهم بالاسراف فيه ويبقون فقراء، كأنه يقول ما بال هؤلاء الباخلين بما اعطاهم الله من فضله واحسانه لا يفيضون بشيء منه على عياله مغترين بتصرفهم الظاهر فيه، وملكهم الانتفاع به، ذاهلين عن مصدره الذي جاء منه، وعن مرجعه الذي يعود اليه، فان لاح في خاطر أحد منهم انه يموت ويفنى لم يخطر له الان له وارثا يرث ما يتمتع هو به كأولاده وذي القربى فكأنه يبقى في يده فليعلم هؤلاء ان الوارث الذي ينتهي اليه التصرف فيما يتركه الهالكون، هو المالك الحقيقي الذي أعطى أولئك الهالكين ما كانوا به يتمتعون، وذلك يشمل المال وغيره

الاستاذ الامام: العبارة تبين ان كل ما يعطاه الانسان من مال وجاه وقوة وعلم فانه عرض زائل وصاحبه يفنى ويزول ولا معنى لاستبقاء الفاني ما هو فان مثله بل عليه ان يضع كل شيء في موضعه الذي يصلح له، ويبذله في وجوهه اللائقة به، أي فهو بذلك يكون خليفة لله في إتمام حكمته في أرضه، ومحسنا للتصرف فيما استخلفه فيه،

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو « يعملون » بالمثناة التحتية والباقون بالمثناة الفوقية أي لا يخفى عليه شيء من دقائق عملكم ولا مما تنطوي عليه الصدور من الهوى فيه والنية في اتيانه فيجزي كل عامل بما عمل على حسب تأثير عمله في نفسه

﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء ﴾ أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال دخل أبو بكر بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا الى رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم فقال أبو بكر ويحك يا فنحاص اتق وأسلم فوالله انك لتعلم ان محمدا رسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة فقال فنحاص والله يا أبا بكر ما بنا الى الله تعالى من فقر وانه الينا لفقير وما نتضرع اليه كما تضرع الينا وإنا عنه لأغنياء ولو كان غنيا

عنا لما استقرض منا كما يزعم صاحبكم وانه ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنيا عنا لما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله. فذهب فنحاص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انظر ما صنع صاحبك بي فقال رسول الله (ص) لأبي بكر ما حملك على ما صنعت؟ قال يا رسول الله قال قولا عظيما يزعم ان الله تعالى شأنه فقير وهم عنه اغنياء فلما قال ذلك غضبت لله تعالى مما قال فضربت وجهه. فجحد فنحاص فقال ما قلت ذلك فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص تصديقا لأبي بكر هذه الآية. وأنزل في أبي بكر وما بلغه من الغضب « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا» — الآية الآتية بعد آيات —. وأخرج ابن المنذر عن قتادة انه قال: ذكر لنا انها نزلت في حيي بن أخطب لما أنزل الله « من الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة» قال يستقرضنا ربنا إنما يستقرض الفقير الغني، وأخرج أبو الضياء وغيره من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا » فقالوا يا محمد: فقير ربك يسأل عباده القرض. فأنزل الله الآية. فالظاهر ان هذه المجازفة في القول قد وقعت من غير واحد من يهود وما يقوله البعض ويجيزه الجمع يسند الى القائلين والمجيزين جميعا والظاهر انهم قالوا ذلك تهكما بالقرآن ورواية فنحاص ليس لها مناسبة ظاهرة

سمع الله قول هؤلاء المجازفين لم يفته ولم يخف فيه فهو سيجزيهم عليه، فهذا التعبير يتضمن التهديد والوعيد كما يتضمن قوله « سمع الله لمن حمده » البشارة والوعد بحسن الجزاء وكما يتضمن قوله « لقد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما » مزيد العناية وارادة الاشكاء والاغاثة، ذلك بأن قولك سمعت ما قال فلان يشعر بما لا يشعر به قولك علمت بما قال. والسمع هو العلم بالمسموعات خاصة بوجه خاص وذهب بعض من كتب في علم الكلام الى ان سمع الباري تبارك وتعالى يتعلق بجميع الموجودات، لا يختص بالكلام

أو بالاصوات، وهو رأي تنكره اللغة ولا يعرفه الشرع وليس للرأي أو العقل ان يتحكم في صفات الله تبارك وتعالى بنظرياته وأقيسته . ومن فائدة التعبير بسمع الله لكلام عباده مراقبتهم له في أقوالهم ولا تتحقق هذه الفائدة بخصوصها على رأي ذلك المتكلم

﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ وعيد لهم على ذلك القول الذي قالوه استهزاء بالقرآن . قرأ حمزة « سيكتب » بالياء المضمومة أي سيكتب قولهم هذا ويثبت عند الله تعالى فيعاقبهم عليه لانه لا يفوته . وقرأ الباقون بالنون . قال الأستاذ الامام قال مفسرنا كغيره أي نأمر بكتابته وغفلوا عن قوله ﴿ وقتلهم الانبياء بغير حق ﴾ فانه كان من سلفهم فما معنى التعبير عن كتابته بصيغة الاستقبال ؟ لا بد من تفسيره بوجه يصح في الأمرين ولكن ضعف المسلمين في لغة القرآن هو الذي أوقعهم في هذا الضعف في الفهم والضعف في الدين وتبع ذلك الضعف في كل شيء . ولا يقال (كما زعم بعض المجاورين) ان الفعل اذا أسند الى الله تعالى يتجرد من الزمان فان الكلام في اختلاف التعبير . والمعنى الصحيح لهذه الكلمة « سنعاقبهم على ذلك حتما » فان الكتابة هنا عبارة عن حفظه عليهم ويراد به لازمه وهو العقوبة عليه . والتوعد بحفظ الذنب وكتابته وارادة العقوبة عليه شائع مستعمل حتى اليوم فلا يحتاج الى دقة نظر . ولفظ الكتابة آكد من لفظ الحفظ لما فيه من معنى الاستثبات وأمن النسيان . وإنما ضم قتل الأنبياء — وهو أفظع جرائم هذا الشعب — الى الجريمة التي سيق الوعيد لاجلها لبيان ان مثل هذا الكفر والتهور ليس بدعا من أمرهم فانه سبق لهم ان قتلوا الهداة المرشدين بعد ما جاءوهم بالبينات فهم يجرون في هذا على عرق وليس هو بأول كبائرهم ، وللإيذان بأن الجريمتين سيان في العظم واستحقاق العقاب (كما قال صاحب الكشاف)

وأما اضافة القتل الى الحاضرين فقد تقدمت حكمته في سورة البقرة ويشير اليه قول المفسرين إنهم يعدون قتلة لرضاهم بما فعله سلفهم وهذا تحويم حول المعنى الذي أوضحناه هناك وهو ان الامم متكافلة في الامور العامة اذ يجب على الامة الانكار على فاعل المنكر من أفرادها وتغييره أو النهي عنه لئلا يفشو فيها فيصير خلقا من أخلاقها أو عادة من عاداتها فتستحق عقوبته في الدنيا كالضعف والفقر وفقد

الاستقلال كما تستحق عقوبته في الآخرة بما دنس نفوسها ولذلك لعن الله تعالى الذين كفروا من بني إسرائيل بما عصوا وكانوا يعتدون وبين سبب ذلك بقوله (٦ : ٨٢ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه)

ذلك بأن من أقرّ فاعل المنكر فلم ينهه ولم يسخط عليه تكون نفسه مشاكلة لنفسه تأنس بما تأنس به ثم لا يلبث ان يفعل المنكر ولو بعد حين مالم يكن عاجزا عن ذلك بسبب من الاسباب الحسية كضعف الجسم أو قلة المال أي ان مثل هذا لا يترك المنكر لانه رذيلة تدنس نفس فاعلها فيكون بعيدا من الخير غير مستحق لرضوان الله عزّ وجل . (قال الاستاذ) وثم وجه آخر يجعل اسناد المنكر الى مُقره والراضي به إسنادا قريبا من الحقيقة وهو ان عدم النهي عن المنكر هو السبب في انتشاره وشيوعه لان المبالين الى المنكر لو علموا ان الناس يمقتونهم ويؤاخذونهم عليه لما فعلوه الا ما يكون من الخلس الخفية ولذلك كان الساكت على المنكر شريك الفاعل في الإثم (قال) كل هذا ظاهر فيمن يُفعل المنكر في زمنه ولا ينكره واما من يقع المنكر من قومهم قبل زمنهم كاليهود الذين نزلت هذه الآية وامثالها فيهم كقوله « فلم قتلتموهم » فهم يتفقون مع من سبقهم في علة الجريمة ومبعثها من النفس وهو عدم المبالاة بالدين وقد كان هذا الخلف متفقين مع من سبقهم في الاخلاق والسجايا وينتسبون اليهم انتساب حسب وتشرف أي فهم جديرون بأن يكونوا على شاكلتهم .

وأقول ان المتأخر ربما كان أضرى بالشرّ من المتقدم لتمكن داعية الشر من نفسه بالوراثة والقدوة جميعا وقد حاول غير واحد من اليهود قتله صلى الله عليه وسلم كما كان آباؤهم يفعلون بل هم الذين قتلوه فانه مات بالسم الذي وضعته له اليهودية في الشاة بخيبر فقد ورد في الحديث انه قال لعائشة في مرض موته «يا عائشة مازلت أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري » رواه البخاري في صحيحه وفي رواية لغيره من حديث أبي هريرة «مازالت أكلة خيبر تعاودني كل عام حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري »

الاستاذ الامام : ان الله تعالى نبهنا بهذا الضرب من التعبير الى ان المتأخر اذا لم ينظر الى عمل المتقدم بعين البصيرة و يطبقه على الشريعة فيستحسن منه ما استحسنت و يستقبح ما استهجنت و يسجل على المسيء من سلفه إساءته وينفر منها ، فانه يعد عند الله تعالى مثله وشريكا له في إثمه ومستحقا لمثل عقوبته فعليكم باتخاذ الوسائل لإزالة المنكرات الفاشية ولا بد في ذلك من بذل الجهد ، وإعمال الروية والفكر ، وما علينا الآن في مثل هذه البلاد ، الا الحيلة في بذل النصح والارشاد ، بأي ضرب من ضروبه ، وكل أسلوب من أساليبه ،

﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ وقرأ حمزة « ويقول » قال الاستاذ الامام الذوق عبارة عن الشعور بالألم أو ضده فمعنى ذوقوا تألموا . أما كيفية القول فلا نبحث فيها وإنما نعلم ان الله تعالى يوصل هذا المعنى اليهم . أقول وزعم بعض المستشرقين ان هذا الاستعمال لم يكن معروفا عند العرب قبل القرآن وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذه من التوراة . وهو زعم باطل و بمثله يستدلون على اقتباس النبي من كتبهم ، فقد روي أن أبا سفيان قال لما رأى حمزة عليه رضوان الله مقتولا « ذق عقق » أي ذق عاقبة اسلامك أيها العاق لدين آبائك ولمن ثبت عليه من قومك فلم يدخلوا في الاسلام . نعم ان أصل الذوق هو مايكون باللسان لمعرفة طعم الطعام ثم توسعوا فيه فاستعملوه في غير ذلك من المحسوسات كقولهم « ذقت القوس » اذا جذبت وترها لتنظر ماشدتها . وقولهم ذقت الرمح اذا غمزته قال ابن مقبل

يهززن للمشي أوصالا منعمة ... هز الشمال ضحى عيدان يبرينا
أو كاهتزاز رديني تذاوقه ... أيد التجار فزادوا متنه لينا

كذا في لسان العرب . وفي الاساس « أيدي الكماة » بدل أيدي التجار وقال ابن الاعرابي الذوق يكون بالفم و بغير الفم . ثم استعملوه في المعاني قال ابن طفيل

فذوقوا كما ذقنا غداة محجر ... من الغيظ في أكبادنا والتحوب

ومن هذا القبيل استعماله في معرفة جيد الشعر وأحاسن الكلام . وعذاب الحريق معناه عذاب هو الحريق

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ أي ذلك العذاب الذي تذوقون مرارته أوحرارته بسبب ما قدمتم في الدنيا من الاعمال . عبر عن الاشخاص بالأيدي لأن أكثر الاعمال تزاول بها وليفيد أن ماعذبوا عليه هو من عملهم حقيقة لامجازا فان نسبة الفعل الى يد الفاعل تفيد من إلصاقه به مالا تفيده نسبته الى ضميره لأن الاسناد الى اليد يمنع التجوز فمن المعهود ان يقال فلان فعل كذا اذا أمر به أو مكن العامل منه ولم يباشره بنفسه ومتى أسند الى يده تعين ان يكون باشر فعله بنفسه وان لم يكن من عمل الايدي ويدخل في قوله «بما قدمت أيديكم» جميع ما كان منهم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان

﴿ وان الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي ذلك العذاب إنما يصيبكم بعملكم و بكونه تعالى عادل في حكمه وفعله لايجور ولا يظلم فيعاقب غير المستحق للعقاب ولايجعل المجرمين كالمتقين والكافرين كالمؤمنين . فلو كان سبحانه ظلاما لجاز ان لايذوقوا ذلك العذاب على كفرهم به واستهزائهم بآياته وقتلهم لأنبيائه بأن يجعلوا مع المقربين في جنات النعيم واذاً لكان الدين عبثا (٣٨: ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار — ٤٥: ٢١ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون — ٦٨: ٣٥ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ٣٦ مالكم كيف تحكمون) فالاستفهام الإنكاري في هذه الآيات يدل على أن ترك تعذيب أولئك الكفرة الفجرة هو من المساواة بين المحسن والمسيء ووضع الشيء في غير موضعه وناهيك به ظلما كبيرا . فبهذا كله تعلم ان استشكال عطف نفي الظلم على جرائمهم في غير محله . والمبالغة بصيغة ظلام لافادة ان ترك عقوبة مثلهم يعد ظلما كبيرا أوكثيرا . وقال الاستاذ الامام يعني أن هذه العقوبة عدل منه سبحانه وأشار بصيغة المبالغة (ظلام) الى ان مثل هذه التسوية لاتصدر الا ممن كان كثير الظلم مبالغا فيه . وقال غيره انه لما كان القليل من الظلم يعد كثيرا بالنسبة الى رحمته الواسعة عبر في نفيه بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة

﴿ الذين قالوا إن الله عهد الينا ان لا نوءمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ أي أولئك هم الذين قالوا في الاعتذار عن الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ان الله عهد الينا في كتابه التوراة أن لا نوءمن لرسول يدعي انه مرسل من الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار قالوا إنهم أرادوا شيئا كان شائعا عندهم وهو أن يذبح القربان من النعم أو غيرها فيوضع في مكان معين فتأتي نار بيضاء من السماء لها دويّ فتأخذه أو تحرقه وروى ابن جرير عن ابن عباس ان الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة فاذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلته . أي أكلت ما تصدق به. هذا ماأورده وردوه بأن هذا القربان إنما كان يوجب الايمان لانه معجزة لا لذاته اذا هو كغيره من المعجزات

أقول إن القربان في عبادة بني اسرائيل كان على قسمين دموي وغير دموي فالقرابين الدموية كانت تكون من الحيوانات الطاهرة كالبقر والغنم والحمام وغير الدموية هي باكورات المواسم والخمر والزيت والدقيق . والقرابين عندهم أنواع منها المحرقات والتقدمات وذبائح السلامة وذبائح الخطيئة وذبائح الاثم . وكانوا يحرقون المحرقات بأيديهم وقد جاء في الفصل الأول سفر اللاويين في ذلك مانصه

« ١ ودعا الرب موسى. وكلمه من خيمة الاجتماع قائلا ٢ كلم بني اسرائيل وقل لهم اذا قرب إنسان منكم قربانا للرب من البهائم فمن البقر والغنم تقربون قرابينكم ٣ ان كان قربانه من البقر فذكرا صحيحا يقرب الى باب خيمة الاجتماع يقدمه للرضا عنه امام الرب ٤ ويضع يده على رأس المحرقة فيرضى عنه للتكفير عنه ٥ ويذبح العجل امام الرب ويقرب بنو هرون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديرا على المذبح الذي لدى باب خيمة الاجتماع ٦ ويسلخ المحرقة ويقطعها الى قطعها ٧ ويجعل بنو هرون الكاهن نارا على المذبح ويرتبون حطبا على النار ٨ ويرتب بنو هرون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذي على النار التي على المذبح ٩ وأما احشاوءه وأكارعه فيغسلها بماء ويوقد الكاهن الجميع على المذبح محرقة وقود رائحة سرور للرب »

ثم ذكر تفصيل قربان الغنم بصنفيه الضأن والمعز والطير وهو صنفان أيضا الحمام

واليمام بنحو ماتقدم كمابين ذكر بقية أنواع القرابين . فمن هنا تعلم انهم كانوا يوقدون النار بأيديهم ويحرقون بها القرابين المحرقات ولكن اليهود كانوا يلقون الى المسلمين أخبارا من خرافاتهم أو مخترعاتهم ليودعوها كتبهم ويمزجوها بدينهم ولذلك نجد في كتب قومنا من الاسرائيليات الخرافية مالا أصل له في العهد القديم ولا يزال يوجد فينا من يقدس كل ماروي عن أوائلنا في التفسير وغيره ويرفعه عن النقد والتمحيص . ولا يتم تمحيص ذلك الا لمن اطلع على كتب بني اسرائيل

أما الاستاذ الامام فقد ذكر ماقاله المفسرون في القربان ثم قال ويجوز وهو الأظهر ان يكون معنى « حتى يأتينا بقربان تأكله النار » أن يفرض علينا تقريب قربان يحرق النار فقد كان من أحكام الشريعة عندهم ان يحرقوا بعض القربان

وقد أمر الله تعالى نبيه ان يردعليهم فقال ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين ﴾ في زعمكم انكم لا توءمنون بي لاني لم آمر باحراق القرابين اي انكم لم ترضوا بعصيان اولئك الرسل فقط بل قسوتم عليهم وقتلتموهم (قال الاستاذ الامام) لاريب ان هذا لم يقع منكم لأنكم شعب غليظ الرقبة (بذا وصفوا في التوراة التي في أيديهم)وانكم قساة غلف القلوب لاتفقهون الحق ولاتذعنون له . وهذا مبني على ماقلناه من اعتبار الامة باتفاق أخلاقها وصفاتها وعاداتها العامة كالشخص الواحد وكان هذا المعنى معروفا عند العرب فانهم يلصقون جريمة الشخص بقبيلته ويوءاخذونها به ولو بعد موته . ويدلنا هذا على ان الجنايات والجرائم مرتبطة في حكم الله تعالى بمناشئها ومنابعها فمن لم يرتكب الجريمة لأن آلاتها وأسبابها غير حاضرة لديه لا يكون بريئا من الجريمة اذا كان منشأها والباعث عليها مستقرا في نفسه وهذا المنشأ هو التهاون بأمر الشريعة وعدم المبالاة بأمر الحق والتحري فيه

﴿ فان كذبوك ﴾ بعد ان جئتهم بالبينات الناصعة ، والزبر الصادعة ، والكتاب الذي ينير السبيل ، ويقيم الدليل ، فلا تأس عليهم ، ولا تحزن لكفرهم ، ولا تعجب من فساد أمرهم ، فان هذه سنة الله في العباد ، وشنشنة من سبق هوءلاء من آباء وأجداد ، ﴿ فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾

فأقاموا على أقوامهم الحجة ببيناتهم ، وهزوا قلوبهم بزبر عظاتهم ، واناروا بالكتاب سبيل نجاتهم ، فما أغنى ذلك عنهم من شيء لما انصرفت قلوبهم عن طلب الحق وتحري سبيل الخير . فالآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لطباع الناس واستعدادهم

والزبر جمع زبور بمعنى مزبور من زبرت الكتاب إذا كتبته مطلقا أو كتابة عظيمة غليظة قاله الراغب أو متقنة كما في لسان العرب فهو بمعنى الكتب والصحف يقال زبرت الكتاب بمعنى كتبته وبمعنى قرأته أو بمعنى المواعظ الزاجرة قال في اللسان : وزبره يزبره بالضم نهاه وانتهره وفي الحديث «اذا رددت على السائل ثلاثا فلا عليك ان تزبره» أي تنهره وتغلظ له في القول والرد . والزبر بالفتح الزجر والمنع . اه وأصل معنى الزبر القطع ومنه زبر الحديد قطعه ويوشك ان تكون الزبر هنا المواعظ او صحف الانبياء غير الكتب الاربعة وان يكون الكتاب المنير هو الانجيل

(١٨٥ : ١٨٠) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٦ : ١٨١) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ *

الكلام في الآيتين مستقل ووجه اتصال الآية الأولى منهما بما قبلها هو أن في التي قبلها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب اليهود وغيرهم له ببيان طبيعة الناس في تكذيب الانبياء السابقين وصبر أولئك على المجاحدة والمعاندة والكفر وفي هذه تأكيد للتسلية كما قال الامام الرازي من حيث ان الموت هو الغاية و به تذهب الاحزان ومن حيث ان بعده دارا يجازى فيها كل بما يستحق . وقال الاستاذ الامام إنها تسلية أخرى كأنه يقول لا تضجر ولا تسأم لما ترى من معاندة الكافرين فان هذا منته وكل ماله نهاية فلا بد من الوصول اليه فالذي يصير اليه هؤلاء المعاندون قريب فيجازون على أعمالهم ولا تنتظر ان يوفوا جزاء

عملهم السيء كله في هذه الدار كما ان أجرك على عملك لا توفاه في هذه الحياة فحسبك ما أصبت من الجزاء الحسن وحسبهم ما أصيبوا وما يصابون به من الجزاء السيء في الدنيا واعلم انه لا يوفى أحد جزاءه في هذه الدار لأن توفية الأجور انما تكون في الآخرة

(قال) ويصح وصلها بما قبلها من قوله تعالى «ولا تحسبن الذين يبخلون» الخ أي ان أولئك البخلاء الذين يمنعون الحقوق وأولئك المتجرئين على الله والظالمين لرسله والذين عاندوا خاتم النبيين — كل أولئك سيموتون كما يموت غيرهم ويوفون أجورهم يوم القيامة — وكذلك لا يحسبن احد من المؤمنين الذين يقاومون هؤلاء ويلقون منهم في سبيل الايمان ما يلقون انهم يوفون أجورهم في الدنيا، كلا انهم انما يوفون أجورهم يوم القيامة» وأقول ان الكلام في الآيتين هو تصريح بما في ضمن الآية السابقة من التسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولمن اتبعه والتفات الى خطابهم فان توفية الاجور متبادرة في الخير فهذه الآية تمهيد لما بعدها ليسهل على المسلمين وقع إنبائهم بما يبتلون به

قوله تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ظاهر يفهمه كل من يعرف العربية وهو ان كل حي يموت فتذوق نفسه طعم مفارقة البدن الذي تعيش فيه ولكنهم أوردوا عليها إشكالات بحسب علوم الفلسفة التي تغلغلت اصطلاحاتها في كتب المسلمين لذلك قال الاستاذ الامام : لكلمة «نفس» استعمالات يصح في بعض المواضع منها مالا يصح في موضع آخر والمتبادر هنا ان المراد بالنفس هنا ما به الحياة المعروفة في الحيوان ولا يصح ان تكون هنا بمعنى الذات (أي فيقال انه يدخل في عمومها الباري، تعالى لإضافة لفظ النفس اليه عز وجل) واستشكلوا موت النفس مع انها باقية لانها تبعث يوم القيامة وإنما يبعث الموجود ولو عدمت النفس لما صح ان يقال انها تبعث وإنما كان يقال توجد وأجابوا عنه بان كونها باقية لا ينافي كونها تذوق الموت فان الذي يذوق هو الموجود والميت لا يذوق لأن الذوق شعور فالحالة المخصوصة التي هي مفارقة الروح للبدن إنما تشعر به النفس وأما البدن فلا شعور له لأنه يموت ومن العبث والجهل البحث في تعريف الموت فالموت هو الموت

المعروف لكل أحد . وهناك جواب آخر أبسط من هذا وأظهر وهو ان الخطاب هنا على العرف المعهود في التخاطب المتبادر لكل عربي وهو ان كل حي يموت

﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ وفاه أجره أعطاه إياه وافيا بالعمل لم ينقصه منه شيئا ومهما نال الانسان من أجر على عمله في الدنيا فانه لا يوفاه الا في الآخرة . والقيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين في الحياة التي بعد الموت. وأستدل بالآية من ينكر عذاب القبر ونعيمه أي ما تذوقه هذه النفوس في البرزخ الذي بين هذه الحياة القصيرة وتلك الحياة الطويلة وهو ينسب الى المعتزلة ولكن الزمخشري وهو من أساطينهم يرد استدلالهم ، قال في الكشاف : فان قلت فهذا يوهم نفي ما يروى من ان القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار(*) (قلت) كلمة التوفية تزيل هذا الوهم لأن المعنى ان توفية الاجور وتكميلها يكون ذلك اليوم وما يكون قبل ذلك فبعض الاجور اه

﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ زحزح عن النار نحي وأبعد عنها واختطف دونها قبل ان تلتهمه قال في الكشاف الزحزحة تكرير الزح وهو الجذب بعجلة . والذي لا يزال يسبق الى فهمي من معناها انه الازاحة بعد الازاحة أي التنحية بعد التنحية . جعل الذي يهم بمواقعتها مرة بعد مرة لما في نفسه من الشوائب التي تجذبه اليها فينحى عنها في كل مرة بغلبة تأثير حسناته المضاعفة على سيئاته إلى ان يدخل الجنة — جعله فائزا فوزا عظيما وذكر الفوز مطلقا غير متعلق بشيء يفيد انه الفوز العظيم الذي يشمل كل ما يطلبه المرء من سلامة من مكروه ، وفوز بمحبوب ، وناهيك بالسلامة من النار ، والفوز بالنعيم الدائم في دار القرار ،

الاستاذ الامام : ذكر توفية الاجور ثم بين ذلك بأبلغ عبارة موجزة إيجازا معجزا فأعلم ان هنالك جنة ونارا وان من الناس من يلقى في تلك ومنهم من يدخل في هذه وابان عظيم هول النار وشدتها بالتعبير عن النجاة عنها بالزحزحة كأن كل شخص كان مشرفا على السقوط فيها وان مجرد الزحزحة عنها فوز كبير . وفيه إيماء

(*) حديث رواه الترمذي والطبراني بسند ضعيف

الى ان أعمال الناس سائقة لهم الى النار لأنها حيوانية في الغالب حتى لا يكاد يدخل أحد الجنة إلا بعد ان يكون زحزح عما كان صائرا اليه من السقوط في النار. أما هؤلاء المزحزحون فهم الذين غلبت في نفوسهم الصفات الروحية على الصفات الحيوانية فأخلصوا في إيمانهم وفي أعمالهم وجاهدوا في الله حق جهاده حتى لم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير الله في عمل من الاعمال . أفاد هذا الايجاز كل هذه المعاني ولم يحتج في هذه الآية إلى مثل ما ذكر في آيات أخرى من وصف الجنة والنار لما يقتضيه السياق هنالك من الاطناب والتعريف بشيء من أمور عالم الغيب . وعبر بالفاء في قوله « فمن زحزح » للترتيب و بيان السبب . كذا كتبت عنه وكتبت بجانبه « وفيه نظر » ولعلي كنت أريد مراجعته فيه فنسيت والظاهر ان هذه الفاء عاطفة وفيها معنى الترتيب دون السبب وما بعدها تفصيل لتوفية الاجور

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ الدنيا صفة للحياة وهي مؤنث الأدنى والمتاع ما يتمتع به أي ينتفع به زمنا ممتدا امتدادا طويلا أو قصيرا لانه من المتوع وهو الامتداد يقال متع النهار ومتع النبات إذا ارتفع وامتد ويقال للآنية متاع قال تعالى (١٣: ١٧ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع) وقال في أخوة يوسف (١٢: ٦٥ ولما فتحوا متاعهم) وهو الاوعية بما فيها من الميرة والطعام . والغرور الخداع وأصله إصابة الغرة أي الغفلة ممن تخدعه وتغشه . قال في الكشاف شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه ثم تبين له فساده ورداءته.

وقال الأستاذ الامام : الحياة الدنيا هي السفلى أو القربى والمراد منها حياتنا هذه أي معيشتنا الحاضرة التي نتمتع فيها باللذات الحسية كالأكل والشرب أو المعنوية كالجاه والمنصب والسيادة هذه الحياة هي أقرب الحياتين وأدناهما وأحطهما وهي على كل حال متاع الغرور لأن صاحبها دائما مغرور مخدوع لها تشغله كل حين بجلب لذاتها ودفع آلامها فهو يتعب لما لا يستحق التعب ويشقى لتوهم السعادة ويتعب نقداً ليستريح نسيئة . والعبارة جاءت بصيغة الحصر فهي تشمل حياة الابرار الذين يصرفون أعمالهم في نفع الناس حبا بالخير وتقربا الى الله عز وجل من حيث هم متمتعون فيها إما

من حيث ان لذتهم فيها هم فيه قهرية وإما على معنى انها لا بقاء لها . أو يقال ان ما كان من عمل الخير والطاعة ليس من متاع الدنيا والحصر بحسب ما عليه الغالب

وأقول حاصل معنى الجملة ان الدنيا ليست الامتاعا من شأنه ان يغر الانسان و يشغله عن تكميل نفسه بالمعارف الحقيقية والأخلاق المرضية التي ترقى بروحه فتعدها لسعادة الآخرة فينبغي له أن يحذر من الاسراف في الاشتغال بمتاعها عن نفسه فان أي نوع منه قد يشغله وينسيه نفسه وإن لم يكن الاشتغال به ضروريا ولا من حاجات المعيشة المعتدلة أما ترى المغرمين فيها باللعب واللهو كالشطرنج والنرد وما في معناها وهو كثير في هذا الزمان كيف يسرفون في حياتهم ويفنون أعمارهم بين جدران بيوت اللهو كالقهاوي والحانات . وكل حزب بما لديهم فرحون ' لأنهم مغرورون مخدوعون ' الا من وفقه الله لصرف معظم زمنه في علم يرقى به عقله، وعبرة تتزكى بها نفسه ، وعمل صالح ينتفع به ' وينفع به عباد الله تعالى مع النية الصالحة والقلب السليم

وليس لمتاع الدنيا غاية ينتهي العامل اليها فتسكن نفسه ويطمئن قلبه بل المزيد منه يغري بزيادة الاسراف في الطلب ، فلا ينتهي أرب منه الا إلى أرب ' قال الشاعر

فما قضى أحد منها لبانته ولا انتهى أرب الا الى أرب

فمن أفضل هدي الدين تنبيه الناس الى ذلك حتى لا تغلب عليهم الحيوانية فيكونوا من الهالكين

﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ﴾ قال الرازي اعلم انه تعالى لما سلى الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « كل نفس ذائقة الموت » زاد في تسليه بهذه الآية فبين ان الكفار بعد ان آذوا الرسول والمسلمين يوم أحد فسيؤذونهم أيضا في المستقبل بكل طريق يمكنهم من الايذاء بالنفس والايذاء بالمال . والغرض من هذا الاعلام ان يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع وذلك لأن الانسان إذا لم يعلم نزول البلاء عليه فاذا أنزل البلاء شق ذلك عليه اما اذا كان عالما بانه سينزل فاذا نزل لم يعظم وقعه عليه أقول وعبارة الكشاف خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على ما سيلقون من الأذى والشدائد والصبر عليها حتى اذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه

الاستاذ الامام : يصح اتصال هذه الآية بما قبلها من قوله تعالى « ولا تحسبن الذين يبخلون » الآيات فان فيها ذكر البخل بالمال وذكر حال اليهود وهذه تذكر البلاء بالمال وما سيلاقي المؤمنون من أولئك اليهود وغيرهم . و يصح ان يكون على ما قاله بعضهم متصلا بما هو قبل ذلك من أول واقعة أحد إلى هنا كأنه يقول ان ما وقع من الابتلاء في الأنفس والاموال والطعن في تلك الواقعة ليس آخر الابتلاء بل لا بد ان تبلوا بعد ذلك بكل هذه الضروب منه وتجري فيكم سنته تعالى في خلقه فلا تظنوا انكم جلستم على عرش العزة واعتصمتم بالمنعة وأمنتم حوادث الكون فانه لا بد أن يعاملكم الله تعالى كما يعامل الامم معاملة المختبر المبتلي لا ليعلم ما لم يكن يعلم من أمركم فهو علام الغيوب بل ليميز الخبيث من الطيب من بعد كما ماز الكثيرين في واقعة أحد

(قال) والابتلاء في الاموال يفسر بفرض الصدقات و بالبذل في سبيل الله — وهو كل ما يوصل الى الخير — و بالجوائح والآفات وهذا الجمع أولى مما ذهب اليه بعضهم من تخصيصه بالأول وبعضهم من تخصيصه بالثاني . والابتلاء بالانفس يكون بتكليف بذلها في سبيل الله وبموت من يحب الانسان من الاهل والأصدقاء (أقول وكذا الابتلاء بالمصائب البدنية كالامراض والجروح) والابتلاء بالتكليف هو أهم الابتلائين . وذلك ان الله تعالى لم يكفل للمسلمين الحفظ والنصر والسيادة لانهم مسلمون وإنما يكلفهم الجري على سنته تعالى كغيرهم فلا بد لهم من الاستعداد للمدافعة دائماً وذلك يقتضي بذل المال والنفس . ومن هنا تعلم غلط الذين يفسرون الابتلاء بالمال والامر ببذله والجهاد به — كل ذلك بالزكاة وما الزكاة الا نوع من أنواع الحقوق التي جعلها الله في المال وهي كثيرة تشمل كل ما به صلاح الامة ورفع شأنها من الأعمال وكل ما يدفع عنها الاعداء ' ويرد عنها المكاره والاسواء ، (يعني كالأعمال التي تعمل للوقاية من الامراض والأوبئة) ومن ذلك الابتلاء في المدافعة عن الحق سواء كان بالمال أو بالنفس فهو يوطن نفوسهم على الأخذ بالاحتياط في الامور العامة والاستعانة عليها بالمال وتحمل المكاره و يحذرهم من الشره والطمع في المال حتى اذا طمعوا أو قصروا في الاحتياط كما وقع لهم في أحد علموا انهم ما أصيبوا الا

بما كسبت أيديهم أو قصرت فيه هممهم فلا يتعللون، ولا يقولون كيف أصبنا ونحن مسلمون، وقدم ذكر المال لأنه هو الوسيلة التي يكون بها الاستعداد لبذل النفس فبذل المال يحتاج اليه قبل بذل النفس أو لأن الانسان كثيرا ما يبذل نفسه دفاعا عن ماله فالذين قالوا ان المال شقيق الروح لاحظوا الغالب ومن غير الغالب ان يقدم الانسان ماله على نفسه

علمنا أن فائدة الابتلاء هي تمييز الخبيث من الطيب وأما الإخبار به ففائدته التعريف بالسنن الإلهية وتهيئة المؤمن لها وحمله على الاستعداد لمقاومتها فان من تحدث له النعمة فجأة على غير استعداد ولا سعي ترجى من ورائه تدهشه وتبطره وربما تهيج عصبه فيقع في داء أو يموت فجأة وكذلك من تقع به المصيبه فجأة على غير استعداد يعظم عليه الأمر ويحيط به الغم حتى يقتله في بعض الاحيان . أما المستعد فانه يكون ضليعا قويا أقول يعني انه يحمل البلاء بلا تبرم ولا سآمة فان ظفر لا يفرح فرح البطر الفخور، وإن خسر لا يشقى شقاء اليئوس الكفور، فهذا الاعلام تربية من الله لعباده المؤمنين، فما بالهم في هذا العصر عن التذكرة معرضين «أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين» . هذا وان الزكاة فرضت في السنة الثانية من الهجرة قبل غزوة بدر الاولى . والظاهر ان هذه الآيات نزلت في السنة الرابعة بعد غزوة بدر الآخرة كما يأتي فالظاهر ان المراد بالابتلاء فيها بالمال هو الحاجة والقلة كما حصل في غزوة الاحزاب ثم في غزوة تبوك (راجع تفسير ٢ : ١٥٥ ولنبلونكم بشيء من الخوف » ص ٣٣ ج ٢ تفسير)

وأما قوله ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ فهو ابتلاء آخر وقد نزلت هذه الآية بعد ان كان المشركون وأهل الكتاب ملأوا الفضاء بكلامهم المؤذي للرسول والمؤمنين فلماذا صرح الكتاب بهذا وهو ما ألفه المسلمون واعتادوه ؟ بل قال الاستاذ الامام ان مثل هذا يدخل في الابتلاء في الانفس وانما خصه بالذكر لأنه من الاهمية بمكان

أقول نبه بهذه العبارة على عظم شأن هذا النبإ وليس عندي شيء عنه في

سببه والمراد منه ولا أذكر انني رأيت ذلك في شيء من الكتب التي اطلعت عليها فيجب الرجوع في ذلك إلى التاريخ أي سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام فاذا تذكرنا ان هذه الآية نزلت بعد غزوة بدر الآخرة التي سبق ماورد فيها من الآيات بعد الكلام في غزوة أحد وغزوة حمراء الأسد — وتذكرنا ان ذلك كان في شعبان من سنة أربع وتذكرنا ما كان في سنة خمس من حديث الإفك وقذف عائشة الصديقة برأها الله تعالى - ومن تألب اليهود ونقض عهودهم ومحاولتهم قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى اجلاهم وأمن شر مجاورتهم إياه بالمدينة - ومن تألبهم مع المشركين وجمع الاحزاب من الفريقين وزحفهم على المدينة لاجل استئصال المسلمين - وما كان في ذلك من البلاء الشديد والجوع الديقوع والحصار الضيق الذي قال الله فيه كله (٣٣ : ٩ إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا (١٠) هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) — اذا تذكرنا هذا كله علمنا أن الآية تمهيد له وإعداد للمسلمين لتلقيه لعل وقعه يخف عليهم ولذلك قال ﴿ وان تصبروا وتتقوا فانّ ذلك من عزم الامور ﴾ يعني ان تصبروا على البلاء الكبير الذي سيحل بكم في أموالكم وأنفسكم وعلى ما تسمعون من أهل الكتاب والمشركين من الأذى وتتقوا ما يجب اتقاؤه في الاستعداد لذلك قبل نزوله ومكافحته عند وقوعه فان ذلك الصبر والتقوى من معزومات الامور أي الأمور التي يجب العزم عليها أو مما عزم الله ان يكون أي من عزمات قضائه التي لا بد من وقوعها

ومن تدبر هذا علم ضعف رواية ابن أبي حاتم وابن المنذر عن ابن عباس (رض) ان الآية نزلت فيما كان بين أبي بكر وفنحاص وقد سردنا الرواية من عهد قريب فان هذه الوصية المؤكدة وما سبقها من التمهيد أكبر من ذلك وان حسنها من رواها، ويرجح ما اخترناه في الآية السابقة من كونها في المؤمنين لا في الكافرين . وفي رواية عند عبد الرزاق عن عبد الرحمن بن كعب ان الآية نزلت في كعب بن الأشرف فيما كان يهجو به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهذه

أضعف من الأولى فإن كعب ابن الأشرف قتل قبل غزوة أحد وكفى الله المسلمين كيده وقوله

قال الاستاذ الامام الصبر هو تلقي المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع الروية في دفعه ومقاومة ما يحدثه من الجزع فهو مركب من أمرين دفع الجزع ومحاولة طرده ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس ، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه فمن لا يحس به لا يسمى صابرا وإنما هو فاقد للاحساس وانما يسمى بليداً وفرق بين الصبر والبلادة فالصبر وسط بين الجزع والبلادة ،وما أحسن قرن التقوى بالصبر في هذه الموعظة وهي أن يمتثل ماهدى الله اليه فعلا وتركا عن باعث القلب. وذلك من عزم الامور أي التي يجب ان تعقد عليها العزيمة وتصح فيها النية وجوبا محتما لا ضعف فيه

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، وانا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ مسألة خلق القرآن وقدمه ﴾

(س ١٠) من جدة (الحجاز) لصاحب التوقيع

حكيم الاسلام بحر العلوم العقلية والنقلية تاج رأس السنية سيدي محمد رشيد رضا افندي منشئ مجلة المنار الغراء لا زال في مقام كريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . من العجب أني لم أعثر في مجلدات المنار على مبحث في القرآن المجيد المكتوب في المصاحف الخ تكونون كتبتموه أو سئلتم

عنه لنكتفي عن أن نسئلكم فنروم من غيرتكم على الدين الاسلامي ان تفيدونا بما هو الحق الذي يجب اعتقاده في مسئلة القرآن الواقع فيها الخلاف بين الحنابلة وأتباع الحنفية والمالكية والشافعية الآن بالبيان الشافي الكافي بأدلة الفريقين وترجيح أي الاعتقادين على الآخر لأن لكم القدح المعلى في هذا الفن ولكم الأجر والشكر في الدنيا والأخرى

محمد حسين

(ج) اعلم يا أخي قبل كل شيء أنه ما أضر الاسلام والمسلمين شيء كالخلاف والتفرق فيه الى شيع ومذاهب يوجه كل باحث منهم قواه الى تأييد اقوال مذهبه الذي ينتسب اليه وتفنيد كل ما يخالفه ولذلك وردت الآيات والأحاديث الشريفة في حظر الخلاف والتشنيع على المختلفين حتى قال عزّ وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم (٦ : ١٥٩ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) وقال للمسلمين (٣ : ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) ولعل الجهل بمسألة من المسائل مع الوفاق والاجتماع يكون أحياناً خيراً من العلم بها مع الخلاف فيها والتفرق ولذلك كان النبي (ص) يريد أن يبين شيئا فيترك بيانه لاجل خلاف المسلمين في الحاجة اليه كما فعل يوم أراد ان يكتب لهم كتابا لن يضلوا بعده أبدا كما في صحيح البخاري . وقريب من ذلك ما كان حين أراد أن يبين لهم ليلة القدر كما في الصحيح أيضا وغرضنا من هذا تذكير السائل الكريم بأنه لا ينبغي له ولا لغيره ان يسأل عن شيء لاجل تأييد ما يراه هو فيه وبيان خطإ المخالف له من المسلمين

واعلم يا أخي ثانيا ان المحاكة بين المذاهب لأجل ترجيح بعضها على بعض هي من أقوى أسباب الحمل على تعصب أهل كل مذهب لمذهبهم وملاحاة المخالفين لهم ومعاداتهم وقلما يوجد منتسب الى مذهب ينظر في قول المخالف وفي دلائله نظر المستجلي للحقيقة بل ينظر اليه بعين النقد والبحث عن مواضع الضعف ولو في التعبير ليهجم عليه من موضع ضعفه فينقض بنيانه ويبين بطلانه

اذا علمت هذا وذاك وأنت تعلم ان المنار أنشئ للجمع والتوفيق لا للخذل والتفريق تبين لك وجه العذر في عدم الاجابة إلى ذكر أدلة المذاهب في المسألة

والترجيح بينها مكتفيا ببيان الحق فيها وهو ما كان عليه السلف الصالح من غير جدال ولا نضال ، ولا ما كره لنا الله من القيل والقال

ان هذا القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في الصدور المتلو بالألسنة هو كلام الله المنزل على قلب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والرسول المبلغ له عن الله تعالى ليس فيه صنع ولا عمل . والقول بأنه مخلوق على الاطلاق أو باعتبار قراءته أو كتابته من البدع المذمومة التي لم يأذن بها الله ولا قال بها رسوله ولا أصحاب رسوله ولا التابعون لهم في هدايتهم ولا هي مما تحتاج اليه الامة في حفظ دينها ولا مصلحة دنياها . ومن البدع ايضا ان يقال ان حروفه مخلوقة وان قراءتي له مخلوقة ور بما كان ذريعة الى ما هو شر منه مع عدم الحاجة اليه وضرر إضاعة الوقت في مثله

انا لم نخض في مسألة الخلاف في خلق القرآن اتباعا للسلف ولكننا بينا في تفسير أول آية من الجزء الثالث من القرآن معنى كلام الله وتكليمه وكون كلامه عز وجل شأنا من شؤونه قديما بقدمه . واتباع مذهب السلف يمنعنا من الخوض في الخلاف فنحن نبين الحق الذي نعتقده وندين الله به وندعو اليه ولا نزيد على ذلك . وقد كان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كتب في رسالة التوحيد جملة في مسألة هذا الخلاف ثم اعترف بأنه أخطأ مذهب السلف في ذلك وأمر بحذف تلك الجملة من الرسالة في الطبعة الثانية ولما وفقنا لطبع الرسالة ثانية مصححة بتصحيحه حذفنا تلك الجملة منها

ومن المعلوم أن فتنة القول بخلق القرآن حدثت في أول القرن الثالث فخير لنا ان نجعلها نسيا منسيا ونكون في ذلك كأهل القرن الأول والثاني . فإن قيل كان يكون هذا حسنا لو رضي الناس به وجروا عليه ولكن المسألة لا تزال تقرأ في الكتب فتعلق شبهة البدعة ببعض الاذهان فوجب إبطال تلك الشبهة التي يزعم أصحابها انهم جاؤا بحقائق الفلسفة اذ جعلوا القرآن عضين منه كلام نفسي وكلام لفظي وقالوا هذا حادث وذاك قديم . قلنا ان المجادلات النظرية تحيي تلك النظريات الفلسفية وإنما نميتها بالذهي عنها عنها و بيان الحق الذي كان عليه السلف لا نرى غير ذلك و بالله التوفيق

***

﴿ جعل الدية على العاقلة وحكمة ذلك ﴾

(س ١١) من بيروت لصاحب الامضاء

حضرة العالم الفاضل والغيور الصادق معتمد الامة الاسلامية السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاغر

هل قضاء النبي صلى الله عليه وسلم بالدية على عاقلة الجاني (كما ثبت في الصحيحين) جناية على الانسانية ، واجحاف بحقوق المدنية ، كما يظهر ذلك من مقالة سطرت في جريدة — لبنان — الصادرة في ١٦ رمضان سنة ١٣٢٦ عدد ٧٧٧ تحت عنوان (مجلس الادارة وجريدة لبنان) أم هو نهاية في العدالة ومحض خير للامة ، وغاية في حفظ دماء البشر ، وتعليم للناس ليعين بعضهم بعضا إذا اخطأ ، وتربية لهم حتى لا يمكن أحدهم ابن حية باللعب بمسدس مثلا ، أفيدونا الجواب ، ولكم من الله الثواب ،

سبب المقالة فيما يظهر ان بعض اللبنانيين يود انتخاب أناس من مجلس الادارة و بعضهم يروم انتخابهم من مشايخ الصلح ومنهم صاحب الجريدة . حجة الفريق الاول ان بعض مشايخ الصلح أخطأ في أمر مّا فلزم لهذا الاعراض عنهم وتيمم رجال مجلس الادارة لذلك قال كاتب المقالة ما نصه (بلا زيادة حرف)

« على انه إذا صح لنا تبديل النظام ونزع ذلك الحق من أيدي مشايخ الصلح لخطأ ارتكبه واحد منهم صح استبدال نظام كل حكومة عند ما يرتكب أحد رجالها جريمة من الجرائم ومجازاة كل مأموريها . وكان مثلهم مثل العاقلة في الشرع الشريف . فانه إذا قتل أحد الصاغة مثلا في قرية وما أمكن معرفة قاتله وجبت الدية على جميع ابناء حرفته وهكذا مشايخ صلح وجب بحسب تلك القاعدة إقالتهم جميعا تحت تبعة ما يرتكبه أحدهم » اه ثم رد على من يبتغي الانتخاب من مجلس الادارة اللبنانية وحض على الانتخاب من مشايخ الصلح اه كامل الغلاييني

(ج) جعل الدية على العاقلة وهي عصبة العشيرة (العائلة) خاص بقتل الخطإ وحكمته تكافل العشيرة وتعاونها في المصيبة فهو من قبيل ايجاب النفقة للمعسرين من الاقربين على الموسرين منهم على ما في هذا وذاك من التفصيل والخلاف . وهذا يرد زعم بعض الجاهلين بالشريعة أن الاسلام لم يقرر في امر العائلات شيئا كأن العائلة لا وجود لها في الاسلام على انه لا يوجد في شريعة الهية ولا وضعية من اقدم الشرائع الى أحدثها مثل ما يوجد في الشريعة الاسلامية الغراء من إحكام روابط القرابة ووشيجة الرحم من الاحكام والآداب ومن أهمها مسائل النفقات ومسألة جعل دية قتل الخطإ على عاقلة القاتل (وربما كان لفظ العائلة محرفا عن العاقلة) لأنه لما كان معذورا بخطإه وكانت الدية ربما تذهب بثروته لا سيما اذا تكرر الخطأ منه جعلتها الشريعة في عاقلته يتعاونون عليها وقد تقدم في التفسير من هذا الجزء وفي غيره كلام في تكافل الامة فما بالك بتكافل العشيرة

وحكم العاقلة ورد في الحديث لا في القرآن وقال العلماء في شرح بعض الاحاديث الواردة في ذلك انه مخالف لظاهر قوله تعالى (١٨:٣٥ ولا تزر وازرة وزر أخرى) وأجابوا عن ذلك بجعل الاحاديث الواردة في ذلك مخصصة لعموم الآية بناء على قول جمهور أهل الاصول بتخصيص القرآن بأحاديث الآحاد ونقلوا عن بعض العلماء والمذاهب خلافا فيها

قال في نيل الاوطار : وعاقلة الرجل عشيرته فيبدأ بفخذه الادنى فان عجزوا ضم البطن الأقرب فالأقرب المكلف الذكر الحر من عصبة النسب ثم السبب ثم في بيت المال . وقال الناصر انها تجب على العصبة ثم على أهل الديوان يعني جند السلطان . وقال ابو حنيفة انها تجب على أهل الديوان دون أهل الميراث ولم ينكر هكذا في البحر . ولا يخفى ما في ذلك من المخالفة للاحاديث الصحيحة . وقد حكى في البحر عن الاصم وابن علية وا كثر الخوارج ان دية الخطإ في مال القاتل ولا يلزم العاقلة وحكي عن علقمة وابن ابي ليلى وابن شبرمة والبتي وابي ثور ان الذي يلزم العاقلة هو الخطأ المحض وعمد الخطإ في مال القاتل اه

أقول وورد في بعض الاحاديث المتأخرة ما ظاهره نسخ العاقلة كحديث عمرو بن

الاحوص انه شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فقال رسول الله (ص) « لا يجني جان الا على نفسه لا يجني والد على ولده ولا مولود على والده » رواه احمد وابو داود والترمذي وصححه وابن ماجه . وحديث ابي رمثة قال خرجت مع ابي حتى اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت برأسه ردع حناء وقال لأبي « هذا ابنك ؟ قال نعم قال : أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه » وقرأ رسول الله (ص) ولا تزر وازرة وزر اخرى » رواه احمد ابو داود والنسائي والترمذي وحسنه وصححه وابن خزيمة وابن الجارود والحاكم وفيه روايات اخرى وحديث الرجل من بني يربوع قال اتينا رسول الله (ص) وهو يكلم الناس فقالوا يارسول الله هؤلاء بنو فلان قتلوا فلانا فقال رسول الله (ص) «لا تجني نفس على نفس» رواه احمد بسند رجاله رجال الصحيح والنسائي . وقد ادخل الفقهاء الاحاديث في باب التخصيص فاخرجوا الوالد والولد من العاقلة والنسخ فيها اظهر ولكن العمل جرى على الإحكام . وكما أن العاقلة مخالفة لظاهر الآية التي استدل بها الرسول في الحديث السابق هي مخالفة للقياس ايضا وقد أجاب الفقهاء عن الأول بما علمت من التخصيص وفصل الجواب عن الامرين الامام ابن القيم في كتابه اعلام الموقعين فقال

(فصل) ومن هذا الباب قول القائل حمل العاقلة الدية عن الجاني على خلاف القياس ولهذا لا تحمل العمد ولا العبد ولا في الصلح ولا الاعتراف ولا ما دون الثلث ولا تحمل جناية الاموال ولو كانت على وفق القياس لحملت ذلك كله

والجواب أن يقال لا ريب أن من اتلف مضمونا كان ضمانه عليه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ولا تؤخذ نفس بجريرة غيرها وبهذا جاء شرع الله سبحانه وجزاؤه وحمل العاقلة الديه غير مناقض لشيء من هذا كما سنبينه والناس متنازعون في العقل هل تحمله العاقلة ابتداء أو تحملا على قولين كما تنازعوا في صدقة الفطر التي يجب اداؤها عن الغير كالزوجة والولد هل تجب ابتداء أو تحملا على قولين؟ وعلى ذلك ينبني مالو أخرجها من تحملت عن نفسه بغير اذن المتحمل لها فمن قال هي واجبة عليه ابتداء قال لا تجزي بل هي كأداء الزكاة عن الغير وكذلك القاتل اذا لم تكن له عاقلة

هل تجب الدية في ذمة القاتل أولا بناء على هذا الاصل ؟ والعقل فارق غيره من الحقوق في اسباب اقتضت اختصاصه بالحكم وذلك أن دية المقتول مال كثير والعاقلة انما تحمل الخطأ ولا تحمل العمد بالاتفاق ولا شبهه على الصحيح والخطأ يعذر فيه الانسان فايجاب الدية في ماله فيه ضرر عظيم عليه من غير ذنب تعمده واهدار دم المقتول من غير ضمان بالكلية فيه إضرار بأولاده وورثته فلا بد من ايجاب بدله. فكان من محاسن الشريعة وقيامها بمصالح العباد أن أوجب بدله على من عليهم موالاة القاتل ونصرته فأوجب عليهم اعانته على ذلك وهذا كايجابه النفقات على الأقارب وكسوتهم وكذا مسكنهم وإعفافهم اذا طلبوا النكاح وكايجاب فكاك الأسير من بلد العدو فإن هذا أسير بالدية التي لم يتعمد سبب وجوبها ولا وجبت باختيار مستحقها كالقرض والبيع وليست قليلة فالقاتل في الغالب لا يقدر على حملها وهذا بخلاف العمد فان الجاني ظالم مستحق للعقوبة ليس أهلا أن يحمل عنه بدل القتل وبخلاف شبه العمد لأنه قاصد للجناية متعمد لها فهو آثم متعمد وبخلاف بدل المتلف من الاموال فإنه قليل في الغالب لا يكاد المتلف يعجز عن حمله وشأن النفوس غير شأن الاموال ولهذا لم تحمل العاقلة مادون الثلث عند الإمام أحمد ومالك لقلته واحتمال الجاني لحمله وعند ابي حنيفة لاتحمل مادون أقل المقدار كأرش الموضحة وتحمل ما فوقه وعند الشافعي تحمل القليل والكثير طردا للقياس وظهر بهذا كونها لا تحمل العبد فانه سلعة من السلع ومال من الأموال فلو حملت بدله لحملت بدل الحيوان والمتاع

وأما الصلح والاعتراف فعارض هذه الحكمة فيهما معنى آخر وهو أن المدعي والمدعى عليه قد يتواطآن على الإقرار بالجناية ويشتركان فيما تحمله العاقلة ويتصالحان على تغريم العاقلة فلا يسري اقراره ولا صلحه فلا يجوز اقراره في حق العاقلة ولا يقبل قوله فيما يجب عليها من الغرامة وهذا هو القياس الصحيح فان الصلح والاعتراف يتضمن اقراره ودعواه على العاقلة بوجوب المال عليها فلا يقبل ذلك في حقهم ويقبل بالنسبة الى المعترف كنظائره

فتبين أن إيجاب الدية على العاقلة من جنس ما أوجبه الشارع من الاحسان الى المحتاجين كأبناء السبيل والفقراء والمساكين وهذا من تمام الحكمة التي بها اقيام مصلحة

العالم فإن الله سبحانه وتعالى قسم خلقه الى غني وفقير ولا تتم مصالحهم إلا بسد خلة الفقير فأوجب سبحانه في فضول أموال الاغنياء مايسد خلة الفقراء وحرم الربا الذي يضر بالمحتاج فكان أمره بالصدقة ونهيه عن الربا أخوين شقيقين ولذا جمع الله بينهما في قوله (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) وقوله (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون) وذكر سبحانه أحكام الناس في الأموال في آخر سورة البقرة وهي ثلاثة عدل وظلم وفضل فالعدل البيع والظلم الربا والفضل الصدقة فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم وذم المرابين وذكر عقابهم وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى والمقصود أن حمل الدية من جنس ما أوجبه من الحقوق لبعض العباد على بعض كحق المملوك والزوجة والاقارب والضعيف ليست من باب عقوبة الانسان بجناية غيره فهذه لون وذاك لون والله الموفق» اه

فتبين مما تقدم كله أن جعل الدية على العاقلة بشروطه هو من باب إعانة من يقع في مصيبة وتلزمه غرامة لم يتعمد سببها وانه من أسباب تكافل الاسر والعشائر (العائلات) وتضامنها وإحكام روابط المودة وتقوية وشائج الرحم بينها وان من كتب ما كتب في جريدة لبنان لم يفهم معنى كون الدية على العاقلة جملة ولا تفصيلا فكيف يفهم حكمته

وهكذا نرى شأن الذين ينتقدون احكام الاسلام تصريحا أو تلويحا يقولون مالا يعلمون، ويهرفون بما لا يعرفون، فيجنون على العلم من جهة ويورثون الاضغان الدينية من جهة أخرى وما كان أغناهم من الحالين اذا لم يكونوا متعمدين للافساد كما هو شأن الكثيرين منهم

***

﴿ القضاء والقدر ﴾

(س ١٢) من مشترك بالسودان

جناب مدير المنار الاغر

بعد التحية، ذكرتم في صحيفة ٧٢٣ (ج ١٠ م ١) كلمة بخصوص مسئلة القضاء والقدر. ولما كان المنار هو المجلة الوحيدة في العالم الاسلامي التي يهمها البحث في فلسفة

الدين وشوون الاجتماع والعمران . وكانت مسئلة القضاء والقدر هي الامر الذي اعترف به الصديق والعدو انه السبب الوحيد في تأخر المسلمين . رأيت ان ما ذكره المنار في هذا الجزء والاجزاء السابقة لم يشف غليل العقول ولا هو زخزح شيئاً من أساس المبدأ الثابت في أدمغة العام والخاص القائل عنه (تقي الدين بن تيمية) من سنين مضت:

فمن كان من أهل السعادة أثرت أوامره فيه بتيسير صنعة
ومن كان من أهل الشقاوة لم ينل بأمر ولا نهي بتقدير شقوة

واذا كانت العباد مقسومة هذا للشقاء وذاك للسعادة وإن هذا الاعتقاد مستول على العقول فهمة المسلمين التي تتوجه للاصلاح والتقدم ليست الا ضرباً من التقليد والتشبه للامم الحية التي لا تعرف شيئاً من هذه العقيدة المقيدة للهمم والعقول فتزول منهم اذا زالت عنهم الاسباب الاضطرارية الداعية لهذا التشبه . لان الدين أرسخ في الاذهان من مبدإ وقتي أثره تقليدي . اللهم الا اذا ضرب صفحاً عن هذه العقيدة من الدين وتشبعت النفوس تدريجاً بالمبادئ الطبيعية التي تسير مع تقدم الامم أو تكون هذه المسئلة على خلاف ذلك إذاً إن ما ذكرتموه في المثال (عن ولي عهد المانيا وأخيه بمصر) لا يبرهن للاوربي الذي يتبرأ من هذه العقيدة انه كان من الازل مقرر اصابة أحد الاخوين بالحمى ليتأخر عن الميعاد الذي حدده لسفره وانه لابد ان يصاب به حتماً بل هو يقول لك كما يقول العقل والعلم : انه لو لم يتعرض للاسباب التي أوجبت هذا المرض لسبب عدم علمه بها لسافر في ميعاده المحدد وانه كان في امكانه ان يتجنبها لو علم بها . فاذا مسئلة اصابته بالمرض ليست محتمة له من الازل . ولا كان الله تعالى مخصصها اليه بالذات ولكنها تخصصت له منه تعالى بسبب جهله تلك الاسباب ليس الا ... وقول (منه تعالى) تخصصت لعله انه خالق كل الاسباب التي يتعرض لها الانسان بإرادته سواء علم بنتائجها أو جهلها — فاذا قلتم حسب مبدإكم ومبدإ (ابن تيمية) السالف ان ولي العهد مقدر له من الازل ان يحضر مصر وكان لا بد ان يمرض بمرضه هذا قلت لكم ان اللص الذي قطعت يده بسبب ما سرق كان لا بد ان يسوقه الله تعالى للسرقة للزوم قطع يده الحتمي وتكون هنا إرادة الانسان ومسئوليته في الدنيا والآخرة عما يفعل ضرب (؟) من

ضروب السخرية وتمثيل رواية ليس لها نتيجة . . ونكون كما قال (ابن تيمية)

وحكمته العليا اقتضت ماقضت من الـ فروق بعلم ثم أيد ورحمة
يسوق أولي التعذيب بالسبب الذي يقدره نحو العقاب بعزة
ويهدي أولي التنعيم نحو نعيمهم باعمال صدق في خشوع وخشية

وما دامت الاسباب التي هي حجة للنتائج مقدرة حتمية . . فالنتائج بالطبع تابعة لهذا الإلزام . وعليه فالتقاضي والحساب في الآخرة ليس إلا لتتميم رواية كلامية واذا كان هذا مبدأ المنار فلا يلومن الامم الاسلامية الماضية وما كانت فيه من الاضمحلال . . ولا داعي لاستخراج نتائج فلسفية أو عمرانية للزوم الاخذ بأسباب الترقي والهرب من القديم . . . . ولا عيب على حكومات الاستبداد ... ولا مانع من البقاء في الجهل . الخ . إذ ان الداعين للزوم تغيير المناهج لتتغير معها النتائج ليسوا الا معترفين بلزوم التسلط وتحرير القدر الالهي القابض على الاسباب بيد حديدية

وعلى هذا . . هل أقول مع (المنار) للذين يعتقدون من غير المسلمين ان عقيدة القضاء والقدر بهذا الشكل هي السبب في تأخر المسلمين : (ان ما ينتقد على المسلمين من ذلك لا يرجع منه شيء الى الاسلام الخالص فما قدره فهو الحق الواقع في نفسه الذي لا يمكن لمؤمن ولا ملحد انكاره) ؟ . أم ماذا تقول اذا كان ما سبق هو ما يريد المنار وتقريره ؟ وأشكركم سلفا

(ج) لكل مقام مقال فلتحرير النزاع ولرد الشبه مقال غير مقال التذكير بأمر مقرر ، واعتقاد محرر ، وقد كان ما ذكر في ص ٧٢٣ ج ١٠ م ١١ من المنار من القسم الاخير ونحن اتباعا لهداية القرآن نكرر المسائل المهمة لا سيما في التفسير فنذكرها تارة بالايجاز وتارة بالاطناب وما اشرتم اليه هو قول الاستاذ الامام والغرض منه التذكير بأن الانسان ليس مستقلا في عمله تمام الاستقلال لجهله وعجزه والنظريات التي ذكرتموها لا تنقض شيئاً من قوله بل تؤيده وحكم القضايا الممكنة ، غير حكم القضايا المطلقة ، كما هو مقرر في المنطق فقولك إنه كان في إمكان ولي عهد ألمانيا ان يتجنب اسباب المرض لو علم بها وإذاً لا نفذ الترتيب الذي وضعه لسفره فمسألة

إصابته بذلك المرض لم تكن محتمة له من الأزل الخ قول ظاهر البطلان. لأن قضية مرضه جهتها الإطلاق لوقوعها بالفعل والامكان لا يناقض الاطلاق. و بعبارة عامية: انه كان لا بد من مرضه بدليل وقوعه وليكن ذلك لجهله بأسباب المرض. على ان هناك أمراضا لا تعرف أسبابها كالسرطان وأمراضا تعرف أسبابها وقد يتعذر اجتنابها كالسل

نكتفي بهذه الاشارة ولا نضيع الوقت في المناقشة الطويلة ببيان بطلان كل نظرية من النظريات الباطلة التي أوردتموها نقلا أو رأيا وهي مشهورة لان الاطالة في ذلك لا تزيد المسألة الا تعقيدا كما صرحنا بذلك منذ سنين فقد قلنا في الدرس الرابع عشر من الأمالي الدينية التي كنا نلقيها بمصر الذي نشرناه في جزء المنار الذي صدر في غرة جمادي الثانية سنة ١٣١٨

«هذه المسألة من توابع البحث في العلم والارادة وهي الفتنة التي ابتليت بها الأمم فوقعوا في بحار الحيرة تدافعهم أمواج الشكوك ويتلقاهم آذي الشبهات (اي موجها) حتى غرق فيها اكثر الخائضين ونجا الاقلون ومن عجيب أمرها ان العامة أعلم بها من الخاصة، وان الامين أقرب الى اليقين بها من الكاتبين، وان شئت فقل ان الجهل بحقيقتها، تابع لسعة العلم بمباحثها، فكلما زاد الانسان نظرا فيها، زاد عماية عنها، لأن الخفاء كما يكون من شدة البعد، يكون من شدة القرب، الخ ما قلناه تمهيدا للقول «بأن المسألة في نفسها بديهية عوملت معاملة النظريات والبديهي كلما زاد البحث فيه بعد عن الادراك» الخ

لقد فتن علماء اللاهوت من النصارى في هذه المسألة كما فتن المسلمون، وقد صنف المسلمون فيها مصنفات خاصة فما أغنت عنهم من شيء. وكانت تعد من المشكلات العقلية فألبسها أهل هذا الزمان ثوب المشكلات الاجتماعية وزعموا انها سبب ضعف المسلمين وللاستاذ الامام مقالة طويلة في ابطال هذا الزعم وبيان ان هذه العقيدة من أسباب التقدم والارتقاء تطلب من المنار (ص ٢٦٥ م ٣) ومن الجزء الثاني من تاريخه (ص ٢٦٣)

إن الناس يأخذون من دينهم في كل عصر من الاعصار ما يناسب حالهم الاجتماعية حتى ان العقيدة الواحدة تكون في الامة الواحدة مصدراً لآثار متناقضة في زمنين

مختلفين كعقيدة القدر كانت في زمن من الازمان مصدر الشجاعة والاقدام والفتح والعمران والكسب للمسلمين وفي زمن آخر مصدر الجبن والكسل والتواني والتواكل والإهمال. وأكثر الذين يتكلمون في ضعف المسلمين واسبابه غافلون عن هذه القاعدة وجاهلون حقيقة الدين فهم يجعلون المسلمين حجة على دينهم والدين حجة عليهم بدليل أثره في سلفهم ايام كانوا بدينهم سادات العالم في كل علم وكل عمل ومن البديهي ان الناس يتمسكون بالدين في أول ظهوره أشد مما يتمسكون به بعد ان يطول عليهم الامد، وتكون معرفتهم بحقيقته في أول العهد به أصح وأقوى منها بعد ذلك

ان السائل أو المنتقد لم يطلع فيما يظهر لنا على ما كتبناه في هذه المسألة بقصد إيضاحها في السنين الأولى للمنار وإننا وإن اطلنا القول فيها من قبل نذكر فيها الآن جملا وجيزة يتجلى بها الحق لمن يطلب الحق بذاته لذاته بعد الاعراض عن النظريات الفلسفية المشهورة في المسألة وهاك ما نريد بيانه الآن

(١ — القضاء) كان السلف يسمي هذه المسألة (مسألة القدر) ثم صار الناس يقولون مسألة القضاء والقدر. وقد ورد لفظ القضاء ولفظ القدر في الكتاب العزيز بمعان مختلفة لأنهما من الالفاظ المشتركة في اللغة العربية

ورد القضاء بمعنى الفصل والحكم في الشيء قولا أو فعلا و بمعنى الاعلام به و بمعنى إتمام الشيء وإنهائه قال تعالى (١٧: ٢٣ وقضى ربك ان لا تعبدوا إلا إياه) اي حكم بذلك قولا في الكتاب المنزل على رسوله. وقال (١٠: ٩٣ ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة) أي يحكم ويفصل بالفعل وقال (١٧: ٤ وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين) الخ وقال (وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وكلاهما بمعنى الإعلام بذلك والاخبار بوقوعه وقال (٤١: ١٢ فقضاهن سبع سموات في يومين) أي أتم خلقهن. وقال (٢٨: ٢٩ فلما قضى موسى الاجل) أي أتمه. وأكثر ما ورد من هذا اللفظ قد جاء بهذا المعنى

ولم يرد في القرآن لفظ في القضاء يظهر فيه معنى المشيئة ويكون اصلا فيما نحن فيه الا قوله (٢: ١١٧ بديع السموات والارض واذا قضى أمرا فانما يقول له كن

فيكون — ٣:٤٧ قال كذلك الله يخلق مايشاء اذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) ومثله في ١٩:٣٦ و٤٠:٦٨ فالآية الاولى في مقام خلق السموات والارض والثانية والثالثة في مقام خلق عيسى عليه السلام والرابعة في مقام ذكر الإحياء والإماتة . وقد ورد هذا المعنى نفسه بلفظ الارادة قال تعالى (٣٦:٨١ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم؟ بلى وهو الخلاق العظيم ٨٢ انما أمره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون) والمعنى في التعبيرين واحد وهو مما لم تختلف فيه الاديان فاليهود الذين سأل سائلهم المسلمين مستشكلا معنى القضاء بتلك الابيات التي أولها

أيا علماء الدين ذمي دينكم تحير ردوه بأوضح حجة
اذا ماقضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

يقولون بذلك. وقد أجبنا عن سؤاله في (ص٥١٢م٣) وأجاب قبلنا غير واحد منهم ابن تيمية الذي أورد السائل بعض اباته. وكذا النصارى الذين منهم الاوربيون لاينكرون كون الله تعالى اذا قضى أمرا وأراده ينفذه بقدرته حالا كما هو مفهوم العبارة (وبراجع تفسيرها في المنار وفي ص٣١٩ من ج ٣ تفسير) لأنه لو عجز عن إيجاد ما يريد لم يكن إلها والإشكال في مسألة القضاء الإلهي فرع الايمان بوجود الله اذ لامعنى للبحث في الفرع مع إنكار الاصل . فحاصل معنى القضاء في هذا المقام ان الله تعالى اذا أراد شيئا أو أنفذه وأتمه فانما يكون ذلك على نحو ان تقول للشيء كن فيكون بلا إمهال ولا تمكث . ولا إشكال في هذا عند من يؤمن بالله مهما كان دينه

(٢ ــ القدر) القدر (بفتح الدال وسكونها) والمقدار والتقدير ألفاظ وردت في القرآن بمعنى جعل الشيء بقياس مخصوص أو وزن محدود أو وجه معين يجري على سنة معلومة فهي داخلة في معني النظام والترتيب قال تعالى (٢٣ : ١٨ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض) أي بمقدار معين له نظام يتعلق بتشبع الجو بالبخار ودرجة برودة الهواء كما قال (١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) أي بمقدار مايسعه كل واد من الماء . وقال بعد ان ذكر بروج السماء وكواكبها والارض ورواسيها وإنباته فيها « من كل شيء موزون» وما فيها من أسباب المعايش (١٥:٢٠ وإن من شيء الاعندنا خزائنه وماننزله

الا بقدر معلوم) وقال (٥٤ : إنا كل شيء خلقناه بقدر) فهذا القدر العام بمعنى ذلك القدر الخاص ايضا وقال في العموم بعد ذكر امور خاصة (١٣ : ٨ الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) اي ان لكل شيء من مخلوقاته سننا ونواميس ومقادير منتظمة كسننه في حمل الاناث وعقمها وزيادة علوق الارحام ونقصها. ومن ألفاظ التقدير في مقام التخصيص قوله عز وجل (٣٦:٣٩ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) وقال في ذلك (١٠ : ٥ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال في خلق الانسان (٨٠ : ١٨ من أي شيء خلقه ١٩ من نطفة خلقه فقدّره) وبين هذا التقرير بالانتقال من طور إلى طور في أول سورة المؤمنين . وقال في الزمن (٧٣ : ٢٠ والله يقدر الليل والنهار) وقال في سرد الدروع وصنعها خطابا لداود عليه السلام (٣٤ : أن اعمل سابغات وقدّر في السرد) والتقدير في نسج الدرع وسردها هو جعل حلقها متساوية ونظامها واحدا. وقال في الطرق وترتيب السير بين قراها في قصة سبأ (٣٤ : ١٨ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين) وقال في التعميم (٢٥ : ٢ وخلق كل شيء فقدره تقديرا)

فعلم من هذه الشواهد كلها أن عقيدة القدر والمقدار والتقدير في كتاب الله الذي هو أصل الاسلام وأساسه هي التى تعلم المؤمنين بهذا الكتاب ان لهذا الكون نظاما محكما وسننا مطردة ارتبطت فيها الاسباب بالمسببات وانه ليس في خلق الرحمن خلل ولا تفاوت ، ولا فيه فذفات مصادفات ، ولا خلل استبداد ، وأنه لا استئناف في الايجاد والإمداد ، ومن فائدة هذا الاعتقاد أن أهله يكونون أجدر الناس بالبحث في نظام الكائنات ، وتعرف سنن الله في المخلوقات ، وطلب الاشياء من أسبابها ، والجري اليها في سننها ، ولا نعلم ان هذا البيان كان مفصلا في الديانات السابقة ولكني أقول أنه لا يقول عاقل شم رائحة العلم أو ذاق طعمه ان هذا الاعتقاد هو سبب تأخر المسلمين ، كيف وانه لهو الجدير بترقيتهم وان أكثرهم أمسوا جاهلين لهذه الحقائق لانهم لا يأخذون دينهم من القرآن وإنما يأخذونه من كتب بعض الاموات

(٣ — القدرية) كان السلف الصالحون يفهمون القدر بهذا المعنى ولذلك ضللوا القدرية الذين أنكروا الاسباب وقالوا « الأمر أُنُف » أي ان الله تعالى يستأنف ويبتدئ ما يريد إيجاده كل شيء في وقته من غير تقدير ولا نظام سابق تجري عليه سنته فيه ولأسباب يرتبط بعضها ببعض بل قال قدماؤهم من غير علم سبق و إنما يعلم الشيء عند وقوعه وقد كفر هذه الفرقة السلف الصالحون وهي قد حدثت في عصر الصحابة . تلقى بدعتهم هذه معبد الجهني عن سيسويه المجوسي . ففي صحيح مسلم وكتب السنن الثلاثة ان عبد الله بن عمر (رض) سئل عنهم فقيل له انه قد ظهر فينا ناس يقرءون القرآن ويتقفدون العلم وذكر (السائل وهو يحيى بن يعمر) من شأنهم وانهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف . فقال ابن عمر إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم وانهم برآء مني والذي يحلف به عبد الله ابن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر . ثم ساق حديث جبريل وفيه « وتؤمن بالقدر خيره وشره » أي ان كلا من الخير والشر يجري في الكون بمقادير وموازين وسنن وأسباب اقتضتها الحكمة البالغة . ومن مذهبهم ان الانسان إذا فعل شيئاً فإنما يفعله أنفا أيضا من غير أن يكون لله تعالى علم سابق بذلك أو سنة يجري عمل الانسان عليها فالانسان مستقل بذلك تمام الاستقلال . ثم ان المتأخرين منهم اعترفوا بأن لله تعالى علما أزليا بالاشياء ولكنهم أنكروا أن يكون له ارادة تتعلق بأفعال العباد مع أن معنى الارادة هو وقوع الفعل من العالم على حسب علمه

(٤ — الجبرية) غلا أولئك فوقفوا في طرف وعبدوا الله على حرف فجاء بعدهم آخرون وقفوا على الطرف المقابل لطرفهم وهم الجبرية فقالوا ان الانسان ليس له عمل ولا قدرة وإنما هو كالريشة المعلقة في الهواء تحركها رياح الاقدار، من غير ان يكون لها ارادة ولا اختيار، واننا نرى أكثر الناس لا سيما المتفرنجين منهم يظنون ان عقيدة الجبر هي عقيدة القضاء والقدر لان ألفاظ الجبر راجت في المسلمين بواسطة جهلة المتصوفة كما بينا ذلك مرارا كثيرة . آخرها ما في بحث التوكل والاسباب من (ج ١١ م ١١) وقد أوردنا فيه الآيات والاحاديث وأقوال السلف في إثبات

الاسباب وإسناد عمل الانسان اليه . فاذا قال القائل ان الجبر من اسباب ضعف المسلمين فطالما أيدنا هذا القول ولكن الجبر ما جاء المسلمين عن دينهم وإنما جاءهم من فلسفتهم التي لونوها بصبغة الدين لما وقعوا في جميع علومهم وأعمالهم الدنيوية وهذه الفلسفة شرع بينهم و بين جميع الامم حتى الافرنج كما نبينه في المسألة السابعة وكأن السائل صاحب الاشكال نسي هذا ومافيه من تفنيد النزغات الجبرية حتى ردنا على الامام الغزالي في بعض ما أورده فيها وتعلق بعبارة الاستاذ الامام المختصرة فألصق بها تلك الشبهات المشهورة في المسألة

(٥ — متأخرو المسلمين) المسلمون في هذه الازمنة الاخيرة قد اختلط عليهم الامر لعموم الجهل وفساد طرق التعليم حيث يوجد ولذلك ترى في كلامهم ما يدل تارة على شيء من عقيدة القدرية وتارة على عقيدة الجبرية وتارة على عقيدة المعتزلة وقد بينا في العدد الثاني من سنة المنار الأولى ان الواحد منهم يجمع بين العقائد المختلفة (لاضطراب اعتقاده وعدم تلقيه عن العارفين فان المسلمين في فوضى دينية وعلمية لانه ليس لهم رياسة دينية ولا مدارس منتظمة) وانهم في الغالب يميلون الى الجبرية في المسائل المتعلقة باقامة الدين أو خدمة الامة والقيام بالمصالح العامة والى عقيدة المعتزلة أو القدرية في المسائل الدنيوية فلا حجة في حالهم على الاسلام بل الاسلام حجة عليهم

(٦ — المتكلمون) ان علماء الكلام سلكوا الطريقة النظرية العقلية في الرد على المخالفين من الملاحدة والمبتدعة ورد الاشاعرة على المعتزلة والقدرية والجبرية . والمسائل النظرية مثار الشبهات والاشكالات وبذلك دخلت مسألة القضاء والقدر في قالب فلسفي نظري وكثر فيها القيل والقال والقرآن فوق ذلك كله لا تمسه الاوهام ولا تنال منه الشبهات كما علمت . وانما هي مباحث فلسفية تتعلق بقدرة الله وارادته وبخلق الإنسان وغرائزه وارتباط أعماله بعلمه وإدراكه وهي مشتركة بين جميع الامم ولا يوجد مذهب من المذاهب التي قال بها فلاسفة المسلمين من أهل الكلام والتصوف الا وقد قال بمثلها غيرهم ويقول بها بعض علماء أوربا اليوم

(٧ — فلسفة المسلمين والافرنج في الجبر) كان من فلسفة المسلمين في الجبر الذي ألبس ثوب القضاء والقدر أن عمل الانسان أثر طبيعي لاعتقاده بالمنافع

والمضار وشعوره باللذات والآلام فهو يتبع علمه بذلك وعلمه صفة من صفاته أو حال من احواله لا يمكن دفعها ولا الانسلاخ منها والعلم بقسميه يحرك الارادة والارادة تزعج القدرة الى تحريك الاعضاء للعمل وهي سلسلة ضرورية لا يملك الانسان باختياره إبطالها ولا الفصل بين حلقاتها أو منع تحرك احداها بحركة الأخرى . وللغزالي شرح طويل لهذا المعنى أورد له مثالا بليغا وجرى على هذا فلاسفة الافرنج وأيدوا المسألة بمباحثهم الفسيو لوجية والبسيكولوجية فقالوا ان أعمال الانسان آثار طبيعية منعكسة عما في مخه من الآثار التي وصلت اليه من طريق الحواس أو ثبتت فيه بتأثير الوراثة والعادات، فالاعصاب الحساسة تلقي ما تحمله من ادراك الحواس الى المخ ثم يعود منه إلى الاعضاء العاملة بواسطة الاعصاب المحركة التي تحرك العضلات بالفعل . فما في المخ ينعكس الى العضلات بواسطة الاعصاب فيحركها بسرعة أو ببطء فما كان بسرعة لا نشعر بأن لنا فيه اختيارا وما كان ببطء نشعر به فنسمي ذلك اختيارا وهو حتم لا يمكن التفصي منه . وقد سبق البحث في ذلك في المجلد العاشر وغرضنا مما أوردناه الآن ان نبين للسائل ان الافرنج أعرق من المسلمين في هذه العقيدة الجبرية فلا يخافن من تسجيلهم الضعف على المسلمين بمثل ذلك

وإذا قال ان هذا القول لا يخلو من شبهة على الدين قلنا انه ليس على الاسلام وحده بل هو شبهة على النصرانية أيضا وموضوع سؤال السائل ان عقيدة القدر عند المسلمين من العقائد المشكلة والضارة بمعتقديها وقد بينا ان الامر فيها ليس كذلك. بل ربما كانت الشبهة على الاسلام هنا ضد الشبهة التي هي موضوع السؤال أو نقيضها بأن يقال ان الاسلام يثبت للانسان عملا ومشيئة واختيارا و بذلك جعله مكلفا مطالبا بالاعمال الحسنة وإن فلسفتنا تقول لنا انه لا مشيئة له في الحقيقة بل هو مجبور مضطر في جميع ما يصدر عنه بمقتضى ذلك النظام المطرد المنعكس في التأثر والتأثير بين مخه وأعصابه وعضلاته فاذا كان لهذا الوجود وما فيه من النظام مصدر واجب قديم فيجب إسناد الافعال التي هي أثر الانعكاس بين مخه وعضلاته الى ذلك المصدر الواضع هو لنظامه وهو الله سبحانه وإلا فالى الضرورة العمياء، التي أبدعت هذه العوالم كلها من الهباء (أرأيت كيف ان باب المباحث العلمية والنظرية

في المسألة واسع جدًّا حتى انه يمكن كتابة أسفار كثيرة فيه ؟)

(٨ – حكم الاسلام في عمل الانسان) إن دين الفطرة لا يكلف الناس عناء هذه الفلسفة ولا يمنعهم النظر فيها و إنما يرشدهم الى الاعتقاد الحق الذي لا يضر معه بحث بل يمكن معه الاستفادة من كل بحث وهو ان الله تعالى خلق كل شيء بحكمة ونظام وقدر سابق على الفعل تجري عليه السنن العامة (النواميس) وأن معرفة المخلوقات انما تكون بالنظر فيها مع التأمل والبصيرة وان منها نوع الانسان الذي يعمل عن علم بما يعمل يرجح به ما يراه صوابا على ما يراه خطأ فيكثر صوابه بمقدار سعة علمه بالواقع وأسبابه ويكثر خطؤه على قدر جهله بالحقائق وسننها لأنه يسير في ذلك على سنن الله في خلقه وقدره الذي قام به نظام ملكه « وكل شيء عنده بمقدار » وأن عليه ان يتحرى العلم الصحيح بالمصالح والعمل الصالح بحسب ما يشعر به من قدرته وتمكنه من ذلك مهما كانت علة ذلك وفلسفته. ونعني بالعلم هنا ما يستفاد ولو بالعادة والتربية أي ما يعم العلم النظري والعلم الحسي والوجداني والعلم العملي أي الذي يطبعه العمل في النفس

(٩ – علم الله بعمل الانسان واختياره) ان سبق علم الله بما سيعمله الانسان وتقديره له ووضع سنن اجتماعية يسير عليها في عمله لا ينافي شيء من ذلك كونه خلقه ذا علم وارادة وعمل فان كونه كذلك هو أمر ثابت في نفسه معلوم بالحس والوجدان، وهما أقوى أركان البرهان، ولا يقال إذا كان قد سبق في علمه تعالى ان فلانا سيفعل كذا فلا بد أن يفعل فيكون مجبورا على فعله لأن متعلق العلم الإلهي لا بد ان يكون والا لزم الجهل فانا نقول انما يصح هذا اذا كان قد سبق في علم الله انه يفعله مجبورا ولكن إذا سبق في العلم الأزلي انه يفعله مختارا فلماذا لا تقول انه يجب ان يكون مختاراً في فعله لما ذكرتم من الدليل؟ ويرد مثل هذا في أفعاله تعالى فانها تقع وتحدث بحسب العلم الازلي ولا يقال انه تعالى مجبور عليها. كيف وان معني الاختيار للفعل هو ان يكون تابعا لعلم الفاعل الذي يرجحه به على غيره سواء كان العلم بذلك ضروريا أم كسبياً بديهيا أم نظريا. هذا هو المعنى الذي نسميه اختيارا فان سماه غيرنا اضطرارا أو اسما آخر فانما يكون الخلاف في التسمية ولا مشاحة في الاصطلاح . وهذه المسألة التي تعد من مشكلات عقيدة

القدر ان صح استلزامها الجبر ليست في الحقيقة من عقيدة القدر في شيء ، ولكنها مما يرد في مباحث العلم والارادة . وقد حللناها كيفما كانت

(١٠ـ حكمة الجزاء على الاعمال) يبقى من المشكلات في هذا الباب مسألة أخرى عدوها من لوازم عقيدة القدر وهي كيف يجازي الله الناس على أعمال لا مندوحة لهم عنها لأنهم غير مختارين فيها ؟ ويجيب عنها جوابا بغير إثبات الاختيار ومنع الجبر فنقول ان الجزاء على الاعمال هو أثر طبيعي لها في الدنيا والآخرة وذلك انه ما فرضت علينا طاعة إلا وهي نافعة لنا في تهذيب نفوسنا وسلامة أبداننا وحفظ حقوقنا وغير ذلك وما حرم علينا شيء إلا لأنه ضار بنا في أشخاصنا أو في نظامنا الاجتماعي ولذلك قالوا ان التكليف يقوم بحفظ الكليات الخمس: الدين والعقل والعرض والشخص والمال . ثم ان كل عمل يعمله الانسان يكون له أثر في نفسه إما في تزكيتها فتفلح وتسعد وإما في تدسيتها وإفسادها فتخيب وتشقى (٩١ : ٩ قد أفلح من زكاها ١٠ وقد خاب من دساها) ويظهر أثر ذلك تاما كاملا في الآخرة ولذلك قال (٣ : ١٨٥ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) (تقدم تفسيرها في هذا الجزء) وقد بينا كون الجزاء أثرا لازما للعمل بحسب سنة الله تعالى في مواضع كثيرة من التفسير وغير التفسير فلا نطيل فيه هنا فالبحث فيه ينبغي أن يكون من البحث في نظام العالم وسنن الكون والاجتماع

(١١ ـ الخلاصة) خلاصة ما تقدم وهو القول الفصل ان الاسلام أمر الناس بالعلم والعمل لما يجدون في انفسهم من القدرة والاختيار وعلمهم ان الله خلق كل شيء بقدر ونظام وانه لا يعجزه شيء فاذا قضى امرا واراده يقع بلا تخلف ولا بطء، وان له سننا ونواميس ينبغي لهم ان يعرفوها وان لأعمالهم جزاء هو أثر طبيعي لها يكون بعضه في الدنيا وتمامه في الآخرة . وقد انتفع المسلمون بهذا ما فقهوه ولم تضرهم الا فلسفتهم المخالفة له

هذا ما وسعه المقام لبيان الحق في هذه العقيدة وما يتعلق بها ويضاف اليها وقد سلكنا سبيل الايجاز في كل مسألة من المسائل العشر لما سبق لنا من البحث فيها من قبل ولان باب الفتاوى لا يسع أكثر من ذلك فان اشتبه السائل أو غيره في شيء منها فليسأل عنه وليختصر في السؤال بقدر الإمكان

باب المراسلة والمناظرة

﴿ ردّ الشبهات على النسخ وكون السنة من الدين ـ لليافعي ﴾

٢

(الوجه الخامس) ان نقول ان عدم معرفة حكمة النسخ لا تضر من جهلها بعد أن يعرف صحة رسالة الرسول (ص) وعدم علمنا بالشيء لا ينفيه وذلك امر ضروري لكل أحد — ولنكتف في الجواب الاجمالي عن شبه غير المسلمين بما ذكرناه خوف الاطالة الذي لا تحمله المجلات في نشراتها والا فالمقام بما له وعليه يجمل فيه الإسهاب والتنقيب عن النكات والاسباب على ان ما ذكرناه هو اللباب وبه فصل الخطاب لمن يريد الصواب .

اما اذا كان المعترضون من غير المسلمين متعصبون لا يريدون الحق ولا يقصدونه فسواء عليك أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون — ومثل هؤلاء اناس كثيرون في هذا الزمان فرحوا وبطروا بما عندهم من العلوم المادية والسياسية والاجتماعية وهؤلاء هم الذين كفروا بالنعم وقابلوا الاحسان بالاساءة اذ لم يدركوا ما ادركوه الا من الانبياء عليهم السلام فما وافقوا فيه ما جاء به الانبياء عليهم السلام يراه العقلاء صحيحا وما خالفوا فيه الانبياء فهو النقص والخطأ حتى انهم انفسهم صاروا يعرفون ما في هذا الاخير من الويلات والبليات شيئا فشيئا . هؤلاء المغرورون تارات يستعجلون فيتبعهم قاصرو الهمم وضعفاء العقول او اسراء الشهوات فيظنون ان اوضاعهم تغني عن الشرائع الإلهية مع استبعادهم لصحة النبوّة والرسالة فهم لا يفرقون بين الانسان والحيوان الا بالصورة الذي هي في زعمهم انتخاب الطبيعة في ترقيها غير المقصود بعلم عليم وقدرة قادر وارادة مريد ويقولون ما في الانسان وغيره من الاسرار الغرائب والغايات والعجائب انما وجدت فترتب عليها بعد وجودها ما يليق بها بالاستعداد

الطبيعي و بالقصد الثاني من المنفعل بداعي الضرورة ودام ذلك بناموس الارث الى غير ذلك من خرافاتهم الذي تخجل ناقلها وحاكيها فضلا عن ان يعتقد صحتها من يوسم بعقل وهم لم يحملهم على ذلك الا زهوهم ببعض العلوم التي ذكرناها مع جهلهم بحقائق تلك المعلومات كما اعترف بذلك كبارهم حيث قالوا انما عرفنا بعض آثار المادة و بعضها لم يزل محجوبا مستورا عنا وعليه فهم لا يمتازون عن العوام الا بمزيد معرفة في الآثار فقط اما الكنه والحقيقة فلم يدركوها البتة

نحن لا ننكر النشوء الطبيعي مطلقا وانما ننكر نشوءا مخصوصا وننكر استقلال الطبيعة والمادة بهذا النشوء الذي ليس هو ذاته لها وفاقد الشيء لا يعطيه على ان هذا النشوء الداروني يقابله الانحطاط و بمجاراتهم على مذهبهم ليس اعتناء الطبيعة باحدهما باولى من الآخر الا بمرجح وابطل كل باطل وافسد كل فاسد انكار ان يكون ما في الموجودات كالانسان وغيره من الاسرار والغايات غيرمقصودة بالقصد الاول لغاياتها لان تقولهم ناطقة بأن القابل الطبيعي لايجوز ان يتخلف عن وجود ماهوقابل له لان القابل لا يكون قابلا طبعا الا اذا اندفعت الطبيعة في مجراها التكوني اليه لتوءدي وظيفتها الطبيعية التي لا تمكن طبعا الا منه و به كالبارود المسدود عليه مثلا في صخرة ونحوها اذا ذعر بالنار مثلا يفجر الصخرة بشق او خرق . ذلك الخرق والشق هو مجرى البارود المتفرقع ونتيجة تفرقه الطبيعي ولا يجوز عقلا ان يتقدم او يتأخر ذلك الخرق أوالشق عن سببه الطبيعي

فهل آلة الذكورة والأنوثه ونحوها مما اودع في الانسان كانت نتيجة مجري طبيعي حين تكون في الرحم وهل كان هذا الجري مقارنا للتكون غير متقدم ولا متأخر عنه بان تكون الطبيعة قد أخذت اعمالا طبيعية من تلك الاعضاء في الرحم على نحو ما تتأدى بها الاعمال بعد وجود الانسان؟ ان كان عندهم علم بهذا فليخرجوه لنا والا فقولهم بين البطلان بنفسه على ما تقتضيه قواعدهم المقررة عندهم — فلايبقى الا ان يقولوا مثلنا ان هذه الاعضاء تكونت بقدرة عالم الغايات مقصودة بالقصد الاول حين التكون وحينئذ لا يلزم محذور . على ان ما يستدلون به على المذهب الداروني انما هي احتمالات ملفقة وخرص بعيد لايتعين بها دلالة على خصوص

ما ذهبوا اليه كما أقر بذلك كبيرهم وهي مع ذلك لو أخذت بالمأخذ الصحيح لا تنافي ما جاء به المرسلون عليهم السلام في بيان بدء الخلق بل تكون موءيدة له

وليس هذا محل الرد عليهم وانما المقصود تعريف الناظرين والقراء ان مثل هوءلاء قد يوردون الشبهات على الأديان ولا يريدون الرجوع عنها إذا وقفوا على الجواب الصواب وانما قصدهم التشكيك بما يناسب طريق أهل الأديان فان لم يفلحوا في هذا الافتراء زوروا غيره لما عرفت انه ليس في معتقداتهم إلا استحالة الرسالة والنبوات (١) ونحن نجيب ان شاء الله عن كل مايذكرون لئلا يظفروا بأحد من المسلمين فتروج عليه شبهاتهم فيخسر الدنيا والآخرة

ولنعد إلى المقصود فنقول ما قدمناه هو الجواب الاجمالي مع غاية الاختصار وهو كاف واف في رد هذه الشبهات إذ لم ترد على محل معين في واقعة معينة وما كان منها كذلك فإليك جوابه والله المستعان وعليه التكلان

اما قولهم إن محمدا (ص) قد بلغ من الدهاء الى آخره . فجوابهم الذي نقوله ان هذا اختلاق بحت وحبيبنا رسول الله (ص) سيرته مزبورة ونعوته وأخلاقه وشمائله معروفة مشهورة فهل رأى الراءون أو سمع السامعون ان أحدا ممن عرفه حتى ولو كان من أعدائه قد وسمه بهذه السمة أو وصفه بمدلول هذه الكلمة ؟ لا وانما المعروف عن أعدائه قبحهم الله وخذلهم اطلاقهم عليه ضد ذلك فقالوا انه أُذُن — ومنهم من قال مجنون ومنهم من قال شاعر واذا رأوا آية من آيات صدقه وهي المعجزة قالوا ساحر نتربص به ريب المنون — وهكذا الاعداء اذا عجزوا عن المعارضة وأرادوا الاصرار والتعصب لمذاهبهم بعد قيام الحجة عليهم . والموءمنون الذين صاحبوه وعاشروه وعرفوه قد عرفوا صدقه وكماله وانه رحمة للعالمين وعلى خلق عظيم قد بلغ الرسالة حين كان وحيدا عن الانصار والاعوان ولم تأخذه في الله لومة

(١) ان القائلين برأي دارون لا يقولون باستحالة الرسالة كما قال ولا كلهم يدعي أن النبي (ص) محتال ، بل يقول المحققون العارفون بسيرته منهم انه كان صادقا معتقدا لما يقول وليس هذا المقال بالذي يتسع لبيان آرائهم في ذلك

لاثم ولو خالف ماجاء به الثقلان فقول هؤلاء الذين هم من الناس كسقط المتاع انه اذا أتاهم بحكم واتضح له بعد التجربة انه لم يرض الناس عدل عنه والتجأ الى حيلته المشهورة وهي دعوى النسخ في الاحكام الى آخره — نقول في جوابه سبحانك هذا بهتان عظيم والواقع يكذبهم فانه (ص) لم يراع ولم يمالىء فيما أمره الله بتبليغه أحدا من الناس كائنا من كان ولم يبال بمن لم يرض بذلك وقد آذوه في ذلك أشد الإيذا فهل احتال في التخلص من إيذائهم له بحيلة ولو مرة واحدة ؟ لا والذي أرسله بالحق بل كان يفعل كلما أمره الله به ولا يبالي بمانع فلما نزلت عليه (فاصدع بما تؤمر) جاهرهم بالعداوة حتى حقر آلهتهم في المجامع والمحافل علانية وكان بأبي هو وامي اذ ذاك وحيدا عن الاعوان فصبر على مقاساة المصائب ورموه بالحجارة حتى خضبت بالدماء نعلاه (ص) فهل يصح ان يقال انه كان يعدل عن احكام دينه اذا رأى ان ذلك لا يرضي الناس وهو بالحالة التي عرفت وهو هو (ص) كما انه لا يمالىء الكفار ولا يصانعهم في دين الله كذلك هو في ذلك مع أصحابه لا يمالئهم ولا يصانعهم في دين الله وقد دل على ذلك وقائع كثيرة صحيحة فمنها صلح الحديبية فانه امضاه بعزم لا يعتريه تردد وقد استاء لذلك أصحابه وكرهوا ذلك غاية الكراهة ولم ينقل انهم استاؤا بشيء كاستيائهم بذلك حتى ان بعضهم رض قال له « ألست رسول الله ألسنا على الحق » فلم يبال باستيائهم في مخالفة ما أمره الله به — هذا ونحوه أعظم برهان وأكبر دافع ومكذب لمثل هذه الشبهة التي هي مخالفة لما هو الواقع في نفس الأمر — فلعمر الحق ان ايراد مثل هذه الشبهات لأدل دليل على تعصب هؤلاء المعترضين وانهم لم يعدلوا الى ايراد مثل هذه الشبهات الواهية الضعيفة الا حيث لم يجدوا غيرها والمسلمون لا يعتبرونها الا دليلا على سخف عقول قائليها وانهم معاندون للحق والحقيقة وبدلا عن تكون مثل هذه الايرادات شبهات انما تكون بمنزلة الحجج الدالة على صحة رسالة سيدنا ونبينا محمد (ص) فانه ليس بعد ظهور ضلال الخصم الا ثبوت الحق لدينا

ونقول لهؤلاء انكم لا تستطيعون ان تدلونا على حكم واحد جاء به الاسلام لا منفعة فيه أو انه مضرة لا منسوخا ولا محكما — يالله العجب أيصح ان يقال ذلك

في دين لم يعرف الحق من عرفه الا من تعليماته ، ولم تبزغ أنوار المعارف الا من مشكاته ، ولم تقم موازين العدل الا بتلاوة آياته ، فدين الاسلام لم ينسخ منه شيء لاجل مضرة أو عدم مصلحة وانما يكون ذلك فيه لأجل زيادة في الخير تارة وتسهيل على الأمة أخرى ويكون تارة تنشيطا لها وتارة لتوحيد جامعتها وتارة لتقويتها في اظهار الحق على الباطل ودمغه ودمغ انصاره مع مراعاة ما يليق ويناسب الجمهور الا كبر كلما كثر عدد الافراد ومع ملاحظة أحوال الزمان وقوة الأعداء وكثرتهم وما يلزم ان يكونوا عليه بإزاء ذلك معه وبعده فالعدد القليل الخائفون من المسلمين قد تناسب حالتهم احكام هي أعظم كل خير بالنسبة اليهم أو لا يمكنهم الا الإتيان بها فقط فالعدل ان تكون التكاليف والتعاليم كذلك بالنسبة اليهم والى ما احتف بهم من الاحوال

ان التشريع والحالة هذه يكون بالسنة كما يكون بالقرآن لا ينكر ذلك الا مكابر ولذلك كان النسخ فيهما سيَّين فاذا كثر المسلمون وكانت قوة الايمان والتصديق فيهم متناسبة متقاربة وضعف بعض ما يحذرون فلا يشك عاقل في حسن ان يشرع لهم احكام تناسب ذلك مع مراعاة المصلحة الراجحة وسواء في ذلك القرآن والسنة — فاذا صلحوا لمقاومة المهاجم أيا ما كان وهم بتلك الصفات التي تكاد ان تكون متساوية فلا يبعد ان يكلفوا ما يرونه سهلا في اعتقادهم والواقع ومثال الاول كون الصلاة أول ما فرضت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشية فانه يمكن اخفاؤها إذ ذاك مع ضعفهم وقوة العدو . والمثال الثاني إيجاب الخمس حين وقع بعض اختلاف بين الكفار حيث وجد فيهم من يؤمن المسلمين وكف بعضهم عن إيذاء المسلمين ومن بقي من الكفار حريصا على الايقاع بهم فانما كان يكون منه السب والضرب بالكف والعصي ونحو ذلك والمسلمون قد زاد عددهم بعض الزيادة فكانوا قادرين على المدافعة في بعض الاحيان ولم يؤمروا بالهجرة ولا القتال فلما أمروا بالهجرة إلى طيبة (المدينة المنورة) حين اشتد عليهم أذى الكفار مرة أخرى وظهر لهم المأوى ونصرهم الاكفاء وكان المسلمون تتشابه صفاتهم في صلابة الدين والنخوة والقوة البدنية والدينية — فلا غرو ان يوجب الله عليهم قتال المبطلين

الظالمين وهذا القتال هو الذي سماه الاسلام والمسلمون بالجهاد وهو قتال أهل الاصلاح لاهل الفساد الذي لاينكره عقل عاقل لان غايته ان تكون كلمة الله هي العليا

والنصارى أنكروا على المسلمين هذا القتال — وليتهم عملوا بما قالوا حتى لا يكونوا من الذين يقولون مالا يفعلون

فرض الجهاد على المسلمين وكان الواجب عليهم اذ ذاك وهم كما عرفت ان لايفروا من عشرة اضعافهم من المبطلين لأن الاستشهاد ونحوه لا تخور به عزائمهم وهم بالحالة التي عرفت ففي هذه الصورة وهي المثال الثالث لاضرر ولا نقص في هذا الحكم بل لو بقي ابد الآبدين فليس فيه نقص ولاحيف بالنسبة الى كثير من المسلمين . وانما اذا تبدلت الحالة وصار أنصار الحق كثيرين أو كان فيهم من يضعف اعتقاده أو يحرص على حياته أو نحو ذلك فلاشك ان زيادة الخير تكون في رفع صفة الحكم كالوجوب واللزوم و يعوض عنه حكم يناسب صاحب الحق و يميزه عن صاحب الضلال وهو لزوم ان لايهرب المستعد لنصرة الحق عن الاثنين من انصار الباطل لانه ان ضعف مؤيد الحق المستعد عن ذلك تلزم مساواة أثر الحق لأثر الباطل وهذ لايصح ولا يحسن فالحكم المنسوخ في هذا المثال انما هو الوجوب اللازم لا الاباحة أو الندب لمن يطيق ذلك

فبهذه الامثلة يظهر للمنصف حسن النسخ سواء كان في القرآن أم في السنة لان القرآن من حين البعثة لم يزل ينزل بالاحكام ولم يكن زمن مخصوص بالتشريع بالسنة وزمن مخصوص بالتشريع بالقرآن بل القرآن لم يزل ينزل على سيدنا محمد رسول الله (ص) بما يناسب حال المعينين من معتنقيه ولم يزالوا يزيدون والاحكام كذلك مابين احكام مبتدأة عند وجود عللها وأسبابها وناسخة من خير الى ماهو اكثر خيرا منه كان ذلك يكون الى ان مكن الله لدينه ودخل الناس فيه أفواجا وصارت الامة بحيث يصح ان تكون مثالا لكافة الناس فلما آن أوان انقطاع الوحي بتحول رسوله (ص) الى الدار الباقية اكمل الله شرعه بما يصح ان يكون دينا لاهل الأرض اجمعين الى يوم الدين

فلمثل هذه الحكم كان النسخ — والمسلمون يعرفونها فكيف يقال انهم لم يستطيعوا

ان يعللوا ذلك بعلل مقبولة — وهم أيضا يعلمون ان كل ذلك كان يكون لالاعتراض معترض ولا لانتقاد منتقد. علموا ذلك بالعلم الضروري من سيرة الشارع (ص) ومن نشوء الاسلام ومن زعم غير ذلك فليعين من هو المعترض والمنتقد وعلى أي محل اعترض وانتقد وما هو الاعتراض وأين السند المقبول والا فالمسلمون لاينظرون الى هذه الايرادات والشبهات الا بعين الاستحقار ويالله العجب هل وجد في كفار العرب من قريش أو غيرهم من عارض شيئا من القرآن معارضة صحيحة ؟ وهل ظفروا بشيء مما قال هؤلاء ان في انشائه شيئا لم يرق له بعد اذاعته؟ ولم لم يعارضوا ماهذا حاله؟ أليس لو وقع شيء من ذلك لتوفرت دواعي الكفار والمسلمين الى نقله اما المسلمون فلابد ان يوجد عندهم ولو لرده وتوهينه كما نقلوا عن مسيلمة الكذاب وغيره وأما الكفار فهو غاية بغيتهم ومدار حجتهم فلو وجد فلايعقل أن يهملوه فعدم النقل لما هذا حاله أدل دليل على العدم

فلا يبقى للخصوم الا ان يقولوا ان هذه الشبهات احتمالات مفروضة وقد قدمنا ان فرض مايخالف الواقع في مثل هذه الاشياء لا يصح عند من له مسكة من عقل

وايضا تجويز مثل هذا الاحتمال الظاهر البطلان يلزمه عدم جواز النسخ الذي عرفت حسنه عقلا وفطرة فلو جاز اتهام من ثبتت نبوته ورسالته بالمعجزات والحجج البينات بهذه التهمة لوجب ان لا يكون للبشر الا شريعة اول نبي ارسله الله فقط ولما جاز ان يرسل الله رسولا بعد رسول بشريعة تنسخ مالا يناسب احوال الامم المتأخرة وقد عرفت أن هذا يؤول الى الظلم المحال على الله وما استلزم المحال فهو مثله محال فينتج ان اتهام نبينا (ص) بعد ثبوت نبوته بتهمة انه ما اجاز النسخ في دينه الا حيلة يتوصل بها الى اصلاح النقص والعيب الذي يمكن أن يرى في دينه هو تهمة كاذبة كما قدمنا ذلك وان فرضها محال

فوجب ان يكون نسخ اللفظ وإنساؤه في القرآن كنسخ الحكم لمصالح وحكم ونحن وان قصرنا عن ادراكها كلها لاسباب كثيرة لكن نعلم أن الكتب الالاهية وبالخصوص القرآن هي لنا اصل تعاليم الدين والنظام الاجتماعي واستعداد الناس متفاوت في التعليم والتعلم ومن لازم ذلك ان تكون مواد التعليم أي كتبه الدرسية

كذلك فلهذه الحكمة وحكم أخرى كثيرة كان القرآن الكريم سورا طوالا وقصارا ومتوسطة وقد اشرنا الى ذلك في رسالتنا السابقة فالنسخ والإنساء اللفظي هو معلل بحكم وغايات هي من جنس ما يعلل به تعدد السور ومن جنس ما يعلل به البلغاء ما اختصروه من الكتب البليغة لطوله وقد تكون هناك علل واسباب أخرى وقد صح ان بعض آيات القرآن تتفاوت في الفضل وثواب التلاوة ولا بدع في ذلك فان فضيلة الكلام تابعة لفضل معناه وكثرة فوائد مرماه — فاذا انزل الله آية هي نص في واقعة مخصوصة وهي انسب بافهام المخاطبين المعينين لاي سبب ثم بعد رسوخهم في الفهم وقبولهم لزيادة التلقي ونحوه بحيث يكونوا قد تزحزحوا من طور الى طور لا يقبح بل يحسن ان يأتي الله بآية بدلا عنها جامعة لما دلت عليه الاولى وزيادة عليه — اذ لو بقيت الأولى الدالة على المعنى المخصوص فقط لجاز أن تكون آيات القرآن إنما تدل على معاني جزئية ومن لازم ذلك الطول المفرط الذي يمكن ان يقال انه لا يلائم التعاليم وللزم ايضا جواز تعرية القرآن من جوامع الكلم حين استعداد الناس للفهم والقبول

وبما ذكرناه يظهر جليا انه لا فرق يعتد به بين النسخ في الاحكام والنسخ والانساء في الالفاظ لأن ناموس الترقي جار في الامرين بلا عيب ولا نقص ولكل حال ما يناسبه من الافعال والاقوال (*

فيا حضرة اخونا الدكتور لايهولنك ما يهذي به المبطلون المتعصبون فانهم على

---

*) المنار نعجل فنقول ان صديقنا الاستاذ اليافعي لم يأت بحكمة ظاهرة لنسخ او إنساء عبارة القرآن ولفظه تنطبق على ما نقل من ذلك لاسيما ما كان معناه محكما ولا يظهر معنى الترقي والاختصار في كلام الخالق الذي هو منتهى الكمال ولو اختصر منه شيء لحذف قصة موسى من بعض السور . وما يأتي قريبا في بيان حكمة نسخ ما روي من آية الرجم غير ظاهر لاسيما مع بقاء آية الجلد على اطلاقها . وأذكره بذلك من الآن لعله يقدح زناد فكره ويراجع ذاكرته فيما قرأه لعله يجد لذلك حكمة ظاهرة فان معظم الاشكال عند الدكتور ومثله كثير من المسلمين وغيرهم محصور في هذا وهو يقول بأصل النسخ وحكمته بل كتب في ذلك أيضا

غير محجة وليس بأيديهم حجة — ونحن قد اضربنا عن كثير من الحجج والمسوغات هنا واكتفينا بما كتبناه خوف الاطالة ولكن فتحنا الباب لذوي الالباب وفيه الكفاية وفصل الخطاب لمن يريد الصواب

اما قول المشككين ان في القرآن من المسائل الخاصة بمحمد (ص) واهل بيته ولا فائدة فيها لأحد سواه (وقد كذبوا بل فيهما من الفوائد ما لا يقدر قدرها إلا من عرفها وقد علم ذلك العالمون من المسلمين واستفادوا منها وما علينا إذا لم تفهم البقر *) — ماهو أولى بالنسخ قالوا كالآيات الكثيرة من سورة الاحزاب والتحريم وكبعض آيات سورة الحجرات والمجادلة فاذا صح عن المسلمين نسخ ألفاظ الآيات التي أدت وظيفتها وانقضى زمنها فلماذا لم تنسخ ألفاظ أمثال هذه الآيات الواردة في حالات خاصة وفي وقائع خاصة وقد أدت وظيفتها وانقضى زمنها — والجواب ان نقول ان هذه الآيات هي محكمة وفيها فوائد تتعلق بالأمة أيضا ونحن لم نقل ولا قال أحد غيرنا ان الخصوص والمخصوص سبب للنسخ بل الأمر عكس ذلك ونقيضه والمسائل والآيات الخاصة بمحمد (ص) وأهل بيته هي أجدر بان لا يكون ولا يقع فيها النسخ لأن اتحاد من تتعلق به الاحكام وكذلك تعين أهل البيت الواحد لذلك بعيد عن وقوع التفاوت واختلاف الحالات الذي هي المسوغ الأعظم للنسخ وهذا بخلاف ما يتعلق بالأمة الكثيرة الافراد المختلفة الطبائع باختلاف الزمان والبلاد — فظهر ان النسخ فيما ذكروا انه أولى به باطل وان القياس الصحيح لا يجوز النسخ في ذلك وكذلك وقع

أما قولهم انها قد أدت وظيفتها وانقضى زمنها فجوابه انها حين إمكان النسخ والتبديل لم تؤد وظيفتها ولم ينقض زمنها وأما بعد وفاة النبي (ص) فقد فات وقت النسخ والمسلمون لا يجوزون الزيادة ولا التنقيص ولا يحرفون ولا يبدلون في كتب الله وشرعه بعد ثبوتها — وانما يفعل ذلك من أبعده الله وغضب عليه ولعنه على ألسنة أنبيائه وهذا الاعتراض والايراد دليل على ان هؤلاء يقولون ما لا يفهمون اتباعا لما تهواه انفسهم ومن اضل ممن يتبع الهوى ليصد عن الحق

اما قولهم وما الحكمة في نسخ ألفاظ آية الرجم مع بقاء حكمها في شريعة المسلمين — فجوابه ان نقول ان مسئلة الرجم للزاني المحصن قد أنزلها الله في كتابه القرآن وهي ثابتة في توراة موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام فكان نزولها لحكمة توافق الكتابين وليعرف المسلمون هذا الحكم العظيم ويشتركوا في تلقيه كثيره من القرآن وفرق بين تلقيهم السنة والحديث وتلقيهم للقرآن فان القرآن يتلى تعبدا في الصلاة وغيرها اجتماعا وانفرادا والله جلَّ شأنه شرع هذا الحكم بالعدل وفق الحكمة فان هذه الفاحشة مفسدة للأنام وأقوى ذرائع الخصام مهلكة للاموال وللبلدان، ومنهكة للأبدان ومبيدة لنسل الانسان في أكثر الاحيان، واذا كان حدها الاعدام، وأقسى الاحكام، ولما كانت المضرة بما ذكر قد تتفاوت رفع لفظ آيتها حين لا يخاف خفاء الحكم إذا دعت الحاجة والضرورة اليه — وما رفعه الا تسهيل ويسر ورحمة وستر — ولئلا يظن المسلمون انَّ الثواب في التنقيب والتطلع على الناس فيتسابقوا الى الشهادة بهذه الجريمة قياسا على فضل تلاوة آيتها فرفع الله لفظ هذه الآية لهذه الحكمة وانما خصها دون ما سواها من آيات الحدود لانها أشد الحدود وأغلظها ولان قباحة الزناء من المحصن فوق كل قباحة ففي رفع هذه الآية اشارة للمسلمين على ترك التجسس للشهادة كما قال تعالى « ولا تجسسوا » واشارة إلى ترك الاقرار بذلك والعدول إلى التوبة — ولذلك اشترط في الشهادة بالزناء ما لم يشترط في غيره حتى عاقب الشاهد الواحد والاثنين والثلاثة بعقوبة حد القذف واشترط في ذلك المعاينة التي لا شبهة فيها والله يحب الستر على عباده — فقال « ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » وقال (ص) « تعافوا الحدود بينكم فما بلغني من حد فقد وجب » فاذا لم ترد شهود في الحدود فلا يبقى الا اقرار فاعلها بها ورضاه باقامة الحد على نفسه بان لم يتب ويرجع عن طلب اقامة الحد على نفسه فلو أقر بذلك وطلب اقامته ثم رجع وتاب جاز للحاكم اعفاءه من اقامة الحد أو اتمامه بعد الشروع فيه وهذا هو ما اختاره شيخنا ابن تيمية رحمه الله وهو الحق عندنا الذي دلت عليه السنة الصحيحة عن رسول الله (ص) وذلك فيما روى بريدة (رض) قال جاء ماعز

بن مالك إلى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله طهرني فقال « ويحك ارجع فاستغفر الله وتب اليه » قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يارسول الله طهرني فقال النبي (ص) مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله (ص) « فيم أطهرك » قال من الزنا فقال رسول الله أبك جنون؟ فأخبر أنه ليس به جنون فقال «أشرب خمرا؟» فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر فقال (ص) أزنيت قال نعم . الحديث وفيه جاءت امرأة من غامد من الازد فقالت طهرني فقال « ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي اليه » الحديث رواه مسلم وفيه انها ابت الا إقامة الحد على نفسها وكانت حبلى فأبى (ص) ان يقيم عليها الحد حتى تضع مافي بطنها وتكمل رضاعته و بعد ذلك جاءت وأقام عليها حد الرجم وعن أبي هريرة عند الترمذي وابن ماجه ان ماعزا (رض) فرَّ حين وجد مس الحجارة ومس الموت فقال رسول الله (ص) « هلاَّ تركتموه ؟» الحديث وفي رواية « هلاَّ تركتموه لعله أن يتوب فيتوب الله عليه » وهذا نص في ان المقر بالزناء إذا استعفى عن الحد جاز للامام ان يسقطه ولذا وذاك ولأن الحدود تدرأ بالشبهات ولا تقام في أرض العدو رفع لفظ آية الرجم وهي حكمة بالغة وقد دل عليها الكتاب والسنة و بقيت آية الرجم ثابتة الحكم بما ذكرناه و بالسنة الصريحة مقيدا بقيوده كما عرفت وهي مع ذلك كله موجودة في القرآن ظاهرة للعلماء خفية عن العوام قال ابن عباس (رض) الرجم في الكتاب لا يغوص عليه الا غوَّاص وهو قوله تعالى « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » الآية وقيل انها موجودة في غير ذلك أيضا — فظهر بذلك الحكمة في رفع آية الرجم مع ان بدلها في القرآن موجود وما ذكرنا من التعليل لا ينافي ماعلل به بعضهم — قلت وقد رأيت السيوطي (رح) قد أشار بالاختصار إلى ما ذكرته — وصرح بان القرآن الموجود بين أيدينا الآن في المصحف فيه البدل عن كل ما رفع من هذا النوع وغيره قلت والأمر كذلك

وفوق ذلك كله نقول لهؤلاء المعترضين زعمتم ان نبينا (ص) الصادق الامين لم يتم له ما تم الا بعد اصلاح العيب والنقص الذي يراه او يتوقعه في شرعه وكتابه الذي انزله الله عليه وقد كذبتم وكذبكم الواقع المعروف من سيرته كما قدمنا

ذلك وحالة التشريع وكيفية نزول الوحي عليه (ص) يعلم بها فساد قولكم — أليس انه (ص) كان ينزل الله عليه ما شاء ان ينزل من الاحكام والقرآن حين وقوع الحاجة الى نزوله وبمحضر من اصحابه غالبا وقد تنزل عليه (ص) عدة آيات دفعة واحدة والقصة الواحدة كذلك والسورة الكاملة ايضا في بعض الاحيان وبعض ذلك يكون حين وقوع السؤال ووجود السبب الموجب ارتجالا — ومع ذلك كله لم يكن (ص) يعرف الكتابة بل كان يحفظ ذلك ويحفظه اصحابه (ص) ويتلوه عليهم ثم يأمر أحد الكتاب أن يكتب ذلك في سورته من غير أن يراجع المكتوب الاول منها ويتأمل المناسبة والمناسقة وكان يشتهر بين الناس آيات كتاب الله ويعلمه الخاص والعام والعدو والصديق فهلاّ امكن اعداءه ان يأخذوا عليه شيئاً مما ضعف انشاؤه في كتابه وردوه واتوا بمثله ولو بعد حين ؟

ان من يراجع مكتوباته ويتأمل في تأسيس احكامه ليصلح ما فيها من العيب والنقص لا بد وان يكون كاتبا وقارئا مطلعا على كتب غيره ليراجع مافيها من الآراء فيرجح ويضعف حينئذ او يترقى بفكره الى احسن مما فيها لكن لا يمكنه ذلك الترقي الطبيعي في الأفكار الا بعد اطلاعه على آراء من تقدمه والا لبطلت سلسلة الترقي الذي يسلمها اكثر الناس واذا كان لا يمكن الرد والقدح والاصلاح والتكميل والتنقيح الا بهذه الاسباب ونحوها غالبا فان حصول علوم جميع اهل الارض لاسيما علوم الامم المضمحلة والبائدة والمتباعدة ولاسيما الخفية منها والمهجورة وبالخصوص في ذلك الزمن الذي بعث فيه نبينا محمد (ص) — ان حصول ذلك كله لرجل واحد لا سيما اذا كان من العرب الذين قد عرفوا باعتزالهم علوم سائر الأمم لمن المحال الذي لا تسلم به عقول العقلاء فما بالك باليتيم الأمي (ص) الذي قد عرف منشأه ولم يزل اعداؤه يتربصون به الدائر حتى وضعوا عليه العيون والرقباء هل يمكن من هذا حاله المراجعة والاصلاح لما هو بمثابة تهذيب علوم أهل الارض وتكميل أخلاقهم اجمعين ؟ فالعقول المتعصبين أين يذهب بها الهوى

قلنا ذلك لأنا رأينا ما لم نكن نحسب عاقلا يقوله : رأينا من على شاكلة هؤلاء المعترضين حين يطعنون في الاسلام يجمعون ماقدروا عليه من اقوال ومذاهب الأمم

الغابرة ثم يقابلون بينها وبين شرائع الاسلام وما فيه من القصص وغيرها ثم يقولون ان هذا أخذه محمد (ص) عن أولئك ثم يقولون قد رددنا الفرع على أصله وما لم يقدروا أن يجدوا له نظيرا يقولون سيكشف المستقبل حاله ويقولون ان محمداً (ص) قد قد اطلع على ذلك وحفظه وهذبه وأصلح فيه حتى ساقه في قوالب كلامه الفصيح البليغ الذي اعجز العرب!! قلت أي واعجزهم ايضا ان يعرفوا جميع مصادره ومآخذه. هؤلاء يريدون أن يطعنوا في صحة الاسلام وما درى المساكين ان ذلك ينقلب عليهم ويصير من اعظم الحجج المؤيدات لصحة دين الاسلام — لانه اذا بطل قولهم وصح ان محمداً (ص) لم يكن قبل نزول الوحي يعرف شيئاً مما ذكروه او ان ذلك لا يمكن حصوله لبشر بدون وسائله وان تلك الوسائل لا يمكن تيسرها في ذلك الزمان والمكان لا سيما لمن كان مثل محمد (ص) — ثبت باليقين كذبهم وصحة دين الاسلام وانه وحي الله وامره والله اعلم

انه مامن علم يوجد عند البشر سابقين ومتأخرين الا وقد نبه على بعض مسائله في معرض الاعتبار والاتعاظ ونحوه او الاستدلال وما شابهه يسوق ذلك سوقا يعرف من تأمله وحققه انه كلام مختبر عالم بدقائقه وغوامضه ولذلك تراه يختار من كل شيء صحيحه ونقيه لا يلتفت الى سواه وان اجمع أهل ذلك العصر على سواه

ولم يكتف بذلك حتى اخبرنا بكثير من اخبار الايام الآتية التي قد وقع ووجد مصداق كثير منها عيانا وقد ذكر من ذلك كثيرا مما لأمته به تعلق وهو يذكر ذلك في معرض التنبيه كما انه يذكر من اخبار الايام الماضية ما يذكر كذلك فياهؤلاء هل يمكن المحصل بدون الوحي ان يطلع على ذلك كله مع اشتغاله بتلك المشاغب وقيامه بتلك الوظائف لا سيما اذا كان يتيما اميا في بلاد قاصية عن الامم المتمدنة وبين امة امية ؟ فان جوزتم ذلك فهل يمكنكم ان تأتوا بنظيره في كل ما حكيناه عنه (ص) والحالة ما ذكرنا لان ما يجري على النواميس الطبيعية لا بد وان يتكرر بل لا بد وان يترقى كما هي قاعدة النشوء الطبيعي واذا لم تفعلوا فانتم مفترون مكابرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

قلت وبما ذكرناه يبطل قولهم ولوقوع وصحة مادلت عليه الاحاديث تبطل

دعوى أخينا الفاضل الدكتور ان أحاديث الآحاد كلها لاتفيد غير الظن مطلقا

* * *

ولنعد الى ابطال الشبهات المذكورة على النسخ زيادة على ما ذكرناه سابقا فنقول ان كان اعتراضكم هذا صحيحا وانه لم يتم له (ص) ماتم الا بما ذكرتم فلم لم يقم في وجهه أعداؤه الى يومنا هذا فيصلحوا أو يكملوا أو ينقضوا و يبرموا و يتعاضدوا ويتعاونوا فصحاؤهم وخطباؤهم وشعراؤهم ليأتوا بمثل قرآنه بزعمكم أو يأتوا بسورة من مثله؟ لم يفعلوا وهو يناديهم هل من مبارز هل من معارض؟ و يتلو عليهم في كتابه «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» ويتلو فيه «فأتوا بسورة من مثله — أو — قل فأتوا بعشر سور مثله» لو كان الاتيان بالقرآن أو بمثله مما يمكن البشر الواحد ولو بالاصلاح والتمهل كما تقولون فهلا قدر واستطاع ان يجيء بمثل سورة قصيرة منه جميع العرب العرباء والمستعربين والمتعربين جمعا وانفرادا ولو بعد الاصلاح والتكميل المزعوم؟ وحيث استحال ذلك بمضي تلك المدة الطويله وعجز فطاحل العرب وفصحاؤهم وفاتوا ولم يخلفهم مثلهم لكن من خلفهم هو أعجز منهم علم فساد قولكم وكذبه وسقوطه

ان نفس التحدي بسورة من القرآن معجزة لانه لا يمكن أحداً من البشر العقلاء ان يدعيها لنفسه من قبل نفسه ولما يأتي به من عند نفسه ومن يأمن ان يأتي الزمان بمثله أو بأحسن منه واذا لم يكن عنده يقين بذلك فكيف يشترط صحة دعواه عليه و يعلقها بهذا التحدي فما بالك بمن قد صرح بصحة جسده وكمال عقله وتدبيره العدو المخالف والصديق الموافق. أما لو كان هذا التحدي بغير أمر الله لكان من أبعد كل بعيد وأمحل كل محال صدوره من سيدنا محمد (ص)

هذا بعض مانقوله في الجواب عن هذه الشبهات الواهية اضربنا فيه عن الاطالة وما تركناه اكثر وماعند الكاملين اكثر واعظم وماعند الله خير وأبقى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد *

فقول الدكتور الفاضل ومنه نرى ان اعتمادهم فيها (اي في إيراد الشبهات) انما هو على روايات الآحاد التي يتمسك بها المسلمون الى ان قال ماتحصله — فهلا ردوا هذه

بدلا عن ان يقوموا في وجهنا و يردوا مذهبنا في هذه المسائل بما هو في الحقيقة طعن في أصول الدين و بمثابة تسليم سكاكين للخصم ليقطع بها منهم الوتين» انتهى

وأقول قد عرفت جوابنا عن هذه الشبهات وانت اذا تأملت عرفت ان فسادها بديهي فلا سكاكين وانما هي شوك مخضود و بذاء من القول مردود فلا وخز نخافه ولا قطع ونحن لم نرد عليه مكفرين له مع تأويله ولكنا بينا فساد بعض قوله وضعفناه وقلنا انه لا حاجة تلجئنا اليه وهو حفظه الله انما خاف من غير مخوف وظن السراب ماء

وليس مانبحث فيه مع الفاضل الممدوح مما يليق بالعقلاء ان يقولوا فيه تعصبا وتحيزا ولا فخرا ومماراة بل هو الدين وارادة الحق وطلبه للفوز برضاء الرب ولذلك قلنا في رسالتنا السابقة ان طالب الحق لا يليق به ان يستدل باقوال الناس وانما يستأنس بها بعد البحث والتنقيح واما ماناقض منها حكم الله في كتابه أو في سنة رسوله (ص) فانا نضجر منه ونمله ونرفضه لانه من الغلطات التي غايتها ان يغتفر لقائلها اذا لم يقصر ومن تتبع الشواذ وقع في الغلطات وانه لولا التأويل بحسن قصد للزم كل غالط لوازم فظيعة مكفرات ولو التزم كل غالط لوازم قوله لفحش الخلاف وبعد الائتلاف والحكم بكفر اكثر الغالطين ولذلك كان القول الحق ان لازم المذهب ليس بمذهب

اما ماذكره الفاضل في كلمته الثانية من التفصيل فهو وان كنا نعتقد الحق زيادة عليه الا انه قول قد قاله كثير من الائمة ومع ذلك فله حظ من النظر الا قوله في آخرها «اما الروايات التي تفيد نسخ لفظ القرآن» الى آخره فانا لا نسلمه له لا سيما وقد عرفت مما قدمناه عدم مخالفة نسخ وإنساء لفظ القرآن للحكمة والعقل فاذا صحت الرواية عن الثقات الضابطين بالحفظ والمراجعة أو بالكتابة المصونة بأن آية كذا كانت قرآنا وأنها نسخت او أنسيت او رفعت او نحو ذلك قبلنا ذلك وحيث كان لم يقصد من هذه الرويات، اثبات زيادة على القرآن الموجود فهي غير معارضة ولا مناقضة لما ثبت من القرآن بالتواتر حتى على قول من يشترط التواتر في اثبات قرآنية القرآن — وترجيح المتواتر على الآحاد انما هو اذا اتحدت الدلالة من جميع الوجوه حذو النعل بالنعل مع عدم معرفة المتأخر اما اذا لم تتحد كالعام والخاص والمطلق مع المقيد او ما تأخر تاريخه فلا معارضة ولا مناقضة لا شرعاً ولا

عقلا ولأن الأخذ بالدليلين هو المتعين والا للزم اهمال احدها — واصل منشإ اشتراط التواتر انما هو في الوصف بالقرآنية الذي من احكامها المفرعة عليها التلاوة في الصلاة ونحوها واثباتها فى المصحف الى غير ذلك على خلاف مشهور في ذلك لاهل العلم والنظر ولذلك نرى الحق عدم جواز نسخ السنة للفظ القرآن المثبت في المصحف واما حكمه مع بقاء اللفظ فهو محل الخلاف والحق عندنا جواز نسخ الحكم بالسنة الصحيحة لأن ثبوت الاحكام لا يشترط فيه التواتر كما سيأتي ولأن اقتضاء الحكم للتكرار امر زائد على مفهوم مجرد الامر وكذلك الاستمرار كلاهما ظني وخبر الآحاد اقل حالاته اذا كان صحيحا ان يكون ارجح لكن هل ذلك واقع فعلا ام لا ؟ ولا شك ان من بعد غوره في فقه الدين يعرف ان ذلك لم يقع وان السنة مبينة ومفسرة لما دل القرآن عليه ولو بدلالات خفية اوتأتي باحكام يكون القرآن ساكتا عنها اوزيادة على ما فيه وهذا اجمال يدرك المنصف ما وراءه من الفوائد اكتفينا به عن التفصيل والاطالة

تكلم حضرة الدكتور الفاضل في الكلمة الثالثة من رسالته على قوله تعالى « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها او مثلها » الآية — وحاول أن يثبت ان يكون المراد بالآية المعجزة وقال انها على حد قوله تعالى « ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله ، لكل اجل كتاب » يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب »

اقول واعلم انه لم يقل أحد ممن يفسر القرآن بالمأثور ان مدلول الآية هي المعجزة في الموضعين معا او ان معناها واحد كذلك والمعروف عنهم ان هذه الآية في المعجزة وتلك في آيات الاحكام وسيأتي ان بعضهم حمل الامحاء على نسخ آيات الاحكام أيضا عكس ما يقوله الدكتور الفاضل وقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها قد عرفناك تفسير السلف لها في رسالتنا السابقة واما قوله تعالى « وما كان لرسول ان يأتي بآية إلا باذن الله » فلا شك ان المراد بالآية فيها المعجزة خارقة العادة فليس الى أي رسول الإتيان بها بل ذلك إلى الله عزّ وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد — فقوله « لكل أجل كتاب » أي لكل مدة مضروبة كتاب

أي مكتوب « وكل شيء عنده بمقدار » ألم تعلم ان الله يعلم ما في السموات والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير » فالمراد بالكتاب ما يعم معلومات الله الكونية والشرعية الدينية بان جعل لكل مدة مضروبة عنده كتابا — وبعض السلف قدرها بالسنة وقد اختلفوا في المحو والإثبات هل يكون في كل شيء أم في شيء دون شيء فقال بعضهم يمحو الله ما يشاء الا الشقاء والسعادة والحياة والموت وقيل غير ذلك أيضا والذي دلّت عليه الأحاديث الصحاح أن ذلك كائن في كل شيء . واختلفوا هل هناك كتب وكتاب غير هذا أم لا وليس الاطالة في ذلك من غرضنا هنا فان شئت ذلك فارجع اليه في مكانه — فهذان قولان في الكتاب ومدته والقول الثالث ان المراد بالكتاب كل كتاب أنزله الله من السماء على رسله وهو قول الضحاك بن مزاحم وكان يقول في قوله « لكل أجل كتاب » أي لكل كتاب أجل « يمحو الله ما يشاء » منها « ويثبت » يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه . فقول الدكتور الفاضل يمحو الله ما يشاء من الآيات السابقة فلا يعيدها مرة أخرى للامم اللاحقة الى آخره قول مبتكر لم يدل عليه أثر ولا قاله أحد من السلف ولا ندري كيف أجاز لنفسه القول في كتاب الله برأيه

وتقول معجزات الانبياء التي قد اظهرها الله لا يقال إنه محاها او نسخها بل يقال كتبها وقدرها وفي الواقع اظهرها وأمضاها وقد فرغ عنها — والمحو انما يكون لما كتبه وقدره قبل وقوعه اذا لم يوقعه وما وقع فانما يقال كتبه وأوقعه طبق ما كتب فالدكتور غلط هنا في مواضع — وحاصله ان الكتاب في هذه الآية ان كان كتاب المقادير والمعلومات فالامحاء فيه لا يكون في المعجزات التي قد اظهرها الله لتأييد انبيائه وان كان المراد به كتبه التي انزلها على انبيائه لكل اجل ما يناسبه من من كتب الاحكام وآياتها فالآية نص في رد ما زعمه حضرته

اما قوله : واعلم ان نظم الآية التي نحن بصدد تفسيرها يعني قوله تعالى « ماننسخ من آية أو ننسها » الآية لايقبل أي معنى آخر سوى مااخترناه فيها ولذلك

ختمت بقوله تعالى «ألم تعلم ان الله على كل شيء قدير» الى آخر ماقاله في هذا المعنى

وأقول نحن قد ذكرنا تفسير السلف لهذه الآية في رسالتنا السابقة وهم الذين تلقوا عن رسول الله (ص) بيان القرآن وهم الذين شاهدوا الاسباب والوقائع وهم الذين نزل القرآن بلسانهم فتفسيرهم للقرآن لايجوز لنا الخروج عنه بالكلية وما ذكره الدكتور الفاضل واختاره هو لم يختره من أقوال السلف ولم يقل به أحد منهم وهم قد صرحوا بأن هذه الآية انما نزلت في آيات الاحكام فحمل ذلك على المعجزات انما هو من باب الخرص والقول بالرأي في كتاب الله وهو لايجوز (*) فتفسير الآية في هذا المقام بالمعجزة فقط متعذر من حيث النقل وسياقها لا يقتضي ذلك وكذلك معناها ومدلولها لا يصح ان يكون هو المعجزة عقلا

وما ذكر عن الاستاذ الامام شيخ الاسلام المفتي الشيخ محمد عبده رحمه الله فان صح عنه ذلك فلعله قاله من باب الاستنباط والاشارة والايماء — زيادة على ما يدل عليه الظاهر — ذلك هو الواجب على الصادق في موالاته . الاستاذ الامام وما أدراك ما مرتبته وفضله ومقدار محبة أهل الحديث له في جميع الارض كيف لاوهو امامهم وحامل لوائهم الذي هزم الله به المبتدعين، وكسر به صولة المقلدين الجامدين. نصر الله به السنة واتباعها وحفظها به عن ضياعها، سمعت بعض الناس يقول ان الاستاذ الامام لا يقبل أحاديث الآحاد الصحاح — فقلت له كيف علمت ذلك ؟ قال لانه قال في بعض كلامه انا لا نقبل الحديث الا إذا تحققناه كما تحققنا وجود مكة والمدينة . فقلت له ويحك ما ذا تقول ان الاستاذ الامام رحمه الله يصح أن يتحقق الاحاديث الصحيحة ونحوها كذلك واذا اتسع علم الانسان ظهر له ماخفي على غيره وكل أئمة الحديث كذلك رحمهم الله (لها بقية)

(*) المنار : تفسير القرآن بالرأي عبارة عن تفسير المرء له لاجل تأييد رأي ينتحله أومذهب يتقلده فهو بمعنى تفسيره بالهوى . وليس معناه تفسيره بما يخالف المأثور عن الاولين ولا يمكن ان يكون هذا هو المراد بحديث انكار التفسير بالرأي على ان الحديث لايصح والسلف قد فسروا القرآن بفهمهم وخالف فيه بعضهم بعضا وأكثر ماورد عنهم من ذلك لايصح له سند وكلمة الامام احمد فيه مشهورة

الدولة العثمانية بعد الدستور

﴿ وجمعية الاتحاد والترقي ﴾

تصريحات كامل باشا في سبب سقوط وزارته

نشر كامل باشا مقالا طويلا في سبب اسقاط الجمعية اياه من الصدارة بعد إخراجه هو ناظر الحربية واستعفاء ناظر البحرية من الوزارة وهما من أعضائها . واننا ننشر ترجمته برمته للبيان في الحال والتاريخ في الاستقبال ، قال

كان يوم السبت الموافق ٣١ كانون ثاني « يناير » في مجلس المبعوثان يوما عبوسا قمطريرا لهبوب اعصار الافكار حتى ان بعض الاعضاء ويبلغ عددهم زهاء السبعين تركوا المجلس وانصرفوا حذرا من نتائج هذه الزوبعة التي كانت منحصرة بين جدران دائرة المجلس المذكور وبينما كان الذين يبلغهم خبرها في الخارج لا يصدقون بصحة وقوعها كان الذين داخل المجلس في غاية القلق والتأثر من السطوة التي يرونها من بعض اناس كانوا يتخللون صفوفهم ومما كان يلقى على مسامعهم من ان تسكين هذا الهياج الذي دام نحو ساعتين لا يتأتى الا باسقاط الوزارة التي كانت قد ضعفت باستعفاء ثلاثة من اعضائها وهذا لا يكون إلا باقرار المجلس على عدم الثقة بها . فلما رأى الاعضاء الحاضرون ذلك بادروا لحسم الازمة على الوجه الذي أريد منهم وأقروا على عدم الثقة بالوزارة ظنا منهم انهم خدموا بذلك سلامة الوطن والمملكة ولم يكن مبعث هذا الهياج الا المساعي العظيمة التي بذلت في سبيل احداثه إذ بعثت البعثات الخصوصية قبل ذلك الى أدرنه وسلانيك فاذاعوا هناك ان الحكومة تقصد إعادة الحكم الاستبدادي و بذلك حركوا بعض ضباط الفيلق الثاني والثالث وأهاجوا سخطهم

ثم أرسلوا باسم هؤلاء الضباط رسائل برقية إلى بعض انحاء السلطنة تشير بانهم (أي الضباط) مستعدون للوقوف امام كل حركة تبدر من الحكومة بقصد

بها ارجاع الحكم الاستبدادي كما انهم أوعزوا إلى بعض ضباط الاسطول بارسال رسالة برقية إلى مجلس المبعوثان يطلبون فيها عزل ناظر البحرية الذي تعين بالوكالة و يبلغون المجلس انهم لا يعرفون رئيسا لهم سوى مجلس الامة العثماني وقد تلي هذا التلغراف في المجلس وتم لهم بذلك ما يقصدونه وهو اظهار المملكة في حالة فوضى امام الناس

لذلك كنت أردت وقتئذ ان أبين ما بالمملكة من الاضرار من جراء هذه الازمة المفتعلة والمقصودة قصدا وان أذيع المسائل المهمة والاسرار السياسية التي لا ضرر من افشائها وانما رأيت ان أوجل إيضاح ذلك الى وقت آخر أكثر مناسبة منتظرا زوال هياج الافكار المار ذكره وها قد أتيت الآن بالايضاح الموعود مقرونا بالأدلة الواضحة بقدر ما تسمح لي به الظروف في الحال وما يفرضه علي حب تجنب المحاذير السياسية :

لا يخفى أني كنت قد ذهبت بالذات إلى المجلس النيابي في أوائل انعقاده وأوضحت امام الاعضاء برنامج الوزارة السياسي الذي حاز وقتئذ قبول الهيئة المحترمة ورضاها ووعدت الوزارة بأنها تسير على مبدأ هذا البرنامج مع ان القانون الاساسي لم يصرح بشيء عن دعوة الصدر الاعظم وشيخ الاسلام للاستيضاح منهما عن بعض الامور وانما فعلت ذلك بقصد خالص من كل الشوائب تطبيقا لمصالح البلاد على الحكم الشوروي الحقيقي ومراعاة للادارة الدستورية ولوضع مثال للمستقبل

ولا يؤخذ من ذلك انه يتحتم على الصدر الاعظم ان يحضر الى المجلس في الساعة واليوم اللذين يطلب فيهما كما انه لا يفهم من طلب تأخير الصدر ميعاد الايضاح بضعة أيام انه يريد بذلك الغاء هذا الاختصاص الذي أعطاه القانون الاساسي للنظار بناء على حكمة كبيرة والوارد في جميع قوانين الدول الدستورية الاساسية . ان الاصرار في هذا الباب يعد خرقا صريحا لاحكام القانون الاساسي . وقد كنت عزمت عند ما وصلتني رسالة الدعوة من رئاسة مجلس المبعوثان في مساء يوم الخميس الموافق ٢٩ كانون الثاني (يناير) ان أذهب في اليوم المطلوب الى المجلس للاجابة على الاستيضاح حذرا من اخلال الاحوال الموضوعة ولكنه جاء في اليوم التالي (الجمعة) رسول من قبل سفير روسيا يخبرني بأن السفير سيحضر يوم السبت الى

الباب العالي لمقابلتي والمذاكرة معي في المسألة البلغارية حسب تلغراف ورد عليه من بطرسبرج وفي الحقيقة حضر السفير المشار اليه في اليوم المذكور . فلاجل ذلك ولاشتغالي ببعض مسائل سياسية مهمة كتبت إلى رئيس المجلس بإرجاء موعد الايضاح إلى يوم الثلاثاء المقبل

و بعد عصر يوم السبت المذكور وردت علي رسالة من رئيس مجلس المبعوثان يقول فيها انه بناء على بعض إشاعات وصلت إلى مسامع المجلس هاجت أفكار الاعضاء وهو يرى من الضروري ذهابي في الحال إلى البرلمان لاعطاء الايضاح اللازم فكتبت الى الرئيس جوابا قلت فيه ان الاشاعات التي بلغت المجلس عارية عن الاهمية وان لا أصل بالمرة لما قيل من حدوث هياج في المدينة واني سأحضر الى المجلس يوم الاربعاء وكان قصدي من هذا الإرجاء (أولا) ان نتوصل بما عندنا من الزمن الى ربط المسائل السياسية المهمة الماسة بمرافق الدولة الحيوية بالاصول التي كنا تصورناها الى هذا اليوم (ثانيا) ان أتمكن من إستخراج الوثائق الرسمية من محافظها (دوسياتها) استعدادا للايضاح أمام المجلس ولتقديمها لهيأة المبعوثان بصورة غير علنية حتى يقتنع الاعضاء بصفة قطعية بما سأقوله :

ورد بعد قليل رسالة ثانية من رئاسة المجلس فأعدت جوابي الاول بايضاح أكثر فلم يأت بفائدة ، بل أرسل أحمد رضا بك بضرورة حضوري الى المجلس لبيان الايضاح المطلوب نظرا لهياج الامة والمجلس الناشيء من تبديل بعض النظار وما عقبه من اشاعة الخلع الكاذبة (أي خلع السلطان) واستعفاء بعض النظار مما جعل سياسة الدولة في الخارج والداخل في حالة غموض وابهام

فلما رأيت هياج الافكار الذي كان منحصرا فقط في اعضاء المجلس دون الاهالي أي لا أثر له في الخارج باشرت التحقيق في الحال لأقف على الطرق والمساعي التي بذلت في سبيل احداث هذا الشغب وعلمت أنه ازداد عدد الحزب المعارض لي في المجلس وما تقرر لديهم من أمر معاملتي في حالة ذهابي مما يسبب حدوث أمور غير مرضية تحط بقدر مجلس المبعوثان . فتجنبا لذلك كله كتبت الى الرئيس أعلمه بأني مستعد لتقديم الاستقالة من منصبي الى الحضرة السلطانية اذا لم يراع

نص المادة ٣٨ من القانون الاساسي ملقيا تبعة ما ينشأ من الاضطراب داخلا وخارجا على عاتق الذين كانوا السبب في حدوثها . فلم يأت الجواب وحصل ماحصل في المجلس من الامور الغريبة . وقد جذبت الاحوال المذكورة انظار الاجانب الذين كانوا موجودين وقتئذ في دائرة المجلس واستوقفت أبصارهم الطرق والوسائل غير القانونية التي اتخذت للوصول الى اجبار الاعضاء على التصويت ضدي واعطاء قرار بعدم الثقة بي كما ان شيوع هذه الامور التي هي بمكان من الغرابة قد شغل افكار الجمهور

وزد على هذه الحالة المخلة بالقانون بصفة خصوصية ذهاب رئيس مجلس المبعوثان مساء اليوم المذكور وبرفقته بعض اعضاء المجلس الى القصر السلطاني وطلبه من الحضرة السلطانية فصلي من منصبي قبل ان أستقيل منه وتعيين خلفي الذي رشحته الجمعية (جمعية الاتحاد والترقي) من قبل

ومن الامور التي تستدعي دقة النظر المنشور السلطاني الذي استصدروه بتوجيه منصب الصدارة العظمى على حسين حلمي باشا والذي تلي في الباب العالي إذ ورد فيه هذه الجملة بحروفها :

« بناء على انفصال كامل باشا حسب الايجاب من منصب الصدارة » ، وهو مثل ما كان يحصل في الزمن الاستبدادي عند فصل الصدور من مناصبهم بناء على دسائس أصحاب الاغراض مع انه كان يجب ان يبنى انفصالي على استعفائي

وسبب هذا الهياج الذي لم يكن ليوجد لو لم يحدثه البعض عن قصدهو تعيين ضيا باشا في منصب نظارة المعارف التي كانت شاغرة من قبل وتعيين حسن باشا من أمراء الجند البحري في منصب نظارة البحرية بالوكالة بدلاً عن عارف باشا الذي استقال وترك الخدمة بصفة رسمية وتعيين علي رضا باشا ناظر الحربية مندوبا ساميا للدولة في القطر المصري نظرا لبعض الايجابات السياسية الواردة فيما بعدو تعيين ناظم باشا قائد الفليق الثاني في منصب نظارة الحربية بدلا عنه

ولما كان تأليف الوزارة من حقوق الصدر الاعظم الذي يرفع الى الحضرة السلطانية أسماء من يعتقد قدرتهم وكفاءتهم لتولي مناصب النظار كنت أرى وجها

للاعتراض على التبديل الذي حصل في الوزارة وقتئذ كما وقع قبله تبديل نظار الداخلية والمعارف والاوقاف والعدلية ورئيس شورى الدولة حسبما ظهر انه المصلحة ولم ينبس احد ببنت شفة اعتراضا على ذلك

وقد ظهر فيما بعد ان سهم الاعتراض في التبدلات الوزارية الاخيرة كان مصوبا بوجه خاص الى تعيين ناظم باشا في منصب نظارة الحربية حتى انه في مساء اليوم الذي كان تعيين فيه المشار اليه ناظرا لوزارة الحرب حضر اليّ رجل يدعى ناظم بك من جمعية الاتحاد والترقي وكانت امارات القلق واضطراب البال بادية على وجهه وقال ان الجمعية تستغرب تبديل بعض الوكلاء (النظار) وتستوضح منكم جلية هذا الامر الذي حدث من غير ان يكون عندها علم به فاجبته بأن ليس في الأمر مايوجب كل هذا الاستغراب . وفي اليوم التالي اجتمع مجلس الوكلاء واشتغلنا برؤية الامور حسب العادة وزدنا عليها المذاكرة في الاحوال المهمة السياسية وافترق أعضاء الوزارة في الساعة ٢ ونصف (بالحساب العربي) وكلهم على اتفاق تام ولم ينتصف الليل الا ووردت استقالة حسين حلمي باشا من نظارة الداخلية وفي اليوم التالي استقال رفيق بك ناظر العدلية وعقبه ورود استقالة حسين فهمي باشا و يظهر ان استعفاء هؤلاء الوزراء من مناصبهم لم يكن نتيجة اتفاق بينهم اذ لا يعقل ان يكونوا اجتمعوا في تلك الليلة ليتفقوا على الاستقالة لبعد الشقة بين مساكنهم التي يحول بينها البحر ولكن كان حسب مشورة ونفوذ رجال الغيب (أي جمعية الاتحاد والترقي) ولقد بذلت المساعي في حمل توفيق باشا ناظر الخارجية على الاستقالة اسوة بزملائه المستقيلين ولكن الرجل رفض الاستقالة غير متأثر بنفوذ أصحاب هذه المساعي . و يروى ان سبب استعفاء الوزراء المشار اليهم هو تبديل وزيري الحرب والبحر على ان وزير البحرية استقال من تلقاء نفسه وكتاب الاستعفاء الذي رفعه الى الصدارة محفوظ في قلم الاوراق والذي سمي بدلا عنه لم يعين الا بالوكالة فقط . اذن لا وجه ألبتة للقيل والقال في هذه المسئلة . وأما مسألة تعيين علي رضا باشا مندوبا في القطر المصري واقامة ناظم باشا ناظرا الحربية بدلا عنه فسأوضحها فيما بعد مقرونة بالاسباب التي أوجبت هذا التبديل

وفي الحقيقة انه لم يكن هناك موجب لاستعفاء النظار الثلاثة كل على حدته وهم

خارج المجلس بل لو كان زملائي النظار رأوا أثناء المذاكرات وهم في المجلس ان تبديل ناظر الحربية مخالف لقواعد الشورى والدستور ومضر بمرافق الدولة لكنت اقدم استقالتي في الحال هربا من الوقوع تحت تبعة التهلكة والخطر اللذين كنت أراهما يتخللان تيارات الاحوال الحاضرة . ولكن الحقيقة لم تكن كذلك بل كان القصد من إجبار هؤلاء النظار على الاستقالة (من قبل رجال الغيب) انما هو اظهار الحالة الحاضرة بمظهر الاضطراب وان يعدوا بذلك وسيلة لاحداث الهياج المطلوب في مجلس المبعوثان

ولا يضاح الامور التي أوجبت تبديل ناظر الحربية يجب قبل كل شيء ان اذكر الحقيقة الآتية :

كان بعض الفتيان أو ذوي الافكار الفنية من المستخدمين الملكيين أو الضباط العسكريين وأصحاب الكلمة النافذة من الذين انتسبوا بعد اعلان القانون الاساسي الى جمعية الاتحاد التي لها الخدمات المشكورة في إعادة الحكم الدستوري جعلوا ديدنهم وضع ادارة الحكومة تحت السيطرة والمراقبة الى أن تتأيد الحكومة الدستورية وذلك خوفا من عودة الاستبداد على زعمهم . على ان جميع العناصر العثمانية قبلت أصول الشورى بكمال الحمد والشكران والسرور واثبتوا انه لم يكن ليوجد بينهم من يريد الرجوع الى الحكم الاستبدادي كما ان الجنود العثمانية كلها أقسمت وتعاهدت على الذود عن أحكام القانون الاساسي فلا موجب والحالة هذه لوضع ادارة الحكومة تحت السيطرة والمراقبة المار ذكرهما . ومع هذه البداهة كانت المداخلات باسم الجمعية في شؤون الحكومة تتوالى وهو الامر الذي أخل بانتظام ادارة الحكومة وعرقل مساعيها جدا ووضع العقبات في سبيل معاملاتها وأوجب طروء الضعف على القوة الاجرائية من مداخلات الجمعية التي تألفت في الولايات العثمانية واختل من جراء ذلك امر الضبط والربط والنظام كما ان انقسام الضباط الذين هم القوة المحركة في الفيلقين الثاني والثالث الى قسمين ووقوع الخلاف بين الذين ينتسبون الى الجمعية والذين لا ينتمون اليها أدى الى الإخلال بالنظام العسكري

ولا يخفى انه بمقدار ما تراعي فيالقنا النظام العسكري ويكون جنودها يدا واحدة في اتحادهم بما يشبه الجسم الواحد بمقدار ذلك يكون التأثير في الاعداء وتنكسر

شرتهم وبعكس ذلك يتجرأ العدو على تجاوز حده ويتمرد ويطغى ومن جهة ثانية لا يعود في قدرة الجيش قمع الفتن الداخلية فلذلك كله كان الواجب على الضباط ان يتجنبوا الاشتغال بالسياسة وان يبتعدوا عنها وان يراعوا سلسلة المراتب حسب ما نص عليه القانون ولكن بدلا عن ذلك صار الضباط يلقون الخطب السياسية في الملاهي « قونسر » والاجتماعات والمظاهرات وانشأوا يقيمون المناورات الحربية والاستعراضات العسكرية في المراسح فكنت ترى فرق الجند العثماني تمر باسلحتها وضباطها من امام المتفرجين في مراسح التشخيص وهو مما يحط بالشرف العسكري وكل ذلك كان منشؤه ضعف ارادة علي رضا باشا ناظر الحربية المطلوب منه حسب وظيفته منع كل هاته الامور المخلة بنظام الجيش والذي لم يكن ليقدر على تنفيذ أوامره وتنبيهاته بإزاء نفوذ كلمة الضباط المنتسبين للجمعية . على اني اشهد أن علي رضا باشا رجل على غاية من الاستقامة والحلم ولكنه غير قادر على الوقوف امام حركة الضباط التي اخلت بنظام الجيش كما مر ذكره آنفا فحفظا لشرف الجيش واعادة النظام والانتظام الى صفوفه تقرر تعيين ناظم باشا قائد الفيلق الثاني الذي اثبت اقتداره بإصلاح الفيلق المذكور واعادة النظام اليه في مدة لا تزيد عن الشهرين ناظرا للحربية وبودر في الحال لانفاذ هذا القرار وهو الوسيلة الوحيدة لسلامة الامة والوطن ولكن جمعية الاتحاد والترقي التي لا تريد الا استبقاء نفوذها اجبرت زملائي الوكلاء « النظار » على الاستعفاء واخذت مجلس المبعوثان تحت امرها وبذلك اعدت الوسائل اللازمة لإسقاط وزارتي . وهنا يجب ان اسرد بعض امور حدثت قبل سقوطي وكانت مقدمة لإثارة الافكار ضدي فكانت السبب في انفعال الجمعية مني واليك الاسباب

كنت من زمن حدوث الانقلاب اروج بقدر الامكان والزمان اقتراحات من كان يراجعني بصفته عضوا في الجمعية واستمر الحال كذلك الى ان حضر ليلة الى منزلي « وذلك قبل افتتاح مجلس المبعوثان باسبوعين » البكباشي اسمعيل حقي بك ومعه رحمي بك الذي يدعي انه قائم مقام الوكيل السياسي عن الجمعية وقالا ان

الجمعية لا تدخر وسعا في إكرام اعضاء اللجنة البلقانية الانكليزية المؤسسة في لندره الذين حضروا اخيرا الى الاستانة وانه صار دعوتهم لوليمة عشاء يحضرونها نهار غد في منزلي !! فقلت لهم اني اجهل وصول هؤلاء الاعضاء الى الاستانة ولا اعلم مركزهم ومنزلتهم في بلادهم لعدم ورود شيء يعرفني عن ذلك لا من سفير الدولة في لندره ولا من سفير انكلترا هنا فأستغرب دعوتكم لاشخاص لا معرفة لي بهم ، ولم يسبق المقابلة معهم ، الى تناول العشاء في منزلي من غير ان يكون عندي علم بذلك كأنكم تدعونهم الى فندق وهو أمر لا استصوبه لعدم موافقته للاصول بل يجب ان اتعرف بهم قبل كل شيء واقابلهم و بعد ذلك أعد لهم الوليمة في يوم معين

احتد اسماعيل حقي بك ورفيقه من كلامي هذا وخرجا من المنزل وذهبا في الساعة الرابعة من الليلة المذكورة نفسها الى القصر السلطاني وقابلا احد قرناء الحضرة السلطانية وقالا له : « اعرض الآن لحضرة السلطان ان يسترجع الختم السلطاني من الصدر الاعظم « أي ان يعزله » والا نذهب غداً بالقوة العسكرية الى الباب العالي ونخرجه منها قسرا على أنه قد تقرر أن يعزل في أول اجتماع من مجلس المبعوثان »

فهال هذا الكلام القرين فأجابهم قائلا : « وما السبب في ذلك ؟ اني لا استطيع عرض هذه المسألة على جلالته في مثل هذا الوقت فالاحسن أن تحضرا غدا لنفهم ما في الامر ونعرضه على الحضرة السلطانية . »

وعلى ذلك ذهبا وعادا في اليوم التالي و برفقتهما ضابط آخر واجتمعت بهم بدعوة خصوصية حسب الارادة السنية الصادرة لي وكان معنا أحد القرناء فسألتهم من قبل من أرسلوا ؟ فقالوا انهم حضروا من قبل الجمعية . فقلت لهم هل الجمعية راضية عن مراجعتكم للحضرة السلطانية في مثل هذا الطلب ؟! اجابوا نعم ان الجمعية توافق على كل ما نعمله . عند ذلك اعدت ما قلته لهم في الليل من عدم موافقة اقتراحهم في مسألة الدعوة وزدت عليه ان عزل الصدر الاعظم بلا سبب ودون ان يستقيل هو مخل بما نصه القانون الاساسي وان خدمتي الآن في هذا الزمن المحفوف بالمخاطر ليس الا تفاديا مني في حب الوطن وليس لأجل التفاخر ولا لجر منفعة . قلت هذا الكلام بشدة واشمئزاز فقاموا وانصرفوا من غير ان يفوهوا ولا بكلمة

و بعد ذلك صدرت ادارة سنية تبلغتها بالواسطة بوجوب دعوة اعضاء اللجنة البلقانية المذكورة الى الشاي بعد حصول التعارف بهم وصادف أن حضر الاعضاء المومأ اليهم الى الباب العالي حيث زاروني وكان عددهم اثنى عشر بين ذكور وأناث فدعوتهم لتناول العشاء في اليوم التالي عندي حيث حضروا هذه المأدبة كما حضرها ايضا بعض اعضاء جمعية الاتحاد والترقي فكان عدد الجميع ٢٤ مدعوا ما عدا رحمي بك الذي لم يشأ أن يحضرها

واللجنة البلقانية هذه كانت تألفت من بعض وجوه ومعتبري الانكليز بقصد انساني ألا وهو تذكير الحكومة الانكليزية بحماية السكان البلغاريين من أهالي مقدونية من مظالم العثمانيين وقد طاف بعض اعضائها القطر المقدوني بعد الانقلاب ليتحققوا بأنفسهم عما اذا كان البلغاريون لا يزالون في حاجة الى الحماية الاجنبية ثم حضروا الى الاستانة وقد قصدت جمعيتنا باكرام هؤلاء الاعضاء أن تقيم الحجة لهم على الاخوة التي حصلت بين المسلمين والبلغار وان تكسب بذلك رضا اللجنة المذكورة وتحوز بواسطتها انعطاف الامة الانكليزية على ان الامة العثمانية كانت قد اكتسبت حسن نظر وانعطاف الشعب الانكليزي العظيم بما أظهرته عقب انقلابنا السعيد من الاستعداد لادارة دستورية سالمة

وهنا يجب عليّ أن اترك الحكم الى أرباب الفكر والاذعان في مسئلة الذهاب الى القصر السلطاني وطلب اسقاط الوزارة من أجل اني رفضت طلب دعوة أشخاص الى منزل صدر اعظم بدون اذنه ولم يسبق التعارف بهم مما هو مخالف للاصول وآداب المعاشرة ولاني قابلت هذا الطلب الغريب بصورة معقولة وهذا أمر جدير بتوجيه الانظار اليه

لذلك صرفت الجمعية كثيرا من المساعي لاسقاط الوزارة عقب انعقاد مجلس المبعوثان ولكنها اخفقت امام ميل الرأي العام الطبيعي ولما رأت الجمعية ذلك وعلمت أن لا قبل لها بالوقوف امام الرأي العام أوفدت من قبلها طلعت بك وانور بك فحضرا اليّ ليلة وأبلغاني بأنه تقرر أن يكون السير حسب رأيي فشكرتهم

على قرارهم هذا وقلت لهم اننا كلنا جسم واحد فيجب أن نسعى معا في سبيل خدمة الامة والدولة .

مضي ١٥ يوما على ذلك فصادف ان احتفلت فرقة الاحرار في عيد مضي ٦١٠ سنوات على استقلال الدولة العثمانية فدعيت الوزارة أيضا الى المأدبة التي أقيمت لأول مرة في (برابالاس) فرأيت ان أحضر هذا الاحتفال احتراما لذلك اليوم المقدس فلم يرق ذلك في نظر الجمعية فأوفدت إلي احمد رضا بك في اليوم التالي فاشار في كلامه معي الى عدم استحسان ذهابي الى الحفلة المذكورة فقلت له اني بصفتي رئيس الوكلاء (النظار) يجب علي أن احضر الاحتفالات التي تقام من قبل أي حزب كان تذكارا لمثل هذه الاعياد الوطنية المقدسة ، وان هذا أمرا طبيعي . فزاد كلامي هذا في موجدة الجمعية علي وجدد حزازاتها وصارت تنتظر الفرصة لاسقاطي حتى تقرر تعيين رجل نشيط نادر المثال مثل ناظم باشا في منصب نظارة الحربية وعلمت الجمعية ان النظام العسكري سيعود قريبا الى ربوع الجيش بواسطة الناظر الجديد فلم يرق في نظرها ذلك فأحدثت الهياج المار ذكره.

على ان التخلص من هذه الازمات الخطرة والرجوع الى الحالة الطبيعية مع توقي الضرر والهلكة هو من وظائف الحكومة المسؤولة امام العموم والحيلولة بين الحكومة و بين اداء هذه الوظيفة هو بمعنى الرضا بالهلكة وقبولها . واذا كانت الحكومة العثمانية لا تستند الى مجلس نيابي يحوز اعضاؤه على حرية الفكر فانه لايمكن الوقوف امام المخاطرات والمهالك الآتية . واذا أصرت الجمعية على التمسك بتيار نفوذها هذا واستمرت في السير معه فالنتيجة تكون مجهولة بسبب مضادة الرأي العام للسير على المنوال المذكور وذهاب الضباط وامراء الجند مذاهب شتى

على ان الحكومة العثمانية تقترب شيئا فشيئا من مسئلتين سياسيتين مهمتين إذا لم تحسما بالطرق الحكيمة الضرورية في زمن غير بعيد يخشى من أن تجد الدولة نفسها أمام غائلة كبيرة . الاولى مسئلة كريد وقد كانت الحكومة وقتئذ اتخذت الوسائل اللازمة التي توصل الى حلها حلاً يوافق مصالح الدولة العثمانية واهالي الجزيرة وهو جدير بموافقة

الدول الاربع الحامية لكريد . ولا أدري بالنظر الى الحالة الحاضرة في أي طور ستدخل هذه المسئلة المهمة الآن

واما الثانية وهي المسئلة البلقانية فهي أهم من مسئلة كريد وقد زاد مركزنا اشكالا فيها تضارب المصالح السياسية بين الروسية والنمسا في هذه الآونة فاذا لم يحكم مركزنا هذا في الوقت اللازم باستعمال الوسائل الرشيدة كانت العاقبة وخيمة جدا علينا

ولا يخفى أن القوة أساس كل شيء فاذا كان ناظر خارجية أحدى الدول لم يشأ قبول اقتراح سفير دولة أخرى كان من الواجب أن يظهر لمان ٣٠٠ الف حربة وراء ذلك الناظر مستعدة لنصرته كما قاله البرنس ميترنيخ «ناظر خارجية النمسا السابق» لرفعت باشا مندوب الدولة العثمانية السامي. ولو كان عندنا في شهر اوغسطس الماضي قوة مهيأة مجهزة للدفاع عن مرافقنا في الروم ايلي لما كانت بلغاريا تجرأت على اعلان استقلالها ولما اقدمت النمسا على ضم البوسنه والهرسك لبلادها وهذا الحال يمكن تطبيقه في المستقبل فاذا اهملت قوانا الحربية كما كانت اهملت من قبل لا تتمكن الدولة من الوقوف في وجه الاعداء وتخرج بلاد الدولة العثمانية قطرا بعد قطر من يدها وهذا ثابت بدليل حدوث أمثاله مرارا لذا رأيت تعيين ناظم باشا المشهور بقدرته على اصلاح جيشنا في بضعة شهور ناظرًا للحربية امرا ضروريا ليمكن الاصلاح في مدة قليلة قبل فوات الوقت. أفلا يعد الوقوف في سبيل الحكومة لمنعها من اصلاح كهذا اضرارا ومروجا لمقاصد الذين يرجحون اغراضهم الشخصية على مصالح الدولة

إن اعلان الدستور الذي كان نتيجة مساع عظيمة صرفت في هذه السبيل اكسب الدولة انعطاف اوربا عليها واطمئنانها اليها والثقة بها فاخذ أصحاب رؤوس الاموال يوفدون وكلاءهم الى الآستانة والبعض منهم حضر بنفسه للقيام بالمشروعات المفيدة الاقتصادية النافعة للبلاد مثل انشاء الخطوط الحديدية وارواء الاراضي من الانهار واستثمار المناجم والمعادن وتجفيف المستنقعات والبرك مما يستلزم بذل الملايين في البلاد العثمانية و بذلك يجد المعوزون والفقراء من سكان البلاد الذين كثيرا ما يلجأون بسبب ضيق ذات اليد الى ارتكاب المحرمات شغلا بأجر وفير يوفر لهم أسباب المعيشة ويكفي الحكومة مؤنة الاهتمام بهم و بجرائمهم المضرة بالسكان والبلاد

الناشئة عن الفقر والاحتياج . ولكن أختلال النظام في المملكة المتأتي من تغير شكل الحكومة ودخول ادارة السلطنة تحت نفوذ جمعية غير مسئولة مما لم يحصل مثله في الممالك المتمدنة استوجب بكل اسف انسلاب ثقة اوربا وعدول ارباب رؤوس الاموال من الغربيين عن ارسال ملايينهم الى البلاد العثمانية انتظارا لرجوع المياه الى مجاريها الطبيعية واستتباب الامن في البلاد تحت إدارة حكومة شرعية يرتاح اليها أرباب الاموال وقد كنا آملين ان تساعد زيادة الايرادات المنتظر حصولها من المشروعات الاقتصادية المار ذكرها ومن احتكار بعض البضائع التجارية الواردة في البروتوكول العثماني النمساوي وتزييد رسم الجمارك على سد العجز الذي في الميزانية العمومية

وأما الآن فان المرء يتساءل كيف يمكن للدولة ان تقوم بادارة حركتها مع نقص الملايين في ميزانيتها ومع عدم وجود الامل في زيادة الايرادات بالنظر لامتناع أرباب الاموال عن انفاذ المشروعات الاقتصادية في المملكة والحال ان الدول لا ترضى بسبب حالتنا هذه بزيادة رسم الجمارك وترويج اقتراح الدولة في مسألة الاحتكار خصوصا وان الحكومة مضطرة لإعاشة اكثر من ٢٥٠ الف جندي في هذا الزمن السلمي ولا نستطيع تخفيض هذا العدد بسبب القلاقل الضاربة أطنابها في المملكة وفقدان الامن في انحائها وعدم مساعدة أحوال الدولة المالية لانفاق كل هذه المبالغ بصورة دائمة وليس في الامكان مع الحال الحاضرة ايجاد منابع ايراد لها كل هذا يجعل المرء في حيرة من حالة الدولة وكيفية ادارتها مع ماهي عليه من التضعضع المالي . ولو زال هذا الارتباك وحل محله النظام وعادت المياه الى مجاريها الطبيعية لاستتب الامن والراحة في المملكة . ويمكن حينئذ صرف عدد كبير من الجند وادراة مابقي منه ضمن دائرة الميزانية كما ان الجنود التي لا لزوم لها تنصرف الى الاشتغال بالزراعة والفلاحة في بلادها فيزيد بذلك المحصول في المملكة ولكن هذه الملاحظات بعيدة جدا على ما أرى عن النظر والامعان

كان قد ذكر على الألسن في الايام التي دعيت فيها الى الذهاب لمجلس المبعوثان اشاعة الخلع (أي خلع السلطان) فقد اتصل بنا خبر من هذا القبيل عند ما كان

ناظر الداخلية ملازما لفراشه من مرض أصابه وقد صار حينئذ اتخاذ كل الطرق اللازمة لمعرفة ما اذا كانت هذه الاشاعة حقيقية أم هي فرية من المفتريات التي نشرت في الجرائد الاوربية وفي ذلك الوقت نفسه أشيعت أرجوفة أخرى بأني أنا وناظم باشا نريد إعادة الحكم الاستبدادي وأرسل بعض ضباط الفيلق الثاني والثالث رسائل برقية إلى بعض البلاد في المعنى المذكور واستدلوا على ذلك بطلب إعادة توابير الصيادة الى الفيلق الثالث على ان لا أصل البتة لكل ماقيل من هذا القبيل والحقيقة هي ان السكان المسلمين الذين هالهم خبر تسليح الحكومة اليونانية للأروام القاطنين قرب الحدود في ولاية يانيا قد طلبوا من الحكومة ارسال أربعة توابير في أسرع ما يمكن كما انه قد وردت برقيات من أهالي تلك الجهات الى نوابهم في مجلس المبعوثان في هذا المعنى نفسه وزادوا على ذلك أن أهالي (قالقاندلن) تسلحوا واجتمعوا وانهم مستعدون للقيام بما يجب عمله اذا لم تحضر الجنود في الحال

فبناء عليه صدر الامر الى نظارة الحربية بوجوب ارسال اربعة توابير من الفيلق الثالث الى يانيا وانه اذا لوحظ ان أخذ اربعة توابير من الفيلق المذكور يؤدي الى إضعاف قواه العمومية — خصوصا وان كثيرا من جنده كان قد أرسل طاشليجه لتقوية الحدود الصربية تلقاء هياج الصربيين وفتنتهم — فلا بأس من اعادة التوابير التابعة للفيلق الثالث والمرابطين الآن في الاستانة . هذا هو الامر الصادر الى نظارة الحربية وقد أجاب ناظم باشا عليه قائلا ان الفيلق الثالث أجاب بأنه لا يمكن أخذ جند فوق ما أخذ قبلا من قوى فوق الفيلق وان المسألة انحسمت بتدابير أخرى بلا حاجة الى إرسال الجند الى يانيا

بقي علي أن اشرح بعض نقط في مسألة رغبتنا في اعادة الحكم الاستبدادي فاقول: إنني عند ما كنت صدرا أعظم للمرة الثانية قبل ١٤ سنة وجدت تغيرا عظيما في أصول الادارة ورأيت أن نتيجة شكل الادارة على هذا النمط سيكون وبالا على الدولة . فرفعت في الحال تقريرا مفصلا الى الحضرة السلطانية وطلبت من جلالتها أن تسلم الادارة لهيئة عمومية تكون مسئولة أمام العموم وأن تستريح من عناء الاعمال فقبلت الحضرة السلطانية كل ما عرضته وصدرت الارادة السنية بتأليف الوزارة

حسبما ورد في التقرير الآنف الذكر . ولكن لم يمض يومان الا وصار فصلي بصورة غريبة من الصدارة بناء على افساد بعض المقربين الذين يرجحون منافعهم الشخصية على صوالح الوطن والامة وعينت واليا على حلب بقرار من مجلس الوكلاء (النظار) ثم نفيت الى ازمير فبقيت هناك ١٢ سنة وأنا اذوق الامرين من الفسدة الذين سلطوا علي عن قصد . وفي النهاية صدر الامر بنفيي الى رودس حسب تسويلات اصحاب المآرب

كل هذا يعرفه الجمهور كما يعرف كيفية خلاصي من النفي المؤبد الاخير الى رودس وحضوري الى الاستانة . ولو فدى اخلافي قليلا من مصالحهم في سبيل صالح الوطن وساروا على الطريق الوطني الذي سرت عليه أنا لما دامت الادارة السابقة ودام معها تخريب البلاد

وأما اتهام ناظم باشا معي بانه يريد اعادة الحكم الاستبدادي فيكفي لدحض ما قيل فيه أن أقول إن الرجل نفي الى ارزنجان لسبب طفيف بعد أن جرد من رتبه وألقابه وألقي في غيابة السجن وقضى على هذا الحال سبع سنوات هناك وهو لا يملك بارة واحدة وعائلته واولاده يئنون تحت أثقال الجوع والفقر ولم يعد الى الاستانة الا بعد اعلان الدستور مما يثبت أن ما أشيع في حقنا نحن الاثنين كذب وافتراء شنيع

اني لم أقبل منصب الصدارة الذي اسندته الحضرة السلطانية إلي وأنا في هذا السن عقب اعلان الدستور وفي زمن سخط الرأي العام على الادارة السابقة وتهيجه الا لتهدئة الافكار التي بلغت منتهى التهيج والقيام بما يجب علي حسب الحمية الوطنية من المساعدة على تأسيس الحكم الدستوري مستعينا على ذلك بتوفيقات الله الصمدانية ولم يكن لي ارب في حيازة المناصب قط . واني أتمنى لأخلافي أن يؤدوا الخدمات النافعة للوطن المقدس والامة والدولة وهم بعيدون عن كل تأثير ونفوذ واختم كلامي بتحويل قرار عدم الثقة بي الصادر من مجلس المبعوثان وتقديره على الرأي العام العادل

الصدر الاعظم السابق
كامل

الدستور وجمعية الاتحاد والترقي

﴿ وسائر الجمعيات ﴾

أعلن الدستور العثماني منذ بضعة أشهر فهتفنا له مع الهاتفين، ورحبنا به مع المرحبين، وهمنا به سرورا وشغفا، وملأنا ديار مصر وسورية مقالات فيه وخطبا، ولكن سرورنا به لم يكن سالما من كل شائبة، ورجاؤنا فيه لم يكن خلوا من كل مخافة، فقد أودعنا المقالة الأولى التي أنشأناها في الاسبوع الأول من اعلان الدستور ترحيبا به هذه الجمل (راجع ص٤١٧ م١١)

١ — « فالواجب على هذه الجمعيات المدبرة، والقوى المنفذة، ان تكفل الدستور الذي نالته الامة حتى تأمن عليه من دسائس اعوان الاستبداد، الذين قاموا بتنظيم حكومة الجواسيس أعظم قيام، وأول عمل يجب عليها هو السعي لإبعاد اعوان الاستبداد عن دار السلطنة — لا عن دار السلطان فقط — ومحاكمة من يمكن ان يسترد منهم العدل، ما وهبهم الجور والظلم، وتشكيل وزارة حرة تقوم بأعباء السلطنة، وتنتقي الولاة والمتصرفين والقضاة ورؤساء العدلية من احرار الأحرار، الذين يرجى ان تصلح بهم الادارة ويستقيم القضاء، ويحفظ الامن، ويستقر العدل، لتندفع الامة الى الاعمال النافعة في ظل الدستور الظليل، ثم العناية بأمر انتخاب النواب الخ . . .

٢ — « إذا نحن كفينا شر المستبدين الاولين، ونلنا وزارة من الاحرار المستقلين، فالواجب علينا ان نقف عند هذا الحد من المطالب في العاصمة وأن تعود السيوف إلى أغمادها، وتنصرف الضباط الى سابق شأنها، مع احكام الروابط الخفية، بينها و بين الجمعيات السياسية، ويتوجه الاحرار الى إصلاح حال المملكة، بجميع الوسائل الممكنة، والحذر والحذر، من عواقب نشوة الظفر، الحذر الحذر

من إهانة شخص السلطان ، والتسلق إلى عرشه بالبغي والعدوان ، فما دام السلطان مستويا على عرشه فهو رئيس الامة ومرجع سلطتها ، ومنفذ قوانينها وشريعتها ، والوزارة هي الواسطة بينها وبينه ، فاعتداء المرءوس على الرئيس بإدلال القوة دون القانون والشريعة مجلبة للفوضى ومدعاة للخلل ، ويخشى في مثل الحال التي نحن فيها ان يفضي إلى الخطر » الخ

٣ — « ان افضل ما نفاخر به الآن هو اننا نلنا الدستور من غير اراقة للدماء ولا إيقاع للبلاد في فوضى الثورة ، ولا غير ذلك مما يذم ويكره ، فيجب أن نحافظ على هذه الفضيلة ، وان لا نرتكب في طلب الفرع ، ما عصمنا الله في طلب الاصل ، عسى ان يكون تاريخنا في هذا الطور انظف من تاريخ جيراننا فيه »

٤ — «إن امامنا عقبات كثيرة منها ما يتوقع من مقاومة بعض الحكام الظالمين للحرية التي يرقص لها طلاب الدستور طربا ، ويهيمون بها شغفا ، ومنها ما هو اقرب الى الوقوع كالنزاع بين الاحرار المستقلين ، وبين المتعصبين والمقلدين ، ومنها مسألة تكوّن الجنسية العثمانية ، وما يقع في طريقها من جنسيات الشعوب التي يتألف منها جسم الدولة العلية ، »

٥ — « الحق أقول : إنه لا يخشى علينا من سلب الحرية ، وإنما يخشى علينا من سوء استعمال الحرية ، ومن الجهل بطرق المحافظة على الحرية ؛ يخشى أن تدفع الحمية بعض الأحرار الظافرين ، الى مثل عمل المستبدين ، وان تهبط العبودية الموروثة بكثير من الجاهلين ، الى ان يكونوا عونا على انفسهم للحكام الظالمين . »

هذا بعض ما كتبناه في حال السرور باعلان الدستور في الاسبوع الأول من إعلانه وقد وقع جميع ما توقعناه وخفناه

اخذت جمعية الاتحاد والترقي على نفسها كفالة الدستور وحفظه فألفت لها لجانا واحدثت لها شعبا في جميع بلاد السلطنة ، وأبعدت أعوان السلطان عنه وسعت في محاكمة بعض المعروفين بالظلم منهم ، وتداخلت في انتقاء الحكام والعمال وانتخاب المبعوثين . انتدبت للقيام بكل ما قلنا انه لازم واجب – لا لأنا قلنا بل لأنها تعلم ما علمنا – ولكنها لم تحسن العمل في كل ما تشبثت فيتم سرورنا بعملها

سافرنا الى الديار السوريه وزرنا اهم مدن الولايتين ورأينا تصرف جمعية الاتحاد والترقي فيها وما كان من عمل « اللجنة المرخصة » التي ارسلتها من سلانيك . فرأينا خللا وخطلا وسوء تصرف كنا نعتذر عنه للناقمين عليها ، حتى انه لم يوجد لها من دافع عنها كما دافعنا ، وليس تفصيل تصرفها في سوريه من موضوع هذا المقال الذي وضع لبيان الحال العامة .

ثم عدنا الى هذه البلاد التي يعرف من فيها ما لا يتيسر عرفانه لمن في سوريه فسمعنا ممن كانوا في الاستانة من العثمانيين الاحرار ومن غيرهم أمورا منتقدة فوق ما كنا نعلم بل رأينا أكثر العثمانيين لاسيما الترك متغيرين عليها . واننا نذكر مجموع ما ينتقده عليها الناس في مصر وسوريه في موضوع مطالبنا التي اشرنا اليها آنفا وهو

(١) ان سلوك الجمعية مع أعوان الاستبداد لم يكن سلوك من يريد القضاء على الاستبداد بازالة نفوذ أهله و إخضاعهم للدستور بل سلوك من اغتنم الفرصة للاستفادة منهم فقد كانت تأخذ المبالغ الكبيرة منهم وتدعهم وشأنهم اوتضمهم اليها وقد حدثني الثقات من أهل الشام ان اللجنة المرخصة التي ذهبت لاجل التحقيق في الحادثة التي جرت لي في آخر شهر رمضان قد أخذت مبلغا عظيما من النقود باسم الاعانة للجمعية من رؤساء الفتنة وزعماء الاستبداد الذين بلغ من جنونهم في محاربة الدستور أنهم تحدثوا بنصب خليفة في الشام يبايعونه ويقاومون به الحكومة الدستوريه

(٢) انها لم تحسن في انتقاء العمال والحكام فقد ساعدت كثيرين من أعوان الاستبداد حتى على الترقي في الوظائف وأهملت شأن كثير من الأحرار والمجربين . وقد كان اكبر رجاء لي في حكومتنا الجديدة الانصاف في اختيار الموظفين من الاكفاء لا سيما المجربين في مثل مصر . ويتهمون الجمعية بأنها كانت تبيع الوظائف العالية بالمال ، والله أعلم بحقيقة الحال ،

(٣) إنها جعلت هم لجانها في جميع البلاد النفوذ في الحكومه لا مجرد المراقبة عليها لئلا تخرج عن القوانين ولا مساعدتها على حفظ الأمن الذي اختل بعد إعلان الدستور في جميع الولايات كل ولايه بحسب درجتها في الاخلاق وحال الاجتماع

(٤) — إنها لم تحسن الانتقاء والاختيار في تأليف شعبها ولجانها فادخلت فيها كثيرا

من المتقهقرين أو الرجعيين وعادت آخرين . وظهر في بعض لجانها التعصب للجنس التركي حتى كان يكون الاعضاء من الترك هم أصحاب الشأن ومن معهم من غيرهم كالآلات . وقد سمعت كثيرا من الشكوى في ذلك فكنت أدافع بالتي هي أحسن

(٥) حمل الضباط في جميع البلاد على الاشتغال بالسياسة وجعل نفوذهم هو الأعلى في لجان الجمعية وهذا خطر على الدولة كان يجب التشديد في منعه ، والاكتفاء بأن يكون بين الجمعية وبين الضباط صلة خفية كما قلنا وانصراف كل الى عمله : الضباط الى العمل العسكري المحض الذي لا شائبة فيه للسياسة والجمعية لمراقبة سير الدستور من غير مشاركة للضباط في ذلك . فان ظهرت قوة تسعى لإلغاء الدستور وإبطال مجلس الامة أو الاستبداد والظلم جاز حينئذ استنجاد الجمعية بالضباط لمقاومة ذلك . وانه لا يختلف عاقلان من علماء الاجتماع في وجوب منع الضباط من الاشتغال بالسياسة والادارة حتى اذا أبوا أخرجوا من الجيش وفي كون الجند الذي يدخل في الثورة يكون خطرا على الامة فاذا لم يتيسر استصلاحه حالا وجب إخراجه من الجندية أو قتله

(٦) تصرفها مع السلطان . انتقد عليها شيء منه لا نحب الخوض فيه ولكننا نقول إن الذين يرون ان السلطان هو روح الحركة التي وجهت في هذه الايام الى اسقاط الجمعية يقولون لولا أنها أحرجته لما كان شيء من ذلك

(٧) سيرتها في حمل الناس على انتخاب المبعوثين : رأيت بعيني بعض ذلك في طرابلس الشام وقد كنت أدافع عن الجمعية بقدر الامكان لئلا تشتد الفتنة ويستشري الفساد .

(٨) طريقة تأييد نفوذ الجمعية في « مجلس المبعوثان » بما كاد يكون مهددا لسائر الاعضاء سالبا لاستقلالهم

(٩) اتهمت الجمعية أيضا بالتعصب للجنسية التركية وينقلون عنها أمورا كثيرة في ذلك وهو أخوف ما نخافه على مستقبل الدولة وربما شرحنا ذلك في مقال خاص

(١٠) العبث باستقلال الوزارة بحيث كانت الجمعية مانعة من وجود وزارة مستقلة مسئولة امام مجلس الامة وحده عن عملها

(١١) الجهل بمداراة الشعور الديني في الامة فقد أظهر بعض أعضائها

المشهورين أمورا منكرة في نظر الدين جعلت لاعدائها مجالا واسعا للتنفير منها . وقد اعترفت هي اليوم بهذا التقصير

(١٢) ظهورها بمظهر السلطة المستبدة غير المسئولة حتى صرت تسمع من العثماني الحر والمتقهقر ومن الاجنبي المتطرف والمعتدل هذه الكلمة التي اذاعتها الجرائد: ان جمعية الاتحاد والترقي قد أزالت استبداد المابين وأدالت منه استبدادها هي . وتفرع عن هذه الكلمة كلام كثير منه قول الكثيرين ان استبداد السلطان ابن السلطان ابن السلطان أهون علينا من استبداد أوشاب من الناس لا يُعرفون فان السلطان أشرف منهم والذل له أقل عارا من الذل لهم وإرضاءه أسهل من إرضائهم لانه شخص واحد يمكن ان يعرف ما يرضيه ولا يعرف ما يرضي هؤلاء الكثيرين

هذا مجمل ما خطر في بالنا الآن من أقوال الناس في جمعية الاتحاد والترقي بعد ذلك الاجماع على الثناء عليها في أول العهد باعلان الدستور فهل يعقل ان يكون كله كذبا واختراعا من الجماهير المتفرقين في ولايات وممالك كثيرة ؟ وإلا فما سبب شيوعه واللهج به في البلاد والممالك ؟

لم يحصل بعد الدستور شيء من السلطة يحمد الا هدوء الاستانة وحسن السير في حل مشكلتي البوسنه والبلغار وكان الفضل الاكبر في ذلك لكامل باشا ولكن الجمعية لم تلبث ان اسقطت كملا من كرسي الصدارة وغيرت وزارته لانه كان معارضا لنفوذها الفعلي في الحكومة فانتقد ساسة أوربا هذا العمل وعدوه استبدادا من الجمعية في الحكومة وقال بمثل قولهم كثيرون في الدولة لانهم لم يصدقوا انه كان مضادا للدستور كما ادعت

ثم قتل حسن بك فهمي رئيس تحرير جريدة سربستي غيلة فهم السواد الاعظم في الاستانة وغيرها ان الجمعية هي التي اغتالته لأنه كان ينتقد أعمالها فاشتد السخط عليها وانفجر بركانه وكان بعض أعضاء الجمعية اقترح في مجلس الأمة تقييد حرية المطبوعات ونشر في أثناء ذلك مقال كامل باشا الذي بين فيه سبب إسقاط الجمعية لوزارته وما كان من شأنه وشأنها قبل ذلك ولم تحسن الجمعية التصرف في شأن حادثة قتل حسن فهمي الذي عد قتلا للحرية الشخصية واستقلال الفكر فثارت الاستانة على الجمعية وكان ابتداء الثورة يوم دفن حسن بك فهمي . فسقطت وزارة حسين حلمي باشا التي هي

وزارة الجمعية بعد ان أهين لمروره بمركبته من حيث تشيع الجنازة وعدم حضورها تبعا لزعماء الجمعية الذين لم يحضروها . وفر أعضاء الجمعية هاربين من الاستانة وقتل كثيرون من البرآء وجرح آخرون ودمرت اندية الجمعية وادارات بعض جرائدها واستحوذ الرعب على أهل العاصمة وخافوا من سوء العاقبة

سواء صح ما قيل في الجمعية كله أم صح بعضه فان حسنتها التي لاينازعها فيها أحد هي انها هي التي أخذت الدستور باليمين فلا تهبه بالشمال فهي أحرص على حفظه و بقائه من جميع العثمانيين . وهو الآن كالطفل يحتاج إلى تربية وكفالة، وله أعداء فيحتاج الى دفاع وحماية ، فاذا قيل إن الحكومة المسئولة ومجلس الامة يقومان بتربيته ، فهل يستطيع أحد ان ينكر اختصاص الجمعية بالقدرة على كفالته ، وهل جاءتها هذه القدرة إلا من الجيش ؟

إذاً لا بد من بقاء الجمعية ولا بدّ من بقاء صلتها بالجيش ولكن لا يجوز بحال أن تتداخل في أعمال الحكومة ولا ان تعبث بحرية المجلس ولا ان تدع ضباط الجيش يشتغلون بالسياسة ولا ان تقاوم من يخالفها في الرأي بالقوة ولاحاجة بها الى ذلك في حماية الدستور ولكن قد يشتهيه رجال من الجمعية لأنه من تمتع القادر المنصور

لا يوجد في البلاد قوة يمكن ان تقف في طريق الجمعية إلا قوة السلطان في العاصمة وقوة عصابات الاشقياء في بعض الولايات فاما العصابات فيمكن تذليلها بالقوة ولو بعد حين وأما السلطان فانه بنفوذه المعنوي المصبوغ بلون الدين و بأعوانه الكثيرين و بماله الكثير و بدهائه العظيم يمكنه في كل وقت ان يعمل عملا كبيرا فهو أخوف ما يخاف على الدستور اذا لم يخلص له وللناس فيه رأيان أحدهما إن إزالته من امام الدستور ضرورية فان خطره دائم بدوامه ، وثانيهما أنه يمكن أن يؤمن خطره بأمور ترضيه كلها ترجع الى ان يرى ما صار اليه خيرًا مما كان فيه ولا يتم ذلك إلا بتأمينه على نفسه ومنصبه وتحامي جرح وجدانه ولو مع إبعاد رجاله المدبرين للحكم السابق عنه ولكن الجمعية جرحته جروحا نغارة وأخرجت من قصره الحرس الذي يركن اليه ويظن ان حياته متوقفة عليه فهل تطيب لها بعد ذلك نفسه ، و يطمئن اليها قلبه ؟ أم لا بد له من الكيد لها ، والسعي للانتقام منها ؟

الجمعية المحمدية

وافتنا انباء الاستانة وأنا في سورية بأنه قد ظهر فيها جمعية جديدة سميت بالجمعية المحمدية غرضها المطالبة بالحكم بالشريعة وتطبيق القوانين عليها فما وجدتني مرتاحا لهذا النبإ على اني قد وقفت نفسي على الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه والتوفيق بين أحكامه ومصالح البشر في كل طور من أطوارهم مهما ارتقت. وما ذاك الا لأنني خفت أن يكون الغرض الباطن منها محاربة الدستور باسم الدين، كما ان نفسي لم تكن مرتاحة لجمعية الاخاء العربي —وأنا من صميم العرب —لأنني خشيت ان تكون مفرقة بين العرب والترك ومحركة للعصبية الجنسية التي أخاف على الدولة شرها وكنت أصرح برأيي بذلك في كل محفل ومقام

سألني الأمير شكيب أرسلان عن رأيي في الجمعية المحمدية ونحن في ملأ بنادي الاتحاد العثماني ببيروت فقلت إن خوفي منها غالب على رجائي فيها فان كانت تطالب مجلس الأمة بأن يأخذوا قوانين الدولة كلها من كتب الحنفية بالشروط المعتمدة عندهم في الفتوى فهذا حرج عظيم وما أظن ان موسسيها في درجة من الارتقاء يطلبون فيها المحافظة على أصول الاسلام الثابتة من الكتاب والسنة والا كتفاء بعدم الخروج بالقوانين عنها بل لا أرى انهم يرضون بذلك واني أقول انه ليس في ديننا شيء ينافي المدنية الحاضرة المتفق على نفعها عند الامم المرتقية الا بعض مسائل الربا واني مستعد للتوفيق بين الاسلام الحقيقي وكل مايحتاج اليه العثمانيون لترقية دولتهم مما جربه الافرنج قبلهم وغير ذلك ولكن بشرط ان لا ألتزم مذهبا من المذاهب بل القرآن والسنة الصحيحة. وأرجو أن يكون ذلك مقبولا عند جميع العناصر العثمانية الا المقلدين المتعصبين لمذاهبهم من المسلمين. فأورد علي بعض الحاضرين مسألة الشهادة فأجبته بما أقنعه واقنع غيره من الحاضرين

وقع ما كنا نخاف وأكثر وظهر ان هذه الجمعية هي التي قامت بالفتنة الحاضرة في الاستانة حتى انها استمالت اليها العسكر الذي جاءت به جمعية الاتحاد والترقي من سلانيك لتحافظ به على الدستور ، وعسكر الاسطول أيضا ، ولا غرو فباسم الدين تقدر ان تستميل جميع عسكر الدولة ان هي أدلت بخراطيمها اليه . وتفيد أخبار الاستانة أن

قائدها في هذه الفتنة هو مراد بك الداغستاني الشهير الذي كان من زعماء جمعية الاتحاد والترقي من بضع عشرة سنة فخانها مع الخائنين وسلم أوراقها للسلطان ورضي بأن يتقاضى منه مالا على ذلك بعد ان كان من أشد المبالغين في الطعن فيه والتحريض عليه . وبعد الانقلاب طلب ان يدخل في الجمعية لما رأى من نفوذها (وهو كالدنيا مع القائم) فأبت عليه فحاول الانتقام منها و إحباط عملها فهكذا يكون الرجال المصلحون ! !

جمعية الاحرار

كان جميع طلاب الاصلاح من العثمانيين يلقبون بالاحرار ثم تألف حزب في الاستانة سمي بحزب الاحرار وصار له جمعية خاصة به والمشهور ان هذا الحزب على رأي صباح الدين افندي سبط آل عثمان الشهير فيما يعبر عنه بعدم المركزية كما نوهنا بذلك من قبل فهو حزب سياسي لاخطر منه إن كان ظاهره و باطنه سواء وان كانت ولايات الدولة غير مستعدة الآن لأن تكون على رأيه برمته وكم في أوربا من حزب يدعو الى رأيه سنين طويلة ولا يضر الامة مخالفته لرأي السواد الاعظم ولسائر الاحزاب فيها ولكن جمعية الاتحاد والترقي تشتد في مقاومة هذا الحزب حتى إنها اتهمت بقتل محرر جريدة سربستي كما علمت وذلك غلو كان من أسباب الفتنة الحاضرة . وهو قد اتهمها أيضا بالسعي في إسقاطها ومن الناس من يتهم بعض رجاله بمقاومة الدستور ومالنا وللتهم فقد اتهم احمد رضا بك بمشايعة السلطان على هدم الدستور أيضا

الثورة العسكرية والفتن الداخلية

بعد كتابة ما تقدم علمنا إن شيطان الاستبداد تمكن من احداث ثورة عسكرية في الاستانة غرضها الظاهر إبادة جمعية الاتحاد والترقي ويخشى ان يكون الباطن محو الدستور وإعادة الاستبداد الماضي على ان اسقاطها يعيده بالطبع . وقد فر رجال الجمعية من الاستانة ولجأوا الى مركز قوتهم في سلانيك ثم زحفوا بجيشهم على الاستانة ليحكموا السيف والمدفع في الأمر ، فنسأل الله لهم التوفيق والنصر ، وان يحفظ الدولة من الخطر وقد ولدت الثورة بالعاصمة فتنة في ولاية اطنه فهب الترك لذبح الأرمن وهو عمل يتبرأ الاسلام منه ومن فاعليه ، ولكنه لا يسلم معه من طعن الامم فيه ، فبهمجية هؤلاء الاقوام ، صار المسلمون حجة على الاسلام

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي
خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر-الاربعاء ٢٩ ربيع الآخر ١٣٢٧ — ١٩ مايو (ايار) سنة ١٢٨٥هـ ١٩٠٩م ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٨٧ : ١٨٢) وإذ أخذ الله ميثق الذين أوتوا الكتب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون (١٨٨ : ١٨٤) لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم (١٨٩ : ١٨٣) ولله ملك السموت والارض والله على كل شيء قدير *

وجه الاتصال بين الآية الأولى من هذه الآيات وما قبلها هو أن الآيات التي قبلها كانت في أهل الكتاب وقد تقدم أنه تعالى ذكر أحوال النصارى منهم وحاجتهم

في أول السورة ثم ذكر بعض أحوال اليهود قبل قصة احد ثم عاد الى بيان بعض شؤونهم بعدها وكان منه ما في هذه الآية وهو كتمان ما أمروا ببيانه واستبدال منفعة حقيرة به لم يفصل بينه وبين ما قبله فيهم الا بآيتين قد عرفت حكمة وضعهما في موضعهما وقال الرازي : اعلم أن في كيفية النظم وجهين (الأول) انه تعالى لما حكى عن اليهود شبها طاعنة في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وأجاب عنها أتبعه بهذه الآية وذلك لأنه تعالى اوجب عليهم في التوراة والانجيل على أمة موسى وعيسى عليهما السلام أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دينه وصدق نبوته ورسالته والمراد منه التعجب من حالهم كأنه قيل كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صحة نبوته ودينه (الثاني) أنه تعالى لما أوجب في الآية المتقدمة على محمد صلى الله عليه وسلم احتمال الأذى من أهل الكتاب وكان من جملة ايذائهم للرسول عليه الصلاة والسلام انهم كانوا يكتمون ما في التوراة والانجيل من الدلائل الدالة على نبوته فكانوا يحرفونها ويذكرون لها تأويلات فاسدة فبين ان هذا من تلك الجملة التي يجب فيها الصبر اه وقد علمت ماهو المراد بالاذى في تفسير الآية السابقة

وقال الاستاذ الامام وجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها هو أن ما ذكر في الآية السابقة من البلاء الذي يصاب به المؤمنون إنما يصابون به لاخذهم بالحق ودعوتهم اليه ومحافظتهم في الشدائد عليه فناسب بعد ذكر ذلك البلاء الذي أخبرالله به المؤمنين ووطن عليه نفوسهم ليثبتوا ويصبروا ان يذكر لهم مثل الذين خلوا من قبلهم اذ أخذ عليهم الميثاق ببيان الحق فكان من أمرهم ما استحقوا به الوعيد المذكور في الآية . فهو يذكر المؤمنين بذلك كأنه يقول لهم إنكم اذا كتمتم ما انزل عليكم يكون وعيدكم كوعيدهم . قال تعالى

﴿ واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي اذكروا إذ أخذ الله الميثاق عليهم بلسان انبيائهم قال الاستاذ الامام ولا نقول في التوراة لان القرآن لم يقل بذلك ولا بعدمه فليس لنا أن نقيد برأينا ما أطلقه ونزيد عليه بغير علم ﴿ لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾

أي أكد عليهم إيجاب البيان أو التبيين وفيه معنى التكثير والتدريج كما يؤكد على المخاطب أهم الامور بالعهد واليمين فيقال له آلله لتفعلن كذا . فقراءة من قرءوا بتاء الخطاب حكاية للمخاطبة التي أخذ بها الميثاق . وقرأ ابن كثير وابو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالمثناة التحتية «ليبيننه للناس ولا يكتمونه» لانهم غائبون . وقد تقدم بيان معنى أخذ الميثاق في الآية ٨١ من هذه السورة (راجع ص ٣٥٠ من جزء التفسير الثالث)

روي عن سعيد ابن جبير والسدي ان الذي اخذ عليهم العهد الموثق بيانه هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن الحسن وقتادة انه الكتاب الذي أوتوه وهو الظاهر المتبادر ويدخل فيه البشارة بالنبي (ص) قال الاستاذ الامام وتبيينه هو أن يوضحوا معانيه كما هي ولا يؤولوه ولا يحرفوه عن مواضعه التي وضع لتقريرها ومقاصده التي أنزل لأجلها حتى لا يقع في فهمه لبس ولا اضطراب . وههنا أمران العلم بالكتاب على غير وجهه وهو نتيجة عدم البيان ، وعدم العلم به بالمرة وهو نتيجة الكتمان ، وقد يقال ان الظاهر المتبادر في الترتيب هو ان ينهى عن الكتمان اولا ثم يأمر بالبيان لأن البيان إنما يكون مع إظهار الكتاب فلماذا عكس ؟ والجواب عن هذا أن القرآن قدم أهم الامرين لأن المخالفة في الأول وهو الكتمان تقتضي الجهل البسيط وهو الجهل بالدين وفي الثاني تقتضي الجهل المركب وهو اعتقاد ما ليس بدين دينا والجهل البسيط أهون لأن صاحبه يوشك ان يظفر بالكتاب يوما فيهتدي به ويعرف الدين وأما الجهل المركب وهو فهمه على غير وجهه فيعسر زواله بالمرة فيكون صاحبه ضالا مع وجود اعلام الهداية أمامه

(قال) والعبرة في ذلك ظاهرة عندنا وفي أنفسنا فان كتابنا وهو القرآن العزيز لم يوجد كتاب في الدنيا حفظ كما حفظ ونقل كما نقل ونشر كما نشر فان الجماهير من المسلمين قد حفظوه عن ظهر قلب من القرن الأول الى هذا اليوم وهم يتلونه في كل مكان حتى إنك تسمعه في الشوارع والاسواق ومجتمعات الأفراح والاحزان وفي كل حال من الاحوال ، ولكنهم تركوا تبيينه للناس فلم يغن عنهم عدم الكتمان شيئاً فانهم فقدوا هدايته حتى انهم يعترفون بان المسلمين انفسهم منحرفون عنه وان القابض على دينه كالقابض على الجمر ـ ويعترفون بأن الغش قد عم وطم ، ويعترفون

بارتفاع الامانة ، وشيوع الخيانة الخ الخ وكل هذا من نتائج ترك التبيين

(قال) ولهذه التعمية وهذا الاضطراب في فهم الكتاب أسباب أهمها ما كان من الخلاف بين العلماء من قبل لا سيما في القرن الثالث فقد انقسمت الأمة إلى شيع وذهبت في الخلاف مذاهب في الاصول والفروع وصار كل فريق ينصر مذهبه ويحتج له بالكتاب يأخذ ما وافقه منه ويؤول ما خالفه واتبعهم الناس على ذلك ورضي كل فريق من المسلمين بكتب طائفة من أولئك المختلفين حتى جاءت أزمنة ترك فيها الجميع التحاكم الى القرآن وتأييد ما يذهبون اليه به وتأويل ما عداه (اقول بل وصلنا الى زمن يحرمون فيه ذلك ولا يرون فيه للقرآن فائدة تتعلق بمعناه بل كل فائدته عندهم انه يتبرك به ويتعبد بألفاظه ويستشفى به من امراض الجسد دون أمراض القلب والروح) حتى صرنا نتمنى لو دامت تلك الخلافات فانها أهون من هجر القرآن بتاتا فان الناس قد وقعوا في اضطراب من أمر دينهم حتى صاروا يحسبون ما ليس بدين دينا وحتى ان العلماء يرون المنكرات فلا ينكرونها بل كثيرا ما يقعون فيها أو يتأولون لفاعليها ولو بينوا للناس كتاب الله لقبلوه

وأقول ان الذين تصدوا لتبيين القرآن في الكتب وهم المفسرون لم يكن تبيينهم كاملا كما ينبغي وكان جمال الدين يقول « ان القرآن لا يزال بكرا » وان لي كلمة في سبب تقصير المفسرين الذين وصلت الينا كتبهم وهو عدم الاستقلال التام في الفهم وما كان ذلك لبلادة وانما جاء من أمور أهمها الافتتان بالروايات الكثيرة وتغلب الاصطلاحات الفنية في الكلام والاصول والفقه وغير ذلك ومحاولة نصر المذاهب وتأييدها (*

ثم أقول إن البيان أو التبيين على نوعين أحدهما تبيينه لغير المؤمنين به لاجل دعوتهم اليه وثانيهما تبيينه للمؤمنين به لاجل إرشادهم وهدايتهم بما أنزل اليهم من ربهم وكل من النوعين واجب حتم لا هوادة فيه ولا يشترط فيه ما اشترطه بعض الفقهاء من الاستفتاء والسؤال إذ زعموا أن العالم لا يجب عليه التصدي لدعوة الناس وتعليمهم الا اذا سألوه ذلك والقرآن حجة عليهم وهذه الآية آكد في الايجاب

*) سنبين ذلك بالتفصيل في مقدمة التفسير إن شاء الله تعالى

من قوله تعالى (٤ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) الذي تقدم تفسيره في هذا الجزء وهذه السورة فان الأمر وان كان هناك للوجوب لان الاصل فيه ذلك على قول جمهور الاصوليين وأكد بقوله « وأولئك هم المفلحون » الا ان التأكيد فيه دون تأكيد أخذ الميثاق هنا وما فيه من معنى القسم ثم ما يليه من تصوير ترك الامتثال بنبذ الكتاب وبيعه بثمن قليل ومن الذم والوعيد على ذلك اذ قال

﴿ فنبذوه وراء ظهورهم ﴾ النبذ الطرح وقد جرت كلمة نبذه وراء ظهره مجرى المثل في ترك الشيء وعدم المبالاة به والاهتمام بشأنه كما يقال في مقابل ذلك «جعله نصب عينيه أو ألقاه بين عينيه » أي اهتم به أشد الاهتمام بحيث كأنه يراه في كل وقت فلا ينساه ولا يغفل عنه وفيه تنبيه الى كون هذا هو الواجب الذي كان عليهم ان يقوموا به فيجعلوا الكتاب إماما لهم ونصب أعينهم لا شيئا مهملا ملقى وراء الظهر لا ينظر اليه ولا يفكر في شأنه . وكذلك كان أهل الكتاب: (منهم) الذين يحملونه كما يحمل الحمار الاسفار فلا يستفيد مما فيها شيئا (ومنهم) الذين يحرفونه عن مواضعه (ومنهم) الذين لا يعلمون منه الا أماني يتمنونها أي قراآت يقرءونها أو تشهيات يتشهونها وتقدم بيان ذلك في سورة البقرة وسيأتي في مواضع أخرى . ثم بين تعالى جريمة أخرى من جرائمهم في الكتاب فقال ﴿ واشتروا به ثمنا قليلا ﴾ أي أخذوا بدله فائدة دنيوية قليلة لا توازي عشر معشار فوائد بيان الكتاب والعمل به فكانوا مغبونين في هذا البيع والشراء . وهذا الثمن هو ما كان يستفيده الرؤساء من المرءوسين وعكسه كما تقدم في سورة البقرة وفي هذه السورة ومنه ما يتقرب به العلماء الى الحكام وأجور الفتاوي الباطلة وسيأتي بعض التفصيل فيه والعبرة به

وقد أرجع بعضهم كالزمخشري الضمير في قوله « فنبذوه » وقوله « اشتروا به » الى الميثاق . وجرى مثل ذلك على لسان الاستاذ الامام في الدرس ونقله عنه بعض الطلاب ولعله سهو فان هذه الآية بمعنى آية البقرة (٢ : ١٧٣ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم

إلا النار) الآية وهي صريحة في الكتاب . فيراجع تفسيرها في الجزء الثاني وفي معناها
آيات أخرى منها قوله (٢ : ٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا
من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)
ومنها في خطاب بني إسرائيل (٢ : ٤١ ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا) فيراجع تفسيرها في
الجزء الأول . وورد في هذه السورة (آل عمران) بيع العهد والأيمان واشتراء الثمن القليل
بهما في الكلام على اليهود قال تعالى (٣ : ٧٧ ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم
ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) الآية وتراجع في الجزء الثالث . والعهد
يأتي بمعنى الميثاق ويطلق بمعنى ما عهد الله به إلى الناس في وحيه من الشرائع كقوله
عز وجل (٣٦ : ٦٠ ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) الآية . وقوله
(٢ : ١٢٥ وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين) الآية فالعهد بهذا
المعنى يراد به المعهود به فيكون بمعنى الكتاب وهو المراد في الآية المذكورة آنفا
(٣ : ٧٧) ولذلك أفرد العهد وعطف عليه الأيمان لأن العهد واحد وان اشتمل
على احكام كثيرة وهو الكتاب والأيمان تعتبر كثيرة بكثرة من أخذت عليهم .
وجملة القول ان الضمير في قوله فنبذوه وقوله « واشتروا به » هو ضمير الكتاب
لا الميثاق كما قيل

الاستاذ الامام : نبذوا الميثاق لم يفوا به اذا تركوا العمل بالكتاب والثمن القليل
الذي اشتروه به لم يبينه القرآن لأنه ظاهر في نفسه ومعروف من سيرتهم وهو عبارة
عن التمتع بالشهوات الدنية واللذائذ الفانية فكان أحدهم يجد في العمل بالكتاب
والتزام الشريعة مشقة فيتركها حبا في الراحة وإيثارا للذة . وأما التأويل والتحريف
فقد كان لهم فيه أغراض كثيرة (منها) الخوف من الحكام والرجاء فيهم فيحرف رجال
الدين النصوص عن مواضعها المقصودة ويصرفونها الى معان أخرى ليوافقوا ما يريد الحاكم
فيأمنوا شره وينالوا بره (ومنها) إرضاء العامة أو الاغنياء خاصة بموافقة أهوائهم لاستفادة
الجاه والمال (ومنها) — وهو الأصل الاصيل في التحريف — الجدل والمراء بين رجال
الدين أنفسهم لاسيما الرؤساء وطلاب الرياسة منهم فان الواحد من هؤلاء اذا قال قولا
أو أفتى فأخطأ فأبان خطأه آخر ينبري لتصحيح قوله وتوجيه فتياه وتخطئة خصمه وتأخذه

العزة بالإثم فيرى الموت أهون عليه من الاعتراف بخطاه والرجوع الى قول أخيه في
العلم والدين (ومنها) الجهل فان المتصدي للتعليم أو الفتيا قد يجهل مسائل فيتعرض لبيانها بغير
علم . وإذا أبيح لمثل هذا أن يعلم للأسباب التي نعهدها من الرؤساء الذين يجيزون جهلة
الطلاب بالتدريس ويعطونهم الشهادة بالعلم محاباة لهم فانه يربي تلاميذ أجهل منه فيكونون
كلهم محرفين مخرفين ويفسدبهم الدين (لاسيما اذا صاروا مقربين من الامراء والحكام)
(ومنها) انقطاع سلسلة أهل الفهم والتبيين وخبط الناس بعدهم فيما يؤثر عنهم من
بيان وتأويل وحمله على غير المراد منه حتى بعدوا عن الأصل بعدا شاسعا

(قال) وانظر في حال المسلمين — الذين اتبعوا سنن من قبلهم — واعتبر بحال
أهل الأزهر منهم ترى بعينيك كما رأينا وتسمع بأذنيك كما سمعنا وتفهم سر ماقصه الله
من أنباء أهل الكتاب علينا

أقول ومما سمعه هو وهو العجب العجاب قول شيخ من أكبر الشيوخ سنا وشهرة
في العلم في مجلس إدارة الأزهر على مسمع الملأ من العلماء « من قال انني أعمل
بالكتاب والسنة فهو زنديق » يعني انه لا يجوز العمل الا بكتب الفقهاء فقال له الاستاذ
الإمام رحمه الله تعالى من قال انني اعمل في ديني بغير الكتاب والسنة فهو الزنديق .
وقد ذكرنا هذه المسألة في المنار في زمنهما

واعلم انه لا مفسدة أضر على الدين وأبعث على إضاعة الكتاب ونبذه وراء الظهر
واشتراء ثمن قليل به من جعل أرزاق العلماء ورتبهم في أيدي الامراء والحكام فيجب
ان يكون علماء الدين مستقلين تمام الاستقلال دون الحكام لاسيما المستبدين منهم
وانني لا أعقل معنى لجعل الرتب العلمية ومعايش العلماء في أيدي السلاطين والامراء
الا جعل هذه السلاسل الذهبية اغلالا في أعناقهم يقودونهم بها الى حيث شاؤا من
غش العامة باسم الدين ، وجعلها مستعبدة لهؤلاء المستبدين ، ولو عقلت العامة لما وثقت
بقول ولا فتوى من عالم رسمي مطوق بتلك السلاسل . وقد انتهى الامر بالرتب
العلمية في الدولة العثمانية أن صارت توجه على الاطفال ، بله الجاهلين من الرجال ، حتى
قال فيها أحد علماء طرابلس الشام من قصيدة طويلة في سوء حال الدولة

زمن رأيت به العجائب   وذهلت فيه من الغرائب

زمن به الوهم السخيـ ـف على عقول الناس غالب
أفلا تراهم جانبوا كسب المعارف والمآدب(١)
ورضوا بأوراق تخـ ـط خطوطها مثل العقارب(٢)
يشهدن ؟ زورا ان من هي باسمه نور الغياهب
عـلامة العلماء او بلاغ دولته المآرب (٣)
ويكون أجهل جاهل ولمالها بالغش ناهب
أو انه حدث على فخذيه خرء الليل لازب

ثم هزىء الناظم بعد ذلك بكساوي التشريف العلمية وشبهها وهي على العلماء بالسروج (المزركشة) على الدواب «والسيور على القباقب» الى ان قال

ضحكت عليهم دولة هرمت وقاربت المعاطب

على انه صار بعد ذلك من حملة هاتيك الاوراق والمتزينين بتلك الكساوي الموشاة والمتحلين بتلك الاوسمة البراقة الذين يسبحون بحمد السلطان معطيها بكرة وأصيلا، ويضللون من يطلب إصلاح حال الدولة تضليلا ، فهل يوثق بعلم عالم مقرب من المستبدين أو بدينه ؟

ان علماء السلف كانوا يهربون من قرب الأمراء المستبدين اشد مما يهربون من الحيات والعقارب ورووا في ذلك اخبارا وآثارا كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم « سيكون بعدي أمراء (زاد في رواية يكذبون و يظلمون) فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض » الحديث رواه الترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه ايضا والبيهقي. وفي معناه قوله (ص) سيكون عليكم أئمة يملكون ارزاقكم يحدثونكم فيكذبونكم و يعملون فيسيئون العمل لا يرضون منكم حتى تحسنوا قبيحهم وتصدقوا كذبهم فأعطوهم الحق ما رضوا به فاذا تجاوزوا فمن قتل على ذلك فهو شهيد » رواه الطبراني عن أبي سلالة وله طرق أخرى وإنما اوردناه لقوله فيه « يملكون ارزاقكم »

(١) يعني بالمآدب الآداب (٢) هي البراءات السلطانية بالرتب العلمية التي تكتب بالخط المعروف بالديواني (٣) ومن ألفاظها « وارث علوم الانبياء والمرسلين »

ومنها حديث أنس المشهور « العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان فاذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم » رواه العقيلي في المصنف والحسن بن سفيان في مسنده وكذا الحاكم في التاريخ وأبو نعيم في الحلية والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم ونازع السيوطي ابن الجوزي في وضعه فقال ان له شواهد فوق الاربعين فيحكم له على مقتضى صناعة الحديث بالحسن

ومنها حديث ابن عباس « أن أناسا من أمتي يتفقهون في الدين ويقرءون القرآن ويقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد الا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم الا الخطايا » قال السيوطي رواه ابن ماجه بسند رواته ثقات . وكذا ابن عساكر . ومن حديثه عند الديلمي « سيكون في آخر الزمان علماء يرغبون الناس في الآخرة ولا يرغبون ويزهدون الناس الدنيا ولا يزهدون وينهون عن غشيان الامراء ولا ينتهون » ومنه أيضا عند أصحاب السنن الثلاثة وحسنه الترمذي « من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى ابواب السلطان افتتن »

ومنها حديث معاذ ابن جبل « ما من عالم اتى صاحب سلطان طوعا الا كان شريكه في كل لون يعذب به في نار جهنم » اخرجه الحاكم في تاريخه والديلمي . واخرج ابو الشيخ في الثواب والحاكم في التاريخ من حديثه أيضا « اذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين ثم أتى باب السلطان تملقا اليه وطمعا لما في يده خاض بقدر خُطاه في نار جهنم » . واخرجه الديلمي من حديث ابي الدرداء بلفظ آخر

وفي الباب أحاديث أخرى أوردها الحافظ السيوطي في كتاب خاص سماه (الاساطين في عدم المجيء الى السلاطين) والآثار عن السلف الصالح في ذلك أكثر لظهور أمراء الجور في زمنهم وتهافت العلماء عليهم منها قول حذيفة الصحابي الجليل إياكم ومواقف الفتن . قيل وما هي ؟ قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الامير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه. وقال ابوذر الصحابي الجليل لسلمة بن قيس: لا تغش ابواب السلاطين فانك لا تصيب من دنياهم شيئا الا اصابوا من دينك

افضل منه . وقال الأوزاعي الامام المشهور ما من شيء ابغض الى الله من عالم يزور عاملا (أي من عمال الحكومة) وقال سمنون العابد الشهير : ما اسمج بالعالم ان يؤتى الى مجلسه فلا يوجد فيسئل عنه فيقال عند الامير وكنت أسمع أنه يقال اذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ما دخلت قط على هذا السلطان الا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ما اواجههم به من الغلظة والمخالفة لهواهم . اه وقد اشار بقوله وكنت اسمع الخ الى حديث ابي هريرة عن النبي (ص) انه قال « اذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلم انه لص » رواه الديلمي في مسند الفردوس او الى قول سفيان الثوري ليوسف بن أسباط : اذا رأيت القاريء يلوذ بالسلطان فاعلم انه لص واذا رأيته يلوذ بالاغنياء فاعلم أنه مراء ، وإياك ان تخدع فيقال لك : ترد مظلمة ، تدفع عن مظلوم فان هذه خدعة أبليس اتخذها للقراء سلما .

أقول يعنون بالقراء علماء الدين يعني ان الشيطان يلبس على رجال الدين ما يلبسون فيقول لهم ويقولون اننا لا نريد بغشيان الامراء والتردد عليهم الا نفع الناس ودفع المظالم عنهم وهم إنما يريدون المال والجاه بدينهم ويقل الصادق فيهم . وهكذا أضاعوا دينهم فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا

وقد نظم كثيرون من ناظمي الحكم بعض هذه المعاني ومن أحسن مانظم في ذلك قول بعضهم

قل للأمير مقالة ... لا تركنن الى فقيه
ان الفقيه اذا أتى ... أبوابكم لاخير فيه

قال تعالى ﴿ فبئس ما يشترون ﴾ اي هو ذميم قبيح لانهم يجعلون هذا العرض الفاني بدلا من النعيم الباقي في الآخرة وكذا من سعادة الدنيا الحقيقية التي تحصل للامة بمحافظة العلماء على الكتاب وتبيينه لها و إرشادها به الى ما يهذب اخلاقها ويعلي آدابها ويجمع كلمتها ويحول بينها و بين مطامع المستبدين فيها حتى تكون أمة عزيزة قوية متكافلة متضامنة أمرها شورى بين أهل الرأي وأولي الامر من أفرادها

ثم قال عز وجل ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا و يحبون ان يحمدوا بما لم

يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ روى الشيخان وغيرهما من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف ان مروان قال لبوابه اذهب يارافع الى ابن عباس فقل لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى وأحب ان يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون . فقال ابن عباس مالكم وهذه إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أنهم قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك اليه وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه ، وأخرج الشيخان أيضا من حديث أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله (ص) فاذا قدم اعتذروا اليه وحلفوا وأحبوا ان يحمدوا بمالم يفعلوا فنزلت هذه الآية . واخرج عبد الرزاق في تفسيره عن زيد ابن اسلم ان رافع بن خديج وزيد بن ثابت كانا عند مروان فقال مروان يارافع في أي شيء انزلت هذه الآية «لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا» قال رافع انزلت في ناس من المنافقين كانوا اذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم اعتذروا وقالوا ما حبسنا عنكم الا شغل فلوددنا لوكنا معكم . فأنزل الله فيهم هذه الآية وكان مروان انكر ذلك فجزع رافع من ذلك فقال لزيد بن ثابت انشدك الله هل تعلم ما أقول قال نعم . قال الحافظ ابن حجر يجمع بين هذا و بين قول ابن عباس بانه يمكن ان تكون نزلت في الفريقين معا . قال وحكى الفراء انها نزلت في قول اليهود نحن أهل الكتاب الاول والصلاة والطاعة ومع ذلك لايقرون بمحمد . وروى ابن ابي حاتم من طرق عن جماعة من التابعين نحو ذلك ورجحه ابن جرير ولا مانع ان تكون نزلت في كل ذلك انتهى من لباب النقول وقد اخرج هذه الروايات غير من ذكرناهم أيضا

وقد وجها بعض من قال إنها نزلت في اليهود بغير ذلك الوجه الخاص في رواية الصحيحين عن ابن عباس ومما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس في ذلك انه قال هم أهل الكتاب أنزل عليهم الكتاب فحكموا بغير الحق واحبوا ان يحمدوا بمالم يفعلوا ، فرحوا بأنهم كفروا بمحمد (ص) وما أنزل الله وهم يزعمون انهم يعبدون الله و يصلون و يطيعون الله . وروى عن الضحاك انهم فرحوا بما أتوا من تكذيب النبي والكفر به

وأحبوا ان يحمدوا بما لم يفعلوا وهو قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه ونحن أهل الصلاة والصيام . وهذا وجه وجيه وهو الذي أختاره ابن جرير ويمثل هذا العموم يوجه نزولها في المنافقين

الاستاذ الامام : كان الكلام في أهل الكتاب لتحذير المسلمين من مثل فعلهم في سياق الحض على الاستمساك بعروة الحق وحفظه والدعوة اليه اذ أخذ على أولئك الميثاق فقصروا فيه وتركوا العمل بالكتاب وتبيينه للناس واشتروا به ثمنا قليلا فاستحقوا العقاب من الله تعالى . بعد هذا بين في هذه الآية حالا آخر من أحوال أولئك الغابرين ليحذر المؤمنين منه لأنهم عرضة له وهو انهم كانوا يفرحون بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب ويرون لانفسهم شرفا فيه وفضلا بأنهم أئمة يقتدى بهم وهذا فرح بالباطل وكانوا يحبون ان يحمدوا بأنهم حفاظ الكتاب ومفسروه وعلماؤه ومبينوه والمقيمون له وهم لم يفعلوا شيئا من ذلك وإنما فعلوا نقيضه اذ حولوه عن الهداية الى مايوافق اهواء الحكام واهواء سائر الناس يطلبون حمدهم . بين الله هذه الحال في أسلوب عجيب بين فيه حكما آخر وهو ان هؤلاء الفرحين المحبين للمحمدة الباطلة قد اشتبه أمرهم على الناس فهم يحسبون أنهم أولياء الله وأنصار دينه وعلماء كتابه وانهم أبعد الناس عن عذابه وأقربهم من رضوانه فبين الله كذب هذا الحسبان ونهى عنه وسجل عليهم العذاب

أقول ان هذه الآية على عمومها مبينة لشيء من الثمن الذي استبدلوه بكتاب الله وكونه بئس الثمن وهو أمران « أحدهما » فرحهم بما أتوه من الأعمال فرح غرور وخيلاء وفخر على ان منه نبذ كتاب الله بترك العمل به وعدم تبيينه على وجهه إما بتحريفه عن مواضعه ليوافق اهواء الحكام أو أهواء الناس وإما بالسكوت عنه والأخذ بكلام العلماء السابقين تقليدا بغير حجة الا ادعاء أنهم كانوا أعلم بالكتاب وانهم ان خالفوا بعض نصوصه فلا بد ان يكون عندهم دليل أوجب عليهم ذلك « وثانيهما » حب المدح والثناء بالباطل فانهم يتبعون اهواء الحكام والناس في الدين ويحبون ان يحمدوا بأنهم يبينون الحق لوجه الله لاتأخذهم فيه لومة لائم فان الحاكم أوغير الحاكم اذا احتاج الى عمل يرضي به هواه وشهوته مما يحظره عليه الدين فلجأ الى العالم فعلمه حيلة

شرعية يسلم بها من نقد الناقدين وذم المتدينين فلاشك انه يحمد ذلك العالم ويطريه بأنه العالم التقي المحقق، لامكافأة له فقط بل يرى من مصلحته أن يعتقد الناس العلم والصلاح في مفتيه ليأخذوا كلامه بالقبول وقد علمنا من الثقات أن الحكام منا كانوا يتواطؤن مع كبار شيوخ العلم وشيوخ الطريق المحترمين عند العامة على تعظيم كل فريق منهم للآخر فرؤساء الحكام يظهرون للعامة احترام العلماء والاعتقاد بولاية كبار شيوخ أهل الطريق فيقبلون أيديهم عند اللقاء وربما أهدوا اليهم بعض الهدايا والمشايخ من العلماء وأهل الطريق يظهرون للعامة احترام أولئك الحكام ويشهدون بقوة دينهم وشدة غيرتهم على الاسلام والمسلمين ووجوب طاعتهم في السر والجهر- يقولون- وان ظلموا وجاروا لأنهم مسلطون من الله عز وجل !!! فهكذا كان الظالمون المستبدون ومازالوا يستفيدون من الدين بمساعدة رجاله ويتفق الرؤساء من الفريقين على إضاعة حقوق الأمة وإذلالها لهم ليتمتعوا بلذة الرياسة ونعيمها فيفرحون بما أتوا من ضروب المكايد السياسية والاجتماعية ، والتأويلات الدينية ، التي ترفع قدرهم ، وتخضع العامة لهم ، ويحبون ان يحمدوا دائما بأنهم أنصار الدين وحماته ، ومبينوا الشرع ودعاته ، وان نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وتوجهوا الى كتب أمثالهم وأشباههم، وكانت الأمة لا تزداد كل يوم الا شقاء بهم ، حتى سبقتها الأمم كلها بسوء سياستهم ، ولو أنهم أقاموا الكتاب كما أمروا بالبيان له والعمل به وإلزام الحكام بهديه لما عم الفسق والفجور وصارت الشعوب الاسلامية دون سائر الشعوب حتى ذهبت سلطتها وتقلص ظلها عن أكثر الممالك التي كانت خاضعة لها ، وهي تتوقع نزول الخطر بالباقي وهو أقلها،

وقد كان الأمراء والسلاطين فمن دونهم من كبراء الحكام هم الذين يخطبون ود العلماء والمتصوفة ويستميلونهم اليهم وهؤلاء يتعززون، فيستجيب للرقية بعضهم ويعتصم بالإباء والتقوى آخرون ، ثم انعكست الحال ، وضعف سلطان التقوى امام سلطان الجاه والمال ، فصار رجال الدين ، هم الذين يتهافتون على أبواب الأمراء والسلاطين ، فيقرَّب المنافقون ، ويؤذى المحقون المتقون، وتكون مراتب الآخرين على نسبة قربهم من أحد الطرفين ،

هذا ما أحببت التذكير به في تبيين العبرة بالآية في سياسة الأمة وعمل رؤساء

الدين والدنيا الذين يفرحون بأعمالهم وان ساءت ويحبون ان يحمدوا بالشعريات الكاذبة التي راجت سوقها في هذا العصر بالصحف المنشرة المعروفة بالجرائد فالكثير منها قد اتقن هذه الجريمة — مدح السلاطين والأمراء والرؤساء بما لم يفعلوا — حتى اطمأنوا باعتقاد السواد الاعظم ان سيئاتهم حسنات، وحتى بطلت فائدة المحمدة الصحيحة وحب الثناء بالحق والشكر على العمل فانهدّ بذهاب هذه الفائدة ركن من أركان التربية والإصلاح القومي والشخصي فان حب الحمد غريزة من أقوى غرائز البشر التي تنهض بالهمم وتحفز العزائم إلى الأعمال العظيمة النافعة رغبة في اقتطاف ثمار الثناء عليها فاذا كان الانسان يدرك هذا الثناء التي يستحقه العاملون بدون ان يكلف نفسه عناء العمل للأمة ونفع الناس بكذب الجرائد في حمده والثناء عليه بالباطل قعدت همته ووهت عزيمته وأخلد الى الراحة أو اشتغل بالعمل للذته فقط .

فاذا كان العالم الذي ينتمي الى الامراء والسلاطين وينال الحظوة عندهم لا يوثق بعلمه ولا بدينه كما تقدم بيانه والاستدلال عليه بالاحاديث والآثار فاصحاب الجرائد أولى بعدم الثقة بأخبارهم وآرائهم اذا كانوا كذلك وأنى للعوام المساكين فهم هذا وادراك سره والجهل غالب والغش رائج والناصح المخلص نادر ؟ وقد صارت حاجة الملوك والأمراء المستبدين الى حمد الجرائد توازي حاجتهم الى حمد رجال الدين في غش الأمة او تزيد عليها ولذلك يغدقون عليهم النعم ويقربونهم ويحلونهم بالرتب وشارات الشرف التي تعرف بالأوسمة أو النياشين . كما يحرص على إرضائهم كل محبي الشهرة بالباطل من الاغنياء والوجهاء

لولا ان حب المحمدة بالحق على العمل النافع من غرائز الفطرة التي يستعان بها على التربية العالية لما قيد الله الوعيد على حب الحمد بقوله «بما لم يفعلوا» فهذا القيد يدل على ان حب الثناء على العمل النافع غير مذموم ولا متوعد عليه وهذا هو الذي يليق بدين الفطرة بل جاء في الكتاب الحكيم مايدل على مدح هذه الغريزة كقوله تعالى لنبيه (٩٤ : ٤ ورفعنا لك ذكرك) وقوله في القرآن (٤٣ : ٤٤ وانه لذكر لك ولقومك) نعم ان هنالك مرتبة أعلى من مرتبة من يعمل الحسنات ليحمد

عليها وهي مرتبة من يعملها حبا بالخير لذاته وتقربا به الى الله تعالى

على ان المدح بالحق لايخلو في بعض الأحوال من ضرر في الممدوح كالغرور والعجب وفتور الهمة عن الثبات والمواظبة على العمل الذي حمد عليه وهذا هو سبب النهي عن المدح في حديث ابي بكرة عند احمد والشيخين وغيرهم قال: ان رجلا ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ويحك (وفي رواية ويلك) قطعت عنق صاحبك - يقوله مرتان - ان كان أحدكم مادحا لأخيه فليقل أحب كذا وكذا ان كان يرى انه كذلك وحسيبه الله، ولا يزكي على الله احدا» وفي رواية عند الطبراني في المعجم الكبير زيادة «والله لو سمعها ماأفلح» نعم يحتمل ان تكون عبارة ذلك المادح مما يستنكر من قبح الإطراء وان يكون الممدوح بها ممن يعلم النبي (ص) استعداده للغرور بما يقال فيه، فوقائع الاحوال موضع للاحتمالات لما فيها من الاجمال كما هو مشهور ولكن قل من يسلم من الاغترار بالمدح لاسيما إذا كان إطراء وقلما يكون الإطراء حقا وقلما يلتزم المطرون الحق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» رواه احمد ومسلم وابو داود والترمذي من حديث المقداد ابن الاسود و بعضهم وغيرهم عن انس وعبدالله بن عمرو وابي هريرة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما انا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» رواه البخاري من حديث ابن عمر

ثم أعود الى المسألة الأولى فأقول : ان الفرح بالعمل من شأن المغرورين وليس المراد به هنا ارتياح نفس العامل وانبساطها لما يأتيه من العمل الذي يرى انه محمود كما فهم مروان وانما هو فرح البطر والغرور الذي يتبعه الخيلاء والفخر كما أشرنا الى ذلك، وهو ما نبه عليه في فائدة المصائب تصيب المؤمنين بقوله عز وجل (٥٧ : ٢٣ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) ومنه قوله تعالى (٢٨ : ٧٦ إذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين) وهذا الافراط في الفرح بالنعمة الذي يكون من الضعفاء يقابله عندهم المبالغة في الحزن في المصيبة الى ان يقع المصاب في اليأس

والكفر وقد بين تعالى حال الفريقين بقوله (١١: ٩ ولئن اذقنا الانسان منا نعمة ثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ١٠ ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور ١١ الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) أي لانهم هم الذين رباهم تعالى بحوادث الزمان وغيره مع ارشادهم الى وجه الاستفادة من ذلك كما تقدم بيانه مفصلا في سياق تفسير الآيات التي نزلت في غزوة احد واليه أشير بقوله بعد ذكر المصائب «لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» وفي معنى الآيتين مع زيادة في الفائدة آية سورة الروم (٣٠: ٣٦ واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون)

ولما كان هذا هو شأن أصحاب هذا النوع من الفرح - فرح البطر والغرور - كان مما يتبع ذلك تبع المعلول للعلة والمسبب للسبب ترك الشكر على النعمة باستعمالها فيما ينفع الناس بل يستعملونها فيما يسرهم ويمتعهم بلذاتهم ونعيمهم فيكون ذلك مهلكة للأمة كما قال تعالى في أقوام هذا شأنهم (٦: ٤٤ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) ولا يعارض ذلك قوله تعالى (١٠: ٥٨ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) لأن السرور بالنعمة مع تذكر انها فضل من الله لايحدث بطرا ولا غرورا وإنما يحدث شكرا وإحسانا في العمل . فاذا فقهت هذا كله علمت ان الذين يفرحون بأعمالهم فرح بطر واختيال وغرور يكونون مستحقين للوعيد بالعذاب وان كانت أعمالهم التي بطروا بها وفخروا واغتروا بها وكفروا من الاعمال الحسنة لأن بعض الاعمال الحسنة قد تكون لها عواقب رديئة وبعض الاعمال السيئة قد تكون لها عاقبة حسنة وفي هذا قال ابن عطاء في حكمه «رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا»

ويؤيد هذا المعنى الذي حققته قوله تعالى في صفات الاخيار (٢٣: ٦٠ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون) وما روي من الحديث المرفوع في تفسيره ففي حديث عائشة عند احمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه وغيرهم قالت يارسول الله قول الله «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة» أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال «لا ولكنه الرجل يصوم ويتصدق

ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله ان لايقبل منه» فهؤلاء هم الذين قال فيهم بعد ماتقدم (٦١ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) بخلاف الذين يفرحون بما أتوا من عمل ومن آتوا من صدقة فرح عجب وخيلاء فانه يغلب عليهم الرياء وحب الثناء والسمعة فيكسلون عن العمل ولا يواظبون عليه

هذا شأن العمل في الدين ومثله العمل في الدنيا وللدنيا كما يفيدنا البحث في أحوال الامم فان الذين استولى عليهم الغرور يفرحون ويبطرون بكل عمل يعملونه ويرون انه منتهى الكمال فلا تنشط هممهم الى طلب المزيد والمسارعة في الخيرات . حدثني الاستاذ الامام قال حدثني عالم ألماني لقيته في السفينة في احدى سياحاتي قال انه لايوجد عندنا عمل من الأعمال نحن راضون به ومعتقدون أنه لايقبل الترقي والاتقان بل عندنا جمعيات تبحث في ترقية كل شيء وتحسينه من الابرة الى أعظم الآلات وأبدع المخترعات . مثال ذلك البندقية يبحثون فيها هل يمكن ان تكون أخف وزنا أو أبعد رميا أو اقل نفقة الخ ماقال

فاذا تدبرت ماقلناه في هاتين الصفتين الذميمتين : فرح البطر والغرور والفخر بالاعمال ، الذي يدعو الى الكسل والاهمال ، وحب المحمدة الباطلة والقناعة بالثناء الكاذب - اذا تدبرت هذا فقهت سر الوعيد الشديد بتعذيب الأمة المتصفة بهما مرتين واحدة في الدنيا وواحدة في الآخرة وهو المراد بقوله عز وجل «فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب» الخ

أي لا تظن يا محمد أو أيها المخاطب انهم بمنجاة من العذاب الدنيوي أي ملتبسون بالفوز والنجاة منه وهو العذاب الذي يصيب الأمم التي فسدت اخلاقها، وساءت أعمالها، وكابرت الحق والعدل ، وألفت الفساد والظلم ، وهو على قسمين: عذاب هو أثر طبيعي اجتماعي للحال التي يكون عليها المبطلون بحسب سنة الله في الاجتماع البشري وهو خذلان أهل الباطل والافساد وانكسارهم وذهاب استقلالهم بنصر أهل الحق والعدل عليهم وتمكينهم من رقابهم وديارهم وأموالهم ليحل الاصلاح محل الإفساد، والعدل مكان الظلم (١١: ١٠٢ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة

إن أخذه أليم شديد) — وعذاب لا يكون أثرا طبيعياً بل يسمى سخطا سماويا كالزلزال والخسف والطوفان وغير ذلك من الجوائح المدمرة التي نزلت ببعض أقوام الانبياء الذين كفروا بهم وكذبوهم وآذوهم فكان الله يوفق بين أسباب ذلك العذاب المعتادة وأقدارها فينزلها بالقوم عند اشتداد عتوهم وإيذائهم لرسوله فيكونون من الهالكين، وسيأتي بيان ذلك في سورة الاعراف ونحوها إن احيانا الله تعالى وأمدنا بتوفيقه

فإن قلت ان ما قررته يشمل استعلاء بعض الامم الشمالية ، على كثير من ممالك المسلمين الجنوبية ، فهل كان أولئك الشماليون على الحق والصلاح ، وهؤلاء الجنوبيون على الباطل والفساد ؟ أقل نعم الامر كذلك فلولا أنهم يفضلونهم أخلاقا وأعمالا وعدلا وإصلاحا واتباعا لسنن الله في نظام الاجتماع والسياسة لما سلطوا عليهم (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ١١:١١٧) ولكنه يهلكها وأهلها مفسدون في الارض كما ثبت في آيات كثيرة . والايمان قد يكون من جملة أسباب النصر كما تقدم في غير ما موضع من التفسير (١) ولكن لذلك شروطا وسننا بينها الله في كتابه وتقدم تفسير بعض الآيات فيها فتطلب من مواضعها (٢) ومنها تتذكر وتعلم أسباب ما عليه المسلمون الآن فان الله ما فرط في الكتاب من شيء

ثم قال « ولهم عذاب أليم » أي في الآخرة فان فساد أخلاقهم الفاسدة وفرحهم وبطرهم وصغارهم الذي زين لهم حب الحمد الكاذب بالباطل جعل أرواحهم مظلمة دنسة فهي التي تهبط بهم إلى الهاوية حيث يلاقون ذلك العذاب المؤلم .

ومن مباحث اللفظ في الآية ان جمهور المفسرين ذهبوا الى ان قوله تعالى « فلا تحسبنهم » تأكيد لقوله « ولا تحسبن الذين » كما هو معهود في الكلام العربي من إعادة الفعل إذا طال الفصل بينه وبين معموله . قال الزجاج ان العرب إذا اطالت القصة تعيد حسبت وما أشبهها إعلاما بأن الذي جرى متصل بالاول فتقول: لا تظنن زيدا إذا جاءك وكلمك بكذا وكذا فلا تظنه صادقا. فيفيد لا تظنن توكيدا وتوضيحا . والفاء زائدة كما في قوله « فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي » ونقل الاستاذ

(١) راجع ص ٨٢ و١٧٤ و٣٢١ و٤٨٦ من ج ٢ من التفسير وص ١٥١ و٥٣٥ من ج ٣ (٢) راجع سنة الله في النصر وكلمة نصر في فهارس التفسير والمنار

الامام هذا التوجيه في الدرس عن الكشاف ورده فقال لولا الفاء لصح ولكن الفاء تمنع منه وهذا بناء على مذهبه في عدم زيادة حرف ما في القرآن بلا فائدة على ان الذين يقولون بزيادة بعض الحروف وبعض الكلمات إنما يعنون زيادتها غالبا بحسب الإعراب لا انهم يقولون ان إثباتها وتركها سواء . ووجّه العبارة هنا بأن المفعول الثاني في قوله « لا يحسبن الذين يفرحون » محذوف حذف ايجازا لتذهب النفس في تقديره كل مذهب (قال) والقرآن ما أنزل لتحديد المسائل والاخبار والقصص تحديدا يستوي في فهمه كل قارىء وانما الغرض الاهم منه إصلاح النفوس والتأثير الصالح فيها بترغيبها في الحق والخير وتنفيرها من ضدهما . فاذا قال هنا لا تحسبن الذين يفرحون بكذا ويحبون كذا تتوجه نفس القارىء أو السامع الى طلب المفعول الثاني وتذهب فيه مذاهب شتى كلها من النوع الذي يليق بمن هذا حالهم كأن تقدر لا تحسبنهم مطيعين لربهم أو عاملين بهدايته وعند ما يرد عليها بعده « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » يتعين عندها بهذا التفريع الذي ذكر فيه المفعول الثاني ما حذف من الأول لا بشخصه وعينه بل بنوعه لأننا لو قلنا ان ما حذف من الأول هو عين ما أثبت في الثاني لم يكن للتفريع فائدة . ثم قال تعالى

﴿ ولله ملك السموات والأرض والى الله ترجع الأمور ﴾ قال الاستاذ الامام عطف هذه الآية على ما قبلها لاتصالها بالآيات التي قبلها فالواو فيها عاطفة للجملة المستقلة على مثلها كأنه يقول لا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تضعفوا واصبروا واتقوا ولا تخورن عزائمكم، بينوا الحق ولا تكتموا منه شيئا، ولا تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، ولا تفرحوا بما عملتم، ولا تحبوا ان تحمدوا بما لم تفعلوا، فان الله تعالى يكفيكم ما أهمكم ويغنيكم عن هذه المنكرات التي نهيتم عنها، فان ملك السموات والأرض كله له يعطي منه ما يشاء وهو على كل شيء قدير لا يعز عليه نصركم على الذين يؤذونكم بأيديهم وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين، واليه ترجع الامور لأنه هو الذي يدبرها بحكمته وسننه في خلقه . وفي هذا التذييل حجة على كون الخير في اتباع ما أرشد اليه تعالى وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ووعد لهم بالنصر وفيه تعريض بذم أولئك المخالفين الذين سبق

وصفهم في الآيات التي قبل هذه الآية وهو أنهم لايؤمنون بالله تعالى إيمانا صحيحا يظهر أثره في اخلاقهم وأعمالهم وإلا لما تركوا العمل بكتابه وآثروا عليه مايستفيدونه من حطام الدنيا فان هذا لايكون الامن عدم الثقه بوعده تعالى والخوف من وعيده واليقين بقدرته وتدبيره

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذلا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن يمضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ اسئلة من جاوه ﴾

(س ١٣ — ١٦) من صاحب الامضاء في مالاغ (جاوه)

نؤمل من فضلكم متع الله الوجود بوجودكم وأفاض من بحر علومكم وجودكم أن تفيدونا عن حكم الله ورسوله في نكاح الرجل المسلم المرأة غير المسلمة هل يجوز أم لا اذا وعدته باسلامها بعد عقد النكاح كما هو جار عندنا لاسيما من الصينيات فهل يجوز له الهجوم على نكاحها وهي على دين قومها أملا في إسلامها بعد وهل تستثنى من غير المسلمات الكتابيات ومن هن الكتابيات فهل الافرنج اليوم على اختلاف مذاهبهم في النصرانية وعقائدهم وتبديلهم يعدون كتابيين؟ تفضلوا ياسيدي افيدونا بحكم الله تعالى في هذه المسألة فهي وان كانت واضحة لديكم فهي لدينا من المعضلات فلا تهملوها واخوتها لوضوحها لديكم ولعله قد سبق كلام فيها فالمأمول الاعادة لتتم الافادة فنحن في قلق حتى يفد الينا جوابكم الشريف لأن السؤال من الوقائع الحالية عندنا اه

ونسألكم أيضا أطال الله بقاكم عن اجماع علماء الهيئة في هذا العصر على كروية الارض ودورانها حول نفسها وغيرها إني ياسيدي لم أكد أفهم التوفيق بين هذا الاجماع وبين قول الله سبحانه في قصة ذي القرنين «حتى اذا بلغ مغرب الشمس — وحتى اذا بلغ مطلع الشمس» وأين يكون المطلع والمغرب اذا كان هناك للأرض كروية ودوران؟ واذا قلنا ان المطلع والمغرب هنا بحسب مرأى العين لنا فما يثلج الصدر بهذا لأن المطلع اذا كان بنسبة مرأى العين لنا فهو بالنسبة لقوم آخرين هناك يسمى مغربا وكذلك المغرب كيف هذا والاخبار للعموم من غير نسبة لقوم دون آخرين وكروية الارض أظنها تمنع ان يكون للشمس مطلع أو مغرب في محل مخصوص تفضلوا بينوا الابكم المخرج من هذا الاشكال لأني ياسيدي لسوء فهمي وسقم قريحتي حاولت التوفيق بينهما بنفسي ولم أظفر به وكثيرا ماحصل الخوض بين جماعة عندنا في هذه المسئلة وما استطاعوا الخروج من ربقة الاشكال وكلهم أشاروا على الحقير برفع هذا السؤال لحضرتكم والمأمول ان تجبروا خاطرنا بالافادة متع الله بكم أمين اه

ونسألكم لازلتم سراجا للمهتدين عن الحضور في معرض ادارة الصور المتحركة للتفرج عليها هل هناك في الشرع الشريف مايحظر علينا ذلك تفضلوا بينوا لنا حكم الله سبحانه فان عثرتم على مايعذرنا بين يدي الباري جل وعز في حضورها بينوه لنا وما الاصل فيها التحريم أم الحل بينوا الجميع لنا على صفحات ناركم اه

ونسألكم لا برحتم ملجأ لحل المعضلات في الخبر المبلغ بواسطة البرق هل يعتبر به عندنا في الشرع كالصلاة على الغائب المبلغ خبره بواسطة البرق ومايترتب على ذلك في الأمور الشرعية كالهلال في الصوم أو الافطار هل يجوز الاخذ بذلك تفضلوا وضحوا لنا الجميع ولكم من الله جزيل الاجر ودمتم

محمد بن هاشم بن طاهر

﴿ أجوبة المنار ﴾

زواج المسلم بغير المسلمة وهل الاوربيون نصارى

ذهب بعض السلف الى انه لايجوز للمسلم ان يتزوج بغير المسلمة مطلقا ولكن الجمهور من السلف والخلف على حل الزواج بالكتابية وحرمة الزواج بالمشركة ويريدون من الكتابية اليهودية والنصرانية واحل بعضهم المجوسية أيضا و بالمشركة

الوثنية مطلقا بل عدوا جميع الناس وثنيين ماعدا اليهود والنصارى ومن الناس من قال أنهم من المشركين ولكن التحقيق انهم لا يطلق عليهم لقب المشركين لأن القرآن عند ما يذكر أهل الاديان يعد المشركين أو الذين أشركوا صنفا وأهل الكتاب صنفا آخر يعطف احدهما على الآخر والعطف يقتضي المغايرة كما هو مقرر، وكذا المجوس في قول وسيأتي بيان ذلك

والذي كان يتبادر الى الذهن من مفهوم لفظ المشركين في عصر التنزيل مشركو العرب اذ لم يكن لهم كتاب ولا شبهة كتاب بل كانوا أميين

والأصل في الخلاف في المسألة آيتان في القرآن إحداهما في سورة البقرة وهي قوله تعالى (٢: ٢٢١ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) الآية . والثانية في المائدة وهي قوله عز وجل (٥:٥ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات . والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وقد زعم من حرم التزوج بالكتابيات ان هذه الآية منسوخة بتلك وردوه بأن سورة المائدة نزلت بعد سورة البقرة وليس فيها منسوخ فان فرضنا ان أهل الكتاب يدخلون في عداد المشركين يجب ان تكون آية المائدة مخصصة لآية البقرة مستثنية أهل الكتاب من عمومها والا فهي نص مستقل في جواز التزوج بنسائهم

وقد سكت القرآن عن النص الصريح في حكم التزوج بغير المشركات والكتابيات من أهل الملل الذين لهم كتاب أو شبهة كتاب كالمجوس والصابئين ومثلهم البوذيون والبراهمة واتباع كونفو شيوس في الصين وقد علمت ان علماءنا الذين حرص بعضهم على إدخال أهل الكتاب في عداد المشركين لا يترددون في إدخال هؤلاء كلهم في عموم المشركين وان ورد في الكتاب والسنة ماهو صريح في التفرقة والمغايرة . فكما غاير القرآن بين المشركين وأهل الكتاب خاصة في مثل قوله (٩٨ : ١ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) وقوله (٣: ١٨٦ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) وذكر أهل الكتاب بقسميهم في معرض المغايرة في قوله (٥ : ٨٢ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن

أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) الآية كذلك ذكر الصابئين والمجوس وعدهم صنفين غير أهل الكتاب والمشركين والمسلمين فقال في سورة الحج (٢٢ : ١٧ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) فهذا العطف في مقام تعداد أهل الملل يقتضي ان يكون كل من الصابئين والمجوس طائفتين مستقلتين ليسوا من الصنف الذي يعبر عنه الكتاب بالمشركين و بالذين أشركوا . وذلك ان كلا من الصابئين والمجوس عندهم كتب يعتقدون انها إلهية ولكن بعد العهد وطول الزمان جعل أصلها مجهولا لنا ولا يبعد أن يكون من جاؤا بها من المرسلين لأن الله تعالى يقول (٣٥ : ٢٤ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من أمة الا خلا فيها نذير) وقال (١٣ : ٧ إنما انت منذر ولكل قوم هاد) وإنما قويت فيهم الوثنية لبعد العهد بأنبيائهم على القاعدة المفهومة من قوله تعالى (٥٧ : ١٧ ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ومعلوم أن فسق الكثير من أهل الكتاب عن هداية كتبهم ودخول نزغات الوثنية والشرك عليهم لم يسلبهم امتيازهم في كتاب الله على المشركين وعدهم صنفا آخر كما ان فسق الكثيرين من المسلمين عن هداية القرآن ودخول نزغات الوثنية في عقائدهم لا يخرجهم من الصنف الذين يطلق عليه لفظ المسلمين ولفظ المؤمنين وإن كانوا هم الذين يعنيهم الخطباء على المنابر بقولهم « لم يبق من الاسلام الا اسمه » و يطبق العلماء عليهم حديث الصحيحين « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » قالوا يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال « فمن » وبهذا يرد قول من حاولوا ادخال أهل الكتاب في المشركين وتحريم التزوج بنسائهم مستدلين بقوله تعالى بعد ذكر اتخاذهم احبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله (٩ : ٣١ سبحانه وتعالى عما يشركون) فان إطلاق اللقب على صنف من أصناف الناس لا يقتضي مشاركة صنف آخر له فيه إن أسند اليه مثل فعله كما بيناه في تفسير آية (٢ : ٢٢١ ولا تنكحوا المشركات) لا سيما اذا كان الفعل الذي أسند الى الصنف الآخر ليس

هو اخص صفاته وليس عاما شاملا لافراده كاتخاذ أهل الكتاب احبارهم ورهبانهم أربابا يتبعونهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم فان وصفهم الاخص اتباع الكتاب وان كثيرين منهم يخالفون رؤساءهم في التحليل والتحريم ومنهم الموحدون كأصحاب آريوس عند النصارى وقد كثر في هذا الزمان فيهم الموحدون القائلون بنبوة المسيح بسبب الحرية في أوربا وأمريكا وكانوا قلوا باضطهاد الكنيسة لهم

والظاهر ان القرآن ذكر من أهل الملل القديمة الصابئين والمجوس ولم يذكر البراهمة والبوذيين وأتباع كنفوشيوس لأن الصابئين والمجوس كانوا معروفين عند العرب الذين خوطبوا بالقرآن أولا لمجاورتهم لهم في العراق والبحرين ولم يكونوا يرحلون إلى الهند واليابان والصين فيعرفوا الآخرين والمقصود من الآية حاصل بذكر من ذكر من الملل المعروفة فلاحاجة الى الإغراب بذكر من لايعرفه المخاطبون في عصر التنزيل من أهل الملل الأخرى ولا يخفى على المخاطبين بعد ذلك ان الله يفصل بين البراهمة والبوذيين وغيرهم أيضا

ومن المعلوم ان القرآن صرح بقبول الجزية من أهل الكتاب ولم يذكر أنها تؤخذ من غيرهم فكان النبي (ص) والخلفاء (رض) لا يقبلونها من مشركي العرب وقبلوها من المجوس في البحرين وهجر وبلاد فارس كما في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث . وقد روى أخذ النبي الجزية من مجوس هجر أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم من حديث عبد الرحمن بن عوف انه شهد لعمر بذلك عند ما استشار الصحابة فيه . وروى مالك والشافعي عنه أنه قال: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » وفي سنده انقطاع واستدل به صاحب المنتقى وغيره على أنهم لا يعدون أهل كتاب وليس بقوي فان إطلاق كلمة « أهل الكتاب » على طائفتين من الناس لتحقق أصل كتبهما وزيادة خصائصهما لا تقتضي انه ليس في العالم أهل كتاب غيرهم مع العلم بأن الله بعث في كل أمة رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط كما ان اطلاق لقب « العلماء » على طائفة معينة من الناس لها مزايا مخصوصة لا يقتضي انحصار العلم فيهم وسلبه عن غيرهم

وقد ورد في روايات أخرى التصريح بأنهم كانوا أهل كتاب قال في نيل الأوطار عند قول صاحب المنتقى: واستدل بقوله سنة أهل الكتاب على أنهم ليسوا أهل كتاب. مانصه : لكن روى الشافعي وعبد الرزاق وغيرهما بإسناد حسن عن علي « كان المجوس أهل كتاب يدرسونه وعلم يقرءونه فشرب أميرهم الخمر فوقع على أخته فلما أصبح دعا أهل الطمع فأعطاهم وقال ان آدم كان ينكح أولاده بناته فأطاعوه وقتل من خالفه فأسري على كتابهم وعلى مافي قلوبهم منه فلم يبق عندهم منه شيء » وروى عبد بن حميد في تفسير سورة البروج باسناد صحيح عن ابن أبزى: لما هزم المسلمون أهل فارس قال عمر اجتمعوا (أي قال للصحابة اجتمعوا للمشاورة كما هي السنة المتبعة والفريضة اللازمة) فقال ان المجوس ليسوا أهل كتاب فنضع عليهم الجزية ولا من عبدة الأوثان فنجري عليهم أحكامهم. فقال علي بل هم أهل كتاب . فذكر نحوه لكن قال فوقع على ابنته وقال في آخره فوضع الاخدود لمن خالفه . فهذه حجة من قال كان لهم كتاب . وأما قول ابن بطال لو كان لهم كتاب ورفع لرفع حكمه ولما استثنى حل ذبائحهم ونكاح نسائهم فالجواب ان الاستثناء وقع تبعا للأثر الوارد لأن في ذلك شبهة تقتضي حقن الدم بخلاف النكاح فانه يحتاط له . وقال ابن المنذر ليس تحريم نكاحهم وذبائحهم متفقا عليه ولكن الاكثر من أهل العلم عليه اه

اذا علمت هذا تبين لك ان العلماء لم يجمعوا على أن لفظ المشركين والذين أشركوا يتناول جميع الذين كفروا بنبينا ولم يدخلوا في ديننا ولا جميع من عدا اليهود والنصارى منهم فهذا نقل صحيح في المجوس ومنه تعلم ان للاجتهاد مجالا لجعل لفظ المشركات والمشركين والقرآن خاصا بوثنيي العرب وأن يقاس عليهم من ليس لهم كتاب ولا شبهة كتاب يقربهم من الاسلام كما ان أهل الكتاب فيه خاص باليهود والنصارى ويقاس عليهم من عندهم كتب لايعرف أصلها ولكنها تقربهم من الاسلام بما فيها من الآداب والشرائع كالمجوس وغيرهم ممن على شاكلتهم وقد صرح قتادة من مفسري السلف بأن المراد بالمشركين والمشركات في الآية العرب كما سيأتي

وعلى هذا لايكون قوله تعالى «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» نصا قاطعا

في تحريم نكاح الصينيات الذي أكثر منه المسلمون في الصين وانتقل الاقتداء بهم فيه الى جاوه اوكاد. وقد كان ذلك من اسباب انتشار الاسلام في الصين. ولا أدرى مبلغ أثره في ذلك عندكم وبنفي كونه نصا قاطعا في ذلك لا يكون استحلاله كفرا وخروجا من الاسلام والالساغ لنا ان نحكم بكفر من لا يحصى من مسلمي الصين.

هذا وان المشهور عند العلماء ان الأصل في النكاح الحرمة وان كان الاصل في سائر الاشياء الاباحة وعلى هذا لابد من النص في الحل ويمكن ان يقال اذا لم نقل بأن هذا يدخل في القاعدة العامة بأن الأصل الاباحة في كل شيء حتى يرد النص بحظره فاننا نرد الأمر الى الكتاب العزيز فنسمعه يقول بعد النهي عن نكاح أزواج الآباء (٤: ٢٣ حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الاخت وأمهاتكم اللاتي ارضعنكم او اخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الا ماقد سلف، ان الله كان غفورا رحيما (٢٤) والمحصنات من النساء الا ماملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ماوراء ذلكم ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) الآية

فنقول على أصولهم ان قوله تعالى «وأحل لكم ما وراء ذلكم» لا يخلو ان يكون قد نزل بعد ما جاء في البقرة من النهي عن نكاح المشركات وفي سورة النور من تحريم نكاح المشركة والزانية أو قبله، فان كان نزل بعده صح أن يكون ناسخا له وان كان نزل قبله يكون تحريم نكاح المشركة والزانية مستثنى من عموم «وأحل لكم ما وراء ذلكم» بطريق التخصيص سواء سمي نسخا ام لا كما يستثنى منه ما ورد في الحديث من منع الجمع بين البنت وعمتها قياسا على تحريم الجمع بين الاختين او إلحاقا به وجعل ما يحرم من الرضاع كالذي يحرم من النسب على القول المشهور في الاصول بجواز تخصيص القرآن بالسنة على ان الجمهور أحلوا التزوج بالزانية.
وعلى كل حال يكون نكاح الكتابيات ومن في حكمهن (كالمجوسيات عند من قال

بذلك كما نقل الحافظ ابن المنذر) داخلا في عموم نص «وأحل لكم ماوراء ذلكم» وأكد حل نكاح الكتابيات في سورة المائدة التي نزلت بعد ما تقدم كله

وخلاصة ما تقدم ان نكاح الكتابيات جائز لا وجه لمنعه ونكاح المشركات محرم وكون لفظ المشركات عاما لجميع الوثنيات او خاصا بمشركات العرب محل اجتهاد وخلاف بين علماء السلف. قال ابن جرير في تفسير (ولا تنكحوا المشركات): «وقال آخرون بل انزلت هذه الآية مرادا بحكمها مشركات العرب لم ينسخ منها شيء» وروى ذلك عن قتادة من عدة طرق وعن سعيد ابن جبير ولكن هذا قال «مشركات أهل الاوثان» ولم يمنع ذلك ابن جرير من عده قائلا بأنها خاصة بمشركات العرب. ثم قال بعد ذكر سائر روايات الخلاف «وأولى هذه الاقوال بتأويل الآية ما قاله قتادة من أنه تعالى ذكره عنى بقوله «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ» من لم يكن من اهل الكتاب من المشركات وان الآية عام ظاهرها خاص باطنها لم ينسخ منها شيء وأن نساء أهل الكتاب غير داخلات فيها» الخ ما اطال به في بيان حل نكاح الكتابيات

هذا مايظهر بالبحث في الدليل ولكننا لم نطلع على قول صريح لأحد من العلماء في حل التزوج بما عدا الكتابيات والمجوسيات من غير المسلمين قد صرح بحل المجوسية الإمام أبو ثور صاحب الامام الشافعي الذي تفقه به حتى صار مجتهدا وصرحوا بأن تفرده لايعد وجها في مذهب الشافعي. فالشافعية لايبيحون نكاح المجوسية فضلا عن الوثنية الصينية

ولا يأتي في هذا المقام قول بعض اهل الاصول ان النهي لا يقتضي البطلان في العقود والمعاملات وهو مذهب الحنفية فانهم استثنوا منه النكاح وعللوا ذلك بأنه عقد موضوع للحل فلما انفصل عنه ما وضع له بالنهي المقتضي للحرمة كان باطلا بخلاف البيع لأن وضعه للملك لا للحل بدليل مشروعيته في موضع الحرمة كالأمة المجوسية فلذلك كان النهي عن شيء منه غير مقتض لبطلان العقد. فلا يقال عندهم ان نكاح الصينية يقع صحيحا وان كان محرما

وأما البحث في المسألة من جهة حكمة التشريع فقد بني تعالى ذلك في آية النهي

عن التناسخ بين المؤمنين والمشركين في آية البقرة بقوله (أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه) وقد وضحنا ذلك في تفسير الآية وبينا الفرق بين المشركة والكتابية فيه فيراجع في الجزء الثاني من التفسير (من ص ٣٥٧-٣٦١) ومنه ان أهل الكتاب لكونهم اقرب الى المؤمنين شرعت موادتهم لأنهم بمعاشرتنا ومعرفة حقيقة الاسلام منا بالتخلق والعمل يظهر لهم ان ديننا هو عين دينهم مع مزيد بيان واصلاح يقتضيه ترقي البشر وإزالة بدع وأوهام دخلت عليهم من باب الدين وما هي من الدين في شيء. واما المشركون فلا صلة بين ديننا ودينهم قط. ولذلك دخل أهل الكتاب في الاسلام مختارين بعد ما انتشر بينهم وعرفوا حقيقته ولو قبلت الجزية من مشركي العرب كما قبلت من أهل الكتاب لما دخلوا في الاسلام كافة ولما قامت لهذا الدين قائمة. ومن الفرق بينهما في القرب من الاسلام أو الدعوة الى النار ان أهل الكتاب لم يكونوا يعذبون من يقدرون عليه من المسلمين ليرجع عن دينه كما كان يفعل مشركو العرب

ثم ان للاسلام سياسة خاصة في العرب وبلادهم وهي ان تكون جزيرة العرب حرم الاسلام المحمي وقلبه الذي تتدفق منه مادة الحياة الى جميع الاطراف وموئله الذي يرجع اليه عند تألب الاعداء عليه ولذلك لم يقبل من مشركي جزيرة العرب الجزية حتى لا يبقى فيها مشرك بل أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن لا يبقى فيها دينان كما بينا ذلك في الفتوى الرابعة المنشورة في الجزء الثاني (ص ٩٧) من هذا المجلد وتدل عليه الاحاديث الواردة في كون الاسلام يأرز في المستقبل الى الحجاز كما تأرز الحية الى جحرها. وهذا يؤيد تفسير قتادة المشركين والمشركات في الآية

واذ كان الازدواج بين المسلمين والمشركين ينافي هذه السياسة التي هي الاصل الاصيل في انتشار الاسلام وكان تزوج المسلمين بالصينيات مدعاة لدخولهن في الاسلام كما هو حاصل في بلاد الصين فلا يكون تعليل الآية للحرمة صادقا عليهن وكيف يعطى الضد حكم الضد

وقد حذرنا في التفسير من التزوج بالكتابية اذ خشي أن تجذب المرأة الرجل الى دينها لعلمها وجمالها وجهله وضعف أخلاقه كما يحصل كثيرا في هذا الزمان في

تزوج بعض ضعفاء المسلمين ببعض الأوربيات او غيرهن من الكتابيات فيفتنون بهن وسد الذريعة واجب في الاسلام

كروية الارض ومطلع الشمس

مطلع الشمس المكان الذي تطلع منه ومغربها المكان الذي تغرب فيه وهو يختلف باختلاف المواقع لكروية الارض اذ لو كانت سطحا هندسيا لما حصل هذا الاختلاف في المطالع والمغارب. ويعبر كل قوم عن مشرقهم ومغربهم بحسب ما يرون وان خالفوا فيه غيرهم فيقول بعضهم إن الشمس تطلع من جبل كذا وتغرب في البحر وبعضهم غير ذلك. واذا رحل أحدهم الى أقصى ذلك المكان من جهة المشرق يقول قد وصلت الى مطلع الشمس. وقد تعارف أمم كثيرة تختلف مواقع بلادهم ومشارقها ومغاربها على تسمية قطعة من الأرض بالمشرق وقطعة بالمغرب مع ان ما يسمونه مشرقا يكون مغربا لقوم آخرين وما يسمونه مغربا يكون مشرقا لقوم آخرين كما سميت بلاد مراكش بالمغرب الأقصى حتى ان أهل امريكا يعبرون عنهم بذلك وان كانت في جهة المشرق منهم. ومثل ذلك التعبير عن بلاد الدولة العلية مثلا بالشرق الأدنى وعن بلاد الصين بالشرق الاقصى. ويطلق الافرنج لفظ الشرق على قارتي آسية وافريقية مع ان بعض بلاد افريقية هي في جهة المغرب من بعض بلادهم

فاذا أريد بمطلع الشمس ومغربها في قصة ذي القرنين ما كان يسمى في بلاده مطلعا ومغربا صح ذلك واذا فرضنا انه كان لهم عرف في المطلع والمغرب كبعض العرف المشهور الآن صح ذلك. والا ظهر أن المراد بالمطلع والمغرب في قصته أقصى المشرق وأقصى المغرب الذي تيسر الوصول اليه بأسباب السياحة والسفر التي كانت في عصره وبالنسبة إلى بلاده فكان في سياحته كالذين يحاولون الآن اكتشاف القطبين الشمالي والجنوبي

هذا وان الاشكال الذي هو محل الوقفة عندكم يرد على استعمال لفظ مطلع أو مشرق ومغرب مطلقا كما أشرتم الى ذلك فاذا كنتم لا تجيزون استعمال هذه

الألفاظ الا في حقيقة لا تختلف باختلاف البلاد فقد خاطبتم جميع البشر في عرفهم واصطلاحهم والخطب سهل والمراد ظاهر ولا مشاحة في الاصطلاح

الصور المتحركة

لانرى وجها للسؤال عن حل رؤية هذه الصور أو حرمتها فالأصل الحل، وإننا لم نسمع ان أحدا من علماء المسلمين قال ان النظر الى الصور محرم ولا وجه لجعل الحركة سبباً للحرمة، و يظهر لنا من هذا السؤال انكم لستم جاهلين لإباحة رؤية هذه الصور ولكن عندكم أناسا متنطعين يحبون التحكم والاشراف على المسلمين بالأمر والنهي من سماء الدين فيحلون ويحرمون بغير علم وما جرأ أمثال هؤلاء في المسلمين على تحكمهم حتى ضيقوا عليهم دائرة دينهم الواسعة الا التقليد الأعمى و بزعم هؤلاء المعممين المقلدون ان الاجتهاد هو الذي يضيع على العامة دينهم و يكثر الذين يتحكمون في شريعتهم والأمر بالعكس فان الذي لايقبل منه القول الا بالدليل لا يستطيع أن يتحكم ولا أن يعبث كالذي يقبل قوله بلا دليل بدعوى ان طلب الدليل نزوع الى الاجتهاد الممنوع

الاخبار البرقية

هذه الاخبار التي تبلغ بالآلات الكهربائية التي يعبر عنها بما ذكر و بالتلغرافات هي قطعية الاداء فكل من تثق بخبره اذا كلمك بلسانه تثق بخبره الذي يبلغه بالبرق لايتردد في هذا أحد في العالم المستعمل فيه التلغراف ومتى صدق الناس الخبر تبعه العمل بما يترتب عليه من الاحكام الشرعية لاسيما اذا كان من جهة رسمية يطرد صدق برقياتها وكيف تطيب نفس المسلم ان يفطر في نهار بلغه في ليله خبر برقي برؤية هلال رمضان فصدقه تصديقا تاما لاشبهة فيه ولا احتمال (وراجع المبحث في ص ٦٩٧ م ٧)

***

أسئلة من الجبل الاسود

(س من ١٧ — ٢٠) من ح : ح · في نقشيك

ما قولكم دام فضلكم ونفع المسلمين بعلومكم

فيمن يخاطب بالعربية في أرض الترك ثم يترجم بعض ألفاظ الخطبة باللسان

التركي ليفهمها الحاضرون لانهم لا يفهمون إلا باللسان التركي ولا سيما بعض الاحكام اللازمة كصدقة الفطر مثلا فهل يمنع من هذه الترجمة المذكورة وادخال الالفاظ التركية خلال الخطبة ·

وفيمن يفتي الناس بجواز الجهر بالتكبير في الاسواق عند تشييع الحجاج في سفرهم الى الحج من بلادهم مع ما يترتب على الجهر المذكور من المفاسد التي منها امتهان الاسم الشريف في محل القاذورات وذلك مناف للتعظيم ومنها انه يكون سبباً لاجتماع النساء والرجال ومنها ضحك الكفار واستهزاؤهم بذلك الذكر الشريف فيكون سببا لهذا الاستهزاء وربما وقعت الفتنة بين القبيلين بسبب ذلك

وهل العمامة المسنونة يلزم فيها تغطية جميع الرأس حتى لا يبقى من القلنسوة شيء أم السنة هو الوجه المعتاد عند أهل الحرمين وغيرهم من استدارتها على الرأس وترك أعلا القلنسوة من غير تغطية

وهل الاعلان بموت الميت على المنابر بالصلاة والسلام عليك يارسول الله جائز أم مكروه؟ افتونا مأجورين

أجوبة المنار

ترجمة الخطبة بالاعجمية

لايمنع الخطيب في مثل الحالة المسؤل عنها من ترجمة أحكام الخطبة لأن الضرورة تلجيء الى ذلك مادام المسلمون مقصرين في تعلم لغة دينهم والا كانت الخطبة عند أولئك الترك وامثالهم من الاعاجم رسما صوريا لاتحصل به الفائدة المقصودة من الخطبة. و بعض الاعاجم يحتاط فيترجم الخطبة ويشرحها بعد صلاة الجمعة وبلغني انهم يفعلون ذلك في الصين

التكبير عند تشييع الحجاج

التكبير عند تشييع الحجاج ليس مطلوبا شرعا ولا يمنع اذا لم يتخذ شعارا دينيا ولم يترتب عليه مفسدة فان اتخذه قوم شعاراً دينيا يرون انه لابد منه شرعا أو ترتبت عليه مفسدة منع منه. ولو كان مطلوبا شرعا كما يطلب في الايام المعلومات لما صح ان

يكون من موانعه اجتماع النساء والرجال ولاضحك الكفار (٨٦: ٢٩ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ٣٠ واذا مروا بهم يتغامزون) والامتهان لايتحقق الا في نحو الخانات أو الكنف ومايعد في العرف العام إهانة

واما الفتنة ويعني بها السائل فيما يظهر التخاصم الذي ربما يؤدي الى الضرب أو القتل فهي محل النظر لافي موضوع السؤال بل في شعائر الدين الثابتة كالاذان والصلاة والتكبير في العيد فاذا كان الكفار يؤذون المسلمين لقيامهم بشعائر الاسلام وفروضه وجب على المسلمين مقاومتهم ولو بالقتال إن قدروا فان لم يقدروا لقلتهم وضعفهم وجبت عليهم الهجرة من دار الكفر والتعصب الى حيث يكونون في أمان وحرية في دينهم . وقد زدنا هذه الفائدة في الفتوى عملا بالسنة من جواب السائل با كثر مما سأل عنه عند الحاجة الى ذلك

العمامة المسنونة

العمامة (بكسر العين) هي كما قال بعضهم كل ما يعقد على الرأس سواء كان تحت المغفر اوفوقه او لما يشد على القلنسوة اوغيرها

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يلبس العمامة فوق القلنسوة تارة ويلبسها بغير قلنسوة تارة أخرى كما لبس القلنسوة بغير عمامة وفي حديث عمرو بن حريث في صحيح مسلم قال «رأيت رسول الله (ص) على المنبر وعليه عمامة سوداء قد ارخى طرفيها بين كتفيه» وفي حديث جابر عند مسلم ايضا انه دخل مكة وعليه عمامة سوداء، ولم يذكر انه كان لها ذؤابة بين كتفيه قال ابن القيم فدل على ان الذؤابة لم يكن يرخيها دائما . وكان يلتحي بالعمامة تحت الحنك أحيانا ومن فوائده انه يمنع السقوط. ويحصل الغرض من لبسها بأية كيفية كانت وورد في العمامة عدة روايات ضعيفة واهية . وهي من العادات لامن أمور الدين ولكنها زي المسلمين الاولين ومفيدة في حفظ الرأس من الحر

اعلان الموت على المنارة

هذا العمل بدعة لم يأذن بها الله تعالى ولا مضت بها سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وانما نقول انه بدعة اذا أتي به على انه مطلوب دينا بهذه الصفة اي جعله

في مكان اداء شعيرة الاذان وقرنه بأذكار مخصوصة . أما الإعلام بالموت لأجل ان يسعى من يعلمون به الى تجهيز الميت وتشييعه ودفنه والصلاة عليه فذلك مشروع وان ورد في بعض الاحاديث النهي عن النعي وهو في اللغة الاعلام بالموت وإذاعته فالمراد به نعي الجاهلية . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري إنما نهي عما كان أهل الجاهلية يصنعونه وكانوا يرسلون من يعلن بخبر موت الميت على الدور والاسواق . ومن ذلك انهم كانوا يرسلون راكبا فيقول «نعاء فلان» ويطلق النعي على اخذ الثأر فقد كانوا اذا نعوا القتيل يحرضون على الثأر له . وقال ابن الأثير ان النعي الاعلام بالموت والندب. وقال ابو بكر العربي يؤخذ من مجموع الاحاديث ثلاث حالات (الاولى) إعلام الاهل والاصحاب واهل الصلاح فهذا سنة (الثانية) الدعوة للمفاخرة بالكثرة فهذا مكروه (الثالثة) الاعلام بنوع آخر كالنياحة ونحو ذلك فهذا يحرم اه نقل ذلك عنه الشوكاني وقال بعده وبعد نقول أخرى فالحاصل ان الاعلام للغسل والتكفين والصلاة والحمل والدفن مخصوص من عموم النهي لأن إعلام من لا تتم هذه الامور الا به مما وقع الاجماع على فعله في زمن النبوة وما بعده وما جاوز هذا المقدار فهو داخل تحت عموم النهي اه فعلى هذا يكون الاعلام المسؤول عنه منهيا عنه فأقل حالاته ان يكون مكروها . وعندي انه يباح للناس ان يعلموا من لا يتولون ماذكر من الاعمال ولو للتباهي بكثرة المشيعين والمعزين بشرط ان لا يجعلوا ذلك من الدين

***

الرقص والتغني والانشاد في مجلس الذكر

ارسل الينا السؤال الآتي من بعض البلاد العربية لنعرضه على علماء الازهر فأفتي فيه من اطلع عليه بما ترى في الجواب وهذا نص السؤال

بسم الله الرحمن الرحيم

ما قول العلماء الاعلام السادة الكرام في قوم عوام يجتمعون وينشدون الاشعار بالالحان المحدثة والنغمات المطربة ويصفقون بالسبح ويتمايلون بتكسر وتثن هل

فعلهم جائز أيضا و إذا قلنا بكراهة ذلك في أحد المذاهب الاربعة هل يجوز للانسان التقليد لبرقص مثلهم . وما الحكم في مذهب الامام مالك بالرقص إذا كان بتكسر وتثن كرقص المخنثين هل هو حرام أو مكروه فقط أفيدونا بالجواب الشافي لاخلت منكم الديار في جميع الاقطار

الجواب

الحمد لله أما بعد فقد سئل الطرسوسي رحمه الله في مثل ذلك فقال مذهب الصوفية ان هذا بطالة وضلالة وما الاسلام الا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ان الرقص والتواجد أحدثها أصحاب السامري لما اتخذلهم عجلا جسدا له خوار فأتوا يرقصون حوله و يتواجدون ، والرقص دين الكفار وعباد العجل ، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لاحد يؤمن بالله واليوم الآخر ان يحضر معهم ولا يعينهم على طلبهم . وهذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم . قال العلامة ابن حجر الشافعي هذا هو الحق وغيره هو الباطل وان الرقص بتكسر أو تثن حرام على الرجال والنساء وقال العز بن عبد السلام اما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشابهة لرعونة الإناث لا يفعلها الا أرعن أو متصنع جاهل ان الشريعة لم ترد بهما في كتاب ولا سنة ولا فعل ذلك أحد من الانبياء . وانما يفعله الجهلة السفلاء . الذين التبست عليهم الحقائق بالاهواء . وأما نشيد الاشعار بتلك الالحان المحدثة والنغمات المطربة فهو حرام لا يفعله إلا أهل الفسق والضلال . ان هذا من الغناء المنهي عنه . قال القرطبي في نحوه افتى الامام مالك بالحرمة وهو مذهب أهل المدينة والنخعي والشعبي وسفيان الثوري وأبي حنيفة وأهل الكوفة . ولكل من الشافعي وأحمد قول بمثل ذلك ونص على الحرمة الامام الرافعي في الشرح الكبير والنووي في الروضة . وقال الامام الاذرعي اني أرجح تحريم النغمات الملحنة وسماعها . قال عليه الصلاة والسلام ان الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . وقال أبو العباس القرطبي الغناء لم يكن من عادة النبي صلى الله عليه وسلم . ولا فعل بحضرته ولا اعتني بمن يفعله

فليس ذلك من سيرته ولا سيرة خلفائه من بعده ولا من سيرة أصحابه ولا عترته ولا هو من شريعته . بل هو من المحدثات التي هي بدعة وضلالة وقد يتعامى عن ذلك من غلب عليه الهوى . قال عليه الصلاة والسلام من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ — وان رجلا استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الغناء من غير فاحشة فقال لا آذن لك ثم توعده ان عاد اليه بالضرب الوجيع وحلق رأسه تمثيلا به تعزيرا و بالنفي عن أهله و بإحلال سلبه لفتيان المدينة . ثم قال عنه وعن أمثاله هؤلاء العصاة . ثم توعدهم بأن من مات منهم بغير توبة حشره الله يوم القيامة كما كان في الدنيا مخنثا عريانا كلما قام صرع . ومن أدلة التحريم قوله تعالى «واستفزز من استطعت منهم بصوتك» . فسره مجاهد بالغناء والمزامير . ومنها قوله تعالى «أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون» أي مغنون على لغة حمير كما قال عكرمة وابن عباس . وقال مجاهد هو الغناء بلغة أهل اليمن . من هذا كله تعلم ان المذاهب كلها على تحريم ما يصنع أمثال هؤلاء. وان فعلهم هذا ممقوت عند الله وعند العلماء والعقلاء . وان مجلسهم مجلس الشيطان لا مجلس الرحمن. ولا يجوز افشاء السلام عليهم لأن بينهم و بين الشريعة حربا عوانا والمحارب لاسلام ولا أمان له . فيترك السلام خوف ان يظنوا انهم محقون مكرمون مرضي عنهم . واذا كان الأمر كذلك فكيف يقلدهم في هذه الأباطيل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر

كاتبه
عبد الغني محمود المالكي بالازهر

كاتبه
حسين والي الشافعي المدرس بالازهر

العمل المذكور بالسؤال غير مشروع عند الحنفية

كاتبه
عبد الباقي المغربي الحنفي المدرس بالأزهر

(المنار) هذا التشديد في الغناء خاص بمن يفعله على انه عبادة ودين كبعض المتصوفة وكذا شدد فيه بعضهم مطلقا وقد فصلنا القول فيه تفصيلا في الجزءين الأولين من المجلد التاسع .وخبر الذي استأذن الرسول بالغناء لايصح وانما ذكروه تقوية للتنفير

احدى الكبر ✡ وكبرى العبر

خلع عبد الحميد خان . نفيه من دار السعادة . وضعه تحت المراقبة العسكرية . ضبط امواله وذخائره وعقاره . اباحة يلدز للامة . تولية مولانا السلطان محمد الخامس

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ، وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ، بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

(سورة آل عمران ٣ : ٢٦)

جلت قدرة الله ونفذت مشيئته ، وغلب قدره وعلت كلمته ، جعل الايام دولا ، وجعل للدول نواميس وسنناً ، فلا مبدل لسنته ، ولا محوّل لنواميس خلقه، فلايغرنك إملاؤه للظالمين ، واستدراجه للمفسدين ، «١٤ : ٤٢ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ٤٣ مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواءٌ ، وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب

لا ينفع من قدره حذر ، ولا ينفذ من محيط سننه سلطان البشر ، فلا يهولنك ما ترى من رسوخ الاستبداد ، ولا يؤيسنك ما تشاهد من غلبة الاستعباد ، ولا يفزعنك ما ترى من الحصون والاجناد ، فقد مضت سنة الله بأن الشيء إذا جاوز حده ،جاوزضده، وان شدة الضغط توجب شدة الانفجار ، وان الاعمال بالخواتيم ،

و١٢٨:٧ والعاقبة للمتقين » ، «١٣ : ٢٥ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل و يفسدون في الارض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ألا وإن مشيئة الله في إيتاء الملك ونزعه ، وخفض الملك ورفعه ، واعتزاز السلطان وإذلاله ، ليست مشيئة استبدادية ، مغيرة لسننه الاجتماعية ، وإنما جعل لكل شيء سبباً ، ولكل أمر مقادير وسننا ، فما من أمة تفرقت كلمتها ، وغلب عليها الجهل بحقوقها ، واعتقاد وجوب التقديس لأمرائها وملوكها ، وكثر فيها المنافقون، وقلّ فيها الصادقون ، الا وابتليت بالمستبدين ، ومنيت بالظالمين ، يسومونها سوء العذاب ، ويقطعون بها الأسباب ، فيأكلون الاموال ، ويستذلون الرجال ، ويجعلون الحرائر إماء ، ليتمتعوا بالمئات من النساء ، ويعبثون بالشريعة والقانون ، ويجنون على الأخلاق والآداب ، فيذلون أمتهم ، ويضعفون دولتهم ، فاذا استيقظت الامة من سباتها ، واجتمعت بعد شتاتها ، وعرفت حقوقها ، وغيرت ما بأنفسها من تقديس السلاطين ، وأرادت ان تجعل الحكم فيها للشريعة والقوانين ، فان الله يغير ما بها من الذل والعبودية ، فتستبدل بهما العز والحرية ، من حيث يذل ظالميها ، ويهلك مذليها ، «١٣ : ١١ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال

لقد صدقنا الله وعده ووعيده ، وأرانا بأعيننا مصداق كتابه ، فهذا عبد الحميد خان وأعوانه ، وقرناؤه وخصيانه ، وجواريه وغلمانه ، قد بغوا في الارض، وتركوا السنة والفرض ، وعطلوا الشريعة والقوانين ، واستبدوا بجميع العثمانيين ، وجمعوا القناطير المقنطرة من الأموال ، وحشدوا لحمايتهم الألوف المؤلفة من الرجال ، وأقاموا حولهم المعاقل والحصون، ليمنعوا أنفسهم ان يصول عليها المظلومون ، «٥٩ : ٢ وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخرِّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار

نعم ان في ذلك لكبرى العبر ، لمن يعقل ويتدبر ، «٧٤ : ٣٢ كلا والقمر ٣٣ والليل إذ أدبر ٣٤ والصبح إذا أسفر ٣٥ إنها لإحدى الكبَر ٣٦ نذيراً للبشر ٣٧ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر» فقد أدبر ليل الظلم والاستبداد ،

وأسفر صبح الدستور فميز بين الإصلاح والإفساد ، وذهب الغي وجاء «الرشاد» ، وكانت هذه الحركة العثمانية إحدى الكبر ، نذيراً للمستبدين من البشر ، تعلمهم انه لا ينفع حذر من قدر ، كما تعلم من شاء أن يتقدم أو يتأخر من الامم ، كيف يكون السير في الطريق الأمم ، وانما مدار التقدم والتأخر على العدل والاستبداد ، ورسوخ جذور احدى الكلمتين في البلاد ، « ١٤ : ٢٤ ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ٢٥ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ٢٦ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء »

لقد ذهبت هذه العبرة بأعذار اليائسين من رَوح الله ، وتعلات القانطين من رحمة الله ، الذين يتركون العمل ، ويتفيئون ظلال الكسل ، إذا غلقت في وجوههم الا بواب ، وتقطعت بهم الأسباب ، جهلا بعناية الله بالإنسان ، وسننه في نظام الأكوان ، فها نحن أولاء قد رأينا عبد الحميد خان قد غلق جميع الأبواب التي يتصور التوصل منها الى خلعه ، وقطع جميع الاسباب التي يتخيل انها تفضي الى أخذه ، حتى أنه منع الاجتماع والجمعيات ، وحجر حتى على كثير من الألفاظ والاصطلاحات ، فأبطل من المحاكم الشرعية لفظ الحجر والجنون ، وان يحكم بالحجر على مجنون ، ومنع لفظ المخالعة والخلع (١) منها ومما يطبع من كتب الشرع ، لأنه يذكر بلفظ الخلع (بالفتح) كما أبطل من جميع المطبوعات ، امثال هذه الكلمات ، عبد الحميد . سلطان (الاعند ذكره) مراد . رشاد . ثورة . حرية ، جمعية ، مبعوثان الخ وكان لمراقبي الجرائد في ذلك من الأمر والنهي ، والاثبات والمحو ، ما يضحك الثكلى ، ويبكي اليائس الذي جاءته البشرى ، وأمر بحذف دعاء القنوت من كتب التعليم ، وكلمة خلع النعلين مما يطبع من

(١) الخلع بالضم الطلاق بعوض . وقد رفع الى محكمة التمييز إعلام بحكم شرعي في مخالعة فردته الى المحكمة الابتدائية لاجل تصحيحه بحذف كلمة خلع منه . وقد نبهت على ذلك بالارقام كقولها (مثلا) يجب تغيير الكلمة الرابعة من السطر الثاني والعاشرة من السطر الثالث وهلم جرا

كتب الفقه والحديث ، لئلا يخطر خلعه في البال ، عند ذكر خلع النعال ، او يسبق الى فهم المتعلمين او المصلين ، ان كلمة « ونخلع من يفجرك » في القنوت توجب خلع الفجار من السلاطين ، هكذا رأيناه قد اتهى كل شيء الا الله ، « ٢٨ : ٨١ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله » ٢ : ٢٧٠ و٣ : ١٩٢ وما للظالمين من أنصار .

عز عليه ان يسلب بالدستور والحرية ، ما كان ينتحله من صفات الربوبية ، ككونه يحكم مايشاء ويفعل ما يريد ، لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، ولا حدود لأمره ونهيه ، يحمد على السراء والضراء ، « ٢١ : ٢٣ لا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون » يعطي ويمنع ، ويضر وينفع ، ويصل ويقطع ، ويفرق ويجمع ، ويخفض ويرفع ، يسلب من يشاء ماشاء ، ويقتل من أراد متى أراد ، ويبعد من يكره ، ويقرب من يحب ، فرأى بعد الدستور أن أمر الشريعة والدستور فوق أمره ، وان نفوذ جمعية الاتحاد والترقي فوق نفوذه ، وان الالسنة والاقلام التي كانت مكرهة على ترتيل آيات إطرائه ترتيلا ، والتسبيح بحمده بكرة وأصيلا ، صارت تسمي أعماله ووقائع عصره باسمائها ، بعد ان كانت تطلق عليها أسماء اضدادها ، اذ كانت تسمي الظلم عدلاً ، والنقص فضلاً ، والجهل علماً ، والسفاهة حلماً ، والباطل حقا ، والكذب صدقا ، والإفساد إصلاحاً ، والخسر فلاحا ، والتخريب عمرانا ، والاساءة إحسانا ، الى غير ذلك .

راعه ان يكون بشرا يوصف بصفات البشر ، وان تكون رعيته من جنسه لا من الغنم والبقر ، فضاق بهذا الدستور صدرا ، وعجز عن مبارزته جهراً ، فلجأ الى الكيد والاحتيال ، وفتح ما ادخره لمثل هذا اليوم من كنوز الاموال ، فألف بها الجمعية المحمدية ، وبث دعاتها في العاصمة وجميع الولايات العثمانية ، فطفقوا يوسوسون لعامة المسلمين ، إن الدستور مناف للدين ، وان جمعية الاتحاد ، تريد بث التعطيل والإلحاد ، وتحويل الحكومة الاسلامية ، الى حكومة أوربية ، بل بثوا فتنتهم في الجيش فشقوه نصفين ، ودبروا مكيدة لإيقاع المذابح بين العنصرين ، (المسلمين والنصارى) « ١٤ : ٤٦ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » أما لو وقعت الواقعة ، وقرعت الدولة هذه القارعة ، لرُجّت الأرض رجا ،

وبسّت البلاد بسا ، (١) فكانت هباء منبثا ، (٢) ولكن لطف الله بهذه الأمة ، وأراد انقاذ هذه الدولة ، فانهتك الستر ، وانكشف السر ، وظهرت بوارد الثورة على الدستور في القسطنطينية ، قبل أن تصل دعاتها الى جميع الولايات العثمانية ، فقتل الثائرون بعض أعضاء مجلس النواب ، ودمروا على نادي جمعية الاتحاد ، فتبروا ماعلوا تتبيرا ، وكادوا يدمرون المعاهد تدميرا ، فأرز (٣) أهل التدبير الى سلانيك وهي مصدر الدستور ، ومطلع هذا النور ، واستصرخوا ذلك الجيش المنصور ، فلباهم سليل الفاروق ، مبادراً الى فتح فروق ، والقضاء الاخير على الاستبداد ، واصطلام آخر جرثومة له في البلاد ، والتنكيل بما له من الاحزاب والأنصار ، (١٣: ١٠ سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » (٤)

عبأ (محمود) الأمة ، و (شوكة) الملة ، تلك الكتائب الشعواء ، وهي كالقضاء المنزل من السماء ، فكان هومنها كما قال شوقي من قبل في مدح جيش عبد الحميد تبعا لمدحه

يقود سراياها ويحمي لواءها   سديد المرائي في الحروب مجرب
يجيء بها حينا ويرجع مرة   كما تدفع اللجّ البحار وتجذب
ويرمي بها كالبحر من كل جانب   فكل خميس لجة تتضرب
وينفذها من كل شِعب فتلتقي   كما يتلاقى العارض المتشعب
ويجعل ميقاتا لها تنبري له   كما دار يلقى عقرب السير عقرب
فظلت عيون الحرب حيرى لما ترى   نواظر ما تأتي الليوث وتغرب
تبالغ بالرامي وتزهو بما رمى   وتعجب بالقواد والجند أعجب

(١) أي خربت فكانت أجزاء متفتتة، اوسيق أهلها كما تساق الغنم (٢) الهباء الغبار والمنبث المنتشر المتفرق (٣) اي اجتمعوا وانضم بعضهم الى بعض كذا فسر الاصمعي الكلمة في الحديث . وفي اللسان أرز (كجلس) تقبض وتجمع وثبت ، ويقال ارز الى المكان اذا كان مأمنه ومنعته (٤) اي ويقال لهم سواء منكم أيها الخارجون على الدستور من اسرّ القول للجنود وغيرهم بالحث على الفتنة ومن جهر به الخ ، والسارب الظاهر البارز كاولئك الجنود العصاة

أو كما قال اليوم يخاطب هذا الجيش مفتخراً بعمله في أخذ عبد الحميد وخلعه

يا أيها الجيش الذي   لا بالدعيّ ولا الفخور
يخفى فان ربع الحمى   لفت البرية بالظهور
كالليث يسرف في الفعا   ل وليس يسرف في الزئير
الخاطب العلياء بالا   أرواح غالية المهور
عند المهيمن ماجرى   في الحق من دمك الطهور
يتلو الزمان صحيفة   غراء مذهبة السطور
في مدح « أنورك » الجري   ء وفي « نيازيك » الجسور
« يا شوكت » الاسلام بل   يا فاتح البلد العسير
وابن الأكارم من بني   « عمر » الكريم على « البشير »
القابضين على الصليـ   ـل كجدهم وعلى الصرير
هل كان جدك في ردا   ئك يوم زحفك والكرور
فقنصت صياد الاسو   د وصدت قناص النسور
وأخذت « يلدز » عنوة   وملكت عنقاء الثغور

نعم كرّ الفاروقيّ بجيشه وعيون الأمم الاجنبية شاخصة اليه ، وقلوب الشعوب العثمانية محوّمة عليه ، وزحف على الآستانة ، مصوبا مدفعه ممتشقا حسامه ، فلقيته جنود عبد الحميد ، وكانت الحرب كالسيل يقذف جلمودا بجلمود ، فطلّ الاخ دم أخيه ، وخرق القريب صدر قريبه ، فكانت جنودنا كما قال البحتري

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها

ولكن شتان ما بين الباعثين ، وما أبعد ما بين الداعيين ، ففريق ينصر الملة بنصر الشورى والدستور ، ويحمي الأمة بحماية مجلس المبعوثين ، وفريق ينصر الاستبداد بنصر ذلك الشيخ البال ، والمسرف الغال ، والخوّن الغال ، (٣ : ١٣ والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار »

أيد الله الحق على الباطل ، ومكن جند الدستور من تلك الحصون والمعاقل ،

حتى كأن قائده يحمل سيف جده عمر ، الذي كتب الله له النصر والظفر ، فكان هو الفاروق الفاصل ، بين العدل والظلم والحق والباطل ، وقد أعجب أهل الحرب في أوربا بسرعة حركته ، وحسن تعبئته ، كما اعجب أهل السياسة بإحكامه للنظام ، وحفظه للأمن ، وفرح العثمانيون بنصر الله الدستور على الاستبداد ، وحكم الشورى على حكم الأفراد ، « ٤٠: ٥١ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ٥٢ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار »

سقطت « يلدز » ذات الحصون المشيدة ، والملاجئ المتعددة ، بعد ان حاصرها جيش الدستور ، وقطع عنها الزاد والماء والنور ، وفيها اربعة آلاف من النساء والغلمان ، والخصيان والأعوان ، والحرس الداخلي والحجاب ، والخدم والكتاب ، والسواس والحوذية ، والأريسين والبستانية ، كانوا يأكلون كل يوم ما تشتهيه الانفس من اصناف الألوان ، ويتمتعون بما احبوا من بنات الحان ومعتقات الدنان ، وقد استعد عبد الحميد فيها لكل شيء الا الحصار فانه لم يكن في الحسبان ، وسبحان من لا يشغله شان عن شان ، أراد ان يجعلها كجنة الخلد ، فاذا هي في يوم الحصار دون جنة آدم في الأرض ، فقد قال الله لآدم (٢٠ :١١٨ ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى ١١٩ وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) وقد جاع وظمئ في جنة عبد الحميد حتى الغادات ، وصار من فيها كالسوائم يقتاتون بورق النبات ، نعم ذاقت يلدز طعم الجوع ، بعد ان كانت مئات الموائد توزع من فضلاتها على الجوع ، وتجيع الألوف من الجنود وغير الجنود ، وذاقت لباس الخوف والرعب ، بعد ان كانت تخيف جميع الشعب ، فصارت عبرة للمعتبرين . ومثلا للآخرين . « ١٦ :١١٢ ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »

ولما ضيق عليها الحصار ارتفع الصراخ والعويل ، ممن قال فيهن شاعر النيل

أين الاوانس في ذراها   من ملائكة وحور
المترعات من النعيم   الراويات من السرور
العاثرات من الدلال   الناهضات من الغرور

الآمرات على الولاة   الناهيات على « الصدور »
الناعمات الطيبات   العرف أمثال الزهور
الذاهلات عن الزمان   بنشوة العيش النضير
المشرفات وما انتقلن   على الممالك والبحور
من كل « بلقيس » على   كرسي عزتها الوثير
أمضى نفوذاً من « زبيدة »   في الامارة والامير
بين الرفارف والمشا   رف والزخارف والحرير
في مسكن فوق السماك   وفوق غارات المغير
بين المعاقل والقنا   والخيل والجم الغفير
سموه « يلدز » والافو   ل نهاية « النجم » المنير
دارت عليهن الدوائر   في المخادع والخدور
أمسين في رق القبيل   وبتن في أسر العشير
ما ينتهين من الصلا   ة ضراعة ومن النذور
يطلبن نصرة ربهن   وربهن بلا نصير

ولماذا صار ربهن عبد الحميد بلا نصير ، ولا ولي ولا ظهير ، الجواب من سورة الشورى التي كان يمقتها (٤٢ : ٨ والظالمون مالهم من وليّ ولا نصير) ومنها (٣٠) وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير (٣١) وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير)

بعد أن ضيق جيش الدستور على يلدز الحصار ، خيرها بين التسليم وبين السيف والنار ، فعلم ذلك الماهل ، انه جاء الحق وزهق الباطل ، فأمر بالتسليم مدعيا إيثار السلام ، على الحرب والصدام ، وأن العسكر المهاجم كالحرس من أولاده ، لا فرق بين الداعم والهادم لاستبداده ، فسلم من كان فيها من الجيش سلاحه وذخائره مأسوراً ، ثم خرج منها مذموماً مدحوراً ، وخرج وراءه رؤساء الموظفين والكتاب والقرناء ، فالخصيان والخدم فالنساء ، فكان عسكر الدستور يخرج كل فريق فيعرف غير النساء منهم فرداً فرداً ، ويحصيهم بالمقابلة على الجداول التي يدعها ، ثم يرسلهم محفوظين

الى المواضع التي أعدها لهم ، إلى ان يصدر الحكم العمري الفاروقي فيهم ، بل ذلك حكم الله وسنته في نظام الاجتماع ، « ٤٠ : ١٨ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » ، وصدق عليهم بعد اباحة يلدز للأمة ، ما نزل في فرعون وقومه ، « ٤٤ : ٢٥ كم تركوا من جنات وعيون ٢٦ وزروع ومقام كريم ٢٧ ونعمة كانوا فيها فاكهين ٢٨ فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين »

وقد وضع الفاروقي فروق تحت الاحكام العرفية ، وشكل فيها المحاكم العسكرية ، لمحاكمة منفذي الفتنة الحميدية ، لإبطال حكومة الشورى الشرعية ، وإعادة الاحكام الشخصية الوثنية ، وهذا أمر لابد منه ، ولا تقوم المصلحة العامة الا به ، والقتل بهذه الاحكام العسكرية ، هو من قبيل مايطلق عليه الفقهاء اسم الاحكام السياسية . وقد صرحوا بأنه يجوز قتل الثلث لإصلاح الثلثين ، فان قيل انها أحكام ربما تصيب بعض البرآء ، قلنا وقد يقع مثل ذلك في أحكام القضاء ، « ٨ : ٢٥ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب »

وقد كان من امر الولايات العثمانية ، عند ما علمت بكيد عبد الحميد خان للحكومة الدستورية ، ان كتبت الى مجلس الأمة بوجوب خلعه ، ونفض اليد من بيعته ، وإعلامه بأن الجنود مستعدة لمحاربته ، والاهالي يتطوعون مع الجيش لمساعدته ، فلما أمن المجلس بأس ذلك السلطان ، اجتمع المبعوثون والاعيان ، واستفتوا شيخ الاسلام ، في خلع عبد الحميد وتولية رشاد ، وهذه ترجمة الاستفتاء والفتوى بالعربية :

« اذا حذف زيد امير المؤمنين بعض المسائل الشرعية المهمة من كتب الشرع المقدسة ، ومنع ومزق وأحرق الكتب المذكوره ، وبذر واسرف في بيت المال بدون مسوّغ شرعي ، وقتل وسجن ونفى رعاياه بدون سبب شرعي ، وتعوّد ارتكاب غير ذلك من المظالم الاخرى ، ثم بعد ان أقسم بأن يرجع الى الصلاح حنث يمينه وأصر على إحداث فتن عظيمة تخل تمام الإخلال بانتظام أمور المسلمين واحوالهم ، وحرض على المذابح ، واذا كانت الأخبار تتوالى من جميع أنحاء البلاد الاسلامية طالبة خلعه تخلصا من ذلك الجور ، وكان في بقائه ضرر محقق ، وفي زواله صلاح ملحوظ ، فهل يجب تنفيذ ما يرجحه أرباب الحل والعقد وأولو

الأمر من إلزامه التنازل عن السلطنة والخلافة أو خلعه ؟

(الجواب) نعم . كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين
عفي عنه

بعد تناول هذه الفتوى من شيخ الاسلام ، التي هي أصح فتوى صدرت في هذه الأزمان ، لرد الشأن فيها إلى أولي الأمر كما أمر القرآن ، اختار أولوا الأمر من المبعوثين والاعيان ، ان يخلعوا السلطان عبد الحميد الثاني ، لأنه ثبت لديهم أنه يصدق عليه ما ذكر في الاستفتاء من المظالم والمخازي ، وأن يبايعوا بالخلافة والسلطنة ، محمد رشاد افندي ولي عهد المملكة ، وهذه ترجمة قرار المجلس بالعربية

« في الساعة السادسة ونصف من يوم الثلاثاء وهو السابع من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ الموافق ١٤ نيسان سنة ١٣٢٥ (مالية) تقرر في جلسة المجلس الوطني العثماني المؤلف من مجلسي الأعيان والمبعوثين خلع السلطان عبد الحميد الثاني وإسناد السلطنة والخلافة الى ولي العهد محمد رشاد افندي باسم (محمد الخامس) وذلك بناء على اختيار الخلع على التنازل الاختياري بالاقتراع وهما الحلان المبينان في الفتوى المذيلة بتوقيع شيخ الاسلام محمد ضياء الدين افندي المتلوة في الجلسة »

ثم ان المجلس ارسل وفدين ، لتبليغ قراره للسلطانين ، ليعلما ان الأمر لأولي الأمر ، لا لرجل واحد يسمى وليّ الامر ، لأن الله تعالى اسنده في كتابه الى الجمع ، ولم يسنده قط الى الفرد ، وليكون الأول عبرة للمستبدين الظالمين ، والآخر سلفا ومثلا للدستوريين الآخرين ، فبلغ الوفدان القرارين ولسان الحال ، يرتل قول الملك المتعال ، « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير »

دخلوا على عبد الحميد الجبار ، الحقود المنتقم القهار ، وهو في مأمنه الذي ملأه بالمسدسات ، وجعل فيه الملاجيء والمغارات والمدخلات ، وله في كل حجرة منه تمثال ، يمثله في حال من الاحوال ، فمنها النائم على السرر المرفوعة ، ومنها المتكئ على الأرائك الموضوعة ، ومنها المكبّ على كتابته ، ومنها الممثل لقراءته ، يحتاط بذلك لخيانة الجنود والأحراس ، وغفلة الرقباء والأرصاد ، حتى اذا ما دمر عليه محتال ، يحاول

الفتك والاغتيال ، واتفق ان اهتدى الى بعض حجراته التي يأرز اليها في خلواته، يغره التمثال فيهجم عليه ، فينفذ رصاص المسدسات الحميدية من بين كتفيه ، وان عبد الحميد لا يخطئ المرمى ، فقد تمرن على الرمي حتى صار كبني ثعل أو أرمى . - دخلوا عليه فما وارته مخبآته ، ولا حمته مسدساته ، ولا دافعت عنه رجاله ،ولا أغنت عنه أمواله ، بل غلب على هـذا المخلوع الجبن الخالع ، فاذا هو خاضع خانع ، قد خرس لسان مقاله ، وقرأ لسان حاله ، « ٦٩:٢٧ ياليتها كانت القاضية ، ٢٨ ما أغنى عني ماليه ٢٩ هلك عني سلطانيه » يتمنى لو كانت مكيدته قضت على الدستور، وجعلت زعماءه وأنصاره من سكان القبور ، ثم طلب أن يبقوا عليه كما أبقى على أخيه مراد ، ويحسنوا إليه لأنه بريء مما وقع من الفساد !!، وطفق يلوك اباطيل الاعذار ، ولو كان صادقا لما انتهى الى هـذا « القرار » ، « ٣٨:٢٨ ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ام نجعل المتقين كالفجار ؟

لماذا خضع وذل عبد الحميد ، وهو الجبار العنيد ، لذلك الوفد ، الذي لم يكن معه غير ثلاثة من ضباط الجند ، أتواضعا كتواضع الخلفاء، ام هي شنشنة الجبناء ،ان قدروا بغوا وعتوا ، وان عجزوا ذلوا وعنوا ؟ أهذا هو السلطان المستبد ، القاسي المتكبر ، الحريص على حياته ، المحافظ بقوة الدولة ومالها على شخصه ، هو بعينه عبدالحميد، الذي دخل عليه وفد مجلس الأمة من غير معارضة ولا تفتيش ،فوقف أمامهم خاضعا ضارعا، متوسلا خاشعا، يسألهم الإبقاء عليه،وترك روحه العزيزة بين جنبيه؟؟ سبحانك اللهم ما أجل حكمتك ، وما أعدل سنتك ،وما أصدق وعدك ووعيدك ، فقد بينت لنا أن العاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وقلت « ٤٠ : ٢٠ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واق »

أين تلك القوة القاهرة، أين تلك الارادة النافذة، أين تلك العظمة والكبرياء، أين ذلك الشمم والإباء ، أين ذلك المسرف العال ، أين ذلك المعجب المختال ، أين السلطان عبدالحميد ، الذي ظن انه يبقى فعالا لما يريد ، فلم يكن يقبل ان يوجد في المملكة من يقول هـذا نافع في السياسة وهذا ضار ، وهذا حلال في تصرف

الادارة وهـذا حرام ، أين السلطان عبد الحميد الذي جعل نفسه هو الملك وهو الأمة ، هو القانون وهو الشريعة ، الذي كان يرى ان الملك ملكه ، والزمان غلامه ، والناس عبيده أو عباده ، وان له الحق ان يحرف كتب دينهم ، وان يغير أسفار تاريخهم وتاريخ غيرهم ، وان عليهم ان يقابلوا إساءته بالشكر ، وظلمه بالرضاء والحمد ، أين السلطان عبد الحميد الذي كان لا ينزل إلى موكب صلاة الجمعة في الأسبوع ، إلا بين صفوف من الجيوش كالبنيان المرصوص ، فيحرم الصلاة على الألوف من المسلمين لأجل صلاته ، التي يجعلها عنواناً على خلافته ، فيتزلف اليه فيها بآيات معينة من القرآن ، لا يتجرأ أن يتلو غيرها قارئ ولا خطيب ولا إمام ، ولو قرأ قارئ على مسمعه آية من الآيات التي تنذر الظالمين الهلاك والدمار، وتؤذنهم بالزوال والبوار ، لأخذ منه باليمين ، ولقطع منه الوتين ، أو زجه في ظلمات السجن ، أو نفاه من الأرض ، أين عبد الحميد الذي كان يزور الخرقة النبوية الشريفة ، تذكيرا للمسلمين بأنه هو الخليفة ، فتحرس له الجنود طريقه اليها طول السنة ، فاذا قرب الموعد أخليت من جانبيها الفنادق والدكاكين والأمكنة ، وغلقت الأبواب والنوافذ والكوى ، وحشرت الجنود تملا ما بين الرجا إلى الرجا ، لئلا يطمع أحد بالدنواليه ، أو يكون في مكان أعلى منه ، ؟؟ « ١١١ : ٢ ما أغنى عنه ماله وما كسب » ، ولا وقاه ما أكدى وما وهب ، ولا نفعه رأي ثقاته ، ولا سلاح حماته ، بل سلمت فئته الباغية المغرورة ، لفئة الدستور المنصورة ، وذم هو عمل منفذي فتنته وتبرأ منهم ، وزعم انه كره عملهم ولكن عجز عنهم ، « ٨:٤٨ واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني ارى مالا ترون اني اخاف الله والله شديد العقاب »

بعد اسبوعين من خلع عبد الحميد ، أنفذ الفاروقي حكم أولي الأمر بنفيه الى سلانيك، واخرج معه من دار السعادة اثنان من صغار اولاده، واحدى عشرة امرأة من جواريه ونسائه ، وجيء به الى محطة سكة الحديد تخفر مركبته مركبات الجنود . وارسل كذلك مخفورا في قطار مخصوص ، ولما وصل الى محطة سلانيك اختار ركوب احدى مركبات الاجرة ، الى ان وصل الى الدار التي أعدت له ،وهي دار

ألاتيني باشاقائد الشرطه ، وقداحضر له ولمن معه طعام ذلك المساء من إحد مطاعم السوق ، وطلب قيصا فاشتريت له أيضا من السوق ، وكان في عامة أوقاته كاسف البال ، كثير الهواجس والافكار ، وقد تضرع الى القائد الذي استقبله ، بأن يضمن له حياته ، فهدأ القائد اضطرابه ، وسكن روعه ، ولو كان عبدالحميد صاحب عزة وإباء ، لما حرص في مثل هذه الحال على البقاء ، ولا اقول لفعل ما فعلت الزباء ، على ان البخع والانتحار اذا كان محرما في الاسلام ، فشدة الحرص على الحياة ليست من شأن أهل الإيمان ، فقد قال تعالى في في الذين لا يؤمنون (٢:٩٦ ولتجدنهم احرص الناس على حياة ومن الذي اشركوا يود احدهم لو يُعَمَّرُ ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر والله بصير بما يعملون)

اما مولانا السلطان محمد الخامس فقد بويع في ذلك اليوم بنظارة الحربية ، باختيار اولي الأمر ونواب جميع الأمة العثمانية ، فان كان قد قال في حفلة المبايعة انني أول ملك في عهد الدستور والحرية ، فاننا نقول ان مبايعته أول مبايعة جرت على الصورة الشرعية ، فقد كان سلفه يأخذون الملك بمجرد الإرث ، وهو قد ناله هو باختيار أهل الحل والعقد ، وقد بويع بالمصافحة كما بويع الخلفاء الراشدون ، لا بلثم الراحة وتقبيل الاذيال كما جرى عليه اسلافه المستبدون . وأول من بايعه الشريف حيدر بك من أعضاء مجلس الاعيان ، ثم الصدر الاعظم وشيخ الاسلام ، ثم نقيب الاشراف فرئيسا مجلسي الاعيان والنواب ، فأعضاء المجلسين فالامراء والضباط ، ثم من حضر من خيار الناس ، وقد صرح مولانا عقب مبايعته ، بأن كل رغبته ورجائه في سعادة امته ، وبعد عدة أيام حلف في نظارة الحربية ، يمين التزام الشريعة والدستور والمحافظة على حقوق جميع الأمة العثمانية ، ثم حلف أيضاً في مجلس نواب الأمة ، كما استحلفهم على الاخلاص لها وله ، فأقسموا طائعين ، وأطاعوا مختارين ، ودعوا له مخلصين ، والأمة من ورائهم تقول آمين ، والعاقبة للمتقين ، « ١٣ : ٢٩ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »

ونسأله تعالى ان يجعل لسان حال سلطاننا الأواب ، هذه الآية الكريمة من الكتاب « ٤٠ : ٣٨ وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد »

باب المناظرة والمراسلة

﴿ رد الشبهات على النسخ وكون السنة من الدين — لليافعي ﴾

٣

تتمة بحث النسخ

ولنعد الى ما كنا بصدده فنقول قد بينا في رسالتنا السابقة بعض حجج ما ذهبنا اليه وسنزيد ذلك ايضاحا فنقول — ان الكلام اذا سيق فانما يساق بمناسبة المتأخر لما تقدمه وابتنى عليه ودونك ما قبل هذه الآية لتعرف دلالة السياق وان الكلام مسوق في أي شيء أهو في ذكر المعجزات كما قال الدكتور الفاضل ام في ذكر الدين وشرائعه واحكامه ومن هنا تعرف ان ما ذكرناه عن السلف في تفسير هذه الآية هو المناسب لسياقها قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم — ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ففي اول هذه الآية حذر المؤمنين من موافقة الكافرين في إطلاق الالفاظ الموهمة كقولهم راعنا ثم اخبرهم في آخرها بشدة عداوة الكفار لهم وانهم يكرهون نزول الخير اليهم وذلك الخير الذي تفضل الله به على عباده المؤمنين هو الشرع التام الكامل(*) الذي شرعه لنبيه محمد (ص) واختصه وامته به والله

(*) المنار: الكلام صريح في بيان سبب إنكارهم لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم وهو أن أهل الكتاب يحسدون العرب فلا يودون ان ينزل الوحي على رجل منهم فهم لذلك ينكرون نبوة محمد(ص) والمشركون ينكرون النبوة من حيث هي فالكلام في النبوة لا في الأحكام الجزئية التي في الوحي وهي أقل ما فيه . والشرع المحمدي عقائد ومعارف إلهية وآداب وعبر واخلاق كريمة ، واحكام عمليه ، والعقائد هي الاساس والكلام في ركن النبوة منها لأن غيره يبنى عليه فالمناسب ان تكون الآية ما يؤيده

يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم - وعلى مناسبة ذلك قال « ماننسخ» من هذا الخير وهو الشرع المحمدي « من آية او ننسها» فليس من باب تفويت او احرامكم بعض هذا الخير الذي تفضلنا به عليكم بل نفعل ذلك لنأتيكم بخير منه اذا نسخناه أو بمثله اذا قصرتم في حفظه ونسيتموه - أما قوله « الم تعلم ان الله على كل شيء قدير » الى آخره فانما ذكره في عقب هذه الآية كالدليل بالشيء على نظيره وذلك مثل استدلاله جل شأنه على البعث وامكانه بالخلق الاول و بإحيائه الارض بعدموتها وقد ذكرنا في رسالتنا السابقة مناسبات أخرى فارجع اليها وليتأمل الفاضل في هذا المقام وليعطه حقه من النظر

ونقول ايضا نحن قد قدمنا وقلنا غير مرة انه قد علم من ديننا بالضرورة ان القول بالرأي في الدين و بالاخص تفسير القرآن لا يجوز مطلقا فما بالك برأي مخالف لما قاله السلف ولما تقلوه (١)

ثم نقول لحضرة الدكتور الفاضل هب ان السلف لم يتكلموا ولم ينقل عنهم في تفسير هذه الآية شيء أفليس الواجب ان نرد كل لفظ الى اصله ونحمله على معناه الحقيقي ولا نقدم على القول بالمجاز ولا نعدل اليه الا اذا تعين بقرينة فاذا عرفت ذلك نقول قال في القاموس نسخه كمنعه ازاله وغيره وابطله وأقام شيئا مقامه والشيء مسخه والكتاب كتبه عن معارضة كانتسخه واستنسخه المنقول منه نسخة بالضم وما في الخلية حوله الى غيرها انتهى والمعنيان الاخيران لا يصح حمل الآية المتنازع في تفسيرها عليهما اتفاقا فلا يبقى الا الازالة والتغيير والابطال — فاذا كان المراد بالآية في قوله تعالى ما ننسخ من آية المعجزة كما يقول حضرة الفاضل فما معنى ازالتها أو ازالة مثلها فانه لا يزال ولا ينقل الا ما كان ثابتا في الخارج واما ما يعدم ويفوت بفوات وانقضاء زمنه فلا يقال ازاله ولا يزيله نعم يقال في مجاز اللغة ازلت حجته بمعنى بينت كذبها وعدم صحتها فاذا اريد بالآية المعجزة فلا يجوز حملها على

(١) ان من يفسر آية بغير المروي عن واحد او ٢ و٣ من السلف لا يسمى مخالفا للسلف لاسيما اذا اختلفوا والا لكان جميع العلماء مخالفين للسلف حتى الائمة المشهورين وإنما مخالفة السلف المذمومة هي مخالفة سنتهم التي جروا عليها في امر الدين والابتداع فيه

معنى الازالة لا حقيقة ولا مجازا بقي التغيير والابطال والقول فيهما كالقول في الازالة وهل يصح ان يقال ان الله غير وابطل معجزات الانبياء السابقين فاذا فسد التفسير بحمل الآية على المعجزة تعين حملها على آيات الاحكام ونحوها من آيات القرآن لصحة قولنا ازلت حكم كذا واقمت مقامه حكما آخر او ازلت الكلمة واقمت مقامها كلمة أخرى فما ذكرناه في تفسير الآية هو الحقيقة التي لا يصلح ارادة غيرها و بذلك قال السلف كما عرفت ذلك عنهم فيما سلف — ولو جوزنا العدول عن الحقيقة الى المجاز بلا قرينة ولا مرجح للعدول وسلمنا ماقال بان النسخ قد يكون بمعنى الترك - فكذلك لا يصح ارادة ماقاله الفاضل ولا يجوز أيضا - لأن ترك الشيء لا يكون الا إذا أمكن فعل ذلك الشيء نفسه والمعجزة الفعلية الذي وقعت وانقضى زمنها كانقلاب عصا موسى عليه الصلاة والسلام حية مثلا لا يمكن ان تعاد نفسها لاسيما مع عدم وجود العصافان قيل المراد مثلها قلنا وهذا مجاز بتوسط تأويل - ولو سلمناه أيضا فانه لا يصح حمل الآية عليه لانه لا يصح الا بعد ان يثبت ان الله قدر وكتب في الكتاب الذي كتبه لكل مدة مضروبة بأن سيؤيد محمدا (ص) بمثل تلك المعجزات الماضية مماثلة من كل الوجوه فاذ قدر انه عدل عن ذلك الى ما يماثلها من بعض الوجوه جاز ان يقال ترك هذا المثل لهذا المثل ولا يخفى ان الهجوم على ذلك بلا توقيف جراءة واستبداد على الله

فان قيل لا نقول إنه ترك ما كتب وقدر انه يؤيد به محمدا (ص) كما ذكرتم قلنا ان تنظير الدكتور للنسخ في هذه الآية بقوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) صريح فيما ذكرنا فساده. ونقول أيضا ان ماهو نحو المعجزات من الافعال التي مضت وانقضت هي الآن معدومة فان قيل المراد مثالها الموجود في بعض الاذهان فيجوز تركه قلنا ذلك ممنوع لأن الموجود في الاذهان المذكورة انما هو التصديق بتلك المعجزات ونسخه انما يكون بنقضه وتكذيبه وهو محال وايضا مافي اذهانهم لو أوجده الله في الخارج فهو لا يكون الا نفس المعجزات الماضية التي قد عدمت والافعال التي قد وقعت لا يمكن ان تعاد نفسها وما كان كذلك فلا يقال انه تركه وعليه فالنسخ بمعنى الترك لا يمكن ان يفرض الا فيما يماثل من بعض الوجوه

ماحفظه بعض الناس من معجزات الانبياء وحينئذ لا يكون المنسوخ في الآية ماقد وجد ولا مثاله الموجود في اذهانهم بل هوماياثل مثاله من بعض الوجوه وهذا إنما هومعدوم لانه غير موجود في الاعيان ولا في الاذهان ومعلوم ان الله لم يرد انه نسخ أوترك المعدوم المطلق أوانه أيد نبينا (ص) بخير منه أو مثله لان الخيرية والمثلية لايوصف بها المعدوم فظهر بذلك ان المعنى الذي حمل الآية عليه حضرة الفاضل لايصح الا فرضه في المعدوم المطلق وسياق الكلام ومعناه يأبى ذلك والا لزم وصح ان يقال ان كل ماأوجده الله فهو بدل ومثل ومسبب عن ترك معدوم مطلق لم يقدر في كتاب وهذا لم يقله أحد

هذا بعض ما نقوله في المنسوخ الذي ذكره الله في قوله « ماننسخ من آية أوننسها» وقد عرفت انه لايصح ان يفرض شيئا مما قدمنا بيانه أمامعجزات نبينا (ص) فلاشك انها قدوفت وقامت بتأييد رسالته (ص) كماقدوفت معجزات الانبياء السابقين بتأييد رسالاتهم وزيادة لكن اطلاق ان هذا ناسخ لهذا لايصح في تفسير قوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها) وقوله فكل آية من آيات الانبياء السابقين الى قوله قد أتى الله بمثلها في الاقناع والهداية أو بخير منها قلت نعم والامر كذلك الا انا قد قدمنا فساد فرض المنسوخ بمعنى المعجزة وعليه فما أتى الله ومن به على نبينا من المعجزات فليس بدلا عن معجزات الانبياء السابقين على معنى ان تكون ناسخة لتلك ولو كان كل معجزة لنبي متأخر ناسخة لمعجزات من تقدمه لكانت معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة لمعجزات عيسى عليه الصلاة والسلام ومعجزات عيسى عليه السلام ناسخة لمعجزات من تقدمه وهم جرا وعليه فما اتى به محمد من المعجزات لا تكون بدلا لكل معجزات الانبياء السابقين والا لزم نسخ المنسوخ حين هو منسوخ (١)

(١) المنار: كل هذه اللوازم التي اوردها ممنوعة و يمكن ايراد معنى المماثلة من كل الوجوه او بعضها على التفسير المشهور للآية وان من يفسر الآية هنابما يؤيدالله به الانبياء كأي مسلم لايقول اذا ازال الله ما يؤيد به بعض رسله من آية في زمن رسول آخر وايده بغيرها فانه يكون ناسخا السابقة باللاحقة بل يقولون ان المعنى إذا لم يؤيد الرسول —

ونقول ايضا يلزم الفاضل المذكور في الادلة المتعددة المختلفة الحقائق على صحة المدلولات المتماثلات والمدلول الواحد تصحيح اطلاق ان كل واحد منها ناسخ للآخر فليتأمل الناظر وليحكم بما شاء بشرط الانصاف

اما قول الفاضل الممدوح واذا كان المراد آيات الاحكام لا المعجزات فهل اتى تعالى ببدل الآيات المنسوخة بآيات خير منها؟ إن كان ذلك صحيحا فكيف نسخ كثيرا من احكام القرآن بالسنة على قول بعضهم؟ واقول قد عرفت انه لا يمكن حمل ذلك على غير آيات الاحكام ونقول نعم انه قد عوضنا بدل كل آية نسخها ورفعها بما هو مثلها وافضل منها وذلك موجود في هذا القرآن الذي بين ايدينا — أما قوله فكيف نسخ كثير من القرآن بالسنة على قول بعضهم فجوابه انه لم يفضل احد احكام القرآن على احكام السنة لان الكل من الله والحكم الناسخ سواء كان في القرآن او في السنة هو اكثر خيرا من المنسوخ ولا تفاوت في نفس الحكم الا أن هذا يكون اصح من هذا كما سيأتي بيانه . نعم ألفاظ القرآن هي افضل من ألفاظ الأحاديث ولم يقل أحد أن لفظ الحديث ناسخ للفظ القرآن فما اراد ايراده غير وارد فتأمل

ونحن قدمنا الكلام في اختلاف العلماء في النسخ فارجع اليه فمن يجوز نسخ القرآن بالسنة بعضهم يقول ان ذلك جائز لكنه لم يقع واما من يقول منهم بوقوعه فلهم أن يفرقوا بين نسخ الآية ونسخ حكمها بأن يقولوا إنه من المعلوم بالضرورة ان الدين كله سواء كان قرآنا او وحيا غير قرآن — وهو السنة — انما عرفناه بتوسط محمد (ص) الذي عرفنا صدقه وصحة نبوته ورسالته فلا يجوز لنا ان نقبل بعض ما

— المتأخر بآية المتقدم بأن ازال تلك الآية وما أراد إعادتها فانه يؤيده بمثلها او بخير منها في اثبات الرسالة . و يمكن ان يفسر لفظ النسخ على هذا الرأي بما ورد في المأثور من انه بمعنى الاثبات في الكتاب و يكون معنى الآية عليه ما ثبت من آية في الكتاب الذي هو القرآن خطا ومعنى فيعرفها الناس اوننسها الناس بترك الاعلام بهافاننا نأتي بخير منها أومثلهافي تأييد رسلنا و بذلك يبطل قول بعض الكافرين ٢١ : ٥ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وما في معناه مما حكاه الله تعالى عن المعاندين

جاء به ونترك البعض الآخر اذ لو فعلنا ذلك لكنا مكذبين له (ص) في ذلك البعض وذلك كفر في دين الله وبه كما قال تعالى «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» — بناء عليه يجوز ان يكون بعض احكام السنة خبرا من الحكم المنسوخ الذي كان في القرآن — واذا كان المراد بالخيرية ان يأتي بخير منها أي ببدل ذي مصلحة راجحة فلا قباحة في أن يقوم الحديث النبوي بدلا عن لفظ آية وحكمها معا

أما الوصية للوالدين والأقربين الوارثين فالجمهور يقولون ان الناسخ لها إنما هي آية المواريث والسنة مبينة وشارحة لذلك الناسخ. هذا بعض أجوبتهم وهومانع ودافع لكل ايراد، قلت الايراد الصحيح في هذه الآية انما يتوجه على مذهب حضرة الدكتور الفاضل لأنه إذا منع النسخ في القرآن مطلقا به أو بالسنة لزمه ان الواجب للوالدين الوصية والنصيب الذي فرضه الله لكل واحد منهما في آية المواريث — وحينئذ يعترض عليه ويقال إنه اما أن يكون ما فرضه لهما وافيا بحقهما أو ليس بواف بحقهما وعلى كل تقدير اما ان يلزم النقص أو الظلم (* لا يقال ان الوصية انما ندب اليها ولم يوجبها لأنا نقول ان الاعتراض وارد على الاستحباب أيضا على ان في قوله تعالى « كتب عليكم » في أول الآية وقوله « حقا على المتقين » في آخرها دلالة ظاهرة لا يعتريها شك ونص في الوجوب فالاعتراضات الواردة الصحيحة انما ترد على مذهب الفاضل الدكتور

قال الفاضل وأين البدل للآيات التي نسخ لفظها وحكمها معا كقوله عشر رضعات معلومات يحرمن — الذي نسخ على زعمهم بقوله — خمس رضعات معلومات ثم نسخ لفظ هذا الاخير ولم يأت بدله ؟ قلت والجواب من وجوه وهو يختلف باختلاف مشارب الناس في هذا الموضع

(الأول) من لم يشترط التواتر في نقل القرآن وهؤلاء يقولون ان آية(؟) الخمس

---

*) ورد عن علي وابن عباس وهما أعلم السلف بالتفسير ان الآية خاصة بمن لم يرث ويمكن للدكتور ان يقول به وهو ليس ممن ينكر التخصص وان سمي نسخا. على انه يمكن منع استلزام الظلم والنقص بجعل الوصية خاصة من وجه آخر كأن يكون بعض الورثة فقيرا عاجزا عن الكسب وبعضهم غنيا فيوصي للعاجز الفقير

الرضعات المعلومات هي آية(؟) من القرآن الكريم وهي محفوظة بهذه الرواية ونحوها ولها عندهم حكم القرآن المتلو ومن يقول بذلك فلا يرد عليه اعتراض حضرة الدكتور الفاضل ههنا من أصله فان كان يرد عليهم اعتراضات أخرى فانهم قد أجابوا عنها —

(الثاني) قول من يقول ان القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وناسخه لا يكون الا قرآنا أو سنة كذلك

(الثالث) انا نختار ان نقول لا شك ان العشر الرضعات قد ثبت انهن كن فيما نزل من القرآن وثبت انهن نسخن ونقل المنسوخ لا يشترط فيه التواتر لان اشتراط التواتر في القرآن انما التزمه من التزمه لان من خالف الاجماع يكون شاذا مخالفا لما نقله جميع الصحابة من حصرهم القرآن المحكم في هذا المصحف الموجود بين أيدينا واذا صرح وقيد الناقل ان ذلك قد نسخ لفظه أو وحكمه فلا شك ان ذلك يخرجه عن الشذوذ فلا يكون مخالفا للمتفق عليه من القرآن لجواز ان يكون الصحابة (رض) تركوا نقله لكونه منسوخا لفظا

بقي البحث في الناسخ وهو الخمس المعلومات ثم هذه الخمس المعلومات هل هن قرآن محكم باق لفظه وحكمه أم ليس هن بقرآن وقد قدمنا قول من لم يشترط التواتر وبعض من يشترط التواتر يقبل الحكم ولا يقبل القرآنية فمن يقول ان القرآنية المنقولة بنقل الواحد ونحوه إذا خالفت المصحف كانت شاذة فمخالفة الجمهور اسقطت القرآنية لاحتمال ان يكون الراوي الواحد ونحوه نقل ما كان منسوخا لفظه ولم يعلم بنسخ لفظه أو انه ظن ان ذلك قرآن اما الحكم المتضمنة له تلك الرواية فهو غير معارض بنقل الجمهور للقرآن وباب الحكم غير باب اللفظ والقرآنية فمن هنا قالوا بقبول الحكم ورد القرآنية فتفكر

وآية عدد الرضعات المرفوعة المنسوخة هي ليست في الحقيقة مما يصح ان يورد عليها ما أورده الفاضل يعرف ذلك بجمع اطراف الرواية ودونك ذلك — روي عن عائشة (رض) انها قالت كان فيما نزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن» ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله (ص) وهن فيما يقرأ من القرآن رواه مسلم وأبو داود والنسائي — وفي لفظ قالت وهي تذكر الذي يحرم من الرضاعة نزل

في القرآن عشر رضعات معلومات ثم نزل أيضا خمس معلومات رواه مسلم وفي لفظ قالت نزل في القرآن عشر رضعات معلومات فنسخ من ذلك خمس رضعات الى خمس رضعات معلومات فتوفي رسول الله (ص) والامر على ذلك رواه الترمذي - وفي لفظ كان فيما أنزل الله عزوجل من القرآن ثم سقط لايحرم الا عشر رضعات أو خمس معلومات رواه ابن ماجه . والناظر يرى ان الصديقة (رض) لم تذكر لا الناسخ ولا المنسوخ بلفظه ولا سياقه ولم تبين محله نعم رواياتها ظاهرة في ان عدد الرضعات كان قرآنا في الجملة و بعضها ظاهرة في ان العشر نسخن بالخمس ورواية الترمذي هي صحيحة ولا تبين دلالتها على ان الخمس التي هي بدل عن العشر انها كانت قرآنا ولا تدل على ان النسخ وقع بالخمس أيضا و بناء على ماتقدم فقولها (رض) فتوفي رسول الله (ص) وهن فيما يقرأ من القرآن أي ان بعض من لم يبلغه النسخ كان يقرأ ذلك وهو مع شذوذه عما نقل الجمهور لم يثبت قراءته في المصحف ولعله رجع عن ذلك ثم يحتمل كلامها ان من بقي يقرأ كان يقرأ العشر والخمس معا أو انه كان يقرأ الخمس فقط ظانا ان ذلك لم ينسخ وهذا الاحتمال الاخير بعيد . فهذه احتمالات . وأما حديث ابن ماجه عنها فظاهر ان العشر أو الخمس انما هو آية واحدة ودلت هذه الرواية على ان الكل رفع - وبناء على ذلك ان من لازم نسخ العشر ان تنسخ الخمس معها وترفع برفعها لكونها جزءا من آية ولأن الخمس انماهن معطوفات على العامل في العشر فهي منسوخة بالتبع لعدم جواز بقاء لفظها بعد نسخ اول الآية والا لبقيت غير معلومة المعنى ومثل ذلك لا يجوز بقاؤه اووجوده في القرآن فاندفع ما اورده الدكتور الفاضل - فقوله في حديث مسلم رح ثم نسخن بخمس معلومات أي بقاء حكم جزء الآية المرفوع لفظه بالتبع وهي الخمس المعلومات ناسخ للعشر المقصود رفعها ونسخ حكمها بالاصالة والذات - و بقي بعض من لم يبلغه رفعها ونسخها يقرأها هكذا : لا يحرم الا عشر رضعات اوخمس معلومات

قلت وقوله تعالى (وامهاتكم اللاتي ارضعنكم) يصح ان نقول انه بدل عن هذا المرفوع ورواية ام المؤمنين (رض) قد اثبتت ان حكم العدد محكم فتحريم الامهات المرضعات في هذه الآية وارد في رضاعة معلومة وهي الخمس الرضعات وعائشة (رض)

يتعين ان تكون سمعت من رسول الله (ص) ان حكم الخمس باق وقد روت في ذلك أيضا أمره (ص) سهلة امرأة أبي حذيفة ان ترضع سالما خمس رضعات ومن يشترط الخمس الرضعات فهو يقول ان هذا كله منسوخ حكمه ولفظه وناسخ ذلك الاطلاق في قوله تعالى «وامهاتكم اللاتي ارضعنكم » فما وصل الجوف هو الرضاع المحرم ومنهم من قال ان الله اطلق تحريم المرضعة والمرجع في ذلك الى السنة وقد وردان المصة والمصتين والرضعة والرضعتين والإملاجة والإملاجتين لاتحرم وحديث عائشة (رض) فيه إناطة التحريم بخمس معلومات فوجب المرجع اليه فيما نعتقد وقدمنا توجيهه، بذلك اندفع اعتراض الدكتور الفاضل ايضا وثبت ان الناسخ لذلك هو القرآن مفسرا المراد منه بالسنة أو بما له حكم السنة وظهر بما قدمناه ايضا النكتة في نسخ لفظ الخمس والله اعلم

وأما آية الرجم فقد قدمنا الجواب عن رفع لفظها وحكمته فلا نعيده واذ قد فرغنا عن جواب كل ايرادات الفاضل في مسئلة النسخ فلنشرع في الجواب عما اورده من الشبهات على وجوب العمل باحاديث الآحاد الصحاح فنقول (لها بقية)

الانقلاب العثماني الميمون

« بخلع عبد الحميد »

(رأي جرائد مسلمي الهند فيه)

أرسل الينا صديقنا مولوي محمد إنشاء الله صاحب جريدة «وطن» الغراء التي تصدر باللغة الاوردية في « لاهور » مقالتين في الانقلاب احدهما من قلمه نشرها في فاتحة أول عدد صدر من جريدته بعد العلم بالانقلاب الاخير وخلع عبد الحميد ثم ترجمها بالعربية والثانية نشرت في جريدة « ابزرور » باللغة الانكليزية وسألنا رأينا فيهما فنحن ننشرهما ثم نبدي رأينا فيهما وهذه هي الاولى ننشرها مع إصلاح قليل لبعض الألفاظ يحدد المعنى ولا يضيع منه شيئاً (وعنوانها الانقلاب المشؤم في الدولة العلية)

لقد طير البرق الينا اليوم النبأ المشئوم الذي فتت الاكباد، وألبس القلوب ثوب

الحداد ، وقد ساد الاسف بمجرد سماعه على العالم الاسلامي في الهند وسائر اقطار المعمور، ومن التألم الناشيء منه تنفثت الصدور ، وذلك النبأ العظيم الذي آلم العالم الاسلامي بأسره هو نبأ عزل جلالة السلطان عبد الحميد الثاني عن عرش الخلافة والسلطنة العثمانية بقرار مجلس الامة اجماعا على عزله ولا ادري هل انعزل جلالته من عند نفسه او اعتزلته جمعية الاتحاد والترقي التي كانت عند اول ظهوره في بدء احياء الدستور العثماني اخيراً مظهرة عزمها على ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء لكون اعضائها من الناقمين من جلالته او الخائفين من ذاته على الدستور – ولكن علمنا بعد صدور الارادة الشاهانية باعلان الدستور وانقلاب الوزارة وتفويض مسند الصدارة الى سماحتلو(؟) كامل باشا الصدر الاسبق ان المعتدلين والعقلاء من حزب تركيا الفتاة لا يرون لزوم عزل جلالة عبد الحميد بعد ان صار محبا للدستور وحلف على حفظه وصرح بعزمه على تقوية الحزب المذكور لا سيما الجمعية الاتحاد والترقي التي لعبت دورا مهما في ملعب احياء الدستور وترقية البلاد حتى صار جلالته لا يبرم امراً ولا يصدر ارادة من غير استشارة الجمعية ويطيع لها في كل الامور وقبل صدارة شرف الجمعية وفاه بها علنا . وقد مال بكليته الى الجمعية حتى عاداه حزب الاحرار من تركيا الفتاة وعيره بالتخلف عن فرائض الملك الدستوري بوضعه نفسه تحت يد جماعة غير مسئولة عن صلاح البلاد والعباد وبعد ما ترك استبداده بالحكومة قد وقع نفسه تحت نير الاستبداد الاشأم والاشر من الاستبداد الاول ولكن كل هذه الملاينة والانقياد لم يجد لجلالته نفعا وصارت الجمعية تلهو وتلعب به كما تلعب الهرة بالفارة التي تريد افتراسها — وقد أخذت الجمعية تمهد السبيل لعزله فأبعدت عساكر الاستانة وارسلتها الى الولايات ووضعت دار الخلافة تحت حماية العساكر الموالية للدستور التي جاءت بها من سلانيك وغيرها ، وطلبت من جلالة السلطان عبد الحميد ان يرضى بوضع فيلق الحرس الهمايوني ايضا تحت أمرة نظارة الحربية وقد رد جلالته هذا الطلب غير مرة ولكن لما رأى الجمعية مصرة على ذلك اجاب طلبها (وان كانت الاجابة خطأ — كما ظهر الآن) لان جلالته اراد ان يبرهن للعالم (أصالة) وللجمعية تبعا حسن نيته وميله الى جهة الدستور

ان جمعية الاتحاد والترقي كانت لا تزال تعتمد على الجيش في حفظ الدستور ولذلك لم تكن تسمح بابعاد العساكر الموالية للدستور الى الولايات وان كانت نار الفتن الداخلية متأججة في جميع الجهات والضرورة داعية لارسال العساكر الى الخارج كي يمكن اخمادها واعادة النظام الى البلاد – ولما اراد الصدر الاسبق والرجل المحنك كامل باشا استعادة النظام العسكري والطاعة في الجيش امتنعت الجمعية عن ذلك واخذت تعرقل مساعي الصدر الممدوح وحكومته في اصلاح المملكة الداخلي ظنا منها ان خروج الجيش من يد الجمعية يضعف قوتها ويحرج مركزها ويكون خطراً على الدستور – لا قدر الله – وصارت الجمعية تأخذ على مجاري أمور الحكومة بالقوة القاهرة كأنها حكومة في حكومة بل وفوقها معتمدة على الجيش وقد شوهت الدستور بسيطرتها على الحكومة ومجلس الامة حتى انقسم حزب تركيا الفتاة الى حزبين حزب الجمعية وحزب الاحرار ولما غلب حزب الجمعية بفضل الجيش وكثرة اعضائها في مجلس الامة وانهزم حزب الاحرار شر هزيمة في عدة مواضع اندفع في انتقاد اعمال الجمعية بصدق اللهجة وكشف الغطاء عن نيتها المشوهة للدستور وانتشر بغض الجمعية بين الانام بعد ان كانوا محبين لها لهجين بشكرها في اعادة الدستور وهاج اهالي الاستانة وعساكر دار الخلافة مشهرين سيف عدائهم في وجه الجمعية وقلبوا لها ظهر المجن – وفر جميع انصار الجمعية من اعضاء مجلس الامة تاركين مراكزهم في الاستانة الى مقر مركز الجمعية في سلانيك – واخذت الجمعية تجند الجنود لكبح جماح الخارجين عليها والباغين بدعوى المحافظة على الدستور واخيراً قد فازت الجمعية على مخالفيها وأجرت الاحكام العسكرية في دار الخلافة واخذت تبحث عن الذين سعوا في محو الدستور واعادة الحكم المطلق (بزعمها)

وكلما ننظر في خلال هذه الحادثة المؤلمة من أولها إلى آخرها نجد جلالة السلطان عبد الحميد محافظا على الدستور ومواليا للملة — والوطن — لم يتعرض لمجلس الامة قط بل صرح في مثل هذه الحالة الحرجة أيضا عند تعيينه لعلي كمال بك (كذا) صدرا لمجلس الامة ان مستقبل البلاد لا يقوم الا بالمحافظة على الدستور ، وهذا دليل بين وبرهان عظيم على كون جلالته محباً للدستور – ومحافظا عليه بار

يبينه مجتنبا اراقة دماء الابرياء ونرى المبعوثين أوحزب تركيا الفتاة تائهين في تيه الضلالة وناسين واجبات صلاح الدولة والمملكة باسراعهم في عزل عبد الحميد عن عرش الخلافة وعدم تبصرهم في غوائل الأمور وخاصة عاقبة مثل ذلك الفعل القبيح — لانهم لو تأملوا بحوادث انقلاب السلطنة الأخيرة لوجدوا انه لم يكن لجلالة عبد الحميد يد فيها لأنه كان قادرا على ان لايسمح بابعاد حرسه الخاص قبل أسبوعين من تلك الكارثة أو جمع عدد عظيم من العساكر لحفظ مركزه — وعلى الأقل — حض العساكر الموجودة في الاستانة الذين بغوا وطغوا على الجمعية (واغرائهم) بالثبات والاستقلال في الحرب وجنود قصره على عدم قبول طاعة المهاجمين من غير مدافعة — بل واسلامهم للاعداء — كما صرح ضباطهم عند التسليم «انا نسلم أسلحتنا بأمر من جلالة السلطان لأنه أبى إراقة الدماء وقال لنا ان المهاجمين أيضا من أولاده وهو لا يرضى ان يصيبهم مكروه» وغير هذا كان من الممكن لجلالته ان يأخذ لنفسه حماية أقوى دولة من الدول الأجنبية — ولكنه لم يفعل كل ذلك بل سلم نفسه للملة وأثبت للملأ انه محب مخلص للامة والوطن ولا يريد محو الدستور أبداً واراقة قطرة من دم في سبيل حفظ مركزه على طريق الواجب أيضا

فكان من واجبات الجمعية وحزب تركيا الفتاة ان يحترم عواطف ذلك السلطان الشفيق والسياسي المحنك الذي عند قبضه على صولجان الملك كانت السلطنة في أسوء الحال من الافلاس — وعدم قوة الحربية — وخلل نظام الداخلي — وهجمات الأعداء الخارجي — وكانت الأمة جاهلة عارية من العلوم الحديثة منقسمة على نفسها أي انقسام أدى ذلك الانقسام الى ضعفها واضمحلالها الى حد حكم العالم بموتها — فشمر على ساق الجد وقوى مركزها بين الدول وأصلح الخزانة وعمرها حتى جعل لها اعتبارا ماليا في أسواق أوربا موازيا لاعتبار أقوى الدول في العالم — ودرب الجيش على قواعد الحرب الحديثة وأكمل تسليحه بأحدث الآلات — حتى صار الجيش نفسه اليوم عليه بعد ان كان له، وكل فضل الجيش في التربية والعدة والعدد من بركات عبد الحميد لا غير «فانظر يا أيها القاريء كيف انقلب الحال!» سعى في انتشار التعليم والعلوم الحديثة في البلاد وأقلع صدأ الجهل عن

مرآة قلوب العباد، الى ان صاروا يفهمون معنى الوطنية والاتفاق والاتحاد، فالذين علمهم الوطنية والاتحاد صاروا اليوم يرمونه بعدم محبة الوطن ومخالفة الدستور ان هذا لشيء يراد

قضى ثلاثا وثلاثين سنة يجد و يجتهد وراء سعادة الامة والملة وعمل اعمالا اثمرت رفاه البلاد والسلطنة: عمر الطرق و بنى السكك الحديدية واجرى الترع والقنوات واخصب المفاوز والقفار، وأوصل الاقطار بالاقطار، وحفظ السلطنة من الضياع امام اعداء اشداء حتى أقر العدو والصديق انه من أمهر السياسيين في السياسة وداهية العصر في الدهاء وفاز في كل المواقع السياسية المشهورة بهمته الشماء غير مضيع نفسه ومضعف مركزه وكان في كل زمان عاملا نشيطا وسلطانا حازما لايعرف الملل ولا يعتريه الكلل — كان من عادته ان يعمل ثماني عشرة ساعة في كل يوم ويشتغل في مهام السلطنة كأدنى خادم للملك والملة، لم يكن له شغف بالراحة ولا كان يعرف الاستراحة فبعد ماعانى من المشاق ماعانى — وعمل لصلاح البلاد ماعمل لما رأى ان غراسه أينعت وأثمرت، والملة لحكم الدستوري اشتاقت، اعطاها هذه النعمة مرتاح البال وصار يغذيهم بلبان الافضال يقوم باقامتهم ويقعد باقعادهم كأنه ترك حمل القوم على غاربهم ليظهروا استعدادهم ومعارفهم عادت الامة عليه ورمته بالسعي في اعادة الحكم المطلق من غير بينة ولا برهان حتى اذا لم تجد مسوغا لتجريحه استعانت بفتوى الشرع من شيخ الاسلام وصوبت اليه سهام الملام، وأنزلته من عرش آبائه الكرام، وهو في هذا الحال أيضا راض من الامة غير منكسر البال بما فعلت به لانه يعرف ان القوم مخطئون وهم لا محالة يوما على صنعهم سيندمون.

فارحم الله بلطفك هذه الامة الخاطئة التي كفرت بنعمتك الجزيلة ولم تعرف قدر ذلك السلطان الجليل الذي كان خير سلطان لها في مثل هذه الحالة الحرجة والموقع الصعب وأهدها اللهم بجاه نبيك ان تكافي سيئتها بحسنة إعادة السلطان عبد الحميد على سرير الملك وان لم تفعل ذلك فتحفظ حياته وتحترمه احتراما يليق به وتنتفع من آرائه وتجاربه وحنكته من حيث هو مشير مخلص خبير في نظم المملكة وترقية السلطنة ان لم تنتفع به من حيث سلطان قابض على زمام الملك وكن يا مولانا له

وخلفه وأمته خير نصير انك على كل شيء قدير و بالاجابة جدير

حضرة الرصيف الفاضل :

بعد السلام والاحترام نرسل اليكم اليوم مقالتنا الافتتاحية التي سطرناها في جريدتنا في أمر عزل السلطان عبد الحميد . ومعهما مقالة أخرى المنشورة في جريدة أو بزرور - وغرضنا ان تنشروهما في جريدتكم الغراء لتعلم الامة العثمانية بأفكار المسلمين الهنديين في ذلك الباب وان كان ما كتبناه عن عدم العلم بالاحوال الموجودة أو خلافا للوقائع فلكم ان تفندوا أقوالنا لنكون على بصيرة في المستقبل فيما نكتب بأمور الدولة العلية ولكم الفضل هذا واقبلوا فائق احتراماتي اقدم ــ ودمتم

٦ مايو سنة ١٩٠٩ كاتبه المخلص محمد إنشاء الله

محرر ومدير جريدة « وطن »

(لاهور - بنجاب) الهند

(المنار) وهذه ترجمة جريدة ابزرور وهي مفتتحة بيتين لشكسبير شاعر الانكليز في مصرع يوليوس قيصر الروماني . قال

خلع السلطان عبد الحميد

لقد خلع السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني سلطان تركيا وخليفة الاسلام وأمير المؤمنين ونودي بمن يخلفه . ان هذا الحادث المحفوف بأعظم الاخطار الممكنة سيؤثر تأثيرا مزعجا في العواطف الاسلامية في العالم بأسره ومن شأنه أن يؤدي الى قلق عظيم في جميع الممالك الاسلامية من النيجر في أقصى الغرب الى الصين في أقصى الشرق

ان الزمن القصير الذي مضى على هذا الحادث لا يبيح لنا الحكم بمقدار تأثير خلع عبد الحميد في السياسة العثمانية ومستقبل الاسلام فقد يكون فيه خيرا لتركيا وقد يكون بداية القضاء عليها ولكننا نعلم علم اليقين ان خلعه قد ذهب من مرسح العالم السياسي بشخص مفرد كان له نفوذ عظيم في تكييف التاريخ الأوربي مدة ثلاثين

سنة وقبض في راحتيه على مفاتيح الأسرار الدولية في الغرب وكان احسانه نقل حجارة الشطرنج على رقعة السياسة الأوربية موضع اعجاب ساسة المسيحيين وحسدهم و بأسهم. وكان حسن تبصره في مشاكل الشرق الأدنى هو الباعث الوحيد على انقاذ تركيا من الوقوع في أيدي جاراتها القوية الطاعة . اذ لا يخفى ان الدولة العثمانية انما فقدت بلغاريا والبوسنه والهرسك على عهد الحكومة الدستورية (؟) وسيفتح التاريخ فصلا كبيراً خطيرا لوصف حكم عبد الحميد العظيم الشأن و يعترف بأن الفضل في سلامة المملكة من الفوضى وتحول الاتحاد الأوربي عليها عائد الى حنكته وحكمته فانه لم يسبق لملك آخر سواه من المتقدمين أو المتأخرين ان لاقى ما لاقاه عبد الحميد من العقبات الشديدة داخلا وخارجا وهو معرض كل يوم للفتن المرتبة والبلاغات الأخيرة الواردة عليه من كل جانب ومع ذلك فانه كان ينجلي عنه غبار تلك الحوادث ظافرا فائزا بفضل حكمته وحنكته وهو الآن قد ترك العرش في ظروف محزنة مفجعة بعد أن قضى حياته في التعب والعناء تارة في صفاء وطورا في شقاء وهو في الحالتين قد امتاز بحسن تقديره للواجب الشريف والدأب على العمل لسعادة مملكته

ان التاريخ لم يرو لنا أنكى من هذه الحادثة وأكثر مفاجأة من هذه الفاجعة التي رأينا فيها سلطان الامة الجليل والخليفة الشيخ الذي طالما تولى الأمور بيد قادرة وكانت ارادته نافذة في أمته وكان عاملا نشيطا لرقي وتقدم شعب متأخر - تلك الحالة التي رأيناه فيها يهبط من علياء مجده ومكانته على أثر ثورة قام بها « أبناؤه » وهو يتوسل اليهم أن يبقوا على حياته وحياة أولاده

ويندر أن يأتينا التاريخ برجل حامت حوله الآراء المختلفة كما حامت حول سلطان تركيا المخلوع فقد نادوا به منقذا لبلاده كما قالوا انه أفسد قومه . وأطروه فقالوا انه موجد الدستور العثماني ومانحه وأهانوه فقالوا انه أشد خصوم الدستور . وفرحوا به فقالوا انه الذي رفع الامة المتأخرة وأحياها من العدم ثم أساؤا اليه فقالوا انه منبع الانحطاط ومصدر تعاسة الامة العثمانية . جعلوه عنوان المفاخرة برجل تمكن بدهائه وحكمته من رد مساعي أعداء وطنه . وزعموا أنه ظالم مستبد

ضعيف العقل لا هم له إلا ترويج مصلحته الخاصة . على أن خصومه وأعوانه قد اتفقوا عل الاعتراف بمقدرته السياسية وفوزه في افساد مساعي الاعداء الذين أحاطوا به من كل جانب وحبه الذي لا ينكر للاسلام وجميع ماله علاقة به وانما المستقبل وحده يستطيع أن يحكم الحكم البات في شخصيته وأعماله يثني عليه أو يقضي بعدل على الذين دسوا الدسائس لخلعه

على ان الدور الأخير من حياته جاء موافقا لما علمناه من حياته الشريفة فانه منع سفك الدماء ووعد ان لا يهجر يلديز ورضي بالخلع المقدر له من أمته ولم يطلب من القوم الا أن يسمحوا له ان يقضي بقية حياته مع أولاده في القصر الذي ولد فيه على انهم لم يجيبوا طلبه بل نقلوه الى مدينة بعيدة سجينا في بلاده محروما من جميع مظاهر الابهة معرضا لمعاملة مكدرة لرجل حساس نظيره وهو مع كل ذلك قد تصرف بأنفته المعهودة وصبره المعروف الذي يليق أن يفاخر به الهيكل العثماني والملك الكبير والرجل الذي صح اسلامه

لقد قال بورك « يالها من ثورة » ونحن نقول أي قلب لا يتأثر اذ يتأمل في ارتفاع عبد الحميد الى مستوى تزيغ فيه الابصار ثم سقوطه الفجائي . من كان يظن وهو ذاهب يوم الجمعة الفائت الى حفلة السلاملك محاطا بالهتاف والدعاء ان مثل هذه النكبة تحل به بعد يومين من أمة حوت كثيرا من الشجعان والاشراف والابطال

لقد كنا نظن ان عشرة آلاف حسام بل عشرة ملايين حسام تجرد من اغمادها لتنتقم له من نظرة احتقار أو أقل اهانة

ولكن قضت الأقدار غير ذلك ونقل عبد الحميد ليقضي بقية أيام حياته في قصر الاتيني الذي كان مسكنا لاحد قواده اه

﴿جواب المنار﴾

كنا نعلم ان الجرائد الهندية تطري السلطان عبد الحميد وتنوه به ولكن لم يكن يخطر لنا ببال انها تجهل احوال الدولة العثمانية في عهده جهلا مطلقا بحيث لا تدري حقيقة شيء منها ألبتة كما ظهر لنا من هاتين المقالتين

كنا نظن ان اصحاب هذه الجرائد يعلمون بعض الحقائق عن الدولة وسلطانها من الجرائد الاوربية التي لم يتمكن عبد الحميد من استئجارها لمدحه ، وأنهم يكتمون هذه السيئات ويذيعون بعض أماديح الجرائد العثمانية التي كانت مكرهة على المدح بالباطل وبعض الجرائد الأوربية والمصرية المستأجرة أو المخطئة في اجتهادها أو المتزلفة الطامعة بنوال ذلك السلطان الذي يعطي العطاء الجم لمن يواتيه ويسعى الى هلاك من يناويه

وكنا نلتمس العذر لمن نحسن الظن فيهم ونعتقد حسن نيتهم كصديقنا صاحب جريدة «وطن» بأنهم لا يحبون ان يبينوا الحقيقة كما هي لئلا يضعف تعلق مسلمي الهند بالدولة العلية التي يودون كأهلها وجميع المسلمين الذين سلط عليهم الاجانب لو تكون أقوى الدول وأعزها وان تبقى صلتهم بها قوية شديدة كما هي سياسة جرائد مسلمي مصر سواء منهم من كان يستفيد من عبد الحميد ويطمع في المزيد ومن ليس كذلك

كنا نعتقد مع التماس هذا العذر ان مدح الجرائد الاسلامية في مصر والهند لعبد الحميد والدفاع عنه ضارّ بالدولة سواء منه ما كان بحسن نية وما كان عن طمع في ماله أو رتبه وأوسمته لأن ذلك يجعل قلوب الملايين من المسلمين متعلقة بشخصه وهذا شيء يضر (لو كان سلطانا مصلحا فما بالك وهو سلطان مفسد مخرّب) لأنه يجب أن يكون التعلق بالدولة لا بالشخص ولأن في كل قوة لعبد الحميد إضعافا للأمة العثمانية وللدولة العلية اذ اتخذ الأمة عدوة له وجعل الدولة صوراً متحركة في يده اذا حاول أحد الوزراء او المشيرين أو الولاة أو القضاة فمن دونهم ان يعمل عملا ما مستقلا فيها بحسب الشرع والقانون بتره من جسم الحكومة بترا ، وكان عاقبة أمره خسرا ، فأي سلب للاستقلال واضعاف للحكومة يكون شراً من هذا

ومن الشواهد على ذلك ما حدثني به احمد مختار باشا الغازي غير مرة من أنه حاول جهده ان يقنع عبد الحميد بجعل القضاء مستقلا دون السياسة والإدارة ليأمن الناس على حقوقهم وانفسهم واستعان على ذلك ببعض كبراء الدولة فكان السلطان يغضب لهذا الاقتراح ويرفضه أشد الرفض ، وهل تقوم للدول قائمة أو ترقى الامم بغير قضاء مستقل ؟

وكنا نعتقد ان ذلك المدح الذي غر المسلمين بالسلطان ضار بأولئك المسلمين انفسهم ايضا لانصرافهم به عن استعدادهم واتكالهم على من لا ينفعهم وقد كتبت في مقالة نشرت في جزء المنار الذي صدر في ١٧ المحرم سنة ١٣١٧ ما نصه :

« ان أمام المصريين وسائر المسلمين سداً منيعا من الوهم يحول بينهم وبين السير في طريق الترقي فاذا استطاعوا ان يَظْهَروه او ينقبوه ــ ولا أقول ان يدكوه ــ يتسنى لهم الايجاف والايضاع في ذلك المنهاج الواضح ، والمهيع الواسع ، وان ذلك السد هو الاعتماد على دولهم وحكوماتهم التي امست أغلالا في اعناقهم وسلاسل في أيديهم وقيوداً في أرجلهم وغشاوة على ابصارهم ووقرا في أسماعهم ورينا على قلوبهم ، وكل ما نزل بالمسلمين من بلاء فانما نزل من سماء عظمتهم واستبدادهم ، وان تعجب فعجب قول من ليس للدولة العثمانية في بلادهم أمر ولا نهي ولا نفوذ ولا سلطان (١) « ان حياتنا بين يدي المابين وان السعادة ستهبط علينا من أفق الباب العالي » وهم يعلمون ان البلاد التي تحت جناح المابين ونفوذ الباب العالي تنقص من اطرافها وتمزق أهلها كل ممزق ولا ينال تلك البلاد وأهلها من المابين والباب العالي الا الاعتراض على من مزق الاشلاء وشرب الدماء

« ماذا جنى ويجنى أهل جاوه والهند ومصر من الظهور القولي في حب الدولة العثمانية ؟ لعمرك انهم لا يجنون الا الحنظل والزقوم فان هولاندا وانكلترا كلما آنستا منهم اليها ميلاً ، أوسمعتا منهم فيها قولاً ، تزيدان عليهم الضغط والاضطهاد ، والقهر والاستبداد ، أولا يرون ان الدولة لا ترجع اليهم قولاً ، ولا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ،

« ولا أقول لهؤلاء المسلمين أبغضوا الدولة ولكني أقول اذا احببتموها فاكتموا حبها ولا ترجوا منها ما لا ينال واعتمدوا في رقيكم على المعونة الالهية ثم على جدكم وكدكم وعلمكم وعملكم فان رأيتم من الدولة نهضة عملية فانهضوا معها ان كنتم صادقين ، كل عاشق يحذر العذال والرقباء فكيف لا تحذرون ، ألم تعلموا ان الدولة لا ينالها من كثرة لغطكم بذكرها إلا مثلما ينالكم من الضغط الأوربي والاضطهاد

(١) كلمة قالتها في تلك الايام جريدة يومية من جرائد المسلمين بمصر

« نعم ان السلطان يفرح ويسرّ من خضوعكم له ولهجكم بتمداحه ولكن تشترون فرح شخص وسروره بمصالحكم ومصالح الدولة ؟ ؟ أقول هذا وأنا أعتقد انه لباب النصح الذي يوجبه علينا ديننا وإخلاصنا لأمتنا ودولتنا ومن بين لنا بالبرهان انا مخطئون فاننا نرجع الى رأيه ، وإذا كان القول صواباً فعلى إخواننا المسلمين أن يتدبروه وعلى جرائدهم ان ترجع صداه ، والمنتظر من الجرائد الهندية التي تتفضل دائماً بترجمة مقالات المنار أن تنقله الى لغتها ليحيط به قراؤها علماً » اه ما كتبناه منذ عشر سنين ولم تكن سيئات عبد الحميد قد ظهرت لنا جلية بل كنا نحسن الظن فيه وندافع عنه ظهر في هذه الأيام من صدق رأينا أن التغني بمدح عبد الحميد كان مضرا بالدولة فانا نرى أصحاب بعض جرائد المسلمين ومن تلقح برأيها منهم يسيئون الظن اليوم بالأمة العثمانية وبحكومة الدولة كلها ويزعمون ان العثمانيين أحرارهم وجماهيرهم وعسكرهم ونوابهم كلهم مخطئون كافرون للنعمة جانون على الدولة وان عبد الحميد وحده هو المصيب وان استواءه على عرش السلطنة هو الذي يحفظ الدولة والاسلام وان سقوطه عنه خطر على الدولة والاسلام ! ! فيالله وللعقول كيف كان هذا السلطان مصلحا مرقيا للأمة والدولة وهي بعد ثلث قرن من إصلاحه لا تصلح ان تسوس البلاد وتحفظ كيان الدولة ولا تعرف قيمة من يقدر على ذلك ؟ وكيف تبقى دولة يتوقف بقاؤها على وجود شيخ هرم بلغ من الكبر عتياً ، لم يزدد فيه الا كبراً وعتواً

كان من سوء تأثير إطراء الجرائد المصرية لعبد الحميد قريب مما كان في الهند ولما أعلن الدستور اجتمع جمهور عظيم من المصريين للاحتفال بهذا الطور الجديد للدولة العلية ومما كان في الاحتفال من العجائب أنه كان يصيح جمهور عظيم ليحي السلطان عبد الحميد ولتسقط تركيا الفتاة ! ! وما تركيا الفتاة إلا الأمة العثمانية الناهضة بالاصلاح والقائمة بأمر حكم الشورى الذي يعبر عنه بحكم الامة نفسها بنفسها . ما أضعف البشر الذين يوجد فيهم من يتخيل عبد الحميد في هذا العصر كما كان يتخيل قدماء المصريين فرعون الذين قال لهم « انا ربكم الاعلى » ثم قال لهم « ما علمت لكم من إله غيري » فأطاعوه وعبدوه كما عبد كثيرون غيره من الملوك بعد هذا التمهيد العام أبين للرصيفين الفاضلين غلطهما فيما كتبا بالتفصيل الا

ماكان من المدائح الشعرية لعبد الحميد وادعاء ان العالم الاسلامي بأسره يبكيه ويحزن خلعه وحسبنا ان عالمنا الاسلامي العثماني بذلك سرورا لم يسر بمثله في حياته . وأبدأ بدعاوى صديقي صاحب جريدة وطن ثم اذكر ما انفرد به الآخر فأقول

يقول صديقنا الغيور ان عبد الحميد أثبت للعالم حبه للدستور واخلاصه له واستدل على ذلك بأمور (١) إعلانه الدستور عند طلبه من غير سفك دم (٢) تصريحه بذلك عدة مرات (٣) عدم تعرضه لمجلس الأمة بسوء (٤) وضع حرسه تحت أمر نظارة الحربية واخراج حرسه وعساكر الاستانة منها ووضعها تحت حماية عسكر الدستور الذي جيء به من سلانيك وغيرها (٥) أمره أخيرا لحرسه بالتسليم لعسكر الدستور الذي دخل الاستانة عند ما أراد الاستيلاء على « يلدز » قال وكان قادرا على ان لايسمح بابعاد حرسه وعلى جمع جيش عظيم لحفظ مركزه وعلى حض العسكر الذي طغى وبغى على الجمعية على الحرب (٦) تركه طلب حماية أقوى دول أوربا وإنما ترك ذلك حبا في الدستور واخلاصا للمملكة والوطن !! !

ونقول انه لايصح من هذه الادلة شيء (١) فاعلانه الدستور لم يكن عن رضى واختيار بل فاجأه هذا الطلب المقرون بإنذاره الزحف على الاستانة بالجيوش والكتائب اذا لم يجب اليه فجمع مستشاريه وأعوانه الذين أفقر الدولة لإغنائهم وأذلها لإعزازهم ومن يرجع اليه عند المشكلات من غيرهم وهو سعيد باشا وطفقوا يأتمرون الليل بطوله فاجمعوا أمرهم في الصباح على ان المقاومة بالقوة غير مستطاعة فان عساكر حصون الاستانة متفقة مع عسكر سلانيك فهي تساعد ولا تقاوم بل قيل له ان دسائسهم متصلة بحرسه فصدق ذلك وناهيك باحتياطه وحذره وجبنه واستفتى شيخ الاسلام في عصيان عسكر سلانيك ليحاربهم باسم الدين ويوقع الفشل فيهم فقال له شيخ الاسلام لا يمكن الافتاء بعصيانهم وخروجهم على الخليفة لأنهم يطلبون منه أمرا مشروعا وهو جعل الحكم بالشورى كما أمر الله عز وجل . فلما لم يجد في قوس المقاومة منزعا أمر بالإجابة على كره وعزم على استعمال سلاح المكر والحيلة والكيد الذي فتك به بالدستور ورجاله أول مرة كما ظهر في الفتنة الاخيرة واضحا جليا كالشمس ليس دونها سحاب ولعل هذا قد علم الآن عند اخواننا الرصفاء في الهند فانهم قد كتبوا ما كتبوا عند ما علموا بنبإ الانقلاب وقبل العلم بالاسباب

٢ — وأما أقواله وتصريحاته بحب الدستور فهي دعوى لا دليل عليها . ومثله إظهاره الرضا عن جمعية الاتحاد والترقي وكونه منها أو رئيسها وقد كان يستعمل هذه المصانعة والمراوغة والدهان في أيام جبروته وعنفوان استبداده وانا نعرف عنه من ذلك مالا نود ذكره الان

٣ — وأما عدم تعرضه لمجلس الأمة فلم نفهم ماذا يعني به الكاتب. أيعني انه لم يرسل حرسه لقتل نواب الأمة أم ماذا يعني ؟ هل كان يمكن التعرض لهؤلاء النواب مباشرة وأقوى جند الدولة بحرسهم والاسطول معه ظهير ؟ كلا ان هذا لم يكن ليأتيه من له مسكة من عقل أو إدراك لانه على فحش قبحه في أعين الامم والدول غير معيد للاستبداد مالم تسقط القوة الذي أوجدته فلذلك وجه عبد الحميد كيده وفكره لإسقاط جمعية الاتحاد والترقي بتنفير الأمة منها باسم الدين والى التفريق والشقاق بين الجيش ليضرب بما يستميله اليه منه مايبقى في جانبها وجانب الدستور وإن هلكت بهذه المكيدة الامة وسقطت الدولة

٤ — وأما مسألة تغيير حرسه واستبدال بعض عسكر الدستور بعسكر الاستانة فقد راوغ فيه مرارا ثم انفذ بالقوة ولم يكن من سبيل الى المقاومة فيه بعد ان شرعت الحربية في إعدام الذين يخالفون الاوامر العسكرية بحسب القانون مع علم الحرس وعبد الحميد ان الاسطول تابع للحكومة ولعسكر الدستور لا للمابين وانه يمكنه أن يدمر يلدز عليه وعلى حرسه تدميرا

٥ — وأما أمره لحرس يلدز بالتسليم عند ماوصل اليهم جيش الدستور بعد استيلائه على حصون الاستانة ومواقعها العسكرية بالقوة القاهرة فسببه يقينه بأن المقاومة في هذا الوقت تفضي الى تدمير يلدز بالمدافع بعدما كان من حصرها وقطع الماء والزاد والنور عنها، وفي ذلك ذهاب حياته العزيزة الذي جعل الدولة والامة حفاظا لها مدة ثلث قرن

٦ — واما دعواه انه كان يمكن ان ينال عبد الحميد حماية أقوى الدول الاجنبية ولكنه لم يفعل حبا في الدستور فنقول فيها ان هذا لم يكن في استطاعته لاسيما بعد ان يئس من الفوز والظفر بمكيدته الاخيرة

و ياليت شعري كيف يتصور رصفاؤنا في الهند ان يحارب الألوف من عسكر الاستانة

إخوانهم الذين جاؤا من سلانيك لتأييد الدستور اذا لم يكن السلطان هو المحرك لهم؟ خرجوا عن طاعة قائدهم وصاحوا في مواقع كثيرة: ليسقط الدستور وليعش السلطان وحاولوا قتل جميع اعضاء لجنة الاتحاد والترقي، فعلى اي دعامة كانوا يستندون؟ وأية قوة كانوا يعززون؟ أما أنه لو لم تظهر الدلائل الحسية القاطعة بعد ذلك على أن عبد الحميد كان هو المدبر لهذه الفتنة والمنفق عليها لكان العقل وحده حاكما بذلك

واذا كان عبد الحميد قدر على إفساد الجيش الذي جاءت به الجمعية عليها ودفعه للتنكيل بها وبالدستور فكيف كان يكون اندفاعه في مكيدته لو كان الحرس الذي رباه في حجر الرفاهة والدلال بقي عنده؟ أفلا يدل هذا على ان الصواب هو ما فعلته الجمعية من إخراج ذلك الحرس الفاسد (الذي لم يطع نظارة الحربية إلا بالقوة) من قصر هذا السلطان الذي مرد على الاستبداد حتى امتزج بلحمه ودمه وعصبه؟ أليس هذا الدليل أصح من دليل صديقنا على كون الرضا باخراج ذلك الحرس كان خطأ

هذا هو القسم الأول من الكلام وهو ما يتعلق بالدفاع عن سيرة عبد الحميد في عصر الدستور وأما القسم الآخر منه وهو في سيرته قبل الدستور فيشتمل على عدة دعاوي لم يقترن شيء منها بدليل

١ — قال «انه أصلح الخزانة وعمرها حتى جعل لها اعتباراً مالياً في أسواق أوربا موازيا لاعتبار أقوى الدول في العالم» ونقول ان هذه الدعوى أغرب ما كتبه الرصيف الصديق واني لا أذكر ان أحداً من الذين كانوا يطرون عبد الحميد بالإكراه أو بالأجرة قال ذلك أو ما يقرب منه بل كانوا يطرونه بأمور أخرى لا تظهر مخالفتها للحس كهذه فقد أفسد عبد الحميد مالية الدولة حتى لم يعد لأحد من أوربا ولا من غيرها ذرة من الثقة بها ولم يعد أحد يقرض الدولة قرضا ما الا بضمان يستولي به على مورد من مواردها بالفعل حتى صارت موارد الدولة الأساسية في يد إدارة الديون العمومية وغيرها وبهذا صار لبعض الأمور المالية شيء من النظام. وحسبك انه لم يكن للدولة في هذه السنين ميزانية تجري عليها الحكومة بل كان عبد الحميد يغتال الملايين من الدخل ويسلط عمال الحكومة على الاستعاضة عن مرتباتهم التي لا يصل

اليهم منها إلا القليل بسلب الأمة ونهبها بشرط أن يجعل له كبارهم كالولاة والمتصرفين نصيبا مما ينهبون. وحسبك ان الحكومة قد عجزت الى الآن عن تقديم الميزانية إلى مجلس الأمة وفر موسيو لوران المالي العظيم الذي جاءت به الحكومة من فرنسا لينظم ماليتها متعجبا من الخلل الذي وجده معترفا بان إصلاحه من أشق الأمور حتى انه يكاد يكون متعذراً. نعم انه عمر بخراب مالية الدولة ماليته الشخصية فكنز الملايين في صناديق يلدز وفي مصارف أوربا وأمريكا وانفق الملايين على الشهوات والجواسيس وهو يعلم ان عسكر الدولة كان يموت جوعاً وعرياً حتى انهم كانوا يقتاتون في نجد ببذر الحنظل فقطع أمعاءهم والعياذ بالله

٢ ـ قال انه درّب الجيش على قواعد الحرب الحديثة. ونقول ان الدولة العثمانية هي دولة حربية بالطبع وكان السلطان محمود رحمه الله تعالى هو الذي بدأ بجعل نظام عسكريتها على الطراز الأوربي وقد سارت الجندية فيها على ناموس الارتقاء ولكن اعترضها من سوء سياسة عبد الحميد ما جعل سيرها بطيئا وعرضة لضروب من الخلل والفساد منه ما حل بدور الصناعة البحرية والعسكرية (الترسانة، والطوبخانة والبارودخانه) حتى رجعت القهقرى ولو سارت على سنة الترقي لاستغنينا بها عن شراء السلاح من أوربا بأثمان غالية كانت من وسائل سلب الملايين للأموال المخصصة للعسكرية وكم ظهر في ذلك من الخيانات وهذا الضرب من الفساد يجعلنا عالة على أوربا في قوتنا الحربية (ومنها) مقاومته للتعليم العسكري في الاستانة حتى انه حاول غير مرة إبطال المدرسة الحربية التي زعبها بالجواسيس (ومنها) ترقية الضباط بالارادة السنية من غير استحقاق (ومنها) نفيه وإذلاله للضباط المتعلمين البارعين الخ مالا محل لتفصيله هنا. ولو كان المقربون منه جاروه على كل وساوسه في العسكرية لجعلها أثراً بعد عين ولكن نحمد الله تعالى ان مكنها من القضاء عليه قبل ان يقضي هو عليها

٣ — قال انه سعى في انتشار التعليم وبث العلوم الحديثة. ونقول ايضا ان التعليم من ضروريات كل دولة وكل امة في هذا العصر وكان من مقتضى سنة الارتقاء ان نكون فيه مثل اليابان، إن لم نكن مثل الفرنسيس او الألمان، ولكن عبد الحميد حارب العلم في أمته ودولته اشد المحاربة حتى جعل اكثر مدارسها ملاعب أطفال (راجع ص ١١٠

و١١ من منار هذه السنة) وأبطل امتحان طلاب العلوم الدينية فتركوا الطلب والاشتغال واعترفوا في جميع البلاد بعد إعلان الدستور وصدور الأمر بامتحانهم انهم عاجزون عن الامتحان فاعفاهم مجلس الأمة منه في هذا العام ليستعدوا له .

وقد علم العامة كالخاصة في جميع بلاد الدولة أن العلم الديني والدنيوي هو أكبر الجرائم في نظر السلطان عبد الحميد فصاروا يتحامونه وحدثت في السنين الأخيرة من حكمه المشئوم بدعة تفتيش الحكومة لبيوت الناس وأخذ الكتب منها ومعاقبة اصحابها فصار الناس يحرقون كتبهم بأيديهم ومنهم من دفنها في الأرض حتى أحرق في سورية عشرات الألوف من الأسفار القديمة والحديثة في سنة واحدة. فانظر ما أشد حرص عبد الحميد على العلم وعنايته بنشره وما أكثر المجتهدين والمخترعين المكتشفين في أيامه !!!

وقد ألقيت خطبة في رحبة القشلة العسكرية ببيروت في أواخر رمضان الماضي بينت فيها كيف كان ظلام الجهل ممدودا على البلاد العثمانية وكيف كان الهدم واقعا في ذلك الظلام ببناء الدولة : معارفها وقضائها وادارتها وماليتها وعسكريتها ، وبناء الأمة : ثروتها وآدابها وأخلاقها . ولعلنا نراجع الذاكرة فنكتب ما تمليه علينا منه

٤ — قال انه « قضي ثلاثا وثلاثين سنة يجد ويجتهد وراء سعادة المملكة والملة » والصواب انه اشقى المملكة شقاء لا نظير له واخواننا مسلمو الهند الذين يقولون هذا القول لم يروا ولم يختبروا ونحن نسمع باذاننا ونرى بأعيننا بل الشقاء وقع على رؤسنا واحاط بنا من كل جانب بسوء سياسته

٥ — قال انه عمر الطرق وبني السكك الحديدية وحفر الترع والجداول والصواب أنه لم يفعل من ذلك شيئاً للأمة الا سكة حديد الحجاز التي حمله على الرضاء بها وسواسه الذي يخيفه من اقامة خلافة عربية بالحجاز . وما سمح به من امتيازات السكك الحديدية للاجانب فسببه انه كان من موارد ثروته لأنه كان لا يسمح بامتياز الا اذا اخذ لنفسه مبلغا عظيما من المال وكثيراً من سهام الشركة فقد كان يبيع مصالح المملكة بذلك بيعا ولذلك كان يعطي هذه الشركات من الضمانة الكيلومترية مالا يعهد له نظير في مملكة أخرى . ونسأل صديقنا الكاتب ان يدلنا على مكان الترع والجداول التي احيا بها الزراعة اين هي وماهي الثروة التي تجددت للفلاحين منها ؟؟

٦ — قال انه حفظ المملكة من الضياع . ونقول إنه اضاع بسوء سياسته ثلثها ولو بقي على عرش استبداده سنة أخرى لأضاع الولايات المكدونية الثلاثة فان جمعية الاتحاد والترقي ما عجلت بهذا الانقلاب قبل ان تتم عدته الا لعلمها علم اليقين أن الدول اتفقت على ذلك وانه لا عاصم منه الا الدستور . وكان كثير من السياسيين يقدرون ان الدولة لا تكاد تعيش مع ذلك الحكم اكثر من خمس سنين وأن سبب تأخر سقوطها هو تنازع الدول فيما بينهم . وقد سمعت كلمة من احمد مختار باشا الغازي اكبر مشيري الدولة وقواد جندها واعلمهم بحالها سمعتها منه مرات كثيرة في السنين الاخيرة من حكم عبد الحميد وهي اكبر شهادة نطق بها لسان وأيدتها وقائع الأحوال وقد صار نقلها عنه الان جائزاً فلعل اخواننا مسلمي الهند يعتبرون بها قال « لو اجتمعت أوربا واتفقت على أن تضر بالدولة والاسلام كما أضر بهما عبد الحميد لعجزت »

هذا ما نبين به خطأ الجريدتين بالايجاز ونزيد كلمة في الرد على ما انفرد به صاحب جريدة الابزرور اذ قال إن الدولة فقدت البلغار والبوسنه والهرسك على عهد الحكومة الدستورية . ونقول ان هذا غلط عظيم فان هذه الولايات قد ضاعت منا بحربنا الاخيرة لروسية وإنما كانت تلك الحرب برأي عبد الحميد ودسائسه ليشغل الامة عن الدستور ويتمكن من إبطاله وقد بذل مدحت باشا (رحمه الله تعالى) جهده في سبيل تلافيها فعجز ولا يقال انها كانت برأي مجلس الأمة الأول لما هو معلوم

وقال إن أعداءه شهدوا له بالدهاء والسياسة ونقول اننا لا ننكر أن له دهاء ومراوغة في السياسة الخارجية كان يستعين عليها برشوة نساء السفراء أو اهدائهن الجواهر الثمينة ولكن نطلب من الكاتب أن يأتينا بشهادة لها قيمة من الاعداء اوغير الاعداء بأن عبد الحميد رقى ثروة أمته ومالية دولته أو اجرى فيها العدل أو نشر العلم أو جرى على طريقة ميكادو اليابان

وقال لا ينكر حبه للاسلام . ونقول اما دين الاسلام نفسه فلم ير من ملوكه من عبث مثله بكتب الحديث والعقائد والفقه من منع بعضها وتحريف البعض الآخر ولو كان في غير عصر المطبوعات وكان جميع المسلمين تحت سلطته لما بعد عليه ان يطمع في تحريف القرآن وتغيير آيات الشورى ونحوها فيه . واما أهله فقد كان الاضطهاد

عليهم في دينهم شديداً من حيث لا يضطهد غيرهم كما كان الظلم أشد وطأة عليهم من غيرهم . نعم انه كان ولوعا بإحياء لقب الخلافة والحرص على تعظيم المسلمين الذين تحت سلطة الاجانب له لأجل ان تحترمه دولهم فلا تنغص عليه التمتع باستبداده

وأما ماذكروا من كثرة عمله فهو على المبالغة فيه عمل ضارّ في الغالب لأنه نظر في رسائل الجواسيس الذين يشون ويمحلون برجال الأمة وقد قيل ان هذه الرسائل محفوظة كلها في « يلدز » وربما عجز واحد عن قراءتها في مثل المدة التي جلسها عبد الحميد على كرسي السلطنة . وأما زعمهم انه كان لا يحفل باللذات فهو باطل فانه كان يشرب أجود الخمور وجمع مئات من الغواني الحسان للتمتع والغناء والعزف والرقص والتمثيل وغير ذلك

وليعلم اخواننا مسلمو الهند اننا لم نقل ما قلنا الا عن علم وخبرة وتأييد للمصلحة العامة بالحق والصدق اذ لسنا من الذين يتوسلون بالشر الى الخير و بالباطل الى الحق واننا لسنا من المتشيعين لجمعية الاتحاد والترقي التي كان لها الأثر العظيم في هذا الانقلاب الميمون فقد رأوا اننا جمعنا في الجزء الماضي من انتقاد المنتقدين عليها مالم يجمعه كاتب

ونختم الرد بكلمة في الخطر على الدولة فان الكاتبين يخافان ان ينزل بالدولة الهلاك بعد عبد الحميد . ونحن نقول لاشك ان عبد الحميد كان يسير بالدولة الى الدمار والهلاك كما مرت الاشارة الى ذلك فان سقطت (لاقدر الله لها الا العلاء والارتقاء) فانما يكون هو الذي أسقطها وان نجت فانما تنجو بالدستور الذي هو آخر سهم في الكنانة

﴿ استغاثة أهل البيت الحرام * جميع بلاد الاسلام ﴾

جاءتنا الرسالة الآتية من صديقنا الغيور الاستاذ السيد عبد الله بن صالح الزواوي رئيس اللجنة العليا بمكة لجمع الاعانات لتعمير عين زبيده ونشر المعارف في الحرمين

الحمد لله وحده

جناب ذي القدر العلي والمفخر السني كريم الشيم علي الهمم حضرة الاستاذ الفاضل السيد محمد رشيد رضا المحترم محرر المنار الأغر زاده الله مجداً وعلوا وقربا من ملك الملوك ودنوا بعد ابلاغ جزيل السلام وأداء مراسم التعظيم والاحترام نعرض انه لا يخفى على انظاركم السليمة ماهو معلوم لدى جميع أهل هذا الدين القويم أعني مالهذه البلدة السعيدة من خطارة

القدر وسمو المرتبة بكونها موضع بيت الله الملك الرحيم ومسقط رأس النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم منها ظهر الدين ونما حتى برز التمدن منه بأبدع الاشكال وانتشرت التعاليم وكثر العلماء حتى علوا الى أعلى ذروة الفضل والكمال كيف لا وهي تحت ملك الملوك ومقر بيته السعيد الذي يخضع تجاهه الملك والصعلوك وقد اغتصبت في الأزمان الغابرة حقوقها ولم يلتفت أحد من القائمين بادارة مصالحها من المتولين عليها الى ملاحظة دوام علوها ورقيها بنشر العلم والتعليم ومساعدة المعلمين والمتعلمين فلذلك قل فيها العلم وأهله وقلت الصنائع وعارفوها والآن بحمد الله تعالى تغير الحال وأملنا ان تعود الى أحسن مآل حيث ان القائمين بادارة مصالحها الآن أهل همة علية ونجدة وأريحية عرفوا الحق لاهله فقاموا باسترداد ذلك المجد وحرضوا العلماء ووعدوهم بالمساعدة وأذنوا لهم بالكتابة الى إخوانهم المسلمين في استحصال كل وسيلة لترقية العلم والصنائع بانشاء المدارس والسعي في طلب المساعدة من أولي الغيرة والحمية في جميع انحاء العالم ممن اتصف بصفة الاسلام لان هذه البلدة واجب لها الحق على جميع المسلمين الخاص منهم والعام وهذه العلوم والمعارف هي غذاء الأرواح والسبب في جاب الطاعة والخيرات والانقياد والفوز بجميع المكارم والارباح كما ان الماء للسكان والحجاج وكل ذي روح هو قوام الاشباح وقد قل وجوده في هذه السنين بسبب الخراب الواقع في العين المنسوبة إلى السيدة زبيدة حتى صار الناس لا يشكون سوى قلته وضاعت مصالح أكثر الفقراء بسببه بحيث لا يحملون الاهمه ونسيت بقية اتعاب المعيشة في جنب هذا التعب العظيم خصوصا والخراب في قنوات العين جسيم والحاصل ان جلب الماء وتصليح قنواته وارجاع مجد هذه البلدة وترقية سكانها بالعلوم ومعرفة الصنائع والمعارف كل ذلك يحتاج الى المال الخطير وأيدي أهل هذه البلاد خالية من القليل منه والكثير ولكنه بحمد الله تعالى بيد أهل الخير من المسلمين في بقية الاقطار كثير وقطعا لا يبخلون بشيء منه على هذه البلاد واصلاحها بتكثير المياه فيها و بناء مدارس لتعلم العلوم والحرف والصنائع لساكنيها حتى يحوزوا عظيم الاجر حيث ان ذلك من أهم المهمات وأعظم القربات وزيادة الخيرات والمبرات وفضل ذلك عظيم وأجره

جسيم والدرهم الواحد الذي يصرف في هذه البلدة يقوم بمئة الف درهم في غيرها وأفضل من تجب اعانتهم جيران بيت الله العظيم القاطنون بواد غير ذي زرع عند بيت الله الكريم وحجاج بيته القادمون اليه من كل فج عميق لاداء الفرض المعظم فساعدوا ساعدوا على اجراء الخيرات وتقربوا الى الله زلفى بفعل المبرات لمثل هذا فليعمل العاملون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقد تشكل مجلس مخصوص لهذا المهم الجليل من أهل العلم والامانة والديانة والغيرة والحمية أهالي ومجاورين في رقعة بطي هذا الكتاب مع تعليمات مجلسهم ليعلم منه تيقن حصول الأمن التام ان شاء الله تعالى في صرف مايتحصل لهم في موضعه لاتتطرق اليه يد غاصبة أصلا فسأل الله سبحانه لنا ولكم حسن التوفيق الى احراز الفضيلة والمنزلة عنده من أقرب طريق انه على ذلك قدير و بالاجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد سيد الانام و بدر التمام ودمتم

(المنار) هذا هو المنشور الذي طبع وأرسل الى اصحاب الجرائد في الاقطار الاسلامية وقد زاد صديقنا رئيس اللجنة في النسخة التي أرسلها الينا بخطه الذي نعرفه ما يأتي :

دُم المرجو من عالي همتكم وعنايتكم بالأمور العامة القيام ببذل الجهد لدى العموم بالتشويقات في هذا العمل الخيري وجمع الاعانة وارسالها الينا أو الى يد وكيل هذا المجلس في أقرب محل لكم حيث ان للمجلس وكلاء في عدة من البلدان منها جده الوكيل بها حضرة الحاج زنيل عبدالله علي رضا وعدن الوكيل بها محمد افندي بن حسن علي وسنبين اسماء الوكلاء أيضا وننشرها في الجرائد حتى مصر والشام وقد كتبنا الى مصر عدة كتب وبالخصوص الخديوي المعظم وصار إرسال كتاب الخديو من طرف الولاية الجليلة وتصدق عليه من مقامها وكذلك كتبنا عدة كتب الى الجهات خصوصا الهند وجاوا وبخارى وقازان و بلدان العرب وأرسلت المقالة الطويلة المعنونة بعنوان (أهل الحجاز يستصرخون) وساعدنا في التحارير جملة من المصريين وغيرهم المقيمين هنا وحيث ان مجلتكم الغراء لها الشيوع في جهات كثيرة فعسى أن تتفضلوا دواما بتحريض المسلمين على المساعدة في هذه الاعمال وتذكروا أمر الحجاز واحتياجه للماء وللتعليم وتحسنوا لمن فيه الهمة والقدرة على المساعدة ماديا ومعنويا ببذل ذلك وتفيدونا بالارشاد الى ماينفع فانا معترفون بالعجز

وعندنا القابلية للتعلم و بذلك تنالون عظيم الاجر والثواب ودمتم

١٥ ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ رئيس القومسيون

(الختم)

(المنار) قد شاع وذاع على الالسنة وفي الجرائد ان الماء قد قل في حرم الله عز وجل حتى بلغ ثمن القربة الصغيرة من الماء عدة قروش وكاد الفقراء يموتون عطشا ومن المسائل المعروفة في الشريعة انه يجب عند الضرورة بذل الماء وكذا الطعام لكل إنسان محترم ولكل حيوان محترم (غير مهدور الدم) وجوبا شرعيا سواء كان الانسان مؤمنا او كافرا وسواء كان الحيوان طاهرا أم نجسا . فماذا تقول في جيران بيت الله وعمار حرمه وحجاجه المقيمين لشعائره وحقوقهم آكد و برهم أفضل ومساعدتهم اكبر أجرا وإعانتهم احسن ذخرا

ان المنار يذكر اللجنة ودولة الشريف أمير مكة بالمال الكثير المتجمع من أوقاف الحرمين بمصر ولا أدري هل كتب الى الخديو بطلب المساعدة أم بطلب هذا المال . ثم ندعو كل من علم بما ذكر لبذل ما تجود به نفسه مما انعم الله عليه لإغاثة حرم الله ومن يعمره ويحجه وان ادراة المنار تقبل ما يرسل اليها من المساعدات وتعطي به وصلا مطبوعا وتنشر اسم المرسل الا ان ينهاها عن التصريح به فتكني عنه وتتكفل ارسال ذلك الى اللجنة في مكة المكرمة زادها الله تكريما ورخاء - وهي لجنة مؤلفة من خيار وعلماء مسلمي الاقطار المجاورين لبيت الله فهي موثوق بها وبهذا نكتفي عن ذكر اسمائهم . وقد علمتم أيها المسلمون ان سلفكم قد وقفوا على الحرمين عقارا كثيرا فلا تكونوا أقل منهم غيرة وعملا للخير (٦٤ : ١٦ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك المفلحون ١٧ إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم

الاخبار والآراء

(خلع السلطان عبد الحميد وتولية مولانا السلطان محمد الخامس)

قد ابتهج جميع العثمانيين بخلع عبد الحميد وتولية هذا السلطان الدستوري

المهذب الاخلاق ما عدا اعوان الأول على نهب البلاد . ولما بشرنا البرق بذلك اجتمع جمهور من العثمانيين في بعض السمار ودعوا صاحب هذه المجلة للخطابة فخطب فيهم مصدرا خطبته بقوله تعالى « قل اللهمّ مالك الملك » الآية. و بين ان مشيئة الله في نزع الملك و إيتائه منفذة لسننه الاجتماعية في ذلك ومنها ان إرادة الأمة إذا اجتمعت لا يعارضها شيء لأن يد الله على الجماعة كما ورد في الحديث . و بينا ان جمهور الأمة كان يظن أو يعتقد ان عبد الحميد أعطى الدستور مختاراً وانه كما كان يدعي مخلص له محافظ عليه فلما ظهرت الفتنة الأخيرة وعلم انه المدبر لها لإسقاط الدستور اجتمع رأي السواد الأعظم من الامة على خلعه ولاراد لرأي السواد الأعظم إذا اجتمع

ثم احتفل العثمانيون في حديقة الأزبكية بذلك فخطبنا أيضاً في الموضوع فذكرنا الحاضرين بخطبتنا هنالك يوم أعلن الدستور وكيف كان جمهور من المصريين يصيحون في وجهنا بالدعاء لعبد الحميد الخ (راجع ٤٦٦ م ١١) وكيف حصحص الحق وظهر صدق قولنا . واطلنا في بيان سلطة الأمة وسيئات الحكم الحميدي وانطباق الدستور على الشرع . فرأينا من استحسان الناس لهذا الخطاب واطرائنا به مالم نرله نظيرا

هذا وان كل ما بلغنا من أقوال مولانا محمد الخامس وتصرفه وتواضعه واقتصاده يبشرنا بأنه سيكون خير سلطان ، جلس على سرير آل عثمان ، حقق الله ذلك

* * *

الدولة العلية الدستورية والدين. ورأي غير العثمانيين من المسلمين

يرى القارئ في باب المناظرة من هذا الجزء رأي جريدتين من جرائد مسلمي الهند في الحكومة الدستورية وحكم عبد الحميد الاستبدادي مع الرد عليهما . وقد اجتمعنا في هذا الشهر بالأمير الافغاني (نواب بهادر صاحب خان عبد القيوم) من كبار رجال الحكومة الخارجية في (پشاور) على حدود الهند من جهة الافغان وقد سألنا عن حال الدولة الحاضرة فبينا له الحقائق فاخبرنا ان أهل الهند والافغان يجهلونها وان الشائع في تلك البلاد بين المسلمين أن حزب تركيا الفتاة يريد ابطال الحكومة الاسلامية من الدولة وان يجعلها حكومة اوربية ليس لها صبغة دينية وانهم يحسنون الظن بعبد الحميد و يسيئونه في جمعية الاتحاد والترقي وقال بعد ان بينا له

الحقائق انه يحسن او يجب ان يذهب وفد من الاستانة الى الهند يطوف فيها و يظهر الحقيقة لأهلها وقد سافر هو الى الاستانة ليختبر الحال بنفسه . فلتعتبر الجمعية ولتفكر كثيراً

ولا شك ان جهل جرائد مسلمي الهند للحقائق وتشيع اصحابها لعبد الحميد هو الذي احدث هذا الضرر الفادح أوقواه اذا صح ماير تأيه بعضهم من كون الانكليز هم الذين يشيعون هذه الإشاعات ليوهموا المسلمين انه لم يبق في الارض حكومة إسلامية . إن أصحاب الجرائد المصرية الذين يشنعون على الحكومة الدستورية الجديدة يعدون المسلمين في هذا الغي و يخدمون الاجانب الحاكمين على الملايين من المسلمين خدمة عظيمة وهكذا يجد الاجانب من المسلمين الجاهلين أو المستأجرين من يخدم سياستهم و يخذل المسلمين

* * *

الاحكام العرفية في الاستانة

اعلن القائد محمود شوكت باشا الأحكام العرفية في الاستانة لتطهيرها من أعوان عبد الحميد على إعادة الاستبداد فأوجس الناس خيفة من ذلك . وعندي ان فائدة هذه الاحكام لاتقل عن فائدة خلع عبد الحميد وأسره ونفيه فان الطفور من أسفل درك الاستبداد الى أية درجة من درجات الدستور من المحالات الاجتماعية وان كان من الممكنات النظرية والقولية ولذلك عجزت الحكومة في العاصمة وفي الولايات عن ان تخطو خطوة واحدة في طريق الحكم الدستوري حتى صار الناس يلهجون في كل مكان بقولهم ان سير الحكومة لم يتغير وانا لم نستفد من الدستور شيئاً . وان لكاتب هذه السطور في ذلك كلمات صارت تؤثرعنه في الديار السورية منها « ان الحكومة الاستبدادية سقطت والحكومة الدستورية ما تكوّنت » ومنها « اننا أحوج الآن إلى حكومة عرفية منا إلى حكومة دستورية » وقد قلت لناظم باشا إذ لقيته في بيروت أول مقدمي اليها في آخر شعبان من السنة الماضية : ان الحكومة والأمة في حاجة شديدة إلى رؤساء محنكين قادرين ينفذون فيها الدستور بشيء من الاستبداد الباطن ، المطبق على القانون في الظاهر ، يكونون كمن يربي الطفل لكن على الاستقلال ، لا على التقليد والاتكال ، (قلت) وأرجو ان تكون انت منهم لمالك من التجربة والاختبار

كان من سبب عجز الحكومة عن تنفيذ الدستور الخوف من سخط الأهالي عليها إذا عاملتهم بما لم يتعودوه وكان خوفها من الموظفين أشد فقد كان من سياسة عبد الحميد أن يحشر في كل دائرة من دوائر الحكومة أضعاف من يحتاج اليهم العمل فيها ورأت الحكومة الدستورية أنها مستغنية عن كثير من هؤلاء ولكنها لم تتجرأ على إخراجهم لئلا يكثر سواد الناقمين منها والساخطين عليها حتى قيل ان موسيو لوران الفرنسي الذي جيء به لإصلاح خلل نظارة المالية قال ان أهم مبادي الاصلاح إخراج الجم الغفير من هؤلاء الموظفين الذي لا عمل لهم . فلم يجبه كامل باشا إلى ذلك ، وفي هذه الفرصة فرصة الاحكام العرفية يمكن تنفيذ ذلك وغيره وتكوين حكومة دستورية محترمة فتكون حلقة لا اتصال بين الماضي والحاضر

• • •

الشريف امير مكة المكرمة والاصلاح

جاءنا من أنباء الحجاز ان أميره الشريف يبذل قصارى جهده في الاصلاح وعمران الولاية وحفظ الأمن العام فيها وقد وفق الى تأمين البلاد بدرجة لم يعهد لها نظير في السنين المظلمة الماضية وقد وجه همته الى نشر العلم وتأليف أعراب البادية وتأمين سكة الحديد الحجازية . وآخر ما جاءنا من أخباره في ذلك انه اخذ العهد والميثاق على مشايخ حرب ان يقوموا بحراسة الخط الحديدي بدلا من تخريبه وهو قد كفل لهم ان تعوض الدولة عليهم ما فاتهم من الانتفاع بنقل الحجاج وتوفيهم أجورهم وكتب الى الاستانة بذلك فعسى أن تمضي الاستانة له عهده فان هذه الطريقة التي سلكها هي الطريقة المثلى لحفظ الخط وامتداد ظل الأمن، وأما توهم مقاومة الأعراب بالقوة واستقلال الجند بحفظ الخط فهو من وسوسة الغرور ونزغات الشياطين التي تجعل حرم الله تعالى في خوف دائم، وخلل ملازم ، فنسأل الله ان يوفق هذا الأمير الدستوري الى سائر ما تحتاج اليه البلاد المقدسة من الاصلاح ويوفق الدولة الى تأييده في ذلك

* * *

(الامير محمد أرسلان نجل الأمير مصطفى الشهير)

قتلت الفئة الباغية على الدستور هذا الامير وكان مبعوث اللاذقية فاهتزت لموته سورية ولبنان ، ورثاه فيهما كل ذي قلم ولسان ، ونحن نشاركهم في ذلك ونعزي الوطن بتعزية والده عنه

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ـ الجمعه ٣٠ جمادى الاولى ١٣٢٧ ـ ١٨ يونيو (حزيران) سنة ١٢٨٥ هـ ١٩٠٩ م

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٩٠ : ١٨٤) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبٰبِ (١٩١ : ١٨٥) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩٢ : ١٨٦) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظّٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٣ : ١٨٧) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمٰنِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٤ : ١٨٨) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ،

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ {١٩٥ : ١٨٩} فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ •

قال الاستاذ الامام في بيان وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها إنها جاءت بعد أفاعيل أهل الكتاب وغيرهم مع المؤمنين فهي تدل على أن أولئك الجاحدين لو كانوا يتفكرون في خلق السموات والارض لكفوا من غرورهم ولعلموا انه يليق بحكمته تعالى ان يرسل الى الناس رسولا من أنفسهم ولكنه جعل الآية مطلقة موجهة الى أولي الالباب ليطلق النظر لكل عاقل

وقال الرازي اعلم ان المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق، الى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الاحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد الى انارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآية اه

أقول وقد بينا في وجه اتصال هذه السورة بما قبلها عند الابتداء بتفسيرها ان كلا منهما مفتتحة بذكر الكتاب وشؤون الناس فيه ومختتمة بالثناء على الله عز وجل ودعائه.

وقد ذكروا سبباً لنزول هذه الآيات على عدم تعلقها بالحوادث، فقد أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال أتت قريش اليهود فقالوا بم جاءكم موسى من الآيات فقالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا كيف كان عيسى؟ قالوا كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى . فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا، فدعا ربه فنزلت هذه الآية ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ فليتفكروا فيها . اه من لباب النقول وانت لا ترى المناسبة قوية بين الاقتراح وبين الآية الا من حيث ان

مراد القرآن الاستدلال بآيات الله في الكائنات على حقية ما يدعو اليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عبادة الله وحده دون الخوارق والآيات الكونية وقد ورد الرد على هؤلاء المقترحين في كثير من السور المكية وسيأتي تفسيرها في مواضعه ان شاء الله تعالى

وقد تقدم تفسير ما في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من الآيات على وحدانية الله تعالى بوحدة النظام في ذلك وعلى رحمته بما فيها من المنافع والمرافق للعباد فليراجع في تفسير آية ٢ : ١٦٤ ان في خلق السموات الخ (ص ٥٩ ج ٢ تفسير)

وقال الاستاذ الامام هنا : السموات ما علاك مما تراه فوقك والارض ما تعيش عليه والخلق التقدير والترتيب لا الايجاد من العدم كما اصطلح عليه في علم الكلام فذلك لا يتضمن معنى النظام والاتقان وهو ما هي عليه في الواقع ونفس الامر . وبعد ما ذكر خلق السموات والأرض لفت العقول الى أمر مما يكون في الارض وهو اختلاف الليل والنهار فان هذا الاختلاف قائم بنظام في طول الليل والنهار وقصرهما وتعاقبهما وهذا أمر عظيم سواء كان سببه ما كانوا يعتقدون من أنه حادث من حركة الشمس او ما يعتقدون الآن من أن سببه حركة الارض تحت الشمس ومن الحكم في ذلك ما نراه في اجسامنا وعقولنا من تأثير حرارة الشمس ورطوبة الليل وكذا في تربية الحيوان والنبات وغير ذلك ولو كان الليل سرمدا والنهار سرمدا لفاتت.

وهذه الآيات تظهر لكل أحد على قدر علمه وفهمه وجودة فكره فاما علماء الهيئة فانهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل واما سائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة والاجرام الرفيعة وما فيها من الحسن والروعة . وخص أولي الألباب بالذكر مع أن كل الناس أولي ألباب لأن من اللب ما لا فائدة فيه كلب الجوز ونحوه اذا كان عفنا وكذا تفسد ألباب بعض الناس وتعفن فهي لا تهتدي الى الاستفادة من آيات الله في خلق السموات والأرض وغيرهما . وإنما سمي العقل لبا لأن اللب هو محل الحياة من الشيء وخاصته وفائدته وانما حياة الانسان الخاصة به هي حياته العقلية، وكل عقل متمكن من الاستفادة من النظر في هذه الآيات والاستدلال بها على قدرة

الله وحكمته ولكن بعضهم لا ينظر ولا يتفكر وانما العقل الذي ينظر و يستفيد و يهتدي هو الذي وصف أصحابه بقوله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾ والذكر في الآية على عمومه لا يخص بالصلاة والمراد بالذكر ذكر القلوب وهو إحضار الله تعالى في النفس وتذكر حكمه وفضله ونعمه في حال القيام والقعود والاضطجاع وهذه الحالات الثلاث التي لا يخلو العبد عنها تكون فيها السموات والارض معه لا يتفارقان.
والآيات الالهية لا تظهر من السموات والأرض الا لأهل الذكر فكأين من عالم يقضي ليله في رصد الكواكب فيعرف منها مالا يعرف الناس و يعرف من نظامها وسننها وشرائعها ما لا يعرف الناس وهو يتلذذ بذلك العلم ولكنه مع هذا لا تظهر له هذه الآيات لأنه منصرف عنها بالكلية

ثم ان ذكر الله تعالى لا يكفي في الاهتداء الى الآيات ولكن يشترط مع الذكر التفكر فيها فلا بد من الجمع بين الذكر والفكر فقد يذكر المؤمن الله ربه ولا يتفكر في بديع صنعه واسرار خليقته، ولذلك قال ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والارض ﴾

أقول قد يتفكر المرء في عجائب السموات والأرض واسرار ما فيهما من الاتقان والابداع الدال على العلم المحيط والحكمة البالغة والنعم السابغة والقدرة التامة وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم الذي خلق ذلك في أبدع نظام ، وكم من ناظر الى صنعة بديعة لا يخطر في باله صانعها اشتغالا بها عنه ، فالذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقها ذاهلون عن ذكره يمتعون عقولهم بلذة العلم ولكن ارواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل فمثلهم كما قال الاستاذ الامام كمثل من يطبخ طعاما شهيا يغذي به جسده ولكنه لا يرقي به عقله ، يعني ان الفكر وحده وان كان مفيدا لا تكون فائدته نافعة في الآخرة الا بالذكر ، والذكر وان أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته الا بالفكر ، فياطوبى لمن جمع بين الامرين ، واستمتع بهاتين اللذتين ، فيكون من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة ، ونجوا من عذاب النار في الاخرة ، فتلك النعمة التي لا تفضلها نعمة ، واللذة التي لا تدانيها لذة ، لأنها هي التي يهون معها كل

كرب ، ويسلس كل صعب ، وتعظم كل نعمة ، وتتضاءل كل نقمة ، تلك اللذة التي تتجلى مع الذكر في كل شيء فيكون في عين ناظره جميلا ، وفي كل صوت فيكون في سمع سامعه مطربا ، فلسان حال الذاكر ينشد في هذا التجلي قول الشاعر الذاكر

من كل معنى لطيف أجتلي قدحا   وكل حادثة في الكون تطربني

فاذا تحول التجلي عن جمال الاكوان ، وتفكر الذاكر في تقصيره من حيث هو انسان ، عن شكر المنعم عليه بكل شيء يتمتع به ، وعن القيام بما يصل اليه استعداده من معرفته ، استولى عليه سلطان الجلال ، فتعلو همته في طلب الكمال ، فينطلق لسانه

لسانه بالدعاء والثناء ، وقلبه بين الخوف والرجاء ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾ أي يقول الذين يجمعون بين الذكر والتفكر معبرين عن نتيجة جمع الأمرين ، والتأليف بين المقدمتين ، ربنا ما خلقت هذا الذي نراه من العوالم السماوية والارضية باطلا ، ولا أبدعته وأتقنته عبثا ، سبحانك وتنزيها لك عن الباطل والعبث ، بل كل خلقك حق مؤيد بالحكم ، فهو لا يبطل ولا يزول ، وإن عرض له التحول والتحليل والافول ، ونحن بعض خلقك لم نخلق عبثا ، ولا يكون وجودنا من كل وجه باطلا ، فان فنيت أجسادنا ، وتفرقت أجزاؤنا ، بعد مفارقة ارواحنا لأبداننا ، فانما يهلك منا كوننا الفاسد ، ووجهنا الحادث ، ويبقى وجهك الكريم ، ومتعلق علمك القديم ، يعود بقدرتك في نشأة أخرى ، كما بدأته في النشأة الأولى ، فريق ثبتت لهم الهداية ، وفريق حقت عليهم كلمة الضلالة ، فأولئك في الجنة بعملهم وفضلك ، وهؤلاء في النار بعملهم وعدلك ، ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ بعنايتك وتوفيقك لنا ، واجعلنا مع الابرار بهدايتك إيانا ورحمتك بنا ،

قال الاستاذ الامام في تفسير « ربنا ما خلقت هذا باطلا » الخ هذا حكاية لقول هؤلاء الذين يجمعون بين تفكرهم وذكرهم الله عز وجل و يستنبطون من اقترانهما الدلائل على حكمة الله وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الاكوان التي تربط الانسان بربه حق الربط . وقد اكتفى بحكاية مناجاتهم لربهم عن بيان نتائج ذكرهم وفكرهم فطي هذه وذكر تلك من إيجاز القرآن البديع وفيه تعليم المؤمنين كيف يخاطبون

الله تعالى عند ما يهتدون الى شيء من معاني إحسانه وكرمه و بدائع خلقه، كأنه يقول هذا هو شأن المؤمن الذاكر المتفكر يتوجه الى الله في هذه الأحوال، بمثل هذا الثناء والدعاء والابتهال، وكون هذا ضربا من ضروب التعليم والإرشاد، لا يمنع ان بعض المؤمنين قد نظروا وذكروا وفكروا ثم قالوا هذا أو ما يؤدي معناه فذكر الله حالهم وابتهالهم، ولم يذكر قصتهم واسماءهم، لأجل ان يكونوا قدوة لنا في عملهم، وأسوة في سيرتهم، أي لا في ذواتهم واشخاصهم، اذ لا فرق في هذا بيننا وبينهم،

(قال) أما معنى كون هذا الخلق لا يكون باطلا فمعناه ان هذا لا بداع في الخلق، والإتقان للصنع، لا يمكن ان يكون من العبث والباطل ولا يمكن ان يفعله الحكيم العليم لهذه الحياة الفانية فقط كما ان الانسان الذي أوتي العقل الذي يفهم هذه الحكم ودقائق هذا الصنع وكلما ازداد تفكرا، ازداد علما، حتى انه لا حد يعرف لفهمه وعلمه لا يمكن ان يكون وجد ليعيش قليلا ثم يذهب سدى، ويتلاشى فيكون باطلا، بل لا بد ان يكون باستعداده الذي لا نهاية له قد خلق ليحيا حياة لا نهاية لها، وهي الحياة الآخرة التي يرى كل عامل فيها جزاء عمله، ولهذا وصل الثناء بهذا الدعاء، ومعناه جنبنا السيئات، ووفقنا للأعمال الصالحات، حتى يكون ذلك وقاية لنا من عذاب النار، وهذه هي نتيجة فكر المؤمن

(قال) ثم انهم بعد ان يصلوا بالفكر مع الذكر الى بقاء العالم واستمراره لأن نظامه البديع لا يمكن ان يجعله العليم الحكيم باطلا (أي لا في الحال ولا في الاستقبال) وبعد ان يدعوا ربهم ان يقيهم دخول النار في الحياة الثانية، يتوجهون اليه قائلين ﴿ ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أي انهم ينظرون الى هيبة ذلك الرب العلي العظيم الذي خلق تلك الاكوان المملوءة بالاسرار والحكم والدلائل على قدرته وعزته فيعلمون انه لا يمكن لأحد ان ينتصر عليه، وأن من عاداه فلا ملجأ ولا منجا له منه الا اليه، فيقرون بأن من أدخله ناره فقد أخزاه أي اذله وأهانه ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ وصف من يدخلون النار بالظالمين تشنيعا لأعمالهم وبيانا لعلة دخولهم فيها وهو جورهم وميلهم

عن طريق الحق فالظالم هنا هو الذي يتنكب الطريق المستقيم لا الكافر خاصة كما قال بعض المفسرين فان هذا التخصيص لا حاجة اليه، ولا دليل عليه، وانما سببه ولوع الناس بإخراج أنفسهم من كل وعيد يذكر في كتابهم، وحمله بالتأويل والتحريف على غيرهم، كذلك فعل السابقون، واتبع سننهم اللاحقون، فكل ظالم يؤخذ بظلمه، ويعاقب على قدره،

(قال) ثم انهم بعد التعبير عما أثمره الفكر والذكر من معرفة الله تعالى وخشيته ودعائه عبروا عما أفادهم السمع من وصول دعوة الرسول اليهم واستجابتهم له وما يترتب على ذلك فقالوا ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ﴾ المنادي للايمان هو الرسول وذكره بوصف المنادي تفخيما لشأن هذا النداء. وذكر استجابتهم بالعطف بالفاء لبيان انهم بعد الذكر والفكر والوصول منهما الى تلك النتيجة الحميدة لم يتلبثوا بالايمان الذي يدعوهم اليه الانبياء كما تلبث قوم واستكبر آخرون بل بادروا وسارعوا اليه لأنهم انما يدعونهم الى ما اهتدوا اليه مع زيادة صالحة تزيدهم معرفة بالله تعالى وبصيرة في عالم الغيب والحياة الآخرة اللتين دلهم الدليل على ثبوتهما دلالة مجملة مبهمة والأنبياء يزيدونها بما يوحيه الله اليهم بيانا وتفصيلا. وعلى هذا التفسير يكون المراد بالآيات بيان انه كان في كل أمة أولو ألباب هذا شأنهم مع أنبيائهم ويصح ان يكون المراد بالمنادي نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة، أقول والمراد بأولي الالباب الموصوفين بما ذكر على هذا هم السابقون من أصحابه ومن تبعهم في ذلك له حكمهم وسيأتي من ذكر الهجرة ما يرجح هذا وقال الاستاذ وسماع النداء يشمل من سمع منه مباشرة في عصره ومن وصلت اليه دعوته من بعده ويحتمل ان يكون قولهم فآمنا مرادا به إيمانا جديدا غير الايمان الذي استفادوه من الفكر والذكر وهو الايمان التفصيلي الذي اشرنا اليه آنفا ويحتمل ان يكونوا سمعوا دعوة الرسول أولا وآمنوا به ثم نظروا وذكروا وتفكروا فاهتدوا الى ما اهتدوا اليه من الدلائل التي تدعم إيمانهم فذكروا النتيجة، ثم اعترفوا بالوسيلة، ولا ينافي ذلك تأخير هذه عن تلك في العبارة كما هو ظاهر

﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ﴾ تفيد الفاء في قوله « فاغفر » اتصال هذا الدعاء بما قبله وكون الايمان سببا له والمراد بالايمان الإذعان للرسل في النفس والعمل لادعوى الايمان باللسان مع خلو القلب من الإذعان الباعث على العمل . ولاجل هذا استشعروا الخوف من الهفوات والسيئات فطلبوا المغفرة والتكفير . وقال بعض المفسرين ان المراد بالذنوب هنا الكبائر و بالسيئات الصغائر (قال الاستاذ الامام) وعندي ان الذنوب هي التقصير في عبادة الله تعالى وكل معاملة بين العبد و ربه ، والسيئات هي التقصير في حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضا ، فالذنب معناه الخطيئة واما السيئة فهي ما يسوء فاشتقاقها من الاساءة يشعر بما قلناه ، وغفر الذنوب عبارة عن سترها وعدم العقوبة عليها البتة ، وتكفير السيئات عبارة من حطها وإسقاطها فكل من الطلبين مناسب لما ذكرنا من المعنيين ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أي أمتنا على حالتهم وطريقتهم يقال انا مع فلان أي على رأيه وسيرته ومذهبه في عمله والأبرار هم المحسنون في أعمالهم

أقول راجع في تفسير الأبرار قوله ٢ : ١٧٥ ليس البر (في ص ١٢٠ ج ٢ تفسير) وقوله ٢ : ١٩٠ ولكن البر من اتقى (في ص ٢٠٢ منه) وتفسير الغفران والمغفرة (في ١٤٢ و ١٤٥ و ١٥١ و ٢٥٠ و ٢٨٤ ج ٢ تفسير) اما الذنب فقد قال الراغب انه في الأصل الأخذ بذنب الشيء (بالتحريك) يقال ذنبته أي أصبت ذنبه ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتبارا بذنب الشيء ولهذا يسمى الذنب تبعة اعتبارا لما يحصل من عاقبته وجمع الذنب ذنوب اه أقول وهو بهذا المعنى يشمل كل عمل تسوء عاقبته في الدنيا والآخرة من المعاصي كلها سواء منها ما يتعلق بحقوق الله عز وجل وما يتعلق بحقوق العباد ومنه ترك الطاعات الواجبة ، واما السيئة فهي الفعلة القبيحة التي تسوء صاحبها أو تسوء غيره سواء كان ذلك عاجلا أو آجلا فهي عامة أيضا وضدها الحسنة . قال الراغب : والحسنة والسيئة ضربان أحدهما بحسب اعتبار العقل والشرع نحو المذكور في قوله تعالى (٦ : ١٦٠ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها) وحسنة وسيئة بحسب اعتبار الطبع وذلك ما يستخفه الطبع وما يستثقله نحو

قوله (٧ : ١٣١ فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) وقوله (٧ : ٩٥ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) اه وكأن الاستاذ الامام حمل السيئة على ما يسوء من معاملة الناس أخذا من مثل قوله تعالى (٤٢ : ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين ٤١ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ٤٢ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ٤٣ ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور) فالآيات صريحة في معاملات الناس بعضهم مع بعض ، ويمكن ان يفسر بهذا كل ما ورد من ذكر الحسنات والسيئات في مقام الجزاء في الدارين أو في إحداهما فقط . ومثله ما ورد من السيئات في مقابلة العمل الصالح على الاطلاق ولكن ذلك خلاف الظاهر المتبادر

﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ أي أعطنا ما وعدتنا من الجزاء الحسن كالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة — وخصه بعضهم بالدنيا و بعضهم بالآخرة — جزاء على تصديق رسلك واتباعهم إذ استجبنا لهم وآمنا بما جاؤا به ، أو ما وعدتنا بمنزلا على رسلك ، أو ما وعدتنا به على ألسنة رسلك . والمعنى أعطنا ذلك بتوفيقنا للثبات على مانستحقه به الى أن تكون كلمتك العليا في هذه الدار ، ثم الى ان تتوفانا مع الأبرار ، وفيه هضم لنفوسهم واستشعار لتقصيرها وعدم الثقة بثباتها الا بتوفيقه وعنايته عز وجل . وقيل ان الدعاء لإظهار العبودية فقط . وقال الأستاذ الامام على رسلك معناه لأجل رسلك أي لأجل اتباعهم والايمان بهم . فجعل الكاف للتعليل ولا أذكر هذا لغيره هنا . ثم ذكر ماقيل من استشكال هذا السؤال منهم مع إيمانهم بأن الله لا يخلف الميعاد واختار في الجواب عنه أن هؤلاء قوم هداهم النظر والفكر الى معرفة الله تعالى واستشعار عظمته وسلطانه والى ضعف أنفسهم عن القيام بما يجب من شكره والقيام بحقوقه وحقوق خلقه فطلبوا المغفرة والتكفير والعناية الإلهية التي تبلغهم ما وعد الله من استجابوا للرسل ونصروهم وأحسنوا اتباعهم ، وهو ما أشرنا اليه آنفا ولذلك

قالوا ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ أي لا تذلنا (كما قال الاستاذ) أو لا تفضحنا وتهتك سترنا يوم القيامة بادخالنا النار التي يخزى من دخلها كما تقدم في الاية التي قبل ما قبل هذه . ونقل الرازي عن حكماء الاسلام ان المراد بالخزي هنا العذاب الروحاني لانهم طلبوا الوقاية من النار من قبل وهو العذاب الجسماني واستنبط من الابتداء بطلب النجاة من العذاب الجسماني وجعل طلب النجاة من العذاب الروحاني آخرا وختاما ان العذاب الروحاني أشد . ويعنون بالعذاب الروحاني الحرمان من الرضوان الاكبر بكمال العرفان الإلهي الذي ذكره الله تعالى في قوله (٩:٧٢ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) ولكن طلب النجاة من الخزي لا يدل على ماذهبوا اليه . واما كلمة ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ فهي ثناء ختم به الدعاء ولا شك ان الوعد يصيبهم اذا قاموا بما ترتب هو عليه من الايمان والعمل الصالح فان الوعد كما قال الرازي «لا يتناول آحاد الامة بأعيانهم بل انما يتناولهم بحسب أوصافهم» وقد قال تعالى في الوعد بسيادة الدنيا (٢٤:٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) الآية وقال فيه (٤٧:٧ ان تنصروا الله ينصركم) وقال في الوعد بسعادة الاخرة (٩ : ٧٢ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات) الآية وقد ذكرت كلها آنفا ، وفي معناها آيات كثيرة، فكل من الوعدين مترتب على الايمان وعمل الصالحات ، ولكن المحرفين لدين الله يجعلون كل جزاء حسن للأفراد بحسب ذواتهم أو ذوات غيرهم من الصالحين

﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى ﴾ عطف استجابته لهم بفاء السببية فدل على ان ماذكر من شأنهم هو الذي أهلهم لقبول دعائهم . قال الاستاذ الامام مامثاله مع زيادة في مسألة الرجل والمرأة : استجاب دعاءهم لصدقهم في الايمان والذكر والفكر والتقديس والتنزيه والوصول الى معرفة الحياة الآخرة وصدق الرسل وايمانهم بهم وشعورهم بعد ذلك كله بأنهم ضعفاء مقصرون في الشكر محتاجون مغفرته لهم وفضله عليهم وإحسانه بهم بإيتائهم ماوعدهم . ولكن هذه الاستجابة لم تكن بعين ماطلبوا كما طلبوا ولذلك صورها وبين كيفيتها وهذا

التصوير لحكمة عالية وهي ان الاستجابة ليست الا توفية كل عامل جزاء عمله لينبههم بذكر العمل والعامل الى ان العبرة في النجاة من العذاب والفوز بحسن الثواب إنما هي باحسان العمل والاخلاص فيه فان الانسان قد تغشه نفسه فيظن انه محسن وليس بمحسن وانه مخلص وما هو بمخلص وانه حوله وقوته قد فنيا في حول الله وقوته وانه لا يريد الا وجهه تعالى في كل حركة وسكون، ويكون في الواقع ونفس الأمر مغرورا مرائيا . وذكر ان الذكر والانثى متساويان عند الله تعالى في الجزاء متى تساويا في العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن انه أقرب الى الله منها ولا تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم ان جعل الرجل رئيسا عليها يقتضي ان يكون ارفع منزلة عند الله تعالى منها . وقد بين تعالى علة هذه المساواة بقوله ﴿ بعضكم من بعض ﴾ فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل فلا فرق بينهما في البشرية ولا تفاضل بينهما الا بالأعمال، أي وما تترتب عليه الأعمال ويترتب هو عليها من العلوم والأخلاق

أقول وفيه وجه آخر وهو ان كلا منهما صنو وزوج وشقيق للآخر وفي معنى ذلك حديث « النساء شقائق الرجال » قالوا أي مثلهم في الطباع والاخلاق كأنهن مشتقات منهم أو لأنهن معهم من أصل واحد . ووجه ثالث انه بمعنى حديث « سلمان منا » وحديث « ليس منا من دعا الى عصبية » فمعنى « منا » على طريقتنا وما نحن عليه لا فرق بيننا وبينه . وهذه الآية ترفع قدر النساء المسلمات في أنفسهن وعند الرجال المسلمين . ومن علم ان جميع الامم كانت تهضم حق المرأة قبل الاسلام وتعدها كالبهيمة المسخرة لمصلحة الرجل وشهوته وعلم ان بعض الأديان فضلت الرجل على المرأة بمجرد كونه ذكرا وكونها انثى ، وبعض الناس عد المرأة غير أهل للتكاليف الدينية ، وزعموا انها ليس لها روح خالدة ‌— من علم هذا قدر هذا الإصلاح الاسلامي لعقائد الامم ومعاملاتها حق قدره وتبين له ان ماتدعيه الافرنج من السبق الى الاعتراف بكرامة المرأة ومساواتها الرجل باطل فالاسلام السابق وان شرائعهم وتقاليدهم الدينية والمدنية لا تزال تميز الرجل على المرأة . نعم إن لهم ان يحتجوا على المسلمين بالتقصير في تعليم النساء وتربيتهن، وجعلهن عارفات بمالهن

وعليهن ، ونحن نعترف باننا مقصرون تاركون لهداية ديننا حتي صرنا حجة عليه عند الاجانب وفتنة لهم . وأما ما يفضل به الرجال النساء في الجملة من العلم والعقل وما يقومون به من الاعمال الدنيوية الذي كان سببه كله ما جرى عليه الناس من احوال الاجتماع وكذا جعل حظ الرجل في الإرث مثل حظ الانثيين لأنه يتحمل نفقتها ويكلف الا تكلفه فلا دخل لشيء من ذلك في التفاضل عند الله تعالى في الثواب والعقاب والكرامة وضدها بل سوى الله تعالى بين الزوجين حتى في الحقوق الاجتماعية الا مسألة القيامة والرياسة فجعل للرجال عليهن درجة كما تقدم في سورة البقرة (ص ٢٧٧ ج ٢ تفسير)

الاستاذ الامام : لم يكتف بربط الجزاء بالعمل حتى بين ان العمل الذي يستحقون به ما طلبوا من تكفير السيئات ودخول الجنة فقال ﴿فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم﴾ ذكر الإخراج من الديار بعد الهجرة من باب التفصيل بعد الاجمال فالهجرة انما كانت وتكون بالإخراج من الديار ، وتستتبع ما ذكر في قوله ﴿ وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا ﴾ من الايذاء والقتال ، وقرى وقتلوا بتشديد التاء للمبالغة فمن لم يحتمل القتل بل والتقتيل في سبيل الله تعالى ويبذل مهجته لله عز وجل فلا يطمعن بهذه المثوبة المؤكدة في قوله ﴿لأ كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار﴾ ومثل هذه الآية الآيات الكثيرة الواردة في صفات المؤمنين كقوله تعالى (٤٩:١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الخ وقوله (٨:٢ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الخ وقوله (٢٣:١ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) الآيات ، وقوله (٢٥:٦٣ وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا) الآيات ، وقوله (٧٠:١٩ ان الانسان خلق هلوعا) الآيات ، وقوله (١٠٣:١ والعصر) الخ السورة وغير ذلك

(قال) هكذا يذكر الله تعالى صفات المؤمنين لينبهنا الى ان نرجع الى أنفسنا ونمتحنها بهذه الأعمال والصفات فان رأيناها تحتمل الايذاء في سبيل الله حتى القتل فلنبشرها بالصدق والرضوان منه تعالى والا فعلينا ان نسعى لتحصيل هذه المرتبة التي لا ينجي عنده غيرها . وإنما كلف الله المؤمنين الصادقين الموقنين المخلصين هذا التكليف

الشاق لان قيام الحق مرتبط به وانما سعادتهم — من حيث هم مؤمنون — بقيام الحق وتأييده ، والحق في كل زمان ومكان محتاج الى أهله لينصروه على أهل الباطل الذين يقاومونه . والحق والباطل يتصارعان دائما ولكل منهما حزب ينصره فيجب على أنصار الحق ان لا يفشلوا ولا ينهزموا ، بل عليهم ان يثبتوا ويصبروا ، حتى تكون كلمته العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى ، (قال) وانظر الى حال المؤمنين اليوم تجدهم يتعللون بأن هذه الآيات نزلت في أناس مخصوصين كأنهم يترقبون ان يستجيب الله لهم ويعطيهم ما وعد المؤمنين من غير ان يقوموا بعمل مما أمر به المؤمنين ولا ان يتصفوا بوصف مما وصفهم به من حيث هم مؤمنون وما علق عليه وعده بمثوبتهم ، بل وان اتصفوا بضده وهو ما توعد عليه بالعذاب الشديد ، وهذا منتهى الغرور

وأقول ان هذه الصفات تجتمع وتفترق فمن المهاجرين من ترك وطنه مختارا ، ولم يخرج منه إخراجا ، بل من الصحابة من هاجر مستخفيا لئلا يمنعه المشركون ، ولكن قد يقال إنهم اذا لم يكونوا أمروهم بالهجرة أمرا ، وأخرجوهم من ديارهم قسرا ، فإنهم قد ضيقوا عليهم المسالك ، حتي ألجؤهم الى ذلك ، ومنهم من أوذي ولم يخرجه المشركون ولا مكنوه من الخروج ، وراجع بعض الكلام في إيذاء مشركي مكة للمسلمين (في ص ٣٢٤ ج ٣ تفسير) وفي الحديث ان الهجرة دائمة لا تنقطع حتى تمنع التوبة اي الى قبيل قيام الساعة

واما قوله « وقاتلوا وقتلوا » فقد قرأه حمزة بعكس الترتيب في اللفظ « وقتلوا وقاتلوا » وقالوا فيه ان الواو لا تفيد ترتيبا ولأن المراد ان الكفار كانوا هم البادئين فلما قتل من المؤمنين أناس قاتلوا الكفار . وشدد ابن كثير وابن عامر تاء «قتلوا» للمبالغة كما جاء في كلام الاستاذ الامام وقد كان المشركون يقتلون كل من قدروا على قتله من المسلمين الا أن يكون له من يمنعه من قريب وولي . وقد راجعت بعد كتابة ما تقدم تفسير الفخر الرازي فاذا هو يقول : والمراد من قوله الذين هاجروا الذين اختاروا المهاجرة من أوطانهم في خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمراد من الذين اخرجوا من ديارهم الذين ألجأهم الكفار الى الخروج ، ولا شك أن رتبة الاولين أفضل لأنهم اختاروا خدمة الرسول عليه السلام وملازمته على الاختيار

فكانوا افضل، وقوله وأوذوا في سبيلي أي من أجله وسببه، وقاتلوا وقتلوا لأن المقاتلة تكون قبـل القتال ، قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وقاتلوا بالألف أولا وقتلوا مخففة والمعنى انهم قاتلوا معـه حتى قتلوا ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وقاتلوا أولا وقتلوا مشددة قيل التشديد للمبالغة وتكرر القتل فيهم كقوله « مفتحة لهم الأبواب » وقيل قطعوا عن الحسن . وقرأ حمزة والكسائي وقتلوا بغير ألف أولا وقاتلوا بالألف بعده وفيه وجوه— الأول ان الواو لا توجب الترتيب كما في قوله « واسجدي واركعي » — والثاني على قولهم : قتلنا ورب الكعبة . إذا ظهرت امارات القتل أو اذا قتل قومه وعشائره — والثالث بإضمار قد أي قتلوا وقد قاتلوا اه .

وأقول ان كلمة « وقاتلوا » رسمت في المصحف الامام بغـير ألف ككلمة « وقتلوا » والرازي لا يعني بقوله قرأ نافع . . . « قاتلوا » بالألف ان الكلمة رسمت أو ترسم بالألف في المصحف وانما ذلك للتوضيح يعني قرأوا بالفعل المشتق من المقاتلة. والحكمة في اختلاف القرا آت هنا إفادة المعاني المختلفة باختلافها ومثل هذا كثير

اما قوله تعالى ﴿ ثوابا من عند الله ﴾ فمعناه لأكفرنّ عنهم سيئاتهم وأدخلنهم الجنات أثيبهم بذلك ثوابا من النوع العالي الكريم الذي عند الله لا يقدر عليه غيره. والثواب اسم من مادة ثاب يثوب ثوبا أي رجع يقال تفرق عنه أصحابه ثم ثابوا اليه وفي المجاز ثاب اليه عقله وحلمه إذا كان خرج عن مقتضى العقل والحلم بنحو غضب شديد ثم سكت عنه غضبه. ومنه جعل البيت الحرام مثابة للناس فانهم يعودون اليه بعد مفارقته ، ولذلك قال الراغب : الثواب ما يرجع الى الانسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثوابا تصورا انه هو هو ألا ترى كيف جعل الله تعـالى الجزاء نفس الفعل في قوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ولم يقل جزاءه . والثواب يقال في الخير والشر لكن الاكثر المتعارف في الخير وعلى هذا قوله عزّ وجل « ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » اه المراد

وأقول ان لفظ الثواب والمثوبة حيث وقع وما في معناه من ذكر الجزاء بالعبارات التي تدل على انه عين العمل كل ذلك يؤيد المسألة التي أخذنا على نفسنا إيضاحها

وإثباتها وكررنا القول فيها بعبارات وأساليب كثيرة وهي أن الجزاء أثر طبيعي للعمل أي ان للأعمال تأثيرا في نفس العامل تزكيها فتكون بها منعمة في الآخرة أو تدسيها فتكون معذبة فيها بحسب سنة الله تعالى فكأن الأعمال نفسها تثوب وتعود، وليس أي الجزاء أمرا وضعيا كجزاء الحكام بحسب قوانينهم وشرائعهم . وقـد أشار الى هذا المعنى بعض المدققين من العلماء لا سيما الصوفية كالغزالي ومحيي الدين بن العربي . واذا فقه الناس هذا المعنى زال غرورهم ولم يعتمدوا في أمر ما يرجون من نعيم الآخرة ويخشون من عذابها الا على ما أرشدهم اليه كتاب الله من العمل الصالح دون أشخاص الصالحين وتسمية أنفسهم « محاسيب عليهم » ودعائهم والاستغاثة بهم

وقال الامام الرازي في المسألة الأولى من المسائل المتعلقة بالآية : «في الآية تنبيه على أن استجابة الدعاء مشروطة بهذه الامور (أي العمل الصالح مع المهاجرة واحتمال الإخراج من الوطن والايذاء في سبيل الله أي سبيل الحق والخير والقتل والقتال فيه) فلما كان حصول هذا الشرط عزيزا كان الشخص المجاب الدعاء عزيزا»

وقال في المسألة الخامسة : اعلم انه ليس المراد انه لا يضيع نفس العمل لأن العمل كما وجد تلاشى وفني بل المراد انه لا يضيع ثواب العمل والإضاعة عبارة عن ترك الإثابة فقوله « لا أضيع » نفي للنفي فيكون إثباتا فيصير المعنى إني أوصل ثواب جميع أعمالكم اليكم . اذا ثبت ما قلنا فالآية دالة على أن احدًا من المؤمنين لا يبقى في النار مخلدا والدليل عليه انه بإيمانه استحق ثوابا وبمعصيته استحق عقابا فلابد من وصولهما اليه بحكم هذه الآية والجمع بينهما محال فإما ان يقدم الثواب ثم ينقله الى العقاب وهو باطل بالاجماع ، أو يقدم العقاب ثم ينقله الى الثواب وهو المطلوب اه وفي قوله إن العمل تلاشى وفني ما علمت من قاعدتنا التي نبهنا عليها آنفا فنقول ان حركة الاعضاء به فنيت ولكن صورته في النفس بقيت فكانت منشأ الجزاء . واورد الرازي لنفسه وجها آخر في عدم إضاعة العمل وهو عدم إضاعة الدعاء وقال بعد مباحث: ثم انه تعالى وعد من فعل هذا بأمور ثلاثة (أولها) محو السيئات وغفران الذنوب وهو قوله « لأكفرن عنهم سيئاتهم » وذلك هو الذي طلبوه بقولهم « فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » (وثانيها) إعطاء الثواب العظيم وهو قوله « ولأدخلنهم

فكانوا افضل، وقوله وأوذوا في سبيلي أي من أجله وسببه، وقاتلوا وقتلوا لأن المقاتلة تكون قبل القتال ، قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وقاتلوا بالألف أولا وقتلوا مخففة والمعنى انهم قاتلوا معه حتى قتلوا ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وقاتلوا أولا وقتلوا مشددة قيل التشديد للمبالغة وتكرر القتل فيهم كقوله « مفتحة لهم الأبواب » وقيل قطعوا عن الحسن . وقرأ حمزة والكسائي وقتلوا بغير ألف أولا وقاتلوا بالألف بعده وفيه وجوه — الأول ان الواو لا توجب الترتيب كما في قوله « واسجدي واركعي » — والثاني على قولهم : قتلنا ورب الكعبة . إذا ظهرت امارات القتل أو اذا قتل قومه وعشائره — والثالث بإضمار قد أي قتلوا وقد قاتلوا اه .

وأقول ان كلمة « وقاتلوا » رسمت في المصحف الامام بغير ألف ككلمة « وقتلوا » والرازي لا يعني بقوله قرأ نافع . . . « قاتلوا » بالألف ان الكلمة رسمت أو ترسم بالألف في المصحف وانما ذلك للتوضيح يعني قرأوا بالفعل المشتق من المقاتلة. والحكمة في اختلاف القراآت هنا إفادة المعاني المختلفة باختلافها ومثل هذا كثير

اما قوله تعالى ﴿ ثوابا من عند الله ﴾ فمعناه لأكفرن عنهم سيئاتهم وأدخلنهم الجنات أثيبهم بذلك ثوابا من النوع العالي الكريم الذي عند الله لا يقدر عليه غيره. والثواب اسم من مادة ثاب يثوب ثوبا أي رجع يقال تفرق عنه أصحابه ثم ثابوا اليه وفي المجاز ثاب اليه عقله وحلمه إذا كان خرج عن مقتضى العقل والحلم بنحو غضب شديد ثم سكت عنه غضبه. ومنه جعل البيت الحرام مثابة للناس فانهم يعودون اليه بعد مفارقته ، ولذلك قال الراغب : الثواب ما يرجع الى الانسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثوابا تصورا انه هو هو ألا ترى كيف جعل الله تعالى الجزاء نفس الفعل في قوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ولم يقل جزاءه . والثواب يقال في الخير والشر لكن الاكثر المتعارف في الخير وعلى هذا قوله عز وجل « ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » اه المراد

وأقول ان لفظ الثواب والمثوبة حيث وقع وما في معناه من ذكر الجزاء بالعبارات التي تدل على انه عين العمل كل ذلك يؤيد المسألة التي أخذنا على نفسنا إيضاحها

وإثباتها وكررنا القول فيها بعبارات وأساليب كثيرة وهي أن الجزاء أثر طبيعي للعمل أي ان للأعمال تأثيرا في نفس العامل تزكيها فتكون بها منعمة في الآخرة أو تدسيها فتكون معذبة فيها بحسب سنة الله تعالى فكأن الأعمال نفسها تثوب وتعود، وليس أي الجزاء أمرا وضعيا كجزاء الحكام بحسب قوانينهم وشرائعهم . وقد أشار الى هذا المعنى بعض المدققين من العلماء لا سيما الصوفية كالغزالي ومحيي الدين بن العربي . واذا فقه الناس هذا المعنى زال غرورهم ولم يعتمدوا في أمر ما يرجون من نعيم الآخرة ويخشون من عذابها الا على ما أرشدهم اليه كتاب الله من العمل الصالح دون أشخاص الصالحين وتسمية أنفسهم « محاسيب عليهم » ودعائهم والاستغاثة بهم

وقال الامام الرازي في المسألة الأولى من المسائل المتعلقة بالآية : «في الآية تنبيه على أن استجابة الدعاء مشروطة بهذه الامور (أي العمل الصالح مع المهاجرة واحتمال الإخراج من الوطن والايذاء في سبيل الله أي سبيل الحق والخير والقتل والقتال فيه) فلما كان حصول هذا الشرط عزيزا كان الشخص المجاب الدعاء عزيزا»

وقال في المسألة الخامسة : اعلم انه ليس المراد انه لا يضيع نفس العمل لأن العمل كما وجد تلاشي وفني بل المراد انه لا يضيع ثواب العمل والإضاعة عبارة عن ترك الإثابة فقوله « لا أضيع » نفي للنفي فيكون إثباتا فيصير المعنى إني أوصل ثواب جميع أعمالكم اليكم . اذا ثبت ما قلنا فالآية دالة على أن احدًا من المؤمنين لا يبقى في النار مخلدا والدليل عليه انه بإيمانه استحق ثوابا وبمعصيته استحق عقابا فلابد من وصولهما اليه بحكم هذه الآية والجمع بينهما محال فإما ان يقدم الثواب ثم ينقله الى العقاب وهو باطل بالاجماع ، أو يقدم العقاب ثم ينقله الى الثواب وهو المطلوب اه وفي قوله إن العمل تلاشى وفني ما علمت من قاعدتنا التي نبهنا عليها آنفا فنقول ان حركة الاعضاء به فنيت ولكن صورته في النفس بقيت فكانت منشأ الجزاء . واورد الرازي لنفسه وجها آخر في عدم إضاعة العمل وهو عدم إضاعة الدعاء وقال بعد مباحث: ثم انه تعالى وعد من فعل هذا بأمور ثلاثة (أولها) محو السيئات وغفران الذنوب وهو قوله « لأكفرن عنهم سيئاتهم » وذلك هو الذي طلبوه بقولهم « فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » (وثانيها) إعطاء الثواب العظيم وهو قوله « ولأدخلنهم

جنات تجري من تحتها الأنهار » وهو الذي طلبوه بقولهم «وآتنا ماوعدتنا على رسلك» (وثالثها) ان يكون هذا الثواب ثوابا عظيما مقرونا بالتعليم والاجلال وهو قوله «من عند الله» وهو الذي قالوه « ولا تخزنا يوم القيامة » لأنه سبحانه هو العظيم الذي لا نهاية لعظمته واذا قال السلطان العظيم لعبده إني اخلع عليك خلعة من عندي دل ذلك على كون تلك الخلعة في نهاية الشرف. اه وقد علمت أن عدم الخزي لا يدل على ما قاله في النعيم الروحاني وكذلك لا يدل على ما قاله هنا. وما قرره في الاستجابة من انها بعين ماطلبوا مخالف لما قاله الاستاذ الامام وقد رأيته

ثم قال تعالى ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ قال الأستاذ الإمام كغيره ان هذا تأكيد لما قبله من كون الثواب من عند الله ليبين ان هذا الجزاء بمحض الفضل والكرم الإلهي وانه يقع بارادته واختياره تعالى وان كان جزاء على عمل، وأقول ان كون الجزاء بفضل الله ورحمته لا ينافي ما قلناه في معنى الجزاء والثواب لأن كل ما يصيب العباد من خير في الدنيا فهو من فضله تعالى ورحمته وان كان قد جعل له أسبابا هو أثر طبيعي لها كالمطر والنبات والصحة وغير ذلك والله أكرم وأرحم، وأعلم وأحكم ،

﴿ غلط يجب تصحيحه بالقلم ﴾

في السطر ١٥ من ص ٢٥٩ من الجزء الماضي جملة « والى الله ترجع الأمور » فيجب ان ترمج بالقلم ويكتب بدلها « والله على كل شيء قدير »

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، وانا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ استعمال الورق النشاف في الاستنجاء ، والمقوى في الحذاء ﴾

(س ٢١ و ٢٢) من ص · م · في كربوس (السودان)

سيدي الفاضل

ترددت كثيرا في كتابه هذا لحضرتكم ولكني اقدمت لعلمي انكم تسرون لنشر التعاليم الدينية لهداية المسلمين ووقوفهم عليّ خلاصة الدين الحنيف

جمعني مجلس مع لفيف من اخواني الضباط وقد لاحظ احدهم اني اضع في حذائي فرشة من الورق المقوى لان به اتساعا فانتقد عليّ بقوله ان استعمال الورق مثل هذا الاستعمال مخالف للدين الذي تدين به. وقد تناول كل منا البحث في هذا الموضوع حتى استدرجنا البحث والكلام في (١) هل الورق المخصوص الذي يوضع في البواخر مطهر و(٢) هل يجوز للمسلم استعماله — و(٣) ان كان جاز للضرورة هل تعاد الصلوات التي يكون صلاها المسلم المسافر في مثل هذه البواخر لأنه يمنع من حمل الماء لمحلات الخلاء و (٤) هل الورق (الذي يسمى ورق النشاف) مطهر لأنه يلتقط ويمتص السوائل

ووقف بنا البحث لهذا الحد ولم نجد جوابا شافيا وانتقلنا لمواضيع أخر كما هي عادتنا عند وجود عقبات لا نجتهد في ازالتها

انفض المجلس وانا مشغول في ايجاد نص صريح يحل لي هذه الألغاز ولما لم

اجد أمامي غير من أوقف نفسه لهداية العالم الاسلامي طرقت بابكم بعد التردد الكثير — عشمي ان استفيد من حضرتكم لافيد اخواني ولكم الفضل علينا ومن الله الاجر

(ج) استعمال الورق الذي يوضع في مراحيض البواخر والورق النشاف في الاستنجاء جائز ولو مع وجود الماء وإمكان استعماله فلا يتوقف جوازه على الضرورة ولا تجب إعادة صلاة من استنجى به لأنه احسن تنقية من الحجارة التي ورد النص بالاستنجاء بها ومن كل ما في معناها مما ذكر في كتب الفقه وليس هذا محل خلاف يذكر فلا يكن في صدر أحد منكم حرج منه · ثم ان ما قاله لكم صاحبكم في تحريم وضع المقوى في الحذاء خطأ وفيه جرأة على الدين بتحريم ما لم يحرمه الله والاصل في الاشياء الاباحة فلا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق

***

﴿ لعب الشطرنج ﴾

(س ٢٣) من كورتي (السودان) لصاحب الامضاء بنصه

سيدي الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته تحية المسلم لأخيه ، وبعد فراجيك التكرم بالرد على السؤال الآتي على صفحات جريدتكم الغراء :

هل لعبة الشطرنج المعروفة محرمة أو مكروهة في عموم المذاهب الأربعة أو بعضها يقول بالحرمة أو بالكراهة أو الاباحة مع العلم بأن الشيخ الدرديري ذكر في في الشرح الصغير على أقرب المسالك في باب جمل في الجزء الثاني قال في المتن (واللهو حرام) وذلك كاللعب بالنرد المسمى في مصر بالطاولة فيحرم كأنه بعوض أو بدونه لأنه يوقع العداوة ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة وكالشطرنج والشجة والطاب والمنقلة واستظهر بعض كراهة المنقلة والطاب ومحله بدون عوض واشتمال على محرم والا فيحرم اتفاقاً اه

ثم قال الشيخ العدوي في حاشيته على الرسالة عند قول المتن في باب جمل هلق على الافعال المحرمة (ومنه القمار) قوله ومنه القمار الخ قال في المصباح قامرته

قماراً منه باب قاتل وقمرته قمراً من باب قتل انتهى أي إذ في لعب الشطرنج ونحوه مغالبة فقوله ونحوه كالنرد والطاب ونحو ذلك فكل ذلك حرام والا بدونه شيء انتهى

فيؤخذ منه ذلك كله انه هذه اللعبة محرمة في مذهب الامام مالك فاذا قلتم بالحرمة أو بالكراهة فما هو السبب في ذلك واذا كان السبب كونها تورث العداوة كما ذكر اعلاه فالمسابقة بالخيل تورث العداوة أيضا مع أنها جائزه في مذهب الامام مالك أفيدونا على ذلك مأجورين ولكم الشكر

وفي الختام تفضل بقبول تحياتي واحتراماتي — يوز باشي مأمور كورتي

عثمان عارف الرفاعي

(ج) صرح الامام مالك في بعض أجوبته بكراهة الشطرنج وأطلق فحمل أكثر أصحابه ذلك على كراهة التحريم ، وقال الإمام الشافعي فيه : انه لهو يشبه الباطل أكرهه ولا يتبين لي تحريمه . فحمل أصحابه ذلك على كراهة التنزيه ؛ واشتهر بين الناس ان الشافعي أباح الشطرنج والصواب ما قلنا ، ولا نعرف نصاً عن الشارع في تحريم الشطرنج ولا غيره مما ذكر من اللعب الا النرد (الطاولة) ولنا في ذلك فتوى مفصلة في المجلد السادس (راجع ص ٣٧٣ — ٣٧٨ منه)

***

﴿ معاوية بن أبي سفيان ﴾

(س ٢٤) من سنغافوره

سأل سائل من سنغافوره عن معاوية هل ثبت موته على الايمان وهل يجوز لعنه . وقال ان بعض السادة الحضارمة ألف كتابا يثبت فيه جواز لعنه وكيت وكيت الخ فطعن الناس فيه . ونقول قد سألنا بعض هؤلاء الحضارمة عن مسألة اللعن من قبل فأجبنا بما نراه. واما مسألة موته فهي مما يفوض الى الله تعالى من جهة الباطن ونحن لنا الظاهر وهو انه مات مسلما ودفن بين المسلمين . وقد علمنا ان القوم مختلفون ومتعادون في ذلك فنوصيهم بترك الكلام فيه لأنه يخشى شره ولا ترجى منه فائدة بخلاف تحقيق بغيه على عليّ كرم الله وجهه فتلك من أهم مسائل تاريخنا

الانقلاب الميمون

﴿ وأثر السلطان عبد الحميد في الدولة ومقاومته للدستور ﴾

(استدراك على المنار)

صديقي الأستاذ الحكيم

نشرتم في العدد الماضي رسالة الفاضل مولوي إنشاء الله ورسالة جريدة ابزرور الهندية في الانقلاب العثماني وفيهما ما يدل على ان نبأ خلع السلطان عبد الحميد أثر تأثيرا سيئا في الاقطار النائية الاسلامية وانهم يرون انه قد افتيت عليه بالخلع لما له من المآثر الكثيرة في الدولة وقد عدد الكاتب تلك المآثر الموهومة وعقبتم عليها برأيكم في الخلع وتفنيدكم لأقوال الكاتب وبسطتم الكلام بسطا وافيا إلا انه يمكن ان يستدرك عليكم في الأدلة على بيان خطأ الكاتب في الدعاوي التي استخلصتموها من مقاله ورددتم عليها فرأيت ان أكون متمما لمقالكم مع زيادة في الايضاح اقناعا لإخواننا مسلمي الهند ومن حذا حذوهم في الاعتقاد الحسن بالسلطان عبد الحميد فأقول

ان النقط الست الأولى التي تتعلق بسيرة عبد الحميد بعد الدستور لا أريد أن أكتب على كل نقطة منها بمفردها زيادة عما كتبه المنار الأغر بل أقول فيها كلها كلمة إجمالية وأكتب على النقط الاخرى التي تتعلق بحياته بعد الدستور كل نقطة بمفردها

أما كلمتي الإجمالية فهي ان السلطان عبد الحميد لم يكن يوما قط مخلصا للدستور والدليل على ذلك انه أعطاه مكرها كما ذكر ذلك المنار الأغر ومن طالع كتاب خواطر نيازي يتضح له ذلك وانه لم يأل وحواشيه جهدا في غضون الحركة الأولى في استنباط الوسائل التي تفت في عضد الأحرار في سلانيك لما طالبوه بإعادة القانون الأساسي وهددوه بسوق الجيش الى الاستانة فأصر على رفض طلبهم ومقاتلتهم بقوة جنود الاناضول وفعلا استدعى عدة توابير من رديف أزمير وأمر بسفرهم إلى سلانيك وقبل ان تتحرك هذه الجنود من إزمير اطلعت على كتاب ورد لبعضهم من صديق له ثمة يقول له فيه : إني أسافر متطوعا مع جنود إزمير إلى

سلانيك لا لقتال الجيش المطالب بالحرية بل للانضمام اليه مع جنود ازمير والتوجه الى الاستانة لإكراه ذلك الجبار على رد حرية الأمة التي سلبها إياها والضباط هنا في منتهى التحمس للوصول الى هذه الغاية فليطمئن بال الاحرار في مصر فاستودعكم الله ولا أدري هل أراكم بعد اليوم أم لا :

ولما وطئت أقدام الجنود أرض سلانيك اعلن الضباط في الحال انضمامهم بجنودهم إلى جيش الحرية وانعكس هذا الخبر بالسلك البرقي إلى الاستانة فسقط في يد السلطان واعوانه وكانوا طلبوا جنودا أخرى من جهات الأناضول فأوقف سفرها ناظر الحربية واقنع السلطان بلزوم العدول عن هذا الرأي لما فيه من الخطر فلم يسعه بعد ذلك الا التسليم بمطالب جيش الحرية ليتسع له الوقت في التفكير والتدبير خصوصا في تفريق وحدة الجيش المتواطئ على نصرة الدستور

أخذ بعد ذلك في تدبير المكايد فبث جواسيسه واتباعه بين الجنود المعسكرة في الاستانة يغرونهم بالمال وألف بواسطة درويش وحدتي جمعية الاتحاد المحمدي وأعطاها هو واعوانه هذا الاسم الشريف ليكون آلة للتمويه على البسطاء والتغرير بهم باسم الدين إذ ليس في الأمة فرد واحد ينتقد على الحكومة الدستورية مادامت قائمة باسم العدالة والمساواة فلا يستطيع السلطان واعوانه تحريض الجنود على الاحرار الدستوريين لمطلق انهم اعوان الدستور لذلك جاؤهم من جهة الوتر الحساس فيهم فجسوه باسم الدين وحرضوهم على المطالبة بأحكام الشرع والشرع في عرف العامة هو السلطان والسلطان هو الشرع لأنه الآمر المطلق المطاع فالنتيجة بالضرورة هي محو الدستور ومحو كل من يقول به في تركيا وإعادة السلطة الاستبدادية إلى السلطان

ثبت ذلك بالبينات القاطعة والادلة المحسوسة وهي النقود الكثيرة التي وجدت مع الجنود الثائرة ثم التقارير السرية التي وجدت في يلدز من جواسيس السلطان وأعوانه وفيها بيان عن نجاح الخطة الموضوعة لاثارة خواطر الجنود كتقارير علي كمال بك وطيار بك وغيرهما التي نشرتها جرائد الاستانة بالحرف ونشرت مجلة (ثروت فنون) بعضها مصورة بالفوتوغراف اثباتا للحقيقة وقطعا للشبه ثم ثبت ذلك باقرار كثير من اعوان السلطان وحواشيه المقبوض عليهم كجوهر اغا وحقي بك ويوسف

سكه زان باشا الذي قبض عليه وهو يحمل نقودا تبلغ الاربعين الف جنيه فاقر انه كان يريد ان يغري بها جنود الفيلق الثالث وغير هؤلاء كثيرون ممن اقروا بتدبير هذه المكيدة او ثبت عليهم الاشتراك فيها بالاوراق التي وجدت معهم واهم من ذلك اقرار درويش وحدتي صاحب جريدة (وولقان) ومؤسس جمعية الاتحاد المحمدي فانه اقر لمخبر جريدة (اعتدال) الازميرية لما قبض عليه هناك من عهد قريب اذ قال له ان السلطان هو الذي دبر هذه المكايد وان لديه اسرارا كثيرة سيذكرها في المجلس العسكري

وزد على هذا ما ظهر من اتساع نطاق هذه المؤامرة بواسطة أشياع السلطان واتباع صاحب جريدة (وولقان) بحيث كان المراد بها تحريض المسلمين في كل الولايات على فتك بعضهم ببعض ليستوجب ذلك تداخل اوربا واقتناعها بعدم استعداد الأمة العثمانية للحكم الدستوري . بدأت هذه الحركة المشؤمة في ولاية ادنه واطراف ولاية حلب ثم ظهرت في ارضروم بين الجنود وظهرت في ديار بكر فأطفئت في الحال ولم يقف دون شبوب هذه النار في كل الولايات العثمانية الا سرعة حركة جيش الحرية ودخوله الاستانة ثم مبادرته الى خلع السلطان عبد الحميد . ولو نجحت هذه المؤآمرة الخبيثة لما بقي في تركيا حجر قائم على حجر ولدمرها السلطان كما دمرت مدينة ادنه التي اصبحت اطلالا بالية ولو اردنا ان نأتي على تفصيل هذه الحوادث لاحتجنا الى مجلد من المنار فهل يقال بعد هذا ان السلطان عبد الحميد كان مخلصا للدستور وانه اعطاه برضاه؟ وهل وجد في تاريخ العالم ملك تنزع من صدره الرحمة وينزل بالنفس الامارة بالسوء الى هذا الحد من حب الانتقام لنفسه ولو بتخريب المملكة التي تأسست على دماء مئات الألوف من المسلمين ثم يلصق مثل هذه الجناية بالاسلام وشرائعه الطاهرة اذ يثير مثل هذه الفتنة باسم الدين الاسلامي وتحت ستار الشريعة؟

انا نعتقد ان اخواننا المسلمين في الهند وغيرها ارفع عقولا وابعد عن التصديق بكل ما كان يقال في جرائد المنافقين عن مزايا هذا السلطان التي تكاد تماثل مزايا آلهة اليونان الواردة في اساطير القوم وانه كان من انصار الدستور مع انه هو الذي قتل واضع الدستور مدحت باشا واخوانه وعطل القانون الاساسي مدة ثلاث وثلاثين

سنة قتل في غضونها ألوفا من شبان الامة المائلين الى الحرية منهم من ماتوا في السجون ومنهم من ماتوا في المنفى لكثرة ما عانوه من شظف العيش ومنهم من ماتوا إغراقا في البحار وآخر من كادوا يموتون تعذيبا في السجن من أولئك الاحرار صديقنا الحر الغيور حسين بك طوسون وطائفة من أهل ارضروم وفيهم مفتيها الذي مات في السجن شهيد الحرية والانسانية . وجريمتهم ان حسين بك طوسون الذي قضي اكثر ايام حياته بعيدا عن وطنه مجاهدا في سبيل الحرية ذهب بصفة خفية الى ارضروم وبث في طائفة من افاضل أهلها فكرة المطالبة بالقانون الاساسي والتخلص من الاستبداد فاجابوا نداء الضمير والحقيقة وقاموا بالحركة الدستورية التي كانت في ارضروم منذ سنتين فقضي عليهم جميعا وجيء بهم الى الاستانة فزج بهم في سجونها ولولا قيام جيش الحرية في سلانيك واعلان الدستور لماتوا في التعذيب عن آخرهم كما مات من قبلهم

وكذلك كان مع الشاب المهذب المرحوم محمود فائز افندي (١) الذي كان يحرر في جريدتنا (الشورى العثمانية) وسافر الى إزمير قبل اعلان الدستور بستة شهور مضحيا حياته في سبيل الحرية فقبض عليه وعلى عدد غير قليل من أفاضل أهل إزمير وزج بهم في السجون ولاقوا من أنواع العذاب ما لا يوصف و بعد هؤلاء الخمسة والعشرون الضباط الذين جيء بهم من سلانيك وسجنوا في الاستانة قبل اعلان القانون الاساسي ببضعة عشر يوما

كل هؤلاء كانوا عرضة للموت في السجون كما مات من قبلهم لولا ان تداركهم الله بقيام الجمعية في سلانيك وظهور قوتها المتحدة بقوة الجيش وارغامها السلطان عبد الحميد على اعلان القانون الاساسي وخروج هؤلاء المظلومين من غيابة السجن واسر التعذيب

(١) توفي هذا الشاب شهيد الواجب في الفتنة التي أثارها أعوان السلطان عبد الحميد منذ شهر في ادنه حيث كان يقيم موقتا فأراد ان يصلح بين المتقاتلين من الأرمن والمسلمين وينصح لهم بترك القتال فأطلق عليه أحدهم رصاصة ألقته صريعا يتخبط بدمائه رحمه الله

هذا ما أردت اضافته على ما كتبه المنار الأغر رداً على القسم الأول من كلام الكاتبين

(١) وأما القسم الثاني والدعاوى الست التي لخصها المنار الأغر ورد عليها فالاولى منها المالية ويكفي ان نضرب له مثلا أو مثلين على مبلغ خللها وضعفها في عهد السلطان الماضي اذ وجوه الضعف والخلل مما لا يمكن إحصاؤه في هذه العجالة فالمثل الأول ان الحكومة الدستورية وجدت فيما وجدت من الخلل في المالية عدة ملايين من الجنيهات دينا على الدولة لجهات متعددة لم يجدوا لها قيودا رسمية فسموها الديون السائرة . واضطروا ان يعلنوا في الجرائد عنها وكلفوا كل من في يده مستند من اصحابها ان يراجع الحكومة في غضون مدة محدودة وعلى هذا فقس كل أحوال المالية . وما سبب هذا الخلل فيها الا استئثار السلطان بواردات الدولة مما لا تستطيع حصره نظارة المالية لتناوله لتلك الواردات مباشرة بغير واسطتها ولأجل هذه الغاية كان ألف منذ بضع سنين لجنة في يلدز من حواشيه سماها اللجنة المالية لمراقبة مالية الدولة في الظاهر وسلبها في الباطن فكان أول قاعدة وضعتها تلك اللجنة ان لا ينفق قرش واحد من خزائن الولايات الا بعد استئذانها حتى مرتبات المأمورين ونفقات الجنود التي هي طبيعية في كل ولاية داخلة في ميزانيتها الخصوصية وكان من ذلك ان صارت هذه اللجنة كلما اجتمع مبلغ من المال في ولاية تطلب ارساله اليها في الحال وهذه تضعه تحت أمر السلطان ينفق ماشاء منه على جواسيسه ومقربيه ومصالح الدولة و يستأثر لنفسه بما شاء حتى تعطلت أمور الولايات الادارية وفشت الرشوة في المأمورين لكي يعتاشوا بما يحصل لهم منها من النقود وحتى صارت الفيالق العسكرية الى حالة من الفقر والضعف وفقد الحاجيات العسكرية لا يمكن ان يصورها كاتب بقلم ولا يصدقها الا من شاهدها بعينه من العثمانيين واليك مثالا منها

لما حدثت مسئلة العقبة وتصدى الانكليز في مصر الى التداخل فيها ورأت الحكومة العثمانية وجوب ارسال الجنود الى العقبة واوعزت الى الفيلق الخامس الذي مركزه دمشق بارسال تابورين من المشاة و بطارية مدافع الى العقبة لم يوجد في الفيلق كله عشرون حصانا لاجل المدافع لان خيل السواري والطوبجية الخاصة بالفيلق الخامس انقرضت عن آخرها ولم يشتر غيرها فاحتيج للاتيان بها من الاستانة وترتب

على ذلك تأخير الحملة العسكرية وعزل والي سورية ناظم باشا يومئذ لأن قائد الفيلق ألقى عليه تبعة الابطاء لعدم تعجيله بدفع نقود تكفي لتجهيز خيول هذه الحملة ولوازمها الأخرى مع ان خزينة الولاية كانت خالية من النقود

هذا مثال من الامثلة المحسوسة التي يحتاج استقصاؤها الى كتاب ضخم يبين ماذا اصاب الدولة من الضنك المالي والاضطراب الاداري في عصر السلطان الماضي مع تنوع الضرائب والجبايات وتوالي طلب الاعانات المستحدثة ومنها اعانة التجهيزات العسكرية التي استمرت تجبى من الامة عشر سنين او ازيد وتحشر نقودها الى المابين ولما اعلن الدستور لم يجدوا لها حسابا مضبوطا ولم يعرفوا وجوه الانفاق التي ذهبت فيها تلك الملايين من النقود التي جبيت باسم الجندية والجندية كانت في احط دركات العوز والنقص في المعدات الحربية كما اثبت ذلك العيان الذي ليس بعده بيان

(٢) كونه درب الجند على قواعد الحرب الحديثة . فانا أضيف على ما كتبه المنار رداً على هذا الزعم ان كل ما صرفه السلطان عبد الحميد من العناية بأمر الجندية كان طلاء ظاهره حسن و باطنه قبيح فقد كان يرسل الى ألمانيا بعض الضباط لاجل إتمام تعلم الفنون العسكرية وقلما ضم الى الألايات ضابطا من هؤلاء عند عودته ليستفيد الجنود من معارفه الجديده بل اكثرهم كان يضم الى المابين والدوائر العسكرية الأخرى ليكونوا مغلولي الأيدي عن العمل . وكذلك أتى بضباط ألمانيين كهو به باشا وغولس باشا وغيرهما لاجل تنظم الجيش وتدريبه ولكنه غل ايديهم كما غل أيدي الضباط العثمانيين المتعلمين في ألمانيا فمنعهم من كل عمل يترتب عليه حياة الجيش ونظامه الحربي كما منع عنهم كل مادة من مواد الترقي ومن ذلك انه حظر على الجيش اجراء المناورات الحربية منذ عشرين سنة والمناورات الحربية أس النظام العملي في جيوش الأمم بل زاد في النكاية فمنع حتى ما يسمونه (ألاي تعليمي) حتى لا يجتمع اربعة توابير في مكان واحد تحت السلاح ولو كانوا في اقصى المملكة وحتى اصبح التعليم العملي مفقوداً ألبتة في الفيالق وكما منع الجيش من التمرن على الفنون العملية منع عنه كل المستحدثات الحربية الحديثة كالتلفون والأتوموبيل الحربي والبالون

كل هذا توهما منه ان جيشه عدو له حتى كان الجيش اشبه بآلة معطلة (*) وحتى انسل منه الضباط الالمانيون راجعين الى بلادهم لما لم يروا ما يمكنهم من ترقية هذا الجيش المحروم من كل وسائل الترقي الادبية والمادية

وأكبر دليل على ذلك مابلغه رجال الدولة من الخوف والاضطراب عقب إعلان الدستور وقيام النمسا والبلغار على الدولة: الأولى لأجل البوسنه والهرسك والثانية لاجل الاستقلال ، حتى اضطرهم ذلك الى التعجيل بحل هاتين المشكلتين تفاديا من الوقوع في الحرب التي كانت خطرا مؤكدا على الدولة لضعف الجيش حتى لقد رأيت كتابا من أحد المشيرين الكبار بعث به لصديق له في مصر لاول عهد الدستور يقول له فيه : نسأل الله ان يمنع عنا غائلة الحرب مع البلغاريين في هذين الشهرين ريثما نلم شعثنا والا فنحن في خطر كبير اذا وقعت الحرب الآن

وأخبرني ضابط كبير رتبة لواء وكان في الفليق الثاني (فليق ادرنه) مع ناظم باشا لما تعين قائدا للفليق المذكور عقب اعلان الدستور وفي أثناء المفاوضات مع البلغار فقال : ان القائد المومأ اليه مع مابذل من الجهد في تنظيم الجيش وتدريبه ولم شعثه وتجهيزه بالمعدات اللازمة كان يقول بعد مرور شهر عليه في قيادة هذا الفليق : الآن يمكننا ان نقف اسبوعا واحدا في وجه البلغاريين وبعد شهر آخر يمكننا ان نقف شهرا واحداً وبعد أربعة شهور يمكننا ان نزحف على عاصمة البلغار

فانظر الى ماكان عليه الجيش من الضعف يومئذ وكيف كان أكبر مشيري الدولة وقوادها يتشاءمون من وقوع الحرب مع البلغار حتى بات كل قواد الجيش وضباطه في هم ناصب ودأب على العمل ليل نهار في الستة الشهور الأولى لأجل استرداد ما سلبه السلطان عبد الحميد من قوة الجيش المعنوية والمادية في العشرين السنة الأخيرة لحكمه المشؤوم

(٣) اما التعليم فيكفي ان نقول فيه ان المتعلمين في تركيا أقل نسبة من

(*) المنار : كان يعتقد ان الجيش اذا اجتمع مسلحا طلب الدستور ولذلك منع المناورات والاجتماع حتى اجتهد في منع حرب اليونان فلم يجد الى ذلك سبيلا

المتعلمين في بلغاريا (*) التي انفصلت عن الدولة في عهد السلطان عبد الحميد فسبقتها اشواطا كبيرة في مضمار المعارف والعلوم ولو اطلق السلطان عبد الحميد حرية التعليم في الثلاث والثلاثين سنة التي حكمها لما وجد الى اليوم أمي في تركيا مع ان الأميين فيها الآن ربما زاد عددهم عن خمسة وثمانين في المئة والمدارس الموجودة في تركيا قد صارت الى حالة من الخلل خصوصا في الخمسة عشرة سنة الأخيرة من ملك عبد الحميد لا يستطيع وصفها قلم وحسبك ان دار الفنون في الاستانة لما أريد تنظيمها بعد الدستور لم يجدوا في فرع الطبيعيات منها ولا آلة واحدة من آلات العلوم الطبيعية التي يطبق فيها العلم على العمل كما انه لا يوجد كتاب رسمي يدرس في مدارس الاستانة في أي فن من الفنون بل ان المعلمين يملون دروسهم املاء وناهيك بمعلم يدرس وهو يحاسب نفسه على الكلمات ويخشى من هفوات اللسان بالفاظ علمية حرمتها نظارة المعارف بأمر السلطان

اما مصادرة العلماء وتشتيت الفضلاء وقتل النابغين أو ابعادهم واحراق كتب العلم فهذا مما لا يحتاج الى دليل وقد عثروا على تقارير رسمية من دائرة التفتيش في نظارة المعارف مرسلة الى المابين في كيفية احراق الكتب المصادرة ينبئ بأن ألوفا من الكتب أحرقت مرة واحدة في موقد حمام شنبرلي طاش على ايام متوالية تفاديا من احراقها في نفس النظارة بعد أن ظن الناس ان حريقا وقع فيها لاول يوم بدئ فيه باحراق الكتب فيها وقد نشرت جرائد الاستانة في الاسبوع الماضي هذه التقارير لتبرهن على ما نال العلم وأهله في عصر السلطان عبد الحميد

وهذا قليل من كثير مما اصاب العلم وأهله من المصادرة والاضطهاد في عصره وفيه كفاية للمقتنعين

(٤) اما انه اسعد المملكة بكده مدة حكمه فهذا امر تفنيده يطول خصوصا لمن ليس هو من هذه المملكة و بعيد عنها ويكفي ان يقال انه ليس في تركيا شركة وطنية من الشركات العامة الصناعية أو التجارية لان السلطان كان يمنع تأليف هذه الشركات الا اذا كانت اجنبية واعطيت اسم العثمانية . وكانت الرشوة متفشية في

(*) ان ٥٠ في المئة أو نصف الاهالي في البلغار متعلمون

دوائر الحكومة الى حد سلبت معه الامنية على الاموال والارواح واصبحت السيطرة لاهل البغي والفساد وارباب النفوذ. وكان المأمورون مضطرين لمماشاة هؤلاء ومحاباتهم لقلة رواتبهم وعدم اخذهم لها واحتياجهم الى المال من غير طرقه المشروعة فليس ثمة عدالة ولا قانون الا هوى الانفس وارادة الحكام فكيف تكون حالة مملكة هذا شأنها واية سعادة ترجى لامة تلك حكومتها ؟ نترك الجواب على هذا للكاتبين الفاضلين فانهما على ما نعتقد من المنصفين

(٥) اما كونه عمر الطرق وأنشأ السكك الحديدية والترع فهذا لا شيء منه في تركيا فان فيها ضريبة تسمى ضريبة العملة المكلفة وهي تلزم كل مقتدر على العمل ان يعمل في اصلاح الطرق بنفسه أو بدفع أجرة عامل للحكومة وهي ريال فأكثر في السنة . وقد قال لي مرة بعض الناقدين ان هذه الضريبة لو أنفقت في سبيلها منذ وضعها الى اليوم لامكن للدولة ان تمد بها خطوطا بدل الخطوط الحديدية من الفضة على انه لم يعمل بها طريق مرصوص بالحجر صالح لمرور الجنود والمركبات الى اليوم

أما السكك الحديدية فالحقيقة انها كثرت في زمانه الا انها كلها كما قال المنار الاغر في يد شركات اجنبية وفي مصلحتها دون مصلحة الرعية والدولة ولا يوجد في العالم شركة سكة حديد تتمتع بامتيازات تضر بالرعية والدولة كما يوجد في بلادنا ولنضرب لهم مثلا سكة حديد بغداد التي اخذتها شركة ألمانية فقد اعطيت هذه الشركة الحق بالبحث عن المعادن وتملكها على مسافة عشرين كيلو مترا من جانبي الخط أي من ساحل البحر الابيض في الاستانة الى مصب دجلة والفرات من البحر المحيط الهندي وفوق هذا قد تحملت الدولة الضمانة الكيلو مترية لهذه الشركة ثلاثة عشر الف فرنك عن كل كيلو متر وذلك في نظير مبالغ زهيدة أعطيت للمقربين ورجال الدور الماضي و بعض اسهم استأثر بها السلطان ونفر من اعوانه . فهل توجد أمة في العالم تباع مرافقها وتوهب اراضيها على هذه الصورة ويكون اشد العاملين على جر هذه المضار عليها سلطانها وحكومتها؟

أن الامثلة على مثل هذا كثيرة وان صفحات المنار لتضيق عن جزء منها فأنا أكتفي من البيان بما تقدم كما أكتفي بما قاله المنار عن النقطة السادسة لان النفس

ضاقت من الاسترسال في هذا الموضوع والفؤاد اضطرب من امعان الفكر في تلك الظلمة التي كشفها الله عنا بفضل منه فلم يبق في استطاعة القلم تجاوز هذا الحد من البيان لما ساورني من الآلام النفسية التي كانت ملازمة لي ولكل الاحرار العثمانيين مدة ذلك الدور المشؤم وقد خففها الله عنا بانقضاء ذلك الدور الماضي وظهور شعلة من نور الرجاء في المستقبل كنا نأمل ان تنسينا ما فات لو لم يسؤنا تلقي اخواننا المسلمين لهذا الانقلاب المجيد بغير ما تلقاه به العثمانيون لخلو أذهانهم عن امثال ما ذكرناه من سيرة عبد الحميد فيدعونا ذلك الى الرجوع لتلك الذكرى المنغصة بما اردنا به رد الشبهة وجلاء الحقيقة لاخواننا المسلمين في البلاد النائية. على انا لا ننسى لهم هذا التأثر بأحوال المملكة العثمانية واخبار دولة الخلافة وان كان تأثرا بضد الواقع فانه محمول منهم على حسن النية وعدم الوقوف على دخائل الامور في الدولة العلية ولا ريب عندنا في ان اهتمامهم بهذا الانقلاب وخلع السلطان عبد الحميد يدل على اهتمامهم بشؤون اخوانهم المسلمين العثمانيين ورغبتهم الخالصة في سعادة الدولة العلية ومجدها وقوتها وانا لنرجو أن تتحقق هذه الرغبة لهم ولنا في دور مولانا السلطان محمد الخامس بعد أن ثبت عدم تحققها في عصر السلطان المخلوع اذ كل ما روئي من خليفتنا الجديد الى اليوم يدل على محبة خالصة للامة وميل عظيم للاصلاح وتمسك بمبادي الشورى والعدل جعله الله مبدأ حياة جديدة للدولة وعز مؤكد للمسلمين

وحسب اخواننا في الاقطار النائية دليلا موجبا لسرورهم مؤكدا لآمالهم في مستقبل دولة الخلافة هذا الانقلاب العظيم الذي قام به اخوانهم المسلمون في البلاد العثمانية ودعمه الجيش بقوته العظيمة . وأي دليل على ان هناك حياة عالية ونفوسا نزاعة الى الرقي ستنهض بالدولة الى منزلة تسر لها ان شاء الله قلوب الأمة الاسلامية اعظم من هذا الدليل لا سيما وان القائمين بهذا الانقلاب انما جددوا حكومة الشورى الاسلامية التي طوى صحيفتها الامراء الجائرون منذ آخر عهد الخلفاء الراشدين ولم تستطع امة من المسلمين استرداد هذا الحق المسلوب منها الى اليوم فاستطاع ذلك العثمانيون والله مع المصلحين

رفيق العظم

﴿ الذكر ورابطة النقشبندية ﴾

لما اطلع السيد محمود شكري افندي الالوسي عالم العراق المصلح الشهير على ما كتبناه في رابطة النقشبندية استحسنه وفضله على جميع ما كتبه العلماء في ذلك وارسل الينا القصيدة الآتية وقال إنها للشيخ عثمان بن سند النجدي نزيل البصرة رحمه الله وكان من رجال اواسط القرن الثالث عشر في ابطال الرابطة التي يقول بها المتصوفة

أخل الفواد اذا ما كنت ذاكره ... تكن فتى بسلاف الذكر قد سكرا
الشيخ يدعو لإخلاء الفؤاد من الا ... أغيار طراً ليصفو الذكر للفقرا
فكيف يدعو الى تصوير صورته ... في خاطر فيه نور الله قد سفرا
فاصقل فؤادك بالذكر اللذيذ وكن ... ممن عن الغير في اذكاره نفرا
لم يحل قط شهود الله في خَلَد ... إلا إذا لم يكن فيه سواه يرى
وان يكن من أناس من يشاهدهم ... مولاه يذكر ما أنوارهم نظرا
إذ صورة المصطفى صحت بها كَتب ... وما بتصويرها أصحابه أمرا
لو كان من ديننا تصوير مشيخة ... لكان أجدر لكن تقتفي الأثرا
فحسبنا باتباع المصطفى شرفاً ... ان مال نحو اتباع غيرنا وجرى
فيا مريد الهدى استمسك بعروته ... وقل إذا السالك استهداك معتبرا
دع التوجه إلا للذي فطرا ... واسلك على الشرع واترك ماسواه ورا
فسالك لسبيل المصطفى ثبتت ... اقدامه ومريد غيره عثرا
ان الطريقة ان عرفتها عمل ... بالشرع فاعمل به وانظر لما نظرا
وبعد تخلية فاعمل بتحلية ... وإنّ تحلية أخذ بما أمرا
من سار لله نقى السرّ من كدر ... لا ينظر الله سراً أشرب الكدرا
واخرج عن النفس والاغيار تحظ به ... لم يحظ بالله مملوء الحشا غيرا
ولا تظن اشتغالا بالعلوم شقى ... ان الشقاء لمن غير العلوم يرَى
فالعلم يحمله من كل ما خلف ... عدوله فهم من غيرهم أمرا
ينفون تحريف ذي الابطال عنه فكم ... مدقق منهم دين الهدى نصرا
لا تحتقر سالكا علما فسالكه ... سام وتاركه بالجهل قد حقرا
وارج الحوائج من مولاك لا بشر ... وان سما من مقام الصالحين ذرى

لو كان مستلباً منه الذباب ولم ... يقدّر الله انقاذاً لما قدرا
فافزع الى الخالق المعبود معتصما ... في كل ما حدث ان جل او صغرا
واعبد كأنك مولى العالمين ترى ... فان تكن لا ترى مولاك فهو يرى
واحذر دسائس نفس ربما قتلت ... ففي الدسائس منها دقق النظرا
والذكر ركن عظيم من طريقتهم ... وخيره ماعن المختار قد اثرا
فجد في السير للرحمن مقتفيا ... آثار من فات كل الخلق حين سرى
وكل مؤمنة أو مؤمن فله ... حق عليك فأحبب منهما الأثرا
واخش احتقارك للعاصي لمعصية ... فرب عاص تعدى ذنبهُ غفرا
فكر ربك لا تأمن وكن رجلا ... مستمسكا أبدا من شرعه بِعُرى
لا ناظرا عملا لكن لرحمة من ... كل الأنام اليه دائما فُقرا
معلقا منك آمالا بذيل ندى ... من فضله الجمّ ذرات الورى غمرا
فاذكره في خلوة أو جلوة لترى ... مما له عند أملاك سموا ذكرا
وبالتواجد فاعضض شرع مرسله ... ودع أقاويل اقوام جرت هذرا
ما خالف الشرع مردود وقائله ... بذا روينا عن الهادي لنا خبرا
والدين اكمله المولى فليس به ... نقص فيكمله من نقصه ظهرا
ان الاطبا أساة الدين هم علما ... قد دققوا في معاني السنة النظرا
حامون حوزتها عن كل مؤتفك ... مزين في طريق الله كل فرا
لا توقعن نظرة يوما على عمل ... ان رمت اخلاص اقوام بدوا غررا
اخلاصهم عرف الرفاق زاد علىً ... ان لا يكون لإخلاص له نظرا
لا مثل من حقروا اعمال غيرهم ... واستعظموا كل فعل منهم صدرا

﴿ النساء والحجاب والتعليم ﴾

وردت الينا هذه القصيدة من بغداد في معارضة الشيخ محمد بن الشيخ طاهر الحلي لقصيدة الشيخ معروف الرصافي التي نشرناها في الجزء الثاني

لنعم مؤدب الخفرات بيت ... يقمن به الى يوم الممات

يَقِرْنَ به كواكب في بروج ... ولا يعدونه متبرجات
فما لك يا غيور نظمت شعرا ... نثرت به عقود البينات
تعرّض في نساء القوم قدما ... وتعرض عن أوامر صادعات
فقد قال الإله وقرن أمراً ... يؤدب فيه خير الامهات
فان تفهم سوى المعنى فبين ... وان تزعم له نسخا فهات
نشدتك هل قصدت بذا بيانا ... على حسن اقتدار والتفات
أو استنبطت ذا من فعل خير الـ ... ـنساء العالمات العاملات
فان تك أمنا في العلم بحرا ... تحل لسائليها المشكلات
فقد كان المعلم خير زوج ... بحجرة بيته لا المدرسات
وقد كان الاولى سألوا علوما ... بنيها لا البعيد من العدات
فمن تغدو على القسيس كيما ... تعلم ضرب عود أو كرات
وتأتيها الرجال تنال منها ... فنوناً في منازلها وتاتي
كمن أخذت عن المختار علما ... وعلمت البنين أو البنات
قياس لا ينسم في هواء ... ولا ينساغ في ماء فرات
فهل هذا لعمر أبيك الا ... كتسوية الذين مع اللواتي
وما ذكر كأنثى نص فيها الكتـ ... ـاب لقول احدى العاملات
ونقصان النساء حجى ودينا ... صحيح في مسانيد الرواة
ألام المؤمنين اليك نشكو ... مصيبتنا بهتك المؤمنات
يريد الله ان يغضضن طرفا ... ويدنين الجلابيب ساترات
ولا يبدين زينتهن الا ... لطفل ليس يعلم بالهنات
ويسألن المتاع ورا حجاب ... ويلقين الرجال محجبات
فكيف يليق ان تلقي حجابا ... وتبرز للعيون الشاخصات
وترضى ان تلوح بكشف وجه ... ولو بين الاعفاء الاباة
فتلك مصيبة يا أم منها ... نكاد نغص بالماء الفرات

خطبة خطيبة مصرية على النساء

نشرت الجريدة سلسلة مقالات مفيدة في شؤون النساء والبيوت لكاتبة مصرية مسلمة لقبت نفسها بهذا اللقب (باحثة بالبادية) ثم انها دعت بلسان الجريدة النساء الى سماع خطبة لها في شؤونهن مع الرجال فأجاب دعوتها مئات منهن فاجتمعن يوم جمعة في نادي حزب الامة وسمعن منها هذه الخطبة

أيتها السيدات :

أحييكن تحية أخت شاعرة بما تشعرن ، يؤلمها ما يؤلم مجموعكن ، وتجذل بما تجذلن به ، وأحيي فيكن كرم النفس لتفضلكن بتلبية الدعوة لسماع خطبتي . إن أطلب بها الا الاصلاح ما استطعت فان أصبت كان ما أرجو وان أخطأت فما أنا إلا واحدة منكن والانسان يخطئ ويصيب فمن رأت في خطبتي رأياً مخالفاً لما تعتقد أو أحبت المناقشة في نقطة ما فلتتفضل بابداء ما يعن لها بعد انتهاء كلامي

أيتها السيدات : ليس اجتماعنا اليوم لمجرد التعارف أو لعرض مختلف الأزياء ومستحسن الزينات وانما هو اجتماع جدي أقصد به تقرير رأي لنتبعه ولأبحث فيه عن عيوبنا فنصلحها . فقد عمت الشكوى منا وكثرت كذلك شكوانا من الرجال . فأي الفريقين محق في دعواه ؟ وهل نكتفي من الاصلاح بمجرد التذمر والشكوى؟ لا أظن مريضا طاوع أنينه فشفاه ، يقول المثل العربي « لا دخان بلا نار » ويقول الفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر « ان الآراء التي تظهر لنا خطأ لا يمكن أن تكون خطأ محضاً بل لا بد ان يكون فيها نصيب من الصحة والصواب » اذن فنحن والرجال متساوون في صحة الدعاوي وبطلانها ، كلنا متظلمون وكلنا على حق مما نقول ، بيننا وبين الرجال الآن شبه خصومة وما سببها إلا قلة الوفاق بيننا وبينهم . فهم يعزون هذه الحالة لنقص في تربيتنا وعوج في طريقة تعليمنا ونحن نعزوها لغطرستهم وكبريائهم ، وهذا الاختلاف في إلقاء المسئولية زادنا اختلافاً في العيش وأوسع هوة الجفاء بين الرجال والنساء في مصر وهو أمر لا ننظر اليه بعين

الارتياح وانما نأسف له ونتوجس منه ، لم يخلق الله الرجل والمرأة ليتباغضا ويتنافرا وانما خلقهما الله ليسكن أحدهما الى الآخر فيعمر الكون إذ في ائتلافهما بقاؤه ، ولو انفرد الرجال في بقعة من الأرض ، انعزلت النساء إلى أخرى لانقرض الحزبان وحقت عليهما كلمة الفناء.

تدركن معنى قولي هذا من صعوبة الرد على هذا السؤال : أي الجنسين أصلح للبقاء في الدنيا النساء أم الرجال ؟ فاذا أجابت احداكن : الرجال لانهم يقومون بشاق الاعمال من بناء واختراع وزرع وغيره. لعارضتها بقولي: ولأجل من تتجشم تلك الصعاب ولا نساء يتسلسل منهن النسل لعمار هذا الكون؟ واذا قلنا النساء لانهن مدبرات البيوت وأمهات النشء ؟ لقلت ومن أين يأتي النشء ولا أب له ؟ هذا قياس على نظام الطبيعة الحالي ولا نتوسع بالافتراضات والمتوهمات فقد كان الله قادرا على خلق نظام آخر للتوالد وهو قادر على خلق مثله ولكنا للآن لم نسمع إلا بمثال واحد لهذا الشذوذ هو مثال سيدنا عيسى عليه السلام فالمرأة والرجل للكون كالخبز والماء للجسم أو الشمس والماء للزرع ولو استعاضت احدانا باللبن عن الماء فان اللبن بالتحليل يحتوي الماء. فالكتب السماوية كلها مجمعة على أن أصل البشر من آدم وحواء والقائلون برأي داروين لم ينكروا ضرورة لزوم الذكر والأنثى للتوالد من الحيوانات الأولى التي زعموا انها ارتقت بالتدريج إلى مصاف الانسان ، كذلك الحال في كل جسم حي نام فان النباتات كلها فيها الذكورة والأنوثة والزهرة على لطافتها وصغر حجمها تحتوي شكلين مختلفين من العروق أحدهما لقاح للآخر ، كذلك جعلها الله لينتج منها الحب الذي فيه بقاء النوع وسلط عليه الريح تسفيه إلى الأرض فاذا ما جاده الغيث أو لقي ريا نبت ونما وصار شجراً مما وقع منه ، فنظام التوالد هذا مطرد في كل الأجسام الحية من حيوانات ونبات لا شك فيه البتة واذا راجعنا احصائيات العالم كله وجدنا ان عدد الذكور والأناث فيه يكاد يكون واحدا أو بفرق قليل جدا وهذا دليل على ان الله خلق رجلا لكل امرأة ، هذا بقطع النظر عن الحروب وغيرها مما قد يخل بهذا التوازن الطبيعي الدقيق ، إذن فمحاولة الاعتزال بين الرجال والنساء مستحيلة وعليه فلا فائدة من

هذه الغارات القلمية الشعواء بيننا و بينهم والا وفق ان نسعى للوفاق جهدنا ونزيل سوء التفاهم والتحزب لتحل بدلها الثقة والانصاف ولنبحث أولا في نقط الخلاف

يقولون اننا بتعلمنا نزاحمهم في أشغالهم ونترك أعمالنا التي خلقنا الله لها . فليت شعري ألم يكونوا هم البادئين بمزاحمتنا ، كانت المرأة في العهد السابق تغزل الخيط وتنسج ثيابا لها ولأولادها فاخترعوا آلة الغزل والنسج فأبطلوا عملها من هذا القبيل ، كانت المرأة المتقدمة تغربل القمح وتهرسه وتطحنه على الرحى بيديها ثم تنخله وتعجنه فتهيء منه خبزا فاستنبطوا ما يسمونه (الطابونة) واستخدموا فيها الرجال فأراحونا من ذلك العمل الكثير ولكنهم عطلوا لنا عملا ثانيا ، كانت كل امرأة من السالفات تخيط لنفسها ولأفراد بيتها فتفننوا لنا آلة للخياطة يشتغل في استخراج حديدها وصناعتها الرجال ثم جعلوا منهم خياطين يخيطون لرجالنا ولأولادنا فأدوا لنا بذلك عملا ثالثا ، كنا نكنس حجرنا أو تكنسها الخادمات بمكانس من القش فاستنبطوا آلة الكنس التي يكفي ان يلاحظها خادم صغير فتنظف الرياش والأثاث ، كانت الفقيرات والخادمات يجلبن الماء لبيوتهن أو لبيوت سادتهن فاخترع الرجال القصب (المواسير) والحنفيات تجلب الماء بلا تعب ، فهل ترى عاقلة الماء يجري عند جارتها في أعلى طبقات منزلها وأسفله وتذهب لتملأ من النهر وقد يكون بعيدا ؟ أوهل يعقل ان مدنية ترى خبز (الطابونة) نظيفا طريا لا تتكلف له سوى ثمنه تتركه لتغربل وتعجن وقد تكون ضعيفة البنية لا تتحمل تعب تجهيز القمح وعجنه أو فقيرة لا تستطيع تأجير خدم له أو وحيدة لا مساعدة لها عليه، أظن الرجال لو كانوا محلنا لما فعلوا سوى ما فعلناه وما من امرأة تقوم بهذه الاعمال كلها الا القرويات اللاتي لم يدخل قراهن التمدين ، بلى انهن يستعضن عن الرحى بوابور الطحين و بعضهن عن الملء من البحر (بطلومبات) يضعنها داخل دورهن

ولست أريد من قولي هذا أن أذم الاختراعات المفيدة التي اخترعها الرجال لتسد كثيرا من أعمالنا أو لأقول إنها زائدة عن حاجتنا وانما كان هذا الشرح ضروريا لبيان ان الرجال هم البادئون بالمزاحمة فاذا ما زاحمناهم اليوم في بعض أشغالهم فان الجزاء الحق من جنس العمل

على ان مسألة المزاحمة هـذه ترجع للحرية الشخصية فزيد راق له ان يكون طبيبا وعمرو ارتأى ان يكون تاجرا فهل يصح ان نذهب للطبيب ونقول له لاتحترف هذه الصناعة بل كن تاجرا وهل يمكننا ان نجبر التاجر على ان يصير طبيبا ؟ كلا . فكل له حرية يفعل ما يشاء ولا ضرر ولا ضرار ؛ أو هل يجوز ان يمنع مهندس قديم من يحترف هـذه المهنة من غيره لانه كان يكتسب ربح بلد بأكمله فجاء له هؤلاء المهندسون الجدد يقتسمون ارباحه ؟ ولو جاز ذلك قوة لما صح ان يجوز شرعا وحرية ولما قامت من أجله الشحناء بين الرئيس روزفلت وشركات الاحتكار ، فاذا كان المخترعون والصناع أبطلوا جزءاً كبيرا من أعمالنا فهل نقتل الوقت بالكسل أو نبحث عن عمل يشغلنا ؟ لا غرو اننا نفعل الثاني ، ولما كانت أشغال منزلنا قليلة لا تشغل أكثر من نصف النهار فقد تحتم ان نشغل النصف الآخر بما تميل اليه نفوسنا من طلب العلم وهو ما يريد ان يمنعنا عنه الرجال بحجة اننا نشاركهم في اعمالهم

لا أريد بقولي هذا ان أحث السيدات على ترك الاشتغال بتدبير المنازل وتربية الأولاد إلى الانصراف لتعلم المحاماة والقضاء وادارة القاطرات ، كلاً ولكن اذا وجد منا من تريد الاشتغال بإحدى هـذه المهن فان الحرية الشخصية تقضي بان لا يعارضها المعارضون ، يقولون إن الحمل والولادة مما يجبرنا على ترك الشغل ويتذرعون بذلك الى جعلها حجـة علينا ولكن من النساء من لم تتزوج قط ومنهن العقيمات اللاتي لا ينتابهن حمل ولا ولادة ومنهن من مات زوجها أو طلقها ولم تجد عائلا يقوم أودها ومنهن من يحتاج زوجها لمعونتها ، وقد لا يليق بهؤلاء ان يحترفن الحرف الدنيئة بل ربما يملن الى ان يكن معلمات أو طبيبات حائزات لما يحوزه الرجال من الشهادات ، فهل من العدل ان يمنع مثل هؤلاء عن القيام بما يرينه صالحا لأنفسهن قائما بمعاشهن ؟ على ان الحمل والولادة إذا كانا معطلين لنا عن العمل الخارجي فهما معطلان لنا عن الأعمال البيتية أيضا ، وأي رجل قوي لم يمرض ولم ينقطع عن عمله أحياناً ؟

يقول لنا الرجال ويجزمون انكن خلقتن للبيت ونحن خلقنا لجلب المعاش . فليت شعري أي فرمان صدر بذلك من عند الله ؟ من أين لهم معرفة ذلك والجزم

به ولم يصدر به كتاب ؟ نعم ان الاقتصاد السياسي ليأمر بتوزيع الاعمال ولكن اشتغال أفراد قلائل منا بالعلوم لا يخل ذلك التوزيع وما أظن أصل تقسيم العمل بين الرجال والنساء الا اختياريا بمعنى أن آدم لو كان اختار الطبخ والغسل وحواء السعي وراء القوت لكان ذلك نظاما متبعا الآن ولما أمكن ان يحاجنا الرجال بأنا خلقنا الاعمال البيت فقط وها نحن أولاء لا نزال نرى بعض الاقوام كالبرابرة مثلا يخيط رجالهم الثياب لانفسهم ولافراد بيتهم ويتجشم نساؤهم مشقة الزرع والقلع حتى انهن ليتسلقن النخل لجنى ثمارها . وهاهن نساء الفلاحين والصعايدة يساعدن رجالهن في حرث الارض وزرعها وبعضهم يقمن بأكثر أشغال الفلاحين كالتسميد والدراس وحمل المحصولات ودق السنابل والبراعم (الكيزان) وسوق المواشي ورفع المياه بما يسمونه بالقطوة وغير ذلك من الاعمال التي ربما شاهدها منكن من ذهبت الى الضياع (العزب) ورأت انهن يقدرن عليه تمام القدرة كأشد الرجال ونرى مع ذلك أولادهن أشداء وأصحاء .

فمسألة اختصاص كل فريق بشغل مسألة اصطلاحية لا اجبار فيها . وماضعفنا الآن عن مزاولة الاعمال الشاقة الا نتيجة قلة الممارسة لتلك الاعمال والا فان المرأة الاولى كانت تصارع الرجل شدة وبأساً . أليست المرأة القروية كاختها المدنية؟ فلماذا تفوق الاولى الثانية في الصحة والقوة ؟ هل ترتبن في ان امرأة من المنوفية تصرع أعظم رجل من رجال الغورية لو صارعته ؟ فاذا قال لنا الرجال اننا خلقنا ضعيفات قلنا لا وانما أنتم أضعفتمونا بالمنهج الذي اخترتم ان نسير فيه . حدثتني سيدة عالمة انها في سياحتها بأميركا رأت بعينها هنودها الحمر تتحرك آذانهم من تلقاء نفسها اتجاه الصوت الذي يترقبونه كاذان الخيل والحمير . ذلك نتيجة استعمالهم لها وقد توارثوه أيضا وهم في حاجة اليه لتستمع زئير السباع وعواء الوحوش التي ربما تهاجمهم في فلواتهم كذلك نجد حواس الوحشيين أقوى من حواسنا بكثير فهم يشمون رائحة الوحوش من بعيد أما نحن فلا ولم يكذب من قال ان الوظيفة تكوّن العضو . هؤلاء العميان يعتمدون كثيرا على حاسة السمع بعد فقد حاسة البصر فتقوى فيهم بالتدريج تلك الحاسة الى ان تبلغ غاية قد تعد من الخوارق عندنا فهل بعـد ان استعبدنا الرجال قرونا طوالا حتى خيم على عقولنا الصدأ وعلى أجسامنا الضعف يصح

ان يتهمونا بأنا خلقنا اضعف منهم اجساما وعقولاً ؟ انهم لو انصفوا ولم يتحزبوا لما عيرونا باننا قليلات النبوغ وانه لم يسمع باحدانا غيرت قاعدة في الحساب والهندسة مثلا . وليتفضل أحدهم باختبارنا عما استنبطه من تلك القواعد ؟ اوليست قواعد الحساب هي بعينها من زمن اليونان الاول الى الآن ونظريات الهندسة لم تزل تلك التي كان يعرفها قدماء المصريين والرومان . نحن نعترف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم اعمالهم ولكني لو كنت ركبت المركب مع خريستوف كلومب لما تعذر عليّ انا ايضاً ان اكتشف اميركا . وحقيقة ان النساء لم يخترعن اختراعات عظيمة ولكن كان منهن النابغات في العلوم والسياسة والفنون الجميلة اي فيما سمح لهن بممارسته وبعضهن فقن الرجال في الفروسية والشجاعة كخولة بنت الازور الكندي فقد عجب منها عمر بن الخطاب واعجب باستقتالها في فتوح الشام حينما أرادت تخليص اخيها من اسر الروم ؛ وجان دارك التي قادت جيش الفرنسيس بعد انكساره امام الانكليز فشجعتهم على استمرار القتال واصلت محاربي وطنها حرباً عواناً . ولن أضرب مثلاً بالنساء اللاتي تولين الملك فأحسن سياسته ككاترينا ملكة الروسيا وايزابلا ملكة اسبانيا واليزابت ملكة انكلترا وكليوباتره وشجرة الدر امرأة الملك الصالح وأم طوران شاه التي حكمت مصر فقد يقول معارضونا انه دبره لهن الوزراء وهم رجال على انه لو صح هذا القول في عهد الدستوريين كالملكة فكتوريا مثلا أو ولهلمينا ملكة هولانده الحالية فلا يصح تطبيقه على أيام الحكم المطلق .

اننا الآن في ابتداء القيام بتعليم البنات فقول بعضهم بالاقتصار على هذا وذاك مثبط للهمة ورجوع الى الوراء في حين انه لا خوف من مزاحمتنا لهم الآن لاننا لا نزال في الدور الاول من التعليم ولا تزال عاداتنا الشرقية تثنينا عن الاستمرار على الدرس الكثير فليهنؤا بوظائفهم وما داموا يرون مقاعد مدرسة الحقوق والمهندسخانة والطب والجامعة خالية منا فليقروا عيونا ولينعموا بالا فان ما يتخوفون منه بعيد . واذا فرض واشتاقت احدانا لتكملة معلوماتها في احدى تلك المدارس فانا واثقة انها لن تقلد وظيفة أو تشتغل خارجاً وانما تفعله لاطفاء شوق النفس للعلم أو الشهرة ولما نفعله . فاذا كنا لم نشتغل بالمحاماة ولا بتقلد الوظائف الحكومية أفلا تشغلنا عن تربية النشء

الا قراءة كتاب أو خط جواب ؟ أظن ذلك مستحيلا . على أن الأم مهما تعلمت وبأي حرفة اشتغلت فلن ينسيها ذلك اطفالها أو يفقدها عاطفة الشفقة والأمومة بل بالعكس انها كلما تنورت أدركت مسؤوليتها . ألم ترين الفلاحات والجاهلات يظل يبكي طفل الواحدة منهن ساعات وهي تسمعه ولا تتحرك اليه . فهل ياترى كان شغل هؤلاء أيضاً تحضير القضايا او الاشتغال بالتحرير والقراءة

ولا يغيظني اكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا . اننا لسنا محلا لإشفاقهم وانما نحن اهل لاحترامهم فليستبدلوا هذا بذاك والاشفاق لا يتأتى الا من سليم لعليل او من جليل لحقير فاي الصنفين يعتبروننا؟ تالله انا لنأنف ان نكون احد هذين

قال قائلهم لاتعلموا البنات من الحساب الا القواعد الاربع لانهن لن يحتجن لاكثر منها . فمن أين له اننا لن نودع نقودنا في مصرف أو نبيع وثيقة (كمبيالة) أو يغالطنا وكيل في قياس قطعة أرض ؟ انه اذا ادعى بذلك تفضيل الرجال على النساء في علم التكهن والرجم بالغيب أيضا لقلنا لم تصح هذه الفراسة فقد أظهر الواقع غير ذلك . أما مايذهب اليه من تفضيل لغة عن لغة في التعلم فذلك مالا أفهمه لاني أعتبر اللغات كلها نافعة ولو وجدت من يعلمني البربرية أو الصينية لتعلمتها . اذا كان لا داب اللغة فان الفارسية والالمانية والانكليزية وغيرها ملأى بذلك . أما تعليم تدبير المنزل وتربية الاطفال فيجب ان نشكر للدكتور نظمي اهتمامه بهما وحثه عليهما

أيتها السيدات : العلم منير للعقل على أي حال سواء عمل به أولم يعمل فماذا يضرنا اننا لا نشتغل بمسح الكرة الارضية ولا بالسياحة ولكن نعلم مواقع البلاد وأبعادها . ان الطبيب يتعلم الجبر في تلمذته ولكنه لا يشتغل به في صناعته . كلنا نسمع بأخبار السياسة والرجال يشتغلون بها ولكنهم لا يحدثون أنفسهم بأن يولوا مكان ذلك الملك المقتول أو السلطان المعزول فهل نقول لهم اذا كنتم لن تتملكوا في تلك الامم فلا يجوز لكم ان تعرفوا سياستها وأخبارها . نسمع في هذه الايام ان جيش الدستور في تركيا زحف من سلانيك الى الاستانة وان حصن اسكودار تأخر في التسليم، ألا يحسن بنا ان نعرف من (الجغرافيا) مايهيؤنا لفهم تلك الاخبار بعد مالا كتها أفواه الكبار والصغار ؟ . لولم يكن للعلم لذة في ذاته لما اشتغل بتحصيله الملوك وهم واثقون انهم لن

يكونوا مهندسين ولا بحارة ولا سائقي قاطرات . وهل تفضل السيدة التي تعرف ان تطبخ البطاطس وتنسق الازهار فقط أم التي تعرفهما ايضاً ولكنها تعلم متى يؤكل البطاطس وهل يوافق زوجها المريض بالسكر او جسمها السمين الذي تريد تضميره وهل وجود اصص (قصارى) الزرع في حجرتها ليلا صالح لرئتيها الضعيفتين ام مضر بهما؟ فهذه تعرف تدبير المنزل وتلك تعلمه ولكن زيادة واحدة بعلم النبات تحفظ لها صحتها وصحة عيالها من التلف فضلا عما تشعر به من السرور الناشيء عن العلم . نحن نعلم ان نقص تربيتنا الاولى وتربية اخواننا الشبان لاشك نتيجة جهل امهاتنا فهل نعرف الداء ولا نداويه وقد قال الحديث الشريف « لايلدغ المؤمن من حجر مرتين » .

ان المدارس مهما اجتهدت في تثقيف عقول النشء وتهذيبها فان المنزل له تأثير خاص على الاطفال واذا شعر تلميذ أن امه عالمة اولها نصيب من علم فانه يسعى جهده ليريها انه اهل لحبها وتقديرها اياه فيجتهد ليحفظ سلسلة العلم لتكون الصلة شديدة بينه و بينها . فتعلمنا الحالي ناقص يجب ان يزاد عليه لا ان ينقص منه

أما ماأشكل على الرجال من علة فسادنا فهو ما ينسبونه خطأ للتعلم وحقهم ان ينسبوه للتربية . يرى كثيرون ان العلم يهذب ولكني لاأعتقد ذلك بل اصرح ان العلم والتربية منفصلان تمام الانفصال الا في علوم الدين فقط . ودليلي على ذلك ان كثيرين من المبرزين والمبرزات في العلوم لاخلاق لهم . وان الكتاب الواحد قد يدرسه معلمان مختلفان في فرقتين كل على حدة فتتعلم الفرقتان الكتاب ولكن نجد أثر الهمة وعلو النفس في واحدة ولا نراه في الثانية فهذا ناشيء من تأثير روح المعلم في تلاميذه لامن العلم والا فلو كان من العلم لتساوت الفرقتان لان الكتاب واحد والعلم لا يختلف .

يظن بعض الناس ان احسن التربية تقبيل ايدي الزائرات وتكتيف اليدين خضوعا ولكن ما ابعد هذا عن الحقيقة . التربية الحسنة هي التي تؤهل الشخص لان يدرك نفسه من سواه وما احزم من قال « ما هلك امرؤ عرف قدر نفسه » .

التربية الحسنة هي التي تعود الانسان من صغره احترام الغير اذا استحق الاحترام حتى ولو كان عدواً . فالتعلم لم يفسد اخلاق الفتيات وانما هي التربية الناقصة . تلك التربية

في الحقيقة يجب ان تكون من اعمال البيت لا المدرسة ولما كانت بيوتنا لم تبلغ الدرجة التي تؤهلها لاحسان تربية الاطفال فقد وجب علينا ان نضاعف مجهوداتنا لاصلاح شأن انفسنا أولا ثم إصلاح النشء ، ولا يتم ذلك في لحظة كما قد يتوهم ، ومن الظلم ان نلقي مسئولية الفساد كلها على المدارس فان المدارس لها تأثير في التربية ولكن ليس عليها كل الذنب ، بل العيب في الأسر

من عيوبنا نحن النساء اننا لا نكترث كثيراً بالنصح فاذا قامت سيدة تريد تقرير مبدأ أو إظهار حقيقة قال أكثرنا ما لها ولهذا أو ان كانت تغار فلتعمل مثلنا وغير ذلك من الألفاظ

ومن عيوبنا السخرية والتهكم فكثير منا تنتقد من تصادفه وتعيب عليه لا لعيب حقيقي يستدعي الانتقاد ولكن لو لوع بالانتقاد في ذاته فربما انتقدت في ساعة واحدة اثنين على خصلتين متضادتين ولا يمكن ان يكون الشيء ونقيضه منتقدا فاذا رأت امرأة سمينة قالت انها (كالبرميل) وكيف تستطيع الحركة ، وان بصرت بأخرى رفيعة قالت انها كعود الحديد تكسر يدها على ساقيها ، واذا وجدت سيدة قليلة الكلام قالت انها متكبرة وان سمعت أخرى تتكلم كثيرا عابت عليها وقالت انها تتصنع الخفة

ومن عيوبنا الصلف والاغترار ، كنت وأنا طفلة أحفظ قصيدة سمعتها ولكني كنت أخلط فيها وألحن كثيرا غير عالمة بالطبع ما كنت واقعة فيه من الخطأ وكانت زميلاتي الصغيرات لا يعرفن القصائد ولم يسمعن بها فكنت إذا قلتها أمامهن عدننها غريبة عليهن ووسمنني بالذكاء فما لبثت ان اغتررت بقصيدتي وصرت أفتخر بها حتى اذا ألقيتها ذات يوم أمام والدي أراني خطئي و بين لي انها كانت مجموعة نتف من هنا ومن هناك لا ارتباط لاجزائها ولا قافية لها وأعطاني كتابا فيه شعر فأدهشني أكثر لأني كنت أحسب أن لا شعر في الدنيا إلا تلك النتف التي كنت استظهرتها فاذا كان تركني ولم يبين لي خطإي فربما كنت استرسلت في الغرور ، والانسان مهما بلغ من العلم فانه لا يزال يقبل الزيادة فيه ومهما كبر فيما يعرف فإنه

لا يزال طفلا ازاء ما يجهل كالبحر تستعظم منه ما رأيت وما لم تره أعظم، وكيف أصلح خطئي إذا كنت لا أشعر به ولا أقبل نصيحة من يراه

يشكو الرجال من تبرجنا في الطرقات وحق لهم لاننا خرجنا فيه عن المألوف والجائز، نحن نزعم اننا نحتجب ولكننا ما بلغنا حجابا ولا بلغنا سفورا، لا أريد ان نرجع لحجاب جداتنا ذلك الذي يصح أن يسمى وأدا لا حجابا فقد كانت السيدة تقضي عمرها بين حوائط منزلها لا تسير في الطريق إلا وهي محمولة على الاعناق ولا أريد سفور الأوربيات واختلاطهن بالرجال فانه مضر بنا، ان نصف ازارنا السفلي اليوم مرْط (جونيله) لا يتفق مع كلمة حجاب ولا مع معناها ولا مع الحكمة منه إما نصفه العلوي فهو كالعمر كلما تقدم قصر، كان الحجاب الأول قطعة واحدة تلتف بها المرأة فلا يظهر من هيئتها شيء ثم طرأ عليه تكمش بسيط ولكنه كان واسعا يكفي لستر الجسم ثم تفننا فيه فصرنا نضيق وسطه ونقصر رأسه وأخيرا فصل له كمان وصار يلتصق بالظهور ولا يلبس الا مع المشد ويربط من أطرافه الى الوراء حتى تظهر منه الآذان ونصف الرأس أو أكثره فتبين الورود والرياحين والاشرطة المزين بها الرأس، أما البرقع فأشف من قلب الطفل، ما الغرض من الإزار؟ الغرض منه ستر الجسم والملابس والزينة اجتناب الزينة التي نهى الله عنها فهل يتفق هذا مع المئزر الحالي وقد أصبح (فستانا) يظهر النهدين والخصر والاعجاز فضلا عن ان بعض السيدات ابتدأن يلبسنه أزرق و بنيا وأحمر، الأولى أن لا نسميه مئزرا بل (فستانا بطرطور) فانه في الحقيقة كذلك، وعندي أن الخروج بدونه أحشم لانه على الأقل لا يسترعي النظر، على ان مسألة الحجاب قد اختلف فيها الأئمة فاذا كان تفنن بعضنا هذا يراد به التحيل على الخروج بلا ازار فليس عليهن فيه من حرج اذا كشفن وجوههن بشرط ستر الشعر والجسم وأرى ان أوفق لباس للخارج هو تغطية الرأس بخمار وسدل رداء أشبه (بالبالطو) المسمى (Cache poussive) عند الفرنجة على الجسم الى الكعب ويكون طويل الكمين الى المعصمين وهذا اللباس مستعمل في الاستانة كما روت لي إحدى السيدات للخروج الى المحلات القريبة، ولكن من يضمن لنا اننا لا نقصره ونضيقه حتى نمسخه (فستانا)

آخر؟ وحينئذ تضيق بنا حيل الإصلاح، لو اننا متربيات من صغرنا على السفور ولو ان رجالنا مستعدون له لا قررت بالسفور لمن تهواه ولكن مجموع الأمة غير مستعد له للان وان كان بعض نسائنا العاقلات لا يخشى من اختلاطهن بالرجال الا اننا يجب ان نتحفظ على غير العاقلات أيضا لاننا سرعان ما نقلد وقل ان نبحث عن حقيقتنا فيه، ألا ترين ان تيجان الماس أصلها الملكات والأميرات، فأصبحت الآن يلبسها المغنيات والراقصات، ولعل الشعراء يعدلون عن كنايتهم الملكات بربة التاج فقد أصبحت تلك الكناية شاملة لسواهن،

على ان تفننا هذا في المئزر الحالي هو في ذاته تقليد للأوروبيات ولكننا فقناهن في التبرج فان المرأة منهن تلبس أبسط ما عندها عند ما تكون في الطريق وتلبس ما شاءت في البيت أو في السهرات ولكننا بخلاف ذلك نظل امام أزواجنا بجلباب بسيط جدا ثم اذا خرجت احدانا عمدت لأحسن ثيابها فلبسته وأثقلت نفسها بالمصوغات وأفرغت عليها زجاجات العطر الطيب، ويا ليتها تقتصر على ذلك بل تجعل من وجهها حائطا تنقشه بالدهان، وتصبغه بمختلف الألوان، وتتكسر في مشيتها كأنها الخيزران، فتفتن المارة أو على الاقل يتظاهرون لها بانها فتنتهم، اني واثقة ان أغلب هؤلاء المتبرجات يفعلن ما يفعلن وهن خاليات الذهن من سوء القصد ولكن من أين للرائي ان يتبين حسن نيتهن ومظهرهن لا يدل عليه؟

حجابنا يجب أن لا يحرمنا من استنشاق الهواء النقي ولا من شراء ما يلزمنا إذا لم يقدر آخر على شرائه لنا ويجب أن لا يمنعنا عن تلقي العلم ولا ان يكون مساعدا على فساد صحتنا أو سببا في تلفها، فاذا لم أجد في بيتي حديقة واسعة أو رحبة طلقة الهواء وكنت فرغت من العمل وأحسست من نفسي بملل أو كسل فلم لا آخذ نصيبي من هواء الضواحي المنعش الذي خلقه الله للكل ولم يحبسه في صناديق مكتوب عليها «خصوصي للرجال»، وانما يجب ان نختار الاعتدال، وان لا نخرج للنزهة وحدنا اجتنابا للقيل والقال، وان لا نمشي الهوينا وان لا نلتفت يمنة ويسرة، واذا لم يكن أبي أو زوجي يحسن اختيار ما أشتهيه من الملابس غير الموجود لها عينة يمكن جلبها للمنزل فلم لا يأخذني معه لاختيار ما يلزمني أو يدعني أشتري ما أريد؟

واذا لم أجد من يحسن تعليمي الا رجلا فهل أختار الجهل أم السفور امام ذلك الرجل مع اخواتي من المتعلمات ، على انه ليس هناك ما يجبرني على السفور بل انه يكتفي التقنع والاستفادة منه وهل نحن في اسلامنا أعرق أصلا من السيدة نفيسة والسيدة سكينة رضي الله عنها وقد كانتا تجتمعان بالعلماء والشعراء ؟ واذا اضطرني المرض لاستشارة طبيب لا يمكن إحدى النساء القيام بعمله فهل أترك نفسي والمرض وقد يكون خفيفا فيعضل بالاهمال أم أستشفيه فيشفيني ؟

ان حبس المصرية السالفة تفريط ، وحرية الغربيين الآن أفراط ، ولا أجد أصلح لان تقتبس منه إلا حالة المرأة التركية الحاضرة فانها وسط بين الطرفين ولم تخرج عما يجيزه الإسلام وهي مع ذلك مثال الجد والاحتشام ،

بلغني ان بعض كبرائنا (أريد كبراء الوظائف) يعلمون بناتهم الرقص الافرنجي والتمثيل وهما أمران أحلاهما مر وأعدهما تطرفاً ممقوتا واستماتة في تقليد الغربيين ، لان العادة يجب ان لا تغير إلا إذا كانت مضرة والانماط الغربية لا يقبلها قوم بينهم إلا اذا رأوا ضرورتها وصلاحيتها فأي صلاح لنا من مخاصرة الرجال والنساء ورقصهم معا ؟ أو ظهور بناتنا أمام الرائين (المتفرجين) بصدور عارية يمثلن أدوار الحب والخلاعة على (المرسح) ؟ ان ذلك مناف للدين الإسلامي هادم للفضيلة مدخل لضار العادات، بيننا فعلينا أن نحارب به ما استطعنا ونظهر احتقارنا لمن تفعله من المسلمات القليلات اللاتي إذا شجعناهن بسكوتنا فإنهن لا يلبثن ان يعدين الغير منه ،

وعلى ذكر الحجاب والعادات أذكركن بمسألة تئن منها السعادة وتكاد تندثر في بيوتنا تلك هي مسألة الخطبة والزواج. يرى أكثر عقلاء الأمة ان لا بد للخطيبين من الاجتماع والتكلم قبل الزواج وهو رأي سديد لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة يفعلون غيره وهو متبع عند جميع الامم بأسرها والامة المصرية أيضا الا في طبقة واحدة هي طبقة أهل المدن اذا ائتلف العروسان عندنا فهو من محاسن الاتفاق (الصدف) . وكيف يمكن الجمع بين شخصين لم يرَ أحدهما الآخر ولم يختبره على ان يقضيا العمر معاً ؟ ان احدانا اذا اتفق ورأت عرضا في أحدى زياراتها سيدة استثقلت ريحها فانها لا تصبر على مجالستها فضلا عن النظر اليها وتسرع

بالتملص منها فكيف تصبر على مضض الحياة اذا استثقلت ايضا بعلها وهي لم يمكنها التصبر على ثقل الغريبة لحظة واحدة في غير بيتها ؟ يشير قوم باتباع خطة الغربيين من وجوب معاشرة الخطيبين زمنا ليتمكن كلاهما من استطلاع طلع صاحبه ولكني أصرح باستهجان هذه العادة واعتقد أنها مبنية على وهم لا على أساس متين. اذ من نتائج معاشرة المتشابهين الالفة ومن الالفة الحب . واذا أحب الانسان شخصاً لم يرعوِ به ولم يمكنه لحص أخلاقه فيتزوج العروسان حينذاك على حب باطل وعلى غير هدى فلا يلبثان ان يتنازعا وتفشل ريحهما . انما الطريقة التي أود عرضها على مسامعكن هي ان يتراءى العروسان ويتكلما بعد خطبة النساء المتبعة وقبل العقد ويجب ان لا تظهر العروس الا مع أحد محارمها وتكون في أبسط لباسها . قد يعترض على هذا الاقتراح بأن اجتماعا واحدا أو اثنين أو اكثر قليلا لا تكفي بان يقف الواحد على أخلاق الآخر ولكنها على أي حال كافية لان يشعر الواحد باجتذاب دم الآخر له أولا على ان من صدقت فراسته يمكنه تبين الاخلاق من العينين ومن الحركات والسكنات فيبين ان كان صاحبه متصنعاً أو طائشا أو سكينا وغير ذلك . أما معرفة ماضي العروسين وبقية أحوالها فيجب ان يسأل عنها من المعارف والجيران والخدم وغيرهم .وخوفاً من ان يتخذ الشبان فاسدو الاخلاق تلك الطريقة ذريعة لرؤية بنات الناس من غير قصد الزواج يجب على الولي ان يتحرى سلوك الخاطب ويتبين الجد من كلامه قبل السماح له برؤية ابنته أو موكلته . لربما تستصعبن قبول هذه الفكرة والعمل بها ولكن كل شيء يخال لنا صعباً عند الابتداء فيه واذا مارسناه سهل وذل على اننا اذا كنا نعتقد بفساد طريقتنا القديمة ونتألم منها ونحجم عن الاقدام على ما نراه مفيدا لنا مقللا لحوادث الشقاء في زواجنا فما أشبه يومنا بالامس وما أشد اثمنا وما ابعدنا عن قول الشاعر

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... حياة لنفسي مثل ان أتقدما

وما الفائدة من تعلمنا اذا كنا لا نستطيع تغيير عادة مضرة لا هي من الدين ولا من الحكمة وقد رأينا رأى العين سعادتنا العائلية مزعزعة تكاد تقتلعها صرصر تلك العادة العاتية ؟ وما مثلنا في ذلك الا كمثل رجل غرق واشرف على التلف فلما بصر

بقطعة خشب يمكنه النجاة بالتعلق بها أبى لئلا يكون بها مسمار فيجرح أصبعه فابتلعته اللجة وقد كان يمكنه النجاة لولم يقدر الخوف من المسمار وما أدراه ان ظنه وتخوفه في محلها ولماذا نأبى ان يرانا خاطب بحجة اننا ربما لا نعجبه أو ليست مضرة رغبتنا عنه أو رغبته عنا أخف بكثير من تعاقدنا على الزواج قبل الرؤية والانسان لا يفعله في شراء دابة فكيف يفعله في اختيار قرين .

ان امتناعنا عن ان يرانا الخاطبون صرف كثيراً منهم الى الاوربيات فيتحمل احدهم ان يتزوج من خادمة أو عاملة يعتقد انه سيهنأ معها على ان يقترن ببنت الباشا أو البك المخبأة في (علبة البخت) وليعذرني صديقاتي الغربيات على هذا القول فاني لا أريد به اهانة لهن وانماهن يعرفن قبلنا أن امرأة ذات حسب مرغوبة في شبان قومها لا تتركهم الى فتى من غير دينها وجنسها فضلا عن ان كل بلاد لها مدنيتها الخاصة بها وتقرير أحوال مدنيتنا لا يقتضي اننا نعيب مدنية الآخرين . قسما بالله لو جاء البارون روتشيلد أو المستركار ينجي الى ابنة كاتب عندنا مرتبه أربعة جنيهات شهريا (يخطبها) لما رد بغير الخيبة فاذا لم نعمل على تدارك هذا الخلل في مجتمعنا لم نلبث ان يحتلنا نساء الغرب ايضا فنقع في احتلالين احتلال الرجال واحتلال النساء وثانيهما شر من أولهما لان الاول اذا كان حصل على غير رضانا فإن الثاني جلبناه بايدينا والنساء شديدات التعلق بالاقارب فلا يبعد ان تلم كل زوجة منهن اخاها واباها وابن خالتها وصاحبها حولها فيسدون ما بقي لرجالنا من موارد الرزق فنخرج واياهم من بلدنا بخفي حنين وان يشأ يذهبكم ويأت بخلق كثير (*

بعض رجالنا يفضلون عنا الاوربيات لتدبيرهن حقيقة ان الفقيرة منهن ترتدي بلباس نظيف مرتب وتزين بيتها على قلة اثاثه نظيفا مرتبا ، وطعامها لذيذاً متنوعاً ، وأولادها مؤدبين اصحاء ، ومع ذلك نفقاتها قليلة . نرى كل يوم نساء ضباط الانكليز ماشيات في الطرق بلباس من التيل الابيض البسيط وأولادهن لابسين القبعات الجميلة والاحذية البيضاء ومنظرهم يأخذ بالالباب لا يقاربهم في شكلهم عندنا الا أولاد (الذوات) الذين تخدمهم المربيات (والدادات) أما سائر أطفالنا فهم في حالة يرثى

*) لعلها أرادت ان تتمثل بالآية « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »

لها من الاهمال . ولكن هل من تتزوج منهن مصريا تدبر له كما كانت تفعل لو كان زوجها أوربيا ؟ كلا . والحس يؤيد ما أقول . فان اغلب رجالنا الذين تزوجوا منهن يئنون ويصرخون من تبذيرهن واتباعهن اهواءهن . فالمرأة الغربية تعتقد انها من جنس أرقى من المصري فاذا تزوجته ظلت رئيسة له يعمل باشارتها وحسبت انه ملزم بالصرف على ما تشتهي وجلبه لها حتى ولو كان في الصين فهي مدبرة مع الغربي مسرفة مع المصري واذن ضاعت افضليتها من هذا القبيل . و بعضهم يدعي انه يفضلها لانه يمكنها الخروج معه في نزهه وروحاته وغدواته ولا أظن الرجل يحب أن تراقبه زوجته وتلزمه لزوم الظل فإنه داعية للملل على أنه لو كان هذا الرأي صحيحا لما تأخرا كثرنا عن تنفيذه وأنا أول من تفعله . ولا اجد للمرأة الغربية التي تقبل الزواج من مصري ما يفوقها علينا الا أمراً واحدا لا أرانا نحسنه لاننا لم نمارسه ولا أريد ان نمارسه ذلك انها ماهرة في اجتذاب القلوب وفي نصب الشباك للرجال فاذا صادت بحركاتها وغنة صوتها مصرياً فليعلم انها دربت على ذلك في عشرين غربيا قبله . فهل يقبل وفيه غيرة الشرقيين وانفتهم أن تطعمه طبيخا حقيقة لذيذا ولكنها انضجته على نار غيره وكرع فيه قبله خلق كثير ؟

و بفرض ان الزوجة الشرقية الراقية نقصت قليلا عن أختها الغربية فلماذا لا يرشدها بعلها الى مواضع خطئها بالرفق ويريها ما يجب وما لا يجب وان أحب شيء عند الزوجين المتحدين أن يبذل أحدهما وسعه ليرضي الآخر . فانصراف شباننا لتلقي العلوم الحديثة بأوروبا يجب أن يكون لخير البلاد لا لشرها فكما يتعلمون لنفع انفسهم يجب ان يقرنوا ذلك النفع بنفع مواطنيهم أيضاً والا فلو اتبع كل واحد يرى عيبا في صاحبه طريقة هؤلاء الشبان لما كان لاحد خل « ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها » فواجبهم الوطني يقضي عليهم بأن يدخلوا كل ما يرونه صالحا في بلادهم مع الاستغناء عن الأجنبي على قدر الامكان فصانع الحرير الوطني اذا رأى معامل أوربا وسرعتها وجب أن يشتري الآلات اللازمة لسرعة انجاز العمل لا أن يدخل تلك الصناعة بعينها ويقضي على صناعته الجميلة فيكون قد اقتبس شكلا وأبطل آخر فنحن اذا اتبعنا كل شيء غربي قضينا على مدنيتنا والامة التي لا مدنية لها ضعيفة هالكة لا محالة . فشباننا يدعون انهم

يأتون بنساء اوربا لانهم رأوهن أرقى من نساء مصر اذن يجب ان يحضروا لنا تلاميذ أوربا لانهم أرقى من تلاميذ مصر وعمال اوربا لانهم أرقى من عمال مصر لان النظرية واحدة فماذا تكون الحال لو تم ذلك ؟ وهل اذا سافرت زوجة مصرية لأوربا ورأت الاطفال هناك أجمل بشرة واحلى منظرا من مثلهم في مصر أيصح ان تترك اولادها وتأتي بغيرهم من الغربيين أم تجتهد لتجميلهم وتقريبهم من الشكل الذي أعجبت به ؟ واذا كانت أحط فتاة غربية تتزوج مصرياً يتبرأ منها أهلها أفترضي نحن عنها وقد شغلت محل فتاة منا وصار زوجها مثالا لغيره من الشبان ؟ أنا أول من يعجب بنشاط المرأة الغربية وإقدامها وأول من يحترم من تستحق الاحترام منهن ولكن يجب أن لاينسينا احترام الغير منفعة الوطن والمصلحة العامة فوق الاعجاب . وانا في كثير من أمورنا نسير وفق مايراه الرجال فليرونا مايحبون وكلنا مستعدات للسير بمقتضاه بشرط أن لايكون ظلما لنا ولا اجحافا بحقوقنا .

يؤلمني ان درجة احترام الرجال لنا ليست بالدرجة التي نحب واذا بحثنا وجدنا اننا نحن اللاتي وضعنا أنفسنا في هذا الموضع غير الحسن لان الانسان ينزله الناس في المنزلة التي يختارها هو لنفسه ويسير عليها كما قال زهير «ومن لم يكرم نفسه لايكرم» لايكرم المرء نفسه بأن يقول سعادتي وحضرتي أو البك والباشا على نفسه كبعض الجهلاء الذين تصلهم رتب جديدة وانما لايستهين بذاته فيهينها ويشعر عن نفسه بالضعة فيهينه الغير أيضا فهل نحن نضع أنفسنا في الموضع اللائق بها ؟ كلا . يحكي ان أحد الخلفاء بينما كان يروض نفسه في الطريق اذ سمع صوتا في خربة فاتجه نحوه فوجد فيها زبالا يقول

وأكرم نفسي انني ان أهنتها   وحقك لم تكرم على أحد بعدي

فقال له وأي اكرام لنفسك وأنت تحمل التراب والاقذار؟ قال نعم افعل ذلك لاكفي نفسي مهانة السؤال من مثلك . ان معتقداتنا وأفعالنا كانت سببا عظيما في قلة احترام الرجل ايانا . أيعتبر رجل عاقل أمرأة تعتقد في السحر والشعوذة وكرامة الاموات وتجعل من الدلالات والبلانات بل ومن الشياطين عليها سلطانا ؟ أيحترم المرأة ولا حديث لها الا (فساتين) جارتها ومصوغات صاحبتها وجهاز فلانة وأخبار

علانة ؟ هذا فضلا عما انطبع في ذهنه من أن المرأة أضعف منه وأقل ذكاء . ان تهاوننا في هذه النقطة اعتراف بأن حالتنا مرضية فهل هي كذلك ؟ واذا لم تكن فماذا يرقينا في أعين الرجال ؟ يرقينا حسن التربية والتعلم الصحيح فاذا حسنت تربيتنا وتعلمنا علما حقا لاقشورا ببعض اللغات الاجنبية و (دوري ص فاسول) والعلم يشمل أيضا تدبير المنزل والصحة وتربية الاطفال . واذا تركنا الخلاعة في الطريق جانبا واذا برهنا لازواجنا بحسن سلوكنا وقيامنا بواجباتنا حق القيام انا آدميون نشعر وان لنا نفوسا لاتقل عن نفوسهم فلا نسمح لهم بحال من الاحوال بايلام شعورنا أو بالاستهانة بنا . اذا فعلنا كل ذلك فمن أين يجد الرجل العادل طريقا لاحتقارنا؟ أما غير العادل فكان حريا بنا ان لاتقبل الزواج منه .

يرقينا أن نطرح الكسل أرضاً فان عمل اكثرنا في المنزل هو القعود على (الشلته) كل النهار أو الخروج للزيارات كأن رد فعل القعود أدار لولب أرجلنا ونفخ في شراع جبرنا فلم نقو على ضبط جماحنا . والتي تعرف القراءة منا ففيم تقضي أوقات فراغها ؟ في قراءة الروايات فقط فهلا قرأت قانون الصحة أو بعض الكتب المفيدة فتنتفع وتنفع ؟

ان انغماسنا في الكسل أو الترف أدى الى ضعف اجسامنا وشحوبنا فيجب ان نبحث لنا عن عمل نزاوله في منازلنا . والمتأمل يرى لاول نظرة ان الطبقات العاملة هي الاقوى صحة والاكثر نشاطاً والانجب نسلا . ألا ترين الى اولاد الطبقة الوسطى والسفلى فانهم كلهم تقريباً أصحاء الجسم أقوياء البنية أما أولاد (الذوات) فأكثرهم مرضى أو نحفاء يتأثرون لاقل العوارض مع مايبذل له آباؤهم من الاعتناء بهم بعكس أولاد الطبقة الدنيا مثلا فانهم في اهمال شديد من والديهم . العمل يخرج الفضلات الزائدة في الدم ويقوي العضل ويبعث على النشاط والطبقة أو الامة العاملة يزداد نسلها فتعتز بأبنائها وأن الامة الالمانية لشاهد حسي على ماأقول فان التعداد يظهر ان النسل هناك يزداد بسرعة هائلة حتى ضاق رحب ألمانيا بأهلها فأخذوا يبحثون عن أراض يستعمرونها ليصرفوا فيها الزائد من السكان والذين زاروا أوربا أخبروا ان أهل تلك البلد يجدون نشطون رجالا ونساء بعكس المرأة الفرنسية فان ترفها الزائد كان سبباً في قلة نسلها فضلا عن

انصراف كثير من تلك الامة عن الزواج وقد بح صوت الاقتصاديين والاجتماعيين في النداء على مواطنيهم بالاعتدال واتباع الطريق القويم

لاحظت وأنا في البادية ان بين نساء البدو ورجالهم كثيرا من العجائز ممن بلغوا الثمانين والمائة وقد رأى معظمهم أربعة أعقاب من ذريته مع اني لم أرى في القاهرة ولا في المدن الاخرى مايشبه ذلك. ولا شك ان هذا نتيجة عيشتهم الطبيعية واعتدالهم فانهم كلهم مبكرون في كل شيء : في الاستيقاظ وفي النوم وفي تناول الاغذية وكلهم عاملون ولم أر بينهم امرأة واحدة حتى من نساء أغنيائهم تقضي النهار بالكسل كما تقضيه نحن فاذا كان الفلاسفة والاطباء يبحثون عن اكسير الحياة فها أنا قد اكتشفته : هو العمل والاعتدال في المعيشة أو العيش الطبيعي • ولعل في هذا القدر عن المرأة كفاية اليوم

بقي علينا ان نبين الطريق العملي الذي يجب أن نسير عليه ولو كان لي حق التشريع لاصدرت اللائحة الآتية :

(المادة الاولى) تعليم البنات الدين الصحيح أي تعاليم القرآن والسنة الصحيحة

(المادة الثانية) تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي وجعل التعليم الاولى اجبارياً في كل الطبقات

(المادة الثالثة) تعليمهن التدبير المنزلي علما وعملا وقانون الصحة وتربية الاطفال والاسعافات الوقتية في الطب

(المادة الرابعة) تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله وفن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء في مصر

(المادة الخامسة) اطلاق الحرية في تعلم غير ذلك من العلوم الراقية لمن تريد

(المادة السادسة) تعويد البنات من صغرهن الصدق والجد في العمل والصبر وغير ذلك من الفضائل

(المادة السابعة) اتباع الطريقة الشرعية في الخطبة فلا يتزوج اثنان قبل ان يجتمعا بحضور محرم

(المادة الثامنة) اتباع عادة نساء الاتراك في الاستانة في الحجاب والخروج

(المادة التاسعة) المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغريب من الاشياء والناس بقدر الامكان

(المادة العاشرة) على اخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا

(المنار) نرجيء رأينا في هذه الخطبة الى الجزء السادس ولكن لا نرجيء الثناء على الخطيبة التي كانت في هذا العصر أول مذكرة لنا بخطيبات سلفنا من الصحابيات فمن دونهن

باب المناظرة والمراسلة

﴿ رد الشبهات على النسخ وكون السنة من الدين — لليافعي ﴾

٤

بحث احاديث الآحاد وهل هي من اصول الدين

قال الفاضل حفظه الله : الكلمة الرابعة بيان أسباب ان أحاديث الآحاد لا تفيد اليقين • ونحن نقول هذه دعوى قد سبقه بها كثير ممن لم يمد غوره في طلب هذه المسئلة وكان الأجدر بهؤلاء الباحثين ان يبحثوا عن جرى الانسان النظري الطبيعي اهو مفطور على الصدق والتصديق ام على الكذب والتكذيب ؟

ان من امعن النظر وحققه وجرب الواقع ومحصه يرى ان الانسان مجبول على قول الصدق ومفطور على تصديق كل ماسمع • هذه هي حالته الطبيعية لما نرى ان الصغار الذين هم في حالة السذاجة وعلى الجرى الفطري الطبيعي الذين لم تعلمهم الحوادث والطوارئ والاحوال المكتسبة لا يكادون يكذبون خبرا ولا يكذبون في خبر • نعم قد نرى من بعضهم في بعض الاحيان ما يشوش هذا الخلق الطاهر كالذهول والنسيان ، لكنا إذا اعتنينا بهذه النكتة السوداء المكدرة لصفاء هذا المجراء الطاهر المستقيم نرى ان ذلك مرض من الأمراض العارضة المختلفة باختلاف أسبابها و باختلاف المتأثر والقابل ، فالنسيان باقسامه قد يظن بعض الناس انه

لازم طبيعي للبشر وليس الأمر كذلك — وانما هو مرض أو شبيه بالمرض — ويصح ان يقال ان كل ما انتقش في الحافظة لا يزول ويمحى بالكلية وانما إذا صرفت همة الانسان وقصده الشواغل فهو يذهل عن بعض ما انتقش في حفظه فاذا استعجل وترك التفتيش عما في هذه الخزانة المحكمة المصونة ولم يميز ما يأخذ منها فربما ركبت له هذه الحركة الفكرية الخفيفة الغير المنتظمة صورة بدل صورة أو صورة مركبة مما في هذه الخزانة لما قدمنا — أو لانه ضعف أخذه لها حين حفظها لضعف قصده ونحوه وحينئذ إذا أراد ان يخبر عن ذلك وقع في خبره الخلل . ودواء ذلك صدق القصد ابتداء واستمرارا وانتهاء أي وحينما يريد ان يحدث بذلك . وذلك يكون بالمراجعة والمذاكرة مع من يشاركه في ذلك وعلى الأقل بالرجوع الى نحو كتاب دفعا للطوارئ التي تتناوبه وتشوش استمرار شعوره بما حفظ . يوضح ذلك ان الانسان كثيراً ما يتذكر ما نسيه والوجدان شاهد ذلك . وكما ان الذهول يكون فيما حفظه الانسان كذلك يكون فيما يتلقاه ويشاهده في الخارج والواقع . وانتقاش الأشياء في الحفظ يختلف قوة وضعفا باختلاف الاستعداد والتوجه وقوة الاكتساب حين الأخذ . فظهر بذلك ان النسيان ليس بوصف ذاتي لكل انسان لا ينفك عنه إذ لو كان كذلك لم نحفظ شيئاً لامتناع قيام الشيء الذاتي ونقيضه بمحل واحد فالقوة التي نحفظ بها ليست هي قوة النسيان ولا سببه وانما النسيان ذهولنا عن تمييز ما حفظناه لسبب مما — مما قدمناه — واذا كان الصدق والتصديق هو أصل الفطرة فما يعارضه من نسيان وكذب فانما يكون لأسباب طوارئ وعوارض لمن انحرف ومال عن مقتضى الفطرة الطبيعية وقد عرفت دواء النسيان ودواء الكذب الذي لا يضاهيه دواء هو استشعار خوف الله المطلع على كل خفية . وعليه فلا يبعد ان نقول يمكن ان يكون مضى على البشر زمان لا يعرفون فيه غير الصدق والتصديق لعدم أسبابه أو ضعفها . وعليه فما نراه من تصديق بعضهم بعضا في جميع شؤونهم هوارث قماء ولذا نراهم يستهجنون الكذب والكذابين حتى رسخت قباحته وصارت من الضروريات واستحسنوا الصدق حتى صار من المستحسنات . وبما قررناه يثبت ان الاصل في أخبار الآحاد هو

إفادة العلم واليقين . الا ان فساد الأخلاق قد غير من ذلك كثيراً ممن خرج عن الفطرة وعن الدين . لكن لا يجب ان لا يبقى من ذلك شيء يفيد الصدق اذا كان الخبر والمخبر ممن تهذبت فطرتهم وقوي تمسكهم بالدين مع استعمالهم لجميع الأدوية المانعة لطرق مرض النسيان فليتأمل الناظر

فقول الفاضل « ان أخبار الآحاد لا تفيد اليقين » ان أراد ان بعضها لا تفيد ذلك لضعف حامله اما لانه عرف بالخلط والخبط في أخباره أو لانه كان مظنة لذلك فهو صحيح في بعض الحالات لا في بعضها الآخر حيث يعلم انه يشارك المخبر في مضرة الكذب وانه لا غرض له فيه أو انه يخاف عقاب المخبر ان كذب عليه ففي هذه الصورة قد يفيد خبر الواحد الفاسق الظن الراجح أو العلم لبعض الناس ولذلك لم يأمر الله برد خبره ولا قبوله الا بعد التبين — وان أراد حضرته ان كل فرد فرد من أخبار الآحاد وأحاديثهم لا تفيد كل فرد فرد من المخبرين (بفتح الباء) العلم فالواقع والعقل يكذب هذه الدعوى . ولا عبرة بقول من تقدمه بهذا الاطلاق كائنا من كان . نقول ذلك ايثارا للحق والحقيقة غير طاعنين في ذواتهم وفضلهم

انه مهما قال من خالف ما ذهبنا اليه ومهما جهد في التشكيك والتشويش مما يظن انه تحقيق وتدقيق فانه لا يستطيع ان يغير الفطرة التي لا يكاد ان يخرج عنها فرد من البشر مختارا أو ملجأ وان من خالفنا فان لا وجود لخلافه لا في الواقع ونفس الأمر ولا في الاعتقاد وخلافه لا يتحقق بأكثر من الوجود في القول والعبارة . لأن الانسان ملجأ بالضرورة في أكثر شئونه ان لم نقل في كلها الى من يعتمد عليه في التعاون ولا واسطة لذلك تقوم مقام الإفهام والتفاهم في الأمر والاخبار

ولما كان الإنسان مدنيا بالطبع كان التصديق في الافهام والتفاهم طبيعيا له . ولما كان الارتفاق والاجتماع البشري يشتمل على كثير من العلوم أكثرها ضروري له فمن اشترط لهذه العلوم غير طرقها كان محصل قوله ونتيجته انكار هذه العلوم واهمالها الذي من لازمه تفكيك هذا الاجتماع البشري ومحو علوم هذا الارتفاق وهو غالط . ومنشأ هذا الغلط أخذ المتأخر قول من تقدمه أصلا ثابتا بدون نقد

وتثبت فيه كما يقال ان العلم واحــد لا يكون بعضه أقوى من بعض أو انه لا يقبل الزيادة والنقصان أو انه لا يتفاوت في جزئياته أي لا يتفاوت في من قام به من الاشخاص أو ان الطرق المؤدية اليه شرائطها واحدة وان مقدماتها لا تقبل احتمال التغير حتى بفرض المانع الذي لم يتحقق وجوده ونحن لا نقبل هذه الأقوال ونحوها على اطلاقها لكن بعــد التفصيل والتقييد . فمن اشترط في علم المعلوم تحقق علته وسببه في نفس الأمر وصفاته ولوازمه كذلك وعدم الموانع كذلك فقد كلف نفسه مالا تطيقه وطمع فيما يكاد ان لا يكون للبشر فيه مطمع — والعبرة عندنا في ذلك اطمئنان النفس فان كان ذلك كسبيا فلا بد من بذل الجهد في الدليل بحسب الاستطاعة. والحاصل ان العلوم كثيرة والطرق المؤدية اليها كذلك وهي مختلفة وطرقها كذلك ولكل شرائط لا يمكن التزامها في الأخرى فعلوم الاجتماع والارتفاق كاللغات ومتعلقاتها وعلوم الشرائع والأديان وملحقاتها وكذلك علوم الآثار والتاريخ والطب ونحو ذلك لا يمكن كل أحد ان يكتسبها بالعقل أو بالحواس مباشرة ودائما فلا بد من الواسطة فنشترط فيها ان تكون مما تطمئن النفس اليها لا مطلقا بل بعد بذل الجهد المستطاع — وبنا على ذلك فمن بلغه حديث ولم يقصر عادة ثم اطمأنت اليه نفسه فقد حصل له العلم واليقين ولا عبرة باحتمالات لم تشوش جزمه واطمئنان نفسه . والمسلمون تطمئن أنفسهم إلى هذه الأحاديث المكتوبة عن الثقات الضابطين والأئمة العارفين فهي تفيد أكثرهم العلم

ونقول لحضرة الفاضل ومن قال بقوله ماد ليلكم على ان احاديث الآحاد لا تفيد اليقين ؟ فاذا قال ان كل فرد من البشر يجوز منه وعليه الكذب والذهول والنسيان، وكل من جاز عليه ذلك جاز ان ينسى الخبر ويكذب فيه ، واستنتج ان كل فرد فرد من البشر يجوز ان ينسى خبره او يكذب فيه . فاذا ترتب على ذلك كبرى وهي وكل من كان كذلك فخبره يحتمل ان يكون منسيا او محفوظا وكذبا او صدقا فالنتيجة أن كل فرد فرد من البشر يحتمل ان يكون خبره منسيا أو محفوظاً وكذباً او صدقاً . هذا غاية ما يمكن ان يقولوه في الاستدلال وهو كما تراه يفيد ان خبر كل فرد فرد يحتمل الصدق والكذب . ونحن لا نسلم صحة الكبرى التي

اسس عليها واهل المنطق لم يقولوا بذلك بل قالوا القضيه قول يصح ان يقال لقائله انه صادق فيه أو كاذب . ولم يتعرضوا لنسبة ذلك الى المخبر فتفكر

وما ذكره الفاضل حفظه الله فاما ان يكون مراده انها لا تفيد اليقين في حد ذاتها أعم من الواقع والذهن وإما ان يريد انها لا تفيد ذلك في أحدهما. وعلى كل تقدير فهو ترجيح لأحد الاحتمالين بلا مرجح . لأن لا دليله يفيد ولا ينتج الا انه يمكن ان تفيد اليقين ويمكن ان لا تفيده كما ان صريحه أنه يحتمل ان تكون الاخبار صادقة ويحتمل ان تكون كاذبة — فالاقتصار على احد الاحتمالين مغالطة وهذا ان سلم فانما يكون قبل الاختبار والفحص في المعينات الخارجية — أما اذا نظر في ذلك وفرضناها في الخارج فهي لا تكون الا صادقة او كاذبة. فان قال مرادنا ان ما كان محتملا للصدق والكذب لا يفيدنا احدهما اليقين بذاته فصح قولنا خبر الآحاد لا يفيدنا اليقين كما انه لا يفيدنا نقيضه . قلنا هذا لا يصح الا بعد ثبوت وتسليم اشياء كثيرة فمنها ثبوت ان كل فرد فرد من المخبرين (بفتح الباء) يجب ان يستشعر احتمال النسيان والذهول والكذب وجوازه في كل اخبار المخبرين (بكسر الباء) . ودون القول بوجوب ذلك ووجوده في الواقع كذلك خرط القتاد — لجواز ان يكون فيهم من لا يستشعر ذلك اصلا او يستشعرها لكنها تكون عنده ضعيفة بحيث لا تمنعه عن التصديق بخبر الآحاد لأن الواقع والمشاهد ان اكثر الناس يجزم بخبر الآحاد ويصدقون بها . وما ذلك الا لما ذكرناه وانه دليل على صحة ما قدمناه من ان من فطرة الانسان وطبيعته الصدق والتصديق وان ما يعرض لذلك من احتمال النسيان والكذب طوارئ عارضة نادرة والنادر قل ان يلتفت اليه في اكثر أمور العامة واكثر الناس عامة .

وأيضا هذه الطوارئ العارضة قد عرف الناس انها لا تكون الا لأسباب إما اعراض للكاذب او تقصير في الضبط والحفظ وما لم يقو احتمال وجودها لا تقوى ان تكون مانعة للجزم والتصديق بالخبر الى غير ذلك . فان ابى الا المناقشة وقال لا عبرة بالعوام اذا كان التحقيق عند المحققين ان هذه الاحتمالات عارضة ومانعة عن التصديق باخبار الآحاد . قلنا يلزمك اولا ان كل ما يجزم به العوام من كل ما

ادركوه كذلك ان لايكون علما في حقهم ، وثانيا انا لا نسلم اتفاق المحققين على ما ذكرت بل اكثرهم يعطون كل خبر مما يوجد في الخارج ما يستحقه وهم يعلمون ان بعض المخبرين صادقون و بعضهم كاذبون وكذلك اخبارهم . فان سلمنا ان بعضهم يقول ان خبر الآحاد يفيد الظن الراجح او انه لايفيد العلم فانما يقول ان ذلك شأنه في حد ذاته لا بالنظر الى حال المخبرين والواقع في نفس الأمر . وان اراد بعضهم غير ذلك فقوله عندنا ركيك ولا بد ان يكون فعله وعمله يكذب قوله ولا خير في قول يكذبه فعل قائله

ونقول ايضا انا لا نسلم الصغرى التي اسست عليها دليلك لا كلية ولا دائمة . بيانه ان الكاذب لا يجب ان يكذب دائما ونحن يمكن ان نميز كذبه في بعض الأحيان . واذا كان يجوز ان نعرف ما يحتمل ان يكون كذبا ومالا يحتمل لم تصح ان تصدق الصغرى كلية دائمة واذا كان يوجد كثير من الناس اهل كمال وفضائل لا يكذبون ونحن نعرفهم بسيماهم و بالتجربة الصحيحة بطل صدق الكذب في أخبار الآحاد كلية فالأخبار التي لا تؤخذ الا من مثل هؤلاء لا يصح ان يفرض فيها احتمال كذب الراوي فهي صادقة وسالمة عن ان يشوّشها احتمال الكذب

أما احتمال الذهول والنسيان فقد قررنا انه إما ان يكون سببه مرض طاريء وحادث ومن كان مصابا بمرض في حافظته لا بد وأن يكثر ذهوله ونسيانه ومن كان كذلك حاله فهو يعرف لكل من عاشره وخالطه ، وإما ان يكون سببه تقصير في الحفظ والضبط وهذا يعرفه من قارنه وصاحبه في الطلب والتلقي حين المذاكرة والمراجعة . وكل من عرف بما ذكرناه فحديثه مردود عند أهل الحديث الا ان الثاني قد يتقوى بالشواهد والقرائن في بعض الحالات فظهر انه مع ندور طروء هذه العوارض يمكن ان نميز من تكون هذه الاحتمالات في أخباره ومن لا

ونقول اذا صح ان يوجد في البشر من يجب ان يكون صادقا لتقواه وورعه وعدالته ولا نظن ان حضرة الدكتور ينكر وجود هؤلاء بالكلية فاذا سلم قلنا له انه يمكن الاحتراز عن الذهول والنسيان بأشياء وطرق كثيرة - كالمراجعة والمذاكرة والكتابة والدرس والتدريس وكثرة الحاجة الى العمل . وهذه موانع للنسيان ومعينة

على الحفظ مع سلامة المحل وصدق القصد وهذه من المجربات الذي اتفق على تجربيها كل الناس وشهدوا بصحتها فمن نازعنا في ذلك ألزمناه ان يطعن في جميع المجربات بل في المحسوسات بلازمات لا محيص له عنها ان شاء الله . فظهر ظهورا لا غبار عليه ان قول المعارض الفاضل حفظه الله ان كل فرد فرد من البشر الآحاد يجوز عليه الذهول والنسيان في خبره لا يصح لا دائما ولا كلية لا في المخبرين (بالكسر) ولا في المخبرين (بالفتح) ولا في الخبر كذلك كما تقدم واذا بطل دليلهم ثبت ان بعض أخبار الآحاد تفيد بعض الناس العلم وهو المراد

ونقول ان من ذهب الى ان أخبار الآحاد لا تفيد اليقين أي العلم فقد خالف البرهان وخالف ما اتفق عليه الناس في جميع شئونهم . ألا ترى اعتماد كل فرد منهم واطمئنانه الى خبر أبيه وأمه وزوجه واخوانه وخلانه ، وأقرابه وأقرانه ، وأصدقائه وجيرانه ، وغيرهم . ونراهم يرسلون أموالهم مع هؤلاء ومع الخدم والأعوان والاولاد الصغار المميزين اعتمادا ووثوقا بأخبارهم لا فرق بين المرسل والمرسل اليه يكون ذلك مع الاطمئنان الكامل والطمأنينة لا توجد مع احتمال النقيض . ان التاجر ونحوه والمرابي البخيل المقتر يعتمد على مثل ذلك في معاملاته ومراسلاته وفي مصدره ومورده من أموره وثروته التي هي عند بعضهم أعز عليه من نفسه فلولا حصول العلم الذي تطمئن اليه نفسه لم يقدم على فعل ما فعل وترك ما ترك اعتمادا على أخبار لا يثق بها بل هي تحتمل الصدق والكذب ، ومثل من ذكرناهم جميع البشر في جميع شئونهم فاذا رأينا من يشكك بالقول دون الفعل يبدي احتمالات قد تصدق على بعض الاخبار بعد تعينها فهل يصح ان نقول يجب ان تكون جميع الاخبار كذلك في الواقع تحتمل ذلك أو ان نقول انه لا يوجد من يصدق بأخبار الا حاد وتفيده اليقين ؟ وهل يجوز لنا اعتماد قول هذا القائل لا سيما اذا كان قوله يخالفه فعله ؟ وهل يوجد فرد من البشر سليم العقل لا يحصل له العلم ولا يعتمد على خبر الآحاد في جميع حالاته

نحن لا ننكر انه يكون في بعض أخبار الآحاد ما يفيد الظن بل بعضها لا تفيد أكثر من الشك و بعضها نقطع بكذبه الا انا لا ننكر الواقع ونقول ان كل فرد

فرد دائما لايفيد العلم واليقين مطلقا لما عرفت انا ان قلنا بهذا القول فقد أسأنا الظن بأفراد الانسان كلهم حتى الأمراء والعلماء ولئن جزمنا بذلك فمع مخالفتنا للعقل فانا لايمكنا ان نعيش بينهم بعيشة طيبة ·

ومن الادلة على ماذكرناه فوق ماتقدم ان الله أرسل أكثر رسله فردا فردا ولم يرسلهم دفعة الى الناس كجمع التواتر الذي يزعمه التواترية وما ذلك الا لأن خبر الآحاد الذي ذكرناه قد يفيد العلم

فان قيل ان الرسول مؤيد بالمعجزة قلنا ان التأييد بالمعجزة انما يكون في بعض الاحيان ·وأيضا ليست هي شرطا في الارسال لانها انما تكون اذا وجد الجاحد المكذب أو من حصل له الشك أو نحوه ·أما على قول التواترية فذلك لا يصح ومن لازمه ان لايحكموا بايمان من آمن برسول من رسل الله عليهم السلام الا بعد ان يرى المعجزة أو غيره بها عدد التواتر ويتحقق انها معجزة لأن ماسوى ذلك لايفيد العلم واليقين ·لكنه خلاف المعلوم بالضرورة من سيد الانبياء عليهم السلام وخلاف ماعلمناه بالضرورة من تلقي البشر عنهم وتصديقهم والايمان بهم و بشرائعهم ·

أفليس من المعلوم ان الرجل الواحد من البدو الاعراب وغيرهم كان يأتي الى رسول الله (ص) فيؤمن به ورسول الله (ص) يحكم بايمانه واكثر أولئك وغالبهم لم يروا معجزة ولم يسألوا عنها، غايته ان بعضهم له فراسة تدله على ان هذا الرجل (ص) صادق لأنه يدعو الى البر والعدل فبذلك حصل لاكثرهم الايمان — وبعضهم حلف النبي (ص) واكتفى بذلك حيث اطمأنت اليه نفسه واولئك أعلى المؤمنين بعد الانبياء ايمانا حتى انهم بذلوا أنفسهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ولتكون كلمة الله هي العليا

ان من يشترط التواتر في افادة الاخبار العلم واليقين يلزمه ان يقول ان مثل هؤلاء السادات لا يصح ايمانهم وانهم لم يحصل لهم ايمان · نحن لا نقول ان حضرة الدكتور يقول ذلك ويلتزمه لا هو ولا من وافقه من العلماء الذين يقولون ان اخبار الآحاد تفيد الظن ولكنا نقول ان اختياره ذلك تبعا لهم هفوة من لازمها ماذكرناه وما استلزم الباطل فهو مثله ويجب الرجوع عنه

ونقول ايضاً لو صح ما قلتم لم يصح ان يوصف احد من افراد البشر غير المعصومين بانه صادق لان المتكلم بغير الواقع في الاخبار لا يكون صادقا والقول بذلك يناقض ما دل عليه القرآن الكريم مثل قوله تعالى (وكونوا مع الصادقين) واخبر بأنه ينجي الصادقين بصدقهم فوصفهم بالصدق وانه ينجيهم بصدقهم الموجود ومدح الذي جاء بالصدق والذي صدق به وان الصدق ينفع يوم القيامة ومدح الصادقين والصادقات وذم وتوعد الذي يكذب بالصدق اذ جاءه والذي يعرض عن الصدق · وبعض هذه الآيات هي وان كان سبب نزولها خاصا لكن في العدول الى الألفاظ العامة ما يؤيد ما تقرر عند أهل الاصول — ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب · فظهر بذلك ان الصادق والصدق الذي هو العلم موجود وأنا مأمورون بقبول ذلك واتباعه وما ذكره الله مما قدمناه انما هو الصادق والصدق من الآحاد ولو كان العلم واليقين والصدق لا يحصل الا من اخبار الجموع المتواترة لم يصح ان يوصف الواحد والاثنين بل ولا العدد المعين بصفة الصدق وهذا بين البطلان عرفا وعادة ونقلا وعقلا

لا ندري ما العذر المقبول لمن سمع قوله تعالى «كونوا مع الصادقين» اذا رد خبر الصادق الذي قد عرف صدقه وانه من الصادقين العدول؟ فان قيل كيف نعرف انه صادق — وصدق الشخص في بعض الامور مما يصح ان يخفى علينا؟ قلت قدمنا الكلام في انه هل يمكن ان نعرف الكذب والكاذب ام لا وسيأتي مزيد كلام عليه اما كون الشخص ممن عرف بالصدق فذلك بين وهو لا يسمى صادقا الا بعد ان يعرف بالتجربة ويتصف بالتقوى — لان التصديق والايمان قد اعتبر معرفتها بالدلائل الظاهرة وذلك من باب الاستدلال بالاثر على المؤثر وبلازم الشيء على الشيء — كما قال تعالى «فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار» الآية ونحن لا نعلم ما في القلوب لكن لما كان الايمان بالانبياء وشرائعهم من لوازمه اشياء ظاهرة يتعين ان لا يوجد بعضها الا بسبب الايمان ساغ ان يستدل بها على وجود الايمان فكان العلم بها علما بالايمان

ونقول أيضا ان الله جل وعلا كما أمرنا بأن نصدق الصادقين لم يأمرنا برد خبر

الفاسق بمجرد سماعه بل أمرنا بالتبين كما قال تعالى (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) الآية وفي ذلك من الحقائق الدقيقة والجليلة مالايقدر قدره الا من رزقه الله الفهم في كتابه كما قال بعضهم كأنه تعالى يعلمنا و يرشدنا الى قواعد هي من أصول العدل وانفع خلال الاجتماع والارتفاق وأعظم أسباب الظفر والسلامة فقوله تعالى (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) هو أمر بالتأني والتبصر في خبر الفاسق صراحة والى ماشاركه وماثله من بعض الوجوه اشارة وما ذلك الا لان الفاسق قد يصدق فلا يليق ان يهمل خبره بالكلية بل لابد من التنبه والحزامة والاستعداد فلا نبقى في غفلة وسبات ربما اضرت بنا ولا نصدقه فيما يضر بمن أخبر عنهم لئلا نندم على مافرط منا ولئلا نخسر مودة اعوان وانصار ونحوهم والتبين والتأني في نحو ماذكرناه هو كالاقتصاد في الاخذ والعطاء ونحوه من أمور الثروة والاقتصاد

قلت ولما كان المخبر لايخلو اما ان يكون معتبرا في الرواية وهو الثقة الضابط أولا يكون كذلك وهو الفاسق في الاخبار والرواية وإما ان يكون بين بين وهو غير المعروف حاله فالثاني صرح بحكمه في هذه الآية ولما كان مفهوم حكم الفاسق يتناول الشيئين اللذين ذكرناهما لم يوجب التبين والتأني بل ترك ذلك الى عرفنا وما تطمئن اليه أنفسنا وهذه حكمة بالغة في تأسيس القواعد تفهم من حكم واقعة شخصية معينة في القرآن . ومن جهة أخرى نحن اذا عرفنا حكم الفاسق فكأنه نبه به على حكم مقابله وهو الضابط الثقة العدل لانه قد انغرس في الفطر والعقول ان الشيء يعطي نقيض حكم مقابله وذلك مقتضى التقابل . ومفهوم الأمر بالتبين اما النهي عنه كما عرفت وهو حكم المقابل وإما الندب الى عدمه وإما الاباحة واما الارشاد الى ان حكم ذلك راجع إلى العرف وما تطمئن اليه النفس كما قدمنا ذلك وعلى كل تقدير فمفهوم هذه الآية مخالف لما ذهب اليه حضرة الفاضل من أن أخبار الآحاد لا تفيد اليقين أو انها تفيد الظن المذموم وذلك ظاهر لانطيل بتفصيل وجوهه

نحن اشرنا الى الاحتجاج بعمل رسول الله (ص) وسائر الانبياء عليهم السلام في إرسالهم الآحاد للتبليغ عنهم وتلك حجة لا مناص لمن يشترط التواتر في ذلك عنها وحضرة الدكتور الفاضل لم يجب عن ذلك ولا عن غيره بجواب شاف فاما

قولك ان أولئك كانوا نوابا وولاة امور ولآهم الرسول (ص) فليس الامر كذلك بل فيهم من ليس كذلك . ولو سلم فليس طاعة ولاة الامور في الدينيات بآكد من طاعة العلماء . بل المعروف من دين الاسلام ان من لم يعلم شيئاً فالواجب عليه ان يسأل أهل العلم لا فرق في ذلك بين امير ومأمور على انه قد دل القرآن الكريم على وجوب الدعوة الى دين الله وقد تواتر عن النبي (ص) الأمر بذلك وقد اجاز وامر بالتبليغ عنه اجازة عامة لكل أحد بشرط ان لا يكذب عليه وكل عالم هو في الحقيقة نائب في التبليغ عن النبي (ص) وطاعته فيما يبلغ عن الله وسوله (ص) واجبة

أما قول الفاضل فوجوب طاعتهم انما هي لأنهم ولاة امور . فجوابه انا لم يكن بحثنا في وجوب الطاعة وانما البحث في التصديق بالخبر في امر ديني محض ومن المعروف شرعاً انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق على انه قد اختلف المفسرون في المراد من أولي الأمر في قوله تعالى « أطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » فمنهم من قال هم الامراء ومنهم من قال هم العلماء

أما قوله ان الرسول يمكن أن يعلمه الله بالوحي فيتدارك الخلل في أقرب وقت الى آخره فنقول هذا لا يمنع استدلالنا على وجوب العمل باخبار الآحاد ، لأنه اذا وجب التصديق على المرسل اليهم او من بلغهم الحكم فاستدراك ذلك بالتكذيب والعزل ونحوه لا يضرنا في الاستدلال لأنه على كل تقدير قد وقع للمخبرين (بالفتح) العلم بخبر هؤلاء وعلى الأقل وجب عليهم العمل بذلك وهو المطلوب . ونقول ايضا انه لو لم يتبين بالوحي كذب هؤلاء كمن مات النبي (ص) وهو على ولايته اياترى ماذا يفعل الناس ؟ اليس من لازم ذلك انك ألصقت بالدين تهمة شنيعة وهي وجوب طاعة الأمراء في كل شيء حتى الدينيات المحضة وهذا مما لم يوجبه لانفسهم الامراء المستبدون وانما يتداخلون في هذه الأمور بتوسط فتاوي العلماء فياخيبة الاحرار ويا للبشرى للمستبدين من رواج هذا المذهب ولنكتف بالتنبيه على مثل ذلك لظهور فساده فان دعت حاجة عدنا بالتفصيل التام لهذا المقام ان شاء الله

ونقول أيضا انه قد تواتر النقل الذي لم يشذ عنه فرد من الأمة الاسلامية ان الاصحاب الكرام (رض) قد احتجوا على من بعدهم و بعضهم على بعض بما رووه

عن النبي (ص) فلو كان العمل لايجب بخبر الآحاد ولا يلزم التصديق به لم يسغ لاحد منهم الاستدلال والانكار واللوم الا اذا كان معه عدد كثير يؤيدون خبره بأن يكونوا مثله قد سمعوا ذلك عن رسول الله (ص) وحيث لم يكن ذلك لامن المخبر ولا المخبر (بالفتح) علم أن من اشترط التواتر في وجوب العمل بالاخبار قد خالف طريقهم التي درجوا ومضوا عليها وأمرهم الله ورسوله (ص) بسلوكها في التبليغ. ولو كان مازعمه حضرة الدكتور الفاضل صحيحا لانسدّ باب التبليغ عن الرسول (ص)

قال حضرة الفاضل في الكلمة الرابعة أولا قد يكون الراوي كذوبا لكنه منافق ومتظاهر بالصلاح الى آخره. وأقول ان أراد ان ذلك يكون بكثرة أوان الرواة المشهورين يمكن ان يكونوا كذلك فقوله غير صحيح ولا يلتفت اليه من أخذ من فن الرواة والحديث نصيبا. وان أراد ان ذلك قد يكون شاذاً ونادرا وان أهل الحديث يعرفون ذلك فذلك مسلم وقد وجد من هذا حاله ليشكك المسلمين في الرواية وغيرها وقد أخبر بذلك النبي (ص) لكن أهل الحديث قد عرفوا هؤلاء وكشفوا عن حالهم ومن كان بهذه الصفة هو مهما بالغ في التستر فلا يمكنه ان يروج حيلته عليهم لانه لم يعرف بعد الفحص ان أحدا من أئمة الحديث اعتمد ووثق من بان ان حاله كذلك فمثل من هذا حاله انما يعمد الى العوام حيث يكون بعيدا عن العارفين من أهل الحديث فحديثه لو وجد فانما يوجد فيما يتتبعونه من الشواذ المناكير ونحوها التي اذا كتبوها يفردون لها كتبا مخصوصة لئلا يغتر بها أحد من العامة في العمل بها أما في الرواية المعتبرة عندهم فمثل ذلك معروف تركه ومن عرف طريقة المحدثين في الاخذ والتحمل والاداء وشرائطهم في الرواية والرواة الذين يطلقون على ماروَوه الصحة والتحسين يعرف انه لايمكن الدخيل ان يدس فيه كذبا أو يروج فيه زورا ومن ذا الذي يمكنه ان يمضي كل عمره في التستر وكتمان جميع أسراره حتى من أصدقائه وخلانه الذين يمكن ان تفلت على أحدهم ساقطة من أمره. انه لايمكنه ارضاء الناس كلهم ليستروا عليه لاسيما أهل الورع. على انه ان كان لأحد الناس القدرة على ذلك فان لاهل الحديث طرقا يعرف بها حال أمثال هؤلاء. لأن من شرط الراوي الثقة ان يكون معروف الاسم والنسب والذي لايعرف كذلك هو مجهول عندهم. وأما مايرى من

ان بعض الرواة غير منسوب في بعض كتب المحدثين فذلك نادر وهم لا يكتفون بذلك الا فيمن عرف عندهم حاله ومن تتبع ذلك عرفه

ولهم طريق أخرى في معرفة المتستر المشار اليه وذلك بمعرفة بلده ومنشئه — وأخرى ان يكون ممن عرف بالطلب والأخذ عن أهل هذا الفن المشهورين قال بعضهم ادركت بالمدينة مائة كلهم مأمون لا يؤخذ عنهم الحديث يقال انهم ليس من أهله — وأخرى وهي ان لايكون ما يرويه مخالفا لما رواه المعروفون عن ذلك الشيخ — وأخرى وهي انه لا بد ان يكون الراوي ممن عرف بالفهم والمعرفة وكثرة السماع والمذاكرة — وأخرى وهي ما اذا كان لذلك الشيخ رواة فشرط ان لايتفرد برواية شي دونهم — وأخرى ان لا تكون في مروياته نكارة. أقول والمنافق الذي يريد ان يشكك المسلمين ويشوش عليهم دينهم لا يسلم من وجود النكارة في حديثه لان ذلك غرضه الذي تظاهر بالصلاح والتقوى لأجله وان لم يفعل ذلك فتستره لم يعد عليه بفائدة فظهر ان ما يسمه أهل الحديث بالصحة وما يعتمدون عليه في الاحتجاج لا يصح ان يوجد فيه ما يروى عن المنافقين ولا ماهو مكذوب لا أصل له — وفوق كل ذلك لطف الله وعفوه عن الخطإ والنسيان «ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا» وقد صح ان الله قال قد قبلت

اما تجويز كون بعض الرواة قد يخطئ المراد اذا حدث بالمعنى فجوابه انهم رحمهم الله لم يهملوا ذلك بل اشترطوا للتحديث بالمعنى شروطا لا يمكن لأحد منهم ان يروي الحديث بالمعنى بدونها — فمنها ان يكون ممن عرف بمعرفة معاني الحديث ذا اقتدار على اختيار الألفاظ العربية الصالحة لذلك فان قيل كيف نعرف انه فعل الواجب المشروط. قلت لأنه ثقة ضابط من أهل الصدق والايمان فهو يتحرى الصواب تدينا وخوفا من الله تعالى فلا بد والحالة هذه ان يروي ما هذا حاله اما بالشك — أو انه اذا أوجس من نفسه قصورا في التعبير يصرح بان هذا نقل بالمعنى كأن يقول أظن معناه كذا وحينئذ ينظر حال الراوي المذكور فان كان ممن عرف بالمعرفة مستكملا للشروط قبل حديثه والارد. وفوق كل ذلك نعرف خطأه ان اخطأ في التعبير بالمعنى بان ننظر في الأحاديث التي رواها عن شيخه غير هذا

الراوي فان وافق معناها معناه والا عد حديثه من الشواذ أو المناكير فهذه طريقة فوق ما تقدم نشترط عندهم في من يحدث بالمعنى وبها يعرف خطؤه اذا ضعفت معرفته المشروطة بعض الضعف و بذلك يكون مطعونا فان كثر ذلك منه تركا . فلا خوف على الحديث من الكذب ونحوه وقد تلقاه الأئمة الكبار والحفاظ الابرار وكتبوه بعد التحري وكال الفحص مطابقا لشرائطهم ولبعضهم شرائط أكثر من غيره وما ذكرناه هو المجمع عليه عندهم وهذه الكتب الذي كتبوها قد نقلها عنهم الأمة نقلا عاما وأجمع أهل العلم بعد الفحص على أكثر الصحيح ووسموا كل حديث بسمته وبينوا حاله وقربوا البعيد لمن يريده بغاية السهولة و بما ذكرناه يندفع كل طعن يمكن ان يقال

قال وقد ينسى شيئا مما سمعه ويقع في الغلط بسبب ذلك بدون ان يشعر به . وقد قدمنا الكلام على مسألة النسيان . ونقول اولاً ان الائمة الحفاظ الثقات والعدول الاثبات لا يكاد مسلم يسيء الظن بحيث يتهمهم باهمال ما سمعوه من حديث رسول الله (ص) بان يعرضوه للذهول والنسيان لانا نعلم ان من اعتنى وتعهد ماسمعه بالمذاكرة والمراجعة ونحوها كالكتابة فاذا حدث مع كمال الاحتياط والأناة والتأني والتبين لا يقبل العقل عدم شعوره بالنسيان البعيد التوقع ان وقع — علمنا ذلك بالتجربة الصحيحة المطردة التي اجمع عليها البشر كلهم كما قدمنا الكلام على ذلك ان من يقع له السهو في أمر ما فانا جازمون بانه لم يقع له ذلك الا بتقصير وقع منه فليتهم نفسه . ولذا قلنا غير مرة ان الراوي الثقة ان وقع له سهو نادر فهو يذكر المروي بالشك مالم يتيقن

ان من لم يكن بالحالة التي عرفت ليس هو عند اهل الحديث من الاثبات فهم لا يأخذون بحديثه ولا يصححونه ولا يقبلون مروياته — فما فرضه الفاضل انما يكون في غير رواة الحديث الصحيح المحتج به فالايراد ليس في محله . وليس رجال الحديث الصحيح الا مثل من قد جربته من خلانك الذين طالت صحبتك معهم حتى عرفتهم وعرفت صدقهم ونصحهم . فاذا ارسلت أحد هؤلاء برسالة تلقاها منك حتى حفظها ثم لم يزل يرددها على لسانه وقلبه فان كان له شريك فهو يتذاكر في ذلك

معه او يتصفحها في مكتوب عنده افلا يكون مطمئنا بخبره عنك من عرف حاله مثل معرفتك ؟ فاذا كان خبر مثل هذا مما تطمئن النفس اليه ، ولا تقبل التشكيك فيه ، فما بالك برجال ثقات ضباط علماء اتقياء حفظوا حديث رسول الله (ص) وجعلوه شغلهم لا يرحلون ولا يقيمون الا في خدمته وحفظه وتنقيته مما يشوبه قد انقطعوا لذلك ووقفوا انفسهم عليه بالكتابة والمراجعة والمذاكرة والدرس والتدريس والدعوة اليه والعمل به يأتمرون بامره ، وينتهون وينهون لنهيه ، صدقوا بخبره ، ووعظوا واتعظوا بعبره ، امتلأت قلوبهم رهبة وخوفا من مخالفته ، والكذب عليه (ص) معتقدين انه هو الدين ، الذي هو حق اليقين ،

فان قيل هذا معروف ولكن الكتابة كانت نادرة في زمن الصحابة . قلت ان كثيرا من الصحابة كان يكتب او يستكتب والبعض الآخر مع كمالهم في الحفظ والاحتياط زيادة عن غيرهم فالذي يروى عنهم قليل بالنسبة الى المكثرين الذين يكتبون منهم والذين تبعوهم باحسان (رض) فذلك القليل لا يمكن ان يحدثوا به مع الذهول بدون ان يشعروا بما فيه من الخلل والنسيان وليس ما تراه من الاحاديث هو مرويا عن واحد منهم وانما هو مروي عن مجموعهم . اما ما نقله الفاضل حفظه عن عمران بن حصين (رض) فهو لا يدل على مدعى الفاضل وغايته ان صح ان يكون جرحا في من عناه على انه يحتمل التأويل لانه لم يعين المجروح ولا وجه جرح معين وعمران المذكور (رض) قد حدث عن رسول الله (ص) باحاديث كثيرة

قال ان حفظ الاحاديث اذا كانت طويلة — الى قوله — عسير جدا وخصوصا اذا ألقيت مرة واحدة . وأقول لم يوجد حديث واحد من الاحاديث الصحاح طويل جدا مفرط حتى انه يندر ان يوجد فيها ما يقارب المفصل من سور القرآن في الطول والنبي (ص) لم يلق عليهم هذه الاحاديث دفعة واحدة ولا الرواة يأخذونها عن المشايخ كذلك بل كان النبي (ص) يتخولهم الموعظة وتارة قد يعيد لهم معنى ما حدثهم به في الايام الماضية فمن سمع ما كان قد سمعه تذكره وأتقنه ومن سمع جديدا حفظه هو أو غيره وكان (ص) يكرر الكلمة حتى يقولوا ليته سكت وعادته المطردة انه كان يكرر الكلمة

ثلاثا لتحفظ عنه وهم رضوان الله عليهم كانوا يتدارسون ويتذاكرون ماتعلموه منه (ص) وكانوا يجلسون لذلك في المسجد حلقا وكان يتناوبون الحضور لاخذ العلم عنه (ص) واذا غزا كان يأخذ من كل فرقة منهم طائفة ليخبروا اخوانهم اذا رجعوا اليهم. مع ذلك كله هم أزكى العرب وأصفاهم اذهانا وغير خاف ما امتاز به العرب من قوة الحفظ وصفاء الاذهان والذكاء المفرط حتى انهم كانوا يحفظون القصائد الطوال التي تنشر في المواسم مرة واحدة لاول وهلة فهل يستبعد احد أن يحفظ الواحد من الصحابة (رض) الجملة القليلة من الاحاديث التي كان يلقيها عليهم الرسول (ص) متفرقة في أيام وسنين وأعوام كثيرة وهم بالصفة التي عرفت وهم مع ذلك لايزالون يتذكرونها تارة من نفس قائلها (ص) وتارة من اقرانهم واخوانهم وأصحابهم للعمل والارشاد وغير ذلك كما تقدم. والاحاديث انما رويت عن مجموعهم (رض) على ان المكثرين منهم قد صح انهم كانوا كتبوا واستكتبوا ماسمعوه وحفظوه عن رسول الله (ص) و بعضهم عن بعض وكتابتهم لم تكن ككتاب يصنف في هذا الزمان وإنما كانوا يكتبون ذلك وقعات كلما سمعوا شيئا كتبوه و بعضها أشبه بدفاتر التجار اليوم

— فاعتراضات حضرة الفاضل الثاني والخامس والسادس هي في الحقيقة ليست بواردة على ماعندنا من أحاديث النبي (ص) وانما هي واردة على أحاديث فرضية قدرها الفاضل في ذهنه وليس الحقيقة والواقع في الرواية عندنا إلا ما عرفناك فانتبه ولا تغفل هذه الاعتراضات هي أشبه شيء بما اذا رأى بعض الناس بناء عظيماً كمنارة وقال كيف نصبت هذه ومن الذي حملها فنصبها دفعة واحدة، فاذا أخذ هذا العجب فانما ذلك لعدم علمه ولو درى انها انما بنيت بالتدريج لم يكن كذلك كما يقال إذا عرف السبب زال العجب

هذا وإنه ليسوءنا من حضرة الفاضل حفظه الله ايراد مثل هذه المغالطات مع علمه بما ذكرناه ونحن لم نكن نظن انه بهذه المثابة وكذلك عجلته على ما ذكر من انه يريد ان يطبع رسالة فيما نحن بصدده قبل ان تتم المناظرة ويتبين له الصواب من الخطإ فنرجو من حضرته ان لا يطبع ذلك إلا بعد انتهاء المناظرة و بعد ان يتكلم مع شيخ الاسلام السيد محمد رشيد رضا لاجل ان يصلح ماشاء ان يصلحه — على ان الدين الحق لا يعدم انصارا والله المستعان (لها بقية)

آثار علمية أدبية

التقريظ والانتقاد

﴿ كتاب دلائل التوحيد ﴾

لقد منّ الله تعالى على دمشق الشام بالشيخ محمد جمال الدين القاسمي ليكون فيها واسطة من وسائط الانتقال، وحلقة من حلقات الاتصال، بين الماضي الذي قد تدهور فيه المسلمون من عدة قرون ، و بين المستقبل الذي ينشده المتبصرون ، ويسعى اليه المصلحون، فهو بصير في العلوم الاسلامية المتداولة في العصر، متطلع الى ما يتجدد من المطبوعات العربية في كل مصر، مجيد في الانتقاء من رديئها والانتقاء من جيدها، حريص على الاستفادة منها والإفادة بها، وهو يدرس و يطالع، و ينسخ و يصحح، و يصنف و ينشر

وآخر ما وصل الينا من مؤلفاته المطبوعة كتاب (دلائل التوحيد) في الكلام ألفه في سنة ١٣٢٥ وطبع في سنة ١٣٢٦ وهو في أسلوبه ومباحثه ، مصدق لما قلناه آنفا في وصف مؤلفه ، لم يقلد فيه المتكلمين كالسنوسي وواضعي الشروح والحواشي لعقائده ومن حاكاهم من المتأخرين الذين صارت كتبهم كالمتعبد بتلاوتها، على علاتها وعدم كفايتها ، ولم يستقل بجميع مسائله بنفسه، و يجعله خلوا من كلام غيره، بل أورد فيه زبدة مما طالعه في كتب أساطين المتقدمين من الفلاسفة والمتكلمين كابن مسكويه والنصير الطوسي والفارابي وابن رشد والراغب والغزالي والعز بن عبد السلام وابن حزم وابن تيمية وابن القيم والقاضي عياض والماوردي وجمال الدين الخوارزمي والمرتضى اليماني صاحب إيثار الحق، والمتأخرين كالاستاذ الامام ولكنه لا يذكره باسمه ولا بهذا اللقب الذي اشتهر به وانما يشير اليه بكلمة « حكيم » أو حكيم من المتأخرين. وقد نقل أيضا عن المنار ولم يسمه ولا ذكر اسم صاحبه بل يشير اليه ببعض الألقاب

كما فعل في الهامش بعد سوق الدليل العشرين . وما ذلك الا لأن اسم الشيخ محمد عبده أو محمد رشيد رضا أو المنار كانت في زمن السلطان عبد الحميد تخرب الديار، وتسوق الى البوار، أما مقاصد الكتاب بالاجمال فهي كما كتب المؤلف في طرته

« الخطبة في فضل إقامة البراهين لتأييد أصول الدين ثم تمهيدات في سر معرفة التوحيد وما يتقاضاه الايمان من الايقان وفي تمثيل انمحاء الباطل لظهور آية الحق، وفي ان النظر قانون الاستدلال وفي غير ذلك، ثم مطالب الكتاب وهي أربعة: المطلب الأول في الأدلة الواضحة على « وجود الله تعالى » وهي خمسة وعشرون دليلاً وفي طيها فوائد جمة، المطلب الثاني في تحقيق مسائل من العلم الإلهي كاستحالة اكتناه ذات الخالق تعالى وبطلان الحلول والاتحاد وغيرهما، المطلب الثالث في المادة وشبه الماديين وإبطالها جميعها بالحجج القاطعة وفيه مقالات من الطبيعيين تقرب من الثلاثين، المطلب الرابع في مسائل من علم النبوات كآيات النبوة واثبات الخوارق علماً وبيان المنة على العالمين ببعثة خاتم النبيين وكون القرآن أعظم الخوارق وبيان خصائصه عليه السلام وفضائله وشرف أخلاقه وشمائله المؤيدة لنبوته والمبرهنة على عموم رسالته ثم الخاتمة في فائدتين ». اه

وصفحات الكتاب مئتان بل تزيد، ولم يتيسر لنا الا مطالعة القليل منه، فعسى ان يكون مزلزلاً لتقليد المقلدين، ومرقاة لاستقلال المستعدين، وثمن النسخة منه ثمانية قروش

***

﴿ العقائد الدينية . للناشئة الاسلامية ﴾

كتيب وجيز للشيخ محمد عبد اللطيف خضير من علماء دمياط طبعه في هذا العام واهدانا نسخة منه ورغب الينا بيان رأينا فيه عند ما تسمح لنا الفرصة بمطالعة شيء منه فنقول إننا رأينا فيه شيئاً من المعنى الذي أشرنا اليه في تقريظ الكتاب الذي قبله من حيث عدم التزام أسلوب وترتيب العقائد المتداولة كسرد الصفات العشرين (التي جعل السنوسي مدار عقيدته عليها) ونحو ذلك ولكنه على عدم التزام ذلك لم يخرج عنه بالمرة . راعى السهولة فيما استقل فيه فسدد وقارب وجاء ببعض مسائل ودلائل

نظرية تعلو على افهام الناشئين الذين وضعه لهم ولولا رجوعه في ذلك الى بعض الكتب المتداولة لكان يسهل عليه ان يأتي بما هو اسهل منها وانفع أوليت اقتباسه من كتب المتقدمين كان كله كاقتباسه من رسالة التوحيد . وجملة القول انه من احسن ما كتب لتعليم المبتدئين وثمن النسخة منه قرش واحد وهو يطلب من المكتبة العمومية بدمياط فعسى ان ينال مايستحقه من الرواج والانتشار

***

﴿ تحفة الانام . في مختصر تاريخ الاسلام ﴾

ألف هذا التاريخ في أواخر حياته الشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتي بيروت رحمه الله تعالى وهو يشتمل على مقدمة وجيزة في أصل العرب وجزيرتها وظهور النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أربعة أبواب في الخلفاء الراشدين وفي الامويين والعباسيين والعثمانيين . وفي الكلام على سلطنة محمود الثاني يذكر حادثة ابراهيم باشا المصري وغيرها من الحوادث الكبيرة ومسألة الوهابية كما يذكر في أخبار سلطنة عبد المجيد حرب القرم وحادثة جده وحادثة لبنان . وهو مختصر ليس في الايدي مثله ولا ما يغني عنه فعسى ان يعم نشره . ويباع في مصر بمكتبة المنار مجلداً تجليداً بيروتيا بثمانية قروش مصرية . ومن أراد عدداً كثيراً منه فليطلبه من المكتبة الاهلية ببيروت

وانا ننقل ههنا كلامه في الوهابية قال رحمه الله تعالى ما نصه:

« ثم في غضون ذلك ظهرت الطائفة الوهابية في بلاد نجد واستولوا على مكة المكرمة والمدينة المنورة وباقي بلاد الحجاز حتى قاربوا بلاد الشام من جهة دمشق وهم قوم كثيرون من عرب نجد اتبعوا طريقة الشيخ عبد الوهاب(؟) وهو رجل ولد في الدوعية بارض العرب من بلاد الحجاز طلب اولا العلم على مذهب ابي حنيفة في بلاده ثم سافر الى اصفهان واخذ من علمائها حتى اتسعت معلوماته في فروع الشريعة وتفسير القرآن الكريم ثم عاد الى بلاده سنة (١١٧٠) ثم ادته ألمعيته الى الاجتهاد فأنشأ مذهبا مستقلا وقرره لتلامذته وشاع أمره في « نجد » و « الاحساء » و « القطيف » و « عمان » و « بني عتبه » من ارض « اليمن » ولم يزل امرهم شائعا ومذهبهم متزايدا

وجماعتهم تكثر الى أن صدرت الارادة السنية الى محمد علي باشا عزيز مصر بقتال وردع هذه الطائفة خوفا من انتشار شرهم في البلاد الاسلامية فاطفأ سراجهم وبدد شملهم واخفى ذكرهم وقد توفي زعيمهم سعود سنة (١٢٢٩) فساد الأمن في طريق الحج وبهذه السنة حج محمد علي باشا بعدان لم يكن احد يتمكن من اداء هذه الفريضة

وهاك رسالة من كلامهم تدل على مذهبهم واعتقادهم :

اعلموا رحمكم الله أن الحنيفية ملة ابراهيم أن نعبد الله مخلصا له الدين وبذلك امر الله جميع الناس وخلقهم له كما قل تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فإذا عرفت أن الله تعالى خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة كما قال تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون) . فمن دعا غير الله طالبا منه ما لا يقدر عليه الا الله من جلب خير أودفع ضر فقد اشرك في العبادة كما قال تعالى: (ومن اضل ممن يدعو من دون من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) فاخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك ، فمن قال يارسول الله أو يا ابن عباس أو ياعبد القادر زاعما أنه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه فهو المشرك الذي يهدر دمه وماله الى أن يتوب من ذلك وكذلك الذين يحلفون بغير الله . أو الذي يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجي الى غير الله أو يستعين بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو ايضا مشرك وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذي قاتل رسول الله المشركين عليه وامرهم باخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصح ذلك أي التشنيع عليهم بمعرفة اربع قواعد ذكرها الله في كتابه

(أولها) ان يعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون ان الله هو الخالق الرزاق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى « قل من يرزقكم من

السماء والأرض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله قل افلا تتقون » وقوله تعالى « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون الله افلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون الله قل فأنى تسحرون » . اذا عرفت هذه القاعدة واشكل عليك الأمر فاعلم انهم بهذا اقروا ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا

(القاعدة الثانية) إنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم . وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال الله تعالى : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف :

(القاعدة الثالثة) وهي ان منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذوراً » ورسول الله لم يفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين في كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله. واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف :

(القاعدة الرابعة) وهي انهم يخلصون لله في الشدائد وينسون ما يشركون والدليل عليه قوله تعالى : (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وأهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله ، فاذا عرفت هذا فاعرف أن المشركين في زمان النبي أخف شركا من عقلاء مشركي

زماننا لأن أولئك يخلصون لله في الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم في الشدائد والرخاء والله أعلم بالصواب ، اه

وهذه الرسالة والقواعد التي أسسها ذلك الشيخ لا شبهة فيها لأن هذا هو الدين الذي جاء به النبي والأنبياء من قبله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، لكن هذا الشيخ لم يتحقق ولم يحقق هذه المسألة ، واتبعه قومه من بعده فأفرطوا وفرطوا وقصروا حتى تولد منهم بسبب هذه القواعد تنقيص وتحقير ما عظمه الله وأمرنا بتعظيمه ومحبته وتوقيره وقاسوا المسلمين المخلصين في التوحيد بالمشركين حتى قاتلوا المسلمين في أفضل البقاع واستحلوا دماءهم وأموالهم كما وان أكثر العوام من جملة المسلمين قد تغالوا وافرطوا وابتدعوا بدعاً تخالف المشروع في الدين القويم فصاروا يستمدون من الأولياء الاحياء منهم والأموات معتقدين ان لهم التصرف وبأيديهم النفع والضر ويخاطبونهم بخطاب الربوبية وهذا غلو في الدين القويم وخروج عن الصراط المستقيم وقد ورد في الحديث المرفوع: (دين الله تعالى بين المغالي والمقصر)

وهنا شيء لا بد لك من معرفته وهو أن الحب لله وفي الله والحب مع الله بينهما فرق من أهم الفروق وعنه تعلم جهل وخطإ الوهابية وشيخهم فان الحب لله وفي الله هو من كمال الإيمان في الله والحب مع الله هو الشرك المنهي عنه وقاتلهم عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه ، والفرق بينهما ان الحب في الله ولله تابع لما يحبه الله كحب الرسل والملائكة والأولياء والعلماء والكعبة والمدينة وبيت المقدس لأن الله يحبهم ويحب من يحبهم ويعظمهم ، والحب مع الله على نوعين نوع يقدح في أصل التوحيد وهو شرك كعبادة الأوثان والأصنام والانداد من المشركين لانهم عظموا وأحبوا مع الله ما يبغضه الله ، والنوع الثاني يقدح في كمال الاخلاص والتوحيد ومحبة الله ولا يخرجه عن الاسلام كمحبة ما زينه الله للنفوس في النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث فان محبتها طبيعية ومحبة شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء فان أحبها لله ليتوصل بها اليه واستعانته على مرضاته وطاعته كانت من قسم الحب لله وفي الحديث « حبب الى من دنياكم النساء والطيب » وان احبهما لموافقة طبعه وشهوته وهواه كانت من المباحات لكن ينقص من

كمال محبته لله والمحبة فيه وان كان حبه لما مراده ومقصوده وقدمها على ما يحبه الله ورضاه منه كان ظالما لنفسه متبعا لهواه فالأول محبة السابقين والثانية محبة المقتصدين والثالثة محبة الظالمين فتأمل ذلك وما فيه . فانه معترك النفس الامارة والمطمئنة والله تعالى يوفقنا وإياك والسلام . اه ولم يذكر مثالا للحب مع الله وكأنه اكتفى بما عزاه منه الى أكثر عوام المسلمين من الغلو في الصالحين وحبهم لهم كحب الله وهو عين ماينكره الوهابية وما اظن انهم كانوا يتهمون بذلك جميع أفراد المسلمين ، والا كانوا مجانين

* * *

﴿ رسالة المحجوب . من باب الانتقاد على المنار ﴾

أرسل الينا بعض علماء تونس رسالة كان كتبها رجل اسمه السيد عمر المحجوب التونسي في الرد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي في زمنه وطلب منا ان نبين رأينا فيها ، فتصفحناها هي وما ألحق بها في نحو من نصف ساعة فلم نجد فيها شيئاً يزيد على ما تلوكه العامة في هذه المسائل وعلمنا من الذيل الذي ألحق بها انها طبعت معه بعد الحادثة التي وقعت معنا بدمشق في آخر رمضان من السنة الماضية لتكون ردا علينا فيما شاع من أن سبب تلك الفتنة تأييدنا لمذهب الوهابية . فيارحمتا لهؤلاء الجهلاء المساكين الضعفاء الذين تهيجهم الأكاذيب الى إظهار جهلهم وطاعة انفعالاتهم العدائية لمن هو لهم صديق غير عدو وان كانوا لا يميزون

قد علم الخاص والعام ان حادثة الشام لم تكن مقاومة لمذهب الوهابية ولا انتصارا للسنة السنية وانما كانت انتصارا للاستبداد على الدستور، وايثاراً للظلمات على النور، وان خطيبي فتنتها الشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ صالحا التونسي قد حاولا مع رؤسائهما من مدبري تلك الفتنة إثارة فتنة اعظم منها باسم الاسلام اذ نشروا تلك الجمعية الفسادية التي اطلق عليها (تمويها وخداعا) اسم الجمعية المحمدية، لذلك اختفيا عن الانظار، وولياالأدبار، لما نصر الله الدستور، وخذل الغرور، وأنشأت الدولة العلية تحاكم زعماء الفتنة، الذين كانوا يحرضون على الثورة ، ثم ظهر الخطيب فاستنطق ورفع أمره الى الاستانة. ومعلوم ان صالحا التونسي من دعاة ابي الهدى دجال عبد الحميد اللذين كفى الله المسلمين شرهما (والعاقبة للمتقين)

وانا ندعو صاحب الذيل الطويل لتلك الرسالة هو وجميع من على رأيه من

علماء تونس الى المناظرة جهرا فيما يزعمون ان المنار أخطأ فيه بأن يذكروا المسألة التي يزعمون انها خطأ والدليل من الكتاب والسنة وكذا الاجماع والقياس على ذلك مع التصريح بأسمائهم ونحن نجيب عن اقوالهم ونجعل اهل العلم والفهم في المشرق والمغرب حكما بيننا وبينهم . وانما نشترط ان يصرحوا بأسمائهم لتعلم قيمة المحق منهم والمبطل في الحال ، ويحفظ التاريخ ذلك لاعقابهم في الاستقبال ،

على ان صاحب الذيل المشار اليه لم يذكروا مسألة الاجتهاد من خطإ المنار الا مسألة طهارة العطر الافرنجي والكحول وكذا ما سماه تحليل مقتولة العنق والمضروب بة على الرأس ولبس القبعة الافرنجية ــ المسائل الثلاث التي كانت موضوع فتوى الاستاذ الامام منذ سنين فان فرضنا ان ما كتبه المنار فيها كان خطأ فليدلونا على كتاب من كتب الفقه او الحديث أو التفسير ليس فيه مسائل كثيرة منتقدة لمخالفتها للكتاب أو السنة أو لما رجحه العلماء الآخرون المخالفون لأولئك المؤلفين لها في اجتهادهم او فهمهم

اذا كان صالح التونسي وعبد القادر الخطيب الدمشقي قد تصديا للفتنة بدمشق بباعث السياسة وهما يعلمان انهما باغيان مخطئان فيحتمل ان يكون احمد جمال الدين صاحب ذيل هذه الرسالة حسن النية له شيء من العذر بجهله . وهل يرجى من مثله ان يفهم دقائق مباحث المنار الاجتهادية وهو الى اليوم لم يفهم معنى العبادة بل اتبع فيها الشيخ المحجوب الذي لم يعرف كيف كان اساس دعوة الاسلام النهي عن عبادة غير الله تعالى الى عبادته وحده كما نبينه قريبا ؟ فكيف يتكلم في مثل شيخ الاسلام ابن تيمية الذي لم يسمح الزمان له بنظير

اما رسالة الشيخ المحجوب فليس فيها شيء الا وقد سبق لنا تحريره في المنار ولا يفهم العامة ورؤساؤهم من أصحاب العمائم من اعادة القول في بيان مواضع الخطإ فيها الا ان المنار ينتصر للوهابية ، على ذلك الشيخ الذي ينتسب الى ما لا يفهمه من السنة السنية ، وما كان المنار لينتصر لمذهب من المذاهب او يتعصب لفئة الفئات وإنما يؤيد الكتاب والسنة ويحكمها في أقوال المتقدمين والمتأخرين . وأما أمثال هذا المعترض المسكين فان قصارى علمه ان يحفظ كلمات من بعض شيوخه المعاصرين او المؤلفين المتأخرين الذين ليس لاكثرهم من العلم الا نسخ كتب القدماء ، مع زيادات يستميلون ببعضها العامة وببعضها الآخر الملوك والامراء ،

يظهر ان الشيخ المحجوب كان ممن يعبر عنهم بالأدباء ، ولم يكن من العلماء ، فقد ظهر في رسالته تشميره في الهجاء والشتم ، وقصوره في مسائل الدين والعلم ، وهو لم يذكر في رسالته كلام خصمه ، فيوازن بينه وبين رده ، فنكتفي اذاً بالإشارة إلى بعض خطإه وضعفه ، ليعلم انه لا يوثق بعلمه ، مع عدم التعرض لخطإ خصمه وصوابه ،

قال في (ص٤) في رد انكار خصمه ما تفعله العامة عند قبور الأولياء والصالحين من الاستغاثة والتوسل والتعظيم « معاذ الله ان يعبد مسلم تلك المشاهد ، أو أن يأتي اليها معظما لها تعظيم العابد ، أو أن يخضع لها خضوع الجاهلية للاصنام ، وان يعبدها بركوع أو سجود أو صيام . » ونقول ان هذا القول يدل على ان المحجوب لم يكن يعرف الواقع الذي عليه الجم الغفير من العامة أو انه يعرفه ويقول غير ما يعلم ، وانه لا يفهم معنى العبادة بل يتوهم انها عبارة عن الصلاة والصيام وسائر التكاليف الشرعية فقط كما قال مقلده صاحب الذيل في (ص١٩) في تقوية رده: «وما دري (أي ابن عبد الوهاب) ان العبادة الشرعية هي التكاليف التي اشتملت عليها الشريعة سواء كانت معقولة المعنى أو تعبدية » وقد جهل صاحب الذيل كصاحب الاصل ان أول شيء دعا اليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو ان يعبد الله وحده وان لا يعبد سواه . دعا إلى ذلك قبل ان تشرع التكاليف العملية من الصلاة والزكاة والصيام فهل يصح ان يقال ان المراد بالنهي عن عبادة غير الله تعالى هو ان تكون التكاليف التي ستشرع بالتدريج خاصة بالله تعالى؟ هل يصح ان يكون معنى العبادة شيئاً لم يكن معروفا ولا مشروعا ؟ ؟ ياحسرة على المسلمين، الذين ابتلوا بأمثال هؤلاء المؤلفين

على ان أمثال هؤلاء الضعفاء يعذرون إذا جهلوا معنى العبادة لأن من كانوا يستطيعون تحديد الحقائق من العلماء عدوا معنى العبادة من البديهيات فلم يهتموا ببيانه ولذلك لم يشتهر عنهم نقل في تحديده . وأما الأقوال المشهورة فيه عن اللغويين وغيرهم فليست حدودا بل لا يبلغ بعضها ان تكون رسوما تامة أو ناقصة وقد بينا ذلك مرات كثيرة ومنه ان أعظم مظاهر العبادة الدعاء وفي حديث البراء عند أحمد وابن أبي شيبة وأصحاب السنن « الدعاء هو العبادة » وفي رواية ضعيفة للترمذي من حديث أنس «الدعاء مخ العبادة» وهل يكابر أحد في دعاء الالوف والملايين من عامتنا للموتى من

الصالحين إلا اذا كان لايخجل من إنكار المحسوسات؟ ألا انهم لاينكرونه ولكنهم يؤولونه لهم بانهم لايقصدون به العبادة وانما يقصدون التوسل!! ألفاظ يلوكونها ولايفهمونها ، الرسول صلى الله عليه وسلم يقول «الدعاء هو العبادة» أي هو الفرد الأعظم من أفرادها ، والركن الأكمل من أركانها، كقوله «الحج عرفة» فتجويز دعاء غير الله كتجويز الصلاة لغير الله بدعوى عدم قصد العبادة وتسميتها توسلا أو ما يشاء أهل التأويل من الأسماء

قال المحجوب (ص ٤) «واما ماجنحت اليه» وعولت في التفكير عليه ، من التوجه الى الموتى ، وسؤالهم النصر على العدا ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، التي لا يقدر عليها الا رب الأرضين والسموات ، الى آخر ماذكرته موقدا به نيران الفرقة والشتات ، فقد أخطأت فيه خطأ مبينا ، وابتغيت فيه غير الاسلام دينا ، فان التوسل بالمخلوق مشروع ، ووارد في السنة القويمة ليس بمحظور ولا ممنوع ، ومشارع الحديث الشريف بذلك مفعمة ، وأدلته كثيرة محكمة ، تضيق المهارق عن استقصائها و يكل اليراع إذا كلف باحصائها ، »

ثم ذكر أثر استسقاء عمر بالعباس (رضي الله عنهما) وحديث طلب عمر الدعاء من أويس القرني ، ومسألة الشفاعة ، والوهابية لاينكرون أثر الاستسقاء ولا الدعاء ولا الشفاعة ، وكتب ابن تيمية التي هي عمدتهم في هذا الباب مثبتة لهذه المسائل مبينة لها أتم بيان وهم يحتجون بها على الذين يدعون أصحاب القبور فيقولون أن عمر والصحابة لم يدعوا العباس ان يسقيهم الغيث كما يدعو جمهور عامتنا الاموات ان يقضوا لهم حاجاتهم . وانما كان توسلهم بالعباس هو جعله اماما لهم في الاستسقاء فصلى بهم ودعا وهم أمنوا على دعائه . ويقولون انه ورد فيه ان عمر رضي الله عنه قال « اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » وهذا دليل على ان الميت لا يتوسل به وان كان حيا عند الله تعالى . وأقول ان المسألة ليست من باب ما يسمونه اليوم بالتوسل وهو ان يدعى غير الله تعالى ويطلب منه شيء ما وإنما هو استسقاء كما تقدم . ويحتجون به من وجه آخر وهو دعاء العباس الذي ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح وهو « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يكشف الا بتوبة » وهو نص في ان كشف الضر لا يكون بسبب الأشخاص وانما يكون بالتوبة الى الله والرجوع اليه وحده . وفي الحديث روايات لا تصح (لها بقية)

باب الاخبار والآراء

(جمعية الاتحاد والترقي)

استحسن العقلاء في سورية ما كتبناه في الجزء الثالث من مجمل ما ينتقده الناس على هذه الجمعية وكتب الينا غير واحد يقول ان المتدينين من أعضاء الجمعية أنفسهم استحسنوه وعدوه من النصح الخالص : وقد استنكره آخرون مع ما عهدوا من تأييدنا للجمعية في المناظرات والخطب زيادة عما يكتب في المنار. وقد يعذر المستنكر لذلك اذ لم يكد يصل ذلك الجزء الى سورية الا وقد ظهرت خفايا ثورة الاستانة وعلم الناس انها دبرت في «يلدز» لمحو آية الدستور واعادة استبداد عبد الحميد الى شر مما كان عليه ، وفر اعضاء الجمعية الى سلانيك مستنصرين مستصرخين ينفضون غبرة الموت قتلا وغيلة عن رؤوسهم

نعم انا كتبنا ما كتبناه قبل ظهور تلك المكيدة ولكننا قبيل طبع الكراسة الأخيرة من ذلك الجزء علمنا ببعض بوادر الفتنة فاشرنا اليها بما هو صريح في الميل الى الجمعية والدعاء لها بالانتصار . ومع هذا كله نرى ان التعريف بما ينكر الناس عليها وما يقولون فيها ضروري لاسيما ممن يحمد سعيها ولا ينكر فضلها

انا لخصنا الكليات التي يرجع اليها انتقاد المنتقدين من غير موافقة لهم على كل ما ينتقدونه وسكتنا عن بعض الجزئيات الفظيعة التي هي من قبيل تعيين بعض الاشخاص والأعمال المنكرة . وهل تؤمن عاقبة اشخاص يعملون بقوة في مملكة واقعة في اشد الحرج وهم لا يسألون ولا ينتقدون ؟ وقد كان الصحابة يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم في بعض رأيه في السياسة والحرب حتى يرجع عنه ، فهل كانت الجمعية اجدر بالتقديس منه ؟

إنا قد صرحنا هناك بفضل الجمعية علينا في الانقلاب وإنما ذلك الفضل لأفراد ربما كان العمل الآن في أيدي غيرهم ممن لم يكن لهم عمل قط في الانقلاب وقد دخل في الجمعية خلق كثير منهم من لا خلاق لهم ولكنهم أصحاب دهاء أو حظ — على ما يقال — وقد ينتخب بعضهم للجنة العليا العاملة . كما ان اللجان المركزية في

بعض البلاد فيهامن نعرف ومن لا نعرف ممن لاخلاق لهم ولا عرفان ولا إخلاص فهل يقول عاقل ان مصلحة الامة أومصلحة الجمعية أن تعد الجمعية مقدسة في جميع أعمالها؟

وقد أيدناها أيضاً في ذلك المقال من حيث الحاجة الى بقائها وتأييد الجيش لها إذا حدث مايخشى منه على الدستور مع اعتزاله للسياسة في عامة أحواله فهل فوق هذا التأييد من تأييد ؟ على انه تبين ان الجيش حام للدستور على كل حال

انه وأيم الحق قد راعنا عندما عدنا من سورية الى مصر ما سمعناه من أحرار الترك وسائر العثمانيين من الانكار على الجمعية في تصرفها وعلمنا ان الانكار والاستياء في الاستانة أشد فخشينا ان ينتج ذلك مما لا تحمد عاقبته إذا لم تتداركه الجمعية ، فكان ذلك هو الباعث لنا على كتابة ما كتبنا وما كنا إلا ناصحين

***

(طعن المؤيد في الدولة العلية الدستورية)

ظهر المؤيد بمظهر الساخط الماقت للحكومة الدستورية في الدولة العلية وقد كادت تنقضي السنة الاولى لها وهو يكتب عنها بقلمه وأقلام بعض محرريه ومكاتبيه شر مايسمع وما يقرأ ، وشر مايتخيل ويتصور ، وقد أرضى بذلك بعض الاغرار من المصريين المخدوعين بما كانوا يقرءون في الجرائد من إطراء عبد الحميد ،ولكنه أسخط العقلاء وخواص الأمة المصرية حتى اننا سمعنا بعض الكبراء الذين يعرف صاحب المؤيد صدقهم واستقلالهم يقول انني لم أر أحدا من الخواص يعذر المؤيد على خطته هذه

وقد اختلف رأي أهل التعليل في سبب اختيار صاحب المؤيد لهذه الخطة فقال بعضهم إنه قد أسخط في سنيه الأخيرة جمهور أهل بلاده من جميع الطبقات حتى الأزهريين وهو يعلم ان حسن الظن بعبد الحميد خان غالب فيهم فأنشأ يدافع عنه و يطعن في الحكومة الجديدة ليستميل بذلك الجمهور الساخط ومن هؤلاء من يقول ان الجمهور سخط على المؤيد لتذبذبه واتباعه لهواه دون مصلحة الامة ومنهم من يقول بل لاعتداله في الكلام عن الحكومة والمحتلين وهذا هو الأقل

ويقول آخرون ان سبب اختيار المؤيد لهذه الخطة هو اتفاقه مع عزت باشا العابد وغيره من اعوان عبد الحميد على اسقاط الحكومة الدستورية واعادة الحكم

الحميدي السابق ولما خلع عبد الحميد وأخرج من عاصمة السلطنة كان الاصرار على الانتصار له من دعوى الثبات على الرأي

ومن الناس من يقول ان المواطأة بين عزت العابد وحزبه انما هي على تأسيس دولة عربية وخلافة جديدة . وقد تنصل المؤيد من هذا ولعن من يسعى اليه

ومنهم من يظن أن صاحب المؤيد يخدم بذلك انكلترا التي تحب ان تمحو نفوذ الدولة الديني من مصر والهند وان جاملتها في أوربا وان لهايدا في تحريك سخط مسلمي الهند على الحكومة العثمانية الجديدة ، وهذا إغراق في سوء الظن

ومنهم من يرى ان صاحب المؤيد لما كان يعلم ان جمعية الاتحاد والترقي تعتقد انه من جواسيس الحكومة الحميدية وشيعة عزت العابد لاسيما بعد ان أظهر ضلعه في أول العهد بالانقلاب وميله الى الماضي وانها لا بد ان تتخذه خصما وعدوا - هاجها هي وحكومتها بقوة لعلها تخافه فتسعى الى استمالته فلا يحرم من الكرامة في الاستانة وسورية في كل مصيف

ومنهم من يرى انه لعله بما كان من فتك عبد الحميد خان بالدولة والامة اعتقد منذ حدث الانقلاب أن الدولة لم يبق فيها رمق فتنهض بحكومة دستورية فإما ان يعود عبد الحميد الى استبداده وإما ان يسقط الدولة بتدميره الماضي وكيده الحاضر فصار يكتب مايكتب وهو يظن ان الايام ستصدقه بفشل الدولة وسقوط الدستور أو ماهو أعظم من ذلك فيظهر بمظهر السياسي الخبير والمحب الغيور . ويظن أنه لايبعد ان يكون سمع من كبار الاجانب أو عنهم بنفسه أو بواسطة عزت العابد شيئا من هذا المعنى لان الاجانب شعروا بالدسائس التي كان يديرها عبد الحميد واعوانه واعتقد الكثيرون منهم ان قوة الدولة ستكون قسمين يتصادمان فيتساقطان وقد أعدوا لذلك عدته . ونحمد الله ان كذب هذا التشاؤم

لماذا تضاربت الظنون واختلفت الآراء في إنحاء المؤيد على الحكومة الدستورية في الدولة العلية ؟ أليس لانه كان في زمن عبد الحميد يدافع عنها بالحق و بالباطل فيخفي عيوبها ويجعل سيئاتها حسنات؟ نعم ومن العجب ان يعكس الأمر الآن فينحي عليها بالحق و بالباطل ويجعل حسناتها سيئات

يقول انه يعتقد حقية ما يكتب . ونقول لماذا لم يختر من الحق الا ما يسر، ويضر نشره، ومتى كان السياسي صوفيا صديقا يقرر العقائد كما هي مهما رتب عليها؟ أليس عند هؤلاء الصديقين من الاسرار الباطنة ما لا يجوزون نشره، لانهم يخشون ضره؟

يقول انه يقصد بهذه الشدة النفع بإرجاع جمعية الاتحاد والترقي عن غرورها الذي يراه ضارا . نقول ولماذا يخفى عليه غروره في هذه الدعوى فيتوهم ان هذه الجمعية تنتظر جريدته العربية لترجمها وتعمل بنصائحها وهي لم تحفل بما قام في وجهها من الاحزاب والكتاب الذين هم أبلغ منه قلما وأعلم بمكان الانتقاد، ولماذا خفي عنه الآن عما كنت أعده كغيري عذرا له في دفاعه عن الحكومة الحميدية وهو ان اظهار سيئات الدولة وعيوبها يسقط منزلتها من نفوس المصريين وغيرهم من قراء المؤيد فيكون ذلك ضعفا لها على ضعف؟ أليس إسقاط نفوذ الدولة الآن أشد ضررا من إسقاطه في العصر الماضي عصر الظلم والتخريب والتدمير؟ بلى ان خطة المؤيد الجديدة يخشى ضررها ولولا ان الجرائد التي تناقضها في القطر المصري نفسه أوسع منها انتشارا لاضلت وأضرت الجمهور وما يرجوه صاحب المؤيد من التأثير في نفوس لجنة جمعية الاتحاد والترقي لا يوازي هذا الضرر لو حصل على انه يطعن الدولة لا الجمعية وحدها

ان خطته هذه قد سلبته أنفس حلية كانت له في أنفس المسلمين لاسيما مسلمي الدولة العلية الذين يهتم لهم سائر مسلمي الأرض وهي انه صاحب الجريدة الاسلامية العربية الكبرى التي تدافع عن الخلافة والسلطنة وتؤيد نفوذها والآن نرى الجرائد العثمانية في عاصمة الدولة وولاياتها تنطق بلسان واحد صائحة ان المؤيد عدو الدولة والخلافة عدو الدين والملة، وقد احرقه جماهير الناس في بلاد كثيرة حتى بلاد الحرمين ونادوا بإسقاطه وما كان أغناه عن التصدي لهذه العاقبة التي لم تكن في حسبانه

نعم ان صاحب المؤيد صار من عدة سنين على غير ما كنا نعهد منه: صار لا يبالي برأي احد ولا بنصحه ولا يحسب للعواقب حسابا ويرى ان الدنيا كلها اذا قامت عليه اليوم فانه يسهل عليه ان يستميلها اليه غدا، ولكننا رأينا هذه الشاكلة قد أضرته ولم تنفعه. هذا هو رأينا ان كان يقبله وهو يعلم اننا لا نقول الا ما نعتقد. ونتمنى لو يقدر بالفعل على استمالة الدولة العلية والامة العثمانية بما يكتبه بعد فيرجع عن اجتهاده ذاك الى ضده والله الموفق

المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب
قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق
(مصر — السبت سلخ جمادى الآخرة ١٣٢٧ — ١٧ يوليو (تموز) سنة ١٢٨٥ هـ ١٩٠٩ م)

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٩٦ : ١٩٦) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (*)
(١٩٧) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٨ : ١٩٧)

(*) تصحيح : وقع غلط في العدد الذي نضعه في الجهة اليسرى للنقطتين المركبتين : وهو عد المصحف الذي طبعه فلوجل الالماني وذلك من أثناء آية (١٨٠ : ١٧٥ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم) فهنا تنتهي الآية في عد فلوجل ويجعل قوله تعالى (سيطوقون ما بخلوا به) ابتداء آية ١٧٦ « ف » . وكذلك قسم آية (١٨٣ : ١٧٩ الذين قالوا ان الله عهد الينا) فجعلها آيتين أول الثانية منهما (١٨٠ ف قل قد جاءكم رسل من قبلي) وكذلك قسم آية ١٩٣ : ١٩٠ ربنا اننا سمعنا مناديا » فجعلها آيتين أول الثانية منهما ١٩١ « ف » ربنا فاغفر لنا » وأيضاً جعل آية (١٩٥ : ١٩٣ فاستجاب لهم ربهم) ثلاث آيات أول الثانية منهن (١٩٤ فالذين هاجروا — وأول الثالثة ١٩٥ ثواباً من عند الله) وهنا يتفق مع عد مصاحف الاستانة ومصر وتكون آية لا يغرنك هي آية ١٩٦ في المصحف الذي يعتمد على عدده الاوربيون وهو ما نضع أرقامه عن يسار النقطتين : والمصاحف التي يعتمد على عددها المسلمون وهو ما نضعه على يمينهما وتكون آيات السورة في الجميع ٢٠٠

لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٩ : ١٩٨) وَإِنَّ
مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ
خَٰشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَٰتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، (١٩٩ ف) أُولَٰئِكَ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٠ : ٢٠٠) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ •

أقول قد علم مما تقدم ان بعض المفسرين قالوا إن المراد بقوله تعالى في الآيات السابقة « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك » ما وعد الله به المؤمنين من النصر والظفر وأننا اخترنا ان المراد ذلك وما وعد من ثواب الآخرة . وعلى هذين القولين ربما يستبطئ بعض المؤمنين إيتاءهم الوعد المتعلق بالنصر والتغلب على الكافرين الظالمين كما يدل قوله تعالى (٢ : ٢١٤ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه حتى نصر الله) فجاء قوله تعالى ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ الآية تسلية لهم وبياناً لكون الإملاء للكافرين واستدراجهم لا يصح ان يكون مدعاة ليأس المؤمنين ولا حجة للمنافقين الذين قالوا عند الشدة (٣٣ : ١٢ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) — فهذا وجه في اتصال هذه الآية بما قبلها في ترتيب الآيات الشريفة

وقال الامام الرازي اعلم انه تعالى لما وعد المؤمنين بالثواب العظيم وكانوا في الدنيا في نهاية الفقر والشدة والكفار كانوا في النعم ذكر الله تعالى في هذه الآية ما يسليهم ويصبرهم على تلك الشدة

وقال الأستاذ الإمام كان الكلام في أولي الألباب المؤمنين وقد علمنا ان الله تعالى يستجيب لهم بالاعمال فالعبرة بالعمل ومنه المهاجرة وتحمل الايذاء في سبيل الله وبذل النفس في القتال حتى يقتلوا وبذلك يستحقون ثواب الله تعالى . ثم ذكر حال الكافرين للمقابلة وربط الكلام بما قبله بالنهي عن الاغترار بما هم

فيه من نعيم وتمتع كأنه يقول على المؤمن ان يجعل مرمى طرفه ذلك الثواب الذي وعدته فهو النعيم الحقيقي الباقي وهذا الذي فيه الكافرون متاع قليل فلا تطلبوه ولا تحفلوا به . يسهل بهذا على المسلمين ما كلفوه من تحمل الإيذاء والعناء في إقامة الحق

أقول أما معنى الآية فهو لا يغرنك أيها المخاطب المؤمن أو لا يغرنك يا محمد (قولان) تقلبهم قالوا وما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم من مثل هذا فالمراد به أمته فروي عن قتادة أنه قال : والله ما غروا نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى قبضه الله . ومعنى غره أصاب غرته فنال منه بالقول أو العمل شيئاً مما يريد وهو غافل عن ذلك لم يفطن لما في باطن الشيء مما يخالف الظاهر . قال الراغب والغرة (بالكسر) غفلة في اليقظة والغرار غفلة مع غفوة . وأصل ذلك من الغر (بالفتح) وهو الأثر الظاهر من الشيء ومنه غرة الفرس وغرار السيف أي حده . وغر الثوب أثر كسره وقيل : اطوه على غره، وغره كذا غرورا كأنما طواه على غره اهـ فالأظهر أن الغرور مأخوذ من الغرة (بالكسر) أي الغفلة ويقرب منه أو يتصل به أخذه من غر الثوب (بالفتح) وهو أثر طيه الذي يعبر عنه بالثني والمكسر وجمع الغر على غرور قال في الأساس « واطوه على غروره اي مكاسره » والمراد اطوه على طياته الأولى ليبقى على ما كان عليه ومنه غرارة الصغار (بالفتح) أي سذاجتهم وقلة تجاربهم يقال فتى غر وفتاة غر (بالكسر) وقيل ان الغرور مأخوذ من الغرار بالكسر وهو من السيف والسهم والرمح حدها قالوا غره أي خدعه واطمعه بالباطل كأنه ذبحه بالغرار . وفيه مبالغة و بعد

وحاصل معنى النهي عن الغرور أن تقلب الذين كفروا في البلاد آمنين معتزين لا ينبغي ان يكون سببا لغرور المؤمن بحالهم وتوهمه ان هذا شيء يدوم لهم فان هذا من إبقاء الاشياء على ظاهرها من غير بحث عن اسبابها وعللها ، والغوص على بواطنها ودخائلها ، كما يطوى الثوب على غره وكما ينظر الغر الى ظواهر الاشياء دون بواطنها . ومن ادركته حالهم الاجتماعية علم ان تقلبهم في البلاد وتمتعهم بالأمن والنعمة فيها ليس قائما على أساس متين ، ولا مرفوعا على ركن ركين ، وإنما هو من قبيل حركة الاستمرار لمحرك من الباطل سابق لم يكن له معارض فاذا عارضه ما أنتم عليه من الحق لا يلبث ان يزول بالنسبة الى مجموعهم واما من يموت من أفرادهم على

فراش نعيمه ولم ينسأ له في أجله الى ان يظهر أمر المؤمنين فما يستقبله من عذاب الآخرة أعظم مما ناله من نعيم الدنيا والنتيجة ان ذلك كما قال ﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ أي ذلك التقلب في البلاد الذي يتمتعون به متاع قليل عاقبته هذا المأوى الذي ينتهون اليه في الآخرة فيكونون خالدين فيه سواء منهم من مات متمتعا بدنياه ومن أنسئ له في عمره حتى أدركه الخذلان بنصر الله المؤمنين فسلب منه متاعه أو نغصه عليه · واما المؤمنون فسيأتي مالهم في مقابلة هذا في الآية الآتية · وجهنم اسم للدار التي يجازى فيها الكافرون في الآخرة قيل انها أعجمية معربة وقيل بل هي عربية من قولهم ركية جهنام (بكسر الجيم والهاء والتشديد) أي بئر بعيدة القعر فجهنم اذا بمعنى الهاوية · والمهاد المكان الممهد الموطأ كالفراش قيل سميت النار مهادا تهكما بهم · وقد تقدم ذكر الكلمتين في البقرة (٢ : ٢٠٦ ـ فراجع ص ٢٤٨ ج ٢ تفسير)

قيل ان الآية نزلت في مشركي مكة إذ كانوا يضربون في الأرض يتجرون ويكسبون على حين لا يستطيع المسلمون ذلك لوقوف المشركين لهم بالرصاد وإيقاعهم بهم أينما ثقفوهم وعجز هؤلاء عن مقاومتهم إذا خرجوا من دارهم للتجارة أو غير التجارة · ويروى ان بعض المؤمنين قال ان أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت الآية · وقال الفراء كانت اليهود تضرب في الارض فتصيب الاموال فنزلت هذه الآية في ذلك

ثم بين تعالى في مقابلة ذلك مأوى المؤمنين، ليعلموا انهم في القسمة غير مغبونين، فقال

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله ﴾

قالوا إن النزل ما يهيأ للضيف النازل وقيل أول ما يهيأ له وخصه الراغب بالزاد · قال الفراء نصب « نزلا » على التفسير كما تقول : هو لك هبة وبيعا وصدقة · واذا كانت الجنات نزلا وهي النعيم الجسماني فلا جرم يكون النعيم الروحاني برضوان الله الاكبر أعظم من الجنة ونعيمها اضعافا مضاعفة · وقد وعدهم هذا الجزاء على التقوى التي يتضمن معناها ترك المعاصي وفعل الطاعات ثم أشار الى ان النعيم الروحاني

يكون بمحض الفضل والاحسان للابرار فقال ﴿ وما عند الله ﴾ من الكرامة الزائدة على هذا النزل الذي هو بعض ما عنده وأول مايقدمه لعباده المتقين ﴿ خير للابرار ﴾ لا مما يتقلب فيه الذين كفروا من متاع فان، بل ومما يحظى به المتقون من نزل الجنان، وهذا الذي قلناه أولى من القول بأن ما عند الله للابرار هو عين ذلك النزل الذي قال انه من عنده لان نكتة وضع المظهر وهو قوله تعالى « وما عند الله » موضع المضمر الذي كان ينبغي ان يعبر به لو كان هذا عين ذاك تظهر على هذا ظهورا لا تكلف فيه، وبه ينجلي الفرق بين الذين اتقوا وبين الابرار فان الابرار جمع بارّ أو برّ وهو المتصف بالبر الذي بينه الله تعالى في سورة البقرة بقوله (٢ : ١٧٥ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الخ وقد أشرنا اليه في آيات الدعاء القريبة (راجعه ثانية في ص ١١٩ ج ٢ تفسير) فشرح البر بما ذكر في تلك الآية يؤيد ما ذكره الراغب من انه مشتق من البر (بالفتح) المقابل للبحر وانه يفيد التوسع في فعل الخير فهو اذًا أدل على الكمال من التقوى التي هي عبارة عن ترك أسباب السخط والعقوبة وتحصل بترك المحرمات وفعل الفرائض من غير توسع في نوافل الخيرات · وذكر جزاء المؤمنين بقسميهم ـ الذين اتقوا والابرار ـ بلفظ الاستدراك للتنصيص على ماذكرنا من المقابلة بينهم وبين الذين كفروا كما قلنا

﴿ وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ﴾ انّ من يفسر الذين كفروا في الآية السابقة بأهل الكتاب يجعل هذه الآية استدراكا أو استثناء من عمومها أي ذلك جزاء من استكبر تم ما يتمتعون به من أصر منهم على كفره وان منهم لمن يؤمن بالله الخ ويصح هذا أيضا على الوجه الذي اخترناه من عموم الذين كفروا · وقد جاء بمعنى هذه الآية عدة آيات · وقد روى النسائي من حديث أنس قال لما جاء نعيّ النجاشي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلوا عليه » قالوا يا رسول الله نصلي على عبد حبشي فأنزل الله هذه الآية · وروى ابن جرير نحوه عن جابر وفي المستدرك عن عبد الله بن الزبير قال نزلت في النجاشي « وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله »

اه من لباب النقول . وتقول انها تشمل النجاشي وغيره من اليهود والنصارى الذين صدق عليهم ما فيها من الصفات وكذا المجوس على القول بأنهم أهل كتاب كما روي عن علي كرم الله وجهه ولكن لا نعرف أحدا منهم أسلم في عهد التنزيل الا سلمان الفارسي رضي الله عنه على انه كان قد تنصر قبل إسلامه . ثم راجعت الرازي فاذا هو يقول : واختلفوا في نزولها فقال ابن عباس وجابر وقتادة نزلت في النجاشي حين مات وصلى عليه النبي (ص) فقال المنافقون انه يصلي على نصراني لم يره قط . وقال ابن جريج وابن زيد نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه . وقيل نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى فأسلموا . وقال مجاهد نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم . وهذا هو الأولى لانه لما ذكر الكفار بأن مصيرهم الى العقاب بين فيمن آمن منهم بأن مصيرهم الى الثواب اه

وقال الأستاذ الامام انه بعد ان بين حال المؤمنين وما اعدلهم من الثواب ، وذكر حال الكافرين وما اعدلهم من العقاب، ذكر فريقا من أهل الكتاب، يهتدون بهذا القرآن، وكانوا مهتدين من قبله بما عندهم من هدي الأنبياء ، وذكر من وصفهم الخشوع لله وما كل من يدعي الايمان بالكتاب خاشع لله . وهذا الخشوع هو روح الدين وهو السائق لهم الى الايمان بالنبي الجديد وهو الذي حال بينهم و بين ان يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . وهذا الثمن يعم المال والجاه فان منه التمتع بما كانوا فيه من ذلك وان صعب على الانسان أن يترك ما ألفه. وخص هؤلاء بالذكر على كونهم من المؤمنين الذين وعدوا بما تقدم ذكره في مقابلة الكافرين لأجل القدوة بهم في صبرهم على الحق في الدين السابق والدين اللاحق . وذكر إيمانهم بصيغة التأكيد لأن أهل الكتاب كانوا بغرورهم بكتابهم وتوهمهم الاستغناء بما عندهم عن غيره كانوا ابعد الناس عن الايمان وكان من الغرابة بعد ذلك العناد ومكابرة النبي صلى الله عليه وسلم وحسده على النبوة والتشدد في إيذائه ان يؤمن بعضهم إيمانا صحيحا كاملا . ولهذا كان المؤمنون منهم قليلين وكانوا من خيارهم علما وفضلا و بصيرة . واننا نرى علماءنا الاذكياء

في هذا العصر قلما يرجعون عن عقيدة أو رأي في الدين جروا عليه وتلقوه عن مشايخهم وقرأوه في كتبهم وان كان باطلا وخطأ ظاهرا

وفي هذه الآية تأييد لكون حال المؤمنين على ما كانوا عليه من ضيق خيرا من حال الكافرين على ما كانوا عليه من سعة كأنه يقول انظروا الى حال الأخيار من أهل الكتاب كيف لا يحفلون بذلك المتاع الدنيوي بل يؤثرون عليه ما عند الله تعالى . فهذا من باب المثل والاسوة للمسلمين .

أقول وصفهم بخمس صفات (إحداها) الايمان بالله يعني الايمان الصحيح الذي لا تشوبه نزغات الشرك ولا يفارقه الاذعان الباعث على العمل ، لا كمن قال فيهم (٢ : ٨ ومن الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر وماهم بمؤمنين) ولا من قال فيهم (١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

(ثانيها) الايمان بما أنزل الى المسلمين وهو ما أوحاه الله إلى نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقدمه على ما بعده لأنه العمدة الذي عليه العمل وله الهيمنة والحكم الفصل في الخلاف لثبوته باليقين ، وعدم طروء الضياع عليه والتحريف ،

(ثالثها) ما أنزل اليهم وهو ما أوحاه الله تعالى الى أنبيائهم . ولا ينافي ذلك ضياع ونسيان بعضه وطروء التحريف بالترجمة والنقل بالمعنى على البعض الآخر فان المراد الايمان به إجمالا واتباع ما أرشد اليه القرآن فيه . وقد تقدم بيان حكم القرآن في التوراة والانجيل في تفسير الآية الأولى من هذه السورة فراجعه (ص ١٥٥ — ١٥٩ ج ٣ تفسير)

(رابعها) الخشوع وهو ثمرة الايمان الصحيح الذي يعين على اتباع مايقتضيه الايمان من العمل . فالخشوع أثر خشية الله تعالى في القلب تفيض على الجوارح والمشاعر فيخشع البصر بالسكون والانكسار ، ويخشع الصوت بالخافتة والتهدج ، كما يخشع غيرهما

(خامسها) وهي أثر لما قبلها عدم اشتراء شيء من متاع الدنيا بآيات الله كما هو فاش في أصحاب الايمان التقليدي الجنسي من علماء ملتهم ويقع مثله من أمثالهم في سائر الملل ، وقد تقدم بيانه في هذه السورة وما قبلها

قال تعالى ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي أولئك المتصفون بما ذكر من الصفات لهم أجرهم اللائق بهم عند ربهم الذي رباهم بنعمه وهداهم الى الحق أي في دار الرضوان التي نسبها الرب عز وجل اليه تشريفا لها ولأهلها . بخلاف الذين ليس لهم مثل هذه الصفات من أهل الكتاب المغرورين بأنفسهم وسلفهم عنادا حملهم على كتمان الحق الذي هو نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم يعلمون انه الحق فأولئك هم الذين ليس لهم في الآخرة الا النار فان كل من بلغته دعوة محمد (ص) وظهرت له حقيتها كما ظهرت لهم وجحد وعاند كما جحدوا وعاندوا فلا يعتد بإيمانه بالانبياء السابقين وكتبهم ولا يكون إيمانه بالله تعالى إيمانا صحيحا مقرونا بالخشية والخشوع ولذلك لا يخشاه في مكابرة الحق والاصرار على الباطل . ولا ينافي هذا ما في آية (٢ : ٦٢ ان الذين آمنوا والذين هادوا) من الإطلاق لان تلك الآية فيمن لم تبلغهم دعوة النبي (ص) على حقيقتها ولم تظهر لهم حقيتها كالذين كانوا قبله

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد قصير بما يكشف لهم من تأثير أعمالهم في نفوسهم بحيث يتمثل لهم فيها كل عمل سبق منهم كالصور المتحركة التي تمثل الوقائع في هذا العصر . وقد سبق تقرير ذلك

ثم ختم سبحانه السورة بهذه الوصية للمؤمنين لانها هي التي تتحقق بها استجابة ذلك الدعاء وإنفاذ الوعد بالنصر في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ قال الاستاذ الامام أي اصبروا على ما يلحقكم من الاذى وصابروا الاعداء الذين يقاومونكم ليغلبوكم على أمركم ويخذلون الحق الذي في أيديكم واربطوا الخيل كما يربطونها استعدادا للجهاد .

أقول فالمصابرة والمرابطة وهي الرباط بمعنى مباراة الاعداء ومغالبتهم في الصبر وفي ربط الخيل كما قال (٨ : ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) على الاصل الذي قرره الإسلام من مقاتلتهم بمثل ما يقاتلوننا به فيدخل في ذلك مباراتهم في هذا العصر بعمل البنادق والمدافع والسفن البحرية والبرية والهوائية ، وغير ذلك من الفنون والعدد العسكرية ، ويتوقف ذلك كله على البراعة في العلوم الرياضية

والطبيعية ، فهي واجبة على المسلمين في هذا العصر لان الواجب من الاستعداد العسكري لا يتم الا بها . وقد اطلق لفظ المرابطة عند المسلمين على الاقامة في ثغور البلاد وهي مداخلها على حدود المحاربين لأجل الدفاع عنها اذا هاجمها الاعداء فان هؤلاء يقيمون فيها ويقومون في اثناء ذلك بربط خيولهم وخدمتها وغير ذلك مما يحتاج اليه من الاستعداد

وقال الاستاذ الامام في الوصية بالتقوى : يكثر الله تعالى من هذه الوصية ومع ذلك نرى الناس قد انصرفوا عنها بتة حتى صار التقي عند الناس هو الاهبل الذي لا يعقل مصلحته ولا مصلحة الناس . ولا شيء أشأم على التقوى من فهمها بهذا المعنى التقوى ان تقي نفسك من الله أي من غضبه وسخطه وعقوبته ولا يمكن هذا الا بعد معرفته ومعرفة ما يرضيه وما يسخطه ولا يعرف هذا الا من فهم كتاب الله تعالى وعرف سنة نبيه (ص) وسيرة سلف الأمة الصالح مطالبا نفسه بالاهتداء بذلك كله . فمن صبر وصابر ورابط لاجل حماية الحق وأهله ونشر دعوته واتقى ربه في سائر شؤونه فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى .

وأقول ان الفلاح هو الفوز والظفر بالبغية المقصودة من العمل وقد يكون ذلك خاصا بالدنيا كما في قوله ٢٠ : ٦٤ وقد أفلح اليوم من استعلى) وقد يكون خاصا بالآخرة كقوله (١٨ : ٢٠ ولن تفلحوا إذا أبدا) ويكون مشتركا بين الدارين وعندي ان أكثر وعد القرآن المؤمنين من هذا النوع . وإرادة الفلاح الدنيوي من الآية التي نفسرها ظاهرة فان الصبر ومصابرة الاعداء والمرابطة والتقوى كلها من أسباب الفوز على الأعداء في الدنيا كما أنها مع حسن النية وقصد إقامة الحق والعدل الذي هو شأن المؤمن من أسباب سعادة الآخرة فنسأل الله تعالى ان ينيلنا ما أرشدنا اليه من سعادة الدارين

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الهجرة وحكم مسلمي البوسنه فيها ﴾

(س ٢٥) من صاحب الامضاء في البوسنه (*)

بعد السلام عليكم يافضيلة الأستاذ الأكبر ، والعلامة الفهامة الهمام الاوحد ، حجة الاسلام ، وامام أهل الحق وفخر الأنام ، العالم العامل الفاضل الكامل المحقق ، والبحر النحرير الفيلسوف الحكيم المدقق ، الاديب اللبيب ، فريد العصر ، ووحيد الدهر ، سيدنا ومولانا ومرشدنا ، الشيخ محمد رشيد رضا ، عمره الله وحياه بأحسن الحياة ،

أقول : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ذي العظمة والكبرياء ، والصلوة والسلام على سيدنا ومولانا وقرة أعيننا ورسوله الداعي الى سبيل الهدى سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين المهتدين بهداه والذين اتبعوهم باحسان الى يوم الحشر والجزاء ،

أما بعد فقد أخبرني بعض المصاحبين بان واحدا من علماء الاستانة قد اتفق ان ألقى وعظا في جامع بمدينة عندنا ، فمن جملته ان قال فيه بوجوب الهجرة علينا وعدم صحة النكاح ونحوه بعد ما ألحقت النمسا وضمت (ولاية البوسنه والهرسك)

(*) ان السائل من المغالين في حب المنار وصاحبه فهو يطرينا بالألقاب والنعوت التي نخجل من ذكرها وإنما ننشرها عملا بما جرينا عليه اخيرا من نشر الاسئلة بنصوصها كما جرى عليه علماؤنا من قبل الا من اذن لنا بتصحيح بعض اغلاطه اللفظية

الى أملاكها وملكها . وشدد أيضاً فقال بعدم صحة أركان الاسلام تحت حكومتها مطلق الصلوة فالجمعة داخلة في ذلك ونحو الصيام والحج والزكوة ، فاضطرب منه أكثر من سمع ما قال اضطرابا شديداً ، ظنا منهم بان حقيقة الامر كما قال :

فياسيدي ومولاي وقرة عيني ويا ناصر الحق والسنة ، ويا قامع البدع الدينية الذليلة الشنيعة ، و يا كاشف الغمة عن هذه الامة المرحومة ، و يا مقتدى الامة ، وقدوة الائمة ، و يا رحمة الله لهذه الملة الحنيفية ، أرجو من حضرتكم ، ان تتفضلوا بالجواب الواضح الشافي عن قول ذلك العالم ، على نحو ما اهتديتم بالكتاب والسنة السنية ، مع البراهين والادلة الشرعية المرضية القوية ، كما هو دأب جنابكم على صفحات المنار المنير ، أدام الله ضياءه الى يوم الحشر والقرار ، و بارك في عمر سعادة صاحبه وعامله نحو ما عامل المقربين من عباده المتقين ، وجزاه نحو ما يجزي المحسنين من عباده المخلصين ، انه على مايشاء قدير ، و بالاجابة جدير ، الداعي والمستدعي

قارئ المنار المنير وصديقكم المطيع المخالص وصديق أصدقاء المنار المنير وصاحبه ومحبهم وعدو عدوهم ومبغضهم العبد الضعيف النحيف الحقير الفقير الى رحمة ربه العلي القدير تراب اقدام انصار الحق محمد ز . ه . د . تارابار من طلبة المدرسة الفيضية بمدينة تراونيك (بوسنه)

(ج) لاشك ان ذلك التركي قد اخطأ في جملة ما قاله والصواب انه لاتجب الهجرة وجوبا عينيا على من كان متمكنا من إقامة دينه آمنا من الفتنة فيه وهي الإكراه على تركه او المنع من إقامة شعائره والعمل به وهو نحو مما قالته عائشة ففي البخاري انها سئلت عن الهجرة فقالت « لا هجرة اليوم كان المؤمن يفر بدينه الى الله ورسوله مخافة ان يفتن فاما اليوم فقد أظهر الله الاسلام والمؤمن يعبد ربه حيث شاء » والأصل في المسألة آية «٤: ٩٧ ان الذين توفاهم الملائكة » وستأتي ، وفيها أحاديث وآراء للعلماء نذكر اهمها : فاصح ما ورد فيها حديث ابن عباس عند احمد والشيخين وأصحاب السنن الثلاثة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا » وروي مثله عن عائشة في الصحيحين وروى احمد والنسائي وابن ماجه والطبراني وغيرهم عن عبدالله بن السعدي ان النبي

صلى الله عليه وسلم قال « لا تنقطع الهجرة ماقوتل العـدو » وهو يوافق حديث ابن عباس في وجوب النفر على من استنفر للجهاد الشرعي وترك وطنه لاجل ذلك وهذا لا وجود له الآن

وأما حديث جرير بن عبدالله عند ابي داود والترمذي « انا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » وتعليله ذلك بقوله « لا تتراءى ناراهما » فقد صحح البخاري وابو حاتم ومخرجاه وغيرهم إرساله الى قيس ابن أبي حازم وفي الاحتجاج بالمراسيل الخلاف المعروف في الأصول ورواه الطبراني موصولا . وهو لا ينطبق على أهل بوسنه لانهم ليسوا بين أظهر المشركين . وقد كان للاسلام سياسة خاصة في مشركي العرب. وفي الباب حديث عن معاوية رواه أحمد وأبو داود والنسائي وقد اشرنا اليه في الجزء الماضي وهو انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » وهذا الحديث قال الخطابي « اسناده فيه مقال »

أما أقوال العلماء في احكام هذه الأحاديث فنذكر منها ما أورده الشوكاني في شرح المنتقى في الجمع بينها قال: وقد اختلف في الجمع بين أحاديث الباب فقال الخطابي وغيره كانت الهجرة فرضا في أول الاسلام على من أسلم لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم الى الاجتماع فلما فتح الله مكة دخل الناس في دين الله أفواجا فسقط فرض الهجرة الى المدينة وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو ، انتهى قال الحافظ (ابن حجر) وكانت الحكمة أيضا في وجوب الهجرة على من أسلم ليسلم من اذى من يؤذيه من الكفار فانهم كانوا يعذبون من أسلم منهم الى ان يرجع عن دينه وفيهم نزلت « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » الآية . وهذه الآية باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر وقدر على الخروج منها . وقال الماوردي إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام فالاقامة فيها أفضل من الرحلة عنها لما يترجى من دخول غيره في الاسلام. ولا يخفى ما في هذا الرأي من المصادمة لأحاديث الباب القاضية بتحريم الاقامة في

دار الكفر . وقال الخطابي أيضا ان الهجرة افترضت لما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة الى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين وقد أكد الله ذلك في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر فقال (٨ : ٧٣ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا) فلما فتحت مكة ودخل الناس في الاسلام من جميع القبائل انقطعت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب . وقال البغوي في شرح السنة يحتمل الجمع بطريق أخرى فقوله «لا هجرة بعد الفتح » أي من مكة الى المدينة ، وقوله « لا تنقطع » أي من دار الكفر في حق من أسلم الى دار الاسلام ، قال ويحتمل وجها آخر وهو ان قوله « لا هجرة » أي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان بنية عدم الرجوع الى الوطن المهاجر منه الا بإذن ، فقوله « لا تنقطع » أي هجرة من هاجر على غير هذا الوصف من الاعراب ونحوهم . وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الاسماعيلي بلفظ انقطعت الهجرة بعد الفتح الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار أي ما دام في الدنيا دار كفر فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي ان يفتن على دينه . ومفهومه انه لو قدر ان لا يبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها . وأطلق ابن التين ان الهجرة من مكة الى المدينة كانت واجبة وان من أقام بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة بغير عذر كان كافرا. قال الحافظ وهو إطلاق مردود . وقال ابن العربي الهجرة هي الخروج من دار الحرب الى دار الاسلام وكانت فرضا في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستمرت بعده لمن خاف على نفسه والتي انقطعت أصلا هي القصد الى حيث كان . وقد حكى في البحر ان الهجرة عن دار الكفر واجبة اجماعا حيث حمل على معصية فعل أو ترك أو طلبها الامام بقوته لسلطانه وقد ذهب جعفر بن مبشر و بعض الهادوية الى وجوب الهجرة عن دار الفسق قياسا على دار الكفر وهو قياس مع الفارق والحق عدم وجوبها من دار الفسق لانها دار اسلام و إلحاق دار الاسلام بدار الكفر بمجرد وقوع المعاصي فيها على وجه الظهور ليس بمناسب لعلم الرواية ولا لعلم الدراية وللفقهاء في تفاصيل الدور والاعذار المسوغة لترك الهجرة مباحث ليس هذا محل بسطها . اه

ما أورده الشوكاني وهو زبدة ماقيل في شرح الاحاديث من علمائه

أقول انك تجدهم قد اختلفوا في كل وجه من وجوه المسألة الا اثنين احدهما عدم التمكن من اقامة الدين بالفتنة وهي حمل المسلم على الكفر أو مخالفة دينه في فعل أو ترك أو بالجهل ، وثانيهما الجهاد الديني أي المتعلق بحماية دعوة الاسلام وأمن أهله على دينهم وحقيقتهم ففي هاتين الحالتين تجب الهجرة بلاخلاف . أي على من عجز عن إقامة دينه سواء كان واحدا أوجمعا وعلى من احتيج الى جهاده وكان نفره ممايعزز المسلمين ويفيدهم في الدفاع المطلوب شرعا. فأما هذا الوجه فمن البين الظاهر انه لايتحقق في أهل بوسنة الآن كما تقدم وما أظن ان الوجه الأول متحقق فيهم أيضا وهم اعلم بأنفسهم

ويدخل في باب الوجه الأول الهجرة الى طلب العلم الواجب عند الحاجة الى ذلك فان لم يهاجر من يتعلم و يعود ليعلم أثم جميع المسلمين الذين فقدوا هذا العلم في وطنهم . وكذلك الهجرة من المكان الذي فشا فيه الفسق والمجاهرة بالمنكرات وصارت التربية على التقوى والصلاح متعذرة فيه. وقد روى ابن وهب عن مالك أنه قال: تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها . واحتج بصنيع ابي الدرداء في خروجه من أرض معاوية حين أعلن بالربا فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها ، رواه أهل الصحيح . وقال مالك في موضع آخر اذا ظهر الباطل على الحق كان الفساد في الارض. وقال لاتنبغي الاقامة في ارض يكون العمل فيها بغير الحق. اه

أقول وإنما يكون هذا من الافراد الذين يتعذر عليهم ازالة المنكر فان وجد جمع يقدر على إزالة المنكر وجب ذلك عليه دون الهجرة

ومن قال انه لا يظهر له دخول هذا في الوجه الأول قلنا لك ان تعده وجها آخر وهو ظاهر . ولا حاجة الى قياس الفسق على الكفر ليصح ما ذكر من الهجرة من حيث يفشو الفسق و يتعذر الصلاح أو يتعسر الى حيث الصلاح والخير

وجملة القول ان المسلم يجب عليه ان يقوم بالحق والخير كما يرشده دينه فان عجز عن ذلك في بلاد وجب ان يهاجر منها الى حيث يقدر عليه والا كان ظالما لنفسه وقيل له يوم الحساب اذا اعتذر باستضعاف الكفار او الفساق له ومنعه من العمل بدينه ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟

اما مازعمه ذلك الواعظ التركي من عدم صحة النكاح وأركان الاسلام في بوسنه بعد إلحاقها بالنمسا فهو باطل ، لا يصدر مثله الا من جاهل ، ولولا إباحة ماحرم الله على المسلمين من التقليد لما كان لهذا الجاهل من سبيل لتشكيك أولئك المسلمين الذين سمعوا وعظه في عباداتهم وعقود زوجيتهم اذ الوعظ ببيان كتاب الله وسنة رسوله لا يأتي فيه شيء من هذه المزاعم والأباطيل. فبه تستنير بصائر جماهير المسلمين ويعتصمون بحبل الله حتى اذا حاول ان يعبث بدينهم عابث طالبوه بما عنده من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا جاءهم بهديهما قبلوه ، والا ردوا ما جاء به ورفضوه ؟؟؟

لافرق في العبادة والنكاح بين المسلم في دار الكفر والمسلم في دار الاسلام وإنما هنالك احكام تتعلق بالمعاملات السياسية والمدنية والحربية وأدخل بعضهم في السياسية صلاة الجمعة . ومن البديهي ان الهجرة لم تكن حتما لازما في زمن كزمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لنصره والاخذ عنه ولما كان من اشتداد المشركين في ايذاء المسلمين قبل فتح مكة ومع ذلك لم يرد في السنة من التشديد على من لم يهاجر شيء مما زعم هذا الواعظ الجاهل فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم من حديث بريدة انه قال قال رسول الله (ص) « اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال — أو خلال — فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ادعهم الى الاسلام فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم انهم ان فعلوا فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فان أبوا ان يتحولوا منها فأخبرهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء الا ان يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أبوا فسلهم الجزية فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم » الخ

واما ماقالوه في دار الكفر ودار الاسلام فلا حاجة الى بسطه هنا وقد سبق لنا بحث فيه من قبل فليراجعه من شاء

* * *

﴿ خطبة جمعة في سوء حال المسلمين في هذا الزمان ﴾

(س ٢٦) من م ٠ ١٠ ص في سنغافوره

سنغافورا في ٧ جماد الاول ٣٢٧

حضرة العلامة الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المنيرة بمصر قد اتى على المسلمين بهذه الاصقاع حين من الدهر وهم لا يسمعون الخطبة في مساجدهم غير خطب ابن نباتة او نحوها فتعودوا سماع فضائل الشهور وبيان قرب الساعة والحث على ترك الدنيا الى غير ذلك ولما كان الزمان في تقلب دائم حصلت الفرصة في الجمعة الماضية للغيور الاديب الشاب المحبوب عباس بن محمد طه فأنشأ خطبة تناسب الأحوال الحاضرة بهذه الجهات تمام المناسبة ثم رقي المنبر بالجامع الكبير المسمى (مسجد سلطان) فخطب خطبة تؤثر في نفوس الغيور بن وان خطيب المسجد لم يخطب في ذلك اليوم نظراً لما كان عليه من العذر ثم طفق الجامدون بعد فراغ الصلاة يشيعون ان الخطبة لا تليق ان تكون خطبة للجمعة لان فيها تكفير المسلمين وذمهم ومدح الكفار مع ان خطبة الجمعة دينية محضة وما في هذه الخطبة من أمور الدنيا وتقبيح احوال المسلمين ورفع شأن الكافرين مخل لنظر الدين ولذلك قال هؤلاء انهم لا يريدون ان يصلوا الجمعة في هذا الجامع اذا اعيدت تلك الخطبة حتى بالغ بعض الناس في سب ذلك الخطيب وسمعت ذلك انا والشيخ عبد القادر وغيره فعلمنا أن كره المتغفلين هذه الخطبة قد بلغ الغاية وانا قد اطلعنا على الخطبة عند بعض معارفنا فنقلت منها عدة نسخ نسخة منها لتقديمها الى مجلتكم المنيرة وهذه هي الخطبة :

* * *

« الحمد لله الذي جعل الجمعة من أسباب الاجتماع . تقرأ فيه المواعظ لتمزق غشاء الأسماع . فتتأثر منها القلوب والطباع . وتفتح بذلك ابواب الخير والانتفاع . احمده سبحانه وتعالى على جزيل الفضل والاحسان . واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له المنان . واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله المبعوث بالبيان . اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في كل وقت وأوان . أما بعد فيا عباد الله : ان

ما حل بنا من ضعف وهوان . وفساد في الاعمال وخسران . من سوء تربية في الصغر تولد منه في الكبر فساد وطغيان . وتهاون بالصلاة وتجاهر بالعصيان . وموت شعور عند سماع أوامر ونواهي القرآن . وكثرت الخرافات والاوهام . ادخلها الجاهلون وصبغوها بصبغة دين الاسلام . ومعظم أهل زماننا هذا هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان . والمصيبة في الاعمال والاديان . اعظم منها في الاموال والابدان . ونحن نعلم كل ذلك علم اليقين . وأهملنا شعائر الدين . فوقعنا في شدائد متراكة . ونظرت الينا الاجانب نظر تحقير وملامه . وان التباعد عن الاهتداء بهدي الشرع الكريم . وعدم التمسك بعروة الدين القويم . قد أدى بنا ذلك الى الاهمال . والانحطاط وشر المآل وديننا يأمر بالتعاون والاتفاق . ونحن نسعى الى التنافر والافتراق . حتى ذهبت اعمالنا ادراج الرياح . وضاعت اوقاتنا بين الجد والمزاح . ولا نقدر على القيام بمهام الاعمال ولا على مثابرة الاشغال . فآلت امورنا الى اسوء الحال . وخابت الآمال . وانا لو اتحدت كلماتنا . وصرنا حزبا متعاونا . ساعيا في مصالح امورنا . في ديننا ودنيانا . لكان اكبر الاعمال هينا . ونجح نجاحا مبينا ، واذا نظرنا الى حال الامة الغربية ، ذات السعادة والرفاهية ، وجدنا انها تدرجت على اصول الاسلام ، و بذلت الجهد في التعاون والاتحاد والالتئام ، كان اكبر المشروعات عندها من اسهل الممكنات ، وان كان عندنا يعد الناس نجاحه من المستحيلات ، وهم يعقدون الشركات ، وينشئون الجمعيات ، ليعود ذلك على ابناء ملتهم بالنفع والفضائل ، ونحن ننشيء الجمعيات للتلوث بادران الخمول والرذائل ، و يعود ذلك علينا بضعف الديانة ، وتضييع الصيانة ، كانت المواعظ عندهم داعية الى التقدم السريع ، وعندنا قد صارت سلما الى تأخرنا الشنيع ، فيا ذوي الابصار ، اين التبصر والاعتبار ، وما هذه الغفلة والاغترار ، فليت شعري ما اعتذاركم بعد الانذار ، اما علمتم ان الله لم يخلق الدنيا عبثا ، بل جعلها دار سعي واختبار ، يعقبها بدار جزاء وقرار ، وجعل لنا العقول لنميز بها بين النفع والاضرار ، وامرنا بفعل الخيرات ونهانا عن الاوزار ، ومن اطاعه ادخله الجنة ومن عصاه ادخله النار ، وليس لنا عليه بعد ذلك حجة ولا اعذار ، عباد الله تعاونوا واتفقوا ، واعتصموا بحبل

الله جميعا ولا تفرقوا ، (الحديث) قال (ص) اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لأخراك كأنك تموت غدا » الى آخر الخطبة ،

وما دعاني الى افادتكم بهذه الواقعة الا لنصرة الحق وحضرتكم أهل لذلك

(المنار) وجاءنا سؤال آخر عن خطبة هناك الظاهر انها هذه بعينها وهذا نصه

سنغافورا ١٣ جماد الاول (؟) سنة ١٣٢٧

(س ٢٧) من س. ح س.

حضرة العلامة الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار بمصر

لا يخفى ان من طبيعة الانسان حب الفخر والشهرة و يوجه كل قوته الى الوصول اليه بأي وجه كان ولا يجول بخاطره انه امام الملأ من الاكابر كالذبابة لولا ذلك لما تجرأ بعض الناس على تلاعب بعض أمور العبادة فقلب الخطبة على غير وجهها التي شرعت لاجلها فخطب على منبر أكبر الجوامع هنا خطبة تقشعر من سماعها الابدان يكفر فيها المسلمين ويقبح اعمالهم و يستحسن اعمال الكافرين وذلك بمسمع من العباد والعلماء ظنا منه ان ذلك مما يوجب فخره ولا يدري ان الامر بالعكس وقد اتفق العلماء بمنع ان تخطب خطبة الجمعة مثل تلك الخطبة ولذلك جئتكم بهذه الرقعة سائلا عن رأيكم الصائب في ذلك

(ج) ان المصريين ليعجبون من استنكار بعض مسلمي سنغافوره لهذه الخطبة التي يسمعون كل جمعة في مساجدهم ماهو أشد منها انكارا لحال المسلمين وتركهم لهداية دينهم و إضاعتهم لمصالح دنياهم وتقدم سائر الامم عليهم، ومن ذلك عبارة يكررها في الخطبة الثانية الشيخ خالد النقشبندي خطيب مسجد الست الشامية المشهور بالصلاح وحسن الخطبة وهي « اتقوا الله فقد تقدم الاجانب وتأخرنا، اتقوا الله فقد نشطوا وكسلنا» الخ وهو نحو مما قاله خطيب سنغافوره فلماذا استنكر هناك ولم يستنكر هنا؟ لا سبب لذلك الا أن العلماء والعوام هنا اعلم ممن هناك بالاسلام والمسلمين وما يحتاجون اليه وهذه هي الخطب التي يسمونها هنا الخطب العصرية ويرجون فائدتها ونفعها

وينتقدون الخطب القديمة التي معظمها مدح للشهور والمواسم بالباطل وذم للدنيا وتزهيد فيها . على ان تلك الخطب القديمة المشهورة في جميع البلاد الاسلامية لا تخلو من وصف المسلمين بترك الاسلام و إضاعة الكتاب والسنة والضراوة بالمعاصي والمنكرات وناهيك بتلك العبارة المشهورة التي حفظناها من الخطباء لأول عهدنا بالصلاة في صغرنا وهي « لم يبق من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه » ومهما أكثر المكثرون من الانكار على المسلمين ووصفهم باضاعة الدين فهم لا يأتون بأبلغ من هذه العبارة ولا يكونون الا شارحين لها

ماذا ينتظر السائلون عن هذه الخطبة من المنار وهو الذي نبه منذ سنته الأولى الى وجوب إصلاح الخطابة في المساجد الجامعة وترك تلك الخطب المحشوة بالاباطيل المميتة للهمم، وقد كتبت قبل إنشاء المنار فصلا طويلا في الخطابة أودعته كتابي «الحكمة الشرعية» فهل ينتظرون مني أن أجيز تلك الخطب السخيفة المألوفة ومافيها من الاحاديث الموضوعة وأنكر ما يجيء به أذكياء الخطباء من المنبهات التي تزلزل ذلك الجمود القديم ؟

يظهر ان أنكر ما استنكروه من هذه الخطبة هو اقتباس الخطيب قوله تعالى «هم للكفر يومئذ أقربُ منهم للايمان » يريد ان الذين تلبسوا بتلك المنكرات التي نهى عنها هم يوم إذ أدخلت عليهم الخرافات والاوهام وتلبسوا بها أقرب الى الكفر منهم الى الايمان . وليس هذا تكفيرا صريحا ولا هو في قوم معينين بذواتهم وانما هو في قوم يأتون ما نهى عنه الاسلام ويتركون ما أمر به فماذا يريدون ان يقول الواعظ فيهم

اخرج ابن ابي شيبة في المصنف عن عبد العزيز بن ابي داود وابن ابي حاتم عن مقاتل ان الصحابة اخذوا في شيء من المزاح فانزل الله تعالى فيهم (١٦:٥٧ ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ومن المعروف عند أهل القرآن ان الفسق والظلم والكفر كثيرا ما ترد فيه على مورد واحد كما بيناه في تفسير « ٢: ٢٥٤ والكافرون هم الظالمون » وروى مسلم والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن ابن مسعود قال : ما كان بين اسلامنا وبين ان عاتبنا الله بهذه الآية « ألم يأن » الخ الا اربع سنين . وعنه قال لما نزلت هذه الآية اقبل بعضنا

على بعض : أيّ شيء أحدثنا اي شيء أضعنا ؟ فاذا كان رب العزة يعظ افضل المؤمنين من السابقين الاولين بمثل هذه الاية فهل يستنكر في مسلمي زماننا مثل تلك الخطبة ؟ ما هذا الغرور الذي اصابنا ! نسيء ونطلب الشكر على إساءتنا ! وليراجع السائلون تفسير (٢١٤:٢ ام حسبتم ان تدخلوا الجنة) في الجزء الثاني من تفسير القرآن الحكيم (ص ٣٠٢ — ٣١١) ولينظروا ماهي النسبة بين اولئك المخاطبين بالآية عند نزولها و بين اهل عصرنا هذا وهم مخاطبون بها أيضا . ومثلها كثير ننبه دائما في التفسير عليه ونحث مسلمي زماننا على وزن انفسهم بميزان القرآن ثم سيرة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة اصحابه عليهم الرضوان . ولوشئنا ان نعزز ذلك بالاحاديث والآثار لفعلنا ولكن المنصف يكتفي بما ذكرناه ، والمغرور أو صاحب الهوى لا يقنعه شيء يخالف هواه ، أما اذا كان السائل الثاني يعني بما ذكره خطبة غير التي أرسلها السائل الأول منهما وفيها تكفير للمسلمين صريح وتحسين لأعمال الكفار التي هي من كفرهم فلا مندوحة لنا عن إنكار ذلك بشدة . اما الاعمال التي ليست من كفرهم فمنها الحسن والقبيح قال تعالى في اليهود (٥ : ٦٦ منهم امة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون)

* * *

﴿ أم كلثوم بنت النبي (ص) ﴾

(س ٢٨)من خليل رشدي افندي ملحس التلميذ بمكتب نابلس الاعدادي

الحمد لله وحده

حضرة الفيلسوف العظيم والأستاذ الحكيم الامام العلامه بحر فهامه سيدي المرشد السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة (المنار) الاسلامي نور الله قلبه وأدام مجده على مدى الدوران آمين

بعد اهداء ما يليق بحضرتكم من التحيات الزاكية أعرض لجنابكم بأن تتكرموا على هذا العاجز بنشر سؤالي الآتي على صفحات مجلتكم « المنار » الأغر وسرد جوابه بما يتراءى لكم ولحضرة فضيلتكم الشكر والمنة سلفا :

لايخفى على جنابكم أحوال تلامذة المدارس من جهة المباحثة مع بعضهم البعض ، فيوم من الايام اجتمعت أنا و بعض رفقائي للمباحثة وصرنا نتباحث الى ان وصل بحثنا عن السؤال الآتي :

(١) ما هو أصل اسم بنت النبي (ص) الملقبه به (أم كلثوم)

(٢) لأي سبب لقبت به (أم كلثوم)

وطال بنا الجدال في هذا الموضوع وانقسمت أفكارنا الى آراء كثيرة وحيث انه لم نوفق لمعرفة السؤالين المرقومين أعلاه قر بنا القرار بالتفسير من فضيلتكم واخذ رأيكم في هذا الموضوع فكلفوا هذا العاجز بالسؤال من جنابكم

ولأجل ذلك حررت لفضيلتكم هذا التحرير راجيا إرشادنا في هذا البحث والله الملهم الى الحق والصواب ولكم الأجر والثواب والسلام على من اتبع الهدى ودين الحق ودمتم

(ج) لاأدري كيف وجدتم ذلك المجال الواسع للخلاف وانقسام الأفكار في هذه المسألة وهي لاتحتمل عندنا خلافا فالعرب كانت تسمي أيمن وأم أيمن وسلمة وأم سلمة والمعروف أن بنت النبي صلى الله عليه وسلم سميت ام كلثوم ابتداء ولم يكن كنية كنيت بها بعد ان سميت باسم آخر وفي الصحابيات كثيرات سمين بهذا الاسم . وكلثوم من الكلثمة وهي استدارة الوجه

* * *

﴿ عهد (موضوع) زعموا انه من النبي (ص) للنصارى ﴾

(س ٢٩) من احد العلماء في حمص

ان مجلة (روضة المعارف) التي تصدر في بيروت أدرجت في عددها الثالث عشر من هذه السنة صورة عهد للنبي صلى الله عليه وسلم تزعم أنه أملاه على سيدنا معاوية رضي الله عنه لأهل الذمة ولدى البحث في كتب الحديث والسير والتاريخ ما وجدت هذا العهد بهذا اللفظ الطويل الذي نقلته هذه المجلة ونقلته عنها جريدة لسان الحال فأرجوك ايها الفاضل ان تفيدني عن درجة هذا العهد من الصحة والحسن

وعمن خرجه منه المحدثين وفي أي كتاب هو وهل هذا اللفظ المنقول كله مروي محفوظ عن ائمة هذا الشان الموثوق بهم الذين يعول على نقلهم فيكون حجة في العمل

لقد رأيت في هذا العهد طولا كبيراً وألفاظاً لا تشبه ألفاظ صاحب الرسالة في عهوده ورأيت بعض الصحابة المدرجة اسماؤهم بصفة شهود كان قدمات قبل هذا التاريخ وبعضهم لم يكن اسلم فأرجو إيضاح الجواب على كل جملة ليكون الانسان على بصيرة لا زلت مرجعا لحل الاشكالات وتحقيق المسائل وليكن الجواب على صفحات مجلتكم ليطلع عليه القراء الكرام

(ج) قد اطلعنا في مجلة روضة المعارف على هذا العهد الملفق الموضوع فساءنا اندفاع قومنا في تيار المجاملة الى هذا الحد الذي يتهجم فيه على نشر هذه الأكاذيب الموضوعة على النبي (ص) على حين نحن في غنى عنها بما عندنا من الآيات الكريمة والاحاديث الصحيحة وسيرة السلف المعروفة

ان هذا العهد المكذوب لم يروه أحد من المحدثين ولا يحتاج من له ادنى شمة من علوم الدين الى اطلاع واسع ليعرف انه مصنوع موضوع فذلك واضح من عبارته في أغلاطها واساو به في ركاكته ومافيه من الاصطلاحات الحادثة ومن المبالغة والتكرار ومن مسائله التي توهم ان الاسلام وجد في الارض لأجل تعزيز النصرانية وخدمة أهلها والدفاع عنهم والخضوع والذل لهم وإعانتهم على المعاصي والجنايات اذا ارتكبوها فان مما جاء فيه «وان جراحد من النصارى جريرة اوجنى جناية فعلى المسلمين نصره ومنعه (أي حمايته) والذب عنه والغرم عن جريرته» فهل يعقل من شم رائحة الاسلام ان النبي الذي يقول كما في صحيح البخاري «لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» يأخذ العهد على أمته بأن ينصروا مرتكبي الجرائم والجنايات من النصارى ويحموهم ويدفعوا عنهم؟ وهل يتفق هذا مع قوله تعالى في الآية التي أذن فيها للمسلمين بالجهاد والدفاع عن أنفسهم «٢٢:٤١ الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر»

وفي هذا العهد كثير من امثال هذه المسائل الباطلة بالاجماع التي لا يبيحها الاسلام لأحد بل يعد استباحتها كفرا وردة عن الاسلام

اما ما يدل على كذب هذا العهد مما يتوقف العلم به على الإلمام بالتاريخ فربما يعذر ناشروه بجهلهم له ولكنهم لا يعذرون بجهل المسائل المعلومة من الدين بالضرورة

ثم ان هنا مسألة تاريخية تكاد تكون معروفة عند العامة وقد جهلها ناشرو هذا العهد وهي مسألة التاريخ بالهجرة ففيه «كتبه معاوية بن ابي سفيان بإملاء رسول الله يوم الاثنين في ختام أربعة أشهر من السنة الرابعة من الهجرة بالمدينة» فمن المشهور أن هذا التاريخ قد حدث في خلافة عمر بن الخطاب بمشاورة الصحابة (رض) ولم يفعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا أبو بكر (رض) وما ذكر مختلق العهد هذا التاريخ الا ليظهر كذبه علم التاريخ فالمروي في صحيح البخاري ان معاوية اسلم في عام الفتح أي في السنة التاسعة للهجرة فكيف كان يكتب للنبي في السنة الرابعة، ثم ان ختام الشهر الرابع للهجرة وهو شهر جمادى الآخرة لم يكن يوم الاثنين وانما كان يوم الجمعة. وذلك ان الهجرة كانت في شهر ربيع الأول ولما اراد الصحابة في عهد عمر التأريخ بالهجرة جعلوه من أول السنة القمرية التي حدثت فيها فكان في ذلك زيادة شهرين كما هو مشهور. ثم انه اكثر من الشهود ليظهر كذبه أيضا وهاك البيان بالايجاز

في ذكر هؤلاء الشهود أربعة أنواع الغلط احدها واهونها الاسماء المحرفة والمصحفة كالفضيل بن العباس صوابه الفضل وحسن بن ثابت صوابه حسان وابو درداء صوابه الدرداء ويزيد بن ثابت صوابه زيد. والثاني من لم يكن اسلم كمعاوية. والثالث من كان قدمات او استشهد كحمزة. والرابع من لا وجود لهم في الصحابة كداود بن جبير والعاصي ابو حنيفة واساف بن يزيد وكعب بن كعب. ولو استقصينا كل ما في هذا العهد المكذوب من الخطإ لأفضى بنا ذلك الى تطويل نحن في غنى عنه بهذا القول الوجيز

***

﴿ رسم المصحف ﴾

(س ٢٨) من صاحب الامضاء في قزان (روسيا) في ٦ جمادى الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاستاذ الفاضل السيد رشيد رضا حفظه الله ومتعنا وسائر المسلمين بعلومه الشريفة

اما بعد فان من المسائل التي تدور بيننا الآن مسئلة رسم المصاحف المطبوعة في بلدة قزان ، حيث أن العلماء صرحوا بأن رسم المصاحف يجب فيه الاتباع لرسم المصاحف التي كتبت بامر سيدنا عثمان رضي الله عنه وفي رسم المصاحف القزانية مخالفة كثيرة لرسم تلك المصاحف فتشكلت بقزان لجنة من العلماء والقراء لتفتيش رسم هذه المصاحف ونصوص العلماء فيه وتكلموا في وجوب الاتباع وعدمه فذهب كثير منهم الى انه ينبغي اتباع رسم المصاحف العثمانية وان الرسم سنة متبعة ، على ما نص عليه ابو عمرو الداني والشاطبي والجزري والسيوطي والزمخشري وغيرهم . وبعضهم قالوا انه لا يجب اتباع الرسم محتجين بقول شيخ الاسلام العز بن عبد السلام حيث قال « اما الآن فلا يجوز كتابة المصاحف على الرسوم الاول خشية الالتباس ولئلا يوقع في تغيير من الجهال » ويجيب الفريق الاول عن هذا بان المواضع التي يتوهم فيها الالتباس يمكن التخلص منها بالنقط والاشكال . ثم فتشوا المصاحف المطبوعة في الديار الاسلامية من الاستانة ومصر وهند وغيرها فوجدوا فيها ايضا مخالفة كثيرة لرسم المصاحف العثمانية ، فما ندري ما سبب عدم اعتنائهم في هذا الباب ؟ أأهملوا في رسم كتابنا المقدس ، ام لا يقولون بلزوم الاتباع . واذا كان الاتباع واجبا كما يقول به اكثر الائمة فما ينبغي ان نصنع لنقرأ برواية حفص المعروفة في بلادنا في مثل كلمة «آتان» في سورة النمل آية ٣٦ فانه كتب في مصاحف سيدنا عثمان رضي الله عنه كلها بغير ياء بعد النون والحال ان حفصا يقرأه آتاني بياء مفتوحة بعد النون فكيف يكون زيادة ياء بعد النون في مثل هذه المواضع تخلصا من الالتباس والتلفيق في القراءة . وهل يجوز مخالفة الرسم لاجل الضرورة في مثل تلك الضروة وما نصنع في الكلمات التي حذفت فيها الالفات في بعض المصاحف المطبوعة والمكتوبة القديمة مثل كلمة الاعلام والاحلام والاقلام والازلام والاولاد ، وتلك الكلمات كتبت في بعض المصاحف « الا علم والا حلم والا قلم » بحذف الالف بعد اللام والحال ان قاعدة الخط العربي تقتضي اثبات الألف في مثلها : وليس فيها نص صريح من علماء الرسم في حق الحذف أو الاثبات . هل ينبغي فيها اتباع قاعدة رسم الخط العربي واثبات الالفات ام تقول «انهم كانوا يعتبرون الظهور وعدم الالتباس ولهذا كانوا

يحذفون الالفات فما ظهر المراد (منه) مثل الكلمات المذكورة» فنحذف الالفات فيهن . ورسم المصاحف المطبوعة هنا ليس على نسق واحد ، في بعضها تلك الكلمات مكتوبة بألفات بعد اللام وفي بعضها بحذف الالفات . وان المصحف الذي يحفظ في بلدة بترسبورغ عاصمة الروسية في المكتبة الامبراطورية ويظن كونه واحدا من مصاحف سيدنا عثمان رضي الله عنه قد حذف فيه الالفات في مثل هذه المواضع . والعلامة شهاب الدين المرجاني القزاني الذي افنى عمره في خدمة العلم وصنف كتابا مفيدا في رسم المصحف وكان مأمورا بتصحيح المصاحف المطبوعة من جهة الحكومة قد حذف الالفات قصدا في مثل هذه الكلمات ولزيادة الاطمئنان ولكون المسألة عامة مهمة ومتعلقة بعموم اهل الاسلام اتفقنا على المراجعة الى (؟) جنابكم المحترم بالاستفسار في تلك المسئلة رجاء ان تتفضلوا بابداء ملاحظاتكم العالية في صفحات المنار . والسلام والا كرام

رئيس اللجنة المتشكلة لتفتيش رسم المصاحف المطبوعة ببلدة قزان

ملا صادق الايمانقولى القزاني

(ج) ان ديننا يمتاز على جميع الأديان بحفظ أصله منذ الصدر الأول فالذين تلقوا القرآن عمن جاء به من عند الله (ص) حفظوه وكتبوه وتلقاه عنهم الالوف من المؤمنين وتسلسل ذلك جيلاً بعد جيل . وقد أحسن التابعون وتابعوهم وأئمة العلم في اتباع الصحابة في رسم المصحف وعدم تجويز كتابته بما استحدث الناس من فن الرسم وان كان أرقى مما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم لأنه صنعة ترتقي بارتقاء المدنية إذ لو فعلوا لجاز أن يحدث اشتباه في بعض الكلمات باختلاف رسمها وجهل أصلها . فالاتباع في رسم المصحف يفيد مزيد ثقة واطمئنان في حفظه كما هو و بعد الشبهات ان تحوم حوله ، وفيه فائدة أخرى وهي حفظ شيء من تاريخ الملة وسلف الامة كما هو

نعم ان تغير الرسم واختلاف الإملاء يجعل قراءة المصحف على وجه الصواب خاصة بمن يتلقاه عن القراء ولذلك أحدثوا فيه النقط والشكل وهي زيادة لا تمنع معرفة الاصل على ما كان عليه في عهد الصحابة . ثم إنه يجعل تعليم الصغار عسرا

ولذلك افتى الامام مالك بجواز كتابة الألواح ومصاحف التعليم بالرسم المعتاد كما نقل:

قال علم الدين السخاوي في شرحه لعقيلة الشاطبي قال أشهب رحمه الله سئل مالك رضي الله عنه أرأيت من استكتبته مصحفا أترى أن يكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم؟ فقال لا أرى ذلك ولكن يكتب على الكِتبة الاولى . قال مالك ولا يزال الانسان يسألني عن نقط القرآن فأقول له أما الامام من المصاحف فلا أرى أن ينقط ولا يزاد في المصاحف مالم يكن فيها وأما المصاحف الصغار التي يتعلم فيها الصبيان وألواحهم فلا أرى بذلك بأسا. ثم قال «أشهب» والذي ذهب اليه مالك هو الحق اذ فيه بقاء الحال الأولى الى أن يعلمها الآخر وفي خلاف ذلك تجهيل الناس بأوّليتهم . وقال أبو عمر الداني (في كتابه المسمى المحكم في النقط) عقيب قول مالك هذا ولا مخالف لمالك في ذلك من علماء الامة اه

فالذي أراه هو الصواب أن تطبع المصاحف التي تتخذ لأجل التلاوة برسم المصحف الامام الذي كتبه الصحابة عليهم الرضوان حفظا لهذا الأثر التاريخي العظيم الذي هو أصل ديننا كما هو لكن مع النقط والشكل للضبط. ولو كان لمثل الأمة الانكليزية هذا الأثر لما استبدلت به ملك كسرى وقيصر ولا أسطول الالمان الجديد الذي هو شغلها الشاغل اليوم . واما الالواح والأجزاء وكذا المصاحف التى تطبع لاجل تعليم الصغار بها في الكتاتيب فلتطبع بالرسم المصطلح عليه اليوم من كل وجه تسهيلا للتعليم ومتى كبر الصغير وكان متعلما للقرآن بالرسم المشهور لا يغلط إذا هو قرأ في المصاحف المطبوعة برسم الصحابة مع زيادة النقط والشكل . وكذلك يكتب القرآن في اثناء كتب التفسير وغيرها بالرسم الاصطلاحي ليقرأه كل أحد على وجه الصواب . وبهذا نجمع بين حفظ أهم شيء في تاريخ ديننا وبين تسهيل التعليم وعدم اشتباه القارئين

اما ما احتج به العز بن عبد السلام على رأيه فليس بشيء لأن الاتباع إذا لم يكن واجبا من الاصل فلا فرق بين الآن الذي قال فيه ما قال وبين ما قبله وما بعده بل يكتب الناس القرآن في كل زمن بما يتعارفون عليه من الرسم واذا كان واجبا في الاصل وهو مالا ينكره فترك الناس له لا يجعله حراما أو غير جائز لما ذكره من الالتباس بل يزال هذا الالتباس على انه لا يسلم له

واما ما طبعه المسلمون من المصاحف في الاستانة وقزان ومصر وغيرها من البلاد غير متبعين فيه رسم المصحف الإمام في كل الكلمات فسببه التهاون والجهل والاعتماد على بعض المصاحف الخطية التي كتبت قبل عهد الطباعة فرسم فيها بالرسم المعتاد الكلمات التي يظن انه يقع الاشتباه فيها إذا هم كتبوها كما كتبها الصحابة كلفظ «الكتاب» بالألف بعد التاء وهو في المصحف الإمام بغير ألف ليوافق في بعض الآيات قراءة الجمع فكتبوه بالألف . ولم أر مصحفا كتب أو طبع كله بالرسم المعتاد

ونحمد الله تعالى ان وفق بعض الناس الى طبع ألوف من المصاحف برسم الصحابة المتبع وأحسن المصاحف التي طبعت في أيامنا هذه ضبطا وموافقة للمصحف الإمام المتبع هو المصحف المطبوع في مطبعة محمد أبي زيد بمصر سنة ١٣٠٨ إذ وقف على تصحيحه وضبطه الشيخ رضوان بن محمد المخللاتي أحد علماء هذا الشأن وصاحب المصنفات فيه . وقد وضع له مقدمة بين فيها ما يحتاج اليه في ذلك . فالذي أراه انه ينبغي للجنة القرآنية ان تراجع هذا المصحف فانها تجد فيه حل عقد المشكلات كلها ان شاء الله تعالى ككلمة الاقلام وأمثالها وهي بغير ألف وكلمته «ءاتاني» التي رسمت في المصحف الامام «ءاتن» فيرون ان هذا المصحف وضع فوق النون ياء صغيرة مفتوحة هي من قبيل الشكل لتوافق قراءة حفص فهي فيه هكذا «ءاتنِ يَ»

وجملة القول إننا نرى أن الصواب الذي ينبغي ان يتبع ولا يعدل عنه هو أن تطبع الاجزاء والمصاحف التي يعلم فيها المبتدئون بالرسم الاصطلاحي لتسهيل التعليم وهو ما جرت عليه الجمعية الخيرية الاسلامية هنا باذن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى فهي تطبع أجزاء القرآن كل جزء على حدته بالرسم الاصطلاحي وتوزعها على التلاميذ في مدارسها . واما سائر المصاحف فيتبع في طبعها رسم المصحف الامام كالمصحف الذي ذكرناه آنفا .واذا جرى المسلمون على هذا في الاستانة ومصر وقزان والقريم وسائر البلاد الاسلامية فلا يمضي جيل أو جيلان الا وتنقرض المصاحف التي طبع بعض كلماتها بالرسم الاصطلاحي و بعضها برسم الصحابة . ولا ضرر من وجودها الآن اذ هي مضبوطة بالشكل كغيرها فالاشتباه والخطأ مأمونان في جميع المصاحف ولله الحمد

بحث

﴿ في خطبة العقيلة المصرية « باحثة بالبادية » ﴾

نشرنا في الجزء الخامس هذه الخطبة ووعدنا بأن نبين رأينا فيها في هذا الجزء وكنا نريد ان نطيل القول فيه فكثرت علينا المواد العارضة فسامتنا الاختصار فكان مالا بد منه

ان الخطيبة تساهم بعبارتها وأفكارها كتاب الطبقة الثانية من الرجال بمصر ولكني رأيت عبارة مقالاتها النسائيات في الجريدة أصح من عبارة الخطبة فيظهر أنها لم تعن بتحرير الخطبة عنايتها بتحرير المقالات كما يفعل الذين يكتبون الخطب قبل إلقائها ولا بد لذلك من سبب ينهض عذرا

أودع في الخطبة من الحكم ، ماهو جدير بأن يحفظ و يضرب به المثل ، ولا تخلو من الملح والافاكه التي تستملح في الخطب ، لما فيها من تجديد النشاط وذود الملل ، ولم أر فيها على طولها شيئا تمنيت لولم يكتب — وان نطق به — الا كلمة واحدة في نساء الافرنج . ورأيت مسائلها المستمدة من الصحف ، اكثر من مسائلها المستمدة من الكتب ، فليت نساءنا يكثرن من قراءة الصحف فانها دروس تكرر فتثبت مباحثها في الذهن

ينتقد بعض الناس من الخطبة كثرة المباحث النظرية والمسائل البديهية ككون الزوجين الذكر والانثى خلقا للموادة لا للمباغضة وكون العالم لا يعمر بدونهما، وكونهما سواء في القوة والاستعداد أو متفاوتين ، وغير ذلك من المسائل الفلسفية والاجتماعية كمسألة تعليم احد الصنفين كل مايتعلمه الآخر أو عدم تعليم البنات ، ومسألة خلق النساء للبيوت والعمل فيها والرجال لكسب المعاش ومسألة الحجاب ويرى هؤلاء المنتقدون ان القسم الأول من الخطبة لو كان كالقسم الثاني في الأمور العملية الواقعة من العادات والمعاملات بين الرجال والنساء لكان خيرا وأنفع

ونقول ان ماذكرته الخطيبة من هذه المباحث نافع ولا بد منه وان كان بعضه خطأ في نظرنا و بعضه يعلو أفهام كثيرات من حاضرات الخطبة ، وانما نفعه أنه يحرك اذهانهن وينبه أفكارهن فتخرج به عقول بعضهن من مضيق ليس فيه الا صور الزينة والاثاث والرياش الى فضاء واسع فيه كل شيء ومتى فكرت الواحدة منهن في مسألة من تلك المسائل يكون لها فيها رأي خاص قد يخالف رأي الخطيبة وقد يوافقه وذلك ضرب من ضروب ترقية الفكر التي يطلبها الرجال المحبون لإصلاح الامة

نعم ان القسم الآخر الذي يبحث فيه عن العادات والاخلاق والآداب التي هي مناط السعادة بين الصنفين هو أنفع وأولى بالعناية وقد أجادت الخطيبة وأفادت بما ألقته على المستمعات لها من النصائح والمباحث وذكرتهن بما يغفل عنه اكثرهن من أمر الصلة بينهن و بين الرجال وما يجب ان تكون عليه . ولكنه قلما يفيد الرجال فائدة جديدة لأنهم يعرفونه في الغالب لما سبق لكتابهم من الخوض فيه وهم ينتظرون ان يستفيدوا من كتابة المرأة في النساء اكثر مما يستفيدون من كتابة الرجال عنهن . وعسى أن تكثر الفوائد لكل منهما فيما تجود به الخطيبة من الخطب والمقالات من بعد ، فأن أول الغيث قطر ، وقليلها لا يقال له قليل

لقد قربت الخطيبة مسافة التفاوت بين الرجال والنساء في العقل والفهم كما قربت مسافة التفاوت بين المرأة المصرية والمرأة الغربية . وما قالته أشبه بكلام السياسيين الذين يراعون المصلحة فقط منه بكلام الفلاسفة الذين يتحرون الحقيقة فقط أرادت أن ترفع من شأن صنفها في أنفسهن وأنفس الرجال وان ترغب رجال وطنها في الوطنيات وتنفرهن عن الاجنبيات فجاءت من الخطابيات في هذا المقام بما يناسبه

ونرجو ان تعيد الكرة فتبحث في مسألة التفاوت بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالبيوت والخطبة والزواج والحياة الزوجية بحث المؤرخ الحكيم ، والاجتماعي الخبير ، وان تكون مستقلة في ذلك غير مقلدة لمن كتب من الرجال في هذه المسائل ولا مستمدة منهم شيئاً ، بل من البحث في العادات والاختبار للأحوال ، لعلها تستطيع ان ترشدهن الى ما يرقق حجاب جهلهن ، فيجعله كبراقع وجوههن ، فيبصرن ما بين الرجال و بينهن ، مما يحول دون ما يجب من الألفة والود بينهم و بينهن ،

اذا كانت المشاكلة في الاخلاق والعادات ، والمساهمة في الأهواء والرغبات ، معياراً للمساواة بين النساء والرجال ، فلا مندوحة لنا عن القول معها بأن السواد الاعظم من أهل هذه البلاد لايزال ذكرانهم واناثهم في مستوى واحد ولذلك يرضى جماهير الرجال بما يفتحره نساؤهم كل يوم من بدع التبرج والتهتك ، فقد مسن الرجال وفنكت النساء ، فصار جمهور الفريقين في المجانة سواء ، ولذلك نرى الزواج لايزال كثيرا

واذا نظرنا في المسألة من وجه آخر نرى ان الرجال مهما فسدت أخلاقهم أرقى من النساء عقولا وأفكاراً وأن المتعلمين والمهذبين منهم أكثر وانه يوجد عدد كثير ينمو عاما بعد عام قد تغير رأيهم ووجدانهم في الزواج فهم يطلبون فيه حياة إنسانية عالية لاتحصل بمجرد دواعي النسل ومقدماته ولا بالنسل نفسه وهو الغاية الطبيعية الشرعية له وإنما هي عبارة عن حاسة زائدة على الحواس الخمس يدرك بها كل من الزوجين من الانس وسكون النفس وشعور الود والرحمة والاخلاص مالم يكن يدرك حقيقته قبل الزواج وانما يشعر كل احد باضطراب في نفسه يصاحبه علم ضروري بانه لايزول الا بالسكون الذي يكون بالزواج بعد إحكام عقد الزوجية (كما بينا ذلك في مقالات الحياة الزوجية من المجلد الثامن) ولكن المرتقين يعرفون من أركان ذلك وشروطه ومن قيمته مالا يعرفه من دونهم

يعلم هؤلاء المرتقون في مراتب الانسانية ان تلك الحياة التي تتلمسها فطرتهم لاتنال الا اذا اقترنوا بمن هن على مقربة منهم في الفهم والخلق ومعرفة قيمة الحياة الزوجية فهل يوجد كثيرات من هذا الطراز في نسائنا ؟

ان الشاب من هؤلاء ليبحث السنين الطوال عن فتاة مهذبة الاخلاق ، ذكية الفؤاد ، وان لم تكن ذات جمال بارع ، ولا رزق واسع ، بل منهم من يشترط عدم ذلك ثم هو لا يظفر بمطلبه ، على ان المعرّضات (أي للخطبة والزواج) كثيرات في البيوت وفي الشوارع والأسواق ، وقد تعرف الفتاة هي وأهلها الخاطب فيرضون مقامه وعيشته ودينه وأخلاقه ثم يصدهم عن قبول خطبته عادة من اسخف العادات وإن كانوا يظنون انهم لا يكادون لا يجدون صهرا مثله ، ومنهم من يرد خطبته لأن الفتاة لا يعجبها زيّ ثيابه

ومن هؤلاء من تزوج بعد التحري الطويل في السنين الطوال فلم يكن في

زواجه الا شقيا . أعرف شابا من هؤلاء رغب عن الزواج زمنا طويلا لاعرض له فيه بعض رؤسائه الاغنياء في الحكومة برغبتهم في مصاهرته فتجاهل ذلك وسعى في الخروج من دائرة رياستهم ، لخجله من العمل فيها مع رد رغبتهم ، ثم تعاونت عليه الفطرة والعفة ، فلم ير بدا من طاعتهما في طلب الزوجة ، فكان من رأيه أن يقترن بفتاة متعلمة تكون دونه جمالا ، ومثله أو دونه مالا ، حتى لايحجبها الإدلال عليه بجمالها ومالها عن معرفة قيمته ، والغبطة بالاقتران به ، وماذا كان ، بعد الظفر بهذا القران

كان ان تلك الدميمة عاملته بالصلف والزهو ، وحاولت استعباده لهواها ، وألحت في ذلك الحاحا ، ولجت في عتو ونفور ، حتى عيل صبره ، ولم ينجع فيها وعظه ولا هجره ، ولم يلق من أهلها الا ناصرا لها عليه ، ومغريا لها بسوء معاملته ، والتهكم بصلاته وديانته ، فأنشأ يستشيرني في طلاقها وانا اقول له (٣٣ : ٢٧ اتق الله وامسك عليك زوجك ـ ٤ : ١٩ فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) ثم طلقها ولو شاء ان لا يعطيها شيئا لفعل فانها رضيت بأن تبرئه من حقها ولكنه أعطى الحق وزيادة

لست أحكم على المرأة وأهلها بقول أحد الخصمين فانني كنت واقفا على جميع وقائع القضية اذ كان الرجل يستشيرني في كل شيء فآمره بالحلم والصبر وحسن الخلق مع الثبات على مطالبه الشرعية كستر الرأس والصدر والساعدين والعضدين في حضرة غير المحارم من الاقارب الذين اعتادوا زيارتهم امتثالا للشرع لا اتباعا للظنة . ولو شئت لذكرت غير هذه الواقعة من أمثالها

أليس عجيبا ان يجهل قدر أمثال هؤلاء الرجال مع حرص زوجاتهم على تحبيب أنفسهن اليهم والاستعانة على ذلك بالعزائم والطلسمات ، والبخور والتجاجيس والتولات ، وهم يقولون لهن ، غير هذا أولى لكن ، وأدنى الى حظوتكن ، تبذلن بعض عنايتكن ، في تدبير أمر بيوتكن ، لتكون العيشة فيها راضية ، والحياة معكن هنيئة ، واعلمن ان الخرافات التي يعبر عنها بالروحانيات ، لاسلطان لها على نفوس العقلاء ، فاستمالتنا بها كاستمالتنا بالاسراف في الزينة مما تمجه أذواقنا ، وتشمئز منه نفوسنا . ، وأنّى لهن بفهم هذا الكلام وتصديقه ؟ انهن لايفهمن منه الا انه احتقار لهن ، وميل عنهن الى غيرهن ،

ليس الغرض من هذا إثبات كون الرجال كلهم مظلومين مع النساء كلا ان منهن

من لا ترى بعلها الا محمولا في السحر من حانات الأزبكية ومواخيرها الى بيتها فيلقى فيه كأنه ميت لا يعي ولا يتحرك ، الا ان يقول هجرا ، أو يأتي نكرا ، وانما الغرض منه بيان ان المهذبين لا يكادون يجدون مهذبات يعرفن قيمتهم وان خير النساء عفة وأدبا ليفضلن في الغالب المجان الفاسقين من الرجال لتصبيهم إياهن بالتطرز والتطرس والتورّن (١) على ان حظهن منهم بعد الزواج يكون في الا كثر دون حظ فواجر الاجنبيات والوطنيات لانهم في الغالب من الذواقين

ليس بين الرجال والنساء عندنا الآن خلاف كبير في مسألة توسعهن في العلوم ولا في مسألة مزاحمتهن لهم في الاعمال فما ذكرته الخطيبة في ذلك جاء قبل أوانه وانما اكبر الخلاف في كون جمهور عظيم من المتعلمين يطلبون حياة جديدة في البيوت فلا يجدونها لذلك قل التزوج في هذا الصنف وأكثر المتزوجون من أفراده الأغنياء من استخدام الأوربيات ولذلك يتزوج بعض المتفرنجين بهن حتى صار في مصر احتلالان اجنبيان — كما قالت الخطيبة — أحدهما في المواقع العسكرية وثانيهما وهو أشأمهما في البيوت

قالت ان الرجال يخطئون في إناطة فساد النساء بالتعلم وحقهم ان ينيطوه بالتربية وقالت انه لا صلة بين التعليم والتربية الا في تعلم الدين . قد أحسنت في جعلها أمر التربية أهم من أمر التعليم ولكنها افتأتت علينا بما نسبته الينا فاننا نشكو من فساد التربية اكثر مما نشكو من فساد التعليم وقلته . وليس الانفصال بين التربية والتعليم بالمقدار الذي ادعته فان التعليم الصالح يمدّ التربية الصالحة ويغذيها وهي الاصل في الصلاح فيمكن ان يكون الامي صالحا بحسن التربية ولكنه لا يبلغ مرتبة من ربي وتعلم . وأما من تعلم ولم يترب على الاعمال الصالحة فيكون شرا من الجاهل الذي لم يؤخذ بالتربية لانه يكون أعلم بوجوه الشر وأجرأ على العمل بها

اذًا لا بد من تربية البنات وتعليمهن ليحسنّ ادارة بيوتهن ويكنّ قرة عين لأزواجهن في انفسهن وأولادهن (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما)

---

(١) تطرز الرجل وتطرس تنوّق في اللباس فلم يلبس الا فاخرا . ويقال أيضا تطرس في الطعام اذا تنوق فيه وتورن اكثر من التدهن والتنعم

الجزية وتجند أهل الذمة

جرى الصحابة في فتوحاتهم على جعل الجزية التي يفرضونها على أهل الذمة جزاء على حمايتهم والدفاع عنهم وعدم تكليفهم منع أنفسهم وبلادهم أي حمايتها والدفاع عنها ولذلك كانوا يفرضونها على من هم أهل للدفاع دون غيرهم كالشيوخ والنساء فكان ذلك منهم تفسيرا وبيانا لمراد الكتاب العزيز منها . وكأن العثمانيين سموها لأجل ذلك بدل عسكرية

ولما كان من مقتضى الدستور العثماني تجنيد جميع العثمانيين وتكليفهم تعلم الفنون العسكرية وأعمالها لأجل الاشتراك مع المسلمين في الدفاع عن أنفسهم وبلادهم التي هي بلاد جميع العثمانيين كان من لوازم ذلك وضع الجزية أو بدل العسكرية عنهم

وههنا مسألتان يظن الجاهل بحقيقة الشريعة الإسلامية وأصولها أن الدستور مخالف لها فيهما إحداهما انه لا يجوز تكليف أهل الذمة الدفاع عن أنفسهم ولا عن البلاد التي يقيمون فيها ما دام للمسلمين ولاية عليها . والثانية ان الجزية فرض لازم لا يجوز وضعه بحال

فاما المسألة الاولى فيصح ان يقال فيها اننا لا نسلم انه لا يجوز تجنيد أهل الذمة اذا اقتضت المصلحة العامة ذلك برأي أهل الشورى فان المصلحة العامة هي الاصل والأساس للحكومة لا تترك لغيرها وانما يترك غيرها لها وقد سبق لنا تقرير هذا الاصل واثباته غير مرة . على اننا إذا سلمنا جدلا انه لا يجوز إكراههم على مساعدتنا على الدفاع عن أنفسنا وأنفسهم وبلادنا وبلادهم فلنا ان نقول ان أمر التجنيد لا ينفذ إلا بعد أن يقرره مجلس النواب العام الذي اشتركنا نحن وإياهم في انتخاب أعضائه وجعلناهم وكلاء عنا ليقرروا ويضعوا القوانين التي تقوم بها مصلحة الجميع وهذا ينافي كون التجنيد بالاكراه وان كره بعض رؤساء الدين المتعصبين منهم فان هؤلاء الرؤساء ليسوا نوابا عن أهل دينهم في وضع القوانين

وأما المسألة الثانية فيدلك على الحق فيها هذه النصوص التي ننقلها عن رسالة للشيخ شبلي النعماني العالم الشهير نشرت في أواخر السنة الاولى من المنار حقق فيها ما ذكرناه من كون الجزية جزاء الحماية والدفاع وأورد في الاستدلال على ذلك هذه النصوص المروية فقال :

ولعلك تطالبني باثبات بعض القضايا المنطوية في هذا البيان أي إثبات أن الجزية ما كانت تؤخذ من الذميين الا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم وان الذميين لو أدخلوا في الجند أو تكفلوا أمر الدفاع لعفوا عن الجزية فان صدق ظني فاصغ الى الروايات التي تعطيك الثلج في هذا الباب وتحسم مادة القيل والقال .

(فنها) ما كتب خالد بن الوليد لصلوبا ابن نسطونا حينما دخل الفرات وأوغل فيها وهذا نصه: «هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا ابن نسطونا وقومه اني عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة ومامنعناكم (أي حميناكم) فلنا الجزية والافلا. كتب سنة اثنتي عشرة في صفر» (ومنها) ما كتب نواب العراق لاهل الذمة وهاك نصه «براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليه خالد والمسلمون . لكم يد على من بدل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكنتم . أمانكم أمان وصلحكم صلح ونحن لكم على الوفاء» . (ومنها) ما كتب أهل ذمة العراق لامراء المسلمين وهذا نصه «انا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم» (ومنها) المقاولة التي كانت بين المسلمين و بين يزدجرد ملك فارس حينما وفدوا على يزدجرد وعرضوا عليه الاسلام وكان هذا في سنة أربع عشرة في عهد عمر بن الخطاب وكان من جملة كلام نعمان الذي كان رئيس الوفد « وان اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم » . (ومنها) المقاولة التي كانت بين حذيفة بن محصن و بين رستم قائد الفرس وحذيفة هو الذي أرسله سعد بن أبي وقاص وافدا على رستم في سنة أربع عشرة في عهد عمر بن الخطاب وكان في جملة كلامه « أو الجزاء ونمنعكم ان احتجتم الى ذلك » . فانظر الى هذا الروايات الموثوق بها كيف قارنوا بها بين الجزية والمنعة وكيف صرح خالد في كتابه بأنا لا نأخذ منكم الجزية إلا اذا منعناكم ودفعنا عنكم وان عجزنا عن ذلك فلا يجوز لنا أخذها

وهذه المقاولات والكتب مما ارتضاها عمر وجل الصحابة فكان سبيلها سبيل المسائل المجمع عليها . قال الامام الشعبي وهو أحد الائمة الكبار أخذ « أي سواد العراق » عنوة وكذلك كل ارض الا الحصون فجلا أهلها فدعوا الى الصلح والذمة فأجابوا وتراجعوا فصاروا ذمة وعليهم الجزاء ولهم المنعة وذلك هو السنة كذلك منع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدومة »

ولا تظنن أن شرط المنعة في الجزية انما كان يقصد به مجرد تطييب نفوس أهل الذمة واسكان غيظهم ولم يقع به العمل قط فان من أمعن النظر في سير الصحابة واطلع على مجاري أحوالهم عرف من غير شك انهم لم يكتبوا عهدا ولا ذكروا شرطا الا وقد عضوا عليها بالنواجذ وافرغوا الجهد في الوفاء بها وكذلك فعلهم في الجزية التي يدور رحى الكلام عليها — فقد روى القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج عن المكحول انه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعيونا للمسلمين على اعدائهم فبعث أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعا لم ير مثله فأتى رؤساء أهل كل مدينة الامير الذي خلفه أبو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك فكتب والي كل مدينة ممن خلفه أبو عبيدة الى ابي عبيدة يخبره بذلك وتتابعت الاخبار على ابي عبيدة فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين فكتب أبو عبيده الى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ماجبي منهم من الجزية والخراج وكتب اليهم أن يقولوا لهم انما رددنا عليكم أموالكم لانه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا و بينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا « ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي حتى لايدعوا شيئاً »

وقال العلامة البلاذري في كتابه فتوح البلدان حدثني أبو جعفر الدمشقي قال حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال بلغني انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع و بلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من

الخراج وقالوا « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » . فقال أهل حمص « لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا إن ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا على ما كنا عليه والا فانا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد

وقال العلامة الازدي في كتابه فتوح الشام يذكر اقبال الروم على المسلمين ومسير أبي عبيـدة من حمص « فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم فانه لا ينبغي لنا إذ لا نمنعهم ان نأخذ منهم شيئا وقل لهم نحن على ما كنا عليه فيما بيننا و بينكم من الصلح ولا نرجع عنه الا أن ترجعوا عنه وانما رددنا عليكم أموالكم لأنا كرهنا أن نأخذ أموالكم ولا نمنع بلادكم » فلما أصبح أمر النـاس ان يرتحلوا الى دمشق ودعا حبيب ابن مسلمة القوم الذين كانوا أخذوا منهم المال فأخذ يرد عليهم وأخبرهم بما قال أبو عبيدة وأخذ أهل البلد يقولون « ردكم الله الينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا الينا بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا » وقال أيضا يذكر دخول أبي عبيـدة دمشق « فأقام أبو عبيدة بدمشق يومين وأمر سويد بن كلثوم القرشي ان يرد على أهل دمشق ما كان اجتبى منهم الذين كانوا أمنوا وصالحوا فرد عليهم ما كان أخذ منهم وقال لهم المسلمون نحن على العهد الذي كان بيننا و بينكم ونحن معيدون لكم أمانا » ،

اما ما ادعينا من ان أهل الذمة اذا لم يشترطوا علينا المنعة أو شاركونا في الذب عن حريم الملك لا يطالبون بالجزية أصلا فعمدتنا في ذلك أيضا صنيع الصحابة وطريق عملهم فانهم أولى الناس بالتنبه لغرض الشارع وأحقهم بادراك سر الشريعة « والروايات في ذلك وان كانت جمة ولكن نكتفي هنا بقدر يسير يغني عن كثير (فمنها) كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر بن الخطاب لرزبان وأهل دهستان وهاك نصه بعينه « هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول ابن رزبان وأهل

دهستان وسائر أهل جرجان ان لكم الذمة وعلينا المنعة على ان عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضا عن جزائه ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك ، شهد سواد بن قطبه وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس وكتب في سنة ١٠٨ اه « طبري » ص ٢٦٥٨

ومنها الكتاب الذي كتبه عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصه:

« هذا ما أعطى عتـبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمـير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على ان يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ومن حشر منهم في سنة وضع عنـه جزاء تلك السنة ومن أقام فله مثـل ما لمن أقام من ذلك اه (طبري صحيفة ٢٢٦٢)

ومنها العهد الذي كان بين سراقة عامل عمر بن الخطاب و بين شـهر براز كتب به سراقة الى عمر فأجازه وحسنه وهاك نصه :

« هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وملتهم أن لا يضاروا ولا ينقضوا وعلى أرمينية والأبواب الطرّاء منهم والتّناء (١) ومن حولهم فدخـل معهم أن ينفروا لـكل غارة و ينفذوا لـكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحا على أن توضع الجزاء عمن أجاب الى ذلك ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل اذربيجان من الجزاء فان حشروا وضع ذلك عنهم ، شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة و بكير بن عبد الله وكتب مرضي بن مقرن وشهد اه (طبري صحيفة ٢٦٦٥ و ٢٦٦٦)

ومنها ما كان من أمر الجراجمة وقد أتى العلامة البلاذري على جملة من تفاصيل أحوالهم فقال حدثني مشايخ من أهل انطاكية ان الجراجمة من مدينة على جبـل لكام عند معدن الزاج فيما بين بياس و بوقا يقال لها الجرجومة وان أمرهم كان في

(١) الطراء الغرباء الذين يطرون جمع طارئ والتناء المقيمون

استيلاء الروم على الشام وانطاكية الى بطريق انطاكية و واليها فلما قدم أبو عبيدة انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم فلم يتنبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم ثم ان أهل انطاكية نقضوا وغدروا فوجه اليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلم الفهري فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح فصالحوه على ان يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام وان لا يؤخذوا بالجزية ، ثم ان الجراجمة مع أنهم لم يوفوا ونقضوا العهد غير مرة لم يؤخذوا بالجزية قط حتى ان بعض العمال في عهد الواثق بالله العباسي ألزمهم جزية رؤوسهم فرفعوا ذلك إلى الواثق فأمر باسقاطها عنهم اه

(المنار) لفظ المنع في هذه الكتب والعهود معناه الحماية كما اشرنا الى ذلك في رواية منها

التعصب الديني في اوربا

تتهم أوربا أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة بالغلو في التعصب الديني الذي يفضي الى إيذاء المخالف في الدين او المذهب وغمط حقوقه . وقد كتبنا في المجلد الأول من المنار مقالات بينا فيها ان مهد التعصب هو أوربا وان الشرقيين عامة والمسلمين خاصة لا يبلغون مدّ اوربا ولا صاعها ولا يردها ولا امترها في التعصب . وحسبك انها اكرهت جميع من كان فيها من الوثنيين ثم من المسلمين على النصرانية الا من هاجر وترك أرضه وماله من حيث بقيت جميع الاديان في الشرق لا سيما الممالك الاسلامية منه . ثم إنها سفكت من الدماء الغزيرة لاجل الخلاف في المذاهب النصرانية نفسها مالم يعرف له نظير في الشرق . وقد انقلبت فيها طبيعة الاجتماع بالعلوم والأعمال الدنيوية وكثر الملحدون واعطت اكثر الحكومات الاوربية الحرية حقها في كل شيء ولم يقو ذلك كله على محو التعصب الديني لا من مثل روسية التي لا تزال حكومتها نفسها متعصبة فقط بل من مثل انكلترا العريقة في

الحرية . وقد نقل الينا البرق والبريد في هذا العام ان الحكومة الانكليزية لم تمكن الكاثوليك من القيام بتقاليدهم الدينية في عيد الفصح . وجاء البرق في هذه الايام بأن تلاميذ المدارس البروتستانت والكاثوليك في ليفربول قد تشاجروا فيها تشاجرا ادى الى إقفال الحكومة خمسين مدرسة منها وان امهاتهم شاركتهم في هذا الجهاد الديني . وقد نشر في جريدة الاخبار أحد الكتاب مقالة في ذلك فكهة هذا نصها :

﴿ التعصب الديني الانكليزي ﴾

« هل الصغار غير الكبار »

جاء في نبأ برقي من لندن انه أقفلت خمسون مدرسة في لفربول لوقوع مشاجرات بين أولاد البروتستانت والكاثوليك اشتركت أمهاتهم فيها

فاذا فرضنا ان في كل مدرسة من هذه المدارس ١٠٠ تلميذ نصفهم متساهلون والنصف متعصبون فيكون عدد الذين اشتركوا في هذه المعركة — على أقل تقدير — ألفي تلميذ من صميم الناشئة الانكلوسا كسونية . أما أسلحتهم فأولها «البوكس» الانكليزي وثانيها «الرفس» بالجزم الانكليزية وثالثها المضاربة بأدوات المدارس من ألواح الاردواز والبراجل والمقاشط والمساطر وغيرها مما لا يخلو منها جعبة تلميذ

ولا بد ان حضرات الأمهات المتدينات المتعبدات المتقيات من طائفة البروتستانت حملن معهن الى هذه المعركة ما وجدنه امامهن من أحذية قديمة وأرجل كراسي ومقشات وزجاجات فارغة . كما حملت بعض الكاثوليكيات الايقونات والصلبان تبركا وذخيرة لهذه الحرب الدينية المقدسة

ومع ان النبأ البرقي لم يأتنا بتفصيل واف عن أسباب هذه الحركة الصبيانية الملية التعصبية فانه لا شبهة في انها نشأت إما عن نفار مذهبي أو عن جدال ديني احتدم بين هؤلاء الصغار فازدرى به المدرسون لما هو مشهور عن أكثرهم من التباعد عن التداخل في كل أمر غير الفرض المدرسي

أما الأمهات المصونات فالراجح انهن أتين لمساعدة أولادهن وانقاذهن من خطر الملاكمة ثم رأين الحاجة داعية الى المداخلة الفعلية فتضاربن

ولو لم يكن الخطب جللا لما أقفلت ٥٠ مدرسة دفعة واحدة حتى لا يعود التلاميذ الى المخاصمة فالمقاتلة . وربما كانت العودة داعية الى اشتعال نيران الحقد الديني بين غيرهم من تلاميذ المدارس التجهيزية فالجامعة الذي يبلغ عدد طلبتها ٧٩٠ طالبا لان الكل منقسمون الى بروتستانت وكاثوليك وما أثر في التلاميذ الصغار يؤثر فيهم . وبذلك يعيد الانكليز أيام الحروب الدينية ويبرهنون لنا على ان ذاك الرقي المدني الهائل وحفظ أشعار شكسبير وامتلاك المستعمرات التي لا تغيب عنها شمس لم ينفع في تربية الاخلاق وان دعوى اللورد كرومر بأن بلاد الشرق عامة ومصر خاصة مهبط التعصب الديني دعوى يكذبها اليوم فعل أبناء ليفربول الذين تجمعهم الجامعة الوطنية وتضمهم مدرسة واحدة ولم يحضر منهم أحد الى مصر ليتلقى دروس التعصب من المسلمين والاقباط

واذا كان صغار الامة عنوان كبارها وصورة لاخلاقهم فلا مراء في ان هؤلاء الانكليز يحملون لبعضهم من الاحقاد الدينية اثقالا مثقلة . لان تربيتهم البيتية والمدرسية متشابهة وما يتعلمونه مع شاي ليتون ووسكي بوكانان هناوهناك مساو تماما لما يتلقنه صغار ليفربول الذين لم يكادوا يشبون عن الطوق حتى عرفوا كيف يتعصب فريق منهم للوثير وفريق للقديس بطرس والفضل في ذلك راجع الى السيدات المهذبات اللائي لا يكتفين بحقوقهن بل يطالبن بأن يكن مساويات للرجال في حق الانتخابات السياسية

ولا يقتصر التعصب على هؤلاء الانكليز من الامم التي نظنها أرقى منا طبائع وأفضل اخلاقا بل يشترك فيها الفرنسوي والايطالي والالماني والرومي — بنوع أخص — فاذا درست أخلاق أحدهم تجده يقطر تعصبا دينيا جنسيا وان لم يكن متدينا وذلك بحكم المعاشرة والروابط الاجتماعية والبيتية

فالتعصب صفة من صفات الانسانية لم يقو العلم ولا التربية على استئصال شأفتها من النفوس . وربما متنا ومات أبناؤنا واحفادنا قبل ان نصل الى درجة ننسى فيها التعصب (أحد المتعصبين)

باب المناظرة والمراسلة

﴿ رد الشبهات على النسخ وكون السنة من الدين — لليافعي ﴾

٥

بقية بحث احاديث الاحاد وكونها من اصول الدين

قال في الاعتراض الثالث من هذه الكلمة فكأنهم يثبتون صحة الروايات، بعدالة الرجال ثم يثبتون عدالة الرجال بالروايات مما لايخفى على احد فساد ذلك — الى قوله — وربما ادّانا ذلك الى التسلسل أو الدور في البرهان

واقول ان هذه مغالطة من الفاضل ايضا اذ لا يلزم ذلك اللهم الا اذا كان المعدل والجارح لغيره هو المعدل لنفسه اما اذا كان المعدل والجارح قد عرفت عدالته بالاجماع ونقل هذا الاجماع بالإجماع او بما يقاربه كالتواتر بل لو نقلت عدالته باسانيد أخر فلا فساد ولا يلزم شيء مما ذكر الفاضل

وقوله ان اكثر هذه الروايات مقتضبة الى آخره . فجوابه انهم (رح) يروون ما تلقوه على نحو ما يسمعون فما كان له سبب ذكروه وهو كثير انما قد يترك بعضهم ذلك لسبب ومناسبة حيث لم ير لذلك ضرورة . ولذلك تراه في موضع آخر يذكر السبب والمناسبة وقلّ ان يهملوا ذلك . واما ما كان يلقيه عليهم (ص) بما يشبه التعليم والتشريع العام فلا يلزم ان يطلب له سبب وا كثر الاحاديث وآيات الاحكام كذلك فلا محذور

أما قوله وقد ايدنا فيه الاستاذ الكبير العلامة المحقق صاحب المنار الاغر فنقول فيه ان كان يعني ما كتبه شيخ الاسلام المذكور على اثر ما كتبه اخونا العلامة خاتمة المحققين رفيق بك العظم حفظهما الله . فنحن قدرأينا ذلك ولم نر فيه تأييدا لحضرة

الدكتور الفاضل وغايته ان يكون رجح ان ما كتبه المجيبون لم يدفع الشبهة تماما على ان حضرة العلامة المحقق رفيق بك العظم حفظه الله انما ذكر تاريخ الكتابة عند العرب وبين بعض حالاتها في الاسلام وذلك في خطبة ألقاها والخطب لا تحتمل الاستقصاء في الاستدلال او ان يغاص فيها وراء عويصات المسائل ·

ونقول أيضا قد عرفت مما كتبناه سابقا وماقدمناه حال الصحابة (رض) في الرواية عن رسول الله (ص) وانهم كيف يروون عنه (ص) وعرفت انه كيف كان يبين لم وعرفت ان حفظهم لما روينا عنهم ليس بالمستبعد وأن المكثرين منهم وغير المكثرين قد كتبوا في حياته أو استكتبوا وهم لم يزالوا يكتبون بعد وفاته ما فات بعضهم عن البعض الآخر · والفاضل الدكتور هو ان قدر ان يثبت كراهية بعضهم فهو لا يستطيع يبين علة منصوصة لذلك غير ما ذكرناها عنهم في رسالتنا السابقة · وقلنا ان من كره ذلك فانما كره ان يكتب رأيه اما احاديث النبي (ص) فقد كتبها كثير منهم بمرأى ومسمع منه (ص) ومنهم (رض) فلم ينكر (ص) ذلك ولا هم انكروا ذلك· ولم يتلف بعضهم ما عند البعض الآخر بالاحراق وغايته ان بعضهم اتلف مكتوبات نفسه ورأيه وهذا بخلاف فعلهم بالقرآن الذي كان عند بعضهم غير ما اجمعوا عليه · و بذلك يظهر ظهورا لاغبار عليه ان كتابة الحديث لم تكن في معتقدهم مكروهة مطلقا وحاشاهم من ذلك — فقد كان الخلفاء الاربعة (رض) وغيرهم من كبار الصحابة (رض) اذا وقعت واقعة ووجدوا فيها حديثا عن رسول الله (ص) لا يعدلون به سواه بل يحكمون بمقتضاه ويحفظونه ويكتبونه في رسائلهم الى عمالهم فكتابة الحديث بالصفة التي ذكرناها كانت من عملهم ومما أجمعوا عليه فعلا وتقديرا

وغاية ما يثبت عن بعضهم انه كره كتابته في كتاب واحد لا يرجع الى سواه ويكون مرتبا كما كتب القرآن يعمل به الناس ويتركوا ما لم يكن فيه — على انهم قد عزموا على ذلك وكان ميل أكثرهم الى الفعل ومن كره ذلك فانما كرهه رجوعا بعد الموافقة على الكتابة ومع ذلك هو لم يكرهها ويتركها لأجل ان الحديث شريعة موقتة ولم يستدل على الترك بما يدل على انه فهم ان الأحاديث شرعية موقتة كما بينا ذلك في رسالتنا السابقة — وهم قد صرحوا بانهم لم يتركوا كتابة الحديث بالصفة

المذكورة الا خوف الالتباس بالمصحف و بعضهم لم يقل الا جردوا القرآن

فالاصل الذي بنى عليه الفاضل الدكتور مذهبه انما هو احتمال من عنده وظن توهمه لم يسبقه الى تخيله أحد من اتباع محمد (ص) بل قولهم وعملهم وأمرهم يناقضه مناقضة النقيض لنقيضه وما هذا حاله لا يصح فرضه — على انه لو لم يوجد عنهم ما يناقضه فلا يصح ان يجعل مثل ماهذا حاله أصلاً لمخالفته نصوص القرآن — بل لو لم يوجد في القرآن ما يناقضه فلا يصح كذلك لمخالفته ما يوجبه العقل للرسل صلوات الله وسلامه عليهم — ولو تغاضينا عن ذلك كله فغايته ان يكون احتمالا من جملة احتمالات قاله غير معصوم خالف اجماع المسلمين والله جل شأنه قد ذم من يتبع غير سبيلهم وتهدده — فما رأيك باحتمال هذا حاله كيف يعول عليه أم كيف يسوغ للمنصفين الاعتماد عليه والمفاضلة دونه وهو على كل تقدير ومهما فرض فاسد مدفوع · فهذا بعض مانقوله في شبهة الفاضل في عدم كتابة الحديث وقد ذكرنا بعض أدلته في رسالتنا السابقة والمقام جدير بالاطالة ولكن فيما ذكرناه كفاية لمن يريد الله له الهداية

اما من بعد الصحابة من رجال الأسانيد والأئمة المحدثين الذين رووا عن الصحابة (رض) وروى عنهم من بعدهم من الائمة كذلك فهم الذين كتبوا الأحاديث واجمعوا على كتابتها وكانوا كلهم رحمهم الله يكتبون وكان المحدثون (رح) يكتبون كل مروياتهم عن الشيخ حين الدرس يكتب ذلك الطلبة كلهم ويقابلون ويصححون على الشيخ أو من كتابه كل ذلك يكون بغاية الاحتياط مع كمال الفحص والتنقيب عن كل راو وعن كل ما يحدث به

فان قيل اذا كان الامر كذلك لم لم تكن جميع الاحاديث بنقل الجموع والتواتر — قلنا ان الاحاديث الصحاح هي هكذا في نفس الامر ودليله تلقيهم ذلك بالقبول — وسبب كونها آحادا انما هو لان أهل الكتب المعتبرة لا يثبتون الا ما يرويه الاثبات الضابطون ومن سواهم لا يروون عنه لئلا يغتر به من لم يعرف حاله تقليدا لمن روى عنه — ولانهم يختارون الاختصار فلذا وذاك كانوا يختارون في مصنفاتهم الأمثل من الاسانيد ويتركون ما سواه — ونحن قد قلنا انهم لو اختاروا طريقة

التواترية لكان كل حديث أو أكثر الاحاديث متواترة في أكثر الطبقات فليتأمل الناظر . وان أرادمصداق ما ذكرنا فليفرض أي حديث مما اتفقوا على صحته ثم ليتتبع طرقه في كتبهم فلا نشك انه حينئذ يوافقنا على ما قلناه ـ على انه ان وجد في اثناء سنده تفرد راو فذلك الراوي لا بد وان يكون ممن أجمع على حفظه واعتباره وكماله وضبطه بالكتابة ورب رجل يعدل رجالا فتفكر

قال حضرة الفاضل في الكلمة الخامسة ما مؤداه ان المسلمين خالفوا القرآن بايجابهم العمل بالاحاديث الى آخره ـ واستدل ببعض آيات في ذم الظن الذي أجبنا عنها في رسالتنا السابقة وزيادة على ذلك نقول قد قدمنافي هذه الجملة المختصرة الادلة القطعية على ان أخبار الآحاد ليست مما تفيد الظن فقط بل هي تفيد اليقين أيضا ـ فلا بد للفاضل ان ينقض ذلك أولا بأدلة أصح مما سقناها ـ ثم لا بدله من أدلة جديدة تدل على ان جميع أحاديث الآحاد الثقات الضابطين الذين تنطبق عليهم شرائط أهل الحديث لا تفيد العلم ولو لبعض الناس ـ ثم لا بد له من دليل يدل على ان المراد بالظن في هذه الآيات ما يرى انه الظن الراجح ـ وبدون ذلك لا يصح ولا يتم له الاستدلال بهذه الآيات على رد العمل بالاحاديث ـ نحن لا نرى ان هذه الآيات مما تدل على ذم العمل بالاحاديث ومن أراد ذلك منها فقد حملها مالا تحمله ـ لان من تفكر في هذه الآيات وامعن النظر فيما اشتملت عليه مما سماه الله ظنا فيها يراه لا محالة انما هو مما يسميه الناس في زماننا هذا بالشك فالقرآن انما يذم ما يكون بمرتبة الشك بل بمرتبة الوهم والخرص فقوله تعالى « سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » هو استدلال منهم بالمشيئة والقضاء والقدر الذي لم يعرفوا سره ولا ماهو ولا آمنوا به على رد وانكار دين الله وشرعه وعلى تكذيب رسوله (ص) فكأنهم يقولون ان كل ما فعلناه هو حسن ودين مقبول عند الله حتى الغصب والسرقة وقتل النفس التي حرم الله الى غير ذلك مما يقوله اخوانهم الجبرية اليوم فهل يصح هذا الاستدلال ؟ وهل هو ظن راجح ؟ وما المرجح ؟ وهل أخبار

الثقات الضابطين مثل ما ذمه الله عن المشركين في هذه الآيات ؟ وما لم تتحد العلة ويعلم انتفاء المانع لا يصح القياس

والفاضل حفظه الله كثيراً ما يستدل بهذه الآية ونحوها على رد وذم العمل بالاحاديث الصحاح في زعمه . وقد سبقه الى الاستدلال بها على ذلك الخوارج . واستدل بها بعض العلماء على رد القياس المساوي والاولوي وبعضهم على رد وجوب الاخذ بالعمومات القرآنية مطلقا أو الذي قد وقع فيها تخصيص أو احتمال وعلى رد الاخذ بالاستصحاب وعلى رد الاجتهاد بترجيح احد الاحتمالين الراجح . واستدلالهم على ذلك اظهر من استدلال الفاضل على ما نحن بصدده فليسلم بما هو اولى من استدلاله . فان سلم لزمه القول بان ما سوى المنصوص في القرآن ليس من الدين مطلقا ولا يجوز العمل به . وعليه فلا ندري ماذا يقول في الوقائع التي لم ينص عليها القرآن . انه مهما يريد ان يقول فيها فالحديث اولى من قوله ورأيه واقرب الى العلم واليقين منه . والا لزمه ان الدين ناقص غير كاف لفصل كل ما وقع

ونقول ان ما استدل به هؤلاء المشركون قد سماه الله ظنا وذمهم عليه . واذا كان الظن يطلق على الراجح من الاحتمالين وعلى المتردد بينهما على السواء وهو الشك وعلى ما هو دون ذلك كالوهم والحزر والخرص ونحوه فهو مشترك لفظي انما يدل على ما يراد منه بقرينة على الراجح ولما كانت هذه المعاني متفاوتة ومختلفة الحقائق فلا يصح ان يقاس هذا منها على ذاك الا اذا استكملت شروط القياس كاتحاد العلة وان لا يكون في المقيس او المقيس عليه وصف يصلح ان يناط به حكم غير الحكم الذي يراد ان يطرد فيها مع عدم المانع كذلك . ومن صحح النظر فيما ذمته هذه الآية يرى انه لا يصح قياس الاحاديث الصحيحة عليه بوجه من الوجوه مطلقا وكذلك العمومات والقياس والاستصحاب ونحوه كل ذلك لا تدل الآية على ذمه . وهذه لا تتعارض بل هي مرتبة واعلاها نص القرآن ثم نص الحديث وهذا الثاني مقدم على العموم مطلقا وقيل على العموم الذي قد تطرقه الاحتمال وليس شيء من هذه الاشياء من الظن المذموم حتى عند من يجعل كل ذلك من الظن . لان كل ما ذمه الله تعالى من الظن في غير هذه الآية من كتابه فانما هو شقيق ما

ذمه في هذه الآية ولئلا يدخل في ذلك الظن الراجح كالقياس وما ذكرناه بعده ونحو ذلك ايضا قوله تعالى « ان بعض الظن اثم » أي بعض الظن الذي هو بمثابة ظن المشركين غير المستند الى حجة ترجحه فهو اثم لانه من ظن ضعفاء العقول الذين ليس لديهم علم و بصيرة وانما هم يخرصون بالحزر والوهم الكاذب ومفهوم الآية ان البعض الآخر أي كالظن الراجح ونحوه ليس كذلك وحينئذ نقول إما ان يجعل الظن مراتب لا يتناول حكم احداها الاخرى وذلك مثل ما قلناسابقا أو يجعل كالمتواطئ في افراده وهذا مع ضعفه فالظن الراجح مستثنى كما عرفت ايضا ، وإما ان نجعل كل ما هو نظير ومثيل ما ذمهم عليه هو الظن وكل ما كان مدركه أقوى مما ذكره الله عن المشركين وذمهم عليه هو من العلم وعلى كل تقدير فاستدلال الفاضل الدكتور بهذه الآية ونحوها على ذم العمل بالاحاديث الصحاح فاسد فما ذمه الله عن المشركين في واد والاحاديث في واد آخر . وبما ذكرناه تنحل عقدة الاشكال التي كثيرا ما تورد مثل هذه المسائل فتأمل ذلك واشكر الله على افضاله

قال اخونا الفاضل وقد اقر الاستاذ الفاضل الشيخ اليافعي بان الظن انما يذم اذا عارضنا به الامر القطعي . ثم رد علي بأني ومن على مذهبي كثيرا ما اعارض نصوص القرآن الشريف الصريحة واخالفها لاجل الاحاديث الآحاد. الى قوله واليك بعض الامثلة على ذلك .

وأقول في الجواب قد قدمنا الكلام على آية الوصية للوالدين والاقربين الوارثين . وهنا نقول للاخ المكرم حفظه الله ان تجويز معارضة نص القرآن بالحديث الصحيح لم يقل احد من المسلمين به فيما اعلم والحقير لا يقول به أيضا هذا فصل (الثاني) ان من جوز نسخ القرآن بالسنة متواترة كانت او مشهورة او آحادية لا يلزمه ان يقول بوقوع ذلك فعلا (الثالث) ان من يجوز نسخ القرآن بالحديث الصحيح هو لم يعارض به نص القرآن وانما اذا صح حديث عن رسول الله (ص) متأخر عن نزول آية ولم يمكن التوفيق بينهما فالمعارضة انما هي بين الحديث واستمرار الحكم أي بقائه او عمومه واطلاقه وقد اختلف في الاول كبار العلماء (رح) وقد قدمنا بعض الكلام على ذلك اما الثاني والثالث فقد قال بجوازه ووقوعه الجمهور لكن قال شيخنا

ابن القيم رحمه الله مع تجويزه النسخ بجميع اقسامه ما معناه ان كل ما يظنه الناس معارضة بين السنة والقرآن فليس الامر كما يظنون بل لا بد ان تكون السنة مبينة لآية من القرآن هي في الحقيقة ناسخة او مخصصة لما يظن منه أن السنة خصصته او قيدته وعلى كل تقدير فاهل العلم كلهم متفقون هؤلاء وهؤلاء على انه لا يجوز اهمال وإلغاء شيء مما صح عن النبي (ص) سيان من جوز وقوع المعارضة ومن التمس لها موافقة من آيات الكتاب العزيز لان المرمى والمحط واحد

قال الاخ الفاضل حرموا اكل الحمر الاهلية للحديث مع ان الله يقول « قل لا اجد فيما اوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة الآية . ويقول « انما حرم عليكم الميتة والدم » الآية الخ واقول ان الحصر في هاتين الآيتين قد عارضته آيات أخرى في القرآن نفسه (* واذا اخذ المطعوم المحرم اعم من لحم الحيوان فالمعارض اكثر . وحينئذ إما ان يقال الحصر منسوخ او مخصوص بوقت نزولها وكلا التقديرين مخالف لمذهب الفاضل لعدم تجويزه النسخ أي وقوعه ، ولقوله ان الخصوص بوقت دون وقت لا يكون في القرآن وانما يكون في الحديث لانه أي الحديث شريعة موقتة بزعمه وهو هنا لا محيص له من التزام أحد الاحتمالين رضي ام ابي

ثم نقول اذا كان الحصر منسوخا أو مقيدا بحين النزول فلا يكون الحديث المذكور معارضا لنص القرآن المحكم بلا خلاف وانما هو من باب الزيادة على ما في القرآن او ما سكت عنه ومن لا يجوز ذلك فقوله غير مؤيد بحجة ولا بشبه حجة على أنا نقول ان الله حرم الخبائث والخبيث في القرآن كما حرم الانفاق منه فلم لا يجوز ان يكون لحم الحمر الاهلية من ذلك والحديث مبين لما اجملت تلك الآيات وبذلك يندفع الاعتراض من اصله

قال الفاضل قالوا بحرمة الذهب والفضة والحرير للاحاديث التي رووها والقرآن يقول «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » الآية قلت وليس الامر كما أطلق وأهل الحق (رح) لم يحرموا الا الاكل والشرب في آنية الذهب والفضة وعلى الرجال لبس الذهب في غير السلاح والحرير الخالص لغير الضرورة

*) المنار : ليته بين المعارضة بالشواهد كما تعودنا من إسهابه

والآية ليست نصاً في تحليل ذلك بل لم يذكر فيها شيء من ذلك بخصوصه وكان سبب نزولها في زينة مخصوصة حرمها المشركون وهي ستر العورة فكانوا لايجيزون بل يحرمون سترها عند الطواف وكانوا يحرمون بعض الرزق الطيب فأمر الله عباده المؤمنين ان يأخذوا زينتهم عند كل مسجد وان يأكلوا ويشربوا من الطيبات من الرزق ونهاهم عن الاسراف في الامرين أي اللباس والاكل والشرب ورد على المشركين بأن قال لنبيه (ص) قل لهم أي أسئلهم من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق الآية فالآية لا يعارضها الحديث لما عرفت ان ماأحل لنا من ذلك هو مقيد بعدم الاسراف وأيضا قوله « من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده » المراد بالزينة فيه الزينة التي أمرهم بأخذها عند كل مسجد وتلك معلومة لدى المخاطبين (رض) لم تكن هي ذهبا وفضة ولا حريرا ، على ان ماسوى الاكل والشرب في آنية النقدين من كل استعمال لما ذكره جائز للنساء وهن ممن يدخل في الخطاب وأيضا كل مايطلق عليه لفظ الزينة لايمكن الدكتور ان يجوزه لكل أحد بلا تقييد ولا نظنه يجوز للرجال لبس النساء ولا العكس مطلقا واذا كان الامر كذلك فكان الاولى به ان لايعترض علينا بهذه الآية في الاحاديث لاسيما وقد عرفت ان آخر الآية انما هو مبني على ماذكره في أولها

ان من يعارض الاحاديث ويحلل كل مايطلق عليه لفظ الزينة بهذه الآية قوله أشبه شيء بقول من يجوز أكل وشرب وتناول واستعمال كل ماعلى الارض وكل مايخرج منها بقوله تعالى « هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا » الآية فكما ان هذا لايصح فتحليل استعمال كل زينة بكل صفة لايجوز مثله والآية لاتدل عليه

قال حرموا ان تنكح المرأة على عمتها وخالتها وخالفوا قوله تعالى « وأحل لكم ما وراء ذلكم » الى قوله بعد ان ذكر سائر المحرمات وليس من بينهن المرأة على عمتها أو خالتها . وأقول هذه الآية قد دندن حولها الخوارج وأطالوا بما لا طائل تحته وقد خالفوا اجماع من تقدم عليهم علما وفضلا وخالفوا نصوص رسول الله (ص) والنبي (ص) قد حذر منهم وذمهم وقال انهم يمرقون من الدين — استدلوا بعموم قوله تعالى « وأحل لكم ما وراء ذلكم » وهو غير مراد على اطلاقه لوجود نصوص

القرآن بتحريم محرمات لم تذكر في هذه الآية كالمشركة وزواج الأمة لمن يقدر على زواج الحرة والزانية والملاعنة والمطلقة ثلاثا حتى تنكح زوجا غيره — والعقد بالربيبة قبل ان يطلق أمها ويدخل بها على خلاف في ذلك بين العلماء — كما اختلفوا في المشار اليه في قوله « ما وراء ذلكم » وقد اختلفت طرق أهل العلم في الرد عليهم . ونحن إذا ناقشناهم الحساب قلنا لهم ان الله ذكر ما ذكر من المحرمات منبها بها على مالم يذكره مما اتحدت فيه علة التحريم — وليس المراد الحصر بالعد ، ولا اقامته مقام الرسم والحد ، وبناء على ذلك نقول ان الله لم يذكر الجدات ولا بنات الاولاد ولا أم المرضعة ولا بنات الأخت والأخ من الرضاعة ولا سائر من يحرمن من الرضاعة فكما انه لم يصرح بذكر من ذكرناهن وهن محرمات غير داخلات في قوله « وأحل لكم ما وراء ذلكم » فكذلك تحريم ان تنكح المرأة على عمتها أو خالتها من كل امرأة لو فرضت ذكرا حرمت على الأخرى — لا يحل ان تنكح عليها — فقوله « وان تجمعوا بين الأختين » لا يأبى دخول الجمع بين أحدهما وبنت أختها وأخيها في المنع والنهي بل دخولها ظاهر لأهل العلم بالقرآن لاسيما وقد دل الحديث الصحيح أو المتواتر عند بعضهم على ذلك

ولو سلمنا بالمعارضة فهي ليست لنص الآية . وانما هي بين عمومها أو استمرار الحكم وتأبيده وهو ظني كما تقدم والحديث أقل حالاته ان يكون أرجح واذا وقعت المعارضة فالجمع بين الدليلين هو الواجب اذا أمكن والا لزم اهمال أحدهما بلا موجب وهو لايجوز . هذا على قول من يقول ان الاحاديث الصحاح انما تفيد الظن اما على ما اعتمدناه من انها قد تفيدنا العلم فالامر واضح ظاهر ولا قباحة فيه

قال الفاضل حفظه الله أوجبوا القتل مطلقا على من ارتد عن الاسلام للحديث والقرآن يقول « لا اكراه في الدين » فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . وأقول قوله أوجبوا القتل مطلقا ليس بصحيح على اطلاقه — بل لو منع الامام عن قتل المرتد لمصلحة كهادنة ومعاهدة ومأمنة بشروط ألجئ اليها لا يجوز قتله فقتل المرتد قد يختلف حكمه باختلاف الحالات وهذا الاختلاف الذي قد يرى انه تسهيل في

بعض الاوقات والاحوال — انما يستفاد من الاحاديث والسنن لا من القرآن ومن تفكر فيما اشتمل عليه صلح الحديبية من الاحكام عرف ذلك فلنكتف بالاشارة اليه

أما ماذكره حضرة الفاضل فهو ليس في حكم المرتد وانما الآية الاولى في شأن الكفار من أهل الكتاب هل يجبرون على الاسلام أم لا وأما الآية الثانية فليس فيها تجويز الكفر لهم ولا حكم الاكراه لهم منابل هو مسكوت عنه كله انما هو في الكافر الاصلي فالأيراد ليس في محله .

ونحن نسأل حضرة الفاضل هل يقول باقامة الحدود والتعزيرات على فعل بعض الواجبات والفرائض الذي اجمع عليه المسلمون ودل عليه الكتاب والسنة كما قال « تعالى فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم » الى غير ذلك مما يدل على ان المسلم يجبر على التدين والخضوع لاحكام الدين ؟ ام هو يقول بعدم جواز اقامة الحدود ونحوها ؟ فان قال بالاول وهو ظننا به فقد وافقنا ونقض اعتراضه بنفسه والا كان مخالفا وواقعا في أقبح مما ظن وزعم ان غيره واقع فيه

(لها بقية)

الانقلاب العثماني الميمون

﴿ ورأي صاحب جريدة وطن الهندية فيه وفي عبدالحميد خان ﴾

أرسل الينا صديقنا الغيور مولوي محمد انشاء الله صاحب جريدة «وطن» الهندية ما يأتي فننشره مع تصحيح قليل لبعض الالفاظ من جهة اللغة والنحو ونجيبه عنه وهو

حضرة الصديق الفاضل :

استلمت كتابكم الخصوصي مع العدد الرابع من مجلة المنار وشكرت فضلكم وقد وصلني في نفس ذلك البريد اعداد من جريدة اللواء ايضا خلاف المعهود وقد نشرت هذه الجريدة كتابي في أحد اعدادها وردّت عليه في العدد الآخر حسب ما رأت فاشكره على لطفه ايضا

وجنابكم تعلمون اني اظن حضرتكم محباً مخلصاً للاسلام والمسلمين فلذلك اكلفكم في بعض الاحيان تكليفا ما — واطالع مقالاتكم وكل ما تسطرون في امر الاسلام والمسلمين بمزيد العناية والتبجيل بل واسعى في اشاعته جهد طاقتي وحسب استطاعتي ليستفيد العالم الاسلامي الهندي من آرائكم الحكيمة — وكذلك لا اشك في كون حضرة علي فهمي كامل بك ايضا محبا غيورا للملة والوطن — ولكن اعذروني ياسيدي بأني لا أرى بدا من ان أقول لكم كلمة صادقة — وهي انني كنت دائما لا أرى رأيكم صحيحاً في امر السلطان المخلوع وان ما كتبتم في العدد الاخير من مجلة المنار فقد قرأته بكمال الاسف والحيرة — وليكن في علم حضرتكم اني لا اظن عبد الحميد ملكاً معصوماً — بل أرى فيه من حيث انسان من التقصيرات ومواقع الضعف البشري ما يجب ان يؤخذ عليها — ولا يخفى عليكم وعلى الذين طالعوا كتابنا تاريخ مشروع السكة الحجازية باني اول من كتب بالصراحة التامة في ذم عمال عبد الحميد وعدم كفايتهم حين لم تكن في استطاعة أي جريدة من جرائد مصر وسوريا ان تكتب في هذا الباب بمثل تلك الصراحة — لاني كتبت ذلك في شهر يناير سنة ١٩٠٨ واظنكم غير ناسين ما جريات مشروع السكة الحجازية فانه لما شاع اقتراحي هذا اول مرة خالفه السلطان عبدالحميد اشد الخلاف وكتبت جريدته الرسمية «المعلومات» ان هذا المشروع يكون اشد ضرراً للدولة العلية ولكن يغفر الله للمشيرين المرحومين شاكر باشا وعثمان باشا غازي فانهما بعد أن تأثرا من مكتوباتي المتوالية ايدا المشروع حق تأييده وكانت نتيجته ما كان

ان حضرتكم وحضرة محرر جريدة اللواء تقولان ان مخلصكم هذا (محرر جريدة وطن) ومسلمي الهند لا يعلمون من الحالات الاصلية للدولة شيئا — فاقول بكل الادب ان قياسكما هذا ليس بصحيح فان سوء ادارة ولاية الحجاز والحالة السقيمة التي كانت لاحقة للجيش العثماني المرابط في الولايات البعيدة — والمظالم التي كانت تجلبها يد الجاسوسية على البلاد والعباد كانت حديث كل ناد من اندية القوم في الهند والسند وأفغانستان ولم يكن الفرق غير اننا كنا خبيرين بذلك والعثمانيون هم واقعون تحت نير هذا الاستبداد عملا يذوق بعضهم من طعمها المر ويتأوه من شدائد هذه المظالم

والآلام — وتعلمون حضرتكم حق العلم ان مسلمي الهند لم يكونوا بوجه ما منعما عليهم من السلطان المخلوع ولا مرهونين بهمة من الامة التركية . ان الاتراك أو الخليفة لم تعط ولا درهما واحدا في اعانة مسلمي الهند حين ما ابتلوا ببلاء او انتابتهم نائبة مع ان مسلمي الهند لم يقصروا قط في مديد الاعانة للعثمانيين — حتى أن محرر جريدة وطن غير كونه مقترحا لمشروع السكة الحجازية والبغدادية جمع لها من اموال الاعانة زهاء مليون قرش وارسلها الى اللجنة العليا في الاستانة ولم تستطع جريدة من جرائد العالم الاسلامي ان ترسل مثل هذا المال لاعانه ذلك المشروع العظيم من الاكتتاب العام وكذلك ارسلت في اعانة منكوبي جزيرة اقريطش آلافا من الروبيات — احتسابا وخالصا لوجه الله — ما اردت أن أمن بها على احد ولما تشفع لي دولتلو ذهني باشا في حضرة السلطان بعطاء امتياز (؟) منذ سنتين وصدرت الارادة باعطائي الوسام العثماني من الدرجة الرابعة كتبت الى حضرة الباشا المشار اليه انني لم ار من المناسب أن ارد عطاءكم مع انني لا احسبه شيئاً بمقابلة الاجر الذي يحصل لي من الله الكريم لان تلك الصلة الدنيوية لا يمكن أن تفيدني فائدة ما . ولا يفوتكم ان هذا الامتياز لم يكن ليعتد به لان الذين زاروا الأستانة العلية من الاجانب من أي صنف وطبقة كانوا تحصلوا على امتيازات اجل وافضل من ذلك الامتياز وغير ذلك فاني لم اكن اخدم هذا المشروع رغبة في صلة

يظنون بان السلطان عبد الحميد هو الباني والمحرك لفكرة اتحاد الاسلام ولكني أعلم حق العلم انه لم يسع قط لاشاعة هذه الفكرة في مسلمي الهند ولا احد من اعوانه ولو كان كذلك لكان لابد ان اكون اول من يعلم به وكيف كان من الممكن السعي في نشر افكار اتحاد الاسلام بين مسلمي الهند حينما لم يكن قنصل الدولة العلية في ثغر بمبي عالما باسماء الجرائد الاسلامية التي كانت مشغولة في جمع الاعانات للسكة الحجازية ايضا — واني اعلم واكثر مسلمي الهند مثلي في العلم بان الوسائل الاصلية لترقية المملكة العثمانية لم توجد في عهد عبد الحميد الى حد يجب ان نفتخر به حتى قلت بنفسي في تأليفي كتاب «تاريخ خاندان عثمانية» الصادر في سنة ١٨٩٧ ما مفهومه «لعلي ارى بجنب الجامع الحميدي وحميدية خسته خانه وامثال ذلك من المشروعات

ترعة او سكة حديدية ايضا يفتخر بها العصر الحميدي الى الابد» ولعلكم تتعجبون من سماع هذا الامر ان جريدتي « وطن » كانت ممنوعة الدخول في الاستانة و بعض الممالك المحروسة كجريدة « وطن » المصرية وان كانت جريدتي لا يكون فيها غير مدح عبد الحميد وتأييد الخلافة العثمانية شيئا — بل هي مخصوصة لذلك الامر

ولكن مع ذلك كله اعتقد انا وجميع مسلمي الهند بوثوق تام ان تركيا الفتاة أو الامة العثمانية قد ارتكبت خطأ جسيما في عزل عبد الحميد بل كفرت نعمة الله تعالى وقد علمتم من صاحبزاده عبد القيوم عظيم الافغان ان الصدمة التي احس بها مسلمو أفغانستان والهند من عزل عبد الحميد كيف كانت شديدة عليهم وكل يوم يرد علي من الكتب من اقطار الهند ما لا استطيع نشره في الجريدة وفيها ما فيها من اظهار التألم والتأثر في النفس — وأخاف لو نشرت افكار المنار واللواء في جريدتي أن تأتي غالبا بما هو عكس المقصود — واسمحوا لي ان اقول لكم بكل الاسف ان ما كتبتم حضرتكم تعليقا على مقالتي أو في مكان آخر من مجلتكم هو خارج عن حد الاعتدال يشف عن ميلكم الى الاتحاديين ولذلك ترمونني وجميع مسلمي الهند بالجهل بأحوال الدولة العلية — ان حضرتكم أو حزب تركيا الفتاة أو الرجعيين من العثمانيين الذين يرومون عود عصر الاستبداد — كلكم من المناظرين اوفريق من المتخاصمين لا تستطيعون ان تبدوا او تقيموا رأيا صحيحا واما نحن معاشر المسلمين في الهند ففي وسعنا ان نقيم الرأي الصحيح لاننا لسنا من فريق ولا واسطة لنا بهم غير الاخوة الاسلامية والتعلق الادبي الذي هو روح الاسلام — وانكم مثل الجندي الذي يكافح ويناطح الاعداء في ميدان القتال لا يرى غير ما يكون حواليه ولا يكون همه الا قتل مبارزيه ونحن كالمتفرجين من بعيد نرى كل ما يجري بين الفريقين المتحاربين — وانكم من الذين آذاهم العصر الحميدي حتى اضطروا لترك الاهل والوطن فلابد انكم تسرون بزوال السبب الذي جر عليكم هذه البلاد وان يكن هو السبب البعيد والقريب غيره والا فلم يكن يليق بحضرتكم ان تصوبوا سهام آيات الانذار من القرآن الكريم الى عبد الحميد الذي لم يبق له (شيء من) الحول ولا الطول وهو الآن تحت مرحمة أعدائه الذين لا يشفي غليلهم الا بشرب دمه

ان مافعلوا بعبدالحميد هو ليس غير عزله من سرير السلطنة ولكن ترون مئات من الملوك والخلفاء والقوّاد العظام الذين دالت دولتهم قد صار مصيرهم اسوء من عبدالحميد : ايش مضى على نابوليون ؟ وما جرى على مدحت باشا ؟ قد قتل السلطان عبدالعزيز وعزل السلطان مراد — بل الفاروق (رض)وذو النورين(رض)والامام علي (رض) كلهم فازوا بالشهادة ان لم ينزلوا من دست الخلافة وأراد القاتل اغتيال معاوية (رض) وقتل الحسين (رض) مع رفقائه رضوان الله عليهم في اشد المصيبة ولقد نجد التاريخ مملوءا من أمثال هذه الحوادث الجسام فمالنا ان نخص مفهوم الآيات القرآنية بعبد الحميد وحده بل يجب علينا ان نحترز من مثل ذلك الخطاء

واعلموا ان ظنكم وظن جريدة اللواء بان الانكليز في الهند يسعون في إلقاء بذور الشقاق بين مسلمي تلك الاقطار والعثمانيين للقضاء على الاتحاد الاسلامي والخلافة فأقول لكم بكل الاحترام ان ظنكم هذا ليس في محله بل أسأتم حيث ظننتم هذا لأن الأمة الانكليزية أمة حرّة عادلة عاقلة لا تتداخل أبداً في مثل تلك الأمور . ان مسلمي الهند كانوا يجلون عبد الحميد لكونه سلطان المملكة العثمانية وأحبوه لأنه في رأيهم كان حافظ هذه السلطنة من المخاطرات الجسيمة لا غير فكان تبجيلهم له ومحبتهم منه لأجل خدماته الجليلةالتي خدم بها السلطنة والخلافة الاسلامية — وان كان عطل الحكومة الدستورية السابقة فلأنه يحسبها مضرة أشد الضرر في حق الدوله والملة

ان المسلمين الهنديين يعلمون بانه ليس من أحد في هذه الدنيا غيرفان و باقيا غيرالله الواحدالقهار : ان الحجزعلى بسمارك ما صارسببالخراب ألمانيا وعزل عمربن الخطاب خالدا (رض) عن القيادة العامة لجند المجاهدين لئلايحسبه المسلمون سببا للفتوحات ويتركوا الاتكال على الله تعالى وعلى شجاعتهم وقد هلك آلاف من الصحابة الكرام بطاعون عمواس وفازوا بالشهادة في ميدان القتال ومع ذلك لم تنقطع سلسلة الفتح الاسلامي كذلك عبد الحميد أيضا لم يكن ليعمر الى الأبد ان كان يموت فكان لا بد من مشي الأمور كما كانت تمشي قبل أيامه وفي عصره ولكن مع كل هذه المسلمات لم نتصور نحن معاشر المسلمين الهنديين عزله طاعة كبرى للدولة ؟ لأن في

آرائنا أن الدولة العلية فقدت بهذا الامر إحدى يديها وعينيها وصارت ذات يد واحدة وعين واحد فقط بعد ان كانت ذات يدين وعينين

نحن نقول ان عبد الحميد لما أخذ كل أمور المملكة في قبضة يده قد أحسن نظرا الى الحالة الطارئة على البلاد في تلك الايام لانه لو كان القوم كلهم أو جزء قوي من أجزائهم يرى مثل رأي مدحت باشا لكان من المحال سقوط ذالك الرجل المصلح . ولا يذهب من خاطركم ما فعله القواد العثمانيون العظام في حرب الروسية الاخيرة من أخذ الرشوة وكيف كان حال العمال في ذالك العهد فكان كل تبعة الجور والاستبداد على الوزراء والولاة

هذا هو حلمي باشا الصدر الاعظم الحالي لما كان واليا في اليمن أي شيء فعل في تلك البلاد التعسة ؟ لذالك رأى السلطان عبدالحميد ان العافية في ان يأخذ كل أمور المملكة في يده ويقبض عليها بيد من حديدومن الظاهران ترقية القوم الذين قد خيم الادبار بجرانهم لا يكون ممكنا الا بالحكم المطلق

كان حكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم مطلقا وكان حكم الصديق (رض) والفاروق (رض) أيضا كذلك

لا ننكر ان اجتماع الاختيارات في يد رجل واحد أعني عبد الحميد قد صار في آخر الامر موجبا للخراب أيضا لان الرجل الواحد لا يستطيع أبدا ان يحكم على بلادواسعة الارجاء مترامية الاطراف وقدانذكت قواه بكثرة الأشغال فظهر عليه ضعف الكهولة والشيخوخة حتى صارت أكثر الامور في يد رجال المابين وهم يرمون كما يشاؤن ولكن نية عبد الحميد لم تكن سيئة قط لذالك لما رأى ان جزءا كبيرا من القوم صار أهلا للحكم الدستوري اعاده عليه وأعطاه حقه والظاهر ان هيئة الادارة التي تشكلت في سنة ١٩٠٨ هي من أحسن ما يكون

ولا يسعكم إنكاران المتعلمين المتنورين الآن في بلاد العثمانية قليلون جدا والجزء الاعظم من تركية آسيامملوء من المسلمين الذين يميلون الى بقاءالقديم على قدمه أكثرمن الذين يرون الدستوروحياةالبلادو تخلص العباد من شرك الظلم والفساد ومحبو القديم هم يقدرون اقتدار جلالة السلطان حق قدره ولا يفوتون ان يكون السلطان مسلوب الاختيار

فان بقاء السلطان عبد الحميد على سرير الملك وقيام مجلس المبعوثان على العمل باصلاح الحكومة والبلاد هما الامران اللذان كانا يبعثان الطمأنينة في نفوس الفريقين وبهذه الطريقة كان من الممكن ان يأخذ الدستور مجراه الطبيعي على سبيل التدريج والترقي ولا تقع السلطنة في اخطار الحرب الاهليـة والفتن الداخلية ومن الجانب الآخر لا يكون بوسع الاعداء الخارجية ان يتلاعبوا مع الدولة العلية لخوفهم من سياسة عبد الحميد ودهائه المشهور والمعلوم ولكن الانقلاب الأخير (المشؤوم) قد فتح الدور الجديد قبل أوانه وزلزلت أركان حالة البلاد زلزالا شديدا

ان محمود شوكت باشا قد يستطيع ان يعدم كل جهال الاستانة وصوفتها ولكنه لا يستطيع أبدا ان يمحو من الوجود الملايين من المسلمين القاطنين في بلاد العراق وكردستان وجزيرة العرب والاناضول وغيرها الذين هم من محبي الحالة القديمة والحكم المطلق لا شك في أنهم ساكتون وصامتون الآن وسيسكتون الى بقاء الادارة العرفية والسيادة العسكرية ولكن متى وجدوا انفراجا من هذا الضغط ولو قليلا فلا بد من انفجار المادة المشتعلة الكامنة الان تحت هـذا الضغط الشديد (لا قدر الله)

انكم تقولون ان الخليفة والسلطان هو موجود وجالس على عرش السلطنة ولكن حجتكم هذه غير نافعة لان جلالة السلطان محمد الخامس هو كآلة صماء في يد فريق ليس له وجاهة خصوصية وقوة ذاتية . ونقول بعبارة أخرى ان يدا وعينا واحدة من يدي وعيني الدولة تعملان الآن واليد والعين الاخريين معطلتان بل تريد اليد العاملة والعين المستعملة في ذالك الوقت قطع اليد الأخرى وقلع العين الثانية من جسم الدولة وصلاح الدولة منوط باتحادهما في العمل اعني كان من الواجب ان يكون الفريقان من انصار عهد القديم والدور الجديد متحدين في ترقية شأن الدولة وصلاح المملكة مثل اليدين والعينين ويكون الصدر أو الرأس عبد الحميد فيعملان حسب إشارته وينجحان في أعمالها

انكم تقولون ان الحركة الجديدة في الدولة العثمانية هي عين التوحيد والاسلام ولكن التاريخ يقضي بخلاف ذلك . ان الفتيان من الاتراك (تركيا الفتاة) يتبعون

أثر اقدام فرنسا التي اسقطت الملك أولا والعلماء الروحانيين ثانيا وقطعت علاقة العبد بالله تعالى أخيرا فصاروا بذلك من الماديين الدهريين . ان صبغة تعاليم الاسلام لتجدون في انكلترا البتة (كذا) ولعل تركيا الفتاة ان لم يكن بوسعها ان تقلد الخلفاء الراشدين فكان اللازم عليها قراءة تاريخ انكلترا . لا ريب انه قبل قرون من هذا العهد قد فعل كرامول في انكلترا كما فعل شوكت الآن في الاستانة ولكن ايش صارت نتيجة ذالك الفعل القبيح غير اراقة الدماء اعواما متوالية وأخيرا قد حلت الملكية محلها وثبت ان محوها محال

تقولون ان عبد الحميد كان منبع جميع الشرور والمظالم ولكن ما تقولون في أمر تركيا الفتاة والمشير شوكت باشا فانهم أنفسهم من الذين رباهم العهد الحميدي الزاهر هل تسبونه على تهيئة مثل تلك النابتة النابغة ؟

تقلتم أقوالا للغازي مختار باشا في ذم عبد الحميد وكأنكم ليس لكم علم بان عبد الحميد كان واقفا من مدة على سوء نية الرجل واميالهِ العدائية نحوه ولكن لم يتعرض قط لشأنه بل كان ينعم عليه ويكرمه كما كان يسعى في جلب الفتيان الثائرين عليه من أوربا بالشفقة الابوية والعفو السلطاني أليس هذا سماحا وكرمامنه لا يوجد له نظير الآن

ان جمعية الاتحاد والقائد شوكت باشا يستطيع ان يأسر عبد الحميد ورجال الدور السابق ويعدم من يشاء من معانديه ، أفلم يكن يستطيع عبد الحميد ان يذلل المختار في زمان اقتداره؟ ولكن التاريخ يشهد له بأجلى بيان انه لم ينتقم من أحـد لنفسه قط بل كان يشدد ويلقى القبض على الذين يعدهم أعداء الدولة والملة . ان مراد بك وغيرهم من رفقائه يساقون الآن الى السجن المؤبد أو المشانق ومن الذي لا يعلم انهم كانوا من أشد أعداء عبد الحميد فعفا عنهم وطلبهم الى الاستانة وأنعم عليهم ـ وعلى كل حال إن المسلمين الهنديين متألمون ومتأسفون جدا من جراء هذا الانقلاب لظنهم انه يضر بالدولة والملة العثمانية ضرراً بليغا ولكنهم اذا وجدوه مفيدا بحقها وثبت لهم ذلك من كر الليالي والايام فلا بد من أن ينعم به بالهم وتقر به أعينهم ويقولون « الخير فيما وقع » وإلا فقد افتى العالم الخارجي كله بأن « لا خير فيما وقع »

انكم تنسبون تألم المسلمين الهنديين الى دسائس الاجانب . وأ كثر العقلاء يرون ان تركيا الفتاة مغرورة من جهة الاغيار في ارتكاب ذلك الخطإ الجسيم

ان عبد الحميد لم يكن قط بانيا لتحريك اتحاد الاسلام ولكن قد وجدت هذه بالحركة في عصره بين المسلمين بناموس الارتقاء البشري وأيقنت أور با مثل يقينه بعدم تناهي كنوز يلدز وان الثلاثمائة مليون من المسلمين كلهم في قبضة عبد الحميد وكان ذلك اليقين كظن ثروة عبد الحميدية الغير متناهية (بزعمها) مباركاً في حق الدولة والاسف كل الاسف على ضياع هذه الاعتقاد بعزل عبد الحميد وتحريات ثروته !!!

ان اتهام عبد الحميد بالجبن كالبصق على السماء ينزل على وجه الرجل نفسه لقد قال له الوزراء حين قدوم جنود الروسية في سان استفانوس ان يهرب الى بروصه لكنه لم يتزعزع من مكانه ولم يرض بترك دار الخلافة ولما طلب الروس الاسطول قال عبد الحميد انني أركب في السفائن وأدمرهم بيدي وأغرق معها ولكن لا أقبل ان أسلمها للعدو أبدا؟ هل يمكن طمس الحقيقة التاريخية التي تظهر بذكر ثبات عبد الحميد وقوة جاشه عند وقوع الزلزلة في القصر وفرقعة الديناميت على بضعة أقدام من مركبته حيث لم يكترث ذلك الطود العظيم بهذه الحوادث ابداً !!! وأ كبر من ذلك ان يتهمه فاضل مثلكم بعقر الخمور (استغفر الله) لأن وجود الخمر في قصره من لوازم ضيافات الاور باويين الذين كثيرا ما كانوا يدعون كل يوم على مائدته ولاجل ذلك لم يكن يشترك عبد الحميد قط في الطعام معهم وتقول جريدة اللواء «ان انصار العهد القديم والرجعيين يمدون الجرائد الخارجية بالمال و يأخذونها وسيلة لنشر افكارهم » - يمكن ان يكون في مصر جريدة مثل ما قالته - ولكن لا يوجد في الهند عثماني واحد يحض جرائدها ببذل المال على تنقيص تركيا الفتاة والحكومة الدستورية — ومع ذلك فرصيفتنا اللواء تقول كذلك وتظهر خطأها القياسي كالواقعة الحقيقية فيمكن لنا ان نستدل ببقية بياناتها بأنها قياسات لا أصل لها -

ان جريدة المقطم وغيرها من الجرائد التركية لقد تجاوزن حد الآداب في ذم عبد الحميد ولم تكن تفعل واحدة منهم هكذا في عصره - ومن العجب ان أ كثر جرائد العرب والشام وغيرها ينقلون مقالات المقطم في أنهر صحفهن - وهن يعلمن

ان آراء هذه الجريدة كانت دائما مخالفة للحقوق التركية والمصرية في معاملة مصر- وفرحها وسرورها بعزل عبد الحميد يكشف الغطاء عن نيتها و يظهر لنا جلياً انها ترى هذا العزل حسب مرادها -

ان كان عبد الحميد ليس له عون ولا نصير فلم يعدمون الآلات المؤلفة من النفوس في الاستانة وسائر الجهات ؟ لاشك في انه فضل حقن الدماء ولم يرض ان يكون مثل شاه العجم . انه كان محباً للملة وخادماً مخلصاً للوطن لا طالب الجاه -وكان يحب الحياة لكن لا للتنعم والالتذاذ بنعمات الدنيا الفانية بل لخدمة الوطن والملة وطنه ن حياته رحمة الهية لصالح العباد والبلاد -

ان خير ما كتب في ذلك الشأن هو قول رصيفتنا اللواء «ان عزل عبد الحميد عن عرش الخلافة ليس قتله بل احياء لانه خلص من متاعب الحكومة » ولكن أقول ان عزله وان يكن في حقه احياء فلا يكون في حق الدولة الا موتاً ونكالاً - لا يوجد رجل في جميع المملكة محنكاً مثله بل وأقل منه أيضاً في السياسة الخارجية لذلك أرى من الواجب على الامة ان تكرم مقامه وتستشيره في الامور المتعلقة بالسياسة الخارجية و يكون العمل منوطاً بالا كثرية لا على اشارته

ولقد طال المقال رغم ارادتي الاختصار لذلك اختم رسالتي بتقديمي فائق الاحترام لحضرتكم وأرجو منكم نشرها كما ترون مناسبا والرد عليها سالكين مسلك الانصاف والحق وترك المجادلة بالباطل والسلام

وقد ارسلت نقولا من ذلك الى بعض جرائد أخرى أيضا عسى ان يتكرموا بنشره

في ١٢ يونيو سنة ٩٠٩ — كاتبه المخلص محمد انشاء الله

محرر ومدير جريدة « وطن »

لاهور (بنجاب) الهند

﴿ جواب المنار ﴾

مقدمات ومسائل حول المقصد

(١) كان لنا ان لا ننشر رسالة صديقنا هذه لانه لم ينشر مقالتنا في الرد على رسالته

الأولى لأن الفائدة في نشر أمثال هذه المناظرات في الصحف هي بيان جميع مايجب بيانه لقرائها في المسائل المتناظر فيها لاجل ان يكون حكم أولئك القراء صحيحا لبنائه على العلم بالمقدمات التي يبنى عليها الحكم · ولكن صديقنا خشي من نشر ردنا عليه أن يأتي بضد مايراد منه كما قال فكأن قراء جريدته لايرضون منها الا ان تكتب لهم مايوافق ميلهم وهو يوافقهم على ذلك وهي خطة فيها من النقد مالا محل لشرحه هنا. أما نحن فاننا ننشر ماهو مخالف لرأينا ولمشرب جمهور قراء المنار لأنه ان كان حقا قبلناه، وان كان باطلا دحضناه ، وفي اعتقادنا ان الحق يدمغ الباطل فاذا هو زاهق

(٢) لانسلم لرصيفنا وصديقنا المناظر لنا مايدعيه من أن رأيه في عبد الحميد والدولة هو رأي جميع مسلمي الهند فانه يتعذر عليه ان يعرف آراء أولئك الملايين وهو لايعرف أكثرهم ولا هم يعرفونه وانما قصارى مايمكن ان يظن هو أن جمهور قراء جريدته موافقون له في رأيه وميله وماهم الا عدد قليل في أولئك الملايين. وقد اعتاد مثل هذه الدعوى بعض الجرائد المصرية وما زلنا ننكرها عليها · واننا نرى بعض جرائد اخواننا مسلمي الهند تنشر من الرأي ضد ماينشر صاحب «وطن» بل ترد عليه فيما يكتبه كجريدة «وكيل» التي تصدر في (أمرتسر) وبلغنا عن مسلمي عليكده انهم مسرورون راضون عن هذا الانقلاب العثماني وناهيك بمن هنا لك ، انهم أنور مسلمي الهند عقولا وأرجاهم لخدمة العلم والملة

(٣) ان صديقنا المناظر احتج برأي عبد القيوم عظيم الافغان وان هذا الرجل العاقل المنصف لم يفارقنا الا وهو مقتنع بأن تشاؤم الكثيرين من مسلمي الهند والافغان وخوفهم من عاقبة هذا الانقلاب انما سببه الجهل بالحقائق وان لبعض الجرائد تأثيرا تأثيرا سيئا في ذلك وانه يجب السعي في إزالة هذا الجهل حتى انه اقترح إرسال وفد تركي يجوب البلاد الهندية والافغانية لإزالة سوء الفهم والجهل بالحقيقة · وقد كان هذا من المعقول في أول العهد بالانقلاب أما وقد طال العهد ونشرت الحقائق في الجرائد فقد رأينا المنصفين من اخواننا مسلمي الهند مقتنعين بما ظهر لهم من الحق ولذلك كان إصرار صديقنا صاحب جريدة «وطن» على ما كان عليه غريبا عندنا يصعب تأويله

(٤) قرأنا رسالته هذه قبل نشرها على بعض أهل الرأي والاستقلال من مسلمين وغير مسلمين فعجبوا واستغربوا وقالوا مانذكره مع إنكاره على إطلاقه وإجلال صديقنا وتبرئته من سوء النية : انه لايعقل ان تكون هذه كتابة عارف مخلص ... وليس في هؤلاء من هو من جمعية الاتحاد والترقي ولا من المتعصبين لها بل هم ممن يعرفون لها و ينكرون عليها ·

حقا انه يصعب على العقل المجرد من الهوى ان يتصور ان إنسانا يعرف حقيقة حال الدولة العثمانية وحقيقة مافعله عبد الحميد من الافاعيل الضارة بها و بالامة ثم يكتب كلمة في مدحه والدفاع عنه ويكون مخلصا محبا للمصلحة العامة ولذلك بنينا ردنا السابق على قاعدة جهل جرائد مسلمي الهند بمفاسد عبد الحميد ومضار حكمه اذ لاوجه يتضح لاتهامهم بسوء النية وعدم الإخلاص · ولكن صديقنا ومناظرنا ينكر ذلك في رسالته هذه ويدعي انه هو وغيره من مسلمي الهند واقفون على جميع سيئات الحكم الحميدي وانهم اعلم بها وأقدر على الحكم فيها من العثمانيين الذين ذاقوها وتقلبوا فيها · ويبني دفاعه عن عبد الحميد ومدحه له على ادعاء حسنات له لادليل عليها ولا يستطيع ان يزيد فيها على الدعاوي والمدائح الشعرية كما بينا ذلك في ردنا الاول عليه وزاده بيانا صديقنا رفيق بك العظم في مقالته التي نشرناها في الجزء الماضي ونزيده نحن بيانا في هذا الجزء

(٥) ان كتابة صديقنا لهذه الرسالة بعد اطلاعه على ما اطلع عليه من كلامنا وكلام غيرنا في الانقلاب لم نجد لها من تأويل مع مانظن من اخلاصه الا ان جريانه على مدح عبد الحميد سنين طويلة جعل حسن اعتقاده فيه أمرا وجدانيا كدين العجائز لايقبل بحثا ولا استدلالا يخالفه أرجو منه العفو والسماح عن ابداء رأيي هذا فاننا لم نر وجها آخر نفهم معنى إصراره وتناقضه وتهافته فيما يكتبه أولا وآخرا

(٦) إننا لانعتقد صدق مايظنه بعض الناس هنا من ان الانكليز هم الذين أحدثوا في الهند فكرة سوء الظن بالدولة العثمانية في طورها الدستوري وان كنا نعتقد انهم يحبون ان تنتشر هذه الفكرة ليضعف تعلق المسلمين الديني بهذه الدولة وأن كل من يبطل ثقة المسلمين بالدولة العلية في البلاد التي للانكليز فيها نفوذ يكون خادما لهم في الواقع ونفس الامر وان لم يكلفوه ذلك ويغروه به

(٧) انا لا نعتقد أيضا ان السلطان عبد الحميد هو الذي سعى في بث نفوذ الدولة الديني في مسلمي الاقطار أو في دعوتهم الى التآخي والاتحاد مع سائر المسلمين . هو أقل وأصغر من ذلك فمثله لا يسعى في عمل كبير كهذا . وانني موافق لصديقي المناظر في كون هذه الفكرة المنبثة في المسلمين من روح التعارف والوحدة المعنوية ليست الا أثرا من آثار سنة الترقي في البشر . وقد كان شيخنا الاستاذ الإمام يقول ان الحرب الروسية العثمانية هي مبدأ هذه الحركة والصوت المحدث لهذه اليقظة الاسلامية العامة . وقد كان هو وشيخه السيد جمال الدين يكتبان في أثناء تلك الحرب المقالات المنبهة والموقظة . وقد رأيا قبل ذلك ان انكلترا حاربت الافغان فلم يكن أحد من المسلمين في مصر والاستانة وغيرهما يحفل بذلك

(٨) انني لا أتعجب من منع جريدة «وطن» الهندية من دخول البلاد العثمانية في عهد عبد الحميد وان كان لا يخشى ان ينتشر بدخولها من الافكار ما لا يحبه لجهل العثمانيين بلغتها ، ولا منع جريدة « وطن » المصرية – ان صح انها أرسلت ومنعت على كونها قبطية لا يطمع صاحبها بنشرها في غير مصر – لان العاقل انما يعجب مما جاء على خلاف المعهود ومثل هذا المنع هو المعهود في أيام عبد الحميد لان سياسته كلها وما يتعلق منها بمنع الصحف والكتب خاصة هي سياسة جنون وهل يتعجب العاقل من المجنون اذا آذى من يحسن اليه ؟ ؟

(٩) ان ما ذكره من سيئات عبد الحميد يناقض من وجوه ما ذكره في الرسالة الماضية التي نشرناها في الجزء الرابع التي ادعى فيها انه أصلح مالية الدولة ورقى عسكريتها ومعارفها وعمر داخليتها بل يناقض بعض ما جزم به في رسالته هذه كما سيأتي

(١٠) انا بينا له خطأه فيما أطرى به عبد الحميد من الاعمال التي نسبها اليه وكان يعمل ضدها فلم يستطع ان ينفي شيئا مما أثبتناه وهو مع ذلك يصر على إطرائه بعبارات شعرية ودعوى ظهر بطلانها لكل أحد كدعواه انه منع الدستور لاعتقاده ان الأمة لم تكن أهلا له ثم أهلها له ومنحها إياه

(١١) لا نسلم له انه أول من كتب بالصراحة في ذم عمال عبد الحميد فان جرائد المشرق والمغرب قد فاضت بذم عماله وبذمه هو أيضا قبل سنة ١٩٠٨ التي كتب

صديقنا فيها ولم يشذ عن ذلك الا الجرائد التي كانت تحت سيطرة ظلمه وجبروته أو المستأجرة بماله لمدحه أو الجاهلة بحال الدولة العثمانية او التي لا يهمها شأنها كبعض جرائد أمريكا واسبانيا مثلا (وعسى ان لا يعود صاحبنا الى دعوى مثل هذه الاولية التي يسخر العقلاء من انتحال بعض الجرائد المصرية مثلها)

(١٢) ان ما ذكره عن جريدة معلومات غير صحيح فهي لم تكن جريدة رسمية ولم يكتب ما كتب فيها عن مشروع سكة الحديد الذي كان اقترحه الكاتب بأمر خفي أو ظاهر من السلطان عبد الحميد وانما كان ذاك رأي محررها في ذلك الوقت وهو صديقنا السيد عبد الحميد افندي الزهراوي الشهير وهو الذي حدثنا بذلك عن نفسه . وانما ذكرنا هذا الامر مع كونه ليس من موضوعنا الخاص لغرضين أحدهما كونه مثالا لعدم الثقة بمعلومات صديقنا صاحب وطن عن الدولة العلية وثانيهما معارضته في قوله ان خطأ اللواء في بعض ما ذكره عن الهنود يقتضي عدم الثقة بكل ما يكتبه

(١٣) دعواه اننا نحن السياسيين والمؤرخين العثمانيين لا نستطيع ان نحكم في قضية الانقلاب العثماني حكما صحيحا لاننا من قبيل الخصم يحكم كل لنفسه وأن مسلمي الهند هم الذين يستطيعون ذلك — هي دعوى غير مسلمة لأن التشبيه في غير محله والا قلنا انه لا ثقة بما كتب مؤرخو فرنسا وساستها عن ثورتهم وحكومتهم – ولان اخواننا مسلمي الهند غير واقفين على حقائق الاحوال فيكون حكمهم فيها أجدر بالصحة

(١٤) انا نعتقد اخلاص مسلمي الهند في حبهم للدولة ونعد صديقنا ومناظرنا من أشدهم غيرة واخلاصا بل نقول ان خطأه جاء من شدة غيرته

المقصد وفيه مسائل

(١) اعترف صاحبنا « بأن الوسائل الاصلية لترقية المملكة العثمانية لم توجد في عهد عبد الحميد » الخ واعترف بأن أخذ أزمة المملكة بيده « صار في آخر الأمر موجبا للخراب » وهذا مناقض لرسالته الاولى برمتها ولبعض مسائل رسالته هذه كما أشرنا الى ذلك في التمهيد والمقدمات .

(٢) ادعى مع ذلك الاعتراف ان عبد الحميد كان محسنا في إبطال الدستور الأول واستبداده بالحكم المطلق واستدل على ذلك بدليلين أحدهما سوء حال الدولة وعدم استعدادها للحكم الدستوري بدليل ماحصل من سقوط مدحت باشا المصلح ومن اخذ القواد العثمانيين الرشوة في الحرب الروسية وسوء حال العمال في ذلك العهد وعجز حلمي باشا عن اصلاح اليمن · وثانيهما كون حكم الاسلام هو الحكم المطلق

نجيب عن دليله الأول من وجهين أحدهما إنما يصح كونه محسنا في ذلك لو كان عدل في حكمه المطلق وأصلح وهو لم يكن الا ظلوما مفسدا زادت الرشوة في زمنه أضعافا مضاعفة · وثانيهما انه كان يمكنه ان ينفذ الدستور مع الرجال المستعدين لذلك الذين وضعوه كمدحت باشا وإخوانه كما فعل ميكادو اليابان فيكون في أول الامر دستوريا في الصورة وحكما بين المطلق والشوري في الحقيقة و بذلك يقوى استعداد الامة بسرعة · هذا مانقوله مؤخرا في الدليل نفسه لأ نا لا ننكر كون الامة العثمانية لم تكن في عهد مدحت باشا مستعدة للدستور بنفسها بل صرحنا بذلك مرارا في خطبنا ومقالاتنا المنشورة في المنار · أما الجزئيات التي أيد بها ذلك فهي مجال للبحث فان عبد الحميد اغتال مدحت باشا بالحيلة الخفية بعد ما نقله من ولاية الى ولاية والامة لم تفطن لكيده · وان حسين حلمي باشا عجز عن اصلاح اليمن لان كل اصلاح مع استبداد عبد الحميد وخرقه كان محالا على ان حلمي باشا كان حسن الادارة في اليمن لا ينكر أهلها ولا غيرهم ذلك

ونجيب عن دليله الثاني بمنع زعمه ان حكومة الاسلام حكومة فردية مطلقة ، وقد أساء جدا في قوله ان حكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحكم الصديق والفاروق رضي الله عنهما كان حكما مطلقا برأهم الله مما قال وانما ذلك هو حكم الشورى الكامل ، وحكم التقييد بالشرع في الظاهر والباطن ، وقد بينا ذلك في المنار غير مرة مؤيدا ببراهين الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الأربعة · فليراجع صاحبنا تفسير « وشاورهم في الامر » من المجلد الحادي عشر ومباحث الحكومة الاسلامية في المجلد الرابع وغيرهما من المجلدات وليستغفر الله تعالى مما قال

(٣) أذكر بعد زعمه ان حكومة الاسلام التي قام بها النبي (ص) والخلفاء

الراشدون كانت حكومة مطلقة زعمه انني قلت ان الحركة الجديدة في الدولة العلية هي عين التوحيد والاسلام و رده ذلك بزعمه ان فتيان الترك القائمين بهذه الحركة يتبعون خطوات فرنسا باسقاط الملك فعلماء الدين ثم بقطع العلاقة بين الناس و ربهم واختيار مذهب الماديين الدهريين

ونقول في جوابه ان زعمه هذا من سوء الظن المتعلق بمكنونات الصدور ومخبآت الغيب للمستقبل · واذا كان صاحبنا ومناظرنا لا يعرف حقيقة الدولة الحاضرة وحال القائمين بها فكيف يعرف ماخبئ لها في الغيب · بل كيف يمكنه أن يدعي الاستدلال بالحاضر على الغائب · ان الاحرار الذين بأيديهم حدثت الحركة هم النابغون من العثمانيين العرب (كالقواد محمود شوكت باشا وهادي باشا وعلي رضا باشا) والترك (كأنور بيك من الضباط وغيره) والألبان (كنيازي بك من الضباط وغيره) ولم يعرف عن أحد منهم الكفر وانتحال مذهب الماديين وكذلك النابغون من المبعوثين والاعيان لم يعرف عنهم ذلك الا ما نقل عن رضا نور مبعوث أدرنه من ذلك القول الذي اعتذر عنه وهو لم ينقل على وجهه · ولم يعرف عنهم انهم يفضلون الحكومة الجمهورية على الملكية

نعم انني لا أنكر انه يوجد في متفرنجي الترك — وكذا غيرهم من العثمانيين — كثير من الملاحدة لفساد التربية في البلاد والتعليم في مدارس الحكومة ولا يبعد ان يوجد منهم أفراد في مجلس المبعوثان وفي لجان جمعية الاتحاد والترقي ولكن يوجد في هؤلاء الملاحدة من هم أحرص على جعل الدولة إسلامية من جميع المتنطعين في التدين لانهم يعرفون من فائدة ذلك مالا يعرفه المتنطعون · فالملحد الغالي الذي يخشى من غلوه على شكل الحكومة الاسلامي قليل · واختلاف الآراء والاهواء في الحكومة طبيعي في كل أمة فقد كان في عصر الاسلام الأول من يميل الى جعل الحكومة حكومة أشراف كشيعة علي كرم الله وجهه ؛ ومن قال منا أمير ومنكم أمير ، ومن يميل الى الديمقراطية المعتدلة وهم الأكثر · ووجد في ذلك العصر الخوارج وناهيك بمذاهبهم في الحكومة

وتقول من وجه آخر إذا كان ما ذكره عن فتيان الترك أو العثمانيين ونابتتهم المتعلمة صحيحا وكانوا هم المعدين لادارة المملكة بمقتضى طبيعة الحال ألا يكون من سوء ادارة عبد الحميد أنه لم يرب في ثلث قرن من يصلح لإدارة دولة إسلامية كدولته ؟

ان مناظرنا الصديق يحتج علينا تارة بأن عبد الحميد رقى التربية والتعليم في الدولة حتى صارت اهلا للدستور فتكرم وتفضل بالانعام عليها به مختارا مسرورا ، وتارة يحتج علينا بأن هؤلاء المتعلمين ملاحدة لا ينتظر منهم الا الإلحاد والافساد؟ وليت شعري ماذا يفيد بقاء عبد الحميد في الملك مع التعليم والتربية التي تنتج مثل هذه النتيجة ؟ أ كانت كل رغبة مناظرنا وغرامه من التمتع بالحكم الاسلامي الحميدي هو ان يبقى لعبد الحميد استبداده الى ان يموت على فراشه ؟ أليس ماظهر من عدل الله فيه مما يزيد الذين آمنوا إيمانا ؟

اما ما اشار اليه الصديق المناظر من استحسان الاعتبار بحال الانكليز والاقتباس من سيرتهم وتاريخهم وكونهم أقرب الى الحكومة الاسلامية الصحيحة من غيرهم فهو مقارب لرأي اخيه ومحبه هذا وقد نبهت الى هـذا في خطب وأقوال كثيرة وكتبته في المنار ايضا في بعض المقالات ولعل الصديق رآه وسنعود اليه بالبيان الكافي ان شاء الله تعالى

(٤) يقول صديقنا ان المشير احمد مختار باشا الغازي سيء النية وعدو للسلطان عبد الحميد أي فلا يحتج بقوله فيه . ويقول لي « كأنكم ليس لكم علم بأن عبد الحميد كان واقفا من مدة على سوء نية الرجل وامياله العدائية نحوه »

وأقول أولا — كيف كان يعلم هو في الهند من العلاقة بين مختار وعبد الحميد مالا أعلمه وانا في مصر اسهر الليالي الطوال مع مختار باشا ونتحدث في احوال الدولة بالحرية التامة ويذكر لي كثيرا من الاسرار وهو يعلم اني أمين عليها ، ومنها رأيه في السلطان ورأي السلطان فيه . وثانيا — لماذا يكون مثل احمد مختار باشا سيء النية لعبد الحميد وشديد العداوة له مع ما ذكر صديقنا المناظر من إنعامه عليه وإكرامه له ؟ هل يعقل ان يكون لذلك سبب الا اعتقاد هذا المشير الذي بذل في سبيل الدولة

دمه غير مرة أن عبد الحميد جان عليها ومخرّب لها وهو الذنب الذي لا يغفره عند هذا الرجل العظيم الإنعام ولا الإكرام الشخصي . وثالثا ليراجع صديقنا ص ٦ و٧ من منار هذه السنة يجد فيها ان السلطان عبد الحميد كان يتهم مختار باشا بأنه يساعد جريدتي المنار والقانون الاساسي لانهما أنشئتا لمقاومته نفسه . ولو شئت لذكرت له كثيرا من أمثال هذه الوقائع والحوادث والمكاتبات الرسمية السرية ليعلم انني اذا قلت فيه إنه لا يعرف حقيقة ما كان عليه عبد الحميد في دولته ورجالها فانما أقول عن علم واختبار لا يمكن لمثله ان يصل الى ذرة منها لان قصارى مايصل اليه نتف متعارضة في الجرائد

وما قيل في احمد مختار باشا يقال في محمود شوكت باشا وأمثاله من المشيرين وقواد الجيش وغيرهم من العقلاء الذين لم يصب أشخاصهم شر عبد الحميد و بغيه . فاذا كان مثلي في غيرته على الدولة والملة متهما عند الصديق (سامحه الله) لأن بغي عبد الحميد وحكومته أصابنا في أنفسنا وأموالنا وأهلينا فبماذا يتهم هؤلاء ؟ على أنه لو فكر قليلا لعدّ اضطهاد الحكومة الحميدية لمثلي من أسباب التعديل لا من أسباب الجرح اذ لولا الصدق والاخلاص لسهل عليّ أن أكون مطوقا بذهب عبد الحميد دون سلاسل غضبه ولا يعقل ان يكون بين أمثالنا و بينه عداوات شخصية

(٥) نرى آخر ما استقر عليه رأي صديقنا انه كان يجب إبقاء عبد الحميد على عرشه ومشاركة جماعة الدستور له واستعانتهم بتجاربه على إقامة الحكومة الجديدة ولكنهم لم يفعلوا ذلك إيثارا للانتقام منه

ونقول ان أكثر العقلاء من الاجانب والعثمانيين العارفين بالتاريخ يرون انه كان يجب قتله عند الانقلاب الأول وإراحة الأمة من شره وان جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تدير القوة غلبت العفو والسماح والرحمة على الشدة والانتقام وظنت أنها تستطيع ان تنسخ سنة من سنن الاجتماع البشري فتحدث انقلابا في الحكم ، غير ملطخ بالدم ، وقد كنت أنا ممن حذر من التعدي على شخص السلطان ودعا الى الاستفادة من تجاربه في الامور الخارجية في أول مقالة كتبتها بعد إعلان الدستور ولكن أبى الله ذلك فأبى عبد الحميد ان يعيش مع حكومة الشورى والدستور، يرضى

القتيل وليس يرضى القاتل ، فأخذ يكيد لها كما كاد لسابقتها ، فوقع في البئر التي حفرها ، أما آن لك أيها العاشق لعبد الحميد ان تعرف الحقيقة التي عرفتها الارض والسماء ولم يبق منفذ للشك فيها

(٦) يقول ان محبي الحكم المطلق من مسلمي العراق وكردستان وجزيرة العرب والاناطول سيهبون الى مقاومة الدستور بعد انقضاء مدة الاحكام العرفية . يعني ان من خطر الحكومة الدستورية على الدولة أنها مضادة لما عليه السواد الاعظم من المسلمين وستكون سببا للثورات والفتن الداخلية

ونقول ان البلاد التي ذكرها ان كانت جديرة بعدم فهم منافع الدستور لعموم الجهل فيها كما بينا ذلك في الكلام على تفاوت البلاد العثمانية في الاستعداد والعلم فهي أيضا لا تعشق الحكم المطلق تفضيلا له على المقيد بحجة دينية أو عقلية وإنما يخشى من الفتن فيها لان الزعماء الذين كانوا يتحكمون فيها بالدماء والاعراض والاموال شعروا بأن ايديهم ستغل وسلطهم ستزول فهم لاجل هذا أحبوا ويحبون مقاومة الحكومة الدستورية كلما وجدوا الى ذلك سبيلا ولكن الحكومة ستطهر البلاد من شرهم في مدة أقصر من المدة التي دنسها بهم عبد الحميد ان شاء الله تعالى

(٧) يقول اذا لم يكن لعبد الحميد أنصار محبون فمن هؤلاء الذين تشنقهم الحكومة العرفية كل يوم

ونقول ان أعوان عبد الحميد على تخريبهم المملكة لتعمير بيوتهم و إذلال أهلها لأجل تفنجهم وتعاظمهم لا يعقل ان يكونوا غير محبين له والتمتع بنعيم سلطته فهم كأولئك الزعماء الذين ذكرناهم في المسألة السادسة

(٨) انني لا أقول شيئا في طعنه بمولانا السلطان محمد الخامس الا دعوته الى التوبة والاستغفار من هذه المعصية فان لم يجب الآن فانه سيجيب بعد زمن بعيد أو قريب يعلم فيه أن محمداً الخامس في بني عثمان كعمر بن عبد العزيز في بني أمية، كما ان عبد الحميد، شر من يزيد، فسلطاننا الآن ليس آلة في يد أحد كما أن الشرع والدستور ليسا آلة في يده يستعملها بهواه كذلك المسلط بالبغي الذي أدال الله لنا منه .

ومن التناقض ان يطلب صاحبنا الجمع بين الدستور واستبداد السلطان واعجب من ذا أن يعد هذا من الاسلام

(٩) قال ان المقطم تجاوز الحد في ذم عبد الحميد وان جرائد بيروت تنقل عنه الخ

ونقول ان المقطم كان دائما يطعن في عبد الحميد وحكمه ولكن يتحامى الطعن الشخصي الصريح الذي يخشى أن يعاقب عليه القانون المصري الذي يعد السلطان سلطانا له وبعد سقوطه زال هذا المانع . أما كونه كان « مخالفا للحقوق التركية والمصرية » وسيء النية فنطلب من صديقنا المناظر الجمع بينه وبين ما مدح هو به الانكليز من العدل وحسن النية وارادة الخير فانه لا يختلف اثنان في كون المقطم كان ولا يزال مؤيدا لسياسة الاحتلال لأن مذهبه في حسن نية الانكليز كمذهب صاحبنا . وأما كون جرائد سورية لم تكن تذم عبد الحميد في عهده فهذا من البديهيات التي لا حاجة الى الكلام فيها . على ان أكثر هذه الجرائد السورية جديدة حدثت بعد الدستور

(١٠) قال انني اتهمت عبد الحميد بشرب الخمر واستغفر هو الله من هذه التهمة بالنيابة عني وقال ان وجود الخمر في قصره كان لأجل ضيوفه الاوربيين « الذين كثيرا ما كانوا يدعون كل يوم على المائدة » يريدان يبرئ كل من كان في القصر من الشرب

واقول لصديقي ومناظري الفاضل انني اعجب لقلبه الشريف الذي يملأه الحب حتى لا يدع فيه مجالا لشيء يزاحمه وأتمنى لو افوز بدوام حبه وصداقته . ثم أوكد له القول بأنني لم استدل على شرب عبد الحميد للخمر بما نقلت الجرائد من وجود طائفة من الخمور في يلدز كما فعل اللواء فانني أعلم منذ سنين انه يشرب الخمر وان أكثر من في يلدز كان يشربها بلا نكير وانها هناك من المؤونة الضرورية . أعرف هذا من الثقات الذين أكلوا فيها وخالطوا أهلها . وكثيراً ما كان يذكر في البرقيات العمومية والجرائد شرب عبد الحميد للخمر في سياق الكلام عن صحته ومرضه ومنها أنه في اوائل العهد بالانقلاب كان يتغذى بالروم المعتق ...

(١١) قال ان عبد الحميد لم ينتقم لنفسه من مختار باشا وأمثاله من أحرار الترك لإيثاره الحلم والعفو

وأقول انه لم يكن قادرا على ان يعامل مختار باشا بأكثر مما عامله به وصديقنا

لا يعرف من معاملته له شيئا قط ولا حاجة الى إعلامه به . وأما انتقامه من الاحرار فلم يدخر فيه وسعا فقد قتل رئيسهم مدحت باشا وكثيرين غيره وسجن ونفى خلقا كثيرا . وعوالم المدنية كلها تعرف ذلك حتى ان الافرنج يلقبونه بالسفاح و بالسلطان الاحمر . ولا أحب أن أناقشه فيما ذكره من مدح أخلاقه فانها شعريات لا يؤبه لها وما أحييت له ذلك التشبيه الذي ذكره عند الكلام في شجاعته لان ادبه في نفسي اعلى من ذلك . والذي عليه المحققون ان جمود عبد الحميد في موضعه يوم الزلزلة قد كان من شدة الخوف واضطراب الاعصاب . وما قاله في مسألة الاسطول كلام في الهواء لا عمل يستدل به . وليكن عبد الحميد شجاعا فماذا جنينا من شجاعته التي لم نر احدا قال بها الا صاحب الوطن اوجبنه الذي يضرب به المثل غير الحنظل والزقوم

(١٢) اعاد صاحبنا صدى قول المؤيد ان من ضرر الانقلاب الاخير اظهار كنوز «يلدز» ومخبآتها اذ علم من ذلك أنها ليست كما يظن الأوربيون وكان توهمهم ان فيها مالا يحصى من الملايين قوة خفية للدولة تخيفهم من الاقدام على مناوءتها فهي كتوهمهم تعلق جميع المسلمين به

ونقول ان هذا القول لا يصدر عن سياسي عارف الا اذا أراد به الخلابة والمخادعة لفساده من وجوه (منها) ان الوهم البين الواضح هو ما تخيله صاحبا المؤيد ووطن من انه يمكن ان يوجد عشرات من الملايين من النقد الذهبي لا يعرف مكانه الأوربيون الذين يديرون ثروة العالم . ومن الشواهد الصغيرة على ذلك ما ذكرته جرائد الاستانة من أن مدير البنك العثماني فيها لاحظ ان عددا يؤبه له من قراطيسه لا يعود اليه في دورة التعامل فجزم بأنه في « يلدز » وهو ما وجد فيها (ومنها) انهم يعرفون موارد الدولة أكثر مما كانت تعرفها نظارة ماليتها (ومنها) انهم كانوا يعلمون ان عبد الحميد يودع في كل سنة ما يزيد على نفقاته والمال الاحتياطي لها في بيوتهم المالية (البنوك) وهم يعرفون مقدار ما أودعه في تلك البيوت (ومنها) ان الاعتماد على الوهم في صيانة الدولة وحفظها مما لا يجنح اليه عاقل، لأنه عرض زائل، فان أفاد عبد الحميد مدة وجوده ، فهو لا يفيدها بعد موته، (ومنها) اننا ما رأينا آية ولا علامة لخوف دولة من الدول من ثروة عبد الحميد وخلافته عند حدوث الحوادث،

ونزول الكوارث ، وإنما كانوا يطلبون منه الامر الشائن المذل له ولدولته فاذا راوغ وهددوه أجاب صاغرا ، وخنع متضائلا ، ولم ينس أحد تهديد فرنسا له في مسألة الارصفة وانكلترا في مسألة العقبة وايطاليا في مسألة البريد ، وما كان يساورنا من الذل والمهانة من سياسته معهم. ثم انهم انتزعوا في أيامه معظم الولايات الاوربية من الدولة حتى انه لو بقي سلطانا سنة أخرى لذهبت الولايات المكدونية التي هي سياج العاصمة بلا نكير . فاتقوا الله أيها المتنصرون لذلك المدمر المخرّب فقد وضح الحق في ذلك لكل أحد

(١٣) بقي ما انتقده الصديق عليّ من ايراد آيات الإنذار من القرآن في المقالة التي كتبتها للعبرة بالانقلاب الاخير قال انه لم يكن يليق بي ان أصوّب سهام آيات الانذار من القرآن الكريم الى عبد الحميد الذي لم يبق له شيء من الحول والطول وإن ما جرى له ليس أمرًا كبيرًا بالنسبة الى ما جرى لغيره من الخلفاء والملوك والكبراء وذكر بعض من قتل وعزل من المتقدمين والمتأخرين

وأقول ان الصديق نفعنا الله بمودته قد حفظ شيئا وغابت عنه أشياء أهمها ان الكلام في تلك المقالة ليس من باب إظهار الشجاعة بمقاومة عبد الحميد بعد ان صار مثلي ليس له سلطة ولا خطر في بالي ان عبد الحميد يقرأها أو يعلم بها وإنما هي تذكير لقراء المنار بعواقب الظلم والإفساد والبغي والغرور بالقوة والغنى والملك والسلطان ، ومحاولة الفرد إذلال الامة وقهرها ليهنأ له التمتع بلذة السيادة ولوازمها فيها ؛ ولو قتل عبد الحميد غيلة كما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تكن العبرة التي شرحناها تامة في شأنه

ان صديقنا نظر في المسألة من الجهة الشخصية فعدّ سقوط سلطة عبد الحميد كقتل عمر وعثمان والحسين (رض) واسر نابليون وعزل بسمارك وقتل مدحت باشا . وما ابعد الفرق بين هذه الحوادث وأشد اختلاف وجوه العبرة فيها . لو صح ما رمي اليه لما كان لنا فائدة فيما ذكره الله تعالى من العبر في هلاك المفسدين والظالمين كفرعون وآله ومن عينهم ومن أبهم قصصهم من السابقين بل لكان ذكرها في كتاب الله تعالى من اللغو الذي يتنزه كلام الله عنه

قتل عمر لم يكن الا كموته فما خاب به سعيه ولا حبط عمله بل لا يزال يضرب المثل بعدله. وفي قتل عثمان من وجوه العبرة ماليس في قتل عمر لان لينه لبني أمية الطامعين أوجد في الأمة مقدمات الاستبداد ، وولد فيها جراثيم الفساد ، فانتج ذلك من الشر ما أنتج . وفي قتل الحسين عبرة أخرى من حيث إنه لم يعدّ للظالمين العدة الكافية بحسب سنن الله تعالى ولم يكن تأثير ظلمهم قد بلغ الحد الذي يوجب سقوط دولتهم. واما نابليون فلم يكن الا مفسدا في الارض مغرى بسفك الدماء فالعبرة في خذلانه يعد من باب العبرة في خذلان عبد الحميد

والحاصل اننا نذكر صاحبنا بأن العبرة بالحوادث العامة غير مسألة الشماتة بقتل الافراد أو عزلهم وذلك مما لا يخفى عن علمه وفهمه لولا انه متألم مما جرى لعبد الحميد تألما ملأ جوانحه لحسن اعتقاده بسياسته وهو مخطئ معذور في ذلك فعسى ان يكون قد استبان له الحق فصار من انصاره ، كما يليق بفضله وإخلاصه ،

﴿ رسالة المحجوب . من باب الانتقاد على المنار ﴾

٢

وقد ادعى المحجوب ان الاحاديث التي تدل على جواز دعاء غير الله تعالى كما يفعله العوام كثيرة مشارعها ، مفعمة تضيق المهارق عن استقصائها ، ولم يأت منها بشيء قط فان أثر الاستسقاء ليس حديثا مرفوعا وطلب الدعاء من أويس ليس محلا للنزاع فان الدعاء يطلب من الاعلى للأدنى اذ لا خلاف في فضل عمر على أويس. وكل ما ورد في الشفاعة خاص بالدار الآخرة والوهابية يعترفون به كله ويفرقون بينه وبين الشفاعة التي انكرها الله تعالى على المشركين كما فرق ابن تيمية بينهما في كتبه المتداولة وقد بينا ذلك في التفسير وغيره مرات

قال المحجوب « واما ما جنحت اليه من هدم ما يبني على مشاهد الأولياء من القباب ، من غير تفرقة بين العامر والخراب ، فهي الداهية الدهيا والبلية العظمى ،

من الظلم ، الذي أضلك الله فيه على علم » ثم انه بعد سرد جمل واسجاع من هذا السباب أول الأحاديث الواردة في النهي عن البناء على المقابر بقوله « ان محل ذلك الزجر ، ومطلع ذلك الفجر ، في البناء على مقابر المسلمين ، المعدة لدفن عامتهم لا على التعيين ، لما فيه من الحجر على بقية المستحقين ، ونبش عظام السابقين ، » ثم جعل محل الإباحة كون البناء في ملك الباني وأنه لا حرج فيه ، ثم ذكر ان المسألة محل خلاف بين النظار وان هذا المنكر ليس متفقا عليه !!!

أقول ما أفسد الدين في أمة من الأمم الا مثل هذا التحريف للنصوص ممن يلبسون على الجهل لباس العلماء فتتبعهم العامة على تحريفهم فتضل عن دينها ولمثل هذه الغاية الردية منعوا العلم بالكتاب والسنة زاعمين بجهلهم انه لا يفهمها أحد بعد قرن كذا . ألا يكفي لمن له أدنى إلمام بالعربية وان كان عاميا أن يضرب بتأويل المحجوب وتحريفه عرض الحائط اذا سمع الاحاديث الشريفة الواردة في ذلك وقد ذكرناها مراراً ونشير هنا الى بعضها

فمنها حديث أنس في الصحيحين وغيرهما وحديث عائشة وابن عباس عند أحمد والشيخين وغيرهم وحديث أسامة عند أحمد في لعن أهل الكتاب لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد قالت عائشة « يحذر ما صنعوا » أي يحذر النبي (ص) أمته من مثل ذلك وفي رواية لأحمد والشيخين والنسائي انه صلى الله عليه وسلم قال « أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً » الحديث. وفي رواية لابن سعد « ألا ان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد فاني انهاكم عن ذلك» والروايات في ذلك كثيرة وهي تدل في جملتها وتفصيلها على ان مدار النهي والحظر تعظيم قبور الصالحين وجعلها في مواضع العبادة كراهة أن يحدث ما حدث فينا حيث اتبع الجماهير منا سنن أولئك الذين لعنهم الرسول (ص) شبرا بشبر وذراعا بذراع فعظموا أصحاب القبور تعظيما وصل الى حد العبادة إذ صاروا يخشعون و يضرعون اليهم بالدعاء وطلب الحاجات ،

اما ان العلماء لو كانوا يعظون الأمة بهذه الاحاديث لما بنت على قبور الصالحين

القباب والمساجد وتعرضت للعنة الله ورسوله ولكن قصر الكثيرون من المطلعين على هذه الأحاديث ثم خلف من بعدهم خلف لا يعرفون الحديث ولا يفهمونه فصاروا يحرفون ما يسمعون ويؤولون للعوام والخواص ما يعملون حتى وصلنا الى ما وصلنا اليه مع وجود الاحاديث بنصوصها وتفسير المحققين لها

أورد ابن حجر الفقيه جملة من هذه الأحاديث في بيان الكبيرة ٩٣ــ٩٨ من كتابه (الزواجر) وهي «اتخاذ القبور مساجد وايقاد السرج عليها واتخاذها اوثانا والطواف بها واستلامها والصلاة اليها» ثم قال

«عد هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية وكأنه أخذ ذلك مما ذكرته من هذه الأحاديث . ووجه أخذ اتخاذ القبر مسجدا منها واضح لأنه لعن من فعل ذلك بقبور أنبيائه وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شر الخلق عند الله يوم القيامة ففيه تحذير لنا كما في رواية «يحذر ما صنعوا» أي يحذر أمته بقوله لهم ذلك من ان يصنعوا كصنع أولئك فيلعنوا كما لعنوا . واتخاذ القبر مسجدا معناه الصلاة عليه أو إليه وحينئذ فقوله (أي قول ذلك الإمام الذي نقل ابن حجر قوله في كون هذه الأمور الستة من الكبائر) مكرر الا ان يراد باتخاذها مساجد الصلاة عليها فقط ، نعم إنما يتجه هذا الأخذ اذا كان القبر قبر معظم من نبي أو ولي كما أشارت اليه رواية «إذا كان فيهم الرجل الصالح» ومن ثم قال أصحابنا يحرم الصلاة الى قبور الانبياء والأولياء تبركا واعظاما ، فاشترطوا شيئين ان يكون قبر معظم وان يقصد بالصلاة اليه ومثلها الصلاة عليه التبرك والاعظام . وكون هذا الفعل كبيرة ظاهر من الاحاديث المذكورة لما علمت . وكأنه قاس على ذلك كل تعظيم للقبر كايقاد السرج عليه تعظيما له وتبركا به والطواف به كذلك وهو أخذ غير بعيد سيما وقد صرح في الحديث المذكور آنفا بلعن من اتخذ على القبر سرجا فيحمل قول اصحابنا بكراهة ذلك على ماذا لم يقصد به تعظيما اوتبركا بذي القبر (١)

(١) أي ان وضع السراج والقنديل على القبر له حالان حال كراهة اذا كان القبر غير معظم ولم يوضع السراج عليه بقصد تعظيم وحال حرمة من الكبائر اذا كان قبر معظم كقبور الاولياء

(قال) واما اتخاذها اوثانا فجاء النهي عنه بقوله صلى الله عليه وسلم «لا تتخذوا قبري وثنا يعبد بعدي» أي لا تعظموه تعظيم غيركم لأوثانهم بالسجود له اونحوه (١) فان اراد ذلك الامام بقوله «واتخاذها اوثانا» هذا المعنى اتجه ما قاله من ان ذلك كبيرة بل كفر بشرطه وان اراد ان مطلق التعظيم الذي لم يؤذن فيه كبيرة ففيه بعد . ثم قال بعض الحنابلة قصد الرجل الصلاة عند القبر تبركا بها عين المحادة لله ورسوله وإبداع دين لم يأذن به الله للنهي عنها ثم اجماعا فان أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد اوبناؤها عليها والقول بالكراهة محمول على غير ذلك اذ لا يظن ظان بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم لعن صاحبه وتجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور اذ هي أضر من مسجد الضرار لأنها اسست على معصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه نهى عن ذلك وامر صلى الله عليه وسلم بهدم القبور المشرفة وتجب إزالة كل قنديل او سراج على قبر ولا يصح وقفه ونذره انتهى»

(المنار) ذكرنا هنا ما قاله ابن حجر نقلا وتفقها لا لأن ما جاء به أظهر من الاحاديث الشريفة بل ليعلم من لم يطلع عليه وعلى أمثاله من أقوال العلماء المدققين ان التحريف الذي جاء به ذلك المحجوب تنبو عنه النصوص النبوية الشريفة ويخالفه كلام العلماء المحققين في شرحها وان خصمه ما ضل في هذه المسألة — كما زعم — على علم ولكنه هو ضل على تحريف وجهل ، وهكذا كل كلامه منبئ بجهله أو تعمده التحريف . ولعل من طبع هذه الرسالة لو استشار كبار علماء تونس كالشيخ سالم أبي حاجب لأشاروا عليه بعدم طبعها لانهم يرون من العار نسبتها الى واحد منهم

ثم ذكر المحجوب مسألة زيارة القبور فجاء فيها بما هو مشهور على ألسنة العامة وخصمه لا ينكر الرخصة في زيارة القبور ولكنه ينكر ان تزار لغير ما صرح به في الحديث من سبب الزيارة وهو العبرة وتذكر الآخرة وما غلط به الغزالي من مسألة

(١) اي كالدعاء عنده والطواف به وتقبيله والتمسح به . وهو ما يفعل بقبور الصالحين في المساجد والزوايا والقباب كل يوم .

الاستمداد لا يقوم حجة عليه لانه لا يدخل في مفهوم الحديث بل يخالفه على ان الغزالي لا يبيح تعظيم القبور ودعاء من دفن فيها وغير ذلك مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم

وكذلك حرف حديث « لا تشد الرحال » فألحق به قيد نذر الصلاة فيها ولو جاز لنا ان نقيد الآيات والاحاديث بما لا تدل عليه عبارتها لما سلم لنا من ديننا شيء ومن جهله بالحديث أنه جعل غاية الاحتجاج وعمدة البراهين على زيارة قبر النبي الاعظم صلى الله عليه وسلم حديث « من زار قبري وجبت له شفاعتي » (كما في ص ١١) وأهون ما قال المحدثون في هـذا الحديث انه ضعيف كما ترى في الجامع الصغير للسيوطي ، وكأن المحجوب قد حجب والعياذ بالله تعالى عن جميع كتب السنة حتى مثل الجامع الصغير

ثم احتج (في ص ١٢) ببناء سليمان لقبر الخليل عليهما السلام و ببعض روايات حديث المعراج ان جبريل أمر النبي (ص) ان ينزل عند قبر جده ابراهيم (ص) فيصلي ركعتين ففعل وزعم أن هذا حديث صححه المحدثون الثقات وهو كاذب في ذلك بل قال شيخ الاسلام في تفسير سورة الاخلاص انه موضوع ولم يكن لابراهيم صلى الله عليه وآله وسلم قبر مبني قبل الاسلام ولا في العصر الأول له . على انه إذا صح لا يكون حجة على خلاف ما قلناه لانه لا يعارض الأحاديث الصحيحة التي أشرنا اليها إذ لا يدل على ان القبر كان عليه مسجد ولا على انه (ص) صلى إليه أو عليه معظما له بل به تصدق كلمة «عنده» بالصلاة في مكان هناك وان بعد عن القبر . فان فرضنا انه هـذا الحديث يعارضها والجمع بينه و بينها متعذر وجب القول بنسخه دونها لأن أحاديث المعراج كانت في أول الاسلام وأحاديث النهي عن القبور كانت قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى انه كان يقولها قبل الموت بخمس ليال ويقول « اللهم اني بلغت » ثلاث مرات ثم قال « اللهم اشهد » ٣ مرات كما في حديث كعب بن مالك عند الطبراني . وأنى للمحجوب أن يطلع على هذا ؟

وحرف أيضا النهي عن وضع السرج على القبور فقال (في ص ١٣) « بحمله على تقدير صحته على فعل ذلك للتعظيم المجرد عن انتفاع الزائرين (قال) واما اذا كان القصد به انتفاع اللائذين والمقيمين ، فهو جائز بلا مين » وهذا من التحكم في حديث الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم بالهوى وقد علم مما مر عن ابن حجر فساد تحريفه . و بناؤه التحريف على فرض صحة الحديث من دلائل جهله بالرواية

وحرف أيضا وأول النذور والذبائح لاصحاب القبور وزعم ان تلك النذور لا تفعل على انها من باب الديانات . و بطلان هذا بديهي لكل مختبر الا انه يجوز ان يكون لم يطلع على ما اطلع عليه غيره من تلك البدع فأطلق النفي كعادة أمثاله من الذين يكيلون جزافا

وحرف أيضا الاحاديث الواردة بطمس القبور وتسويتها زاعما ان المراد طمس ما كان من ذلك للجاهلية وانه لا بأس باتباع المسلمين لسنتهم بل زعم ان المسلمين انما يحفرون القبور تحت البناء وهذا لا دليل على منعه والجاهلية يبنون على القبور (انظر ص ١٥) وهذه سخافة لا يكاد يرضاها لنفسه عاقل فاذا كانت الأحاديث صريحة في منع تعظيم القبور بالبناء عليها فهل يعقل ان يكون هناك فرق بين تقدم بناء المسجد على القبر أو تأخره عنه ؟ ؟ على ان المسلمين يفعلون الامرين معا كما هو مشاهد في مصر وغيرها

اما صاحب الذيل لتلك الرسالة (أحمد جمال الدين) فهو أجهل من المحجوب وا كثف حجابا فلا يستحق ان يقام له وزن فيرد عليه و بماذا يخاطب من يرمي شيخ الاسلام ابن تيمية بالانحراف عن السنة وتحقير السلف وهو هو الذي امتاز على جميع علماء الاسلام بنصر السنة وخذل البدعة والدعوة الى اتباع السلف واظهار خطأ من خالفهم من المتكلمين والصوفية والفقهاء بالحجج والبينات النقليه والعقلية ولولا هذا لما تكلم فيه أحد كما علم مما نشرناه من ترجمته في المجلد الماضي ، وان له رحمه الله كتابا في المسألة التي يعبرون عنها بالتوسل جمع فأوعى سيطبع ، ينشر فترى ما يقول عباد القبور فيه

أرسل الينا هذا الكتاب لأجل طبعه ونحن نكتب هذا الرد على المحجوب فاختصرنا فيه لأن البيان المطول في مسألة التوسل التي هي أم هذه المسائل سيظهر في هذا الكتاب عن قريب ان شاء الله تعالى

باب الأخبار والآراء

الاحتفال بعيد الدستور العثماني

قرر مجلس الأمة العثمانية المؤلف من المبعوثين والاعيان أن يكون مثل اليوم الذي أعلن فيه الدستور من كل عام عيدا وطنيا للعثمانيين تحتفل فيه الحكومة رسميا. وصدرت إرادة السلطان الدستوري الاول مولانا محمد الخامس بذلك، وقد علم من صحف عاصمة السلطنة ان الاحتفال الاول فيها سيكون ذا بهجة وفخامة لم يعهد لها نظير، يشترك فيه الاهالي مع الحكومة بمحض أريحيتهم واختيارهم راضين مسرورين لا كاحتفالات عيد الجلوس الحميدي التي كان عبد الحميد ينفق على الرسمي منها وغير الرسمي حتى انه كان يرسل مقدار الزينة من يلدز الى دور الكبراء لعلمه انه لا يكاد يوجد فيهم من ترتاح نفسه الى إنفاق شيء مما ملكته يده على ذلك وان كان مما نهبه بجاه عبد الحميد من مال الامة أو مما باعه للاجانب من مصالحها

سبق لنا بحث في فلسفة هذه الاحتفالات في المجلد الرابع من المنار في مقالة عنوانها (الشعور والوجدان، وشعائر الامم والاديان) (في ص ٦٤١) وفي استدراك عليها (في ص ٦٧٥) وقد بينا هنالك ان الاعياد من الشعائر التي تحيي شعور الامم بالمعنى الذي وضع العيد لاجله سواء كان دينيا أو اجتماعيا ومما قلناه في المقالة :

« إن أهل الغرب اتخذوا لملوكهم أعيادا لإحياء الشعور الوطني الذي يمثله رئيس الدولة في الملكية، وللدول الجمهورية منهم اعياد باسم الحكومة التي يعتزون بها ويعزونها. وقد قلدهم الشرقيون في الاحتفال بأعياد ملوكهم وأمرائهم لإرضائهم إذ كانوا لا وطن لهم ولا وطنية، ولا دول عزيزة بحكومتها قوية، ولا شك ان هذه الأعياد شعائر تبعث الشعور بحب السلطان أو الامير في نفوس الذين يعتقدون

النفع فيه للدولة والامة. فينتفع بهذا المستبدون، ويغتر به المغترون، حتى يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون »

وقد مزجنا في هذا بين ماهو مقصود من هذه الاحتفالات بأعياد الملوك والامراء الىا وما كان ينبغي ان يقصد ثم استدركنا على ذلك في الجزء الذي نشرت فيه المقالة بعد ذكر الاحتفال بقدوم الأمير من أوربا فبينا ان الشرقيين لم يتبعوا الغربيين في ذلك وانما يحتفلون بالملوك والامراء لذواتهم لا لمعنى وطني عام. قلنا «والصواب ان الشرقيين اشد الناس تعظيما لملوكهم منذ القدم وحسبك انهم عبدوهم من دون الله، وأنهم لا يزالون يقدسونهم بقدر مالهم من السلطة والاستبداد. وأما مسألة إحياء الشعور فترى بعض الجرائد تنوه بضدها ذاهبة الى ان هذه الاحتفالات منبعثة عن الشعور بعظمة من احتفل لأجله وحبه. وربما يصح هذا من بعض المحتفلين الذين لهم فيه منافع تولد هذا الشعور وإنما الظلم في إسناده الى الأمة مع ان القائمين به أفراد معدودون معروفون » اهـ المراد منه هنا

وأقول الآن إن الاحتفال لذكرى جلوس السلطان عبد الحميد قد كانت من أسباب انتشار الشعور بعظمته في نفوس من لم يذوقوا ظلمه ونفوس من ذاقوه من حيث لا يعلمون انه منه وكذا من عرفوا ولكن شعور هؤلاء بعظمته في انهم كان يزيدهم شعورا بمقته وبغضه، ولم يحل دون ذلك الشعور كله كون النفقة على الاحتفال الرسمي منه كانت من مال الحكومة وعلى غير الرسمي من اموال المرائين في الغالب

ان تقوية الشعور بعظمة الامراء والسلاطين في نفوس الامة يضعف فيها الشعور باستحقاقها للسلطة واهليتها للحكم الدستوري فتبقى ذليلة مهينة. ويقابل هذا كون الاحتفال بعيد الدستور يقوي في الامة الشعور بكرامتها واستحقاقها للحكم الذاتي. واذا كان سلطانها راضيا لها بذلك مشتركا معها فيه — كما هو شأن سلطاننا محمد الخامس ايده الله تعالى — كان ذلك مما يحببه اليها ويرفع مكانته في نفوسها مع العلم بأن عزته بعزتها وعظمته بعظمتها دون العكس

لهذا المعنى وضع عيد الدستور للأمة العثمانية، وتعلقت به الإرادة السلطانية،

ولهذا المعنى يحتفل العثمانيون بهذا العيد الوطني حيثما كانوا ، وأينما حلوا ، وستكون عنايتهم بذلك على قدر فهمهم لقيمة الدستور وشعورهم بفائدته

ألفنا نحن العثمانيين المقيمين بمصر لجنة لجمع المال ، والقيام بما يحسن من الاحتفال ، وشاركنا في ذلك اخواننا المصريون ، وما هم الا مثلنا عثمانيون ، «واذا قوبل الخاص بالعام ، يراد بالعام ما وراء الخاص ، » وسيكون احتفالنا في حديقة الازبكية ، بكيفية لم يعهد لها نظير في الاعياد القومية ولا الرسمية ، تتجلى فيها الحديقة متلألئة بالانوار الكهربائية ، وأبدعها ما يمثل منها الشارات العثمانيـة ، وتأتلف فيها اصوات اشهر المطربين ، بنغمات احسن آلات الموسيقين ، وتعرض فيها الصور المتحركة البديعة ، لا سيما صور حوادث الأستانة الأخيرة ، وغير ذلك من أسباب الانس التي تتوخى في هذه المواسم

وقد ألف أهل الاسكندرية لجنة لإقامة احتفال عمومي أيضا وسيكون هنا وهناك زينات خاصة يقيمها الافراد على بيوتهم أو امكنة أعمالهم فتتجلى بهذه الاحتفالات عثمانية المصريين واخلاصهم للدولة العلية كما يتجلى فيها حبهم للدستور ومعرفتهم لقيمته

يذهب بعض رجال الدين الى ان هذه الأعياد الوطنية والسياسية محظورة في الاسلام لأنه لم يأت الا بعيدين فقط هما عيد الفطر وعيـد النحر فالزيادة عليهما بدعة . وقد سمعنا هذا القول من أحد العلماء فقلنا له ان البدعة الدينية انمـا هي فيما يعمل على انه من الدين فقولك هـذا إنما يصدق على الموالد التي صبغت بصبغة الدين دون هـذه المواسم المشتركة بين أهل الأديان المختلفة التي لاصبغة للدين فيها . نعم يتجه ان يقال ان الدين يحظر من المواسم الدنيوية ما وضع منها لمقصد ضار كتعظيم الملوك الظالمين وتقوية سلطتهم دون ما وضع لمقصد نافع كتعزيز الأمة ورفعة شأنها

المشتركون الماطلون

بعض الماطلين في القطر المصري معذور بما أصابه من العسرة المالية و بعضهم يعتذر بها بغير حق ولكن ما بال أهل سنغافوره وجاوه وروسـيا الذين كنا نعدهم أحسن المسلمين وفاء كادوا يكونون كأهل تونس مطلا وهضما

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كنار الطريق

مصر ـ الاثنين ٣٠ رجب ١٣٢٧ — ١٦ اغسطس (آب) سنة ١٢٨٥ه ١٩٠٩م

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

سورة النساء

﴿ وهي السورة الرابعة . وآياتها مئة وسبعون وسبع آيات في العد الشامي وست في الكوفي وعليه مصاحف الاستانة ومصر وخمس في المكي والمدني الاول والثاني وعليه مصحف فلوجل فالخلاف في فاصلتين ﴾

أقول وهي مدنية كلها فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة أنها قالت ما نزلت سورة النساء الا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن المتفق عليه ان النبي (ص) بنى بعائشة في المدينة قيل في السنة الأولى من الهجرة وهو الراجح وكان ذلك في شوال . اخرج ابن سعد عنها انها قالت : أعرس بي على رأس ثمانية أشهر . أي من الهجرة .

وقيل في السنة الثانية . وقال القرطبي كلها مدنية الا آية واحدة نزلت بمكة عام الفتح في عثمان ابن طلحة وهي قوله «ان الله يأمركم ان تردوا الأمانات الى أهلها» وسيأتي ذلك في محله وزعم النحاس انها كلها مكية لما ورد في سبب نزول هذه الآية من قصة مفتاح الكعبة وهو وهم بعيد واستدلال باطل فان نزول آية من السورة في مكة بعد الهجرة لايقتضي كون السورة كلها مكية على ان بعض الروايات في واقعة المفتاح تشعر بأن النبي (ص) قرأ الآية محتجا ومبينا للحكم فيها ففي رواية ابن مردويه انه بعدان أخذ المفتاح من عثمان وفتح الكعبة وأزال منها تمثال ابراهيم والقداح الذي كانوا يستقسمون بها عاد فأعطاه إياه وقرأ الآية . ولعل من قال انها نزلت يومئذ استنبط ذلك من قراءة النبي (ص) لها

ثم انه ينظر في التفرقة بين المكي والمدني من وجهين أحدهما بيان الواقع وتحديد التاريخ بالتفصيل ان أمكن ولا فرق في هذا الوجه بين مانزل بمكة قبل الهجرة و بعدها (ثانيهما) بيان شأن الدين وسنة التشريع وأسلوب القرآن قبل الهجرة و بعدها و بهذا الاعتبار رجح المحققون ان كل مانزل بعد الهجرة فهو مدني ولا يعنون بهذا انه نزل في نفس المدينة بالتفصيل كل آية آية وانما المراد انه نزل في الزمن الذي كانت المدينة فيه هي عاصمة الاسلام وكان للمسلمين فيه قوة تمنعهم ونظام يجمع شملهم . وعلى هذا يكون حكم مانزل بمكة عام الفتح أو عام حجة الوداع كحكم مانزل في الحديبية و بدر وغير ذلك من المواضع التي كان يخرج اليها النبي (ص) لغزو أو نسك على عزم العود الى المدينة

يغلب في السور المكية الايجاز في العبارة وان تكرر ذكرها لما في التكرار من الفوائد لأن الذين خوطبوا بها أولاً هم أبلغ العرب على الإطلاق وانما يتبارى البلغاء بالايجاز و يغلب في معانيها تقرير كليات الدين والاحتجاج لها والنضال عنها وهي التوحيد والبعث وعمل الخير وترك الشر ومعظم الحجاج فيها موجه الى دحض الشرك وإقناع المشركين . واما السور المدنية فحجاجها في الغالب مع أهل الكتاب والمنافقين وفيها تفصيل الأحكام الشخصية والمدنية لكثرة المسلمين المحتاجين اليها . فاذا فطنت لهذا تجلى لك أفن رأي من قال ان هذه السورة مكية ومن قال أيضا ان أوائلها

نزلت في مكة فلا شيء من أحكامها كان مما يحتاج اليه في مكة قبل الهجرة

افتتحت بعد الامر بالتقوى بأحكام اليتامى والبيوت والأموال ومنها الميراث ومحرمات النكاح وحقوق الرجال على النساء والنساء على الرجال ثم ذكر فيها كثير من أحكام القتال . وجاء فيها بين أحكام البيوت وأحكام القتال حجاج لأهل الكتاب، وفي أثناء أحكام القتال وآدابه شيء عن المنافقين ثم كانت أواخرها في محاجة أهل الكتاب الا ثلاث آيات هن خاتمتها ـ وكل ذلك من شؤون الاسلام بعد الهجرة

ومن وجوه الاتصال بينها و بين ماقبلها ان هذه قد افتتحت بمثل ما اختتمت به تلك من الامر بالتقوى وهو مايسمى في البديع تشابه الاطراف . وفي روح المعاني ان هذا آكد وجوه المناسبات في ترتيب السور (ومنها) محاجة أهل الكتاب اليهود والنصارى جميعا في كل منهما . (ومنها) ذكر شيء عن المنافقين في كل منهما وكونه في سياق الكلام عن القتال . (ومنها) ذكر أحكام القتال في كل منهما (ومنها) ان في هذه شيئا يتعلق بغزوة أحد التي فصلت وقائعها وحكمها وأحكامها في آل عمران وهو قوله تعالى في هذه السورة «فما لكم في المنافقين فئتين» الخ كما سيأتي في موضعه . وكذا ذكر شيء يتعلق بغزوة (حمراء الاسد) التي كانت بعد (أحد) وسبق ذكرها في آل عمران كما تقدم . وذلك قوله تعالى في هذه السورة «ولا تهنوا في ابتغاء القوم» وسيأتي . وقد ذكر هذا الوجه وماقبله في روح المعاني . وأما الوجوه الاخرى وهي ماتتعلق المناسبة فيها بمعظم الآيات فلم أرها في كتاب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا

قال الأستاذ الامام : افتتح سبحانه السورة بتذكير الناس المخاطبين بأنهم من نفس واحدة فكان هذا تمهيدا وبراعة مطلع لما في السورة من احكام القرابة بالنسب والمصاهرة وما يتعلق بذلك من احكام الانكحة والمواريث فبين القرابة العامة بالاجمال ثم ذكر الارحام وشرع بعد ذلك في تفصيل الاحكام المتعلقة بها وسميت سورة النساء لأنها افتتحت بذكر النساء وبعض الاحكام المتعلقة

بهن ، وقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس ﴾ خطاب عام ليس خاصا بقوم دون قوم فلا وجه لتخصيصها بأهل مكة كما فعل المفسر (الجلال) لا سيما مع العلم بأن السورة مدنية الا آية واحدة فيها شك هل هي مدنية أم مكية . ولفظ الناس اسم لجنس البشر قيل أصله « أناس » فحذفت الهمزة عند إدخال الألف واللام عليه .

أقول وقد عزا الرازي القول بأن الخطاب لاهل مكة الى ابن عباس (رض) وقال واما الاصوليون من المفسرين فقد اتفقوا على ان الخطاب عام لجميع المكلفين وهذا هو الاصح. وأيده بثلاثة وجوه: كون اللام في الناس للاستغراق وكون جميعهم مخلوقين ومأمورين بالتقوى. وأذكر ان أقدم عبارة سمعتها في التفسير فوعيتها وأنا صغير عن والدي رحمه الله هي قوله ان الله تعالى كان ينادي أهل مكة بقوله « يا أيها الناس » وأهل المدينة بقوله « يا أيها الذين آمنوا » ولم يناد الكفار بوصف الكفر الا مرة واحدة في سورة التحريم « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم » وهذا أخبار عما ينادون به في الآخرة. وأقول ان كلمة يا أيها الناس كثيرة في السور المكية كالاعراف ويونس والحج والنمل والملائكة . ووردت أيضا في البقرة والنساء والحجرات من السور المدنية . فخطاب أهل مكة فيها هو الغالب وهو مع ذلك يعم غيرهم وورودها في السور المدنية يراد به خطاب جميع المكلفين ابتداء وما أظن ان ابن عباس قال في فاتحة النساء انها خطاب لاهل مكة بل يوشك ان يكون قد قال نحوا مما رويناه آنفا عن الوالد فتصرف فيه الناقلون وحملوه على كل فرد من أفراد هذا الخطاب حتى غلط فيه الجلال السيوطي

في التفسير وان حقق في الاتقان ان السورة مدنية وقوله ﴿ اتقوا ربكم ﴾ قد تقدم مثله كثيرا وآخره في آخر السورة السابقة والمناسبة بين الامر بتقوى رب الناس ومغذيهم

بنعمه وبين وصفه بقوله ﴿ الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ ظاهرة فان الخلق أثر القدرة ومن كان متصفا بهذه القدرة العظيمة جدير بأن يتقى ويحذر عصيانه ، كذا قال بعضهم ، قال الاستاذ الامام وأحسن من هذا أن يقال ان هذا تمهيد لما يأتي من احكام اليتامى ونحوها كأنه يقول يا أيها الناس خافوا الله واتقوا اعتداء ما وضعه لكم من حدود الاعمال واعلموا انكم أقرباء يجمعكم نسب واحد وترجعون الى أصل واحد فعليكم ان تعطفوا على الضعيف كاليتيم الذي فقد والده وتحافظوا على حقوقه ، أقول وفي ذكر لفظ الرب هنا ما هو داعية لهذا الاستعطاف أي ربوا اليتيم وصلوا الرحم كما ربا كم خالقكم بنعمه وحاطكم بجوده وكرمه

الاستاذ الامام: ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر فمن المفسرين من يقول ان كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش فاذا صح هذا هنا جاز أن يفهم منه بنو قريش ان النفس الواحدة هي قريش أو عدنان. واذا كان الخطاب للعرب عامة جاز ان يفهموا منه ان المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان . واذا قلنا ان الخطاب لجميع أهل الدعوة الى الاسلام أي لجميع الامم فلا شك ان كل أمة تفهم منه ما تعتقده. فالذين يعتقدون ان جميع البشر من سلالة آدم يفهمون ان المراد بالنفس الواحدة آدم ، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبا يحملون النفس على ما يعتقدون، (والاصناف الكبرى هي الابيض القوقاسي والاصفر المغولي والاسود الزنجي وغيره وبعض فروع هذا تكاد تكون أصولا كالأحمر الحبشي والهندي الأمريكي والملقي)

(قال) والقرينة على انه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » بالتنكير وكان المناسب على هذا الوجه ان يقول وبث منهما جميع الرجال والنساء . وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب وهذا العهد ليس معروفا عند جميعهم فمن الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما . وهذا النسب المشهور عند ذرية نوح مثلا هو مأخوذ عن العبرانيين فانهم هم الذين جعلوا للبشر تاريخا متصلا بآدم وحددوا له زمنا قريبا . وأهل الصين ينسبون البشر الى أب آخر ويذهبون بتاريخه الى زمن أبعد من الزمن الذي ذهب اليه العبرانيون . والعلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ

العبرانيين ونحن المسلمين لانكلف تصديق تاريخ اليهود وان عزوه الى موسى عليه السلام فانه لا ثقة عندنا بانه من التوراة وانه بقي كما جاء به موسى

(قال) نحن لانحتج على ماوراء مدركات الحس والعقل الا بالوحي الذي جاء به نبينا عليه السلام واننا نقف عند هذا الوحي لانزيد ولاننقص كما قلنا مرات كثيرة وقد أبهم الله تعالى ههنا أمر النفس التي خلق الناس منها وجاء بها نكرة فندعها على إبهامها. فاذا ثبت مايقوله الباحثون من الافرنج من ان لكل صنف من أصناف البشر أبا كان ذلك غير وارد على كتابنا كما يرد على كتابهم التوراة لما فيها من النص الصريح في ذلك وهو مما حمل باحثيهم على الطعن في كونها من عند الله تعالى ووحيه

وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله « يابني آدم » لاينافي هذا ولا يعد نصا قاطعا في كون جميع البشر من أبنائه اذ يكفي في صحة الخطاب ان يكون من وجه اليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة أنه كان في الارض قبله نوع من هذا الجنس فسدوا فيها وسفكوا الدماء

وأقول زيادة في الإيضاح اذا كان جماهير المفسرين فسروا النفس الواحدة هنا بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلمة عندهم وهي ان آدم أبو البشر. وقد اختلفوا في مثل هذا التعبير من قوله تعالى (٧:١٨٩ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها) الآية فقد ذكر الرازي في تفسيرها ثلاثة تأويلات التأويل الاول ماذكره عن القفال وهو انه تعالى ذكر هذه القصة على سبيل ضرب المثل والمراد خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه في الانسانية الخ والتأويل الثاني ان الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهم آل قصي وان المراد بالنفس الواحدة قصيّ. والثالث ان النفس الواحدة آدم وأجاب عما يرد عليه من وصفه هو وزوجه بالشرك. وقد تقدم في تفسير سورة البقرة توجيه كون قصة آدم نفسها من قبيل التمثيل الذي حمل القفال عليه آية سورة الأعراف

وقد نقل عن الامامية والصوفية انه كان قبل آدم المشهور عند اهل الكتاب وعندنا آدمون كثيرون قال في روح المعاني: وذكر صاحب جامع الاخبار من الامامية

في الفصل الخامس عشر خبرا طويلا نقل فيه ان الله تعالى خلق قبل ابينا آدم ثلاثين آدم بين كل آدم وآدم ألف سنة وان الدنيا بقيت خرابا بعدهم خمسين ألف سنة ثم عمرت خمسين ألف سنة ثم خلق أبونا آدم عليه السلام. وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضا انه قال لعلك ترى ان الله لم يخلق بشرا غيركم، بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين، وقال الميثم في شرحه الكبير النهج: ونقل عن محمد بن علي الباقر انه قال قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر. وذكر الشيخ الاكبر قدس سره في فتوحاته مايقتضي بظاهره ان قبل آدم بأربعين ألف سنة آدم غيره. وفي كتاب الخصائص (لابن بابويه كما في الهامش) مايكاد يفهم منه التعدد أيضا الآن حيث روى فيه عن الصادق انه قال ان الله تعالى اثنى عشر ألف عالم كل عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين مايرى عالم منهم ان لله عز وجل عالما غيرهم. اه المراد منه وفي المسألة نقول اخرى في الفتوحات وغيرها ثم نقل عن زين العرب القول بكفر من يقول بتعدد آدم. وهذا من جرأته وجرأة أمثاله الذين يتهجمون على تكفير المسلمين لأوهى الشبهات

للاستاذ الامام في هذا المقام رأيان أحدهما ان ظاهر هذه الآية يأبى ان يكون المراد بالنفس الواحدة آدم أي سواء كان هو الاب لجميع البشر أم لا لما ذكره من تنكير ما بثه منها ومن زوجها على انه يمكن الجواب عن هذا بان التنكير لمن ولد منهما مباشرة كأنه يقول بث منهما كثيرا من الرجال والنساء وبث من هؤلاء سائر الناس. وثانيهما انه ليس في القرآن نص اصولي قاطع على ان جميع البشر من ذرية آدم: والمراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادي البشرة المنتصب القامة الذي يطلق عليه لفظ الانسان. وعلى هذا الرأي لا يرد على القرآن مايقوله بعض الباحثين ومن اقتنع بقولهم من ان للبشر عدة آباء ترجع اليهم سلائل كل صنف منهم. ثم ان ماذهب اليه الاستاذ الامام يرد الشبهات التي ترد في هذا المقام ولكنه لايمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هذا لأنه لايقول ان القرآن ينفي هذا الاعتقاد وانما يقول انه لا يثبته إثباتا قطعيا لايحتمل التأويل. وقد صرحنا بهذا لأن بعض الناس كان فهم من درسه انه يقول ان القرآن ينافي هذا الاعتقاد أي اعتقاد

ان آدم ابو البشر كلهم وهولم يقل هذا تصريحا ولا تلويحا وانما بين أن ثبوت مايقوله الباحثون في العلوم وآثار البشر وعاديّاتهم والحيوانات من ان للبشر عدة أصول ومن كون آدم ليس أباهم كلهم في جميع الأرض قديما وحديثا ــ كل هذا لاينافي القرآن ولا يناقضه ويمكن لمن ثبت عنده ان يكون مسلما مؤمنا بالقرآن . بل له حينئذ ان يقول لوكان القرآن من عند محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لما خلا من نص قاطع يؤيد الاعتقاد الشائع عن أهل الكتاب في ذلك ولكنه وهو من عند الله جاء في ذلك بما لم تستطع اليهود ان تعارضه من قبل بدعوى مخالفته لكتبهم ولم يستطع الباحثون ان يعارضوه من بعد لمخالفته ماثبت عندهم . وليت شعري ماذا يقول الذين يذهبون الى ان المسألة قطعية بنص القرآن فيمن يوقن بدلائل قامت عنده بأن البشر من عدة اصول؟ هل يقولون اذا أراد ان يكون مسلما وتعذر عليه ترك يقينه في المسألة انه لا يصح ايمانه ولا يقبل أسلامه وان أيقن بأن القرآن كلام الله وانه لا نص فيه يعارض يقينه ؟؟

هذا وان المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات أنها هي الماهية او الحقيقة التي كان بها الانسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة ولا فرق في هذا بين ان تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم كما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله بعض الشيعة والصوفية أو بدئت بعدة أصول انبثت متباعدة أصناف كما عليه بعض الباحثين ــ ولا بين ان تكون هذه الاصول أو الاصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أو خلق مستقلا على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر ، والله تعالى يقول في سورة المؤمنين (٢٣ : ١٢ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) الآيات وسنبين في تفسيرها أو تفسير سورة الحجر ما يفيده مجموع الآيات المنزلة في خلق الانسان من كيفية تكوينه . على كل حال وكل قول يصح ان جميع الناس هم من نفس واحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناسا وهي التي يتفق الذين يدعون الى خير الناس وبرهم ودفع الاذى عنهم على كونها هي الحقيقة الجامعة لهم على اختلافهم في أصل الانسان يقولون عن جميع الاجناس والاصناف انهم اخوتنا في الانسانية فيعدون الانسانية مناط الوحدة وداعية الالفة والتعاطف بين البشر سواء اعتقدوا ان أباهم

آدم عليه السلام أو القرد أو غير ذلك . وهذا المعنى هو المراد من تذكير الناس بأنهم من نفس واحدة لانه مقدمة للكلام في حقوق الايتام والارحام وليس كلاما مستقلا لبيان مسائل الخلق والتكوين بالتفصيل لان هذا ليس من مقاصد الدين . وبهذا التفسير ينحل ماسيأتي من الإشكال اللفظي بأوضح مما حاولوه به



اما حقيقة النفس التي يحيا به الانسان فقد اختلف فيها المسلمون كما اختلف فيها من قبلهم ومن بعدهم (١) فقال بعضهم هي عرض من اعراض البدن لا استقلال لها بنفسها بل هي الحياة وقال الجمهور بل هي جوهر قال بعضهم مادي و بعضهم انه مجرد عن المادة . وقيل هي جزء من البدن وقيل جسم مودع فيه ، واختلف في الروح فقيل هي النفس وقيل غيرها ، وقال بعضهم بالوقف وعدم جواز الكلام في حقيقة الروح ، كل هذه الاقوال نقلت عن علماء المسلمين من أهل الكلام والفلسفة والتصوف ولم يكفر أحد منهم أحدا بمذهبه فيها ، ومن الغرائب ان القول بأن الروح عرض من اعراض الجسم هو الحياة منقول عن القاضي أبي بكر الباقلاني واتباعه من متكلمي الاشاعرة وهو مع ذلك يعد من أئمة أهل السنة الاشاعرة . وروي عن الامام مالك ان الروح صورة كالجسد

وقال أبو عبد الله ابن القيم في تعريف الروح وشرح حقيقته على مذهب أهل السنة انه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حيّ متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم فما دامت هذه الاعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف مشابكا لهذه الاعضاء أفادها هذه الآثار الفائضة عليها من الحس والحركة الارادية واذا فسدت هذه الاعضاء بسبب

(١) اعني بمن بعدهم من صار لهم بعدهم حياة علمية كالافرنج فقد كان المسلمون ولا شريك لهم في هذه الحياة وصاروا ولا وجود لهم فيها إذ لا تسمع لاحد منهم رأيا ولا مذهبا في مسألة ما من مسائل العلم والفلسفة كما كان سلفهم ولعلهم يعودون

استيلاء الاجزاء الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل الى عالم الأرواح « اه

وأقول ان أقوى النظريات الفلسفية في إثبات الروح أوالنفس — وهما يطلقان على معنى واحد — هي أن العقل والحفظ والذكر (بالضم أي الذاكرة) ليست من صفات هذا الجسد أو أجزاء ماهيته وهي أمور ثابتة قطعا فلابد لها من منشإ وجودي غير هذا الجسد الكثيف حتى ان الدماغ الذي مظهرها تنحل دقائقه حتى يندثر ويزول ثم يتجدد المرة بعد المرة وتبقى المدركات محفوظة في النفس تفيضها على الدماغ الجديد بعد زوال ماقبله فيتذكرها الانسان عند الحاجة اليها . وقد عبر الأقدمون عن منشإها الوجودي الذي لابد ان يكون لطيفا خفيا للطافته بالنفس (سكون الفاء) و بالروح (بضم الراء) وهما قريبا المعنى يدلان على ألطف الموجودات المعروفة عند كل الناس فالروح (بالضم) والروح (بالفتح) الذي هو التنفس واحد في الاصل وكلاهما من مادة الريح فان ياء الريح واو قلبت ياء لانكسار ماقبلها . فقد اطلقوا على هذا المعنى اللطيف الذي هو منشأ الادراك والحياة اسمين من اسماء ألطف الموجودات المدركة لهم ' ولو كان الواضعون لهذين الاسمين يعرفون ما يعرفه أهل هذا الزمان من الموجودات التي هي ألطف من الريح والنفس كالإدروجين والكهرباء لأطلقوا لفظهما أو لفظا مشتقا منهما على منشإ الحياة والادراك وسببهما . ألا ترى أن سائقي المركبات الكهربائية (الترام) وغيرهم يعبرون عن التيار الكهربائي الذي تسير به هذه المركبات بالنفس (بفتح الفاء) فالتسمية لاتعين حقيقة المسمى وانما تدل على أن الواضعين تخيلوا منشأ الحياة شيئا في منتهى اللطافة والخفاء مع قوة تأثيره وعظم آثاره . وإنما كان الفلاسفة هم الذين بحثوا كعادتهم عن حقيقة هذا الامر ولايزالون يبحثون . وقد قال تعالى (١٧ : ٨٥ و يسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) أي ان قلة ماعندكم من العلم لايمكنكم من معرفة حقيقة الروح . قال كثير من العلماء ان الآية تدل على انه لامطمع في معرفة حقيقة الروح وأقول انها لاتدل على ذلك بل تدل على انه اذا أوتي الناس من العلم أكثر مما أوتي أولئك السائلون جاز ان يعرفوها لم أر موضحا أو مقربا لمعنى الروح والنفس في الانسان كالتمثيل بالكهربائية

فالمادي الذي يقول انه لا روح الا هذا العرض الذي يسمى الحياة يشبّه الجسد بالبطارية الكهربائية ويقول انها بوضعها الخاص وبما يودع فيها من المواد تتولد فيها الكهربائية فاذا زال شيء من ذلك فقدت وكذلك تتولد الحياة في البدن بتركيب مزاجه بكيفية خاصة وبزوالها تزول . ويقول المعتقد استقلال الارواح ان الجسد يشبه المركبة الكهربائية وشبهها من الآلات التي تدار بالكهرباء توجه اليها من المعمل المولد لها فاذا كانت الآلة على وضع خاص في أجزائها وأدواتها كانت مستعدة لقبول الكهربائية التي توجه اليها واداء وظيفتها بها وان فقد منها بعض الأدوات الرئيسة أو اختل وضعها الخاص فارقتها الكهربائية ولم تعد تعمل بها

على انهم كانوا يظنون ان الكهرباء قوة تعرض للمادة لا وجود لها في ذاتها فصاروا من عهد قريب يرجحون انها هي أصل الموجودات كلها أي انها موجودة بذاتها وكل المواد الأخرى موجودة بها ويقرب من هذا قول الروحيين ان الروح هي حقيقة الانسان الثابتة وان قوام الجسد بها فهي الحافظة لوجوده والمنظمة لشؤونه الحيوية فاذا فارقته انحل وعاد الى بسائطه، وانما يقال هذا باعتبار الاسباب والظواهر والى الله ترجع الامور

وهذا المذهب الجديد في الكهربائية قريب من مذهب أهل وحدة الوجود من الصوفية وربما كان سلما موصلا اليه ، وسنعود الى هذا المبحث فنبسط القول فيه على مذاهب أهل الفلسفة والعلوم الطبيعية لهذا العهد في موضع أليق به من هذا الموضع ان شاء الله تعالى

أما قوله تعالى ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ فمعناه المراد عند الجمهور ان الله تعالى خلق لتلك النفس التي هي آدم زوجا منها وهي حواء قالوا انه خلقها من ضلعه الأيسر وهو نائم وذلك ما صرح به في الفصل الثاني من سفر التكوين وورد في بعض الاحاديث ولولا ذلك لم يخطر على بال قارئ القرآن. وهناك قول آخر اختاره أبو مسلم كما قال الرازي وهو ان معنى خلق منها زوجها خلقه من جنسها فكان مثلها فهو كقوله تعالى (٣٠ : ٢١ ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) وقوله (١٦ : ٧١ والله جعل لكم من أنفسكم

أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) وقوله (٤٢ : ١١ فاطر السموات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ومن هذا القبيل قوله عزّ وجل (٩ : ١٢٨ لقد جاءكم رسول من أنفسكم) وقوله (٣ : ١٦٤ لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) ومثلها في سورة البقرة وسورة الجمعة . فلا فرق بين عبارة الآية التي نفسرها وعبارة هذه الآيات فالمعنى في الجميع واحد ومن ثبت عنده ان حواء خلقت من ضلع آدم فهو غير ملجإٍ الى إلصاق ذلك بالآية وجعله تفسيرا لها وإخراجها عن أسلوب أمثالها من الآيات

وذكر الزمخشري وجهين في عطف « وخلق منها زوجها » على ما قبله احدهما انه معطوف على محذوف كأنه قيل من نفس واحدة أنشأها وابتدأها وخلق منها زوجها وانما حذف لدلالة المعنى عليه والمعنى شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها لخ وثانيهما انه معطوف على خلقكم قال والمعنى خلقكم من نفس آدم لأنها من جملة الجنس المفرع منه وخلق منها امكم حواء ﴿ وبث منهما رجالا كثيرًا ونساء ﴾ غيركم من الامم الفائتة للحصر

وقال الاستاذ الامام نكر رجالا ونساء واكد هذا بقوله كثيرا إشارة الى كثرة الأنواع والى انه ليس المراد بالتثنية في قوله « منهما » آدم وحواء بل كل زوجين وهو ينطبق على ما قلناه في تفسير الجملة السابقة ثم ان ذكر خلق الزوج بعد ذكر خلق الناس لا يقتضي تأخره عنه في الزمن فان العطف بالواو لا يفيد الترتيب ولا ينافي كون الكلام مرتبا متناسقا كما تطلب البلاغة فانه جاء على اسلوب التفصيل بعد الاجمال: يقول انه خلقكم من نفس واحدة فهذا إجمال فصله ببيان كونه خلق من جنس تلك النفس زوجا لها وجعل النسل من الزوجين كليهما فجميع سلائل البشر متولدة من زوجين ذكر وانثى

ويرد على رأي ابي مسلم ورأي الجمهور ان بث الرجال والنساء من الزوجين معا ينافي كونهم مخلوقين من نفس واحدة ويناقضه ولا يرد على رأينا البتة لأن النفس الواحدة

عندنا عبارة عن الجنس والحقيقة الجامعة فكونهم من جنس واحد لا ينافي كون هذا الجنس خلق زوجين ذكرا وانثى وكونه بث منهما رجالا كثيرا ونساء بل ولا جميع الرجال والنساء كما هو ظاهر ونقل الرازي عن القاضي ان هذا الاعتراض وارد على القول الذي اختاره ابو مسلم وهو كون الزوج خلق من جنس تلك النفس خلقا مستقلا دون قول الجمهور الذين يقولون ان الزوج خلق من النفس ذاتها بخلق حواء من ضلع آدم والظاهر انه وارد على القولين لأن الواقع ونفس الأمر ان الناس مخلوقون من الزوجين الذكر والانثى وهما نفسان ثنتان سواء خلقتا مستقلتين أو خلقت احداهما من الأخرى كما قال تعالى (يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) الآية ولكن التأويل على قول الجمهور اسهل اذ يقولون انهم لما كانوا من نفسين احداهما مخلوقة من الاخرى صاروا بهذا الاعتبار من نفس واحدة . وليس تأويل القول الآخر بالعسير فقد قال الرازي : ويمكن ان يجاب بأن كلمة « من » لابتداء الغاية فلما كان ابتداء التخليق والايجاد وقع بآدم عليه السلام صح ان يقال « خلقكم من نفس واحدة » وأيضا فلما ثبت انه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان قادرا ايضا على خلق حواء من التراب واذا كان الامر كذلك فايّ فائدة في خلقها من ضلع من اضلاع آدم . اه كلامه وهو يدل على اختياره ما اختاره ابو مسلم ومثله الاستاذ الامام

﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي تساءلون بتخفيف السين واصله تتساءلون فحذفت احدى التائين للتخفيف، والباقون بتشديدها بإدغام التاء في السين لتقاربهما في المخرج ، وكل من الوجهين فصيح معهود عن العرب في صيغة تتفاعلون . والمعنى اتقوا الله الذي يسأل به بعضكم بعضا بأن يقول سألتك بالله ان تقضي هذه الحاجة يرجو بذلك إجابة سؤاله . فمعنى سؤاله بالله سؤاله بإيمانه به وتعظيمه اياه والباء فيه للسبب اي اسألك بسبب ذلك ان تفعل كذا .

واما قوله تعالى ﴿ والأرحام ﴾ فقد قرأه الجمهور بالنصب قال اكثر المفسرين معطوف على الاسم الكريم أي واتقوا الأرحام ان تقطعوها او اتقوا إضاعة حق

الارحام بأن تصلوها ولا تقطعوها ، وجعله بعضهم عطفا على محل الضمير المجرور في به واختاره الاستاذ الامام . وجوز الواحدي نصبه بالاغراء كالقول المأثور عن عمر (رض) : ياسارية الجبلَ . أي الزم الجبل ولذ به والمعنى واحفظوا الارحام وأدوا حقوقها . وقرأه حمزة وحده بالجر قيل انه على تقدير تكرير الجار أي واتقوا الله الذي تساءلون به و بالارحام وقد سمع عطف الاسم المظهر على الضمير المجرور بدون إعادة الجارّ الذي هو الا كثر وانشد سيبويه في ذلك قولهم

نعلق في مثل السواري سيوفنا   وما بينها والكعبِ غوط نفانف

وقولهم

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا   فاذهب فما بك والايام من عجب

وقد اعترض النحاة البصريون على حمزة في قراءته هذه لأن ماورد قليلا عن العرب لايعدونه فصيحا ولا يجعلونه قاعدة بل يسمونه شاذا وهذا من اصطلاحاتهم ومثل هذه اللغات التي لم ينقل منها شواهد كثيرة قد تكون فصيحة ولكن هؤلاء النحاة مفتونون بقواعدهم وقد نبه الاستاذ الامام على خطإهم في تحكيمها في كتاب الله تعالى على أنه ليس لهم ان يجعلوا قواعدهم حجة على عربي وقال هنا : ان الارحام اما منصوب عطفا على لفظ الجلالة واما مجرور عطفا على الضمير في « به » وهو جائز بنص هذه الآية على هذه القراءة وهي متواترة خلافا لبعضهم . وقال الرازي هنا : والعجب من هؤلاء النحاة انهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد مع انهما من اكابر علماء السلف في علم القرآن .

هذا وان المنكرين على حمزة جاهلون بالقراءات ورواياتها متعصبون لمذهب البصريين من النحاة والكوفيون يرون مثل هذا العطف مقيسا ورجح مذهبهم هذا بعض أئمة البصريين وأطال بعض العلماء في الانتصار له

وقد اعترض بعضهم على قراءة حمزة من جهة المعنى فقالوا ان ذكره في مقام الأمر بالتقوى والترغيب فيها مخل بالبلاغة لأنه أجنبي من هذا المقام ثم ان فيه تقريرا لما كانت عليه الجاهلية من التساؤل بالارحام كما يتساءل بالله تعالى وهذا مما منعه الاسلام بدليل حديث الصحيحين « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » ، وأجيب

عن الأول بان ذكر التساؤل بالارحام ليس أجنبيا من مقام الامر بالتقوى هنا لان هذا الامر تمهيد لحفظ حقوق القرابة والرحم والتزام الاحكام التي جاءت بها السورة في ذلك حتى ان بعض المفسرين قد أرجع قراءة الجمهور الى قراءة حمزة بجعل نصب الارحام بالعطف على محل الضمير من قوله تساءلون به كما تقدم . وأجيب عن الثاني بأن الحلف بغير الله ليس ممنوعا مطلقا وانما يمنع الحلف الذي يعتقد وجوب البر به لا ما قصد به محض التأكيد على طريقة العرب في التأكيد بصيغة القسم كالتأكيد بإن . وأقول ان هذا الجواب مبني على كون التساؤل بالارحام هو قسم بها وهو خطأ فان السؤال بالله غير القسم بالله والسؤال بالرحم غير الحلف بها . وقد أوضح هذا الفرق شيخ الاسلام ابن تيمية في القاعدة التي حرر فيها مسألة التوسل والوسيلة فقال وأجاد وحقق كعادته جزاه الله عن دينه ونفسه خير الجزاء ما نصه :

« واما السؤال بالمخلوق اذا كانت فيه باء السبب ليست باء القسم و بينهما فرق فان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بابرار القسم ، وثبت عنه في الصحيحين انه قال « ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » قال ذلك لما قال أنس بن النضر أتكسر ثنية الربيع ؟ قال لا والذي بعثك بالحق لاتكسر سنها . فقال « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضي القوم وعفوا فقال صلى الله عليه وسلم « ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » وقال « رُب اشعث اغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه » رواه مسلم وغيره وقال « ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا اخبركم بأهل النار كل عتلّ جواظ مستكبر » وهذا في الصحيحين وكذلك (حديث) انس بن النضر والآخر من افراد مسلم » . . .

« والاقسام به على الغير ان يحلف المقسم على غيره ليفعل كذا فان حنثه ولم يبر قسمه فالكفارة على الحالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء كما لوحلف على عبده أو ولده أو صديقه ليفعلن شيئا ولم يفعله فالكفارة على الحالف الحانث واما قوله سألتك بالله ان تفعل كذا فهذا سؤال وليس بقسم ، وفي الحديث « من سألكم بالله فأعطوه » ولا كفارة على هذا إذا لم يجب سؤاله والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم وقد يجيب الله دعاء الكفار فان الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم

ويسقيهم واذا مسهم الضر في البحر ضل من يدعون الا إياه فلما نجاهم الى البر أعرضوا وكان الانسان كفورا »

«واما الذين يقسمون على الله فيبر قسمهم فانهم ناس مخصوصون فالسؤال كقول السائل لله أسألك بان لك الحمد انت الله المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام واسألك بانك انت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد واسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك . فهذا سؤال الله تعالى باسمائه وصفاته وليس ذلك إقساما عليه فان أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم وعفوه من مقتضى اسمه العفو »

(ثم قال): فاذا سئل المسئول بشيء والباء للسبب سئل بسبب يقتضي وجود المسئول فاذا قال «أسألك بان لك الحمد انت الله المنان بديع السموات والارض» كان كونه محمودا منانا بديع السموات والارض يقتضي ان يمن على عبده السائل وكونه محمودا هو يوجب أن يفعل مايحمد عليه وحمد العبد له سبب اجابة دعائه : ولهذا أمر المصلي أن يقول «سمع الله لمن حمده » أي استجاب الله دعاء من حمده فالسماع هنا بمعني الاجابة والقبول

(ثم قال) : واذا قال السائل لغيره أسألك بالله فانما سأله بايمانه بالله وذلك سبب لإعطاء من سأله به فانه سبحانه يحب الاحسان الى الخلق لاسيما ان كان المطلوب كف الظلم فانه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم وامره أعظم الاسباب في حض الفاعل فلا سبب أولى من أن يكون مقتضيا لمسببه من أمر الله تعالى وقد جاء فيه حديث رواه احمد في مسنده وابن ماجه عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه علم الخارج الى الصلاة ان يقول في دعائه « واسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فاني لم أخرج اشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك » فان كان هذا صحيحا بحق السائلين عليه ان يجيبهم وحق العابدين له ان يثيبهم وهو حق أوجبه على نفسه لهم كما يسئل بالايمان والعمل الصالح الذي جعله سببا لاجابة الدعاء كما في قوله تعالى (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) وكما يسئل بوعده لأن وعده

يقتضي إنجاز ماوعده ومنه قول المؤمنين (ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الابرار) وقوله (انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا وانت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى انسوكم ذكري) ويشبه هذا مناشدة النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر حيث يقول «اللهم انجز لي ماوعدتني » وكذلك مافي التوراة ان الله تعالى غضب على بني اسرائيل فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ماوعد به ابراهيم فانه سأله بسابق وعده لابراهيم . ومن السؤال بالاعمال الصالحة سؤال الثلاثة الذين أووا الى غار فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم اخلص فيه لله لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه محبة تقتضي اجابة صاحبه هذا سأل ببره لوالديه وهذا سأل بعفته التامة وهذا سأل بامانته واحسانه وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر «اللهم امرتني فاطعتك ودعوتني فأجبتك وهذا سحر فاغفرلي » ومنه حديث ابن عمر انه يقول على الصفا اللهم انك قلت وقولك الحق (ادعوني أستجب لكم) وانك لاتخلف الميعاد. ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر انه كان يقوله على الصفا

فقد تبين ان قول القائل أسألك بكذا نوعان فان الباء قد تكون للقسم وقد تكون للسبب فقد تكون قسما به على الله وقد تكون سؤالا بسببه * فاما الاول فالقسم بالمخلوقات لايجوز على المخلوق فكيف على الخالق وأما الثاني فهو السؤال بالمعظم كالسؤال بحق الانبياء فهذا فيه نزاع وقد تقدم عن ابي حنيفة واصحابه انه لايجوز ذلك. فنقول قول السائل لله تعالى اسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والانبياء والصالحين وغيرهم أو بجاه فلان أو بحرمة فلان يقتضي ان هؤلاء لهم عند الله جاه وهذا صحيح فان هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضي ان يرفع الله درجاتهم ويعظم اقدارهم ويقبل شفاعتهم اذا شفعوا مع انه سبحانه قال (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) ويقتضي ايضا ان من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيدا ومن أطاع أمرهم الذي بلغوه عن الله كان سعيدا ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضي اجابة دعائه اذا سأل الله بهم حتي يسأل الله بذلك بل جاههم ينفعه اذا اتبعهم واطاعهم فيما أمروا به عن الله أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين وينفعه أيضا اذا دعوا له وشفعوا

فيه فاما اذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة ولا منه سبب يقتضي الاجابة لم يكن مستشفعا بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعا له عند الله بل يكون قد سأل بأمر اجنبي عنه ليس سببا لنفعه . ولو قال الرجل لمطاع كبير أسألك بطاعة فلان لك وبحبك له على طاعتك و بجاهه عندك الذي أوجبته طاعته لك كان قد سأله بأمر أجنبي لا تعلق له به فكذلك احسان الله الى هؤلاء المقربين ومحبته لهم وتعظيمه لاقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم اياه ليس في ذلك مايوجب اجابة دعاء من يسأل بهم وانما يوجب اجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم أو سبب منهم لشفاعتهم له فاذا انتفى هذا وهذا فلا سبب اه المراد

وحاصل معنى الآية ان الله تعالى يقول يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي أنشأكم و رباكم بنعمه اتقوه في أنفسكم ولا تعتدوا حدوده فيما شرعه من الحقوق والآداب لكم لإصلاح شأنكم فانه خلقكم من نفس واحدة فكنتم جنسا واحدا تقوم مصلحته بتعاون أفراده واتحادهم وحفظ بعضهم حقوق بعض . فتقواه عزّ وجل فيها شكر لربوبيته وفيها ترقية لوحدتكم الانسانية وعروج للكمال فيها — واتقوا الله في أمره ونهيه في حقوق الرحم التي هي أخص من حقوق الانسانية بأن تصلوا الارحام التي أمركم بوصلها ، وتحذروا مانهاكم عنه من قطعها — اتقوه في ذلك لما في تقواه من الخير لكم الذي يذكركم به تساؤلكم فيما بينكم باسمه الكريم وحقه على عباده وسلطانه الأعلى على قلوبهم وبحقوق الرحم وما في هذا التساؤل من الاستعطاف والإيلاف فلا تفرطوا في هاتين الرابطتين بينكم: رابطة الايمان بالله وتعظيم اسمه ورابطة وشيجة الرحم فانكم اذا فرطتم في ذلك أفسدتم فطرتكم فتفسد البيوت والعشائر ، والشعوب والقبائل ، ﴿ ان الله كان عليكم رقيبا ﴾ أي مشرفا على أعمالكم ومناشئها من نفوسكم وتأثيرها في أحوالكم لا يخفى عليه شيء من ذلك فهو يشرع لكم من الاحكام ما يصلح شأنكم و يعدكم به للسعادة في الدنيا والآخرة . الرقيب وصف بمعنى الراقب من رقبه إذا أشرف عليه من مكان عال ومنه المرقب للمكان الذي يشرف منه الانسان على مادونه . واطلق بمعنى الحفظ لأنه من لوازمه و به فسره هنا مجاهد .

وقال الاستاذ الامام ان الله تعالى ذكرنا هنا بمراقبته لنا لتنبيهنا الى الاخلاص يعني ان من تذكر ان الله مشرف عليه مراقب لأعماله كان جديرا بأن يتقيه ويلتزم حدوده

التعصب الديني عند الافرنج

كتبنا في الجزء الماضي نبذة في التعصب الديني عند الافرنج بينا فيها ان مهد الغلو فيه أوربا لا آسيا وقبل ان ينشر الجزء ظهر في الجرائد الافرنجية المصرية ما يؤيد رأينا ويثبته أشاعت هذه الجرائد انه وقع خلاف في لجنة الاحتفال بعيد الدستور العثماني سببه الاختلاف في الدين وان صاحب المنار قال في اللجنة انه لايقبل ان يكون رئيسها نصرانيا . وطفق محررو تلك الصحف يشنعون على هذا التعصب الاسلامي الشرقي الذي تخيلوه فخالوه فشنعوا عليه كدأبهم وعادتهم وقياسهم على انفسهم

ويقال ان بعض محرري تلك الصحف من السوريين وكأنهم لما تلقوا لغات الافرنج وآدابهم تفرنجوا فأخذوا منهم محضاء التعصب يحركون به ناره كلما سنحت السوانح أو عنت البوارح ، وهاك ماقالته في ذلك جريدة (النوفل) نقلا عن عن ترجمة الاخبار لها

«قلنا في عدد سالف ان الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار ارتأى انه يجب ان لا يرأس نصراني جمعية الاحتفال بالدستور العثماني . والشيخ رشيد هذا كان الى اليوم يعد حرا مريدا للدستور عدوا لحكم السلطان عبد الحميد وقد حارب الخليفة السابق بصفته مسلما باذلا جهده في سبيل تقويض حكمه المبني على الظلم والاعتداء والنهب والسلب والفتك بعباد الله وقد كان شديد اللهجة في كتاباته الى حد أنه ألزم أن يفر من تركيا ويلجأ الى القطر المصري

«والآن قد تغيرت الاحوال واعتقل عبد الحميد في سجنه الحالي في سالونيك محجوبا نظره عن الاشراف على ما يجري في البلاد وأصبح تحول بينه و بين الحياة و بينه و بين الطبيعة سيوف الحراس . فقد هذا الظالم الذي طرده العالم من بينهم قوته ولكن أولا هل سقط مع عبد الحميد كل ما كان قائما في أيامه ؟ اننا لنشك في ذلك لانه اذا كان مثل الشيخ رشيد رضا يجعل بين المسلم والنصراني فارقا فاذا يفعل غيره ؟ أفلا يجوز ان نعتقد ان أحرار الاتراك ما كادوا يستولون على كرسي السلطة حتى تناسوا مطالبهم القديمة باقامة العدل وتأليه الحرية

ان الشيخ رشيدا سيندم على ما جاهر به غير ان ندمه لا ينفي انه قال ما قال ولقد أصبح الآن يجوز للنصارى العثمانيين أن يشكوا في اخلاص اخوانهم المسلمين» اه

(المنار) لما اطلع اعضاء لجنة الاحتفال بعيد الدستور على هذه الكتابة كتبت اللجنة الى هذه الجريدة وسائر الجرائد التي ذكرت الخبر المختلق تكذيبا له . ونحن نزيد على هذا التكذيب كلمة نقولها لكاتب تلك النبذة في جريدة النوفل وهي

قلتم إنه يجوز للنصارى العثمانيين أن يشكوا في إخلاص المسلمين لهم بعد ان نقلت لهم صحفكم تلك الكلمة عن صاحب المنار دون صحفهم العربية وكان من مقتضى التساهل الذي تدعونه ان لا يصدقوها عنه لما يعلمون بالاختبار الطويل من تساهله وكتابته فى الدعوة الى الوفاق اثني عشرة سنة حتى باسم الاسلام وسعيه مع بعض اصدقائه المسلمين في تأليف جمعية سياسية سرية مؤلفة من جميع العناصر العثمانية لأجل جمع كلمتهم وتوحيد مصلحتهم — اوكان ينبغي لهم مع تصديقها ان يحملوها على غرض صحيح غير التعصب كأن يكون مراده ـ لو صح الخبر ـ ان جعل الرئيس من كبراء المسلمين كامراء البيت الخديوي مثلا يجعل للجنة من النفوذ والاحترام وقبول الدعوة الى الاكتتاب ما لا يرجى مثله لو كان الرئيس نصرانيا لانه ليس في نصارى العثمانيين من له مثل هذا النفوذ . هكذا شأن المتساهل يتروى ويتثبت في الخبر الذي يثير الخلاف وينافي الائتلاف فان ايقن بصدقه التمس له مخرجا صحيحا

فاذا كان النصارى يعذرون على رأيكم بعدم الثقة باخلاص أحد من المسلمين لخبر يحتمل الصدق والكذب والقرائن تدل على كذبه ويحتمل على تقدير صدقه ان يكون قيل لغرض صحيح لا للتعصب أفلا يعذر المسلمون بالاولى اذا كانوا يرون الرجل من علماء دينهم وسلالة نبيهم والدعاة الى الاصلاح الديني فيهم يقضي السنين الطوال وهو يدعوهم الى التسامح والائتلاف مع النصارى وغيرهم بالقول ويجعل نفسه قدوة في ذلك بالعمل ثم يرميه النصارى بالتعصب ويجعلونه حجة على عدم ثقتهم بأحد من المسلمين ؟؟

بلى ولكن نحمد الله تعالى أن كان أهل الشرق من المسلمين والنصارى لم يصلوا الى هذا الحد من التعصب الذي ينفثه فيهم كتاب الافرنج والمتفرنجين منهم ولذلك رأينا الفريقين قد هزءوا بما كتب في تلك الجرائد الافرنجية عن صاحب المنار حتى قبل تكذيب اللجنة له

الجنسيات العثمانية

﴿ واللغتان العربية والتركية ﴾

ان من شؤون مدنية هـذا العصر المحافظة على أجناس الموجودات حسية كانت أو معنوية فترى الغربيين أئمة هذه المدنية اذا رأوا نوعا من الحيوانات الارضية أو الجوية أو المائية أخذ في النقص حتى خيف من انقراضه حرموا صيده ان كان مما يؤكل وقتله ان كان مما لا يؤكل وان كان ضارًا كما يحافظون على العاديات والآثار القديمة جميعها ، ونراهم أيضا يرغبون في بقاء نموذج من الأديان والمذاهب الدينية وغير الدينية واللغات المستعملة وغير المستعملة حتى انهم أحيوا بعض اللغات التي ماتت وبقي أثرها وجعلوا يتدارسونها ويتنافسون في معرفتها

ما كان لهذه المدنية أن تحافظ على أجناس الحيوان والجماد وتسمح بانقراض بعض أجناس الناس (١) بل هي أشد محافظة على أجناس الناس ومقومات جنسيتهم من اللغة وغيرها واعتبر ذلك بالاجناس المكونة لمملكة النمسا (الامبراطورية) تلقه واضحا جليا ،

كان الجنس في العصور الماضية ينقرض بانقراض أفراده كلهم أوجلهم بالموتان والأوبئة أو بالحرب وما يعقب الغلب فيها من العبودية والذل الذي يقلل النسل رويدا رويدا حتى لا يبقى منهم أحد أو يبقى منهم حثالة ممزقة في الأرض لا تسمى شعبا ولا تعد قبيلة ،

وهناك ضرب من ضروب انقراض الجنس يتحقق بانحلال رابطة الجنسية

(١) نستعمل لفظ الجنس والاجناس هنا بمعناه اللغوي والعرفي لا المنطقي فالمنطقي يسمي جنس الترك أو الروم مثلا صنفا من نوع الانسان الذي هو من جنس الحيوان على ان للاجناس مراتب عند المناطقة منها العالي والمتوسط والسافل فتدخل فيها الانواع والاصناف

وزوالها لا بانقراض الاشخاص وانقطاع الأنسال وهو أن يدخل الجنس في دين جنس آخر أو لغته فيمتزج به ويلابسه في تقاليده وعاداته حتى يذوب فيه ويصير من عناصره المكوِّنة لذاته كما امتزجت الاجناس السورية في الجنس العربي باللغة في جميع الافراد وبالدين في أكثرهم ونسيت جنسيتهم النسبية وزالت جنسيتهم اللغوية وصاروا كلهم عربا

هذا النوع من زوال الجنس أو الجنسية هو من الترقي والكمال في الانسانية لا من النقص أو المرض الذي يعرض لها لان الانسان عالم اجتماعي فكلما اتسع نطاق الاجتماع وقل التفرق والانقسام فيه زادت الانسانية كمالاً ولهذا يرى حكماء الاجتماع ان منتهى الكمال البشري في هذه الحياة ان يكون الناس كلهم أمة واحدة لا يفرق بينهم نسب ولا لغة ولا وطن ولا دين ، و يستحيل ان يتحولوا الى هذا دفعة واحدة وانما يكون مثل هذا باندغام بعض الاجناس في بعض بالتدريج البطيء .

وان الامم الكبرى التي تجتهد بنشر لغاتها وآدابها في ارجاء العالم تطمع كل واحدة منها في ان تكون لغتها هي لغة البشر كلهم في المستقبل البعيد لكي يكون لها الامامة و بقاء التاريخ والذكر في الزمن المستقبل على ما يكون لها من السبق الى الاستفادة من توسيع دائرة جنسيتها في الحال . ولا ينافي هذا ما نشاهد عليه الانكليز — وهم أطمع الامم في هذه الغاية — من شدة محافظتهم على جنسيتهم وغلوهم في أثرتهم لما عليه الانسان من الحرص والبخل بمميزاته وخصائصه سواء كانت شخصية أو قومية ، وان هذا البحث ليتسع لتفصيل ليس هذا المقال بموضعه وانما ذكرناه فيه تمهيدا او مقدمة لا مقصدا . وعندي ان الاسلام يرمي الى هذه الجامعة العامة (١)

ومن فروع هذا المبحث التي لا مندوحة عن ذكرها في باب التمهيد ان هذا النوع الكمالي من زوال الجنسيات أو تحول بعضها الى بعض لا يكاد يرضى شعب من الشعوب أن يكون هو المدغم في غيره لاجل تحقيقه فضلا عن ان يرضى بذلك ايثارا لمقومات جنس آخر على مقومات جنسيته ، وسبب ذلك ما ذكرنا آنفا من حرص الانسان على خصائصه ومميزاته وان كانت ضارة كبعض التقاليد والعادات وانما لها طريقان

(١) سنبين هذا المعنى في مقدمة التفسير ان شاء الله تعالى

أحدهما الغلب والقهر وطبيعة المدنية الحاضرة تأباه لما ذكرناه في فاتحة الكلام ، وثانيهما التحالف والاتحاد في المصالح والمنافع بحيث يأخذ كل جنس من الآخر أمثل ما عنده بمقتضى سنة الانتخاب الطبيعي الى ان تغلب مقومات جنسية أحدهما في مجموعها على مقومات جنسية الآخر ويصيران جنسا واحدا وهو ما يطمع فيه بعض الغربيين في مستعمراتهم كفرنسا في الجزائر ، والشعوب العثمانية احوج اليه ولن يكونوا امة واحدة بدونه

ينتج ما تقدم من المقدمات ان الدولة العثمانية لا تستطيع في هذا العصر ان تحل رابطة جنس من الاجناس التي تتكون منها أمتها بالقهر والإكراه ، ولا بالخلابة والاقناع ، بل سبيلها اللاحب أن تؤلف بينها في المنافع والمرافق ، والمصالح والوظائف ، وتوحدها بجنسية الشريعة والقانون ، دون جنسية اللغة والدين ، حتى يتمازج منها ما هو مستعد للمزج ، وينبذ مزاج وحدتها الجديدة من لا يقبل ذلك من الاجناس كما ينبذ مزاج الجسم المعتدل ما عساه يدخل فيه من الاجسام الغريبة

أعني بهذا النبذ — واللبيب يفهم — ما تقتضيه طبيعة الاجتماع من ذلك لان الدولة نفسها تنفي من بلادها الآن بعض الاجناس . ذلك ان الجنس الذي لا تقبل طبيعته الوحدة العثمانية التي ذكرناها (كجنس الروم فيما يظهر) لجذب جنسية أخرى هي أقوى منها في حقه يتسلل اكثر أفراده في بلادها بالهجرة أو سبب آخر ويتصلون بجنسهم الذي تربطهم به عدة روابط لكونه أقوى على جذبهم من الجنس الذي يرتبطون فيه برابطة واحدة

أما تنازع البقاء بين الجنسيات اللغوية في الشعوب العثمانية الذي ينتهي باستيفاء طوره الاجتماعي الى تغلب الامثل فسيكون على أشده بين العربية والتركية لانهما اللغتان الحيتان للشعبين الكبيرين في الأمة والاولى منهما لغة الدين الذي يكفله منصب الخلافة والثانية لغة السلطنة الرسمية وليس للغات سائر الشعوب شركة في هذه المزايا

ان الارمن شعب صغير وعهده قريب بتدوين لغته وجعلها لغة علمية ولا يطمع أحد من عقلائه بنشر هذه اللغة في شعب آخر فهي لغة قاصرة محصورة غير قابلة لحياة النشر والامتداد لعدم الحاجة اليها عند غير أهلها واللغة التركية مزاحمة لها فيهم أنفسهم فهي املك لألسنتهم من لغتهم

وأما الالبان والاكراد فهم حتى اليوم لم يدونوا لغتيهم ويجعلوهما لغة علم ولا يطمعون في نشرهما وتحويل أحد من الشعوب الاخرى اليهما والتركية مزاحمة لهما في الشعبين وكذا العربية لاسيما في بعض بلاد الاكراد كالسليمانية وغيرها. ثم ان الدين يجذبهم الى هذه والادارة تجذبهم الى تلك فزيادة عناية كل شعب من هذين الشعبين بلغته ومحاولته إحياءها تقليدا لما ذكرناه من طبيعة المدنية الغربية لهذا العهد لا يفيده الا أثقالا تعوقه عن تحصيل العلوم ومجاراة غيره بالترقي فيها لأنه ان ترك العربية قصر في دينه الذي هو أعز شيء عليه وان ترك التركية قصر في عثمانيته وما يترتب عليها من الفوائد فلم يبق الا انه يضيع بعض زمن التحصيل في دراسة لغته القومية ولا أرى العقلاء منهم يطمعون في تأسيس دولة لأنهم يعلمون انه لافرق في ذلك بين شعبيهما وبين الشعب الارمني من حيث انه طمع في غير مطمع يضر الطامع ويضر الدولة فيقوى عليهما الطامعون فيهما، ولضرر الشعب الصغير من ذلك أكبر من ضرر الأمة الكبيرة. على ان محاولة تمزيق السلطة محرم في الاسلام فالشعب الاسلامي الذي يفارق الجماعة يجني على دينه وعلى دنياه ـ فالتنازع الحقيقي في لغات الشعوب العثمانية إنما هو بين العربية والتركية

يرى بعض الترك الغالين في عصبية الجنس انه ينبغي للدولة ان تجعل اللغة التركية وحدها لغة التعليم وتلزم جميع العثمانيين بتعلمها وتجعلها اللغة الرسمية في جميع معاملات الحكومة حتى التقاضي والمرافعة في المحاكم الى ان تحول العرب فمن دونهم من العثمانيين الى الجنسية التركية. ويظنون ان هذا أمر ممكن حتى في عصر الدستور، وما ظنهم هذا الا اثم وغرور

ويرى بعض العرب بنزعة دينية وبعضهم بنزعة جنسية أنه ينبغي للدولة ان تجعل اللغة العربية هي لغة العلم ثم تجعلها بعد انتشارها اللغة الرسمية لانها لغة الشعب الاكبر من الشعوب العثمانية ولغة الدين لجميع مسلميها ومسلمي سائر الآفاق الذين يرتبطون معها برابطة الخلافة، ويغفلون عما بيناه في القسم التمهيدي من هذا المقال من شأن المحافظة على الجنسية لاسيما في شعب يرى لنفسه حق السيادة فان تنازل

عنها بالدستور فانه يصعب عليه أن يترك من مميزاته ما حفظ لنفسه الحق في استبقائه بنص القانون الاساسي وهي جعل لغته هي اللغة الرسمية للدولة

ان غوائل اختلاف اللغة في الدولة لاتنكر، وان فوائد توحيدها ووحدة الامة بها لا تجهل، وان رجحان العربية في الدين والعلم والسياسة لهو أوضح وأظهر، فانها هي التي تتوفر الدواعي على تعميمها لان الناطقين بها أكثر من الناطقين بغيرها، وإرجاع القليل الى الكثير أسهل من عكسه ـ ولأن للترك والكرد والالبان باعثا نفسيا يبعثهم على تعلمها وهو الحاجة الى فهم كلام ربهم (عز وجل) وحديث نبيهم (صلى الله عليه وسلم) وحكم سلفهم الصالح (رضي الله عنهم) وكتب أئمتهم في التفسير والحديث والفقه وغيرها من علوم الدين (رحمهم الله) والوقوف على تاريخ دينهم. ومن الجهل ان يقال انهم يستغنون عن ذلك كله بالترجمة لما سنبينه في فرصة أخرى ـ ولأن جعلها اللغة الرسمية هو الذي يزيل خطر تفرق الاجناس فاذا اتفق عليها المسلمون الذين يشاركهم فيها غيرهم من الملل في البلاد العربية لا يبقى للروم والارمن سبيل لطلب تعليم لغتهم في مدارس الدولة ولا يكون لتعليمهم لها في مدارسهم خاصة تأثير في اضعاف الوحدة ـ ولانها لغة حضارة سابقة وعلوم وفنون ـ ولأنها اللغة المشتركة بين جميع المسلمين ولانه يمكن ان توسع دائرة نفوذ الدولة بنشرها في الممالك الشرقية التي يكثر فيها المسلمون (كالصين وجاوه والهند) من غير نفقة توازي عشر معشار ما تنفقه الامم الغربية لنشر لغاتها وتوسيع دائرة نفوذها وتجارتها في الشرق ـ ولأن الدولة تأمن بذلك من قيام دولة عربية تدعي الخلافه وتنازعها النفوذ في العالم الاسلامي بنفسها او بمساعدة بعض دول أوربا ـ ولأن في ذلك تحقيقا لمقصد من مقاصد الاسلام العالية وهو محو العصبيات الجنسية وتوسيع دائرة الاخوة الانسانية

هذه المرجحات لا تعزب عن علم اذكياء المفكرين من الترك ولو كان أمر الأقوام والشعوب مما يتبع فيه البرهان اذا ظهر لكان حل هذه المسألة من أهون الأمور ولكن الاقوام والجماعات تتبع الشعور والوجدان دون العقل والبرهان بل يقول الفيلسوف الاجتماعي جوستاف لبون انها لا تعقل ولا تطيق سماع الدليل فلا

مطمع اذاً في رضاء الشعب التركي بجعل العربية لغة العلم والحكومة في الدولة كلها مهما كان في ذلك من الفوائد وأمن الغوائل لا سيما في هذا العصر الذي اشتدت فيه العصبيات الجنسية في أوربا من عهد نابليون الى اليوم وسرت عدواها الى البلاد المجاورة لها

اذا كنا لا نجد سبيلا الى توحيد اللغة لاجتناء فوائده فكيف السبيل الى اتقاء غوائل التنازع بين اللغتين السائدتين، وما يتبعه من تحريك عصبية الجنسين، الذي هو أشد الاخطار على الدولة في العهد الذي يجب الاتفاق فيه على تعزيزها وإعلاء شأنها والتأليف بين اجناسها وعناصرها جهد المستطاع ؟

يقول أكثر الباحثين المستقلين من الاجانب والعثمانيين ان لحل هذا المشكل طريقا معبَّدا ومثالا متبعا لا يحتاج معه الى النظر والاستدلال وهو ما عليه سلطنة النمسا فينبغي أن يكون العرب والترك في الدولة العثمانية كشعبي النمسا والمجر وان يكون سائر العناصر العثمانية كسائر العناصر في تلك الامبراطورية،

أراني بهذا قد وصلت الى بحث لم أكن أرمي اليه، وطرقت بابا لا غرض لي الآن بالدخول فيه، باب البحث في المسألة التي يعبرون عنها بالمركزية واللامركزية التي هي موضوع الخلاف بين الحزبين السياسيين الطبيعيين فينا وهما حزب الاتحاديين وحزب الاحرار فلندع تنازعهما للزمان يبرم فيه حكمه ولنعد الى موضوع اللغتين فنختم الكلام فيه برأيين احدهما ما نراه يرضي المفكرين ودعاة العلم والسياسة من العرب والآخر لأحد المفكرين والخبراء من الترك ولا ندري ايرضيهم أم لا

(الرأي الأول) هو ان يكون تعليم كل من الشعبين في المدارس الابتدائية الرسمية بلغته وان يكون تعلم اللغتين إلزاميا في جميع مدارس الحكومة الثانوية والعالية وان يكون تعليم العلوم في بلاد العرب بالعربية وفي بلاد الترك بالتركية وان تكون جميع معاملات الحكومة كل ولاية من ولاياتهما بلغتها ويكون في الولايات العربية قلم ترجمة لاجل مخاطبة العاصمة وتلقي الخطابات منها بالتركية ; وأما سائر الاجناس فيعلمون العلوم بالتركية لان أكثرهم يعرفها الا من كان منهم في الولايات العربية فانه يكون تابعا لاهل ولايته. فان لم يتيسر تنفيذ هذا الرأي في مدة هذا الدور الاول لمجلس الامة فالرجاء فيما بعده قوي اذا

كان الترك كما نظن يحبون الوفاق . وقد بينا من قبل حاجة الترك الى تعلم العربية في الجزء الثاني (راجع ص ١٢١ م ١٢)

(الرأي الثاني) وهو لعبيدالله افندي مبعوث أزمير أودعه في مقالات له في التعليم نشرها في جريدة « تصوير افكار » وترجمته بعض صحف بيروت ومصر وهذه خلاصته نقلها عن جريدة الاتحاد العثماني البيروتية قال:

أرى خير حل لمشكلة لغة العلم هو ان يتخذ الاتراك التركية لسانا علميا لهم وان تؤسس بحماية الحكومة وتحت مراقبتها مراكز علمية عربية في قواعد الاقطار العربية مثل دمشق وأم القرى ودار السلام تسعى في انهاض علوم الحضارة العربية التي أخذت تنحط وتضمحل منذ انقرضت السلطنة العربية

و بذلك تنتشر العلوم والفنون بين الاتراك بلسانهم وتحفظ الحضارة العربية وترقى بلسانها الخاص من جهة و بما ينقل منها الى التركية من جهة أخرى وينجو الاتراك من الجهل بالدين وينهضون من هوة التعصب الاعمى التي لا يزالون ساقطين فيها الى اليوم . وان الحكومة لتقدر الخلافة حينئذ حق قدرها وتقوم باعباء واجباتها . ولو ان الدولة أدركت هذا الحل من قبل وعملت به لكثر سواد الترك الذين يعرفون العربية والعرب الذين يتكلمون بالتركية ولتحول لسان جميع العناصر العثمانية كالروم والارنؤوط والارمن وغيرهم بقوة العلم منذ ثلاثة قرون أو أربعة الى لسان الترك لسان المعارف والحضارة (١)

اضطرني الى استطراد هذه المسألة مع انها خارجة عن مبحث المدارس ما أراه من لزوم تنبيه الاذهان الى ان من الممكن بل من الواجب اتخاذ التدابير التي سردتها واني لست أرى واسطة أحسن من هذه تقطع ألسنة الذين أصبح ديدنهم في هذه الايام الضرب على نغمات الخلافة

وان منع دخول المؤيد وغيره من الاوراق المصرية الى الولايات العربية لا فائدة له بل ربما زاد انتباه الناس الى مطالعته

(١) ان لسان الترك لم يكن لسان علوم وحضارة وانما كان يمكن تنفيذ ذلك وقتئذ بالعربية كما حاول السلطان سليم

ليس نشر العلم في الولايات العربية باللغة التركية من الممكن كما انه ليس بالمعقول بل بالعربية فقط تمكن اشاعة العلم ثمة وان من الواجب حماية اللغة التي تريد تعميم العلم بها بين أمة (العرب) وحماية الافاضل أيضا من أهلها. وان اصلاح مدارس القسطنطينية لا يعد حماية للغة العربية لان اصلاح هذه وتعليم العلم بها من أقرب طريق لا يكون الا بتأسيس مدارس علمية في القطر العراقي والقطر السوري والقطر الحجازي وانشاء مجامع علمية عربية هنالك اعضاؤها من العرب وموظفون بصورة رسمية

ومتى تم ذلك نبغ بتلك الاقطار في القريب العاجل فحول العلم وارهاط الفضل وزحف اليهم أصحاب المزايا في الشرق والغرب وفي مصر والسودان. فلا يمضي الزمن اليسير حتى تنتقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية بكل فروعها وسوف تندم الخلافة العثمانية اذا لم تكن هي المتوسطة لهذا النقل والقائدة لهذه الحركة

وفضلا عن ذلك فان دولة كالخلافة الاسلامية وسلطنة كالسلطنة العثمانية تحكم بلاد العرب الذين لا نزال نستنير بأنوار علمهم وفضلهم لا يمكنها الاكتفاء بالقسطنطينية وحدها مركزا علميا لهذا الملك الطويل العريض، فان مكة عاصمة المسلمين اجمعين وبغداد دار الخلفاء ومنشأ العلوم الاسلامية ودمشق عاصمة الخلافة الاموية وأكبر مدن السوريين الذين نهضوا بمعارف مصر ومطبوعاتها وصحافتها في هذا العصر الاخير هذه المدن الثلاث يجب ان تكون مراكز عالية مهمة في هذه السلطنة وعندئذ يخلف الائمة البصريين والكوفيين القدماء ببضع سنين أئمة واساتذة عراقيون وسوريون وحجازيون يجعلون دولتنا دولة مدنية نصيرة للعلم واللغات حتى اذا ما امتد لسان الى الخلافة يسلقها العلم اه بعبارة الاتحاد

(المنار) كنا نتمنى لو اطلعنا على رأيه في المدارس عامة. واننا نقتبس بعد هذا مقالة تاريخية في الموضوع من مجلة المقتبس الشهيرة فيها رأي ثالث في المسألة وهذا نصها

﴿ العربية والتركية ﴾

أصيبت الأمة بعد سقوط دولة بني العباس بفتور غريب في العلم والآراء لما عاينته من أهاويل الحروب والفتن، ولما قامت الدولة العثمانية فجمعت تحت لوائها

الاقطار المختلفة نظرت الى الاقطار العربية من الوجهة السياسية ولم تعن بها ولا بغيرها من الوجهة العلمية الاجتماعية شأنها في عامة أدوارها وأقطارها ولم يشذ عن ذلك الا مصر فكانت أشبه بمملكة مستقلة حتى بعد استيلاء العثمانيين عليها، وبعيد ان قامت الدولة تؤسس لها مدارس في العاصمة والولايات لتعلم العلوم الحديثة وتستبدل النور بالظلمة والعلم بالجهل قام محمد علي والي مصر فنزع القطر المصري من المماليك في الظاهر ومن الدولة في الباطن وانشأ فيه مدارس عربية وتوفر بدلالة جماعة من مستشرقي الفرنسيس النبهاء على ترجمة الكتب العلمية من اللغات الأوربية فانتعشت اللغة العربية في مصر فقط وظلت كهف العرب عنها يأخذون علومهم وموطن الطباعة والكتب والصحف وبأنوارها يستضيئون وذلك لغناها العظيم وتاريخها المجيد القديم،

بقي الامل في نهوض العربية محصورا في مصر لان الشام والعراق والجزيرة والحجاز واليمن ونجد وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش أمست في فتور، وقد أنشئت في تونس وسورية بعض المدارس والمطابع تدرس بالعربية وتطبع اللازم من الكتب العربية لكنها لم يمض على تأسيسها بضع سنين حتى أطفئت شعلتها بما أصاب سورية من بلاء المراقبة وما أصاب تونس من الاحتلال الفرنسوي، والمراقبة واحتلال الغريب مما يقتل روح العلم وينزع حياة النهضة القومية، وقد أوشكت مصر ان تصاب بضعف لغتها لما احتلها الانكليز لولا ان قامت الامة وطلبت جعل العربية لغة المدارس الابتدائية والثانوية فلم تر الحكومة بدا من اجابة طلبها،

اما هذه الديار فكان أول ما انصرفت اليه الوجوه (١) بعد إعادة القانون الاساسي العثماني مسائل التعليم فالتركية لسان الدولة الرسمي تريد ان تعلمه جميع العناصر العثمانية ليجيء منهم في المستقبل مزيج واحد وتقوى وحدتهم السياسية، وقد نشرت نظارة المعارف برنامجها ولم نشهد فيه ذكرا للعربية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية بل قالت ان تعليم العلوم بالتركية للذكور والأناث وللصغار والكبار والعرب والترك والروم والأرمن والبلغار والأرناؤد حتى ان المبادئ البسيطة التي سمحت بتعلمها من العربية تدرس في كتب ألفها أتراك باللغة التركية، فادرك بعض الباحثين في

(١) المنار: لعله سقط من هنا كلمة «فيها»

أحوال البلاد والعناصر ان غرض الحكومة من هذه الخطة (تتريك) العرب وغيرهم، وهو عمل اذا كان نافعا من حيث السياسة فلا نفع فيه من حيث الاجتماع والعلم خصوصا بعد ان رأينا أصغر الشعوب الأوربية تحافظ على لغتها الاصلية محافظتها على اعراضها وأموالها وأرواحها ،

لا بد للحكومة ان تجعل التعليم اجباريا في المملكة فاذا جعلته باللغة التركية ولم تراع حالة كل قطر ولغة أهله تسوء العاقبة ولا تأتي الشجرة التي تريد غرسها الآن بثمرة جنية بل يكون شأن البلاد العقم في العلم والفكر ومن لم يتعلم العلوم بلغته هيهات ان يأتي منه عضو يفيد أمته وبلاده، واذا فعلت الدولة ذلك الآن فتكون في عهدها الدستوري أظلم منها في عهدها الاستبدادي وتكون حكومة مصر أرفق بأهل مصر من حكومتنا بنا لانها منا فينتظر عن يدها الكثير وتلك ليست منهم وكل شيء تأتي به يعد كبيرا ،

وبعد فان كانت الحكومة العثمانية لم تنشط اللغة العربية في الماضي مع انها لغة الدين والآداب والحضارة فهي لم تضع العقاب في سبيلها مباشرة ولكن الغلطة الفظيعة التي ارتكبتها ولا يغفرها لها التاريخ هو ان القائمين باعبائها منذ البدء جعلوا اللغة التركية لغة الدولة الرسمية خلافا لما جرت عليه دول الاسلام السالفة كدولة المصامدة البربر في الغرب الاقصى والأدنى ودولة الجراكسة فى مصر والشام ودولة آل سلجوق التركية فى العراق والجزيرة ودولة بني بويه الفارسية ودولة آل أيوب الكردية فى مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها من الدول التي طرحت لغاتها وعمدت الى اتخاذ اللغة العربية لغة الحكومة والدولة فكان الجراكسة والبربر والفرس والاكراد والاتراك يتخلون عن لغاتهم مختارين ولا يستعملون فى الرسميات غير العربية لغة البيان والعلوم أما الترك فجروا على غير سنة الدول السالفة فلم يروا من المصلحة تعلم لغة عامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها واكتفوا بلغة ملفقة بدوية ما برحوا يتوفرون منذ قرون على اصلاحها وهيهات ان تكون كما يحبون ،

ولما جاء السلطان سليم فاتح مصر والشام وكان على شيء من المعرفة يحسن

العربية كما يحسن الفارسية والتركية أحب ان يتلافى الغلط الذي سارت عليه دولته وان يجعل اللغة العربية لغتها الرسمية أسوة الدول الاسلامية البائدة فقام عليه بعض ضعاف العقول من أهل دولته وأرادوه على العدول عن رأيه مخافة ان تندثر لغتهم بل تخلصا من ان يتعلموا لغة غيرها فكان عملهم هذا من جملة السدود التي حالت دون آل عثمان وبسط أيديهم على الممالك الاسلامية المجاورة لهم واللغة العربية أعظم رابطة بين المسلمين ،

ولقد كانت الدولة ولا تزال تعلم في مدارسها الرسمية العربية كما تعلم الفارسية وذلك لأن التركية مزيج من هاتين اللغتين وبدون معرفة قليل من اللغتين لا يتأتى لتركي ان يكتب كتابة صحيحة في لغته فكان شأنها من بعض الوجوه شأن المدارس في أوربا لا تزال الى اليوم تعلم اللاتينية واليونانية لانهما أصل لغات أوربا وان كانتا بادتا أو كادتا، ولكن مدارس أوربا أخرجت كتابا بهذين اللغتين ولم نعهد من مدارس الحكومة العثمانية كاتبا بالعربية أو الفارسية ، هذا والتركية ليست لغة دين ولا لغة علم ولا لغة حضارة قديمة ولا مدنية معروفة كالعربية التي شهد أهل الارض بأمجاد أهلها وحضاراتهم ، ومن الغريب انه لم ينبغ في الدولة العثمانية كاتب عربي من أصل تركي على حين نبغ وينبغ من الفرس والاكراد وغيرهم أناس يؤلفون بالعربية فتحسبهم عربا خلصا ، وانك لتقرأ العجمة في كلام ابن كمال باشا وكاتب جلبي وطاشكوبريلي وغيرهم من الاتراك الذين عانوا القلم العربي وعدوا في المصنفين ،الا تقرأه في كلام الراغب الاصفهاني وأبي بكر الخوارزمي وحجة الاسلام الغزالي بل ان هؤلاء على منشأهم الفارسي كانوا أئمة الانشاء العربي ،

إذا تعلم أبناؤنا اليوم على الطريقة التركية لا يلبثون ان يجيئوا أتراكا ويتقنون التركية كأرقى أبنائها وبذلك لا يخدمون أبناء لغتهم أدنى خدمة وقد رأينا معظم الذين تعلموا من أبناء سورية والعراق في المدارس الرسمية لا يحسنون التكلم بالعربية العامية فضلا عن ان يكتبوا سطرين صحيحين بلغتهم بل ربما رأيتهم يمزجون المصطلحات التركية وبعض الالفاظ التركية بيناهم يكلمونك بالعربية فكان شأنهم في هذا شأن أكثر التوانسة والجزائريين من سكان المدن يتكلمون

بعربية تكاد تكون أقرب الى الافرنجية لما خالطها من الالفاظ الافرنسية والاسبانيولية والطليانية »

وقد رأى بعض العقلاء أن أحسن حل لمسألة اللغة العربية في المدارس الرسمية وأسلمه عاقبة على اجيال الدولة المختلفة هو ان يجعل تدريس العلوم المادية كلها باللغة العربية كالطبيعيات والرياضيات والفلك والكيمياء والطب وان تجعل العلوم السياسية كلها باللغة التركية كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والحقوق والاجتماع وبذلك لايقع حيف على العرب وهم نصف الدولة أو يزيدون ولغتهم أفضل لغات سائر العناصر العثمانية ، والمستقبل كفيل بحل هذه المعضلة العلمية »

تقرير (١)

عن امتحان مدرسة المعلمين الناصرية

« في العام الدراسي سنة ١٩٠٨ الداخل في سنة ١٩٠٩ »

صاحب السعادة سعد زغلول باشا ناظر المعارف العمومية حضرتلري

قبل كل شيء أقدم الى سعادتكم أكمل الشكر والامتنان على ان جعلتموني موضع الثقة فاخترتموني لرئاسة امتحان هذه المدرسة التي هي في نظري من أهم المدارس وأفيدها لهذا القطر ولهذا قد دققت البحث واختبرت كل شيء في الامتحان بنفسي واني عارض ما علمته بالتفصيل .

(١) رأيت ان وقت الامتحان الذي حدد لهذه المدرسة غير ملائم لحالتها

(١) ننشر هذا التقرير لما فيه من الفوائد الدقيقة المتعلقة بفن التعليم وحاله في مدرسة من أرقى المدارس المصرية وأهمها عندنا بيان سوء أثر تعليم الأزهر في نفوس طلابه من حيث إدراك المسائل ومن حيث بيانها وهو ما شرحه صاحب التقرير الشيخ عبد الكريم سلمان الشهير العضو في المحكمة الشرعية العليا » في مسألة (ج) فعسى ان يكون فيه عبرة لمديري نظام الأزهر كما نحب له ونرضى

لانه قد زاحمه قبله امتحان الشهادة الثانوية وشاركه في زمنه امتحان مدرسة الحقوق الخديوية ونشأ عن ذلك تعطيل في العمل لأن من انتقتهم النظارة للامتحان فيها كان أكثرهم مشتغلا بامتحان الشهادة وتلاوة أوراقه واضطررنا لتأجيل الامتحان في التربية العملية عن وقته المعين في الجدول وهو أول مايو سنة ١٩٠٩ إلى ما بعد ١٦ منه واجهد الممتحنون أنفسهم في أول النهار و بعد الظهر حتى أتموا عملهم بمشقة عظيمة في أوقات هذا الحر الشديد

فلهذا ولقلة العمال الذين يوثق بعملهم أرى ان يجعل موعد امتحان هذه المدرسة في الاعوام المقبلة من أول مايو كما وقع ذلك في بعض السنين

(ب) لاحظت ان كون الامتحان بنمر سرية قد أوجب زيادة العمل على العمال واستدعى إيجاد عمال في حين الاحتياج الى عملهم في موضع آخر لتزاحم الامتحانات في وقت واحد ولو كانت الفائدة من جعله سريا توازي هذه الاتعاب وتلك المضايقة في إيجاد العمال لهان الخطب ولكني وزنت النفع والضر في ذلك فوجدت الثاني أكثر بكثير وغاية ما يقال في النفع ان كون الامتحان بالنمر السرية يجعل النظارة في اطمئنان من عدم وجود الغرض فيه إذ يقرأ الممتحن ورقة لا يعرف كاتبها فيقدر لها درجتها بالضبط وهذا النفع وان كان يكون حقيقيا في بعض الأوقات ليس بمطرد لانه ليس كل ممتحن يعمل فيه الغرض وفضلا عن ذلك فقد يوجد شيء من التساهل مع الامتحان بالنمر السرية يقوم مقام الغرض أو يفوقه لأن الممتحن كلما قرأ ورقة ووجدها غير صالحة سأل عن النمرة التي يمكن ان يمر بها الطالب ولا يكون ساقطا فيعطيها للورقة وهو جازم بانه لا يستحقها لأجل ان ينجو الطالب من السقوط وذلك استعمالا للشفقة واذا أسأنا الظن قلنا ان الممتحن تحت نظره أشخاص يجب ان يمروا فيخاف ان يكون صاحب الورقة الساقطة منهم فيمرّ الكل حتى يمر صاحبه بسلام وهذا أكبر في الضرر من استعمال الغرض لشخص مخصوص بالرجاء المعتاد في هذه البلاد وبين أوراق الامتحان في كل علم أوراق منحطة جداً وضع لها الممتحنون الدرجات التي تقتضي مرور كاتبها

فقط كنمرة (عشرين) فيما نمرته الحقيقة (٤٠) و (٢٥) فيما نمرته (٥٠) و (١٥) فيما نمرته (٣٠) وهكذا ولسعادتكم ان تأخذوا نموذجا من تلك الأوراق المكتوب عليها مثل هذه النمر فتجدوها على ما وصفناه وأيضا فان الامتحان بالنمر السرية في هذه المدرسة وهي من المدارس المخصوصة العالية تفرقة بينها وبين أختها مدرسة الحقوق الخديوية ولا فرق بينهما في الواقع ونفس الأمر فلم يكون الامتحان في الحقوق جهريا وفي المعلمين سريا على اننا لم نسمع بأن طالبا في الحقوق مع الامتحان الجهري نجح للغرض ولا بأن طالبا تأخر بقصد الإضرار به

ولهذا فاني أرى ان يكون الامتحان في هذه المدرسة أيضا جهريا فيقل التعب وتزول تلك الاضرار ويسهل وجود العمال ويعرفون انهم موضع الثقة فيعملون على ما يزيدها وانهم ليسوا موضعا للريبة فيعتادون النزاهة والتخلي عن الغرض وهذا من حسن التربية واعلاء النفوس بمكان عظيم

(ج) لاحظت اثناء تأدية الامتحان الشفهي في علوم النحو والصرف والطبيعيات وتقويم البلدان ما لا يكاد يصدق وذلك ان الشخص الواحد يكون شخصين متبايني الصفات والادراك في وقتين مختلفين امام ممتحنين في علمين وهذا وان كان وجد في قليل من الاشخاص ولكنه مما يستدعي النظر والالتفات والبحث عن الاسباب. رأيت بنفسي أحد الطلبة يؤدي الامتحان الشفهي امام الشيخ حمزه فتح الله فاذا سأله عن تطبيق قاعدة أو اعراب جملة أو تعيين محل اسم من الاعراب أو عن أصل الكلمة وما صارت اليه بعد القلب أو الابدال بحث عن الجواب في جوانب السماوات وشاسع الآفاق، فاذا نبه الى ان الجواب قريب منه اعتراه ذهول حتى صار لا يدرك البديهي من القول، ورأيته بعينه وهو امام علي بك بهجت يؤدي الامتحان في تقويم البلدان فوجدته رجلاً ثابت الجنان منطلق اللسان يعبر عما يريد بقوة ولا يعتريه انزعاج رأيت هذا في أكثر من واحد ومن اثنين واني أحقق بعد ان أطلت الأخذ والرد والبحث ان هذا الداء كان متأصلا في بعض أولئك الاشخاص من أصل التعليم لأن قاعدته في الأزهر كثرة الاحتمالات في العبارة الواحدة واستعمال المعلم للتشكيك والاكثار من الاعتراضات

اللفظية وقد تعودوا ان لا يعرضوا فكرهم على أحد سواهم فاذا سئل هذا المتعلم على هذه الطريقة حار في أمره فلا يدري أي الاحتمالات يذكر وأيها يكون موافقا لذوق السائل فيرتبك كما قدمناه واما العلوم الأخرى فانها خلو من هذه العلة الثقيلة علة الاحتمالات والتشكيك فاذا سئل فيها قال ما يعلمه منها جازما بما يقول والجزم في العلم هو قاعدة كل خير وهو الأساس المتين في نجاح التعليم

ولا يقال ان هذا الفرق بين هذا الطالب وهو امام الشيخ حمزة وبينه وهو امام بهجت بك جاء من عوارض أخرى مثل وجود من يهابه زائدا على من يمتحنه فانني كنت موجودا مع هذا الطالب امام الاثنين واذا قيل ان الفرق جاء من كيفية توجيه الأسئلة فانني كنت أبسط السؤال له وهو عند الشيخ حمزة بطريقة هي غاية في السهولة والوضوح وقد لاحظ حضرة الشيخ حمزة فتح الله هذا المعنى من بعض الطلبة فأشار اليه في تقريره المقدم إليّ منه حيث قال « لذلك لا أجد بدا من سرد نموذج مما طغى به من كثير منهم بنانه وبيانه ويراعه ولسانه مما لا تعقل نسبته لأمثالهم الا لفرط ذهول استحكم فاما في الشفوي فكما سمعتم من البعض حتى عذرتموه بحصر الهيبة في معترك الامتحان ولذا أقتصر على ما خطه بنانهم في الأوراق التي صححتها » اه

ظهر مما تقدم ان العيب في هذا الموضوع انما هو في كيفية التعليم وفي بعض الكتب لا في شخص المتعلم. والنظارة مسؤولة عن اصلاح هذا العيب والطريقة التي اراها نافعة في هذا الباب هي انتقاء الطلاب حين الدخول انتقاء كاملا في نباهتهم ومعلوماتهم وسيرتهم وليس من الضروري ان نتوسع في العدد فبدلا عن ان نأخذ ستين منهم أربعون ناقصون نأخذ عشرين كاملين اذا تخرجوا تخرجوا رجالا ذوي قدرة على العمل وقدوة للمتعلمين في كمال الاخلاق. أما اذا تخرج من الستين خمسون وكان منهم ثلاثون ناقصين فقد أدخلنا في عداد المعلمين اشخاصا غير صالحين وكانت النتيجة مساواة الصالح بالطالح والخلط بين الضار والنافع وعندي ان يقال إننا لا نخرج كل سنة الا عشرين كاملين خير من ان يقال اننا نخرج كل سنة طائفة كبيرة لا يمكنها في مجموعها القيام بوظيفتها حق القيام على انه قد مضى وقت الاحتياج الى

الإكثار من المعلمين بقطع النظر عن الكامل والناقص وجاء الوقت الذي يجب فيه التقليل من المعلمين حتى تصادف الخبيرين منهم

ويمكن ان تجمع النظارة لجنة لتقرر مقدار الحاجة الى المعلمين في كل سنة وتقرر بناء على ذلك انتقاء الطلبة وشروط الدخول وارى ان يكون في اول ما تنظر اليه اللجنة ان الطالب لا يكون قد امضى زمنا طويلا في الازهر بين تلك الاحتمالات والشكوك (١) ولا بد حينئذ اي اذا تقررت هذه القاعدة ان تطيل النظارة زمن وجودهم في المدرسة حتى يتغير وضعهم بالمرة ويسبكوا سبكا جديدا فيكون المتخرج منهم مفكرا مستنتجاً تربت فيه ملكة القيام بالنفس فيمكنه العمل بما تعلم وان يفيد المتعلمين ويبث فيهم روح العلم الحقيقي وروح التربية الحقة فان الذي ينقص المعلمين اليوم هو التفكر والاستنتاج فاذا اخذنا الطلبة من الآن فصاعدا ممن لم يمضوا مدة طويلة في الازهر وعوضنا عليهم تلك المدة في المدرسة وصلنا الى نتيجة حسنة قطعا وتخرج من هذه المدرسة العدد المجيد لعمله وان كان قليلا فهو خير من عدد كبير جله ممن لا يجيد العمل ولا يحسن التعليم

على ذكر هذا الذي تقدم اقول اني امتحنت طلاب السنة الرابعة من مدرسة الحقوق كما امتحنت مدرسة المعلمين فاذا مدرسة الحقوق في موضوعها متقدمة وفي طلابها جرأة على القول أمام اي ممتحن وبالطبع لم تكن لهم هذه الجراءة الا من اصل التعليم فلو اصلح التعليم في مدرسة المعلمين لوجد من متخرجيها من يفوق متخرجي الحقوق لأن في مدرسة المعلمين تتوفر العلوم العربية والمنطقية وكلها مما يوجب القوة في الحجة والطلاقة في اللسان والتوسع في البيان

(د) لاحظت ان بعض العلوم كآداب اللغة والتاريخ تتفق فيها كتابات الطلبة

(١) المنار : لما عرفت الشيخ عبد العزيز جاويش للاستاذ الامام سألني عن درجة تحصيله في أوربا ودار العلوم . قلت اني لم اقف على ذلك لقرب العهد بحضوره من أوربا ولم أعاشره قبلها كثيرا . فقال سله عن مدة اقامته في الأزهر فان كان أقام زمنا طويلا فيه فما أرى انه حصل شيئا ترجى فائدته لأن طول الاقامة في الازهر تضعف الاستعداد للعلم حتى قد تذهب به ، وان كانت إقامته فيه قصيرة فهو عندي محل رجاء

عند الامتحان اتفاقا يكاد يكون تاما من كثير من الوجوه فعلمت من ذلك انهم لا يعتمدون على قوة الكتابة والإنشاء ولو كانوا كذلك لاختلفت العبارات فان المنشئ يمكنه ان يعبر عما علم في موضوع واحد بعبارات مختلفة الأسلوب وان كانت متفقة الموضوع وهذا العيب يكاد يكون عاما في المدارس التي امتحنتها وان اختلف التلامذة في ذلك بعض الاختلاف ولاحظت أيضا في أمر التطبيق ما يصح ان ألفت النظارة اليه ويقول حضرات المتحنين كلهم في الاعتذار عن بعض النقص الذي يوجد فيه ان علته انما هي تضييق الزمن وهذه تقاريرهم مجمعة على كثرة العلوم وقلة الزمان و بعضها يشير الى قلة الزمن المحدد للعلم بالنظر لموضوعه وفائدته كعلوم العربية وعلوم الشريعة التي هي المقصود الاصلي من تأسيس هذه المدرسة . وكأنهم يرمون الى النظر في أمر البر وجرام ولزوم تعديله على مقتضى وضع المدرسة وما يناسبها من العلوم

اني بما قدمته في فقرة (ج) من الكلام في أمر الانتقاء للدخول وشروطه والاخذ ممن قل زمنهم في الازهر وتعويضهم زمنا في المدرسة أستغني عن الذهاب مع حضرات الاساتذة المتحنين الى النظر في أمر البروجرام فانه بعد ان يتقرر الامر على ما تقدم يستغنى موقتا عن التعديل فيه ومع ذلك فلو رأت النظارة ان تنيط اللجنة التي تؤلف للغرض المتقدم بالنظر أيضا في تحديد العلوم على الوجه المناسب لموضوع المدرسة ومدة الدراسة وعدد الدروس في كل علم وما يبقى من العلوم وما يحذف لكان ذلك خيرا ومفيدا للعلم والتعليم

يدخل في باب التطبيق وجودته صناعة الإنشاء وحيث اني كنت ممتحنا فيه هذا العام أيضا فاني أقدم هذه الملاحظة بمثابة تقرير مني على انفراده في امتحان الانشاء

رأيت السنة كلها وعدد طلابها (٥٦) نفسا لم يحز ولا واحد منهم الدرجة العليا ولم ينل القريب منها إلا عدد قليل اما الباقون فمنهم كثير أخذ نصف الدرجات المقررة وهذا فيه مافيه على ما قلناه ومنهم من زاد عليه زيادات تتردد بين (٢٦) و (٣٩) وقد قال لي الشيخ أحمد السكندري مدرس هذا الفن (وهو الذي كان يقرأ لي ما كتبوه) ان هذه الفرقة كلها كانت عندي في طول السنة متوسطة لا عالية وقوله

هذا هو قول العارف المدرس ولا يؤخذ عليه انه هو المدرس لهذا الفن وربما قاله حتى لا يلحقه تقصهم لأن الرجل معروف بالعمل و بالصدق في الاقوال وانى موافق على قوله هذا وأقرر ان هذه السنة في الانشاء أقل من سابقاتها ولايمكنني ان انسب ضعفهم الى صعوبة موضوع الإنشاء فانني سألتهم سؤالا يكون كل منهم معه حرا في اختيار الموضوع الذي يجيد الكتابة فيه وكان عندهم من الوقت ساعتان ومضمون السؤال ان كل طالب يختار فضيلة من الفضائل ويحث على العمل بها قوما مخصوصين فكان مقتضى هذه الحرية ان تجيء كتابة كل منهم في غاية الاجادة ولا يكون هذا الا إذا كانوا يحسنون صناعة الانشاء

(ه) يستخلص مما تقدم ان هذه المدرسة يجب ان يكون لها مقام مخصوص بين المدارس العالية لان الغرض منها كما هو ظاهر من نص المادة الأولى من قانونها هو تخريج معلمين مصريين للغة العربية وكل ما يدرس بها في المدارس التابعة لنظارة المعارف العمومية وهذا الغرض هو أعظم غرض تتوجه اليه فكرة من يريد اصلاح التعليم ولا فائدة أكبر من إيجاد هؤلاء المعلمين ايجادا حقيقيا وهو لا يكون الا باصلاح النظام الذي يتخرج بمقتضاه أولئك المعلمون فاننا في غاية الاحتياج الى كونهم من النوابغ لا ان يكونوا كثيرين فيجب انتقاء الطلاب وانتقاء الاساتذة لهم وإيجاد المناسبة بين علومها و زمانها وهذه المدرسة لا تقل في الاهمية عن أختها شقيقتها مدرسة القضاء الشرعي وزمان الدراسة في هذه الاخيرة هو تسع سنوات فليس من ضرر ان تجعل مدة الدراسة في مدرسة المعلمين ست سنوات وبهذا ننصف إحدى الشقيقتين نوعا ان لم نتمكن من انصافها بالتمام

(و) هذه الملاحظات لا تنافي اننا نذكر لهذه المدرسة حسناتها السابقة من يوم نشأتها الى الآن وانها أفادت البلاد والتعليم واللغة العربية بما لا يحصى من الفوائد فانني شغوف بتقدم هذه المدرسة أكثر مما هي عليه وحصولها على درجة تجعلها في أعين القائمين بأمر التعليم في المقام الاول من الاعتبار ولا تمنعنا هذه الملاحظات ايضا من ان نذكر المدرسة في هذه السنة بالنتيجة الحسنة التي حصلت عليها في هذا الامتحان الأخير وهي انه لم يسقط من السنة الرابعة سوى تسعة من (٥٦)

فيكون النجاح باعتبار (٨٤) في المائة تقريبا وان سبب سقوطهم كان علم الرياضة فقط في سبعة منهم وعلم الرياضة مع نقص في بعض متوسطات المجموعات في الاثنين وان الساقطين في السنة الثالثة خمسة فقط والساقطين في الثانية ستة فقط ولم يسقط في السنة الاولى ولا واحد ولم يسقط في التحضيرية سوى واحد وقد ذكر حضرات الممتحنين في تقاريرهم شهادات طيبة وذكروا معاذير فيما وجدوا من بعض التقصير فنسبوا ما يوجد منه لضيق الزمن في الغالب وللامتحان في شيء قدتركوه زمنا طويلا وهذه ملخصات تقارير حضراتهم أذكرها بغاية الإيجاز مع إلفات النظر الى ماجاء في كل منها من التفصيل ولي أمل شديد في ان سعادة ناظر المعارف الذي عود المصلحة العمومية عنايته بها يعير هذه الملاحظات جانبا من التفاته فتتجه المدرسة الى الكمال الأكمل المطلوب لها مني ومن أمثالي وفقه الله لخير البلاد والعباد

وهذه هي نموذجات التقارير

(تقرير حضرة الاستاذ الشيخ حمزه فتح الله ممتحن النحو والصرف في السنة الرابعة تحريريا وشفهيا وتحريريا في علم المعاني وفي جميع علوم البلاغة للثانية والعروض والقافية للسنتين الثالثة والاولى) قال — «انهم احسنوا فيما عدا النحو والصرف كل الاحسان ولا اتم منهم الا وضع الهمزات على ألفات الوصل — وقال — انهم أجادوا في استحضار القواعد وجمع شتيتها والتعبير عنها بعبارات سلسة والتمثيل بدون تقيد بما في الكتب واستحضار الشواهد ثم سرد نموذجا من هفواتهم في علم النحو والصرف ورسم الحروف واستنتج ان حالة الجميع حسنة وقال انه يعوزهم في علمي النحو والصرف زيادة العناية بالتمرين العملي واثنى عليهم جميعا فيما يتعلق بعلوم البلاغة والعروض

(تقرير حضرة الشيخ النواميسي ممتحن السنة الرابعة في المنطق والسنة الثالثة في الفقه والاصول) قال: النتيجة في هذا العام حسنة وان كان يوجد تقصير من بعضهم في الاجابة خصوصا في علم الاصول فربما كان ذلك ناشئا من كثرة المواد التي تظهر انها عبء — الى آخر ماقاله ولفت النظر اليه

(تقرير ذهني باشا ممتحن الرياضة والهيئة مع جناب المستر تويدي) قال: امتحنت

التلامذة في مسائل موافقة للبروجرام ، وبين الناجحين في كل واحد من الحساب والجبر والهندسة على حدته والناجحين في الكل على العموم ومدح الطلبة على ساوكهم في الامتحان والنتيجة هي ما قلنا سابقا من ان الساقطين في الرياضة تسعة

(تقرير حضرة الشيخ الطوخي في التوحيد والتفسير والحديث) قال: أنجاسر على الاستلفات الى كثرة المقررات في العلوم بجداول التدريس وصعوبة بعض الكتب المقررة لتدريس بعض علوم المجموعة الشرعية وعدم كفاية الزمن المحدود لتدريسها. ويظهر من بين السطور في تقريره ان الطلبة كانوا يعجزون عن النجاح لولا مجهوداتهم فأوجه نظر سعادتكم الى ما يريده الشيخ الطوخي

(تقارير التربية العلمية والعملية) تشير الى ان الحال محتاج الى تحسين وطلب الشيخ شريف زيادة علم النفس في المدرسة حتى يكمل نظام التربية العملي وانا لا اوافقه عليه لاعتبارات كثيرة اهمها قلة عدد الراسخين في هذا العلم الذين ينتفع منهم فيه

(تقريرا علي بك بهجت في التاريخ والجغرافية) مدح التلامذة في انهم اقلعوا عن عادة الكتابة من المحفوظات ومدحهم على ما حصلوه ومدح اساتذتهم على ما علموه واشار الى ان زميله يريد إلفات نظر المدرس للجغرافية الى العناية بالرسم

(تقرير جعفر بك في الخط) قال ان الطلبة ينقصهم كثرة التمرين خارجا عن النموذجات التي تمرنوا فيها

(تقرير ممتحن العلوم الطبيعية) قال ان اجابات الطلبة كانت جيدة في العلوم الطبيعية واحسن منها في الكيمياء فانهم لم يعرفوا ما هي الكهربائية الديناميكيه واقترح تنقيح البرنامج الحالي وجعله ارقى مما هو عليه الآن

(تقرير ممتحن فن الرسم) قال ان (١٢ ونصف) تحصلوا على (٧٠) في المائة من الدرجة النهائية وقال ان عدد الفرقة كان كثيرا بالنسبة لموضوع الرسم على تختة التباشير وطلب تخصيص ساعتين في الاسبوع للرسم لان زمنه الحالي قليل

(تقرير معلم الجباز) قال ان النتيجة مرضيه واثنى على نشاط الطلبة وعلمهم بما يلقى عليهم من التعاليم

باب المناظرة والمراسلة

﴿ رد الشبهات على النسخ وكون السنة من الدين – لليافعي ﴾

٦

بقية بحث احاديث الآحاد وكونها من اصول الدين

قال في الأحاديث ماخلاصته: انه لا يبعد ان يكون بعضها موضوعا وان ما غلب على الظن ان يكون له أصل صحيح كان شريعة خاصة بأحوال خاصة وظروف مخصوصة في مبدإ الاسلام — إلى قوله — وما جاء في القرآن هو الشرع العام لكل زمان ومكان ولذلك لم يأت أمثال هـذه المسائل الخاصة فيه ثم قال ونهى رسول الله (ص) المسلمين عن تدوينها كي لا تكون خالدة بينهم كالقرآن الشريف — إلى قوله — لم يحسن المسلمون الجمع بين هذه الاحاديث وبين نصوص الكتاب العزيز

وأقول ان ما كان موضوعا فقد بينه النقاد بدور العلم ونجوم الهدى (رح) ومن سلك الطرق المؤدية عرفه والصحيح قد بينوه على اختلاف مراتبه وهو كثير وشريعة الله ودينه هو ما في الكتاب والسنة النبوية — والعجب ان الدكتور الفاضل قد ذكر في رسالته هذه ان في الكتاب كثيراً من الاحكام الخاصة ثم هو ينكرها هاهنا ونحن نعلم ان فيه المخصوص والمقيد والمجمل والمبين. والأحاديث وان كان قد يوجد فيها بعض ذلك الا ان ما فيهـا من ذلك هو أقل مما في القرآن. ونهيه (ص) عن تدوينها قد قدمنا الكلام عليه والمسلمون قد أحسنوا التوفيق بين الاحاديث وآيات الكتاب وما اعترض به حضرته قد عرفت الجواب عنه

أما قوله واني لأعجب من أهل الحديث وقوله فكأنه يجب على كل مسلم بمجرد ما يسمع أقوالا منسوبة الى الرسول (ص) ان يفني حياته في معرفة أحوال رجالها

والوقوف على أمورهم إلى قوله فأيّ حرج في الدين أكبر من هذا وخصوصا كلما طال العهد الى آخره

وأقول الأمر أيسر وأسهل مما ظن الفاضل — فالمتأهل للنظر قد سهل الله له الأمر بما قد صنفه العلماء من الاصول وما جمعوه من الصحاح التي قد هذبت ونقيت وقربت واختصرت على ان الجد والاجتهاد في تحصيلها هو من أفضل الطاعات وأولى ما انفقت له نفائس الاوقات «ما عندكم ينفد وما عند الله باق» فسد الزمان وتركت الاديان والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله فلتكن منكم أمة يدعون الى الخير. اما العوام فلا حرج عليهم ولا تضييق — وقد قال تعالى «فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون» — أي اسألوهم عن دين الله لا عن آرائهم المخالفة له فمن أجاب بغير ما شرعه الله أو بما يخالف ما شرعه فليس هو من أهل الذكر الذين أحال الله عباده إلى سؤالهم بل هو من أهل الرأي المذموم ولا ندري ما مراد الفاضل بهذا والله المستعان

قال حضرة الفاضل حفظه الله في الكلمة السابعة من رسالته — السنة في اللغة وفي اصطلاح السلف هي الخطة والطريقة المتبعة الى ان قال وهناك فرق عظيم بين لفظ السنة ولفظ الاحاديث ويجب على كل باحث ان يدرس هذا الفرق جيدا حتى لا يقع في الخلط والخبط — وقال اما تسمية الاحاديث مطلقا بالسنة فهي من اصطلاح المتأخرين الى ان قال — والسنة لا تكون إلا عملية — وأقول ان الله قد أمر باتباع رسوله (ص) ولا شك ان الاتباع يدل على امتثال أمره فيما قال (ص) ونحن لا ننكر ان الاتباع لغة يكون في الفعل أكثر منه في القول — أما كون ذلك هو العرف الشرعي فلا نسلمه وإذا كانت السنة هي الخطة والطريقة كما قال حضرته فلا شك ان الخطة يكون أصلها القول — والطريق والطريقة والسبيل معناها واحد — وقد قال تعالى «قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني» والدعاء قول وقد سماه سبيلا — والفاروق الخليفة الثاني (رض) قال أصبح أهل الرأي أعداء السنن أعيتهم الأحاديث ان يعوها وتفلتت منهم ان يردوها فاستبقوا الرأي — وفي رواية واستحيوا حين يسألون ان يقولوا لا نعلم

فعارضوا برأيهم فاياكم واياهم . وفي رواية أخرى اياكم وأصحاب الرأي فانهم أعداء السنن أعيتهم الاحاديث ان يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا — قلت وهذه الآثار سواء كانت موقوفة حقيقة أو قد سمعها من رسول الله (ص) فانه رضي الله عنه قد سمى الاحاديث سننا وبذلك يظهر ان تسمية الاحاديث سننا ليس هو اصطلاح متأخر وقد روي وصح عن غيره نحو ذلك وهو كثير — على انا نقول أيضا ان الله كما أمر باتباعه في سننه (ص) كذلك قد أمر ورغب وأكد بطاعته — والطاعة انما تكون في أمره القولي حقيقة وقد ذكرنا ذلك وما يقاربه ويضارعه بما لا مزيد عليه في رسالتنا السابقة

قال ولو كانت واجبة الاتباع لعلمها الناس جميعا في عصره (ص) وجروا عليها في أعمالهم — وقال وهذا أدل دليل على انها لم تكن دينا عاما لجميع البشر الى آخره . وأقول لا يلزم ذلك لان جميعهم لم يعلموا القرآن أيضا ولم يجروا في فهمه على طريقة واحدة في كل مسئلة مسئلة و واقعة واقعة وهذا الخليفة عمر (رض) من كبارهم قد خفي عليه أمر الصداق وهو موجود في القرآن فلما قرأت عليه الا مرأة قوله تعالى «وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا» قال «رجل أخطأ وامرأة أصابت» . فاشتراط استوائهم في العلم والعمل واتفاقهم على جميع الاحكام شرط لغو لم يقل به أحد من المسلمين كلهم ولم يكن لحضرة الدكتور حفظه الله فيه سلف لا في العمل ولا العلم بالقرآن ولا في السنة — واذا كان الامر في القرآن كما عرفت وقد امتاز بانه كلام الرب بلفظه وهم مأمورون بتبليغ لفظه للاعجاز ومتعبدون بتلاوته في الصلاة ونحوها والنبي (ص) كان يقرأه عليهم في الصلوات الجهرية ونحوها وهم كذلك . كل ذلك وهم لم يتفقوا على جميع احكامه ولا على العمل بجميعها كما عرفت فكيف يصح ان يشترط ذلك في الحديث وهو انما هو في المرتبة الثانية ؟ أفليس من الجائز ان يقول (ص) قولا ويحدّث بحديث أو يحكم بحكم فلا يسمعه ولا يحضره الا بعضهم فيخفى على الآخرين ؟ على ان بعض الاحاديث قد عمل بها واتفق عليها أهل الحل والعقد منهم (رض) وقد حدثت أمور ووقائع فرجعوا فيها الى العمل بالحديث واذا صح عندهم الحديث فلم يكونوا يتأخرون عن العمل به — وأيضا أقول بلا مجازفة قلّ

ان يوجد حديث يصلح للاحتجاج به الا وقد عمل به منهم عدد — ومن لم يعمل به فنحن نعلم ونقطع بانه لم يبلغه أو لم يصح عنده وذلك بديهي مدة عملهم فلا إيراد ولا شبهة فيتأمل فيما قدمناه من الحجج والله أعلم

فالاحاديث الصحيحة قد جرى عليها العمل بلا انقطاع الى يومنا هذا — اما الخلاف في الدلالات والترجيح وتقديم بعض الادلة على بعض في موارد الخلاف والتعارض فهو واقع في القرآن والحديث يعرف ذلك من اختبره وعليه فلا يصلح ذلك دليلا على ان الشرع موقت بزمان دون زمان وحال دون حال

ونحن قد قلنا في رسالتنا السابقة ان جميع الاحاديث المتفق على صحتها او التي صححها او احتج بها اهل الكتب المشهورة قد تلقتها الامة بالقبول فلا نعيد الكلام خوف الاطالة

قال الفاضل حفظه الله في الكلمة الثامنة من رسالته

(١) قال الامام احمد بن حنبل (رح) ما معناه ان الاحاديث الواردة في تفسير عبارات القرآن الشريف لا أصل لها — واقول اولا ان الدكتور الفاضل اذا أخذ هذه المقالة عن الامام احمد (رح) وضم اليها ان جميع السنن لا تقبل ولا يجب العمل بها فماذا يبقى بين ايدي المسلمين من بيان الدين ومجملات القرآن . وعليه فلا يبقى الا العمل بالرأي وقد عرفت ما فيه — (أتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير) قلت والذين عرفوا الامام احمد واقواله انما حملوا قوله على انه لم يصح عنده في ذلك شيء مرفوع لأن عامة ما يروى انما هي المراسيل — وقد قال غيره من الأئمة ان حكم اكثر الموقوفات في ذلك الرفع وعدم علمه لا ينفي ان يكون هناك شيء كثير مرفوع لم يبلغه — على انه قد نقل عنه في الاتقان انه قال اي الامام احمد بمصر صحيفة في التفسير رواها علي ابن ابي طلحة لو رحل رجل فيها الى مصر قاصدا ما كان كثيرا

وما قاله الامام احمد (رح) لا يفيد الدكتور الفاضل شيئا — وفرق بين ما ذهب اليه الدكتور الفاضل وما يدل عليه قول الامام احمد رحمه الله أمين ولو أردنا ان نورد عن الامام ما قال في وجوب اتباع الاحاديث لاستدعى ذلك مجلدا كبيرا وكذلك

الامام الشافعي (رح) كلاهما على نقيض مذهب الفاضل الدكتور — وقول الامام الشافعي (رح) في النسخ انما هو من نوع الكلام فيما اذا تعارضت الادلة

أما ما نقل عن أهل الظاهر فليس كما قال ولم نر من نقل عنهم عدم وجوب العمل بها كيف ومذهبهم انما اشتهر بالعمل بالقرآن والحديث فقط ولذا يقال لهم أهل الظاهر . انما ينقل عن بعضهم انه منع تخصيص الكتاب بالكتاب وهو مبني على اصطلاح متأخر اعتمدوه والحق خلافه . نعم نقل عن امامهم داود (رح) ان المتواتر من السنة يعارض الكتاب ولا يخصص احدهما الآخر أي فهو يتوقف حتى يعلم التاريخ وحينئذ يكون ذلك عنده من مسائل النسخ لا التخصيص واما آحاد السنة الصحاح فلا نعرف لهم خلافا منقولا نقلا موثقا انهم منعوا تخصيصها للقرآن . و بذلك تعرف ان قولهم انما هو مخالف ومناقض لمذهب الاخ الفاضل الدكتور حفظه الله

قال قال جمهور الاصوليين انها ظنية — واقول قد قدمنا الكلام على ذلك وان الحق غير ذلك على انهم مجمعون على وجوب اتباعها

قال وقال جمهور المسلمين انه لا يجوز الأخذ بها في العقائد . واقول كونهم الجمهور غير مسلم . بل الجمهور من عهد رسول الله (ص) الى يومنا هذا على خلاف ذلك على انه لا يجب علينا ان نعتمد ونتدين باقوال الرجال الا اذا وافقت الصواب من السنة والكتاب

قال قال كثير من الائمة كالقاضي عياض انه لا يجب الاخذ بها في المسائل الدنيوية المحضة — وأقول قد سبقهم الى ذلك سيد المرسلين (ص) فيما صح عنه لكنه لا يدل على ما زعمه حضرة الفاضل ولا يؤيد مذهبه

قال وقال جميع المحدثين ان الموضوع منها كثير وتمييزه عسير جدا وفي بعض الاحوال مستحيل — قلت اما ان أحداً منهم قال ان تمييزه مستحيل فغير مسلم واما الكثرة فلا بأس وهم قد ميزوا ذلك وظهر امر الله

واما ما نقل عن الامام ابي حنيفة فان صح ذلك كان بحسب اطلاعه لا انه في نفس الامر كذلك وامام الاحناف رحمه الله قد استفاض عنه وجوب تقديم الحديث الضعيف على الرأي فهو وأتباعه الصادقون على نقيض ما يذهب اليه الفاضل الدكتور

وما نقل عن الامام مالك (رح) فليس مما نحن بصدده وانما هو من باب ترجيح احد الدليلين اذا تعارضا وهو لا يدل على ما ذهب الفاضل الدكتور حتى ولا من باب الاشارة ومذهب الامام مالك (رح) معروف في ايجاب العمل بالاحاديث الصحاح

قال اجمع المسلمون على عدم تكفير من انكر أي حديث منها . قلت ان من أنكر ذلك لانه لم يصح لديه فالامر كذلك ونحن نقول بذلك وأما من رد ما عرف ان النبي (ص) قاله بلا مسوغ فهو كافر برسالة محمد (ص)

وقوله ان تناقضها كثير الى آخره جوابه ان ذلك انما هو في نظر بعض الناس ودعوى الكثرة والاستحالة في التوفيق غير مسلم ـ وقوله قام الدليل الحسي الى آخره جوابه اننا لا نسلم ذلك . وقوله لم يجمعها الصحابة الخ قدمنا الكلام عليه

قال لم يبلغوها الى الامم بالتواتر ـ أقول ذلك غير لازم وهو لا يضرنا والشيء لا يكون متواترا الا اذا تواتر بل قصد وتواطى وانما يكون متواترا بالاتفاق (كذا)

قال انهم نهوا عن كتابتها وأحرقوا ما كتبوه منها ـ وأقول قدمنا الكلام على الكتابة وأما الاحراق فهو لم يكن لاحاديث النبي (ص) ـ وعلى المدعي البيان بما يعين ويدل على مراده

قال قد نهى بعضهم عن التحديث وكرهه ـ أقول ان صح ذلك فانما هو عن بعضهم وسببه كما قال خوف الغلط على رسول الله (ص) فيقع المكثر في الكذب على رسول الله (ص) على ان من يقال انه كره ذلك هو نفسه قد حدث عن رسول الله (ص) بأحاديث كثيرة واذا كان مراده أن الذي كره ذلك عمر (رض) فقد روى عنه الجم الغفير أحاديث كثيرة وقد قدمنا بعض قوله في الاحاديث وان غيره فعليه بيانه على ان كراهة الاكثار من التحديث لون وما ذهب اليه الدكتور الفاضل لون آخر فلا حجة له في ذلك فتأمل

قال كان افاضلهم أقل الناس حديثا الخ وأقول ذلك غير مسلم على ان التحديث القليل الذي يسلمه هو حجة عليه ينقض مذهبه ونحن نقول ان عدم الاكثار له أسباب كثيرة ليس هذا موضع بسطها

قال من كان من الصحابة (رض) كثير الحديث ملوه وزجروه كما فعل عمر

(رض) بأبي هريرة (رض) وأقول أبو هريرة من الثقات ومن الصحابة الكرام ـ وكلام عمر له أسباب غير ما يريده الدكتور الفاضل وقد عرفت بعض كلام عمر «رض» وهو من اكثر الصحابة أمرا باتباع الحديث والسنة وقد حدث عن رسول الله «ص» بأحاديث كثيرة

قال ان ائمة المسلمين لم يتفقوا على الصحيح منها . قلت بل قل اتفقوا على كثير من ذلك وهذا ان صح ان يقال فانما كان قبل ان تدون أما بعد ان صنفت ودونت فقد اتفق الحفاظ والائمة المتأخرون على قبول تصحيح ما وسم بالصحة في الكتب المشهورة وما بقي فيه بعض اختلاف فهو طفيف يمكن المنصف تمييزه

قال لم يعتن المسلمون بحفظها كما حفظوا القرآن أقول لا يلزم ذلك ولا يضرنا ونحن لم نقل انه يلزم لها في الحفظ اللفظي ما يلزم ويجب للقرآن على انه قد اعتنى بحفظها كثير من الائمة والقادة وأهل القرائح الوقادة الذائدون عن الدين كما اخبر بهم سيد المرسلين «ص» فجزاهم الله عن هذه الامة خير الجزاء ورحمهم الله ورضي عنهم وارضاهم آمين وصلى الله وسلم على رسله الامين الى يوم الدين

* * *

هذا جواب ما كتبه الدكتور الفاضل بغاية الاختصار وأنا ارجو حضرة شيخ الاسلام أن يطبع ذلك في المنار الاغر ولو دفعات متفرقة فانه قد رغب فيه كثير من قراء المنار ومن ينظره بين الاعتبار ـ وألتمس من حضرته ان يصلح ما فيه من الخطإ والزلل لأني كتبته بعجلة بعد ان كنت أردت الاعراض عن الجواب ولكن ارضاء لله ورسوله «ص» ثم للإخوان الكرام الذين رغبوا في ذلك كتبت ذلك او تجالا وألتمس من حضرة شيخ الاسلام أن يذكر ملخص رأيه وكذلك ألتمس من علماء الاسلام حفظهم الله وايدبهم الدين ان يتكلموا ولو بالتصويب والتخطئة فان الزمان كما ترون أهله أول ما يبادرون الى حب الخلاف ولو لأضعف الشبهات فنسأل الله العافية في الدين والدنيا والآخرة وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على رسوله وآله الى يوم الدين

قال ذلك بفمه وكتبه بقلمه

الحقير صالح بن علي بن ناصر اليافعي

(المنار) انا نشكر لصديقنا الاستاذ اليافعي غيرته على السنة السنية وعنايته بالدفاع عنها في هذا الزمن الذي عاد الاسلام فيه غريبا كما بدا ونسأل الله تعالى ان يجعلنا وإياه من الغرباء الذين يظهرون السنن كما ورد في بعض روايات الحديث . ثم نشكر له حسن ظنه بنا ومنه أمره إيانا بإصلاح ما عساه يوجد في كلامه من خطا وزلل وإطراؤه إيانا بالالقاب والنعوت التي لا نستحقها

اما رأينا في المسائل التي جرت المناظرة فيها بينه وبين صديقنا الدكتور محمد توفيق افندي صدقي فلا نرى ان نبحث في جزئياتها بالتفصيل لما في ذلك من التطويل الذي يمله القراء ويعسر على أكثرهم ضبطه وربطه بأصله ومن كان مستقل الفهم غير مقلد في العلم قلما يوافق رأيه رأي واحد من المختلفين اوالمتناظرين في مثل هذه المسائل بل يرى أن كل واحد أخطأ في بعض المسائل وأصاب في بعضها وهذا هو رأينا في جزئيات كلام صديقينا المتناظرين ،

وأما المسائل الثلاث الكلية التي هي أقطاب هذه المناظرة — وهي مسألة النسخ ومسألة العمل بالأحاديث وإفادة أخبار الآحاد العلم أو الظن — فسنقول فيها قولا مختصرا مفيدا ان شاء الله تعالى ونرجو ان يكون ذلك في الجزء السابع

باب الانتقاد على المنار

﴿ ايضاح وانتقاد ﴾

جاءتنا هذه الرسالة من صاحب الامضاء فننشرها ونجيب عنها وهي :

العلامة المفضال السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر

(١ — تحية وسلاما) وبعد فيظهر ان المنار في جوابه على سؤالي الانتقادي المدرج في صحيفة (١٨٩ ج ٣ م ١٢) لم يتمكن في معرفة قصدي من الانتقاد أو السؤال وأنا بغاية الايجاز اعيد عليه تفصيل مقصدي وما انتقده عليه .

لا يخفى ان كل انسان يهمه مستقبله وان شئت قل تهمه الآخرة أكثر من

الدنيا ولا يمكننا ان نجد واحدا مهما كان دينه يقول انه يريد لنفسه الشقاء اذا فهمنا هذا فالاستاذ يعلم ان جمهور المسلمين ومنهم المرحوم ابن تيمية الذي تنطق آراؤكم على آرائه يقولون إن الله تعالى قبل ان يوجد الخلق قد قسمهم قسمين . فريق للجنة وفريق للسعير وإن شئت قل فريق للهناء وفريق للشقاء .. أما هذه العلة المدهشة في مثل هذا التعميم فهي غير معلومة للمنار أو لابن تيمية الذي يقول :

واصل ضلال الخلق من كل فرقة   هو الخوض في فعل الاله بعلة

نترك ذلك ونؤمن معكم بهذا التقسيم الذي عمل قبل وجود الخلق موقتا (وان كنا نعتقد بفساده) ونتأمل لماذا؟ يتبع ذلك من النتائج في الحياة الحاضرة والعمل الانساني ... هل الاسباب الدنيوية الموصلة الى النتائج الأخروية تعتبر علة لهذه النتائج ؟ ام النتائج الاخروية المقررة نفسها علة للاسباب الدنيوية ؟ ... أقصد اذا كان رجل كتبت له السعادة في الآخرة عند الخالق .. هل يوفقه الله تعالى لاسباب السعادة في هذه الحياة حتى ينيله في الآخرة ما قد تخصص اليه «؟» من قبل ليكون كما هو «؟» سعيدا ؟ .. أما جواب ابن تيمية وان شئت قل جوابكم ايضا ان العلة في ان يتوفق «؟» لاسباب السعادة هو كونه مكتوبا سعيدا من قبل أي ان النتيجة كانت علة للسبب وليس العكس كما يقول ابن تيميه

فمن كان من أهل السعادة أثرت   اوامره فيه بتيسير صنعة

ومن كان من اهل السعادة لم ينل   بامر ولا نهي بتقدير شقوة

ومختصر المعنى ان المكتوب سعيدا عند الله قبل ان يخلق يتأثر بطبيعته باوامر الله فيتبعها ليكون كما لابد أن يكون .. والمكتوب من قبل للشقاء «؟» لا تفيده المواعظ ولا الاوامر ولا النواهي بل يسير بطبيعته الى حيث يتوصل الى قسمته القديمة ايضا . اذا علم المنار كل ما تقدم ووافق عليه فانا من جهه أخرى اقول له لا يهمني الآن فرقة القدرية ولا فرقة الجبرية الذين يقولون ان الانسان كالريشة في الهباء كما اني لا انكر ان القرآن الحكيم امر بالعمل والنظر في الاسباب ونظام الكون الخ

وكل الكلام الحلو الجميل الذي ذكره المنار في تفسير معنى القدر وما ذكره

في (٨ ـ حكم الاسلام في عمل الانسان) مسلم به بل القرآن ماهوا كثر واحكم وامتن

(٢ ـ العقيدة) العقيدة من حيث هي إما تكون فاسدة فتضر .. وإما ان تكون صحيحة فتنفع والقرآن الحكيم أول الكتب السماوية الذي طلب تحكيم العقل في كل عقيدة وفند كثيراً من المعتقدات الفاسدة . فكيف واني اعتقد جازما ان تقسيم الخلق على الشكل السالف من أول العقائد الفاسدة بل المضرة المهلكة ايضا . ولا يخافن المنار من ادعائي هذا بلا برهان . فاني اجيبه عند السؤال بشرط ان لا اتعدى القرآن والعقل . فلنترك ذلك ايضا موقتا

(٣ ـ اعتقاد المسلم في دينه) ماذا يعتقد المسلم في دينه من حيث كونه مسلما آمن بالله وحده و باليوم الآخر ؟ . لا شك انه افضل الاديان . بل ايد القرآن ان من لم يكن في بواطنه «؟» مخلصا وخارجا عن مبادىء الاسلام كانت له النار حتما كالآية « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » فضف اعتقاد المسلم هذا بأن له الجنة وحده وان غيره له النار للاسباب المتقدمة الى الاعتقاد السالف بان الله تعالى قسم الناس قسمين قسم للجنة وقسم للنار بلا علة تجد منها «؟» ان المسلم هو الوحيد الذي كتب الله له الجنة من الازل وغيره له النار من الازل . وان المسلم موفق من الله باعماله الى السنن التي تؤول به الى الجنة وغيره الى السنن التي تؤدي الى ضدها او الى الشقاء

(٤ ـ الكلام بحسب الواقع) ان بكلامي هذا للمنار اتكلم بالاغلبية العظمى «؟؟» الظاهرة عند المسلمين وما عليه اجماع حال الامة الباطني الحقيقي . فان المتنورين النوادر الذين يمكنهم ان يحولوا المعاني بسحر بيانهم وقوة عارضتهم لتحليل «؟» أي فرض عسر حله مثل صاحب المنار هم قليلون . وقد تواجد(؟) مثل الشيخ محمد عبده (رحمه الله) وصاحب المنار مثل الغزالي وابن خلدون ممن ملؤا الدنيا بفصاحتهم وقوة بيانهم مالا يطلب بعده المزيد . ولكن كل ذلك ما كان يفيد تقريبا . ولا قدم شيئاً للامة محسوسا ولا وضع الامة في صفها الحقيقي كما طلب الغزالي و يطلب صاحب المنار . ولم تزل ساقطة كما كانت تقريبا «؟» لو اردنا ان نفصل بينها و بين غيرها نسبة . وغرضي ان تتوصلوا لتأصل «؟» هذا الداء الذي هو اصل البلاء حتى يكون اصلاحكم المنشود

للامة فعال موثر «؟» لا يزول . وليس كمن يكتب على الماء . لماذا ؟ . لانه اذا كانت الغاية النهائية التي يطلبها الانسان والتي هي نهاية آماله ثابتة لا تتغير ولا تتبدل . فالواسطة ان حسنت او ساءت لا تهم كثيرا ما دامت الغاية الابدية المعول عليها مقررة ومعلومة .

(٥ ـ مثال عن حال تقسيم الناس في اعتقاد اغلب المسلمين) اسمع مني تكرما ياصاحب المنار مثلا : رجلان وقفا امام ادارة المنار احدهما يسمى مسلما والثاني غير مسلم والاول اعلن «؟» من ادارة المنار انها ستحمله الى حديقة الازبكية ليتمتع بما فيها من الجنات والمسرات . والثاني اعلنته انه سيكون خارجها محروما من كل شيء ولكن اخبرتهما معا في آن واحد ان الطريق ما بين ادارة المنار والحديقة مملوء بأنواع المسرات وهو لهما معا فمن سار بقدميه وتأمل بعقله ولسنن الكون (؟) والنظامات الآلهية الى ما في الطريق (؟) تمتع .. وتنعم أي تنعم ومن وقف منتظرا مركبة المنار فليس له شيء مما في الطريق مطلقا ولا يجد في المركبة غير الحرمان ... غير انه على كل حال سيصل الى مركزه المعين . الاول سيكون داخل الحديقة والثاني خارجها بلا سبب و بلا جواب ان سأل

افكر ان المنار عرف مقصدي من هذا المثال فداخل الحديقة التي عدت «؟» للمسلم هي الجنة وخارجها لغير المسلم هي النار «؟» . والطريق الموصل الى الطرفين مشترك بين الاثنين ولهما معا هي الحياة الدنيا الموجود فيها المسلم و بها معترك الحياة بين الجميع

(٦ ـ المسلمون في تمدنهم وانحطاطهم) سار بعض الامم الاسلامية في الطريق على السنن الطبيعية من غير ان ينتظروا مركبة الآخرة ليحملوا عليها الى مقرهم فتحصلوا على كل شيء في الطريق ونالوا كل شيء بكدهم وعملهم كما كان الامر في صدر الاسلام فتقدمت الامم الاسلامية وسادت في الارض فكانت سعيدة وسيدة في الدنيا غير سعادتها المضمونة لها في الآخرة حسب اعتقادها . ثم جاء قوم مسلمون آخرون منهم وقالوا مالنا ولكد الحياة . بل مالنا ولهذا المتاع الفاني فلنتزهد ونتقشف في الحياة ولا نبحث على اكثر من قوت يومنا فان يقين الايمان بالآخرة ودوام التعبد كاف لسعادة الروح بحسن المآل (ولا شك ان العقل الذي يجعل اساس السعادة

بالعقيدة من السهل عليه تجويز هذا الوهم) ولقد تابع التقاعد وعدم الاهتمام للحياة بين الامم الاسلامية حتى لو سألت بعض المتفقهين الذين تغلب أفكارهم بين اكثر الناس عن افكارمثل صاحب المنار النيرة عن سبب تقدم الامم الغير اسلامية الحالي والماضى . اجابوك هؤلاء لهم الدنيا ولهوها وزينتها والعبرة بالاواخر والحياة الابدية ولقالوا لك في آن واحدا اذا كانت توجد آيات قرآنية تدل على لزوم الاخذ بالاسباب والتأمل للنتائج الطبيعية العالمية والسنن الآلهية فان كثيرا من الآيات ما يدل على التقشف وترك الدنيا(؟) وان كان صاحب المنار له في ذلك تأويلا (؟) لا يهمهم سماعه لوجود عقيدة التقسيم المذكورة أوما يسمونه (بالقسمة)

ومن جهة أخرى إذا تأملنا لعلل تأخر المسلمين الدنيوي وانحطاطهم نجد ان الاسباب التي ارتكنوا عليها في طبيعتها فاسدة ولذا كان الانحطاط ملازما لها . . ولكن العقل المؤسس على العقيدة والمؤيد حتما لضرورة (وجود الاسباب الدنيوية للعلة الاخروية) يحتم بوقوع «؟» تلك الاسباب قبل وجودها لوجوب نتائجها ولزوم وقوعها أيضا . . فكان كلامي (في صحيفة ١٩١ ج ٣ م ١٢) عن العقل المؤسس على العقيدة ما يأتي : « وما دامت الأسباب التي هي حجة للنتائج «؟» مقدرة حتمية فالنتائج (أي الدنيوية خلاف الأخروية أيضا) بالطبع تابعة لهذا الالزام «؟» . . وعليه فالتقاضي والحساب في الآخرة ليس الا لتتميم رواية كلامية . . . واذا كان هذا مبدأ المنار فلا يلومن الأمم الاسلامية الماضية وما كانت فيه من الاضمحلال ولا داعي لاستخراج «؟» نتائج فلسفية أوعمرانية للزوم الأخذ بأسباب الترقي والهرب من القديم — ولا عيب على حكومات الاستبداد . . ولا مانع من البقاء في الجهل الخ إذ ان الداعين للزوم تغيير المناهج لتتغير معها النتائج ليسوا الا معترفين بلزوم التسلط وتحوير القدر الإلهي (؟) القابض على الاسباب (حسب وهمهم) بيد من حديد » وهناك إذا اعترفوا بذلك كانت العقيدة في التقسيم المذكور فاسدة ولا أصل لها » ويكون الحكم العقلي على كل ما يحدث جائزا فقط بحيث يمكن وقوع غيره بأسباب أخرى ولا يكون حتما مع الاسباب المذكورة التي وقع بها (؟)

(٧ — انتقاد المنار لكلامي) — لما أراد المنار ان ينتقد بعض كلامي المدرج

في السؤال وجدت انه لم يصب الغرض الذي أرمي اليه من حيث كون القرآن أو العقل والعلم يجوز امكان عدم وقوع حادث وقع فعلا أم لا . . . اما أنا فقلت بالجواز وأقول به أيضا . . . . أما المنار فأجاب عن وقوع الفعل من حيث كونه وقع فعلا فقط ولم يزد ... فترى في أول صحيفة (١٩٢ ج ٣ م ١٢) « أما قولكم في مسألة اصابة « ولي عهد ألمانيا » بذلك المرض لم تكن محتمة له من الازل الخ قول ظاهر البطلان . . لان قضية مرضه جهتها الاطلاق لوقوعها بالفعل والامكان لا يناقض الاطلاق و بعبارة عامية : انه كان لا بد من مرضه بدليل وقوعه وليكن ذلك لجهله بأسباب المرض . . . هذا ما قاله المنار والحقيقة اني لم أقصد المسئلة بذاتها من حيث كونها مطلقة ووقعت فعلا بل من حيث حكم العقل والقرآن والسنن الطبيعية في كل ما يحدث وذلك مثلا يقال : فلان سرق قرطا من الذهب وجازته الحكومة لجنايته . . . هل كان يمكنه ان لا يسرق قبل(؟) ان تقع منه السرقة فعلا . . . أما جوابي وجواب العلم والقرآن فنعم كان يمكنه ان لا يسرق وكان في الامكان تبعا لذلك عدم مجازاته . . . أما جواب المنار السالف في مسئلة ولي العهد أشبه (؟) بقوله . . نعم ما دامت وقعت السرقة فهو لا بد ان يسرق ولابد ان يقع الجزاء . . . وهذا لا يعد جوابا عن المقصود . . . مع ان ما جاوب به المنار لم تنكره بل أيدناه في نفس السؤال لانه مفهوم و بديهي لايحتاج لأن يقول عنه المنار . . ظاهر البطلان إذ قلنا كما قال المنار في (صحيفة ١٩٠ سطر ١٩) ولكن مسئلة اصابة ولي العهد بالمرض تخصصت له من الله تعالى بسبب جهله لتلك الاسباب ليس الا . . وهي نفس الجملة التي قالها المنار وهي : انه كان لا بد من مرضه بدليل وقوعه وليكن ذلك لجهله بأسباب المرض . وعليه كان انتقاد المنار لغوا وكان جوابه فقط دالا على لزوم التمسك بالعقدة بالقسمة ؟ وتخلصا مما عداها

(٨ — سبب التمهيد للاصلاح الاسلامي) — يا صاحب المنار ان كنت تريد اصلاحا فلا يجب ان يكون تقليديا فان تغلب الفكر الحالي في لزوم الأخذ بالاسباب والعمل بمقتضى السنن الطبيعية وتطابق ذلك بحسب اجتهادكم على القرآن لم يكثر ولم ينتشر الا بسبب قبوله عند بعض المسلمين مما رأوه ورأيتموه من تقدم الامم

الغربية التي اتبعت هذه السنن وصارت أحوالها أشرف وأحسن بالاجمال من حال المسلمين اليوم ـ وان الأخيرين «؟» من زمن بعيد آخذون في التدلي حتى صاروا الآن وراء جميع الامم تقريبا ـ وان المجهودات الكبيرة التي يؤديها أمثالكم كالشعرة البيضاء في الجسم الاسود بالنسبة لتعداد الأمة الاسلامية في العالم (وحاشا ان يكون ذلك داعيا لتثبيط همتكم فان الحق لا بد ان يسود مع طول الزمن) وان تلك المجهودات تصير كالهباء مع تأصل عقيدة التقسيم وان الفضل الذي يرجع اليه تيقظ المسلمين الحالي راجع الى الضغط الذي يلاقونه من غيرهم لسيادتهم عليهم اسما أو فعلا لا الى الاصلاح الديني من حيث هو فانه لا يعتبر أصلا بل يساعد على انتشاره لغرض الخلاص من سوء الحال لوقوف العقيدة امام العقول بالمرصاد «؟؟»

(٩ ـ الفرق بين المسلم وغيره) اذا كنتم تقولون ان علماء اللاهوت بحثوا كثيرا في هذا الموضوع وانهم كالمسلمين للآن في بحر عميق وان ذلك من توابع البحث في العلم والارادة وان الغربيين المسيحيين والمسلمين مشتركين «؟» في هذا الاعتقاد . قلت لكم . ان الغربيين لم يتقدموا الا من بعد ان فكوا من أعناقهم وداسوا بأرجلهم على كل عقيدة تقيد عقولهم ونظامهم الفطري الطبيعي . فهم لذلك من حيث عقيدة التقسيم السالفة التي يتبعها المسلمون بوجودها «؟» بالفرض بينهم فهي «؟» ليست أصلا لاعمالهم وابحاثهم ولا هي مرجعا «؟» لمركز الاعتقاد في سعادتهم وشقائهم في الدنيا والآخرة كما هو ظاهر في جمهورهم بخلاف المسلمين فانها ان كانت دافعة لتقدمهم سنة واحدة فانها اخرتهم وتؤخرهم سنين لماذا ؟ لان المسلمين جعلوا الاعتقاد بالقسمة أصلا لتقدمهم وتأخرهم وهم هم أنفسهم لاينكرون وجود السنن الالهية التي يجب السير عليها والتي لم يجعل الله تعالى نظام العالم بغيرها ولكنها فرعا ثانويا «؟» ممن تركه كما حصل منهم من مئات من السنين الى الآن وهم معذورون لتسلطها على قلوبهم وكان صوت المصلحين بينهم كالنافخ «؟» في الرماد

ولكن الغربي بالعكس صار ينظر بالتجارب العلمية والعقلية وبمقاومته «؟» أكثر المعتقدات الدينية الباطلة حتى وصل الى ان عمله في هذه الحياة هو أصل سعادته وشقائه هنا وهناك وكل ماعدا ذلك من المباحث القديمة ثانويا «؟» وصار يقدم نفسه وماله فداء

بارتياح لمقاومة كل مايهدم شيئا من السنن الالهية الطبيعية في العالم الموافقة للعقل والشعور الانساني وكان الاصل الاول الذي اتخذه لسعادته المحسوسة هو: «الحرية»

(١٠ ـ الخوف من التقليد مع وجود الداء) ماذكرناه الآن هو الداعي لان تقول للمنار في صحيفة (١٩٠ ج٣م١٢) (اذا كان المنار وابن تيمية والمسلمون جميعا يعتقدون ان العباد مقسومة هذا للشقاء وذاك للسعادة وان هذا الاعتقاد مستول على العقول فهمة المسلمين التي تتوجه للاصلاح والتقدم « الدنيوي » ليست الا ضربا من التقليد والتشبه للأمم الحية التي لانعرف شيئا من هذه العقيدة المقيدة للهمم والعقول «من حيث كونها ليست أصلا لسعادتهم وشقائهم لا من حيث جهلهم لها بالمرة» فتزول منهم « أي همة المسلمين » اذا زالت عنهم الاسباب الاضطرارية «مثل السيادة » الداعية لهذا التشبه لان الدين. «عند المسلمين وخصوصا الاعتقاد بالتقسيم » راسخ في الاذهان «كما هو ظاهر» من مبدإ وقتى أثره تقليدي . اللهم الا اذا ضرب صفحا عن هذه العقيدة من الدين ثم تشبعت النفوس تدريجيا بالمبادي الطبيعية « والسنن الالهية المعقولة » التي تسير مع تقدم الامم الخ فهناك يكون الاصلاح من نفسه طبيعيا لاتهدده ولا تقاومه عقيدة

(١١ ـ الاصلاح الطبيعي) غرضنا مما تقدم لزوم «؟» انكار هذا التقسيم الملازم لهذا الاعتقاد لان العقل والعلم لايقبله ثم ثبوت «؟» ان الذي يسير على السنن الالهية فانه كما يكون بها في الدنيا سعيدا فهو في الآخرة أيضا والعكس «؟» وان نوم المسلمين مع اعتقادهم ما هو مكتوب لهم بالذات ومخصصا «؟» لهم أصله باطل محض ـ مع تأييد امكان تنوع الحوادث وانها أصلا «؟» لما هو مكتوب عند الله عامة على «؟» جميع الناس سواء وليس ما هو مكتوب لكل شخص ومخصص له بالذات عند الله أصلا لما ينتابه من الحوادث المذكورة ـ لان النتيجة (الذي هو التقسيم المذكور بالعقيدة) اذا كانت لازمة من الأزل كانت أصلا للسبب «؟» ـ والسبب عندها يتحتم ويكون واجبا وقوعه عقلا ويكون مدلوله في العقل بشكل اجباري «؟» وان كانت البداهة تؤيد عدمه أومهما تنوع فهم الاجبار المذكور بشيء من دلائل الاختيار وتعريف معناه وصفته «؟» كما عرف بذلك المنار في آخر صحيفة (١٩٩ ج ٣ م١٢) فكما

ذلك لا يفيد ولا يؤثر – بل يكون من قبل مقاومة القوة بالقوة فكل منهما يلاشي الآخر وان كان لكل منهما تأثيرا «؟» في نفسه ويجب أيضا ان يكون كل حادث ممكنا فقط قبل وقوعه «؟» مع ثبوت احتمال وقوع غيره ان وقع فيتبدل التقسيم المذكور تبعا لاتباع السنن المختلفة بالحرية لا تبعا لكون التقسيم هو الذي يوجب اتباع احدى السنن المعينة التي تلازمه وتلتصق به إلصاقا وبذلك تنقلب العقيدة الى أصلها الحق الطبيعي «؟».

(١٢ – حل المسئلة) اذا كان المنار يتفضل بحل المسئلة على الوجه الذي ذكرنا أفاد الأمة كثيرا في أكبر دآءاتها (كذا) وما كان في نصائحه الفلسفية العمرانية التي يذكرها تباعا كمن يشد الحبل من طرف فتشده الأمة بقوة العقيدة المذكورة من الطرف الآخر – فهو لم يزل واقفا مع صرف كثير من المجهودات · بل ربما تدلت الامة لا سمح الله بالرغم عنه الى الوراء زيادة وكثير من المسلمين بل أغلبهم ما زال في الطرف المضاد الى الآن

اما اذا كان لابد للمنار من ان يصرح بلزوم عقيدة التقسيم المذكورة ويوافق ابن تيمية على مقاله فانا نقول له ان العقيدة المذكورة بمثل هذا التقسيم غير موجودة في القرآن بالمرة ولا يؤيدها شيء مطلقا لا العقل ولا العلم ولا الحقيقة بل انها باطلة – واذا سمح لي المنار انا العاجز بمحل على صفحاته الغراء فاني اعرض عليه ما يمكنه به حل هذه العقدة وخصوصا فيما يتعلق بالارادة والعلم وله انتقاده ما شاء فاذا حصحص الحق طلبنا منه معاونتنا على تأييده والذود عنه كما هو مبدؤه لاني لا اريد الا الاصلاح كالمنار ما استطعت وما توفيقي الا بالله العزيز الحكيم · ثم لي كلمة انتقاد على بعض ما اورده المنار في جوابه على سؤالي في صحيفة ١٨٩ ج ٣ م ١٢ اجلتها لوقت آخر حتى أرى ما سيكون عما كتبناه الآن في المنار والسلام

سواكن في ٤ يونيه سنة ١٩٠٩ كاتبه

احمد بدوي النقاش

ضابط بالجيش المصري بالسكة الحديد السودانية

﴿ جواب المنار ﴾

سبق لنا تقريظ كتاب المنتقد (احمد افندي بدوي) اشرنا فيه الى رأينا في المؤلف نفسه وهو انه مستعد للمباحث الفلسفية الدينية ولكنه لعدم تمكنه من درس الدين والتوسع في اللغة العربية التي يتوقف فهمه على اتقانها يقول فيها ما لا يكاد يفهم · وكان لنا ان لا ننشر انتقاده هذا لأنه ليس على شرطنا اذ هو مبني على ما فهمه من قصيدة لابن تيمية وعلى حكمه بأننا موافقون لابن تيمية فيه او في كل شيء – وكأنه أخذ ذلك من ثنائنا عليه – ولكننا نشرناه عناية به وحفزاً لهمته الى التدقيق في المباحث التي يدفعه اليها استعداده وقد صححنا بعض أغلاطه اللفظية البديهية وتركنا الباقي على حاله الا أننا وضعنا في جانب بعض الكلمات او الجمل علامة (؟) اشارة الى بعض تلك الأغلاط اللفظية والمعنوية وقد تكون العلامة لعدة اغلاط في الجملة كما لا يخفى على العارفين

ان كان يريد الانتقاد على في شيء رآه خطأ فكأن عليه ان يقول إن ما ذكره المنار في صفحة كذا غير صحيح بدليل كذا والحق في المسألة هو كذا مع إقامة الدليل عليه · وان كان يريد تقرير حقيقة جهلها المسلمون واخطأ فيها مثل ابن تيمية وعجز عن بيان الصواب فيها مثل الغزالي والشيخ محمد عبده واهتدى هو الى معرفتها وأوتي القدرة على بيانها فكان الواجب عليه ان يعجل بهذا البيان حرصا على هداية هذه الامة وكراهة لاستمرار ضلالها في أهم قواعد دينها ومدار سعادتها وشقائها ثم له بعد ذلك ان يبين وجوه خطأ اشهر شيوخ الاسلام فيها إن كان لا يرى أن ظهور الحق كاف لدحض الباطل · هذا هو المعقول وأما مسلكه فلم له نعقل وجها صحيحا

قرأنا مقاله المسلط فهمنا بعضه من العبارة و بعضه من القرائن ومنه جمل لم نفهمها بالمرة لان تركيبها غير صحيح. وقد علمنا منه أنه لم يفهم ما كتبناه كله وانه يبني الإيرادات والاعتراضات على شيء في مخه يعزوه تارة الى الدين وتارة الى بعض من كتبوا فيه حتى انه ينسب الى المنار ما يدعو المنار الى ضده حتى في الجواب عن اعتراضه الاول على عبارة

التفسير فهذا وما ذكرنا من ضعفه في اللغة هما سببان فيما ذكره من عدم فهمنا لغرضه من انتقاده الأول وكذا الثاني، وهما السببان في عدم فهمه هو لكلامنا السابق كله ولا ندري ماذا يكون نصيب كلامنا اللاحق من فهمه . ولو لا الضرورة لما صرحنا بهذا ولكن اردنا ان يعرفه ويفكر فيه لما سنذكره في آخر الرد

قد أحسن الكاتب في تقسيم كلامه الى مسائل معدودة بالارقام كما فعلنا في جوابه الذي نشرناه في الجزء الثالث وانا نبين ما لا نرى بدا من بيانه في كل مسألة من كلامه مشيرين اليها بالارقام ثم نقول كلمة مجملة في الموضوع

(١) قال ان جمهور المسلمين ومنهم ابن تيمية الذي تنطبق آراؤنا على آرائه يقولون ان الله تعالى قد قسم الخلق قبل إيجادهم قسمين « فريق في الجنة وفريق في السعير » وقال انه يعتقد فساد هذا التقسيم أي بطلانه وعدم صحته ثم انه يدعي مع ذلك انه يستمد عله من القرآن والعلم الصحيح!! ونقول إن القرآن هو الذي نص على هذا التقسيم في سورة الشورى قال تعالى «٤٢ : ٧ وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أمّ القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ٨ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون مالهم من ولي ولا نصير» اما قولهم ان هذا التقسيم أزلي فمعناه انه ثابت في علم الله الأزلي لا معنى له عندهم غير هذا فان كان ينكر التقسيم نفسه فذلك انكار للقرآن نفسه لا يصدر من مؤمن وان كان ينكر أزلية علم الله تعالى به وبغيره فحكمه عند المسلمين معروف أيضا . وأما قوله ان صاحب المنار وابن تيمية لا يفهمان علة هذا التقسيم فلا نجيبه عنه لأننا لانحب أن نضيع وقتنا ووقت الناس في الجدل والدفاع الشخصي فليحكم على فهمنا وفهم ابن تيمية بماشاء علم ذلك ام لم يعلمه

(٢) ليس في هذه المسألة الا تأكيد ما جاء في الأولى من جزمه بفساد عقيدة التقسيم وكونها من العقائد الضارة أي بحسب فهمه لتأثيرها في المسلمين

(٣) اعتقاد المسلم ان دينه أفضل الأديان وان له الجنة ولغيره النار الخ فيه تفصيل بيناه في التفسير مرارا لجهل عامة المغرورين له وهو ان الاسلام دين جميع الأنبياء والمرسلين وأساسه اتباع المرسلين في الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح

وان المسلم الموفق مختار في اتباعه لنبيه والكافر المخذول مختار في عصيان نبيه وان علم الله الأزلي لا ينافي هذا الاختيار لأنه سبق في علمه انه يكون كذلك وأنه مختار فيه كما بيناه في المسألة التاسعة من الفتوى الثانية عشرة وهي الجواب عن سؤال المنتقد (ص ١٩٩ ج ٣)

(٤) الكلام بحسب الواقع لا يدخل فيه المستقبل فلا يقول أحد من المسلمين العارفين بدينهم ان الغاية النهائية له أو لزيد من الناس هي كذا وانها لا تتغير ولا تتبدل بل نقول ان الغاية مجهولة لنا وانها تكون على حسب أعمالنا الاختيارية « ان خيرا فخير وإن شرا فشر » ولكنها معلومة لله تعالى فهو وحده يعلم تلك الغاية علما لا تغيير فيه ولا تبديل ، وجهل أكثر المسلمين بدينهم ليس من المشكلات التي لا تعلم ولا يعلم علاجها فعلاج الجهل هو العلم الصحيح ومنه فهم الدين على وجهه وهو ما ندعو اليه كما كان يدعو اليه الأستاذ الامام رحمه الله تعالى وليس كلامنا فيه كالنقش على الماء كما زعم بل هو كالنقش في الحجر انتفع به ألوف من الناس وانبث في المدارس الدينية والرسمية وسيعم بالتدريج بحسب سنة الله تعالى في الأمور الاجتماعية ،

(٥) ان المثال الذي ذكره في هذه المسألة قد فهمناه بالقرينة لضعف عبارته وهو غير مطابق لاعتقاد المسلمين فهو لم يعرف اعتقاد المسلمين حق المعرفة ولم يحسن بيان ما عرفه منه فان الدين الاسلامي لم يخاطب طائفة من الناس معينين بانهم سيكونون في الجنة وطائفة أخرى بأنهم سيكونون في النار وانما ناط دخول الجنة بأمور سمى مجموعها الاسلام وناط دخول النار بأمور يعبر عنها غالبا بالشرك وبالكفر وبالظلم وبالفسق ، ولما تفاخر بعض الصحابة مع بعض أهل الكتاب في ذلك أنزل الله تعالى (٤ : ١٢٣ ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يُجزَ به ولا يجدْ له من دون الله وليا ولا نصيرا ١٢٤ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) فناط أمر الغاية النهائية بالعمل لا بالانتساب الى دين كذا ونبي كذا ثم بين أن الاسلام هو روح الدين وصفوته فقال (١٢٥ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم

حنيفا) الآية ، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين نحن خير منكم ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين ابراهيم ولن يدخل الجنة الا من كان هودا . وقالت النصارى مثل ذلك ، فقال المسلمون كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم وديننا بعد دينكم وقد أمرتم ان تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم نحن على دين ابراهيم واسماعيل وإسحق ولن يدخل الجنة الا من كان على ديننا . فأنزل الله تعالى « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب » الآيات

فالأمر في الاسلام منوط بالعمل مع الايمان لا بجنسية الاسلام وغير الاسلام فما بال المنتقد ينتزع المشكلات من جهالات العامة ويحمل عليها بعض عبارات العلماء وغير العلماء من غير تمحيص ويوردها على الدين او على العلماء المخطئين او المصيبين ؟ ألا إن الداء هو جهل جماهير المسلمين بحقيقة دينهم والدواء هو التعليم الصحيح والتربية الصحيحة وهو الذي ندعو اليه

«٦» ما ذكره في المسألة السادسة غير جلي ولا مفهوم بالتفصيل من العبارة المسلطة • وما تفلسف فيه من الاسباب والنتائج لا يكاد يخطر في بال احد من المسلمين الا ان يكون بعض المولعين بالأبحاث النظرية الفلسفية في هذه المسائل وقليل ماهم ولا يحكم على الملايين بحال أفراد لا يوجد منهم واحد في كل مليون فهذه المسألة عندي من اللغو

(٧) ما قاله في جواب المنار عن مسألة الحكم على الشيء قبل وقوعه وبعد وقوعه وحادثة مرض ولي عهد المانيا عبارته مسلطة أيضا والظاهر منها انه لم يفهم ما قلناه فيها . وقد مثل لها مثلا رجلا سرق قرطا وجازته الحكومة هل كان يمكنه قبل ان تقع السرقة منه ان لا يسرق ام لا ؟ زعم ان مقتضى كلام المنار انه لم يكن يمكنه ان لا يسرق وان جوابه هو وجواب العلم والقرآن انه كان يمكنه ان لا يسرق . والحق في مثل هذه المسألة اننا اذا نظرنا الى طبيعة الرجل الذي سرق وطبيعة العمل الذي هو السرقة في المثال نرى ان العمل في ذاته من الممكنات وان الرجل كان متمكنا من فعله وتركه وان الترك هو الاصل فلا يقال انه لم يكن في إمكانه ان يترك واذا

نظرنا في ذلك باعتبار ان العمل وقع من الرجل علمنا ان وقوع السرقة منه حتم لم يكن منه بد لا باعتبار الامكان الخاص بطبيعته كما تقدم بل باعتبار الواقع ونفس الامر ، وكذلك باعتبار علم الله تعالى فانه متى وقع الشيء علمنا ان علم الله تعالى كان متعلقا بوقوعه لأن علمه تعالى يكون دائما مطابقا للواقع وإلا كان جهلا وذلك محال . فاذا لم يفهم المنتقد ما نفهمه ويفهمه جميع العقلاء من كون الواقع قد انتهى الحكم فيه وانه لا يقال فيه نفسه كان يمكن أن لا يقع لأن هذا تناقض وإنما يقال ذلك باعتبار طبيعية الامكان وصرف النظر عن كون الامر قد وقع بالفعل — اذا لم يفهم هذه الدقيقة في الفرق بين الاعتبارين تنازلنا له عنها فانها مسألة عقلية محضة لا يترتب على الخلاف فيها أمر كبير

«٨» لقد تبسمنا عند قراءة قول المنتقد « يا صاحب المنار ان كنت تريد إصلاحا فلا يجب ان يكون تقليديا » فيالله العجب من شأن الانسان أينهى صاحب المنار عن التقليد بعد ان حاربه وحارب أهله اثني عشرة سنة ! ! ومن الذي نهاه ؟ رجل يقرأ المنار ! ! أما قوله ان الأخذ بالاسباب والعمل بمقتضى السنن الطبيعية وانطباق ذلك بحسب اجتهادنا على القرآن لم يكثر ولم ينتشر عند بعض المسلمين الا بسبب ما رأوه من تقدم الأمم الغربية باتباع هذه السنن وسبب ضغط أوربا على الكثير منهم — فهو صحيح في الجملة ولا يضرنا ان تعدنا حوادث الزمان للعمل بما يرشدنا اليه القرآن وأن نفهم منه ما لم نكن نفهمه نحن ولا آباؤنا الأولون فان كلام الله تعالى بحر لا تنفد حكمه بل هي تفيض في كل عصر على المستعدين بما يناسبه (٤١:٥٢ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) على اننا لا نسلم ان المتفهمين بذلك والمقتنعين به هم الواقفون على أحوال الغربيين دون غيرهم فالحق ان الامر ليس محصورا فيهم ، ولا أنهم مقلدون فيه بل هم مستقلون ونوضح ذلك في الكلام عن المسألة التاسعة. واما قوله ان « المجهودات الكثيرة التي يؤديها أمثالنا هي كالشعرة البيضاء في الجسم الاسود » فهو غير صحيح وليس لمثله ان يحكم في ذلك وهو لم يختبر شعوب المسلمين ولا ساح في بلادهم وليس له وسائط أخرى كافية لمعرفة سير الاصلاح فيهم فالحق ان الاصلاح أوسع

انتشارا مما يظن فان كان لا يزال قليلا بالنسبة الى مجموع المسلمين فنموه في كل مكان يبشر بمستقبل حسن «وصاحب الدار أدرى» فزعمه ان تلك المساعي او المجهودات تصير كالهباء مع عقيدة التقسيم زعم باطل غير مبني على علم ولا تجربة بل التجربة قد أبطلته ،

«٩» ان ما ذكره من فك الغربيين للقيود التي تقيد عقولهم قد سبقه اليه المنار فصرح به مرات كثيرة حتى بالتعبير بلفظ كسر القيود ومن أصرحها ما كتبناه عن المؤتمر الاسلامي (ص٦٧٩م١٠) فلا حاجة بنا لاعادة قراء المنار دروسه علينا، وما ذكره عودا على بدء من التهويل في مسألة ما سماه عقيدة التقسيم قد سبق آنفا انه مخطئ فيه لأنه في مخيلته أكبر مما هو في الواقع ونفس الأمر فما هذا الإلحاح والتكرار اللهم صبرا، نعيد له القول — في مقابلة إعادته — إن ما تجعله هو الاصل في سعادة الغربيين من جعل العمل في هذه الحياة هو الموصل الى السعادة أو الى الشقاء في الدنيا والآخرة هو عين ما جاء به الاسلام والاسلام أستاذهم الأول فيه وعقيدة التقسيم التي تمثلت لك كغول يغتال المسلمين لا تعارض هذا فان القرآن صرح بهما جميعا ولكن تسرب الى دهماء المسلمين من نزغات الجبرية وكسالى المتصوفة ما كان مع الجهل بحقيقة دينهم سببا من أسباب كسلهم الذي نشكو منه وشرحناه في المنار مرارا والتربية والتعلم الصحيحان يكفلان إزالة ذلك بالتدريج — ومنه النشر في الصحف الدورية — وان يزول بغير ذلك

«١٠» ليس في هذه المسألة الا إعادة ما كرره غير مرة من استحالة الجمع بين عقيدة التقسيم وبين العمل بالمبادئ الطبيعية والسنن الإلهية ، وزعمه ان كل ما يعمله المسلمون من الاعمال الاستقلالية بدعوة المصلحين يكون مع هذه العقيدة تقليدا للغربيين وانما يخرجون به من ربقة التقليد اذا محيت عقيدة التقسيم من ألواح نفوسهم مع ان التقليد في هذه الحالة يكون أظهر لأنه محاكاة للمقلد من كل وجه ، ورأيه هذا يشعر بأنه لا يفهم معنى التقليد أو يفهمه فهما خاصا به غير ما عليه جميع العلماء ، التقليد هو ان تأخذ برأي غيرك وتحاكيه من غير دليل قام عندك على ما تأخذه عنه أو تحاكيه فيه هو الصواب ، فاذا قام الدليل الشرعي والعقلي والتجربي

عند المسلمين القائلين بعقيدة التقسيم على ان النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة انما ينالان بالعمل بمقتضى سنن الله تعالى في خليقته وشريعته وعملوا بذلك لايكونون مقلدين للإفرنج بل مستقلين وان كان من جملة دلائلهم التجريبية ان الافرنج نجحوا بذلك

«١١» عبارة هذه المسألة أشد عسلطة من سائر المسائل ليس فيما يفهم منها شيء جديد الا تفلسف وتفصيل قصد به ايضاح مراده فزاده خفاء ولو أننا حذفنا أمثال هذا لظن القارئون انه فاتهم شيء كثير

«١٢» هي المقصد وذلك انه بعد تكرار ما تقدم في المسائل السابقة مرارا طالب المنار بأحد أمرين إما ان يحل المسألة على الوجه الذي ذكره هو وإما أن يصرح بموافقة ابن تيمية على اعتقاده في مسألة التقسيم وحينئذ يقول هو لنا ان هذه العقيدة بمثل هذا التقسيم غير موجودة في القرآن بالمرة ولا يؤيدها العقل ولا العلم ولا الحقيقة وهو مستعد لبيان ذلك في المنار ان سمحت له

وأقول قد بينت هنا في كلامي على المسألة الأولى ان لهذه العقيدة أصلا في القرآن وذكرت آية سورة الشورى الناطقة بها وسأذكر آيات أخرى ، ولست قادرا على تصور فهمه للمسألة ولا فهم وجه الاشكال الذي كانت به أقتل أدواء المسلمين عنده، فأحل له ما أحكم من العقد في خياله كما انني لست مكلفا تفصيل قول ابن تيمية فيها ولاسبق لي ان ذكرته وايدته وإنما ألصقه بي تمهيدا لما يريد التفرد به من بيان فساد اعتقادي واعتقاده الذي هو اعتقاد جماهير المسلمين، ولا أنشر له بعد الآن في المنار شيئا مثل هذا الكلام الذي نشرته له لانه كلام معسلط مضطرب ربما يحدث للضعفاء اضطرابا في اعتقادهم وان لم يفهموه كله وانما ننشر في المنار أحد شيئين : إما بيان مسألة مما يحتاج اليه الناس ويستفيدون منه بشرط ان تكون عبارتها صحيحة نفهمها ويفهمها مثلنا العارفون بلغتنا العربية الفصيحة واما انتقاد لمسألة معينة أوردناها في المنار بشرط أن تذكر المسألة وموضعها ووجه الخطإ فيها والدليل عليه بعبارة فصيحة تفهم وما كتبه اخونا المنتقد أولا وثانيا ليس من هذا ولا ذاك وإنما نشرناه عناية به وتنشيطا له ولكونه يمكن أن يكون وسيلة لمعرفته قيمة رأيه وبيانه له

انه انتقد علينا اولا في مسألة لم يقرأ كلامنا فيها كله والغالب انه لم يفهم كل

ماقرأه منه، ثم انه جعل الانتقاد موجها الى كلام لشيخ الاسلام ابن تيمية قرأه في قصيدة له يغلب على ظني انه لم يفهمها وانه لم يطلع على تفصيل مذهب شيخ الاسلام في المسألة فهو وتلميذه ابن القيم قد اطالا في هذه المسائل وللثاني منهما كتاب كير فيها اسم « شفاء الغليل في القضاء والقدر والتعليل » على انه لم يبين ما فهمه من مذهب ابن تيمية ولا وجه خطإه الذي ادعاه ولا ما عنده من التحقيق في المسألة فهل يرضى احد من قراء المنار ان ننشر فيه مثل هذا الكلام

إنني اكتب هذا وانا متألم لاضطراري الى مفاجأة رجل محب للعلم والفلسفة والاصلاح ببيان ما أرى من ضعفه بعد ان علمت انه لم يكتف بالاشارة اللطيفة الى ذلك من قبل وما سبب ذلك الا إعجابه بما عنده فعسى ان يعتني بعد الآن باتقان اللغة العربية ليقدر على الفهم والافهام فربما كان في فلسفته شيء نافع تستفيد الأمة من بيانه لها

***

فصل الخطاب في عقيدة القسمة

(١) صفوة القول في المسألة ان القرآن الحكيم بين ان الناس ينقسمون في الآخرة الى قسمين شقي وسعيد كما في سورة هود (١١: ١٠٥) وانهم فيها فريقان « فريق في الجنة وفريق في السعير » كما في سورة الشورى (٤٢: ٧) وانه بدأهم على هذا ويعيدهم عليه كما قال في سورة الأعراف (٧: ٢٩ كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) فهذه القسمة ثابتة في القرآن خلافا لما زعمه المنتقد من براءة القرآن منها وكونها مخالفة له . وكل من يؤمن بالآخرة يؤمن بذلك ولا ينافيه عقل ولا علم بعد اثبات حقية الآخرة بل هو معقول واسبابه مشاهدة في الدنيا. بل نقول انه كما قسمهم الى شقي وسعيد في الدنيا والآخرة قسم بينهم الرزق والجاه فجعل بعضهم فقيرا و بعضهم غنيا و بعضهم رفيعا و بعضهم وضيعا كما قال (٤٣: ٣٢ أهم يقسمون رحمة ربك؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) الآية ولكن قسمته تعالى لاتنافي ماوهبه للانسان من الاختيار والاستقلال فان هذا داخل فيها

(٢) ينظر في هذه القسمة من ثلاث جهات العلم والفعل والحكمة أو العلة . فاما

علم الله تعالى فهو قديم بقدمه أزلي بأزليته فالقسمة فيه قديمة أزلية أيضا .

واما الفعل فلا تتحقق قسمة الجنة والنار بحسبه الا في الآخرة فهناك تكون القسمة فعلية ومثلها السعادة أو الشقاوة في الدنيا تتحقق لكل فرد في مدة وجوده في الدنيا لا في الأزل.

وأما العلة والحكمة فطريق معرفتهما هي معرفة الشرع ومعرفة طبيعة الانسان نفسه في اعماله وصفاته وقد بينا ذلك مرارا كثيرة منها ما كتبناه بالايجاز في جواب المنتقد (ص١٩٩ ج٣) ونقول الآن كلمة وجيزة ايضا وهي ان الله خلق الانسان وأعطاه نوعا من الاستقلال في أعماله الاختيارية على حسب علمه ووجدانه وما تكونه التربية والعادة من الصفات في نفسه و بذلك يكون مصدرا لسعادتها او لشقائها بعمله فكل فرد من افراده يعمل بنوع ما من الاستقلال والاختيار فيه ما يجعله في القسمة مع احد الفريقين وليس علم الله الازلي بالقسمة ملزما له بالعمل لأن تعلق العلم تعلق انكشاف لا تعلق فعل والزام على أنه يتعلق بالشيء و بعلته .

واما القسمة بالفعل -وهي كون الناس سعداء وأشقياء في الواقع- فالبضرورة لاتكون ملزمة ولا مجبرة له على العمل الذي يكون به من أحد الفريقين ولا سالبة لحريته واستقلاله فيه لانها أي القسمة بالفعل هي المعلول للعلة التي نتكلم عنها وهل يكون الشيء علة لنفسه ومعلولا لها؟ هذا دور ظاهر. وقد بينا الدلائل النقلية والعقلية والوجودية على استقلال الانسان في الفكر والإرادة - وهما مصدرا اعماله التي يكون بها في القيامة من أحد الفريقين - في عشرات أو مئات من المواضع وبينها الاستاذ الامام في رسالة التوحيد (ص ١٢٥ من طبعة المنار)

(٣) ان الألوف الكثيرة من المسلمين لا يفكرون في هذه القسمة وقد تمر السنين ولا تخطر في بال الواحد منهم ومنهم من يقرأ أو يسمع ما يخطرها في باله فتمر فيه مر النسيم فلا يجيل فيها قداح الفكر ومنهم عدد قليل يفكر فيها ويتفلسف بقدر استعداده . وما زعمه المنتقد من كونها هي علة العلل لكسل المسلمين وتقصيرهم في أعمال الدنيا عن غيرهم من الامم فغير صحيح بل لذلك اسباب كثيرة كل منها علة مستقلة منها امشاج من مسائل القضاء والقدر والجبر والتوكل والزهد وقسمة الارزاق فهموها على غير وجهها وقد بينا ما فيها من الفساد والخطإ في التفسير والفتاوى

وغير ذلك من ابواب المنار مرارا كثيرة منها بحث التوكل والاسباب في التفسير «ص ٨٠١ — ٨٠٨ م ١١» الذي بينا فيه خطأ الغزالي في التزهيد في الدنيا .

و بيان خطا المخطئين في فهم مسألة القسمة وحدها لا يكفي في الاصلاح بل لا بد من بيان الحق الصريح في تلك الامشاج كلها . ثم ان هذا البيان ليس هو كل المطلوب وإنما هو بعضه او مقدمة له فانه بنشره المرة بعد المرة في صحف المنار المنشرة يثبت في نفوس الكثيرين ومنهم معلمو المدارس وهؤلاء يدخلونه في تعاليمهم واني أعرف أفرادا من أساتذة المدارس في مصر كانوا يعتمدون على المنار في تحضير بعض الدروس الدينية وكذلك المصنفون وكتاب الجرائد يدخلون ذلك في مكتوباتهم ولو مع عدم التنبه لمصدرها وبمثل هذه الوسائل تعم كما عمت تلك التعاليم الباطلة من قبل

«٤» ان مسألة تعليل افعال الله تعالى نفاها الاشاعرة وقد أثبتها ابن تيمية وابن القيم بالدلائل والبينات النقلية والعقلية وأثبتا ان القضاء والقدر لا ينافيان اختيار الانسان واستقلاله الممنوحين له من خالقه ولا وجوب العمل عليه لدنياه وآخرته فتحامل المنتقد على ابن تيمية وحده لأبيات قرأها له مع عدم اطلاعه على كتبه في العقائد من جملة غرائبه

ذكر ابن تيمية في غير موضع من كتبه الكثيرة في العقائد وغيرها ان مذهب سلف الأمة ان العبد فاعل لفعله حقيقة وان له قدرة ومشيئة واختيارا وأن قدرته مؤثرة في مقدورها كما تؤثر القوى والطبائع والاسباب وأن ذلك كله ثابت شرعا وعقلا ، وأنكر على جمهور الاشعرية مايقولونه في الكسب ونقل موافقة بعض أئمتهم على ما قال انه مذهب السلف وذكر منهم أبا اسحق الاسفرايني وإمام الحرمين . فليراجع ذلك المنتقد ان شاء في كتبه أو في شرح عقيدة السفاريني

ان المنتقد كرر الشبهة التي أوردها على الاصلاح وهي عقيدة القسمة وكرر زعمه بأن كل سعي فيه يكون باطلا مالم تثبت للمسلمين بطلان هذه العقيدة . ونحن نكرر له الجواب في خاتمة الكلام بأن العقيدة ثابتة لا يمكن إبطالها وانه لا ضرر في اعتقادها وانما الضرر في فهمها على غير وجهها كفهم القدر على غير وجهه إذ يلزم من هذا الفهم لوازم باطلة وانا مازلنا نبين حقيقة هذه المسائل و بطلان لوازمها وذلك هو كل المطلوب فيها

خطبة في عيد الدستور

﴿ تلاها في الاحتفال العام بطرابلس الشام ﴾

« الشيخ اسماعيل افندي الحافظ الشهير »

لم يمر على الأمة العثمانية يوم هو أوفر جمالاً ، وأكثر إقبالا ، من مثل هذا اليوم المجيد الذي أشرقت فيه كواكب سعدها ، في أفق مجدها ، باهرة الاضواء ، ساطعة اللألاء ،

في مثل هذا اليوم هبت نسمة قدسية ، من أفق العناية الالهية ، ترنحت لها أعطاف ابطال الحرية ، من جمعية الاتحاد والترقي الفادية المفدية ، فنهضوا لاسترداد المفقود ، واصلاح الموجود ، بقلوب تمثل أقصى مراتب الحمية الملية ، وعزائم تناهض الدهر حزما ، وتغالب الايام ثباتا ، فأنقذوا الأمة من براثن الظلم ، ووضعوا عنها أغلال الغلبة والقهر ، وأطلقوا العقول من قيودها ، ونشروا الافكار من لحودها :

في مثل هذا اليوم شعر العثماني انه عضو عامل في أمة حية يسعد بسعادتها و يشقي بشقائها ، فهب من سبات غفلته ، وشمر يدأب في مصلحة أمته ، فرأى ان لا سبيل الى سعادته الا بالاتحاد ، وان لا تحقق للاتحاد الا بالإخاء والمساواة ، فتآخت ملل الامة وأديانها ، وتساوت شعوبها وعناصرها ، وتضامت أجزاؤها ، وتماسكت أعضاؤها ، واقبل المسلم يعانق المسيحي ، واليهودي يصافح الارمني ، والتركي يفدي أخاه العربي بنفسه ، والكردي يدافع عن الالباني بمهجته ، والكل موقن ان لا غنى له عن الآخر في حياته الاجتماعية ، وسعادته القومية ، في شكل يسحر الالباب بهاؤه ، ويأخذ بالقلوب بهجة ورواؤه ،

في مثل هذا اليوم تفجرت ينابيع حياة الامة فسرت في أجزائها المفرقة ، ودبت في أعضائها الممزقة ، فاتحدت أفرادها ، وتوحدت أعدادها ، وصدرت عنها أعمالها بارادتها الكلية ، وحركتها الاختيارية ، فتوجهت متحدة نحو سعادتها الحقيقية ، متملصة

من ظلام الباطل الى نور الحق ، ناهضة من حضيض التأخر الى يفاع الترقي ، معلنة بأطيب ألحان الحرية ، آيات العدل والانسانية ، تحت لواء الاخاء والمساواة :

في مثل هذا اليوم أعلن القانون الاساسي فقضى للأمة بنيل حريتها ووهبها نعمة الاستقلال وخول لافرادها ان يكون لهم رأي مقبول في ادارة شؤون مجموعها وهي نعمة تعد أساسا مكينا لسعادة مستقبلها، ورقي حقيقي تنهض اليه فتنال ماقدر لها من الكمال ، وما استعدت له بفطرتها من مظاهر الإقبال

نعمة دلنا الاستقراء وعلمنا التاريخ ان الامم التي تكون محرومة منها لايكون لها اجتماع حقيقي ولاسعادة صحيحة ، وان ظفرت باليسير من ذلك فما هو الا صورة خيالية تظهر بمظاهر وهمية ، لأسباب توجدها المصادفة والاتفاق ، ثم لاتلبث ان تذهب بذهاب أسبابها، شأن الحوادث الناشئة عن أسباب موقتة. نعمة قيضها الله لبعض الأمم فنالت بها من العز والمنعة والمجد والعظمة ما نشاهد آثاره ونسمع أخباره ، وحرمها بعضها فبقيت راسفة في قيود الجهل تائهة في بيداء الغباوة لا يرعى لها جانب ولا يحفظ لها حق ، فلا غرو ان تحتفل جميع الامة العثمانية بيومها السعيد احتفالا يتجلى في أبهج مظاهر الزينة وأهنا مجالي الفرح ، ولا غرو أن تشرئب العقول لتعرف معنى هذه النعمة ونسبتها الى الهيئة الاجتماعية :

اختلف فيها أنظار الباحثين، وتنوعت منازع الناظرين ، فذهب بعضهم الى ان حرية الامة أو حكم نفسها بنفسها ليس هو حقا طبيعيا لها بل هو حالة اجتماعية يقتضيها طور من أطوار الامة وينبذها طور آخر وان الامم لاتستحقها الا اذا بلغت مرتبة مخصوصة من مراتب الاجتماع وانها قبل ان تصل في اجتماعها الى هذه المرتبة فلا حق لها بنيل حريتها ولا بالمطالبة بها كما انه ليس لحكامها ان يفوضوا لها شيئا من شؤون نفسها خشية ان تتصرف تصرفا يفسد حالها و يوجب طروء الخلل في ادارتها

وزعموا ان حالة الامة اذ ذاك كحالة الصبي قبل بلوغه فانه لايجوز في نظر العقل السليم ان يطلق له التصرف في شؤون نفسه لئلا يفسد عليه أمره و يضطرب حاله، وان ماهو للشيء بطبعه لايتخلف عن ماهيته مع ان كثيرا من الجمعيات البشرية عاشت أزمانا

متطاولة وهي مملوك عليها أمرها، مستبد عليها في شؤونها، فكيف يكون حكم الامة نفسها بنفسها حقا من حقوقها الطبيعية ومميزا من مميزاتها الفطرية

وذهب أهل البصيرة منهم الى ان حكم الامة نفسها بنفسها حق طبيعي ثبت لها يوم صح ان يطلق عليها لفظ أمة فهو وصف لازم لذاتها غير منفك عن ماهيتها وان من عمد الى سلبها هذا الحق فرداً كان أو جملة فهو كمن عمد الى سلب انسان حقه في استنشاق الهواء وتناول الغذاء ، أوكمن قيد إنسانا عن حركته الطبيعية التي يهمّ بها بارادته ويباشرها بقدرته

واستدلوا على ذلك بان العقول السليمة متفقة على ان كل فرد من بني الانسان هو بحسب فطرته حر مستقل في حركته وسكونه واقدامه وإحجامه وأخذه وتركه وان الشرائع السماوية والقوانين الوضعية قد حكمت بأن له حقا طبيعيا في ان يتصرف بشؤون نفسه كيفما شاءت إرادته ومال اليه اختياره وان الباحثين في تعريف ماهيات الاشياء وتحديد طبائعها قد عرفوا الانسان بأن الحيوان الناطق بطبعه المتحرك بإرادته

وان الأمة لما كانت عبارة عن جملة أفراد مجتمعة بروابط من المصالح المشتركة والصفات الشاملة فقد وجب ان يثبت لمجموعهم من الحق ما ثبت للفرد الواحد منهم

إذا كان العدوان على حرية شخص واحد يعد شذوذا عن قواعد العدل وفسوقا عن أوامر الله وخروجا عن حدود الانسانية وهو لم يتعد ان اضر فردا بعينه لاتتوقف عليه سعادة ولا يناط به شقاء فما بال العدوان على حرية أمة كبيرة قد تكون مؤلفة من ملايين من مثل ذلك الفرد لا يعد شذوذا عن منهج العدل ؟ بل كيف يعد ذلك من نتائج الصواب ، وحكمة أولي الالباب ، لعمري ليس هذا المذهب الا من وساوس المستبدين الذين لا يروق لهم الا الاثرة بحقوق الضعفاء ، والتلاعب بعقول الاغبياء، وان الحكم على أمة مجتمعة بأنها غير جديرة ان تحكم نفسها بنفسها لأ بعد عن الصواب من الحكم على الرجل العاقل انه غير أهل للتصرف بشؤونه الخصوصية

هل يبلغ الجهل والقصور بمجموع يستقل أفراده بشؤون أنفسهم ان يعجزوا جميعا عن تدبر شؤون مجتمعهم ؟

ان حد التمييز والرشد في الأمة هو ان تكون بحيث يتهيأ لها الاجتماع بأبسط معانيه فانها متى بلغت هذه المرتبة حكم لها بأنها بالغة رشدها قادرة على ادارة نفسها وكل جمعية بشرية فهي بالغة هذه المنزلة لا محالة ضرورة أن الانسان خلق على أن يعيش مجتمعا فهو لا ينفك عن الاجتماع والأمة المجتمعة لا تنفك ان تكون مستحقة للاستقلال بطبعها وانما تحول دون ذلك اطماع المستبدين احيانا فاذا اتفق لأمة أن صرفت همة المستبدين من رجالها عن العبث باستقلالها فقد قضي لها ان تباشر السير الى كمالها

لا يشترط في نيل الأمة حريتها واستحقاقها لذلك بطبعها ان تبلغ في اجتماعها مبلغ الامم الراقية كما لا يشترط في بلوغ الرجل رشده ان يكون كأصوب الرجال رأيا وأ كلهم رشداً لأن الرقي والرشد يقالان بالتشكيك فيكونان في بعض الاشخاص وفي بعض الأمم أرقى منهما في غيرهما ولا يوجب ذلك نقصا بالمقصر عن درجة المتقدم يؤدي الى حرمانه من حقوقه الطبيعية

اذا نالت الأمة حقها في حكم نفسها انفسح لافرادها مسرح الفكر ، واتسع لهم مجال العمل ، ودبت فيهم حياة جديدة شعروا بها ان لاراداتهم وميولهم تأثيراً في رقي مجتمعهم ، فترفعت بذلك نفوسهم عن الدنايا ونهضت الى معالي الامور وانصرفت من هنا الى الشعور بأن الفوز بالمصلحة الخاصة متوقف على تأييد المصلحة العامة فاندفعوا بسائق محبة الذات الى التماس مصلحة افرادهم في ضمن مصلحة مجموعهم

ومن ثم تخرج العقول من مضايق اشخاصها الى متسع الأمة وتنصرف الافكار عن البحث في الكليات فتمرن على الاستنتاج الصحيح من المقدمات اليقينية فتستقيم الافكار وتصان الاعمال عن الخلل

ويتبع ذلك صحة في العزائم ونهوض في الهمم ومسابقة الى الاعمال الشريفة وتنافس في إصابة المفيد منها للأمة . هكذا يتسنى للامم ان ترتقي في مدارج اجتماعها مبتدئة بالفكر الصحيح ومنتقلة من ذلك الى الصالح لها الموافق لمصلحتها ثم تتدرج من هناك في مراتب الكمال مرتبة بعد مرتبة ! ومن أين للأمم التي ليس لها حظ من الحرية ان تنال هذه المزية ؟

اذا تقرر هذا علم ان نيل هيئة اجتماعية لحريتها يعد مهيأ لرقيها ومقدمة لتقدمها او مرتبه اولى من مراتب كمالها فاذا توقف نيل حريتها على بلوغها مرتبة القدرة التامة على ارادة شؤونها فقد كلفناها ان تأتي النهاية في البداية ، وتصل في مبدأ سيرها الى الغاية ، وهو باطل في نظر العقل ، ومحال بحكم الواقع

(يرد هنا نبوغ الأمة الاسلامية بعد الخلفاء الراشدين الى زمن المعتصم ورقيها وفيها من المستبدين مثل يزيد وعبد الملك والمنصور والرشيد ونبوغها ايضا في دولة بني عثمان من زمن مؤسسها الى زمن السلطان سليمان القانوني والجواب عن هذه يستغرق بحثا طويلا لا يتسع الوقت له الآن فنرجئه لفرصة أخرى)

ومهما يكن الامر فلامراء في أن حرية الأمة هي مبدأ حياتها الاجتماعية وان الناهضين في كل أمة لإيصالها الى هذا الحق هم صفوة رجالها ، والنوادر من ابطالها ، بل هم القبيل الذين رآهم الاقدمون فحسبوا انهم ممتازون عن البشر فاقاموا لهم التماثيل وشيدوا لهم الهيا كل وافردوهم بالعظمة والكرامة حتى وضعوهم بمصاف الالهة فلا عجب ان تحتفل الامة العثمانية اليوم بنيل حريتها وتترنم بآيات الثناء لاولئك الابطال العظام من جمعية الاتحاد والترقي فلتحي الجمعية فليحى السلطان الدستوري فليحي المنقذ الثاني للوطن محمود شوكت باشا فليحي الجيش المظفر

* * *

عيد الدستور بمصر

انشدنا محمد حافظ افندي إبراهيم لنفسه في ليلة الاحتفال بهذا الموسم في حديقة الازبكية بمصر هذه القصيدة

أجل هذه أعلامه ومواكبه ... هنيئا لهم فليسحب الذيل ساحبه
هنيئاً لهم فالكون في يوم عيدهم ... مشارقه وضاءة ومغاربه
رعى الله شعباً جمع العدل شمله ... وتمت على عهد الرشاد رغائبه
تحالف في ظل الهلال إمامه ... وحاخامه بعد الخلاف وراهبه
خذوا بيد الاصلاح والامر مقبل ... فاني أرى الاصلاح قد طرّ شاربه

وردوا على الملك الشباب الذي ذوى   فاني رأيت الملك شابت ذوائبه
فمن يطلب الدستور بالسوء بعد ما   حمته يد الفاروقي فالله طالبه
اذا شوكت الفاروق قام منادياً   الى الحق لباه نيازي وصاحبه
ثلاثة آساد يجانبها الردى   وإن هي لاقاها الردى لا تجانبه
يصارعها صرف المنون فتلتقي   مخالبها فيه وتنبو مخالبه
روت قول بشار فثارت وأقسمت   وقامت الى عبد الحميد تحاسبه
« اذا الملك الجبار صعَّر خده   مشينا اليه بالسيوف نعاتبه »
وسار على أعقابها كل سابح   على متنه برج مشيد يداعبه
يصيح به « لاريّ » أو نبلغ المنى   و« لاشبع » أو يُرجع الحق غاصبه
هنالك فانهل واتخذ ثم مربطا   بيلدز واحمد في الوغى من تصاحبه
رجال من الايمان ملأى نفوسهم   وجيش من الأتراك ظمأى قواضبه
صوالجه سمر القنا وكراته   رءوس الاعادي والحصون ملاعبه
اذا ثار دكت اجبل وتخشعت   بحار وأمضى الله ماهو كاتبه
وثُلت عروش واستقرت ممالك   ولو ان ذا القرنين فيها يناصبه

* * *

فمن لم يشاهد يلدزاً بعد ربها   وقد زال عنه الملك واندك جانبه
واسلمه أحبابه لقضاته   وفر ولم يخش المعرة كاتبه
وقلمت الاقدار اظفار بطشه   ودل على ماتجهل الجن حاجبه
فما شهد الدنيا تزول ولا رأى   بلاء قضاء الله في من يحاربه
ابيح حماها وانطوى مجد ربها   وقامت على البيت الحميدي نوادبه
ولم يغن عن عبد الحميد دهاؤه   ولا عصمت عبد الحميد تجاربه
ولم يحمه حصن ولم ترم دونه   دنانيره والامر بالامر حازبه
ولم يخفه عن اعين الحق مخدع   ولا نفق في الارض جمٌّ مساربه
أقام عليه مهلكا عند مهلك   يمر به روح الصبا فيوائبه
تحاماه حتى الوهم خوف اغتياله   فلو مسه طيف لدارت لوالبه

وأسرف في حب الحياة فخاطها   بسور من الاهوال لم ينجُ راكبه
ففي كل قفل للمنية مكمن   وفي كل مفتاح قضاء يراقبه
وفي كل ركن صورة لو تكلمت   لما شك في عبد الحميد مخاطبه
تماثيل إيهام أنيمت وأقعدت   تراءى بها اعطافه ومناكبه
تمثله في نومه وجلوسه   وتخدع فيه الموت حين يقاربه
أقام عليه ألف موت محجب   ليغلب موتاً واحداً عزَّ غالبه
سلوه أأغنت عنه في يوم خلعه   عجائبه أو أحرزته غرائبه
وقد نزل المقدار بالأمر صادعا   وضاقت على شيخ الملوك مذاهبه
وأخرجه من يلدزٍ رب يلدزٍ   وجرده من سيف عثمان واهبه
وأصبح في منفاه والجيش دونه   يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتهم   فكل امرئ رهن بما هو كاسبه
هم منحوك اليوم ماأنت مشتهٍ   فردّ لهم ما أنت بالأمس سالبه
ودع عنك ما أملت ان كنت حازما   فلم يبق للآمال فضل تجاذبه
مضي عهد الاستبداد واندك صرحه   وولت أفاعيه وماتت عقاربه

* * *

لك الله يا تموز إنك بلسم   لجرحى الأمي والدهر تعدو نوائبه
فكم رعت جبارا وأرهقت ظالما   وانصفت مظلوما توالت مصائبه
فديناك من شهر أغرَّ محجلٍ   أوائله ميمونة وعواقبه
تقابله الاعياد في الأرض كلماً   تجلى هلال الشهر أو لاح حاجبه
ففي الغرب عيد ينظم الغربَ حسنه   فتهتز من وقع السرور جوانبه
وفي الشرق عيد لم ير الشرق مثله   تدفق في دار السلاح مواكبه
يطيفون بالعرش الكريم وربه   تطيف بهم آلاؤه ومناقبه
لتهنئ أمير المؤمنين محمدا   خلافته فالعرش سعدٌ كواكبه
ستملك أمواج البحار سفينه   كما ملكت شم الجبال كتائبه
ممالكه محروسةٌ وثغوره   وكائبة منصورةٌ ومراكبه

وأرسل الينا اسماعيل بك عاصم المحامي المصري هذه القصيدة من الاستانة

عيد عز الدستور بالأمن أسفر ... نوره للأنام الله أكبر
آلَ عثمان هاكم اليوم يوم ... هلـل القلب فيـه بِشرا وكبر
يوم عيد الحرية التي كم بـ ... ـنا زماناً لبعدها نتحسرَ
كل حرية بغير حماةٍ ... لا يراعي زمامها من تجبر
ولهذا جاء الرشاد ليحميـ ... ـها فكانت لعصره خير مظهر
يا أميرا للمؤمنين وسلطا ... ن جميع الشعوب لافرق يذكر
كل هذي الاقوام ترجوك في تعـ ... ـويض مافات أنت بالعدل أقدر
انت أدرى يا صاحب الملك بالما ... ضي فادرك بحزمك الملك تشكر

***

يا رجال الوزارة الصيد هذا الـ ... ـوقت في هوله كيوم المحشر
دققوا في الحساب بالقسط ترتا ... ح البرايا فطالما الظلم كدّر
فالمليك المحبوب رأس وأنتم ... منه اعضاؤه به تتأثر
والكرام النواب أوردة الجسـ ... ـم وماء الحياة منها تفجر

***

آل عثمان ان سلطاننا أعـ ... ـظم ملك بنوره تتبصر
هو حامي الدستور حامي الرعايا ... حافظ العهد للعدالة أظهر
فتفانوا في حبه فهو بالاخـ ... ـلاص مِنّا وبالمحبة أجدر

***

أيها النائبون عن هـذه الأمـ ... ـة أنتم لها العماد الأكبر
أنتم عارفو البلاد وحاجا ... ت الأهالي وما به تعمر
أعين الناس نحوكم ناظراتٌ ... فاظهروا للورى بأشرف منظر
لا نريد استرداد ما راح لكن ... حِفظ ما عندنا فلا نتقهقر
ثُلثُ قرن مضى ونحن من الار ... هاق كانت أعصابنا تتخدّر
ثلث قرن ونحن في ظلمات ... بعضها فوق بعضها تتكرر

فجلا تلكم الدياجيَ نورٌ ... مِن سنا قادةٍ لجيش مظفر
أنقذونا وكادت الروح تدنو ... للتراقي وصائح الموت زمجر
فسجدنا لربنا وشكرنا ... هؤلاء الابطال والحر يشكر
يا ليوث الوغى ويا خير من أحـ ... ـيا نفوساً كادت من الظلم تقبر
يا أسود الشرى ويا خير من قوّ ... مَ ملكا قد كاد أن يتدمر
قد جلوتم لنا عروساً تجلت ... كتجلي بدر السماء وأزهر
وهي حُريةٌ اضاءت ودستو ... رٌ يحفظ الحقوق في الملك بشر
فعليك السلام ياشوكتٌ منّـ ... ـا تليه تحية تتعطر
انت ادركت ذي الخيانة فاقتضـ ... ـيت حتى ظفرتَ والملكُ عمر
وعلى الفرقدين ازكى سلام ... بطلي تركيا نيازي وأنور
لا تقولوا قد راح مدحتُ عنا ... كُلكم مدحتٌ اذا ما تدبر
فاتركوا مامضى وجدوا لما يأ ... تي بحزم النهى وعزم الغضنفر
واستعينوا بالحق دوماً ومبعو ... ثانكم فالنجاح في ذاك اكثر
خير ما ينفع الشعوب ثباتٌ ... واتحاد بعزمه تتحرر
فهنيئاً يا آل عثمان هذا ... يوم عيد للناس عيدٌ مكبر
دام سلطاننا ونوابنا والجيش ... والشعب في الهناء الأوفر

***

هذه غادةٌ من النيل وافت ... بسناها ودلها تتبختر
غادة زانها خليُّ المعاني ... ومن اللفظ عقد دُرّ وجوهر
أقبلت في بشائر أرختها ... عيدُ عزّ الدستور بالأمن أسفر
سنة ١٣٢٧ ... ٨٤ ٧٧ ٧٠١ ١٢٤ ٣٤١

ضاق هذا الجزء عن باب الفتاوى وفيه بيان معنى كون الدستور موافقا للشرع وغير ذلك من المسائل فأرجأناه الى الجزء الآتي

باب الأخبار والآراء

الهرج والقتل في أطنه

أشرنا في آخر الجزء الثالث الى هذه الحوادث وكانت في بدايتها وقلنا انه لا ثقة بإخبار شركة روتران الترك هنالك تصدوا لذبح الأرمن عدوانا. ثم ان الجرائد في الاستانة وسورية ومصر جاءت بتفصيل لتلك الحوادث جاء في بعضها ان الأرمن كانت هي المضرمة لنار الفتنة وأن مبدأ ذلك تمثيل الأرمن لقصة سياسية في أدنه يصفون فيها ظلم الترك لهم وقيام ملك منهم ينقذهم من ظلمهم ويقيم لهم دولة جديدة . ثم إنهم لم يكتفوا بهذا بل طفقوا يستحضرون السلاح الجديد فتنكر لهم المسلمون إلى ان انفجر البركان ، وفاض الطوفان ، واقتتل الفريقان ، وروي ان أول واقعة من وقائع الاعتداء كانت من الأرمن . ومن الناس من لا يصدق هذه الروايات بل يرجح ان المسلمين هم المعتدون ، ومنهم من يقول ويكتب غير ما يعتقد وللهوى سلطان على القلب وعلى القلم واللسان . ومن رأينا ان يرجأ الحكم في الاسباب والمبادي الى ان يتم تحقيق الحكومة في ذلك وينشر رسميا

مهما كانت الاسباب والمبادي ، وايّاما كان المعتدي والبادي ، فلا شك في كون الفريقين قد عملا مالا يبيحه الدين الذي ينتسبان اليه ، ولا يتفق مع مصلحة الوطن الذي يقيمان فيه ، فقد هدمت الدور ، وأحرقت الاسواق ، وقتل النساء والاطفال ، وحملت الامة عبئا من العار ، ولحق الحكومة ما لحقها من الخسار ، وتألمت الانسانية الفاضلة في جميع الاقطار

قد أكثر أهل الاهواء وافرط مقلدة التفرنج من القول بأن سبب ذلك هو التعصب الديني ولو كان مازعموا لما كان الهرج بين الترك والارمن دون سائر المسلمين والنصارى فقد ثبت ان أبناء العرب هناك كانوا يحمون الأرمن ويواسونهم

وأن الأرمن لم يعتدوا على غير الترك والترك لم يعتدوا على غيرهم فالمسألة اذا أثر من آثار الاحقاد الجنسية ومن جعل سببها التعصب الديني فهو ان لم يكن جاهلا متعصب او منافق يتزلف للمتفرنجين، وان ادعى انه من الاحرار او المسلمين،

دعا بعض فضلاء العثمانيين الناس الى الاجتماع في حديقة الازبكية لسماع الخطب والقصائد في شكوى الانسانية من ذبح أبنائها بعضهم لبعض والحث على مواساة المنكوبين وإعانة اليتامى والارامل من الفريقين — المسلمين والارمن — فلبى الدعوة جماهير أهل الخير من جميع الطوائف ماعدا الارمن . وخطب صاحب هذه المجلة — على انه كان مريضا والحر شديدا — خطبة ارتجالية بناها على بيان التفاوت العظيم بين الانسانية الراقية والانسانية السافلة التي يكون أصحابها شرا من الوحوش الضارية والحشرات السامة، وكون هذا الاجتماع احتجاجا من أهل الاولى على أهل الثانية وارشاداً وتعليما. وبينت فيها مشروعية البر والاحسان في الاسلام بجميع البشر مؤمنهم وكافرهم بل بجميع الاحياء « في كل كبد حرى أجر » ورمى بعض الخطباء الى كون المسلمين هم المعتدين الباغين باسم الاسلام فرددت عليه بلطف وقلت ان المقام مقام استعطاف لا محاكمة ولا تاريخ وان التحقيق الرسمي سيظهر الحقيقة ان المسألة جنسية لا دينية

ذلك ما كتبناه للجزء الماضي من المنار فلم يتسع له ثم قرأنا في جريدة لسان الحال البيروتية المؤرخة في ١٥ الشهر (رجب) ملخص تقرير المجلس العرفي فنحن ننشره بنص هذه الجريدة وهو

* * *

﴿ تقرير المجلس العرفي في أطنه ﴾

وضع المجلس العرفي في أطنه تقريراً مفصلا بحوادث اطنه ولكن جرائد دار السعادة العلية لم تنشر الا خلاصة منه وهو يذكر ان الحوادث التي جرت هناك انما يصعد تاريخها الى أيام بحري باشا الوالي الذي كان قبل جواد باشا فانه ظلم الناس ظلماً فاحشاً وأوقع بهم خسفاً وجوراً وهم لا يبدون ولا يعيدون بل كانوا كالموتى لا يتحركون ولا يشكون وكان رجال الوالي كثيرين وهم يتفعون من توسيع نطاق تلك الاختلالات ويتمنون الى الله ان تدوم لان اكثر تلك المظالم التي تشمئز منها

النفوس الآبية كانت واقعة على الارمن وكان هؤلاء بها راضين صابرين حتى يمن الله بالفرج ولما ثقلت الوطأة وشعروا بشدة الشكيمة فضلوا الموت على الحياة ولكن الذين كانوا يعللون النفوس بأمل الانفصال في الاستقبال كانوا يسكنون روعهم ويحضونهم على الصبر وقد أتوا بكثيرين من هؤلاء المظلومين من انحاء الولاية وأقاموهم في مركز الولاية وقالوا ان هذا المركز يعتبر ثغرا بحريا وقد استجلبوا اليه كثيرا من الاسلحة لاسيما بعد اعلان الدستور فانها كانت ترد اليهم من بيروت كميات عظيمة بالسفن والبواخر وكانت توزع عليهم في اطنه وضواحيها حتى زادوا طمعا بالانفصال عن الحكومة

وبعد اعلان الدستور كان المسلمون يتقربون من جميع ابناء الطوائف ويظهرون لهم المودة والمسالمة ولكنهم ماكانوا يخفون احتقارهم للجمعيات الارمنية الموجودة في البلاد لاعتقادهم بان اعضاءها يسعون في الانفصال والاستقلال وقد زادهم ثقة بذلك كونهم رأوهم يقيمون الشعب والفروع لجمعياتهم في كل الجهات ولا ننكر ان الحكومة أظهرت ضعفا شديدا في كل الاحوال التي مرت بالبلاد فانها لم تسع في قمع الفتن ولا في اخماد المشاغب حتى انه بلغ مسامعها ان الارمن يسعون سعيا متواصلا في الوصول الى الاستقلال الاداري وان رفاقهم في أوربا يكاتبونهم بذلك ولكن الحكومة لم تلتفت الى هذه المسألة واعتبرتها كانها لم تكن

وقد اتصل بالحكومة ان الجمعيات الارمنية وزعت رسوما وجرائد وشارات مخصوصة على الارمن وجعلت لكل منهم علامة فارقة يعرف بها ومع ذلك فانها لم تهتم للامر ولا سعت في ايقاف تياره حتى ان المطران موشاخ الذي هرب كانت له يد سوداء في كل هذه الاعمال المغايرة وما زال الامر يزداد استفحالا ونطاق الخلاف يزداد اتساعا بين المسلمين والارمن حتى صارت الحوادث تتوالى من مدة الى أخرى وكثيرا ما كانت تتفاقم وتتجسم حتى امتلأت القلوب بالضغائن ووقع ماوقع بين الفريقين من أسباب القتال الذي قضى بذهاب الانفس ووقائع الحرق والنهب وغيرها(١)

وكانت الحكومة تنظر الى هذه الاحوال بعين لا يخامرها كلل وفكر لا يعتريه

(١) حذفنا من هذا الموضع كلاما في (احسان فكري) صاحب جريدة اعتدال وما كان من ارتكابه ومكايدته للوالي وما في ذلك من ضعف الحكومة الماضية

وجل ولا حسبان لشيء. وكان الخطب يتفاقم ويتعاظم بين المسلمين والارمن وفي كل يوم يطلق الرصاص هنا وهناك من الفريقين والحكومة لا تكترث له حتى جنت بذلك جناية لا تغتفر ولما قبضت على بعض المشاغبين من الارمن توسط البعض في أمرهم فتركتهم وشأنهم اما المسلمون فابقتهم في الحبس فكثرت اذ ذاك الاشاعات ونراكمت المخاوف والترهات فراج السلاح رواجا عظيما وكان تجاره وباعته ينذرون الفريقين بقرب اشتباك القتال وان الواقعة ستكون عظيمة يتخللها مذابح هائلة حتى بلغ ما دخل اطنه من الاسلحة بطريق بيروت واسكندرونه ومرسين اكثر من ١٣ الف بندقية عدا البنادق والمسدسات وغيرها مما لم يعلم به أحد. واتفق ان قتل رجل من الارمن مسلما فتعقبته الحكومة ولكن الارمن خبأوه واخفوه عنها ولما اقروا به قالوا انهم لا يسلمونه ما لم تقتص الحكومة من مسلم ادعوا عليه بكونه كان قتل ارمنيا

وفي ١٣ نيسان اطلق رجل اسمه محمود طلقا ناريا في محلة من البلدة فقبضت عليه الضابطة ولكن اجتمع اكثر من خمسمائة نفس من المسلمين وانقذوه منها بحجة انها لم تقبض على الارمن الذين اطلقوا النار وليس ذلك فقط بل انهم اجتمعوا ثاني يوم مع رفاقهم وحضروا الى السراي و بالاتفاق مع مدير البوليس اطلقوا سراح كل اخوانهم المحابيس ومنذ ذلك اليوم أخذ المسلمون يطوفون في المدينة شاكي السلاح ويبدون مظاهرات تدل على انهم لا يعبأون بالحكومة ولا يأتمرون بامرها وفي اثناء ذلك قتل ارمني مسلما فطارده المسلمون فخرج الارمن عليهم متحمسين شاكي السلاح حتى ملأوا الشوارع والطرقات فاستدعت الحكومة رجال الرديف فحضروا وطافوا في الاسواق بملابسهم المدنية فكانوا كسائر الاهالي لا فرق بينهم في اللباس فقام عليهم الارمن ولكنهم اشاعوا فيما بينهم ان الحكومة هدرت لهم دماء الارمن ورخصت لهم بالفتك بهم وعند ذلك هجموا على المستودعات العسكرية واخذوا الاسلحة وما يلزمهم من الذخيرة وفعلوا ما فعلوه مما اوجب على اعضاء ديوان الحرب ان ينكروه ويذرفوا من اجله الدموع ولما حمي الوطيس أخذ رجال الحكومة يفوزون بانفسهم فهربوا وتواروا عن العيان ثم سجن عدد كبير من الارمن ولما عقد الديوان الحربي حكم على ١٥ نفسا من الارمن والمسلمين بالاعدام

فاعدموا ويوجد الآن من ٧٠٠ الى ٨٠٠ نفس كلهم مجرمون مذنبون كالذين شنقوا واذا أردنا محاكمة كل الذين دخلوا في هذه الحوادث كان هناك من ١٠ الى ١٥ ألف نفس واذا كان لا بد من عقاب كل الذين ارتكبوا المخالفات والجرائم كان لا بد من عقاب كل سكان الولاية .

وقد طلب في ذلك التقرير العفو عن مرتكبي الجرائم والصفح عما مضى اه

(المنار) ذكر اللسان بعد هذا ان بطرك الارمن اعترض على هذا التقرير وزيف اكثر كلامه . وقد ذكر مثل هذا في بعض جرائد مصر . وانا لنعلم أكثر من ذلك نعلم ان الارمن اجتمعوا في الكنيسة في الاستانة فحثهم البطرك على الثبات على طلب الاستقلال وقرروا هناك وفي كل مكان عدم مشاركة العثمانيين بالاحتفال بعيد الدستور ولا تزال جمعية الاستقلال الارمني العليا في الروسية مجدة في عملها وساسة الروس يغرونها وسيكشف لهم الزمان ان اتحادهم بالعثمانيين خير لهم وأبقى

﴿ فقيد العلم والصحافة الشيخ حسين الجسر ﴾

نعت الينا جرائد طرابلس الشام وبيروت عالم الديار السورية بل أحد أفراد علماء المسلمين في هذا العصر ، استاذنا الشيخ حسين افندي الجسر، صاحب الرسالة الحميدية التي طار بها ذكره في الاقطار، واشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار، ولما كانت مواد هذا الجزء قد تمت أرجأنا ترجمته الى الجزء الثامن سائلين الله عز وجل أن يحسن عزاء أنجاله وعزاء الوطن عنه ، وان يتغمده برحمته ورضوانه ، آمين

﴿ الدستور في فارس ﴾

ثبت الشعب الفارسي في محاربة الاستبداد كما ثبت الشاه الجاهل محمد علي على رفض الدستور حتى نصر الله الحق على الباطل فدخل المجاهدون طهران فاتحين وخلعوا الشاه وجعلوا ولده وولي عهده مكانه وهو ابن إحدى عشرة ولذلك جعلوا له نائباً من كبار رجال الدولة

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر – الثلاثاء سلخ شعبان ١٣٢٧ – ١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٢٨٥هـ ١٩٠٩م

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٢) وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٣) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ، وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا .

(آتوا) أعطوا (اليتامى) جمع يتيم وهو من الناس من فقد أباه قبل بلوغه السن التي يستغني فيها عن كفالته ومن الحيوان من فقد أمه صغيرا لأن إناث

الحيوان هي التي تكفل صغارها · وكل منفرد يتيم ومنه الدرة اليتيمة · ولم ينقل من جمع فعيل على فعالى ما يعدونه به مقيساً ولذلك قيل ان لفظ يتيم قد جمع هذا الجمع لأنه أجري مجرى الاسماء الخ ما قالوا (ولا تتبدلوا) الخبيث بالطيب أي لا تأخذوا الخبيث فتجعلوه بدلا من الطيب · يقال تبدل الشيء بالشيء واستبدله به اذا أخذ الأول بدلا من الثاني الذي دخلت عليه الباء بعد ان كان حاصلا له أو في شرف الحصول ومظنته يستعملان دائما بالتعدي الى المأخوذ بأنفسهما والى المتروك بالباء كما تقدم في قوله تعالى (٢:٦١ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) وأما التبديل فيستعمل بالوجهين (والخبيث) ما يكره رداءة وخساسة محسوسا كان أو معقولا من خبث الحديد وهو صدأه قال الراغب وأصله الرديء الدخلة الجاري مجرى خَبَث الحديد كما قال الشاعر:

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعال · ثم أورد الآيات في هذه المعاني المختلفة · قال وأصل (الطيب) ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس · أقول وهو كمقابله يوصف به الشخص ومنه قوله تعالى (٢٤:٢٥ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) والاشياء ومنه قوله تعالى (٧: ١٥٧ ويُحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث) وقوله (٧:٥٨ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا) والاعمال ومنه الآية التي نفسرها في قول من قال ان معناها ولا تتبدلوا العمل الخبيث بالعمل الطيب ان تجعلوه بدلا منه · ومنه مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة في سورة ابراهيم (١٤: ٢٤ — ٢٦ (والحوب) الإثم ومصدره بفتح الحاء · وذكر الراغب ان الأصل فيه كلمة «حَوْبَ» لزجر الإبل · قال وفلان يتحوب من كذا أي يتأثم، وقولهم ألحق الله به الحوبة أي المسكنة والحاجة وحقيقتها هي الحاجة التي تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم، والحوباء قيل هي النفس وحقيقتها هي النفس المرتكبة للحوب اه ويروى عن ابن عباس (رض) تفسيره بالاثم وبالظلم وفي الطبراني ان رافع بن الأزرق سأله عنه فقال هو الاثم

بلغة الحبشة · قال فهل تعرف العرب ذلك قال نعم اما سمعت قول الأعشى

فاني وما كلفتموني من أمركم ليعلم من أمسى أعق وأحوبا

وحاب يحوب حوبا وحابا قال الزمخشري وهما كالقول والقال ' وقال القفال أصله التحوب وهو التوجع فالحوب ارتكاب ما يتوجع منه · و (تقسطوا) تعدلوا من الإقساط: يقال اقسط الرجل اذا عدل ويقال قسط إذا جار · قال تعالى (٤٩ : ٩ واقسطوا إن الله يحب المقسطين) وقال (٧٢ : ٥ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) وكلاهما من القسط وهو العدل وقال (٧ : ٢٩ قل أمر ربي بالقسط * ٤ : ١٣٤ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط) والقسط في الاصل النصيب بالعدل · وقالوا قسط فلان بوزن جلس اذا أخذ قسط غيره ونصيبه · وقالوا أقسط اذا اعطى غيره قسطه ونصيبه · كذا قال الراغب والمشهور ان الهمزة في أقسط للسلب فقسط بمعنى عدل وأقسط بمعنى ازال القسط فلم يقمه كما يقال في شكا وأشكى فان أشكاه بمعنى ازال شكواه · وقال في لسان العرب كأن الهمزة للسلب

(فانكحوا) معناه فتزوجوا وتقدم في سورة البقرة الخلاف في اطلاقه على العقد وعلى ما يقصد من العقد ولو بدونه · وقوله (مثنى وثلاث ورباع) معناه ثنتين ثنتين وثلاثاً ثلاثا وأربعاً أربعا · فتلك الألفاظ المفردة معدولة عن هذه الاعداد المكررة · ولما كان الخطاب للجمع حسن اختيار الالفاظ المعدولة الدالة على العدد المكرر وكانت من الإيجاز ليصيب كل من يريد الجمع من أفراد المخاطبين ثنتين فقط أو ثلاثا فقط أو أربعا فقط وليس بعد ذلك غاية في التعدد بشرطه · قال الزمخشري: كما تقول للجماعة اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لم يكن له معنى · أي لو قلت للجمع اقتسموا المال الكثير درهمين لم يصح الكلام فاذا قلت درهمين درهمين كان المعنى ان كل واحد يأخذ درهمين فقط لا أربعة دراهم ·

قال: فان قلت لم جاء العطف بالواو دون «أو»؟ قلت كما جاء بالواو في المثال الذي حذوته لك ولو ذهبت تقول اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو اربعة أربعة علمت انه لا يسوغ لهم ان يقتسموه إلى على احد انواع هذه القسمة

وليس لهم ان يجمعوا بينها فيجعلوا بعض القسم على تثنية و بعضه على تثليث و بعضه على تربيع ، وذهب معنى تجويز الجمع بين انواع القسمة الذي دلت عليه الواو . وتحريره ان الواو دلت على اطلاق ان يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء على طريق الجمع ان شاؤا مختلفين في تلك الاعداد وان شاؤا متفقين فيها محظورا عليهم ماوراء ذلك اه كلامه

وهو ينقض ماذهب اليه بعض الناس من دلالة العبارة على جواز جمع الواحد بين تسع نسوة وهو مجموع ٢ و٣ و٤ و بعض آخر وعلى جواز الجمع بين ١٨ وهو مجموع ثنتين ثنتين وثلاث ثلاث وأربع أربع فان قولك وزع هذا المال على الفقراء قرشين قرشين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة معناه أعط بعضهم اثنين فقط و بعضهم ثلاثة فقط و بعضهم أربعة فقط وللموزع الخيار في التخصيص ولا يجوّز له هذا النص ان يعطي أحداً منهم ٩ قروش ولا ١٨ قرشا. واستدلال بعضهم على صحة ماقيل بموت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن تسع نسوة وعقده على أكثر من ذلك لا يصح للاجماع على أن ذلك خصوصية له (ص)

و (تعولوا) تجوروا وأصل العول الميل يقولون عال الميزان اذا مال وميزان عائل. وجعله بعضهم بمعنى كثرة العيال و يروى عن الشافعي (رض) ويقال عال الرجل عياله اذا مانهم وانفق عليهم كأنه أراد لئلا يكثر من تعولون والاول اظهر في الآية

(وصدقاتهن) جمع صدقة بضم الدال وهو الصداق بفتح الصاد وكسرها أي ماتعطى المرأة من مهرها . وإيتاء النساء صدقاتهن يحتمل المناولة بالفعل ويحتمل الالتزام والتخصيص . يقال أصدقها وأمهرها بكذا اذا ذكر ذلك في العقد وان لم يقبض.

وقوله (نحلة) روى عن ابن عباس وغيره من السلف تفسيرها بالفريضة . وفسرها بعضهم بالعطية و بالهبة . ووجهه انه مال تأخذه بلا عوض مالي . وجعلها الراغب مشتقة من النحل كأنها عطية كما يجنى النحل . وهذا القول لا يعارض مايدل عليه الاول من فرضية المهر وعدم جواز أكل شيء منه بدون رضا المرأة كما سيأتي

* * *

الاستاذ الامام : قلنا ان الكلام في أوائل هذه السورة في الاهل والاقارب

والازواج وهو يتسلسل في ذلك إلى قوله تعالى (٣٦ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) الآية . ولذلك افتتحها بالتذكير بالقرابة والأخوة العامة وهي كون الأمة من نفس واحدة ثم طفق يبحث على حقوق الضعفاء من الناس كاليتامى والنساء والسفهاء فقال

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ واليتيم لغة من مات أبوه مطلقا وفي عرف الفقهاء من مات أبوه وهو صغير فتى بلغ زال يتمه إلا اذا بلغ سفيها فانه يبقى في حكم اليتيم ولا يزول عنه الحجر . ومعنى إيتاء اليتامى أموالهم هو جعلها لهم خاصة وعدم أكل شيء منها بالباطل أي انفقوا عليهم من أموالهم حتى يزول يتمهم بالرشد كما يأتي في آية « وابتلوا اليتامى » فعند ذلك يدفع اليهم ما بقي لهم بعد النفقة عليهم في زمن اليتم والقصور فهذه الآية في إعطاء اليتامى أموالهم في حالتي اليتم والرشد كل حالة بحسبها وتلك خاصة بحال الرشد وليس في هذه تجوز كما قالوا فان نفقة وليّ اليتيم عليه من ماله يصدق عليه انه إيتاء مال اليتيم لليتيم . والمقصود من هذه الآية ظاهر وهو المحافظة على مال اليتيم وجعله له خاصة وعدم هضم شيء منه لأن اليتيم ضعيف لا يقدر على حفظه والدفاع عنه ولذلك قال ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ المراد بالخبيث الحرام و بالطيب الحلال أي لا تتمتعوا بمال اليتيم في المواضع والاحوال التي من شأنكم ان تتمتعوا فيها بأموالكم . يعني ان الانسان انما يباح له التمتع بمال نفسه في الطرق المشروعة فاذا عرض له استمتاع فعليه ان يجعله من مال نفسه لا من مال اليتيم الذي هو قيم ووصي عليه فاذا استمتع بمال اليتيم فقد جعل مال اليتيم في هذا الموضع بدلا من ماله ، وبهذا يظهر معنى التبدل والاستبدال

== وقوله ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ أي لا تأكلوها مضمومة الى أموالكم. وهذا صريح فيما إذا كان للولي مال يضم مال اليتيم اليه ويمكن ان يقال إن أكله مفردا غير مضموم الى مال الولي أولى بالتحريم وهو داخل في عموم قوله « وآتوا اليتامى اموالهم » وقيل يفهم من هذا القيد جواز أكل الوصي الفقير الذي لا مال له شيئاً من مال اليتيم وسيأتي التصريح بذلك في الآية السادسة

أقول ومراد الاستاذ الامام بنفي التجوز من الآية يعم ما قاله بعضهم من التجوز

بلفظ الإيتاء باستعماله بمعنى ترك الاموال سالمة لهم وعدم اغتيال شيء منها وما قالوه من ان المراد بإيتائهم إياها هو تسليمهم إياها بعد الرشد واطلق عليهم لفظ اليتامى باعتبار ما كانوا عليه من عهد قريب كاذكر في بعض كتب البلاغة وكتب الاصول . وهو ما سيأتي حكمه في الآية السادسة فلا حاجة الى دسه في هذه . وقيل أكل أموالهم الى أموال اليتامى هو خلطها بها وتقدم حكم مخالطتهم في سورة البقرة (راجع آية ٢ : ٢٢٠ في ص ٣٤٦ — ٣٥١ ج ٢ تفسير)

واختلفوا أيضاً في تبدل الخبيث بالطيب والاظهر فيه ما اختاره الاستاذ الامام فيما تقدم آنفا . وقيل ان المراد به ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من أخذ الجيد من مال اليتيم ووضع الرديء بدله وأخذ السمين منه وإعطائه الهزيل، ونسبه الرازي للأكثرين قال وطعن فيه صاحب الكشاف بأنه تبديل لا تبدل

وعبرعن أخذ المال والانتفاع به بالأكل لأنه معظم ما يقع به التصرف، وهذا الاستعمال شائع معروف كقوله تعالى (٢: ١٨٨ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) وهو يعم كل ما يأخذه الانسان من مال غيره بغير حق

﴿ إنه كان حوبا كبيرا ﴾ أي ان أكل مال اليتيم أو تبدل الخبيث بالطيب منه أو ما ذكر من مجموع الامرين وكانت تفعله الجاهلية كان في حكم الله حوبا كبيرا أي إثما عظيما ،

﴿ وان خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ان لا تعولوا ﴾ هذا حكم من احكام السورة متعلق بالنساء بمناسبة اليتامى وقيل باليتامى بأنفسهم أصالة وأموالهم تبعا وماقبله متعلق بالاموال خاصة ففي الصحيحين وسنن النسائي والبيهقي والتفسير عند ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير انه سأل خالته عائشة أم المؤمنين (رض) عن هذه الآية فقالت : يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها يشركها في مالها ويعجبه مالها وجمالها فيريد ان يتزوجها من غير ان يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن الا ان يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن

في الصداق وأمروا ان ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة قالت عائشة ثم ان الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله عز وجل (٤: ١٢٧ و يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن) قالت والذي ذكر الله انه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها «وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » قالت عائشة وقول الله في الآية الأخرى (وترغبون ان تنكحوهن) رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا ان ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها الا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن .

وفي رواية أخرى في الصحيح عنها قالت انزلت في الرجل تكون له اليتيمة وهو وليها ووارثها ولها مال وليس لها أحد يخاصم دونها فلا يُنكحها لمالها فيضربها ويسيء صحبتها . فقال «ان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء» يقول خذ ما احلت لكم ودع هذه التي تضربها . وفي رواية صحيحة أخرى عنها فيما يحال على هذه الآية في الآية الاخرى وهو قوله « وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن » قالت أنزلت في اليتيمة تكون عند الرجل فتشركه في ماله فيرغب عنها ان يتزوجها ويكره ان يزوجها غيره فيشركه في مالها فيعضلها فلا يتزوجها ولا يزوجها غيره .

أقول فعلى هذا تكون الآية مسوقة في الأصل للوصية بحفظ حق يتامى النساء في أموالهن وأنفسهن والمراد باليتامى فيها النساء وبالنساء غير اليتامى أي ان خفتم ان لا تقسطوا أي أن لا تعدلوا في يتامى النساء فتعاملوهن كما تعاملون غيرهن في المهر وغيره أو أحسن فاتركوا التزوج بهن وتزوجوا ما حل لكم أو ما راق لكم وحسن في أعينكم من غيرهن . قال ربيعة اتركوهن فقد أحلت لكم أربعا أي وسع عليهم في غيرهن حتى لا يظلموهن . وقال الاستاذ بعد ان أورد قول عائشة بالمعنى مختصرا : كأنه يقول اذا أردتم التزوج باليتيمة وخفتم ان تسهل عليكم الزوجية ان تأكلوا أموالها فاتركوا التزوج بها وانكحوا ما طاب لكم من النساء الرشيدات . أقول والربط بين الشرط والجزاء على هذا القول من أقوال عائشة ظاهر ولا يظهر على رواية العضل وهو منعهن من

التزوج بهن الا ان كانوا يعتذرون عن العضل بارادة التزوج بهن و يمطلون في ذلك .

وقال ابن جرير بعد ان ذكر عن بعضهم تفسير الآية بما أيده بالروايات عن عائشة . وقال آخرون بل معنى ذلك النهي عن نكاح مافوق الاربع حذرا على أموال اليتامى ان يتلفها أولياؤهم وذلك أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والاكثر والاقل فاذا صار معدما مال على يتيمه الذي في حجره فأنفقه أو تزوج به فنهوا عن ذلك وقيل لهم إن خفتم على أموال أيتامكم ان تنفقوها فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم اليها لما يلزمكم من مؤن نسائكم فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع وان خفتم أيضا من الاربع ان لا تعدلوا في أموالهم فاقتصروا على الواحدة أو على ماملكت أيمانكم . ثم روى بأسانيده عن عكرمة انهم كانوا يتزوجون كثيرا و يتغايرون في الكثرة و يغيرون على أموال اليتامى من أجل ذلك . وروى عن ابن عباس (رض) ان الرجل كان يتزوج بمال اليتيم ماشاء الله تعالى فنهوا عن ذلك . وعنه انه قال : قصر الرجال على أربع من أجل أموال اليتامى

وأقول ان الافضاء بذلك الى أكل أموال اليتامى قد جعل حجة على تقليل التزوج لظهور قبحه وفي ذلك التعدد من المضرات الآن ما لم يكن يظهر مثله في عهد التنزيل كما يأتي بيانه قريبا

ثم أورد ابن جرير في الآية وجها ثالثا فقال : وقال آخرون بل معنى ذلك ان القوم كان يتحوبون في أموال اليتامى ولا يتحوبون في النساء أن لا يعدلوا فيهن فقيل لهم كما خفتم ان لا تعدلوا في اليتامى فكذلك فخافوا في النساء ان لا تعدلوا فيهن ولا تنكحوا منهن الا من واحدة الى الأربع ولا تزيدوا على ذلك . وإن خفتم ايضا ان لا تعدلوا في الزيادة عن الواحدة فلا تنكحوا إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيهن من واحدة أو ما ملكت أيمانكم . ثم أورد ابن جرير الروايات التي تؤيد ذلك عن سعيد بن جبير والسدي وقتادة . وعن ابن عباس ايضا من طريق عبد الله بن صالح أنه قال في الآية : كانوا في الجاهلية ينكحون عشرا من النساء الأيامى وكانوا يعظمون شأن اليتيم فتفقدوا من دينهم شأن اليتيم وتركوا ما كانوا ينكحون في الجاهلية (أي لم يتفقدوه في الاسلام ويتأثموا مما فيه من ظلم النساء)

فقال « وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ونهاهم عما كانوا ينكحون في الجاهلية . وروى نحوه عن الضحاك وفيه انهم كانوا ينكحون عشرا من النساء ونساء آبائهم وانه وعظهم في اليتامى وفي النساء . وروى نحوه أيضا عن الربيع ومجاهد

قال أبو جعفر (ابن جرير) وأولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بتأويل الآية قول من قال تأويلها وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى فكذلك فخافوا في النساء فلا تنكحوا منهن إلا مالا تخافون ان تجوروا فيه منهن من واحدة الى الأربع فان خفتم الجور في الواحدة أيضا فلا تنكحوها ولكن عليكم بما ملكت أيمانكم فانه أحرى ان لا تجوروا عليهن

(قال) وانما قلنا ان ذلك أولى بتأويل الآية لأن الله جل ثناؤه افتتح الآية التي قبلها بالنهي عن أكل أموال اليتامى بغير حقها وخلطها بغيرها من الاموال فقال تعالى ذكره « وآتوا اليتامى أموالهم » الآية . ثم أعلمهم انهم ان اتقوا الله في ذلك فتحرجوا فيه فالواجب عليهم من اتقاء الله والتحرج في أمر النساء مثل الذي عليهم من التحرج في أمر اليتامى وأعلمهم كيف التخلص لهم من الجور فيه كما عرفهم المخلص من الجور في أموال اليتامى فقال انكحوا ان أمنتم الجور في النساء على أنفسكم ما أبحت لكم منهن مثنى وثلاث ورباع الخ ما تقدم عنه آنفا ثم قال :

ففي الكلام إذا كان المعنى ما ذكرنا متروك استغني بدلالة ما ظهر من الكلام عن ذكره وذلك ان معنى الكلام : وان خفتم ان لا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ان لا تقسطوا في حقوق النساء اللاتي أوجبها الله عليكم فلا تتزوجوا منهن الا ما أمنتم معه الجور الخ

ثم بين ان جواب الشرط في قوله تعالى «وان خفتم ان لا تعدلوا في اليتامى» هو قوله « فانكحوا ماطاب لكم » مع ضميمة قوله « ذلك أدنى ان لا تعولوا » فان هذا أفهم ان اللازم المراد من قوله « فانكحوا ماطاب لكم » هو العدل والاقساط في النساء والتحذير من ضده وهو عدم الإقساط فيهن الذي يجب ان

يخاف كما يخاف عدم الإقساط في اليتامى لأن كلا منهما مفسدة في نظام الاجتماع تغضب الله وتوجب سخطه ويؤكده قوله تعالى « ذلك أدنى ان لا تعولوا » وقد بيناه بأوضح ما بينه هو به

وعلى هذا الوجه الذي اختاره ابن جرير يكون الكلام في العدل في النساء وتقليل العدد الذي ينكح منهن مع الثقة بالعدل مقصودا لذاته وهو الذي يليق بالمسألة في ذاتها لأنها من أهم المسائل الاجتماعية ويناسب ان يكون في أوائل السورة التي سميت سورة النساء . واما على الوجه الذي قالته عائشة وهو الذي اختاره الاستاذ الامام في الدرس فمسألة تعدد الزوجات جاء بالتبع لا بالأصالة . وكذلك على الوجه الثالث الذي يقول ان المراد منعهم من التعدد الذي يحتاجون فيه الى أموال اليتامى لينفقوا على أزواجهم الكثيرات وهذا أضعف الوجوه وان قال الرازي انه أقربها

وقد يصح ان يقال انه يجوز ان يراد بالآية مجموع تلك المعاني من قبيل رأي الشافعية الذين يجوزون استعمال اللفظ المشترك في كل ما يحتمله الكلام من معانيه واستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه معا . والذي يقرره كاتب هذا الكلام في دروس التفسير دائماً هو أن كل ما يتناوله اللفظ من المعاني المتفقة يجوز ان يكون مرادا منه لا فرق في ذلك بين المفردات والجمل . وعلى هذا تكون الآية مرشدة الى إبطال كل تلك الضلالات والمظالم التي كانت عليها الجاهلية في أمر اليتامى وأمر النساء من التزوج باليتامى بدون مهر المثل والتزوج بهن طمعاً في أموالهن يأكلها الرجل بغير حق ومن عضلهن ليبقى الولي متمتعاً بمالهن لا ينازعه فيه الزوج ومن ظلم النساء بتزوج الكثيرات منهن مع عدم العدل بينهن — فمن لم يفهم هذا كله من هذه الآية فهمه من مجموع الآيات هنا

الأستاذ الامام : جاء ذكر تعدد الزوجات في سياق الكلام على اليتامى والنهي عن أكل أموالهم ولو بواسطة الزوجية فقال ان أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ان لا تتزوجوا بها فان الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن إلى أربع نسوة ولكن ان خفتم ان لا تعدلوا

بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم ان تلتزموا واحدة فقط . والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه بل يصدق بتوهمه أيضا ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو منه علم بمثل هذه الأمور فالذي يباح له ان يتزوج ثانية أو أكثر هو الذي يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفا

ولما قال « فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة » علله بقوله « ذلك أدنى ان لا تعولوا » أي أقرب من عدم الجور والظلم فجعل البعد من الجور سببا في التشريع وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحريه ومنبه الى ان العدل عزيز . وقد قال تعالى في آية أخرى من هذه السورة (١٢٩ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) وقد يحمل هذا على العدل في ميل القلب ولولا ذلك لكان مجموع الآيتين منتجا عدم جواز التعدد بوجه ما ولما كان يظهر وجه قوله بعد ما تقدم من الآية (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يميل في آخر عهده إلى عائشة أكثر من سائر نسائه ولكنه لا يخصها بشيء دونهن بغير رضاهن وإذنهن وكان يقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك » أي من ميل القلب

فمن تأمل الآيتين علم ان إباحة تعدد الزوجات في الاسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والامن من الجور . واذا تأمل المتأمل مع هذا التضييق ما يترتب على التعدد في هذا الزمان من المفاسد جزم بانه لا يمكن لأحد ان يربي أمة فشا فيها تعدد الزوجات فان البيت الذي فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ثم يجيء الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الافراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة

كان للتعدد في صدر الاسلام فوائد أهمها صلة النسب والصهر الذي تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن لان الدين كان متمكناً في نفوس

النساء والرجال وكان أذى الضرة لا يتجاوز ضرتها . اما اليوم فان الضرر ينتقل من كل ضرة إلى ولدها إلى والده الى سائر أقارب به فهي تغري بينهم العداوة والبغضاء . تغري ولدها بعداوة اخوته وتغري زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها وهو بحماقته يطيع أحب نسائه اليه فيدب الفساد في العائلة كلها ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير بل منها القتل حتي قتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والزوج زوجته كل ذلك واقع ثابت في المحاكم = وناهيك بتربية المرأة التي لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد وهي جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه إلا خرافات وضلالات تلقفتها من أمثالها يتبرأ منها كل كتاب منزل وكل نبي مرسل فلو تربى النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة لما كان هنالك ضرر على الامة من تعدد الزوجات وانما يكون ضرره قاصرا عليهن في الغالب . أما والامر على ما نرى ونسمع فلا سبيل الى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون ان الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وان من أصوله منع الضرر والضرار فاذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة . يعني على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح قال وبهذا يعلم ان تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل

هذا ما قاله الاستاذ الامام في الدرس الأول الذي فسر فيه الآية ثم قال في الدرس الثاني : تقدم ان إباحة تعدد الزوجات مضيقة قد اشترط فيها ما يصعب تحققه فكأنه نهى عن كثرة الازواج . وتقدم انه يحرم على من خاف عدم العدل ان يتزوج أكثر من واحدة ولا يفهم منه كما فهم بعض المجاورين انه لو عقد في هذه الحالة يكون العقد باطلا أو فاسدا فان الحرمة عارضة لا تقتضي بطلان العقد فقد يخاف الظلم ولا يظلم وقد يظلم ثم يتوب فيعدل فيعيش عيشة حلالا

(قال) أما قوله تعالى «أو ما ملكت أيمانكم» فهو معطوف على قوله «فواحدة» أي فالزموا زوجا واحدة وأمسكوا زوجا واحدة مع العدل — وهذا فيمن كان متزوجا كثيرات — أو الزموا ما ملكت أيمانكم وا كتفوا بالتسري بهن بغير شرط «ذلك أدنى ان لا تعولوا» أي، اقرب الى عدم العول وهو الجور فان العدل بين الاماء في الفراش غير واجب إذ لا حق لهن فيه وانما لهن الحق في الكفاية بالمعروف . وهذا لا يفيد حل ما جرى عليه المسلمون منذ قرون كثيرة من الاسراف في التمتع بالجواري المملوكات بحق أو بغير حق مهما ترتب على ذلك من المفاسد كما شوهد ولا يزال يشاهد في بعض البلاد الى الآن اه كلامه رحمه الله تعالى . وأتذكر انني سمعت منه انه يرى عدم الزيادة في الإماء على أربع ولكنني لم أر ذلك مكتوبا عندي

(أقول) هذا وان تعدد الزوجات خلاف الاصل الطبيعي في الزوجية فان الاصل ان يكون للرجل امرأة واحدة يكون بها كما تكون به زوجا ولكنه ضرورة تعرض للاجتماع لا سيما في الامم الحربية كالأمة الاسلامية فهي انما ابيحت للضرورة واشترط فيها عدم الجور والظلم . ولهذه المسألة مباحث أخرى كبحث حكمة التعدد والعدد وبحث امكان منع الحكام لمفاسد التعدد بالتضيق فيه اذا عم ضرره كما هي الحال في البلاد المصرية فان الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يكثرون هنا مالا يكثرون في بلاد الشام و بلاد الترك مع كون الاخلاق في البلاد المصرية أشد فسادا منها هناك . ولنا في حكمة التعدد فتوى نشرناها في المجلد السابع من المنار هذا نصها

﴿ تعدد الزوجات ﴾

(س ٢٠) من نجيب أفندي قناوي أحد طلبة الطب في أمريكا : يسألني كثير من أطباء الامريكانيين وغيرهم عن الآية الشريفة «فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة» ويقولون كيف يجمع المسلم بين أربع نسوة ؟ فاجبتهم على مقدار ما فهمت من الآية مدافعة عن ديني وقلت ان العدل بين اثنتين مستحيل لانه عند ما يتزوج الجديدة لا بد ان يكره القديمة فكيف يعدل بينهما والله أمر بالعدل فالاحسن واحدة» هذا ما قلته وربما أقنعهم ولكن أريد

منكم التفسير وتوضيح هذه الآية وما قولكم في الذين يتزوجون ثنتين وثلاثا . ؟

(ج) ان الجماهير من الأفرنج يرون مسألة تعدد الزوجات أكبر قادح في الاسلام متأثرين بعاداتهم وتقليدهم الديني وغلوهم في تعظيم النساء وبما يسمعون ويعلمون عن حال كثير من المسلمين الذين يتزوجون بعدة زوجات لمجرد التمتع الحيواني من غير تقيد بما قيد القرآن به جواز ذلك وبما يعطيه النظر من فساد البيوت التي تتكون من زوج واحد وزوجات لهن أولاد يتحاسدون ويتنازعون ويتباغضون . ولا يكفي مثل هذا النظر للحكم في مسألة اجتماعية كبرى كهذه المسألة بل لابد قبل الحكم من النظر في طبيعة الرجل وطبيعة المرأة والنسبة بينهما من حيث معنى الزوجية والغرض منها ، وفي عدد الرجال والنساء في الامم أيهما أكثر ، وفي مسألة المعيشة المنزلية وكفالة الرجال للنساء أو العكس أو استقلال كل من الزوجين بنفسه ، وفي تاريخ النشوء البشري ليعلم هل كان الناس في طور البداوة يكتفون بأن يختص كل رجل بامرأة واحدة ، وبعد هذا كله ينظر هل جعل القرآن مسألة تعدد الزوجات أمراً دينيا مطلوبا أم رخصة تباح للضرورة بشروط مضيق فيها ؟

أنتم معشر المشتغلين بالعلوم الطبية أعرف الناس بالفرق بين طبيعة الرجل والمرأة وأهم التباين بينهما ، ومما نعلم نحن بالاجمال ان الرجل بطبيعته أكثر طلبا للأنثى منها له وانه قلما يوجد رجل عنين لا يطلب النساء بطبيعته ولكن يوجد كثير من النساء اللاتي لا يطلبن الرجال بطبيعتهن ولولا أن المرأة مغرمة بأن تكون محبوبة من الرجل وكثيرة التفكر في الحظوة عنده لوجد في النساء من الزاهدات في التزوج أضعاف ما يوجد الآن . وهذا الغرام في المرأة هو غير الميل المتولد من داعية التناسل الطبيعية فيها وفي الرجل وهو الذي يحمل العجوز والتي لا ترجو زواجا على التزين بمثل ما تتزين به العذراء المعرّضة والسبب عندي في هذا معظمه اجتماعي وهو ما ثبت في طبيعة النساء واعتقادهن القرون الطويلة من الحاجة الى حماية الرجال وكفالتهم وكون عناية الرجل بالمرأة على قدر حظوتها عنده وميله اليها، أحس النساء بهذا في الاجيال الفطرية فعملن له حتى صار ملكة موروثة فيهن حتى ان

المرأة لتبغض الرجل ويؤلمها مع ذلك ان يعرض عنها ويمتهنها وانهن ليألمن ان يرين رجلا — ولو شيخا كبيرا أو راهبا متبتلا — لا يميل الى النساء ولا يخضع لسحرهن ويستجيب لرقيتهن . ونتيجة هذا ان داعية النسل في الرجل أقوى منها في المرأة فهذه مقدمة أولى

ثم ان الحكمة الالهية في ميل كل من الزوجين الذكر والانثى الى الآخر الميل الذي يدعو الى الزواج هي التناسل الذي يحفظ به النوع كما ان الحكمة في شهوة التغذي هي حفظ الشخص . والمرأة تكون مستعدة للنسل نصف العمر الطبيعي للانسان وهو مئة سنة . وسبب ذلك ان قوة المرأة تضعف عن الحمل بعد الخمسين في الغالب فينقطع دم حيضها وبيوض التناسل من رحمها والحكمة ظاهرة في ذلك والاطباء اعلم بتفصيلها . فاذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من امرأة واحدة كان نصف عمر الرجال الطبيعي في الامة معطلا من النسل الذي مقصود الزواج اذا فرض ان الرجل يقترن بمن تساويه في السن وقد يضيع على بعض الرجال أكثر من خمسين سنة اذا تزوج بمن هي أكبر منه وعاش العمر الطبيعي كما يضيع على بعضهم اقل من ذلك اذا تزوج بمن هي أصغر منه وعلى كل حال يضيع عليه شيء من عمره حتى لو تزوج وهو في سن الخمسين بمن هي في الخامسة عشرة يضيع عليه خمس عشرة سنة . وماعساه يطرأ على الرجال من مرض او هرم عاجل او موت قبل بلوغ السن الطبيعي يطرأ مثله على النسا قبل سن اليأس . وقد لاحظ هذا الفرق بعض حكماء الافرنج فقال لو تركنا رجلا واحدا مع مئة امرأة سنة واحدة لجاز ان يكون لنا من نسله في السنة مئة انسان واما اذا تركنا مئة رجل مع امرأة واحدة سنة كاملة فاكثر مايمكن ان يكون لنا من نسلهم انسان واحد، والارجح ان هذه المرأة لا تنتج احدا لان كل واحد من الرجال يفسد حرث الآخر . ومن لاحظ عظم شأن كثرة النسل في سنة الطبيعة وفي حال الامم يظهر له عظم شأن هذا الفرق — فهذه مقدمة ثانية

ثم ان المواليد من الأناث أكثر من الذكور في أكثر بقاع الأرض(١) . وترى

(١) قد ينازع في كونهن اكثر في أكثر بقاع الارض ولكنه ثابت في انكلترا وفي أعقاب الحروب في كل مملكة

الرجال على كونهم أقل من النساء يعرض لهم من الموت والاشتغال عن التزوج أكثر مما يعرض للنساء ومعظم ذلك في الجندية والحروب وفي العجز عن القيام باعباء الزواج ونفقاته لأن ذلك يطلب منهم في اصل نظام الفطرة وفيما جرت عليه سنة الشعوب والامم الاماشذ. فاذا لم يبح للرجل المستعد للزواج ان يتزوج باكثر من واحدة اضطرت الحال الى تعطيل عدد كثير من النساء ومنعهن من النسل الذي تطلبه الطبيعة والامة منهن، والى إلزامهن مجاهدة داعية النسل في طبيعتهن وذلك يحدث امراضا بدنية وعقلية كثيرة يمسي بها أولئك المسكينات عالة على الامة و بلاء فيها بعد ان كن نعمة لها ، اوالى اباحة اعراضهن والرضى بالسفاح وفي ذلك من المصائب عليهن لاسيما اذا كن فقيرات ما لا يرضى به ذو إحساس بشري . وانك لتجد هذه المصائب قد انتشرت في البلاد الافرنجية حتى اعيا الناس امرها وطفق اهل البحث ينظرون في طريق علاجها فظهر لبعضهم ان العلاج الوحيد هو اباحة تعدد الزوجات . ومن العجائب ان ارتأى هذا الرأي غير واحدة من كاتبات الانكليز وقد نقلنا ذلك عنهن في مقالة نشرت في المجلد الرابع من المنار (تراجع في ص٧٤١ منه) وانما كان هذا عجيبا لان النساء ينفرن من هذا الامر طبعا وهن يحكمن بمقتضى الشعور والوجدان ، أكثر مما يحكمن بمقتضى المصلحة والبرهان ، بل ان مسألة تعدد الزوجات صارت مسألة وجدانية عند رجال الافرنج تبعا لنسائهم حتى لتجد الفيلسوف منهم لا يقدر ان يبحث في فوائدها وفي وجه الحاجة اليها بحث بريء من الغرض طالب كشف الحقيقة — فهذه مقدمة ثالثة

وانتقل بك من هذا إلى اكتناه حال المعيشة الزوجية وأشرف بك على حكم العقل والفطرة فيها وهو ان الرجل يجب ان يكون هو الكافل للمرأة وسيد المنزل لقوة بدنه وعقله وكونه اقدر على الكسب والدفاع وهذا هو معنى قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وان المرأة يجب ان تكون مدبرة المنزل ومربية الاولاد لرقتها وصبرها وكونها كما قلنا من قبل واسطة في الاحساس والتعقل بين الرجل والطفل فيحسن أن تكون واسطة لنقل الطفل الذكر بالتدريج الى الاستعداد للرجولية ولجعل البنت كما يجب ان تكون من اللطف والدعة والاستعداد لعملها الطبيعي . وان شئت فقل في بيان هذه المسألة ان البيت مملكة

صغرى كما ان مجموع البيوت هو المملكة الكبرى فللمرأة في هذه المملكة ادارة نظارة الداخلية والمعارف وللرجل مع الرياسة العامة ادارة نظارات المالية والاشغال العمومية والحربية والخارجية. واذا كان من نظام الفطرة ان تكون المرأة قيمة البيت وعملها محصورا فيه لضعفها عن العمل الآخر بطبيعتها وبما يعوقها من الحبل والولادة ومداراة الاطفال وكانت بذلك عالة على الرجل — كان من الشطط تكليفها المعيشة الاستقلالية بله السيادة والقيام على الرجل . واذا صح ان المرأة يجب ان تكون في كفالة الرجل وان الرجال قوامون على النساء كما هو ظاهر فماذا نعمل والنساء (قد يكنّ) اكثر من الرجال عدداً ؟ ألا ينبغي أن يكون في نظام الاجتماع البشري أن يباح للرجل الواحد كفالة عدة نساء عند الحاجة الى ذلك لاسيما في أعقاب الحروب التي تجتاح الرجال وتدع النساء لا كافل للكثير منهن ولا نصير؟ ويزيد بعضهم على هذا ان الرجل في خارج المنزل يتيسر له ان يستعين على أعماله بكثير من الناس ولكن المنزل لا يشتمل على غير أهله وقد تمس الحاجة الى مساعد للمرأة على أعمالها الكثيرة كما تقضي قواعد علم الاقتصاد في توزيع الاعمال ولا ينبغي ان يكون من يساعدها في البيت من الرجال لما في ذلك من المفاسد ، فمن المصلحة على هذا ان يكون في البيت عدة نساء مصلحتهن عمارته — كذا قال بعضهم — فهذه مقدمة رابعة

واذا رجعت معي الى البحث في تاريخ النشوء البشري في الزواج والبيوت (العائلات) أو في الازدواج والانتاج تجد أن الرجل لم يكن في أمة من الأمم يكتفي بامرأة واحدة كما هو شأن أكثر الحيوانات وليس هذا بمحل لبيان السبب الطبيعي في ذلك بل ثبت بالبحث أن القبائل المتوحشة كان فيها النساء حقا مشاعا للرجال بحسب التراضي وكانت الام هي رئيسة البيت إذ الاب غير متعين في الغالب وكان كلما ارتقى الانسان يشعر بضرر هذ الشيوع والاختلاط ويميل الى الاختصاص فكان أول اختصاص في القبيلة أن يكون نساؤها لرجالها دون رجال قبيلة أخرى وما زالوا يرتقون حتى وصلوا إلى اختصاص الرجل الواحد بعدة نساء من غير تقيد بعدد معين بل حسب ما يتيسر له فانتقل بهذا تاريخ البيوت (العائلات) الى دور

جديد صار فيه الاب عمود النسب وأساس البيت كما بين ذلك بعض علماء الالمان والانكليز المتأخرين في كتب لهم في تاريخ البيوت (العائلات) ومن هنا يذهب الافرنج الى ان نهاية الارتقاء هو ان يخص الرجل الواحد بامرأة واحدة، وهو مسلم وينبغي ان يكون هـذا هو الاصل في البيوت ولكن ماذا يقولون في العوارض الطبيعية والاجتماعية التي تلجئ الى ان يكفل الرجل عـدة من النساء لمصلحتهن ومصلحة الامة ولاستعداده الطبيعي لذلك ؟ وليخبرونا هل رضي الرجال بهذا الاختصاص وقنعوا بالزواج الفردي في أمة من الامم الى اليوم ؟ أيوجـد في أوربا في كل مئة ألف رجل رجلٌ واحد لا يزني؟ كلا ان الرجل بمقتضى طبيعته وملكاته الوراثية لا يكتفي بامرأة واحدة إذ المرأة لا تكون في كل وقت مستعدة لغشيان الرجل إياها كما انها لا تكون في كل وقت مستعدة لثمرة هذا الغشيان وفائدته وهو النسل فداعية الغشيان في الرجل لا تنحصر في وقت دون وقت ولكن قبوله من المرأة محصور في أوقات وممنوع في غيرها . فالداعية الطبيعية في المرأة لقبول الرجل انما تكون مع اعتدال الفطرة عقب الطهر من الحيض ، وأما في حال الحيض وحال الحمل والإثقال فتأبى طبيعتها ذلك . وأظن أنه لولا توطين المرأة نفسها على إرضاء الرجل والحظوة عنده ولولا ما يحدثه التذكر والتخيل للذة وقعت في ابانها من التحمل لاستعدادتها لا سيما مع تأثير التربية والعادات العمومية لكان النساء يأبين الرجال في أكثر أيام الطهر التي يكن فيهـا مستعدات للعلوق الذي هو مبدأ الإنتاج ، ومن هذا التقرير يعلم ان اكتفاء الرجل بامرأة واحدة تستلزم ان يكون مندفعا بطبيعته الى الإفضاء اليها في أيام طويلة وهي فيها غير مستعدة لقبوله أظهرها أيام الحيض والإثقال بالحمل والنفاس وأقلها ظهورا أيام الرضاع لا سيما الاولى والايام الاخيرة من أيام طهرها وقد ينازع في هذه لغلبة العادة فيها على الطبيعة ، واما اكتفاء المرأة برجل واحد فلا مانع منه في طبيعتها ولا لمصلحة النسل بل هو الموافق لذلك اذ لا تكون المرأة في حال مستعدة فيها لملامسة الرجل وهو غير مستعد ما داما في اعتدال مزاجهما ، ولا نذكر المرض لان الزوجين يستويان فيه ومن حقوق الزوجية وآدابها ان يكون لكل منهما شغل بتمريض الآخر في وقت مصابه عن السعي وراء لذته ، وقد ذكر عن بعض محققي الاوربيين ان تعدد

الازواج الذي وجد في بعض القبائل المتوحشة كان سببه قلة البنات لوأد الرجال إياهن في ذلك العصر ـ فهذه مقدمة خامسة

بعد هذا كله اجل طرفك معي في تاريخ الامة العربية قبل الاسلام تجد انها كانت قد ارتفعت الى ان صار فيها الزواج الشرعي هو الاصل في تكوّن البيوت والرجل هو عمود البيت واصل النسب ولكن تعدد الزوجات لم يكن محدودا بعدد ولا مقيداً بشرط وكان اختلاف عدة رجال الى امرأة واحدة يعد من الزنا المذموم، وكان الزنا على كثرته يكاد يكون خاصا بالاماء وقلما يأتيه الحرائر الا ان يأذن الرجل امرأته بان تستبضع من رجل يعجبها ابتغاء نجابة الولد، والزنا لم يكن معيبا ولا عارا صدوره من الرجل وانما كان يعاب من حرائر النساء . وقد حظر الاسلام الزنا على الرجال والنساء جميعا حتى الاماء فكان يصعب جدا على الرجال قبول الاسلام والعمل به مع هذا الحجر بدون اباحة تعدد الزوجات ولولا ذلك لاستبيح الزنا في بلاد الاسلام كما هو مباح في بلاد الافرنج . فهذه مقدمة سادسة

ولا تنس مع العلم بهذه المسائل ان غاية الترقي في نظام الاجتماع وسعادة البيوت (العائلات) ان يكون تكوّن البيت من زوجين فقط يعطي كل منهما الآخر ميثاقا غليظا على الحب والاخلاص ، والثقة والاختصاص ، حتى اذا ما رزقا اولادا كانت عنايتهما متفقة على حسن تربيتهما ليكونوا قرة عين لهما ويكونا قدوة صالحة لهم في الوفاق والوئام والحب والاخلاص ـ فهذه مقدمة سابعة

أذا انعمت النظر في هذه المقدمات كلها وعرفت فرعها واصلها تتجلى لك هذه النتيجة او النتائج هي: ان الاصل في السعادة الزوجية والحياة البيتية هو ان يكون للرجل زوجة واحدة وان هذا هو غاية الارتقاء البشري في بابه والكمال الذي ينبغي ان يربى الناس عليه ويقتنعوا به ، وانه قد يعرض له ما يحول دون اخذ الناس كلهم به وتمس الحاجة الى كفالة الرجل الواحد لاكثر من امرأة واحدة ، وان ذلك قد يكون لمصلحة الافراد من الرجال والنساء كأن يتزوج الرجل بامرأة عاقر فيضطر الى غيرها لاجل النسل ويكون من مصلحتها او مصلحتهما معا ان لا يطلقها وترضى بان يتزوج بغيرها لا سيما اذا كان ملكا او اميرا، او تدخل المرأة في سن اليأس ويرى الرجل انه مستعد للاعقاب من غيرها وهو قادر على القيام باود غير واحدة وكفاية اولاد كثيرين وتربيتهم ، او يرى ان المرأة الواحدة لا تكفي

لإحصانه لان مزاجه يدفعه إلى كثرة الافضاء ومزاجها بالعكس او تكون فاركا منشاصا (اي تكره الزوج) او يكون زمن حيضها طويلا ينتهي الى خمسة عشر يوما في الشهر ويرى نفسه مضطرا لاحد الامرين : التزوج بثانية اوالزنا الذي يضيع الدين والمال والصحة ويكون شرا على الزوجة من ضم واحدة اليها مع العدل بينهما كما هو شرط الاباحة في الاسلام ولذلك استبيح الزنا في البلاد التي يمنع فيها التعدد بالمرة

وقد يكون التعدد لمصلحة الامة كأن تكثر فيها النساء كثرة فاحشة كما هو الواقع في مثل البلاد الانكليزية وفي كل بلاد تقع فيها حرب مجتاحة تذهب بالألوف الكثيرة من الرجال فيزيد عدد النساء زيادة فاحشة تضطرهن الى الكسب والسعي في حاج الطبيعة ولا بضاعة لأكثرهن في الكسب سوى أبضاعهن ، واذا هن بذلنها فلا يخفى على الناظر ماوراء بذلها من الشقاء على المرأة التي لا كافل لها اذا اضطرت الى القيام بأود نفسها وأود ولد ليس له والد لاسيما عقب الولادة ومدة الرضاعة بل الطفولية كلها . وما قال من قال من كاتبات الانكليز بوجوب تعدد الزوجات الا بعد النظر في حال البنات اللواتي يشتغلن في المعامل وغيرها من الاماكن العمومية وما يعرض لهن من هتك الاعراض والوقوع في الشقاء والبلاء ولكن لما كانت الاسباب التي تبيح تعدد الزوجات هي ضرورات تتقدر بقدرها وكان الرجال انما يندفعون الى هذا الامر في الغالب إرضاء للشهوة لا عملا بالمصلحة وكان الكمال الذي هو الاصل المطلوب عدم التعدد — جعل التعدد في الاسلام رخصة لا واجبا ولا مندوبا لذاته وقيد بالشرط الذي نطقت به الآية الكريمة وأكدته تأكيدا مكررا فتأملها

قال تعالى : «وان خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ان لا تعولوا » فأنت ترى أن الكلام كان في حقوق الايتام ولما كان في الناس من يتزوج باليتيمة الغنية ليتمتع بمالها ويهضم حقوقها لضعفها حذرالله من ذلك وقال ان النساء أمامكم كثيرات فاذا لم تثقوا من انفسكم بالقسط في اليتامى اذا تزوجتم بهن فعليكم بغيرهن فذكر مسألة التعدد بشرطها ضمنا لا استقلالا (على أحد الاوجه) والافرنج يظنون أنها مسألة من مهمات الدين في الاسلام. ثم قال «فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة» ولم يكتف

بذلك حتى قال «ذلك أدنى أن لا تعولوا» أي ان الاكتفاء بواحدة ادنى وأقرب لعدم العول وهو الجور والميل الى أحد الجانبين دون الآخر من عال الميزان اذا مال وهو الارجح في تفسير الكلمة فأكد أمر العدل وجعل مجرد توقع الانسان عدم العدل من نفسه كافيا في المنع من التعدد. ولا يكاد يوجد أحد يتزوج بثانية لغير حاجة وغرض صحيح يأمن الجور لذلك كان لنا ان نحكم بأن الذوّاقين الذين يتزوجون كثيراً لمجرد التنقل في التمتع يوطنون أنفسهم على ظلم الاولى ومنهم من يتزوج لاجل ان يغيظها ويهينها ولا شك أن هذا محرم في الاسلام لما فيه من الظلم الذي هو خراب البيوت بل وخراب الأمم ، والناس عنه غافلون باتباع أهوائهم

هذا ما ظهر لنا الآن في الجواب كتبناه بقلم العجلة على أننا كنا قد أرجأنا الجواب لنمعن في المسألة ونراجع كتابا أو رسالة في موضوعها لأحد علماء ألمانيا قيل لنا انها ترجمت وطبعت فلم يتيسر لنا ذلك فان بقي في نفس السائل شيء فليراجعنا فيه والله الموفق والمعين اه

وكتبنا في الرد على لورد كرومر في (ص ٢٢٥ م ١٠) من المنار ما نصه :

طالما انتقد الأوربيون على الاسلام نفسه مشروعية الطلاق وتعدد الزوجات وهما لم يطلبا ولم يحمدا فيه وإنما أجيزا لأنهما من ضرورات الاجتماع كما بينا ذلك غير مرة وقد ظهر لهم تأويل ذلك في الطلاق فشرعوه وان لم يشرعه لهم كتابهم (الانجيل) إلا لعلة الزنا . واما تعدد الزوجات فقد تعرض الضرورة له فيكون من مصلحة النساء أنفسهن كأن تغتال الحرب كثيرا من الرجال فيكثر من لا كافل لهن من النساء فيكون الخير لهن ان يكن ضرائر ولا يكن فواجر يأكلن بأعراضهن ويعرضن أنفسهن بذلك لمصائب ترزحهن أثقالها . وقد انشأ القوم يعرفون وجه الحاجة بل الضرورة الى هذا كما عرفوا وجه ذلك في مسألة الطلاق وقام غير واحدة من نساء الانكليز الكاتبات الفاضلات ، يطالبن في الجرائد بإباحة تعدد الزوجات ، رحمة بالعاملات الفقيرات ، وبالبغايا المضطرات، وقد سبق لنا في المنار ترجمة بعض ما كتبت احداهن في جريدة (لندن تروث) مستحسنة رأي العالم (تومس) في انه لا علاج لتقليل البنات الشاردات ، الا تعدد الزوجات ، وما كتبت الفاضلة « مس اني رود » في

جريدة (الاسترن ميـل) والكاتبة « اللادى كوك » في جريدة (الايكو) في ذلك (راجع ص ٤٨١ م ٤)

ان قاعدة اليسر في الامور ورفع الحرج من القواعد الاساسية لبناء الاسلام (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر — و — ٥ : ٦ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج) ولا يصح أن ينبي على هـذه القاعدة تحريم أمر تلجئ اليه الضرورة أو تدعو اليه المصلحة العامة أو الخاصة (كما بينا ذلك في مقالات الحياة الزوجية وغيرها) وهو مما يشق امتثاله دفعة واحـدة لا سيما على من اعتادوا المبالغة فيه كتعدد الزوجات كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس وشأنهم فيه على ما فيه من المفاسد فلم يبق الا ان يقلل العـدد ويقيد بقيد ثقيل وهو اشتراط انتفاء الخوف من عدم العدل بين الزوجات وهو شرط يعز تحققه ومن فقهه واختبر حال الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يتجلى له ان أكثرهم لم يلتزم الشرط ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي

وجملة القول في هذه المسألة أن القرآن أتى فيها بالكمال الذي لا بد ان يعترف به جماهير الأوربيين ولو بعد حين كما يعترف به بعض فضلائهم وفضلياتهم الآن . وأما المسلمون فلم يلتزموا هدايته فصاروا حجة على دينهم ونحن أحوج الى الرد عليهم والعناية بارجاعهم إلى الحق منا الى إقناع غير المسلمين بفضل الاسلام، مع بقاء أهله على هـذه المخازي والآثام، إذ لو رجعوا اليه، لما كان لأحد ان يعترض عليه اهـ

أما ما أشرنا اليه من اقتراح بعض كاتبات الافرنج تعدد الزوجات فهو ما أودعناه مقالة عنوانها (النساء والرجال) نشرت في (ص٤٨١م٤) من المنار وهاك المقصود منها

لما تنبه أهل أوربا الى اصلاح شؤونهم الاجتماعية وترقية معيشتهم المدنية اعتنوا بتربية النساء وتعليمهن فكان لذلك أثر عظيم في ترقيتهم وتقدمهم ولكن المرأة لا تبلغ كمالها الا بالتربية الاسلامية وأعني بالاسلامية ما جاء به الاسلام لا ما عليه المسلمون اليوم ولا قبل اليوم بقرون فقد قلت آنفا إنهم ما رعوا تعاليم دينهم حق رعايتها . ولهذا وجدت مع التربية الأوربية للنساء جراثيم الفساد ونمت هذه الجراثيم فتولدت منها

الادواء الاجتماعية والامراض المدنية وقد ظهر أثرها بشدة في الدولة السابقة اليها وهي فرنسا فضعف نسلها وقلت مواليدها قلة تهددها بالانقراض والذنب في ذلك على الرجال

حذر من مغبة هذه الامراض العقلاء ، وحذرن من عواقبه الكتاب الاذكياء، وصرح من يعرف شيئا من الديانة الاسلامية ، بتمني الرجوع الى تعاليمها المرضية، وفضائلها الحقيقية ،وصرحوا بان الرجل هو الذي اضل المرأة وأفسد تربيتها وان بعض فضليات نساء الافرنج صرحت بتمني تعدد الزوجات للرجل الواحد ليكون لكل امرأة قيم وكفيل من الرجال

جاء في جريدة (لاغوص ويكلى ركورد) في العدد الصادر في ٢٠ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠١ نقلا عن جريدة (لندن تروت) بقلم كاتبة فاضلة ما ترجمته ملخصا :

لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء وقل الباحثون عن أسباب ذلك واذ كنت امرأة تراني انظر الى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزنا وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني وتوجعي وتفجعي وان شاركني فيه الناس جميعا ؟؟ لا فائدة الا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة ولله در العالم الفاضل (تومس) فانه رأى الداء ووصف له الدواء الكافل الشفاء وهو (الاباحة للرجل التزوج بأكثر من واحدة) وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة وتصبح بناتنا ربات بيوت فالبلاء كل البلاء في اجبار الرجل الاوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة . فهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شوارد وقذف بهن الى التماس أعمال الرجال ولا بد من تفاقم الشر اذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة . أي ظن وخرص يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين أصبحوا كلا وعالة وعاراً على المجتمع الانساني فلو كان تعدد الزوجات مباحا لما حاق باولئك الاولاد وبامهاتهم ما هم فيه من العذاب الهون ولسلم عرضهن وعرض اولادهن فان مزاحمة المرأة للرجل ستحل بنا الدمار . ألم تروا ان حال خلقتها تنادي بان عليها ما ليس على الرجل وعليه ما ليس عليها وباباحة تعدد الزوجات تصبح كل امرأة ربة بيت وأم اولاد شرعيين »

ونشرت الكاتبة الشهيرة (مس انى رود) مقالة مفيدة في جريدة (الاسترن ميل)

في العدد الصادر منها في ١٠ مايو (ايار) سنة ١٠٩١ نقتطف منها ما يأتي

« لأن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم او كالخوادم خير واخف بلاء من اشتغالهن في المعامل حيث تصبح البنت ملوثة بادران تذهب برونق حياتها الى الابد ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة رداء، الخادمة والرقيق يتنعمان بارغد عيش ويعاملان كما يعامل اولاد البيت ولا تمس الاعراض بسوء. نعم انه لعار على بلاد الانكليز ان تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال فما بالنا لا نسعي وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت وترك اعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها »

وقالت الكاتبة الشهيرة (اللادي كوك) بجريدة الايكو ما ترجمته :

« ان الاختلاط يألفه الرجال ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة اولاد الزنا وهنا البلاء العظيم على المرأة فالرجل الذي علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على مضجع الفاقة والعناء وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد بل والموت ايضاً . اما الفاقة فلان الحمل وثقله والوحم ودواره من موانع الكسب الذي تحصل به قوتها واما العناء فهو انها تصبح شريدة حائرة لاتدري ماذا تصنع بنفسها واما الذل والعار فاي عار بعد هذا واما الموت فكثيراً ما تبخع المرأة نفسها بالانتحار وغيره

هذا والرجل لا يلم به شيء من ذلك . وفوق هذا كله تكون المرأة هي المسئولة وعليها التبعة مع ان عوامل الاختلاط كانت من الرجل

« أما آن لنا ان نبحث عما يخفف ـ اذا لم نقل عما يزيل ـ هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية ؟ أما آن لنا ان نتخذ طرقا تمنع قتل ألوف الالوف من الاطفال الذين لا ذنب لهم بل الذنب على الرجل الذي أغرى المرأة المجبولة على رقة القلب المقتضي تصديق ما يوسوس به الرجل من الوعود ويمني به من الأماني حتى اذا قضى منها وطرا تركها وشأنها تقاسي العذاب الاليم

« يا أيها الوالدان لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن في المعامل ونحوها ومصيرهن الى ما ذكرنا . علموهن الابتعاد عن الرجال اخبروهن بعاقبة

الكيد الكامن لهن بالمرصاد . لقد دلنا الاحصاء على ان البلاء الناتج من حمل الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط النساء بالرجال . ألم تروا ان أكثر أمهات أولاد الزنا من المشتغلات في المعامل والخادمات في البيوت وكثير من السيدات المعرضات للانظار . ولولا الاطباء الذين يعطون الادوية للاسقاط لرأينا اضعاف ما نرى الآن ، لقد ادت بنا هذه الحال الى حد من الدناءة لم يكن تصورها في الامكان حتى اصبح رجال مقاطعات من بلادنا لا يقبلن البنت زوجة ما لم تكن مجربة اي عندها اولاد من الزنا ينتفع بشغلهم !!! وهذا غاية الهبوط بالمدنية فكم قاست هذه المرأة من مرارة هذه الحياة حتى قدرت على كفالتهم والذي علقت منه لا ينظر الى أولئك الاطفال ولا يتعهدهم بشيء ، ويلاه من هذه الحالة التعيسة . ترى من كان معينا لها في الوحم ودواره ، والحمل واثقاله ، والوضع وآلامه ، والفصال ومرارته » اهـ

هذا ماقلناه في وجه الحاجة تارة والضرورة تارة الى تعدد الزوجات ويزاد عليه ماعلم منه ضمنا من كثرة النسل المطلوب شرعا وطبعا فاذا كان منع التعدد لاسيما في أعقاب الحروب وكثرة النساء يفضي الى كثرة الزنا وهو مما يقلل النسل كان مما يليق بالشريعة الاجتماعية المرغبة في كثرة النسل والمشددة في منع الزنا ان تبيح التعدد عند الحاجة اليه لأجل ذلك مع التشديد في منع مضراته وقد صرح بعض علماء أوربا بأن تعدد الزوجات من جملة أسباب انتشار الاسلام في أفريقية وغيرها وكثرة المسلمين ومهما كان من ضرر تعدد الزوجات فهو لا يبلغ ضرر قلة النسل الذي منيت به فرنسا بانتشار الزنا وقلة الزواج وستبليها انكلترا وغيرها من الامم التي على شاكلتها في التساهل في الفسق

اما منع تعدد الزوجات إذا فشا ضرره وكثرت مفاسده وثبت عند أولي الأمر ان الجمهور لا يعدلون فيه في بعض البلاد لعدم الحاجة اليه بله الضرورة فقد يمكن ان يوجد له وجه في الشريعة الاسلامية السمحة اذا كان هناك حكومة إسلامية فان للامام ان يمنع المباح الذي يترتب عليه مفسدة ما دامت المفسدة قائمة به والمصلحة بخلافه بل منع عمر (رض) في عام الرمادة ان يحد سارق ولذلك نظائر أخرى ليس هذا محل بيانها . وللاستاذ الامام فتوى في ذلك ذكرناها في الجزء الأول من تاريخه

لكن الافرنج يبالغون في وصف مفاسد التعدد وكذا المتفرنجون كدأب الناس في التسليم للأمم القوية والتقليد لها . وما قال الاستاذ الامام ما قاله في التشنيع على التعدد الا لتنفير الذواقين من المصريين وأمثالهم الذين يتزوجون كثيرا و يطلقون كثيرا لمحض التنقل في اللذة والإغراق في طاعة الشهوة مع عدم التهذيب الديني والمدني؛

الا ان التهذيب الذي يعرف به الانسان قيمة الحياة الزوجية يمنع صاحبه التعدد لغير ضرورة فهذه الحياة التي بينها الله تعالى في قوله (٣٠ : ٢١ ومن آياته ان جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) قلما تتحقق على كمالها مع التعدد لا سيما اذا كان لغير عـذر ولذلك يقل في المهذبين من يجمع بين زوجين واني لا أعرف أحدًا من أصحابي في مصر وسورية له أكثر من زوج واحدة

وقد صدق الاستاذ الامام في قوله انه لو كان عندنا تربية إسلامية لقل ضرر التعدد فينا حتى لا يتجاوز غيرة الضرائر ، بل اعرف بالخبر الصادق والاختبار الشخصي ان بعض الضرائر المسلمات قد عشن معيشة الوفاق والمحبة وكانت كل واحدة تنادي الاخرى «يا اختي» وقد تزوج كبير قرية في لبنان فلم يولد له فتزوج ثانية باذن الاولى ورضاها ابتغاء النسل فولدت له غلاما ، وكان يعدل بين الزوجين في كل شيء ، وكانتا متحابتين كالاختين وكل منهما تعتني بتربية الولد وخدمته بل قيل ان عناية امه به كانت اقل . ومات الرجل عنهما فلم تتفرقا من بعده . وما سبب ذلك الا عدله وتدينهما . نعم ان الوفاق صار من النادر ، و يصدق على اكثر الضرائر قول الشاعر

تزوجت اثنتين لفرط جهلي   وقد حاز البلا زوج اثنتين
فقلت اعيش بينهما خروفا   انعم بين اكرم نعجتين
فجاء الامر عكس القصد دوماً   عـذاب دائم ببليتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى   نقارٌ دائمٌ في الليلتين
رضا هذي يهيج سخط هذي   فلا أخلو من أحدى السخطتين

وجملة القول ان التعدد خلاف الاصل وخلاف الكمال و ينافي سكون النفس والمودة والرحمة التي هي أركان الحياة الزوجية لافرق بين زواج من لم يقمها و بين ازدواج العجماوات ونزوان بعضها على بعض . فلا ينبغي للمسلم ان يقدم على ذلك الا لضرورة

مع الثقة بما اشترط الله سبحانه فيه من العدل ، ومرتبة العدل دون مرتبة سكون النفس والمودة والرحمة وليس وراءه الاظلم المرء لنفسه وامرأته وولده وأمته والله لا يحب الظالمين

وأما حكمة تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فمنها ماهو كفالة بعض النساء المؤمنات ومنها ماله سبب سياسي أوعلمي ديني وقد سبق لنا فتوى في ذلك نشرت في المجلد الخامس من المنار (ص ٦٩٩) وهذا نص السؤال والجواب

﴿ تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

(س) مصطفى أفندي رشدي المورلي بالزقازيق : ما هي الحكمة في تعدُّد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أكثر مما أباحه القرآن الشريف لسائر المؤمنين وهو التزوج بأربع فما دونها وتعين الواحدة عند خوف الخروج عن العدل ؟

(ج) إن الحكمة العامة في تلك الزيادة على الواحدة في سن الكهولة والقيام بأعباء الرسالة والاشتغال بسياسة البشر ومدافعة المعتدين دون سن الشباب وراحة البال هي السياسة الرشيدة . فأما خديجة وهي الزوج الاولى فالحكمة في اختيارها وراء سنة الفطرة معروفة وليست من موضوع السؤال .

وقد عقد بعد وفاتها على سودة بنت زمعة وكان توفي زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية . والحكمة في اختيارها أنها من المؤمنات المهاجرات الهاجرات لأهليهن خوف الفتنة ولو عادت الى أهلها بعد وفاة زوجها (وكان ابن عمها) لعذبوها وفتنوها فكفلها عليه الصلاة والسلام وكافأها بهذه المنة العظمى .

ثم بعد شهر عقد على عائشة بنت الصديق والحكمة في ذلك كالحكمة في التزوج بحفصة بنت عمر بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة ببدر وهي اكرام صاحبيه ووزيريه أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) واقرار أعينهما بهذا الشرف العظيم ، (كما أكرم عثمان وعليا (رض) ببناته وهؤلاء أعظم أصحابه وأعظمهم خدمة لدينه)

وأما التزوج بزينب بنت جحش فالحكمة فيه تعلو كل حكمة وهي إبطال تلك البدع الجاهلية التي كانت لاحقة ببدعة التبني كتحريم التزوج بزوجة المتبني بعده

وغير ذلك . وقد نشرنا في المجلد الثالث من المنار مقالان في هذه المسألة احدهما للأستاذ الامام فليراجعها السائل هناك

ويقرب من هذه الحكمة الحكمة في التزوج بجويرية وهي برة بنت الحارث سيد قومه بني المصطلق فقد كان المسلمون أسروا من قومها مئتي بيت بالنساء والذراري فأراد عليه الصلاة والسلام أن يعتق المسلمون هؤلاء الأسرى فتزوج بسيدتهم فقال الصحابة عليهم الرضوان أصهار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاينبغي أسرهم واعتقوهم فأسلم بنو المصطلق لذلك أجمعون وصاروا عونا للمسلمين بعد ان كانوا محاربين لهم وعوناً عليهم وكان لذلك أثر حسن في سائر العرب ،

وقبل ذلك تزوج عليه السلام بزينب بنت خزيمة بعد قتل زوجها عبدالله بن جحش في (أحد) وحكمته في ذلك ان هذه المرأة كانت من فضليات النساء في الجاهلية حتى كانوا يدعونها أم المساكين لبرها بهم وعنايتها بشأنهم فكافأها عليه التحية والسلام على فضائلها بعد مصابها بزوجها بذلك فلم يدعها أرملة تقاسي الذل الذي كانت تجير منه الناس وقد ماتت في حياته

وتزوج بعدها أم سلمة (واسمها هند) وكانت هي وزوجها (عبد الله أبو سلمة بن أسد بن عمة الرسول برة بنت عبدالمطلب وأخوه من الرضاعة) أول من هاجر إلى الحبشة وكانت تحب زوجها وتجله حتى إن أبا بكر وعمر خطباها بعد وفاته فلم تقبل ، ولما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم « سَلي الله ان يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيراً » قالت : ومن يكون خيراً من أبي سلمة ؟ فمن هنا يعلم السائل وغيره مقدار مصاب هذه المرأة الفاضلة بزوجها وقد رأى عليه الصلاة والسلام أنه لا عزاء لها عنه إلا به فخطبها فاعتذرت بأنها مُسنّة وأم أيتام فأحسن عليه السلام الجواب — وما كان إلا محسناً — وتزوج بها ، وظاهر أن ذلك الزواج ليس لأجل التمتع المباح له وانما كان لفضلها الذي يعرفه المتأمل بجودة رأيها يوم الحديبية ولتعزيتها كما تقدم

وأما زواجه بأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب فلعل حكمته لاتخفى على انسان عرف سيرتها الشخصية وعرف عداوة قومها في الجاهلية والإسلام لبني هاشم

ورغبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تأليف قلوبهم ، كانت رملة عند عبيد الله بن جحش وهاجرت معه الى الحبشة الهجرة الثانية فتنصر هناك وثبتت هي على الاسلام فانظر الى إسلام امرأة يكافح أبوها بقومه النبي وينتصر زوجها وهي معه في هجرة معروف سببها ، أمن الحكمة ان تضيع هذه المؤمنة الموقنة بين فتنتين ؟ أم من الحكمة ان يكفلها من تصلح له وهو أصلح لها ؟

كذلك تظهر الحكمة في زواج صفية بنت حُيَيّ بن أخطب سيد بني النضير وقد قتل أبوها مع بني قريظة وقتل زوجها يوم خيبر ، وكان أخذها دحية الكلبي من سبي خيبر فقال الصحابة يا رسول الله انها سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك فاستحسن رأيهم وأبى ان تذل هذه السيدة بأن تكون أسيرة عند من تراه دونها فاصطفاها وأعتقها وتزوجها ووصل سببه ببني اسرائيل وهو الذي كان ينزل الناس منازلهم (١)

وآخر أزواجه ميمونة بنت الحارث الهلالية (وكان اسمها برّة فسماها ميمونة) والذي زوجها منه هو عمه العباس (رضي الله عنه) وكانت جعلت أمرها اليه بعد وفاة زوجها الثاني أبي رَهم بن عبد العزى وهي خالة عبد الله بن عباس وخالد بن الوليد فلا أدري هل كانت الحكمة في تزوجه بها تشعب قرابتها في بني هاشم وبني مخزوم أم غير ذلك

وجملة الحكمة في الجواب أنه صلى الله عليه وسلم راعى المصلحة في اختيار كل

---

(١) في حديث الترمذي ان صفية بلغها ان عائشة وحفصة قالتا فيها: نحن أكرم على رسول الله (ص) منها فذكرت ذلك للنبي (ص) فقال « ألا قلت وكيف تكونان خيرا مني وزوجي محمد وابي هارون وعمي موسى » فهي من آل هارون معرف نسبها في قومها . ولما فتح حصن قومها وسبيت جاء بها بلال ومعها ابنة عم لها فمر بهما على قتلى يهود فصكت المرأة التي معها وجهها وصاحت وحثت التراب على وجهها فقال (ص) لبلال « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما » وهكذا يقول من أرسله الله رحمة للعالمين

زوج من أزواجه (١) (عليهن الرضوان) في التشريع والتأديب فجذب اليه كبار القبائل بمصاهرتهم وعلّم أتباعه احترام النساء واكرام كرائمهن والعدل بينهن وقرر الاحكام بذلك وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم من الاحكام ما يليق بهن مما ينبغي أن يتعلمنه من النساء دون الرجال ولو ترك واحدة فقط لما كانت تغني في الأمة غناء التسع ، ولو كان عليه السلام أراد بتعدد الزواج ما يريده الملوك والامراء من التمتع بالحلال فقط لاختار حسان الابكار على أولئك الثيبات المكتهلات كما قال لمن اختار ثيبا « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » (٢) هذا ما ظهر لنا في حكمة التعدد وان أسرار سيرته صلى الله عليه وآله وسلم أعلى من تحيط بها كلها أفكار مثلنا اه

ومن فروع المسألة ان من أسلم من الأمم التي تبيح التعدد بغير حصر وعنده أكثر من أربع نسوة يجب عليه عند جماهير العلماء ان يختار أربعة منهن ويسرح الاخريات . وعن أبي حنيفة انه يمسك من عقد عليهن أولاً ان علم ذلك كأنه كان مكلفا ان يكون نكاحه قبل الاسلام موافقا لشريعة الاسلام . والمأثور في كتب السنن هو ما عليه الجمهور فقد روى الشافعي وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن ابن عمر (رض) ان غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبي (ص) « اختر منهن أربعا — وفي لفظ آخر — امسك منهن أربعا وفارق سائرهن » . وروى نحو من ذلك عن نوفل بن معاوية الديلمي وعن قيس ابن الحارث الأسدي حين أسلما وكان عند الأول خمس وعند الثاني ثمان . والظاهر أن إمساك الأربع يشترط فيه قصد العدل بينهن والثقة بالقدرة عليه فان خاف ان لا يعدل فعليه ان يمسك واحدة فقط . وما مضت به السنة من الاقتصار على أربع وما أجمع عليه أهلها من عدم جواز الزيادة عليهن هو عمدة الفقهاء في هذا الباب لا

(١) عبرنا هنا بأزواج لزوال الاشتباه والزوج يطلق على الرجل والمرأة وجمعه أزواج فيهما . وقالوا ان لفظ زوجة لغة رديئة وجمعها زوجات والفقهاء يختارون هذه اللغة لاسيما في الكلام في الفرائض لعدم الاشتباه

(٢) الحديث في الصحيحين . وفي رواية زيادة وتضاحكها وتضاحكك

لأن مثنى وثلاث ورباع يدل على جواز أكثر من أربع بل لأن العدد عندهم لا مفهوم له فذكر الاربع لا يقتضي تحريم الخمس فأكثر ، فلما حتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على من أسلم من المشركين وعنده أكثر من أربع ان لا يمسكوا أكثر من أربع كان ذلك بيانا منه (ص) لما في الآية من الاجمال واحتمال جواز الزيادة وجماهير أهل الأصول قائلون بجواز بيان خبر الواحد لمجمل الكتاب . وما ورد في المسألة سنة عملية متبعة فهي أقوى ما يحتج به عندنا . وقد أول ذلك المجوزون للزيادة على أربع كالشيعة بأنه يحتمل ان يكون الأمر بمفارقة ما زاد عن الاربع لأنهن كان بينهن وبين أزواجهن سبب من أسباب التحريم الذاتي كالنسب القريب والرضاع ، وهو تأويل ظاهر البطلان اذ لو كان الامر كما قيل في الاحتمال لما قال النبي (ص) اختر أربعا او أمسك أربعا ، فالاختيار وتنكير لفظ أربع كل منهما يأبى ما قيل في التأويل . وما قيل من إن الاجماع على تحريم الزيادة على أربع لا يتم مع مخالفة الشيعة في ذلك أجيب عنه بأن الاجماع قد وقع قبل ان يقولوا ما قالوا فهو حجة عليهم

ومن فروعها ان الخطاب فيها للاحرار دون العبيد لان الرق خلاف مقصد الشرع وخلاف الاصل فكأنه غير موجود ومما يؤيد ذلك قوله تعالى في مخاطبة المخاطبين بهذا الحكم من الازواج « أو ما ملكت ايمانكم » والمملوك لا يملك غيره ويقول الفقهاء له ان يتزوج ثنتين فقط

ومنها ان الظاهرية قالوا ان الامر في قوله « فانكحوا ما طاب لكم » للوجوب فالزواج واجب في العمر مرة . والجمهور على ان الامر فيه للاباحة وان كان الزواج اعظم سنن الفطرة التي رغب فيها دين الفطرة

ومن مباحث اللفظ في الآية النكتة في اختيار « ما » على « من » في قوله « ما طاب لكم من النساء » وهي ارادة الوصف كأنه قال فانكحوا اي صنف من اصنافهن من الثيبات والابكار وذوات الجمال وذوات المال وانما تختص كلمة « ما » او تغلب في غير العقلاء اذا اريد بها الذات لا الوصف . فتقول من هذا الرجل في السؤال عن ذاته وشخصه وتقول ما هذا الرجل في السؤال عن صفته ونعته . وما قيل من ان النكتة في ذلك هي الاشارة الى ان النساء ناقصات عقل فأنزلن منزلة

غير العاقل يأباه هذا المقام الذي قرر فيه تكريمهن وحفظ حقوقهن وحرم فيه ظلمهن. ومثل هذا التعبير قوله تعالى «أو ماملكت أيمانكم» و«او» فيه للتسوية يعني ان خفتم ان لاتعدلوا بين الزوجتين فأكثر فانتم مخيرون بين الواحدة والتسري. وظاهر ماتقدم عن ابن جرير ان الواحدة يطلب في نكاحها العدل فان خاف ان لايعدل في معاملتها لجأ الى التسري وانما يشترط الجماهير العجز عن التزوج بالحرة في نكاح الأمة لافي التسري بها وسيأتي في تفسير قوله «٢٥ ومن لم يستطع منكم طولا» الآية

ثم قال تعالى ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ هذا حكم آخر من احكام النساء يرجح كون هذه الآية نزلت فيهن لا ان حكم تعددهن في الزوجية جاء عرضا وتبعا لاحكام اليتامى منهن. أي وأعطوا النساء اللواتي تعقدون عليهن مهورهن نحلة اي عطاء نحلة اي فريضة لازمة عليكم وهو المروي عن قتادة، وقال ابن جريج فريضة مسماة وقيل ديانة من النحلة بمعنى الملة. وروى ابن جرير عن ابن عباس ان النحلة المهر. وتقدم في تفسير المفردات ان النحلة تطلق على ماينحله الانسان ويعطيه هبة عن طيب نفس بدون مقابلة عوض وهو الذي اختاره الاستاذ الامام هنا قال:

الصدقات جمع صدقة بضم الدال وفيه لغات منها الصداق وهو ما يعطى للمرأة قبل الدخول عن طيب نفس وينبغي ان يلاحظ في هذا العطاء معنى أعلى من المعنى الذي لاحظه الذين يسمون أنفسهم الفقهاء من ان الصداق والمهر بمعنى العوض عن البضع والثمن له. كلا ان الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من الصلة بين الرجل وفرسه أو جاريته ولذلك قال «نحلة» فالذي ينبغي ان يلاحظ هو ان هذا العطاء آية من آيات المحبة وصلة القربى وتوثيق عرى المودة والرحمة وانه واجب حتم لاتخيير فيه كما يتخير المشتري والمستأجر. وترى عرف الناس جاريا على عدم الاكتفاء بهذا العطاء بل يشفعه الزوج بالهدايا والتحف

أقول الخطاب على هذا الوجه من معنى الجملة للازواج وفيها وجه آخر وهو ان الخطاب للاولياء الذين يزوجون النساء اليتامى وغير اليتامى يأمرهم الله تعالى ان

يعطوهن ما يأخذونه من مهورهن من ازواجهن بالنيابة عنهن، وكان ولي المرأة في الجاهلية يزوجها ويأخذ صداقها لنفسه دونها، ومنهم من كان يعطي الرجل أخته على ان يعطيه أخته فلا يصيب الاختين شيء من المهر. ولا مانع من جعل الخطاب للمسلمين جملة فالزوج يأخذ منه انه مأمور بأداء المهر وانه لا هوادة فيه والولي يأخذ منه انه ليس له ان يزوج موليته بغير مهر لمنفعة له ولا ان يأكل من المهر شيئا إذا هو قبضه من الزوج باسمها الا أن تسمح هي لأحد بشيء برضاها واختيارها كما قال عزّ وجل:

﴿ فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾ أي ان طابت نفوسهن باعطائكم شيئا من الصداق ولو كله بناء على ان من في قوله «منه» للبيان، وقيل هي للتبعيض ولا يجوز هبته كله ولا اخذه ان هي وهبته واليه ذهب الامام الليث. فأعطينه من غير إكراه ولا إلجاء بسوء العشرة ولا إخجال بالخلابة والخدعة وقال ابن عباس من غير ضرار ولا خديعة فكلوه أكلا هنيئا مريئا أو حال كونه هنيئا مريئا من هنوء الطعام ومروء اذا كان سائغا لاغصص فيه ولا تنغيص وقال بعضهم الهنيء ما يستلذه الآكل والمريء ما تجمل عاقبته كأن يسهل هضمه وتحسن تغذيته والمراد بالأكل مطلق التصرف وبكونه هنيئا مريئا لا تبعة فيه ولا عقاب عليه،

الاستاذ الامام: لا يجوز للرجل ان يأكل شيئا من مال امرأته الا اذا علم ان نفسها طيبة به فاذا طلب منها شيئا فحملها الخجل او الخوف على اعطائه ما طلب فلا يحل له وعلامات الرضا وطيب النفس لا تخفى على احد وان كان اللابسون لباس الصالحين المتحلين بعقود السبح الذين يحركون شفاههم ويلوكون ألسنتهم بما يسمونه ذكرا يستحلون اكل اموال نسائهم اذا اعطينها أو اجزن اخذها بالترهيب او الخداع او الخجل ويقولون انهن اعطيننا ولنا الظاهر والله يتولى السرائر. وقد قال تعالى في الآية الآتية «وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا» فاذا اشدد هذا التشديد في طور المفارقة فكيف يكون الحكم في طور الاجتماع والمعاشرة؟؟

اقول يعني ان طور المفارقة هو طور مغاضبة ففي الطبع داعية للمشاحة فيه واما

طور عقد المصاهرة فهو طور الرغبة والتحبب واظهار الزوج اهليته لما يجب عليه من كفالة المرأة والنفقة عليها . ولكن غلب حب الدرهم والدينار في هذا الزمان على كل شيء حتى على العواطف الطبيعية وحب الشرف والكرامة فصار كل من الزوجين وأقوامهما يماكسون في المهر كما يماكسون في سلع التجارة والى الله المشتكى

وأما قولهم : لنا الظاهر والله يتولى السرائر . فهو لا يصدق على مثل الحال المذكورة لأن باطن المرأة فيها معلوم غير مجهول فيدعى الأخذ بما ظهر منها، والله تعالى لم يقل فان أعطينكم حتى يقال حصل العطاء الذي ورد به النص ، وانما ناط الحل بطيب نفوسهن عنه ، فلو لم يكن طيب النفس مما يمكن العلم به لما ناط سبحانه الحكم به . فيقال لهؤلاء المحرفين اذا كنتم تعلمون ان شرط جواز أكل ما تعطيه المرأة هو ان يكون عن طيب نفس منها وتعلمون انها إنما أعطت ما أعطت كارهة أو مكرهة لما تتخذونه من الوسائل فكيف تخادعون ربكم وتكابرون انفسكم ؟

البلاغ المبين

« الذي بلغ من قبل المشيخة الاسلامية الى النواب والقضاة »
« والعلماء الراسخين والمشايخ العارفين » (*)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد فلما قضت ارادة الله تعالى في الازل ان تصلح الارض للعمران استخلف في مهابطها الانسان القادر على تدبير اموره الشخصية والاجتماعية بعقله الذي

(*) المنار : نشر هذا البلاغ بالتركية والعربية والفارسية كما بلغنا ونشرنا هنا نص الترجمة العربية التي وردت من الاستانة وزدنا فيها عدد الآيات والسور فيما جاء فيها من الآيات وخرجنا الاحاديث في الهامش

وهبه اياه كما دل عليه قوله تعالى (٣٥: ٣٩ هو الذي جعلكم خلائف في الارض) الآية وجعل ما تحتويه ارضه التي تقله وسماؤه التي تظله خاضعا لمنافعه كما قال جل من قائل (٤٥: ١٣ وسخر لكم ما في السموات وما في الارض) الآية وجعله مكلفاً لانه ذو عقل وارادة هما قوتان فعالتان يقدر بهما ان يستعمل القوى الطبيعية لقضاء حاجاته وتحسين اعماله في حياته الدنيا ولكن اعماله مرتبطة باعمال غيره لا يستطيع ان يأتي بنظمها ما لم تتحد الآمال وتتبادل المنافع فقد علم الله تعالى ان الانسان ألعوبة لهوى نفسه الأمارة لا يتملص من اشراكه التي نصبته له بالسهل وان العقل الابتدائي قاصر عن استنباط الشرائع الكافلة لسعادة البشر فارسل بفضله انبياءه يوضحون له احكام المصالح العامة وقواعدها التي يعجز العقل الابتدائي وحده عن استنباطها ويعلمونه ان السعادة كل السعادة في الايمان واتباع طريق العقل وقد تمت حجة الله البالغة وظهرت حكمة التكليف فالحائدون بعد ذلك عن المنهاج المستقيم الذي أضاءه لهم الهادي الامين مطرودون من رحمته ومبعدون عن دائرة الهدى كما وصفهم تعالى بقوله (٢: ١٧١ صم بكم عمي فهم لا يعقلون) الآية نعم قد تمت حجة الله بخلقه العقول فينا وارساله الانبياء الهادين الينا فان ضللنا بعد ذلك كنا من الظالمين ومن هنا يعلم السر في اتفاق الائمة على ان اصلاح العالم ليس بواجب على الله (١) وتقريرهم ان نصب الامام واجب على الامة

ولما كانت المطالب الاجتماعية مما لا يكلفها الواحد المعين بل الجماعات كما دلت عليه صدور بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى (يا أيها الناس * يا أيها الذين آمنوا) الآية فلا تصح الامامة التي هي من اهمها الا بالبيعة الشرعية العامة وبيعة الناس لرئيس حكومتهم بالطوع والرضا مشروط صحتها بتمسك ذلك الرئيس بحبل الله المتين واتباع شرائعه وقوانين عباده المرعية مما يدل على ان كل أحد من المسلمين مكلف

(١) المنار : هذا ما عليه اهل السنة خلافا للمعتزلة وعدم وجوب الصلاح عليه تعالى لا ينافي كون افعاله وشرعه صلاحا وخيرا وحكمة فالصلاح والاصلاح من لوازم افعاله واحكامه وهي واجبة له لا عليه اذ لا سلطان فوق سلطانه

مراقبة ما يأتيه ومسئول عن حكومته يجب عليه أن يشرأب الى استطلاع اعمال رجالها ويراقبهم حتى اذا رأى معروفاً قد غفلوا عنه ذكرهم به أو منكرا كاستعمال نفوذهم خلاف الشرائع الربانية ومنافع العباد نهى عنه وفق وصفه تعالى في قوله (٣: ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) الآية وحديث نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » الحديث (١)

كان الخليفة بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام هو الصديق الاكبر باجماع الأمة وبعده باتفاقها على العمل بوصية الصديق هو الفاروق الاعظم وأحال الفاروق امر نصب الخليفة على الشورى فوقع اختيار أهل الشورى على ذي النورين عثمان رضي الله عنهم وبعد شهادته اتفق جمهور الصحابة في المدينة على استخلاف علي كرم الله وجهه فبايعوه وقد امتدت الفتوح الاسلامية في زمن هؤلاء الاربعة الموسومين لطهارة سيرتهم بالخلفاء الراشدين الى مشارق الارض ومغاربها ولكن الاغراض المتصادمة واختلاط الاقوام العربية بالطوائف الاعجمية بعدهم بدل الطوع والرضا في أمر البيعة بالكره والجبر فلم تنتخب رؤساء الحكومة على النحو الذي أمرت به الشريعة المطهرة الا الشواذ منهم حتى ظهرت سلاطين آل عثمان

فلما ظهرت شجرة آل عثمان التي يصدق عليها قوله تعالى (١٤: ٢٤ أصلها ثابت وفرعها في السماء) وجعلت هذه تحمى في وارف ظلها عرش السلطنة والخلافة اقتفى سلاطينها في حكومتهم خطوات الخلفاء الراشدين ومشوا على آثارهم يهدمون صروح الظلم ويحيون ما انطمس من معالم الدين وكانوا والحق وضاح يستحبون الرضا فلم يكرهوا الناس على بيعتهم وقد أرسلوا الى البلاد قضاة من العلماء ففرقوا بين القضاء والتنفيذ ورعوا معاهد العلم حتى نبغ فيها عدد كبير من الاعلام وسعوا باشاراتهم قضية الفتوى لفصل المصالح حسب ما تقتضيه الاحوال العصرية مطبقين بذلك قوى الحكومة الثلاثة على حكمي الشرع والعقل ليكون حملة القدرة التشريعية ناسا من أهل العلم والتقوى المالكين لمراقبة الحكومة

(١) رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر

التي هي نتيجة هذا التآلف المشروع الطبيعية وأحالوا التنفيذ والاجراء على الوزراء والامراء وحل الخصومات وفصلها بالحكم والقضاء على القضاة والنواب والفضلاء والمراقبة والافتاء على المفتين من فطاحل العلماء المظهرين لقابلية الاستقلال في شعب الاجتهاد فقويت حكومتهم واستحكمت عراها حتى انقادت لها طوعا عناصر الأمة العثمانية المختلفة كافة

هذا ما كانت عليه الحكومة العثمانية في عصورها الغابرة ولكن الدهر قلّب فان وضع دولتنا الجغرافي وسعة بلادها وظهور المفسدين من الطوائف الجلالية واطماع الدول المجاورة كلها أسباب ولدت في سني حكومتنا الاخيرة محاربات دامية واختلافات داخلية شاع من جرائها الفقر وعم الوهن فوق ما أورثت الامراض الوبائية المتعاقبة من فتور العزم حتى انطمست معاهد العلم شيئاً فشيئاً وانطفأ سراجه الوهاج وشاع مكانه الجهل الاسود والضلال المبين وكادت دولتنا تنقرض المرة بعد الاخرى لاسمح الله

تبين مما قدمناه من وجوب نصب الامام شرعا على الامة وكون الخطاب الرباني عاما لكل الناس وكون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مكلفا بهما كل أحد من المسلمين ان الامة هي الحاكمة (١) وان صنوفها المؤلفة لها متضامنة بالتسلسل بحيث يجب على كل صنف منها ان يرقب غيره من الصنوف واذا تكاسل صنف عن اداء وظيفته الخاصة به قومت الصنوف الأخر المعوج لانها هي المكلفة مما هو نتيجة الارتباط المتسلسل الشرعية ولذلك قال الشارع « لاطاعة لمخلوق عند معصية الخالق » (٢) وقال (انما الطاعة في المعروف) الحديث (٣) ومما يؤيد ذلك وجوب التضامن أمره تعالى العام في قوله (٨: ٢٥ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الآية وعليه فاذا أبدينا أقل غفلة عن الائتمار بأمره هذا اختل نظام الادارة وانحلت روابطها

(١) المنار قد بين الاستاذ الامام هو المعني في تفسير قوله تعالى (٣: ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أجلى بيان فراجعه في المنار وسيأتي في هذا البلاغ التصريح به

(٢) رواه احمد والحاكم من حديث عمران بلفظ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق

(٣) رواه الشيخان وابو داود والنسائي « بلفظ لاطاعة لأحد في معصية الله إنما الطاعة في المعروف

ولا يستنبطن أحد مما أوردناه ان لكل صنف من الناس أن يتداخل في مصالح الحكومة فذلك غير صحيح بل الواجب أن تكون الحكومة الدستورية التي تراقب أعمالها من قبل جماعة مصطفاه من عموم الامة مصونة من كل يد تمتد للمداخلة فيها اذا أمرت الناس وجب عليهم أن يلبوا فيجيبوها بقولهم سمعنا وأطعنا

ولما كانت الدولة العثمانية التي بنت قوانينها على أساس الشرع الرصين وركبت قوى حكومتها من سياسة التوفيق بين الحكمة الشرعية والعقلية لا يتطرق الى أصلها الزلزال بسهولة حافظت حتى في أزمنة الجهل المطبق على شكلها بفضل رجال من أهل العلم والتقوى راقبوها ولم يطأطئوا من خشية الله رءوسهم لسلطان الجبابرة الظالمين فهي وان كانت في كل زمن معرضة للاضمحلال الذي نبهنا الله تعالى لاجتناب أسبابه بقوله (١٣ : ١١ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الآية ستبقى مدى الدهور مضمونة بالاستقامة التي هي جزء من الضمان الالهي حسب قوله تعالى (٧٢ : ١٦ وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً) الآية

كان لعمر الحق عهد الاستبداد المنصرمة أيامه السود قد شوه وجهي الدولة الاصلي والفرعي مدة ثلث قرن حتى افل من كل آفاقها العدل وانحل ما أبرمه الشرع واختل النظام وشاع الظلم والجبر والفوضى وتنفرت قلوب الرعايا من الحكومة ونجم الشقاق والنفاق بين العناصر المختلفة واستحالت الاوداء الاجانب أعداء يعملون للايقاع بها و يضيقون عليها يريدون بذلك تمزيقها وكادت جامعتنا العثمانية تنهور بسرعة في حفرة اضمحلالها . هنالك هبت من مكامن حفظ الرحمن فئة هم الفرقة الناجية حزب الله الغالبون استقتلوا في سبيل الحرية وقوفاً في وجوه الجبابرة المعاندين يكبرون و يجاهدون وفي أيديهم راية (٤٧ : ٧ ان تنصروا الله ينصركم) الآية فانقذوا بما أتوه من السعي المحمود ذكره المملكة من الخطر المحدق الذي كان يهددها والوطن من الخراب الملم وفكوا اغلال الحيف من أيدي(١) الأمة وكسروا قيود الاستعباد وسلاسلها من أرجلها وسروا فؤادها ببشارة قوله تعالى (٤٨ : ١ إنا فتحنا لك فتحا مبينا) الآية مثبتين بأعمالهم هذه التي سيحمدها التاريخ وتغني بنشائدها

(١) المنار : انما موضع الاغلال الاعناق ولعل التحريف من الترجمة أو سبق قلم

الاحفاد صدق حديث المخبر الصادق (لا تجتمع أمتي على الضلالة) (١) شكر الله سعيهم والحمد لله على دين الاسلام، ولم يكن عفو الامة العثمانية المتبعة لحكم قوله تعالى (٥ : ٩٥ عفا الله عما سلف) وقول نبيه الكريم «العفو زكوة الظفر» (٢) عن طواغي الاستبداد أولي الصحف السود ليثبطهم في مواقفهم بل جرأهم على ابداء ما انطووا عليه من الفطرة السيئة كلما وجدوا فرصة تساعدهم حتى تمكنوا بما بثوه من الدسائس وزينوه من الحيل ان يورطوا المملكة في ورطة هي والعياذ بالله أعظم من كل الورطات الغابرة فكانوا مصداقا لقوله تعالى (١٣ : ٣٣ ومن يضلل الله فماله من هاد) الآية ولكن ابطال الحرية أولياء الله المقسمين بكتاب الله المبين على نصر شريعته واحياء سنن سيد رسله والمحافظة على قوانين عباده ثاروا كالاسود من مرابضهم يستصحبون في زحفهم الشرعي الفيلقين المنصورين الثاني والثالث مدججين بسلاح الجهاد ومقدمين أمام صدقهم أمراء الحماسة يأمون مقر الخلافة بسرعة محيرة حتى قهروا بسيوف بسالتهم جماعة الفئة الباغية مقاوميهم وردوا كيدهم في نحورهم وحفظوا بيضة الاسلام من ان تعبث بها أيدي الآثمين فاستحقوا بذلك ان يسموا بمؤسسي الدولة ثانية كما استحقت الفئة الباغية ان تلقى جزاءها حتى صح فيهم قوله تعالى (٥ : ٣٣ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض) الآية وحينئذ اجتمعت أساطين الامة الذين اصطفتهم عنها نوابا يترجمون عن آمالها وقرت آراؤهم الحرة على ان يطلبوا الى المشيخة الاسلامية تذكيرهم بما ينطق به الشرع في مثل هذه الاحوال لقمع الفساد الساري في جسم الدولة فجمع شيخ الاسلام السالف علماء العاصمة الاعلام واصدر باتفاق أصواتهم فتوى شرعية خلع بها السلطان السابق

(١) المنار : الحديث متداول بهذا اللفظ ولكن بتنكير لفظ ضلالة وقد رواه أحمد والطبراني في الكبير بلفظ « سألت ربي ان لا تجتمع أمتي على ضلالة واعطانيها» والحاكم بلفظ « لا تجتمع هذه الامة على ضلالة ويد الله مع الجماعة »

(٢) لا أعرف هذا الحديث ولا أذكر انني رويته ولا رأيته في كتاب ومولانا شيخ الاسلام أوسع اطلاعا وأجود حفظا

واستخلف مكانه بالبيعة الصحيحة العامة جلالة السلطان الحاضر محمد خان الخامس أيده الله تعالى فكانت البيعة المقبولة الشرعية التي قضت الأزمان الغابرة ان تكون نسيا منسيا قد أوجدت بذلك مكانها ،

(٤٣:٧ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله) أما سيئات العهد السابق التي يعجز القلم عن احصائها فهي معلومة لكل أحد نستغني عن تفصيلها بحمد الله تعالى على زوالها واما عهد الدستور الجديد فهو عهد المحاسن والارتقاء ذلك لانه احيا ركنا من أركان الشرع المبين كان الطاغون المتسيطرون قد هدموه وهذا حسن ابتداء لنا فيه خير فأل

ولا يخفى ان حصول الراحة والسعادة في الملك لا يتيسران الا باتباع الرعايا للقوانين المرعية هنالك تماما والقوانين المرعية إذا لم توزع الحقوق والوظائف بين سكنة المملكة على التساوي المطلق لا تضمن الراحة والسعادة المطلوبتين ولكن القوانين العدلية والادارية في دولتنا العثمانية مبنية والحمد لله على أساس الشرع الرصين فالمساواة المطلوبة بين الرعية مكفولة اذا به لا يعدل عنها لاختلاف الدين كيف والأخبار المأثورة تسطع كنور الهدى مصرحة بذلك في كتبنا الدينية كقوله صلى الله عليه وسلم (لهم مالنا وعليهم ما علينا) الحديث (١) وكل وظيفة في نظر الشرع مقابل

(١) المنار : ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة فيمن دعوا الى الاسلام فأجابوا منها حديث بريدة المشهور فيمن أسلموا وهاجروا ان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم وحديث سلمان في قتال الفرس عند ابن ابي شيبة قال « فان اسلمتم فان لكم مثل مالنا وعليكم مثل ماعلينا » وفي كتاب الهدايه وأصلها وشرحها من كتب الحنفيه اجراء ذلك على من قبل بالجزيه قال: « فان بذلوها فلهم ماللمسلمين وعليهم ما على المسلمين » لقول علي رضي الله عنه انما بذلوا الجزيه لتكون دماؤهم كدمائنا واموالهم كأموالنا اه قال في فتح القدير بعد ذكر قول علي كرم الله وجهه والاحاديث في هذا كثيرة بل هو من الضروريات . ومعنى حديث علي رواه الشافعي في مسنده – وذكر سنده الى أبي الجنوب – قال قال علي من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا . قال الكمال وضعف الدارقطني أبا الجنوب

حق فلا يجوز ان يحمل أحد وظيفة ويحرم من حقه لان ذلك ظلم محض يجب ان ينزه الله تعالى عنه وهل يتصور ان ينطق دين الله بحكم فيه أقل حيف؟ ألم تذكر كتب السير ان فخر الرسل صلوات الله عليه قد استشار كثيرا ممن لم يكونوا مسلمين حتى ولا داخلين في ذمة المسلمين واستعان بهم في حروبه وغزواته (١)

وقد نص الله تعالى في كتابه المبين بقوله (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية على وجوب مراقبة الحكومة من قبل منتخبي الأمة كما قدمناه ولما كانت الطوائف غير المسلمة بعض عناصر الدولة كان اشتراكهم في هذه المراقبة موافقا لصالح المملكة وعليه فان مجلس المبعوثين اليوم أصح مثال لمقتضى الشرع والمشروطية وأوضح تمثال (٢) للخلافة الكبرى الاسلامية

لقد حصحص لعمري الحق ووضح الصبح لذي عينين فما على الحكومة بعد اليوم الا أن توزع الحقوق بالمساواة بين الرعايا وتقلد الوظائف كل من رأت فيه أهلية منهم ولا على الرعايا الا أن يحسنوا معاشرة وطنيهم من سائر الطوائف ويراعوا حقوقهم من كل وجه كما يأمرهم به الدين وقد نطق الكتاب بنجاة الصلحاء من النصارى وشهد بمودتهم للمسلمين وهو قوله تعالى (٥ : ٨٣ ولتجدن أقربهم مودة) الآية (٣) وصرحت الكتب الفقهية بلزوم صيانة دينهم وأرواحهم

(١) المنار: قد سئلنا عن هذا وأجبنا عنه في هذا الجزء فراجع باب الفتاوى

(٢) يوشك ان يكون الاصل « وأوضح مثال » فحرف في الطبع (٣) في الكلام إجمال وللمفسرين في الآية قولان أحدهما انها فيمن أسلم من نصارى الحبشة وهم ناجون حتما فان أراد الشيخ هذا القول كانت فائدته هنا ان حسن معاملة المسلمين لغيرهم من شأنها ان تفضي الى مثل هذه العاقبة المحمودة . والقول الثاني انها عامة في جميع النصارى وان كان سببها خاصا وقوله تعالى في الآية التي بعدها (٨٤ واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول) الآية مستأنف وهو الخاص بنصارى الحبشة وعلى هذا يكون مراده بنجاتهم هو نجاتهم من السيف والاعتداء والظلم ، ويوشك ان تكون عبارته التركية أظهر في مراده

وأموالهم من التعرض أفبعد هذا يضطهدهم المضطهدون؟ كلا فان في ذلك خزيا في الدنيا ونكالا في الآخرة قال الله تعالى (٣٣: ٢١ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) الآية وقال سيد الرسل المبعوث لإتمام مكارم الاخلاق «تخلقوا باخلاق الله»(١) الحديث ومن أخلاق الله تعالى العدل والإحسان الى خلقه كافة بدون استثناء فلا يجوز بعد ذلك معاملة المسلمين لوطنييهم من الامم السائرة بالفظاظة والغلظة لان في ذلك مخالفة صريحة لرضى الله وسنة رسوله الكريم والمخالفون داخلون في زمرة الظالمين الذين قال الله تعالى في حقهم (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية(٢) فنحن ننبه المسلمين على ان عقاب مثل أولئك المخالفين المعتدين مقرر عند الحكومة ونوصي الناس بحسن المعاشرة فيما بينهم واجتناب ما يلقيه اليهم الاشرار أولو الغايات الفاسدة من دواعي التفرقة والخلاف

شيخ الاسلام
كتبه الفقير سري زاده
محمد صاحب عفي عنهما

(تنبيه) اثبت توقيع الشيخ في النسخ المطبوعة منقولا عن خطه بالزنكوغراف

* * *

(١) المنار: قد اشتهر على الالسنة ان هذا حديث ولم أره في شيء من كتب السنة

(٢) ظاهر هذه العبارة ان كل مسلم يعامل احدا من غير المسلمين بالغلظة والفظاظة يكون ممن نزلت فيهم هذه الآية ولذلك انكر الناس هذه العبارة لان الاية نزلت في البغاة الذين يزيلون الامن بالقتل والنهب وقطع الطريق. ولا شك ان شيخ الاسلام ايد الله به الشرع المبين لا يريد بعبارته أن من يعامل الذمي او المسلم بالغلظة والفظاظة يكون محاربا لله ورسوله ومفسدا في الارض ويعاقب بأحد العقوبات المذكورة في الآية الحكيمة وانما يريد أولئك الذين يقدمون على القتل والنهب واحراق الدور ومعاهد التجارة والعلم كما وقع في ادنه (أطنه) ولعل الخلل جاء من الترجمة بالعربية والمراد ظاهر تؤيد الحكم الشرعي المراد منه القرائن الحالية ويشير اليه ما ختم به الكلام من دسائس الاشرار أولي الغايات الفاسدة

﴿ اعتبار المصلحين * بهذا البلاغ المبين ﴾

ان في هذا البلاغ من آيات العلم الصحيح، وهداية الدين القيم، والاعتصام بالكتاب والسنة دون التقليد الاعمى ما تنشرح له صدور المؤمنين، وتشتد به عزائم المصلحين، لصدوره من أرفع مقام في علماء الاسلام الرسميين

ما أضاع الاسلام إلا ترك الكتاب العزيز والسنة السنية الى كتب جماعة من مقلدة المذاهب المختلفة تقيد بها علماء الرسوم من القضاة والمفتين وغيرهم من اعوان الحكام الجاهلين الظالمين وقيدوا بها الأمة حتى حل بها ما نعلم وقد شرحناه مرارا وفصلنا القول فيه تفصيلا

لقد بعث الله في القرون الخالية علماء أصفياء يجددون لهذه الامة أمر دينها فكانوا فيها كأنبياء بني إسرائيل منهم من اهتدى بدعوته النفر والرهط والجماعة ومنهم من حال الاضطهاد وضعف الاستعداد دون الاهتداء به، وكانت العامة المسكينة تغتر بمقاومة علماء الرسوم وساداتهم الحكام لأولئك المصلحين المجددين وتتبعهم في تضليلهم لأن الناس على دين ملوكهم، حتى ان صوت شيخ الاسلام أحمد بن تيمية قد خفت في هذه الامة المسكينة وهو أندى أصوات المصلحين، وكتبه خفيت فيهم عدة قرون وهي أقوى وأظهر حجة من سائر كتب المسلمين،

هذا ما كان من الجهاد بين الحق والقوة، وهكذا كان يعادي الكتاب والسنة كل من له بالحكام علاقة رسمية، فللعلماء الرسميين نفوذ عظيم إذا أيدوا به الاصلاح ينتشر بسرعة عظيمة ولكن الحكام المستبدين لا يمكنونهم من ذلك فالعالم الرسمي في الحكومة المستبدة لا يوثق بما يقول ولا بما يكتب إفتاء ولا تصنيفا، بل اذا اشتد الاستبداد في بلاد كان للعاقل ان لا يعتد بكلام أحد من علمائها وزعمائها في الامور العامة الا من كان مضطهدا من حكومتها. نقول هذا بصرف النظر عن تحكيم الدليل في الكلام لمن كان من أهله

طال الزمان على قوة الباطل وضعف الحق لان أهل الحق منهم الاستبداد

من إظهار حقهم وانما يغلب الحق الباطل إذا وجدا معا بلا معارض ، ولهذا غلب الجمود ودخل جماهير المشتغلين بالعلوم الدينية جحر الضب وطاب لهم المقام فيه حتى صاروا ينفرون من فضاء الحنيفية السمحة المضيئة بنور الكتاب والسنة ، فوصلوا الى ذلك الدرك الاسفل من الضلال الذي عبر عنه بعض شيوخ الازهر في ملأ منهم فقال : من قال انني أعمل بالكتاب والسنة فهو زنديق

نحمد الله تعالى أنه لم يسلب جميع المشتغلين بعلوم الاسلام نور كتابه وسنة رسوله بل صدق رسوله بانه لايزال طائفة منهم قائمين على الحق حتى تقوم الساعة(١) ولكن حرية الامم بخروجها من رق الاستبداد هي التي تظهر علم هؤلاء وهدايتهم . فلما لاح شعاع الحرية في مصر ظهر فيها المصلح العظيم الشيخ محمد عبده (رحمه الله تعالى) وكان صوته ضعيفا الى أن صار له صفة رسمية بتقلده افتاء الديار المصرية فحينئذ علا صوته حتى صار شرق البلاد الاسلامية وغربها يلهجان بلقبه الذي اشتهر به «الاستاذ الامام» وتعلقت به آمال طلاب الاصلاح الاسلامي في كل مكان

ثم أشرقت شمس الحرية في المملكة العثمانية فظهر من أعلى مقام علمي فيها — وهو مقام مشيخة الاسلام — كلمتان كبيرتان في الاصلاح (احداها) الفتوى بخلع السلطان عبد الحميد فانها فتوى بنيت على أساس من كتاب الله عز وجل ، لا على شفا جرف من آراء زيد أو عمرو ، فهي أقوى وأصح فتوى صدرت في هذا العصر ، كما بينا ذلك من قبل ، وقد زادنا سرورا بها ما جاء في هذا البلاغ من جمع شيخ الاسلام الذي اصدرها للعلماء الاعلام واستشارتهم في المسألة واصداره الفتوى باتفاقهم

(الكلمة الثانية) هذا البلاغ المبين ، المتألق نوره بالاقتباس من القرآن الحكيم ، والاستنباط منه ومن الحديث الشريف ، فقد قرت عيوننا بما رأينا فيه من الفهم الثاقب ، وتطبيق الآيات والاحاديث على الوقائع والحوادث ، ناهيك باستنباط وجوب سيطرة الامة على الحكومة من آية وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ايد به الحكومة الدستورية ، و باستنباطه من آيات وأحاديث أخرى مشروعية الجمع بين

(١) اشارة الى حديث صحيح رواه الحاكم من حديث عمر وابن ماجه من حديث أبي هريرة

الدين والعقل ، والانتفاع بما خلق الله في السموات والارض ، ووجوب التضامن والتكافل العام في الامة ، و بيان سنة الاجتماع في تغيير احوال الامم ، والتصريح بكون الحكام انما تجب طاعتهم في المعروف لا في المنكر والمحرم وغير ذلك من الاحكام والحكم

ان شيخ الاسلام لم ينقل هذه المعاني من كتب التفسير نقلا ، وانما فهمها من كتاب الله تعالى فهما ، وان فهمه (حفظه الله) للآيات من قبيل فهم الاستاذ الامام (رحمه الله) لها ، فهذا الاجمال موافق لما سبق تفصيله في المنار في التفسير وغير التفسير مرارا ، وهو لم يكن قبل هذا العام ممن يرون المنار ، وانما هو الاستقلال وعدم التقليد يتفق اصحابه في كل ما تتوفر الدواعي على العلم به

فنحمد الله أن وجد فينا مثل هذا الامام الجليل وأن كان شيخا للاسلام في هذا العصر المنير ، ونسأل الله تعالى ان ينفعنا وسائر المسلمين بعلمه وهديه ، و يوفق جميع العثمانيين بارشاده الى التعاون والاتفاق على ما به عمران البلاد وتعزيز الدولة آمين

***

﴿ فصل — أو — وصل ﴾ اننا نذكر في هذا المقام للشيخ سليم البشري شيخ الازهر ورئيس لجنة الدعوة الى المؤتمر الاسلامي إجازته لقانون المؤتمر الذي فيه ان المباحث الدينية في المؤتمر تكون اجتهادية تبنى على الكتاب والسنة والاجماع والقياس لا على نصوص المذاهب . نذكر له هذا ونثني عليه عودا على بدء ، ونتنصر بتقريره هذا و بالبلاغ الذي نشرناه في هذا الجزء — وهما من أكبر شيوخ الاسلام الرسميين في أكبر عواصم المسلمين — على الجامدين البلداء الذين كانوا ينكرون علينا من بضع سنين دعوتنا الى الاهتداء بالكتاب والسنة وجمع كلمة المسلمين عليها والله خير الناصرين

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الدستور والحرية والدين الاسلامي ﴾

(س ٢٩ و ٣٠) من صاحب الامضاء في سواكن (السودان)

حضرة الأستاذ المرشد السيد محمد رشيد رضا دام فضله

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فقد ألجأني فهمي القاصر وذهني الفاتر لرفع هذه الأسئلة لجنابكم ملتمس حلها وشرحها شرحا وافيا يفهمه الخاص والعام لان ظروف الاحوال تقتضي ذلك بالنسبة لما هو حاصل الآن في دار الخلافة الاسلامية صانها رب البرية . وهي :

الأول — ما هو الدستور وما حقيقته وهل هو موافق للدين الاسلامي تمام الموافقة . وما الدليل عليه من الكتاب والسنة ؟

الثاني — ما هي الحرية - القولية والفعلية — وما حقيقتها وهل هي موافقة للشريعة الاسلامية وما الدليل عليها شرعا وعقلا ؟

وهل هي كما علق باذهان العامة بانها الفوضوية التامة التي لا رادع لها كأن تذهب المرأة من بعلها وتفعل ماتشاء وهو لا يقدر على منعها . ويذهب الولد خارجا من طاعة الوالد ولا يقدر على تأديبه ومنعه من ارتكاب المحظور أم هي بخلاف ذلك ؟

نرجو من حضرة الأستاذ إجابتنا على صفحات المنار الأغر في أول عدد منه لا زال خضم علمه زاخرا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كتبه عبد القادر ملاقلندر البخاري

الدستور والدين الاسلامي

(ج) تنقسم الحكومة في عرف أهل العصر إلى قسمين أصليين حكومة مطلقة وتسمى شخصية واستبدادية وحكومة مقيدة أو دستورية ويعبر عنها الترك والفرس بالمشروطة أي المشروط فيها العمل بالدستور

فالحكومة الشخصية المطلقة هي التي يكون فيها حق التشريع والتنفيذ للحاكم العام والرئيس الأكبر الذي يلقب بالملك أو السلطان أو غير ذلك من الألقاب فهو الذي يضع لبلاده من القوانين ما يشاء متى شاء وينسخ منها ماشاء متى شاء غير مقيد برأي أحد ولا مكلفا ان يستشير أحدا ، وهو الذي ينفذ الاحكام التي يحكم بها في بلاده بارادته أي تنفذ باسمه على ان له ان يوقف تنفيذ مايشاء منها ويعفو عمن يشاء سواء كان الحكم من نوع القانوني الوضعي أو من نوع الديني الشرعي فهو فوق الشريعة والقانون لا تجوز محاكمته اذا خالفهما . ومثال هذه الحكومة ماكنا فيه قبل سنة وشهرين من حكم عبد الحميد فقد كان بما له من السلطة المطلقة يمنع من الاحكام الشرعية ما يشاء كمنعه شهادة التواتر والحكم بمقتضاها والحكم بالحجر على المجانين وتنفيذ أحكام الاعدام الشرعية وغير ذلك كما كان يمنع من كتب الدين والعلم ما شاء ويصادر منها ما شاء بمحض الهوى والوسواس

فهذا النوع من الحكم يحرمه الدين الاسلامي بل تحكم الشريعة الاسلامية بكفر مستحله لأن من استحل الحرام المجمع عليه المعلوم من الدين بالضرورة كإبطال الاحكام الشرعية ومصادرة الناس في أموالهم ودمائهم كان مرتدا

واما الحكومة الأخرى أي المقيدة أو المشروطة أو الدستورية فهي التي يكون فيها الحاكم العام ومن دونه من الحكام والعمال مقيدين كلهم بالدستور والدستور عبارة عن شريعة البلاد وقوانينها التي يضعها أهل الرأي الذين تعهد اليهم الامة ذلك بالتشاور بينهم ليس للحاكم العام فيها ان يستبد بشيء بل عليه ان يتقيد بالشريعة والقانون الذي رضيه وقرره أهل الشورى . فهذه الحكومة موافقة للدين الاسلامي في أساسها وأصلها هذا لأن أحكام الاسلام قسمان أحكام دينية جاء بها الوحي

وأحكام دنيوية جاء بعضها الوحي ارشادا وتعليما ووكل سائرها الى أهل الشورى من أولي المكانة والرأي الذين عبر عنهم القرآن العزيز بأولي الأمر فهم الذين يضعون برأيهم واجتهادهم ما تحتاج اليه الأمة لاقامة المصالح ودرء المفاسد التي تختلف باختلاف الزمان والمكان . ودليل ذلك قوله تعالى في المؤمنين (٤٢ : ٣٨ وأمرهم شورى بينهم) وقوله عزّ وجل (٤ : ٨٣ واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول والى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وقد بينا معنى هاتين الآيتين أكثر من مرة وليراجع السائل تفسير قوله تعالى (٣ : ١٦٠ وشاورهم في الأمر — ص ٧٢٦ م ١١) وعلى هذا جرى النبي (ص) في امور الدنيا والخلفاء الراشدون من بعده

هذا هو معنى موافقة الدستور للشرع الاسلامي في اصله وأساسه بالاجمال . واما التفصيل فهو موكول في دولتنا الآن الى أولي الأمر الذي انتخبتهم الأمة لوضع القوانين التي يطلق على مجموعها لفظ (الدستور) فاذا كانت مسائل هذه القوانين مطابقة للنصوص الثابتة وللاصول والقواعد الشرعية المستنبطة منها كالعدل ورفع المضار وجلب المنافع وغير ذلك من القواعد والاحكام كان الدستور موافقا للدين الاسلامي في جزئياته التفصيلية وان كان بعض تلك المسائل مخالفا لما يكون الدستور مخطئا فيما خالف فيه كما اخطأ كثير من الفقهاء في بعض الاحكام في كتبهم . وللأمة حينئذ ان تنبه مجلس نوابها على ذلك ليتداركه اذا تبين له

ويردها هنا اعتراضان يتحدث بهما الناس أحدهما مستمد من التفسير وهو ان اولي الامر الذين فوض كتاب الله تعالى اليهم استنباط الاحكام والقوانين يجب ان يكونوا من المسلمين، ومجلس النواب العثماني الذي يضع القوانين الدستورية مؤلف من المسلمين وغيرهم . والجواب عن هذا ان استشارة المسلمين لغيرهم ومشاركتهم في الرأي غير ممنوعة وقد تكون مطلوبة اذا كان ذلك من مصلحة الأمة لأن المصلحة هي الاصل في جميع الاحكام الدنيوية حتى قال بعض علمائنا انها تقدم على النص اذا عارضته كما نقلناه عن الطوخي في المجلد التاسع (ص ٧٤٥) على ان المسلمين هم

الأكثرون في مجلس الأمة المكون من المبعوثين والاعيان وهم العارفون بمصالح الامة ومنافعها فلا ينفذ الا ما قرروه

والاعتراض الثاني مستمد من أصول الفقه وهو ان الذين يستنبطون للمسلمين ما يحتاجون اليه من الاحكام غير المنصوصة في الكتاب والسنة يجب ان يكونوا من أهل الاجتهاد الذين استوفوا شروطه التي ذكرها الاصوليون . وقد يجيب المشتغلون بالسياسة عن هذا بان الاحكام الشرعية المحضة لا يتعرض لها المجلس بل هي لا تزال تؤخذ من كتب الفقه بالتقليد وانما يضع المجلس القوانين المتعلقة بأمور الدنيا كجباية الأموال وطرق إنفاقها ونظام المحاكم وغيرها من مصالح الحكومة وهي لا تحتاج الى ما ذكروه من الشروط للمجتهد . ولكن هذا الجواب لا يقنع المتفقهة فانهم يقولون ان جميع الأحكام المالية والسياسية والحربية والإدارية يجب ان تكون مستمدة من الشرع وموافقة له

وانني أجيب بجواب آخر وهو ان ما ذكره الاصوليون من شروط المجتهدين ليست نصوصا تعبدنا الله تعالى بها فيما أوحاه الى نبيه وإنما هي آراء لأولئك الأصوليين . وقد بينا الحق في ذلك وما يجب من الاصلاح من الامور الدينية والدنيوية بالتفصيل في مقالات محاورات المصلح والمقلد فليرجع اليها السائل ومن شاء في المجلد الثالث والرابع من المنار (١)

ونقول هنا أيضا ان الله تعالى قد جعل لجماعة أولي الأمر من الامة أن يستنبطوا برأيهم واجتهادهم من الاحكام ما تمس حاجتها اليه وأطلق ذلك فان كان هنالك أدلة تدل على انه يشترط فيهم ما قاله علماء أصول الفقه في المجتهدين فلتكن تلك الشروط كالشروط التي اشترطوها في الخليفة وفي القاضي من حيث انه يجب تحصيلها ويقدم من توفرت فيه على غيره ولكن لا تتعطل الاحكام بفقدها . فكما أجازوا خلافة الخليفة من غير استيفاء جميع شروطه للضرورة وأجازوا ان يكون القاضي غير مجتهد للضرورة يجب ان يجيزوا استنباط الاحكام المالية والسياسية والادارية

(١) جمعت تلك المقالات في كتاب مستقل ثمنه خمسة قروش واجرة البريد مضمونا قرش ونصف

والقضائية لمن لم تتوفر فيهم شروط المجتهد لاجل الضرورة إذ لافرق بين هؤلاء المستشارين والمستنبطين وبين الحاكمين والمنفذين

لا بد للأمة في كل وقت من الحكام ولا بد ان يكون هؤلاء الحكام مقيدين بالشورى ولا بد ان يكون أهل الشورى من أولي الرأي والمكانة لتثق بهم الامة فعليها في كل زمن ان تختار أمثل أهله للقيام بذلك الركن الشرعي فان لم يوجد في زمن ما من هم متصفون بصفات الكمال التي تدل عليها الدلائل الشرعية فعلى الأمة مع اختيار الامثل للضرورة أن تعد أناسامنها بالتربية والتعليم للكمال المطلوب

يقول حملة الفقه انا نستغني بما استنبطه المجتهدون السابقون عن استنباط أحكام جديدة فيجب أن نعمل بما دوّن في كتب الحنفية أو غيرهم من فقهاء المذاهب الأربعة ولا نزيد على ذلك شيئا ، ويجيبهم الحكام وغيرهم من العارفين بحال العصر (أولا) ان مادون ونقل عن الائمة الأربعة لم يكف الامة في زمن ما ولذلك زاد عليه أتباعهم غير المجتهدين اضعاف اضعافه حتى صار العمل بكتب هؤلاء المقلدين، وفقد أكثر كتب الائمة المجتهدين، وما عساه يوجد منها لايقرأ ولا يفتي به ولا يرجع اليه . واتباع المقلد وتقليده باطل بحسب أصولكم ، واعذاركم عن ذلك غير مسموعة (ثانيا) ان الزمان قد تغير وتغير العرف الذي بني عليه كثير من الاحكام وحدثت للدولة والامة مصالح وحاجات كثيرة لم تكن في زمن الائمة ولا زمن مدوني الفقه المنسوب إلى أصولهم ومذاهبهم في الاستنباط وصارت عرضة لمضار ومفاسد لم تكن في زمنهم فنعرفَ من كتبهم طرق درئها فاضطررنا الى احكام تناسب حال زمننا . وانا ما صرنا أضعف الامم بعدان كنا أقواها الا بعدم جرينا في درء المفاسد وجلب المصالح في هذه الازمنة الاخيرة بحسبها

هذا وان أساس هذا الدستور هو ان تنتخب الامة نوابا عنها يكونون هم أصحاب الشأن في الاحكام التي تساس بها فعليها ان تختار أمثلهم وأعلمهم بالشرع احكامه ومقاصده، والرأي الراجح في مجلس الامة للمسلمين كما قلنا آنفا فاذا قرروا ما يخالف الشرع القطعي ولم تستبدل الأمة بهم من يعود اليه كان الإثم عليها وعليهم ولم يكن الدستور مانعا لها ولهم من إقامة شرعهم ، واما في زمن الحكومة المطلقة فلم يكن لها

ان تقول ولا ان تعمل وان ضاع دينها كله وضاعت دنياها معه

وجملة القول ان الأمة يمكنها بهذا الدستور ان تحيي دينها ودنياها فان لم تفعل كان الاثم عليها . نعم انها لا تستطيع ذلك إلا بالتدريج كما نشأ الاسلام وترقى بالتدريج فكان شأنه إلى عهد صلح الحديبية سنة ست غير شأنه بعد فتح مكة سنة ثمان فلا ينبغي ان ننسى هذا

الحرية والدين الاسلامي

الحرية تطلق على عدة معان بحسب العرف والاصطلاح ولعل ماتسألون عنه هو ما قرره القانون الاساسي الذي هو أصل الدستور وأساسه في المادتين ٩ و ١٠ والمراد منهما انه ليس للحكومة — ولا لغيرها بالاولى — ان تعتدي على أحد لقول يقوله أو عمل يعمله او تكلفه شيئا من ذلك إلا مايعينه القانون لحفظ الحقوق العامة والخاصة فمن كان في بلد حكومته دستورية يكون حرا غير مستعبد لحكومتها ولا لأصحاب النفوذ والجاه فيها آمنا على نفسه من الاعتداء ما دام محافظا على القانون الذي يحظر عليه الاعتداء في حريته على حرية غيره وحقوقه . فحمايةُ الناس من التعدي عليهم موافق للشريعة الاسلامية كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن العاص لما علم ان ولده ضرب غلاما قبطيا « منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » فاذا ادخل معنى في الحرية ترك بعض الحدود أو التعزيرات المجمع عليها كانت الحرية حينئذ غير شرعية بجميع جزئيات معناها بل بعضها شرعي و بعضها غير شرعي وإن كان سلبيا وليس في القانون الاساسي تصريح بذلك ولكن قد يكون هذا النقص مما يقصر فيه مجلس الامة عند وضع قانون الجزاء والذنب عليه وللأمة ان تطالبه به

اما ماعلق بالاذهان من كون الحرية القانونية تبيح نشوز النساء عن رجالهن وعقوق الاولاد لوالديهم فغير صحيح

* * *

(سؤال آخر) ورد علينا استفتاء آخر في المسألة من دمشق الشام يحيلنا فيه السائل على مقالة نشرها المقتبس فيها لم نطلع عليها فاذا كان في جوابنا مقنع له فيها والا فليعد السؤال وليرسل معه المقالة التي سأل عن موضوعها

* * *

﴿ استشارة غير المسلمين والاستعانة بهم في الحرب ﴾

«س ٣١» من صاحب الامضاء في بيروت

سيدي الاستاذ الشيخ محمد رشيد افندي رضا الحسيني منشئ مجلة المنار المحترم

بعد التحية اليكم انه قد اطلعت في عدد «٢٦٣» من جريدة الاتحاد العثماني الاغر فرأيت في طليعته منشوراً لشيخ الاسلام كان من ضمنه هذه الجملة «وقد استشار نبينا في ظروف عديدة خطيرة اناسا لم يكونوا يدينون بالاسلام وطلب (ص) في الحروب معاونتهم ومساعدتهم» فارجو ان تبينوا لنا من هم المشاورون ؟ وما هي تلك الحوادث التي وقعت فيها الاستشارة كما ارجو بيان من هم الذين طلب النبي (ص) معاونتهم ومساعدتهم في الحروب ؟ أخذاً للحكمة و بيانا لمن انتحل لنفسه التعصب الذميم فتطهر بذلك نفسه واتباعا للحق مولاي . خادم العلم الشريف

راغب قباني

(ج) خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى الطائف في اول الاسلام وطلب من رؤساء أهلها حمايته من قريش ليبلغ دعوة ربه فردوه . وكان يخرج في المواسم الى اسواق العرب يعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يبلغ دعوة ربه فكان بعضهم يرد رداً حسنا و بعضهم يرد ردا سيئا . ثم انه بعد ان قوي الاسلام استعان في الحديبية بعُيينة الخزاعي فاتخذه عينا على المشركين وكان يومئذ مشركا ومن المعروف ان قصة الحديبية كانت في ذي القعدة سنة ست من الهجرة وكان مع النبي (ص) من المؤمنين الف وأربع مئة – أو وخمس مئة – واستعان بصفوان بن امية يوم حنين . واخذ في خيبر برأي عزال اليهودي فقطع مشرب القوم ليخرجوا من حصنهم لمناجزته

وفي مراسيل ابي داود عن الزهري أن النبي (ص) استعان بناس من اليهود في خيبر فأسهم لهم وهو ضعيف . وفي حديث ذي مخبر (رض) عند احمد وابي داود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ستصالحون الروم صلحا وتغزون انتم وهم قوما من ورائكم» وكان النبي (ص) محالفا لخزاعة وكانت

قريش محالفة لبكر فاعتدى بنو بكر على بني خزاعة وساعدتهم قريش بعد عهد الحديبية فانتقض عهدهم وحاربهم النبي (ص) باصحابه لأجل ذلك حتى فتح مكة عنوة وخرجت خزاعة معه على قريش

لكن ورد في حديث عائشة عند احمد ومسلم أن النبي (ص) خرج قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة ادركه رجل قد كانت تذكر منه جرأة ونجدة قال جئت لاتبعك فاصيب معك ، فقال رسول الله (ص) «تؤمن بالله ورسوله؟» قال لا ، قال «فارجع فلن استعين بمشرك» ثم ذكرت انه عاد مرتين بعد ذلك فقال له مثل ما قال في المرة الاولى . وفي حديث خبيب بن عبد الرحمن عن ابيه عن جده انه استأذن النبي هو ورجل آخر من قومه في الغزوة معه فقال «أسلمتما؟» قالا لا فقال «إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» رواه الشافعي واحمد والنسائي وغيرهم

ومن هنا جاء الخلاف بين العلماء في جواز الاستعانة وعدمه فنقل الجواز عن الحنفية وعن الشافعي منع الاستعانة بهم على المسلمين وجواز الاستعانة بهم على امثالهم اما الجمع بين الروايات المختلفة فقد قال الحافظ ابن حجر في التلخيص ان اقرب ما قيل فيه ان الاستعانة كانت ممنوعة ثم رخص فيها قال وعليه نص الشافعي . وانت ترى ان جميع ما نقلناه من روايات الاستعانة كان بعد غزوة بدر التي قال فيها «لن استعين بمشرك» والعمدة في مثل هذه المسألة اتباع ما فيه المصلحة وهي تختلف باختلاف الاحوال

واما استشارة النبي (ص) لغير المسلمين فلعل شيخ الاسلام نفعنا الله بعلمه يريد بها ما كان في اول الاسلام من استشارته (ص) لعمه ابي طالب ومن استشارة المنافقين بعد الهجرة كاستشارة عبد الله ابن ابي في غزوة احد ومراجعته لحلفائه من اليهود في بعض المسائل المتعلقة بالمحالفة ان صح ان يسمى هذا استشارة . أما كونه (ص) كان اذا عرض امر يستشير فيه المشركين أو أهل الكتاب ليستبين بمشاورتهم الرأي فهو ما لا اعرفه ولا اظن ان شيخ الاسلام يريده . وقد علمت مما تقدم في الكلام على الدستور انه لا مانع من المشاورة وان مصلحة الامة هي المحكمة في مثل هذه المسألة .

ولا شك ان مصلحة دولتنا في هذا العصر تقتضي إشراك جميع شعوبها في المشاورة ووضع جميع القوانين لا تقوم المصلحة بدون ذلك وهذا وحده كاف للجواز شرعا

﴿ انصار البدع والتقاليد وكتبهم ﴾

(س ٣٢) من صاحب الامضاء في بتاوى (جاوه)

مولاي الاستاذ المصلح فضيلتلو أفندم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت والمسئول منكم ايفاء لما التزمتم به من النصح لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين ان تفيدونا عن أسئلتنا هذه قد عرفنا منكم الصدق وقوة الحجة وقطع ألسنة أئمة البدعة أدامكم الله وزادكم توفيقا : انها قد نبغت في هذه السنين رجال يدعون الى الكتاب والسنة ويؤثرون ما كان عليه السلف الصالح على كثير من المنقول عن المتأخرين وقد كثر أصحابهم وعلت أصواتهم ونرى على أقوالهم جلالة الحق ومسحة الصدق ،

وقد غاظ أمرهم هذا أناسا عاشوا بترويج الرابطة والتوجه . وآخرين جمدوا على ما قاله بعض مصنفي المتأخرين كابن حجر المكي فاتخذوهم أربابا من دون الله يحلون ما أحلوا ويحرمون ما حرموا ويقدمون أقوالهم على قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأقوال كبار أصحابه ورجالات التابعين باحسان مع صحة النقل وانتفاء المعارض ، وقد زعموا أن الواجب علينا هو الاخذ بما قاله أولئك المصنفون وانه لا نجوز لنا مخالفتهم ولا نسبة السهو والغفلة اليهم فضلا عن الغلط وان خلاف ما قالوه بدعة وضلالة وفسوق مهما قويت صحته وكذا القائلون به من سلف الامة وخلفها وان شيخ الاسلام ابن تيمية كبير الفسقة وان من يسميه شيخ الاسلام فاسق أيضا بل حرموا الاستدلال من الكتاب والسنة مطلقا ، وقالوا لا يقرأهما أحد إلا بنية التبرك أو نحو الاستسقاء والا فهو ضال مجرم !!!

والى سيدي نبذة طبعها مصنفها حديثا . عكف عليها عباده وفيها همز ولمز لا نسأل عنها ولكن نرجوكم عدم غض النظر عما فيها من التغرير والتضليل واطلاق المقيد وتعميم الخاص وايراد الأحاديث الموضوعة والتحكم في الدين والافتراء

على الله بالقول هذا حلال وهذا حرام بدون حجة ليكون ما تكتبونه زاجرا له ولامثاله من الجهال المتعصبين ومنقذا لمن يقع في حبالتهم من العوام والسذج من المؤمنين ولتعلموا ان قصده من الكتابة الرد لما جاء في المنار من نحو الفتيا في الغناء ومن المدح لشيخ الاسلام ومن الانحاء على البدع والتقليد ثم لغيركم بعد من الرسالة فصولا أخرى ولربما سكت عن الجواب لعذره ولا عذر لجنابكم ومع تلك الرسالة نموذج من فتاوي ذلك البعض في منع الترجمة للقرآن لم يأت على ما قاله فيها ببرهان فنرجوكم بيان الحق في حكم الترجمة والتفصيل بين ما يترجم لبيان معناه للاستدلال به على من لا يفهم العربية وما يترجم ليقرأ به العاجز عن القراءة بالعربية وما يترجم ليكون كالتفسير وما يشترط لذلك وان تشيروا بمن كتبت ترجمة بيان آي القرآن في كتبه بالفارسية وغيرها كالغزالي والپهو بالي والدهلوي وغيرهم ، ولكم منا جزيل الشكر ومن الله وافر الاجر والسلام

(سائل خائف يحب إظهار الحق ويخشي السجن)

م . م

(المنار) قد أرسل الينا صاحب هذا السؤال رسالتين مطبوعتين في جاوه مؤلفهما عثمان بن عبد الله بن عقيل المستشار الديني لحكومة هولندة في جاوه . احداهما في النهي عن ترجمة القرآن والثانية في مسائل المجتهدين والمقلدين والصوفية والاولياء والصحابة والنصيحة والحب والبغض في الله والورع وحفظ اللسان

يكلفنا هذا السائل كما كلفنا غيره ان تقرأ هاتين الرسالتين ونبين مافيهما من الخطإ ومخالفة الشريعة كما كلفنا غيرهم من قبل مطالعة بعض كتب النبهاني والرد عليها . وان الكتب الحديثة وكذا القديمة المحشوة بالأباطيل والقول في دين الله بغير علم ككتب النبهاني وأمثاله أكثر من أن تحصى فهل يكلف مثلي ان يقرأها ويبين ما فيها من الخطإ والباطل مهما كثر ذلك وتكرر ؟ ان هذا من تكليف ما لا يطاق فحسبنا ان نبين الحق في مسائل الدين ومنه يعلم ان كل ما خالفه باطل . وان أكثر المسائل التي نسئل عنها من هاتين الرسالتين وكتب النبهاني قد بينا الحق فيها بالدلائل الواضحة فهل نكلف ان نعيد كل ما كتبناه كلما تكرر السؤال عنه ؟

على ان الرد على هؤلاء المقلدين المتهوّكين مشكل لكثرة تناقضهم ولضيعة البرهان عندهم كما قال الشاعر

أقلد وجدي فليبرهن مفندي فما أضيع البرهان عند المقلد

فتراهم يحرمون الاهتداء بالكتاب والسنة والاستدلال بهما على المطالب ويدعون أن الله تعالى ما كلفنا الا العمل باقوال بعض الفقهاء المتأخرين كابن حجر الهيتمي والسبكي في دين عثمان بن عقيل مؤلف هاتين الرسالتين ثم انهم يستدلون بعدذلك بالكتاب والسنة ويخالفون امامهم ومقلدهم فيما اشترطه في نقل الاحاديث بلهَ الاستدلال بها . فقد ذكر ابن حجر في (ص ٣٢) من فتواه الحديثية انه لا يجوز لغير المحدث رواية الاحاديث ونقلها بمجرد رؤيتها في الكتب بل لا بد من نقلها من كتب اهل الحديث الذين يميزون بين الصحيح وغيره وابن عقيل هذا ينقل في رسالته احاديث من غير الكتب المعتمدة ولا يعزوها الى احد من الحفاظ ولا الى كتبهم وفيها الموضوع والواهي الذي لا يحتج به والمحرف وهو لا يعرف اصلها . ومن غرائب التهافت انه عقد في رسالته فصلا للاحاديث الموضوعة وذكر انها أشد الاشياء خطراً على الدين

وممن يعدهم عمدة وحجة في الدين الغزالي وقد شنع في الاحياء وما بعده من كتبه على التقليد والفقهاء الذين أعلى من ابن حجر مرتبة فهل يأخذ برأيه في ذلك وهو يحمد اتباع السلف ويأمر بعدذلك بالبدع التي تخالف سنتهم ويعتمد على أقوال الخلف وأعمالهم التي لم تكن في زمنهم

كذلك تراه يعظم الصوفية ويأمر باتباعهم والصوفية كلهم يتبرءون من التقليد ويقولون انهم لايأخذون دينهم الامن عين الشريعة وهو كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد نقل في رسالته شيئا من أقوالهم في ذلك ، ولهم في ذلك ماهو أصرح مما نقله وأوضح . فبماذا نحتج على مثل هذا المؤلف وهو ليس من أهل الحجة والدليل لأن هؤلاء هم الذين يسميهم هو وأمثاله المجتهدين ويقولون انهم قد انقرضوا ولا يأتي الله بمثلهم يقولون هذا افتياتا على الله وعلى الوجود بما لا يعلمون؟؟

ومن غريب تناقضهم انهم على تبروءهم من الاستدلال الذي هو الاجتهاد تراهم

يحكمون في المسائل والوقائع حكم المجتهدين بمحض الجهل والهوى فيقولون هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا إيمان، وهذا العالم على هدى فيؤخذ بقوله وهذا على ضلال فيرد قوله ، فالأئمة المجتهدون لم يكونوا يجيزون لا نفسهم ان يقولوا مثل هذا الا بدليل فكيف صار هؤلاء المتأخرون الجاهلون فوق الأئمة يقولون في دين الله تعالى بغير دليل حتى كأن الله تعالى أذن لهم ان يشرعوا للناس من الدين ماشاؤا

ان مناقشة هؤلاء عبث والرد عليهم قليل الجدوى في الغالب ولا يمنع إضلالهم للعامة التي تثق بهم لموافقتهم لأهوائها في البدع والعادات الحاكمة عليها وانما السبيل الى ذلك ان يكثر العلماء الراسخون العارفون بدين الله تعالى ويتولون أمر التعليم والارشاد فمن أراد ان يسعى في انقاذ المسلمين مما هم فيه من الجهل والبدع ويردهم الى أصل دينهم فليسع في هذا وهو مايهتم به بعض أصحاب الغيرة المصلحين اليوم وسيظهر أثره ان شاء الله تعالى عن قريب

على ان المؤلفين الذين يفسدون بمصنفاتهم ولا يصلحون قسمان: قسم طبع الله على قلوبهم وجمدوا على مااعتادوه وألفوه باسم الدين وصارلهم به حظ من المال والجاه حتى تودع منهم ووقع اليأس من رجوعهم الى الحق . وقسم آخر لايزال على شيء من نور الفطرة وسلامة القلب فهؤلاء وان سدوا على أنفسهم باب الاستدلال لايزالون محل رجاء فهم يعودون الى الحق اذا ظهر لهم نوره . فلهؤلاء أقول :

اننا ندعوكم الى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى عليه وآله وسلم فان الله تعالى لم ينزل عليكم غير هذا القرآن ولم يرسل اليكم غير هذا الرسول (ص) وقد قال في كتابه انه أكمل لكم دينكم فكل من زاد في الدين شيئا فهو غير مذعن لقوله تعالى (٦:٣ اليوم أكملت لكم دينكم) ولا قول نبيه (ص) في حديث ابي ثعلبة .الذي حسنه النووي في الاربعين وصححه ابن الصلاح «ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها »

ندعوكم الى معرفة الكتاب والسنة والاهتداء بهما وان تستعينوا على فهمهما بما كتبه خدمتهما من أئمة الفقه والحديث والتفسير واللغة لانتها كم عن الاستهداء

والاستعانة بكلام هؤلاء الأئمة بل ندعوكم اليه ولكن لاتجعلوا كلام هؤلاء العلماء شرعا مقصودا لذاته وتتركوا الاصل الذي كتبوا ما كتبوا لاجل خدمته و بيانه حتى يصير نسيا منسيا فيصدق عليكم ما نعاه القرآن على من قبلكم بأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم

أجمع سلف الأمة ومنهم الأئمة الاربعة على تحريم التقليد ونصوصهم في ذلك مشهورة ذكرنا كثيرا منها في (محاورات المصلح والمقلد) ثم جاء المصنفون المقلدون فقالوا بوجوب التقليد للعاجز عن الاجتهاد ولكنهم اجمعوا على انه لايجوز تقليد المقلد وانما يجب تقليد الائمة المجتهدين . ثم جاء المتأخرون يقولون بوجوب اتباع مثل ابن حجر وغيره من المقلدين فاذا كان قول مثل ابن حجر بوجوب التقليد ليس حجة عند أحد فهل يكون كلام مقلديه مما يعتد به وهو كلام مقلد المقلد الذي لايفهم الكتاب والسنة ولا يعرف كلام من يقول انهم هم الذين فهموهما و بينوهما وهم الائمة المجتهدون ؟؟

يدعي الشيخ عثمان بن عقيل وأمثاله في جاوه وحضرموت انهم متبعون للامام الشافعي رضي الله عنه ولكن الشافعي نص في كتبه على منع التقليد فكيف يكون المقلد متبعا له ! ؟

طبع في هذه الأيام كتاب الأم له مع رسالته في الاصول وطبع على هامشه مختصر صاحبه اسماعيل بن يحيى المزني فلينظروا كيف بدأ المزني مختصره بقوله بعد البسملة « اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله ومن معنى قوله لأقربه على من أراده مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه و بالله التوفيق »

فالائمة رضي الله عنهم ما تصدوا لبيان الكتاب والسنة الا ليعينوا الناس على فهمها ولم يقصدوا أن يكون كلامهم شرعا يعمل به و يترك الكتاب والسنة استغناء به عنهما فهم معلمون للكتاب والسنة لا شارعون فينبغي أن نستعين بكلامهم على الفهم ونعمل بما فهمنا

ذكر الشيخ عثمان في الفصل الثالث أن الائمة أهل الاجتهاد المطلق مبينون للكتاب والسنة والعلماء أهل الاجتهاد في مذاهب الائمة مبينون لكلام الائمة

كالغزالي وأهل الترجيح والفتوى كابن حجر مبينون لكلام أهل الاجتهاد في المذهب ، فهو يعترف بأن أصل الدين وأساسه كتاب الله وان السنة مبينة لما اجمل فيه وان الائمة مبينون للسنة الخ ويرى هو وأمثاله ان الواجب على جميع المسلمين الآن اتباع أصحاب الطبقة الاخيرة من المبينين كابن حجر فلنا مع هؤلاء أسئلة :

(١) ان علماء الاصول قالوا ان الوجوب هو حكم الله المقتضي للفعل اقتضاء جازما فمن أين أخذتم هذا الحكم الإلهي باتباع طبقة ابن حجر وهذه الطبقة لم توجد إلا بعد انقراض الائمة الذين فهموا الكتاب والسنة والطبقة التي فهمت كلامهم ؟

(٢) ان بعض العلماء جعلوا الطبقات ستة والاخيرة التي يعتمد عليها هي طبقة الناقلين الذين لا يعتد بفهمهم ولا ببحثهم كما بينه ابن عابدين في رسم المفتي فاذا أراد بعض العقلاء المستقلين من الافرنج ان يدخل في دينكم فكيف تقنعونه بوجوب اتباع الطبقة الثالثة أو السادسة مع اقراركم بأنها لا تفهم أصل الدين وانما تفهم عبارات طبقة فوقها أو تنقلها وتلك الطبقة لا تفهم أيضا بنفسها أصل الدين الخ ؟

(٣) اذا سلمنا لكم ما تقولون في هذه الدرجات من البيان وانكم أهل لان توجبوا على الامة حكما شرعيا لم يوجبه الله ولا رسوله ولا الصحابة والائمة الذين فهموا كلامهما وهو ايجاب اتباع هذه الطبقة من مقلدي المقلدين فيما سميتموه بيانا لبيان بيان بيان أصل الدين أفلا يجب ان يكون بين هذه الطبقات من البيان و بين الاصل المبين اتصال يعلم منه أنه بيان له و يزداد الاصل اتضاحا وجلاء ؟ أليس بهذا الاتصال يعقل أن يكون كلامهم بيانا ولا يمكن أن يعقل ذلك بدونه ؟

(٤) هل يعقل أن يحتاج كلام الله الذي سماه بيانا وتبيانا مع زيادة بيان الرسول (ص) له بأفعاله وأقواله الى كل هذه الطبقات من المبينين ؟ ألا ينافي هذا الاحتياج كونه بيانا وتبيانا وكون الدين قد كمل قبل وفاة رسول الله (ص)

(٥) اذا رأينا في كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة الثابتة عندنا حكما فهمناه وعقلناه ورأينا في كلام مثل ابن حجر ما يخالفه فهل يفرض الله علينا ان نترك كلامه وسنة رسوله الى كلام مثل ابن حجر لانه مبين لكلام مثل السبكي المبين لكلام مثل الشافعي المبين للكتاب والسنة ؟ فنترك الاصل الصريح الواضح الى كلام يخالفه

بناء على انه مبين له في الدرجة الرابعة من البيان ؟؟ هل يقول عاقل أو مجنون ان بيان الشيء يكون بخلافه ونقيضه . لو كان هذا السؤال مبنيا على شيء مفروض لصح أن يكون ناقضا لقاعدتهم فكيف وهو مبني على اساس ثابت وهو أن في كلام الفقهاء كثيرا من المسائل المخالفة لنصوص الدين لا سيما الاحاديث الصحيحة اخذوها من قواعدهم اومن ترجيح حديث ضعيف على صحيح أوالعمل به ابتداء فاخطأوا وما كانوا معصومين . وقد اورد ابن القيم في (اعلام الموقعين) اكثر من سبعين شاهدا على ذلك فتراجع فيه او في المجلد السادس من المنار . ومن هذه المخالفات ماهو للشافعية — وهو أقلها — ومنها ما هو لغيرهم

وليس هذا بالامر بالغريب فان الائمة انفسهم كانوا يقولون القول ثم يظهر لهم خطوءه فيرجعون عنه كما رجع الشافعي عن مذهبه القديم الى مذهبه الجديد وكما رجع علماء مذهبه إلى بعض المسائل من مذهبه القديم فأفتوا بها ترجيحا لها على الجديد لظهور دلائل تؤيدها وكما رجحوا بعض مسائل مخالفة للمذهب مطلقا كقول النووي في شرح صحيح مسلم ان الراجح من حيث الدليل ان نجاسة الخنزير كغيرها من النجاسات في الغسل وكفتوى الغزالي بعدم تنجس الماء القليل الا بتغير احداوصافه من النجاسة وكما صرح الامام مالك عندموته بأنه كان يرى الرأي في المسألة ثم يظهر له خطوءه فيرجع عنه و بكى لاجل ذلك حين بلغه أن الناس اخذوا بقوله وقلدوه فيه وكما رجع بعض الصحابة عن خطإهم وهم اعظم من هؤلاء الائمة وأعلم كرجوع عمر (رض) في مسألة المهور الى قول المرأة التي ردت عليه وهو يخطب في المسجد. فكل أحد من العلماء عرضة للخطإ فيما يقوله لأ نه غير معصوم فيه إما لنسيان الدليل كما نسي عمر قوله تعالى (وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) فأراد أن يحدد المهر بمثل مهور بنات النبي (ص) واما لعدم علمه به لأ نه لم يكن كل صحابي حافظا لكل القرآن ، و إما لعدم فهمه له كما اخطأ بعض الصحابة في فهم المراد من الخيط الابيض والخيط الاسود وفي فهم كيفية تيمم الجنب ، وغيرهم أولى بمثل هذا الخطأ في الفهم

فاذا كان كل أحد من علماء الأمة عرضة للخطإ فيما يقوله لما ذكرنا وما لم نذكر من الاسباب والشواهد فلا جرم ان كل من يأخذ بقوله من غير ان يعرف اصله من

الكتاب والسنة هو عرضة لهذا الخطأ ولهذا قال ابو حنيفة وغيره لا يجوز لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من اين قلناه .

ونتيجة هذا كله أن كلام الائمة يستعان به على فهم الكتاب والسنة ولا يترك الكتاب والسنة له بل يجعل فهمهما هوالمقصود بالذات والعمدة في الاهتداء ولا تترك الامة تعلمهما والفقه فيهما قط ولا تهمل كلام أئمة العلماء والانتفاع بما فتح الله عليهم من الفهم فيهما مع البصيرة التي هي شأن المؤمنين

فنطلب من هؤلاء المعارضين لنا في الدعوة الى الاهتداء بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم التي جرى عليها سلف الامة ان يجيبونا عن هذه الاسئلة .

* * *

أما طعن السيد عثمان بن عقيل في شيخ الاسلام ابن تيمية لأن مثل ابن حجر الهيتمي طعن فيه فنقول فيه كلمات تكفي لرجوعه عنه وتوبته ان كان قال ذلك عن سوء فهم لاعن سوء قصد كما نظن فيه ترجيحا للخير على الشر وهي :

(١) إذا كنتم تقبلون طعن العلماء بعضهم في بعض مطلقا وتضللون كل من طعن فيه فانه لا يسلم لكم أحد من أئمتكم لا في الفقه كالشافعي ولا في الحديث كالبخاري ولا في الكلام كالأشعري ولا في التصوف كالشاذلي وابن عربي ولا من المتفننين كالغزالي كما هومبين في كتب التاريخ والتراجم وقله معتمدكم الشعراني في أول كتاب اليواقيت والجواهر وغيره من كتبه وذكر التاج السبكي طائفة منه في طبقاته ومنها انهم طعنوا في والده التقي السبكي الذي هو عمدتكم في تخطئة ابن تيمية

(٢) إذا كنتم تسلمون معنا بأنه لا يجوز أن يضلل كل من طعنوا فيه ولا ان يتبع كل طاعن في طعنه فإما ان تسكتوا عن الطعن في العلماء ولا تخوضوا فيه وهو الاسلم لأ مثالكم وإماأن تبحثوا عن سبب الطعن وتحكموا فيه الدليل وأنتم لا تدعون أهلية الحكم بين مثل ابن تيمية والتقي السبكي

(٣) إذا كنتم ترون أنفسكم أهلا لهذه المحاكمة فلا يكون حكمكم عادلاً كما أمر الله من يحكم بين الناس ان يحكم بالعدل الا اذا اطلعتم على ما كتبه ابن تيمية في

المسائل التي أنكرها عليه السبكي وغيره من المعاصرين له (دع مانسبه اليه من بعدهم زورا وبهتانا) ورأيتم أدلته ثم اطلعتم على كلام خصمه وأدلتـه . واما الحكم على شخص بمجرد سماع كلام خصمه فهو ظلم بين كما هو بديهي

(٤) ان ما عزاه ابن حجر الهيتمي الى ابن تيمية من القول بان الرب تعالى محل للحوادث وان القرآن محدث وان العالم قديم بالنوع ومن القول بالجسمية والجهة و بان الرسول (ص) لا جاه له — كل ذلك مكذوب على ابن تيمية وكتبه الكثيرة مصرحة بخلاف ذلك ولم نر في كتب أحد من علماء الاسلام مثل ما رأينا في كتبه من الدلائل والبراهين على نفي هـذه الاباطيل وتفنيدها . فاما ان يكون ابن حجر قد سـمع تلك المطاعن من بعض الكاذبين فصدقها — وهو المرجح عندنا — وإما ان يكون هو الذي افتجر ذلك عليه وهو ما لا نظنه في مثله ، واما ان يكون ذلك مدسوسا على ابن حجر وقـد دس المفسدون كثيرا في الكتب كما بيّن ذلك معتمدكم الشعراني . ومهما كان سبب تلك المطاعن فهي لا قيمة لها مع استفاضة كتب الرجل بخلافها وقد طبع الكثير منها ولله الحمد — ومنه رسالة التوسل والوسيلة التي نقلنا منها نبذة في تفسير الجزء الماضي فيها إثبات الجاه للنبي (ص) وننقل في هذا الجزء نموذجا آخر منها — فعليكم ان تطلعوا على هذه الكتب ان كنتم للحق تطلبون

(٥) ان كلام مثل ابن حجر في ابن تيمية معارض بكلام من هو أعلم منـه بالرجال وبما قيل فيهم كسميّه الحافظ ابن حجر العسقلاني وهو شيخ شيوخه وأعلمهم بالرجال فانظروا ما ذا قال في ابن تيمية في كتابه طبقات الحفاظ وغـيره من كتبه . وبمثل قوله فيه وثنائه عليه واعترافه له بمشيخة الاسـلام قال واثنى واعترف أكابر الحفاظ في عصره و بعد عصره وشهدوا له بالاجتهاد المطلق

(٦) ان كتب ابن تيمية أكبر شهادة من كل أولئك العلماء على كون الرجل وصل الى رتبة الاجتهاد المطلق وقصارى ابن حجر انه في رتبة المرجحين في فقه الشافعية

فاين الثريا وأين الثرى وابن معاوية من علي

هذا مانتبه اليه السيد عثمان صاحب رسالة فصل الخطاب التي أرسلت الينا حديثا

ونقول اننا نحسن الظن فيه وان جاءنا فيه مطاعن كثيرة من علماء بلاده قالوا فيها انه عون الظالمين ونصير المستبدين .... واننا بما يغلب علينا من حسن الظن فيه نرى اذا تدبر كلا منا هذا رضيه واذعن له ان رآه حقا كما نرى ونعتقد وان رأى فيه شيئا باطلا بينه لنا بالدليل عملا بوجوب النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والفرق بيننا و بين المنكرين علينا اننا لانقول شيئا بغير دليل واننا نصرح على رءوس الاشهاد بأننا نرجع الى الحق اذا ظهر لنا دليله . وانهم يقولون بغير دليل واذا قامت عليهم الحجة أعرضوا وادبروا ، وولوا واستكبروا ، الا من كان منهم مخلصا في إنكاره فانه يرجع الى الحق اذا ظهر وكان الله للأوابين غفورا

ثم نقول لصاحب السؤال ولأمثاله الذين يكلفوننا المرة بعد المرة الرد على الطاعنين في شيخ الاسلام ابن تيمية بالتفصيل عليكم بالكتاب الجديد الذي استقصى ذلك وطبع في هذا العام المسمى (غاية الأماني في الرد على النبهاني) وهو مجلدان كبيران لاحد علماء العراق الأعلام

هذا - وأما ترجمة القرآن فلنا فيها فتوى طويلة نشرت في المجلد الحادي عشر فتراجع فيه (ص٢٦٨) فانها تغني عن قراءتنا للرسالة التي كتبها الشيخ عثمان و بيان خطإها من صوابها

• • •

﴿ تنبيه للمستفتين ﴾

ان من أسباب اغفال بعض الاسئلة أو تأخيرها زمنا طويلا لايجاب عنها وضع السائل إياها في ضمن خطاب يتكلم فيه عن أمور أخرى كالاشتراك في المنار أو طلب بعض الكتب . فأمثال هـذه الخطابات تحفظ في أوراق حسابات المنار أو حساب المكتبة ولا نجد في الغالب وقتا لنسخ السؤال منها . واما الاسئلة التي تكتب في ورقة مستقلة فانها تحفظ في ظرف وحـدها ثم تعطى للمطبعة عند ارادة الجواب عنهـا فلا تكلفنا ان ننسخها . فعلى المستفتين ان يكتبوا أسئلتهم في ورقة على حدتها إذا أحبوا ان لا تغفل ولا تؤخر كثيرا

———

نموذج

﴿ من كتاب التوسل والوسيلة ﴾

لشيخ الاسلام ابن تيمية الذي طبع في هذه الايام. قال بعد بحث وتحقيق ما نصه:

اذا عرف هذا فقد تبين ان لفظ الوسيلة والتوسل فيه اجمال واشتباه يجب ان تُعرف معانيه ويعطى كل ذي حق حقه فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعني ذلك ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه فان كثيرا من اضطراب الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من الاجمال والاشتراك في الالفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب،

فلفظ الوسيله مذكور في القرآن في قوله تعالى (ياأيها الذين امنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) وفي قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) فالوسيلة التي أمر الله ان تبتغى اليه واخبر عن ملائكته وانبيائه أنهم يبتغونها اليه هي ما يتقرب به اليه من الواجبات والمستحبات فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به

أمر ايجاب أو استحباب ، وأصل ذلك الايمان بما جاء به الرسول فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل اليه باتباع ما جاء به الرسول لا وسيلة لأحد الى الله الا ذلك

والثاني لفظ الوسيلة في الاحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم «سلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون انا ذلك العبد فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة» وقوله «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محموداً الذي وعدته انك لا تخلف الميعاد حلت له الشفاعة» فهذه الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة وقد أمرنا ان نسأل الله له هـذه الوسيلة واخبر انها لا تكون الا لعبد من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد وهذه الوسيلة أمرنا ان نسألها للرسول واخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لان الجزاء من جنس العمل فلما دعوا للنبي صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعو هو لهم فان الشفاعة نوع من الدعاء كما قال انه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا

واما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الاقسام به والسؤال به كما يقسمون بغيره من الانبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح

وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ويراد به معنى

ثالث لم ترد به سنة * فاما المعنيان الاولان الصحيحان باتفاق العلماء فأحدهما هو أصل الايمان والاسلام وهو التوسل بالايمان به وبطاعته والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم فهذان جائزان باجماع المسلمين ومن هذا قول عمر بن الخطاب: اللهم انا كنا اذا أجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا. أي بدعائه وشفاعته * وقوله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) أي القربة اليه بطاعته وطاعة رسوله طاعته قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فهذا التوسل الاول هو أصل الدين وهذا لا ينكره أحد من المسلمين

واما التوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر فانه توسل بدعائه لا بذاته ولهذا عدلوا عن التوسل به الى التوسل بعمه العباس ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس فلما عدلوا عن التوسل به الى التوسل بالعباس علم ان ما يفعل في حياته قد تعذر بموته بخلاف التوسل الذي هو الايمان به والطاعة له فانه مشروع دائما

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان أحدها التوسل بطاعته فهذا فرض لا يتم الايمان الا به والثاني التوسل بدعائه وشفاعته وهذا كان في حياته ويكون يوم القيمة يتوسلون بشفاعته والثالث التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه لا في حياته ولا بعد مماته لا عند قبره ولا غير قبره ولا يعرف هذا في شيء من الادعية المشهورة بينهم * وانما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عن من ليس قوله حجة كما سنذكر ذلك ان شاء الله تعالى وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه انه لا يجوز ونهوا عنه حيث قالوا لا يسأل

بمخلوق ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك . قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة . وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة * قال بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال قال أبو حنيفة لا ينبغي لاحد ان يدعو الله الا به واكره ان يقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك . وهو قول أبي يوسف قال أبو يوسف بمعقد العز من عرشه هو الله فلا اكره هذا واكره ان يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام . قال القدوري المسئلة بخلقه لا تجوز لانه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقا * وهذا الذي قاله ابو حنيفة واصحابه من ان الله لا يسئل بمخلوق له معنيان احدهما هو . وافق لسائر الائمة الذين يمنعون ان يقسم احد بالمخلوق فانه اذا منع ان يقسم على مخلوق بمخلوق فلأن يمنع ان يقسم على الخالق بمخلوق اولى واحرى . وهذا بخلاف اقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى والشمس وضحاها والنازعات غرقا والصافات صفا فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه اقسامه بخلاف المخلوق فان اقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «من حلف بغير الله فقد اشرك» وقد صححه الترمذي وغيره وفي لفظ «فقد كفر» وقد صححه الحاكم وقد ثبت عنه في الصحيحين انه قال «من كان حالفا فليحلف بالله» وقال «لا تحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم» وفي الصحيحين عنه انه قال «من حلف باللات والعزى فليقل لا اله الا الله» وقد اتفق المسلمون على انه من حلف بالمخلوقات

المحترمة او بما يعتقد هو حرمته كالعرش والكرسي والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الانبياء والصالحين وايمان السدق وسراويل الفتوة وغير ذلك لا ينعقد يمينه ولا كفارة في الحلف بذلك

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب ابي حنيفة واحد القولين في مذهب الشافعي واحمد وقد حكي اجماع الصحابة على ذلك . وقيل هي مكروهة كراهة تنزيه والاول اصح حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن احلف بالله كاذبا احب اليّ ان احلف بغير الله صادقا . وذلك لأن الحلف بغير الله شرك والشرك اعظم من الكذب : وانما نعرف النزاع في الحلف بالانبياء فعن احمد في الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم روايتان احدهما لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبي حنيفة والشافعي والثانية ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي واتباعه . وابن المنذر وافق هؤلاء . وقصر أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وعدى ابن عقيل هذا الحكم الى سائر الانبياء . وايجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وان كان نبيا قول ضعيف في الغاية مخالف للاصول والنصوص فالاقسام به على الله والسؤال به بمعنى الاقسام هو من هذا الجنس ،

(المنار) ثم حقق المصنف مسألة سؤال الله بما ليس سببا للاجابة كسؤاله بخلقه وسؤاله بما هو سبب شرعي للإجابة كالايمان والطاعة . وقد أودعنا بعض كلامه في تفسير الجزء الماضي (السابع) ثم قال من فتوى أفتاها بمصر مانصه :

فاما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته مثل الاقسام بذاته أو بغيره من الانبياء أو السؤال بنفس ذواتهم لا بدعائهم فليس هذا مشهوراً عند الصحابة والتابعين بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن ابي سفيان ومن بحضرتهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم باحسان لما اجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس وكيزيد ابن الاسود ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال بالنبي صلى الله عليه وسلم لا عند قبره ولا غير قبره بل عدلوا الى البدل كالعباس وكيزيد بل كانوا يصلون عليه في دعائهم، وقد قال عمر اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا . فجعلوا هذا بدلا عن ذلك لما تعذر ان يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه وقد كان من الممكن ان يأتوا الى قبره ويتوسلوا هناك ويقولوا في دعائهم بالجاه ونحو ذلك من الالفاظ التى تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به فيقولون نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاه نبيك ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس

وروى بعض الجهال عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : اذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فان جاهي عند الله عظيم ، وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث مع ان جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الانبياء والمرسلين وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام انهما وجيهان عند الله فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها)

وقال تعالى (اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين) فاذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الاولون والآخرون، وصاحب الكوثر والحوض المورود الذي آنيته عدد نجوم السماء وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلا من العسل ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم وأولو العزم نوح وابراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويتقدم هو اليها، وهو صاحب اللواء آدم ومن دونه تحت لوائه، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل، وهو امام الانبياء اذا اجتمعوا وخطيبهم اذا وفدوا ذو الجاه العظيم صلى الله عليه وسلم وعلى آله

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس كجاه المخلوق عند المخلوق فانه لا يشفع عنده أحد الا باذنه (إن كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا * لقد احصاهم وعدهم عدا) وقال تعالى (لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا * فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله واما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا)

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير اذنه فهو شريك له في حصول المطلوب والله تعالى لا شريك له كما قال سبحانه (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من

شرك وماله منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)

وقد استفاضت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه نهى عن اتخاذ القبور مساجد ولعن من يفعل ذلك ونهى عن اتخاذ قبره عيدا وذلك لان أول ما حدث الشرك في بني آدم كان في قوم نوح قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام وثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم ان نوحا أول رسول بعثه الله الى أهل الارض وقد قال تعالى عن قومه انهم قالوا (لا تذرُنّ آلهتكم ولا تذرُنّ ودّاً ولا سواعا * ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا) قال غير واحد من السلف هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم فلما طال عليهم الامد عبدوهم. وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا عن ابن عباس وذكر ان هذه الآلهة صارت الى العرب وسمي قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الاصنام

فلما علمت الصحابة رضوان الله عليهم ان النبي صلى الله عليه وسلم حسم مادة الشرك بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد وان كان المصلي يصلي لله عز وجل كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لئلا يشابه المصلين للشمس وان كان المصلي انما يصلي لله تعالى وكان الذي يقصد الدعاء بالميت او عند قبره اقرب الى الشرك من الذي لا يقصد الا الصلاة لله عز وجل لم يكونوا يفعلون ذلك وكذلك علم الصحابة ان التوسل به انما هو التوسل بالايمان به وطاعته ومحبته وموالاته والتوسل بدعائه وشفاعته فلهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا فلما لم يفعل الصحابة رضوان الله عليهم شيئا

من ذلك ولا دعوا بمثل هذه الادعية وهم اعلم منا (١) واعلم بما يحب الله ورسوله واعلم بما امر الله به رسوله من الادعية وما هو اقرب الى الاجابة منا بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي صلى الله عليه وسلم — دل عدولهم (٢) عن التوسل بالافضل الى التوسل بالمفضول ان التوسل المشروع بالافضل لم يكن ممكنا الخ

باب المناظرة والمراسلة

﴿ الدكتور شبلي افندي شميل ﴾

اطلعت في مجلة الهلال شهر حزيران سنة ١٩٠٩ على مقالة للدكتور المومأ اليه بحث بها بحثا فلسفيا يخال المطالع من أول وهلة ان الدكتور قصد به محاربة الاديان السماوية على الاطلاق بما توخاه من نفي الخالق واثبات النشوء وقد عجبت بعد اطالته لتأييد هذا المذهب الجديد من قوله : « لاحياء في الدين » وهذا مما يدل ان للدكتور دينا فما هو دينه يا ترى ؟

سعى اخوان الدكتور المومأ اليه لاخذ توقيع بعض الناس لانتخابه عضوا في مجلس الاعيان العثماني بصفة انه عالم مسيحي والعالمية والمسيحية صفتان مرتبطتان بنواميس وقواعد توجب السلامة لكل بني البشر باعتبار ان للعلم أصولا تقضي بإحقاق الحق كما ان الدين قانون لمكارم الاخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكنت أستغرب عدم تعيين المومأ اليه بعد ذلك الانتخاب ولعل الذين رفضوا

(١) يحتمل ان يكون هنا شيء محذوف وهو ما يأتي نظير له في لاحق الكلام ويحتمل ان يكون المراد انهم أوسع علما منا على الاطلاق ثم عطف المقيد على المطلق
(٢) هذا جواب قوله فلما علمت الصحابة الخ

قبول تعيينه عضوا في المجلس الآنف الذكر عرفوا ان الدكتور على مذهب دارون وانه ليس بمذهب معقول ولا مشروع ولا له اتباع في البلاد العثمانية ليكون نائبا عنهم لان أصحاب الاديان المعروفة هم المسلمون والنصارى واليهود .

كنت أقف مبهوتا كلما نظرت إلى مصوَّر الانسان «أطلس رسوم هياكله على اختلاف أشكالها» وما احتوت عليه من تراكيبه الكلية والجزئية الظاهرة والخفية التي لا تدون ولن تدون لانطواء كل شيء في العالم الكبير العظيم ضمن هذا الجرم الصغير وكنت أكرر تمجيد قدرة الخالق سبحانه كلما تأملت في الاوعية والاوردة والادوات والمصانع وأسبحه وأقدسه لإعطائه كل شيء خلقه وهدايته إلى استعمال وظيفته وانشد قول الشيخ الاكبر والكبريت الاحمر سيدي محيي الدين بن العربي رضي الله عنه في توجيه الخطاب إلى الانسان

وتحسب انك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الاكبر

وأقول في نفسي ان الاطباء يلزم ان يكونوا أكثر الناس اعتقادا بتوحيد الخالق سبحانه لوقوفهم على حقائق ودقائق ولطائف في تركيب الانسان لا يعرفها غيرهم كما انه لا زلنا نسمع عن أساطين الاطباء انهم كلما اكتشفوا شيئا جديدا يقولون ان الطب لم يزل طفلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

وبالنظر الى الدقائق واللطائف والرقائق المنطوية في العالم الانساني قال بعض علماء الصوفية « من عرف نفسه فقد عرف ربه »

واذا قلنا — وهو الواقع — ان الاطباء أكثر الناس علما بنظام العالم الإنساني فهل يسلم العقل انهم ينسبون الى الطبيعة الجامدة غير المتصفة بالعلم والقدرة والارادة انها أوجدت هذا الانسان العاقل بالنشوء « سبحانك هذا بهتان عظيم »

الكون موجب للحيرة أو هو بعجائبه محل الحيرة ولذلك قال بعض شيوخ علماء التصوف « العجز عن درك الادراك إدراك »

واذا كانت علوم مدنية اوربا لبواعث تقف تأدبا عن ايرادها قد احتوت على الالحاد فقد احتوت ايضا على علوم ذات فوائد عظيمة اجتماعية واخلاقية واقتصادية

وسياسية الى غير ذلك والشرق بحاجة اليها وخصوصا بدورنا الدستوري ذلك الدور السعيد الذي يقضي بتوحيد مشارب عناصر الوطن وتماسكهم لكي يسعدوا بالوطن ويسعد بهم وذلك يستلزم ان ينقل الى الوطن من علوم مدنية اوربا ما يعود عليه وعلى ابنائه بالخير واسمى المطالب وخصوصا لجهة البحث عن احوال بلاد النمسا والمجر المشابهة من حيث تعدد العناصر للبلاد العثمانية و بيان البواعث التي قضت بوحدة تلك العناصر واتفاقها وقيامها شعبا واحدا يؤيد مصلحة الوطن ويعزز قوته

ألم يكن البحث بمثل ذلك خيرا واعم نفعا من تأييد مذهب دارون ذلك المذهب الذي قضاياه تخيلات افتراضية صورها الوهم وقربها الاعتقاد بها وهي لا يمكن ان تحل في محل دين من الاديان مطلقا . نعم ان من يميل اليها يكون حجر عثرة في سبيل العفاف والإنسانية والعدالة تأخذ بيد من مال معها الى الاهواء وتجسره على فك ارتباطه من قيود الدين الادبية فتسوء عاقبته ويتحمل صاحب هذه البدعة مثل وزر ذلك المسكين الذي مرق من الدين بالاغواء وزخرف القول المموه

ومن المؤكد ان الاعتقادات الفاسدة التي تناقض الدين فضلا عن انها تبعد الانسان عن خالقه فهي توجب شرورا تؤخر الوطن بأدبياته ومادياته فنرجو من أفاضل الشرقيين الذين وهبوا العلم أو تحصلوا عليه بجدهم ان يتحفوا الشرق بغرر فوائد أوربا وحسناتها ويدعونا من إلحاد الملحدين لان الحسن في نفسه حسن و يوجب حسن الاحدوثة والسيء في نفسه سيء و يوجب سوء العاقبة اجارنا الله من ذلك وان يهبنا الصدق في القول والاخلاص في العمل

بيروت عبد القادر قباني

(المنار) صاحب هذه الرسالة يعرفه كثير من قراء المنار ومنهم من لا يعرفه. هو شيخ رجال الصحافة وكبيرهم عبد القادر افندي القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون التي عاشت أكثر من ثلث قرن وأوقفت في العام الماضي وكان مديراً للمعارف ببيروت الى ذلك العام . وقد جرى في دفاعه عن الدين في رسالته هذه على ما تعوّد فجزاه الله عن نفسه ودينه خيرا ، .

ولكنه جاء بشيء من المبالغة في الكلام عن مذهب دارون ومخالفته للدين

وافضائه الى الشرور حتى جوز ان يكون هو الذي منع جعل الدكتور شميل عضوا في مجلس الاعيان كما طلب الكثيرون من السوريين ! . وعجيب من مثل القباني ان يخطر هذا في باله! وهل يظن انه لا يوجد في رجال المجلس العمومي من المبعوثين والاعيان من يقول بصحة رأي دارون في تباين الأنواع ؟ وهل كان الكاتب نفسه يمنع كتب دارون وكتب من على رأيه من المدارس وغير المدارس لو بقي مديرا للمعارف بعد الدستور أو صار ناظرا للمعارف العمومية ؟

أؤكد لصديقي الكاتب ان مذهب دارون لا ينقض — ان صح وصار يقيناً — قاعدة من قواعد الاسلام ، ولا يناقض آية من آيات القرآن ، وأعرف من الاطباء وغيرهم من يقولون بمثل قول دارون وهم مؤمنون إيمانا صحيحا ومسلمون إسلاما صادقا يحافظون على صلواتهم وسائر فرائضهم و يتركون الفواحش والاثم والبغي التي حرم الله تعالى عملا بدينهم . على ان هذا المذهب علمي ليس من موضوع الدين في شيء

ثم انني أعلم ان الدكتور شميلا لم يكتب ما كتب ردا على صاحب مجلة الهلال الا إنكارا لبعض ما قاله في الاستدلال على صحة الدين من طريق العلم ولم يقصد بذلك التعرض لإبطال الدين نفسه ، اعني ان بحثه كان في الدليل لا في المدلول . وهو وان كان غير متدين لا يستجيز الكتابة في إبطال الدين والتنفير عنه بل انكر قولا وكتابة على جماعة من ايطاليا انشأوا مدرسة في الاسكندرية ظهروا فيها بمقاومة الدين . ولو كانت كتابته للهلال في الاعتراض على الدين لكنا ممن عني بالرد عليه

لا فرق بين الدكتور شميل و بين الكثيرين من اهل بلادنا الذين يرون رأيه في الدين وأكثرهم من النصارى المتعلمين (أي من النصارى جنسية لا اعتقادا) الا أنه هو يصرح برأيه لأن ظاهره و باطنه سواء لا نفاق عنده ولا جبن ولا مصانعة. والذين يجلون علمه واختباره لم يسعوا الى جعله عضوا في مجلس الاعيان المدافعة عن مذهب دارون فانهم يعلمون ان مجلس الاعيان لا يعرض عليه هذا المذهب ليبدي رأيه فيه وانما أحبوا ان يكون في ذلك المجلس عضو عربي سوري هو من أوسع العثمانيين

علما واختبارا ، وأشدهم حرية واستقلالا ، وحرصا على عمران البلاد ، وارتقاء أهلها في العلوم والآداب ،

اما قول الكاتب الغيور ان الاطباء يلزم ان يكونوا اكثر الناس اعتقادا بتوحيد الخالق فهو صحيح وهو يعني انهم جديرون بأن يكونوا اشد اعتقادا واقوى توحيدا وما ارى الا ان المؤمنين منهم بالله تعالى موحدون لا شرك في ايمانهم ولا وثنية كما في ايمان اكثر الناس (وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون) وليس للكاتب أن يعجب من حرمان بعضهم من الايمان وهو قد صرح بأن الكون موجب للحيرة أو هو بعجائبه محل الحيرة . والكلمة التي عزاها في هذا المقام لبعض شيوخ الصوفية يعزونها الى الصدّيق الاكبر وهل يظن ان احدا من علماء الكون – الطب وغيره – الكافرين موقن في كفره ؟ كلا إن هم إلا حائرون ولكن الحائرين فريقان فريق نشأ على دين وتربى عليه فظل لابسا له ، وفريق نشأ وتربى في مهد الحرية والاستقلال كالافرنج ومن تلا تلوهم فهم في حيرتهم هذه لا يلبسون لباس الدين

اما سبب فشو الكفر في هؤلاء الناس فهو أنهم يتعلمون العلوم الكونية باحسن الاساليب واقرب الطرق الى الاذهان ولا يتعلمون معها دينا يتفق معها ويرون فيما عليه اهل الاديان كلها أباطيل ينقضها العلم نقضا ويهدمها هدما . ولا يوجد الآن في الارض دين يتفق مع العلم الا دين الاسلام الذي هو دين القرآن لا دين جماهير المسلمين الذين يلتمسون الخيرات والحسنات ، ويدفعون الشرور والسيئات ، بالاستغاثة بالالوف من الاموات ، والطواف بقبورهم والتمسح بما ينسب اليهم من قبر حجري او خشبي ، وقفص من نحاس اوحديد ، وباب من الخشب ، وعمود من الرخام ، وشجرة من الاشجار ، وحجر من الاحجار ، وبئر من الآبار ، وجلد من النعال ، وخرقة من القماش ، — الذين يضيق دينهم عن قلنسوة أو كمة تلبس للوقاية من الشمس ، فما بالك بما لا يحصى من مكتشفات العلم ونتائج العقل !

فهلمَّ أيها الكاتب الغيور نتعاون على جهاد البدع والخرافات ، والتقاليد والعادات ، التي الصقت بهذا الدين فجعلته كغيره أو أشوه من غيره في نظر العالمين ، ونجاهد أنصار هذه الضلالات من ارباب العمائم ، الذين هم اضر على الدين من مذهب

داروين ، لعله يتيسر لنا انقاذ الاسلام من هؤلاء الجاهلين واخراجه من جحر الضب الذي وضعوه فيه ، ونبين لاهل العلوم والعرفان انه بريء من هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، واتخذوه هزوا ولعبا ، وانه هو الحنيفية السمحة وهم المائلون المضيقون ، وانه فطرة الله التي فطر الناس عليها وهم عن الفطرة ناكبون ، وانه موافق لمصالح البشر في كل زمان ومكان وهم لا يوافقون ، فاذا نجحنا في هذا فانا الضامن لك على الاطباء والكيماويين ، والطبيعيين والفلكيين ، والاجتماعيين والاشتراكيين ، والقانونيين والسياسيين ، أن يفضلوه على جميع الاديان ، ويرجحوا جعله دين المدنية في هذا الزمان

أرأيتك هذا الدكتور شميل الذي ترد عليه ، انه يقول في كل نادوسامر ، وعلى مسمع من المؤمن والكافر ، انه لا يوجد دين اجتماعي إلا دين القرآن ، فهو بهذا القول يدعو إلى نصف الاسلام وهو النصف الدنيوي منه ولكن يوجد فينا كثير من أصحاب العمائم ينفر عنه بقسميه الدنيوي والأخروي !!

واما ما أشار اليه الكاتب الغيور من حث امثال الدكتور شميل على وضع المؤلفات في الفنون والعلوم العصرية النافعة للامة في هذا العصر فهو أفضل ماينبغي الحض عليه والترغيب فيه لتكون لغة البلاد غنية بعلمائها ، وسيكون هذا على قدر عناية الأمة والحكومة بالعلم والله الموفق وبه المستعان

﴿ المدرسة الكلية الامريكانية في بيروت ﴾

(مقدمة رسالة) قد كان من سيئات الحكومة الاستبدادية لاسيما الحميدية منها ان يذل المسلمون لكل خسف ينالهم حتى العبث بدينهم لأن السلطان عبد الحميد كان قد منع المسلمين من جميع أنواع الاجتماع ومن الحديث والكتابة فيما يتعلق بالأمور العامة ومن تقديم الشكاوى للحكومة في المظالم العمومية دينية كانت أو دنيوية فلم يكن للأمة ان تقدم محضرا وانما كانت الشكوى خاصة بالافراد . ولما سقطت سلطته – لاسقى الله عهدها – كان مما شكا منه التلاميذ المسلمون في المدرسة الكلية الامريكانية ببيروت وشايعهم عليه الرأي العام إلزام المدرسة إياهم بتعلم الديانة النصرانية وحضور عبادتها في الكنيسة كما علم مما نشرناه في العام الماضي . وقد انتهى

الامر الآن بما يعلم ويعلم مقدار السخط منه من الكتاب الآتي :

سيدي رجل الاسلام والمسلمين السيد رشيد افندي رضا حفظه الله

عرفتم بالتفصيل ماصار اليه أمر الاعتصاب الاسلامي في الكلية وكيف ان العمدة تلافت الخطر المحدق بها باعفائها التلامذة من حضور الكنيسة موقتا والآن وقد أوشكت السنة المدرسية ان تنتهي لم نشعر إلا والرئيس يستقدم التلامذة من مسلمين ويهود لغرفته طالبا منهم التوقيع على صك تعهدا منهم بالقيام بالواجبات الدينية في السنة المقبلة من دخول كنيسة ودرس توراة وانجيل حسب الشروح والتعاليق البروتستانتية التي ينفر منها المسلم ويشك في صحتها كل من له مسكة من العقل واذا آنس من أحدهم رفضا أو ترددا ينبئه بعدم قبوله في السنة الثانية حتى ولو لم يبق له إلا سنة أو سنتان لنيل الشهادة وقد وقع هذا فعلا مع أحد العثمانيين الاسرائيليين .

فياركن الاسلام المتين أطلب منك ان تحمل بقلمك وعملك وفتاويك الحملة الشعواء على خطة الكلية وتظهر للملأ سوء نيتها وتعدد لهم الاضرار الناتجة عن تساهل المسلمين في أمور دينهم حتى لايبقى عذر للآباء ولاحجة للابناء ، وإن الكلية لفي خوف من المسلمين ولاسيما إذا وجد من يحركهم تحريكا لا تعمله القوة الكهربائية ليفسد ما بنوه من الاوهام منذ اثنتين وأربعين سنة

عرفتك فيما مضى تحض المسلمين على ايجاد مدرسة للاستعاضة عن الكلية قبل مناقشتها الحساب أو قبل الرغبة اليها بإصلاح نظاماتها فنعم الرأي رأيك والنصيحة نصيحتك وقد عرف كل مسلم مالك من القدم الراسخة وبعد النظر في الامور العقلية والنقلية ولكن ياسيدي ماعسانا نفعل وقد دُفع المسلمون الى الاعتصاب بتأثير من القوى الطبيعية وقوانينها التي سنها الله واهم تلك القواعد هي أن كثرة الضغط تستوجب الانفجار

فيامن اتخذك الكبير اخا والصغير ابا مدّ يدَ المساعدة الى مسلمي الكلية وحرض المصريين بجرائدهم اليومية ومجلاتهم للاعتراض على الكلية فلقد عرفنا أن ليس للمدرسة من حجة تستند عليها ولقد أقرّ كاتب العمدة امامي بان المدرسة عثمانية تتبع كل أمر مصدره الاستانة ، وذكرهم ان ما علينا الا أن نصب الشكوى من جميع

الجهات واعلم أن كل ماتفعله الكلية لتأييد مركزها هو من باب السياسة وليس له ظل من الحقيقة واعلم أن ليس كل كلام يصدر عن كاتب له تأثير ككلامك فكأني بالاسد الآن وقد ثار من مربضه مدافعا عن الاشبال خيفة ان يصيبهم اذى من الاغرار ليظهر ان للاسلام صوى «ومنارا» يستضاء بنوره اذا اشتد حالك الظلام فلا زلت للاسلام عضدا وللمسلمين مرشدا

مقر بفضلك

بيروت عبد القادر الغندور

(المنار) هذا الذي عملته المدرسة الآن هو الذي كنا نحسبه فان هؤلاء الافرنج أشد خلق الله تعصبا للدين وهم الذين نفخوا روح التعصب الذميم في الشرق كما بينا ذلك مرارا ولكنهم هم ومن ربوه على تعصبهم يشيعون في بلادنا أن الشرق هو مهد التعصب « رمتني بدائها وانسلت » حتى راج تزييفهم هذا على الجمهور زمنا. ولا يبعد ان يعدوا كراهتنا لاكراههم إيانا على دينهم تعصبا منا وتساهلا منهم !!!

إنهم علموا ان الحكومة العثمانية الآن تمنعهم من اكراه غير النصارى على التعاليم والأعمال النصرانية ولا يمكنهم أن يعيثوا بها كما كانوا يعيثون في زمن عبد الحميد فلجأوا الى هذه الحيلة التي ليس أمامهم سواها ولا يرجعون عنها بحملة الجرائد عليهم لأن بث دينهم هو الغرض الأول لهم من مدارسهم لاسيما في الشرق فلا يثنيهم عنه شيء الا ان يكون قوة الحكومة والحكومة لا تمنع الا الإكراه

فالرأي إما ترك التلاميذ المسلمين لهذه المدرسة ان كانوا يستغنون عنها بغيرها، وإما البقاء فيها مع تلافي ضرر التعاليم المخالفة لدينهم وجعل ذلك ذريعة الى منافع أخرى دينية ودنيوية

أما الاستغناء عن المدرسة بمثلها أو خير منها فلا سبيل اليه اذ لايوجد في بلادنا مثلها في تعليمها وتربيتها وأما الثاني فهو ميسور والذي ننبه اليه منه أمور (١) مطالعة الكتب الاسلامية التي تبين حقيقة الاسلام ككتب الاستاذ الامام وأقواله في التوحيد والتفسير والنسبة بين الاسلام والنصرانية وكتاب روح الاسلام للقاضي أمير علي (٢) مطالعة الكتب التي تعارض كتبهم التعليمية الدينية ككتاب اضرار تعليم التوراة والانجيل لأحد علماء الانكليز وهو يوجد بالعربية والانكليزية وغيره من الكتب الانكليزية التي يمكن ان يرشدهم اليها سليم افندي التنير (٣) المواظبة على

الصلوات الخمس لا سيما مع الجماعة اذا امكن وغير ذلك من الاعمال الاسلامية كالصيام في هذه الايام (٤) ما أمر الله به من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، ومنه التواصي باعداد النفوس لمسابقة القوم الى مثل عملهم في الجمع بين العلم والدين وانشاء مثل هذه المدرسة في بيروت وغيرها من البلاد فان عملهم هذا مما يحمد

قد بينا فيما كتبناه عن مسألة هذه المدرسة في العام الماضي ان المسلم لايكون نصرانيا كما قال السيد جمال الدين وغيره من العارفين ، وقلنا هنالك أيضا ان هذا التعصب من هؤلاء الافرنج لا سيما القائمين بأمر هذه المدرسة هوالذي يحيي الشعور الديني في نفوس غير النصارى من التلاميذ في هذه المدرسة فعمل رجال المدرسة يأتي بنقيض ما يريدون منه و يصدق فيه على المسلمين قوله تعالى (٢ : ٢١٦ وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم)

ان المسلم البصير بدينه لا يمنع من النظر في كتب أي دين من الاديان ولا من سماعها ولكن علماء الاسلام متفقون على انه لا يجوز للمسلم ان يتلبس بعبادة أهل دين آخر و يعدون تلبسه بها الذي يكون به كأهلها لا يميزه الرائي عنهم من الردة فاذا ثبت عند القاضي ذلك في دعوى ارث مثلا فانه يحكم بأن من هذا شأنه لا يرث من أبيه المسلم . وما أظن ان تعصب عمدة المدرسة يصل الى هذا الحد فان هم وصلوا اليه ورفع الامر الى الحكومة فانها تمنعهم منه بلا شك سواء تعهد التلميذ به أم لا ، نعم ما كل ما يحكم به في الظاهر يوافق الباطن ، وما كل ما يسميه النصارى صلاة (دعاء) ممنوع عندنا ولكن التشبه بهم فيما هو خاص بهم من أمر الدين ممنوع قطعا

﴿ غلط فاحش يجب اصلاحه بالقلم ﴾

في السطر ٢٣ من صفحة ٥٧٨ وفي السطرين ٣ و ٤ من صفحة ٥٧٩ من مجلد المنار الحادي عشر : ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ أي فضل خاص لا يشاركهم فيه غيرهم وهو عناية بهم وتوفيقهم .وصوابه هكذا : ﴿ ان الله غفور حليم ﴾ لا يعجل بتحتيم العقاب ومن آياته مغفرته لهم وحلمه بهم توفيقهم

وفي السطر الاول من صفحة ٥٢٨ من الجزء الماضي : كلمة «السابع» وصوابها التاسع

المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب
قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق
﴿ مصر - الخميس ٣٠ رمضان ١٣٢٧ - ١٤ اكتوبر (تشرين الأول) ١٢٨٥هـ ١٩٠٩م ﴾

باب تفسير القران الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٤) وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَماً ،
وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى
حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ،
وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ،
وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ
فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً ٭

المفردات : (السفهاء) جمع سفيه من السفه والسفاهة وتقدم في تفسير سورة البقرة ان السفه هو الاضطراب في الرأي والفكر أو الاخلاق . وأصله الاضطراب في المحسوسات

وقال الراغب السفه خفة في البدن ومنه قيل زمان سفيه : كثير الاضطراب، وثوب سفيه : رديء النسج · واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل وفي الامور الدنيوية والاخروية · ثم جعل السفه في الامور الدنيوية هو المراد من لفظ السفهاء هنا ، ومثل للسفه في الامور الاخروية بقوله تعالى (٧٢ : ٤ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا) · فالسفهاء هنا هم المبذرون اموالهم الذين ينفقونها فيما لا ينبغي و يسيئون التصرف بإنمائها وتثميرها — (قياما) تقوم بها أمور معايشكم ان تقعوا في الفقر وقرأها نافع وابن عامر (قيما) وهو بمعنى قياما كما يأتي · قال الراغب القيام والقوام اسم لما يقوم به الشيء اي يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به · وذكر الآية · وفسرت في الكشاف بقوله اي تقومون بها وتنتعشون ولو ضيعتموها لضعتم · قال وقريء قيما بمعنى قياما كما جاء عوذا بمعنى عياذا — (وارزقوهم) من الرزق وهو العطاء من الاشياء الحسية والمعنوية ويطلق على النصيب من الشيء وقد يخص بالطعام قيل وهو الظاهر هنا لمقابلته بالكسوة كما قال في آية المرضعات (٢ : ٢٣٣ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) وقد يقال أنه أعم في الموضعين وقوله (آنستم منهم رشدا) اي ابصرتم منهم هذا النوع من الرشد في حفظ الاموال وحسن التصرف فيها إبصار إيناس وهو الاستيضاح واستعير للتبين كما في الكشاف وعن ابن عباس أن الرشد الصلاح في العقل والحفظ للمال (اسرافا و بدارا) مصدران لأسرف و بادر فالاسراف مجاوزة الحد في كل عمل وغلب في الاموال ويقابله القتر وهو النقص في النفقة عما ينبغي قال تعالى (٢٥ : ٦٧ والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتُروا وكان بين ذلك قَواما) يقال قتر يقتر بوزن نصر ينصر، وقتر يقتر (بالتشديد) والقوام كالقيام هو القصد بينهما الذي تقوم به المعيشة وتثبت كما تقدم · والبدار المبادرة أي المسارعة الى الشيء يقال بادرت الى الشيء وبدرت اليه — وقوله (أن يكبروا) في تأويل المصدر اي كبرهم في السن يقال كبر يكبر بوزن علم يعلم اذا كبرت سنه ، واما كبر يكبر بضم الباء في الماضي والمضارع فهو كعظم يعظم حسا أومعنى — (فليستعفف) فليعف مبالغا في العفة أو فليطالب نفسه بالعفة ويحملها عليها وهي ترك ما لا ينبغي من الشهوات أو ملكة في النفس تقتضي ذلك وطلبها

يكون بالتعفف وهو تكلف العفة المرة بعد المرة حتى تستحكم الملكة في النفس بالتكرار والممارسة كسائر الاخلاق والملكات المكتسبة بالتربية

(المعنى) : اختلف مفسرو السلف في المراد بالسفهاء هنا فقيل هم اليتامى والنساء، وقيل النساء خاصة وقيل الاولاد الصغار للمخاطبين وقيل هي عامة في كل سفيه من صغير وكبير وذكر وأنثى واختاره ابن جرير وجعل الخطاب لمجموع الامة ليشتمل النهي كل مال يعطى لأي سفيه وهو أحسن الاقوال. وقال الاستاذ الامام امرنا الله تعالى في الآيات السابقة بإيتاء اليتامى اموالهم و بإيتاء النساء صدقاتهن أي مهورهن وأتى في قوله ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما ﴾ بشرط للإيتاء يعم الامرين السابقين أي اعطوا كل يتيم ماله اذا بلغ وكل أمرأة صداقها الا اذا كان احدهما سفيها لا يحسن التصرف في ماله فحينئذ يمتنع أن تعطوه إياه لئلا يضيعه ويجب أن تحفظوه له أو يرشد · وانما قال « أموالكم » ولم يقل اموالهم مع أن الخطاب للاولياء والمال للسفهاء الذين في ولايتهم للتنبيه على أمور (أحدها) انه إذا ضاع هذا المال ولم يبق للسفيه من ماله ما ينفق منه عليه وجب على وليه أن ينفق عليه من مال نفسه فبذلك تكون إضاعة مال السفيه مفضية الى اضاعة شيء من مال الولي فكأن ماله عين ماله (ثانيها) ان هؤلاء السفهاء اذا رشدوا وأموالهم محفوظة لهم وتصرفوا فيها تصرف الراشدين وأنفقوا منها في الوجوه الشرعية من المصالح العامة والخاصة فانه يصيب هؤلاء الاولياء حظ منها (ثالثها) التكافل في الامة واعتبار مصلحة كل فرد من افرادها عين مصلحة الآخرين كما قلناه في آيات أخرى · وذهب الجلال الى انه أضاف الاموال اليهم لانها في أيديهم كأنه قال ولا تؤتوا السفهاء اموالهم التي في ايديكم وهو غير ظاهر · وما قال من قال ان السفهاء هنا هم اولاد المخاطبين الصغار الاخيرته في هذه الكاف في قوله « أموالكم » وقوله « لكم » وعدم ظهور النكتة له في إيثار ضمير الخطاب على ضمير الغيبة

أقول وأجاب الرازي بجوابين تبعا للزمخشري أحدهما انه اضاف المال اليهم لا لأنهم ملكوه بل لانهم ملكوا التصرف فيه قال: ويكفي لحسن الإضافة أدنى سبب. وهو الذي جرى عليه الجلال · ثانيهما قوله : انما حسنت هذه الاضافة إجراء للوحدة بالنوع

مجرى الوحدة بالشخص ، ونظيره قوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » وقوله « فما ملكت أيمانكم » وقوله «فاقتلوا أنفسكم» وقوله « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » ومعلوم ان الرجل منهم ما كان يقتل نفسه وانما كان بعضهم يقتل بعضا وكان الكل من نوع واحد فكذا ههنا المال شيء واحد ينتفع به نوع الانسان ويحتاج اليه فلأجل هذه الوحدة النوعية حسنت إضافة أموال السفهاء الى أوليائهم اه

أقول وهذا أوسع مما قاله الاستاذ الامام في الامر الثالث وهو غير ظاهر في النوع كما هو ظاهر في قوم المخاطبين الذي اتحدت مصالحهم بمصالحهم. وكذلك لا يظهر في النظائر والشواهد التي أوردها فان الذين أمروا بقتل أنفسهم أي قتل بعضهم بعضا لم يؤمروا بذلك لاشتراكهم في النوع وهم كونهم من البشر وانما أمروا بذلك لأنهم أمة لها ملة ترتبط بها مصالحهم فخالفوها فاستحقوا العقاب لتكافلهم باشتراكهم في الذنب وعدم التناهي عنه ، ولو أنهم قتلوا قوما آخرين من نوع البشر لما كانوا ممتثلين للأمر ولما قيل لهم « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » والراجح في قوله تعالى (٩ : ١٢٨ لقد جاءكم رسول من أنفسكم) انه خطاب للعرب الذين هم قوم الرسول (ص) وان كانت البعثة عامة كما بينا ذلك في موضع آخر(*) ومن قال انه خطاب لجميع الناس فوجهه انهم مشتركون في تكليفهم اتباعه وفي كونه رسولا اليهم — فلا بد في اقامة الوحدة النوعية أو القومية أو الاهلية مقام الوحدة الشخصية من اشتراك أفراد النوع أو القوم أو الاهل في المعنى الذي سيق الكلام لاجله كما بينه الاستاذ الإمام في توجيه اسناد ما فعله بنو إسرائيل في زمن موسى (ص) الى أبنائهم الذين كانوا في زمن محمد (ص) لتأثير أعمال السلف في الخلف بالوراثة والقدوة . ولو جعلت الوحدة في الآية التي نفسرها بين الاولياء والسفهاء وحدة القرابة والكفالة التي هي أخص من الوحدة الامية والقومية التي قال بها الاستاذ الإمام لكان المعنى أظهر كما انما قاله هو أظهر مما قاله الامام الرازي وذلك ان الاشتراك في المصلحة والمنفعة بين الاولياء والسفهاء في الاموال مطرد تظهر فيه الوحدة دائما ، ولكن الاستاذ الإمام جعلها من قبيل وحدة الامة وتكافلها إلحاقا لها بنظائرها الكثيرة في القرآن

*) راجع تفسير ٤ : ١٦٤ لقد من الله على المؤمنين (ص ٨١٥ م ١١ وص ٢٢١ تفسير ٤)

وقد علم من تفسير المفردات معنى جعل الاموال قياما للناس تقوم وتثبت بها منافعهم ومرافقهم ولا يمكن ان يوجد في الكلام ما يقوم مقام هذه الكلمة و يبلغ ما تصل اليه من البلاغة في الحث على الاقتصاد و بيان فائدته ومنفعته ، والتنفير عن الاسراف والتبذير الذي هو شأن السفهاء و بيان غائلته وسوء مغبته ، فكأنه قال ان منافعكم ومرافقكم الخاصة ومصالحكم العامة لا تزال قائمة ثابتة ما دامت أموالكم في أيدي الراشدين المقتصدين منكم الذين يحسنون تثميرها وتوفيرها ولا يتجاوزون حدود المصلحة في إنفاق ما ينفقونه منها ، فاذا وقعت في أيدي السفهاء المسرفين الذين يتجاوزون الحدود المشروعة والمعقولة يتداعى ما كان من تلك المنافع سالما، و يسقط ما كان من تلك المصالح قائما ، فهذا الدين هو دين الاقتصاد والاعتدال في الاموال كالامور كلها ولذلك وصف الله تعالى المؤمنين بقوله (٢٥ : ٦٧ والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) فهذه الآية شارحة للفظ قياما في الآية التي نفسرها . وقد نهانا القرآن عن التبذير حتى في مقام الانفاق والتصدق المؤكد وجعل المبذر كالشيطان مبالغا في الكفر ، و بين سوء عاقبة المتوسع في النفقة الى حد الاسراف كما في آيات ٢٦ — ٢٩ من السورة ١٧ (الاسراء)

وفي الأحاديث النبوية مثل ذلك فمنها : ما عال من اقتصد . رواه أحمد عن ابن مسعود . وهو حديث حسن — الاقتصاد نصف المعيشة وحسن الخلق نصف الدين . رواه الخطيب عن أنس ، والطبراني والبيهقي عن ابن عمر بلفظ : الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة والتودد الى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم . وغيرهم بألفاظ أخرى — من فقه الرجل رفقه في معيشته . رواه أحمد والطبراني عن أبي الدرداء وهو حديث حسن . — من اقتصد اغناه الله ومن بذر افقره الله الخ رواه البزار عن أبي طلحة وسنده ضعيف

ومن الاحاديث في فضل الغنى حديث سعد المتفق عليه « إنك ان تذر ورثتك أغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس » وحديثه عند مسلم « ان الله يحب العبد التقي الغني الخفي » وحديث حكيم بن حزام في الصحيحين « خير الصدقة ما كان عن ظهر غني واليد العليا خير من اليد السفلى » الخ وحديث عمرو

ابن العاص عند أحمد بسند صحيح « نعمّا المال الصالح للمرء الصالح » وحديث أنس عند مسلم والبيهقي « كاد الفقر ان يكون كفرا »

فماذا جرى لنا نحن المسلمين بعد هذه الوصايا والحكم حتى صرنا أشد الامم إسرافا وتبذيراً واضاعة للاموال وجهلا لطرق الاقتصاد فيها وتثميرها وإقامة مصالح الأمة بها في هذا الزمن الذي لم يسبق له نظير في أزمنة التاريخ من حيث توقف قيام مصالح الأمم ومرافقها وعظمة شأنها على المال حتى ان الامم الجاهلة بطرق الاقتصاد التي ليس في أيديها مال كثير قد صارت مستذلة ومستعبدة للامم الغنية بالبراعة في الكسب والاحسان في الاقتصاد

وماذا جرى لتلك الامم التي يقول لها كتابها الديني كما في انجيل متى ١٩ : ٢٣ انه يعسر ان يدخل غني الى ملكوت السموات ٢٤ واقول لكم ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من ان يدخل غني الى ملكوت السموات » ويقول كما في ٦ : ٢٤ منه « لا تقدرون ان تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم الخ وفي ١٠ : ٩ منه لا تقتنوا ذهبا ولا فضة — . اذا جرى لها في دينها حتى صارت أبرع الخلق في فنون الثروة والاقتصاد وأبعدها عن الاسراف والتبذير وسادت بالغنى والثروة على جميع أمم الارض ؟؟ ألا وهي أمم الافرنجة

وكيف جاز ان يسمى ما نحن عليه مدنية إسلامية مع مخالفتنا للقرآن في هذا الأمر الذي هو قوام المدنية كما خالف جماهيرنا في أ كثر ما أرشد اليه ؟ وكيف جاز ان تسمى مدنيتهم مدنية مسيحية مع بنائ معاليم المسيح على المبالغة في الزهد و بغض المال كما هو صريح في هذه الاناجيل التي بين أيدي القوم يدّعون اتباعها ويدعون اليها غيرهم وهم لها مخالفون ، وعنها معرضون ! ! !

أما السبب فيما نحن عليه من سوء الحال في دنيانا ومخالفة نص كتابنا فهو ظاهر معروف عند الباحثين وهو اننا رضينا بالتقليد الذي حرمه الله علينا وتركنا هداية القرآن ونبذناه وراء ظهورنا واخذنا في الاخلاق والآداب التي هي روح حياة الامم بأقوال فلان وفلان من الجاهلين ، الذين لبّسوا علينا بلباس الصالحين ، فنفثوا في الامة سموم المبالغة في التزهيد والحث على انفاق جميع ما تصل اليه اليد ، وإنما كان

يريد ا كثرهم انفاق كسب الكاسبين عليهم وهم كسالى لا يكسبون ، لزعمهم انهم بحب الله مشغولون !

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها   أفاويق حتى ما تدرّ لها ثعل

حتى صار من المعروف المقرر عند جميع شعوب المسلمين ، إدرار المال والرزق على علماء الدين ، وشيوخ الطريق « الصالحين » ، فهم يأكلون مال الامة بدينهم ويرون ان لهم الفضل عليها بقبوله منها ، وان قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين « اليد العليا خير من اليد السفلى »

الاستاذ الامام : في هذه الجملة من الآية تحريض على حفظ المال وتعريف بقيمته فلا يجوز للمسلم ان يبذر أمواله . وكان السلف من أشد الناس محافظة على ما في أيديهم واعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال ، فأين من هذا ما نسمعه من خطباء مساجدنا من تزهيد الناس وغل أيديهم واغرائهم بالكسل والخمول حتى صار المسلم يعدل عن الكسب الشريف الى الكسب المرذول من الغش والحيلة والخداع . ذلك ان الانسان ميال بطبعه الى الراحة فعندما يسمع من الخطباء والعلماء والمعروفين بالصلحاء عبارات التزهيد في الدنيا فانه يرضي بها ميله الى الراحة ثم انه لا بد له من الكسب فيختار اقله سعيا وأخفه مؤنة وهو أخسه وابعده عن الشرف . على ان هذا التزهيد في الدنيا من هؤلاء لم يأت بما يساق لأجله من الترغيب في الآخرة والاستعداد لها بل إن خطباءنا ووعاظنا قد زهدوا الناس في الدنيا وقطعوهم عن الآخرة فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين وما ذلك الا لجهلهم وعدم عملهم بما يعظون به غيرهم والواجب على المسلم العارف بالاسلام ان يبين للناس الجمع بين الدنيا والآخرة

قال تعالى ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ أما من فسروا السفهاء بأولاد المخاطبين ونسائهم معا أو بأحدهما وجعلوا اضافة أموال المخاطبين اليهم على حقيقتها فقالوا في معنى هذه الجملة اذا امتنع عليكم ايها الناس أن تعطوا أموالكم لولدانكم ونسائكم خشية أن يبذروها ويتلفوها وهي قيامكم وعليها مدار معاشكم فعليكم أن تتولوا انتم اصلاحها وتثميرها والانفاق عليهم منها في طعامهم وكسوتهم ، فهي في وجوب انفاق الرجل على

زوجه وأولاده القاصرين الذين لا يحسنون الكسب وروي نحوه عن ابن عباس . ومن قالوا إن الكلام في السفهاء عامة وفي حفظ الاولياء لاموالهم قالوا إن معناها يا أيها الاولياء الذين عهد اليكم حفظ أموال السفهاء وتثميرها حتى كأنها — بهذا التصرف و بارتباط مصالح اصحابها بمصالحكم و بتكافل الامة والعشيرة و وحدتها — اموالكم يجب عليكم أن تنفقوا على السفهاء فتقدموا لهم كفايتهم من الطعام والثياب وغير ذلك . ومن قالوا أن لفظ السفهاء عام في اولاد المخاطبين ونسائهم واليتامى وغيرهم ولفظ أموالكم عام فيما هو للمخاطبين وهم جميع المكلفين وما هو للسفهاء وهو الذي اختاره ابن جرير والرازى وغيرهما جعلوا معناها شاملا للمعنيين السابقين في الانفاق على من تجب على الرجل نفقته من مال نفسه والانفاق على من يتولى أمره من السفهاء ممن لا تجب عليه نفقته من ماله اي مال نفسه

وإنما قال « وارزقوهم فيها » ولم يقل منها لان المراد كما قال في الكشاف اجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا حتى تكون نفقتهم من الارباح لا من صلب المال فلا يأكلها الانفاق اه . اي إن ما ينفق من اصله وصلبه ينقص رويدا رويدا حتى يذهب كله . وتبع الكشاف فيما قاله الامام الرازي والاستاذ الامام

وقال الاستاذ الامام: الرزق يعم وجوه الانفاق كلها كالاكل والمبيت والزواج والكسوة وانما قال واكسوهم فخص الكسوة بالذكر لان الناس يتساهلون فيها احيانا" وتخصيص «الجلال» — اي وغيره ممن نقل هو عنهم — الرزق بالاطعام لا يصح اه وقال الرازي إن الرزق من العباد هو الاجراء الموظف لوقت معلوم يقال فلان رزق عياله اي أجرى عليهم اه يعني ان كل النفقات المرتبة في أوقات معينة تسمى رزقا. والغرض من هذا وذاك هو جعلهم الرزق هنا شاملا لانواع النفقات الواجبة بالنص حتى لا يقول قائل إن الواجب هو الطعام والكسوة دون الايواء والتربية والتعليم وغير ذلك

وقد فسر بعضهم قوله تعالى ﴿ وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ بتعليمهم مايجب علمه وما يجب العمل به نقله الرازي عن الزجاج .وقيل هو الوعد الجميل للسفيه باعطائه ماله عند الرشد .وقيل بل وعده بزيادة الادرار عليه والتوسعة عند زيادة ربح المال وغلته . وقيل هو الدعاء . وفصل القفال فقال ان كان المولى عليه صبيا (أي صغيرا اولو انثى) فالولي يعرفه ان المال ماله وهو خازن له وانه اذا زال صباه فانه يرد المال اليه، واذا كان المولى عليه سفيها وعظه ونصحه وحثه على الصلاة و رغبه في ترك التبذير والاسراف وعرفه ان عاقبته الفقر والاحتياج الى الخلق الى مايشبه هذا النوع من الكلام . قال الرازي وهذا الوجه أحسن من سائر الوجوه . وقال الاستاذ الامام المعروف هو ماتعرفه النفوس الكريمة وتألفه ويقابله المنكر وهو ماتنكره وتمجه. فالمعروف هنا يشمل تطييب القلوب بافهام السفيه ان المال ماله لافضل لاحد في الانفاق منه عليه ليسهل عليه الحجر ،والنصح يشمل الارشاد وتعليم ماينبغي ان يعلمه السفيه ومايعده للرشد فان السفه كثيرا مايكون عارضا للشخص لافطريا فاذا عولج بالنصح والتأديب حسنت حاله ، فهذا هو القول المعروف الذي أمر الله أولياء السفهاء به زيادة على حفظ أموالهم وتثميرها والانفاق عليهم منها

أقول فأين مكان هذه الوصايا والأوامر الإلهية من الاولياء والاوصياء الذين نعرفهم في هذا الزمان يأكلون أموال السفهاء و يمدونهم في سفههم ويحولون بينهم و بين أسباب الرشد ليبقوا متمتعين بالتصرف في أموالهم ؟؟

﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ﴾ بين سبحانه في هذه الآية الشرط أو الصفة التي يجب بها إيتاء اليتامى أموالهم كما أمر في آية « وآتوا اليتامى أموالهم » قال الاستاذ الامام ما مثاله : ان ما تقدم من الامر بايتاء اليتامى أموالهم كان مجملا وفي هذه الآية تفصيل لكيفية الايتاء ووقته وما يعتبر فيه . وقد اختلف العلماء في ابتلاء اليتيم كيف يكون فقال بعضهم يعطى شيئا من المال ليتصرف فيه فيرى تصرفه كيف يكون فان أحسن فيه كان راشدا والا كان على سفهه ، وقال بعضهم ان الاعطاء لا يجوز الا بعد الابتلاء وإيناس الرشد فمن اعطاه قبل ذلك يكون مخالفا للامر ومجازفا بالمال . والصواب أن يحضره الولي المعاملات المالية ويطلعه على كيفية التصرف ويسأله عند كل عمل عن رأيه

فيه فاذا رأى أجوبته سديدة ورأيه صالحا يعلم انه قد رشد . واعترض هذا أيضا بأن القول لا يغني عن الفعل شيئا فان قليلا من النباهة يكفي لاحسان الجواب ان قيل له ما تقول في ثمن هـذا ؟ وما أشبه ذلك ، واننا نرى كثيرا من الذين نسميهم أذكياء ومتعلمين يتكلم أحدهم في الزراعة عن علم : يقول ينبغي كذا من السماد وكذا من السقي والعذق ، فاذا أرسل الى الارض وكلف العمل ينام معظم النهار ولا يعمل شيئا أو يعمل فيسيء العمل ولا يحسنه ، بل ترى من الناس من يتكلم في الاخلاق وكيفية معاملة الناس فيحسن القول كما ينبغي ولكنه يسيء في المعاملة فيكون عمله مخالفا لقوله . فقائل هذا القول الثاني قد غفل عن القاعدة التي اتفق عليها العقلاء وهي ان بين العلم والتجربة بونا شاسعا ، فكم رأينا من المحسنين في الكلام السفهاء في الاعمال الذين اذا سألتهم عن طرق الاقتصاد في المعاملة وتدبير الثروة أجابوك أحسن جواب مبني على قواعد العلم الحديث المبني على التجارب وامعان النظر ، ثم هم يسفهون في عملهم ويبذرون الاموال تبذيرا يسارعون فيه الى الفقر . اعرف من هؤلاء رجلا ترك له والده ثروة قدرت قيمتها بمليون جنيه (أي بألف ألف جنيه) فأتلفها باسرافه وهو الآن يطلب إعانة من الجمعية الخيرية الاسلامية !!

(قال) فالرأي الاول أسد وأصوب وما اعترض به عليه يجاب عنه بأن الممنوع قبل العلم بالرشد هو إعطاء اليتيم ماله كله ليستقل بالتصرف فيه ، وأما إعطاؤه طائفة منه ليتصرف فيها تحت مراقبة الولي ابتلاء واختبارا له فهو غير ممنوع بل هو المأمور به في هذه الآية

(قال) و « حتى » ابتدائية أي ابتلوا اليتامى الى ابتداء البلوغ ، وكونها ابتدائية لا ينافي كونها للغاية التي هي معناها الاصلي الذي لا يفارقها وإنما فرقوا بين التي تدخل على الجملة الكاملة والتي تدخل على المفرد في الإعراب فسموا الأولى الابتدائية وهي التي لا تجر المفرد وسموا الثانية الجارة وهي التي تجر المفرد . والغاية في الاولى هو مفهوم الجملة التي بعدها أي ابتلوهم الى ابتداء الحد الذي يبلغون فيه سن النكاح فان آنستم منهم بعد البلوغ رشدا فادفعوا اليهم أموالهم

والا فاستمروا على الابتلاء الى ان تأنسوا فيهم الرشد (وعند أبي حنيفة يعطى ماله اذا بلغ خمسا وعشرين سنة وان لم يرشد)

أقول ان بلوغ النكاح هو الوصول الى السن التي يكون بها المرء مستعداً للزواج وهو بلوغ الحلم ففي هذه السن تطالبه الفطرة بأهم سننها وهي سنة الانتاج والنسل فتتوجه نفسه الى ان يكون زوجا وأبا ورب بيت ورئيس عشيرة وذلك لا يتم له الا بالمال فوجب حينئذ إيتاؤه ماله الا اذا بلغ سفيها وخيف ان يضيع ماله فيعجز عما تطالبه به الفطرة ولو بعد حين . وفي هذه السن يكلف الاحكام الشرعية من العبادات والمعاملات وتقام عليه الحدود ويترتب عليه الجزاء الأخروي فالرشد حسن التصرف وإصابة الخير فيه الذي هو أثر صحة العقل وجودة الرأي وهو يطلق في كل مقام بحسبه فقد يراد به أمر الدنيا خاصة وقد يراد أمر الدين خاصة ولذلك اختلف الفقهاء في الحجر على الفاسق فقال بعضهم يحجر عليه لأنه غير رشيد في دينه وقال بعضهم لا يحجر عليه اذا كان يحسن التصرف في أمور دنياه لأن الرشد في هذا المقام لا يعني به الا أمر الدنيا . وقد يقال اذا كان فسقه مما يتناول الامور المالية كمنع الحقوق وإتلاف المال بالاسراف في الخمور والفجور وجب الحجر وان كان يتعلق بأمر الدين خاصة كالفطر في رمضان مثلا فلا يجب الحجر

نقل ابن جرير الخلاف عن مفسري السلف في تفسير الرشد كقول مجاهد هو العقل وقول قتادة هو الصلاح في العقل والدين وقول ابن عباس هو حسن الحال والصلاح في الأموال . ثم قال : وأولى هـذه الاقوال عندي بمعنى الرشد في هذا الموضع العقل وإصلاح المال لاجماع الجميع على انه اذا كان كذلك لم يكن ممن يستحق الحجر عليه في ماله وحوز ما في يده عنه وان كان فاجرا في دينه — الى آخر ما قاله في بيان هذا وايضاحه . وتنكير الرشد يدل على هـذا فهو لبيان نوع من الرشد ينافي الاسراف في المال ، وقيل المعنى إن آنستم منهم رشدا ما

﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبدارا ان يكبروا ﴾ أي ولا تأكلوا أموال اليتامى مسرفين في الانفاق منها ولا مبادرين كبرهم إليها أي مسابقين الكبر في السن

الذي يأخذونها به من أيديكم فتكونوا طالبين لأكل هـذا المال كما يطلبه كبرسن صاحبه فيكون السابق هو الذي يظفر به .

قال الأستاذ الامام : ان النهي عن أكل أموال اليتامى إسرافا و بدارا هو كالامر قبله تفصيل للآية الناهية عن أكل أموال اليتامى الى أموال الاولياء . وقد قيد النهي هنا بالاسراف وهو صرف مال اليتيم في غـير محله ولو على اليتيم نفسه وسمى هـذا أكلاً لأنه إضاعة والاكل يطلق على إضاعة الشيء ولكن ضم مال اليتيم الى مال الولي لا يسمى إسرافا . وقيده أيضا بالبدار والمسابقة لكبر اليتيم لأن الولي الضعيف الذمة يستعجل ببعض التصرفات في مال اليتيم التي له منها منفعة لئلا تفوته اذا كبر اليتيم وأخذ ماله — فهاتان الحالان : الاسراف و بدار ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرف ، هما من مواضع الضعف التي تعرض للإنسان فنبه الله تعالى عليهما ونهى عنهما ليراقب الولي ر به فيهما إذا عرضتا له

أقول ان من دقق النظر في هاتين الحالين و وقف على تصرف الاولياء فيهما يرى انهما مما يعرض فيه التأول ومخادعة النفس للانسان لاختلاف الناس في حد الاسراف وخفاء وجه منفعة الولي في المسابقة الى بعض الاعمال في مال اليتيم ، وما كان موضع خلاف وخفاء لا ينكره وينتقده جمهور الناس ومن أنكره يسهل الرد عليه وتأوّل ما فعله الولي والقول بأنه تصرف وضع في محله وعمل في وقته . ومثل هذا مما قد تغش الولي فيه نفسه حتى يصدق أنه لا حرج فيه ، وقد يعلم انه تصرف غير جائز في الباطن ويكتفي بأنه لا يمكن ان يماري فيه أحد مراء ظاهرا تتضح فيه خيانته ، فلأجل هذا وذاك صرح الكتاب الحكيم بالنهي عنه ليتدبره أولو الألباب

أما الاكل منها بغير إسراف ولا مبادرة خوف أخذها عند البلوغ والرشد — كما هو شأن الخائن — فقد ذكر حكمه في قوله ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ أي فمن كان منكم غنيا غير محتاج الى مال اليتيم الذي في حجره وتحت ولايته فليعف عن الاكل من ماله أو ليطالب نفسه و يحملها على العف عنه نزاهة وشرف نفس . ومن كان فقيرا لا يستغني عن الانتفاع بشيء من مال اليتيم

الذي يصرف بعض وقته أو كله في تثميره وحفظه فليأكل منه بالمعروف الذي يبيحه الشرع ولا يستنكره أهل المروءة والفضل ولا يعدونه طمعا ولا خيانة

وقد اختلف المفسرون والفقهاء في الاكل بالمعروف الذي أذن الله به للولي الفقير فقيل هو القرض يأخذه بنية الوفاء وروي هذا عن عمر بن الخطاب وابن عباس (رض) وعبارة الاخير في بعض روايات ابن جرير : ان كان غنيا فلا يحل له من مال اليتيم ان يأكل منه شيئا وان كان فقيرا فليستقرض منه فان وجد ميسرة فليعطه ما استقرض منه فذلك اكله بالمعروف . وقال مثله سعيد بن جبير وزاد : وان حضره الموت ولم يوسر يتحلله من اليتيم وان كان صغيرا يتحلله من وليه . وهو يعني وليه الذي يكون بعده . وعن الشعبي لا يأكله الا أن يضطر اليه كما يضطر الى الميتة فان اكل منه شيئا قضاه . واختلف هؤلاء في كيفية هذا الاكل بالمعروف فعن ابن عباس يأكل باطراف اصابعه . ووضحه السدي فقال يأكل معه باصابعه لا يسرف في الاكل ولا يلبس . وعن عكرمة انه قال : يدك مع ايديهم ولا تتخذ منه قلنسوة . وقال بعضهم الاكل بالمعروف هو ما سد الجوعة ووارى العورة . اي قدر الضرورة من الطعام والكسوة . وقال آخرون هو ان يأكل من غلة المال كلبن الماشية وصوفها وثمرات الشجر وغلة الزرع ولا يأخذ من رقبة المال شيئا . وقال غيرهم يأخذ قدر كفايته . وعن عطاء يضع يده مع ايديهم فيأكل معهم كقدر خدمته وقدر عمله . ومن هنا قال بعض الفقهاء ان له أجر مثله من مال اليتيم الذي يتولى تدبير أمواله وهذا هو الذي اختاره ابن جرير فقال إن الامة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالا للولي فليس له ان يأكل منه شيئا ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة كما يستقرض له وله أن يؤاجر نفسه لليتيم بأجرة معلومة اذا كان اليتيم محتاجا الى ذلك كما يستأجر له غيره من الاجراء غير مخصوص بها حال غنى ولا حال فقر اه . يعني ان الاكل بالمعروف هو القرض والاجرة ولا يباح اكل شيء منه بلا عوض كسائر اموال الناس . قال وكذلك الحكم في اموال المجانين والمعاتيه

اقول من الحديث المرفوع في المسألة أن ابن عمر سأل النبي (ص) فقال ليس لي مال وإني ولي يتيم فقال « كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأثل مالا ومن غير ان تقي

مالك بماله » رواه احمد وابو داود والنسائي وابن ماجه . ووجهه ان اليتيم يكون في بيت الولي كولده والخير له في تربيته ان يخالطه الولي هو وأهله في المؤاكلة والمعاشرة فاذا كان الولي غنيا ولا طمع له في ماله كان اليتيم هو الرابح من هذه المخالطة وان كان يعرف فيها شيء من ماله بقدر حاجته، وان كان الولي فقيرا فانه لا يستغني عن إصابة بعض ما يحتاج اليه من مال اليتيم الغني الذي في حجره فاذا أكل من طعامه ونحوه ما جرى به العرف بين الخلطاء غير مصيب من رقبة المال شيئا ولا متأثل لنفسه منه عقارا ولا مالا آخر ولا مستخدما ماله في مصالحه ومرافقه كان في ذلك آكلا بالمعروف، هذا هو المختار عندي وراجع تفسير (٢ : ٢٢٠ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فاخوانكم) في الجزء الثاني من التفسير (ص ٣٤٦)

﴿ فاذا دفعتم اليهم اموالهم فأشهدوا عليهم ﴾ اي ليعرف أمر رشدهم وتصرفهم ولتظهر براءة ذمتكم ولتحسم مادة النزاع بينكم قال ابن عباس اذا دفع الى اليتيم ماله (أي عند بلوغه ورشده) فليدفعه اليه بالشهود كما أمره الله تعالى . وهذا الاشهاد واجب كما هو ظاهر الامر وعليه الشافعية والمالكية وقال الحنفية انه غير واجب بل مندوب وقال الاستاذ الامام ذهب جمهور الفقهاء الى أن الامر بالاشهاد أمر ارشاد لا أمر وجوب وهم متفقون على ان الاوامر المارة كلها للايجاب القطعي والنواهي كلها للتحريم ، وظاهر السياق ان هذا الامر مثل ماسبقه ،ولعل السبب فيما قاله الفقهاء هو أن الناس تهاونوا بأمر الاشهاد وأهملوه من زمن بعيد فسهل ذلك على الفقهاء التأويل ورأوه أولى من تأثيم الناس وجعل أكثرهم مخالفين لما فرض عليهم، ولاشك عندي أن الاشهاد حتم ، وان تركه يؤدي الى النزاع والتخاصم والتقاضي كما هو مشاهد فاذا فرضنا ان الناس كانوا في زمن ما مستمسكين بعروة الدين استمساكا عاما وكان اليتامى يحسنون الظن فيهم فلا يتهمونهم وان الاشهاد لم يكن متحتما عليهم لأجل هذا، أفليس هذا الزمن المعلوم مخالفا لذلك الزمن المجهول مخالفة تقتضي ان يجعل الاشهاد ضربة لازب لقطع عرق الخصام ونزوع النفس الى النزاع والمشاغبة ؟

﴿ وكفى بالله حسيبا ﴾ أي وكفى بالله رقيبا عليكم وشهيدا يحاسبكم على ما أظهرتم

وما أسررتم أو كفى بالله كافيا في الشهادة عليكم يوم الحساب . الحسب (بسكون السين) في الاصل الكفاية وفسر الراغب الحسيب بالرقيب والسدي بالشهيد فهل هذان معنيان مستقلان أم من لوازم المعنى الاصلي ؟ . قال الاستاذ الامام: الحسيب هو المراقب المطلع على ما يعمل العامل وانما جاء بهذا بعد الامر بالاشهاد القاطع لعرق النزاع ليدلنا على ان الاشهاد - وان حصل وكان يسقط الدعوى عند القاضي بالمال - لا يسقط الحق عند الله اذا كان الولي خائنا اذ لا يخفى عليه تعالى ما يخفى على الشهود والحكام . وكأن هؤلاء الاوصياء الخبثاء الذين نعرفهم لم يسمعوا قول الله في ذلك قط فقد كثرت فيهم وفي غيرهم الخيانة وأكل أموال اليتامى والسفهاء والاوقاف بالحيل حتى انه يمكنني ان أقول انه لا يوجد في القطر المصري عشرة أشخاص يصلحون للوصاية على اليتيم أو السفيه والوقف وقد نص الفقهاء على ان النظر على الوقف كالوصاية على اليتيم . فانظروا الى هذه الدقة في الآية الكريمة من الامر باختبار اليتيم ودفع ماله اليه عند بلوغه ورشده، ومن النهي عن أكل شيء منه بطرق الاسراف ومبادرة كبره، ومن الأمر بالاشهاد عليه عند الدفع، ثم التنبيه الى مراقبة الله تعالى التي تتناول جميع ذلك

ومن مباحث اللفظ في الآية عنه ان بعض النحاة يقولون ان الباء الداخلة على لفظ الجلالة في قوله « وكفى بالله » زائدة والمعنى كفى الله حسيبا وبعضهم يقول ان الفاعل مصدر محذوف والباء حرف جر أصلي متعلق به وهذا كله من تطبيق القرآن على القواعد التي وضعوها أو قال قعدوها - ونحن نقول ان المعنى مع وجود الباء هو غير المعنى مع عدمها فلها معنى في الكلام كيفما أعربت ، وان كفى فعل ليس له فاعل والجار متعلق به ومعناه ان الله عز وجل هو أشد من يراقب ويحاسب . وهذه الجملة من فرائد البلاغة المسموعة التي لا تحتذى ولا يؤتى بمثلها قد جاءت على هذه الكيفية النادر مثلها في حسنها فلا يمكن تطبيقها على القواعد الموضوعة للكلام المعروف عند جميع العرب الدائر على ألسنة أهل الفصاحة والفهاهة على السواء

أقول ويحسن ان نذكر هنا ما قاله عند الكلام على حتى الابتدائية وما فيها من معنى الغاية - كما تقدم - وهو: ان القواعد النحوية ونحوها (كقواعد البيان) وضعت بعد وضع اللغة لا قبلها فلا يمكن ان تكون عامة شاملة لكل كلام . ولكن النحاة حاولوا

ادخال كل الكلام في قواعدهم وكان يجب ان يقولوا كما قال بعض اهل اللغة في بعض الكلام النادر الاستعمال انه ورد هكذا على غير القاعدة التي وضعناها فهو نظم سماعي يحفظ في اللغة ولا يقاس عليه

وأقول ان ما جاء على خلاف المشهور الشائع الذي وضعت له القواعد قسمان قسم شاذ جرى على ألسنة بعض بلداء الاعراب لاحسن فيه وقسم كالدرر اليتيمة انفرد به بعض البلغاء فكان له احسن تأثير في الكلام . ويوجد كل من القسمين في كل لغة ، وما يوجد منه في كلام الله عز وجل هو اعلاه وأبلغه

---

(٦) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧)
وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ
وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ
ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) إِنَّ
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا *

المفردات: (وليخش) أمر من الخشية وهي كما في المعاجم الخوف وقال الراغب هي خوف يشو به تعظيم وا كثر مايكون ذلك عن علم بما يخشى منه ولذلك خص العلماء بها في قوله (٣٥ : ٢٨ انما يخشي الله من عباده العلماء) وأقول ان القيد الذي ذكره لايظهر في كل الشواهد التي وردت من هذا الحرف في القرآن وكلام العرب فلم يكن عند عنترة خوف مشوب بتعظيم فيما عبر عنه بقوله

ولقد خشيت بأن اموت ولم تكن   للحرب دائرة على ابني ضمضم

فان كان بين الخوف والخشية فرق فالأقرب عندي ان تكون الخشية هي الخوف في محل الامل ومن دقق النظر في الآيات التي ورد فيها حرف الخشية يجد هذا

المعنى فيها ولعل اصل الخشية من مادة خشت النخلة تخشو اذا جاء تمرها دقلا (رديئا) وهي مما يرجى منها الجيد . ولم يرد في الآية ذكر مفعول « ليخش » فالظاهر ان المراد منه الامر بالتلبس بالخشية كقوله (٨٠ : ٨ واما من جاءك يسعى ٩ وهو يخشى) أو حذف المفعول لتذهب النفس في تصوره الى كل ما يخشى في ذلك، وقال الراغب أي ليستشعروا خوفا من معرته ، وقال الاستاذ الامام ليخشوا الله

(قولا سديدا) قال المفسرون السديد هو العدل والصواب . وهو لايكون من المتدين الا موافقا لحكم الشرع . وقالوا سدَّ قوله يسد « بكسر السين » إذا كان سديدا ، وهو يُسد في القول إسدادا : يصيب السداد « بالفتح » وهو القصد والصواب والاستقامة ، والسداد « بكسر » البلغة وما يسد به الشيء كالثغر والقارورة . وقولهم « سداد من عوز » ورد بفتح السين و بكسرها وهو الأفصح . واذا كان السديد مأخوذا من سد الثغر ونحوه فالقول السديد هو المحكم الذي تدرأ به المفسدة وتحفظ المصلحة كما ان سداد الثغر يمنع استطراق شيء منه يضر ما وراءه

(وسيصلون سعيرا) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم « وسيصلون » بضم الياء من الإصلاء ، والباقون بفتحها من الصلي . يقال صلى اللحم صلياً « بوزن رماه رميا » شواه فاذا رماه في النار يريد احراقه يقال أصلاه إصلاء وصلاه تصلية . وجعل بعضهم معنى الثلاثي والرباعي واحدا كل منهما يستعمل في الشيء وفي الإلقاء لأجل الاحراق والافساد . وصلى يده بالنار سخنها وادفأها واصطلى استدفأ ، وأصلاه النار وصلاه إياها أدخله إياها ، وأصلاه فيها ادخله فيها ، وصليت النار قاسيت حرها . والصلى بالفتح والقصر والصلاء بالكسر والمد الوقود . ويطلق الصلاء على الشواء أي ما يشوى ، قال السيد الآلوسي وقال بعض المحققين ان أصل الصلي القرب من النار وقد استعمل هنا في الدخول مجازا اهـ و (السعير) النار المستعرة أي المشتعلة يقال سعرت النار سعرا وسعرتها تسعيرا أشعلتها ، قال الرازي والسعير معدول عن مسعورة كما عدل كف خضيب عن مخضوبة وانما قال (سعيرا) لأن المراد نار من النيران مبهمة لا يعرف غاية شدتها إلا الله اهـ فهو يعني ان التنكير للتهويل ويحتمل ان يكون

للتنويع أي يصلون أو يصليهم ملائكة العذاب سعيرا خاصا من السعر لا يصلاها إلا من هضم حقوق اليتامى وأكل أموالهم ظلماً

***

(المعنى) : اخرج ابو الشيخ وابن حبان في كتاب الفرائض من طريق الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس قال كان اهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا فمات رجل من الانصار يقال له أوس بن ثابت وترك ابنتين وابنا صغيراً فجاء ابنا عمه خالد وعرفطة وهما عصبته فاخذا ميراثه كله فأتت امرأته رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال « ما ادري ما أقول » فنزلت ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ﴾ ذكره السيوطي في لباب النقول · وطريق الكلبي عن ابي صالح هي أوهى الطرق عن ابن عباس واضعفها · واخرج ابن جرير في تفسيره عن ابن جريج عن عكرمة قال نزلت في ام كحلة وابنة كحلة وثعلبة وأوس بن سويد وهم من الانصار كان احدهم زوجها والآخر عم ولدها فقالت يارسول الله توفي زوجي وتركني وابنته فلم نورَّث. فقال عم ولدها يارسول الله لا تركبُ فرسا ولا تحملُ كلاًّ ولا تنكي عدوا نكسب عليها ولا تكتسب، فنزلت الآية · وروى عن قتادة وابن زيد انها نزلت في ابطال ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء زاد ابن زيد ولا الصغار ولم يذكرا واقعة معينة

الاستاذ الامام : جمهور المفسرين على أن هذا الكلام جديد وهو انصراف عن الموضوع قبله ولكن قوله تعالى بعد ثلاث آيات «ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما» الخ يدل على ان الكلام في شأن اليتامى لا يزال متصلا فانه بعد ان بين التفصيل في حرمة أكل اموال اليتامى وأمر بإعطائهم اموالهم اذا رشدوا ذكر أن المال الموروث الذي يحفظه الاولياء لليتامى يشترك فيه الرجال والنساء خلافا لما كان في الجاهلية من عدم توريث النساء فهذا تفصيل آخر في المال نفسه بعد ذلك التفصيل في الاعطاء ووقته وشرطه · ومال اليتامى انما يكون في الاغلب من الوالدين والاقربين · فمعنى

الآية اذا كان لليتامى مال مما تركه لهم الوالدون والأقربون فهم فيه على الفريضة لا فرق في شركة النساء والرجال فيه بين القليل والكثير ولهذا كرر « مما ترك الوالدان والأقربون » وعنى بقوله « نصيبا مفروضا » انه حق معين مقطوع به لا محاباة فيه وليس لأحد ان ينقصهم منه شيئا

واقول زيادة في ايضاح رأي الاستاذ الامام ان الاوامر والنواهي في الآيات السابقة كانت في ابطال ما كانت عليه العرب في الجاهلية من هضم حق الضعيفين اليتيم والمرأة وبيان حقوق اليتامى والزوجات ومنع ظلمهم فمنع فيها أكل أموال اليتامى بضمها الى اموال الاولياء أو بالاستبدال الذي يؤخذ فيه جيد اليتيم ويعطى رديئ بدله ومنع أكل مهور النساء اوعضلهن للتمتع بأموالهن أو تزوجهن بغير مهر أو الاستكثار منهن لأكل أموالهن وغير ذلك من ظلمهن — فكما منع هذا كله فيما تقدم منع في هذه الآية منع توريث المرأة والصغير — فالكلام لا يزال في حقوق اليتامى والنساء ومنع الظلم الذي كان يصيب كلا منهما · وذكر بلفظ الرجال والنساء لأن الحكم فيه عام

ومن مباحث اللفظ ان قوله « مما قل منه أو كثر » بدل مما قبله وقوله «نصيبا» منصوب على الاختصاص بمعنى اعني نصيبا مفروضا اوعلى المصدر المؤكد كقوله «فريضة من الله » كأنه قال قسمة مفروضة · كذا في الكشاف وجوز غيره انتصابه على الحال

ثم قال ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا ﴾ أي إذا حضر قسمة التركة التي يتركها المورث لورثته أو قسمة أموال اليتامى عند الرشد أو الوصية أحد من ذوي القربى للوارثين أو الموصى لهم ومن اليتامى والمساكين فانفحوهم بشيء من هذا الرزق الذي أصابكم من غير كد ولا كدح وقولوا لهم قولا حسنا تعرفه النفوس الابية وتستحسنه ولا تنكره الاذواق السليمة ولا تمجه، والمراد بذوي القربى الذين يحضرون قسمة الورثة من لا يرث منهم، وقريب الوارث لا يجب ان يكون وارثا فالأخ من الأب من ذوي القربى لأخ الميت الشقيق وهو لا يرث وكذلك العم والخال والعمة والخالة يعدون من ذوي القربى للوارث الذي لا يرثون معه وقد

يسري الى نفوسهم الحسد فينبغي التودد اليهم واستمالتهم باعطائهم شيئا من ذلك الموروث بحسب ما يليق بهم ولو بصفة الهبة والهدية وذلك من صلة الرحم ، وشكر النعم ، ووجوه اعطاء اليتامى والمساكين ظاهر

الاستاذ الإمام : الخطاب في قوله « فارزقوهم » لأرباب المال الذين يقسم عليهم ، وإذا كانت القسمة بين اليتامى الذين رشدوا كان للولي ان يعظهم ويرشدهم الى ما ينبغي في هذه الحال وليس له ان يعطي شيئا من غير ماله الا بإذن أرباب المال . والادب الذي يرشد اليه الكتاب في هذا المقام هو اعتبار ان هذا المال رزق ساقه الله الى الوارثين عفوا بغير كسب منهم ولا سعي فلا ينبغي ان يبخلوا به على المحتاجين من ذوي القربى واليتامى والمساكين من أمتهم ويتركوهم يذهبون منكسري القلب مضطربي النفس ومنهم من يكون الحرمان مدعاة حسده للوارث. وأما قول المعروف فهو ما تطيب به نفوس هؤلاء المحتاجين عند ما يأخذون ما يفاض عليهم حتى لا يثقل على عزيز النفس منهم ما يأخذه ، ويرضي الطامع في أكثر مما أعطي بما أعطي فان من الفقراء من يظهر استقلال ما ناله واستكثار ما نال سواه فينبغي ان يلاطف مثل هذا ولا يغلظ له في القول

(قال) والحكمة في الأمر بقول المعروف ان من عادة الناس ان يتضايقوا ويتبرموا من حضور ذوي القربى (وغيرهم) مجلسهم في هذه الحالة (أي كما ان ذوي القربى يحبون ان يحضروا ويعرفوا ما نال ذوي قرباهم) ومن كان كارها لشيء تظهر كراهته له في فلتات لسانه فعلمنا الله تعالى هذا الأدب في الحديث لنهذب به هذه السجية التي تعد من ضعف الانسان المشار اليه في مثل قوله تعالى (٧٠ : ١٩ ان الانسان خلق هلوعا) الآيات

(قال) ذهب بعض المفسرين الى ان الأمر بقوله « فارزقوهم » للندب وقالوا انه لو كان واجبا لحدد وقدر كما حددت المواريث ، وليس هذا بدليل فقد يجب العطاء ويوكل الأمر في المقدار الى المعطي . وقال سعيد بن جبير انه للوجوب وهجره الناس كما هجروا العمل بآية الاستئذان عند دخول البيوت ، وهذا هو القول المختار والقول بأنه ندب أو منسوخ من تفسير القرآن بالرأي وهو ان يختار الانسان لنفسه

رأيا ومذهبا ويحاول جر القرآن اليه وتحويله إلى موافقته بإخراج الألفاظ عن ظواهر معانيها المتبادرة منها ، وان من رحمة الله تعالى بنا ان فوض أمر مقدار ما نعطيه الينا وجعله مما يتفاضل فيه الاسخياء

أقول والظاهر ما قاله الحسن والنخعي ان ما أمرنا ان نرزقهم منه عند القسمة هو الاعيان المنقولة واما الارضون والرقيق وما أشبه ذلك فلا يجب ان يرضخ منه بشيء بل يكتفي حينئذ بقول المعروف ، أو بإطعام الطعام كما هو رأي بعض المفسرين في الرزق هنا وسيأتي

واما القول بان الآية منسوخة فهو مروي عن سعيد بن المسيب والضحاك قالا نسختها آية المواريث كما رواه ابن جرير وكذا عن ابن عباس في أضعف الروايتين والرواية الثانية انها محكمة وهي التي عليها الجمهور ومنهم ابراهيم النخعي والشعبي ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والزهري وغيرهم واختارها ابن جرير. وصرح مجاهد بأنها واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم حقا واجبا عليهم. وروى ابن جرير عن قتادة عن يحيى بن يعمر قال : ثلاث آيات محكمات مدنيات تركهن الناس هذه الآية وآية الاستئذان (٢٤ : ٥٨ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم) وهذه الآية (٤٩ : ١٣ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) اه وخصها بعض من قال انها محكمة غير منسوخة بقسمة الوصية لأولي قربى الموصي . وذلك ان هؤلاء فهموا كما فهم من قال بالنسخ ان أولي القربى هم الوارثون فلا معنى للامر برزقهم من التركة فقال بعضهم بنسخ هذا الأمر بآية المواريث وبعضهم خصه بقسمة الوصية . وقد علمت مما قدمناه انه يشمل قسمة التركة الموروثة وقسمة أموال اليتامى عند رشدهم وقسمة الوصايا ، وهي في التركة أظهر لاتصال الآية بما قبلها وهو فيما ترك الوالدان والأقربون

قال ابن جرير ثم اختلف الذين قالوا هذه الآية محكمة وان القسمة (أي الرزق والعطاء) لأولي القربى واليتامى والمساكين واجبة على أهل الميراث، ان كان بعض أهل الميراث صغيرا وقسم عليه الميراث وليّ ماله فقال بعضهم ليس لولي ماله ان يقسم من ماله ووصيته شيئا لأنه لا يملك من المال شيئا ولكنه يقول لهم قولا

معروفا . قالوا والذي أمره الله بأن يقول لهم قولا معروفا هو ولي مال اليتيم إذا قسم مال اليتيم بينه و بين شركاء اليتيم إلا ان يكون ولي ماله احد الورثة فيعطيهم من نصيبه ، و يعطيهم من يجوز أمره في ماله من انصبائهم ، قالوا فأما من مال الصغير فالذي يولى عليه ماله لا يجوز لولي ماله ان يعطيهم منه شيئا . اه وساق الروايات في ذلك عن الحسن وسعيد بن جبير والسدي وكذا عن ابن عباس ثم قال : وقال آخرون منهم ذلك واجب في أموال الصغار والكبار لاولي القربى واليتامى والمساكين فان كان الورثة كبارا تولوا عند القسمة إعطاءهم ذلك وان كانوا صغارا تولى ذلك ولي مالهم اه وأورد الروايات في ذلك عن محمد بن عبيدة ومحمد بن سيرين ولكنهما تأولا الرزق باطعام الطعام فكانا عند القسمة يأمران بذبح شاة وصنع طعام لمن حضر القسمة ممن ذكر . وروي عن الحسن انهم كانوا يحضرون فيعطون الشيء والثوب الخلق

وجملة القول ان أكثر من روي عنه شيء في الآية من السلف أوجبوا رزق من حضر قسمة الميراث والوصية ممن ذكرتهم الآية عملا بظاهر الأمر وهو يعم كل ماقيل ولكن بعضهم قال انما يرزقون من مال الكبير و بعضهم قال لا فرق بين كبير وصغير

ثم قال تعالى ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾ قال الأستاذ الإمام في الآية وجهان أحدهما ان المطالبين بالقول السديد في هذه الآية هم المطالبون بالقول المعروف في الآية التي قبلها فتكون هذه الآية معللة للامر بالقول المعروف في تلك متصلة بها مباشرة . ذلك انه يجوز ان ينهى بعض حاضري القسمة عن رزق اليتامى والمساكين الذين يحضرونها . وهذا يكثر في الناس لا سيما إذا كان الورثة من الأغنياء الوجهاء فان الناس يتحببون اليهم بما يوهم الغيرة على أموالهم . فالله تعالى يذكر هؤلاء الذين يحولون دون عمل البر بأن يخافوا الله ان يتركوا بعد موتهم ورثة ضعفاء يحتاجون ما يحتاجه حاضرو القسمة وطالبو البر من اليتامى والمساكين فيعاملوا بالحرمان والقسوة ـ فهو يرشدهم إلى معاملة هؤلاء الضعفاء بمثل ما يحبون ان تعامل به ذريتهم إذا تركوهم ضعافا

والوجه الثاني ان الخطاب للاوصياء والاولياء الذين يقومون على اليتامى فهو بعد الوصية بحفظ أموالهم وحسن تربيتهم بابتلائهم واختبارهم بالعمل ليعرف رشدهم أمرهم باحسان القول لهم ايضا فان اليتيم يجرحه أقل قول يهين لاسيما ذكر ابيه وامه بسوء . وقد جرت العادة بتساهل الناس في مثل هذه الاقوال وان كانوا عدولا حافظين للاموال محسنين في المعاملة فقلما يوجد يتيم في بيت الا ويمتهن ويقهر بالسوء من القول وذكر والديه بما يشينهما ولذلك ورد التأكيد بالوصية باليتامى في الكتاب والسنة

أقول وللمفسرين في الآية أقوال أخر وقد اختار ابن جرير منها ـ لاختياره ان ماقبلها في قسمة الوصايا ـ انها في الذين يحضرون موصيا يوصي في ماله ويكون له ذرية ضعفاء فالله تعالى يأمر هؤلاء ان يخافوا على ذرية هذا الرجل مثل مايخافون على ذريتهم لو تركوا ذريه ضعافا فلايقولوا في الوصية مايمكن أن يضر بذرية الموصي كالترغيب في تكثير الوصية للغرباء بل يقولوا قولا سديدا بان يرغبوه فيما يرضون مثله لانفسهم ولذريتهم من بعدهم ، وروى ابن جرير مثل هذا الرأي عن ابن عباس وقتادة والسدي وسعيد بن جبير ومجاهد . وروى عن غيرهم ان الآية في ولاة اليتامى يأمرهم الله ان يحسنوا معاملتهم كما يحبون ان يحسن الناس معاملة ذريتهم الضعاف لو تركوهم وماتوا عنهم وروى عن ابن عباس انه قال فيها « يعني بذلك الرجل يموت وله اولاد صغار ضعاف يخاف عليهم العيلة (أي الفقر) والضيعة و يخاف بعده ان لا يحسن اليهم من يليهم يقول فان ولي مثل ذريته ضعافا يتامى فليحسن اليهم ولا يأكل أموالهم إسرافا و بدارا خشية ان يكبروا فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا يكفيهم أمر ذريتهم بعدهم » . وهذا موافق للوجه الثاني مما قاله الاستاذ الامام الا انه لم يبين هنا معنى القول السديد الذي يجب ان يقال كما بين هناك

وهناك قول ثالث هو انها أمر للورثه بحسن معاملة من يحضر القسمة من ضعفاء الاقارب واليتامى والمساكين كما يحبون ان يحسن الناس معاملة ذريتهم لو كانوا امثالهم . وعلى هذا يكون معنى الامر بالتقوى ان يتقوا الله فيما أمرهم به من رزق هؤلاء عند القسمة ، ويكون الأمر بالقول المعروف مؤكدا لمثله في تلك الآية .

وفيها قول رابع انها امر للمؤمنين كافة ان يتبصروا في أمر ذريتهم فلا يسرفوا في الوصية . فقد كان بعضهم يحب ان يوصي بجميع ماله كما في حديث سعد المتفق

عليه وفيه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يأذن له بالثلث الا بعد المراجعة المرة بعد المرة وقال « والثلث كثير، لأن تذر اولادك اغنياء خير من ان تذرهم عالة يتكففون الناس » اي فليتقوا الله في ذريتهم وليقولوا في تقرير الوصية قولا سديدا اي قريبا من العدل والمصلحة، بعيدا من استطراق المضرة، ويجوز ان تشمل كل ماذكر

وحاصل معنى الآية : ليكن من أهل الخشية — أو ليخش العاقبة أو الله — الذين لو تركوا بعدهم ذرية ضعافا خافوا ان يسيء الناس معاملتهم ويهينوهم فلا يقولوا ما يترتب عليه ضرر بذرية أحد بل ليقولوا قولا محكما يسد منافذ الضرر فكما يدين المرء يدان

﴿ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ﴾ أي ظالمين في أكلها أو اكلا على سبيل الظلم وهضم الحق لا اكلا بالمعروف عند الحاجة أو اقتراضا او تقديرا لأجرة العمل كما اذن الله للفقير في آية سابقة وكما أباحت الشريعة بدلائل أخرى ﴿ انما يأكلون في بطونهم ﴾ اي ملء بطونهم فقد شاع هذا الاستعمال في الظرفية كأن الاصل فيها ان يكون المظروف مالئا للظرف . ويصح أن يكون ذكر البطون للتأكيد وتمثيل الواقع بكمال هيأته كقوله تعالى (يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم) ﴿ نارا ﴾ اي ما هو سبب لعذاب النار أو مايشبه النار في ضررها وروي أن أفواههم تملأ يوم القيامة جمرا وان النبي (ص) رآهم ليلة المعراج يجعل في افواههم صخر من نار فيقذف في اجوافهم، أي مثل له عذابهم بما سيكون عليه . وقد جعل بعض المفسرين هذا تفسيرا للآية بجعل أكل النار حقيقة لا مجازا وهو انما يصح إذا صحت الرواية بجعل « يأكلون » للاستقبال والمتبادر منه أنه للحال بقرينة عطف الفعل المستقبل عليه وهو قوله ﴿ وسيصلون سعيرا ﴾ وهو قرينة لفظية وحجة معنوية من حيث ان صلي السعير هو عبارة عن دخول النار و إنما يكون اكل النار لمن يأكلها بعد دخولها اي دخول دار الجزاء التي سميت باسمها لان جل العذاب فيها يكون بها ، فلو كان ما ذكروه هو معنى الآية لكان لفظها هكذا : « فسيأكلون نارا ويصلون سعيرا » فالاكل عذاب باطن البدن لان معظم اغتيال المال يكون للأكل والصلي عذاب ظاهره فهو

جزاء اللباس وسائر التصرفات : ولكنه لما ذكر « يأكلون » غفلا من علامة الاستقبال وعطف عليه « يصلون » مقرونا بالسين التي هي علامة الاستقبال علم ان المعنى انهم انما يأكلون الآن مالا خير لهم في أكله لانه في قبحه وما يترتب عليه العقاب كالنار او لانه سبب لدخول النار ثم بين ما يجزون به في المستقبل الذي يشير اليه المجاز في اكل النار فقال وسيصلون سعيرا ولم ار احدا حقق هذا البحث وليس عندنا في الآية شيء عن الاستاذ الامام

﴿ حكم الشريعة في تعدد الزوجات (*) ﴾

قد اباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران باربع من النسوة ان علم من نفسه القدرة على العدل بينهن والا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة قال تعالى (فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة) فان الرجل اذا لم يستطع اعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة اذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين افراد العائلة . والرجل اذ خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشيء زهيد كأن يستقضيها حاجة في يوم الاخرى امتعضت تلك الاخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه الى من لا حق لها وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن الى هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من امته لا يأتون حجرة احدى الزوجات في نوبة الاخرى الا باذنها

من ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو في حالة المرض

(*) نقلناها من الجزء الثاني من تاريخه المشتمل على منشآته وألحقناها بتفسير آية تعدد الزوجات فيما طبعناه منه على حدة وجعلناها فيه قبل بيان حكمة تعدد أزواج النبي (ص)

على بيوت زوجاته محمولا على الاكتاف حفظا للعدل ولم يرض بالاقامة في بيت احداهن خاصة فلما كان عند احدى نسائه سأل في أي بيت اكون غدا فعلم نساؤه انه يسأل عن نوبة عائشة فأذنّ له في المقام عندها مدة المرض فقال « هل رضيتن ؟ » فقلن نعم فلم يقم في بيت عائشة حتى علم رضاهن . وهـذا الواجب الذي حافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ينطبق على نصائحه ووصاياه فقد روي في الصحيح أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى لجلج لسانه وخفي كلامه « الصلاة الصلاة وما ملكت ايمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله في النساء فانهنّ عوان في أيديكم ـ أي أسراء ـ أخذتموهن بامانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وقال « من كان له أمرأتان فمال الى احداهن دون الاخرى ـ وفي رواية ولم يعدل بينهما ـ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله « اللهم هذا (اي العدل في البيات والعطاء) جهدي فيما املك ولا طاقة لي فيما تملك ولا املك » (يعني الميل القلبي) وكان يقرع بينهن اذا اراد سفرا

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيوتة باجماع الائمة وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبهم حتى قالوا يجب على ولي المجنون أن يطوّف به على نسائه . وقالوا لا يجوز للزوج الدخول عند احدى زوجاته في نوبة الاخرى الا لضرورة مبيحة غايته يجوز له أن يسلم عليها من خارج الباب والسؤال عن حالها بدون دخول . وصرحت كتب الفقه بأن الزوج إذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة فأغلقت الباب دونه وجب عليه ان يبيت بحجرتها ولا يذهب الى ضرتها الا لمانع برد ونحوه . وقال علماء الحنفية ان ظاهر آية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ان العـدل فرض في البيتوتة وفي الملبوس والمأكول والصحبة لا في المجامعة لا فرق في ذلك بين فحل وعنين ومجبوب ومريض وصحيح . وقالوا ان العدل من حقوق الزوجية فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعا اذ لا تفاوت بينها وقالوا اذا لم يعدل ورفع الى القاضي وجب نهيه وزجره فان عاد عزر بالضرب لا بالحبس وما ذلك الا محافظة على المقصد الاصلي من الزواج وهو التعاون في المعيشة وحسن السلوك فيها

أفبعد الوعيد الشرعي وذاك الالزام الدقيق الحتمي الذي لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف فإنا نرى انه ان بدت لاحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الاخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميقها واتقانها وتحلف بالله انها لصادقة فيما افترت (وما هي الا من الكاذبات) فيعتقد الرجل انها أخلصت له النصح لفرط ميله اليها ويوسع الاخريات ضربا مبرحا وسبا فظيعا ويسومهن طردا ونهرا من غير أن يتبين فيما ألقي اليه إذ لا هداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة فتضطرم نيران الغيظ في افئدة هاتيك النسوة وتسعى كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية ويكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل وفضلا عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده فانهن دائما يتوقعن منه الطلاق إما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج . وأيا ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهن تزرع كل واحدة في ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لاخوته أولاد النسوة الأخريات فانها دائما تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم وتعدد له وجوه الامتياز . فكل ذلك وما شابهه ان ألقي الى الولد حال الطفولية يفعل في نفسه فعلا لا يقوى على ازالته بعد تعقله فيبقى نفورا من أخيه عدوا له (لا نصيرا وظهيرا له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الاخ)

وان تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه وان لم يفعل ما لفظ ان كان خيرا أو شرا لكونه صغيرا انتصب سوق العراك بين والديهما وأوسعت كل واحدة الاخرى بما في وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات السب (وان كن

من المخدرات في بيوت المعتبرين) كما هو مشاهد في كثير من الجهات خصوصا الريفية واذا دخل الزوج عليهن في هذه الحالة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهن بحسن القول ولين الجانب إذ لا يسمعن له أمرا ولا يرهبهن منه وعيد لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الاسباب أو غيرها التي أفضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأي أحمق الطبع فتقوده تلك الأسباب الى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعا أو طلاق من هي عنده أقل منزلة في الحب ولو كانت أم أكثر أولاده فتخرج من المنزل سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الاطفال عديدا فتأوي بهم الى منزل أبيها ان كان ثم لا يمضي عليها بضعة أشهر عنده الا سئمها فلا تجد بدًّا من رد الاولاد إلى أبيهم وان علمت ان زوجته الحالية تعاملهم بأسوإ مما عوملوا به من عشيرة أبيها ولا تسل عن أم الأولاد إذا طلقت وليس لها من تأوي اليه فان شرح ما تعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتها من الطرد والتقريع يئنون من الجوع ويبكون من ألم المعاملة

ولا يقال ان ذلك غير واقع فان الشريعة الغراء كلفت الزوج بالنفقة على مطلقته وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم وعلى من يقوم مقامها في الحضانة ان خرجت من عدتها وتزوجت : فان الزوج وان كلفته الشريعة بذلك لكن لا يرضخ لأحكامها في مثل هذا الأمر الذي يكلفه نفقات كبيرة الا مكرها مجبورا والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عند الحاكم الشرعي إما لبعد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه وتترك بنيها لا يملكون شيئا مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضي الزوج وربما آبت اليهم حاملة صكا بالتزامه بالدفع لها كل شهر ما أوجبه القاضي عليه من النفقة من غير ان تقبض منه ما يسد الرمق أو يذهب بالعوز ويرجع الزوج مصرًّا على عدم الوفاء بما وعد ولكونه متحققا من ان المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العودة للشكاية لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية أو حياء من شكاية الزوج فان كثيرا من أهل الأرياف يعدون مطالبة المرأة بنفقتها عيبا فظيعا فهي تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلبا لما تقيم به بنيتها هي وبنوها على

الشكاية التي توجب لها العار وربما لم تأت بالثمرة المقصودة. وغير خفي ان ارتكاب المرأة الإثم لهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التي أقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر في أخلاقها فسادا وفي طباعها قبحا مما يذهب بكمالها ويؤدي الى تحقيرها عند الراغبين في الزواج ولربما أدت بها هذه الأمور الى أن تبقى أيّما مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل وان خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق فلا يكون في الغالب الا أقل منزلة وأصغر قدرا من بعلها السابق أو كهلا قلّت رغبة النساء فيه ويمكث زمنا طويلا يقدم رجلا ويؤخر أخرى خشية على نفسه من عائلة زوجها السالف فانها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء ان فعل ذلك كأن مطلقها يريد أن تبقى أيّما الى الممات رغبة في نكالها وإساءتها ان طلقها كارها لها، أما اذا كان طلاقها ناشئا عن حماقة الرجل لإكثاره من الحلف به عند أدنى الاسباب واضعف المقتضيات كما هو كثير الوقوع الان اشتد حنقه وغيرته عليها وتمنى لو استطاع سبيلا الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها

وكأني بمن يقولون ان هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر الا من سفلة الناس وادنيائهم وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئا من ذلك فانهم ينفقون مالاً لبداً على مطلقاتهم وأولادهم منها وعلى نسوتهم العديدات في بيوتهم فلا ضير عليهم في الا كثار من الزواج الى الحد الجائز والطلاق اذا ارادوا بل هو الاجمل والاليق بهم اتباعا لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فاني مباه بكم الامم يوم القيامة » واما ما يقع من سفلة الناس فلا يصح ان يجعل قاعدة للنهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من الامة خصوصاً وآية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) لم تنسخ بالاجماع فاذا يلزم العمل بمدلولها ما دام الكتاب

نقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الاغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع اولادهن فتربى اولادهن عند اقوام غير عشيرتهم لا يعتنون بشأنهم ولا يلتفتون اليهم وكثيرا ما رأينا الآباء يطردون ابناءهم وهم كبار مرضاة لنسائهم الجديدات ويسيئون الى النساء بما لا يستطاع

حتى انه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية الا ارادة الاضرار بالاولى وهذا شائع كثير . وعلى فرض تسليم ان ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات لا يمكننا الا أن نقول كما هو الواقع ان انفاقهم على النسوة وتوفية حقوق الزوجية من القسم في المبيت ليس على نسبة عادلة كما هو الواجب شرعا على الرجل لزوجاته فهذه النفقة تستوي مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية كما أمرنا به (الشرع الشريف) فاذا لا تمايز بينهم وبين الفقراء في أن كلا قد ارتكب ما حرمته الشرائع ونهت عنه نهيا شديداً خصوصا وأن مضرات اجتماع الزوجات عند الاغنياء اكثر منها عند الفقراء كما هو الغالب فان المرأة قد تبقى في بيت الغني سنة أو سنتين بل ثلاثا بل خمسا بل عشرا لا يقربها الزوج خشية ان تغضب عليه (من يميل اليها ميلا شديدا) وهي مع ذلك لا تستطيع ان تطلب منه أن يطلقها لخوفها على نفسها من بأسه فتضطر الى فعل ما لا يليق وبقية المفاسد التي ذكرناها من تربية الابناء على عداوة اخوتهم بل وأبيهم أيضا موجودة عند الاغنياء اكثر منها عند الفقراء ولا تصح المكابرة في انكار هذا الامر بعد مشاهدة آثاره في غالب الجهات والنواحي وتطاير شرره في اكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الاقطار المشرقية

فهذه معاملة غالب الناس عندنا من اغنياء وفقراء في حالة التزوج بالمتعددات كأنهم لم يفهموا حكمة الله في مشروعيته بل اتخذوه طريقا لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير وغفلوا عن القصد الحقيقي منه وهذا لا تجيزه الشريعة ولا يقبله العقل فاللازم عليهم حينئذ اما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى (فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) فهي مقيدة بآية فان خفتم (١) واما ان يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعا من العدل وحفظ الالفة بين الاولاد وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدي بهن الى الاعمال الغير اللائقة ولا يحملوهن على الاضرار بهن وباولادهم ولا يطلقوهن

(١) جملة وأما آية الخ معترضة بين التقسيم والآية واحدة

الا لداع ومقتض شرعي شأن الرجال الذين يخافون الله ويوقرون شريعة العدل ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن ويعاشرونهن بالمعروف ويفارقونهن عند الحاجة فهؤلاء الافاضل الاتقياء لا لوم عليهم في الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعا وهم وان كانوا عددا قليلا في كل بلد واقليم لكن أعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهم الثناء العميم والشكر الجزيل وتقربهم من الله العادل العزيز ام كلام الاستاذ الامام وفيه بيان ما يجب فيه العدل بين الزوجات وسيأتي له مزيد بيان في تفسير «ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء»

ابو حامد الغزالي (*)

٦

﴿ رأيه في اثبات مذهب أهل الحق من المسلمين ﴾

« ونفي مذهب الباطنية اهل التعليم »

(وفيه رأيه في آيات النبوة وفي خروج المسلمين من الخلاف)

(تمهيد) كان الاسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين دينا واحدا والمسلمون أمة واحدة لا فرق فيهم ولا مذاهب ثم حدثت المذاهب في الاصول والفروع ووقع المسلمون فيما نهاهم الله تعالى عنه من الاختلاف والتفرق الى شيع متعددة كل شيعة منها تنتحل مذهبا ولم يضر المسلمين في دينهم ودنياهم شيء كهذا التفرق ولذلك لم يشدد القرآن في النهي عن شيء كما شدد في النهي عن الخلاف والتفرق كما بينا ذلك في تفسير القرآن الحكيم وفي مواضيع كثيرة من المنار

وكان شر المذاهب وأشأمها في هذه الامة مذهب الباطنية الذين ذهبوا الى ان للدين ظاهرا وباطنا وان الباطن منه هو الحق المراد لله تعالى وانه لا يمكن ان يعرف

(*) تابع لما نشر في (ص ٦٠١) من المجلد الحادي عشر

من النظر في الكتاب والسنة بطرق النظر المعروفة في الاصول وقوانين اللغة التي للألفاظ والمعاني بل لا بد في كل عصر من إمام معصوم يؤخذ عنه الدين بالتسليم الأعمى حتى إذا قال إن الشمس والقمر في القرآن لا يراد بهما هذان الكوكبان المعروفان وانما يراد بهما فلان وفلان وجب تصديقه فلا يعارض شيء من تعليمه بمخالفة اللغة ولا العقل ولا النص !!!

وان لهذا المذهب بل الدين الذي ظهر بمظهر المذهب درجات في الاعتقاد ودرجات في الدعوة ليس هذا المكان بمحل لبيانها . والدرجة الاخيرة منها هي اعتقاد أن إمامهم هو الله الذي خلق الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب (تعالى الله عما يقولون) وقد ظهروا في أطوار وتسموا بأسماء أشهرها في زمن الغزالي الاسماعيلية وكان رئيسهم يومئذ حسن بن الصباح الشهير . وآخر فرقهم المشهورة في زمننا هذا فرقة البابية أو البهائية من البابية

ما ظهرت بدعة ولا ضلالة قام بها أهل مذهب إلا ووصل الى غيرها من المذاهب شرها ، وسرى الى أهلها ضرها ، وكان أقرب الفرق الى الباطنية فرقة الشيعة لقولهم بعصمة الائمة الاثني عشر من أهل البيت (عليهم الرضوان والسلام) بل كانت الباطنية في الزمن الماضي والحاضر من الشيعة كالعبيديين بمصر والبابية في فارس ، وهم ليسوا في الحقيقة من الشيعة ولا من المسلمين والشيعة تقول بكفرهم كغيرها

كذلك يشتبه مذهبهم بمذهب الصوفية الذين يقولون ان للقرآن ظاهرا و باطنا وان للدين أسرارا لا يفهمها الا الخواص ، ولكن فرقا عظيما بين الصوفية والباطنية فالغزالي الذي كان أشد العلماء على الباطنية حتى انه صنف الكتب في الرد عليهم كان صوفيا يقول ان للدين اسراراً كما سيأتي عنه في هذه الترجمة مع بيان الفصل فيه بين الصوفية والباطنية

بل أن مقلدة المذاهب الاربعة في الفقه والمذهبين الاشعري والماتريدي في الكلام وهم من اتباع أئمة أهل السنة قد سرت اليهم دعوة الباطنية الاولى فعملوا بها في الغالب فجعلوا أئمتهم معصومين وان لم يسموهم معصومين فمبدأ التقليد عند اكثرهم ان الواجب اتباع ما ثبت في المذهب من غير بحث ولا دليل وانه لا يجوز رد شيء من

المذهب لما يظهر انه مخالف له من آية قرآنية وسنة نبوية ، بناء على ان امام المذهب وعلماءه اعلم بالكتاب والسنة فالقول مايقولونه وهوالدين الواجب اتباعه على كل أحد!

والفرق بينهم و بين الباطنية أن الباطنية تقول بامام واحد يتبع في كل شيء من الاصول والفروع وهم يقولون بإمامين في العقائدهما الاشعري والماتريدي وأربعة في فروع الاعمال كل من خالفهم يكون ضالا خارجا عن هداية الاسلام إما إلى الكفر أوالبدعة و إما إلى الفسق ! بل اوجبوا اتباع من لا يحصي عددهم من علماء هذه المذاهب وان لم يسموهم كلهم أئمة فهؤلاء مقلدة سنغافورة وجاوه يقدسون أحمد بن حجر الهيتمي و يوجبون اتباعه دينا في كل ما دوّنه في كتبه وان خالف نص الشافعي الذي هو إمامه «ولكل قوم ابن حجر»

اذا تمهد هذا فاعلم ان أبا حامد الغزالي قد أبطل في رده على الباطنية مذهبهم والنزعات التي سرت منه الى غيرهم من أهل المذاهب الاسلامية أو ما وافقه منها وان لم يكن بالسريان ، وأبطل التقليد مطلقا كما أبطله كتاب الله وسلف الامة حتى أئمة الفقه الاربعة ومن اخذ عنهم ، وأثبت انه ليس في البشر إمام معصوم يجب اتباعه غير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني منذ بعثته الى آخر الزمان

أحسن ما وصل الينا من كتب أبي حامد في ابطال مذهب الباطنية و يسمى مذهب التعليم كتاب (القسطاس المستقيم) وهو يشرح فيه مناظرة دارت بينه وبين أحد دعاة الباطنية وسماه بهذا الاسم لأن الباطني لما سأله بماذا يزن معرفته بالرأي والقياس الذي جرى عليه المسلمون في الاستنباط من النصوص وهو مثار الخلاف بين الناس ، لما فيه من التعارض والالتباس ، أم بميزان التعليم باتباع الامام المعصوم؟ اجابه أبو حامد بأنه يزنها بالقسطاس المستقيم كما أمر الله في كتابه . ثم استنبط له من القرآن خمسة موازين يعرف بها الحق من الباطل في كل علم . ثم بين له ان الشيطان له موازين تضل الناس وهي طرق الوساوس والاوهام ومسارب خطأ الناس في الفهم والعلم ، ثم شرح له المقصد الذي أشرنا اليه فقال

« القول في الاستغناء بمحمد صلى الله عليه وسلم وبعلماء أمته عن امام معصوم آخر »
« وبيان معرفة صدق محمد صلى الله عليه وسلم بطريق أوضح من النظر في المعجزات »
« وأوثق منه وهو طريق العارفين »

فقال (أي الباطني) : لقد أكملت الشفاء وكشفت الغطاء وأتيت باليد البيضاء لكن بنيت قصرًا وهدمت مصرًا فاني الى الآن كنت أتوقع ان أتعلم منك الوزن بالميزان واستغني بك وبالقرآن عن الامام المعصوم فالآن اذ ذكرت هذه الدقائق في مداخل الغلط فقد أيست من الاستقلال به فاني لا آمن ان أغلط لو اشتغلت بالوزن وقد عرفت الآن لمَ اختلف الناس في هذه المذاهب وذلك لانهم لم يتفطنوا لهذه الدقائق كما فطنت فغلط بعضهم وأصاب بعضهم فاذا أقرب الطرق لي ان أعول على الامام المعصوم حتى أتخلص من هذه الدقائق

قلت : يامسكين معرفتك بالامام الصادق ليست ضرورية فهي اما أن تكون تقليدا للوالدين أو موزونة بشيء من هذه الموازين فان كل علم ليس أوليا فبالضرورة يكون حاصلا عند صاحبه بقيام هذه الموازين في نفسه وان كان هو لا يشعر به فانك عرفت صحة ميزان التقدير بانتظام الأصلين في ذهنك التجربي والحسي وكذلك سائر الناس وهم لا يشعرون به. ومن يعرف مثلا ان هذا الحيوان غير حامل لأنه بغل عرفه بانتظام الاصلين الذين ذكرناهما في صدر الكتاب وان كان لا يشعر بمصدر علمه وكذلك كل علم في العالم يحصل للانسان فيكون كذلك فأنت ان أخذت اعتقاد العصمة في الامام الصادق بل في محمد صلى الله عليه وسلم تقليدا للوالدين والرفقاء لم تتميز عن اليهود والنصارى والمجوس فانهم كذلك فعلوا وان أخذته من الوزن بشيء من هذه الموازين فلعلك غلطت في دقيقة من دقائقه فينبغي على زعمك ان لا تثق به

فقال : صدقت فأين الطريق فلقد سددت على طريق التعلم والوزن جميعا

قلت : هيهات راجع القرآن فلقد علمك الطريق إذ قال تعالى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ولم يقل سافروا الى الامام المعصوم فاذا هم مبصرون فانت تعلم ان المعارف كثيرة فلو ابتدأت في كل

مشكلة سفرا الى الامام المعصوم بزعمك طال عناؤك وقل علمك لكن طريقك أن تتعلم مني كيفية الوزن وتستوفي شروطه فان أشكل عليك شيء عرضته على الميزان وتفكرت في شروطه بفكر صاف وجد واف فاذا أنت مبصر . وهذا كما لو حسبت ما للبقال عليك أولك عليه أو قسمت في مسئلة من مسائل الفرائض وشككت في الاصابة والخطأ فيطول عليك أن تسافر الى الامام المعصوم ولكن تحكم علم الحساب وتتذكره ولا تزال تعاوده مرة بعد أخرى حتى تستيقن قطعا انك ما غلطت في دقيقة من دقائقها وهذا يعرفه من يعرف علم الحساب وكذلك من يعرف الوزن به كما أعرفه فينتهي به التذكر والتفكر والمعاودة مرة بعد أخرى الى اليقين الضروري بانه ما غلط ، فان لم تسلك هذه الطريق لم تفلح قط وصرت تشكك بلعل وعسى ولعلك قد غلطت في تقليدك لامامك بل للنبي الذي آمنت به فان معرفة صدق النبي صلى الله عليه وسلم ليست ضرورية (أي ليست بديهية معلومة بالضرورة)

فقال : لقد ساعدتني على ان التعلم حق وان الامام هو النبي صلى الله عليه وسلم واعترفت بان كل واحد لا يمكنه أن يأخذ العلم من النبي صلى الله عليه وسلم دون معرفة الميزان وانه لا يمكنه معرفة تمام الميزان إلا منك فكأنك ادعيت الامامة لنفسك خاصة فما برهانك ومعجزتك فان امامي اما أن يقيم معجزة واما ان يحتج بالنص المتعاقب من آبائه اليه فأين نصك وأين معجزتك ؟

فقلت : اما قولك انك تدعي الامامة لنفسك خاصة فليس كذلك فاني ارجو أن يشاركني غيري في هذه المعرفة فيمكن أن يُتعلم منه كما يتعلم مني فلا أجعل التعليم وقفا على نفسي . واما قولك تدعي الامامة لنفسك فاعلم أن الامام قد نعني به الذي يتعلم من الله بواسطة جبريل وهذا لا ادعيه لنفسي وقد نعني به الذي يتعلم من الله بغير جبريل ومن جبريل بواسطة الرسول ولهذا سمي عليّ رضي الله عنه اماما فانه تعلم من الرسول لا من جبريل وأنا بهذا المعنى ادعي الامامة لنفسي . أما برهاني عليه فاوضح من النص ومما تعتقده معجزة فان ثلاثة انفس لو ادعوا عندك انهم يحفظون القرآن فقلت ما برهانكم فقال أحدهم برهاني انه نص علي الكسائي استاذ المقرئين اذ نص على استاذي واستاذي نص علي فكأن الكسائي نص علي

وقال الثاني اني أقلب العصا حية فقلب العصا حية ، وقال : الثالث برهاني اني أقرأ جميع القرآن بين يديك من غير مصحف فليت شعري أي هذه البراهين أوضح عندك وقلبك بايها أشد تصديقا؟ فقال بالذي قرأ القرآن فهو غاية البراهين اذلا يخالجني فيه ريب،أما نص استاذه عليه ونص الكسائي على استاذه فيتصور ان تقع فيه اغاليط لا سيما عند طول الاسفار، وأما قلب العصا حية فلعله فعل ذلك بحيلة وتلبيس وان لم يكن تلبيسا فغايته انه فعل عجيب ومن اين يلزم ان من قدر على فعل عجيب ينبغي ان يكون حافظاً للقرآن

قلت : فبرهاني اذاً أيضاً اني كما عرفت هذه الموازين فقد عرفت وأفهمت وازلت الشك عن قلبك في صحته فيلزمك الايمان بامامتي كما انك اذا تعلمت الحساب وعلمته من استاذ فانه اذا علمك الحساب حصل لك علم بالحساب وعلم آخر ضروري بأن استاذك حاسب وعالم بالحساب كذلك فقد علمت من تعليمه علمه وصحة دعواه ايضا في انه حاسب وكذلك آمنت أنا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وصدق موسى عليه السلام لا بشق القمر ولا بقلب العصا حية بمجردها فان ذلك يتطرق اليه حينئذ التباس كثير فلا يوثق به بل من يؤمن بقلب العصا حية يكفر بخوار العجل ، فان التعارض في عالم الحس والشهادة كثير جدا لكني تعلمت الموازين من القرآن ثم وزنت بها جميع المعارف الالهية بل احوال المعاد وعذاب القبر وعذاب أهل الفجور وثواب أهل الطاعة كما ذكرته في كتاب جواهر القرآن فوجدت جميعها موافقة لما في القرآن ولما في الاخبار فتيقنت ان محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وان القرآن حق وفعلت كما قال علي رضي الله عنه اذ قال « لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله » فكانت معرفتي بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ضرورية كمعرفتك اذا رأيت رجلا عريا يناظر في مسألة من مسائل الفقه ويحسن فيها ويأتي بالفقه الصحيح الصريح فإنك لا تتمارى في انه فقيه ويقينك الحاصل به أوضح من اليقين الحاصل بفقهه لو قلب الف عصا ثعبانا لان ذلك يتطرق اليه احتمال السحر والتلبيس والطلسم وغيرها ولا يحصل العلم بالقرآن بينها وبين هذه الاشياء وكونها معجزة الا بعد بحث طويل ونظر دقيق ويحصل به ايمان ضعيف هو ايمان العوام والمتكلمين فإما إيمان

ارباب المشاهدة الناظرين من مشكاة الربوبية فلا يكون كذلك

فقال : فأنا أيضا اشتهي أن أعرف النبي صلى الله عليه وسلم كما عرفته وقد ذكرت ان ذلك لا يعرف الا بأن توزن جميع المعارف الالهية بهذا الميزان وما اتضح عندي ان جميع المعارف الدينية يمكن وزنها بهذه الموازين فبم اعلم ذلك ؟

قلت : هيهات لا أدعي اني ازن بها المعارف الدينية فقط بل ازن بها العلوم الحسابية والهندسية والطبيعية والفقهية والكلامية وكل علم حقيقي غير وضعي فاني أميز حقه عن باطله بهذه الموازين وكيف لا وهو القسطاس المستقيم والميزان الذي هو رفيق الكتاب والقرآن في قوله تعالى « لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » وأما معرفتك بقدرتي على هذا فلا تحصل لا بنص ولا بقلب العصا ثعبانا ولكن تحصل بأن تستكشف ذلك بتجربة وامتحانا فمدعي الفروسية لا ينكشف صدقه حتى يركب فرسا ويركض ميدانا فسلني عما شئت من العلوم الدينية لاكشف لك الغطاء عن الحق فيه واحدا واحداً وازنه بهذا الميزان وزنا يحصل لك علم ضروري بأن الوزن صحيح وان العلم المستفاد منه مستيقن ومن لم يجرب لم يعرف.

فقال : وهل يمكنك ان تعرّف جميع الحقائق والمعارف الإلهيـة جميع الخلق فترفع الاختلافات الواقعة بينهم ؟ قلت : هيهات لا أقدر عليه وكأن امامك المعصوم الى الآن قد رفع الاختلافات بين الخلائق وازال الاشكالات عن القلوب بل الانبياء متى رفعوا الاختلاف ومتى قدروا عليه؟ بل اختلاف الخلق حكم ضروري أزلي « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك » أفأدعي أن أرد قضاء الله الذي قضى به في الازل ؟ أو يقـدر امامك ان يدعي ذلك ؟ فان كان يدعيه فلمَ ادخره الى الآن والدنيا طافحة بالاختلافات ؟ وليت شعري أرئيس الامة علي بن ابي طالب رضي الله عنه كان سبب رفع الاختلافات بين الخلق اوسبب تأسيس اختلافات لا تنقطع أبد الدهر؟!

« القول في طريق نجاة الخلق من ظلمات الاختلافات »

فقال : كيف نجاة الخلق من هذه الاختلافات ؟ قلت : إن اصغوا إليّ رفعت الاختلافات بينهم بكتاب الله تعالى ولكن لا حيلة في إصغائهم فانهم لم يصغوا بأجمعهم

الى الأنبياء ولا الى امامك فكيف يصغون إليّ وكيف يجتمعون على الاصغاء وقد حكم عليهم في الازل بانهم لا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم . وكون الخلاف بينهم ضروريا تعرفه من كتاب « جواب مفصل الخلاف » وهو الفصول الاثني عشر .

فقال : فلو أصغوا كيف كنت تفعل ؟ قلت : كنت أعاملهم بآية واحدة من كتاب الله تعالى إذ قال « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد » الآية وانما أنزل هذه الثلاث لأن الناس ثلاثة أصناف وكل واحد من الكتاب والحديد والميزان علاج قوم .

فقال : فمن هم وكيف علاجهم ؟ قلت الناس ثلاثة أصناف عوام وهم أهل السلامة البُلْهُ وهم أهل الجنة ، وخواص وهم أهل الذكاء والبصيرة ويتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب فيتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة : أما الخواص فإني أعالجهم بأن أعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها فيرتفع الخلاف بينهم على قرب وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث خصال إحداها القريحة النافذة والفطنة القوية وهذه عطية فطرية وغريزة جبلّية لا يمكن كسبها ، والثانية خلوّ باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث ومسموع فان المقلد لا يصغى والبليد وان أصغى فلا يفهم ، الثالثة أن يعتقد فيَّ اني من أهل البصيرة بالميزان ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب لا يمكنه أن يتعلمه منك

والصنف الثاني البلْه وهم جميع العوام وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق وان كانت لهم فطنة فطرية فليس لهم داعية الطلب بل شغلتهم الصناعات والحرَف وليس فيهم أيضا داعية الجدل بخلاف المتكايسين في العلم مع قصور الفهم عنه فهؤلاء لا يختلفون ولكن يتخيرون بين الائمة المختلفين فأدعو هؤلاء الى الله بالموعظة كما ادعو أهل البصيرة بالحكمة وادعو أهل الشغب بالمجادلة وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه الثلاثة في آية واحدة كما تلوته عليك أولاً فأقول لهم ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعرابي جاءه فقال علمني من غرائب العلم فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ليس أهلا لذلك فقال « وماذا عملت في رأس العلم » أي

الايمان والتقوى والاستعداد للآخرة « اذهب فأحكم رأس العلم ثم ارجع لاعلمك من غرائبه » فأقول للعامي ليس الخوض في الاختلافات من عشك فادرج فاياك أن تخوض فيه أو تصغى اليه فتهلك فانك اذا صرفت عمرك في صناعة الصياغة لم تكن من أهل الحياكة وقد صرفت عمرك في غير العلم فكيف تكون من أهل العلم (١) ومن أهل الخوض فيه فإياك ثم إياك أن تهلك نفسك فكل كبيرة تجري على العامي أهون من أن يخوض في العلم فيكفر من حيث لا يدري .

فان قال : لا بد من دين أعتقده وأعمل به لأصل به الى المغفرة والناس مختلفون في الأديان فبأي دين تأمرني أن آخذ أو أعول عليه ؟ فأقول له للدين أصول وفروع والاختلاف انما يقع فيهما أما الأصول فليس عليك أن لاتعتقد فيها إلا ما في القرآن فان الله تعالى لم يستر عن عباده صفاته وأسماءه فعليك أن تعتقد أن لا إله إلا الله وان الله حي عالم قادر سميع بصير جبار متكبر قدوس ليس كمثله شيء الى جميع ما ورد في القرآن واتفق عليه الأئمة فذلك كاف في صحة الدين وان تشابه عليك شيء فقل آمنا به كل من عند ربنا واعتقد كل ما ورد في اثبات الصفات ونفيها على غاية التعظيم والتقديس مع نفي المماثلة واعتقاد انه ليس كمثله شيء وبعد هذا لا تلتفت الى القيل والقال فانك غير مأمور به ولا هو على حد طاقتك . فان أخذ يتحذلق ويقول قد علمت انه عالم من القرآن ولكني لا أعلم انه عالم بالذات أو بعلم زائد عليه وقد اختلف فيه الأشعرية والمعتزلة ، فقد خرج بهذا عن حد العوام إذ العامي لا يلتفت قلبه الى مثل هذا ما لم يحركه شيطان الجدل فان الله لا يهلك قوماً الا يؤتيهم الجدل كذلك ورد الخبر واذا التحق بأهل الجدل فسأذكر علاجهم .

هذا ما أعظ به في الأصول وهو الحوالة على كتاب الله فان الله أنزل الكتاب والميزان والحديد وهؤلاء أهل الحوالة على الكتاب

وأما الفروع فأقول لا تشغل قلبك بمواقع الخلاف مالم تفرغ عن جميع المتفق عليه فقد اتفقت الامة على ان زاد الآخرة هو التقوى والورع وان الكسب

(١) يريد العلم بأصول العقائد والاحكام ومذاهب الخلاف فيها

الحرام والمال الحرام والغيبة والنميمة والزنا والسرقة والخيانة وغير ذلك من المحظورات حرام والفرائض كلها واجبة فان فرغت من جميعها علمتك طريق الخلاص من الخلاف . فان هو طالبني بها قبل الفراغ من هذا كله فهو جدلي وليس بعامي ومتى تفرغ العاميّ من هـذا الى مواضع الخلاف ؟ أفرأيت رفقاءك قد فرغوا من جميع هذا ثم أخذ إشكال الخلاف بمخنقهم ؟ هيهات ما أشبه ضعف عقولهم في خلافهم إلا بعقل مريض به مرض أشرف على الموت وله علاج متفق عليه بين الأطباء وهو يقول قد اختلفت الاطباء في بعض الادوية انها حارة أو باردة وربما افتقرت اليه يوما فأنا لا أعالج نفسي حتى أجد من يعلمني رفع الخلاف فيه

نعم لو رأيتم صالحا قد فرغ من حدود التقوى كلها . وقال : ها أنا ذا تشكل عليّ مسائل فاني لا أدري اتوضأ من اللمس والقيء والرعاف وانوي الصوم بالليل في رمضان أو بالنهار الى غير ذلك . فأقول له ان كنت تطلب الامان في طريق الآخرة فاسلك سبيل الاحتياط وخذ بما يتفق عليه الجميع فتوضأ من كل ما فيه خلاف فان كل من لا يوجبه يستحبه وانو الصوم بالليل في رمضان فان من لا يوجبه يستحبه .

فان قال هو ذا يثقل علي الاحتياط ويعرض لي مسائل تدور بين النفي والاثبات وقال لا أدرى أأقنت في الصبح ام لا وأجهر بالتسمية ام لا فاقول الآن اجتهد مع نفسك وانظر الى الأئمة ايهم افضل عندك وصوابه أغلب على قلبك كما لو كنت مريضا وفي البلد اطباء فانك تختار بعض الاطباء باجتهادك لا بهواك وطبعك فيكفيك مثل ذلك الاجتهاد في أمر دينك فمن غلب على ظنك انه الأفضل فاتبعه (١) فمن أصاب فيما قال عند الله فله في ذلك اجران وان أخطأ فله عند الله في ذلك أجر واحد وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال « من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فاخطأ فله اجر واحد » ورد الله تعالى الأمر الى أهل الاجتهاد وقال تعالى « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وارتضى الاجتهاد لأهله اذ قال رسول الله صلى

(١) ليس هذا امرا بالتقليد الذي ابطله سابقا ولاحقا وانما هو امر بنوع من الاجتهاد لشخص لا يكاد يوجد على فرض وجوده فقد امره اولا ان يجتهد في نفسه ثم في الائمة الذين اشتبه في أي اقوالهم في تلك المسائل ارجح وان يأخذ بقول من رأى قوله اصوب ولا يكون ذلك الا بعد النظر في دليله . غاية الامر ان اجتهاده لا يكون مطلقا بل منتسبا الى من رجح دليله

الله عليه وسلم لمعاذ « بم تحكم ؟ » قال بكتاب الله قال « فان لم تجد ؟ » قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « فان لم تجد ؟ » قال أجتهد رأيي . قال ذلك قبل ان أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذن له فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضاه رسولُ الله » ففهم من ذلك انه مرضي به من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وغيره كما قال الاعرابي اني هلكت واهلكت واقعت اهلي في نهار رمضان فقال « أعتق رقبة » ففهم ان التركي أو الهندي لو جامع أيضا لزمه الإعتاق وهذا لأن الخلق ما كلفوا الصواب عند الله فان ذلك غير مقدور عليه ولا تكليفَ بما لا يطاق بل كلفوا ما يظنونه صوابا كما لم يكلفوا الصلاة بثوب طاهر بل بثوب يظنون انه طاهر فلو تذكروا نجاسته لم يلزمهم القضاء اذ نزع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعله في اثناء الصلاة لما انبأه جبريل أن عليه قذرا ولم يعد الصلاة ولم يستأنف وكذلك لم يكلف ان يصلي الى القبلة بل الى جهة يظن انها القبلة بالاستدلال بالجبال والكواكب والشمس فان اصاب فله اجران والا فله اجر واحد ولم يكلفوا أداء الزكاة الى الفقير بل الى من ظنوا فقره لان ذلك لا يعرف باطنه ولم يكلف القضاة في سفك الدماء واباحة الفروج طلب شهود يعلمون صدقهم بل من يظنون صدقهم واذا جاز سفك دم بظن يحتمل الخطأ وهو ظن صدق الشهود فلم لا تجوز الصلاة بظن شهادة الادلة عند الاجتهاد !

وليت شعري ماذا يقول رفقاؤك في هذا ؟ أيقولون اذا اشتبهت عليه القبلة يؤخر الصلاة حتى يسافر الى الامام ويسأله أو يكلفه الاصابة التي لا يطيقها أو يقول اجتهد لمن لا يمكنه الاجتهاد اذ لا يعرف ادلة القبلة وكيفية الاستدلال بالكواكب والجبال والرياح ؟ قال لا شك في انه يأذن له في الاجتهاد ثم لا يؤثمه اذا بذل كنه مجهوده وان اخطأ أو صلي الى غير القبلة

قلت فاذا كان من جعل القبلة خلفه معذورا مأجورا فلا يبعد ان يكون من اخطأ في سائر الاجتهادات معذورا فالمجتهدون ومقلدوهم كلهم معذورون بعضهم مصيبون ما عند الله و بعضهم يشاركون المصيبين في احد الاجرين فمناصبهم متقاربة وليس لهم

ان يتعاندوا وان يتعصب بعضهم مع بعض لا سيما والمصيب لا يتعين وكل واحد منهم يظن انه مصيب كما لو اجتهد مسافران في القبلة فاختلفا في الاجتهاد فحقهما ان يصلي كل واحد الى الجهة التي غلبت على ظنه وان يكف انكاره واعراضه واعتراضه على صاحبه لانه لم يكلف إلا استعمال موجب ظنه اما استقبال عين القبلة عند الله فلا يقدر عليه وكذلك كان معاذ في اليمن يجتهد لا على اعتقاد انه لا يتصور منه الخطأ لكن على انه ان اخطأ كان معذورا وهذا لان الامور الوضعية الشرعية التي يتصور ان تختلف بها الشرائع يقرب فيها الشيء من نقيضه بعد كونه مظنونا في سر الاستبصار واما ما لا تتغير فيه الشرائع فليس فيه اختلاف وحقيقة هذا الفصل تعرفه من اسرار اتباع السنة وقد ذكرته في الاصل العاشر من الاعمال الظاهرة من كتاب جواهر القرآن

وأما الصنف الثالث وهم أهل الجدل فاني ادعوهم بالتلطف الى الحق واعني التلطف أن لا اتعصب عليهم ولا اعنفهم لكن ارفق واجادلهم بالتي هي أحسن وكذلك أمر الله تعالى رسوله ومعنى المجادلة بالاحسن ان آخذ الاصول التي يسلمها الجدلي واستنتج منها الحق بالميزان المحقق على الوجه الذي اوردته في كتاب الاقتصاد والى ذلك الحد فان لم يقنعه ذلك لتشوفه بفطنته الى مزيد كشف رقيته الى تعليم الموازين فان لم يقنعه لبلادته واصراره على تعصبه ولجاجه وعناده عالجته بالحديد فإن الله سبحانه جعل الحديد والميزان قريني الكتاب ليفهم منه ان جميع الخلائق لا يقومون بالقسط إلا بهذه الثلاث فالكتاب للعوام والميزان للخواص والحديد الذي فيه بأس شديد للذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ولا يعلمون ان ذلك ليس من شأنهم وانه لا يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم دون اهل الجدل

واعني باهل الجدل طائفة فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام ولكن كياستهم ناقصة اذ كانت الفطرة كاملة ولكن في باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد فذلك يمنعهم عن ادراك الحق وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا ولكن لم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة فان الفطنة البتراء والكياسة الناقصة شر من البلاهة بكثير وفي الخبر « إن أكثر اهل الجنة البله وان عليين لذوي الالباب » (١) ويخرج من جملة

(١) المنار : رواه البيهقي في الشعب والبزار في مسنده هكذا « أكثر أهل الجنة البله » وهو ضعيف

الفريقين الذين يجادلون في آيات الله وأولئك أصحاب النار ويزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن وهؤلاء ينبغي ان يمنعوا من الجدال بالسيف والسنان كما فعل عمر رضي الله عنه برجل اذ سأله عن آيتين متشابهتين في كتاب الله تعالى فعلاه بالدرة وكما قال مالك رضي الله عنه لما سئل عن الاستواء على العرش فقال : الاستواء حق والايمان به واجب والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة. وحسم بذلك باب الجدال وكذلك فعل السلف كلهم . وفي فتح باب الجدال ضرر عظيم على عباد الله تعالى

فهذا مذهبي في دعوة الناس الى الحق واخراجهم من ظلمات الضلال الى نور الحق وذلك بأن دعوة الخواص الى الحكمة بتعليم الميزان حتى اذا تعلم الميزان القسط لم يقدر به على علم واحد بل على علوم كثيرة فان من معه ميزان فانه يعرف به مقادير أعيان لا نهاية لها كذلك من معه القسطاس المستقيم فمعه الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيراً لا نهاية له ولولا اشتمال القرآن على الموازين لما صح تسمية القرآن نورا لان النور ما يبصر بنفسه ويبصر به غيره وهو نعت الميزان ولما صدق قوله « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » فان جميع العلوم غير موجودة في القرآن بالتصريح ولكن موجودة فيه بالقوة لما فيه من الموازين القسط التي بها تفتح أبواب الحكمة التي لا نهاية لها فبهذا ادعو الخواص . ودعوت العوام بالموعظة الحسنة بالاحالة على الكتاب والاقتصار على ما فيه من الصفات الثابتة لله تعالى. ودعوت أهل الجدال بالمجادلة التي هي أحسن فمن أبى أعرضت عن مخاطبته وكففت شره بأس السلطان والحديد المنزل مع الميزان

فليت شعري الآن يا رفيقي بمَ يعالج أمامك هؤلاء الاصناف الثلاثة ؟ أيعلم العوام فيكلفهم مالا يفهمون ويخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يخرج الجدال من أدمغة المجادلين بالمحاجة ولم يقدر على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كثرة محاجة الله تعالى في القرآن مع الكفار ؟ فما أعظم قدرة امامك إذ صار أقدر من الله تعالى ومن رسوله !! أو يدعو أهل البصيرة الى تقليده وهم لا يقبلون قول الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقليد ولا يقنعون بقلب العصا ثعبانا بل يقولون هو فعل غريب ولكن من أين يلزم منه صدق فاعله وفي العالم من غرائب السحر

والطلسمات ماتتحير فيه العقول ولايقوى على تمييز المعجزة عن السحر والطلسم الا من عرف جميعها وجملة أنواعها ليعلم ان المعجز خارج عنها كما عرف سحرة فرعون معجزة موسى عليه السلام اذ كانوا من أئمة السحرة ومن الذي يقوى على ذلك ؟ بل أهل البصيرة يريدون مع المعجزة ان يعلموا صدقه من قوله كما يعلم متعلم الحساب من نفس الحساب صدق أستاذه في قوله اني حاسب فهذه هي المعرفة اليقينية التي بها يقنع أولو الالباب وأهل البصائر ولا يقنعون بغيرها البتة وهم اذا عرفوا بمثل هذا المنهاج صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن وفهموا موازين القرآن كما ذكرت لك وأخذوا منه مفاتيح العلوم كلها مع الموازين كما ذكرته في كتاب جواهر القرآن فمن أين يحتاجون الى امامك المعصوم؟ وما الذي حل من اشكالات الدين؟ وماذا كشف عن غوامضه ؟ قال الله تعالى «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه» وقد سمعت الآن منهاجي في موازين العلوم فأروني ماذا اقتبسته من غوامض العلوم من امامك الى الآن وماذا الذي يتعلمون منه ؟ وليت شعري ما الذي تعلمت من امامك المعصوم أرني ما رأيتها :

مايسدي بي رتسدي أوف   خر ابن وقلب يارفوت

فليس الغرض من الدعوة الى المائدة مجرد الدعوة دون الاكل والتناول منها واني اراكم تدعون الناس الى الامام ثم ارى المستجيب لإمامك بعد الاستجابة على جهله الذي كان قبله لم يحل له الامام عقدا بل ربما عقد له حلا ولم تفده استجابته له علما بل ربما زاد به طغيانا وجهلا

فقال : قد طالت صحبتي مع رفقائي ولكن ما تعلمت منهم شيئا الا انهم يقولون عليك بمذهب التعليم واياك والرأي والقياس فانه متعارض مختلف . قلت : فمن الغرائب ان يدعوا الى التعليم ثم لا يشتغلوا بالتعليم فقل لهم قد دعوتموني الى التعليم فاستجيب فعلموني ما عندكم فقال: ما أراهم يزيدونني على هذا شيئا قلت: فإني قائل أيضا بالتعليم وبالامام وببطلان الرأي والقياس وأنا أزيدك على هذا لو أطقت ترك التقليد تعلم غرائب العلوم وأسرار القرآن فأستخرج لك منه مفاتيح العلوم كلها كما استخرجت منه موازين العلوم كلها على ما أشرت الى كيفية انشعاب العلوم كلها منه في كتاب

جواهر القرآن لكني لست أدعو الى امام سوى محمد صلى الله عليه وسلم ولا الى كتاب سوى القرآن فمنه أستخرج جميع أسرار العلوم وبرهاني على ذلك لساني وبياني ، وعليك إن شككت تجريبي وامتحاني ، أفتراني أولى بأن تتعلم مني من رفقائك أم لا ؟ اه المراد منه

مقدمة الطبعة الثانية

﴿ للمجلد الأول من المنار ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ، الذي جعل إرادة بعض عباده ، من أسباب انفاذ مراده ، فهم بقوة الارادة يمتازون ، وبحسن توجيهها للمرادات يتفاضلون ، فلولا الارادة الانسانية العجيبة لما أشرقت شموس العلوم والعرفان ، ولولاها لما ظهرت ثمراتها العملية في الاكوان ، والصلاة والسلام على أفضل مريد ومراد ، وأكمل مظهر للمشيئة الالهية في العباد ، سيد المصلحين ، وخاتم النبيين والمرسلين ، المرسل وهو الأمي ليعلم الأميين والمتعلمين ، والمبعوث وهو العربي الى جميع العالمين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه المتقين ، ومن تبعهم في هديهم الى يوم الدين

أما بعد فقد أنشأنا هذا « المنار » في العشر الأخير من شهر شوال سنة ١٣٢٥ وبينا غرضنا منه في الصحيفة الأولى من صحفه وهو مسائل

كثيرة يجمعها الاصلاح الديني والاجتماعي لامتنا الاسلامية هي ومن يعيش معها، وتتصل مصالحه بمصالحها، وبيان اتفاق الاسلام مع العلم والعقل، وموافقته لمصالح البشر في كل قطر وكل عصر، وابطال ما يورد من الشبهات عليه، وتفنيد ما يعزى من الخرافات اليه، وهو عمل قد ملأ في عالم الصحافة الشرقية فراغا، وأشرع لطلاب الارتقاء من الامة منهاجا، كان «المنار» فيه – على رأيهم – سراجا وهاجا، ظهر على شدة حاجة الامة اليه، واستعداد هذا القطر لظهور مثله فيه، ولكنه على هذا وذاك بدا كالاسلام غريبا، وممقوتا من السواد الاعظم لا محبوبا، يعشي نوره خفافيش البدع والخرافات، الذين ألفوا تلك الظلمات، حتى قال لنا خاتمة شيوخنا الاستاذ الامام: ان الحق يظهر في المنار عريانا في الغالب ليس عليه شيء من الحلي والحلل التي تجذب اليه أنظار من لم يألفوا الحق لذاته، وكتب الينا أول شيوخنا الشيخ حسين الجسر في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣١٥ ما نصه جوابا عن كتاب:

« وصلني كتابكم الكريم بعد مضي أشهر من وصولكم لمصر معتذرا عن تأخره فقبلت العذر ودعوت لكم بالتوفيق، وأعقب وصوله ظهور المنار ساطعا بأنوار غريبة مرغوبة الا انها مؤلفة من أشعة قوية كادت تذهب بالابصار » الى آخر ما كتبه وفيه انتقاد لبعض المسائل اجبناه عنها، مبينين له ما عندنا من الحجج عليها، وانباء بمقاومة الحكومة العثمانية للمنار، وكان ذلك كما قال

اني لم أنشئ المنار ابتغاء ثروة أتأثلها، ولا رتبة من أمير أو سلطان أتجمل بها، ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهي به الاقران، وأباري به أعلياء الشان، بل لانه فرض من الفروض يرجى النفع من اقامته، وتأثم

الامة كلها بتركه، فلم أكن أبالي بشيء الا قول الحق والدعوة الى الخير، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكنت ان أصبت هذا بحسب علمي واجتهادي فسيان رضي الناس أم سخطوا، مدحوا أم ذموا، قبلوا المنار أم رفضوا،

طبعت من الصحف الاولى ألفا وخمس مئة نسخة من كل عدد وأرسلت أكثرها الى من عرفت أسماءهم في البلاد المصرية والسورية وكذا في غيرها من البلاد (وهو الاقل) فأعيد الي أكثر ما أرسلته الى المصريين، وما نشبت الحكومة الحميدية أن منعت ما يرسل الى السوريين وسائر العثمانيين، ثم جعلت عدد المطبوع ألف نسخة ولكن مرت السنة وسنتان بعدها وما كاد المشتركون يزيدون على ثلث الالف، الا قليلا

ما كان انتقاص عملي، منتقصا شيئا من أملي، ولا زهد الامة في المنار، باعثا على جعله طعاما للنار، ولا لفائف لبضائع التجار، كما هي سنة أصحاب الصحف في هذه الديار، [1] بل كنت أحرص عليه، حاسبا ان الناس سيعودون اليه،

وكان يمدني في أملي هذا ما أسمعه من بعض أهل الرأي، والعلم بشؤون الاجتماع، من القول بأن هذا المنار حاجة من الحاج الطبيعية للمسلمين في هذا العصر، لا يستغني عنه بيت من البيوت، فان لم يفقهوا هذا اليوم، فسيفقهونه في يوم ما، وقد اتفق رجلان من غير المسلمين في كلمة حددا بها الاجل لذلك اليوم المجهول، أحدهما انكليزي كان يقرأ له

(١) يبيع أصحاب الصحف ما زاد عن حاجة المشتركين والمبتاعين من صحفهم الى التجار وأصحاب الافران

المنار محمود سامي باشا البارودي والآخر سوري من قرائه ، قالا كلمتهما ، التي تواردت عليها خواطرهما ، ولا تعارف بينهما ، قالا ان المسلمين سيبحثون عن هذا المنار ويعنون باعادة طبعه بعد خمسين سنة . وان أدري أكانا يظنان حين قالا كلمتهما ان المسلمين لا يستيقظون لطلب هذا الاصلاح الا بعد خمسين سنة ، أم كانا يعنيان ان المنار لا بد ان يكون قد بطل في هذه المدة بموت صاحبه أو عجزه ، فيبحث الناس عنه لأنهم في الغالب لا يعرفون قيمة الشيء الا بفقده ، ولا يعترفون بقدر العامل الا من بعده ، ؟

لعل المسلمين خير مما ظننا فيهم ، ولعل الاجل الذي ضرباه أقرب مما حدده رأيهما ، فها نحن أولاء قد أعدنا طبع مجموعة السنة الاولى ، ويوشك أن نعيد طبع الثانية والثالثة أيضا فقد قلت نسخهما ، وغلا ثمنهما ،

كانت السنة الخامسة للمنار (سنة ١٣٢٠) مبدأ رواجه وسعة انتشاره فمنذ ذلك العهد صار بعض طلاب الاشتراك يطلبون مجموعات السنين الماضية ، كما يطلبها بعض المشتركين السابقين رغبة في حفظ المنار من أوله ، وضنا به ان يضيع شيء منه ، حتى اذا قلت مجموعات السنة الاولى رفعت الادارة ثمنها حتى صارت تباع المجموعة الكاملة من تلك السنة بمئتي قرش اي بأربعة اضعاف ثمنها الاصلي ، وبيعت المجموعة الناقصة بضعة اعداد فأكثر الى ١٢ و١٣ عددا بمئة قرش ولما لم يبق عندنا مجموعة معدة للبيع إلا وهي ناقصة أكثر من ١٥ عددا ، وكثر الطلب واقترح علينا إعادة طبع السنة كلها ، شرعنا في طبعها في النصف الاول من سنة ١٣٢٥ وهي السنة العاشرة وقد تم الطبع في النصف الاول من هذه السنة وهي السنة الثانية عشرة

كان المنار في السنة الاولى من عمره جريدة اسبوعية ذات ثمان صفحات كبيرة وكنا ننشر فيه برقيات الاسبوع وبعض الاخبار التي ليست كلها ذات فائدة تحفظ وتدخر وان لم تخل من فائدة في وقت نشرها لبعض القراء . وقد اعدنا طبعه بشكل المجلة التي هي عليه منذ السنة الثانية ولم نحذف منه الا البرقيات و بعض الاخبار التي لا فائدة في تدوينها وحفظها ، واما الاخبار التي فيها عبرة دائمة أو فائدة تاريخية أو غير تاريخية فقد أبقيناها ، وحذفنا منه ايضا نبذ رسالة « قليل من الحقائق عن تركيا » المترجمة عن الانكليزية لقلة الثقة باخبارها . وسندقق النظر فيها فان وجدناها حرية بالحفظ والتخليد أثبتنا ما حذفناه من السنة الأولى في الطبعة الثانية للسنة الثانية متصلا ببقيته فيها ، والا حذفنا باقيها من طبعة السنة الثانية ايضا ، ومع هذا جاء المجلد الاول في حجم المجلدات الاخيرة يناهز الف صفحة

طبعنا اعداد السنة على ترتيب الاصل فمن أراد أن يقرأ المقالات المتسلسلة في موضوع واحد (كالمقالات التي عنوانها : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) متصلة فالفهرس يجمع له متفرقها بسهولة . وقد اشرنا الى اوائل الأعداد في الهامش عند المقالات الافتتاحية وفي أعلى الصفحات كما هو ظاهر

* * *

المنار في سنته الاولى والمنار في سنيه الاخيرة شرَع ، ولو جاز لي أن أضرب له مثلا شرودا يشعر بالمدح ، لقلت «والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل » ، ثم لا فصل بين اوله وآخره ، في موضوعه وغايته ومسائله ، ولكنا كنا نكثر في السنة الاولى من الخطابيات ، لتنبيه الاذهان وإعدادها لما

هوآت، ونكتفي في اكثر المسائل بالاجمال، لتتهيأ النفوس لطلب التفصيل، وقلما جرينا فيها على شيء ثم تبين لنا خطأنا فيه الا ما اشرنا اليه في هوامش هذه الطبعة وا كثره في المسائل السياسية، المتعلقة بحال الدولة العلية، ومن البديهي أننا ازددنا علما وخبرا في جميع المسائل بطول البحث والتمحيص والوقوف على آراء الناس وأحوالهم

قد اقتبسنا أسلوب الاجمال قبل التفصيل، وقرع الاذهان بالخطابيات الصادعة من القرآن الحكيم، فان اكثر السور المكية لاسيما المنزلة في اوائل البعثة قوارع تصخ الجنان، وتصدع الوجدان، وتفزع القلوب الى استشعار الخوف، وتدع العقول الى اطالة الفكر، في الخطبين الغائب والعتيد، والخطرين القريب والبعيد، وهما عذاب الدنيا بالإبادة والاستئصال، او الفتح الذاهب بالاستقلال، وعذاب الآخرة وهو اشد واقوى، وأنكى وأخزى، بكل من هذا وذاك أنذرت السور المكية اولئك المخاطبين اذا أصروا على شركهم، ولم يرجعوا بدعوة الاسلام عن ضلالهم وافكهم، ويأخذوا بتلك الاصول المجملة، التي هي الحنيفية السمحة السهلة، وليست بالشيء الذي ينكره العقل، او يستثقله الطبع، وانما ذلك تقليد الآباء والأجداد، يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد،

راجع تلك السور العزيزة لاسيما قصار المفصل منها كالحاقة ما الحاقة، والقارعة ما القارعة، واذا وقعت الواقعة، واذا الشمس كُوِّرت، واذا السماء انفطرت، واذا السماء انشقت، واذا زُلزلت الارض زلزالها، والذاريات ذرواً، والمرسلات عرفاً، والنازعات غرقاً،

تلك السور التي كانت بنذرها، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها،

تفزعهم من سماع القرآن، حتى يفروا من الداعي (ص) من مكان الى مكان (٧٤: ٥٠ كأنهم حُمُرٌ مستنفرة ٥١ فرّت من قسورة، ١١:٥ ألا إنهم يَثنُونَ صدورهم ليستخفوا منه، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يُسرُّون وما يعلنون) ثم ارجع الى السور المكية الطوال، فلا تجدها تخرج في الأوامر والنواهي عن حد الاجمال، كقوله عز وجل (١٧: ٢٣ وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا) — الى ٣٧ منها، وقوله بعد إباحة الزينة وانكار تحريمها وتحريم الطيبات من الرزق (٧ : ٣٢ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون)

تدبر هذا ثم أجل طرفك في فاتحة المنار الأولى وفي اكثر المقالات الافتتاحية [1] تجدها زواجر منبهة، وبينات في الاصلاح مجملة، ترشد المسلمين الى النظر في سوء حالهم، وتنذرهم الخطر المهدد لهم في استقبالهم، وتذكرهم بما فقدوا من سيادة الدنيا وهداية الدين، وما أضاعوا من مجد آبائهم الاولين، وتزعجهم إلى استرداد ما فقدوا، وايجاد ما لم يجدوا، بطريق الاجمال، في أكثر الاقوال، وما جاء في سائر السنين فهو من قبيل التفصيل، أو اقامة البرهان والدليل، على تلك الدعوة الاجمالية، والمقالات

(١) راجع مقالات القول الفصل ص ٣١ وصيحة حق ص ٢١٧ والمدارس الوطنية ٢٥٦ والى اي تربية وتعليم نحن احوج ٢٧٨ والجيوش الغربية المعنوية في الفتوحات الشرقية ٢٩٩ والعلم والحرب ٣٤١ والسلطتان الروحية والسياسية ٤٠٤ والمقالات المفتتحة بالآيات في ص ٥٨٥ و ٦٠٦ وما يتبعها ومقالات الاصلاح الديني والسياسي وغير ذلك الخ

الافتتاحية ، وترى بهذا كله اقتباس المنار لهدي الكتاب العزيز واتباعه لسنته في الترتيب كاتباعه له في المسائل والاحكام والحمد لله على ذلك

كان لتلك المقالات الخطابية الاجتماعية والفلسفية تأثير عظيم في نفوس القارئين: فمن مبالغ في الاستحسان كأن يطالب بعد الاقلال منها ان نعود اليها ، (١) ومن مبالغ في الاستهجان يقول قد بين عيوبنا وجهلنا للاجانب ويكتبون الينا ان نترك مثلها (٢) ولكن لم يكن يسكت عن الجمهور غضبه علينا ، ويقل خوضه فينا ، حتى رأينا كثيرا من كتاب المسلمين وخطبائهم قد تلوا تلونا ، واحتذوا في انتقاد حال المسلمين حذونا ، حتى صار ذلك في الجرائد مألوفا ، وأصبح منكره عند الاكثرين معروفا ، ولكن معظم كلامهم في الداء ، من غير بيان للعلاج والدواء

اما المنار فكان يصف العلاج لامراض الأمة بالاجمال ، ثم بالتفصيل والاستدلال ، والغرض من كل ذلك اعداد النفوس للعمل العظيم الذي نرجو ان يكون قد قرب زمانه ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو القوي العزيز »

هذا ما اردت بيانه في مقدمة الطبعة الثانية للسنة الأولى ، والله الموفق وبه المستعان . وكتب في رمضان سنة ١٣٢٧

منشيء المنار
محمد رشيد رضا الحسيني

(١) من أعظم هؤلاء قدراً السيد مهدي خان محسن الملك نواب بهادر وناظم مدرسة العلوم في عليكده بالهند (رح) (٢) من أشهر هؤلاء الشيخ أبو الهدى الصيادي والشيخ حسين الجسر (رح)

باب المناظرة والمراسلة

النسخ وأخبار الآحاد

وعدنا في الجزء السابع بأن نبين رأينا في المناظرة التي دارت في المنار بين الدكتور محمد توفيق افندي صدقي والشيخ صالح اليافعي ورجونا أن يكون ذلك في الجزء التاسع (وكتب « السابع » غلطا وصححناه في الجزء الثامن على انه غلط بديهي إذ هو في الجزء السابع) . وقد عرض لنا من كثرة المواد ومن الشواغل ماحال دون تحقق الرجاء بالتفصيل الذي كنا نريده فرأينا ان نقول الآن كلمة مجملة ونرجئ التفصيل المراد الى جزء آخر فتكون كلمتنا هذه كحكم المحكمة بدون ذكر الأسباب التي يسمونها الحيثيات وكلمتنا الموعود بها كبيان حيثيات الحكم فنقول :

النسخ

قد سبق لنا القول بأن النسخ المصطلح عليه الذي هو محل النزاع لم يرد به نص في القرآن ولا في الحديث المرفوع يعلم منه ان آية كذا أو حديث كذا قد نسخ و بطل معناه أو ترك لفظه أو اللفظ والمعنى جميعا وما اورده اليافعي في تفسير « ما ننسخ من آية » ليس نصا ولا ظاهرا فيها بل الظاهر ما قاله الاستاذ الامام وجرى عليه الدكتور صدقي ولكن الاستاذ كان يرى ان الظاهر في قوله تعالى (١٦ : ١٠٠ وإذا بدلنا آية مكان آية) في آيات القرآن خلافا لما قاله الدكتور فيها وهي ليست نصا قاطعا في هذا ولا ذاك وقد ورد في كلام الصحابة والتابعين وأئمة الفقه ما يدل على ان للنسخ الاصطلاحي أصلا ولكنه كما قال اليافعي في بعض المواضع انه أعم من النسخ الذي عليه الأصوليون

وان نسخ حكم في الشريعة بحكم آخر هو كنسخ شريعة بشريعة أخرى معقول المعنى موافق لحكمة التشريع في انطباقها على مصالح الناس التي تختلف

باختلاف الزمان والاحوال لا شبهة فيه على أصل الدين . وان أ كثر ما قاله العلماء في نسخ احكام القرآن بديهي البطلان وما هو محل نظر منها قد جعله السيوطي عشرين وغيره سبعا والصواب انه لا يوجد في القرآن آيتان لا يتفق معنى إحداهما مع معنى الاخرى بحيث يقطع بالتعارض الذي لا يمكن التفصي منه الا بحمل إحداهما على النسخ المعروف عند الاصوليين . أما النسخ بالمعنى الذي يعم التخصيص والتقييد و بيان المجمل فهو واقع في القرآن ونقول به

واما نسخ التلاوة فلم تظهر لنا حكمته ولم يأت اليافعي ولا من قبله من العلماء الذين اطلعنا على أقوالهم بحكمة مقنعة لمن كان مستقلا في فهمه غير مقلد فيه لا سيما نسخ اللفظ مع بقاء حكمه

وأما الدليل على وقوع ذلك فهو بعض الروايات عن الصحابة وهي وان صحح مثل البخاري أسانيدها محل إشكال في متنها كأحاديث أخرى في الصحيحين وغيرها منها نص علماء هذا الشان على عدها مشكلات وعدم الاهتداء الى حل معقول لها إلا الجزم بغلط الرواة فيها كحديث شريك في المعراج عند البخاري وحديث « خلق الله التربة يوم السبت » الذي رفعه مسلم وغيرهما . وسنشير الى غير هذين الحديثين مما هو مشكل في الصحيحين قريبا

أحاديث الآحاد والدين

ان كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من قول أو فعل أو تقرير يتعلق بأمر الدين على انه منه فهو حجة على من ثبت عنده يجب عليه الاذعان لما يدل عليه ، ولا يقال ان شيئا منه خاص بوقت دون وقت أو قوم دون قوم أو شخص دون شخص من المكلفين إلا بدليل يثبت ذلك . فان عارض هذا الحديث بعد ثبوته آية من القرآن أو حديث آخر أو دليل حسي أو عقلي كان الحكم في ذلك لما تقتضيه قواعد التعادل والترجيح والجمع والتأويل وهي معروفة في مواضعها . وقد قال المحدثون إن من علامة كون الحديث موضوعا مخالفته لنص القرآن والمسائل القطعية في الدين واليقينيات الحسية والعقلية ، هذا إذا كان الجمع بينه و بين القطعي أو التأويل متعذرا

ولم يقل احد من سلف الامة وائمة الفقه ان معرفة الدين تتوقف على الاحاطة بجميع ما رواه المحدثون من الاحاديث ولا بأكثرها ولم يكن الائمة الاربعة الذين يتبعهم أكثر المسلمين في الاحكام العملية مطلعين على ذلك كله لا سيما الامام ابو حنيفة الذي لم يرحل في طلب الحديث للقاء الرواة المنتشرين في بلاد الاسلام ولم يكن الحديث مدونا في الاسفار فيأخذه منها. وهو مع ذلك معترف بامامته واجتهاده عند اتباعه وغيرهم من أهل السنة . فما جرى عليه سلف الأمة وخلفها هو أن من بلغه حديث وثبت عنده وجب عليه العمل به ومن خالف بعض الاحاديث لعدم ثبوتها عنده او لعدم العلم بها فهو معذور فالعمدة في الدين كتاب الله تعالى في المرتبة الأولى والسنن العملية المتفق عليها في المرتبة الثانية ، وما ثبت من السنن وأحاديث الآحاد المختلف فيها رواية أو دلالة في الدرجة الثالثة ، ومن عمل بالمتفق عليه كان مسلما ناجيا في الآخرة مقربا عند الله تعالى كما ترى بيان ذلك في ترجمة الامام الغزالي من هذا الجزء

احاديث الآحاد تفيد اليقين ام الظن

ذكرت هذه المسألة كثيرا من مرة في المنار وقد حققنا في تفسير قوله تعالى «٣: ١٧٣» فزادهم ايمانا » ان للظن اطلاقين أحدهما اعتقاد ان هذا الشيء ثابت وأنه يحتمل احتمالا ضعيفا ان لا يكون ثابتا وهذا هو الظن الذي جاء في القرآن انه « لا يغني من الحق شيئا » . ثانيهما اعتقاد ان هذا الشيء ثابت مع عدم ملاحظة الطرف المخالف ولكن من غير برهان على منع الطرف المخالف وهذا قد يسمى في اللغة والشرع يقينا وعلما ولكنه لا يسمى يقينا عند علماء المنطق والكلام والفلسفة لأنهم يطلقون اليقين على مرتبة اعلا من هذه المرتبة في العلم وهي ثبوت الشيء بالبرهان وثبوت امتناع مقابله . وراجع التفصيل في التفسير (ص ٨٩٨ م ١١)

فيعلم مما حققناه ان بعض أخبار الآحاد يفيد العلم واليقين لغة وشرعا وعادة و بعضها لا يفيد ذلك ولكن لا يفيد شيء منها العلم البرهاني واليقين المنطقي . والدكتور توفيق صدقي لا ينكر ان له من الاصحاب من لو أخبره بشيء

يصدقه ويطمئن قلبه بخبره فلا يشك ولا يتردد فيه كما انه يصدق المؤذن في دخول وقت الصلاة والفطر في هذه الايام لا يشك فيه ولا يتريث في العمل به . فهل هو في هذا عامل بالظن الذي ذمه القرآن ؟ لالا . وقد صرح الاستاذ الامام في الدرس بأن الصحابة والتابعين كانوا موقنين بصدق الاحاديث التي عملوا بها عند ماسمعوها ممن رفعها الى النبي (ص) وانه لا يعقل ان يحدث مثل الصديق أحدا عن النبي (ص) ويتردد السامع في صدقه

ولا شك في ان كثيرا من الاحاديث المروية في دواوين المحدثين المشهورة تفيد هذا النوع من العلم واليقين ولا يعقل ان يكون كل ما رواه المسلمون عن النبي (ص) غير موثوق به بل لا يعقل ان تكون أكثر روايات التاريخ التي اتفق عليها المؤرخون كاذبة، فكيف يكون أكثر ما رواه المحدثون واتفقوا على تصحيحه كاذبا وهم أشد تحريا وضبطا من المؤرخين . واحتمال خطإ بعض الرواة العدول ووقوع ذلك من بعضهم لا يمنع الثقة بكل ما يروونه . كما ان مجرد تعديل المحدثين لهم لا يقتضي قبول كل ما رووه بغير بحث ولا تمحيص

فالجامعان الصحيحان للبخاري ومسلم هما أصح كتب الحديث متنا وسندا لشدة تحري الشيخين فيهما (رضي الله عنهما وجزاهما خيرا) ومع هذا لم يتلقهما المحدثون بالقبول تقليدا لهما وثقة مجردة بهما بل بحثوا ومحصوا وجرحوا بعض رواتهما وبينوا غلط بعض متونهما . كتغليط مسلم وغيره لرواية شريك عند البخاري في حديث المعراج ، وتغليطهم لمسلم في حديث خلق الله التربة يوم السبت (وتقدم ذكرها) وفي حديث صلاة الكسوف بثلاث ركوعات وثلاث سجودات . وفي حديث طلب أبي سفيان بعد إسلامه أن يتزوج النبي (ص) أم حبيبة ويتخذ معاوية كاتبا .

ومن دقق النظر في تاريخ رجال الصحيحين ورواية الشيخين عن المجروحين منهم يرى أكثرها في المتابعات التي يراد بها التقوية دون الأصول التي هي العمدة في الاحتجاج . ثم اذا دقق النظر فيما أنكروه عليهما مما صححاه من الاحاديث يجد ان أقوالهما في الغالب أرجح من أقوال المنازعين لهما لا سيما البخاري فانه أدق المحدثين في التصحيح ولكنه ليس معصوما من الغلط والخطإ في الجرح والتعديل

وجملة القول في الصحيحين ان أكثر رواياتهما متفق عليها عند علماء الحديث لا مجال للنزاع في متونها ولا في أسانيدها والقليل منها مختلف فيه وما من امام من أئمة الفقه إلا وهو مخالف لكثير منها . فاذا جاز رد الرواية التي صح سندها في صلاة الكسوف لمخالفتها لما جرى عليه العمل ، وجاز ردّ رواية خلق الله التربة يوم السبت الخ لمخالفتها للآيات الناطقة بخلق السموات والأرض في ستة أيام وللروايات الموافقة لذلك فأولى وأظهر أن يجوز ردّ الروايات التي تتخذ شبهة على القرآن من حيث حفظه وضبطه وعدم ضياع شيء منه (كالروايات في نسخ التلاوة) لا سيما لمن لم يجد لها تخريجا يدفع الشبهة كالدكتور محمد توفيق صدقي وأمثاله كثيرون . ومثلها الرواية في سحر بعض اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم وردها الاستاذ الامام ولم يعجبه شيء مما قالوه في تأويلها لأن نفس النبي (ص) أعلى وأقوى من ان يكون لمن دونه تأثير فيها، ولانها مؤيدة لقول الكفار (٢٥ : ٨ وقال الظالمون ان تتبعون إلا رجلا مسحورا) وهو ما كذبهم الله فيه بقوله بعده (٩ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) .

ومثل هذا وذاك ما خالف الواقع المشاهد كرواية السؤال عن الشمس أين تذهب بعد الغروب والجواب عنه بانها تذهب فتسجد تحت العرش وتستأذن الله تعالى بالطلوع الخ وقد سألنا عنه بعض أهل العلم من تونس ولما نجب عنه لاننا لم نجد جوابا مقنعا للمستقل في الفهم . فالشمس طالعة في كل وقت لا تغيب عن الارض طرفة عين كما هو معلوم بالمشاهدة علما قطعيا لا شبهة فيه . فاذا قلنا انها يصدق عليها مع ذلك انها ساجدة تحت العرش لأنها خاضعة لمشيئة الله تعالى ولان كل مخلوق هو تحت عرش الرحمن — ان لم تكن التحتية فيه حسية لان الجهات أمور نسبية لا حقيقية فهي معنوية — إذا قلنا هذا أو انه تمثيل لخضوعها في طلوعها وغروبها وهو أقرب فهل ينطبق على السؤال والجواب انطباقا ظاهرا لامراء فيه؟ اللهم لا . ولكن هذا النوع من الحديث على ندرته في الصحيح قد يخرج بعضه على انه من باب الرأي في أمور العالم والانبياء لا تتوقف صحة دعوتهم ونبوتهم على العلم بأمور المخلوقات على حقيقتها ولم

يقل أئمة الدين انهم معصومون فيها كما يدل عليه الحديث الصحيح في تأبير النخل ولكن يستثنى الاخبار عن عالم الغيب فهم معصومون فيه

اما الاحاديث المخالفة للقرآن في خبره او معناه او اي نوع من انواع المخالفة الحقيقية فلا يمكن ان تكون صحيحة في الواقع وان وثق المحدثون رجال اسانيدها ولكن يجب التدقيق في ذلك قبل الحكم به فما رآه الدكتور محمد توفيق صدقي من أن تحريم الاكل والشرب في اواني النقدين مخالف لآية اباحة الزينة والطيبات هو في غير محله فان النبي (ص) استنبط ذلك من قوله تعالى في الآية التي قبل آية الزينة (٧:٣١ كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) فالاكل والشرب في اواني النقدين إسراف عظيم لا سيما بالنسبة الى المسلمين في ذلك الزمان

وكذلك تحريم الجمع بين المرأة وعمتها او خالتها أخذه صلى الله عليه وسلم من تحريم الجمع بين الاختين لان العلة فيهما واحدة وكما ان تحريم الخمر التي كانت في زمن التنزيل يتضمن تحريم كل مسكر يستحدثه الناس الى يوم القيامة كذلك يتضمن تحريم الجمع بين الاختين تحريم ما في معناه كالجمع بين العمة و بنت أخيها فقوله تعالى (٤ : ٢٣ واحل لكم ما وراء ذلكم) لا يتناول الجمع بينهما على هذا فالحديث ليس مخالفا له. ولكن الجمهور يعدونه مخصصا للآية وتخصيص السنة للقرآن جائز وواقع فإن سماه بعضهم نسخا فلا نعارضه في التسمية ونحن موافقون له في المعنى

النبي صلى الله عليه وسلم مبين للقرآن بقوله وفعله ويدخل في البيان التفصيل والتخصيص والتقييد ولكن لا يدخل فيه ابطال حكم من احكامه او نقض خبر من اخباره ولذلك كان التحقيق ان السنة لا تنسخ القرآن. ثم انه (ص) شارع بإذن الله ولذلك قال عند ما سئل عن بعض المسائل « لو قلت نعم لوجبت » ومن ذلك انه حرم ما بين لابتي المدينة فجعلها كحرم مكة لا يحل صيدها ولا يقطع شجرها ولا ولا يختلى خلاها والحديث في الصحيحين وغيرهما وليس ناقضا لشيء من القرآن ولا مخالفا له. ومما يدل على انه حرم المدينة من قبل نفسه أي بغير وحي خاص ان العباس قال له « إلا الإذخر» فقال «الا الإذخر» فاستثني الاذخر من قوله لا يختلى خلاها وهو نبات عطر لحاجتهم الى قطعه بمجرد طلب العباس. ولكن هذا النوع من التشريع قليل جدا وهو

مختلف فيه قيل ان الله أعطاه ذلك وقيل لا وليس هذا القول المجمل مما يتسع لتحقيق ذلك

هذا وان للاسلام اصولا ومقاصد لا بد لكل مسلم منها كالتوحيد واركان الايمان وهي الايمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر وهي اعتقادات، واركان الاسلام الخمسة، وهي اعمال بدنية، واركان الأدب التي تجمعها كلمة التقوى واجتناب الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق، وكل ذلك مبين في القرآن والسنة العملية. فهذا ما يجب على كل مسلم ان يعلمه ويعمل به

وأما الاحاديث التي لم يجر عليها عمل جماعة المسلمين والسواد الاعظم من أهل الصدر الأول ولا كتبها الراشدون ولا غيرهم من الصحابة ولا دعوا اليها وانما انفرد بها بعض الذين صرفوا همتهم إلى جمع الروايات وحفظ الاخبار والآثار ففيها تفصيل ملخصه أنه لا يجب على كل مكلف البحث عنها ولكن في معرفتها مزيد علم ومن عرف شيئا منها وصح عنده متنا وسندا بلا معارض أقوى منه وجب عليه ان يقبله ويهتدي به

نكتفي بهذه العجالة الآن بل هي قد جاءت أطول مما كنا نبغي ومتى سنحت الفرصة نعود الى بعض هذه المسائل بالبيان والتفصيل والى غيرها مما دار عليه كلام المتناظرين ما لم يدر عليه مما يتعلق بالمقام ككراهة النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة السؤال لئلا تكثر التكاليف واستلزام ذلك لكراهة ان يعلم جميع الناس بما يجاب به بعض السائلين و يكلفوا العمل به كما كلف السائل ذلك لحاجته اليه، أوعدم استلزامه. وما جرى عليه الصحابة في السكوت على ما يعلمون من ذلك حتى يسئلوا عنه وانفراد الكثيرين منهم بالحديث الواحد وقلة ما رواه الجم الغفير. ولا نضرب لذلك موعدا معينا لئلا نصد عن الوفاء به والله الموفق

الانقلاب العثماني الميمون

لاهور في ١٩ أغسطس سنة ١٩٠٩ م

حضرة العلامة الحكيم السيد محمد رشيد رضا أدام الله فضلكم ونفعنا بعلومكم آمين

أما بعد السلام والاحترام، لا أستطيع ان أفي بحق شكركم على ما أبديتم

من اللطف في نشر مقالتي والرد عليها ردا مسهبا ، وسأنشر ترجمة ردكم هذا في جريدتي تماما ان شاء الله تعالى

ولا أكتب بعد ذلك في هذا الأمر شيئا بقصد استطلاع الآراء ، بل نترك للدهر يقضي كيف يشاء ، فانه خير قاض ، ولكني أرى بنفسي ان الذين هم اليوم اعداء لعبد الحميد مثل شوكت باشا والغازي مختار باشا وغيرهم يحسون عاجلا بضرورة رجوعهم إلى عبد الحميد — ان لم تأخذهم الحمية حمية الجاهلية وسلكوا مسلك الانصاف والسداد —

وأما أمر التحاشي من نشر ردكم الأول فكنت على الصواب فيه لانه صدق ظني حين نشرته جريدة « علي كده انستي تيوت غازت » ، فاستاء منه العالم الاسلامي الهندي أشد الاستياء حتى اضطر محرر هذه الجريدة لتقديم الاستقالة من خدمته في أواخر شهر يونيو الخالي — وساءت سمعة مجلة المنار أيضا — فرأيت ان أدافع عن المجلة ونشرت ردكم في جريدتي مع جوابي الذي أرسلته اليكم بعد التعريب كما نشرتموه في العدد السادس من مجلة المنار الاغر — ولقد أثر ذلك الامر تأثيرا حسنا في تسكين ثائرة نفوس المسلمين الهنديين واطفاء نائرة غيظهم على « المنار »

وليكن في علم حضرتكم ان الجرائد التي وافقت آراءكم من مائة جريدة إسلامية في الهند لا يربو عددها على اثنتين فقط — إحداهما جريدة « علي كدة انستي تيوت غازت » ، والأخرى جريدة « وكيل » (أمرتسر) فما الذي جرى للاولى ؟ هو ان النواب وقار الملك ناظر الكلية الإسلامية في علي كده طلب من المحرر ان يصلح آراءه ويكتب ردا لأقوال مجلة المنار — ولكنه أبى الرد واستقال من وظيفته — وورد أقواله حضرة النواب المشار اليه في الاعداد التالية من الجريدة واضطر الى التسليم بان عبد الحميد هو « عبد الحميد الاعظم » لا محالة — وقد ندمت جريدة « وكيل » أيضا من سلوكها ذلك المسلك الصعب المخالف للرأي العام لمسلمي الهند واعتذرت عما فرط منها —

وظنكم أن آراء جريدة « وطن » موافقة لقرائها وهم عدد قليل في الملايين من مسلمي الهند فليس في محله لان شيوع هذه الجريدة في الاقطار الهندية

واشاعتها أكثر بكثير من جميع الجرائد الاسلامية الهندية ، فان جريدة علي كده جميع اشاعتها خمسمائة في الاسبوع ، وجريدة « وكيل » اشاعتها ألف وخمسمائة — وبقية الجرائد الاسلامية لا تزيد اشاعتها عن الالف البتة — ولكن جريدة « وطن » إشاعتها الآن خمسة آلاف وثلثمائة في كل أسبوع — ولا ريب في ان قراءه لا يكونون أقل من خمسين أو ستين ألف رجل من المسلمين — بل وبما يكونون مائة ألف أو يزيدون — ولا يخفى على حضرتكم ان جريدة « وطن » تجد مشتركين معاونين لها في كل مكان فيه عدد ولو قليل من المسلمين الذين يعلمون لسان « الاردو » مثل إفريقيا الجنوبية والمشرقية — وأمريكا الشمالية والجنوبية — وجزائر غرب الهند — والصين ، وأوستراليا ، وزنجبار ، وتونس ، وطرابلس الغرب ، ونانيجريا ، وملايا ، وسومترا ، وتركستان ، وعرب(؟) ، وبغداد ، وغيرهامن البلاد النائية الاطراف من العالم الاسلامي فان جريدة « وطن » لتصل الى كل هذه البلاد دائما وانكم تعلمون ان وظيفة الجريدة ليست هي هداية قرائها الى جادة الصواب فقط بل انها يجب ان تكون مرآة ترى فيها آراء الامة والقراء جميعا وتكون مظهرة لميلانهم(؟) — واني أقول بكل الثقة ان آراء جريدة « وطن » في هذه المعاملة مطابقة لاراء قرائها وآراء الجمهور من المسلمين ولا عبرة للشواذ —

وأما قولكم بجهل مسلمي الهند بالحقائق في أول الأمر واقتناع منصفهم بعد ماظهر لهم من الحق بواسطة نشر الحقائق في الجرائد التركية والعربية حتى تعجبون من اصراري على ما كنت عليه فالمطلوب من حضرتكم إمعان النظر في مكالمة مراسل جريدة « باونير » الانكليزية (التي تصدر في بلدة إله آباد بالهند) مع محمود شوكت باشا وقد أدرجت هذه المقالة بعددها الصادر في ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٩ فاعترف شوكت باشا بأنه ليس عنده الرجال الاكفاء ذوو سطوة واقتدار حتى يقدر على حفظ السلطنة من التورط في الهلاك والخراب ،

وانا مسلمي الهند مع وقوفنا على كون العهد الحميدي محفوفا بالاخطار ومملوءا من السيئات ، لانلقي تبعة هذه المفاسد على عبد الحميد وحده كما تلقون حضرتكم بل

تنسبها الى جهل الملة وخمولها ونعلم ان عبد الحميد سعى جهد طاقته في تخفيف ذلك الجهل والخمول (!!!)

واني لا ادعي الاولية في كتابة ذم عبد الحميد وعماله على جميع جرائد العالم بل قصدي انه ان اول من كتب بهذه الصراحة في الجرائد الاسلامية الهندية لاغير وهذا صحيح لاريب فيه وقلتم ان الاختلاف في مشروع السكة الحجازية لم يكن من جهة السلطان السابق فاني لا اسلمه لان عندي كتبا خصوصية من اصدقائي في الاستانة وهم يكتبون ان الجرائد التركية حظرت عليهن الحكومة ذكر مشروع سكة بغداد والحجاز وسبب نشر آرائي في جريدة المعلومات العربية هو قلة انتشارها في المملكة العثمانية وان لم انس فاذكر ان الذي كتبوا منهم صديقكم وصديقي السيد عبد الحميد الزهراوي ايضا

والمؤرخون الذين يتحازون الى احد الطرفين لا يعد قولهم صحيحا بل العبرة بما قاله مؤرخة اولي الدراية في الازمنة التالية وكذلك الذين ليس لهم علاقة باحد من الفريقين المتخاصمين وانا كما تعلمون ليس لي واسطة بعبد الحميد ، ولا بتركيا الفتاة بل كل ما أقصده هو خير الدولة العلية وسلامتها حفظها الله ووقاها من جميع الآفات والمهلكات آمين

وعجبت من احتجاجكم باعترافي ان الوسائل الاصلية لترقية المملكة العثمانية لم توجد في عهد عبد الحميد لخ » فاقول لكم بكل ادب ان فيلسوفا مثلكم لا يلزم ان يكون ناسيا الفرق بين الترقية و بين حفظ مركز السلطنة وسد الخلل ومقصودي هو أن عبد الحميد لا يجب ان نأخذه بجريرة اسلافه ونترك ما اصلحه هو ولا نشكره عليه فان العقل لا يسلم لاحد أن لايكون فيه حسنة غير السيئات ولذلك لا يخلو عبد الحميد ايضا من حسنات و يشهد على حسناته ما كتبته جرائد مصر العربية وجرائد اوربا في اكثر الاوقات في اعمدتهن من مدائحه واصلاحات عصره بالصراحة التامة والتاريخ يحفظ ذكرها

واما مدحت باشا فانه عزل من منصب الصدارة في سنه ١٨٢٢ ونفيَ ولكن القوم لم يكترثوا لحالته و بعد ذلك لما عين واليا على عدة ولايات فلم يكن سببه خوف

عبد الحميد منه أو من جماعته بل رأى ذلك السلطان العظيم أن يستفيد من اهلية الرجل وكفاءته في اصلاح شؤون المملكة — وما كان سبب العزل والنفي لمدحت باشا الا قلة مواليه ومشاركيه في حب الدستور (!)

انكرتم علي قولي ان حكم النبي (ص) والصديق والفاروق (رض) وغيرهم من الخلفاء الراشدين كان مطلقا واوجبتم عليّ ان استغفر الله من هفوتي هذه فاعوذ بالله واستغفره من كل ذنب واتوب اليه و بعد ذلك اسألكم ان ضمير « هم » في قوله تعالى (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) هل مرجعه جميع افراد الملة الاسلامية او بعض سراتها وذوي الرأي منها؟ ان كان المقصود منه ذوي الرأي من سادات القوم ووجهائهم فلم تنسون مجلس شورى الدولة الذي كان موجودا في عهد عبد الحميد الى آخر ايامه واعضاؤه من اهل الخبرة والجاه والسياسة وسراة الامة؟ ؟ وان كان الضمير راجعا الى كل فرد من افراد الامة فمتى حصلت الاستشارة لجميعهم وكيف السبيل الى حصولها ايضا ؟

هل كان صلح موقع الحديبية في زمن النبي (ص) وقتال أهل الردة والممتنعين من اداء الصدقات وتزحيف جيش أسامة (رض وعدم مؤاخذة خالد بن الوليد (رض) من اعمال الصديق (رض) كل هذه الامور بمشورة القوم وغير مناقض لآراء الجمهور من الصحابة (رض) ؟ ومتى اظهر المسلمون رضاهم من عزل خالد (رض) حينما عزله الفاروق (رض) لان الجمهور كانوا يحبونه ويفضلون ان يكون هو قائدا عليهم؟ — وان كانت هذه الامور بالاستشارة فالمرجو من كرمكم ان افيدوني باعلامها واذكروا لي اسماء الصحابة الذين استشيروا في تلك الامور

وعلمت اطلاع عبد الحميد على النوايا السيئة للغازي مختار باشا اليه من نشر تقارير الجواسيس في جرائد الاستانة في هذه الايام . وظهر انه كان عالما بسوء نية الرجل وانعامه عليه واكرامه كان بسبب لطفه الطبيعي وحسن سياسته في تأليف قلوب النافرين منه بواسطة المال والاكرام (!)

انكم تقولون إني عاشق لعبد الحميد . ولا اعرف الحقيقة التي عرفتها الارض والسماء من انه كان السفاك المبيح للدماء وقاتل الابرياء وغيره ، فقولكم هذا لا يعتد

به من غير بينة . وان الجرائد التركية مع كونهن تجاوزن حد الآداب في ذم عبد الحميد لم تستطعن ان تثبتن شيئا حقيقيا من التهم الموجهة اليه في أمر افساد الدستور وشركته في الحركة الارتجاعية يوم ١٣ ابريل الماضي . غير الظنون والشكوك فان العاقل لا يعبأ بها . ومن الذي لا يعلم ان جرائد اروبا لم تكن لتقصر في اذاعة سيئات عبد الحميد ومظالمه لو وجدن اليه سبيلا . والحمد لله خابت آمالهن من هذا القبيل ولم تستطع جريدة من جرائد أوربا ان تكتب كلمة واحدة تدل دلالة صريحة على شركة عبد الحميد في الحادثة الارتجاعية ولكنكم تضربون على هذه النغمة عبثا وتحاولون اقناعي بمثل هذه الخزعبلات (!)

ومعصيتي الكبيرة التي جنيتها في زعمكم هي قولي الحق في شأن مولانا السلطان محمد خان الخامس ادام الله ملكه وسلطته « انه كآلة صماء في يد جماعة » وتدعونني الى التوبة من هذه المعصية ولكن ما تقولون في اشاعات جمعية الاتحاد والترقي واقوال شوكت باشا نفسه بانه لم يترك حول جلالته احدا من انصار عهد القديم لا من رجال المعية ولا من الخدم والحشم حتى لم يتركوا حوله من خدامه القدماء احدا . وقد قاله شوكت باشا في مكالمته مع مراسل جريدة باونير المذكور سابقا في هذا المكتوب

وبالجملة فاني أتعجب من شدتكم في أمر عبد الحميد وسبكم له مع كونكم من العلماء الاعلام وحكماء الاسلام . يغفر الله زلتكم هذه ويهديكم سبيل الرشاد لان السب والشتم ليس من شيم الكرام . والسلام

ولا ابغي نشر مكتوبي هذا في المجلة ولا اكلفكم الرد عليه بغير رضاكم لاني علمت من الردين ما قد كفاني . واني عرضت عليكم بعض ما جال في خاطري عند قراءة ردكم . وخفت ان لو اكتب في جوابه شيئا فيطول الكلام لذلك اكتفيت ببعض الامور التي يجب اطلاع قرائكم عليه فان رأيتم من المناسب نشره نشرتموه والا فلا . فاطلب منكم العفو من تكليفكم مرتين كاتبه المخلص

محمد انشاء الله محرر ومدير جريدة « وطن »

بلدة لاهور (بنجاب — الهند)

﴿ جواب المنار ﴾

ان هذه الرسالة تشعر باخلاص صديقنا فيما كتبه أولا وآخرا في مسألة الانقلاب في الدولة لنشره بعض ردنا و وعده بنشر الباقي وهذا هو ظننا فيه الذي بيناه في ردنا عليه من قبل خلافا للجرائد التركية والعربية التي جعلته من صنف (الارتجاعيين) الذين يتبعون الهوى في نصر عبد الحميد حبا في ماله ورتبه واوسمته . وقد اوسعته تلك الجرائد ذماوتوبيخا وتهكما وهي مخطئة في ذلك كما انه هو مخطئ في اجتهاده ، ولذلك لم ننوه بشيء مما كتبوا وان أثنت علينا الجرائد التركية فيه وارسل الينا بعضه من الاستانة معلما عليه بالحبر الازرق . ونقول لأولئك الكتاب ان صاحب جريدة الوطن ربما كان اشد اخلاصا للدولة من اكثر الجرائد العثمانية التي تلعن اليوم الاستبداد وسلطانه ، وتطري الدستور واعوانه ، وسيرون ان شاء الله من محمد انشاء الله خير نصير للدولة الدستورية ، لا سيما بعد الاقتناع القريب بسوء عاقبة السياسة الحميدية ، ثم اننا نجيب مناظرنا عن شبهاته في هذه الرسالة بما يأتي بالاختصار :



(١) ان قراء الجرائد في الهند معذورون في إساءة الظن في المنار لما كتب ما يخالف آراءهم واهواءهم وجرائدهم التي استمدوا منها تلك الآراء والاهواء في السياسة الحميدية . وقد علمت ان اكثر المستائين يظنون اننا كنا نمدح عبد الحميد وسياسته في عهده فلما خلع انقلبنا عليه ذامين قادحين ، وظنهم هذا من الإثم ، والحكم علينا بغير علم ، ولذلك نظن ان قراء المنار لم يتهمونا بمثل ما اتهمنا به غيرهم لأنهم يعلمون اننا لم نكن نحسن الظن في السلطان عبد الحميد بعض الشيء ، ونلتمس له بعض العذر الا في السنة الأولى من سني المنار لأن استبداده لم يكن قد بلغ غايته ولقرب عهدنا يومئذ ببلادنا المحجوبة عنها الحقائق ، والمملوءة بالنفاق والمدح الكاذب ، وقد كان المنار بعد ذلك يتميز غيظا من سوء تلك الحال ، و يشكو منها بالاساليب المختلفة من الأقوال ، ومن أوضحها مقالة (حال المسلمين في العالمين ، ودعوة العلماء الى نصيحة السلاطين)وما يتبعها من المقالات التي نشرناها في المجلد التاسع ودعونا

فيها علماء الاسلام في مصر والهند وتونس الى مطالبة السلطان عبد الحميد بالعدل والإصلاح ، ولولا اننا أنشأنا جمعية سياسية سرية لمجاهدة استبداد عبد الحميد وجعلنا لها جريدة خاصة سميناها باسمها (الشورى العثمانية) وكنا نعزز الجريدة بمنشورات سرية يوزعها عمال مخصوصون في الاستانة والروملي والاناطول بنفقة من الجمعية لما رضينا بذلك التنديد الاجمالي في المنار . وقد نوهنا بذلك في فاتحة هذه السنة

ومن كان في شك من مجاهدتنا لعبد الحميد في عهد استبداده بأشد مما كتبناه في المنار بعد خلعه — وهو نفسه يعلم ذلك ولا يشك فيه — فليطلب منا بعض اعداد جريدة جمعيتنا ليعلم اننا لسنا كأصحاب تلك الجرائد العثمانية التي كانت تسبح اسم عبد الحميد بكرة وأصيلاً راضية أو كارهة ثم صارت تلعنه كذلك . ولو كان المنار كتلك الجرائد وصاحبه كأصحابها لما خربت الحكومة بيت أبيه ، ونكلت بأهله ومحبيه ، ولولا انه مخلص في جهاده الاستبداد الحميدي لما احتمل ذلك العذاب ، والبلاء في الاموال والأنفس والأوقاف ، ورغب عن العطايا والرتب التي عرضت عليه ليكون من المادحين لعبد الحميد . وانا ننشر في هذا الجزء مانشرته الحكومة الحميدية في جريدة بيروت الرسمية من اتهامنا واتهام بعض اخوتنا وأصحابنا بالجناية والأمر بالقبض علينا احياء أو ميتين . ونرجو من صديقنا ان يترجمه وينشره مع هذا الرد في جريدته ليقرأه من لا يعرف العربية من إخواننا مسلمي الهند

(٢) اننا نعجب لظن صديقنا المناظر لنا بعد ان بينا له الحقائق ان مثل مختار باشا وشوكت باشا سيظهر لهما على عداوتهما لعبد الحميد ضرورة الرجوع اليه ! ! يا لله العجب! أيظن صاحبنا أنه أعلم بعبد الحميد منهما وممن على رأيهما من خيار رجال الدولة حتى يظهر لهم انهم هم المخطئون فيكون هو المصيب في غلوه في إطراء عبد الحميد ! ! أيسمح لي صديقي الفاضل ان أسمي هذا الظن غروراً مبينا مع احترامه وحفظ مقامه ! هل أعيد له القول البديهي انهم يعرفون جميع عجره وبجره الخفية والجلية وجميع أعماله السرية والجهرية وصديقنا لا يعرف منها الا بعض الظواهر التي برز أكثرها في غير صورته الحقيقية . وهل تكون حمية مختار باشا على عبد الحميد حمية جاهلية وهو أكبر قواد الدولة الذي بذل دمه مرات كثيرة في سبيلها ؟ وتكون حمية

صاحب جريدة الوطن هي الحمية الصادقة التي يثيرها الانصاف ؟ أي حظ لمختار باشا من عداوة عبد الحميد ؟ ان مرتبه الآن لا يبلغ عشر مرتبه من عبد الحميد وان ولده كان بمحاباة عبد الحميد فريقا من الدرجة الأولى وقد أنزل بعد الدستور الى رتبة أميرألاي ، ومختار باشا راض مسرور من خلع عبد الحميد ، أليس هذا برهانا قاطعا على إخلاصه ؟ فأتنا أيها الصديق ببرهان مثله يثبت انك أشد إخلاصا للدولة وأعلم بمصلحتها منه ؟ ؟ ما كان ينبغي لك ان تعيد مثل هذه الاقوال التي لا يكاد يعقل صدورها من عالم مخلص مثلك إلا بذلك التأويل الذي حملت عليه كلامك من قبل وهو كون اعتقادك حسن حال عبد الحميد صار وجدانا لا يقبل البحث كدين العجائز ، ومنك يرجى السماح والعفو

(٣) اذا كان قولك ذاك عجبا فاعجب منه استدلالك على كونك مصيبا في اصرارك على رأيك في عبد الحميد وحكومة الدستور بقول شوكت باشا انه ليس عنده من الرجال الأكفاء من يكفي لحفظ السلطنة ! ! ان هذا أكبر حجة لنا عليك واظهر مبطل لقولك ان عبد الحميد كان يسعى جهد طاقته في تخفيف الجهل والخمول السائدين في السلطنة . لو كان حقا ما تقول لكانت مدة سلطته كافية لتعميم التربية الملية والتعليم النافع وتخريج رجال لا عداد لهم يصلحون للنهوض بجميع أعباء السلطنة . فان ثلث قرن كاف لتربية ثلاث طبقات أو أجيال من الامة . ولكن عبد الحميد كان والله مفسداً في المملكة عدوا للعلم والتربية نصيرا للجهل والضلالة . وان من البراهين القاطعة على افساده وتخريبه للدولة وإتيانه إياها من قواعدها وآساسها ما قامت به الحكومة الدستورية من تصفية الرتب العسكرية فقد تبين به صدق ما كنا نعلمه بالاجمال ونقوله بالاختصار من ترقية عبد الحميد للضباط والقواد بمحض ارادته محاباة لهم لئلا يسخطوا على هدمه لسائر قواعد السلطنة . فالعسكرية التي احدثت الانقلاب وبيدها زمام الأمر هي التي اختارت إنزال الجم الغفير من قوادها وأمرائها وضباطها عن مراتبهم غيرة على الدولة ومنعا لهذا الخلل الذي يقضي على الدولة اذا هي وقعت في حرب مع دولة قوية منظمة . لقد خلع عبد الحميد والدولة عاجزة عن محاربة البلغار التي هي قطعة منها ولكن حكومة الدستور أمكنتها ان تتلافى الأمر بسرعة حتى

استعدت للطوارئ في اقل من سنة وان كان الاصلاح التام لما افسده عبد الحميد لا يتم الا بسنين ، وناهيك باصلاح الاسطول وتعزيزه وقد ظهر للوجود بعد خفائه

يا سبحان الله ! البلاد بلادنا والمكاتب والمدارس مدارسنا ومكاتبنا بنيت بأموالنا وهي تحت مواقع ابصارنا والمعلمون والمتعلمون فيها اخوتنا وأولادنا ، ونحن الذين نقول ان عبد الحميد ابطل كثيرا منها وجعل بعضها تحت مراقبة الجواسيس ومنع منها باشاراتهم بعض العلوم و بعض الكتب ثم بعض الآلات والمواد التي يتمرن فيها التلاميذ على الاعمال في العلوم الطبيعية ، كما منع اكثر الكتب النافعة في الدين والأدب والتاريخ والتربية وغير ذلك واحرقت حكومته ألوفا كثيرة من هذه الكتب وحملت الناس بضغطها وظلمها على احراق أكثر مما احرقت هي . و بعد هذا كله يقول صاحب جريدة الوطن ان السلطان عبد الحميد كان باذلا جهده في ازالة الجهل واصلاح حال الأمة بالعلم ! . ثم هو يعترف معنا بعد ذلك بأن الامة العثمانية ليس فيها (بعد هذا الجهد في تعليمها بزعمه) أناس قادرون على القيام باعباء الحكومة ! ! كيف يفهم هذا وبم يفسر ؟ ؟ ؟

يعترف صاحب « وطن » بأنه هو وقومه واقفون على ما كان في العهد الحميدي من السيئات ولكنهم لا يلقون عليه التبعة وحده مثلا كما يدعي بل يقولون إن سببها جهل الامة نعم ان جهل الأمة هو الذي مكن مخالبه من مقاتلها ولذلك كان يكره ان تتعلم وينكل بكل من ينبه افكارها والا فليدلونا على ذنب المنار حتى لقي واهله ما لقوا منه ؟ اما عماله واعوانه على الافساد فانهم كانوا على شاكلته

ومن يربط الكلب العقور ببابه   فكل بلاء الناس من رابط الكلب

ولماذا لا تحرق الكتب الآن ولا يحذف بعض المسائل من نسخها الطابعون كما حذفوا طائفة من كتاب المواقف الذي طبع في عهده بالاستانة ومن كتاب شرح المسايرة في العقائد الذي طبع في مصر فجعلت بعض نسخه كاملة صحيحة وهي ما يباع بمصر وسائر بلاد الدنيا ماعدا البلاد العثمانية وأما بقية النسخ التي ترسل إلى الاستانة وغيرها من الولايات العثمانية فقد حذف منها بعض المباحث لئلا يجعل وقودا للنار

(٤) تنازل صديقنا من دعوى ترقية عبد الحميد للسلطنة أو اجتهاده في ترقيتها

في بعض كلامه (وان تناقض مع بعضه الآخر) وجعل حسنته العليا حفظ مركز السلطنة وسد الخلل ونقول ان هذه الدعوى ممنوعة أيضا فان سد الخلل إنما يكون قبل كل شيء باصلاح المالية فالدولة التي ليس عندها مال لا تقدر ان تدفع خطرا داخليا ولا خارجيا وهو قد دمر مالية الدولة تدميرا كما هو بديهي لا يقبل المراء . ثم ان الركن الآخر لحفظ المركز هو العسكرية وقد قلنا آنفا انه اشتغل في آخر عهده بإفسادها وإن تصفية الرتب العسكرية أقوى برهان على ذلك . نعم ان كل ما كان يعمله عبد الحميد في المشكلات الخارجية هو الحيلة والمواربة والتسويف والترضية للدول بعد ذلك والغرض من هذا كله تأخير سقوط الدولة الى ما بعد موته ليبقى طول حياته متمتعا بنعيمها وان كان أكثره وهميا مشوبا بالمنغصات التي لا قبل له بدفعها لأن وسواسه هي مثارها ومعهدها . ولو طال العهد على تلك السياسة الخرقاء التي لم ينل منها بعض ما يريد الا باختلاف الدول وتنازعها لخربت المملكة فقد تداخلت أوربا في ولايات مقدونية وكان ذلك مقدمة لسلخها من الدولة ولولا الدستور الذي أراحنا من سياسته لذهبت تلك الولايات وما ثبتت الاستانة بعدها إلا قليلا . واما مدح الجرائد له فكان بعضه بالثمن وبعضه بسوء الفهم و بعضه بالاكراه

(٥) قال انه لم يثبت ان عبد الحميد هو مدير الفتنة الأخيرة التي خلع بها ، ومع هذا نصفه بسفك الدماء ، ونقول ان هذا وصف قديم له معروف عند الافرنج الذين يسمونه السلطان الأحمر ، وان الحكومة الدستورية قررت عدم محاكمته ولذلك لم تظهر كل ظهر لها من دسائسه في الفتنة وغيرها

(٦) سمى صديقي ماعبت به عبد الحميد في سياسته وإدارته ، وما كتبته من وجه العبرة بخلعه ، سبا وشتما وقال انه ما كان يليق ذلك بمثلي . وهي غفلة من الصديق ، سببها الغلو في حب عبدالحميد ، فان السب عبارة عن ألفاظ بذيئة توجه الى شخص لأجل تحقيره و إهانته فقط . وما ذكرناه في عبد الحميد لم يكن كذلك وانما كان بيانا لحقيقة رجل آذى دولة عظيمة وأمة كبيرة وتنبيها لوجه العبرة في سقوطه فهو من قبيل ما في الكتاب والسنة من ذم فرعون وملائه والعبرة بهلاكهم ، ومن قبيل جرح المحدثين لرواة الحديث، ومن قبيل ما أذن الله به من قول السوء لمن ظلم

ببيان ظلم ظالمه وسوء عمله، وعبد الحميد لم يكن ظالما لي ولا لأهلي فقط بل كان ظالما لنا ولجميع الأمة ما عدا اعوانه على الظلم منها . هذا ما أقوله فيما يتعلق بعبد الحميد وأثبت له حسنة السكة الحجازية وحسنة عدم التعصب لجنسه وكراهته ان يقال ترك وعرب؛ واما المسائل العامة التي أنكرها علينا صديقنا أو سأل عنها فهذا جوابها بالاجمال الذي يسعه المقام نذكره تابعا بالعدد لما قبله

(٧) من البديهي ان الذين تجب استشارتهم في الامور العامة هم اهل الرأي والمكانة في الامة العارفون بمصالحها والمحترم رأيهم عند جمهورها المعبر عنهم في القرآن باولي الامر لا جميع افراد الامة . ولم يكن مجلس شورى الدولة مؤديا في عهد عبد الحميد لوظيفة المشاورة الشرعية ولا أعضاؤه من أهل المكانة في الامة ولا من المعروفين عندها وانما يعرفهم من كان بينه و بينهم صلة جوار أو نسب أو عمل . ذلك مجلس قديم العهد في الدولة وقد أفسده عبد الحميد كما أفسد غيره حتى جعله مستودعا لمن يسترضيهم ممن يخشى اشتغالهم بالسياسة وكان أكثرهم لا عمل لهم ولم يكونوا مرجعا له في الامور العامة ولا مستشارين على ان يكون رأيهم معمولا به قطعا بل كان المجلس ولا يزال ثلاث دوائر احداها للملكية والثانية للتنظيمات والثالثة للمحاكمات يحاكم فيها كبار الموظفين . وكانت الاشارة من اقل رجال المابين او جواسيسه تكفي لإدانة البريء والحكم عليه باشد العقوبة وعفو السلطان فوق حكم هؤلاء كما انه فوق جميع المحاكم الشرعية والنظامية أهذه هي الشورى المطلوبة في القرآن التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل برأي رجالها وان خالف رأيه كما فعل في غزوة أحد التي أنزل عليه فيها (وشاورهم في الامر) ؟ ؟ يا سبحان الله ألهذا الحد وصلتم في الانتصار لعبد الحميد ؟

(٨) ذكر صديقنا عدة شبه على قولنا ان حكومة الاسلام حكومة شورى مقيدة، لا استبداد مطلقة، وان الخلفاء الراشدين، لم يكونوا في احكامهم مستبدين، ونجيب عنها واحدة بعد أخرى :

﴿ الشبهة الأولى ﴾ ان صلح الحديبية لم يفعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم برأي الصحابة بل كانوا له كارهين في أول الامر وانما قبلوه تدينا لا اقتناعا بفائدته كما هو معروف في السير مع انه وقع بعد غزوة أحد التي أمر فيها بالاستشارة . والجواب عنه من وجهين

(الوجه الأول) ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل بعض الاعمال بأمر من الله تعالى فلا يستشير فيها أحداً إذ لا مجال لرأي أحد مع أمر الله تعالى ويجب ان يكون صلح الحديبية من هذا القبيل والا لزم مخالفة النبي (ص) لأمر الله تعالى إياه بمشاورتهم وذلك غير جائز، وقد يدل على ذلك قوله تعالى في الرد على كراهة الصحابة لذلك الصلح « فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريباً » وتسمية ذلك فتحا مبينا في أول السورة أيضا، ولم يعاتبه تعالى عليه كما عاتبه على أخذ الفداء من الاسرى ببدر

(الوجه الثاني) قيل ان المشاورة لم تكن واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم وان أمره الله بها للندب فهو يفعله إذا لم ير غيره أرجح منه . ولا أراك تطيب نفسك للقول بأنه (ص) يخالف الأمر الإلهي وان كان للندب كما تطيب نفسك للقول بأنه فعله بوحي إلهي كما تدل عليه سورة الفتح

﴿ الشبهة الثانية ﴾ بعض اعمال الصدّيق كقتاله لأهل الردة ومانعي الزكاة، وانفاذه لجيش أسامة، وعدم مؤاخذة خالد بن الوليد على قتل مالك بن نويرة والتسري بزوجه . وانا نجيب عنها كلها جوابا عاما ثم نجيب عن كل منها بالتفصيل

اما الاول فهو ان الحكومة المطلقة هي ما كان الامر فيها للحاكم العام في التشريع والتنفيذ والحكومة المقيدة هي ما كان الحاكم العام فيها مقيدا بشريعة ليس هو الواضع لها إما منزلة وإما موضوعة برأي الأمة، وإما بعض احكامها منزل و بعضه موكول الى استنباط أولي الأمر من الامة يضعونه بالمشاورة بينهم — كالشريعة الاسلامية — والتنفيذ في هذه الحكومة لا يحتاج فيه الى الاستشارة متى كان الحكم معروفا عند الحاكم . وكذلك كانت حكومة الراشدين : كانوا اذا وجدوا الحكم في كتاب الله حكموا به او في السنة كذلك فان لم يجدوا جمعوا أهل الرأي من الصحابة واستشاروهم كما روينا ذلك بالاسانيد المتصلة واوردنا بعض ذلك في المنار من قبل

وعلى هذا تجري الحكومات الدستورية الآن في اوربا وغيرها : يحكم الحاكم بالقانون فلا يراجع مجلس النواب في كل قضية وإنما يرجعون اليه في المشكلات وما كان غير منصوص في القانون . وقد كان الحكم الشرعي في المسائل المذكورة معروفا

عند ابي بكر فجاز له ان ينفذها من غير استشارة بل وجب عليه ذلك في اعتقاده

واما التفصيل فقد تأول في قتال مانعي الزكاة حديث « امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله الا الله وان محمدا رسول الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » فانه جعل من حقها ان مانعي الزكاة الهادمين لركن من اركان الاسلام يقاتلون عليه حتى يذعنوا له . وان الفقهاء صرحوا بأن الذين يمنعون شيئا من شعائر الاسلام ولو مسنونا كالاذان يقاتلون عليه . فهو قد تصدى لقتال مانعي الزكاة عملا بحكم مقرر عنده بالنص ولما راجعه عمر في ذلك وذكر الحديث قال له « ألم يقل الا بحقها ؟ فالزكاة من حقها » الخ ما قال وهو مشهور فاقتنع عمر بقوله . وهذه المراجعة تدل على انهم كانوا يعارضون الامام اذا تصدى لشيء لم يظهر لهم دليله الشرعي فيه او ظهر لهم مخالفته فيه للنص الشرعي

والناس يغلطون في هذا المقام فيخلطون بين محاربة المرتدين وهو بنو حنيفة اتباع مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة وبين ما نعي الزكاة وهم غيرهم فمحاربة بني حنيفة كانت باتفاق الصحابة لم يعرض لأحد فيها إشكال ومحاربة مانعي الزكاة عرض فيها الاشكال لعمر فاقنعه ابو بكر

الحديث الذي دار الكلام عليه بين الشيخين مروي في الصحيحين وقد اخرجاه بزيادة هي نص في فهم ابي بكر الذي رجع إليه عمر اذ قال « فوالله ما هو الا ان رأيت الله قد شرح صدر ابي بكر للقتال فعلمت انه الحق » وهذه الزيادة هي « ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » فالحاصل ان أبا بكر عمل بما علم من حديث الرسول في المسألة وذلك مما لا يحتاج فيه الى الاستشارة وقد اقره الصحابة كلهم على ذلك بعد مراجعة عمر واقتناعه

وأما إنفاذ أبي بكر لجيش اسامة فهو ايضا تنفيذ لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وقد اشار عليه بعض الصحابة أن يرد الجيش فلم يفعل وقال « لا أحل راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » فاحتج بأنه منفذ لأمر الرسول (ص) وكانت المصلحة فيما فعل . ومما يدل على انه لم يكن يرى ان له الحق في رد الجيش طلبه من أسامة ان يأذن لعمر في البقاء في المدينه لينتفع المسلمون برأيه ولم يمسك عمر عنده بما له من السلطة العامة لأن سلطته في الامور المنصوصة لا تعدو تنفيذ النص الا ان يظهر له

في اتباع النص ما ينافي المصلحة العامة لامور عرضت تقتضي ذلك فحينئذ يستشير اولي الامر في العمل بما فيه المصلحة كما فعل عمر في الطلاق الثلاث باللفظ الواحد اذ كان على عهد النبي (ص) وابي بكر (رض) يعد طلقة واحدة . فرأى عمر بعد مضي زمن من خلافته اكثار الناس من هذا الطلاق المخالف للسنة ومقصد الشريعة فاستشار الصحابة في انفاذه عليهم عسى ان يتركوه وأنفذه برضاهم والحديث في الصحيح وتقدم الكلام عليه في التفسير وغير التفسير

وأما عدم مؤاخذة ابي بكر لخالد بن الوليد اي مقاصته على قتل مالك بن نويرة فهي لا تدل على ان حكومته كانت مطلقة استبدادية اذ ليس في الشريعة نص يوجب القصاص في مثل تلك الحادثة وهي القتل بالتأول في الحرب بل فيها ما يقتضي عدم القصاص فان خالداً نفسه قتل طائفة من بني جذيمة متأولا فغضب النبي (ص) حتى قال « اللهم إني ابرأ اليك مما صنع خالد » كما في الحديث الصحيح ولكنه لم يقتله ولم يوجب عليه دية . وكذلك قتل اسامة رجلا قال لا إله إلا الله فأنكر النبي (ص) عليه ذلك وقال « يا اسامة أقتلته بعد ما قال لا إله الا الله ؟ » قالها ثلاث مرات كما في الصحيحين ولم يقتله به ولا اوجب عليه قودا ولا دية لانه متأول . وما روي من ان عمر اشار عليه بقتله غاية ما يفيده كما قال ابن تيمية ان المسألة اجتهادية اختلف فيها اجتهاد الشيخين ولم يأت عمر بدليل يوجب على ابي بكر الرجوع الى رأيه . والظاهر ان عدم الدية والقود خاص بما يكون من مثل هذا في ايام الحرب واما من قتل معصوما في أيام السلم متأولا فتأوله قد ينافي التعمد الذي يقتل به ولكنه لا يمنع ايجاب الدية ولا التعزير بحبس او غيره . ولمؤرخي الشيعة وغيرهم اقوال غير صحيحة في مسألة قتل خالد لمالك ومنها تسريه بزوجه من غير اعتداد ولا استبراء وليس لهم في ذلك رواية يحتج بمثلها شرعا ، على ان فقهاء الامة مختلفون في اعتداد مثلها وليس هذا المقام مما يتسع للخوض في ذلك

﴿ الشبهة الثالثة ﴾ عزل الفاروق لخالد من قيادة الجيش في الشام . ونقول إن ذلك حقه وقد بلغه من الاخبار ما أراه ان المصلحة في ذلك . وهذا ما يفعله كل رئيس للعساكر

اوللادارة في الحكومات الدستورية ولا يتبعون في اختيار القواد هوى الجند ورضاه قط بل كثيرا ماتقضي السياسة بابعاد القائد عن الجند الذي يعشقه ويفتتن به لئلا تحدثه نفسه بالخروج به على الحكومة وتأسيس دولة جديدة · ويروى ما يدل على ان هذا هو السبب في عزل عمر له وهوانه لما سأله خالد عن ذلك قال خفت أن يعبدك أهل الشام · الم يكن السبب في سفك نابليون لدماء الملايين من البشر هو افتتان جنوده به حتى انهم عصوا حكومتهم عند ما أمرتهم بمحاربته بعد رجوعه من جزيرة « ألبا » وكانوا عازمين على ذلك فلما اقبل عليهم بوجهه ودعاهم الى قتله خروا امامه خاضعين وله متبعين ؟ ؟

(٩) ومن المسائل العامة التي غلط فيها صديقنا صاحب « وطن » ما ذكره في المؤرخين الذين يعتد بأقوالهم والذين لا يعتد بأقوالهم وتطبيقه ذلك على أقوالنا وأقواله في الانقلاب العثماني· والصواب ان المؤرخ الصادق العدل يعتد بروايته عما رآه واختبره بنفسه، وأما ما يرويه عن غيره فالعبرة فيه بصحة السند ومتى كان الراوي عدلا قبل قوله ولو فيما يؤيد رأيه ومذهبه كما قبل المحدثون من أهل السنة رواية العدول من المعتزلة والخوارج والشيعة · ثم انه ليس ههنا فريقان مختصمان نتعصب نحن لاحدهما على الآخر وانما يظهر التعصب من صديقنا لأنه يفضل الحكومة الحميدية الاستبدادية التي سقطت على الحكومة الدستورية التي قامت ويطري عبد الحميد ويذم خلفه وأعوانه فهذا هو التحيز الى فئة · وقد اتهمته (يني غزته) وغيرها من الجرائد التركية بأنه كان يرجو من عبد الحميد فوق ما ناله من وسام أو نوط وأنه وجد منه كتابة الى المابين يطلب فيها ان يدعى الى احتفال سكة حديد الحجاز ويعطى نفقة سفره الى الحجاز، وهي مطامع في المال والجاه

أما نحن فاننا رأينا ظلم عبد الحميد في أنفسنا وبلادنا وأمتنا ودولتنا: رأينا المالية منهوبة، والارض موظوبة، والاملاك مغصوبة، والمعارف مغضوبة، والكتب ممنوعة، والقضاء آلة سياسية، والإدارة مدبرة الاستبداد، والعسكرية قد سرى اليها الوهن والفساد، والاجانب ينتقصون الارض من اطرافها، ويسري نفوذهم فيها ، فجاهدنا على قدر عجزنا وضعفنا، وجاهد غيرنا من الاحرار كل على قدره، حتى اذا اذن الله بسقوط تلك

الحكومة الحميدية المفسدة ، حمدناه وأظهرنا سرورنا بنصره ، وشكرنا العاملين على الانقلاب مع شكره ، عملا بحديث « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » ولكننا لم نقدس الحكومة الجديدة ولم نتعصب لها في عمل من الاعمال بل نرشدها وننتقدها على خطائها ومنه ما يرى خبره في هذا الجزء عن فتن الشام، وعلى تقصيرها ومنه انها لم تعد الينا شيئا من حقوقنا التي سلبها الاستبداد منا، فلا نقول إننا بلغنا بها أعلى عليين، وانما نقول انها محل الرجاء وكنا مما قبلها يائسين · فهل من العدل ان يقول صديقنا ان كلامنا لا يعتد به لا ننا متحيزون متعصبون ، وان كلامه هو الذي يعتد به لا نه يشهد لنفسه انه أوسع علما وأشد إخلاصا ؟

قلت من قبل انني أحسن الظن فيه وأقول الآن ان ظني فيه لم يتغير وان أصر على مدح عبد الحميد بعد البيان ، كما يحكم عليه الوجدان، ولا أعد ما ذكرته الجرائد التركية قادحا في اخلاصه ، ولكني أوقن بأنه لا يعرف من حال الحكومة الحميدية عشر معشار ما أعرف أنا وأمثالي اذ ليس عنده الا سمعيات قليلة يصدق بعضها ويكذب بعضا بحسب فكره ووجدانه، وأما معلوماتنا فتدخل من ابواب اليقينيات الستة وهي كثيرة جدا · واذا كانت الغيرة على الدولة والاخلاص لها تتعذر الموازنة بينهما في أنفسهما فدلائلهما فينا أقوى من دلائلهما عنده لاننا تحملنا الايذاء والبلاء في أنفسنا وأهلينا وأموالنا وآثرنا ذلك على الاموال والرتب والاوسمة، فهل عنده شيء من مثل هذه الدلائل على حب الدولة والاخلاص لها وهما مما لا ننكرهما عليه؟

(٩) احتج مناظرنا على كلمته الشنيعة في مولانا وخليفتنا السلطان محمد الخامس ايده الله بروح منه بقول جمعية الاتحاد وشوكت باشا انه لم يترك حوله احد من انصار العهد القديم لا من رجال المعية ولا من الخدم والحشم ! ! !

انني على كثرة ما انكرت على صاحبي من اقواله وآرائه وحججه في موضوع مناظرتنا لم ار أغرب من قوله هذا وما كان يخطر في بالي ان يقوله مثله وهو من أهل العلم والسياسة· ان مولانا السلطان محمداً لم تكن له حاشية عظيمة من أهل السياسة الذين يعتمد عليهم فيقال ان إبعاد شوكت باشا أو غيره إياهم عنه واستبدال غيرهم بهم جعله غير قادر على التصرف حتى يصح ان تقال فيه تلك الكلمة المنكرة، وانما كان حوله جواسيس لعبد الحميد ليسوا من أهل السياسة، بل من أهل الفساد والسعاية، ولم يكن يثق بأحد

منهم ، وهو الآن يرى جميع الوكلاء وأركان الدولة ومن شاء من غيرهم ويكاشفهم بما يريد وكذلك كان جميع السلاطين قبل عبد الحميد لا عمل لهم الا بواسطة حكومتهم ولم تكن حاشيتهم إلا حاشية خدمة ولكن عبد الحميد اسس حكومة المابين ليحارب بها الدولة والامة وقد فعل وظفر زمنا ثم كان عاقبة امره خسرا

* * *

﴿ فيل للرد يدخل في باب الاخبار والاراء ﴾

فيما نشر في عدد ٨٦٦ من جريدة بيروت الرسمية التي صدرت في ٢٨ المحرم سنة ١٣٢٤ بالتركية والعربية في اتهامنا بالجناية وجلبنا بالقوة أحياء أو ميتين لمحكمة الجزاء بطرابلس كما هو معنى « اخذ وكرفت » وهو

(طرابلس شام بدايت محكمه سي جزا)

« دائره سندن »

مصره فرار والمنار هذياننامه سنده نشريات خائنانه وملعنتكارانه يه اجتسار ايتمك ماده سندتطولايى مظنون وفرارده بولنان طرابلس شام سنجاغنه تابع قلمون قريه سي اهاليسندن وهذياننامهٔ مذكوره صاحب ومحررى محمد رشيد رضا ايله هذياننامهٔ مذكوره يه دخالت ونشريات ملعنتكارانه يه اشتراك ايلدكلرى ادعاسيله مظنون ومرقوم رشيدك برادرى أولوب موقوف بولنان ابراهيم أدهم وينه مصره فرار وأرباب فساده التحاق ايدن ديكر برادرلرى أحمد حمدى وحسين وصفى ايله طرابلس شاملى عبد القادر مغربينك حركات خائنانه وملعنتكارانه لرندن طولايى أصول محاكمات جزائيه نك مواد مخصوصه سي احكامنه توفيقا طرابلس شام جنايت محكمه سنده محاكه لرى اجرا قلنمق اوزره جزا قانوننامهٔ همايوننك اللى سكزنجى ماده سى موجبنجه بيروت ولايتي هيئت اتهاميه سنجه جنايتله اتهاملرينه قرار ويرلديكندن متهمون مرقومونك هر نره ده كوريلورلر ايسه طوتيلوب محكمهٔ مذكوره توقيفخانه سنه تسليملرى لازم كله جكى بالجمله ضابطهٔ عدليه مأمورلرينك معلومى أولمق أوزره اشبواخذ وكرفت مذكره سنك خلاصه سى بيروت رسمى غزته سنه درج واعلان أولنمق أوزره تنظيم أولندى .

(من دائرة جزاء محكمة البداية)

« في طرابلس الشام »

بما ان محمد رشيد رضا من أهالي قرية القلمون التابعة للواء طرابلس الشام الفار إلى مصر وصاحب ومحرر جريدة المنار الهذيانية والمظنون عليه بالتجاسر على نشر مواد الخيانة والملعنة في الورقة المذكورة وكلا من أخيه ابراهيم أدهم الموقوف والمظنون عليه باشتراكه في تلك النشريات اللعينة وأخويه أحمد حمدي وحسين وصفي وعبد القادر المغربي من أهالي طرابلس الشام الفارين الى مصر أيضا والملتحقين بأرباب الفساد قد اتهمتهم الهيئة الاتهامية في ولاية بيروت بالجناية توفيقا للمادة ٥٨ من قانون الجزاء الهمايوني ليحاكموا في محكمة الجناية في طرابلس الشام توفيقاً لاحكام المواد المخصوصة من أصول المحاكمات الجزائية وذلك بالنظر لحركاتهم الجنائية اللعينة فعلى جميع مأموري ضابطة العدلية ان يلقوا القبض عليهم أينما وجدوا ويسلموهم لمحل توقيف المحكمة المذكورة ولأجل ان يكون ذلك معلوماً عند المأمورين المذكورين جرى تنظيم هذه المذكرة (اخذ وكرفت) لتنشر خلاصتها في جريدة بيروت الرسمية .

﴿ الطبيب محمد إسماعيل الأجيري الهندي ﴾

زارنا في أوائل هذا الشهر المبارك هذا الطبيب فعلمنا منه انه جاء من القدس الشريف وانه جاء في العام الماضي مع أهله الحجاز فادوا الفريضة وأقاموا في مكة المكرمة ثم في المدينة المنورة عدة أشهر ثم سافروا الى القدس فأقاموا فيها مدة ثم عادوا منها في أواخر الشهر الماضي محرمين بالعمرة وسيعودون بعدها الى بمبي وهي موطنهم وبلد اقامتهم . وقد كان هذا الطبيب يعالج جميع المرضى في البلاد المقدسة بغير أجرة ابتغاء مرضاة الله تعالى وقد كتبوا له شهادات في الحرمين ختمها الجم الغفير من العلماء والشرفاء وغيرهم وصدقت عليها الحكومة لا سيما في المدينة المنورة فنسأل الله تعالى ان يجزيه خير الجزاء ويجعله قدوة صالحة للاطباء

وقد علمنا منه انه ماجاء القاهرة الا لاجل زيارتنا فنشكرله ذلك وقد سألناه عن افكار مسلمي الهند في الانقلاب العثماني وهل يصح ما قيل ان اكثرهم يسيئون الظن بالدولة الآن لحسن ظنهم في السلطان عبد الحميد المخلوع . فقال ان في الهند كذا مليونا من المسلمين اكثرهم لا يعرف السياسة ولا يهمهم من امرها شيء قط ولكن الذين يقرؤن الجرائد وقليل ماهم يتبعون رأى جرائدهم في ذلك

كتاب التوسل والوسيلة

طبعنا الآن في هذه الايام كتابا خاصا في مسألة التوسل والوسيلة لشيخ الاسلام وهو الذي نقلنا نموذجا منه في الجزء الثامن ونبذة وجيزة منه في تفسير الجزء السابع، طبعنا اكثره على نفقة السيد محمد حسين نصيف وكيل امارة مكة في جده وطائفة منه على نفقتنا، ليكون سلاحا في أيدي أنصار السنة، يفرون به ضلالة أهل البدعة، وانا ندعو أولياء البدعة المنكرين على شيخ الاسلام (كالشيخ النبهاني) الى قراءته والرد عليه ان استطاعوا وندعو جمهور الامة الذين يحبون السنة ولكن يخفيها عن بعضهم الجاهلون، ويكرهون البدعة ولكن يزينها لأعينهم المبتدعون، أن يقرءوا هذا الكتاب ويوازنوا بينه و بين ما اطلعوا عليه من كتب المبتدعين ثم ليتبعوا ما يرونه موافقا لكتاب ربهم عز وجل، وسنة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، وسيرة سلفهم الصالحين، وأئمتهم المجتهدين،

بين شيخ الاسلام في كتابه هذا معنى الوسيلة في القرآن ومعنى التوسل في لغة الصحابة وعرفهم ومعناه في عرف المتأخرين الذين ادخلوا فيه معنى البدعة، وما هو مشروع منه وما هو مبتدع، وما هو نافع وما هو ضار، وحقق مسألة السؤال ومسألة الدعاء، وما يشرع منها وما لا يشرع مع الدلائل من الكتاب والسنة وأقوال السلف وحكمة التشريع — وبين ما يشرع في زيارة القبور وما يمنع، ومسألة الكرامات وشرطها والخوارق التي ينخدع بها الناس فيعدونها كرامة وما هي كرامة. وتكلم عن الاحاديث الواردة في زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام وفي النهي عن اتخاذه وثنا وعن اتخاذه عيدا وعن اتخاذ المساجد على القبور وحقق مسألة رواية الحديث الضعيف والعمل به في الفضائل والمناقب. وتكلم عن الشفاعة والاستشفاع والاستغاثة والاستعانة بغير الله وبين ما يصح من ذلك وما لا يصح،

ولما كان حديث الاعمى الذي استشفع بالنبي (ص) فشفع له ودعا الله ان يرد عليه بصره فاستجاب دعاءه هو الحديث الوحيد الذي صح سنده في هذا الباب تكلم عنه في عدة ورقات فجمع طرقه و بين جميع رواياته وما صح منها وما لم يصح وحقق ان الصحيح لا يدل الا على ما هو ثابت مشروع من التوسل والاستشفاع بالنبي صلى الله

عليه وسلم في حياته بطلب الدعاء منه وبين في هذا المقام وفي مواضع أخرى أن ما كان يطلب من النبي (ص) في حياته لا يطلب منه بعد موته وان كان حيا عند الله تعالى في عالم الغيب كما أنه لا يطلب منه غير ذلك مما كان يطلب منه في حال حياته كالدعاء والاستسقاء والعلم واستدل على ذلك بعدم طلب الصحابة ذلك عند قبره أو مع البعد عنه و بعدولهم عن التوسل به في الاستسقاء الى التوسل بالعباس وغيره وذكر مسألة الاستسقاء في عدة مواضع واجتهاد الصحابة وما انفرد به بعضهم وخالف الجمهور وكونه خطأ لا يؤخذ به

وتكلم عن مسائل الشياطين واضلالها للناس وتمثلها لهم وخدمتها لهم واشتباه ذلك بالكرامات وكذا عن الاستغاثة والتعوذ بهم والرقية والعزائم باسمائهم وعن وسوستهم وإغوائهم وسلطانهم على غير المؤمنين

وان القارئ ليجد في هذا الكتاب من دقائق التفسير ومعاني الاحاديث وأسرار التشريع ما لا يجده في غير كلام المؤلف من العلماء ويجزم بأن ما انفرد به من البيان والتحقيق فيها هو الحق

مثال ذلك كلامه في الدعاء والسؤال والحلف وكيفياتها والفرق بينها وحكمها وحكمة ما يجوز منها وما لا يجوز ومن ذلك معنى كون الدعاء عبادة فلا يدعى غير الله، والسؤال بالمخلوق وسؤاله والسؤال بما هو سبب للاجابة كالرحم والعمل الذي يقتضي الاجابة والسؤال بما ليس كذلك كالأمور الاجنبية التي ليست أسبابا وكالذوات والاشخاص التي لا دخل لها في السببية، وسؤال الله بحق بعض خلقه وهل لأحد حق عليه أم لا، وبجاه الانبياء وهل الجاه الذي منحه الله لبعضهم يكون سببا لاجابة غيرهم اذا ذكره أم لا، والفرق بين حلفنا وإقسامنا بالمخلوقات وبين إقسامه تعالى بها في القرآن وذكر أنواع هذه الاقسام وحكمتها الخ الخ

وفي الكتاب تكرار لبعض المسائل يذكر المسألة ثم يعيدها بالمناسبة والمصنف يتعمد ذلك لعلمه ان هذه المسائل التي أخطأ فيها كثير من الناس حتى أدى ببعضهم الى الشرك الاصغر أو الاكبر لا تنجلي وتستقر في الاذهان الا بذلك

صفحات الكتاب مئتان وثمنه سبعة قروش صحيحة وأجرة البريد قرش صحيح

﴿ فتن رمضان ، في دمشق الشام ﴾

يقول أحد الدمشقيين العارفين ان لأهل دمشق في كل رمضان فتنة يلهون بها فاذا أوشك الشهر ان ينقضي بغير فتنة حاص محبو الفتن ثم يسعون في اثارة فتنة صغيرة أو كبيرة بقدر الامكان

ونقول ان كبرى فتنهم الرمضانية ثلاث متشابهة في ثلاث : في تدبير أكابر الحشوية المستبدين لها ، وفي جعل مبدأها الانتقام من بعض الأحرار طلاب الاصلاح ، وفي كون الغاية منها التنكيل بجماعة معروفة ذنبها عند أولئك الأكابر انها تكره الاستبداد وأهله ، وتحب الاصلاح وتعمل له

(الفتنة الأولى) هي التي أثاروها على السيد عبد الحميد افندي الزهراوي من بضع سنين لانه ألف رسالته المشهورة (الفقه والتصوف) وكانوا يريدون قتله وقتل من أشرنا اليهم من محبي الاصلاح ولكن الحكومة الحميدية سبقت رعيتها المخلصة الى الانتقام منه وامره مشهور

(الفتنة الثانية) هي التي أثاروها على كاتب هذه السطور في أواخر رمضان السنة الماضية وهي مشهورة ، وقد ضعفت الحكومة الدستورية عن مداركتها بما ربي مثيري الفتن ، ولذلك نشروا بعدها جمعية «ولقان» التي قامت على الدستور ولو نجحت تلك الجمعية في الاستانة لكانت دمشق استانة ثانية لها بتدبير أكابر المجرمين في الباطن وأصاغرهم في الظاهر كالشيخ صالح المغربي والشيخ عبد القادر الخطيب اللذين كانا يقولان اقتلوا هؤلاء الدستوريين أو الوهابية فانهم ٥٠ رجلا.

(الفتنة الثالثة) ما أثاروه في هذا العام على محمد افندي كرد علي صاحب جريدة المقتبس أولا ثم على سائر أعدائهم الذين أشرنا اليهم ، وقد علمنا انهم ألفوا جمعية للانتقام من الاحرار والمصلحين وانهم بدأوا بصاحب المقتبس لانه شدد النكير في جريدته على أعداء الدستور ومثيري فتنة رمضان الماضي فاتهموه أولا بمشايعة جمعية « ولقان » على الدستور ففتشت الحكومة مطبعته وادارته ولم يثبت عليه في التحقيق شيء فعلموا ان هذه التهمة لا تسمع في مثله فاتهموه وسائر الاحرار ومحبي الاصلاح الذين كانوا يضطهدونهم في زمن الاستبداد بالسعي الى « الخلافة العربية » وهي الكلمة التي كانوا هم واضرابهم ينتقمون بها ممن شاؤا في العصر الحميدي

أما كرد علي فرجل كان وما زال يكره الاستبداد وقد أصابه شره ففر الى مصر وكان فيها بعيداً عن السياسة وأهلها وقد دعوناه أكثر من مرة للدخول في جمعية الشورى العثمانية فأبى وهو لا يخلو من غرارة وسذاجة فما هو والله بأهل للسياسة ولذلك يسقط من قلمه وينشر لغيره ما يمكن ان يعده العدوّ شبهة على سوء قصده وما هو بالسيء القصد ، ومن ذلك انه كتب عن بلاغ شيخ الاسلام عبارة فهمها من بعض الناس تشعر بأن الدولة العثمانية ليست دولة خلافة فأخطأ بذلك واعترف بخطأه في اليوم الثاني ولكن الحكومة بادرت الى الحكم عليه بالجناية وبابطال جريدته ومطبعته فجرأ ذلك مثيري الفتن في كل زمن على سائر الاحرار فوثبوا بهم واتهموهم

المتهمون الآن بالخلافة العربية الوهمية هم أخلص المخلصين للدولة والملة في الشام فمنهم أفضل العلماء كالبيطار والقاسمي وأشهر الاحرار كعبد الرحمن بيك اليوسف وكرد علي ومنهم جمعية النهضة السورية وهم احداث لا يعرفون السياسة. فاذا كانت حكومة الدستور تهين أمثال هؤلاء باغراء الرجعيين مثيري الفتن أفلا تكون الحكومة الحميدية خيراً منها وأعدل اذ كانت تعلم انهم أعداؤها ولم ينلهم منها الا المراقبة وتفتيش الكتب؟ اعقلوا أيها الحكام وتبصروا وأقيموا الدستور بالقسط والا كانت العاقبة خطراً على الدولة والامة وقد قال الرسول (ص) « اذا ابتغى الامير الريبة في الناس أفسدهم » رواه أبو داود

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

﴿ مصر — الجمعة سلخ شوال ١٣٢٧ — ١٢ نوفمبر (تشرين الآخر) ١٢٨٥ هـ ١٩٠٩ م ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٠ : ١٢) يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٣ : ١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ

يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ (١٤ف) ، وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ
لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ (١٥ف) ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ
امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا
أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا
أَوْ دَيْنٍ (١٦ف) ، غَيْرَ مُضَارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ *

امر الله تعالى فيما قبل هاتين الآيتين من أوائل السورة باعطاء اليتامى والنساء أموالهم إلا من كان سفيها لا يحسن تثمير المال ولا حفظه فيثمره له الولي ويحفظه له الى ان يرشد ، ونهى عن اكل اموالهم وابطل ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريثهم فناسب بعد هذا ان يبين احكام الميراث وفرائضه فكان بيانه في هاتين الآيتين وآية في آخر السورة فهذه هي الفرائض التي جرى عليها العمل بعد نزولها فبطل بها و بقوله «وأولو الارحام بعضهم اولى ببعض» ما كان من نظام التوارث في الجاهلية وفي اول الاسلام

اما الجاهلية فكانت اسباب الارث عندها ثلاثة (احدها) النسب وهو خاص بالرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون الاعداء ويأخذون الغنائم ليس للضعيفين الطفل والمرأة منه شيء (ثانيها) التبني فقد كان الرجل يتبنى ولد غيره فيرثه ويكون له غير ذلك من احكام الدين الصحيح وقد ابطل الله التبني بآيات من سورة الاحزاب ونفذ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك بذلك العمل الشاق وهو التزوج بمطلقة زيد بن حارثة الذي كان تبناه قبل الاسلام . (ثالثها) الحلف والعهد كان الرجل يقول للرجل : دمي دمك وهدمي هدمك وترثني وارثك وتُطلب بي وأطلب بك . فاذا تعاهدا على ذلك فمات احدهما قبل الآخر كان للحي

ما اشترط من مال الميت . وقيل ان هذا لم يبطل الا بآيات الميراث

واما الاسلام فقد جعل التوارث أولا بالهجرة والمؤاخاة فكان المهاجر يرث المهاجر البعيد ولا يرثه غير المهاجر وان كان قريبا ، وكان النبي (ص) يؤاخي بين الرجلين فيرث احدهما الآخر ، وقد نسخ هذا وذاك واستقر الامر عند جميع المسلمين بعد نزول احكام الفرائض ان اسباب الارث ثلاثة النسب والصهر والولاء . وحكمة ما كان في اول الاسلام ظاهرة فان ذوي القربى والرحم للمسلمين كان اكثرهم مشركين وكان المسلمون لقلتهم وفقرهم محتاجين الى التناصر والتكافل بينهم لاسيما المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وترك ذو المال منهم ماله فيها

وذهب كثير من العلماء الى ان الوصية للوالدين والاقربين قد نسخت أيضا بآيات الميراث ولكنك ترى ان هاتين الآيتين المفصلتين لاحكام الارث قد جعلتا الوصية مقدمة على الارث واكدت ذلك بتكراره عند كل نوع من انواع الفرائض فيها ، وترى ان الوصية للوالدين والاقربين في سورة البقرة مؤكدة تأكيدا ينافي النسخ وتقدم ذلك في سورة البقرة (راجع تفسير ٢ : ١٨٢ كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت . الآيات في ص ١٤٧ — ١٥٢ ج ٢ تفسير)وقد ذكر ذلك الاستاذ الامام في الدرس واعاد ما قاله في تفسير تلك الآية فتركنا اعادته استغناء عنها بالاحالة عليه في محله

اخرج ابن ابي شيبة واحمد وابو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي في سننه وغيرهم من حديث جابر قال جاءت امرأة سعد بن الربيع الى رسول الله (ص) فقالت يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل ابوهما معك في احُد شهيدا وان عمهما اخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تنكحان الا ولهما مال . فقال «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث « يوصيكم الله في اولادكم » الآية فأرسل رسول الله (ص) الى عمهما فقال « أعط ابنتي سعد الثلثين وامهما الثمن وما بقي فهو لك » اخرجوه من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر ، قال الترمذي ولا يعرف الا من حديثه (* قال العلماء وهذه اول تركة قسمت في الاسلام

*) قال الترمذي فيه صدوق تكلم فيه من جهة حفظه ، وروى عن البخاري ان احمد واسحق —

قال الاستاذ الامام: الخطاب في الآية عام موجه الى جميع المكلفين في الأمة لانهم هم الذين يقسمون التركة وينفذون الوصية ولتكافل الأمة في الامور العامة. وقال غيره ان الآية وما بعدها تفصيل للاجمال في قوله «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون» الآية، وقالوا انه يدل على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولا حجة لهم فيها على هذا القول اذ الظاهر انها نزلت هي وما قبلها ومنها تلك الآية المجملة في وقت واحد. وما ذكر في سبب النزول لا يدل على التراخي والتأخير عن وقت الحاجة ويجوز على فرض التأخير والتراخي ان تكون الآية الاولى أبطلت هضم حق المرأة والطفل لما فيه من الظلم والقسوة ولم يكن المسلمون وقت نزولها قد كثروا وكثر اقاربهم منهم واستعدوا بذلك لنسخ اسباب الارث الاولى الموقتة باسباب الارث الدائمة فلما استعدوا لذلك نزل التفصيل بعد غزوة احد كما في رواية جابر

﴿يوصيكم الله﴾ من الإيصاء والاسم الوصية وهي كما فهم من ذوق اللغة واستعمال اهلها في القديم والحديث انها ما تعهد به الى غيرك من العمل في المستقبل القريب او البعيد يقولون يسافر فلان الى بلد كذا واوصيته او وصيته بان يحضر لي معه كذا، ويقولون وصيت المعلم بان يراقب آداب الصبي ويؤدبه على ما يسيء به. ولكنهم لا يقولون في طلب الشيء الحاضر او العمل اوصيت ولا وصيت. وما كنت اظن ان هذا الحرف يحتاج الى تفسير لولا انني رأيت الرازي ينقل عن القفال ان الايصاء بمعنى الايصال يقال وصى يصي من الثلاثي بمعنى وصل يصل وأوصى يوصي بمعنى اوصل يوصل، وان معنى الجملة في الآية يوصلكم الله الى ايفاء حقوق أولادكم بعد موتكم وعن الزجاج ان معناها يفرض عليكم. ثم رجعت الى الراغب فرأيته يقول: الوصية التقدم الى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ من قولهم ارض واصية متصلة النبات. وهذا اظهر من القولين قبله ولكنه لم يرجعني عن فهمي الاول

﴿في اولادكم﴾ اي في شأن أولادكم من بعدكم او ميراثهم وما يستحقونه مما تتركونه

—والحميدي كانوا يحتجون به. وصرح بعضهم بضعفه من جهة جودة الحفظ لا من حيث العدالة فحديثه في مرتبة الحسن و بهذا صرح الذهبي

من اموالكم سواء كانوا ذكورا أم إناثا كبارا أم صغارا، واختلف العلماء في اولاد الاولاد فقالت الشافعية انهم يدخلون في مفهوم الاولاد مجازا لا حقيقة، وقالت الحنفية ان لفظ الاولاد يتناولهم حقيقة اذا لم يكن للميت اولاد من صلبه. ولا خلاف بين المسلمين في قيام اولاد البنين مقام والديهم عند فقدهم وعدم ارثهم مع وجودهم، لان النسب للذكور كما قال الشاعر

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحسن ابن بنته فاطمة (عليهم السلام والرضوان) «ابني هذا سيد» كما في الصحيح مبني على خصوصيته في جعل ذريته من بنته او من صلب علي كما ورد في حديث آخر. واما الخنثى فينظر في علامات الذكورة والأنوثة فيه فأيهما رجح حكم به والمرجع في ذلك للاطباء الثقات العارفين ونقل القرطبي الاجماع على ان الترجيح يعرف بالبول فالعضو الذي يبول منه هو الذي يرجح ذكورته أو أنوثته

﴿للذكر مثل حظ الانثيين﴾ استئناف لبيان الوصية في إرث الاولاد وقدمه لأنه الاهم في بابه كما سيأتي بيانه، اي للذكر منهم مثل نصيب اثنتين من إناثهم اذا كانوا ذكورا وإناثا. قال الاستاذ الامام جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب واختير فيها هذا التعبير للاشعار بابطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء كما تقدم فكأنه جعل ارث الانثى مقررا معروفا وأخبر بأن للذكر مثله مرتين أو جعله هو الاصل في التشريع وجعل ارث الذكر محمولا عليه، يُعرف بالاضافة اليه، ولولا ذلك لقال: للانثى نصف حظ الذكر، واذاً لا يفيد هذا المعنى ولا يلتئم السياق بعده كما ترى، أقول ويؤيد هذا ما تراه في بقية الفرائض من الآيتين من تقديم بيان ما للاناث بالمنطوق الصريح مطلقا او مع مقابلته بما للذكور كما ترى في فرائض الوالدين والاخوات والاخوة وليس عندنا في هاتين الآيتين في الفرائض شيء عن الاستاذ الامام غير بيان هذه النكتة وما تقدم من نكتة الخطاب في مجموع الامة

والحكمة في جعل حظ الذكر كحظ الانثيين هي ان الذكر يحتاج الى الانفاق

على نفسه وعلى زوجه فكان له سهمان واما الانثى فهي تنفق على نفسها فان تزوجت كانت نفقتها على زوجها وبهذا الاعتبار يكون نصيب الانثى من الارث اكثر من نصيب الذكر في بعض الحالات بالنسبة الى نفقاتها

وما ذكره بعض المفسرين في بيان الحكمة من نقص عقولهن وغلبة شهوتهن المفضية الى الانفاق في الوجوه المنكرة فهو قول منكر شنيع وضعف عقولهن لا يقتضي نقص نصيبهن بل ربما يقال انه يقتضي زيادته كضعف ابدانهن لقلة حيلتهن في الكسب وعجزهن عن الكثير منه ولذلك روي عن بعض السلف ان الميراث جاء على خلاف القياس المعقول ، وما ارى الرواية صحيحة كما ان معناها غير صحيح لما علمت من الحكمة التي بيناها . واما مايزعمون من كون شهوتهن اقوى من شهوة الرجال وما بنوه عليه من إفضائه الى كثرة انفاق المال فهو باطل بني على باطل واننا نعلم بالاختبار ان الرجال هم الذين ينفقون الكثير من أموالهم في سبيل إرضاء شهواتهم وقلما نسمع ان امرأة انفقت شيئاً من مالها في مثل ذلك فهن يأخذن ولا يعطين والرجال هم الذين يبذلون لانهم اقوى شهوة واشد ضراوة . نعم ان النساء يملن الى الاسراف في الزينة وهي تستلزم نفقات كثيرة ، والشرع ينهى عن الاسراف فلا تكون احكامه مبنية عليه ، ولكن علم بالاختبار أنهن كثيرا ما يرجحن الاقتصاد اذا كان امر النفقة موكولا اليهن فان كانت من الوالد او الزوج فلا يكاد اسرافهن يقف عند حد ، ولهذا نرى بعض الرجال المقتصدين يكلون أمر النفقه في بيوتهم الى أزواجهم فتقل النفقة ويتوفر منها مالم يكن يتوفر من قبل

قال المفسرون ويدخل في عموم الاولاد من كان منهم كافرا ويخرج بالسنة اذ تبين فيها ان اختلاف الدين مانع من الإرث وهو ما عليه عمل المسلمين من الصدر الأول الى الآن ، وقد يقال ان الكافر لا يدخل في هذا العموم لما علم من أن كفره قطع الصلة بينه و بين والده المؤمن كما علم من سورة هود المكية قال تعالى (١١ : ٤٥ ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين ٤٦ قال يانوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ماليس لك به علم) فقد اخرجه من أهله بكفره على الوجه المشهور في الآية . فالمراد بالاولاد

المؤمنون كما ان المخاطبين بها هم المؤمنون او يقال ان لفظ «أولادكم» من العامّ الذي أريد به الخصوص ابتداء لا من العام الذي خصصته السنة

وقالوا انه يدخل في عمومها القاتل عمدا لأحد ابويه ويخرج بالسنة والاجماع. وأقول ان حرمانه من الارث عقوبة مالية فيجوز ان يثبت بالسنة أو الاجماع ان يعاقب اي مذنب بعقوبة مالية او بدنية كما هو معهود في جميع شرائع الامم اي انه لا مانع منه عقلا ولا قبح فيه ، فمنعه من الميراث هو فرع استحقاقه له فهو لا ينافي القرآن ، واذا قيل انه ليس من باب التخصيص لعمومه لم يكن بعيدا اذ يقال ان له حقه من الارث بنص الآية ثم ان الشريعة عاقبته على قتله لوالده بحرمانه من حقه في تركته ليرتدع امثاله وتسد ذريعة الفساد على الاشرار الطامعين الذين يستعجلون التمتع بما في أيدي والديهم فيقتلونهم لاجل ذلك ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه

ويدخل فيه الرقيق ايضاً والرق مانع من الإرث بالاجماع لان المملوك لا يملك بل كل ما يصل الى يده من المال يكون لسيده وبمالكه فلو أعطيناه من التركة شيئا لكنا معطين ذلك لسيده فيكون السيد هو الوارث بالفعل ، ولما كان الرق عارضا وخلاف الاصل ومرغوبا عنه في الشرع جعل كأنه غير موجود فهو بهذا الاعتبار لا ينافي عموم الآية واطلاقها ولا تعد منافاته للارث خروجا من حكمها

وأما الميراث من النبي صلى الله عليه وسلم فقد قيل انه لا يدخل في عموم الآية لأنه (ص) لا يدخل في العمومات الواردة على لسانه سواء كانت من كلامه أو من كلام الله عزّ وجل المأمور هو بتبليغه ، وقيل انه يدخل فيها وانه استثني من هذا العموم بحديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وفي المسألة خلاف الشيعة وقد فصل القول فيه السيد الآلوسي في روح المعاني فرأينا ان ننقل كلامه فيه بنصه قال :

« واستثني من العموم الميراث من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بناء على القول بدخوله صلى الله تعالى عليه وسلم في العمومات الواردة على لسانه عليه الصلاة والسلام المتناولة له لغة والدليل على الاستثناء قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وأخذ الشيعة بالعموم وعدم الاستثناء وطعنوا بذلك على أبي بكر

الصدّيق رضي الله تعالى عنه حيث لم يورّث الزهراء رضي الله تعالى عنها من تركة أبيها صلى الله تعالى عليه وسلم حتى قالت له بزعمهم : يا ابن أبي قحافة انت ترث أباك وأنا لا أرث أبي أيّ انصاف هذا ! ؟ وقالوا ان الخبر لم يروه غيره و بتسليم انه رواه غيره أيضاً فهو غير متواتر بل آحاد ولا يجوز تخصيص الكتاب بخبر الآحاد بدليل ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رد خبر فاطمة بنت قيس انه لم يجعل لها سكنى ولا نفقة لما كان مخصصا لقوله تعالى « اسكنوهن » فقال كيف نترك كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بقول امرأة ، فلو جاز تخصيص الكتاب بخبر الآحاد لخصص به ولم يرده ولم يجعل كونه خبر امرأة مع مخالفته للكتاب مانعا من قبوله ، وأيضا العام وهو الكتاب قطعي ، والخاص وهو خبر الآحاد ظني فيلزم ترك القطعي بالظني. وقالوا أيضا ان مما يدل على كذب الخبر قوله تعالى (وورث سليمانُ داود) وقوله سبحانه حكاية عن زكريا عليه السلام (هب لي من لدنك وليًّا * يرثني ويرث من آل يعقوب) فان ذلك صريح في أن الانبياء يرثون ويورّثون .

«والجواب ان هذا الخبر قد رواه أيضا حذيفة بن اليمان والزبير بن العوام وأبو الدرداء وأبو هريرة والعباس وعلي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وقد أخرج البخاري عن مالك بن أوس بن الحدثان ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال بمحضر من الصحابة فيهم علي والعباس وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوّام وسعد بن أبي وقاص : أنشدكم بالله الذي باذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لا نورث ما تركناه صدقة »؟ قالوا اللهم نعم ، ثم أقبل على علي والعباس فقال : أنشدكما بالله تعالى هل تعلمان أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد قال ذلك؟ قالا اللهم نعم .

«فالقول بأن الخبر لم يروه الا أبو بكر رضي الله تعالى عنه لا يلتفت اليه وفي كتب الشيعة ما يؤيده فقد روى الكليني في الكافي عن أبي البختري في الكافي عن أبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه أنه قال إن العلماء ورثة الانبياء وذلك ان الانبياء لم يورّثوا درهما ولا ديناراً وانما ورثوا أحاديث فمن

أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظ وافر وكلمة « انما » مفيدة للحصر قطعا باعتراف الشيعة فيعلم ان الانبياء لا يورثون غير العلم والأحاديث وقد ثبت أيضا باجماع أهل السير والتواريخ وعلماء الحديث ان جماعة (١) من المعصومين عند الشيعة والمحفوظين عند أهل السنة عملوا بموجبه فان تركة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما وقعت في أيديهم لم يعطوا منها العباس ولا بنيه ولا الأزواج المطهرات شيئا ولو كان الميراث جاريا في تلك التركة لشاركوهم فيها قطعا

فاذا ثبت من مجموع ما ذكرنا التواتر فحبذا ذلك لأن تخصيص القرآن بالخبر المتواتر جائز اتفاقاً ، وان لم يثبت و بقي الخبر من الآحاد فنقول ان تخصيص القرآن بخبر الآحاد جائز على الصحيح وبجوازه قال الائمة الاربعة ويدل على جوازه ان الصحابة رضي الله تعالى عنهم خصصوا به من غير نكير فكان اجماعا ومنه قوله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلكم) ويدخل فيه نكاح المرأة على عمتها وخالتها فخص بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تنكحوا المرأة على عمتها ولا على خالتها » والشيعة أيضا قد خصصوا عمومات كثيرة من القرآن بخبر الآحاد فانهم لا يورثون الزوجة من العقار ويخصون أكبر أبناء الميت من تركته بالسيف والمصحف والخاتم واللباس بدون بدل كما أشرنا اليه فيما مر و يستندون في ذلك الى آحاد تفردوا بروايتها مع أن عموم الآيات على خلاف ذلك، والاحتجاج على عدم جواز التخصيص بخبر عمر رضى الله تعالى عنه مجاب عنه بأن عمر انما رد خبر ابنة قيس لتردده في صدقها وكذبها ولذلك قال بقول امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت فعلل الرد بالتردد في صدقها وكذبها لا بكونه خبر واحد وكون التخصيص يلزم منه ترك القطعي بالظني مردود بان التخصيص وقع في الدلالة لانه دفع للدلالة في بعض الموارد فلم يلزم ترك القطعي بالظني بل هو ترك للظني بالظني

وما زعموه من دلالة الآيتين اللتين ذكروهما على كذب الخبر في غاية الوهن

«١» كعلي كرم الله تعالى وجهه والحسن والحسين وعلي بن الحسين والحسن بن الحسن رضي الله تعالى عنهم اهـ منه

لأن الوراثة فيهما وراثة العلم والنبوة والكمالات النفسانية لا وراثة العروض والأموال ومما يدل على ان الوراثة في الآية الاولى منهما كذلك ما رواه الكليني عن ابي عبد الله ان سليمان ورث داود وان محمدا ورث سليمان فان وراثة المال بين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وسليمان عليه السلام غير متصورة بوجه وايضا ان داود عليه السلام على ما ذكره اهل التأريخ كان له تسعة عشر ابنا وكلهم كانوا ورثة بالمعنى الذي يزعمه الخصم فلا معنى لتخصيص بعضهم بالذكر دون بعض في وراثة المال لاشتراكهم فيها من غير خصوصية لسليمان عليه السلام بها بخلاف وراثة العلم والنبوة وايضا توصيف سليمان عليه السلام بتلك الوراثة مما لا يوجب كمالا ولا يستدعي امتيازا لان البر والفاجر يرث اباه فاي داع لذكر هذه الوراثة العامة في بيان فضائل هذا النبي ومناقبه عليه السلام ! ؟

«ومما يدل على ان الوراثة في الآية الثانية كذلك ايضا انه لو كان المراد بالوراثة فيها وراثة المال كان الكلام اشبه شيء بالسفسطة لان المراد بآل يعقوب حينئذ ان كان نفسه الشريفة يلزم ان مال يعقوب عليه السلام كان باقيا غير مقسوم الى عهد زكريا وبينهما نحو من الفي سنة وهو كما ترى !! وان كان المراد جميع اولاده يلزم ان يكون يحيي وارثا جميع بني اسرائيل احياء وامواتا وهذا افحش من الاول ، وان كان المراد بعض الاولاد او اريد من يعقوب غير المتبادر وهو ابن اسحق عليهما السلام يقال اي فائدة في وصف هذا الولي عند طلبه من الله تعالى بانه يرث اباه ويرث بعض ذوي قرابته ؟ والابن وارث الاب ومن يقرب منه في جميع الشرائع مع ان هذه الوراثة تفهم من لفظ الولي بلا تكلف وليس المقام مقام تأكيد ، وايضا ليس في الانظار العالية وهم النفوس القدسية التي انقطعت من تعلقات هذا العالم الفاني واتصلت بحظائر القدس الحقاني ميل للمتاع الدنيوي قدر جناح بعوضة حتى يسأل حضرة زكريا عليه السلام ولدا ينتهي اليه ماله ويصل الى يده متاعه ويظهر لفوات ذلك الحزن والخوف فان ذلك يقتضي صريحا كمال المحبة وتعلق القلب بالدنيا وما فيها وذلك بعيد عن ساحته العلية وهمته القدسية ، وايضا لا معنى لخوف زكريا عليه السلام من صرف بني اعمامه ماله بعد موته أما ان كان الصرف في طاعة فظاهر

واما ان كان في معصية فلأن الرجل اذا مات وانتقل المال الى الوارث وصرفه في المعاصي لا مؤاخذة على الميت ولا عتاب على ان دفع هذا الخوف كان متيسرا له بأن يصرفه ويتصدق به في سبيل الله تعالى قبل وفاته ويترك ورثته على اتقى من الراحة واحتمال موت الفجأة وعدم التمكن من ذلك لا ينتهض عند الشيعة لان الانبياء عندهم يعلمون وقت موتهم فما مراد ذلك النبي عليه السلام بالوراثة الا وراثة الكمالات النفسانية والعلم والنبوة المرشحة لمنصب الحبورة فانه عليه السلام خشي من اشرار بني اسرائيل ان يحرفوا الاحكام الآلهية والشرائع الربانية ولا يحفظوا علمه ولا يعملوا به ويكون ذلك سببا للفساد العظيم فطلب الولد ليجري احكام الله تعالى بعده ويروج الشريعة ويكون محط رحل النبوة وذلك موجب لتضاعيف الاجر واتصال الثواب والرغبة في مثله من شأن ذوي النفوس القدسية والقلوب الطاهرة الزكية

« فان قيل الوراثة في وراثة العلم مجاز وفي وراثة المال حقيقة وصرف اللفظ عن الحقيقة الى المجاز لا يجوز بلا ضرورة فما الضرورة هنا ؟ أجيب بأن الضرورة هنا حفظ كلام المعصوم من التكذيب ، وأيضا لانسلم كون الوراثة حقيقة في المال فقط بل صار لغلبة الاستعمال في العرف مختصا بالمال وفي أصل الوضع اطلاقه على وراثة العلم والمال والمنصب صحيح وهذا الاطلاق هو حقيقته اللغوية ، سلمنا انه مجاز ولكن هذا المجاز متعارف ومشهور بحيث يساوي الحقيقة خصوصا في استعمال القرآن المجيد ومن ذلك قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب — و — أورثوا الكتاب) الى غير ما آية

«ومن الشيعة من أورد هنا بحثا وهو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا لم يورث احدا فلمَ أعطيت أزواجه الطاهرات حجراتهن ؟ والجواب ان ذلك مغلطة لان افراز الحجرات للازواج انما كان لاجل كونها مملوكة لهن لامن جهة الميراث بل لان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بنى كل حجرة لواحدة منهن فصارت الهبة مع القبض متحققة وهي موجبة للملك وقد بنى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مثل ذلك لفاطمة رضي الله تعالى عنها وأسامة وسلمه اليهما وكان كل من بيده شيء مما بناه له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتصرف فيه تصرف المالك على عهده عليه الصلاة والسلام ويدل على ما ذكر ما ثبت

باجماع أهل السنة والشيعة ان الامام الحسن رضي الله تعالى عنه لما حضرته الوفاة استأذن من عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها وسألها أن تعطيه موضعا للدفن في جوار جده المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم فانه ان لم تكن الحجرة ملك أم المؤمنين لم يكن للاستئذان والسؤال معنى وفي القرآن نوع اشارة الى كون الازواج المطهرات مالكات لتلك الحجر حيث قال سبحانه (وَقَرن في بيوتكن) فأضاف البيوت اليهن ولم يقل في بيوت الرسول

«ومن أهل السنة من أجاب عن أصل البحث بأن المال بعد وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صار في حكم الوقف على جميع المسلمين فيجوز لخليفة الوقت ان يخص من شاء بما شاء كما خص الصديق جناب الامير رضي الله تعالى عنهما بسيف ودرع و بغلة شهباء تسمى الدلدل مع أن الامير كرم الله وجهه لم يرث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوجه، وقد صح أيضا ان الصديق أعطى الزبير بن العوام ومحمد بن مسلمة بعضا من متروكاته صلى الله تعالى عليه وسلم وانما لم يعط رضي الله عنه فاطمة صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم فدكا مع انها طلبتها إرثا وانحرف مزاج رضاها رضي الله تعالى عنها بالمنع إجماعا وعدلت عن ذلك الى دعوى الهبة وأتت بعلي والحسنين وأم أيمن للشهادة فلم تقم على ساق بزعم الشيعة ولم تمكن لمصلحة دينية ودنيوية رآهما الخليفة اذ ذاك كما ذكره الاسلمي في الترجمة العبقرية والصولة الحيدرية وأطال فيه وتحقيق الكلام في هذا المقام أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه خص آية المواريث بما سمعه من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخبره عليه الصلاة والسلام في حق من سمعه منه بلا واسطة مفيد للعلم اليقيني بلا شبهة والعمل بسماعه واجب عليه سواء سمعه غيره أو لم يسمع

«وقد أجمع أهل الاصول من أهل السنة والشيعة على ان تقسيم الخبر الى المتواتر وغيره بالنسبة الى من لم يشاهدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسمعوا خبره بواسطة الرواة لا في حق من شاهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسمع منه بلا واسطة فخبر «نحن معاشر الانبياء لا نورث» عند أبي بكر قطعي لانه في حقه كالمتواتر بل أعلى كعبا

منه والقطعي يخصص القطعي اتفاقا، ولا تعارض بين هذا الخبر والآيات التي فيها نسبة الوراثة الى الانبياء عليهم السلام لما علمت

«ودعوى الزهراء رضي الله تعالى عنها فدكا بحسب الوراثة لا تدل على كذب الخبر بل على عدم سماعه وهو غير مخل بقدرها ورفعة شأنها ومزيد علمها وكذا اخذ الازواج المطهرات حجراتهن لا يدل على ذلك لما مر وحلا، وعدولها الى دعوى الهبة غير متحقق عندنا بل المتحقق دعوى الارث ولئن سلمنا انه وقع منها دعوى الهبه فلا نسلم انها أتت بأولئك الاطهار شهودا وذلك لان المجمع عليه ان الهبة لا تتم الا بالقبض ولم تكن فدك في قبضة الزهراء رضي الله تعالى عنها في وقت فلم تكن الحاجة ماسّة لطلب الشهود، ولئن سلمنا ان أولئك الاطهار شهدوا فلا نسلم ان الصديق ردّ شهادتهم بل لم يقض بها، وفرق بين عدم القضاء هنا والردفان الثاني عبارة عن عدم القبول لتهمة كذب مثلا والاول عبارة عن عدم الامضاء لفقد بعض الشروط المعتبر بعد العدالة وانحراف مزاج رضا الزهراء كان من مقتضيات البشرية وقد غضب موسى عليه السلام على اخيه الاكبر هارون حتى اخذ بلحيته ورأسه ولم ينقص ذلك من قدر بهما شيئا على ان ابا بكر استرضاها رضي الله تعالى عنها مستشفعا اليها بعلي كرم الله تعالى وجهه فرضيت عنه كما في مدارج النبوة وكتاب الوفاء وشرح المشكاة للدهلوي وغيرها

«وفي محاج السالكين وغيره من كتب الامامية المعتبرة ما يؤيد هذا الفصل حيث رووا أن ابا بكر لما رأى فاطمة رضي الله تعالى عنها انقضبت عنه وهجرته ولم تتكلم بعد ذلك في أمر فدك كبر ذلك عنده فاراد استرضاءها فأتاها فقال صدقت يا بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ادعيت ولكن رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقسمها فيعطي الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد ان يؤتي منها قوتكم فما انتم صانعون بها؟ فقالت أفعل فيها كما كان ابي صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل فيها فقال لك الله تعالى أن أفعل فيها ما كان يفعل ابوك؟ فقالت والله لتفعلنّ! فقال والله لأفعلنّ ذلك فقالت اللهم اشهد ورضيت بذلك واخذت العهد عليه فكان

أبو بكر يعطيهم منها قوتهم ويقسم الباقي بين الفقراء والمساكين وابن السبيل

وبقي الكلام في سبب عدم تمكينها رضي الله تعالى عنها من التصرف فيها وقد كان دفع الالتباس وسدّ باب الطلب المنجر الى كسر كثير من القلوب او تضييق الأمر على المسلمين وقد ورد « المؤمن اذا ابتلي ببليتين اختار اهونهما » على ان رضا الزهراء رضي الله تعالى عنها بعد على الصديق سدّ باب الطعن عليه اصاب في المنع ام لم يصب وسبحان الموفق للصواب والعاصم انبياءه عن الخطأ في فصل الخطاب » اه

﴿ فإن كنّ نساء ﴾ أي فان كان الأولاد — وأنث الضمير باعتبار الخبر — وقيل المولودات أو الوارثات نساء ليس معهن ذكر ﴿ فوق اثنتين ﴾ أي زائدات على اثنتين مهما بلغ عددهن ﴿ فلهن ثلثا ما ترك ﴾ والدهن المتوفى أو والدتهن ﴿ وان كانت ﴾ المولودة أو الوارثة امرأة ﴿ واحدة ﴾ ونصب « واحدة » هو قراءة الجمهور وقرأها نافع بالرفع على ان كان تامة أي فان وُجدت امرأةٌ واحدة ليس معها أخ ولا أخت ، ﴿ فلها النصف ﴾ مما ترك ، والباقي لسائر الورثة يعرف حق كل منهم من محله

هذا ما ذكره تعالى في إرث الأولاد وهم أقرب الطبقات الى الميت وقد فصل فيه فروض الإناث منهم وهو أنهن إذا كن مع الذكور كان للذكر مثل حظ الانثيين منهن فاذا كانا ذكرا وأنثى مثلا أخذ الذكر الثلثين والأنثى الثلث واذا كانوا ذكرا وأنثيين أخذ الذكر النصف والأنثيان النصف الآخر لكل منهما نصفه وهو ربع التركة وعلى هذا القياس . واذا كن منفردات بالإرث كان الحكم فيهن ما ذكره وهو النصف للواحدة والثلثان للجمع وسكت عن الثنتين فاختلف فيهما فروي عن ابن عباس ان لهما النصف كالواحدة ، والجمهور على ان لهما الثلثين كالجمع وعليه العمل من عهد النبي (ص) كما في حديث جابر الذي تقدم واستدلوا له بوجوه أظهرها اثنان (أحدهما) ما قاله أبو مسلم من أنه يستفاد من قوله تعالى « للذكر مثل حظ الانثيين » وذلك أن الذكر مع الانثى الواحدة يرث الثلثين فيكون الثلثان هما حظ الانثيين ، فهو يرى ان حكمها مأخوذ من منطوق الآية ويدل له

عطف حكم الجمع منهن وما يتلوه من حكم الواحدة بالفاء (وثانيهما) القياس على الاخوات فانه ذكر حكمهن في آخر السورة ومنه قوله « فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك » وأقول يمكن ان يؤخذ ذلك من مجموع الكلام على ارث البنات هنا والاخوات في آخر السورة بطريق آخر فقد ترك هناك حكم الجمع من الاخوات كما ترك هنا حكم الاثنتين من البنات فيؤخذ من كل من الآيتين حكم المتروك من الأخرى فهو من قبيل الاحتباك . وسنعيد بيانه في حجب الاخوة للام ولست أرضي قول من قال ان كلمة « فوق » زائدة ولا قول من قال ان المعنى اثنتين ففوق

وقد علم من هذا التفصيل في الاناث ان البنات لا يستغرق فرضهن التركة وفهم منه ان الولد الذكر إذا انفرد يأخذ التركة كلها واذا كان معه أخٌ له فأكثر كانت التركة بينهما أو بينهم بالمساواة . ثم انتقل من حكم الاولاد إلى حكم الوالدين ، وهم في المرتبة الثانية من مستحقي الاقربين الذين يتصلون بالميت بغير واسطة فقال :

﴿ ولأبويه ﴾ أي أبوي الميت وهو معلوم من السياق لا يتوقف الذهن في ذلك

﴿ لكل واحد منهما السدس مما ترك ﴾ فهما سواء في هذه الفريضة لا يتفاضلان فيها كما يتفاضل الذكور والأناث من الاولاد والاخوات والأزواج وذلك لعظم مقام الأم بحيث تساوي الأب بالنسبة إلى ولدهما وانما كانا يتفاضلان في الزوجية وغيرها .

وهذا ﴿ ان كان له ولد ﴾ أي ان كان للميت ولد واحد فأكثر وما زاد عن الثلث الذي يتقاسمه الوالدان يكون لأولاده على التفصيل المتقدم فيهم ﴿ فان لم يكن له ولد ﴾ مما لاولد صلب ولا ولد ابن او ابن ابن الخ ﴿ وورثه أبواه ﴾ فقط ﴿ فلأمه الثلث ﴾ مما ترك والباقي للاب كما هو معلوم من انحصار الإرث فيهما . وهنا يدخل الابوان في قاعدة للذكر مثل حظ الانثيين كلٌّ في طبقته ، وانما تساويا مع وجود الاولاد ليكون احترامهم لهما على السواء على ان الأب لا يفضل الام هنا بالفرضية بل له السدس فرضا ويأخذ الباقي بالتعصيب اذ لا عصبة هنا سواه . وانما كان حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الاولاد مع عظم حقهما على الولد لأنهما يكونان في الغالب

أقل حاجة من الاولاد إما لكبرهما وقلة ما بقي من عمرهما و إما لاستقلالهما وتمولهما وإما لوجود من تجب عليه نفقتهما من اولادهما الاحياء ، واما الاولاد فإما ان يكونوا صغارا لا يقدرون على الكسب واما ان يكونوا على كبرهم محتاجين الى نفقة الزواج وتربية الاطفال فلهذا وذاك كان حظهم من الارث اكثر من حظ الوالدين

﴿ فان كان له اخوة ﴾ أي الميت مع ارث أبويه له ﴿ فلأمه السدس ﴾ مما ترك سواء كان الاخوة ذكوراً أو إناثا من الأبوين أو من أحدهما كل جمع منهم يحجب الأم من الثلث إلى السدس ولا يحجبها الواحد . واختلفوا في الاخوين أو الاختين فأكثر الصحابة على انهما كالجمع في حجب الأم من الثلث الى السدس وعليه العمل من الصدر الأول ، وخالف فيه ابن عباس فقد روي انه قال لعثمان بم صار الأخوان يردان الأم من الثلث إلى السدس و إنما قال الله تعالى « فان كان له أخوة » والاخوان في لسان قومك ليسا بأخوة ؟ فقال عثمان لا أستطيع ان أرد قضاء قضى به من قبلي ومضى في الامصار . فقول ابن عباس ان الاثنين لا يعدان جمعاً و إجازة عثمان له حجة على أن أقل الجمع ثلاثة وهو المختار عند جمهور علماء الاصول وقال بعضهم ان أقله اثنان وهو مذهب أبي بكر الباقلاني واحتجوا له بقوله تعالى « فقد صغت قلوبكما » وليس للمخاطبتين بهذا الاقلبان . وهو احتجاج ضعيف فالعرب انما تجمع المثنى إذا أضافته الى ضميره كراهة الجمع بين تثنيتين . واحتجوا بحديث « الاثنان فما فوقهما جماعة » وهو حديث ضعيف رواه ابن ماجه والدارقطني والحاكم من حديث أبي موسى ويقويه حديث أبي أمامة عند أحمد « هذان جماعة » وما أورده البخاري في معناه ولكن الكلام في هذه الاحاديث ليس في الجمع اللغوي وانما هو في أقل ما تحصل به فضيلة صلاة الجماعة وهو إمام ومأموم . واحتجوا بقوله تعالى « فان كن نساء فوق اثنتين » فوصف النساء بالزيادة على اثنتين يفيد ان لفظ النساء يطلق على الاثنتين ، وهو كما ترى ليس بقوي ولو كان القرآن يدل على ذلك لما قال ابن عباس ما قال ووافقه عليه عثمان . جرى على ذلك جمهور الاصوليين فقالوا إن صيغة الجمع وحقيقته في الثلاثة فما فوق فان استعملت في الاثنين كانت مجازا

إذاً ما هو دليل الجمهور على حجب الام بالاخوين و بالاختين وهو ما قضى به النبي (ص) والخلفاء الراشدون (رض) وليس ابن عباس بأعلم منهم ولا أدق فهما في القرآن؟ الظاهر لنا ان اللغة إذا لم تدل في أصلها على دخول الاثنين في اطلاق صيغة الجمع ولو على قلة بمثل ما ذكرناه آنفا من الشواهد فلنا ان نقول إن الشرع قد جعل للاثنين حكم الجمع في صلاة الجماعة والارث إذ جعل للاختين والبنتين الثلثين كالجمع من البنات والاخوات إذا لم يكن هنالك ذكر كما تقدم آنفا ، واذا جاز لنا ان نقول ان البنتين المسكوت عنهما كالاختين المنصوص عليهما ، والاخوات المسكوت عنهن كالبنات المنصوص عليهن ، لانه تعالى بيَّن في احكام كل منهما ما حذف نظيره من مقابله وحذف من كل منهما ما بين نظيره في الآخر على طريقة الاحتباك كقوله (٧٢: ٢٠ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) أي لا ضرا ولا نفعا ولا رشدا ولا إغواء ، وقوله (٧٦: ١٢ لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) أي شمسا ولا قمراً ولا حرا ولا زمهريرا — إذا جاز لنا هذا وعددناه من منطوق القرآن أو مفهومه أفلا يجوز لنا ان نقول ان الاخوين والاختين لهما حكم الاخوة والاخوات في حجب الام أيضا لانه تقرر عدم الفصل في هذا المقام بين المثنى والجمع ؟ بلى وبهذا عمل النبي والخلفاء الراشدون ومن بعدهم ، لخلاف ابن عباس رضي الله عنه بناء على ظاهر استعمال اللغة لا ينافي هذا الاصطلاح الشرعي واللغة على وضعها ولا مشاحة في الاصطلاح

ولكن له ههنا رأيا آخر يخالف فيه الجمهور ، ربما كان أقرب مما قالوا الى المعقول ، وهو ان الاخوة الذين يحجبون الأم من الثلث الى السدس يأخذون السدس الذي حجبوها عنه وما بقي يكون للاب . فهو يرى انه لا معنى لحجبهم إياها الا أخذهم لما نقص من فرضها وهو المعهود في سائر مسائل الحجب فان من لا يرث لا يحجب ، ولا يعقل ان يكون وجودهم سببا لزيادة نصيب الاب فقط وأما الجمهور فيقولون إن الآية بينت انهم يحجبون وليس فيها انهم يأخذون شيئا فيكون ما بقي وهو خمسة أسداس كله للاب سدس منه بالفرض لان فرضه كفرضها والباقي بالتعصيب فقول الجمهود

هنا أقرب الى لفظ القرآن وقولهم السابق أقرب الى معناه وقول ابن عباس بالعكس في الموضعين

ذكرت الآية حكم الابوين مع الولد وحكمهما منفردين ليس معهما وارث آخر وحكمهما مع الاخوة وبقي حكمهما مع الزوج وان شئت فقل أحد الزوجين وفي هذه المسألة خلاف بين جمهور الصحابة وابن عباس (رض) فالجمهور على ان الزوج يأخذ نصيبه وهو النصف ان كان رجلا والربع ان كان انثى ويكون الباقي للابوين ثلثه للام وباقيه للأب . وقال ابن عباس يأخذ الزوج نصيبه وتأخذ الام الثلث أي ثلث التركة كلها ويأخذ الاب مابقي . وقال لاأجد في كتاب الله ثلث الباقي . وفي المسألة صورتان أوهما مسألتان ويسميهما الفرضيون بالعمريتين وبالغراوين وبالغريبتين (احداهما) زوجة وأبوان للزوجة الربع وهو ٣ من ١٢ وللأم ثلث الباقي عند الجمهور وهو ٣ وللأب الباقي وهو ستة فيجري حظ الابوين على قاعدة للذكر مثل حظ الانثيين . وللأم ثلث الاصل على رأي ابن عباس وهو ٤ من ١٢ وللأب الباقي وهو ٥ فلا يجري على القاعدة (والثانية) زوج وأبوان للزوج النصف ٦ من ١٢ وللأم ثلث الباقي عند الجمهور ٢ من ١٢ وللأب الباقي ٤ على القاعدة . واما على رأي ابن عباس فللأم ثلث الاصل وهو ٤ من ١٢ وللاب الباقي وهو اثنان فيكون على عكس القاعدة إذ يكون للانثى مثل حظ الذكرين . فرأي الجمهور هو الموافق للقرآن في القاعدة التي تقررت في كل من الاولاد والاخوة وفي الوالدين مع الاخوة كما تقدم وفي الزوجين كما في الآية التالية ، وابن عباس وافق ظاهر اللفظ فقط

ومن الاعتبار في هذا ان حقوق الزوجية مقدمة في الإرث على حقوق الوالدين فان الوالدين إنما يتقاسمان ما يبقى بعد أخذ الزوج حصته قال بعضهم في توجيه هذا ان الزوجين لما كانا يتوارثان بالزوجية العارضة لا بالقرابة كان فرضهما من قبيل الوصية له التقديم ويؤخذ من أصل التركة ويقسم الباقي بين الوالدين الوارثين بالقرابة . ونقول لو كان كذلك لاطرد تقديم فرض الزوج مع الاولاد والاخوة فقدم كالوصية وقسم الباقي بين الاولاد أو الاخوة وليس الامر كذلك وانما وجهه عندي ان حق الأزواج في الاموال والنفقات آكد من حق الوالدين وان كانا

أشرف وأجدر من الزوج بالاحترام . ذلك ان الوالدين يكونان عند زواج الولد عريقين في الاستقلال بأنفسهما في المعيشة من جهة وأقل حاجة الى المال من الاولاد وأزواجهم الذين اواللواتي في سنهم غالبا لانصرام أكثر اعمارهما ولانهما إذا احتاجا الى مال الاولاد كان ذلك على مجموع أولادهما ، واما الزوجان فانهما يعيشان مجتمعين كل منهما متمم لوجود الآخر حتى كأنه نصف ماهيته ويكون ذلك بانفصال كل منهما عن والديه لاتصاله بالآخر فبهذا كانت حقوق المعيشة بينهما آكد ولهذا تقرر في الشريعة ان يكون حق المرأة على الرجل في النفقة هو الحق الاول فاذا لم يجد إلا رغيفين وسد رمقه بأحدهما وجب عليه ان يجعل الثاني لامرأته لا لاحد أبويه ولا لغيرهما من أقاربه . فصلة الزوجية أشد وأقوى صلة حيوية اجتماعية حتى ان صلة البنوة فرع منها وان كان حق الاولاد أقوى من جهة أخرى كما تقدم

ثم قال تعالى ﴿ من بعد وصية ﴾ أي يوصيكم الله ويعهد اليكم أيها المؤمنون بأن للاولاد من يموت منكم كذا ولابويه كذا من بعد وصية ﴿ يوصى بها ﴾ أي يقع الايصاء بها من الميت . هكذا قرأ ابن عامر وابن كثير وأبو بكر عن عاصم «يوصى» بفتح الصاد مبنيا للمفعول مخففا وقرأه الباقون «يوصي» بكسر الصاد بالبناء للفاعل . ووصف الوصية بأنها يوصى بها لتأكيد أمرها والتحقق من نسبتها الى الميت لأن الحقوق يجب التثبت فيها . هذا ما تبادر الى فهمي وقيل ان فائدة الوصف الترغيب في الوصية والندب اليها وقيل فائدته التعميم ﴿ أو دين ﴾ أي ومن بعد دين يتركه عليه . وقدمت الوصية على الدين في الذكر لانها شبيهة بالميراث شاقة على الورثة وان كان الدين مقدما عليها في الوفاء فهو أول مايجب في التركة ويليه الوصية فهي مما فضل عن الدين وما بقي بعد ادائها هو الذي يقسم على الوارثين . وعطف الدين على الوصية بأو دون الواو للايذان بانهما متساويان في الوجوب متقدمان على القسمة مجموعين أو مفردين

﴿ آباؤكم وابناؤكم لا تدرون ايهم اقرب لكم نفعا ﴾ جاءت هذه الجملة بين بيان ما فرض الله للاولاد والوالدين من تركة الميت وما اشترط فيه من كونه فاضلاعن

الوصية والدين وبين قوله ﴿ فريضة من الله ﴾ اي فرض ماذكر من الاحكام فريضة من الله لاهوادة في وجوب العمل بها . ومعنى هذه الجملة المعترضة انكم لا تدرون أي الفريقين أقرب نفعا لكم أآباؤكم أم ابناؤكم فلا تتبعوا في قسمة تركة الميت ما كانت عليه الجاهلية من اعطائها للاقوياء الذين يحاربون الاعداء، وحرمان الاطفال والنساء لانهم من الضعفاء ، بل اتبعوا ما امركم الله به فهو أعلم منكم بما هو اقرب نفعا لكم، مما تقوم به في الدنيا مصالحكم ، وتعظم به في الآخرة اجوركم

وذهب بعضهم الى ان الجملة متعلقة بالوصية اي لا تدرون اي آبائكم وابنائكم اقرب لكم نفعا أمن يوصي ببعض ماله فيمهد لكم طريق المثوبة في الآخرة بامضاء وصيته وذلك من اعمال البر تباشرونه فتكونون جديرين بأن تفعلوا مثله والخير داعية الخير ؟ أم من لم يوص بشيء فيوفر لكم عرض الدنيا ؟ بل الله اعلم بذلك منكم فعليكم ان تمتثلوا امره ، وتقفوا عند حدوده، ولا تتبرموا بامضاء الوصية وان كثرت، ولا تذكروا الموصي الا بالخير ﴿ ان الله كان عليما حكيما ﴾ فهو لعلمه المحيط بشؤونكم ولحكمته البالغة التي يقدر بها الاشياء قدرها ، ويضعها في مواضعها اللائقة بها ، لا يشرع لكم من الاحكام الا ما فيه المصلحة والمنفعة لكم ، اذ لا يخفى عليه شيء من وجوه المصالح والمنافع، وهو منزه عن الغرض والهوى اللذين من شأنهما ان يمنعا من وضع الشيء في موضعه ، واعطاء الحق لمستحقه ،

لما فرغ من بيان فرائض عمود النسب في القرابة وهو الاولاد والوالدون وقدم الاهم منهما من حيث الحاجة الى المال المتروك وهم الاولاد دون الاشرف وهم الوالدون — بين فرائض الزوجين وهما في المرتبة الثانية لانهما سبب لحصول الاولاد والسبب انما يقصد لاجل غيره والمسبب هو المقصود لذاته وهذا لا يعارض ما قلناه آنفا في قوة رابطة الزوجية فالوجوه في التفاضل تختلف باختلاف الاعتبارات . قال عزوجل ﴿ ولكم نصف ما ترك ازواجكم ﴾ اللواتي تحققت بهن الزوجية بأكمل معناها بالدخول بهن ﴿ ان لم يكن لهن ولد ﴾ منكم أو من غيركم ذكرا كان او انثى

واحدا كان او اكثر من بطنها مباشرة او من صلب بنيها او بني بنيها فنازلا والباقي لأولادها ووالديها على ما بينه الله في الآية السابقة ، هذا ما ذهب اليه الجمهور وجرى عليه العمل وروي عن ابن عباس ان ولد الولد لا يحجب ﴿ فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ﴾ والباقي من التركة للاقرب اليها من اصحاب الفروض والعصبات وذوي الارحام يعلم كل ذلك من موضعه في الكتاب والسنة ﴿ من بعد وصية يوصين بها او دين ﴾ اي انما يكون لكم ذلك في تركتهن في كل من الحالتين ، بعد انفاذ الوصية ووفاء الدين، اذ ليس لوارث شيء الا مما يفضل عنهما ان كانا كما تقدم

﴿ ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد ﴾ منها على التفصيل السابق في اولادهن فان كان للميت منكم زوج واحدة كان لها وحدها وان كان له زوجان فأكثر اشتركتا أو اشتركن فيه بالمساواة والباقي يكون لمستحقه شرعا من ذوي القربى واولي الارحام ﴿ فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ﴾ . والباقي لولدكم علا او نزل ولمن عساه يوجد معه من والديه على التفصيل الذي بينه الله تعالى وذلك ﴿ من بعد وصية يوصى بها او دين ﴾ وبهذا كان للذكر من الزوجين مثل حظ الانثيين

فان قيل ان من ترك زوجين او ثلاثا أو أربعا كان لهن نصيب الزوج الواحدة فلا تطرد فيهن قاعدة للذكر مثل حظ الانثيين لان الرجل لا ينقص نصيبه من ارث امرأته بحال من الاحوال فما هي الحكمة في ذلك ولماذا لم يكن نصيب الزوجين او الثلاث او الاربع اكثر من نصيب الزوج الواحدة ؟ أقول الحكمة الظاهرة لنا من ذلك هي ارشاد الله إيانا الى ان يكون الاصل الذي نجري عليه في الزوجية هي ان يكون للرجل امرأة واحدة . وانما اباح للرجل منا ان يتزوج ثنتين الى اربع بشرطه المضيق لأن التعدد من الأمور التي تسوق اليها الضرورة أحيانا وقد تكون لخير النساء انفسهن كما شرحنا ذلك في آية اباحة التعدد وما هي ببعيد، وتذكر ما قلناه في حكمة جعل حظ الذكر من الاولاد مثل حظ الانثيين وهو ان الاصل فيه ان ينفق على نفسه وعلى امرأة يتزوجها ، فما هنا يلاقي ما هناك ويتفق معه والنصوص

يؤيد بعضها بعضا فلو كان من مقاصد الشريعة ان يتزوج الرجل اكثر من امرأة لجعل للذكر من الاولاد اكثر من حظ الانثيين وللزوجين والزوجات اكثر من حظ الزوج الواحدة . ولكن التعدد في نظر الشرع من الامور النادرة غير المقصودة فلم يراعه في احكامه والاحكام انما توضع لما هو الاصل الذي عليه العمل في الغالب والنادر لا حكم له

ولما بين جلت حكمته احكام الاولاد والوالدين والازواج وكل منهم يتصل بالميت مباشرة بلا واسطة شرع في بيان ما يتصل بالميت بالواسطة وهو الكلالة فقال

﴿ وان كان رجل يورث كلالة أوامرأة ﴾ اي او كانت امرأة تورث كلالة اي حال كون كل منها كلالة اي ذا كلالة او المعنى وان كان رجل موروث كلالة اي ذا كلالة وهو من ليس له ولد ولا والد وعليه اكثر الصحابة . واللفظ مصدر كلّ يكل بمعنى الكلال وهو الاعياء ثم استعمل للقرابة البعيدة غير قرابة الولد والوالد لضعفها بالنسبة الى قرابة الاصول والفروع وقال بعضهم كلت الرحم بين فلان وفلان اذا تباعدت القرابة وحمل فلان على فلان ثم كلّ عنه اذا تباعد ومنه سميت القرابة البعيدة كلالة ذكره الرازي وجها ثانيا . وذكر وجها ثالثا هو ان الكلالة في اصل اللغة عبارة عن الإحاطة ومنه الاكليل لإحاطته بالرأس والكل لاحاطته بما يدخل فيه ويقال تكلل السحاب اذا صار محيطا بالجوانب (قال) اذا عرفت هذا فنقول من عدا الوالد والولد إنما سموا بالكلالة لانهم كالدائرة المحيطة بالانسان وكالاكليل المحيط برأسه، اما قرابة الولادة فليست كذلك فان فيها يتفرع البعض عن البعض و يتولد البعض من بعض كالشيء الواحد الذي يتزايد على نسق واحد ولهذا قال الشاعر

نسب تتابع كابرا عن كابر   كالرمح أنبوبا على انبوب

فاما القرابة المغايرة لقرابة الولادة وهي كالاخوة والاخوات والاعمام والعمات فانما يحصل لنسبهم اتصال وإحاطة بالمنسوب اليه اه ثم بين ان الكلالة يوصف بها الميت الموروث ويراد بها من يرثه غير أولاده ووالديه ويوصف بها الوارث

ويراد به من سوى الاولاد والوالدين ورجح هذا بحديث يدل عليه وذكر كغيره ان لفظ الكلالة مصدر يستوي فيه القليل والكثير ولا يجمع ولا يثنى ، وقال بعضهم انه صفة كالهجاجة للاحمق

وعن عمر انه كان يقول الكلالة من سوى الولد من الوارثين ، وروي انه لما طعن قال كنت أرى ان الكلالة من لا ولد له وأنا أستحي ان أخالف ابا بكر الكلالة من عدا الوالد والولد . رواهما عنه عبد الرزاق وابن ابي شيبة وابن جرير والبيهقي وغيرهم . والرواية الثالثة عنه التوقف وكان يقول ثلاث لان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّنهن لنا احب إليّ من الدنيا وما فيها : الخلافة والكلالة والربا . رواه عبد الرزاق وابن ابي شيبة وأبو الشيخ في الفرائض والحاكم والبيهقي وغيرهم . وروى ابن راهويه وابن مردويه عن سعيد بن المسيب بسند صحيح ان عمر سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يورث الكلالة ؟ قال « أوليس الله قد بين ذلك ؟ » ثم قرأ : وان كان رجل يورث كلالة الخ الآية فكأن عمر لم يفهم . فأنزل الله « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » الخ الآية فكأن عمر لم يفهم فقال لحفصة اذا رأيت رسول الله (ص) طيب نفس فاسأليه عنها فسألته فقال « أبوك ذكر لك هذا ماأرى أباك يعلمها أبدا » فكان يقول ما أراني أعلمها أبدا وقد قال رسول الله (ص) ماقال . وروى عبد الرزاق وابن أبي شيبة عن سعيد أيضا ان عمر كتب أمر الجد والكلالة في كتف (أي عظم كتف) ثم طفق يستخير ربه فقال اللهم ان علمت فيه خيرا فأمضه . فلما طعن دعا بالكتف فمحاها ثم قال كنت كتبت كتابا في الجد والكلالة وكنت أستخير الله فيه واني رأيت ان أردكم على ما كنتم عليه . فلم يدروا ما كان في الكتف . وهذه الروايات غريبة في معناها فالأمر واضح لم يشتبه فيه من دون عمر ولا من في طبقته ولله في البشر شؤون وقلما تقرأ ترجمة رجل عظيم الا وتجد فيها انه انفرد بشيء غريب في بابه

ان الله تعالى انزل آيتين في الكلالة الآية التي نفسرها والآية التي في آخر هذه السورة فبين في هذه الآية ما يرثه الاخوة للام من الكلالة فقط للحاجة الى ذلك وعدم الحاجة عند نزول الآية الى بيان ما يأخذه إخوة العصب وكأنه وقع

بعد ذلك ارث كلالة فيه إخوة عصب وسئل النبي عن ذلك فنزلت الآية الاخرى التي في آخر السورة التي جعلت للاخت الواحدة النصف اذا انفردت وللاختين فأكثر الثلثين وللاخ فأكثر كل التركة «فان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين» فأجمع الصحابة على ان قوله تعالى هنا ﴿وله أخ اوأخت﴾ يعنى به الأخ او الاخت من الام فقط لان الاخوين من العصب قد بين حكمها في الآية الأخرى ولان قوله ﴿فلكل واحد منهما السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ يدل على انهم إنما يأخذون فرض الام فإنه اما السدس وإما الثلث واستدل المفسرون على ذلك بقراءة ابيّ بزيادة «من الام» وسعد بن ابي وقاص بزيادة «من ام» وقالوا ان القراءة الشاذة أي غير المتواترة تخصص لان حكمها حكم أحاديث الآحاد. وعندي ان هذا ليس قراءة وانما هو تفسير سمعه بعض الناس منهما فظنوا ان كلمة «من الام» قراءة وانهما يعدانها من القرآن. وارى ان كل ما روي من الزيادة على القرآن المتواتر في قراءة بعض الصحابة قد ذكر على انه تفسير، فان لم يكن الصحابي هو الذي قصد التفسير بذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم الذي تلقى ذلك الصحابي عنه هو الذي قصد التفسير فظن الصحابي انه يريد القرآن والدليل على ذلك القراءة المتواترة عنه صلى الله عليه وسلم الخالية من هذه الزيادة. ولادخل ههنا للفظ الراوي في الترجيح لانهم يروون الاحاديث بالمعنى

والحاصل ان الأخ من الام يأخذ في الكلالة السدس وكذلك الاخت لافرق فيه بين الذكر والانثى لان كلا منهما حل محل امه فاخذ نصيبها. واذا كانوا متعددين اخذوا الثلث وكانوا فيه سواء لا فرق بين ذكرهم واناثهم لما ذكرنا من العلة وذلك ﴿من بعد وصية يوصى بها أودين﴾ كما تقدم في نظيره، وفيه قراءة يوصي بفتح الصاد وكسرها كما تقدم

واما الباقي بعد فرض هؤلاء كغيرهم فهو على القاعدة التي بينها صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر» أي من عصبة الميت رواه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث ابن عباس. وإنما لم يذكر هذا في القرآن

لأن المخاطبين به في عصر التنزيل كانوا يعطون جميع التركة للرجال من عصبتهم دون النساء والصغار ففرض سبحانه للنساء ما فرضه فكن شريكات للرجال، وجعل الصغار والكبار في الارث سواء، وما سكت عنه فلم يبينه بالنص ولا بالفحوى فهو مفوّض اليهم يجرون فيه على عرفهم في تقديم الاقرب من العصبات اذ لا ضرر فيه الا ان يسنّ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيه سنة فيكون اتباعها مقدما على عرفهم كما هو بديهي

ثم قال ﴿غير مضارّ﴾ أي ذلك الحق في الورثة يكون من بعد وصية صحيحة يوصي بها الميت في حياته غير مضارّ بها ورثته وحدد النبي (ص) الوصية الجائزة بثلث التركة وقال «والثلث كثير» كما في حديث سعد المتفق عليه فما زاد على الثلث فهو ضرار لا يصح ولا ينفذ وعن ابن عباس (رض) ان الضرار في الوصية من الكبائر أي اذا قصده الموصي، وأيضا من بعد دين صحيح لم يعقده الميت في حياته أو يقر به في حال صحته لاجل مضارة الورثة والحال أنه لم يأخذ ممن أقر له به شيئا فهذا معصية أيضا وكثيرا ما يجترحها المبغضون للوارثين لهم خصوصا إذا كانوا كلالة ولذلك جاء هذا القيد في وصية إرث الكلالة دون ما قبله لأن القصد إلى مضارة الوالدين أو الاولاد وكذا الازواج نادر جدا فكأنه غير موجود

﴿وصية من الله﴾ أي يوصيكم بذلك وصية منه عزّ وجل فهي جديرة بالاذعان لها والعمل بموجبها ﴿والله عليم﴾ بمصالحكم ومنافعكم وبنيات الموصين منكم ﴿حليم﴾ لا يسمح لكم بان تعجلوا بعقوبة من تستاؤن منه ومضارته بالوصية كما انه لم يسمح لكم بحرمان النساء والاطفال من الارث وهو لا يعجل بالعقاب في أحكامه ولا في الجزاء على مخالفتها عسى ان يتوب المخالف

الصوفية والفقراء (*)

﴿ فتوى لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ﴾

مسئلة عن الصوفية وأنهم أقسام والفقراء أقسام فما صفة كل قسم وما يجب عليه ويستحب له ان يسلكه ؟

الجواب : الحمد لله أما لفظ الصوفية فانه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة وانما أشتهر التكلم به بعد ذلك وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الائمة والشيوخ كالامام احمد بن حنبل وأبي سليمان الداراني وغيرهما وقد روى عن سفيان الثوري انه تكلم به وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري وتنازعوا في المعنى الذي أضيف اليه الصوفي فانه من اسماء النسب كالقرشي والمدني وأمثال ذلك فقيل انه نسبة الى أهل الصفة وهو غلط لانه لوكان كذلك لقيل صُفِّيٌّ وقيل نسبة الى الصف المقدم بين يدي الله وهو أيضا غلط فانه لو كان كذلك لقيل صَفّيٌّ وقيل نسبة الى الصفوة من خلق الله وهو غلط لانه لو كان كذلك لقيل صفوي وقيل نسبة الى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ينسب اليهم النساك وهذا وان كان موافقا للنسب من جهة اللفظ فانه ضعيف أيضا لان هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك ولانه لو نسب النساك الى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لايعرف هذه القبيلة ولا يرضى ان يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لاوجود لها في الاسلام وقيل وهو المعروف انه نسبة الى لبس الصوف فانه أول ماظهرت الصوفية من البصرة وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة

(*) المنار : ننشر هذه الفتوى ليعلم الذين يقلدون ابن حجر وغيره في قولهم ان ابن تيمية كان ينكر على الصوفية حق هذا القول من باطله ومنها يعلمون ان الرجل يزن كل شيء بميزان الشرع وسيرة السلف الصالح

والخوف ونحو ذلك مالم يكن في سائر أهل الامصار ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية وقد روى ابو الشيخ الاصبهاني باسناده عن محمد بن سيرين انه بلغه ان قوما يفضلون لباس الصوف فقال ان قوما يتخيرون الصوف يقولون انهم متشبهون بالمسيح بن مريم وهدي نبينا أحب الينا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس القطن وغيره أو كلاما نحوا من هذا ولهذا غالب مايحكي من المبالغة في هذا الباب انما هو من عبادة أهل البصرة مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن ونحوه كقصة زرارة بن أدّ في قاضي البصرة فانه قرأ في صلاة الفجر «فاذا نقر في الناقور» فخر ميتا وكقصة ابي جهير الاعمى الذي قرأ عليه صالح المرّي فمات وكذلك غيره ممن روي انهم ماتوا باستماع قرائته وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ولم يكن في الصحابة من هذا حاله فلما ظهر ذلك انكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين كأسماء بنت أبي بكر وعبدالله بن الزبير ومحمد بن سيرين ونحوهم والمنكرون لهم مأخذان منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعا: يذكر عن محمد بن سيرين انه قال مابيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن ان يقرأ على أحدهم وهو على حائط فان خرّ فهو صادق ومنهم من أنكر ذلك لانه رآه بدعة مخالفا لما عرف من هدي الصحابة كما نقل عن أسماء وابنها عبدالله والذي عليه جمهور العلماء ان الواجد من هؤلاء اذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه وان كان حال الثابت أكمل منه ولهذا لما سئل الامام أحمد عن هذا فقال قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه ولو قدر أحد ان يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه ونحو هذا وقد نقل عن الشافعي انه أصابه ذلك وعلى بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه

لكن الاحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن وهي وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود كما قال تعالى «انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون» وقال تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله» وقال تعالى «اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا» وقال «واذا سمعوا ماأنزل الى الرسول ترى أعينهم

تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » وقال « ويخرّون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا» وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرَّين عليها والجفاء عن الدين ماهو مذموم وقد فعلوا، ومنهم من يظن ان حالهم هذا أكمل الاحوال وأتمها وأعلاها وكلا طرفي هذه الامور ذميم

بل المراتب ثلاث احداها حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب لا يلين للسماع والذكر وهؤلاء فيهم شبه من اليهود قال الله تعالى « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه المـاء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » وقال تعالى « ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون »

والثانية حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل مايرد على قلبه فهذا الذي يصعق صعق موت أو صعق غشى فإن ذلك انما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله وقد يوجد مثل هذا فيمن يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أمورا دنيوية يقتله ذلك أو يمرضه او يذهب بعقله . ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه وكذلك في غيره ولا يكون هذا الا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة مايرد على البدن من الاسباب التي تمرضه أو تقتله أو كان أحدهم مغلوبا على ذلك فاذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب فيما أصابه فلا وجه للريبة كما سمع القرآن السماع الشرعي ولم يفرط بترك مايوجب له ذلك وكذلك مايرد على القلوب مما يسمونه السكر والفنا ونحو ذلك من الامور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها فانه اذا لم يكن السبب محظورا لم يكن السكران مذموما بل معذورا فان السكران بلا تمييز وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة فانه يحرم بلا نزاع بين المسلمين ومن استحل السكر من هذه الامور فهو كافر وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة   ومتى إفاقة من به سكران

وهذا مذموم لان سببه محظور وقد يحصل بسبب سماع الاصوات المطربة التي تورث مثل هذا السكر وهذا أيضا مذموم فانه ليس للرجل ان يسمع من الاصوات التي لم يؤمر بسماعها مايزيل عقله اذ ازالة العقل محرم ومتى أفضي اليه سبب غير شرعي كان محرما وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية ولو بأمور فيها نوع من الايمان فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل ولم يأذن لنا الله ان نمنع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الايمان ولا غيرها مما يوجب زوال عقولنا بخلاف من زال عقله بسبب مشروع أو بأمر صادفه لا حيلة له في دفعه وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه كسماع لم يقصده يهيج قاطنه ويحرك ساكنه ونحو ذلك وهذا لا ملام عليه فيه وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معـذور لان القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم كالمغمى عليه والمجنون ونحوهما ومن زال عقله بالخمر فهل هو مكلف حال زوال عقله ؟ فيه قولان مشهوران وفي طلاق من هذه حاله نزاع مشهور ومن زال عقله بالبنج يلحق به كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي واحمد وقيل يفرق بينه و بين الخمر لان هذا يشتهي وهذا لا يشتهي ولهذا اوجب الحد في هذا دون هذا وهذا هو المنصوص عن احمد ومذهب ابي حنيفة

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنونا إما بسبب خلط يغلب عليه و إما بغير ذلك ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون في النساك وقد يسمون المولهين قال فيهم بعض العلماء هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولا وأحوالا فسلب عقولهم الهم وأسقط وأبقى أحو مافرض لما سلب فهذه الاحوال التي يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفنا حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك اذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقا عاجزا عن دفعها كان محموداً على مافعله من الخير وما ناله من الايمان معذورا فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص ايمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الاسباب التي تتضمن ترك مايحبه الله أو فعل مايكرهه الله

ولكن من لم يزل عقله مع انه قد حصل له من الايمان ماحصل لهم أو مثله وأكمل منه فهو افضل منهم (* وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم وهو حال نبينا صلى الله

*) المنار : هذه المرتبة الثالثة وهي العليا ولم يصرح هنا بالعدد

عليه وسلم فانه أسري به الى السماء وأراه الله ماأراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله فحاله أفضل من حال موسى صلى الله عليه وسلم الذي خر صعقا لما تجلى ربه للجبل وحال موسى حال جليلة علية فاضلة لكن حال محمد صلى الله عليه وسلم اكمل واعلا وافضل .

والمقصود ان هذه الامور التي فيها زيادة في العبادة والاحوال خرجت من البصرة وذلك لشدة الخوف فان الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السليمي وامثالها امر عظيم ولا ريب ان حالهم اكمل وافضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم او تفضل عليهم ومن خاف الله خوفا مقتصدا يدعوه الى فعل مايحبه الله وترك مايكرهه الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء وهو حال الصحابة رضي الله عنهم وقد روي ان عطاء السليمي رضي الله عنه روئيَ بعد موته فقيل له مافعل الله بك ؟ فقال قال لي ياعطاء أما استحييت مني أن تخافني كل هذا أما بلغك اني غفور رحيم .

وكذلك مايذكر عن أمثال هؤلاء من الاحوال من الزهد والورع والعبادة وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضي الله عنهم وعلى ماسنه الرسول أمورا توجب ان يصير الناس طرفين قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا في ذلك وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من اكمل الطرق وأعلاها والتحقيق انهم في هذه العبادات والاحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من اهل الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والامارة ونحو ذلك وخرج فيهم الرأي الذي فيه من مخالفة السنة ما انكره جمهور الناس وخيار الناس من اهل الفقه والرأي في اولئك الكوفيين على طرفين قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم وقوم يغلون في تعظيمهم ويجعلونهم اعلم بالفقه من غيرهم وربما فضلوهم على الصحابة كما ان الغلاة في اولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة وهذا باب يفترق فيه الناس

والصواب للمسلم ان يعلم ان خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وخير القرون القرن الذي بعث فيهم وان افضل الطرق والسبل الى الله ما كان عليه هو واصحابه ويعلم من ذلك ان على المؤمنين ان يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم كما قال الله تعالى « فاتقوا الله مااستطعتم » وقال صلى الله عليه وسلم « اذا

أمرتكم بامر فأتوا منه ما استطعتم » وقال « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » وان كثيرا من المؤمنين المتقين اولياء الله قد لا يحصل لهم من كمال العلم والايمان ما حصل للصحابة فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده فلا بدان يصدر منه خطأ اما في علومه واقواله واما في اعماله واحواله ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم فان الله تعالى قال « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير — الى قوله — ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا » قال الله تعالى قد فعلت . فمن جعل طريق احد من العلماء والفقهاء أو طريق احد من العباد والنساك افضل من طريق الصحابة فهو مخطيء ضال مبتدع ومن جعل كل مجتهد في طاعة اخطأ في بعض الامور مذموما معيبا ممقوتا فهو مخطيء ضال مبتدع .

ثم الناس في الحب والبغض والموالاة والمعاداة هم ايضا مجتهدون يصيبون تارة ويخطئون تارة وكثير من الناس اذا علم من الرجل ما يحبه احب الرجل مطلقا واعرض عن سيآته واذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقا واعرض عن حسناته محاط(؟) وحال من يقول بالتحافظ(؟) وهذا من أقوال أهل البدع والخوارج والمعتزلة والمرجئة، وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والاجماع وهو ان المؤمن يستحق بوعد الله وفضله الثواب على حسناته ويستحق العقاب على سيئاته وإن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه وما يحمد عليه وما يذم عليه وما يحب منه وما يبغض منه فهذا هذا .

واذا عرف ان منشأ التصوف كان من البصرة وانه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد وهؤلاء نسبوا الى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف فقيل في أحدهم صوفي وليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به لكن أضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال

ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر، واستوى

عنده الذهب والحجر، التصوف كتمان المعاني ، وترك الدعاوي، واشباه ذلك. وهم يسيرون بالصوفي الى معنى الصديق وأفضل الخلق بعد الانبياء الصديقون كما قال الله تعالى « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » ولهذا ليس عندهم بعد الانبياء أفضل من الصوفي لكن هو في الحقيقة انوع من الصديقين فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه فكان الصديق من أهل هذه الطريق كما يقال صديقو العلماء وصديقو الأمراء فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم، فاذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين انهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة انهم صديقون أيضا كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقي زمانهم وان الصديق في العصر الاول أكمل منهم والصديقون درجات وأنواع ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الاحوال والعبادات حققه وأحكمه وغلب عليه وان كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه .

ولاجل ماوقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس في طريقهم فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا انهم مبتدعون خارجون عن السنة ونقل عن طائفة من الائمة في ذلك من الكلام ما هو معروف وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام ، وطائفة غلت فيهم وادعوا انهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الانبياء وكلا طرفي قصد الامور ذميم والصواب انهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أولا يتوب ومن المنتسبين اليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه وقد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلا فان أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره كما ذكر ذلك الشيخ ابو عبد الرحمن

السلمي في طبقات الصوفية وذكره الحافظ ابو بكر الخطيب في تاريخ بغداد .

فهذا أصل التصوف ثم انه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف صوفية الحقائق وصوفية الارزاق وصوفية الرسم فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم وأما صوفية الارزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فان هذا عزيز واكبر أهل الحقائق لا يتصدون بلوازم الخوانك ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط احدها العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم ، والثاني التأدب بآداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الاوقات واما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت اليها ، والثالث ان لا يكون احدهم متمسكا بفضول الدنيا فاما من كان جماعا للمال أو كان غير متخلق بالاخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك . وأما صوفية الرسم فهم المقتصرون على النسبة فهمهم في اللباس والاداب الوضعية ونحو ذلك فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي اهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من اقوالهم واعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره انه منهم وليس منهم

واما اسم الفقير فانه موجود في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لكن المراد به من الكتاب والسنة الفقير المعادل للغني كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (؟) والفقراء والفقر انواع فمنه المسوغ لاخذ الزكاة وضده الغنى المانع المحرم لاخذ الزكاة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تحل الصدقة لغني ولا لقوي مكتسب » والغنى الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء كمالك والشافعي واحمد وهو ملك النصاب وعندهم قد يجب على الرجل الزكاة ويباح له اخذ الزكاة خلافا لابي حنيفة والله سبحانه قد ذكر الفقراء في مواضع لكن ذكر الله الفقراء المستحقين للزكاة في آية والفقراء المستحقين للفيء في آية فقال في الأولى « ان تبدوا الصدقات فنعمّا هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم — الى قوله — للفقراء المهاجرين الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا » وقال في الثانية « ما افاء الله على

رسوله من اهل القرى ـ الآية الى قوله ـ للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون »

وهؤلاء الفقراء قد يكون فيهم من هو افضل من افضل من كثير من الاغنياء وقد يكون من الاغنياء من هو افضل من كثير منهم وقد تنازع الناس ايما افضل الفقير الصابر او الغني الشاكر والصحيح ان افضلهما اتقاهما فان استويا في التقوى استويا في الدرجة كما قد بيناه في غير هذا الموضع فان الفقراء يسبقون الاغنياء الى الجنة لا حساب عليهم ثم الاغنياء يحاسبون فمن كانت حسناته ارجح من حسنات فقير كانت درجته في الجنة اعلى وان تأخر عنه في الدخول ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه لكن لما كان جنس الزهد في الفقر اغلب صار الفقر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف فاذا قيل هذا فيه فقر او مافيه فقر لم يرد به عدم المال ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفي من المعارف والاحوال والاخلاق والآداب ونحو ذلك وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا ايما افضل الفقير او الصوفي فذهب طائفة الى ترجيح الصوفي كابي جعفر السهروردي ونحوه وذهب طائفة الى ترجيح الفقير كطوائف كثيرين وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ونحو ذلك واكثر الناس قد رجحوا الفقير والتحقيق ان افضلهما اتقاهما فان كان الصوفي اتقى لله كان افضل منه وهو ان يكون أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه فهو افضل من الفقير، وان كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان افضل منه، فان استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة، واولياء الله هم المؤمنون المتقون سواء سمي احدهم فقيرا او صوفيا او فقيها او عالما او تاجرا او جنديا او صانعا أو اميرا او حاكما او غير ذلك

قال الله تعالى « ألا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ◦ الذين آمنوا وكانوا يتقون » وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى « من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب الي عبدي بمثل ماافترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي

بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذ بي لاعيذنه وما ترددت عن شيء انا فاعله كترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته ولابد له منه » وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين أصحاب اليمين المقربين والسابقين، فالصنف الاول الذي تقربوا الى الله بالفرائض والصنف الثاني الذي تقربوا اليه بالنوافل بعد الفرائض وهم الذين لم يزالوا يتقربون اليه بالنوافل حتى أحبهم كما قال تعالى وهذان الصنفان قد ذكرهم الله في غير موضع من كتابه كما قال « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » وكما قال الله تعالى « ان الابرار لفي نعيم على الارائك ينظرون ◦ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ◦ يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ◦ ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » قال ابن عباس يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لاصحاب اليمين مزجا، وقال تعالى ان « الابرار يشربون من كأس كان مزاجها زنجبيلا ◦ عينا فيها تسمى سلسبيلا » وقال تعالى « وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون » وقال تعالى « فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ◦ واما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين »

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج الى تفصيل طويل لم يتسع له هذا الموضع والله اعلم

﴿ الشيعة والمسلمون ﴾

سئلنا عن قولنا في البابية انهم ليسوا من الشيعة ولا من المسلمين ألا يفيد هذا القول ان الشيعة أيضاً ليسوا بمسلمين ؟ فقلنا : لا بل هذا من باب المقابلة بين العام والخاص لما هو معلوم عند قراء المنار وغيرهم من كون الشيعة مسلمين والقاعدة انه اذا قوبل الخاص بالعام يراد بالعام ما وراء الخاص فاذا قلت ان فلانا ليس بسوري ولا عثماني كان المراد بلفظ العثماني ما يشمل غير السوريين من العثمانيين ولا يدل على ان السوري ليس بعثماني . فلما كانت الشيعة فرقة من المسلمين ونفينا ان تكون طائفة البابية منهم وان ظهرت فيهم كان لظان ان يظن ان البابية ربما خرجت من مذهب الشيعة بمخالفته في المسائل التي كان بها مذهبا خاصا فقط وبقوا على اصل عقائد الاسلام التي لاخلاف فيها بين الشيعة وغيرهم فبينا ان ذلك ايضا غير صحيح وانهم ليسوا من المسلمين مطلقا

مكة المكرمة (*

﴿ والجرائد العربية ﴾

ان لدينا اليوم حكومة مهمة مالكة لجميع حقوقها المدنية ومركزنا السياسي وموقعنا الجغرافي لا يضاهيه مركز ولا يضارعهُ موقع وفي يدنا نعمة عظيمة تقدر بنعم الدنيا كلها وهي نعمة « الخلافة » على الأمم الاسلامية كلها

نحن أرقى الجميع في العلم والعرفان فلماذا لا نتأثر من الذل الذي يلحق اخواننا في بخارى ؟ لماذا نظل فاقدي الشعور امام المصائب التي تنزل باخواننا في مراكش؟

ألم يكفنا أننا تسفلنا إلى درجة كدنا نضمحل فيها بالتعلل بلفظ « لا يصير » و « ما يعنينا » ؟

ألم يكف باننا قد جعلنا تحت الارض قيد الذل والاسر مئات الملايين من اخواننا في الدين بسبب عدم التفاهم ؟

هل نحن واقفون على الحالة السياسية والضغطية الموجود فيها إخواننا المسلمون في أوستراليا وفي جاوة ؟ هل نحن مطلعون على طرز ادارة المسلمين في الصين وأحوالهم المعاشية ؟ لا نذهب بعيداً ، هل نحن على علم تام بمصائب متاخمينا ومجاورينا الايرانيين ؟ أو على المام بذل القفقاسيين ؟ أو سفالة القريميين ؟ أو سياسة الصربيين ؟ أو سائر أحوال غيرهم من المسلمين ؟

لنترك هؤلاء أيضا . هل تدرعنا لانقاذ جزيرة العرب التي تبلغ ثلاثة اضعاف بلاد البلغار من الجهل المخيم عليها منذ قرون ؟

أليس ذلك عارا علينا ؟ ان اهمالنا لهذه الدرجة مما تحار له عقول ذوي العقول؟ أيها المؤمنون ما هذه الغفلة ؟ أيها المسلمون ما هذا الاهمال ؟ لماذا بقينا متخاذلين متشتتين ؟ لماذا وصلنا الى هذه الدرجة من الحيرة ؟

(*) مقال لمحمد عالم افندي من كتاب الترك وعلمائهم نشر في مجلة « صراط مستقيم » التي تصدر في الاستانة وقد نشر مترجما في مجلة النبراس ولخصته جريدة المفيد وعنها أخذنا

ان سكوتنا هذا يحمله الجاهلون على المسكنة المتأصلة بفطرتنا والمفسدة الموجودة في ديننا « حاشا ثم حاشا »

قد وصلنا الى درجة من الجهل أصبحنا بها نسمع ألفاظ العداء من لسان الاوداء ، لا من لسان الاعداء ، حتى أصبحنا عرضة لامثال هذه الاقوال اللئيمة : « أي شيء رقاه المسلمون ؟ بل أي شيء أمكن للمسلمين ان يرتقوا به؟ »

هنا يتهافت اخواننا و بنو قومنا بدون ان يعملوا فكرتهم الى القول بان أوربا تحارب الدين غير عالمين كيف تحارب أوربا الدين وأي دين تحارب ! فيعلقون باشراك الشبهات والاضاليل غير متفكرين بمرامي كلامهم وما يجره من الرزايا والكوارث ومتخيلين ان الترقي الحاضر لم ينشأ الا عن محاربة الدين !

أليس القول : بأي شيء ارتقى المسلمون ؟ يرمي الى ان الاسلام مانع من التمدن ؟ ؟ تالله ان البلاهة الموجودة عندنا هي من الغرابة بمكان ، ان قائل هذا القول يعلم يقينا ان الاندلس و بغداد كانتا منبعا للتمدن الأوربي الحالي ، ومصدرا للعلم الحاضر ، فهل كان الدين الاسلامي في ذلك الحين غير الدين الاسلامي اليوم؟ فما هذا التناقض!

كيف يمكن ان تكون شريعتنا الاسلامية وهي جامعة لقواعد الارتقاء والتمدن حاجزا في طريق الترقي ؟

ان نظرة سطحية الى احكام الدين الاسلامي تكفي لأن يتبين منها بانها أساس متين للارتقاء ونظام مكين للعلاء

نعم نحن نعترف بان المسلمين لهذا العهد قد وصلوا الى درجة من الامتهان والازدراء بحيث لو ادعوا وهم على حالتهم الحاضرة بانهم مرتقون لاصبحوا سخرية ، لكن في هذه الحالة لا يجب ان نلقي الذنب عليهم لكونهم مسلمين ، بل يجب ان نلقي الذنب عليهم لكونهم غير مسلمين حقيقة ، وما ذاك إلا لانهم لم يعملوا بالاحكام الاسلامية على وجوهها ، بل خالفوا الشرع ونبذوا الامور الإلهية وراء ظهورهم ، والا فان الاندفاع الى إنكار سماحة الدين الاسلامي وتساهله مع العلم

والارتقاء استنادا على جهل بنيه هو أشبه بالاستدلال على حسن رجل أو قبحه من خيوط شعره الموجودة في اليد

إن الدين الاسلامي يأمرنا بالاجتماع في محل واحد خمس مرات في النهار ولا ريب ان هذا الاجتماع يرمي الى كثير من المعاني الدقيقة والاشارات الرقيقة شأن الاوامر والنواهي الاسلامية كلها

أيها القوم ! يجب علينا ان نجتمع ، يجب علينا ان يرى بعضنا بعضا ، يجب على كل منا ان يبحث عن الآخر، يجب علينا ان نسأل عن المتخلف عن الحضور يجب ان نعلم ما هي حالته ، أو ما الذي دعاه الى التخلف ، فاذا كان ثمة من كرب أو كارثة فلنجتهد بازالة كربه ، فاننا بهذا العمل نكون متعاونين على البر، بل نكون جددنا اتحادنا واتفاقنا في كل وقت ، والا فلو كانت الغاية من الصلاة جماعة هي نفس الصلاة لكانت صلاة الانسان في أي محل يستسهله ممدوحة ومباحة عملاً بقوله تعالى « ما جعل عليكم في الدين من حرج »

إن صلاة الجماعة كما تكون وسيلة حسنة لاجتماع أهالي محلة واحدة وسببا لتعارفهم واتفاقهم في كل يوم خمس مرات تكون لاهل البلدة كلها في جامع واحد في الاجتماع لصلاة الجمعة ولذلك اختلف في جواز صلاة الجمعة في جامعين في بلدة واحدة

واجتماع الناس في صعيد واحد يتسنى به للخطيب ان يلقي عليهم المواعظ والنصح ويطلعهم على الشؤون الاسلامية بصورة إجمالية

ثم ان الدين الاسلامي قد أمر باجتماع آخر أعم وأشمل وأكثر تأثيرا وهو اجتماع أغنياء المسلمين في العالم في صعيد واحد كل سنة

وعليه فان أغنياء المسلمين النافذي الكلمة من كل مملكة وكل بلدة يجتمع بعضهم ببعض مرة في العمر على الاقل في محل عينه الشارع وجعل شد الرحال اليه فرضا وهناك يتفاوضون مع سفراء اخوانهم في الدين ويتسارفون ويتعرفون شئون اخوانهم النائين ومن الحكمة في هذا الفرض انه جعل فرضا على الآباء والابناء على السواء فاذا حج الوالد فلا يسقط عن الولد

يجتمع المسلمون في هذا الموقف في الوقت المعين فيمتزجون ويتباحثون فيما

يعود عليهم بالنفع ويتفكرون في الوسائل التي تجعلهم جسدا واحدا إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بل يجعلهم يقرون على خطة يسيرون عليها سعيا وراء كل ما يرمون اليه من الآمال الكبيرة

الاجتماع في الحج واقتداء مئات الالوف بامام واحد وقت الصلاة يصور للمسلمين الاتحاد مجسما . الاجتماع في الحج يجعل المسلمين مطلعين على شئون مجموعهم في كل حين. الاجتماع في الحج يجعل أمل المسلم في طنجه هو نفس أمل المسلم في كشمير ويجعل ما يشعر به « أحمد » في القزان يشعر به « محمد » في الترنسفال

أيها القوم ! أليس من الاسف ان تكون أوامر ديننا بهذه الدرجة العالية من الحكمة ونحن نعد اداءَ الصلوات الخمس فضلا عن اداءِ فريضة الجمعة والحج أشبه بعمل زائد ؟ ؟

من منا يهتم بشأن الصلاة ؟ على اننا وان صلينا فانا نعد الذهاب الى الجامع عملا لا لزوم له !

أيها القوم ! لنفكر بانصاف : اذا كنا نحن لانهتم بأمر الاجتماع الذي يأمر به الدين فهل يكون الذنب على الدين أم على أهل الدين ؟ ؟ نعم ان دور الاستبداد كان يمنعنا عن التصريح بأمثال هذا الكلام بل كان يمنعنا عن التفكر به . اما اليوم فانه لا يقف بوجهنا حاجز عن التصريح بكل حقيقة، كلنا نتمنى ان نرى الدولة العثمانية دولة عزيزة الحمى ، منيعة الجانب مرهوبة الشبا ، لكن يا ترى لماذا لا تتذرع بالوسائل التي تقوي العنصر الاصلي للاسلام « وهو العنصر العربي » بل لماذا لا تقوي الاسلام نفسه ! ؟ أول عمل يجب الشروع به في رأي هذا العاجز هو توثيق روابط الاتحاد وتحكيمها كما نحن مأمورون شرعا ، والاتحاد لا يوءيد ولا يوثق إلا بانشاء جرائد عربية خاصة تنشر وتعم

اللسان الفرنسوي يعده الاوربيون اللسان الرسمي العمومي بينهم ، واللسان العربي يعده المسلمون اللسان الرسمي الديني العمومي بينهم — اية بلدة أو مملكة إسلامية تعد اللسان العربي غريبا ؟ اية جمعية إسلامية تعد الكتاب العربي اجنبيا ؟ —

وعليه فأي شأن من الشؤون النافلة تقصر الجرائد العربية عن القيام بادائه

انا وايم الله لنأسف كل الاسف لاننا لم نتذرع حتى الآن بشي من هذا القبيل بل اني أعد عدم تذرعنا بذلك عاراً نعم يجب علينا لتحويل حركة الرأي العام الى هذه الجهة ان نعقد المجتمعات والمؤتمرات ولكن في أي مكان نعقدها ؟

انه يوجد لهذه الغاية الشريفة محل مبارك هو أهم من الاستانة ومصر ويمكن ان يتخذ مركزا وهو مكة المكرمة كرمها الله الى يوم القيامة

اذا كان صوت الشريعة الغراء يجمع كل سنة مئات الالوف من الحجاج واذا كان كثير من ذوي الثروة والكلمة النافذة من كل ارجاء الارض مكلفين أن يعرفوا هذه الجهة المقدسة أفلا نستفيد نحن شيئا ؟ انا مع الاسف لم نعمل شيئا حتى الآن لكن مادامت غايتنا الآن العمل على ترقية الامة الاسلامية فان تلك الخطة هي احسن وسيلة للوصول الى مانرمي اليه

واأسفاه ! ان حجاجنا الذين يجتمعون في تلك الارجاء تراهم بسبب رزية جهلهم وسيئة عدم وجود مرشد لهم يكتفون بمواجهة بعضهم لبعض فقط فلا يتطرقون الى البحث في احوالنا لا الديني منها ولا الدنيوي

عقد في الايام الاخيرة في مدينة «موسكو» مؤتمر مؤلف من جميع ارجاء بلاد السلاف ان تصور هذا المؤتمر وحده كاف لان يصور لنا مقدار الفوائد العظيمة التي نالها اصحابه منه وما نتج لنا من الضرر الذي لحقنا منذ زمن قريب بسببه

ان هذا المؤتمر لايمكن ان يجتمع به أكثر من مئة أو مئتي شخص واذا بلغ الغاية فانه يجمع الف نفس ليس الا . ومع ذلك فانهم قد حلوا بواسطته عدة مشاكل ونالوا ما كانوا يطمحون اليه

اما نحن فما الذي صنعناه ؟ نعم ما الذي صنعناه نحن ؟ انا الى الآن لم نقدر ان نمدن ما حوالي مكة . بل اننا نحن الي الآن لم نقدر ان نفهمهم باننا مسلمون مثلهم

العربان في تلك الارجاء لم يزالوا حتى اليوم يعدون قتل المسلم الحاج حلالاً مباحا طمعا بسلب ثلاث أو خمس ليرات منه !

العربان في تلك الارجاء لم يزالوا حتى اليوم يعدون كل من لا يحسن التكلم بالعربية من حجاج بيت الله الحرام مشركا

نعم ان التأسف على الماضي لا يجدي بيد ان الذي يجدي هو أن نجد ونجتهد لكي نجعله ماضيا وبعبارة أوضح هو ان نجد ونجتهد لكي لا نجعل الآتي كالماضي

اقول بكل صراحة اننا اذا اردنا ان ننهض بالامة الاسلامية يجب علينا ان نوجه كل اهتمامنا الى مكة . . . . لان . . . . . الوسائل التي تنهض بالدولة العثمانية وتجعلها في عداد الدول القوية التي تأبى ان تغلب انما تنالها بتلك الارجاء

يجب علينا ان نجعل لتلك الارجاء اهمية سياسية كاهمية العاصمة نفسها لانها منبع علومنا المدنية ومقر سياستنا الاسلامية

يجب ان ننشر بتلك الارجاء جميع الجرائد والكتب التي تطبع باللغات الاسلامية

يجب ان تُلقى الخطب الاجتماعية بتلك الارجاء . يجب ان تفتح اهم مكاتبنا (المدارس) في تلك الارجاء

يجب ان توزع من تلك الارجاء بذور الاتحاد على جميع انحاء العالم

يجب ان نجعل تلك الارجاء بدرجة اذا رأى بها احد مكة المكرمة يظن انه رأى الممالك الاسلامية ويعتقد بانه اطلع على زيادة آمال الامة

يجب ان يقتنع المسلم الذي يحب الوقوف على الشئون الاسلامية بانه اذا رأى مكة المكرمة اصبح واقفا على انموذج احوال الامة لدرجة كافية

يجب علينا ان نجعل هداتنا « اهالي مكة » يتخرجون من كلية علمية منظمة .

يجب ان يدخل اهالي مكتنا المكرمة في دور عمراني مهم . ان هذا المقام مقدس وكل يوم نوجه وجوهنا اليه خمس مرات . اذا كانت الاستانة وجهتنا في المعاملات فمكة وجهتنا في العبادات اذا كانت الاستانة مركز خلافتنا فمكة مركز ديانتنا

اني اعتقد ان المسلمين لايستفيدون استفادة حقيقية من المدنية الاسلامية التي هي المدنية الحقيقية الا باتخاذ مكة المكرمة مركزا للعلم والحضارة

وربما يتخيل بعض الناس ان اتخاذ مكة المكرمة مركزا للعلم والحضارة يضر بالاستانة نفسها ، لكن اظن أن المدنية الاسلامية والعلوم الحقيقية اذا نشرت في مكة على وجهها الحقيقي لا تنتج أقل ضرر فيجب ان نجعلها مثابة للعلم ، ومهبطا ومركزا للتقسيم

والتوزيع ، لان موقعها اشرف المواقع بلا استثناء ، وقد اختارها رب الأرباب من بين البلدان كافة وجعلها مقر بيته الحرام . وقبلة المسلمين في جميع أرجاء الارض

وعليه فان مكة أنفع للحكومة العثمانية من كل جهة ، بل ومن كل وجهة، واذا فكر أولياء الامور واولو الشأن وارباب الاقلام منا بهذه النقطة الدقيقة فلاشك في انهم يجزمون بالفوائد الكثيرة التي ننالها

اليس الواجب ان تشمل تلك الارجاء السياحات النافعة المفيدة التي يجريها امثال اسماعيل غصبرنسكي وغيره من الغيورين المتفانين باعلاء كلمة الدولة والامة؟

اليس من الواجب ان لايحرم الحجاج المسلمون من ارشادات هؤلاء الافاضل

ايها القوم ! علينا بالعمل . يجب أن يبدأ بالارشاد من مكة . يجب ان ترسل اوراق الدعوة الى افاضل الامة وانا على يقين بانه لا تمضي مدة الا والعالم الاسلامي قد انتقل من طور الى طور

أيها القوم ! ان العرب ، والمصريين، والمراكشيين ، والزيديين، والايرانيين والافغانيين، والهنديين، والصينيين، والجاويين، والبخاريين، والاتراك ، والاكراد واللازيين ، والالبانيين ، والجراكسة — كلهم قد ولوا وجوههم نحونا ينتظرون كلمة (الدعوة) لتصدر منهم كلمة (الاجابة) حالا

ايها القوم ! ان الالمانيين والمجريين والسكسونيين والسلافيين والاغريقيين كلهم باذلون قصارى جهدهم وراء الاتحاد والاتفاق

ايها القوم ! ان بقاءنا مهملين أمر المحافظة على كياننا وحقوقنا أمام الامم أجمع هو من الجرائم الكبيرة التي لا تغتفر بوجه من الوجوه

ايها القوم ! لماذا التقاعس ؟ لماذا لا نبحث عن الوسائل التي تمدن المسلمين كافة وتجعلهم متمدنين ؟ ألسنا من بني الانسان !

ايها القوم ! يجب ان نزيل الاقذاء المغشية على صماخ آذاننا لعلنا نسمع بها كيف ان الامم تجد وتجتهد لتكون في مركز يهدد كيان غيرها

ايها القوم ! اننا نسمع الذين يلقبون بلقب (لورد) او (موسيو) يأسفون لوجود قسم من بني الانسان يسمى المسلمون ! فما هذا الذل ؟ وما هذا العار ؟ افلا

يجب علينا ان نجد ونجتهد لنقدر ان نطبق علينا (حقوق الدول)

ايها المسلمون ! يجب ان تتنبهوا فان القافلة قد شدت الرحال وغذت في المسير والسلام على من اتبع الهدى اه

(المنار) طرقنا باب هذا البحث : بحث جعل مكة مهد الاصلاح الاسلامي، في السنة الاولى من المنار وفصلنا القول فيما يجب منه تفصيلا ، ووجهنا الخطاب في ذلك الى مقام الخلافة في الاستانة لا لاننا كنا نرجو من ذلك المقام القيام بالاصلاح المطلوب فاننا كنا على قلة ما نعلم من سيئات الحكم الحميدي في ذلك العهد لم نكن مغترين بذلك السلطان ومن ذوي الرجاء فيه بل كتبنا ذلك ليفكر فيه المفكرون فيقوى الاستعداد له ، اما وقد صار شكل حكومتنا دستوريا فان لنا رجاء في كل إصلاح ولكن يعوزنا الرجال المنفذون، يعوزنا الرجال القادرون ، يعوزنا الرجال ، الرجال ، الرجال ، فهل من وسيلة لايجاد الرجال ؟ ؟

باب المناظرة والمراسلة

ايضاح وانتقاد

العلامة المفضال السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار المنير

(١٣ — السلام عليكم ورحمة الله) وبعد فقد اطلعت على جوابكم بالمنار (صحيفة ٥٣٧ ج ٧ م ١٢) واني اشكركم على كل حال وارجو ان تفسحوا للضعيف مجالا في صدر حلمكم فان الكمال لله وحده وان خوفي من التطويل مع رقة جسم المنار هو الذي جعلني اقصر عن زيادة الايضاح في أول الامر بل كثرة اشتغالي بمصالح الحكومة تجعلني اختلس القليل من وقت راحتي لأكتب ما ارى ذمتي تطالبني ببيانه اجمالا مع اعترافي بالعجز وان كان فيما اكتب شيئا من المسلطة فاذات اقول « رب زدني علما » حتى تتمكنوا من فهم قصدي الحسن واني باسم الله الاكبر ابتدئ في بيان المقصود فاقول :

(١٤ — القسمة في الآخرة) ذكرتم في صحيفة ٥٤٤ ج ٧ م ١٢ ان الناس ينقسمون في الآخرة الى قسمين شقي وسعيد وأنهم فيها فريقان « فريق في الجنة وفريق في السعير » فهذا لا اخالفكم فيه في شيء

(١٥ — مساواة الناس في بدء الخلقة) قلتم في صحيفه ٥٤٤ « وانه بدأهم على هذا ويعيدهم عليه » ففهمت من ذلك ان الله تعالى بدأ خلق الناس قسمين شقيا وسعيدا وانه تعالى اخرجهم في هذه الحياة على هذه القسمة وانه سيعيدهم في الآخرة على نفس هذه القسمة بلا تغير ولا تبديل حيث ايدتم ذلك بقولكم « انه كما قسمهم الى شقي وسعيد في الدنيا والآخرة قسم بينهم » الخ . . . وهذا ما اخالفكم فيه ولا اوافقكم عليه من بعض الوجوه للاسباب الآتية :

اولا : خلق الله الناس في بدء خلقتهم متساوين (؟) لغرض واحد فلاشقي بينهم ولا سعيدا ثم اخرجهم في الحياة الدنيا لعبادته كالآية « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » فحصر الغرض من الخلقة في العبادة وحدها يدل على تساوي أصل الناس في بدء النشأة

ثانيا : قال تعالى : « كان الناس امة واحدة » وهذا يدل صريحا على ان الناس كانوا كواحد في بدء الخلقة لا تمييز بين انسان وآخر ولا وجود لشقي بينهم ولا لسعيد

ثالثاً : قال تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا . . . » فهذه الآية تدل على ان ذرية بني آدم بلا استثناء وهم في ظهور آبائهم كانوا مطبوعين على تأليه الخالق وتوحيده بلا شرك فيدخل في ذلك بالطبع ذرية اليهودي والمجوسي والبوذي والبرهمي والمسيحي والمسلم والمادي والدهري والكافر والمؤمن مما يثبت توحيد الناس ومساواتهم في بدء الخلقة وقد ولدوا من بطون أمهاتهم بالبداهة على هذه الطهارة فكيف تقولون انه بدأهم قسمين و يعيدهم عليها !

رابعا : قال النبي عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة » والولادة على الفطرة كما لا يخفى عليكم هي الولادة على الاصل الطاهر الخالي من نزغات الشرك وخلافه فلا يوجد إذا في بدء الخلقة تقسيم

(١٦ — سير الناس على نظام ذو (؟) وجهين) لعلكم تتساءلون بعد ذلك وتقولون إذا سلمنا بان الناس متساوون في بدأ الخلقة لا شقيا ولا سعيدا فكيف ينقسمون في الآخرة اليها . . وكيف يتفق علم الله الأزلي الثابت على ذلك في الحياتين ؟

فأقول لكم إن الله تعالى أخرج الناس إلى الحياة الدنيا على الفطرة طاهرين وجعل لهم بارادته نظاما يسيرون عليه بعد ان منحهم الاستقلال الذاتي والحرية غير ان هذا النظام ذو وجهين متضادين كما قال تعالى « وهديناه النجدين » أي الطريقين المتضادين : طريق الخير وطريق الشر في آن واحد ولما كانت الطبيعة الانسانية متركبة بكيفية تلائم الطريقين المذكورين غير انها لا يمكنها ان تسير الا في طريق واحد فقط منها ولو بالتناوب مرة هنا ومرة هناك تبعا للحرية

الانسان واستقلاله كالآية « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » فكان ذلك داعيا لانقسامهم أنفسهم مع ان الله تعالى لم يقسمهم من قبل ذلك . . فتجد واحدا يسير في طريق الخير دفعة واحدة وآخر في طريق الشر دفعة واحدة وثالث (؟) يتنقل بين طريق الخير والشر مع العلم انهم جميعا في امكانهم أن يسيروا من طريق واحد دون ان يروا الثاني ولا يعلمون به فتقسيمهم في الاصل غير موجود بالمرة ولكن النظام الموضوع امام حريتهم هو المقسوم فقط وفرق بين قسمة النظام وقسمة النفوس التي تسير بحريتها على أي شكل كان مما في هذا النظام المعلوم لله من قبل خلق الناس أجمعين

(١٧ — علم الله الازلي وسير الناس في الطريق) ربما تقولون مما ذكرته آنفا انه مادام الناس غير منقسمين من قبل سيرهم في احد الطريقين . وانهم يمكنهم جميعا ان يسيروا في طريق واحد من غير ان يروا الثاني ان علم الله تعالى الازلي فيما يختص بسيرهم هذا غير ثابت من جهة الواقع منهم ونفس الامر وانه تعالى لا يعلم من من هؤلاء الناس سيكون في الطريق الايمن أو من منهم سيكون في الطريق الايسر ، وجوابي على ذلك : ان كل مايحدث مهما كان من عمل الانسان الحر كان معلوما لله ازلا قبل وقوعه فعلا بصفة عامة لاتخصيص فيها لزيد من الناس وانه تعالى خلق الناس ليسيروا في أحد طريقين متضادين أو في كل منهما على التناوب « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » مع كونه يراقبهم بنفسه كل المراقبة «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » فالمراقبة هي أساس العلم بالتخصيص بأحد الطريقين أو المختار منهما في أي وقت بواسطة أي انسان بتمام حريته . ومن هذه المراقبة يعلم الله تعالى في أول وهلة ماخصص كل فرد لنفسه من أحدهما . مع كونهما وكل مافيهما من أنواع الاعمال المختلفة معلومين لله تعالى من الازل كما مر . وكل هذا بالبداهة لايزيد علم الله تعالى شيئا ولا ينقصه شيئا وغاية مافي الامر ان الله تعالى خلق الناس في الاصل طاهرين وأخرجهم في هذه الحياة الدنيا لغرض هو : ليعلم منهم من يسير في الطريق الايمن بحريته ومن منهم يسير في الطريق الايسر ولذا كانت المراقبة لازمة كالآية «ان الله كان عليكم رقيبا » ويؤيد ذلك مايأتي

أولا : ماذكره الله تعالى في الكتاب العزيز من أمر الفتنة أو الامتحان لاختبار كل من يؤمن به تعالى حتى يعلم منه اما الثبات نهائيا على الايمان أو الزعزعة عنه عند الامتحان أو الفتنة المذكورة كالآية : «أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون ٭ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » فالله تعالى يصرح في القرآن بنفسه بانه تعالى لايعلم الصادق من الكاذب في الايمان الا بعد ان يفتنه ويجربه ويمتحنه ليعلم منه قوة الخيار للايمان والثبات عليه أو التزعزع عنه بمطلق حريته الممنوحة له منه . أما قولكم ان ذلك علم انكشاف فهو مردود لانه لايوجد لله علم مكشوف لان المعدوم والموجود في علم الله سواء

ثانيا : قال تعالى عن الشيطان : « وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك منها وربك على كل شيء حفيظ » أي انه تعالى لم يجعل للشيطان على الانسان سلطة مما ليحور (؟) إرادته الحرة الخصوصية من الايمان الى الكفر بل هي وسوسة ضعيفة « ان كيد الشيطان كان ضعيفا » أمرها بسيط ولا تأثير منها ويمكن لكل انسان بحريته ان يتجنبها بما خلق الله تعالى فيه من عقل وجعل له من الهام . والله تعالى لم يمنع الشيطان عن تلك الوسوسة للانسان الا ليجعلها في ضمن الفتنة أو اللازم المقرر في نظام الله ليعلم منها من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك منها . وان هذا العلم لايكون الا بالمراقبة المذكورة . اذ بغير ذلك لايكون معنى للمراقبة التي مدلولها التأمل لانتظار وقوع فعل من شخص معلوم في احد (؟) جهتين متضادتين

ثالثا : قال تعالى « وماجعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم » فهو تعالى يصرح هنا انه لا يعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه منهم قبل الفتنة بالانقلاب عن القبلة ببيت المقدس الى الكعبة الا بعد حصولها . وهنا لايتوهم القارىء ان الله تعالى كان يجهل شيئا أو يعزب شيء عن علمه . كلا بل هو بكل شيء عليم لان الله تعالى كان يعلم أن ماخلقهم عليه من نفس كاملة وعقل يمكنهم بهما ان يتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بمطلق حريتهم التي منحها لهم بلا أي مانع ، هذا من جهة ومن جهة أخرى بحسب الوضع الذي شكل

به الخلقة الانسانية كان يعلم عنهم في آن واحد انهم يمكنهم جميعا ان لا يتبعوه (ص) بمطلق حريتهم وفي الوقت نفسه كان يعلم بالنتيجة التي سيجازيهم بها وتصيبهم في الحياة الدنيا والآخرة ان لم يتبعوه ويعلم من قبل ايضا بالنتيجة التي سيجازيهم بها في الحياتين ان لم يتبعوه • غير ان هذا العلم المطلوب ليس انكشاف الفعل الواقع المطابق وحده للعلم السابق دون غيره كما يقول المنار • كلا • كلا بل هو علم تنقل ارادة كل منهم الى اي جهة يرغب السير بحريته في احد الطريقين المتضادين المعلومين لله من قبل وهما مفتوحان معا في كل وقت أمام كل انسان حتى يمده الله بعد ذلك بجزاء ما اراد • وهذا العلم بالطبع لا يكون الا بالمراقبة كالآية « افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت »

رابعا : ان خلق الناس متساوين (؟) في بدأ الخلقة وخروجهم الى الدنيا للتنافس في عبادة الخالق بحريتهم هو كل الحق الذي كان الغرض منه وجود العالم كالآية : « وما خلقنا السموات والارض وما بينهما باطلا » وكالآية : « اولم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السموات والارض الا بالحق » . . فهل يعرف المنار ما هو هذا الحق؟ هذا الحق هو منح المخلوقات ومنها الانسان « الحرية » الكاملة في عبادة الله وللسير في أحد الطريقين المتضادين متحملا نتائج احدهما او كل منهما بالتناوب على عاتقه بما وهبه الله من عقل وشعور والهام مع تمام الاستقلال في الارادة « وما تكسب كل نفس الا عليها »

فاذا كان الناس مقسومين كما قلتم من الاصل وفي الدنيا وانهم سيعودون على هذا التقسيم نفسه في الآخرة . . فان الحياة الدنيا والخلق في الاصل والمبدأ يصيران بذلك عملا من الله باطلا كل البطلان لا علة ولا حكمة منه اصلا . . بل يكون اشبه بتسخير القادر للعاجز ورحمة اناس وتعذيب آخرين بالاستبداد والقوة دون غيرهما مع ان الكل « انسان » ومن نفس واحدة يشعر الواحد ويحس كما يشعر الآخر وهذا لم يعمله ولن يعمله الرحمن الرحيم . ولا يشير اليه في كتابه الكريم وانما يشير الى ان الكل مكرمون « ولقد كرمنا بني آدم » ومخاطبون بالآية « ان ا كرمكم عند الله اتقاكم » فلا قسمة في اصل الخلقة ولا تقسيم الا في الآخرة فانها ستكون طبقا لما اكتسبناه بحريتنا من احد النجدين المتضادين « وهديناه النجدين » لا طبقا

للمقسوم المحتوم « اليوم تجزى كل نفس ما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب »

خامسا : قال تعالى في بعض الآيات « ولما يعلم الله الذين آمنوا » فهذا العلم بالايمان يدل على وقوعه في المستقبل دون الماضي · فهو لا يؤيد على الله الجهل او انه علم انكشاف للواقع دون غيره كلا بل يدل على تنفيذ ما اراد الخالق ان يكون من نظام وضعه للانسان بصفته مخلوقا سيفعل الخير أو الشر في آن واحد • والمطلوب علمه هو تقييد ما يختاره الانسان على نفسه من كل المعلوم لله ازلا من كلا الطريقين • فاذا فعل انسان خيرا من بدء حياته الى مماته ووقع ذلك فعلا فقد كان هذا الواقع معلوما لله ازلا بصفته معلوما لا بصفته واقعا لا محالة • ولكن بجانبه ايضا ان الله يعلم للشخص نفسه انه سيفعل الشر على نوع مّا من بدء حياته الى مماته بصفته معلوما لا بصفته واقعا غير ان هذا الانسان اختار بحريته الاول وترك بحريته الثاني فصار هذا الاخير من المعلوم لله غيبا لا يظهره للشخص ولا لاحد في العالم « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا »

وبهذا وبغيره يثبت لكم ان الله تعالى لم يخصص من الازل اناسا للايمان معلومين من قبل وجودهم وسينكشفون بالواقع • كلا بل كل موجود في الحياة امامه طريقان متضادان تحت حريته يراقبه الله تعالى حتى يعلم منه في اي جهة عزم بنفسه الثبات عليها فكان تعلق العلم الالهي عن كل انسان دائما هو من جهتين متضادتين في آن واحد لا من جهة الواقع وحده كما قلتم ولما كان الانسان لا يمكنه الجمع بينهما في وقت واحد فعلم الله تعالى المطلوب هو تخصيص أحدهما للانسان بارادته وحريته الذاتية . . . إذ ان هذا هو الغرض الوحيد من الخلقة

(١٨ ــ تعلق العلم الإلهي ــ علم الله بالواقع وبضده في وقت واحد) قلتم في صحيفة (٥٤١ ج ٧ م ١٢) انه متى وقع الشيء علمنا ان علم الله تعالى كان متعلقا بوقوعه لأن علمه تعالى يكون دائما مطابقا للواقع والا كان جهلا . . وذلك محال »

أما أنا فأقول لكم ان علم الله تعالى يتعلق بوقوع الاشياء قبل حصولها في أحوال مخصوصة يريدها الله تعالى بحق كالآية : « انما أمرنا لشيء إذا أردناه ان نقول له كن فيكون » ومثال ذلك وجود العالم قبل ان يوجد . . . ولكن بالنسبة للنظام الذي خلق الانسان عليه وأراد ان يسير بمقتضاه في هذه الحياة بصفة عامة فلا تعلق لوقوع الافعال الانسانية من قبل وقوعها غير أنها معلومة بشكلها التي وقعت عليه ان وقعت مثل ضدها تماما بالنسبة لمن وقعت منهم بالذات وان كان الضد الذي لم يقع صار في حيز العدم ولكنه ما زال معلوما لله تعالى في الغيب الذي لا ندركه ولا يريد الله ان ندركه لأن هذا التعلق الذي تقصدونه معناه تحديد ما وقع فعلا مهما كان من أي عمل إنساني انه كان في العلم الالهي واقعا لا محالة قبل وقوعه دون غيره . . وهذا هو الخطأ المحض بل هذا هو الخلاف الذي بيني و بينكم في الغالب ومنه أيدتم عدم فهمكم لكثير مما ذكرت آنفا (وسأشرح فيما بعد ان هذه النقطة نفسها هي التي فرقت الامة الاسلامية احزابا وكانت أصلا لسقوط الامة الاسلامية في أيامها المتأخرة المظلمة) إذ الحقيقة هي :

أولا إن الواقع كان معلوما لله تعالى مثل كثير من أنواعه واضداده بالنسبة لمن وقع منه الشيء نفسه في وقت واحد وغاية ما في الامر ان الواقع تخصص لفاعل الشيء من ضمن أنواع كثيرة كانت مفتوحة امام حريته لتنفيذ واحد منها في وقت واحد وان هذا التخصيص هو الذي كان يراقبه الخالق ليعلمه (راجع ١٧ علم الله الازلي وسير الناس في الطريقين) لانه تعالى أراد ان يكون هكذا النظام الانساني في العالم كما قال تعالى « وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » فاذا كان علم الله تعالى معلقا من الازل بمن يؤمن انه سيؤمن في وقت كذا قبل وقوعه ومن يكفر انه سيكفر في وقت كذا فما الداعي لقوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا » ؟ وأيضا — لماذا يتخذ منا شهداء أي شاهدين على من كفر به بحريته للمحاكمة في الآخرة ؟ . اللهم الا لان الناس كلهم في نظر الله سواء . وانه تعالى فتح امام كل انسان طريقين متضادين فلا يعلم الله

تعالى أنه آمن الا في حال إيمانه ولا يعلم الله تعالى انه كفر الا في حال كفره . وان حكم الواقع عند الله في العلم هو كحكم المعدوم سواء بلا فرق وان كان ذلك يعجز عنه عقل الانسان « ليس كمثله شيء »

ثانيا : عثرت في الكتبخانة الخديوية على رسالة في التوحيد بخط نسخ للامام أبي حنيفة رضي الله عنه (مجموعة نمرة ١٢٧ ن ع ٢٣٧٢) يقول فيها ما يأتي : « لم يجبر الله تعالى أحداً على الكفر ولا على الايمان ولا خلقهم مؤمنا ولا كافرا ولكن خلقهم أشخاصا والايمان والكفر فعل العباد . يعلم الله تعالى من يكفر في حال كفره كافرا . فاذا آمن بعد ذلك علمه مؤمنا في حال ايمانه وأحبه من غير ان يتغير علمه وصفته وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة اه »

فافتكر ان مدلول ذلك وان كان مجملا ولم اطلع على تفصيل له في كتاب آخر فهو يطابق في الغالب لتلك المبادئ التي أذكرها الآن وأؤيدها .

ثالثا : ما يدلكم على أن علم الله تعالى بالنسبة للعمل الانساني لا يتعلق بالواقع وحده ، بل يعلم به و بضده في آن واحد بلا فرق ـ مخاطبة الله تعالى للكافرين يوم القيامة أو ذكر أحوالهم التي سيقولونها بأنفسهم بعد ان يبصروا كل شيء على حقيقته كالآية : « ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » ـ فهذا يدلك على ان الحال الذي كانوا فيه في الدنيا وقد كفروا بالله كان ممكنا لهم أن يؤمنوا فيه بدل الكفر بلا أي مانع حتى يكون الكفر بعيدا عنهم في العدم كما صار الايمان الذي يتمنوا (؟) ان لو ردوا الى الحياة لاعتنقوه (؟) ، ولا يخفى ان ذكر الله تعالى لمثل هذه الامثال لم يكن عبثا ، بل لغرض ان نعلم أن علمه تعالى لم يكن معلقا بالكفر الذي كفروه فعلا ويعذبون لاجله في الآخرة ، لان معنى التعليق يدل على ارادته الذاتية في لزوم الكفر منهم ولو باختيارهم الذي تفرضونه مع وجود هذا التعلق ، مع ان الله تعالى يتبرأ من ذلك « ولا يرضى لعباده الكفر » ، وانما كان يعلم عنهم الايمان كما يعلم عنهم الكفر في آن واحد بكيفيتها المتضادة ثم استمر الله تعالى في مراقبته لهم حتى علم منهم انهم اختاروا الكفر بحريتهم

بدل الايمان نهائيا فجازاهم بالنار حقا والرد الى الحياة الدنيا من الآخرة مستحيل لان هذه الحياة الدنيا حق أيضا وان ما فعلوه فيها صار حقا حتى طبعوا أنفسهم عليه بحريتهم لا من أصل خلقتهم الاولى كما ان النار في الآخرة هي الجزاء الوحيد « وما ربك بظلاّم للعبيد »

رابعا : ماهو أظهر من الآية السالفة قوله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل » فان العمل الذي عملوه من الكفر والفساد صار واقعا في الدنيا حتي عذبهم الله عنه في الآخرة وان هذا الواقع نفسه علموا عنه في الآخرة « فكشفنا عنك غطاك فبصرك اليوم حديد » انهم كانوا قادرين على عمل غيره أو ضده في الوقت الذي عملوه فيه حتى كان يمكنهم ان يجعلوا الذي عملوه في العدم والضد مفعولا . وكل ذلك يؤخذ منه ان علم الله تعالى لم يكن معلقا بما فعلوه وحده بل كان يعلمه تعالى كما يعلم بضده عنهم في آن واحد وبمراقبة الله تعالى لهم علم ما اختاروه بتمام حريتهم من الكفر فكان لهم الجزاء حقا بتعذيبهم في النار « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

ولو أردنا ان نحصر كل الآيات القرآنية التي تدل على ما ذكرناه لاخذنا وقتا طويلا غير اني أذكر من أشهر هذه الآيات قوله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » ومنها : « وانفقوا مما رزقنا كم من قبل ان يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فاصدّق وأكن من الصالحين » ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « يقول يا ليتني قدمت لحياتي » ومنها قوله تعالى : « قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت » ومنها أيضا : « ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » ومن ذلك أيضا : « ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل » الخ الخ

(١٩ ــ مثالان عن علم الله الازلي وعمل الانسان) أخشى ان تقولوا ان ما ذكرته مسلطا (؟) يصعب فهمه فاحتياطا لزيادة الايضاح أذكر لكم مثالين :

الاول : إفرض يا صاحب المنار أنك أصبحت غنيا ومالكا لمحل « ستين »

الشهير الموجود بالموسكي بمصر وهذا المحل كان فيه من أنواع البضاعة ما يبلغ عدده المليون من الاصناف ثم وضعت هذه البضاعة في دواليب بترتيب منظم وكل صنف عليه نمرته مكتوبة . فالبضاعة المكتوب عليها نمر فردية من ١ و٣ و٥ الخ الى المليون مكتوب عليها أيضا انها بضاعة جيدة والمكتوب عليها نمر زوجية من ٤٢ و٦٤ الخ بضاعة رديئة . ثم أحضرت أربعة رجال من رجال ادارة المنار وقلت لأولهم ان لك في هذا المحل عشر نمر من ١ الى ١٠ والى الثاني من ١١ الى ٢٠ والى الثالث من ٢١ الى ٣٠ والى الرابع من ٣١ الى ٤٠ ثم دخل الاربعة رجال في المحل متمتعين بحريتهم وأخذ كل منهم نمره المقررة له منكم من قبل . فهكذا تقولون أنتم عن علم الله الازلي بازاء عمل الانسان في الدنيا حال وقوعه . فانكم قبل ان يأخذ الاول نمره من ١ الى ١٠ كنتم تعلمون بذلك ولما أخذها صار الواقع منه مطابقا لما كنتم تعلمون من قبل- وحاشا ان يكون فعل الله مشابها لذلك

الثاني : قلب هذا المثال بشكل آخر مع ثبوت النمر التي تعلمها من أولها الى آخرها وثبوت الرجال أنفسهم وافرض انك أعلنت هؤلاء الاربعة بأن لكل منهم عشر نمر في كل النمر الموجودة بالمحل من غير ان تخصص لهم نمرا محددة كما فعلت في المثال الاول بل اشترطت أن لكل منهم ان يقلب في المليون نمرة الموجودة ويأخذ عشرا منها كلها . فهل يمكنك بعد ان أدخلتهم في هذا المحل على هذا الشرط ان تخبرني إن كنت تعلم ما هي العشر نمر التي سيأخذها الاول أو الثاني أو الثالث أو الرابع قبل ان يضع يده بالفعل على واحدة منها . الجواب : لا تعلم ذلك الا بعد ان يضع كل منهم يده على كل منها ؟ . ولكن هل ذلك غيّر شيأ في النمر المعلومة لك كلها أو غير الرجال أو انقص شيئا من معلوماتك بخصوصهما ؟

الجواب كلا . فهكذا اقول عن الخالق سبحانه انه اخرجنا في هذه الحياة على مثل هذا الغرض وفتح للجميع طريقين متضادين فيهما من انواع الافعال ما يعجز عنه الحصر والكل يعرفها ويميزها العقل الانساني وكان هذا سر قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » ثم خاطب الجميع بقوله : « هو الذي خلق لكم ما في الارض

جميعا » فلا عين شقيا ولا قيد سعيدا وهو تعالي لذلك لا يعلم المؤمن الا في حال إيمانه ولا الكافر الا في حال كفره والكل امام الوهيته في الاصل « انسان » وهنا لا يقال ان الله تعالى جهل شيئا لان العلم المطلوب لله هو تخصيص المعلوم ازلا لمن يختاره عوضا عن تعميمه الذي كان عليه قبل هذا الاختيار وكان ذلك بناءعن ارادة الله الذاتية في وضع الانسان على هذا النظام من الازل — وكل ذلك بالبداهة للمتأمل المدقق لا يزيد علم الله شيئا ولم ينقصه ما دام الله تعالى قائما بالمراقبة ولذا كان الله من الازل الى الابد بكل شيء عليم (؟)

(٢٠ — ادوار الخلقة الانسانية أمام العلم الالهي) ينقسم الانسان الى ثلاثة ادوار امام العلم الالهي : الدور الاول ويبتدأ من بدء الكون الى وقت الولادة . وفيه جميع الناس سواء فلا شقي ولا سعيد

الدور الثاني : الحياة الدنيا وفيها كل انسان بين السعادة والشقاء فلا شقي ولا سعيدا الا عند الوفاة . والدور الثالث الاخرة وفيها الناس فريقان : « فريق في الجنة وفريق في السعير »

فاذا فرضنا ان الآخرة تجسمت امامنا ونظرنا بالعين اشخاص كل فريق ووجدنا الشخص (ج) من فريق الجنة والشخص (س) من فريق السعير . فاقول ان كلامنهما صار كذلك طبقا لما سير نفسه فيه بحريته في الحياة الدنيا وليس لكونه كان مكتوبا من الازل شقيا او سعيدا فلا يوجد في علم الله الازلي ان (ج) هذا سيكون بالذات والواقع سعيدا ليس الا ولا ان (س) هذا سيكون شقيا ليس الا وان العلم الازلي هو ان كلا من (ج) و (س) شخص طاهر مكرم لاشقاء له ولا سعادة الا بعد ان يولد في الحياة الدنيا سيسير فيها بحريته على نظام ذو (؟) وجهين متضادين فيهما السعادة والشقاء يراقبه الله تعالي عند اختيار واحد منهما فيعلم له تعالى وقتها من فعل (ج) انه سيكون في الآخرة سعيدا ومن فعل (س) بحريته انه سيكون في الاخرة شقيا وان الطريق الذي سار فيه (ج) في الدنيا و به صار سعيدا في الاخرة كان مفتوحا في الوقت نفسه امام (س) أيضا وانه كان يمكنه ان يسير مع (ج) فيه جنبا الى جنب وان

يجتمعا في الاخرة في الجنة . و بالعكس فان الطريق الذي سار فيه (س) في الدنيا بحريته و به صار في الآخرة في السعير كان مفتوحا ايضا في الوقت نفسه امام (ج) في الدنيا وان الاخير كان يمكنه السير فيه مثل (س) وان يكون معه جنبا الى جنب حتى يجتمعا (؟) معا في السعير وكل ذلك لا يغير شيئا من علم الاله الازلي

(٢١ — الله اول ملك دستوري في العالم) . قال تعالى في الكتاب العزيز : « قل اعوذ برب الناس ملك الناس آله الناس » فصرح تعالى في هذه الآية انه ملك الناس والههم . وهنا اسأل صاحب المنار ما هي نوع الحكومة التي يحكم الله تعالى بها النوع الانساني بصفته ملكا عليهم كما صرح في هذه الآية الكريمة ؟ . فاذا كانت نوع الحكومة الالهية مجهولة لصاحب المنار فاني اقول له انها هي الحكومة التي تعشقها وتتلهف على وجودها الآن جميع الامم و يسفكون لاجلها دماءهم واموالهم للحصول عليها الا وهي « الحكومة الدستورية » فان الله تعالى يحكمنا بالدستور الازلي لا بغيره وهو جل شأنه مع مطلق قدرته واوسع علمه لم يشأ ان يحكم الناس الأحكما دستوريا عادلا لنتعلم من ذلك ومما هو مسطور في القرآن الحكيم عن هذا الحكم ما نجعله اساسا في اعمالنا واحكامنا الدنيوية حتى يقام العدل وتحيى الامم على أساس رصين وكفى الانسان شرفا ان يكون هو الوحيد خليفة الله في الارض ليعمل في حكمه كعمل الله كالاية « إني جاعل فى الارض خليفة »

ولما كان الله تعالى هو الخالق لكل شيء والعالم بكل شيء علما تاما كان هو وحده الذي اسس هذا الدستور دون غيره وهو الذي يرتاح لعدالته كل مخلوق في الارض والسماء ارتياحا تاما لانه صدر هذا القانون بالرحمة وفيه « كتب على نفسه الرحمة » وكان الاساس الثاني لهذا الدستور هو منح المخلوقات « الحرية » الكاملة بعد وجودها في الدنيا لتعمل بها كل ما في وسعها « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » وانه تعالى لا يمس هذه الحرية في هذه الحياة مهما فعلت تلك المخلوقات من صالح او اساءة الا ان يعدها بجزاء ما تفعل بالرغم عنها جزاء عادلا ليس الا طبقا لما في القانون المذكور الموافق لتقلب الطبيعة الإنسانية « وما تجزون الا ما كنتم تعملون » و بمقتضاه

صار « من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها » ولهذا تنزه عن الحكم الاستبدادي المجهول نظامه وتحلى بالكمال المطلق والعدل والرحمة لان كل ما يحدث في الارض والسماء كتب فى هذا القانون « ما اصاب من مصيبة فى الارض ولا فى انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها (اي نخلقها) ان ذلك على الله يسير » و به يصيبنا فى الحياة الدنيا والآخرة بجزاء الخير أو الشر طبقا لاعمالنا وما يناسبها من بنوده العادلة

فان فرضنا مثلا ان المادة ٣٥ من قانون ما فى حكومة السودان ان من يسرق كذا بالطريقة كذا فانه يجازى بكذا و بكذا . فطبعا هذه المادة تسري على جميع الناس الذين يشملهم هذا القانون بلا استثناء وما على الحكومة الان تراعيهم وتراقبهم حتى اذا وقع واحد مرتكبا ذنبا تنطبق عليه هاته المادة تجازى(؟) بما فيها تماما . وهكذا تقول عن النظام الذي كتبه الخالق على الناس بصفته ملكا دستوريا عادلا عليهم فقد كتب قانونا لمجازاتهم بالخير أو الشر فى الحياتين تبعا لارتكابهم خطأ أو عملهم خيرا طبقا لبنوده العامة العادلة ولذا كان رقيبا على كل نفس لتنفيذه « ان الله كان عليكم رقيبا »

(٢٢ — الفرق بين فهمي وفهم صاحب المنار في القسمة) صاحب المنار يفهم من المثال الاخير السالف عن المادة ٣٥ من قانون الحكومة ان الشخص (ج) مثلا اذا ارتكب جناية السرقة بكيفية تنطبق عليها قال : ان الحكومة السودانية عند ماسنت قانونها كتبت فيه هذا الشخص وانه سيسرق في وقت كذا . وسيجازى بكذا قبل ان يحصل منه ذلك وقبل ان يقبض عليه بسنين عديدة : ولما وقعت منه السرقة قال ان ماحصل فعلا منه كان مطابقا لعلم الحكومة لان الواقع دائما يكون مطابقا للعلم - ويمثل ذلك القسمة وعلم الله اما أنا فأقول ياصاحب المنار ان علم الحكومة ليس كما تزعم ان علم الله تعالى وان كان يحيط بكل شيء ولكن ليس كما تتوهم لان الحقيقة هي غير ذلك . لان الحكومة كتبت في قانونها ما يناسب أخلاق كل الناس وأعمالها من غير ان تخصص عملا لشخص معلوم . وانها لا تعلم ان هذا السارق بالذات سيسرق

في هذا اليوم ولا تعلم انه سيأخذ هذا الجزاء . لان ذلك ليس هو القانون المعلوم عند الحكومة . بل قانون الحكومة عام على الجميع وان أخلاق الناس تتقلب بين الخبيث والطيب بحريتها . وان القانون مذكور فيه كيفية السرقة وأنواعها التي يمكن ان تحصل منه كما تحصل من خلافه . وأمام ذلك الجزاء على كل نوع منها وليس على الحكومة الا مراقبة الرعية لتنفيذ ما هو معلوم لها من قبل في بنود هذا القانون فاذا كان الشخص (ج) ارتكب جناية السرقة وكانت تنطبق على المادة ٣٥ تجازى (؟) بمنطوقها ايضا و بالعكس اذا عمل عملا صالحا ذكرته الحكومة في القانون ايضا وكانت له مكافئة كافأته بها . و بديهي للمطلع ان الفرق بين القصدين كالفرق بين السماء والارض أو هو كالفرق بين حكومة الدستور وحكومة الاستبداد . ولكن صاحب المنار يقول في (صحيفة ٥٤٣) « لست قادرا على تصور فهمه للمسألة ولا فهم وجه الاشكال التي كانت به اقلق ادواء المسلمين عنده فاحل له ما أحكم من العقد في خياله » فاذا كان صاحب المنار للآن لم يفهم وجه الاشكال فليتصور الان الفرق بين المقالين السالفين وليعلم مما ذكرناه وما سنذكره على هذا الاشكال على وجه الحق : فان الحق والباطل لا يجتمعان « ان الباطل كان زهوقا »

(٢٣ — لا قسمة معينة لشخص معين في الازل) يقول صاحب المنار صحيفة ٥٤٥ : أما علم الله تعالى فهو قديم بقدمه ازلي بأزليته - فالقسمة فيه أزلية أيضا وأقول : أما علم الله تعالى بكل ما كان وما سيكون فأمر بديهي مسلم به ولكن قسمة الاشخاص من أن هذا الشخص بالذات شقي في العلم الازلي وذاك بالذات سعيد أزلا أمر لم يفعله الخالق ويتبرأ منه القرآن . نعم نظام الشقاء الانساني أو السعادة الانسانية معلوم لله تعالى أزلا ولكن هذا النظام سينفذ على بني الانسان الذين أراد لهم الخالق أزلا ان يكونوا خلفاءه في الارض بلا فرق بين انسان وآخر فيطبق الله هذا النظام العام على أعمالهم الحرة المعلومة له من قبل ان يكونوا بصفة عامة فبعضهم سيكون بهذا النظام شقيا تبعا لحريته والبعض سيكون به سعيدا بحريته أيضا طبقا لبنوده المكتوبة قبل العالمين « وما ربك بظلام للعبيد »

قال تعالى : «ياأيها النبي قل لمن في أيديكم من الاسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم و يغفر لكم » فهذه الاية الكريمة تؤيد ان خير الله تعالى المطلوب أعطاه لهؤلاء الاسرى متوقف على تغيير مافي قلوبهم وان المعلوم لله تعالى وقت نزول هذه الاية من قلوبهم هو عدم الخير أو ضعف الايمان به أو الكفر فاذا غيروه بحريتهم التي لايمسها الخالق في هذه الحياة الى خير او ايمان أصابهم الله تعالى بعد ذلك بخير احسن مما اخذ منهم وقت الحرب من مال أ وأبناء - وان علم الله تعالى بخير قلوبهم هذا متوقف على ارادتهم الحرة لانه هكذا أراد الله تعالى ان يكونوا بتمام الاستقلال في ارادتهم ليغيروا مافي قلوبهم كالآية « ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وهذا دليل كاف على ان الله تعالى ينفذ جزاءه أوقسمته طبقا لارادتنا الحرة في اختيار نوع من الاعمال • وليس طبقا لكونها هي والافعال كانت مقسومة في الازل بالذات حتى يكون الواقع مطابقا للعلم دون غيره - كلا - بل الواقع وضد الواقع في العلم عند الله سواء ولذا قال تعالى «وان عدتم عدنا » فان قول الله تعالى للكافرين «وان عدتم » دليل على عدم الممانعة لهم من الله في الاعادة لفعل ما كانوا عليه من الفساد والكفر ثم قوله تعالى: «عدنا » أي عدنا بعد ذلك بالانتقام تبعا لما ستفعلوه (؟) ان وقع منكم في نظير كفركم كما انتقم بمثل ذلك قبلا فاذا كانت لهم قسمة من الأزل معلومة ما كان هذا التعميم البين الذي يدل كما قلنا على عدم كتابة شيء مخصوص أو منح قسمة مخصوصة لأحد من الناس في الازل وبمثل ذلك قوله تعالى :« وان تعودوا نعد » وهذا يشبه بلا تمثيل الى ان شخصا من أفراد الحكومة ارتكب جريمة تناسب مادة (٩٥) مثلا من قانون العقوبات فكلما يرتكب جناية تناسب هذه المادة عاقبته الحكومة بمضمونها فاذا عاد وارتكب نفس الجناية اعادت معاملته بالمادة نفسها وهكذا فقول الله تعالى : « وان تعودوا نعد » أي ان تعودوا لفعلكم الذي به تجازيتم (؟) بمقتضى القانون الإلهي - نعد لمثل هذا الجزاء عليكم (؟) بالثاني - فأنتم أحرار فيما تفعلون • فبذلك و بغيره قلنا « ان الله تعالى أول ملك دستوري في العالم » لشحن القرآن الحكيم من أمثال هذه الآيات الواضحة كالآية : « فمن

أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب » أي ان كل من يكذب على الله من بني الانسان يناله الجزاء المناسب لكذبه مما في الكتاب الذي هو قانون الله العادل ، و بالطبع يختلف الجزاء باختلاف درجة الكذب أو التكذيب وكل ذلك يدل على عدم قسمة النفوس في العلم الازلي بل النظام هو المقسوم والله بكل شيء عليم

كاتبه

أحمد بدوي النقاش

ضابط بالجيش المصري بالسكة الحديد السودانية

***

﴿ جواب المنار ﴾

الآن قد جاء هذا الكاتب الفلسفي بما لم يأت به من قبل ولا يفهم من سؤاله عن القضاء والقدر ولا من رسالته . في إنكار عقيدة قسمة الخلق الى سعداء وأشقياء وهذا الشيء الجديد هو اعتقاده ان الله تعالى لا يعلم ما يكون من أعمال عباده الا بعد وقوعها ، فلا أدري أكان على هذا الاعتقاد من قبل وكان هو الذي يريده من كلامه السابق فقصرت عبارته عن بيانه أم حمله الحرص على الاتيان بشيء جديد في الدين على هذا المركب الصعب بعد ان سددنا في وجهه باب الاعتراض على عقيدة القدر وعقيدة القسمة ؟

لا أناقشه في كل ما اخطأ به في هذه الرسالة لئلا يتشعب الكلام و يطول بل أخص الكلام في مسألة العلم الإلهي بعد أن أبين له بالايجاز فقرة لم يفهم مرادي منها و بنى على فهمه خلافا طفق يحتج لرأيه فيه بالآيات وغير الآيات. تلك الفقرة هي التي تكلم عنها في المسألة ١٥ وهي قولنا « وأنه بدأهم على هذا و يعيدهم عليه» ففهم من هذا انني أعني بهذا انه تعالى خلق كل فرد من أفراد البشر إما شقيا غير مستعد في فطرته لعمل الخير الذي يكون به سعيدا و إما سعيدا مطبوعا على الخير في أصل فطرته لا يستطيع غيره هذا رأي يمكن لمن يقول به ان يستدل عليه بالمشاهدة

وبعض النصوص كما يمكن لمعارضه ان يستدل ولكنه لم يكن هو الذي عنيته بتلك الفقرة بل عنيت بها حال جميع البشر (لا كل فرد منهم) في الحياة الدنيا من أولها الى آخرها وحالهم في الحياة الآخرة وهما الحالان اللتان يعبر عنهما علماؤنا بالمبدإ والمعاد . وقد قال تعالى (٧ : ٣٠ كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) فهذا ما أعنيه وهو مشاهد في أمر الدنيا وأمر الآخرة مرتب على أمر الدنيا فلا خلاف بيننا في هذا ولله الحمد

ان الضابط أحمد افندي بدوي النقاش يريد ان يثبت ان الانسان خلق حرا مختارا مستقلا في أعماله تمام الاستقلال وانه مالك لاسباب سعادته وشقائه ملكا تاما وان هذه الحرية والاستقلال والملك لا يعارضها شيء من سنن الفطرة وليس للخالق فيها فعل ولا لإرادته عليها سلطان ولا لعلمه بها تعلق الا ان الله تعالى يعلم ماعمل الانسان بعد وقوعه . وهذا مذهب لم يقل به فيما نعلم أحد من البشر المليين ولا غير المليين . بل الذي عليه المحققون من فلاسفة هذا العصر أقرب الى مذهب الجبرية من المليين كما بينا ذلك من قبل

إن العلم الإلهي يتعلق بالمعلومات تعلق انكشاف لا تعلق خلق وإيجاد وإلزام وإجبار فهو لا يعارض مذهب صاحبنا الجديد أو فلسفته الغريبة فما الذي حمله على إنكار علمه تعالى للغيب وتمحله لإثبات ذلك بالآيات الناطقة بابتلاء الله الناس وتعليله ذلك بقوله «لنعلم» وقوله «ليعلم» (* وقد فسرنا أمثال هذه الآيات بما يطابق الدلائل العقلية على إحاطة علم الله تعالى والآيات الكثيرة الناطقة بعلمه للغيب ومنه أعمال البشر قبل وقوعها والآيات الكثيرة المبينة لبعض تلك الاعمال قبل وقوعها

ورد وصفه تعالى بعالم الغيب والشهادة في الانعام والتوبة والرعد والمؤمنين والم السجدة والحشر والتغابن ، ووصف بعلم الغيب فقط في سور أخرى ، فبأي سلطان يتحكم أحمد افندي بدوي في علمه تعالى للغيب فيستثني منه أفعال الناس وهو تعالى

*) راجع ص ٧ — ١٠ ج ٢ من التفسير وص ٤١٢ — ٤١٤ م ١١ من المنار

يقول (٢ : ٢٥٥ يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء) أي يعلم ما يكون امامهم من مستقبل أمرهم وما كان من ماضيهم فهو محيط بكل شيء من أمرهم وهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء لانه هو واهب العلم للانسان وواهب كل شيء يتمتع به ، وقال أيضا بعد ذكر خبر القيامة وهي من علم الغيب (٢٠ : ١١٠ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) فهل أحاط أحمد بدوي به علما فحدد ما يتعلق به علمه ومالا يتعلق به ؟؟

ألم يخبر الله تعالى نبيه ببعض أقوال الناس وأعمالهم قبل وقوعها كقوله عز وجل (٢ : ١٤٢ سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم) وقد صدق الله فقالوا ذلك ، وقوله (٦ : ١٤٨ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) الآية وقد صدق الله فقالوا ذلك ، وقوله (٤٨ : ١١ سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم) وقد صدق الله فقالوا ذلك ، وقوله (٤٨ : ١٥ سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون الا قليلا) وقد صدق الله عز وجل فقالوا ذلك وكانوا يريدون به ما اخبر تعالى انهم يريدونه

ومن اخباره جل جلاله باعمال الناس قبل وقوعها في الدنيا قوله وسع كل شيء علمه بعد الآية الاخيرة التي ذكرناها آنفا من سورة الفتح (قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقد كان ذلك — وقوله تعالى مبشرا في هذه السورة بفتح مكة وكان النبي (ص) رأى ذلك في منامه (٤٨ : ٢٧ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) الآية وكان ذلك كما قال عز وجل وقوله (٣٠ الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو القوي العزيز * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون) وقد

صدق خبر الله تعالى ووعده في الموضعين فغلب الروم في بضع سنين وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله إياهم على المشركين كما هو مبين في محله . ويدخل في هذا الباب ما بشر الله به زكريا بيحيى وما بشر به مريم وذكره من وصف ولدها واعماله قبل ولادته ، ومن اخباره تعالى شأنه باعمال الناس واقوالهم في الآخرة قوله (٧ : ٣٨ قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار، كلما دخلت أمة لعنت اختها ، حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اولاهم لاخراهم ربنا هؤلاء أضلونا) الى الاية ٥٠ منها وليتدبر احمد افندي البدوي قوله تعالى بعد ذلك (٥١ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم) ومن قبيل آيات سورة الأعراف في تحاور أهل الجنة واهل النار وتخاصمهم آيات سورة الصافات كقوله (٣٧ : ٢٧ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) الخ وهي في تخاصم أهل النار ، وقوله في حوار اهل الجنة بينهم ثم اطلاعهم على اهل النار ومخاطبتهم إياهم (٥٠ فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون ٥١ قال قائل منهم اني كان لي قرين ٥٢ يقول أئنك لمن المصدقين) الخ الايات وفي سورة (ص) شيء من تخاصم أهل النار ، وفي سورة الحديد نبأ عما يكون من التحاور في الآخرة بين المنافقين والمؤمنين

أفنسيت ايها المنكر لعلم الله تعالى بأعمال الناس قبل وقوعها هذه الآيات كلها أم تجد لها تفسيرا برأيك تحرفها به عن مواضعها كما حرفت غيرها بسوء الفهم لا بسوء القصد كما هو الظن فيك، ولولاه لما نشرنا رسالتك، ولما طمعنا في هدايتك، فراجع نفسك ، واستغفر ربك ، ولا تغتر بعد برأيك ، واعلم ان هذه الزلة التي زللت لا تتفق مع الايمان الصحيح الذي يعتد به المسلمون ، ومن فضل الله عليك ان كنت على هذا الشذوذ الفاحش مؤمنا بالقرآن متأولا له وهذا هو محل الرجاء فيك ، والطمع في رجوعك الى الحق ، اذا كنت غير مغرور بنفسك

وهناك نوع آخر من أخباره تعالى عن مستقبل بعض الناس ، منه الاخبار بعدم إيمان اناس مخصوصين كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على إيمانهم والحجة فيه مزدوجة فهو حجة على علمه تعالى بغيب الناس وحجة على ان من الناس من يختم الله على قلبه فيفقد الاستعداد للايمان والحق والخير . ومن ذلك قوله تعالى (٢ : ٦ ان

الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ٧ ختم الله على قلوبهم) الخ وقوله (١٨ : ٥٧ وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا ابدا)

ولو شئنا لانتقلنا من هنا الى موضوع تكثر فيه الآيات الناقضة لمذهبه في الاستقلال التام والحرية المطلقة التامة للبشر في افعالهم كاسناد اعمالهم اليه تعالى وتقييد مشيئتهم بمشيئته فمنها : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق — ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين — يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا — فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى — وأضله الله على علم — سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم ان كيدي متين — وما تشاؤن الا ان يشاء الله — قل كل من عند الله — ولوشاء الله مااقتتلوا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة — ولو شاء الله لجمعهم على الهدى — ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم — ولو شاء الله لهداكم اجمعين — ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها — قل لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله — يريد الله انلا يجعل لهم حظا في الآخرة — ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا — فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاحرجا — وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو، وان يردك بخير فلاراد لفضله — ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء — والله لا يهدي القوم الظالمين — والله لا يهدي القوم الفاسقين)

وامثال ذلك كثير وما كنا نحب ان نشير اليه في موضع لا يتسع لابطال ما فهمه الجبرية منه على اننا قد بينا ذلك في التفسير وفي مواضع اخرى لا يمكن لاحمد افندي بدوي ان يستغني عما ذهبنا اليه في تفسيرها وهو ان مشيئة الله تعالى وارادته جارية على سنن حكيمة هو الذي وضعها لنظام العالم ومنها ان للانسان علما بما يفعل وارادة ترجح بعض الاعمال الممكنة المستطاعة له على بعض واستقلالا ما في عمله الاختياري اي الذي يعمله

وجملة القول ان الفرق بين اعتقادي وهو اعتقاد جميع المسلمين و بين اعتقاد احمد افندي بدوي اننا نحن نؤمن بان الله تعالى عالم الغيب والشهادة يعلم ما يعمله عباده قبل ان يعملوه و بعد ان يعملوه لايتقيد علمه بالزمان ، وانه يعلم ماسوف يجازي به جميع الناس في الآخرة كما يعلم جميع ما يصيبهم من البلاء في الدنيا قبل وقوعه و بعده بلا فرق ؛ وان الجزاء على الاعمال انما يكون بحسب تأثيرها في الارواح وتزكيتها للنفوس او تدسيتها لها كل ذلك مما يحيط به علمه وتنفذ فيه مشيئته بحسب علمه ، وان هذا كله لاينافي ما منحه الله للناس من اختيار واستقلال بل هو مرتب عليه والمنحة وآثارها من فضله بمحض ارادته . واما احمد افندي بدوي فهو يعتقد ان الانسان خارج في افعاله عن محيط علم الله تعالي ومشيئته مستقل تمام الاستقلال ليس لله عليه سلطان في أفعاله وانه سبحانه وتعالى عما وصفه به كحكومة السودان في امر الجزاء وضع قوانين وهو لا يعلم من يعمل بها ومن لا يعمل ولكنهم بعد ان يعملوا يطلع على عملهم فيجازيهم عليه !!! هذا مايريد ان يصلح به هذا الجندي دين المسلمين ؛ هذا هو التحقيق الذي فاق به الاولين والاخرين ، وماهو الا ضلال مبين ، فعسى ان يرجع عنه ولو بعد حين

تقريظ المطبوعات الجديدة

﴿ غاية الاماني، في الرد على النبهاني ﴾

كتاب مؤلف من سفرين كبيرين لأحد علماء العراق الاعلام المكنى بأبي المعالي الحسيني السلامي الشافعي . رد فيهما ما جاء به النبهاني من الجهالات والنقول الكاذبة والآراء السخيفة والدلائل المقلوبة في جواز الاستغاثة بغير الله تعالى وما تعدى به طوره من سب أئمة العلم وانصار السنة كشيخ الاسلام ابن تيمية . بين المؤلف في كتابه هذا الحق في مسألة الاستغاثة وما يتعلق بها ؛ وأطال فيما لا بد من الاطالة فيه من تكذيب ماعزي الى ابن تيمية كذباً وبهتانا من الاقوال الباطلة وماعزي اليه مما ظن الناقلون لجهلهم انه انفرد به وهو لم ينفرد به وما زعموا أنه باطل لعدم الوقوف على دليله؛ وجاء بالنقول الصحيحة من كتبه وكتب غيره من العلماء التي تفند أقوال المعترضين الكاذبين والجاهلين تفنيدا ؛ وتقذف بالحق على الباطل فيدمغه فيكون زهوقا

وفي هذا الكتاب مالا أحصيه من الفوائد العلمية في التوحيد والحديث والتفسير والفقه والتاريخ والآداب والتصوف ، وما انفرد به بعض المشاهير فانكره العلماء عليه كالانكار على الغزالي وابن العربي الحاتمي وغيرهما

فعلى هذا الكتاب نحيل الذين يكتبون الينا من الشرق والغرب يسألوننا ان نرد على النبهاني وكذا من اغتروا بقوله وتقوله وظنوا ان قولنا في الاعتذار عن عدم قراءة كتبه والرد عليها « انه لا يوثق بعلمه ولا بنقله » هو من قبيل السب . وحاش لله ما هو إلا ما نعتقده فيه وفي كتبه بعد النظر في بعضها ورؤية مافيها من الاحاديث الموضوعة والنقول المكذوبة والاستنباطات الباطلة ممن جعل نفسه بالاستنباط مجتهدا وهو ينكر الاجتهاد ويعترف بأنه ليس أهلا له

وقد قرظ هذا الكتاب طائفة من العلماء تقاريظ حسنة فكأنهم كلهم ردوا على النبهاني ما جمعه كحاطب ليل . وقد طبع بحروف واضحة في مصر ولكن جاء فيه كثير من غلط الطبع فجمع في جدول في آخره فينبغي لمن يقرأه ان يراجعه و يصحح الكتاب عليه قبل القراءة . وهو يطلب من الشيخ أحمد رزق بشارع الفحامين بمصر وثمنه خمسة وعشرون قرشا

***

﴿ إعلام الموقعين . وحادي الارواح ﴾

سبق لنا التنويه بكتاب (إعلام الموقعين) والنقل عنه فأكثر قراء المنار يعرفون قيمته و يعلمون انه لم يؤلف مثله أحد من المسلمين في حكمة التشريع ومسائل الاجتهاد والتقليد والفتوى وما يتعلق بذلك كبيان الرأي الصحيح والفاسد والقياس الصحيح والفاسد ومسائل الحيل وغير ذلك من الفوائد التي لا يستغني عن معرفتها عالم من علماء الاسلام .

واما « حادي الارواح إلى بلاد الافراح » فهو كتاب للامام أبي عبد الله محمد بن القيم صاحب إعلام الموقعين جمع فيه ما ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف في الجنة مع بيان معانيها وما يتعلق بها بما عهد من قلم المصنف الجوّال في ميدان البيان ، بما يعجز عن مثله فرسان هذا الشان ، وقد طبع الكتابان معا بحرف جميل في مطبعة النيل بمصر في ثلاثة مجلدات

***

﴿ الاجوبة المرضية ﴾

« عما أورده كمال الدين بن الهمام على المستدلين بثبوت سنة المغرب القبلية »

كتاب صفحاته ٣٦ وإذا كان يعد صغيرا في ورقاته فهو كبير في موضوعه بل يقال بادي الرأي انه أكبر من المسألة التي وضع لبيانها وهي سنية ركعتين قبل فريضة المغرب ، وربما يظن الذكي الذي لم يقرأه انه ككثير من الكتب التي وضعت لبيان شيء لا يتسع القول فيه فأكثر واضعوها من الاستطرادات والمباحث التي

ليست من الموضوع في شيء ليرضي أحدهم هواه و يظهر فضله بتأليف كتاب كبير في مسألة صغيرة

وقد يظن من له حظ من علم الحديث ان هذا الكتاب لا حاجة الى مثله لان سنة المغرب القبلية ثابتة في الصحيحين ، فلا ينبغي ان يكتب فيها أكثر من سطرين ، حرصا على الوقت ان ينفق إسرافا فيما لا فائدة فيه . واما المقلد فلا يبالي أصح الحديث في المسألة أم لا لأنه يتبع ما وجد عليه آباءه وإن كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون

وهذا الظن أيضا لا يصح ولا يرتضيه صاحبه لنفسه إذا هو اطلع على كتاب الاجوبة المرضية ولو كان الامر كما يظن قبل قراءته لما اطلت في تقريظه وتنبيه الاذهان اليه

الكتاب صغير في حجمه كبير في معناه وفائدته فهو كالمعول الصغير يهدم به البناء الكبير . هو يهدم لك تلك الشبهة الباطلة التي كبرت واتسعت حتى أحاطت بأذهان أكثر الناس وهم الذين يقولون إن علماءنا الذين سبقونا هم الذين أحاطوا بعلوم ديننا فيجب ان نأخذه منهم لا من كتبه المقدسة لاننا لا يمكن ان نفهمها كما فهموها. هذا ما كان يقوله المقلدون في كل دين حتى قاله المسلمون الذين امتاز كتابهم المنزل بابطال التقليد وذم فاعليه : يقول اتباع كل مذهب منهم ان فقهاء مذهبنا هم اعرف الناس بكلام ربنا وسنة نبينا فاذا قلدناهم كنا متبعين للكتاب والسنة من غير ان ننظر فيهما ولا ان نفهم شيئا منهما بل يجوز لنا ذلك و يقول لهم اهل البصيرة بل عليكم ان تصيبوا حظا من النظر فيهما وان يكون اصل اهتدائكم بهما وان يكون كلام العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء عونا لكم على ذلك فلا يسمعون «وما اضيع البرهان عند المقلد» وقد يزيد طالب العلم منهم جمودا وتعصبا ما يراه في بعض كتب مذهبه من الاستدلال والترجيح والرد على المخالفين الذين لم يطلع على ادلتهم فيظن ان ذلك هو التحقيق الذي ليس وراءه غاية فيتيه بذلك عجبا ولو رجع الى اصول تلك الدلائل وكلام اهل الشأن فيها لرأى ما لم يكن يرى وتغير حكمه على كثير منها وهذا كتاب الاجوبة المرضية يمثل لقارئيه نموذجا من ذلك

الكمال ابن الهمام أعلم الحنفية في عصره ولم يجيء بعده مثله بل يقل وجود مثله فيمن تقدمه منهم حتى قيل انه وصل الى رتبة الاجتهاد المطلق وكتابه الفتح القدير هو امثل كتبهم المتداولة واقواها استدلالا وبحثا في الحديث وتخريجا له ولكنه لما كان بحثه واستدلاله لاجل تأييد المذهب لا لأجل بيان الحق في نفسه سواء وافق مذهبهم ام وافق غيره من المذاهب كان كثير الغلط والخطإ في الاستدلال فاذا فحص العالم المستقل ادلته التي يرجح بها مذهبهم على مذهب الشافعي وغيره يرى الكثير منها خلابة وجدلا وكتاب الاجوبة المرضية يشرح لك ذلك في مسألة سنة المغرب القبلية فان الكمال عفا الله عنه يعارض الاحاديث المتفق عليها والمروية في احد الصحيحين وغيرهما من كتب الصحاح بأثر عند ابي داود لم يرتق به الى مرتبة الصحة فيقول في ترجيحه اقوالا ينقضها ما هو مقرر في علوم الحديث والاصول حتى انك لتعد من خطإه فيه العشرات

فكتاب الاجوبة المرضية على صغره يبين لكل ذي بصيرة ان المسلمين لا يستغنون بكتب فقهاء المذاهب مهما جل مؤلفوها عن القرآن والسنة وكتب الحفاظ في الحديث وعلومه، وانهم لا يكونون مهتدين بكلام الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الا اذا جعلوا العلم بهما مقصودا لذاته في الاهتداء لا لتأييد مذهب على مذهب

اما مؤلفه فهو الشيخ محمد جمال الدين القاسمي المنقطع في دمشق الشام للتأليف وتصحيح الكتب المفيدة والتدريس مع الاستقلال في الفهم والاخلاص في العمل والاعراض عن زينة الدنيا وما يرغب فيها علماء السوء من المال والجاه . ومع هذا كله يتهمه الحشوية والمفسدون في الارض بأنه مشتغل بتأسيس مملكة عربية ويغرون به الحكومة الدستورية كما كانوا يغرون به الحكومة الحميدية فله ان يقول:

انا في امة تداركها الله (م) غريب كصالح في ثمود

* * *

الحرية في الاسلام

ألقى الشيخ محمد الخضر أحد علماء تونس المدرسين في جامع الزيتونة الاعظم

منذ ثلاث سنين وشهور مسامرة في نادي جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الصادقية بتونس موضوعها الحرية والاسلام شرح فيها معنى الحرية والشورى والمساواة وقسم الحرية الى اقسام: حرية في الاموال وحرية في الاعراض وحرية في الدماء وحرية في الدين وحرية في خطاب الامراء، وختمها بالكلام في آثار الاستبداد

طبعت هذه المسامرة في هذا العام فبلغت صفحاتها ٦٤ صفحة وتفضل صاحبها باهدائنا نسخة منها منذ اشهر وكتب عليها بخطه وقد ارجأنا تقريظها راجين ان نجد وقتا نطالعها فيه ولما نجده، فرأينا ان ننوه بها الآن تنويها اجماليا وسننقل في جزء آخر نموذجا منها

ومن وجوه العبرة في هذه المسامرة ان علماء تونس الرسميين يخطبون في الاندية حتى في المسائل السياسية وحكم الاسلام فيها وبهذا يفضل علماء جامع الزيتونة علماء الجامع الازهر . ومنها ان الشيخ محمد الخضر كان في الوقت الذي ألقى فيه مسامرته قاضيا لمدينة بنزرت وهذا يدل على ان عمال الحكومة التونسية يتمتعون بحرية اوسع من حرية عمال الحكومة المصرية الممنوعين من الكتابة — بله الخطابة — في السياسة ولو من الوجهة الدينية . او ان فرنسا اوسع صدرا من انكلترا في ذلك

* * *

شرح المعلقات للزوزني

المعلقات السبع لفحول شعراء العرب في الجاهلية مشهورة وفائدتها لطلاب ملكة الشعر وأدب هذا اللسان معروفة، وشرح الزوزني لها هو عمدة المتأدبين في فهمها وقد طبع أكثر من مرة ولعل أحسن طبعاته هي الطبعة الاخيرة بمطبعة دار الكتب العربية بمصر فهي تفضل غيرها بمعارضة المعلقات فيها على النسخة التي اعتمدها الشيخ محمد محمود الشنقيطي امام اللغة والادب في هذا العصر[1] (رحمه الله تعالى) وباثبات الأبيات الزائدة على ما في شرح الزوزني كما وجد في نسخة الشنقيطي وبضبط الأبيات بالشكل، وبضم معلقتين أخريين اليها احداهما للنابغة الذبياني والثانية للاعشى بكر وائل وقصيدتي النابغة الداليتين الشهيرتين اللتين يصف في احداهما المتجردة

زوج النعمان بن المنذر ، ويعتذر في الاخرى له عما بلغه من السعاية فيه . ويطلب الكتاب من دار الكتب العربية الكبرى للحاج مصطفى الحلبي واخوته بمصر

***

﴿ الوطن — أو — سلستره ﴾

هي القصة التمثيلية الشهيرة لكاتب الترك وخطيبهم وأحد زعماء الاحرار السياسيين فيهم وامام النهضة الحديثة في ترقية اللغة العثمانية وتكوينها نامق كمال بيك (رح) وهو يمثل في هذه القصة حب الوطن يغالب العشق فيغلبه ، و يصور فيها الوجدان والوجد والشعور المتغلغل في اعماق النفس ، والهوى المستتر في زوايا القلب ، حتى تكاد تكون هذه المعاني الروحية ، اشباحا مرئية ، ولكنه يسرف في ذلك أحيانا فلا يراعي فيه مانعهد مثله الطباع وتعرف طعمه الأذواق فينتبه الذهن الى كونه خياليا لا حقيقيا ، وقد اشتهرت هذه القصة في أوربا حتى ترجمت باللغات الفرنسية والألمانية والروسية ، ولكنها كانت محجورا عليها في عهد الحكومة الحميدية ، كسائر آثار مؤلفها ، وجميع ماينبه الأذهان من أمثالها ، حتى إذا ماجاء الدستور ، فأباح ما حرمه الاستبداد من الآداب والعلوم ، بادر الاحرار العثمانيون إلى تمثيل هذه القصة بالتركية ، ثم مثلت في بيروت بعد ترجمتها بالعربية ، ترجمها بالعربية الشيخ محي الدين الخياط وأجدر بمثله ان يحسن ترجمة مثلها ، ويجعل فرعها وارثاً لمحاسن أصلها ، وقد أودعها بعض الأناشيد والقصائد من نظمه فزاد ذلك في معناها وحجمها ، وطبعها سليم افندي هاشم وكمال افندي بكداش وهي تطلب من المكتبة الاهلية ببيروت ومكتبتي هندية والمليجي بمصر

***

﴿ المجلات والجرائد ﴾

(النبراس) مجلة أنشأها في بيروت صديقنا الشيخ مصطفى الغلاييني وهي تبحث في المسائل الأدبية والسياسية وغير ذلك ومشربها دستوري إصلاحي . ومنشئها من تلاميذ الأستاذ الإمام كان على عهده مجاورا في الأزهر يواظب على دروسه وهو ممتلئ غيرة وإخلاصا وقد اشتهر إسمه في بيروت في اثناء اعلان

الدستور بما كان يلقيه من الخطب في الجامع . وهو مؤلف كتاب (الاسلام روح المدنية) الذي رد فيه على (لورد كرومر) وقد كان من جرأته في الحق أن طبعه في بيروت قبيل اعلان الدستور وفيه نُقول من كلام الأستاذ الامام معزوا اليه بعضها بالتصريح ونقول أخرى عن المنار (كما أشرنا الى ذلك في تقريظه) ولولا ان جاء الدستور عقب طبعه لما سلم من الخطر والبلاء من الحكومة الحميدية عدوة العلم والدين . فمجلة النبراس جديرة بتعضيد محبي الاصلاح ومساعدة النابتة الصالحة التي يرجى بنجاحها نجاح البلاد . وقيمة الاشتراك فيها ٢٥ قرشا لأهل القطر المصري وثمانية فرنكات لغيره من الاقطار ماعدا الولايات العثمانية فالقيمة لأهلها ريال مجيدي وربع

* * *

(المفيد) جريدة يومية سياسية أنشأها في بيروت صديقنا عبد الغني افندي العريسي وهو من خيرة النابتة الحرة في بيروت مهذب الاخلاق ذكي الفؤاد شديد الغيرة على الدولة والملة قوي الاخلاص لهما وحسبك انه كان على حداثة سنه من اعضاء جمعية الشورى العثمانية التي أسسناها في القاهرة لمجاهدة استبداد الحكومة الحميدية وطلب الدستور . فانا لا أزكي عليه وعلى صاحب النبراس أحدا من نابتة الديار السورية في الحرية والاخلاص للدستور والرغبة في ترقية الامة بعد كهولنا المشهورين كالسيد الزهراوي و رفيق بيك العظم

وقد ظهرت مزايا جريدة المفيد لأهل الفهم في بيروت بصدعها في انتقاد الوالي قبلاً ادهم بك وغيره من رجال الحكومة ومقارعتها لأصحاب النزغات الجنسية من الترك الذين يهضمون حقوق الأمة العربية وتنبيهها اهالي البلاد العربية التي انشئت بلسانهم الى ما به حياتهم ورفعة شأنهم ، من غير تقية ولا مراعاة ولا مداراة ، وهي شديدة الانتقاد حتى كادت تكون غالية متطرفة فيه كجريدة المقتبس وإن الحرية التي لا تزال طفلة في مهد البلاد العثمانية لا تكاد تستطيع حمل اثقال الغلو في انتقاد الحكام . فننصح لصديقنا ورفيقنا الجديد ان لا يخرج عن محيط الاعتدال ، وان يوجه سهام نقده دائما الى الاعمال لا الى العمال ،

ثم اذكره بان يتقي في تنبيه الأمة العربية وارشادها عصبية الجنس التي ينهى

عنها الاسلام ، وتنافي مصلحة الدولة في هذه الأيام ، وان نبث بثرها بعض الاغرار من الترك والاشرار من سائر الاقوام ، بل يجب إحياء اللغة العربية لانها لغة الدين الاسلامي الذي لا يفهم حق الفهم الا بها ، واللغة المشتركة بين جميع المسلمين على اختلاف اجناسهم ، لا لغة العنصر العربي وحده ، ولتكن دعوتنا الى إحيائها ونقل جميع العلوم العصرية اليها ، كدعوة علماء الاسلام وانصاره من الترك الذين نرى من نفثات اقلامهم في جرائدهم ومجلاتهم ما لم نر لجرائدنا ومجلاتنا خيرا منه في الحث على احياء هذه اللغة الشريفة ، فارجع الى مجلة « صراط مستقيم » تجدها في ذلك على هدى وعلى صراط مستقيم

ولا أنهى صاحب «المفيد» عن الوقوف بالمرصاد لمن يزل عن هذا الصراط من الترك وغيرهم فيعزز جنسيته ، وهو جاهل بأنه يضر بذلك قومه ودولته ، بل عليه ان يتتبع عوارهم ، ويقلم أظفارهم ، ويترجم مايكتبون في ذلك ويحذرهم من مغبته ، وإغرائه كل عنصر بتعزيز عصبيته ،

وقيمة الاشتراك فيها اربعة ريالات في بيروت وليرة عثمانية في سائر الجهات

* * *

(الرقيب) جريدة تصدر في بغداد مرتين في كل أسبوع وتكتب بالعربية والتركية صاحبها ومديرها عبداللطيف افندي ثنيان (وكيل مجلة المنار) ويعجبنا منها ان أكثر ما يكتب فيها هو في انتقاد ماينتقد على حكومة بغداد وعلى أهلها ومطالبة الفريقين بما يجب على كل منهما من الاصلاح . وفي يدنا الآن العدد ٥٠ منها الذي صدر في ٨ رمضان وهو مفتتح بترجمة ما كتبه النادي العسكري في بغداد للصدارة ونظارتي الحربية والداخلية عن الاختلاف واضمحلال الفيلق السادس . وسننشره في باب الاخبار . ويليه نقل ماروي عن طلعت بك ناظر الداخلية الجديد من اهتمامه بأمر الامن وراحة الاهالي وكتابته الى الولاة بذلك . والتعقيب على هذا الخبر بعدم ظهور اثر ولا ذكر له في ولاية بغداد ، والعدد كله على هذا المنهاج . قيمة الاشتراك فيها مدة سنة يصدر فيها مئة عدد ٣٠ قرشا لاهل بغداد و٣٥ لسائر الولايات العثمانية و٧ روبيات لاهل خليج فارس والهند و ١١ فرنكا لسائر الممالك

باب الأخبار والآراء

الديار السورية ، في عهد الحكومة الدستورية

بيروت

جعل ناظم باشا الشهير واليا على بيروت بعيد طلوع فجر الدستور وكانت الولاية لاتزال سكرى بخمرة الانقلاب ، وأهلها من احتقار الحكومة والافتيات عليها في هياج واضطراب ، فكانت سياسته فيها كسياسته في عهد الاستبداد : سياسة مداراة للأهالي حتى كان نفوذ كثير من البحارة والحمالين (الشيالين) في بيروت أقوى من نفوذه ، وجوارهم أعز من جواره ، بل ظهر للناس كافة انه أحوج الى حمايتهم منهم الى حمايته ، وقد وافينا بيروت في تلك الاثناء ورأينا منه هذا الضعف ، فتلطفنا في الاشارة اليه بالنصح ، مبينين له ان الاهالي مهما ظهر من اعتصابهم ، واعتصامهم فيما ليس من شأنهم ، لايقفون في وجه الحكومة اذا اخذت بالحزم ، وعنيت بما هو أول واجب عليها من حفظ الامن ، بل قلنا له ان الوالي يجب ان يكون في مثل هذا الطور الذي نحن فيه منفذا للدستور بضرب من الاستقلال يشبه الاستبداد حتى يكون الاهالي معه كمن ورد فيهم انهم يقادون الى الجنة بالسلاسل أي يلزمون الاعمال التي تقودهم اليها إلزاما لامحيص عنه . وقد أشرنا الى هذا فيما كتبناه عن رحلتنا في مجلد السنة الماضية

ولكن هذا النصح لم يؤثر في نفس الوالي لأنه جرى في المداراة على ماتعوّد ولأنه كسائر كبار الحكام قد شعر بثقل مسؤلية الدستور من حيث شعر أكثر الاهالي بضد ذلك وظنوا ان الحكومة لم يبق لها عليهم من سيطرة ولاقوة . فكان حفظ الامن وإضاعته في بيروت في يد عصائب أولي القوة من عامة الاهالي الذين يطلق عليهم لفظ (الابضايات) ونحمد الله ان كانت حكومتهم على مافيها من الخطر حافظة للامن العام

ثم نقل ناظم باشا الى دمشق الشام بعد اخراج شكري باشا منها ـ وسيجيء ذكره ـ وبقي فيها الى الشهر المنصرم فأعيد الى بيروت وعسى ان تكون حاله فيها خيرا من حاله السابقة في بيروت ومن حاله في الشام وسنشير اليها

ثم ولي ولاية بيروت أدهم بيك وهو رجل قلم وفكر ، لا رجل ادارة وعمل ، بارد المزاج لايبالي ان يعرف حال البلاد وأهلها ، ولا يهمه ماوقع فيها وانما يرى كل الواجب عليه ان ينظر في الاوراق التي تلقى اليه ، فيوقع عليها التوقيع الرسمي الذي كان يتعلمه ، اذلم يكن من قبلُ بعلمه ، وقد بينا في المنار من قبل اننا نصحناله بأن يعيد نفوذ الحكومة الى نصابه ، ويوقف افتيات عصائب العوام عند حده ، و يعنى بحفظ الامن والحرية الشخصية ، وانه أجابنا بأن هذا لايمكن ولا يتيسر الا بعد أن تصلح حكومة الاستانة نظام الشرطة والشحنة (الضابطة والبوليس) وتنفذه في جميع الولايات ، ولم يكن يعقل معنى قولنا ان ذلك في استطاعة كل حاكم وانه لايفتقر فيه الى إصلاح القوانين ولا تجديد النظام و إنما يحتاج فيه الى الحزم ومعرفة حال الاهالي ونفوذ الحاكم الحازم . وبينا أيضا اننا نصحنا بمثل ذلك لمتصرف طرابلس جواد بيك وانه كان يجيبنا بمثل ماأجابنا أدهم بيك الوالي لان كلا منهما من أصحاب النظر لا من أصحاب العمل ولكن المتصرف كان يحيل على الوالي كما يحيل الوالي على الاستانة

ظهر بعد ذلك صدق ماقلناه لهما أولهم فقد ولي قيادة الشرطة ببيروت أمير الألاي نجيب بيك فقل عصائب المفتاتين ومنع حمل السلاح وما كان من إطلاق الرصاص في الليل والنهار وقبض على من لم يفر ويغادر البلاد من المحكوم عليهم وأرهب جميع الاشقياء فعرف الاهالي مالم يكونوا يعرفون من سطوة الحكومة واحترامها ، وكان خير عون له على هذا نافذ بيك رئيس الشحنة (مدير البوليس)

وولي متصرفية طرابلس الامير أمين ارسلان فعني في أول الامر بحفظ الامن فتيسر له مع سوء حال الشرطة والشحنة ما كان يراه سلفه متعسرا بل مستحيلا من منع إطلاق الرصاص والظهور بحمل السلاح وارهاب الاشقياء والقبض على كثير من المحكوم عليهم منهم وإلقائهم في السجون ، ثم فترت همته في آخر العهد وقيل انه صار يقبل شفاعة بعض الوجهاء أو المنتسبين الى بعض الجمعيات ولعله لايدري انهم انصار الاشقياء وأعوان السفهاء وشركاء اللصوص وسالبي الامن . وقد انتخب مبعوثا عن متصرفية اللاذقية وولي مكانه آخر . فهل يعتبر الولاة والمتصرفون ورؤساء الشرطة والشحنة في سائر البلاد بفعل نجيب ونافذ وأمين في حفظ الامن واحترام الحكومة ؟

دمشق الشام

كان والي الشام عند اعلان الدستور شكري باشا ولعله أضعف ولاة الدولة عقلا وفهما ، وأسوأهم ادارة وأقلهم حزما ، ناهيك بسوء تصرفه في حادثة آخر رمضان من العام الماضي فقد كان فيها آلة في ايدي اعداء الدستور ومثيري الفتنة ابتغاء قلب الحكومة الدستورية ، وإعادة العبودية الحميدية ، وقد اشرنا الى ذلك في سياق رحلتنا السورية في منار العام الماضي فلا نعيده وقد عزل بتلك الحادثة شر عزلة

ثم ولي الشام من بعده ناظم باشا فلم يأت فيها باصلاح جديد بل انتشرت في دمشق على عهده جمعية (ولقان) الافسادية ، التي أطلقوا عليها اسم «الجمعية المحمدية» تمويها وخداعا لعوام المسلمين . نشرها مثيرو فتنة آخر رمضان كالشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ صالح التونسي واعوانهما من الوجهاء ، ولولم يصطلم محمود شوكت باشا بجيش الحرية تلك الفتنة في الاستانة بتلك السرعة التي أدهشت العالم لظهرت الفتنة في دمشق الشام في أقبح مظاهرها ولقام عشرات الألوف الذين دخلوا جمعية الافساد ينادون بابطال الدستور واعادة السلطة الحميدية ، باسم الشريعة المحمدية ، على حين لم يخذل الاسلام سلطان من السلاطين كما خذله وأضعفه السلطان عبدالحميد لاسقى الله عهده ، ولا أرى المسلمين مثله بعده

حادثة رمضان الماضي في دمشق

أشرنا في الجزء الماضي الى هذه الحادثة المشئومة وقد ظهرت بوادرها في آخر مدة ناظم باشا وشاع ان له يدا فيها وان ضلعه مع الفاتنين الذين أثاروها ولهذه الاشاعة سئل عن ذلك في بيروت فأنكره وقال انه دافع عن كرد علي لما اتهم أولا بمشايعة جمعية (ولقان) وكتب الى الاستانة ان كان كرد علي ارتجاعيا فانا ارتجاعي فكيف يتهمه بعد هذه الشهادة بالارتجاع ، وشاع أيضا ان حسين عوني بك مدير المعارف بالشام قد مهد لهذه الفتنة في الاستانة تمهيدا قربها به من تصور الحكومة ، وان السبب في ذلك حملات المقتبس الشديدة في الانتقاد عليه و بيان مافي ادارته من الخلل والتقصير .

و يغلب على ظني انه لو بقي ناظم باشا في الشام لتلافى الفتنة ولأنقذ من مخالبها مثل الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال القاسمي وعبد الرحمن بك اليوسف

لأنه يعرف من اخلاص هؤلاء للحكومة الدستورية ما لا يعرفه غيره ويعرف ما كان يكيده أكابر المجرمين ودعاة الفتنة من اتباع أبي الهدى وغيره للشيخين البيطار والقاسمي في عهد الحكومة الحميدية وانهم يكيدون لهما الآن بمثل ذلك ويريدون ان يجعلوا الحكومة الدستورية كالحميدية آلة لنفوذهم والانتقام ممن يبغضون من الاخيار والاحرار ومحبي الاصلاح · ناظم باشا يعرف هذا كله وكم منع أمثال هذه الفتن والشرور في زمن الاستبداد وهو قادر الآن على مساعدة الأبرياء كالشيخين وعبد الرحمن اليوسف وان لم يكن واليا فقوله مقبول عند الوالي الذي خلفه وفي الاستانة

أما كرد علي فقد اخطأ خطأ لا يبرئه منه أحد بل رأينا أصدق أصدقائه يلومه فالحكومة أجدر بلومه على ما كتب وان كان بسوء فهم لا بسوء قصد ولكن ليس من العدل أن يجعل الرجل جانيا خارجا على الدولة هادما للقانون الأساسي الناطق بأن سلطان العثمانيين هو خليفة المسلمين

لو كان هذا الأمر مقصودا لصاحب المقتبس كتبه ليدعو اليه لما أسنده إلى بلاغ شيخ الاسلام، الذي أرسل ليطلع عليه الخاص والعام، وهو نفسه يتمنى لو يسبق جميع الجرائد السورية الى نشره في جريدته · فمن البديهي الذي لا يماري فيه عاقل منصف ان نشر تلك الفقرة قد كان زلة قلم، لا زلة قدم، وكثيرا ما تزل أقلام الكاتبين لكلام الله وكلام رسوله، وآية ذلك انهم إذا نبهوا أو تنبهوا الى خطأهم يبادرون الى إصلاحه وكذلك فعل كرد علي فأصلح في غده خطأ أمسه، ونحن قد أصلحنا في الجزء الثامن من هذا المجلد خطأ في آية من كتاب الله وفي تفسيرها تبعا لها وقع في منار العام الماضي، وكتاب الله أعظم من بلاغ شيخ الاسلام فهل تعاقبنا حكومة الخلافة على ذلك الخطأ ؟ ؟

هل يرضى النبي عليه الصلاة والسلام أن تعاقب حكومة الخلافة النائبة عنه من يخطئ في خبر معاقبة الجناة في شخصه وعمله ومورد رزقه وهو القائل « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » · رواه الطبراني عن ثوبان (رض) بسند صحيح · أي الفريقين يكون طاعنا في كون الحكومة العثمانية حكومة خلافة ؟ أمن يخطئ في خبر لا يؤاخذه الله ولا رسوله عليه، ولا سيما بعد ان تاب ورجع عنه، أم من يعاقب من منع الله ورسوله عقابه ؟ « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا »

لقد قرت في دمشق الشام عيون اعداء الدستور الرجعيين، وما زالت راجفة فيها قلوب الأحرار المصلحين، فليهنأ الرجعيون في رمضان هذا العام بفتنة صاحب المقتبس، كما هنئوا في رمضان العام الماضي بالفتنة التي أثاروها على صاحب المنار، وكما هنئوا في عام سابق بالفتنة التي أوقعوا فيها السيد عبد الحميد الزهراوي، وليقولوا ان شاؤا ان لكل حر عندنا في رمضان فتنة، واننا نعد لكل طالب للإصلاح محنة، وإنّا لنحن الظافرون في عهد الدستور وعهد الاستبداد، وانا لنحن العابثون بحكومة عبد الحميد وحكومة رشاد، ونحن نقول ان العاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وان الاعمال بالخواتيم

وما الهنا منكم بمشف تقبا وطالما اشفى الهناء النقبا

فاذا لم ينصف الوالي الجديد القوم فستنصفهم المحكمة العرفية وان لم تنصفهم المحكمة العرفية فسينصفهم الخليفة محمد رشاد بنفسه، ويكون حزب الحق هم الغالبين وحزب الفساد والاستبداد هم الخاسرين

مظالمنا في طرابلس الشام

نحن أقل الناس تعجبا مما أصاب كرد علي من الظلم لأننا من أوسعهم علما بحظ بلادنا السورية القليل من الدستور لسوء حال الحكام وجريانهم على ما تعودوا من الاستبداد وجهل جمهور الأمة بطرق مراقبتهم ومطالبتهم بالعدل والتظلم من كل هيئة حاكمة الى ما فوقها على ضعف هذه الهيئات كلها في هذا النوع من الحكم. وعلمنا هذا بعضه نظري مبني على قواعد علم الاجتماع والسياسة وبعضه اختباري بالاطلاع على أحوال الحكام وبالدخول في المحاكمات بأنفسنا:

ظلمنا في عهد الاستبداد ظلما يقينا لا يجهله أحد من حكام بلادنا ولا من الاهالي · ظلمنا في أنفسنا وفي أموالنا وفي أوقافنا وسبب هذا الظلم هو ان أحدنا صاحب مجلة المنار، وقد نشرنا في الجزء الماضي ما كتب في جريدة بيروت الرسمية من اتهام صاحب المنار هو واخوته بالجناية ليعرف الاجنبي كما عرف الوطني سبب ظلمنا والاعتداء على حقوقنا · وقد حال الحول على الدستور ولم ترجع الحكومة الدستورية إلينا شيئا مما سلبته الحكومة الحميدية منا فضلا عما سلبه الاشقياء لعلمهم برضاها بظلمنا وعدم الانتصاف لنا ممن يعتدي علينا

توفي والدنا وجنود الاستبداد محيطة بداره فكنت الحكومة الاستبدادية بعض المتهجمين على الحقوق مما كان في تصرفه من حصة الاموال الأميرية الموجهة على أجدادنا من سلاطين آل عثمان الكرام المتسلسلة اليه من ذريتهم بغير توجيه شرعي ولا نظامي ومن أوقاف مسجدنا أيضا . وكنا كتبنا في المنار ان نائب طرابلس في ذلك العهد وجه ذلك عليه مخالفا لقانون نظام التوجيهات المصرح بأن ما كان على الرجل من مثل هذه التولية يوجه بعد وفاته على أكبر أولاده . ثم تبين لنا انه ليس هنالك توجيه صحيح وأقمنا الدعوى في المحكمة الشرعية لان صاحب هذه المجلة هو أكبر أخوته وأرشدهم وقد مرت السنة ونائب طرابلس يماطل في الدعوى ويلوي ولا يفصل فيها على وضوح الحق وظهوره ، ولماذا ؟ العلة يعرفها كل أحد !

على أنه قرر في اثناء الدعوى ان الحصة الموجهة من السلاطين على أجدادنا لم توجه بعد والدي على أحد وانه رأى ان يوجهها موقتا على خصمي مع أخ لي مناصفة الى أن تنتهي الدعوى التي لا يريد انهاءها إلا إذا أنا أرضيته وما أنا بالذي يرضيه

ثم قرر هذا النائب (عبد المجيد افندي الجعفري) ان الحصة المذكورة (وتسمى حصة السبعة القراريط أو السبعة السهام) لم توجه بعد والدي على أحد وامامه دعوى فيها ان خصمي (محمود حسن) اعتدى على هذه الحصة عدة سنين وأكلها بغير حق وهو يعلم انني صاحب الحق فيها كما هو مقرر في قانون التوجيهات فكيف وجهها الى خصمي المغتصب ولم يوجهها الي ؟

السبب في هذا هو أنه حاكم مستبد في حكومة يرى هو انها اقرب الى الفوضى من الحكومة الاستبدادية الماضية فاذا كان لا يخاف من الله ولا من الحكومة العليا ان تسأله عن ظلمه وتعاقبه عليه فماذا يمنعه من تمكين المختلس لهذه الحصة زمنا ثم يوجهها عليه توجيها موقتا بعد ثبوت اختلاسه اياها عدة سنين قبل هذا التوجيه الموقت ، ومؤبدا !!!

ماذا يخاف عبد المجيد الجعفري بعد ان ثارت عليه طرابلس بقضها وقضيضها وهجم الالوف من أهلها على المحكمة لاخراجه منها أو الفتك به لسوء سيرته واشتهاره بهضم الحقوق وانتهاك حرمة الشرع و بعد أن ارسلت العشرات من الشكاوي عليه بالبرق الى مشيخة الاسلام ونظارة الداخلية وولاية بيروت ، و بعد ان أمر شيخ الاسلام بمحاكمته في ولاية بيروت فكان من رأي المجلس الذي عقد لمحاكمته الصلح بينه

و بين خصمه بعد ان ظهر لهم وجه اداناته والحكم عليه ! ! ولماذا ؟ لانه رجل ذو عيال !

فهل تكون هذه القاعدة متبعة في حكومتنا ومرضية عند امتنا ونكون معها امة دستورية وحكومة دستورية ؟ ؟ لا لا . وهل يكون من ينجو من كل هذا في عصر الدستور مباليا بسلب الحق من صاحبه واعطائه لغيره ؟

هذا الصلح او الاغضاء عن حاكم يعبث بالشريعة و يضيع الحقوق فتعذره الحكومة لانه ذو عيال مدعاة لافساد الصالح من الحكام فضلا عن استمرار الظالم على ظلمه

تزوج الجعفري على ام اولاده فتاة في الرابعة عشرة من سنها لمجرد التمتع وهو في سن الستين ليس في لحيته شعرة سوداء . ولا يبعد ان يتزوج فتاتين أخريين ويفتح اربع بيوت على قلة راتبه الشهري ، وهل يمنعه قلة الراتب من ذلك والحكومة الدستورية تبيح له الاستبداد وهضم الحقوق والحكم بالباطل جهرا كما نعلم ذلك علم اليقين في قضيتنا وكما يلهج به الناس في بلادنا

استغفر الله إن الحكومة الدستورية لا تبيح له ذلك بطبيعتها وشكلها ولكن ليس عندنا رجال يقيمون هذه الحكومة على قواعدها ، على ان المحاكم الشرعية لم يكن لها حظ من الدستور فلا الاحكام فيها تجري بالمشاورة كمحاكم مصر ولا المشيخة الاسلامية رئيسة هذه المحاكم توجه اليها مفتشين يعقبون احكام النواب (القضاة) فيقل عبثهم بالشريعة ولا هي تضع لهم كتابا كالمجلة يلزمون الحكم بمسائله . فاذا طال العهد على هذه الفوضى في المحاكم الشرعية سقطت قيمة الشرع من نفوس العامة و بطلت ثقتها به فنوجه عناية المشيخة الجليلة الى ذلك

﴿ حال الفيلق السادس في بغداد ﴾

جاء في جريدة الرقيب البغدادية ما نصه مع تصحيح قليل :

ذكرت رصيفتنا (بغداد) في عددها ٤٨ ان قد اجتمع في النادي العسكري امراء وضباط الفيلق اجتماعا عموميا وتذاكروا في أمر الفيلق السادس وانحطاطه وتدنيه وكان من نتيجة مذاكراتهم ان بعثوا بتلغراف الى الصدارة ونظارة الحربية والداخلية وقد وقفت على صورته وأدرجته بنصه بالتركية فآثرنا درج ترجمته بالعربية وهذه هي :

« ان فيلقنا باعتبار الاعداد هو الفيلق السادس وهو الحارس الوحيد لقسم مهم من أقسام الملك العثماني ولكنه لما توالى عليه من المصائب والرزايا في السنين العديدة نزل الى دركة من السفالة والضعف . ولذلك لم تزل الدواهي تتوالى على أفراده حتى لو جمعت لبلغت أعظم مبلغ يمكن تلفه في حرب دموية عظيمة بل أضعاف ذلك . فهذه المصائب أوقعته في المخاطر وشوشت نظامه لدرجة فوق العادة .

فاليوم فضلا عن وجود الافراد الاحتياطية يوجد ٢١ تابورا من الرديف أيضا تحت السلاح ومع ذلك فالامن العام مختل بصورة لا يمكن ان تليق بالشرف العثماني ولا تقوم بشأنه وشوكته .

فالعراق اليوم بكل اطرافه بؤرة مصائب . والفيلق بجميع جهاته كل فرقة منه توجب الاسف الشديد لما هو فيه من الإزراء وما هو متصور من زيادته شيئا فشيئا ولا سبب الا سوء الادارة . وقد ترك هذا الفيلق الذي لم يزل في كل دقيقة يخطو خطوة لهاوية الاضمحلال منذ تأسيس الحكم الدستوري دون سائر الفيالق بلا قومندان ولا صاحب ولا رئيس أركان حرب !

فالاعتناء به اليوم لا يوازي عشر ما كان عليه عندما افتتح نجد اوسكن تلك الغوائل بأجمعها.

فلو وجد قومندان مقتدر فعال (لا كن لاأثر له سوى كونه عبئا ثقيلا على بيت المال) لتمكن من اعادة شرفه وشوكته وسطوته بهذه القوى المتفرقة الضعيفة .

فبناء على ذلك ان كان ثمة للحكومة العثمانية احتياج الى هذا الفيلق أو كان هذا الفيلق معدودا من فيالق الحكومة الدستورية فيجب تعيين قومندان فعال مقتدر وكذا رئيس أركان حرب وكذا امراء يكونون اهلا لقوماندانية الصنوف بأجمعها وارسالهم بالصورة السريعة فان في ذلك صونا له من الاضمحلال المحقق والتلف المحيق به .

إنا لنأسف لعدم وجود مقتدر في هذا الفيلق للقيام بالوكالة لحين وصول من سيعين له فلا يقتضي العهد في الوكالة الى أحد من الموجودين قط وقد حررنا ذلك خدمة لصالح هذا الفيلق في الحال والاستقبال و باسم هذه الخدمة طلبنا ذلك . »

(تصحيح) في « س ١١ و ١٢ ص ٧٥٥ » من هذا الجزء : ان الابرار يشربون من كأس . والصواب : ويسقون فيها كأساً . الخ

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كنار الطريق

(مصر الاثنين سلخ ذي القعدة ١٣٢٧ — ١٣ ديسمبر (كانون الأول) ١٢٨٥هـ ١٩٠٩م)

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

بعد كتابة ما تقدم رأيت في كراسة لبعض تلاميذ الاستاذ الامام كلاما نقله من درسه في تفسير « والله عليم حليم » هذا مثاله بتصرف في المعنى واختلاف في الاسلوب : هذا تحريض على أخذ وصية الله تعالى وأحكامه بقوة وتنبيه الى أنه تعالى فرضها وهو يعلم ما فيها من الخير والمصلحة لنا « وهو بكل شيء عليم » واذا كنا نعلم انه تعالى شأنه أعلم منا بمصالحنا ومنافعنا فما علينا إلا أن نذعن لوصاياه وفرائضه ، ونعمل بما ينزله علينا من هدايته ، وكما يشير اسم العليم هنا الى وضع تلك الاحكام على قواعد العلم بمصلحة العباد ومنفعتهم يشير ايضا الى وجوب مراقبة الوارثين والقوام على التركات لله تعالى في عملهم بتلك الاحكام لانه عليم لا يخفى عليه حال من يلتزم الحق في ذلك ويقف عند حدود الله عز وجل وحال

من يتعدى تلك الحدود با كل شيء من الوصايا أو الدين أوحق صغار الوارثين أو النساء الذي فرضه الله لهم كما كانت تفعل الجاهلية ، ولذلك قال فى الآية السابقة « ان الله كان عليما حكيما » فللتذكير بعلمه تعالى هنا فائدتان فائدة تتعلق بحكمة التشريع وفائدة تتعلق بكيفية التنفيذ

= وقد يخطر في البال ان المناسب الظاهر في هذه الآية أن يقرن وصف العلم بوصف الحكمة كالآية الاخرى فيقال « والله عليم حكيم » فما هي النكتة في إيثار الوصف بالحلم على الوصف بالحكمة والمقام مقام تشريع وحث على اتباع الشريعة ، لا مقام حث على التوبة فيؤتى فيه بالحلم الذي يناسب العفو والرحمة ، ؟ والجواب عن ذلك ان التذكير بعلم الله تعالى لما كان متضمنا لانذار من يتعدى حدوده تعالى فيما تقدم من الوصية والدين والفرائض ووعيده ، وكان تحقق الانذار والوعيد بعقاب معتدي الحدود وهاضم الحقوق قد يتأخر عن الذنب ، وكان ذلك مدعاة غرور الغافل ، ـ ذكرنا تعالى هنا بحلمه لنعلم ان تأخر نزول العقاب لاينافي ذلك الوعيد والإنذار ، ولا يصح أن يكون سببا للجراءة والاغترار ، فان الحليم هو الذي لا تستفزه المعصية الى التعجيل بالعقوبة ، وليس في الحلم شيء من معنى العفو والرحمة ، فكأنه يقول لايغرنّ الطامع في الاعتداء وا كل الحقوق تمتع بعض المعتدين بما ا كلوا بالباطل فينسى علم الله تعالى بحقيقة حالهم ، ووعيده لامثالهم ، فيظن انهم بمفازة من العذاب فيتجرأ على مثل ما تجرءوا عليه من الاعتداء ، ولا يغرنّ المعتدي نفسه ، تأخر نزول الوعيد به ، فيتمادى في المعصية ، بدلا من المبادرة الى التوبة ، لايغرنّ هذا ولاذاك تأخير العقوبة فانه امهال يقتضيه الحلم ، لا اهمال من العجز أو عدم العلم ، وفائدة المذنب من حلم الحليم القادر أنه يترك له وقتا للتوبة والإنابة بالتأمل في بشاعة الذنب وسوء عاقبته ، فاذا أصر المذنب على ذنبه ، ولم يبق للحلم فائدة في إصلاح شأنه ، يوشك أن يكون عقاب الحليم له أشد من عقاب السفيه على البادرة عند حدوثها ، ومن الامثال في ذلك « اتقوا غيظ الحليم » ذلك بان غيظه لايكون الا عند آخر درجات الحلم اذا لم تبق الذنوب منه شيئا وعند ذلك يكون انتقامه عظيما . نعم ان حلم الله تعالى لا يزول ولكنه يعامل به كل أحد بقدر معلوم

« وكل شيء عنده بمقدار » فلا ينبغي للعاقل أن يغتر بحلمه كما أنه لا ينبغي له أن يغتر بكرمه (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ۝ في أي صورة ما شاء ركبك ؟ كلا)

(١٢ : ١٤) تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣ : ١٥) وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ

قال الاستاذ الامام : الاشارة في قوله تعالى ﴿ تلك حدود الله ﴾ تتناول الاحكام التي ذكرت من اول هذه السورة إلى ما قبل هذه الآية أي انه تعالى جعل تلك الاحكام حدودا لاعمال المكلفين ينتهون منها اليها ولا يجوز لهم أن يتجاوزوها ويتعدوها وهكذا جميع أحكامه في المأمورات والمنهيات وكذا المباحات فان لها حدوداً اذا تجاوزها المكلف وقع في المحظور فقد قال عز وجل (٧ : ٣٠ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) أقول فمدار الطاعة على البقاء في دائرة هذه الحدود وهي الشريعة ومدار العصيان على إعتدائها ولذلك وصل الجملة المبينة كون تلك الاحكام حدوداً بذكر الجزاء على الطاعة والعصيان مطلقا فقال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ الخ . طاعة الله تعالى هي ماشرعه من الدين على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وطاعة الرسول (ص) هي اتباع ما جاء به من الدين عن ربه عز وجل ، فطاعته (ص) هي عين طاعة الله عز وجل كما قال تعالى في هذه السورة (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وسيأتي ذكر الآية مع تفسيرها ، فما هي النكتة إذاً في ذكر طاعة الرسول (ص) مع ذكر طاعة الله تعالى ؟ قد يقال إن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول (ص) إنما تتحدان فتكون الثانية عين الاولى فيما يسنده الرسول إلى ربه ويبين أنه بوحي منه وقد يأمر الرسول باشياء وينهى عن أشياء

باجتهاده فاذا جزم بذلك ولم يقم دليل على أن الامر للارشاد أو الاستحباب والنهي للكراهة أو الاستهجان وجبت طاعته في ذلك سواء كان في العبادات أو الامور السياسية والقضائية لانه إمام الامة وحاكمها وقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى لا يقر رسله على خطأ في اجتهادهم بل يبين لهم ذلك مع ذكر العفو عن عدم إعطاء الاجتهاد حقه الموصل إلى ما هو الصواب المرضي عنده عز وجل كقوله لنبينا (ص) عند ما أذن لبعض من استأذنه من المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك (٩ : ٤٢ عفا الله عنك لمَ أذنت لهم) الآية أو مع العتاب كما عاتبه على اجتهاده الموافق لاجتهاد أبي بكر الصديق (رض) في قبول الفداء من أسرى بدر بقوله : (٨: ٦٦ ما كان لنبي أن يكون له أسرى) الآيتين ، وكما عاتبه في الاعراض عن الاعمى المسترشد في أول سورة (٨٠: ١ عبس وتولى) الخ ولا يدخل في هذا المقام ما يقوله (ص) في الامور الدنيوية المحضة كالعادات والزراعة ونحوها لانه ليس دينا ولا قضاء ولا سياسة ولذلك قال (ص) في مسألة تأبير النخل « أنتم أعلم بأمر دنياكم » كما في الصحيح

الاستاذ الامام: طاعة الرسول هي طاعة الله بعينها لانه انما يأمرنا بما يوحيه اليه الله من مصالحنا التي فيها سعادتنا في الدنيا والآخرة وانما يذكر طاعة الرسول مع طاعة الله لان من الناس من كانوا يعتقدون قبل اليهودية و بعدها وكذلك بعد الاسلام الى اليوم ان الانسان يمكن ان يستغني بعقله وعلمه عن الوحي ، يقول أحدهم انني أعتقد أن للعالم صانعا عليما حكيما وأعمل بعد ذلك بما يصل اليه عقلي من الخير واجتناب الشر وهذا خطأ من الانسان ولو صح ذلك لما كان في حاجة الى الرسل وقد تقدم في تفسير سورة الفاتحة ان الانسان محتاج بطبيعته النوعية الى هداية الدين وانها هي الهداية الرابعة التي وهبها الله للانسان بعد هداية الحواس والوجدان والعقل فلم يكن العقل في عصر من عصوره كافيا لهداية أمة من أممه ومرقيا له بدون معونة الدين

أقول يرد على هذا من جانب المرتابين والملاحدة : اننا نرى كثيرا من أفراد الناس لا يدينون بدين وهم في درجة عالية من الافكار والآداب وحسن الاعمال التي تنفعهم وتنفع الناس حتى ان العاقل المجرد عن التعصب الديني يتمنى لو كان الناس كلهم مثله بل يسعى كثير من الفلاسفة لجعل الامم مثل هؤلاء الافراد في آدابهم

وارتقائهم . وأجيب عن هذا (أولا) بأن الكلام في هداية الجماعات من البشر كالشعوب والقبائل والامم الذين يتحقق بارتقائهم معنى الانسانية في الحياة الاجتماعية سواء كانت بدوية أو مدنية ، وقد علمنا التاريخ انه لم تقم مدنية في الارض من المدنيات التي وعاها وعرفها إلا على اساس الدين حتى مدنيات الامم الوثنية كقدماء المصريين والكلدانيين واليونانيين ، وعلمنا القرآن انه ما من أمة الا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله عز وجل لهدايتها فنحن بهذا نرى ان تلك الديانات الوثنية كان لها أصل الهي ثم سرت الوثنية الى أهلها حتى غلبت على أصلها كما سرت الى من بعدهم من أهل الديانات التي بقي أصلها كله أو بعضه على سبيل القطع أو على سبيل الظن . وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظا تاما الا الديانة الاسلامية وهو مع ذلك قد دوّن في أسفاره كيفية سريان الوثنية الجلية أو الخفية الى كثير من المنتسبين اليها كالنصيرية وسائر الباطنية وغيرهم ممن غلب عليهم التأويل أو الجهل حتى أنه يوجد في هذا العصر من المنتمين الى الاسلام من لا يعرفون من أحكامه الظاهرة غير قليل مما يخالفون به جيرانهم كجواز أكل لحم البقر في الاطراف الشاسعة من الهند وكيفية الزواج ودفن الموتى في بعض بلاد روسيا وغيرها !! فمن علم هذا لا يستبعد تحول الديانات الالهية القديمة الى الوثنية

فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية لان الارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المادي . وها نحن أولاء نقرأ في كلام شيخ الفلاسفة الاجتماعيين في هذا العصر (هربرت سبنسر) ان آداب الامم وفضائلها التي هي قوام مدنيتها مستندة كلها الى الدين وقائمة على أساسه وان بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين و بناءها على أساس العلم والعقل وان الامم التي يجري فيها هذا التحويل لا بد ان تقع في طور التحويل في فوضى أدبية لا تعرف عاقبتها ولا يحدد ضررها . هذا معنى كلامه في بعض كتبه وقد قال هو للاستاذ الامام في حديث له معه: ان الفضيلة قد اعتلّت في الامة الانكليزية وضعفت في هذه السنين الاخيرة من حيث قوي فيها الطمع المادي . ونحن نعلم أن الأمة الانكليزية من أشد أمم أوربا تمسكا بالدين مع كون مدنيتها أثبت وتقدمها أعم لان الدين قوام المدنية بما فيه من روح الفضائل

والآداب على ان المدنية الاوربية بعيدة عن روح الديانة المسيحية وهو الزهد في المال والسلطان وزينة الدنيا ، فلولا غلبة بعض آداب الانجيل على تلك الامم لأسرفوا في مدنيتهم المادية اسرافا غير مقترن بشيء من البر وعمل الخير واذاً لبادت مدنيتهم سريعا . ومن يقل انه سيكون أبعدها عن الدين أقربها الى السقوط والهلاك لايكون مفتاتا في الحكم ولا بعيدا عن قواعد علم الاجتماع فيه ـ فحاصل هذا الجواب الاول عن ذلك الايراد ان وجود افراد من الفضلاء غير المتدينين لاينقض ماقاله الاستاذ الامام من كون الدين هو الهداية الرابعة لنوع الإنسان التي تسوقه الى كماله المدني في الدنيا كما تسوقه الى سعادة الآخرة

وثانيا انه لايمكن الجزم بأن فلانا الملحد الذي تراه عالي الافكار والآداب قد نشأ على الالحاد وتربى عليه من صغره حتى يقال انه قد استغنى في ذلك عن الدين لاننا لانعرف أمة من الامم تربي أولادها على الإلحاد وانا نعرف بعض هؤلاء الملحدين الذين يعدون في مقدمة المرتقين بين قومهم ونعلم انهم كانوا في نشأتهم الأولى من أشد الناس تدينا واتباعا لآداب دينهم وفضائله ثم طرأ عليهم الإلحاد في الكبر بعد الخوض في الفلسفة التي تناقض بعض أصول ذلك الدين الذي نشأوا عليه ، والفلسفة قد تغير بعض عقائد الانسان وآرائه ولكن لايوجد فيها مايقبح له الفضائل والآداب الدينية ، أو يذهب بملكاته واخلاقه الراسخة كلها ، وانما يسطو الالحاد على بعض آداب الدين كالقناعة بالمال الحلال فيزين لصاحبه ان يستكثر من المال ولو من الحرام كأكل حقوق الناس والقمار بشرط أن يتقي مايجعله حقيرا بين من يعيش معهم أو يلقيه في السجن وكالعفة في الشهوات فيبيح له من الفواحش مالايخل بالشرط المذكور آنفا هذا اذا كان راقيا في أفكاره وآدابه ، وأما غير الراقين منهم فهم الذين لايصدهم عن الفساد في الارض واهلاك الحرث والنسل الا القوة القاهرة ولولا ان دول اوربا قد نظمت فرق المحافظين على الحقوق من الشحنة والشرطة (البوليس والضابطة) أتم تنظيم وجعلت الجيوش المنظمة عونا عند الحاجة لما حفظ لاحد عندها عرض ولا مال ، ولعمت بلادها الفوضى والاختلال ، ولقد كانت الحقوق والاعراض محفوظة في الامم من غير وجود هذه القوى المنظمة أيام كان

الدين مرعيا في الآداب والاحكام ـ فتبين بهذا ان طاعة الله ورسله لابد منها للسعادة الدنيا ، على ان السياق هنا قد جاء لما يتعلق بالسعادة الدائمة في الحياة الاخرى، ولذلك كان جزاء الشرط في الطاعة هو قوله تعالى

﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه الجملة واننا نؤمن بتلك الجنات والحدائق وأنها أرقى مما نرى في هذه الدنيا وانه ليس لنا أن نبحث عن كيفيتها لانها من عالم الغيب ، وقد أفرد الضمير في قوله « يدخله » مراعاة للفظ « ومن يطع » الخ وجمع الوصف الذي هو حال منه في قوله ﴿ خالدين فيها ﴾ مراعاة لمعناها فان « من » من الالفاظ المفردة التي تدل على العموم كما هو معلوم وتقدم تفسير الخلود من قبل وسيأتي في آيات كثيرة أيضا ﴿ وذلك الفوز العظيم ﴾ لانه الصافي الدائم الذي لايذكر بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة المنغصة بالشوائب والاكدار

﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ﴾ وقد جيء بالحال هنا مفردا كالضمير المنصوب في قوله « يدخله » فقال « خالدا » مراعاة للفظ « من » وقد اختار الاستاذ في نكتة ذلك ان في ذكر أهل الجنة بلفظ الجمع إشارة الى تمتعهم بالاجتماع وانس بعضهم ببعض والمنعم يسره ان يكون مع غيره قال المعري الحكيم

ولو اني حبيت الخلد وحدي   لما احببت بالخلد انفرادا

واما من قذفه عصيانه لله ولرسوله في النار فان له من العذاب مايمنعه عن الانس بغيره فهو وحيد لايجد لذة في الاجتماع بغيره ولا أنسا ، فلما كان لايتمتع بمنفعة من منافع الاجتماع كان كأنه وحيد والتعبير بلفظ « خالدا » يشير الى ذلك ويؤيد هذا المعنى الذي اختاره شيخنا قوله تعالى (٤٣: ٣٨ ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون)

وظاهر الآية ان العاصي المتعدي للحدود يكون خالدا في النار وفي المسألة الخلاف المشهور بين الاشعرية وغيرهم من أهل السنة وبين المعتزلة ومن على رأيهم فهولاء يقولون ان مرتكب المعصية القطعية الكبيرة يخلد في النار، واولئك يقولون انه لايخلد في النار الا من مات كافرا وأما من مات عاصيا فأمره الى الله وهو بين

أمرين إما ان يعفو الله عنه ويغفر له وإما ان يعذبه على قدر ذنبه ثم يدخله الجنة لقوله تعالى (٤:١١٥ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وستأتي الآية في تفسير هذه السورة. وكل فريق من المختلفين يجعل الآية التي تدل على مذهبه أصلا يرجع اليه سائر الآيات ولو باخراجها عن ظاهرها الذي يعبرون عنه بالتأويل. قال الاستاذ الامام: ذهب بعض المختلفين الى ان تعدي حدود الله تعالى هنا يراد به جميع الحدود لا جنسها ومن تعدى حدود الله كلها ولم يقف عند شيء منها فهو كافر خالد في النار. وقال بعضهم ان التعدي يصدق بالبعض وهو يكون من الكفر وجحود الحكم بعدم الاذعان له. والجحود إما صريح وإما غير صريح ولكنه حقيقي وان لم يصرح به صاحبه فان أخذ شيء من حق انسان وإعطاءه لآخر لا يكون الامن انكار حكم الله في تحريم ذلك أو الشك فيه، وان الحاكم اذا ثبتت عنده السرقة فحبس السارق ولم يقطع يده كان منكرا للحد الذي أوجب الله معاقبة السارق به أو مستقبحا له وكلاهما من الكفر وان لم يصرح به صاحبه

ثم قال ما مثاله: واذا تأملتم في هذا الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة تجدونه لفظيا فان الكلام في المصرّ على الذنب مع العلم بأنه ذنب لانه تعالى قال في الناجين المسارعين الى الجنة (٣:١٣٥ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) - راجع تفسيره في ص ١٣٥ ج ٤ من التفسير - فان من يعمل الذنب ولا يخطر في باله عند ارتكابه انه منهي عنه لا يعد مصرا عالما وقد بينا من قبل ان للذنب حالتين وانا نعيد ذلك ولا نزال نلح في تقريره الى ان نموت: (الحالة الاولى) غلبة الباعث النفسي من الشهوة أو الغضب على الانسان حتى يغيب عن ذهنه الامر الالهي فيقع في الذنب وقلبه غائب عن الوعيد غير متذكر للنهي واذا تذكره يكون ضعيفا كنور ضئيل يلوح في ظلمة ذلك الباعث المتغلب ثم لا يلبث ان يزول أو يختفي فاذا سكنت شهوته أو سكت عنه غضبه وتذكر النهي والوعيد ندم وتاب، ووقع من نفسه في أشد اللوم والعتاب، وذلك ضرب من ضروب العقاب، وصاحبه جدير بالنجاة في يوم المآب، (الحالة الثانية) أن يقدم المرء على الذنب جريئا عليه متعمدا ارتكابه عالما بتحريمه مؤثرا له على الطاعة بتركه لا يصرفه عنه تذكر النهي والوعيد عليه فهذا هو الذي قد أحاطت به خطيئته

حتى آثر طاعة شهوته على طاعة الله ورسوله فصدق عليه قوله تعالى (٢:٨٠ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فراجع تفسير هذه الآية في الجزء الاول من التفسير

ربما يقول قائل اننا نرى كثيرا من أفراد هذا الصنف مع تلبسهم بهذه الحالة يطمعون في عفو الله ومغفرته وذلك دليل الايمان المنجي. والجواب عن هذا إن من يصر على معصيته تعالى عامدا عالما بنهيه ووعيده لا يكون مؤمنا بصدق خبره ولا مذعنا لشرعه الذي تنال رحمته ورضاه بالتزامه، وعذابه وبأسه باعتداء حدوده، فيكون اذاً مستهزئا به، فالاصرار على العصيان مع عدم استشعار الخوف والندم لا يجتمع مع الايمان الصحيح بعظمة الله وصدقه في وعده ووعيده. وبهذا الذي قررته يكون الخلاف لفظيا لا حقيقيا

أقول هذا بسط ما قرره في تفسير هذه الآية على الطريقة المشهورة واذا تذكر القارئ طريقتنا في مثل هذه المسألة التي أجازها الاستاذ الامام اذ بسطناها في التفسير وفي باب الفتاوى من المنار فانه يزداد علما وبينة في هذا المقام. واعني بهذه الطريقة تأثير الذنوب والخطايا في النفس الى ان لا يبقى للايمان سلطان عليها وسنعيد القول فيه قريبا في التفسير «انما التوبة على الله الخ»

﴿ وله عذاب مهين ﴾ قال الاستاذ الامام: أراد تعالى بالعذاب المهين عذاب الروح بالاهانة يعني رحمه الله ان بدن هذا العاصي يعذب في النار من حيث هو حيوان يتألم وروحه تتألم بالاهانة من حيث هو إنسان يشعر بمعنى الكرامة والشرف فنسأل الله تعالى النجاة من العذاب المهين، والفوز بالنعيم المقيم،

(تصحيح) في أول (س ٢٤ ص ٧٨١) من هذا المجلد كلمة: القوي العزيز فترمج ويكتب (العزيز الرحيم) بالقلم

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الصلاة بعد صلاة الجمعة ﴾

(س ٣٣) من صاحب التوقيع بالسودان

سيدي الفاضل صاحب المنار الاغر ، نفعنا الله به آمين

السلام عليكم ورحمة الله : أما بعد فلما كانت مجلتكم الغراء هي المجلة الوحيدة الدينية الاسلامية التي اخذت على عاتقها خدمة الدين والامة واتباع منهج الحق والتي انتشر ذكرها في مشارق الارض ومغاربها حتى حازت ثقة الخاص والعام حماها الله وحفظكم لخدمة الملة والدين آمين ـ جئنا بالآتي :

نحن ياسيدي في بلدة حديثة العهد بالعمران يسكنها من المسلمين مايبلغ ثلاثة آلاف نفس مابين سوداني ومصري وجداوي و يماني و بعض من الهنود والمغاربة وليس فيها مرشد ديني الا قاضيها الشرعي السابق الذي أرشدنا للمنار صاحبه وعرفنا كيف نقصده عند الشدائد والذي بسعيه وجده وبما جمعه من المسلمين أسس زاوية من الخشب كأغلب ابنية البلدة وهي المسجد الوحيد الذي تقام فيه الجمعة والجماعة وما زال حفظه الله يجد ويجتهد بإلقاء دروس الفقه والتوحيد على العامة حتى نور الله بصائرهم نوعا حتى رزئنا بنقله الى محكمة مركز سواكن عقب نقل المديرية منها الى بورت سودان (بلدتنا) وجاء قاضي محكمة المديرية فتأملنا خيرا خصوصا وانه اكبر

سنا ومرتبة من سابقه ، ولما أقبلت أول جمعة بعد وصوله وحضر المصلون وازف وقت الخطبة والصلاة وصرنا في انتظار الامام ولم يتقدم أحد دعي فضيلة القاضي للخطابة فادعى انه لم يعل المنابر في عمره ولم يتعود الخطابة فخير فيمن يندبه فندب امام الاورطة المعسكرة هنا ليخطب و يصلي بالمسلمين بالنيابة عن فضيلته فأجاب المذكور وصلى وانه وان كان في لسانه عقدة وفي إلقائه بعض تعقيد غير انا حمدنا الله تعالى الذي لم يحرمنا ممن يقوم بالامامة والخطبة

صلى الامام الجمعة وعقبها بار بع ركعات الظهر أو نفل (لأدري) فظن بعض المالكية ان صلاة الامام الظهر بعد الجمعة تبطل صلاة المالكية والمسجد واحد لا تقام الجمعة في غيره فسئل الامام عن ذلك فما كان جوابه الا ان انفعل وحسبل وكبر عليه ان يسأله احد من العوام و يخطئه في صلاته (وما كان الا مستفهما) وتخلص بقوله : أناما باخدشي أجرة ومذهبي حنفي وماليش دعوه بمالك لاني ماحضرتوشي في الازهر واللي يصلي ورايه يصلي والامايصليشي عنه ماصلى !! (أرأيت الذي ينهى عبدا اذا صلى أرأيت ان كان على الهدى)

لم يكتف حضرة الامام بما أبداه من الاستياء من سؤال العامي الذي أراد ان يذكر فشفعه الذكرى بل اعاد الكرة في الجمعة التالية وأظهر عظيم استيائه وجعل خطبته طعنا وذما وشتما لمن يتجرأ على العلماء و يسألهم و يخطئهم حيث قال بعد الحمدلة والاستغفار والتشهد مانصه :

« عباد الله : قال الله تعالى «ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها » الى عظيم . وقال تعالى «ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » عباد الله : النبي أوذي من قبلي من المنافقين ولي في رسول الله اسوة حسنة ! عباد الله : وسوس شيطان من شياطين الانس لبعض المصلين ومايعدهم الشيطان الاغرورا ان يخطئني في صلاتي أو ان صلاتي باطلة حيث صليت اربع ركعات نفلا وقالوا اني صليت الظهر واقسم بالله العظيم اني ماصليت الظهر ولا تنفلت وان صلاتكم صحيحة وصلاة الذين صلوا الظهر باطلة ولم أدر كيف يتجارأ هؤلاء الشياطين على تخطئة علماء الله هم وكلاء الله في ارضه ! ! .

عباد الله: قال الله تعالى «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون» «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها الا قليلا» ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا» عباد الله: اني اخطب وما اغتصبت الوظيفة من صاحبها وما خطبت الا بعد الاذن منه فاختاروا الخطيب الذي يعجبكم. هذا وان لم ينته المنافقون فسوف يخرجهم الله من هذه البلدة مدحورين خاسرين الدنيا والآخرة كما اخرج الذين من قبلهم، عباد الله: ان شعبان قد مضى هل فيكم من قدم فيه شيئا ينفعه هل فيكم من عمل صالحا»

هذا هو ملخص الخطبة وآياتها وألفاظها والتي لم تخرج عن السب للذي سأله ومن وافق عليه من (الشياطين) وياليته ماسأل

انتهت الصلاة وقام المصلون وانصرفوا فمنهم من قال بفساد الخطبة وعدم جواز الصلاة خلف هذا الامام، وآخرون قالوا بفساد الخطبة فقط ولازال الهرج والمرج بين الناس مع اختلاف جنسيتهم وفيهم من عاهد نفسه بعدم الصلاة خلف هذا الامام

فأغيثونا وأفيدونا عن الصواب عن كلّ ما يتّبع وعن صلاح الخطبة وفسادها وصلاة الظهر للامام بعد الجمعة أو التنفل هل يفسدان صلاة المالكية مع نشر هذا السؤال برمته حتى لايقال تجاوزوا الحق أو كتبوا غير الحقيقة والمسلمون يطلبون هذه الخدمة الدينية لله وللنفع العام ولكم منا الشكر ومن الله الاجر

ولما كان خير البر عاجله فنرجوكم نشره بأول عدد وأن تفسحوا له صدركم الرحيب وصدر مجلتكم الغراء ودمت ياسيدي

ورحم الله الاستاذ الامام حيث يقول ان طول الاقامة في الازهر تضعف الاستعداد للعلم حتى قد تذهب به لان من فكر حضرة الامام ان علم الجغرافيا وما فيه من تقلب الفصول والبروج والعلوم الحديثة الاخرى هو من الكفر الذي جلبه الشيخ محمد عبده.

الفقير محمد بهجت

بالكارك السودانية

(ج) ليس فيما ذكرتم من الخطبة مايقتضي عدم صحتها أو عدم صحة صلاة

الجمعة المرتبطة بها. وصلاة الامام بعد الجمعة أربعا أو أكثر أو أقل لا يبطل صلاة الجمعة على نفسه ولا على المصلين من المالكية ولا غيرهم وما علمنا ان احداً من علماء المسلمين قال ان عملا من الاعمال يصدر من رجل يبطل عبادة غيره أو عبادة نفسه الا الردة أي الكفر بعد الايمان فانها تحبط العمل وتبطل ثوابه. فياأيها المسلمون لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق. بذلك وصى الله من قبلكم وأعلمكم به لعلكم تتقون. نعم ان صلاة الظهر بعد الجمعة ليست مطلوبة عندكم في مذهب من المذاهب وان من لا يقول بسنية صلاة قبل الجمعة وبعدها كالمالكية ليس له ان يعترض بمذهبه على مذهب غيره ممن يقول بذلك، والنظر في التعادل والترجيح بين أدلة المذاهب شيء آخر لكل أحد من المشتغلين بالعلم ان يبحث فيه بشرط ان لا يجعل سببا للتفرق بين المسلمين باختلاف الاجتهاد الذي لامندوحة عنه. وعندي ان مذهب المالكية في هذه المسألة ارجح ولكنني لااعترض على غيرهم لمخالفة اجتهادهم لاجتهادهم

واذا كان ماذكرتم عن الخطيب منصوصا على غره فانني أعظه ان لا يعود الى مثله واذكره بما يجب على الواعظ من الحلم والصبر وعدم الانتصار لنفسه ولا سيما بمثل تلك الشدة التي هي من السب والشتم وفي حديث الصحيحين «المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يحقره» وفي حديثهما ايضا «المسلم من سلم المسلمون من شر يده ولسانه» وفي رواية لغيرهما «من سلم الناس» الخ وليعتبر بعاقبة تلك الحدة فانها غيرت قلوب كثير من الناس وأطلقت ألسنتهم فيه ولو عاملهم بالحلم لجمع قلوبهم عليه فأفادهم واستفاد من اقبالهم عليه وتعلمهم منه كثرة الاجر وحسن الذكر كما كان شأنهم مع القاضي السابق ولا شيء يعين على الحلم واللين وحسن السياسة وعدم الدعوى والانتصار للنفس كالاخلاص وعسى ان يوجه قاضي المديرية همته الى اصلاح ذات البين والعناية بارشاد أهل هذا البلد وقراءة درس لهم في الحلال والحرام وآداب الدين وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالحين والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

***

﴿ اطلاق لفظ مولانا على الناس ﴾

(س ٣٤) من محمد علي افندي من موظفي كرك (يافا)

حضرة العالم العلامة السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار الاغر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : أعرض انني قد اطلعت على كتاب يدعى (صيانة الانسان عن وساوس ابن دحلان) فرأيته قد فسر كلمة « مولى » بما معناه: ان كلمة مولى مشتقة من اسم الجلالة فلا يجوز والحالة هذه اطلاقها على بني الانسان كأن يقال مثلا (مولانا فلان) فكل انسان قالها لانسان غيره يشرك بالله ! ، قرأت هذا وأنا بين الشك واليقين في كلامه لانني كثيرا ما أسمع هذه الكلمة يقولها الناس لأناس غيرهم فلم أرَ احدا يهديني للصواب سوا كم فأتيت برسالتي هذه مستفتيا اياكم عن هذه الكلمة ودرجها مع الجواب بأول عدد يصدر من مجلتكم الغراء ، فلا زلتم الملجأ لحل المشكلات ، والوحيد في فك المعضلات ، آمين .

(ج) لقد غلا صاحب ذلك الكتاب في قوله الذي نقلتموه غلوا كبيرا وأخطأ خطأ ظاهرا فلفظ المولى ليس مشتقا من لفظ الجلالة الذي هو من مادة « وله » بل هومشتق من مادة الولاية أو الولاء، وقد بين الله تعالى في كتابه ان المؤمنين بعضهم أولياء بعض وماكل ما أطلق على الله عز وجل من الاسماء يحرم اطلاقه على غيره كما هو معلوم من اطلاق لفظ « رؤف رحيم » على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن ومن تسمية المسلمين أبناءهم بالحكم والرشيد وغير ذلك مما جاء في أسماء الله الحسنى . وقد استعمل المسلمون لفظ « المولى » من عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا العهد وهو بمعنى السيد وشاع عندهم اطلاقه على المعتوق فكانوا يقولون زيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) ونافع مولى ابن عمر (رض) . ومن استعماله بمعنى السيد قول الخنساء رضي الله عنها في أخيها صخر

وان صخرا لمولانا وسيدنا   وان صخرا اذا نشتو لنحار

***

﴿ السماء والزرقة التي نراها فوقنا ﴾

(س ٣٥) من السيد محمد حسين نصيف (بجدة ـ الحجاز)

حضرة العلامة الفاضل ، والسيد الكامل ، من طار صيته حتى ملأ الاقطار ، بأعلا المنار ، مولانا السيد محمد رشيد رضا ، حفظه الله وأدامه

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أرجوكم حل هذه العقدة التي أبرمها امامنا أحد طلبة العلم مدعيا ان الزرقة التي نراها فوقنا ليست بالسماء المرادة بقوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » وانما تلك الزرقة هي الجو محتجا علينا بالحديث « مابين كل سماء خمسمئة عام » وان تلك المسافة لا يدركها البصر عقلا ، فهل السماء التي نراها فوقنا زرقاء هي السماء الحقيقية المذكورة بالقرآن والحديث؟ أم الجو كما زعم! أفيدونا وارونا من بحر علمكم الزاخر زادكم الله علما وفهما والسلام

(ج) الحديث الذي أشار اليه طالب العلم لا يصح ولا يحتج به ولفظ السماء قد أطلق في القرآن على عدة معان منها السقف في قوله تعالى من سورة الحج « فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع » الآية ، ومنها السحاب في عدة آيات وذلك ان هذا اللفظ من السمو وهو العلو فكل ما علاك وكان فوقك جاز لك أن تسميه سماء هذا هو وضع اللغة التي نزل بها القرآن . فهذا الشيء الازرق الذي نراه فوقنا في النهار سماء ومجموع هذه النجوم اللامعة التي نراها فوقنا في الليل يسمى سماء وجهة العلو فوقك تسمى سماء . وبذلك ورد القرآن . وقد اختلف علماء الهيئة الفلكية في هذا اللون الازرق الذي في السماء وينسب اليه ما يشبهه من ألوان الثياب وغيرها فيقال «سماوي» وفي لون البحر وليسوا على يقين مما يقولون فيه وهو على كل حال وكل قول لون لا يقوم بنفسه وانما يقوم بجسم أو جوهر وما يقوم به اللون يسمى سماء وان كانت الزرقة حادثة من الفصل بين النور والظلمة في هذه الجهة كما قال بعضهم . والقرآن لم ينزله الله تعالى لشرح مسائل العلوم والفنون الكونية كالفلك والنبات والحيوان وإنما

تذكر فيه محاسن المخلوقات وعجائبها للتنبيه على حكمة الله في ابداعها ونظامها وعلمه الواسع وقدرته العظيمة وأن السماء التي تنظر اليها في الليل والنهار ذات زينة بديعة وبناء محكم لاتفاوت في خلقها ولافروج ولا شقوق فيها وهي من آياته سبحانه وتعالى الدالة على الوهيته . وما اكتشفه علماء الفلك من اسرار سننها لايزيد المؤمن بالقرآن الا ايمانا وخشوعا وليس فيه شيء ينقض كلمة منه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

* * *

دفع الزكاة للجمعيات الخيرية العمومية

(س ٣٦) من صاحب التوقيع في الاسكندرية

حضرة الاستاذ الفاضل والملاذ الكامل السيد محمد رشيد رضا نفعنا الله به آمين

السلام عليكم ورحمة الله : أما بعد هل يجوز اعطاء زكاة المال للجمعيات الخيرية كجمعية رعاية الاطفال وهي ليست خاصة بفقراء المساكين المسلمين بل تقبل كل من يأتيها من فقراء اليهود والنصارى وهل يجوز نقلها لمكتب الادارة اذا كان بعيدا عن مسافة القصر كالمسافة من الاسكندرية الى مصر ونظرا لاهمية الجواب ارجو التكرم به بخطاب خصوصي وان لم يمكن فالرأي لكم ودمتم كاتبه

محمود شرف بمصلحة عموم الفنارات

(ج) الزكاة المفروضة لها مصارف معينة وهي تؤخذ من أموال المسلمين لمصالحهم فلا يجوز صرف شيء منها لغير المسلمين كما هو مفصل في كتب الفقه ومنه يعلم ان دفعها لجمعية رعاية الاطفال لايسقط الفريضة عن الدافع بل يكون مايدفع لها من صدقة التطوع وهي جائزة للمسلم وغير المسلم كما بينا ذلك في تفسير قوله تعالى « ليس عليك هداهم » فراجعه في الجزء الثاني من تفسير القرآن الحكيم . واذا علمت ان دفع الزكاة لتلك الجمعية غير جائز بمعنى انه يسقط الزكاة المفروضة فقد استغنيت عن جواب السؤال الثاني وهو نقلها الى مكتب الجمعية من مكان يبعد عنها مسافة القصر أو أكثر والله أعلم

* * *

العلم والاتحاد ، أيهما المقدم ؟

(س ٣٧) من صاحب التوقيع في سنغافورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مايقول حضرة الامام السيد محمد رشيد رضا نفع الله به آمين

في رجلين قال أحدهما : لا اتحاد بدون علم وقال الآخر بل لاعلم بدون اتحاد فمن يراه حضرة السيد المصيب ؟ وليتفضل بالجواب مبسوطا على صفحات المنار لابرحتم نافعين للأمة كاشفين عنها كل غمة آمين

السيد عبد الرحمن الكاف

(ج) مجال الكتابة في العلم والاتحاد وعلاقة كل منها بالآخر مجال واسع يمكن أن يكتب فيه مصنف كبير ولايحسن أن يكون ذلك في جواب سؤال مجمل كهذا السؤال، و بيان ترجيح رأي على آخر وكلاهما غير مبين ؟ فما هو الاتحاد المنفي جنسه بدون علم وما هو هذا العلم المنكر ؟ وما هو ذلك العلم المنفي جنسه بدون ذلك الاتحاد المنكر ؟ هل المراد اتحاد طائفة من أفراد الناس على عمل ما ؟ أم اتحاد طوائف من الناس على تكوين ملك مشترك كالاتحاد الجرماني والامريكي ؟!

الاتحاد عمل يتعلق بالجماعة أو الجماعات ولاعمل الامع العلم بكيفيته، والعلم مماينال الافراد بدون اتحاد مع غيرهم فهو المقدم دائما ولكل عمل علم خاص يكون مقدمة له ومنه الاتحاد فقول من قدم العلم هو الصواب

العرب والترك (*)

١

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

التغاير بين الاخوة الاشقاء ، والتنافس بين الجيران والخلطاء ، هما من الاخلاق المعهودة بين الناس ، في جميع الشعوب والاجناس ، وكثيرا ما يفضي التغاير الى التنافر ، والتنافس الى التحاسد ، فاذا اقترن ذلك بالتقاطع والتدابر ، ولم يفض كل من المتنافسين بما في نفسه الى الآخر ، اشتعلت بينهما نار العداوة والبغضاء ، وان كان الخير لكل منهما في الموادّة والوفاء ، وان ما يقع من الشقاق بين البشر بسوء الفهم ، اكثر مما يقع بسوء النية والقصد

تلك قوانين الاخلاق وسنن الاجتماع التي تسير عليها الافراد والاقوام ، فالعرب والترك هما الصنوان في شجرة الملة الحنيفية ، والاخوان الشقيقان في الجامعة العثمانية ، والركنان الركينان لبناء الخلافة الاسلامية ، فالرابطة بينهما جديرة بأن تبقى دائما كما وصفها كمال بك نامق زعيم النهضة الادبية في الترك بقوله : « ان كان يطمع أحد في حلها فهو الشيطان ، وان كان يقدر عليه احد فهو الله »

هذا ما كان ، وهذا مايجب ان يكون الى ماشاء الله ، ولكن وجد شيطانان لاشيطان واحد يطمعان في حل الرابطة المتينة بين العنصرين اللذين امتزجا كامتزاج الاكسجين والادروجين في تكون الماء ، أو الاكسجين والنيتروجين في تكون الهواء ، ذانك الشيطانان هما شيطان السياسة الاوربية ، وشيطان الجهل في كثير من أفراد

(*) مقال طويل كتبناه في الاستانة ونشر نبذا متفرقة مترجما بالتركية في جريدة « اقدام » الشهيرة وبالعربية في جريدة « كلمة الحق »

العنصرين ، ولكلٍّ واحد من هذين الشيطانين شر من شيطان الجن الذي ذكره كمال بك رحمه الله ، وسأبين ذلك تبيينا

ان هذا العاجز كاتب هذا المقال ربما كان من أعلم الناس بقوادم هذه المسألة وخوافيها وهزلها وجدها لانني جئت مصر منذ اثني عشرة سنة فكنت اشتغل فيها بالدعوة الى الاصلاح الاسلامي جهراً ، من حيث اشتغل بالسياسة العثمانية سراً ، وان مصر في هذا العصر ، لهي مرآة الشرق والغرب ، بما فيها من الحرية المطلقة ، والشعوب المختلفة ، والجرائد الحرة ، والاجتماعات المباحة ، فالمقيم فيها يسهل عليه ان يعرف من احوال البلاد العثمانية وسياسة الدول فيها مالا يعرفه أهل الاستانة ولا غيرهم من المقيمين في الولايات حتى في هذا العصر عصر الدستور ، فماذا تقول في عصر الاستبداد القريب: عصر الحجر على المطبوعات والختم على الافواه ، والمنع من الاجتماع ، والرعب من ذكر بعض الاسماء والالقاب ، والعقاب الشديد على فلتات اللسان ، وزلات الاقلام !!؟؟

انني ماتركت مصر وجئت الاستانة في هذا الوقت لأمتع النفس باستنشاق هوائها وعذوبة مائها ومناظر بوسفورها ، وانما جئت باحثا ومختبراً أو ساعيا في الاصلاح ، فأنا أعرض ماعندي من المعرفة والاختبار والرأي ، على اولي الامر وأهل الحل والعقد ، بعضه بالمشافهة والمسارّة ، و بعضه بالكتابة في الجرائد ، فان صادف آذانا واعية ، واعينا بصيرة متأملة ، فذلك ماأرجوه ، وان صدق ماقيل لي بمصر من ان أولي الامر وكذا أصحاب الصحف في الاستانة لايبالون بقول أحد ولا برأيه – وما أظن ان الامر كما قيل – فحسبي انني أديت الواجب عليّ وعملت بالنصيحة الواجبة لائمة المسلمين وعامتهم كما ثبت في الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

قضيت أكثر من اسبوع في هذه العاصمة لاأقابل أحدا من أولي الامر ولا من أصحاب الجرائد وانما كان همي فيها محصورا في اكتشاف الآراء ، واستخراج مخبآت النفوس ، ومكنونات الصدور ، في الامور العامة ، ومسألة سوء التفاهم بين الترك والعرب خاصة ، فرأيتني بعد ان وقفت على كثير من المسائل والآراء ، وما

فيها من الاغراض والاهواء ، لم أزدد علما بأصل المسألة وانما أضفت الى ماعندي جزئيات جديدة من الحوادث والوقائع تؤيد الامر الكلي ولا تنقض منه شيئا

فالامر الذي يجب التصريح به بالاجمال ، قبل بيان الاسباب والنتائج بالتفصيل والذي يجب ان يعلم وان يعمل به ، هو أنه يوجد شيء من سوء التفاهم بين العنصرين تخشى عاقبته ان لم يتدارك في الحال ، وأن كبراء الدولة وقادة الافكار في العاصمة ليسوا على بينة منه وأستشهد على ذلك شهيدين قريبين : أحدهما فتنة الشام في هذا العام ، وثانيهما مانشر في جريدة « اقدام » من خبر اتحاد امراء جزيرة العرب لاجل تكوين دولة عربية !

أما الاول الذي استدل به على ان حكومة العاصمة ليست على بينة من احوال الولايات العربية فهو ان بعض الوشاة في دمشق الشام بلغوا هذه الحكومة بتقريرمن تقاريرهم التي اعتادوها في زمن الحكومة الحميدية بأن أفرادًا معينين يكوّنون دولة عربية وخلافة جديدة !! فبادرت الحكومة الدستورية الى التحقيق واستنطاق المتهمين بهذه الجناية جهراً ، وكانت الحكومة الحميدية تفعل ذلك في شأنهم وشأن أمثالهم سراً ، وهم أفضل علماء الشام وأخلص المخلصين من أحرارها للحكومة الدستورية ، هم الذين كانوا مضطهدين في الدور الماضي فلما جاء الدستور ظنوا ان زمن اضطهادهم قد مضى وجاء الزمن الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم ، و يعرف فيه للمخلصين اخلاصهم ، وكانوا هم السابقين ، الى مقاومة الرجعيين ، اما ببذل نصائحهم وعلومهم كالشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي ، و إما ببذل أموالهم ونفوذهم كعبد الرحمن بك اليوسف ، والسبب في وقوع هذا الغلط عدم الوقوف على حقيقة الاحوال ودليل ذلك ان ناظر الداخلية لم يلبث ان أصدر أمرًا حين علم بالحقيقة من مدة قريبة بترك التحقيق عن المتهمين بالباطل وجعل المسألة كأن لم تكن شيئا مذكورا ، ولكن تلك الاهانة التي اصابت اولئك المخلصين بسبب ما ذكرنا من عذر الحكومة قد تنسب الى سوء القصد ، أو تضعف الثقة بالحكومة الدستورية — لو لم تتداركها — وسنبحث في طريق معرفة الحكومة والجرائد في العاصمة لاحوال الولايات في نبذة أخرى من هذا المقال

وأما الامر الثاني وهو ما أستدل به على عدم معرفة الجرائد وقرائها هنا بأحوال البلاد العربية فهو تصديق مانشرته جريدة « اقدام » مترجما عن جريدة « الاتحاد العثماني » من اتحاد امراء العرب وشيوخهم في الجزيرة واهتمام الناس هنا بذلك : وهذا ماحملني على زيارة هذه الجريدة ومكاشفة مديرها الفاضل بحقيقة الامر في ذلك الخبر والاتفاق معه على كتابة مقال في بيان ماعندي من الصواب في هذه المسألة وفي المسألة الكبرى التي تعد هذه فرعا من فروعها وهي مسألة سوء التفاهم بين العرب والترك وما يجب من طرق تلافيه بعد معرفة أسبابه ، وقد شكرت للرصيف الكريم قبوله مني ما اكتب وترجمته ونشره في جريدته

لمسألة اتفاق امراء الجزيرة أصل عرفته من اوثق المصادر واصحها وهو ان شيخ لحج (ويلقب هناك بسلطان لحج) قد كتب كتابا الى بعض امراء العرب وشيوخهم كامام الزيدية في اليمن والشريف أمير مكة في الحجاز وغيرهما وأرسله مع رسل من قبله يحملون بعض الهدايا وهي تتضمن الدعوة الى المذاكرة في الاتفاق على حفظ جزيرة العرب من العبث باستقلالها ولو من قبل الدولة العلية !. ولكن لم يجبه أحد الى دعوته ولا حصل اتفاق بين اولئك الامراء ولا اتفاق على الاتحاد ، ولا ذلك من المتيسر ولا شيخ لحج ممن يسمع له اولئك الامراء قولا ، أو يحترمون له رأيا ، أو يعتقدون فيه اخلاصا ، بل هم يسيئون الظن فيه لما بينه و بين انكلترا من الولاء ، وما يأخذ منها من العطاء ،

علمت بهذه المسألة من عدة اشهر ولم أنشرها في « المنار » ولا في غيره من الصحف لاعتقادي أنها لاضرر فيها وانما الضرر في نشرها ، وخوض العامة بذكرها لما سأبينه بعد : ولكن لما كان علم الدولة بها واجبا ولا سيما ان كانت بدسيسة اجنبية بادرت الى اخبار بعض من يثق بي من كبراء الدولة بها في كتاب ارسلته اليه من مصر على انه بلغني ان امير مكة المكرمة اخبر حكومة العاصمة بها ايضا

بعد ذلك سمع بعض التجار في عـدن وغيرها بالخبر ولكن على غير وجهه فتناقلوه حتى وصل الى طرابلس الشام فتلقفه مكاتب جريدة « المؤيد » المصرية هناك وكبره واضاف اليه ماجرت عادة مكاتبي الجرائد بالتوسع في مثله وأرسله الى المؤيد ، و بعد ان نشره المؤيد بزمن غير طويل نشرته جريدة « الاتحاد العثماني » فوصل إلى الاستانة العلية في هذه الايام وكان له من سوء التأثير ما كان . ونحمد الله

ان كانت الحكومة هنا اعرف بحقيقة هذا الامر من الجرائد اذ لولا ذلك لخشي ان تحشر الزحوف ، وتنفق الالوف ، وتسيّر الاسطول ، لدرء هذا الخطر الموهوم ، فان اتفاق اولئك الامراء لايتلافى بمثل مايتلافى به اتفاق الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال القاسمي وهما شيخان ضعيفان يقيمان في مركز فيلق من فيالق الدولة العلية !!

أكتفي بهذه النبذة اليوم وسأكشف الغطاء في النبذة الثانية عن اسباب سوء التفاهم واجعل هذا وذاك مقدمة لما أدعو اليه من الوحدة والاتفاق

٢

قلت ان العرب والترك يجب أن يكونا متحدين كالعنصرين المكونين للماء او الهواء بحيث يكون الناظرون اليهما كالناظرين الى الماء يرون شيئا واحدا لاشيئين ، والشاعرون بمقاومتهما كالشاعرين بمقاومة الهواء ، وهو قوة واحدة لاقوتان منفصلتان ، وقلت ان شيطاني السياسة الاجنبية والجهالة الداخلية ، يطمعان في حل رابطتهما القوية ، وتحليل وحدتهما الدينية الاجتماعية ، بمحال العصبية الجنسية ، وانا نبين ذلك بشيء من التفصيل

سياسة اوربا في الاجناس

وضعت في اوربا قاعدة من قواعد السياسة من عهد نابليون وهي وجوب استقلال كل جنس بنفسه ، فهذه القاعدة يعمل بها رجال السياسة الاستعمارية حيث توافق مصلحتهم فقط ، ويوجد من رجال الاجتماع من يقول بوجوب اطرادها لمصلحة البشر وان كان استقلال بعض الاجناس ينافي مصلحة جنس آخر سائد عليه او متعزز به

لهذه القاعدة فروع كثيرة تتعلق بالدولة العلية لاخير لها في شيء منها لانها مؤلفة من اجناس كثيرة لا قوة للدولة الا باتحادها كلها او جلها بالاخلاص فان شذ منها جنس صغير هو فيها كالكربون في الهواء لم يكن ذلك ضارا لها ضررا يضعف كيانها فان خلوّ الهواء من الكربون لايبطل كونه هواء وإن كان لا يخلو في الغالب منه . وانني لا أبحث هنا في هذه الفروع وإنما اقول انه لا يغبن احد من الاجناس

العثمانية في سياسة الجنسية كما يغبن الترك العثمانيون لأن من مقتضاها أن يحصر استقلالهم في بلاد الاناضول التي هم فيها أكثر عددا ولا تسمح لهم اوربا بالاتحاد باهل تركستان ولا هم يقدرون على ذلك بالقوة ، فاتهام بعض العرب وغيرهم لساسة الترك بانهم يريدون استخدام قوة الدولة لتمييز جنسهم على سائر الاجناس العثمانية هو اتهام لهم بالجهل بمصلحة الدولة و بمنفعة جنسهم فوق الجهل بما يحظره عليهم دينهم من عصبية الجنسية

سياسة اوربا الجنسية في البلاد العربية

قلت ان القائلين بهذه السياسة في أوربا فريقان : رجال الاستعمار الذين يستخدمونها لمصلحتهم بقدر مصلحتهم ، ورجال الاجتماع الذين يسعون لها سعيها على الاطلاق عملا بما يعتقدون من خير البشر . فالاولون يبثون في البلاد العربية العثمانية فكرة الاستقلال العربي مخادعة للعرب ليساعدوهم على الانفصال من جسم الدولة العلية ، وماذا تريد أوربا بعد ذلك ؟ تريد أن تضم هذه البلاد العربية تحت حمايتها أو تضمها الى مستعمراتها وتقطع عليها طريق الاستقلال باسم الاستقلال !! وان لاوربا من الدسائس والوساوس في اطماع البلاد العربية العثمانية بالاستقلال مالا تسمح لنا الحالة السياسية في الاستانة الآن بشرحه وانما اشرنا اليه لنذكر اهل الحل والعقد ورجال الصحافة في هذه العاصمة بأن سوء الادارة في عصر الاستبداد كان هو المساعد لترويج تلك الدسائس ، وان حسن الادارة وحده لا يكفي في هذا العصر لقطع عرق الدسائس وخيبة مساعي اصحابها بل يجب أن يقترن بالمساواة وتأييد الوحدة العثمانية بالعمل من الحكومة و باقوال الجرائد وفي مقدمتها جرائد العاصمة فان كلمة واحدة من جريدة تركية او من كاتب تركي تشعر بتفضيل الترك على غيرهم تحبط عمل الف واحد من العرب في الدعوة إلى الاتفاق والاتحاد

قد اشتهر امر المناظرة الطويلة التي دارت بين هذا العاجز و بين صاحب جريدة (وطن) التي تصدر في مدينة لاهور بالهند في الانقلاب العثماني الذي سميته ميمونا وسماه مناظري مشؤما ، وقد كان مما قاله في رده الاخير على انني لم أعترف لعبد الحميد بحسنة واحدة وقد كانت جرائد الشرق والغرب طافحة بتعداد حسناته الكثيرة ،

فأجبته في ردي الاخير عليه الذي نشرته في جزء المنار الذي صدر في آخر رمضان الماضي : انني أعترف لعبد الحميد بحسنتين سكة الحديد الحجازية ، وعدم التعصب للجنسية ، اذ لم يكن يقال في زمنه ترك وعرب . وأزيد الآن على ما قلته هناك انه لو كانت تلك الادارة السوءى مقرونة بالتعصب الجنسي للترك لانفصلت البلاد العربية من جسم الدولة ألبتة

هذا : وان في أوربا من اهل السياسة من يساعد على فصل بلاد العرب من جسم الدولة العلية لاجل اضعاف الدولة لا لطمع في شيء من تلك البلاد ، وانني قد دعيت منذ اعوام الى الدخول في جمعية او رياسة جمعية باوربا تدعو الى استقلال البلاد العربية وقيل لي ان جمعية كذا .... وجمعية كذا .... من الجمعيات التي تريد اضعاف الترك في مقدونية وفي الاناضول وحملهم على تفريق القوة العسكرية ، تساعد هذه الجمعية العربية بالمال الكثير اذا دخل فيها بعض المشهورين من المسلمين ، ولما رفضت هذه الدعوة قيل لي اسمح لنا بكتابة شيء في ذلك بقلمك او اسمح لنا أن نستخدم اسمك فلم اقبل بل كان ذلك مما قوى عزيمتي على القيام مع بعض اصدقائي العثمانيين بمصر بجمعية الشورى العثمانية التي ألفناها من جميع العناصر العثمانية للمطالبة بالدستور والاصلاح

واما رجال الاجتماع من الاوربيين الذين يميلون الى تكوين دولة عربية فكثيرون ، ومنهم المخلصون الذين لا يقصدون مساعدة الطامعين في البلاد العربية ولا اضعاف الشعب التركي ، وقد يستغرب كثير من القارئين لهذا المقال الجزم بوجود هذا الصنف من الناس في أوربا ، ألا فليعلم المستغربون انا نقول هذا عن علم لا عن ظن وان الانسان ما زال مصدر الغرائب . ومما وقفت عليه من ذلك ان بعض هؤلاء المخلصين في حب العرب قد عرف الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده رحمه الله) ووثق باقتداره فرغب اليه أن يضع له نظاما لاستقلال جزيرة العرب وتكوين دولة عربية فيها ليسعى في تنفيذ ذلك . وقال له انه يوجد مال كثير يبذل في سبيل المشروع وانه هو ينفق من صندوقه مبلغ كذا من الوف الجنيهات . فأقنعه الاستاذ الامام بأن فصل العرب من الترك يضيع الفريقين ويضر الاسلام نفسه ،

فقال له ذلك الاوربي الفاضل اذا كان الامر كذلك فانا أعاهدك على ترك السعي له

إن ما يظهره العلماء المستشرقون من آثار العرب في العلم والمدنية والدين وما يطبعونه في كتبهم التي كانت نسجت عليها عناكب النسيان ، هو مما يقوي ميل أولئك الاجتماعيين الى مساعدة الاستقلال العربي اذا سعت العرب اليه وطالبت به ، فأحب ان يعرف ذلك رجال السياسة والصحافة من الترك وان يعلموا علم اليقين انه لم يوجد الى هذا اليوم سعي الى هذه التفرقة الضارة ولا ميل من أهل البلاد العربية ، وان العارفين منهم بهذه المنافذ يسعون في سدها ، وان الذين أظهروا الدعوة اليها في أوربا انما هم أفراد من اصحاب المطامع الذين كانوا يبتغون المال والمناصب من عبد الحميد والتهويش على الدستور ورجاله في أول العهد باعلانه ، وان عزت العابد لا يقدر الآن على شيء ، وان كل ما يجب الآن محصور في ازالة سوء التفاهم بين العنصرين وهو ما سنبينه بعد

٣

إذا جنحت الترك للاعتصام والامتزاج بالعرب بما سأذكره من الوسائل فان العرب تكون أجنح لذلك لان الترك هم العنصر الاكبر في الدولة والسياسة ، والقاعدة الطبيعية في الجاذبية ان الاكبر يجذب الاصغر ، ولانهم أشد استمساكا بالجنسية فيخشى ان يكونوا هم الذين يكوّنون عصبية العرب الجنسية

فان قيل ان العرب هم أكبر العنصرين بكثرة عددهم وسعة أرضهم وموارد ثروتهم فهم الذين يجب ان يجذبوا الترك اليهم ، فالجواب ان هذا كان يكون صحيحا لو كان التنازع والتجاذب بين عامة العنصرين ونحمد الله انه لم يكن كذلك لان هذه العصبية اذا سرت في نفوس العامة فتنبهوا لها ، وتوجهوا الى العمل بموجبها ، فإنه يتعسر أو يتعذر نزعها من قلوبهم ، واستخراجها من أدمغتهم ، وإنما التنازع والتجاذب محصوران في طائفة من المتعلمين وهم رجال المناصب في الدولة وطلابها ، والمشتغلون بالسياسة ، كأصحاب الجرائد وكتابها ، ومجموع الفريقين في الترك أكثر منهم في العرب وهو معنى قولنا ان الترك أكبر العنصرين في الدولة والسياسة ، وإن انحصار التجاذب بين اعقل المتعلمين في الفريقين هو الذي يطمع طلاب الوفاق ومحبي الاصلاح في

ازالة سوء التفاهم الذي يغري كل فريق يبث سموم التفريق في عامة الناطقين بلغته

وأما كون الترك اشد استمساكا بعصبية الجنس من العرب فسببه ان دولتهم قامت بهذه العصبية لا بالدين الذي يجمع بين الاجناس الكثيرة و يساوي بينهم كدولة العرب أو دولهم ولا نطيل في بيان هذا لانه لا يقوي ما نرمي اليه من التأليف والتوحيد بل ربما يعارضه ، وحسبهم ان دولتهم سميت باسم جنسهم (تركيا) وكان مما زادهم استمساكا بعصبيتهم الجنسية كثرة الاجناس المزاحمة لهم في عاصمة الملك وما يتصل بها من البلاد .

نعم انهم على قيامهم بعصبية الجنس لم يكرهوا الاجناس التي استولوا على بلادها على التجنس بجنسيتهم ولا على الدخول في دينهم ؛ أما الاول فلان دولتهم لم تكن دولة علم وحكمة ، وانما كانت دولة بأس وقوة ، وقد مرت عليها القرون ولم تجعل للغة التركية نحوا ولا صرفا ولا معاجم ولا غير ذلك من كتب التعليم . وأما الثاني فلان الإسلام نفسه هو الذي لم يسمح لهم بذلك وقد أراده بعض سلاطينهم واستفتى فيه مفتيه « شيخ الاسلام » فلم يفته فامتنع لانه كان مسلما ودولته اسلامية لا شبهة في ذلك .

ما كنت لألمّ بهذا الاستطراد لولا ما خشيته من الاعتراض على بعض المقدمات الذي يترتب عليه عدم التسليم بالنتيجة . واذا سلمنا ان الاستمساك بالجنسية فيهم أشد ، وانهم أقوى على جذب غيرهم اليهم وأقدر ، فلا مندوحة لنا عن التسليم بأن الخوف من التفرق والرجاء في الاعتصام هما منهم وفيهم أشد وأقوى أيضا . واني لأرجح الرجاء على الخوف لحسن ظني بكبراء القوم وزعمائهم الذي لا ينقضه وقوع بعض الاغلاط منهم ، التي تولد منها ما تولد من سوء الفهم ، الذي يسهل تداركه مع حسن القصد ، وقد رأيت بوادر الارتياح الى التدارك من فخامة الصدر الاعظم فمن دونه من رجالهم الذين اتفق لي الحديث معهم ، بل رأيت الكثيرين من فضلائهم قد اقبلوا بعد نشر النبذة الاولى من هذا المقال في جريدة (اقدام) بالسلام عليّ والتعرّف بي والشكر لي والاعتراف بحسن ما دعوت اليه من وجوب الاتحاد والاعتصام . وكذلك فعل الكثيرون من وجهاء العرب المقيمين في هذه العاصمة . افليس هذا دليلا على صدق ما جزمنا به من كون المسألة التي نبحث فيها مسألة سوء فهم يسهل تداركها قبل اتساع دائرتها ؟ بلى ، ومتى وضحت الاسباب ، زال الارتياب ،

تاريخ التغاير بين العرب والترك

ان الطبيب لا يحسن معالجة المريض ويكون جديرا بالنجاح فيها الا اذا كان عارفا بتاريخه الصحي وبما طرأ عليه من الامراض من قبل ، بل يجب ان يكون مع ذلك على علم بالحال الصحية في آبائه وعشيرته ليعرف استعداد مزاجه وما عسى ان يكون قد سرى اليه بالوراثة ، وكذلك يجب ان يعرف الطبيب الاجتماعي تاريخ الامم والشعوب التي يتصدى لارشادها ومعالجة امراضها الاجتماعية ، واخلاقها وعاداتها الطارئة والموروثة ، وهذا ما يدعونا الى الاشارة الى ما لا بد من التذكير به من تاريخ التغاير بين هذين العنصرين اللذين يجب ان يتحدا دائما كاتحاد عنصري الهواء أو الماء

كان للعرب مدنيات قديمة قد امتدت من بلادهم الى بلاد الكلدان والفرس من جهة الشرق والى مصر من جهة الغرب فتاريخ دولة الرعاة العربية في مصر معروف ويقول بعض المؤرخين انه كان لهم في تلك البلاد دولة اقدم منها ، وشريعة حمورابي وهي اقدم الشرائع المعروفة من التاريخ شريعة عربية ، فحمورابي العربي كان يدعى ملك السلام كما في العهد العتيق والعهد الجديد من اسفار أهل الكتاب وكان معاصرا لابراهيم الخليل عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، الا ان تلك المدنيات قد زالت كما زال غيرها من المدنيات القديمة — ولم يظهر شيء من آثارها الا في هذا العصر الذي عني فيه الاوربيون باستخراج الآثار القديمة من بطن الارض ، وسيجاريهم العثمانيون في ذلك وهم أحق بمعرفة تاريخ البلاد التي ورثوها ويوجب عليهم الدستور في هذا العصر عمارتها كما أوجب الاستبداد على سلفهم اهمالها ان لم تقل تخريبها

ثم اتى على العرب حين من الدهر لم يكونوا فيه شيئا مذكورا في عالم المدنية حتى انبلج فيهم فجر الاسلام بمكة المكرمة وطلعت شمسه بالمدينة المنورة ثم امتد نوره الى سائر الآفاق ، واتسعت فتوحاته في الشرق والغرب ، واحيا العلوم التي كانت قد ماتت ، وجدد المدنية التي كانت قد عفت وطمست ، ولكن كان من تعاليمه محو العصبية الجنسية ، ولذلك كانت الدواوين التي دونها الخليفة الثاني للحكومة في بلاد الشام باللغة الرومية الى عهد عبد الملك بن مروان ، وكان وزراء اعظم الخلفاء العباسيين

من الفرس ، وحاشية آخرين منهم وحرسهم وجندهم الخاص الممتاز من الترك . ثم حدثت في بلاد الخليفة العباسي سلاطين الطوائف فكان منهم الفارسي والتركي والكردي، ولم يخطر في بال العرب ان هؤلاء غرباء عنهم، وانه يجب تأليف عصبية عربية لنزع الملك منهم؛ ذلك بأن الاسلام نزع عصبية الجنس من قلوبهم بقول الله لهم في سورة الحجرات «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم» فعلمهم ان الشعوب التي تختلف باختلاف الجنسية والقبائل المتفرقة باختلاف النسب يجب ان تتعارف فتأتلف ، لا ان تتناكر فتختلف، و بذلك أوصاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع وصرح بأنه لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى، ولذلك كانت العرب ولا تزال تفضل مثل ملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي الكردي على أكثر ملوك بني أمية . ولذا سهل على ملوك آل عثمان الاستيلاء على البلاد العربية ولم يخطر على بال الامة العربية أنه قد استولى عليها قوم ليسوا من جنسها؛ اذ ليس لها — ومعظمها على الاسلام — جنسية في غير دينها ، ألم تر الى الشعب المصري العربي كيف يئن من نفوذ الانكليز وهم ليسوا بمالكين، ويحن الى الترك وان كانوا الى آخر عهد عبد الحميد من الظالمين، ومن الامور التي لاينكرها مصري ولا تركي ان الانكليز قد اصلحوا من بعض الوجوه في مصر وأن الترك لم يصلحوا فيها شيئا ، ولا نزيد على ذلك لئلا نخرج الى ما ليس من غرضنا أو الى ما يوشك ان يضعف صوتنا فيه

يقول بعض المتفرنجين منا ان عدم تعصب العرب لجنسهم كان ضارا بهم لانه أزال ملكهم ، وان الترك لو عملوا بهذه السياسة الاسلامية لكان شأنهم في ذلك كشأنهم، ونقول ان هذا القول باطل وليس هذا المقام مما يتسع لبيان بطلانه بالحجة والبرهان ، وانما الغرض مما تقدم بيان ان العرب لا يكرهون سلطة الترك تعصبا لجنسهم وانما ينكرون منهم بعض الاخلاق والاعمال كما ينكر بعض أفرادهم و بعض جماعاتهم على بعض . هذا ما عليه مجموع الامة العربية لا جميع افرادها فانني لا أنكر انه قد سرى الى كثير من المتعلمين الميل إلى التعصب الجنسي والاستقلال العربي وهو المقصود من بحثي هذا

ان الدولة التركية لم يكن لها في عصور قوتها نفوذ ولا سلطة ولا دواوين ولا محاكم في داخلية البلاد العربية ولا مدارس تركية فهي لم تمتزج بالعرب ولم تلتحم معهم بلحمة العدل والعلم واللغة فيكون الترك والعرب امة واحدة، ولم تسسهم بالقوة والجبروت والظلم العام فتفسد بأسهم وتجعلهم امة ذليلة ؛ بل كانت الى ما قبل « التنظيمات الخيرية » التي وضعت في عهد السلطان عبد المجيد (رحمه الله تعالى) تكتفي بارسال بعض عمالها الى بعض البلاد الكبيرة لاجل اخذ ما فرض على كل جهة من المال للدولة ، ولكن البلاد المصرية قد ذاقت من الظلم في عهد المماليك ما صارت تعد به عصر محمد علي باشا وعصر احفاده عصر نور واصلاح ؛ على ما كان فيه من ظلم وجور، ومع هذا كله لم تتوجه نفوس المصريين الى طلب الاستقلال التام عن الترك الا في عهد الثورة العرابية ، ثم لما كانت عاقبة الثورة هي احتلال الاجانب للقطر المصري حدث للمصريين من التعلق بالدولة العلية ما هو معروف وقد أشرنا اليه آنفا

بعد « التنظيمات الخيرية » تغلغل عمال الحكومة من الترك في البلاد العربية فلم يكن الناس يستنكرون سلطتهم ، أو يستثقلون وطأتهم ، ولا كانوا يرون أنفسهم أذلاء بخضوعهم لحاكم أجنبي عنهم بل كان السواد الاعظم وهم المسلمون يعدون التركي منهم لانه مسلم وهم قلما يفكرون في مسألة الجنسية، وأما غير المسلمين فلم يكن عندهم فرق بين التركي المسلم والعربي المسلم فهم كالمسلمين كانوا لا يفكرون في غير الرابطة الدينية ثم صار المتعلمون منهم على الطريقة الاوربية يدعون الى الرابطة الوطنية على ان اكثر اهل بلادنا لا يفهمون من معنى الوطن الا موضع الاقامة حتي ان كل بلد عندهم وطن وهذا هو المتبادر من المعنى اللغوي . ثم ان النصارى سبقوا في كثير من البلاد العربية الى التقرب الى حكام الترك بتعلم التركية حتى صار كتاب الدواوين كلهم أو جلهم منهم في أوائل العهد بالتنظيمات ثم قل عددهم فيها بعد ذلك

نعم ان جهل أهالي البلاد للغة التركية وجهل الحكام من الترك للغة العربية كانا ولا يزالان من أسباب الجفاء وعدم الانس ، واشتهر الترك على رقة حاشيتهم وعلو أدبهم بالكبر والغلظة على ان كثيرا منهم كان يتكبر لظنه ان التكبر يكون أدعى

الى المهابة والاجلال ولكن لم يكن يشعر بهذا إلا بعض أفراد الامة وهم رجال الحكومة من أهل البلاد فلم يكن له تأثير في الامة يوجب سريان الكراهة للجنس ، وإنما كان يعرف بين الناس وصف الحاكم من حيث هو حاكم فيقال هذا الوالي أوهذا المتصرف عادل لا يأكل « الرشوة » وهذا الوالي أو المتصرف يأكل ويشرب ... وكثيرا ما كان الناس قبل هذه الايام يمدحون الترك كلهم لوجود حاكم عادل منهم وقلما كانوا يذمونهم كلهم لظلم الحاكم منهم على أن الظالمين كانوا بطبيعة الاستبداد أكثر من العادلين

وقد عرف بين الناس في الولايات العربية شيء آخر لا بد من ذكره وان كان مرا لاننا نبحث في هذه المسألة بحث الطبيب الآسي وفي المثل العربي « من اكتم داءه قتله » ذلك الشيء هو أن الترك يبغضون العرب . ويتناقل الناس في كثير من البلاد العربية كلاما سمعوه من بعض حكام الترك صريحا في هذا ولا أحب أن أطيل في بيانه ولولا أنه مشهور لما ذكرته ليعرف اخواننا الترك من ولاة الامور وأصحاب الصحف فيكونوا معنا على بصيرة فيما نطلبه من خير الامة بالاعتصام والوحدة

يمكن أن يقال ان ماسمع من تصريح بعض الترك ببغض العرب هو من الجزئيات التي لا تبلغ أن تكون استقراء ناقصا فالحكم بها على الجنس كله حكم باطل ولا سيما اذا عرف لها سبب يوجد في صنف من افراد الجنس دون غيرهم . وقد علمت بعد البحث والتحري ان هذا الصنف الذي قد بدت البغضاء للعرب من افواه كثير من أفراده هو صنف المتفرنجين والضعفاء في الدين من الذين يثقل عليهم مزاحمة العرب لهم في خدمة الحكومة وفي التوسل اليها بالتعلم في المدارس الرسمية فان بعض المتخرجين في هذه المدارس من ابناء العرب وبعض التلاميذ الذين لا يزالون فيها يذكرون من تعصب بعض المعلمين عليهم مالا محل لشرحه هنا . ومن المشهور عن كثير من الترك الصالحين وغير المتزاحمين معهم على اعمال الحكومة أنهم يحبون العرب حبا دينيا حتى ان منهم من يتبرك بالعربي لانه عربي فالحقيقة الممحصة هي انه ليس بين الجنسين عداوة ولا بغضاء فنقول ان الاتحاد بينهما متعذر أومتعسر وانما هو التغاير والتنافس في طلب المناصب والوظائف وفي

صفوف المدارس قد وصل مع الغلو الى التحاسد كما أشرنا الى ذلك في فاتحة النبذة الاولى ومثل هذا التنافس والتحاسد يقع بين المتزاحمين من ابناء الجنس الواحد فتلافيه سهل ان شاء الله

والخلاصة ان تاريخ العلاقة بين الترك والعرب لم يكن فيه شيء ا كثر مما ذكرنا ولم يكن ذلك في الماضي مما يخطر على بال زعماء العرب السعي الى انفصالهم من الترك واستقلالهم بأنفسهم ولا ذكر هذا على لسان احد الا في عهد ولاية زعيم الحرية والاصلاح (مدحت باشا) على سورية ففي عهده شاع ان في البلاد حزبا كبيرا مؤلفا من وجهاء المسلمين والنصارى في بيروت والشام يسعى الى جعل القطر السوري مستقلا كالقطر المصري تحت سيادة الدولة العلية ويكون الخديو له مدحت باشا . وقيل ان بعض « الماسون » كانوا يسعون الى جعل الامير عبد القادر الجزائري هو الخديو لهذا القطر . وقد سمعت من والدي رحمه الله تعالى ان مدحت باشا على سعيه في اصلاح الدولة اعتقد ان اصلاح البلاد السورية وجعلها خيرا من البلاد المصرية لا يتأتى الا باستقلالها الاداري فكان يمهد السبيل لذلك فشعر بالامر رستم باشا متصرف لبنان فكاشف به الدولة فكان ذلك هو السبب في عزل مدحت من ولاية سورية . ولكن أخبرني بعض العارفين بدخائل السياسة في ذلك الوقت ان السلطان عبد الحميد هو الذي أوجد تلك الاشاعة في سورية ليتوسل بها الى اخراج مدحت من سورية لاجل الانتقام منه . ويقال ايضا ان لبعض الاجانب يدا في توجه نفوس الناس في سورية الى هذه الفكرة . وقد حدثني بعض اصحابي الذين كانوا من عمال الحكومة في عهد مدحت باشا انه سأله عما يقال في هذه المسألة فقال له زعيم الاحرار ان هذه دسائس من الاجانب يريدون بها فصل سورية من الدولة ليستولوا عليها

مثل هذه الدسيسة لا يستغرب من سياسة « يلدز » التي كانت مبنية على المكايدة والمخادعة واخفاء الحقائق بألوان التمويه والتلبيس وهي التي لعبت بالثورة العرابية ذلك اللعب المشئوم ومكنت للانكليز في أرض مصر ، ثم أرادت أن ترضي سائر الدول القوية بتمهيد السبيل لتمكنهم في سائر أرجاء الدولة في مقابلة مصر

فأعطت الالمانيين سكة حديد بغداد وقررت اعطاء الروسيين مثلها على شواطئ البحر الاسود — وقد راجت تلك الدسيسة الحميدية على اهالي سورية فشاع بينهم ان مدحت باشا وهو المعروف بحب الاصلاح ما أراد انشاء دولة عربية الا بعد يأسه من قدرة قومه على سياسة الملك واقامة العدل وتشييد دعائم المدنية بما تقتضيه حال العصر، فكان هذا اول فكر في التنفير من السلطة التركية سرى في بلاد عربية، وقد نظمت فيه القصائد البليغة المؤثرة كالقصيدة السينية الشهيرة لليازجي ولكنه فكر لم يتلقه السواد الاعظم بالتسليم

ثم سكنت هذه الافكار بعد اخراج مدحت باشا من سورية عدة سنين حتى اذا مااشتدت المظالم الحميدية في السنين الاخيرة وقويت فتنة اليمن وفتنة مكدونية عاد بعض الناس الى الحديث فيها بمصر وأوربا فكان المشتغلون بالسياسة من ابناء العرب على ثلاثة آراء: بعضهم يرى السعي في أوربا لاستقلال البلاد العربية كأصحاب جريدة النهضة العربية في باريس ولم يكن لهم تأثير لعدم انضمام احد من المسلمين اليهم ولاتهامهم بانهم يريدون الاستفادة من السلطان عبد الحميد بالايهام الذي كان يروج في سوق سياسته أو وسواسه

وبعضهم رأى انه يجب اتحاد المسلمين مع اليهود والنصارى على العمل ووضع له قانونا جعل فيه من الامتياز لليهود ما كان ضامنا به أن يبذلوا للمشروع الملايين من أموالهم ليعطى بعضها لعبد الحميد ورجاله ثمنا للبلاد التي يراد استقلالها وكان يعتقد أن إرضاء « يلدز » بالمال متيسر او مضمون وقد أطلعني صاحب هذا المشروع أنا وبعض أصدقائي على قانونه فلم نوافقه على السعي له مع علمنا بما لليهود من اليد العاملة في كل انقلاب كبير في التاريخ ويؤيده ماحصل أخيرا من الانقلابات ...

والرأي الثالث هو ماعليه جمهور المشتغلين بالسياسة وهوانه يجب الاتحاد الدائم بين العرب والترك والمحافظة على كيان الدولة العلية بالسعي في اصلاحها وجعلها دولة دستورية ولاجله اسسنا جمعية الشورى العثمانية من جميع العناصر كما اشرنا الى ذلك من قبل. فهذا ملخص تاريخ هذه المسألة قبل الانقلاب الاخير فماذا جرى بعده؟؟

(للمقال بقية)

ابو حامد الغزالي (*)

٧

﴿ رأيه في التوحيد والتوكل ﴾

« ويدخل فيه بيان وحدة الوجود والجبر والكسب »

بيان حقيقة التوحيد الذي هو اصل التوكل

اعلم أن التوكل من ابواب الايمان وجميع ابواب الايمان لا تنتظم الا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الاصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل، فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الاصل وهو المسمى ايمانا في اصل اللسان اذ الايمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم واذا قوي سمي يقينا ولكن ابواب اليقين كثيرة ونحن انما نحتاج منها الى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك لا اله الا الله وحده لاشريك له، والايمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك له الملك، والايمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك وله الحمد. فمن قال لا اله الا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير تم له الايمان الذي هو اصل التوكل، اعني أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه

فاما التوحيد فهو الاصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالاعمال بواسطة الاحوال ولايتم علم المعاملة الا بها فاذًا لا نتعرض الا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة والا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لاساحل له فنقول: للتوحيد أربع مراتب وهو ينقسم الى لب والى لب اللب والى قشر والى قشر القشر ولنمثل ذلك تقريبا الى الافهام الضعيفة بالجوز في قشرته

(*) نقلا عن كتاب احياء علوم الدين وهو تابع لما في ص ٦٧١ من الجزء التاسع

العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الاولى من التوحيد هي أن يقول الانسان بلسانه لا اله الا الله وقلبه غافل عنه او منكر له كتوحيد المنافقين . والثانية ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام . والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار . والرابعة أن لا يرى في الوجود الا واحدا وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لانه من حيث لا يرى الا واحدا فلا يرى نفسه ايضا واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعنى انه فني عن رؤية نفسه والخلق

فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان ، والثاني موحد بمعنى انه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقيدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها ايضا احكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف بها يسمى متكلما وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث انه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته ، والثالث موحد بمعني انه لم يشاهد الا فاعلا واحدا اذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة الا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه الا انه كلف قلبه ان يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فان تلك رتبة العوام والمتكلمين اذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة ، والرابع موحد بمعني انه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يري الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد . فالاول كالقشرة العليا من الجوز والثاني كالقشرة

السفلى والثالث كاللب والرابع كالدهن المستخرج من اللب ، وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل ان اكل فهو مر المذاق وان نظر الى باطنه فهو كريه المنظر وان اتخذ حطبا أطفأ النار واكثر الدخان وان ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح الا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى الى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف انما يصيب جسم البدن وهو القشرة وانما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا فانها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار واذا فصلت امكن ان ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة الى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة الى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة الى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه واشراق نور الحق فيه اذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) وبقوله عز وجل (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه)

وكما ان اللب نفيس في نفسه بالاضافة الى القشر وأ كله المقصود ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد الا واحدا وهو يشاهد السماء والارض وسائر الاجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا ؟ فاعلم ان هذه غاية علوم المكاشفات واسرار هذا العلم لا يجوز ان تسطر في كتاب فقد قال العارفون: افشاء سر الربوبية كفر، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو ان الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما ان الانسان كثير ان التفت الى روحه وجسده واطرافه وعروقه وعظامه واحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة اخرى

واحد اذ تقول انه انسان واحد فهو بالاضافة الى الانسانية واحد وكم من شخص يشاهد انسانا ولا يخطر بباله كثرة امعائه وعروقه واطرافه وتفصيل روحه وجسده واعضائه والفرق بينهما انه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والملتفت الى الكثرة في تفرقة فكذلك كل مافي الوجود من الخالق والمخلوق اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخر سواه كثير وبعضها اشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وان كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا وتستفيد بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به ايمان تصديق فيكون لك من حيث انك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وان لم يكن ما آمنت به صفتك كما انك اذا آمنت بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة ايمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها الا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الاكثر والدوام نادر عزيز والى هذا اشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الاسفار فقال فيما ذا انت ؟ فقال ادور في الاسفار لاصحح حالتي في التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد افنيت عمرك في عمران باطنك فاين الفناء في التوحيد ؟ فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع

فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الاجمال فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه وليس التوكل أيضا مبنيا عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث ، وأما الاول وهو النفاق فواضح ، وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه ، وأما الثالث فهو الذي ينبى عليه التوكل اذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع

وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم ـ فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه واذا انكشف لك هذا لم تنظر الى غيره بل كان منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض

واذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا اتم من المشاهدة بالبصر وانما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق الى قلبك شائبة الشرك لسببين أحدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات والثاني الالتفات الى الجمادات أما الالتفات الى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الغيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الامور ولذلك قال تعالى (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الي البر إذا هم يشركون) قيل معناه انهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ، ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا الى أن ينتهي الى المحرك الاول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالتفات العبد في النجاة الى الريح يضاهي التفات من اخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وانما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت اليه ولم يشكر الا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والارض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك ان الملك الموقع هو كاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) فاذا انكشف لك ان جميع مافي السموات والارض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان

خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فاتاك في المهلكة الثانية وهي الالتفات الى اختيار الحيوانات في الافعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وان شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك ان شاء حز رقبتك وان شاء عفا عنك فكيف لاتخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولاتشك فيه ؟ و يقول له ايضا نعم ان كنت لاترى القلم لانه مسخر فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له؟ وعندهذا زل أقدام الا كثرين الا عباد الله المخلصين الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا وعرفوا ان غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها الى اليد والاصابع فضلاعن صاحب اليد فغلطت وظنت ان القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للاسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والارض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض

بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله في حقهم كل ذرة في السموات والارض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولاصوت لايسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعنى به السمع الظاهر الذي لايجاوز الاصوات فان الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وانما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي فان قلت فهذه أعجوبة لايقبلها العقل نصف لي كيفية نطقها وانها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز فاعلم ان لكل ذرة في السموات والارض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لاينحصر ولا يتناهى فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لانهاية له (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر) الآية ثم انها تتناجى بأسرار الملك والملكوت وافشاء السر لؤم بل صدور الاحرار قبور الاسرار وهل رأيت قط

أمينا على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق؟ ولوجاز افشاء كل سر لنا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم «لو علمتم ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون ولما نهى عن افشاء سر القدر ولما قال «اذا ذكر النجوم فامسكوا واذا ذكر القدر فامسكوا واذا ذكر أصحابي فامسكوا» ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الاسرار

فاذًا عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان : أحدهما استحالة افشاء السر والثاني خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ولكنا في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه وترد كلماتها الى الحروف والاصوات وان لم تكن هي حروفا وأصواتا ولكن هذه ضرورة التفهيم فنقول قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه أسود وجهه بالحبر مابال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد! فلم سودت وجهك وما السبب فيه؟ فقال الكاغد ما انصفتني في هذه المقالة فاني ماسودت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فانه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا فقال صدقت فسأل الحبر عن ذلك فقال ما انصفتني فاني كنت في المحبرة وادعاً ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى علي القلم بطمعه الفاسد واختطفني من وطني واجلاني عن بلادي وفرق جمعي و بددني كما ترى على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لاعليّ فقال صدقت ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه واخراج الحبر من أوطانه فقال سل اليد والاصابع فاني كنت قصبا نابتا على شط الانهار متنزها بين خضرة الاشجار فجاءتني اليد بسكين فنحّت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنابيبي ثم برتني وشقت رأسي ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك فتنح عني وسل من قهرني فقال صدقت ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا الا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أوجسما يتحرك بنفسه وانما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له القدرة والقوة فهي

التي ترددني وتجول بي في نواحي الارض أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه اذا لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شأني فاني مركب أزعجني من ركبني فقال صدقت ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم مليم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمري وكيف ظننت اني ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا اسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوماظن الظانون بي اني ميتة أو معدومة لاني ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني الى ماتراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله اذ ازعجني من غمرة النوم وأرهقني الى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي فقال صدقت ثم سأل الارادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها الى التحريك وأرهقتها اليه ارهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الارادة لا تعجل علي فلعل لنا عذرا وأنت تلوم فاني ما انتهضت بنفسي ولكني أنهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر حازم وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد عليّ من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالاشخاص للقدرة فاشخصتها باضطرار فاني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له والزمت طاعته لكني ادري اني في دعة وسكون مالم يرد عليّ هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا والزمت طاعته الزاما بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمري مادام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته واشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك فاني كما قال القائل

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ان لا تفارقهم فالراحلون همُ

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا اياهم على استنهاض

الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة فقال العقل اما انا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكني أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت وقال العلم اما انا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما اشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني فسل القلم عني لان الخط لا يكون الا بالقلم فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت به في معرفة هذا الامر منه على غيره ولكني كنت أطيب نفسه بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فأما قولك اني خط ونقش وانما خطني قلم فلست أفهمه فاني لا أعلم قلما الا من القصب ولا لوحا الا من الحديد أو الخشب ولا خطا الا بالحبر ولا سراجا الا من النار واني لاسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا ، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا !

فقال له العلم ان صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك في الطريق التي توجهت اليها كثيرة فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه فما هذا بعشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وان كنت راغبا في استتمام الطريق الى المقصد فألق سمعك وانت شهيد واعلم ان العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة اولها ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثاني عالم الملكوت وهو ورائي فاذا جاوزتني انتهيت الى منازله وفيه المهامه الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا أدري كيف تسلم فيها ، والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لان عالم الملك اسهل منه طريقا وعالم الملكوت اوعر منه منهجا وانما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الارض والماء فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكون الارض وثباتها وكل من يمشي على الارض يمشي في عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته

الى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فان انتهى الى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتم فان كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك الا الماء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء اما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام « لو ازداد يقينا لمشى على الهواء » لما قيل له انه كان يمشي على الماء

فقال السالك السائل قد تحيرت في امري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري اطيق قطع هذه المهامه التي وصفتها ام لا فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي فان ظهر لك القلم الذي به انكتبت في لوح القلب فيشبه ان تكون اهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من ابواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم في اول امره كوشف بالقلم اذ أنزل عليه (اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما ارى قصبا ولا خشبا ولا اعلم قلما الا كذلك فقال العلم لقد ابعدت النجعة اما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الايدي ولا قلمه الاقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه امور الهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الايدي ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وعفص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما اراك الا مخنثا بين فحولة التنزيه وانوثة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معاني الحروف والاصوات واخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « ان الله خلق آدم على صورته » الصورة الظاهرة المدركة

بالبصر فكن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة وان فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالابصار فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق فانت بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى اني انا ربك فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وانه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور فقال له العلم اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الالهي فاذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم اصناف العلوم وكأن له في كل قلب رأسا ولا رأس له فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عني خيرا اذ الآن ظهر لي صدق انبائه عن اوصاف القلم فاني اراه قلما لا كالاقلام

فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامي عندك ومراودتي لك وانا عازم على أن اسافر الى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فسافر اليه وقال له ما بالك ايها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات الى اشخاص القدر وصرفه الى المقدورات فقال أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم اذ سألته فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجوابي مثل جوابه قال كيف وانت لا تشبهه قال القلم أما سمعت ان الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يرددني وانا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الالهي وقلم الآدمي في معنى التسخير وانما الفرق في ظاهر الصورة فقال : فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) قال نعم والاقلام ايضا في قبضة يمينه هو الذي يرددها فسافر السالك من عنده الى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوي مجلدات

كثيرة عشر عشير وصفه والجملة فيه انه يمين لا كالايمان ويد لا كالايدي واصبع لا كالاصابع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة اذ اليد لا حكم لها في نفسها وانما محركها القدرة لا محالة فسافر السالك الى عالم القدرة ورأي فيه من العجائب ما استحقر عندها ماقبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت انما انا صفة فاسأل القادر اذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السوءال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة (لايسئل عمايفعل وهم يسئلون) فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب في غشيته فلما افاق قال سبحانك ما اعظم شأنك تبت اليك وتوكلت عليك وآمنت بانك الملك الجبار الواحدالقهار فلا أخاف غيرك ولاارجو سواك ولااعوذ الا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ومالي الا أن اسألك واتضرع اليك وأبتهل بين يديك فاقول اشرح لي صدري لاعرفك واحلل عقدة من لساني لاثني عليك فنودي من وراء الحجاب اياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الانبياء بل ارجع اليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه وما قاله فقله فانه مازاد في هذه الحضرة على أن قال سبحانك لا أحصي ثناء عليك كما اثنيت على نفسك فقال الهي ان لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودي اياك ان تتخطى رقاب الصديقين فارجع الى الصديق الاكبر فاقتد به فان اصحاب سيد الانبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول: العجز عن درك الادراك ادراك. فيكفيك نصيبا من حضرتنا ان تعرف انك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا

فعند هذا رجع السالك واعتذر عن اسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذري فاني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة فما كان انكاري عليكم الا عن قصور وجهل ، الآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي ان المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما انتم الا مسخرون تحت قهره

وقدرته مرددون في قبضته وهو الاول والآخر والظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الاول والآخر وهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالاول ليس بالآخر والظاهر ليس بباطن؟ فقال هو الاول بالاضافة الى الموجودات اذصدر منه الكل على الترتيب واحد بعد واحد وهو الآخر بالاضافة الى سير السائرين اليه فانهم لايزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون ذلك آخرالسفر فهو آخر في المشاهدة أول في الوجود وهو باطن بالاضافة الى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ظاهر بالاضافة الى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل أعني من انكشف له أن الفاعل واحد. فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد الى أنه ينبني على الايمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه؟ فأقول أما الجاحد فلاعلاج له الا أن يقال له انكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والارادة والعلم لانها لاتدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس فان قال وأنا منهم فاني لاأهتدي الا الى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه فيقال انكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا مانراه لانثق به فلعلنا نراه في المنام فإن قال وأنا من جملتهم فاني شاك أيضا في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك أياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الاطباء

هذاحكم الجاحد وأما الذي لايجحد ولكن لايفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا الى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة في الاصل وقدنزل فيهاماء أسود يقبل الازالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالابصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد الى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه ان يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا

ذروة التوحيد الى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضا توحيداً إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فيقال له على حد عقله: إله العالم واحد والمدبر واحد اذ (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الانبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عادتهم في المحاورة فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد اذا قوي عمل عمل الكشف في اثارة الاحوال الا أنه في الغالب يضعف ويتسارع اليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه الى متكلم يحرسه بكلامه أو الى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من استاذه أو من أبويه أو من أهل بلده

وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وان كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى انسانا في وقت الاسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه انسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين الا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحرة لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ماجاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الامر فلم يكترثوا بقول فرعون (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) بل (قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا) فان البيان والكشف يمنع التغير وأما أصحاب السامري لما كان ايمانهم عن النظر الى ظاهر الثعبان فلما نظروا الى عجل السامري وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله (هذا الهكم واله موسى) ونسوا (انه لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) فكل من آمن بالنظر الى ثعبان يكفر لامحالة اذا نظر الى عجل لان كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا فان قلت ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والاسباب مسخرات وكل ذلك

ظاهر الا في حركات الانسان فانه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء فكيف يكون مسخرا؟ فاعلم انه لو كان مع هذا يشاء ان أراد أن يشاء ولا يشاء ان لم يرد ان يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط ولكن علم انه يفعل مايشاء اذا شاء ان يشاء أم لم يشأ فليست المشيئة اليه اذ لو كانت اليه لافتقرت الى مشيئة أخرى وتسلسل الى غير نهاية واذا لم تكن اليه المشيئة فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة الى مقدورها انصرفت القدرة لامحالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة

فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد ان يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة الى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لاتنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا؟ فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت انه في عين الاختيار مجبور فهو اذاً مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لايفهم الاختيار ؟ فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متطفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم نقصد به الا علم المعاملة ولكني أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة أوجه إذ يقال الانسان يكتب بالاصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء اذا وقف عليه بجسمه فينسب اليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحد ولكنها تختلف وراء ذلك في امور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات: فنسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمي تنفسه فعلا اراديا ونسمي كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لانه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة فيكون الخرق بعد التخطي ضروريا والتنفس في معناه فان نسبة حركة الحنجرة الى ارادة التنفس كنسبة انخراق الماء الى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل اليه وكذلك الارادة ليست اليه ولذلك لو قصد عين الانسان بابرة طبق الاجفان اضطرارا ولو اراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض الاجفان اضطرارا فعل ارادي ولكنه اذا تمثل صورة

الابرة في مشاهدته بالادراك حدثت الارادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو اراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع انه فعل بالقدرة والارادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا واما الثالث وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذي يقال فيه ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا ان الامر اليه وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه

و بيانه ان الارادة تبع للعلم الذي يحكم بان الشيء موافق لك والاشياء تنقسم الى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة او الباطنة بانه يوافقك من غير تحير وتردد والى ما قد يتردد العقل فيه فالذي تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بابرة او بدنك بسيف فلا يكون في علمك تردد في ان دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة الاجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالارادة ومن الاشياء ما يتوقف التميز والعقل فيه فلا يدري انه موافق ام لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل او الترك فاذا حصل بالفكر والروية العلم بان احدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفكر فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان فاذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل انه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا من الخير اي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل انه خير وهو عين تلك الارادة ولم ينتظر في انبعاثها الى ما انتظرت تلك الارادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه الا ان الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر الى الروية

فالاختيار عبارة عن ارادة خاصة وهي التي انبعثت باشارة العقل فيما له في ادراكه توقف وعن هذا قيل ان العقل يحتاج اليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور ان تنبعث الارادة الا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الانسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة وانما فقدت الارادة لانها تنبعث بحكم العقل او الحس بكون الفعل موافقا وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه مع قوة الاعضاء أن يقتل نفسه الا اذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق فان العقل

هنا يتوقف في الحكم ويتردد لانه تردد بين شر الشرين فان ترجح له بعد الروية ان ترك القتل اقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وان حكم بان القتل اقل شرا وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الارادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فانه يرمي بنفسه من السطح مثلا وان كان مهلكا ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمي نفسه فان كان يتبع بضرب خفيف فان انتهى الى طرف السطح حكم العقل بان الضرب اهون من الرمي فوقفت اعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبعث له داعية البتة، لان داعية الارادة مسخرة بحكم العقل والحس، والقدرة مسخرة للداعية، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فانما هو محل ومجرى لهذه الامور فاما ان يكون منه فكلا ولا. فاذاً معنى كونه مجبورا ان جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم ايضا جبرا فاذاً هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار فطلب اهل الحق لهذا عبارة ثالثة لانه لما كان فنا ثالثا واتبعوا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لا يفهم من الاختيار ارادة بعد تحير وتردد فان ذلك في حقه محال وجميع الالفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى الا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه

فان قلت فهل تقول ان العلم ولد الارادة والارادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وان كل متأخر حدث من المتقدم فان قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى وان ابيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض؟ فاعلم أن القول بان بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد او بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الازلية وهو

الاصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه الا الراسخون في العلم فانهم وقفوا على كنه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيدعن الحق و بيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة الا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة و بعضها لم يظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق والا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر الا بالحق واللزوم وكذلك جميع افعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا والى هذا أشار قوله تعالى (وماخلقت الجن والانس إلاليعبدون) وقوله تعالى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ٭ ما خلقناها الا بالحق)

فكل ما بين السماء والارض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور ان يكون الا كماحدث وعلى هذا الترتيب الذي وجدفما تأخر متأخر الا لانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتأخر العلم عن النطفة الا لفقد شرط الحياة ولا تتأخر عنها الارادة بعد العلم الا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتدبير وتفهيم ذلك عسير ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادي الحق من الافهام الضعيفة وذلك بأن تقدر انسانا محدثا قد انغمس في الماء الى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وان كان الماءهو الرافع وهو ملاق له فتقدر القدرة الازلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر اعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل ان الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لانه حدث عقبه اذيقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند

غسل الوجه فاذاً غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن ان الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه والماء لا يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر اثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدورات عن القدرة الازلية مع ان القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذاقرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدرعلى ان نذكر من بحار التوحيد الا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا اله الا الله وما أخف مؤنته على اللسان وما اسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب وما اعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم

فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيدأن لا فاعل الا الله تعالى ومعنى الشرع اثبات الافعال للعباد فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وان كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلاومفعول بين فاعلين غير مفهوم؟ فأقول نعم ذلك غيرمفهوم اذا كان للفاعل معنى واحدو إن كان له معنيان و يكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الامير فلانا و يقال قتله الجلاد ولكن الامير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله تعالى فاعلا انه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا انه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد ان خلق فيه الارادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترَع بالمخترِع وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والامير قاتلا لان القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمي فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولاجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الافعال في القرآن مرة الى الملائكة ومرة الى

العباد ونسبها بعينها مرة أخرى الى نفسه فقال تعالى في الموت (قل يتوفاكم ملك الموت) ثم قال عز وجل (الله يتوفى الانفس حين موتها) وقال تعالى (أفرأيتم ماتحرثون) أضاف الينا ثم قال تعالى (أناصببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا * فأنبتنا فيها حبا وعنبا) وقال عز وجل (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) ثم قال تعالى (فنفخنا فيها من روحنا) وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) قيل في التفسير معناه اذا قرأه عليك جبريل وقال تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) فأضاف القتل اليهم والتعذيب الى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) وقال تعالى (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) وهو جمع بين النفي والاثبات ظاهرا ولكن معناه ومارميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا اذ رميت المعنى الذي يكون العبد به راميا إذ هما معنيان مختلفان وقال الله تعالى (الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) ثم قال (الرحمن علم القرآن) وقال (علمه البيان) وقال (ان علينا بيانه) وقال (أفرأيتم ماتمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الارحام «انه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا فيقول يارب اذكر أم انثى أسوي أم معوج؟ فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك - وفي لفظ آخر - ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة»

وقد قال بعض السلف ان الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الارواح في الاجساد وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن ان يعلم الا بالنقل والحكم به دون تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الادلة والآيات في الارض والسموات ثم قال (أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) وقال (شهد الله أنه لااله الا هو) فبين انه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر الى الموجودات وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا

ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى (أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة الى ملكين ففي الخبر أن ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الاحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى اليهما كونا على عملكما وماسخرتكما له من الصنع وأنا المميت والمحيي لايميت ولا يحيي سواي فاذاً الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني اذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة «خذها لولم تأتها لاتتك» أضاف الاتيان اليه والى التمرة ومعلوم ان التمرة لاتأتي على الوجه الذي يأتي الانسان اليها وكذلك لما قال التائب أتوب الى الله تعالى ولاأتوب الى محمد فقال صلى الله عليه وسلم «عرف الحق لاهله» فكل من أضاف الكل الى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه الى غيره فهو المتجوز والمستعير في كلامه وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبته الى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل الى الامير فانه مجاز بالاضافة الى نسبته الى الجلاد فلما انكشف الحق لاهله عرفوا أن الامر بالعكس وقالوا ان الفاعل قد وضعته أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل الا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تجوز به عما وضعه اللغوي له ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الاعراب قصداً أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: ألا كل شيء ماخلا الله باطل» أي كل مالا قوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيته وحقيقته بغيره لابنفسه فاذاً لاحق بالحقيقة الا الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء فانه قائم بذاته وكل ماسواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يامسكين كان ولم تكن و يكون ولاتكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان

فان قلت فقد ظهر الآن أن الكل جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه؟ فاعلم ان معنى ذلك قد أشرنا اليه في كتاب الشكر فلا نطول باعادته فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز اليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا الا بالايمان

بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر الى مسبب الاسباب والايمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الاسباب ولا يتم حال التوكل كما سيأتي الا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب الى حسن نظر الكفيل وهذا الايمان أيضا باب عظيم من أبواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الامور وأطلعهم على اسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتي اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ثم أمرهم ان يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضي تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ولا ان يدفع مرض او عيب او نقص او فقر او ضر عمن بلي به ولا ان يزال صحة او كمال او غنى اونفع عمن انعم به عليه بل كل ماخلق الله تعالى من السموات والارض ان رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور

وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق واجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق علي ماينبغي وكما ينبغي بالقدر الذى ينبغي وليس في الامكان اصلا احسن منه ولا اتم ولا اكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الالوهية بل كان فقر وضر في الدنيا فهو نقصان في الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالاضافة الى شخص فهو نعيم بالاضافة الى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تنعم الاصحاء بالصحة ولولا النار لما عرف اهل الجنة قدر النعمة وكما أن فداء ارواح الانس بأرواح

البهائم وتسليطهم علي ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل علي الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة علي أهل النيران وفداء اهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لم يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الانس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضي الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما ان قطع اليد اذا تأكلت إبقاء علي الروح عدل لانه فداء كامل بناقص فكذلك الامر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الاطراف مضطرب الامواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله الا العالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الاكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون

والحاصل ان الشر والخير مقضي به وقد كان ما قضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره، بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم منتظر، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ولنرجع الى علم المعاملة ان شاء الله تعالي وحسبنا الله ونعم الوكيل

باب المراسلة والمناظرة

تعصب أوربا الديني والحج

﴿ تمهيد لمقالة من سنغافورة ﴾

أثبتنا في السنة الأولى من المنار أن الغلو في التعصب الديني ولد في أوربا ثم أعدنا الكرة في هذا مرة بعد أخرى حتى في بعض أجزاء هذه السنة. ومن العجيب أن نرى جرائدنا السياسية غافلة عن تنبيه أهل الشرق إلى هذ أو وجلة من ذلك وأصحابها يرون ويسمعون ويقرأون كل يوم مايؤيده حتى ان بعض الجرائد الافرنجية التي تصدر في مصر تسمعنا آنا بعد آن من آيات تعصبها عجبا فهم على جهلهم بالاسلام يطعنون في أحكامه الحكيمة العادلة ويحرفون بجهل أو بسوء قصد بعض آيات القرآن كافعلت اكثر من واحدة منهن في الصيف الماضي بتحريف قوله تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب) الآية إذ أولوها بأن الاسلام يوجب على المسلمين ان يقتلوا كل من لقوه من الكفار في كل مكان وكل وقت سواء كان محار بالهم أم لا، ولو كان هذا معناه لما عاش أحد من الكفار في الممالك الاسلامية وقد كان المسلمون قادرين علي إبادة مخالفيهم من الشرق الادنى ومن بعض بلاد أوربا أيضا ولكنهم كانوا يعاملونهم بأفضل مما تعاملنا به أوربا اليوم في جاوه وسنغافورة والهند وتونس والجزائر.

وانما الآية في كيفية القتال مع الكفار المحاربين فهي تأمرنا ان نجعل قتل عدونا في الحرب مغيا بالاثخان وان نكف عن القتل اذا أثخنا وظفرنا ونكتفي عند ذلك بأسرهم فكأنه يقول: اقتلوا في المعركة من يقاتلكم مادمتم خائفين على أنفسكم فاذا ظفرتم فكفوا عن القتل واسروا المقاتلين اسراء أفليس هذا منتهى الرحمة ؟ بلى وهو يقول بعد ذلك في الاسرى من هذه السورة (فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك

ولو يشاء الله لانتصر منهم) فهل بعد هذا من رحمة ورأفة في الحرب ؟ وهل يعترض على تلك الآية الا كل غال في التعصب ؟ وهو ماعليه الاوربيون وأفعالهم أدل على التعصب من أقوالهم

ان الانكليز لم تستقر أقدامهم بمصر الا وحاولوا أن يثبتوا في مؤتمر طبي كون الحجاز هو مهد الهيضة الوبائية وقد ضغطوا على الخديو توفيق باشا ليكره طبيبه سالم باشا سالم باقرار ذلك فأمره بأن يوافقهم فلم يفعل حتى أظهر توفيق باشا مغاضبته إرضاء لهم ، ثم انهم لما باعوا البواخر المصرية لشركة انكليزية بثمن لايزيد على ثمن مافيها من الاثاث والماعون (الموبليات) وان شئت قلت وهبوها البواخر وأرصفتها حملوا الحكومة على إلزام حجاج المصريين السفر في هذه البواخر دون غيرها وكانت الشركة تسيء معاملة الحجاج الذين يركبون بواخرها ولكن الظلم الذي يكون في مصر ليس كالظلم الذي يكون في مثل جاوه أو سنغافوره بل يكون ظلما مفضوحا فيها وفي أوربا فلذلك ولما بذل من السعي في تحسين معاملة الشركة للحجاج اتفق لورد كرومر مع الحكومة المصرية على وضع نظام معتدل لنقل الحجاج المصريين في هذه البواخر. وكان انفع تلك المساعي ماقام به مستر ويلفرد بلنت المستشرق الشهير وما كتبه في ذلك الى لورد كرومر وما نشر في الجرائد الانكليزية. فهذا التحسين لم يكن من رحمة لورد كرومر ورأفته ولا من عدله وعدل حكومته ولكن كان امرا اضطراريا لابد منه ولو كان ذلك من رحمة الحكومة أو عدلها لكان عاما في سنغافورة وفي كل بلاد لها سلطان عليها

هذا مانقوله تمهيدا لرسالة جاءتنا من سنغافورة ورغب الينا ان ننشرها في عدة جرائد اذا أمكن وقد شدد الكاتب النكير فيها على الاوربيين وسمى تعصبهم الحامل لهم على إهانة المسلمين وهضم حقوقهم تعصباصليبيا يعني انه تعصب لأجل المسيحية نعم ان المسيحية تتبرأ من مثل هذا العمل الذي يصفه صاحب الرسالة بل هي تتبرأ من هؤلاء الافرنج عباد المال والقوة واعداء الضعفاء من غير أبناء جنسهم ولكن ماذا يعتقد وماذا يقول مثل هذا الكاتب الذي رأى بعينيه واختبر بنفسه تضييق هولاندا

وانكلترا على الحجاج دون غيرهم وهو يعلم كما يعلم كل احد انه لاعذر لهم في ذلك؟ أليس يعد معذورا في كل ماقاله ؟ بلى وهذا نص رسالته :

الحج

﴿ أوربا والاسلام ﴾

ماذا تريد أوربا من الاسلام وأهله؟ انها لم تزل تحاربنا حربا صليبية كأشد مايكون من الحرب متحدة متناصرة من حيث ندري ولا ندري فانها لا تسنح لها فرصة الا ووثبت على قطر فافترست استقلاله والتهمت ثروته واستعبدت أهله ونشرت فيه الجراثيم الضارة المهلكة للعقول والابدان والاموال (الخمر والزنا والقمار) كل ذلك باسم الانسانية وتأييد الحقوق وتأمين التجارة وحب الخير و.و.و. وماهو الا الكذب والخداع والغدر والاحتيال ولقد رابها ماترى من عطف المسلمين بعضهم على بعض ذلك العطف الذي يوجب الاسلام ان يكون على أقوى مايتصور، ولكنه وياللاسف لا يوجد منه الآن الا اسم بدون مسمى ومع ذلك لم يرق لدى أوربا الرحيمة فصاحت الصيحات المزعجة وسمته التعصب الديني ونسبت اليه ماشاءت ولونته بما أحبت وصورته غولا يبتلع الانسانية ويعيد الهمجية ولقد نجح مسعاها فاصغى الى زورها من تربوا في أحضانها من شباننا ومن تخرج في مدارسها المحشوة بالرهبان والقسوس وبالملاحدة فكانوا طليعة الاعداء وسلما لهم وحبالة يصطادون بها سخاف العقول والجهال منا فلا حول ولا قوة الا بالله

كبر على أوربا المتمدنة أن تكون للمسلمين ندوة عامة وهو الحج يلتقي فيه أهل الغرب منهم بأهل الشرق وأهل الجنوب بأهل الشمال فقامت لحاربته فقالت ان الحجاز ينبوع الامراض ولو انصفوا لعلموا - وماإخالهم جاهلين - ان الهند منذ ربع قرن لم يفارقها الطاعون وهنكوغ منذ ١٥ سنة كذلك وغيرها كثير فلماذا لاتنظر أوربا الى تلك الجهات وتقيم عليها الحجر (الكورنتينات) بل تغض عنها النظر ولكنها في مقابل ذلك

تشدد على من يأتي الحجاز أو رجع منه كأنما هو ميكروب مجتمع سواء كانت الصحة هناك معتلة أو في أحسن حال حتى صار مفهوم لفظ الحج ملازما لمفهوم الحجر الصحي والتطهير! اذ لا انفكاك عنه ولا سلامة منه مهما كانت صحة الحجاج جيدة. سبحان الله ! لماذا كل هذه العناية ومزيد الرعاية من اساطين التمدن الرحماء ؟ كلنا نعرف ونعتقد انها احقاد وسخائم صليبية قلبت أسماؤها تغريرا للبسطاء وسترا عن أعين العمش وما كفاهم هذا حتى أجتمعوا فكادوا للإسلام وأهله وخصوا سفر الحج بقانون مخصوص !. انرى الحامل على ذلك كثرة المحبة والشفقة على الحجاج واختصاصهم بمزيد العطف ؟ هكذا قال أولئك الساسة وادعوا

والدعاوي مالم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

لو كان مايقولونه مما يمكن ان يكون صدقا لما خص أولئك الحجاج وحدهم بهذه النعمة وحرم منها جميع المسافرين في اقطار الارض كلها، أترى ساسة أوربا هان عليهم جميع الناس واشفقوا على الحجاج فقط ؟ زه زه ! ! انا نسألهم لماذا يكون الانسان حرا في سفره الي الاقطار الاربعة بل والى القطب الجنوبي أو الشمالي ومجاهل افريقية وغيرها بلا شرط ولا قيد حتى اذا ماقيل انه يريد الحج قيد بالسلاسل والاغلال، وسيق الى المحاجر، واحتاج الى اجتياز عقبات، وتحمل صعوبات، أترى ذلك رحمة وعدلا ؟ بخ بخ !! لو كان الحامل لهم على عملهم هذا هو الرحمة لكان المجلوبون كالاغنام من الهند وجاوة للعمل في افريقية واستراليا في اعماق الارض أحق برحمتهم من الحجاج لانهم اكثر واسوأ حالا منهم. قالوا ان كثيرا من الحجاج جهال مغفلون فهم عرضة للضياع، وقد صدقوا، وقالوا إنهم لذلك خصوهم بقانون مفرد غريب رحمة بهم وقد كذبوا، ولو كان الامر كذلك لكان الاحق بهذه الرحمة فلاحي روسيا والحبشان فلماذا لم يرحموهم ويجربوا هذه القوانين النحسة فيهم ؟ مع انا نرى أوربا تسوق الجيوش وتجهز الاساطيل اذا أصاب النصارى من غيرهم أذى بحق أو بغير حق ولا نراها ترحم المسلمين اللهم إلا في سفرهم الى الحج ولكن رحمة مقلوبة ! فهل بلغ من استخفاف أوربا ان ظنت اننا نصدقها في هذا ؟ عجب عجب !!

هذه هولاندا تقتل أهل سمترا ظلما منذ اكثر من اربعين سنة ولم ينبس احد

من وزراء أوربا ببنت شفة ! أتراهم لم يعلموا انه لم يبق من أربعة ملايين فيها الا نحو الربع : كلا انه من المستحيل ان يعلم بذلك كل أهل الدنيا ويجهله وزراء الدول المتمدنة الرحيمة . بل الحقيقة ان أولئك المقتولين المضطهدين مسلمون والقاتلين الظالمين لهم نصارى .....

قالوا ان الحجاز محل الاستبداد والنهب والظلم وقد علموا ان وجود ذلك مسقط لوجوب الحج أو مانع من دخول الحجاز وقد صدقوا ولكن ذلك كان في أيام الطاغية راتب باشا وقد طار الاستبداد معه . وقالوا انهم لذلك احتاطوا للمسافر اليه . ولو رفعوا تلك الحواجز الآن ونسخوها لقلنا انهم صدقوا فكيف وقد كذبوا أنفسهم بأنفسهم بثباتهم على العدوان والتشديد مع سبق الاصرار على ذلك ! ولسان الحال أفصح من لسان المقال .

انهم بما سنوه من القوانين وأوجبوه من الشروط قد جعلوا الحجيج من الاصناف المحتكرة كالافيون والخمر فاختص بهم بعض الشركات القاسية تسومهم الخسف وتنهب أموالهم فلقد كانت اجرة الذهاب من سنغافورة مثلا الى جُدَّة يتراوح بين ١٧ ريالا الى ٢٠ ريالا وهو الآن ١١٠ ريالات ذهابا وايابا ! ولو لم يقيدوه بالشروط المخصوصة لم يزد على ما كان ان لم ينقص لان المراكب التي تذهب من الصين الى أوربا لاتعد كثرة وسطوحها فارغة وكذا كمرانها ان لم تكن مراكب بريد ولا يكلفها أخذ الحجيج شيئا الاساعات قليلة تنحرف بها عن سبيلها حين ادخالهم جدة فيكون جل ماتكسبه من الحجاج أوكله ربحا . ولكن كيف وانّى وقد احتكروا بفضل رحمة الرحماء من صليبي أوربا وصاروا من حقوق بعض الناس و بعض الشركات يورثونها مَن بعدهم !!! أفلا تكون هذه نخاسة من مخترعات القرن العشرين ؟ فهنيئا مريئا للأقوياء مااستحلوا من ظلم الضعفاء ، اذ لاراحم للمسلم الضعيف ولا معين ...

أما المراكب التي اختصت بأخذ الحجاج من سنغافورة وجاوة فلا كمرات فيها ولقد رأيت أمراء هذه البلاد وأبناءهم يركبون ظهور تلك المراكب الوسخة بين الفحم والبهائم مضطرين وقد اعتادوا صنوف النعم والرفاهة والنظافة فيمرضون و يسقمون وكثيرا مايهلكون ، ويقاسون من العذاب والنكال مايرحمهم عليه زبانية جهنم

ولا يرحمهم محبو الانسانية من الاوربيين! وما هو ذنبهم ؟ هو ذنب عظيم ألا انه هو قصدهم الحج وذهابهم الى الحجاز وأوربا لاتحب ذلك ، فهي تعاقبهم وتحجزهم في تلك المراكب العفنة ثم تسوقهم الى المحاجر حيث تعري ابدانهم و يهانون و يتلف من أموالهم ما أبقته أيدي السراق والامطار والانواء . ولقد لقيت أحد كبراء هذه الجهات بعد خروجه من المحجر فرأيته كانما نشر بعد ماقبر ولو أراد أن يذهب بأحد مراكب البريد أو بمركب من غير مراكب الشركة المحتكرة للحجيج لأقامت الحكومة عليه وعلى الباخرة التي تقله الدعوى وحكم عليه وعليها بأشد أنواع العقوبات رحمة وشفقة ! !

لو فرضنا ان الحكومات الاوربية تحب ان تخدم الحجيج ، وانها تعتقد أنهم في منزلة القصار وعديمي الرشد لعملت معهم ماتعمله لو أرادت نقل قطيع من البقر للذبح فانها تعلن ذلك الامر والشروط المرغوبة وتعطيه لمن يطلب أقل أجرة عليه . ولو فعلت هذا لما كانت تبلغ أجرة الحاج الواحد ذهابا وايابا ٤٠ ريالا فيتوفر لكل نفر من الحجاج من ركاب السطح ٧٠ ريالا وهي شيء كبير بالنسبة لفقر الاهالي اذ الكثير منهم لايقدر على توفير ذلك المبلغ في ثلاث سنين ولكنهم عندها أذل من البقر ومعاملتها تفصح بهذا وكان يجب عليها ان تحتم على من منحتهم نقل الحجاج ارجاع اجرة العودة الى ورثة من مات ولكن الامر الآن بالعكس فأنا أكتب هذه الاسطر وأمامي أحد الاهالي و بيده ٢٥ ورقة مات أهلها وقد دفع أجرة العودة كل واحد منهم ٥٥ ريالا ولكن الشركة (الكمبانية) أبت ان تدفع له ذلك واتفق مع احد المنتسبين اليها أن يشتري منه تلك الاوراق بعشرين ريالا فقط ثم أبى وقال بعها لمن يريد العودة من جدة ومعلوم انها هناك تباع بثمانية ريالات أو نحو ذلك والحكومة تساعد الاوربي الظالم على الاهالي المساكين ، وذلك ايضا رحمة وحنان !!

نعم ان طرحها أمر تسفير الحجيج في المزاد كما قلنا مناف لحرية التجارة ولكن ذلك مع نفعه للمساكين أقل اثما من انها كها لحرية الاشخاص بمنعهم من السفر كمايشاؤن. فاذا جاز هذا جاز ذاك بالاولى قطعا اما تقييدها حرية الحجاج المساكين

وتركها لهم مربوطين بين يدي اولئك النخاسين الغلاظ الاكباد فظلم من اشنع وأبشع أصناف الظلم فيما نعتقد

ويجب أن يستثنى من يركب الكرات من كل قيد كما هو الحال بالهند والصين ومن العجب أن يكون ركاب الدرجة الاولى والثانية وخدامهم مستثنين من الحجر الصحي والتطهير مطلقا هنا وفي الهند والصين ولا يستثنون إن سافروا الى الحجاز! فماذا يفعل التعصب الاعمى قاتل الله الاغراض

ومن الغريب ان مجلس المبعوثان المحترم لم ينبس أحد من اعضائه ببنت شفة في هذا الصدد وذلك اهمال او جبن ولا نقول لاجل أن يتحقق مسلمو الشرق مايقوله اعداء جمعية الاتحاد والترقي الموقرة من بغضها لكل ما يتعلق بالدين ليفصموا عرى اتحاد المسلمين من كل جهة فاننا نتحقق كذب هذا القول بالنسبة لعقلاء القوم وفضلائهم واذا كان فيهم زنادقة أو متفرنجة او نصارى جهال فانني لا أبخل عليهم بنصيحة يتحققون صدقها: وهي ان منفعتهم كبيرة جدا في تمسكهم بالاعتدال في كل حال وفي اجتلاب محبة المسلمين كلهم والسياسة توجب عليهم الاجتهاد في ذلك ولهم بفرنسا قدوة حيث طردت قسوس الجزويت من بلادها وحمتهم في الشرق فليتظاهروا بذلك لنفعه المقطوع به ولا يكونوا السبب في خسارة الدولة اهم قوة يحسب لها عدوها الف حساب وحساب فلهذا نستصرخ باعضاء المبعوثان الكرام و باهل الجرائد وحملة الاقلام والعلماء الاعلام ليقيموا الحجة ولا يسكتوا عن المطالبة بالحق والانصاف فان انصار الحق كثيرون في أوربا وغيرها وحسبنا الله ونعم الوكيل

سنغافورة (س. س. ي)

* * *

﴿ الشيعة وتعدد الزوجات ﴾

كتابي الى مولاي الاستاذ الحكيم، بعد السلام عليه ورحمة الله وبركاته، كتاب معجب بماله من الايادي البيضاء في اصلاح الامة ورفع «منار» الاسلام

وارشاد المسلمين الى الطريق الاقوم والصراط السوي، بيد اني اعتقد انه لابد للجواد أن يكبو، وللصارم أن ينبو، فقد رأيت في الجزء الثامن من مناركم (صفحة ٥٩١) ما يشعر بالنسبة الى الشيعة ماهم منه براء، وما نسبة ذلك اليهم الا محض وهم وافتراء، وهي انهم يجوزون الزواج الدائم باكثر من اربع لانهم أولوا الآية الكريمة بخلاف ظاهرها وفهموا منها مالم يفهمه سائر المسلمين بل ادعيتم اجماعهم على ذلك مع ان اجماعهم على عدم حل التزوج باكثر من اربع كما ستعلم. ولما قرأت ما كتبتموه عجبت اشد العجب لعلمي بعدم صحة ما نسب لهم قلت لعلي لم أطلع تمام الاطلاع على دخيلة الامر فعرضت ذلك على فريق من علماء الشيعة فاستنكروا ما عزي اليهم غاية الاستنكار، وعجبوا كيف يصدر هذا الخطأ من فاضل نظير صاحب المنار، ثم استحضرت الكتب الفقهية التي عليها اعتماد الطائفة الشيعية، لعلي أعثر لذلك على اثر، أو أقف له على خبر، فلم أجد ضالتي المنشودة بل وجدت خلافها وها انا انقل لكم عباراتهم بالحرف الواحد لتعلموا صدق ما اقول وتكونوا على بينة من الامر وتزيلوا هذا الغشاء عن البصائر والابصار

قال في تذكرة الفقهاء لمولفها الحسن بن المطهر الحلي المعروف بالعلامة وهو من اعظم علماء الشيعة واجلهم قدرا عاش في القرن السابع والثامن مانصه:

«مسألة: أجمع علماء الامصار في جميع الازمان والاقطار على أنه يجوز للحر المسلم أن يتزوج بالعقد الدائم اربع حرائر ولا يجوز له الزيادة عليهن لما روي عن غيلان بن مسلمة الثقفي أنه اسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: امسك اربعا وفارق سائرهن، وأسلم نوفل بن معاوية فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: امسك اربعا وفارق الاخرى، ورواية زرارة بن اعين ومحمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال لا يجمع ماءه في خمس، وفي الحسن عن جميل بن دراج عن الصادق عليه السلام في رجل تزوج خمسا في عقد قال يخلي سبيل أيتهن شاء ويمسك الاربع، وحكي عن القاسم بن ابراهيم أنه أجاز العقد على تسع واليه ذهبت القاسمية من الزيدية — قال الشيخ رحمه الله: هذه حكاية الفقهاء عنهم ولم اجد احدا من الزيدية يعترف بذلك بل انكروها اصلا واستدلوا بقوله تعالى (فانكحوا

ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) والواو للجمع ولان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مات عن تسع والواو ليست للجمع بل للتخيير كما في قوله تعالى (أولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع) ولم يرد به الجمع اذ لو كان المراد الجمع لقال تسعة ولم يكن للتطويل معنى، قال الشيخ رحمه الله: لو كان المراد الجمع لجاز الجمع بين ثماني عشرة لان معنى قوله مثنى اثنين اثنين وكذلك قوله ثلاث معناه ثلاثا ثلاثا وقوله رباع معناه اربعا اربعا كما في قوله جاء الناس مثنى وموحدا أي اثنين اثنين وواحدا واحدا وهو باطل اجماعا والنبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مخصوصا بذلك فانه جمع بين اربع عشرة امرأة فثبت ما قلناه » اه

وجاء في اللمعة الدمشقية لمؤلفها محمد بن مكي المعروف بالشهيد الاول وشارحها زين الدين المعروف بالشهيد الثاني وهما من اعظم علماء الشيعة عاش الاول في القرن الثامن، والثاني في القرن الالف مانصه:

« السابعة لا يجوز لحر أن يجمع زيادة على اربع حرائر او حرتين وأمتين او ثلاث حرائر وامة بناء على جواز نكاح الامة بالعقد بدون الشرطين والا لم يجز الزيادة على الواحدة لانتفاء العنت معها وقد تقدم من المصنف اختيار المنع ويبعد فرض بقاء الحاجة الى الزائد عن الواحدة ولا فرق في الامة بين المؤمنة والمدبَّرة والمكاتبة بقسميها حيث لم تؤد شيئا وأم الولد، ولا للعبد أن يجمع اكثر من اربع اماء أو حرتين أو حرة وأمتين ولا يباح له ثلاث اماء وحرة والحكم في الجميع اجماعي » اه

وكلا الكتابين اللذين ننقل عنهما مطبوعان في طهران عاصمة بلاد فارس

وقال في مجمع البيان وهو التفسير المعتمد عند الشيعة في معنى الآية (فانكحوا ماطاب لكم) الخ وطريقه ان يذكر الآية أولا ثم القراءة فالحجة فالاعراب فالنزول فالمعنى وهذا من جملة ما ذكره في معناها:

« وقوله مثنى وثلاث ورباع معناها اثنين اثنين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا فلا يقال ان هذا يؤدي الى جواز نكاح التسع فان اثنين وثلاثة وأربعة تسعة لما ذكرناه فان من قال دخل القوم البلد مثنى وثلاث ورباع لايقتضي اجتماع الاعداد في الدخول

ولأن لهذا العدد لفظا موضوعا وهو تسع فالعدول عنه الى مثنى وثلاث ورباع نوع من العي جل كلامه عن ذلك وتقدس وقال الصادق عليه السلام لايحل لماء الرجل أن يجرى في أكثر من اربعة أرحام من الحرائر اه

ولو أردنا استقصاء كلام علماء الشيعة لضاق المقام وطال الكلام وأظن فيما أوردناه مقنعا ومنه تعلم ان اجماع الشيعة على عدم حل التزوج بأكثر من أربع في العقد الدائم وأزيدك على هذا اني رأيت في أثناء مراجعتي للكتب الفقهية مالم أكن اعهده وهو استشكال لبعض علمائهم في الزيادة على اربع حتى في المتعة مع ان الاكثرين منهم ذهبوا الى عدم الحد بها

ومن المعلوم لدى الاستاذ ان العصر عصر دليل وبرهان فلا يجمل بصاحب مجلة معتبرة ان يورد أمرًا لم يسبره بمسبار التحقيق ثم يعده من المسلمات البديهيات وعندي ان عدم التثبت في نقل الاخبار أوصل الامة الاسلامية الى هذه الحالة وجعل كل فرقة تسيء الظن بالاخرى وكل هذا راجع على ما أعتقد الى عدم مراجعة كتب الفرقة المنسوب اليها تلك المقالة التي تتبرأ منها والاعتماد على كتب مناظريها فاني رأيت كثيرا ماينسب علماء السنة الى الشيعة مايتبرأون منه ومالم يوجد في كتبهم المعتبرة وكذلك يفعل علماء الشيعة وخذ لذلك مثالا ماينسبه أغلب المسلمين الى الوهابية من المقالات الشنيعة والاعتقادات الفاسدة ولو راجعنا كتبهم لالفيناهم يتبرأون منها ولم تكن علاقتهم بها الا كقول الشاعر

انما أنت من سليمى كواو ... الحقت في الهجاء ظلما بعمرو

ولا اظنكم اعتمدتم فيما كتبتم الا على كتب أمثال ذلك (العالم الغيور) مع انكم لو امعنتم النظر واعملتم الفكر لالفيتم اولئك يخبطون في بعض الامور خبط عشواء لانهم لايعتمدون على المصادر الموثوقة بل يتكلمون على السماع وهو مالايجوز ان يتخذ حجة يتمسك بها كما فعل ذلك العالم الغيور في رسالته التي بعث بها اليكم عن أحوال العراق ونشرتموها في الجزء الاول من المجلد الحادي عشر وكل مطلع على احوال العراق يقهقه ضاحكا من عدم التثبت في اسانيدها والاغرب من ذلك تذييلكم

لها وقولكم ان مجتهدي الشيعة يبيحون لامراء العرب التمتع بعدة نساء مما يصادف هوى في فؤادهم مع ان اولئك الاعراب يأنفون أشد الانفة من المتعة ولا يفعلونها قطعيا وهي مع حلها عند الشيعة لاترى عربيا يفعلها بل لاترى عربية تقبل بها الا في النادر وربما كانت شائعة عند الفرس لاغير وهذا ماحمل بعض علماء الشيعة من العارفين بأحوال العراق على الرد على ذلك العالم الغيور في مجلتنا (العرفان) ولما كنت اعلم منكم الانصاف وأجلكم عن عدم التثبت ودع ماتنقلونه بالدليل مع ان مبدأكم المطالبة بالبرهان جئت بكتابي هذا كي تنشروه على صفحات مجلتكم الحرة احقاقا للحق وإعلاء لمنار الصدق حتى اذا كان لكم دليل من كتب الشيعة على مدعاكم اتيتم به واني على يقين بأنه لايوجد بتاتا و بقي امر آخر لا بد من استطلاع طلائعه واستجلاء حقيقته منكم وهو قولكم لايعتد باجماع الشيعة لان المسلمين اجمعوا قبلهم فلعمري هذا من الغرابة بمكان لان الشيعة أقدم من بقية المذاهب المستحدثة في الاسلام كما يعلم ذلك كل من له مسكة من علم التاريخ واطلاع على نشأة القوم واني انبهكم قبل ختام الكلام الى ان كتب الشيعة اصبحت منتشرة ومطبوعاً ا كثرها في بلاد فارس والهند والحصول عليها متيسر فيمكنكم استجلاب شيء منها حتى اذا نقلتم شيئا عنهم يكون على ثقة وتثبت والسلام . ٣٠ رمضان سنة ١٣٢٧ منشيء العرفان

احمد عارف الزين

(المنار) أرسلت الي هذه الرسالة وأنا في سياحتي بالاستانة فأنا اعلق عليها بالايجاز وأنا جالس في احد المطاعم بعد الغداء وابدأ كلامي بالبراءة من التعصب للمذاهب ثم أقول :

أشكر للكاتب بيانه وأعده له يدا يمنها على المنار اذ لاأحب ان ينشر فيه شيء من الخطإ ولا يعقب ببيان الصواب ولكني أنكر عليه ماذكره من الكلمات الجارحة التي اعتادها الذين يكر بعضهم على بعض انتصارا لمذهب على مذهب والتشنيع لقوم وإهانة آخرين كقوله « محض وهم وافتراء » فان الافتراء تعمد الكذب ويبعد جدا ان يكون الذين عزوا هذا القول الى الشيعة قد تعمدوا الكذب في نسبته اليهم بل لا يعقل أن يقع هذا من عاقل اذ لافائدة فيه ولا هو من المسائل التي يرجح بها مذهب على

مذهب والخطأ في فهم آيات القرآن جائز على كل أحد وقد وقع من بعض الصحابة وهم أهل اللسان وشهداء البيان وممن دونهم من أئمة الفقه وعلماء المذاهب المنسوبون الى السنة كثيرا مايخطيء بعضهم مذهب بعض ، فنقلهم مثل ذلك القول عن الشيعة لاوجه لان يكون من الافتراء عليهم أو انتقاصهم لانهم شيعة بل لابد ان يكون له أصل وان لم يكن هو المعتمد في مذهب الإمامية أو الزيدية ، ونسبة الاقوال الشاذة في المذهب الى أهل المذهب معهود وغاية مايقال فيه ان نقل المخالف لايعتد به . وأنت تقول إن القاسم بن ابراهيم أجاز العقد على تسع واليه ذهبت القاسمية من الزيدية ، وهم من الشيعة في عرف أهل السنة . ولا يبعد ان يكون أولئك الناقلون عن الشيعة ماذكر قد سمعوا منهم أو قرأوا عنهم قولا آخر من الاقوال الشاذة فظنوا انه هو المعتمد في المذهب ، ويكفي في بيان مثل هذا الخطأ ان يقال ان ماقيل عن الشيعة في مسألة كذا غير صحيح أو غير معتمد عندهم والمعتمد هو كذا ولا حاجة الى مثل هذا التطويل والتهويل والتذكير بالانصاف والدليل

وأما القول بأنه لايعتد بخلاف الشيعة في مسألة كذا لان المسلمين اجمعوا قبل ذلك عليها فلا ينقض بدعوى ان مذهب الشيعة اقدم من بقية المذاهب لان المراد باجماع المسلمين قبلهم هو اجماع الصحابة لا إجماع أهل المذاهب المستحدثة أو القديمة ، وجميع المذاهب حادثة في الاسلام وقد كان الاسلام على أفضل ما كان عليه في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعصر الصحابة والتابعين ولم يكن فيه مذاهب ، ثم حدثت المذاهب ففرقت كلمة المسلمين ومازادت الاسلام الا ضعفا ووهنا ولا نبحث في قدم بعضها على بعض الا من باب التاريخ اذ لاعلاقة لذلك بالحق والباطل والخطأ والصواب فكون مذهب المعتزلة سابقا لمذهب الاشعرية لا يقتضي كونه أصح منه وكون مذهب الجهمية متأخرا عن مذهب الخوارج لايستلزم ان يكون اقرب الى الصواب منه . ونحن نعترف بأن ذكرنا للمذاهب أحيانا في تفسير القرآن مخالف لمشربنا وهو انما يقع منا سهوا فالقرآن فوق المذاهب كلها ونحن لا نلتزم في تفسيره مذهبا من المذاهب لان هذا من تفسيره بالرأي والهوى وهو منهي عنه

واما مانشرناه لذلك العالم السائح فهو من باب النقل والناقل عدل ثقة لاشك

عندنا في عدالته وقد يخطيء ويصدق بعض الروايات الباطلة فينقلها بحسن النية ولو جاءنا رد عليه لنشرناه اذ لاحظ لنا غير اتباع الحق والسلام

* * *

﴿ الصدّيق وميراث النبي (ص) (*) ﴾

سيدي الدكتور مرجليوث

اليك ماوعدتك في جوابي عن تذكرتك من الملاحظة على بعض ماجاء في انتقادك لكتاب بلاغات النساء الذي شرحته وطبعته

(١) جاء في انتقادك ان الكتاب لم يذكره ياقوت في مؤلفات ابن ابي طاهر وانه قد يكون هو كتاب المستظرفات

وأفيدك :ان بلاغات النساء هو الجزء الحادي عشر من كتاب المنظوم والمنثور لابن ابي طاهر أسماه باسم خاص به هواسم بلاغات النساء الخ، وقد اخترت نشره بهذا الاسم لانه خير عنوان لمشتملاته وادعى لإلفات النظر اليه فان غرضي من نشره هو مساعدة الحركة العاملة عندنا لترقية المرأة وترى عقب المقدمة التي وضعناها للكتاب اشارة الى ذلك فلتراجع هذا وان كتاب المنظوم والمنثور ذكره ياقوت في مؤلفات ابن أبي طاهر (راجع معجم الادباء)

(٢) ثم جاء في الانتقاد :ان اخراج ابي بكر لفاطمة من ميراث ابيها كان يقينا بتحريض عائشة التي لم تسامح عليا قط فيما كان له من اليد في حديث الافك ! !

أقول :ان انباء الحوادث لاتثبت الامن طريق النقل وهذه كتب التاريخ كلها خلو من ذكر ماحسبته يقينا ولم يشر اليه في واحد منها لاتصريحا ولا تلميحا فتفردك بقول في حادثة مضى عليها ١٣ قرنا موضع نظر !

ان الفكر لايلجأ الى الاستنتاج العقلي لمعرفة السبب في حادثة تاريخية الا اذا

(*) كتاب لاحمد افندي الالفي بعث به الى الدكتور مرجليوث المدرس بجامعة اكسفورد رداً على ماتعرض له بتقريظه كتاب بلاغات النساء من اتهام الصديق (رض) بحرمان فاطمة عليها السلام من ميراث ابيها (ص) اجابة لتحريض عائشة (رض) وقد بعث به الينا لننشره بمناسبة ما اثبتناه في التفسير من الافاضة في هذا الموضوع راجع (ص ٧٢٧ — ٧٣٤) من هذا المجلد

خلت روايتها من ذكره على وجه صريح معقول وليس ذلك في حادثتنا فان أبا بكر لم يخرج فاطمة من الميراث الا أخذا بقول ابيها صاحب الشريعة الاسلامية: «لا نورث ماتركناه فهو صدقة» وقد اقتنعت فاطمة وآلها واشراف الامة حينئذ بصحة هذا القول وأقروا العمل به وقبلوه

ان مثلك لايند عنه معرفة قوة سلطة الدين على متحليه في ابان نشأته كما كان ذلك في عهد تلك الحادثة حينئذ والعرب على فطرتهم البدوية وسذاجتهم الطبيعية فلا يمكن أن يلتئم مع ذلك ان يجنح أبو بكر الى هضم انسان حقه بتحريض محرض وأن يقره على ذلك الباطل اعيان الامة وان يخفى كل ذلك على رواة التاريخ فيغفلوه

ان العيان يكذب ان الموجدة الشخصية تكون سببا في ان يمنع الانسان غيره من حقه فان كثيرا من المتعاملين يجني بعضهم على بعض ومع ذلك فقل أن يكون ذلك سببا للجسارة على ان يهضم انسان حق آخر خصوصا اذا كان صريحا كما في مسألة الميراث في مثل تلك الظروف

ان عليا لم تكن له يد في حديث الافك وانما صدر عنه رأي في تخفيف وقعه على محمد واليك مانسبته عائشة نفسها الى علي في هذا الشأن وقد نقلته عن كتاب البخاري اصح كتب الرواة الاسلاميين بالاجماع قالت :

« ثم اصبحت فدعا رسول الله علي ابن ابي طالب واسامة بن زيد يستشيرهما في فراقي فأما علي فقال يارسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك فدعاها رسول الله فقال لها : يابريرة هل رأيت فيها شيئا يريبك؟ » فقالت بريرة لا والذي بعثك بالحق مارأيت منها أمرا اغمصه عليها قط »

وقد طوي حديث الافك بأسبابه ونتائجه لما تحققت براءة عائشة حتى أن أبا بكر أعاد صدقته على « مسطح » أحد القائلين فيه وكان قطعها عنه أثناءه

إن عائشة لم يكن لها في حياة أبي بكر وعمر الى أواخر زمن عثمان دخل في شئون الامة العامة و بعيد أن يحصل منها تحريض في مسألة الميراث يخفى خبره على رواة الاخبار حتى لا يذكره منهم ذاكر ويجوز باطله على اعيان الامة في ذلك الحين حتى لا يجهر بالحق منهم جاهر

ان الميراث لم يكن راجعا الى علي حتى تندفع عائشة بدافع موجدتها منه فتحرض أباها عليه فيه بل الميراث ميراث فاطمة والعباس عم النبي وأزواج الرسول ومنهن عائشة

جاء في تاريخ الطبري رواية عن عائشة نفسها :

« ان فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما حينئذ يطلبان ارضه من فدك وسهمه من خيبر فقال لهما أبو بكر أما اني سمعت رسول الله يقول : لا نورث ما تركناه فهو صدقة ، انما يأكل آل محمد من هذا المال واني والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته »

لولم تقتنع فاطمة والعباس بحجة أبي بكر أو لو أحسا بأن الدافع اليه حقد يضم جوانحه عليه لابت لهما انفتهما العربية وهما هما صفوة بني هاشم ، وعزتهما الاسلامية وهما هما آل الرسول وبجانبهما علي وشيعته - ان يستخذيا للباطل ولأ ثارا على أبي بكر غارة شعواء لا قِبل له بها

قد كان علي ينفس على ابي بكر منصب الخلافة ولكن منعه دينه أن يتعرض لخليفة سلك مسلك الحق ولو وجد علي في عمل أبي بكر منفذا يدخل عليه منه لما وَنى وقد أراده ابو سفيان رأس بني امية (راجع الطبري) على مناوأة أبي بكر فاستعصم علي لعدم المسوغ وأي مسوغ كان أدعى من أن يجبر ابو بكر على منع فاطمة بنت رسول الله والعباس عم رسول الله ميراثهما بتحريض عائشة ؟

ان ابا بكر في حسن سياسته وقوة ايمانه اجل قدرا وارجح رأيا من أن يندفع بالباطل لمنع آل الرسول حقهم الصريح وسيرته ترفع بقارئها عن أن يظن به ذلك خصوصا ان ابا بكر لما ولي الخلافة تخلف عن بيعته من تخلف وارتد عن الاسلام من ارتد فكان إزاء نارين فارتأى بحكمته مداراة المتخلفين حتى سكتوا عنه وراجعوه وعزم بحزمه حرب المرتدين حتى انصاعوا اليه فكيف مع هذه الظروف يجسر على منع رؤس بني هاشم وآل الرسول حقهم بالباطل ؟ وبعيد جدا أن يغلبوا على حقهم الصريح بغالب الباطل والغرض مع قدرتهم على المقاومة لوأرادوا ، وبعيد جدا أن يقر العرب اجمع ابا بكر على باطل ارتكبه بدافع التحريض وهم الذين انكروا

على عثمان توليته بعض مناصب الدولة لاحداث قومه حتى قتلوه

لو أن حادثة الميراث غير معلومة السبب وكان لابد من تلمس العلة فيها لكان خير رأي يتفق مع طبيعة ذلك العصر وظروف هؤلاء الناس أن يقال : ان ابابكر اراد بتقرير ان النبي لا يورث توهين اعتماد علي في احقيته بالخلافة على قرابته من النبي لانه اذا كان النبي لا ترثه قرابته في عقار وهو ملك خصوصي فبالحري او بالاولى أن لا تتخذ قرابته وُصلةً للاحقية في امر عمومي

(٣) اما اسناد خطبة فاطمة فان ملاحظتك عليه صحيحة والصواب ان (زيد) الذي سأله ابن ابي طاهر ليس هو زيد بن علي المتوفى سنة ١٢٢ بل هو زيد حفيده كان معاصرا لابن ابي طاهر المتوفى سنة (٢٨٠) . وقد روى ابن ابي طاهر عنه غير هذه الخطبة كما ورد في صفحة ١٦٢ من الكتاب ذاته اذ قال : حدثني زيد بن علي بن حسين بن زيد العلوي . فزيد العلوي هذا هو المتوفى سنة ١٢٢ وهو من اجداد زيد المعاصر لابن أبي طاهر

وعليه فيكون قد سقط من اسناد خطبة فاطمة ثلاثة رجال خطأ من الناسخ للنسخة الخطية التي طبعت عنها هذا الكتاب

هذه ملاحظاتي اقدمها مع الثناء الجميل لك واعجابي الزائد بفضلك وأود أن تنشرها في المجلة التي نشرت فيها تقريظ الكتاب حتى يطلع عليها قارئو التقريظ فلا يفوتهم ما جاء فيها من التصحيحات والملاحظات وارجو أن ترسل لي نسخة من العدد الذي تنشر فيه وعلى كل حال احب أن تتفضل بافادتي عن رأيك فيها فان الحقيقة بنت البحث وهي ضالتنا المنشودة جميعا .

***

✵ حركة الاصلاح في جاوة ✵

سيدي الامام ، الداعي الى سبيل السلام ، بعد التحية والسلام : قد وصلنا العدد التاسع من المنار المنير وكله فوائد تهش لها افئدة المؤمنين ، وحجة قاطعة لالسنة الجامدين ، وقد انتعش بها قوم احبوا الهدى ، وغص بها آخرون اخلدوا الى زينة

الحياة الدنيا ، ولقد احسنتم كل الاحسان فيما انتقدتم به رسالتي الفاضل السيد عثمان ونحن نوافقكم عليه حرفيا وانه لكما ذكرتم حري بأن تحسنوا به الظن لانه قد بلغ من الكبر عتيا وله خدم مشهورة ومآثر حسنة وان كانت له هفوات معدودة

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

واني اكاد اجزم أنه سيرجع الى الصواب ويضيف بذلك لنفسه منقبة ان شاء الله ان لم يكن ادركه الخرف لانه في العقد التاسع من العمر ، نسأل الله أن يوفقنا واياه واياكم لرضاه آمين

وكيف لا ارجو له الرجوع الى هدي الكتاب ونبذ تقديم آراء الرجال عليه وجده الادنى السيد عقيل بن عمر كان من المجتهدين الذين لا يحتقبون الناس دينهم فلقد عطل ابن سعود دروس المقلدين من الحرم الشريف لما استولى على مكة المكرمة ولكنه لم يتعرض لحلقة السيد عقيل المذكور بل كان علماء نجد يجتمعون فيها كما أنه منع جميع المفتين بمكة عن الافتاء ولكنه لم يمنع السيد عقيل لانه كان يفتي بما يظهر له من محكم الكتاب وصحيح السنة وهاهي فتاوى السيد عقيل وكتبه موجودة وهو شيخ مشايخ العلويين في علوم الشريعة والطريقة وطريقتهم الاخذ بالكتاب والسنة ومن احق الناس بسلوك طريق السيد عقيل حفيده السيد عثمان بن عبد الله بن عقيل

ولقد ظهرت بشائر نفع دعوة المنار ودعائه ومن يدعو الى ما يدعو اليه بهذه الجهات فصار الناس يتأففون من حالتهم الحاضرة ويئنون مما اصابهم من الجهل وابتدأوا في تأليف جمعيات وجمع نقود لفتح مدارس اسلامية تعلم النابتة اللغة العربية والعلوم الدينية وطرفا مما ينفعهم في امورهم الدنيوية و بالفعل قد فتحت مدرسة في بتاوي وأخرى في فاليمباغ وثالثة في سورابايا ورابعة في قرمي استاذها الشاب الغيور الفاضل السيد محمد بن هاشم بن طاهر سبط الفاضل السيد عثمان ، وقد جعلوا لتلك المدارس نظاما وترتيبا نؤمل مع الزمن أن يكون مرقاة الى بلوغ الكمال ، وقد امتحن منذ شهرين تلاميذ مدرسة قرمي للسنة الاولى فنجحوا نجاحا يكاد يعد من المعجزات بفضل اجتهاد وذكاء استاذها وجميل صبره ، فلا أعد مبالغا ان قلت انها افضل مدرسة في

هذه الجهات وان ستين في المئة من تلاميذها أعلم من آبائهم ولما يمض عليهم بها ١٨ شهرا وان الهمة مبذولة من رجال النهضة في هذه البلدان في طلب مدرسين من الخارج ليستفيدوا من تجاربهم ومعرفتهم بالنظام والترتيب

نعم قد صنف حضرة السيد عثمان رسالة سماها جمع النفائس ونشرها وصدر لكم منها مع هذا نسخة لاعذر لكم عن تصفحها وهي اقل من ١٢ صفحة واراها (وربما أكون مخطئا) ستعرقل هذه النهضة الشريفة ان لم تقض عليها في بعض البلدان لما لصاحبها من الصيت والجاه واني لا أشك في حسن نيته ولكني اقول انه اراد أن ينفع فضر فعسى أن تلاحظوا ما كتبه وتنشروا رأيكم فيه لتشدوا من همة الدعاة وتكسروا شرة الجامدين وتقووا هذه النهضة قبل أن يجهز عليها اصحاب العمائم وهي في سن الطفولية ادامكم الله نفعا للعباد ، وشجى في حلوق اهل الفساد .

آمين آمين لا أرضى بواحدة ... حتى أضيف اليها الف آمينا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته — س . م . م بتاوي (جاوة)

المنار : نثني على القائمين بنشر التعليم اطيب الثناء ، ونحثهم على المضي في عملهم بدون مبالاة بأرباب النزغات والاهواء ، وسنذكر رأينا في رسالة «جمع النفائس» في الجزء الثاني عشر إن شاء الله تعالى

* * *

مدافعة صاحب جريدة (وطن) عن نفسه

حضرة العلامة الحكيم السيد محمد رشيد رضا أدام الله فضلكم ونفعنا بعلومكم آمين

أما بعد السلام والاحترام : أثني عليكم ثناء جميلا لحسن ظنكم بهذا العاجز ، ومعاناة الرد على شبهاتي العديدة بالحسنى ، ودفع التهم الموجهة اليّ من جرائد الاستانة الاخذة بالظن والغير المبالية بالحقائق وأشكر فضلكم

ان اقوال جريدة «يني غزته» وغيرها في اتهامي بالطمع باحراز المال والجاه وتوقع الانعامات الحميدية ـ لا أجد حاجة لتفنيدها ، وكل من يرجع الى وجدانه

الصحيح يرى بطلانها عيانا لان الدولة التي أجدها محتاجة لاعانة المسلمين وكنت اجتهد جهد طاقتي في جمع الاعانات المالية لها حينا بعد آخر وآخذ من اهل البر من المسلمين من بضعة اعشار القرش الى القرش فصاعدا وأحفظها عندي ومتى اجتمع مبلغ من المال ارسله الى الاستانة ، - لا يعقل انسان اني كنت أؤمل من مثل تلك الدولة منفعة مالية لان ذلك الامل يجب أن يكون من الغني لا من المعوز ! وعدا ذلك فاني لوكنت أنوي الفوز بالوسامات والانواط من الدولة العلية وكاتبت بهذا الامر رجال المابين، لما كنت أجد جسارة في ذم القابضين على زمام الاقتدار فيه ورجاله المشهورين مثل عزت «افندي» العابد وغيرهم ومدح الحكومة الدستورية في تأليفي « تاريخ السكة الحجازية » ؟

والحاصل اني لم اكتب قط إلى المابين كتابا ، وأنى لمثلي أن يكاتبه ويجد منه أذنا صاغية ويتشرف بالرد الجميل منه ، اللهم اني كتبت مرة الى سعادة السيد مصطفى ذهني باشا ناظر النافعة الاسبق لكونه مشرفا على ادارة السكة الشريفة حوالي موعد الاحتفال بافتتاح السكة الكريمة الى مدينة النبي (ص) - بأسماء بضعة من اكابر الملة الاسلامية وأصحاب الجرائد، لدعوتهم الى حضور الاحتفال رسميا ودعوة رجل أو رجلين من صحافيي الانكليز أيضا لذلك الغرض ولا أذكر الآن هل كان اسمي ايضا في تلك القائمة أم لا ، وكان ذلك الكتاب كمشورة نافعة لجمع الاعانات للسكة الحجازية من مسلمي الهند وغيرها من الاقطار الاسلامية لان الكبراء والصحافيين الذين يدعون الى الاحتفال و يشتركون فيه لاشك في أنهم يصيرون بعد العودة من الاحتفال ساعين في بني قومهم بترغيبهم وحثهم على اعانة ذلك المشروع الاسلامي العظيم وتستفيد الدولة بحصول حبهم الخالص ايضا ولا أظن انكم ترون في مشورتي هذه غير الاخلاص والحب الصادق لدولة اسلامية عظيمة ، وكثيرا ما كنت اقترح على سعادة الباشا الممدوح ما أراه مفيدا من اسباب توفير الاعانة والاصلاحات الضرورية لهذه السكة المباركة

وأما أمر الوسام والنيشانات فأكرر قولي في ذلك الباب كما قلت لكم قبلا بأني لم أؤمل قط حصولها بل لما أرسل اليّ سعادة مصطفى ذهني باشا النيشان العثماني من

الطبقة الرابعة كتبت الى سعادته « لو كنتم أخذتم رأيي في ذلك الباب قبل ارسال النيشان فلم أكن لاقبله ، وأما الآن وقد أرسلتموه الي فأرى رده من سوء الادب »

وأرجو من كرمكم نشر كتابي هذا في «المنار» الاغر والفات رصيفاتنا الجرائد التركية و بالاخص جريدة «يني غزته » إلى نشر كتابي الذي وجد في المابين والذي بنت هذه الجريدة قولها عليه بنصه مع الترجمة باللغة التركية لينصف العالم هل أنها صادقة أم لا ، والا فالواجب الصحافي والاسلامي يحتم عليها نفي قولها الغير الصادق باتهامي بما لست فاعله أبدا

والرجاء من غيرتهن الاسلامية قبول دعوتي هذه ليثبتن طهارة ذمتهن بتبرئة البريء من التهم الباطلة الموجهة اليه والا فلا أكون مخطئا في ظني بحزب تركيا الفتاة انه بعيد عن الانصاف والحق كل البعد ولذلك ارسل نسخة من كتابي هذا الى رصيفتي المؤيد ايضا وارجو منها نشره

هذا واقبلوا فائق احتراماتي افندم ودمتم سالمين كاتبه المخلص

محمد انشاء الله صاحب جريدة «وطن» الهندية

لاهور - بنجاب (الهند)

باب الأخبار والآراء

افتتاح مجلس المبعوثان

كان يوم غرة ذى القعدة الحرام يوما مشهودا في الاستانة العلية ، تطالت اليه اعناق العثمانيين ، وحدجت ابصار الشاهدين منهم له والغائبين ، اذ هو يوم من ايامهم المشهودة ، وعيد من اعيادهم المعدودة ، ألا وهو افتتاح مجلس الامة الذي استردت به الامة حياتها ، وحفظت كيانها ، واصبح امرها بيدها

ولإن كان يوم اعلان الدستور هو العيد العام لجميع العثمانيين، والحد الفارق بين عصر ترقب العدل ، وزمن سلطة الجائرين، — فجدير بهذا اليوم أن يكون عيدا مثله عظيما، اذ به تتحقق مباشرة الامة للقبض على أزمّة الحكم عملا، وذلك بسن القوانين العادلة ، والتصديق على انفاذ المشروعات النافعة

لقد كان همُّ المبعوثان في العام الماضي محصورا في تقرير طرق المحافظة على الدستور ، والسعي في حمل الحكومة على التنازل عن واسع سلطتها ، لتكون في يد المجلس ، وبينا هم يكافحون ويناضلون ، ويتحاجون ويتحاورون ، اذ نجمت تلك الفتنة الهائلة، والبلية النازلة، التي كادت تلهب جُذاها في جميع انحاء السلطنة ، فانقضت على الدستور بغية زعزعة اركانه، ونقض بنيانه، وصدت المجلس عن عمله، وحالت دون تحقيق امله ، وكان من فضل الجيش وقائده العظيم محمود شوكت باشا اجتثاث تلك الفتنة من اصولها، والقضاء على السلطة الجائرة، فكانت بحمد الله صفقتنا رابحة، وصفقة ربها عبد الحميد خاسرة

انقضى ذلك العام بخيره وشره ، وقطعت قبل مغيب شمسه ألسنة الفتنة ، وأخمدت نار المحنة ، وقد هل هلال هذا الشهر وهو اول العام الثاني للمجلس — ونوابنا الكرام جالسون على مقاعدهم، مترقبون لطلعة سلطانهم وخليفتهم، ليفتتح مجلسهم ، ثم ينصرفون بعد ذلك الى ما تمحضوا له

هذا : ولم تكد تبتسم شمس نهار افتتاح المجلس الا وقد برزت العاصمة في لبوس من الزينة يروق الابصار ويسر البصائر ، وما كان خفقان الاعلام على الدور والقصور ، والحوانيت والفنادق ، إلا دون خفقان القلوب واهتزازات النفوس !

ثم اقبل الخليفة بموكبه الجليل والنهار في مستوى شبابه يحيط به امراء الاسرة المالكة كالنجوم حول القمر ، ولما بلغ القصر بصر بوزراء الدولة وقوادها واقفين أمام باب القصر لاستقباله اجلالا وتعظيما

بعد أن جلس الخليفة على كرسي السلطنة واخذ كل واحد مكانه، — وكان المجلس حفيلا بالوزراء والقواد والسفراء وحملة الاقلام — ناول مولانا السلطان خطابه للصدر الاعظم وأمره بقراءته فتلاه بصوت جهوري دوى له المجلس حتى وعاه كل سامع

عارف بالتركية، وانه لخطاب حكيم ، واني أنشره على القراء مترجما ترجمة صحيحة وهاوئم الترجمة :

﴿ خطاب السلطان ﴾

أيها الاعيان والمبعوثان المحترمون

أحمد الله جل جلاله الذي جعل جلوسي على أريكة السلطنة العثمانية في دور الدستور السعيد ووفقني في السنة الاولى منه أن أحضر افتتاح الاجتماع الثاني للمجلس العمومي وأهنيء أعضاءه جميعا بقدومهم المأنوس .

ان الشرع الشريف يأمر بالحكومة المقيدة الشورية عقلا ونقلا ويعدها لنا كطريق نجاة وسلامة فاذا داومنا مسيرنا في هذه السبيل وصلنا إلى الاتحاد والقوة اللازمين لحياتنا الاجتماعية والسياسية

إن من ا كبر أمانيَّ المحافظة على الدستور وتأييد مبادئه وتطبيق قواعده وسأشتغل بمنتهى مقدرتي مع رعيتي مستعينا بمعونة الله وروحانية النبي صلى الله عليه وسلم لتحقيق هذه الاماني الشريفة والوصول الى هذه الغاية المجيدة

ان امتناني كان عظيما جدا عند مارأيت الاخاء عاما شاملا بين عموم ابناء الوطن اثناء سياحتي في بورصه وأزميد وكنت سعيدا جدا باقترابي من افراد الأمة الصادقة

ان الخدمة العسكرية التي تشمل اليوم جميع رعايانا بلا استثناء هي من نتائج ما يأمر به القانون الاساسي الذي يضمن لهم المساواة بالحقوق والواجبات وإنني أعد وضع هذه الخدمة العامة المعلية لقوة الدولة وعظمتها موضع التنفيذ من أهم الحوادث التي سينقلها تاريخ نهضتنا الوطنية لان من طبائع هذه الخدمة في الجيش تحكيم عرى التآخي الصحيح بين ابناء هذا الوطن

ان الرقي والانتظام اللذين اظهرهما أفراد جيوشنا اثناء المناورات البرية والبحرية التي جرت لاول مرة في هذا العام يحملان على ان نقدرهم حق قدرهم وان نصرف مساعينا لايصال هذه القوى الى درجة الكمال اذ عليها يتوقف الذب عن حوزة الوطن والمحافظة التامة على السلم العام

ان أحوالنا الداخلية - ولله الحمد - لاتوجب القلق وان الحوادث التي وقعت في قضاء الزيدية التابع لمتصرفية الحديدة وفي متصرفية عسير من ولاية اليمن وفي قضائي بارزان ولوما من ولايتي الموصل وقوصوه اخذت تزول بالتدابير الرشيدة التي اتخذتها الحكومة المنفذة حتى ان القبائل الثائرة جنحت للطاعة والسكون والآمال معقودة على انها لا تتكرر فيما بعد ولا سيما متى تعممت المعارف وفهمت الاهالي عامة القواعد الدستورية فيجب علينا في الوقت نفسه أن نعمل باهتمام وسرعة في سبيل إنهاض المعارف وترقية الاحوال الزراعية والصناعية والتجارية في ممالكنا الواسعة وكل عمل من شأنه ان يعود على العموم بالراحة والرفاه وعلى البلاد بالثروة والعمران

الاوان اكبر آمالي حصول التوازن المالي الذي هو أس إساس الاصلاحات وستقدم ميزانية سنة ١٣٢٦ العمومية لمجلسكم فعليكم ان تدققوا فيها أصلا وفرعا وإذا كان واضعوها لم يتمكنوا من الوصول بها إلى هذا التوازن المنشود بالرغم عما أنفقوه من الحكمة والاقتصاد في وضع النفقات المعقولة اللازمة فانهم سيتوصلون بلا شك الى سد عجز الميزانية العمومية المقبلة متى استوفيت الزيادة التي ستجبى من الرسوم الجمركية ووضعت الاحتكارات المنوي وضعها وتحسنت طرق جباية الاموال الاميرية وعندئذ تزداد الثقة المالية بنا وقد أثبتت أعمالنا المالية الاخيرة لنا ذلك

لقد أقمتم الدستور باجتماعكم الاول على قواعد متينة لا تزعزع وأيدتم النظامات الكافلة للامن والراحة في البلاد وستنظرون في اجتماعكم الثاني لوائح القوانين والنظامات التي وضعتها الحكومة المنفذة مجددا فيما يتعلق بحياة المملكة الاجتماعية والاقتصادية وتأييد النظام والراحة بقوة القانون ، ومن هذه المشروعات التي تستحق الذكر نظام التجارة البرية والبحرية وحقوق الملكية ونظام قضاة المحاكم المتنقلين وادارة الولايات وقانون الجزاء

ان علاقاتنا مع الدول كافة ودية محضة و بما أننا نراها جميعها متحدة على السعي في سبيل المحافظة على السلم العام فلذلك ترى حكومتي من واجباتها أن تكون عنصرا شريفا ساعيا معها في سبيل تأييد السلم

انني مع بيان فائق امتناني من المساعي الوطنية التي صرفت من قبل هيئتيكما

في الاجتماع الاول أعلن لكما افتتاح جلساتكما اعتبارا من هذا اليوم باسطا اكف الدعاء اليه تعالى أن يوفقكما و يسهل اعمالكما إلى مافيه خير الدولة والامة انه سميع مجيب » اه

بعد ان أتم الصدر الاعظم قراءة الخطاب السلطاني هتف الحاضرون للسلطان ، وصافحه السفراء ، ثم غادر قصر النواب والقلوب هاوية الى طلعته الغراء ، والابصار شاخصة الى موكبه ذي الجلال والرواء ، والألسنة منطلقة بالهتاف له والدعاء ، أدامه الله رافلاً في مطارف الصحة والهناء

و بعد فان أعمال المبعوثان في هذا العام ستتناول شؤونا جمة تتوقف على انفاذها على وجهها حياة الامة وعزة السلطنة ، وهي النظر في القوانين المسنونة والنظامات الموضوعة لتأييد الحق وشمول الامن والعدل ، ومن اعظم تلك الشؤون وآكدها مشروع تعميم العلوم والمعارف بين طبقات الشعب ومشروع التجارة وانشاء نظارة خاصة لها ، والنظر في توسيع سلطة الولايات ، وتهذيب قانون الجزاء (الجنايات) وغير ذلك من الاعمال التي تجمل اعمال المجلس في هذا العام ايجابية ، وقد كانت في العام المنصرم سلبية

ولنا الرجاء بأن يقوم اعضاء المجلس بما انتدبوا له خير قيام ، ولا سيما بعد أن تمرنوا على نسق السير في المجلس ، وسمعوا كثيرا من الصيحات والانتقادات بحق و بغير حق والله المستعان

حسين وصفي رضا

***

﴿ خطاب رئيس المبعوثان ﴾

خطب احمد رضا بك رئيس المبعوثان اخوانه الاعضاء بعد انتخابه رئيسا خطبة حفيلة نورد منها هذه الكلمات الحكيمة :

ان أول واجب على النائب الشريف النفس بعد اجتماعنا تحت سقف قصر ذي شهرة بالتاريخ هو شكر جلالة مولانا السلطان الذي تفضل علينا بهذا القصر ، ولي

الامل انكم تنيبوني عنكم في القيام بتأدية هذا الواجب ، ولاشك بأنكم تشتغلون بهدوء وسكون ونظام لتخدموا الامة الخدمة التي تنتظرها منكم ولكنكم لاتبلغون هذا القصد الا إذا حاذرتم تجاوز حدود الاعتدال الى التطرف

والواجب ان تكون الشرائع والقوانين والمطالب مماتتطلبه حالة البلاد وينطبق على تقاليد الامة واخلاقها حتى يسهل تنفيذها . فقبل ان نصوغ القوانين يجب ان نعد معدات التنفيذ التي تعم نفع تلك القوانين لكل عناصر الامة على حد المساواة ولا بد للوزارة التي تتولى التنفيذ من المساعدة والعون داخلا وخارجا اكبر من مساعدة مجلس النواب لها بالاماني والتمني . والعون الاول هو بلاجدال مايكون من ناحية العاطفة الدينية " قبل كل شيء " ثم من آداب الامة " ودرجة " تعلمها . والنجاح والمدنية " يشبهان مركبة " تدفعها قوة ذكرى العهد الماضي فاذا لم يكن وراء هذه المركبة " روح قوية " تدفعها الى الامام وقوات ادبية " ومادية " تؤيد الدافع فإما أنها تقف واما انها تتقهقر

وبما ان اعمال المجلس ومجهوداته لم تأت حتى الآن بالنتيجة التامة " فهم يظنون أن هذا المجلس لانفع له ! . وقد جسموا بعض الهفوات ومن عادة الشعب ان يعد الخير الذي لايدركه أو الاعمال التي لاتعود عليه بالنفع المادي والاعمال الحسنة " بنفسها اذا هي مست مرافق الافراد – من الشر

وليس ذلك غريبا في فهم الشعوب للامور على هذا الوجه فان الاصلاحات التي تقلب كيان الامة " اذا كانت فجائية قد تعود غالبا بالضرر على الافراد فالناموس الطبيعي يقضي بأن يكون الانقلاب تدريجيا وعلى مهل فليس من الواجب علينا وحدنا العمل فقط . بل من الواجب على كل عثماني أن يأخذ بيد اخيه العثماني للسعي وراء نجاح الوطن متحاشيا البحث أو التفتيش عن سيآت اخيه ليعيبه بها

واذا كان نقد الامور حقا ومنحة " من الحرية " فان من الفضيلة الشريفة " للضمائر الحرة الطاهرة أن لا ترى الشيء " من جهته السيئة " وبأن لا تثق بكل فكر يقال دون تحقيق أقوال هذا معربا عن أملي بأن تكون الروح التي أشرت الى فضائلها هي الروح السائدة في هذا المجلس

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر الثلاثاء سلخ ذي الحجة ١٣٢٧ – ١١ يناير (كانون الآخر) ١٢٨٥ه ١٩١٠م)

باب تفسير القرآن الحكيم

مقتبس فيه الدروس التي كان يلقيها في الازهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٤ : ١٩) وَاللَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥ : ٢٠) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا

قال البقاعي في تفسيره (نظم الدرر ، في تناسب الآيات والسور) بعد تفسير الآيات السابقة مبينا وجه الاتصال بينها و بين هذه الآيات مانصه: « ولما تقدم

سبحانه في الايصاء بالنساء وكان الاحسان في الدنيا تارة يكون بالثواب وتارة يكون بالزجر والعقاب لان مدار الشرائع على العدل والانصاف والاحتراز في كل باب عن طرفي الافراط والتفريط – ختم سبحانه باهانة العاصي وكان احسانا اليه بكفه عن الفساد، لئلا يلقيه ذلك الى الهلاك أبد الآباد، وكان من أفحش العصيان الزنا وكان الفساد في النساء أكثر، والفتنة بهن أكبر، والضرر منهن أخطر، وقد يدخلن على الرجال من يرث منهم من غير أولادهم قدمهن فيه اهتماما بزجرهن » اه

وأقول وجه الاتصال ان هذين الآيتين في بعض الاحكام المتعلقة بالرجال والنساء كالتي قبلهما وقد تقدم القول في كون آي الإرث ورد في سياق أحكام النساء حتى جعل إرث الانثى فيها اصلاً أو كالاصل يبنى غيره عليه ويعرف به (راجع تفسير للذكر مثل حظ الانثيين في ص ٤٠٥ ج ٤ تفسير) وكان الكلام قبلهما في توريث النساء كالرجال والقسط فيهن وعدد مايحل منهن مع العدل فلا غرو اذا جاء حكم اتيانهن الفاحشة بعد ماذكر مقدما على حكم إتيان الرجال الفاحشة وجعل ذلك بين ماتقدم و بين حكم ماكانت عليه الجاهلية من إرث النساء كرها وعضلهن لاكل أموالهن وحكم مايحرم منهن في النكاح. وقد أحسن البقاعي في توجيه الاهتمام بتقديم ذكر النساء هنا بعلاقته بالارث على رأي الجمهور في تفسير الفاحشة بالزنا الذي يفضي الى توريث ولد الزنا ولكننا لانسلم له ان الفساد في النساء أكثر منه في الرجال بل الرجال أكثر جرأة على الفواحش واتيانا لها ولو أمكن احصاء الزناة والزواني لعرف ذلك كل أحد

قال تعالى «واللائي يأتين الفاحشة» اللائي جمع سماعي لكلمة التي أو بمعنى الجمع ويأتين الفاحشة معناها يفعلن الفعلة الشديدة القبح وهي الزنا على رأي الجمهور والسحاق على ما اختاره أبو مسلم ونقله عن مجاهد وأصل الاتيان والاتي المجيء، تقول جئت البلد وأتيت البلد، وجئت زيدا وأتيته، ويجعلون مفعولها حدثا فيكونان بمعنى الفعل ومنه في المجيء قوله تعالى حكاية عن صاحب موسى (لقد جئت شيئا نكرا) وقوله تعالى (لقد جئتم شيئا إدًّا) واستعمال الإتيان في الزنا واللواط هو الشائع كما ترى

في الآيات عن قوم لوط وحينئذ يكون مفعوله حدثا كما في الآية التي نفسرها وما بعدها، ويكون شخصا كما في قوله (إنكم لتأتون الرجال) الخ ولا أذكر الآن وأنا أكتب هذا في القسطنطينية مثالا في استعمال الاتيان والمجيء في فعل الخير وليس بين يدي وأنا في فندق المسافرين كتب أراجع فيها «من نسائكم» أي يفعلنها حال كونهن من نسائكم «فاستشهدوا عليهن» أي اطلبوا أن يشهد عليهن «أربعة منكم» والخطاب للمسلمين كافة لانهم متكافلون في أمورهم العامة وهم الذين يختارون لانفسهم الحكام الذين ينفذون الاحكام ويقيمون الحدود. ولفظ الاربعة يطلق على الذكور فالمراد أربعة من رجالكم قال الزهري « مضت السنة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم والخليفتين بعده أن لاتقبل شهادة النساء في الحدود » فيؤخذ منه أن قيام المرأتين مقام الرجل في الشهادة كما هو ثابت في سورة البقرة لايقبل في الحدود فهو خاص بما عداها. وكأن حكمة ذلك إبعاد النساء عن مواقف الفواحش والجرائم والعقاب والتعذيب رغبة في ان يكنّ دائما غافلات عن القبائح لايفكرن فيها ولايخضن مع أربابها، وان تحفظ لهن رقة أفئدتهن فلا يكنّ سببا للعقاب واشترطوا في الشهداء أيضا ان يكونوا أحرارا

«فان شهدوا» عليهن باتيانها «فامسكوهن في البيوت» أي فاحبسوهن في بيوتهن وامنعوهن الخروج منها عقابا لهن وحيلولة بينهن وبين الفاحشة، وفي هذا دليل على تحريم امساكهن في البيوت ومنعهن الخروج عند الحاجة اليه في غير هذه الحالة لمجرد الغيرة أو محض التحكم من الرجال واتباعهم لاهوائهم في ذلك كما يفعله بعضهم «حتى يتوفاهن الموت» التوفي القبض والاستيفاء أي حتى تقبض أرواحهن بالموت «أو يجعل الله لهن سبيلا» أي طريقا للخروج منها. فسر الجمهور بما شرعه الله تعالى بعد نزول هذه الآية من حد الزنا لانه هو المراد بالفاحشة هنا عندهم فجعلوا الامساك في البيوت عقابا موقتا مقرونا بما يدل على التوقيت ورووا ان النبي صلى الله عليه وسلم قال بعد ذلك « قد جعل الله لهن سبيلا: الثيب جلد مئة ورجم بالحجارة، والبكر جلد مئة ثم نفي سنة » أخرجه ابن جرير وقال بعضهم الحديث مبين للسبيل لاناسخ والذين

يجيزون نسخ القرآن بالاحاديث جعلوا هذا الحديث ناسخا للامساك في البيوت وقال الآخرون بل الناسخ له آية النور (٢٤ : ٢ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة) وقال الزمخشري من الجائز أن لاتكون الآية منسوخة بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة ويوصى بامساكهن في البيوت بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ماجرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال، ويكون السبيل ـ على هذا ـ النكاح المغني عن السفاح. وقوله هذا أو تجويزه مبني على كون آية الحد سابقة لهذه الآية وليس في القرآن دليل يمنع من ذلك وأما قول الجمهور المبني على كون هذه الآية نزلت أولا فهو مؤيد بروايات عن مفسر السلف فقد روى ابن ابي حاتم عن ابن جبير انه قال كانت المرأة أول الاسلام اذا شهد عليها أربعة من المسلمين عدول بالزنا حبست في السجن فان كان لها زوج أخذ المهر منها ولكنه ينفق عليها من غير طلاق وليس عليها حد ولا يجامعها. وروى ابن جرير عن السدي : كانت المرأة في بدء الاسلام اذا زنت حبست في البيت وأخذ زوجها مهرها حتى جاءت الحدود فنسختها. ولكننا اذا بحثنا في متن هاتين الروايتين كيفما كان سندهما نرى أنه لايصح ان يكون ماجاء فيهما عملا بهذه الآية اذ ليس في الآية إجازة لاخذ المهر بل الآيات قبلها وبعدها تحرم أكل الرجل شيئاما من حقوق المرأة ثم إن ابن جبير قال انهم كانوا يحبسونها في السجن وصرح كل منهما بأن هذا كان في أول الاسلام وبدئه فيؤخذ من هذا كله انهم كانوا يفعلون ذلك بالاجتهاد أو استصحاب عادات الجاهلية لانهم لم يلتزموا العمل بنص الآية ولا يظهر القول بأن الآية نزلت في أول الاسلام وبدئه فقد بينا أن السورة مدنية وانها نزلت بعد غزوة أحد التي كانت في أواخر سنة ثلاث من الهجرة فان لم تكن نزلت كلها بعد غزوة أحد فقد تقدم ان آيات المواريث نزلت بعدها وهذه الآية وما بعدها متصلة بها. وقد فسر بعض المفسرين السبيل بالموت. ويحتمل ان يراد بالسبيل على قول أبي مسلم ذهاب داعية السحاق والشفاء منه فانه يصير مرضا وعلى رأي الجمهور التوبة وصلاح الحال ويرجحه الامر بالاعراض عن عقاب اللذين يأتيان الفاحشة في الآية الاخرى ومن رحمه الله تعالى وعدله ان يكون حكم النساء في ذلك كحكم الرجال فالابهام والاجمال في آخر هذه

الآية يفسره الايضاح والتفصيل في آخر مابعدها ويقوي ذلك ذكر أحكام التوبة بعدهما. قال تعالى

﴿ واللذان يأتيانها منكم ﴾ أي يأتيان الفاحشة وهي هنا الزنا في قول الجمهور واللواط في قول بعضهم وعليه أبو مسلم والامران معا في قول (الجلالين) والمراد بالتثنية في الاول الزاني والزانية بطريق التغليب، وفي الثاني الفاعل والمفعول به بجعل القابل كالفاعل، وفي الثالث الزاني واللائط ولا تجوّز فيه ﴿ فآذوهما ﴾ بعد ثبوت ذلك بشهادة الاربعة كما يؤخذ من الآية الاولى. روي عن ابن عباس (رض) تفسير الايذاء بالتعيير والضرب بالنعال وعن مجاهد وقتادة والسدي تفسيره بالتعيير والتوبيخ فقط. فاذا كانت هذه الآية قد نزلت قبل آية سورة النور، وكان المراد بها الزنا كما هو قول الجمهور، فالعقاب كان تعزيرا مفوضا الى الامة والأجاز ان يراد بالايذاء الحد المشروع نفسه والظاهر أن آية النور نزلت بعد هذه فهي مبينة ومحددة للايذاء هنا على القول بأن ماهنا في الزنا والا فتلك خاصة بحكم الزنا لانها صريحة فيه وهذه خاصة باللواط ولذلك اختلف الصحابة ومن بعدهم في عقاب من يأتيه، وهذا ما اختاره أبو مسلم وتخصيصه الفاحشة في هذه الآية باللواط الذي هو استمتاع الرجل بالرجل والفاحشة فيما قبلها بالسحاق الذي هو استمتاع المرأة بالمرأة هو المناسب لجعل تلك خاصة بالنساء وهذه خاصة بالذكور فهذا مرجح لفظي يدعمه مرجح معنوي وهو كون القرآن ناطقا بعقوبة الفواحش الثلاث وكون هاتين الآيتين محكمتين والإحكام أولى من النسخ حتى عند الجمهور القائلين به. وستأتي تتمة هذا البحث

﴿ فان تابا ﴾ رجعا عن الفاحشة وندما على فعلها ﴿ وأصلحا ﴾ العمل كما هو شأن المؤمن يقبل على الطاعة بعد العصيان ليطهر نفسه ويزكيها من درنه ويقوي فيها داعية الخير على داعية الشر ﴿ فأعرضوا عنهما ﴾ أي كفوا عن ايذائهما بالقول والفعل ﴿ ان الله كان توابا رحيما ﴾ أي مبالغا في قبول التوبة من عباده، شديد الرحمة بهم وانما شرع العقاب لينزجر العاصي ولا يتمادى فيما يفسده فيهلك ويكون قدوة في الشر والخبث (وراجع التواب الرحيم في ص ٥٢ ج ٢ تفسير)

وقال الاستاذ الامام في هاتين الآيتين ما ملخصه : اختلف المفسرون في الآيتين فالجمهور على انهما في الزنا خاصة ولاجل الفرار من التكرار قالوا ان الآية الاولى في المحصنات أي الثيبات فهنَّ اللواتي كنَّ يحبسن في البيوت اذا زنين حتى يتوفاهن الموت ، والثانية في غير المحصنين والمحصنات أي الابكار ولهذا كان العقاب فيها أخف ، وعلى هذا يكون الزاني المحصن مسكوتا عنه . والآيتان على هذا القول منسوختان بالحد المفروض في سورة النور وهو السبيل الذي جعله الله للنساء اللواتي يمسكن في البيوت . ولكن يبقى في نظم الآية شيء وهو ان كلا من توفي الموت ومن جعل السبيل قد جعل غاية للامساك في البيوت بعد وقوعه فعلى هذا لا يصح تفسير السبيل بانزال حكم جديد فيهن اذ يكون المعنى على هذا التفسير فامسكوهن في البيوت الى أن يمتن أو ينزل الله فيهن حكما جديدا . وقد فسر السبيل بعضهم بالزواج كأن يسخر الله للمرأة المحبوسة رجلا آخر يتزوجها . وقد وافق الجلال الجمهور في الاولى وخالفهم في الثانية فقال انها في الزنا واللواط معا ثم رجح انها في اللواط فتكون الاولى منسوخة على رأيه والثانية غير منسوخة . وخالف الجمهور ابو مسلم في الآيتين فقال ان الاولى في المساحقات والثانية في اللواط فلا نسخ. وحكمة حبس المساحقات على هذا القول هو أن المرأة التى تعتاد المساحقة تأبى الرجال وتكره قربهم أي فلا ترضى أن تكون حرثا للنسل فتعاقب بالامساك في البيت والمنع من مخالطة أمثالها من النساء الى أن تموت أو تتزوج . أقول والاولى أن يقال الى أن تموت أو تكره السحاق وتميل الى الرجال فتقبل على بعلها ان كانت متزوجة وتتزوج ان كانت أيما . قال وفي اسناد جعل السبيل لها الى الله تعالى اشارة الى عسر النزوع عن هذه العادة الذميمة والشفاء منها حتى بالترك الذي هو اثر الجنس فكأنها لا تزول الا بعناية خاصة منه تعالى

(قال) واُعترض على أبي مسلم بأن تفسير الفاحشة في الآية الاولى لم يقل به أحد وبأن الصحابة اختلفوا في حد اللواط فأجاب عن الاول بأن مجاهد قال به وناهيك بمجاهد وبأنه ثبت في الاصول انه يجوز للعالم أن يفسر القرآن ويفهم منه ما لم يكن مرويا عن احد بشرط أن لا يخرج بذلك عن مدلولات اللغة العربية في

مفرداتها وأساليبها ، وأجاب عن الثاني بأن الصحابة انما اختلفوا في حد اللواط وهذا لا يمنع كون الآية نزلت في العقوبة عليه وهي لاحدَّ فيها . ومما يجاب به عن أبي مسلم ان الصحابة ما كانوا يجلسون لتفسير القرآن الا عند الحاجة وانما كانوا يتدارسونه ويتدبرونه للاهتداء والاتعاظ وهم يفهمونه لانه نزل بلغتهم فاذا سألهم سائل عن تفسير آية ذكروا له تفسيرها وقد يسكتون عن حكم الشيء السنين الطوال لعدم وقوعه فاذا وقعت الواقعة ذكروا حكمها فاذا جاء في القرآن حكم السحاق ولم نجد عندنا رواية عن الصحابة فيه ولا حكما منهم على امرأة بالحبس لاجله علمنا ان سبب هذا وذاك هو انه لم يقع في زمنهم ويشهد به أربعة منهم واذا كان القرآن يضع عقابا على فاحشة أو جريمة فيمتنع عنها أهل الايمان فلا تقع أو لا تظهر فيهم ولا تثبت على أحد فهذا مما نحمد الله تعالى عليه ونحمد المؤمنين والمؤمنات ، ولا نعده من المستحيلات ، فالحق أن ما ذهب اليه ابو مسلم هو الراجح في الآيتين

(قال) وبحثوا في جمع اللاتي يأتين الفاحشة وتثنية اللذين يأتيانها وعدوه مشكلا وما هو بمشكل بل نكتته ظاهرة وهي أن النساء لما كنَّ لا يجدن من العار في السحاق ما يجده الرجل في اتيان مثله كانت فاحشة السحاق مظنة الشيوع والاظهار بين النساء ، وفاحشة اللواط مظنة الاخفاء حتى لا تكاد تتجاوز اللذين يأتيانها . ففي التعبير بصيغة المثنى إشارة إلي ذلك وتقرير لكون فاحشة اللواط عارا فاضحا يتبرأ منه كل ذي فطرة سليمة . ويجوز أن يكون اختلاف التعبير بالجمع والتثنية من باب التنويع فذلك معهود في الكلام البليغ مع الامن من الاشتباه

(١٦ : ٢١) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

(١٧ : ٢٢) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

لما ذكر تعالى أن التوبة مع الاصلاح تقتضي ترك العقوبة على الذنب في الدنيا ووصف نفسه بالتواب الرحيم أي الذي يقبل التوبة من عباده كثيرا ويعفو بها عنهم ـ عقب ذلك ببيان شرط قبول التوبة فقال ﴿ انما التوبة على الله ﴾ أي ان التوبة التي أوجب الله تعالى قبولها على نفسه بوعده الذي هو أثر كرمه وفضله ليست إلا ﴿ للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ فالسوء هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله اذا كان عاقلا سليم الفطرة كريم النفس او يسوء الناس ويصدق على الصغائر والكبائر . والجهالة السفاهة والطيش التي تلابس النفس عند ثورة الشهوة أوسورة الغضب فتذهب بالحلم وتنسي الحق . والمراد بالزمن القريب الوقت الذي تسكن به تلك الثورة ، أو تنكسر به تلك السورة ، ويثوب الى فاعل السيئة حلمه ، ويرجع اليه دينه وعقله ، وذهب جمهور المفسرين الى تفسير الزمن القريب بماقبل حضور الموت واحتجوا على ذلك بالآية الثانية التي تنفي قبول توبة الذين يتوبون اذا حضر أحدهم الموت وليس ذلك بحجة لهم لان الظاهر أن هذه الآية بينت الوقت الذي تقبل فيه التوبة من كل مذنب حتما ، والآية الثانية بينت الوقت الذي لاتقبل فيه توبة مذنب قط ، ومابين الوقتين مسكوت عنه وهو محل الرجاء والخوف ، فكلما قرب وقت التوبة من وقت اقتراف الذنب كان الرجاء أقوى ، وكلما بعد الوقت بالاصرار وعدم المبالاة والتسويف كان الخوف من عدم القبول هو الارجح ، لان الاصرار قد ينتهي قبل حضور الموت بالرين والختم وإحاطة الخطيئة ، وقد سبق بيان ذلك في تفسير سورة البقرة فراجع تفسير « ختم الله على قلوبهم » وتفسير (٢:٨١ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » من الجزء الاول وكذا في تفسير آل عمران فراجع (ص ٢٥٠ و٣٦٥ و٣٦٦) من تفسير الجزء الثالث . وسنعيد بيانه ايضا وكم غرت هذه العبارة الناس وجرأتهم على الاصرار على الذنوب والآثام وأوهمتهم أن المؤمن لايضره ان يصر على المعاصي طول حياته اذا تاب قبل بلوغ روحه الحلقوم فصار المغرورون يسوّفون بالتوبة حتى يوبقهم التسويف فيموتوا قبل ان يتمكنوا من التوبة ومايجب ان تقرن به من إصلاح النفس بالعمل الصالح كما في الآية

السابقة وآيات أخرى في معناها كقوله تعالى (٢٠:٨٢ واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقوله في حكاية دعاء الملائكة للمؤمنين (٤٠:٨ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) ولا ينافي ذلك ماورد من الاحاديث والآثار في قبول التوبة الى ماقبل الغرغرة كحديث ابن عمر عند أحمد والترمذي «إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » فان المقصود من هذا انه لايجوز لاحد أن يقنط من رحمة ربه وييأس من قبوله إياه إذا هو تاب وأناب اليه مادام حيا ، وليس معناه انه لاخوف على العبد من التمادي في الذنوب اذا هو تاب قبيل الموت ولو بساعة ، فان حمله على هذا المعنى مخالف لهدي كتاب الله في الآيات التي ذكرنا بعضها آنفا ولسننه في خلق الانسان من حيث ان نفسه تدنس بالذنوب بالتدريج فاذا طال الامد على مزاولتها لها تمكن فيها وترسخ فلا تزول الا بتزكيتها بالعمل الصالح في زمن طويل يناسب زمن الدنس مع ترك أسباب الدنس ، وأما الترك وحده فلا يكفي كما اذا وردت الاقذار والادناس الحسية على ثوب زمنا طويلا فإنه لاينظف بمجرد انقطاعها عنه . على ان المعاصي اذا تكررت تصير عادات تملك على النفس أمرها حتى تصير التوبة بمجرد الترك من أعسر الامور وأشقها لانها عبارة عن اقتلاع الملكات التي تكيف بها المجموع العصبي ، فما أخسر صفقة المسوّفين ، الذين يغترون بكلام أسرى العبارات من المفسرين وغير المفسرين ! ،

الاستاذ الامام : ذكر في الآية السابقة التوبة وبين في هذه الآية حكمها وحالها ترغيبا فيها وتنفيرا عن المعصية بما شدّد في شرط قبولها ، وفيه ارشاد لأولياء الامر الى الطريق الذي يسلكونه مع العصاة في معاقبتهم وتأديبهم ، فانه فرض في الآية السابقة معاقبة أهل الفواحش وأمر بالاعراض عمن تاب بشرط إصلاح العمل وكأن هذه الآية شرح لذلك الاصلاح أي ان تابوا مثل هذه التوبة فأعرضوا عنهم وكفوا عن عقابهم

ويذكرون ههنا مسألة الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة في وجوب الصلاح عليه تعالى والقول الفصل في ذلك قبول هذه التوبة على الله تعالى ليس بإيجاب

موجب له سلطة يوجب بها على الله، تعالى الله عن ذلك! وإنما ذلك من جملة الكمال الذي أوجبه تعالى على نفسه بمشيئته واختياره ،وهذه العبارة وأمثالها مما ظاهره وجوب بعض الاشياء على الله قد جاءت على طريق العرب في التخاطب ولا يفهم منها الا ان ذلك واقع ماله من دافع ولكن بايجاب الله تعالى له ولا يمكن ان يظن عاقل ان قانونا يحكم على الالوهية فجعل الخلاف في هذه المسألة لفظيا ظاهر لا تكلف فيه

والسوء هو العمل القبيح، والجهالة تصدق بمعنى السفاهة وبمعني الجهل الذي هو ضد العلم فالسفاهة إنما سميت سفاهة لان صاحبها يجهل عاقبتها الرديئة أو يجهل مصلحة نفسه . وقال بعضهم المراد بالجهالة هنا العصيان والمخالفة وعبر عن ذلك بالجهالة لبيان قبحه ولتضمنه الجهالة وتنزيل العاصي منزلة الجاهل بمصلحة نفسه . وقال بعضهم ان المراد بها عدم العلم التام بمقدار ما يترتب على عمل السوء من العقاب لا تعمد العصيان وذلك ان ناقص العلم بحقيقة الذنوب ووجه ترتب العقاب عليه ودرجة ذلك العقاب ومحته يقع في الذنب ويعمل السوء باختياره غير مغلوب على أمره وهو يظن انه عمل ما فيه الخير والنفع لنفسه ، كاللص يعلم أن السرقة محرمة ولكنه لا يعلم ان العقاب عليها حتم لان عنده احتمالات من العلم الناقص تشككه فيما ورد من وعيد السارق كشفاعة الشفعاء من المشايخ والجيران الصالحين، وكاحتمال العفو والمغفرة ، وكالمكفرات، فاذا عرض له شيء يسرقه وتذكر الوعيد على السرقة ينتصب في ذهنه ميزان الترجيح بين الانتفاع العاجل بما يسرقه والعقاب الآجل على هذه المعصية فاذا عرض له الشك في العقاب رجحت كفة داعية السرقة لان الانتفاع بالمسروق يقيني والعقاب عليه مشكوك فيه. وهكذا شأن الانسان في جميع الاعمال الاختيارية لا يمكن أن يأتي شيئا منها الا اذا كان يعتقد نفعه له ورجحانه على مقابله ان خطر في باله المقابل ،فعلم من هذا أن عمل السوء لا يمكن ان يصدر من الانسان إلا مع التلبس بالجهل، وعدم إقامة الميزان القسط، في الترجيح بين الفعل والترك ، فهو لا يرتكب المعصية الا جهلا بحقيقة الوعيد ، أو متأولا له بمثل ما أشرنا اليه من انتظار الشفاعة والمغفرة ،أو مغلوبا بشهوة أو غضب، فاذا زالت الجهالة عن قريب فتاب كانت توبته مقبولة حتما، واختلفوا في الزمن القريب: فعن ابن عباس وغيره هو أن يتوب في حال الصحة والامل في الحياة ، وعن ابن

جرير هو ان يتوب وهو مدرك يعقل ، وأشهر الاقوال أن يتوب قبل الغرغرة

ثم قال ما مثاله مع بسط وايضاح : ان من كان قوي الايمان بحيث لا تقع المعصية منه الا عن بادرة غضب أو شهوة ، أو جهل بأنها معصية تستوجب العقوبة ، فهو من أولئك الذين لا يقع منهم عمل السوء الا هفوة بعد هفوة، ولا يلبثون أن يبادروا الى التوبة ، ولذلك ذكر السوء مفردا وقال فيمن لا تقبل توبتهم «يعملون السيئات» بالجمع فأشعرنا ان التوبة انما تقبل حتما ممن تقع الذنوب منهم افذاذا ، ويلمّ واحدهم بها الماما ، ولكنه لا يصر عليها ، بل يبادر الى التوبة منها ، ثم قد يطوف به بعد التوبة طائف آخر من الشيطان ، فيعود ثانية الى العصيان، ويتبعه بالتوبة والاحسان، فلا تتمكن من نفسه ظلمة المعصية ، ولا تحيط به الخطيئة ، فالصواب أن يفسر قوله تعالى « من قريب » بالقرب من زمن الذنب وهو المتبادر من اللفظ عند أهل اللغة ، والمذنب التائب أحد رجلين : رجل عارف بتحريم الذنب ولكن تلمّ به تلك الجهالة ، التي تحدث الرعونة في الارادة ، فيقع في الذنب ثم يثوب اليه علمه فيؤثر في نفسه فيتوب . ورجل وقع في الذنب وهو لا يعلم انه محرم ، ولكنه على جهله ببعض امور الدين ليس راضيا بجهله ، ولا مهملا لامر دينه ، بل هو يبحث ويسأل ويتعلم فلا يطول عليه الامد حتى يعلم ان ما كان ألمّ به محرم فيتوب منه حالاً . فكل من هذين يصدق عليه انه تاب من قريب . فالقرب ليس له حد محدود وانما هو أمر نسبي فمن أصر على عمل السوء زمنا طويلا لجهله بأنه معصية محرمة ثم علم فتاب فلا شك ان الله تعالى يقبل توبته وقد يصدق عليه انه تاب من قريب بالنسبة الى زمن العلم ، ثم ذكر شيئا من كلام الغزالي في حقيقة التوبة واركانها

أقول ان ههنا شيئا يجب تدبره وهو الفرق بين من يعمل السوء وهو لا يعلم انه سوء محرَّم عليه ومن يعمله عالما بذلك فالاول لا تتدنس نفسه بالعمل وان طال عليه الزمن أي لا يكون ذلك العمل مجرئا لها على المعاصي موطنا لها على الشرور ، فاذا علم بعد ذلك ان عمله من السوء من حيث انه ضار له أو لغيره أو من حيث انه محرم عليه دينا وان لم يعرف سبب تحريمه فانه لا يعسر عليه غالبا أن يرجع عنه حالا وان كان قد ألفه فانه ما ألفه إلا من حيث إنه حسن في نظره فملكة اختيار

الحسن وايثاره على السيء تكون هي الغالبة عليه المصرفة لارادته فلذلك يسهل عليه الرجوع من قريب متى جاء العلم الصحيح كما سهل على السابقين الاولين من الصحابة (رض) أن يكونوا في الذروة العليا من الفضائل والفواضل وعمل الخير والتنزه عن الشر على نشوءهم في الوثنية وعادات الجاهلية فانهم كانوا على ذلك ذوي سلامة في الفطرة وحب للخير وبغض للشر وما كان ينقصهم الا العلم الصحيح بحقيقة الحسن والقبيح وكنه الخير والشر فلما جاءهم الاسلام سارعوا اليه وكانوا اكمل الناس به ، ولكن بعض المفسرين ينازع في كون من يعمل السوء جاهلا انه سوء مرادا من الآية ويرى ان رجوعه عما كان عمله قبل العلم بكونه سوءا لا يسمى توبة وقد أشار الى ذلك الاستاذ الامام بقوله « والتعبير بالسوء » الخ ولكنه مع ذلك اختار كون لفظ الجهالة عاما يشمل عدم العلم بحرمته كما تقدم

وأما من يعمل السوء وهو يعتقد انه سوء ويصر على المعصية وهو يعلم انها معصية لله عز وجل ولكنه يتبع هوى نفسه ويؤثر إرضاء شهوتها وغضبها على رضوان الله ومنفعة عباده فذلك الذي تضرى نفسه بالشر وتأنس بالسوء ويصير ذلك ملكة لها مصرفة لارادتها في أعمالها حتى تصل الى الدركة التي تتعذر معها التوبة وهي التي عبر عنها القرآن الحكيم بالختم على القلوب والرين عليها والطبع عليها وإحاطة الخطيئة بها وضرب لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل النكتة السوداء وتقدم شيء من بيان ذلك آنفا ومن قبل في مواضع كثيرة ، وقد سئلت مرة : لماذا لم تفسد اخلاق اليابانيين وتنحط هممهم وتصغر نفوسهم مع فشو الزنا فيهم ؟ فقلت لأنهم يأتونه غير معتقدين حرمته دينا ولا قبحه عقلا ولذلك يكون ضرره في الاخلاق قليلا ولكن ضرره في الصحة والاجتماع كبير على كل حال

ونعود الى كلام الاستاذ الامام قال ما مثاله : إنهم يقسمون التائبين إلى طبقات ويقولون ان الانسان عريق في الشر كأنه عجن بطينته ، ذلك ان الشهوات الحيوانية تسبق فيه الشهوات العقلية ، فهو يألف الشهوات أولا ثم يجيء العقل ليضع لتلك الشهوات النظام والقوانين ، ويأخذ نفسه فيها بهداية الدين ، ويجاهدها على امتثال الاوامر واجتناب النواهي ، فكل إنسان له هفوة قبل أن يستحصف العقل ،

ويفقه أسرار النقل ، فمن الناس من هو كبير النفس عالي الاستعداد اذا وقع في الخطيئة مرة ، كان له منها أكبر عبرة ، وهو لا يقع فيها إلا وهو غافل عن عواقبها ، ومصورا إياها بصورة أحسن من صورها ، وأنتم تعلمون ان الانسان لا يعرف مقدار الشيء قبل الدخول فيه ، فاذا ألم العاقل السليم الفطرة بالذنب وذاق لذته عرف حقيقته وعند ذلك يعود اليه علمه الذي حجبته عنه الشهوة ، ويقوى في نفسه ما كان ضعف من نور البصيرة ، فيوازن بين هذه اللذة ، وبين قبح المعصية ، وما لها من سوء العاقبة ، فيظهر له من مهانة نفسه وسوء اختياره ، وما عسى ان يصير اليه أمره اذا عاد الى ذلك واعتاده وعرف به ، فيندم ويقلع عن هذا الذنب وعن غيره ويحمل نفسه على الفضيلة ويصرفها عن كل رذيلة ،

ومن الناس من تكون داعية الشهوة أقوى في نفوسهم وأرسخ فكلما أطاعوها في معصية قامت الخواطر الالهية تحاربها بلوم صاحبها وتوبيخه حتى تنتصر عليها وتقهرها قهرا لا تقوم لها بعده قائمة وهؤلاء يعدون من التوابين أيضا، ومنهم فرقة تقوى بالمجاهدة على اجتناب كبائر الاثم والفواحش الا اللمم فتكون الحرب في نفوسهم بين مايلمون به من الصغائر وبين الخواطر الالهية التي هي جند الايمان

= وكثير من الناس يقع في الذنب فيتوب ويستغفر ثم يعرض له مرة أخرى فيعود اليه ثم يلوم نفسه ويندم ويستغفر وهلم جرا ، فهؤلاء أدنى طبقات التوابين والنفس الباقية أرخص عندهم من النفس الفانية وهم مع ذلك محل الرجاء لان لهم زاجرا من أنفسهم يذكرهم دائما بالرجوع الى الله تعالى عقب كل خطيئة فيوشك ان يقوى هذا الزاجر المذكر على الشهوات المزينة للخطيئة فان كان تكرار الاثم يزيد الشهوة ضراوة والنفس جرأة فتكرار تذكر العلم الصحيح يحدث فيها ألما يقاوم تلك الضراوة بتقريع النفس وتحقيرها وتصوير سوء العاقبة لها ، فتكون سجالا ، وأثر الآلام في النفس أقوى من أثر اللذات فاما ان تنتصر الخواطر والزواجر الالهية بذلك فيلحق صاحب هذه النفس ببعض تلك الطبقة التي صحت توبتها وإما أن تنكسر أمام جند الشهوة حتى تحيط بصاحبها الخطيئة فيكون من المصرين الهالكين

ثم قال تعالى ﴿ فأولئك يتوب الله عليهم ﴾ الفاء للسببية أي أولئك الموصوفون بأنهم يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاذا تراخت توبتهم لا يطول عليها الزمن ولا يصرون على مافعلوا وهم يعلمون يتوب الله تعالى عليهم بسبب ذينك الامرين وهما كون فعل السوء لم يكن الا عن جهالة اذ مثلهم في إيمانهم وتقواهم لا يتعمد الذنب مع الروية ، وكون التوبة قريبة من زمن الذنب ، لم تدع له مجالا يرسخ به في النفس ، ويجوز ان نجعل معنى السببية مفرعا عن ذلك الاصل المقرر في صدر الآية وهو كون قبول توبة هؤلاء ومما أوجبه الله تعالى على نفسه بمقتضى رحمته ، وعلمه وحكمته ، أي فاولئك يتوب عليهم قطعا لان قبول توبتهم مقرر حتما ، وموعود به وعدا مقضيا ، وقال الاستاذ الامام: أشار اليهم بعد حصر التوبة المقبولة لهم لتأكيد ذلك الحصر ، ولاستحضارهم في الذهن عند الحكم ، حتى لا يخطر في بال القارىء والسامع إشراك غيرهم معهم فيه ، وضمن التوبة معنى العطف أي يعطف عليهم بقبول توبتهم ، ويعود برحمته عليهم ،

﴿ ان الله كان عليما حكيما ﴾ فمن علمه بشئون عباده ومصالحهم وحكمته فيما شرعه لهم انه جعل التوبة بشرطيها مقبولة حتما لانه يعلم أنهم لضعفهم لا يسلمون من عمل السوء فلو لم يكن للعاصي توبة لفسد الناس وهلكوا لان من يعمل السوء بجهالة من ثورة شهوة أو سورة غضب يسترسل في المعاصي والسيئات ، ويتعمد اتباع الهوى وخطوات الشيطان ، لعلمه حينئذ انه هالك على كل حال ، فلا فائدة له من مجاهدة نفسه وتزكيتها ، أما وقد شرع الله تعالى بحكمته قبول التوبة ، فقد فتح لهم باب الفضيلة ، وهداهم الى محو السيئة بالحسنة ، ولو كان كل ذنب يغفر وكل سيئة يعفى عنها لما آثر الناس الخير على الشر الاحيث تكون شهواتهم ومهب أهوائهم ، ثم انه تعالى يعلم التوبة النصوح ، والتوبة الخادعة الكذوب ، لانه يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، ومن حكمته انه لا يقبل الا التوبة النصوح دون حركة اللسان بالاستغفار ، والاتيان ببعض المكفرات من الصدقات أو الاذكار ، مع الاصرار على الذنوب والاستهتار ، فالمقيم على الذنب لا تطهر نفسه من دنسه بعمل طاعة أخرى وان أحسن

فيها وأخلص فكيف من يكون عمله لها صوريا تقليديا لا يمس سواد قلبه قط ، ولا يدل على عنايته بأمر الدين ، ولا خشيته لله رب العالمين ، كألفاظ الاستغفار والتسبيح ، ولذلك جمع في الآية السابقة بين التوبة واصلاح العمل وذكرنا بعض الآيات التي في معناها . وان أردت الزيادة في هذا المعنى فراجع تفسير ماتقدم من الآيات كقوله تعالى (٣:١٦ فاغفر لنا ذنوبنا — إلى قوله — والمستغفرين بالاسحار) (١) وقوله (٣:١٣٥ والذين اذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) (٢) وقد أشار الاستاذ الامام هنا الى نكتة ذكر صفة العلم وصفة الحكمة هنا بقريب مما ذكرناه وذكر غرور الجاهلين من الخلف الطالح بالاذكار القولية واعتمادهم عليها وظنهم انها تنجيهم في الآخرة من المؤاخذة على الذنوب وان أصروا عليها وقال ان مثل هذا كان معهودا في الاديان السابقة وذلك ان الامم استثقلت التكاليف لجهلها بفائدتها ففسقت عن أمر ربها واتبعت أهواءها وجعلت حظها من الدين بعض الاذكار والاوراد السهلة التي لا تمنعها من شهواتها وأهوائها شيئا فصار الدين عند اكثرهم عبارة عن حركات لسانية وبدنية لا تهذب خلقا ولا تصلح عملا ، وقد اتبع الكثيرون منا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع (٤٧:٢٣ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

بعد ما بين تعالى حال من ضمن قبول توبتهم قال مبينا حال من قطع بأنه ليس لهم توبة مقبولة عنده ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ﴾ قال الاستاذ الامام : قال تعالى في الآية السابقة « انما التوبة على الله » ولم يقل هنا « وليست التوبة على الله » الخ وذلك انه ليس المراد نفي القطع بقبول توبتهم ، وانما المراد نفي وقوع التوبة الصحيحة منهم وانه ليس من شأنها أن تكون لهم ، ولو نفى كونها مما أوجبه تعالى على نفسه لكان المعنى انها غير واجبة لهم ولا مقطوع بقبولها منهم ولكنهم قد ينالونها . وأقول ان وجه النفي هو أن هؤلاء الذين نفى ثبوت التوبة لهم ليسوا ممن اقتضت

(١) ص ٢٥٠ و ٢٥١ ج ٣ تفسير (٢) ص ١٣٥ وما بعدها ج ٤ تفسير

السنن الالهية في خلق الانسان وتأثير أعماله في صفات نفسه وملكاتها ثم ترتب اعماله على أخلاقه وملكاته – بان يكونوا ممن يرجع عن السيئات بعد الاستمرار عليها وينخلع عنها ويطهر قلبه ويزكي نفسه من أدرانها فيكون أهلا لرحمة الله ان تعطف عليه، ومحلا لاستجلاب نعمه فيعود ما نفر بالمعاصي اليه، بل مضت سنة الله تعالى في امثالهم أن تحيط بهم خطاياهم وسيئاتهم فلا تدع للطاعات والحسنات مكانا من نفوسهم فيصرون عليها الى أن يحضر أحدهم الموت وييأس من الحياة التي يتمتع فيها بما كان يتمتع فعند ذلك يقول إني تبت وما هو من التائبين بل من الكاذبين كما يأتي قريبا

قال الاستاذ: وقال هناك «يعملون السوء» وقال هنا «يعملون السيئات» والجمع ههنا يعم جمع افراد النوع الواحد من المعاصي التي تكون بالاصرار والتكرار فالمصر على ذنب واحد من الذين يعملون السيئات حتما، وجمع الانواع المختلفة منها، وأقول ان الاصرار على بعض أفراد الذنوب يغري صاحبه بأفراد أخرى من نوعها أو جنسها والشر داعية الشر كما ان الخير داعية الخير

(قال) وقال هناك «ثم يتوبون» فأسند التوبة اليهم وقال هنا «قال اني تبت الآن» فبين ان واحد هؤلاء يدعي التوبة عند العلم بالعجز عن الذنب أي قلبه لم ينخلع من الذنب ونفسه لم ترغب عنه فيكون تائبا وانما مثله كمثل رجل كان يعيث في أرض آخر فسادا فظفر به هذا ووضع السيف على عنقه وأراد أن يفصل رأسه عن بدنه فاستغاث وقال انه لا يعود إلى ذلك الافساد ولكن نفسه لم تنفر منه ولم تستقبحه لانه فساد فهي اذا زال الخوف تعود الى الدعوة إليه ولا تلقى من صاحبها الا الطاعة والانقياد ولهذا قيد القول بكلمة «الآن» والآنية تنافي الاستمرار الذي دل عليه المضارع هناك ومن هنا يمكننا أن نميز الحق من بين تلك الاقوال التي رووها في حضور الموت كقولهم ان المراد به حال الحشرجة أو الغرغرة أو ذهاب التميز والادراك ومن كان في مثل هذه الاحوال لا يصدر عنه قول. والمختار ان المراد بحضور الموت هو تحقق وقوعه واليأس من الحياة. و «حتى» ابتدائية وما بعدها غاية لما قبلها أي ليست التوبة للذين يعملون السيئات منهمكين فيها الى

حضور موتهم وصدور ذلك القول منهم. وأقول وقدر بعض المفسرين قيد «على الله» فقال المعنى وليست التوبة أي قبولها حتما لهؤلاء ونفي التحقيق غير تحقق النفي فيكون أمر من ذكر في هذه الآية مبهما يفوض الامر فيه الى الله تعالى. وما اختاره شيخنا هو الصحيح المتبادر

ثم قال انهم يروون هنا أحاديث في قبول توبة العبد ما لم يغرغر أو تبلغ روحه الحلقوم وقال اني أوافقهم على ذلك اذا حصلت التوبة بالفعل بأن أدرك المذنب قبح ما كان من السيئات وكرهه وندم على مزاولته وزال ميله اليه من قلبه بحيث لو عاش لما عاد اليه أي مع الروية والتعمد كما كان. وما كل تصور لقبح الذنب أو تصديق بقبحه وضرره يكون سببا لتركه فان للتصورات والتصديقات مراتب لا يعتد منها في باب العلم النافع الا بالقوي الذي يترتب عليه العمل لرجحانه على مقابله، وضرب مثلا للتصديق المرجوح تصديقه ماقاله الاطباء له من ان صوته يضره الحامض وقد أيدت التجربة ذلك وهو مع ذلك لا يعده علما يقينيا تاما لانه مغلوب بعلم وجداني أقوى منه وهو ما ألفت النفس من ادراك لذة الحامض وطلب الطبيعة له ولو كان علما تاما لما تناول الحامض في بعض الاوقات فان العلم الحقيقي هو الذي يحكم على الارادة ويصرفها في العمل فلا تجد عن طاعته مصرفا

قال وهذا المعنى هو الذي أدركه الصوفية اذ قالوا ان الاعتقاد أو الادراك يكون علما صحيحا نافعا يثيب الله عليه الا اذا صار ذوقا ويعنون بصيرورته ذوقا أن يصير وجدانا للنفس يمتزج بها ويكون هو الحاكم عليها. فليت شعري هل تحدث للمصر على السيئات المستأنس بها في عامة أيام الحياة مثل هذا الوجدان لقبحها وكراهتها قبل الموت من حيث أنها مدنسة للنفس مبعدة لها عن منازل الابرار؟ أم الذي يحصل له هو إدراك العجز عنها واليأس منها وكراهة ما يتوقعه من قرب العقاب عليها بالموت الذي يكون وراءه نزول الوعيد به؟ وهل يسمى هذا الاخير توبة من الذنب، ورجوعا الى ما يرضاه الرب؟ الله أعلم بالسرائر، وانما يجازي الناس بحسب ما يعلم، وعلينا ان نأخذ بالاحوط والاسلم، هذا معنى ماقاله الاستاذ رحمه الله تعالى في درسين

وهو مع تفسير الاية الاولى لايخلو من تكرار مفيد على تصرفنا فيه بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة التي تجلي المعنى ولا تغيره . والوصول الى تحقيق الحق في أمثال هذه المسائل المهمة لايكون الا بالتكرار والبسط والايضاح وسيأتي ذكر للتوبة وشروطها في آيات أخرى من سورة أخرى وتقدم ذكرها من قبل

قال تعالى ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ أي لاتوبة لاولئك ولا لهؤلاء وقد استشكلوا ذكر نفي توبة هؤلاء مع كونه بديهيا لاسيما بعد تقرير ماسبقه فانه إذا كان المؤمن ليس له توبة عند حضور الموت فالاولى أن لايكون للكافر عند الموت فكيف يتصور أن يكون له توبة بعده؟ وقد يخطر في البال ان المراد نفع مايكون من توبتهم في الآخرة وهي ماحكاه تعالى عنهم في آيات كثيرة (٢٣: ١٠٦ ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) ولا أتذكر الان أن أحداً من المفسرين قال بذلك، بل قال بعضهم ان المراد من نفي توبة هؤلاء المبالغة في عدم قبول توبة من قبلهم والايذان بانها كالعدم وان ذويها في مرتبة الذين يموتون وهم كفار بل قال بعضهم ان في تكرير حرف النفي إشعاراً بكون حال المسوِّفين في عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الذين يموتون على الكفر. وجوز بعضهم ان يراد بالفريقين الكفار و بعضهم ان يراد بهما الفساق على ان يكون التعبير عنهم بالكفار من باب التغليظ واختار شيخنا ان المراد بالكفر هنا ماهو دون الشرك . وعدم تصديق دعوة النبوة وهو استعمال معروف في القرآن وصرح به بعض العلماء الاعلام وقالوا انه يوجد كفر دون كفر و به فسر ابو حامد الغزالي الحديث الصحيح «لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فقد بين ان مايجب الايمان به قسمان قسم يجب ان يعلم لذاته ولا يتعلق به عمل كالإيمان بوجود الله ووحدانيته وسائر ماوصف به نفسه والوحي وصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقسم يجب أن يعلم ليعمل به كالايمان بالفرائض وكون أدائها من أسباب رضوان الله ومثوبته و بتحريم المحرمات وكونه من أسباب سخطه تعالى وعقابه أي فوق مافي الفرائض من إصلاح النفس وحال الاجتماع وما في المحرمات من الضرر في الافراد والجمعيات ، ويسمي ابو حامد القسم الاول علم المكاشفة والثاني علم

المعاملة ، ويقول ان من يعمل السيئة المحرمة لايكون مؤمنا بتحريمها وصدق الرسول فيما أخبر به من كونها موجبة لسخط الله تعالى وعذابه وهو لا ينفي ايمانه من حيث انه قد فاتته ثمرته وهي العمل به فقط بل يقول ان الايمان يشترط فيه اليقين ومن أيقن بأن شيئا من الاشياء يضره فهو لا يأتيه كما هو معلوم من غرائز البشر وارتباط أعمالهم بإراداتهم وإراداتهم بعلومهم المتعلقة بالنفع والضرر ، بل علم من عادة الانسان وطبعه أن يحتاط في دفع الضرر حتى أنه ليعمل فيه بقول من لا ثقة بقوله لعدم عدالته . وضرب لذلك أبو حامد مثلا فقال ما معناه اذا كنت جائعا ولم تجد إلا طعاما أخبرك رجل يهودي لا تثق بروايته في أخباره أنه مسموم أفلا تبني على الاحتياط وتترك الاكل من ذلك الطعام ؟ بلى إنك لتقول انه يحتمل أن يكون صادقا فلا أعرض نفسي للهلاك بهذا الطعام ! ، وقد أخبرك النبي المعصوم الصادق الامين بأن هذه الذنوب سموم مهلكة للارواح مفضية الى سخط الله وعذابه فكيف تدعي الايمان به والجزم بصدقه وانت تجعل خبره دون خبر ذلك اليهودي الذي تجزم بعدم عدالته ؟ ! وفي هذا المقام يذكر حديث « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الخ أي ان هذا الايمان الخاص لا يكون ملابسا للنفس حين التلبس بالمعصية فاذا عاد اليها بعد العمل تألمت فبعثها الالم على التوبة كما حققه في شرح حقيقة التوبة وكونها مركبة من علم وحال وعمل : العلم يوجب الحال والحال توجب العمل أي إن العلم بحرمة الذنب والوعيد عليه يحدث في النفس حالا مؤثرة تبعث على العمل بترك المحرم ، وكذلك العلم بوجوب الواجب الى آخر ماحققه و بينه بالتفصيل فيراجع في كتاب التوبة من أول الجزء الرابع من الاحياء

قال تعالى ﴿ أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ أي أولئك الفريقان البعيدان عن سنة الفطرة وهداية الشريعة ، المستعبدان لسلطان الشهوة وشيطان الرذيلة ، قد أعتدنا وهيأنا لهم عذابا مؤلما في دار الجزاء بما قدموا لانفسهم في دار الاعمال ، فان اصرارهم على السيئات ، الى أن وافاهم الممات ، قد دسَّى نفوسهم ، وأفسد قلوبهم ، فصاروا من التحوت ؛ تهبط خطاياهم بأرواحهم الى هاوية الهوان ، وتعجز عن العروج الى فراديس الجنان ، ومعاهد الكرامة والرضوان

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة ، اذلا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا . ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ مدة حمل النساء شرعا وطبا ﴾

(س ٣٨) من صاحب الامضاء في قفصه (بتونس)

الحمد لله وحده

(مشكلة واقعية)

حضرة العلامة فيلسوف الاسلام سيدي السيد محمد رشيد رضا الحسيني منشيء مجلة المنار دامت سعادته وتوالت مسراته ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فمن المعلوم أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وأقصاها خمس سنين عند مالك وأربعة عند الشافعي وسنتان عند أبي حنيفة القائلين بجواز رقاد الجنين في بطن أمه ثم يفيق في خلال هذه المدة المحدودة ، ويلحق بأبيه بعد إتمام الموجبات الشرعية . وروى مالك في الموطأ ان امرأة هلك عنها زوجها فاعتدت أربعة أشهر وعشرا ثم تزوجت حين حلت فمكثت عند زوجها أربعة أشهر ونصف شهر ثم ولدت ولدا تاما فجاء زوجها الى عمر بن الخطاب فذكر له ذلك ، فدعا عمر نسوة من نساء الجاهلية قدماء فسألهن عن ذلك فقالت امرأة منهن أنا أخبرك عن هذه المرأة : هلك عنها زوجها حين حملت فأهريقت عليه الدماء فحشر ولدها في بطنها فلما أصابها زوجها الذي نكحها وأصاب الولد الماء تحرك الولد في بطنها وكبر.

فصدقها عمر بن الخطاب وفرق بينهما . وقال عمر أما إنه لم يبلغني عنكما الاخير وألحق الولد بالاول اه وقال ابن سينا في الشفاء : بلغني من جهة من أثق به كل الثقة ان امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدا نبتت أسنانه اه وعلى هذا جرى عمل الفقهاء والمفسرين في مشارق الارض ومغاربها قديما وحديثا الى ان ارتقى علم الطب والتشريح واجلاه للعيان علم الطبيعة الذي انتفع بمواهبه وأسراره بنو الانسان ورأوا ما كان جوازه مستحيلا واقعا لا غبار عليه . فقام من بين أطباء الافرنج عندنا جماعة حكموا بمنع رقاد الجنين في بطن أمه ونسبوا الى من ادعت رقادها زناها واعتذروا لما عليه علماء الاسلام في هذا الشأن بأن علم الطب لم تنكشف أسراره في الازمنة الغابرة انكشافها في زمننا الحاضر . وهاهي (ذي) واقعة حال صورتها ان امرأة فارقها زوجها منذ أربعة أعوام بريئة الرحم والآن ظهر به حمل نسبته لمفارقها الذي ناكرها فيه ، وزعمت رقاده في هذه الاعوام واعترفت بعدم مسيس مفارقها لها بعد الطلاق ، ونشرت معه النازلة لدى المحكمة الشرعية من حيث لحوق الولد أو نفيه كما نشر معها النازلة لدى المحكمة العدلية من حيث رميها بالحمل من زنا . وان أدري ايحكم لها ام عليها في المحكمتين بيد أن النفوس على حيرتها تتطلع الى معرفة هذه الحقيقة الشرعية الطبية ولما كانت لمقامكم العلمي قدم راسخة في العلوم الشرعية ولصديقكم النطاسي سيدي محمد توفيق صدقي معرفة عالية في علم الطب جئتكم بهذا السؤال ألتمس ادراجه قريبا على صفحات المنار مع الجواب عنه بما يقنع النفوس ويرفع الالتباس ويزيح الاشكال وربما كان انموذجا راجحا عند تعارض الادلة ، لا زلتم ملجأ للسائلين ، وقدوة للمسترشدين ، والسلام من معظم حضرتكم

حموده بوتيتي

رئيس مجلس عدلية قفصه (تونس)

(ج) اذا قلنا ان مسألة مدة الحمل دينية يجب العمل فيها بما جاء في الدين من غير زيادة ولا نقصان فالواجب حينئذ أن نعمل بقوله تعالى في سورة الاحقاف عن الانسان (٤٦ : ١٥ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) فاذا كانت مدة الحمل والفصال ثلاثين شهرا وهي سنتان ونصف فكيف نجعل مدة الحمل وحده عدة سنين من ثنتين الى خمس ونقول ذلك هو حكم شرعنا في المسألة ؟ فاذا كان المعلوم لكل

الناس ان مدة الحمل تسعة أشهر فمدة الرضاعة التي يكون الفصال بانتهائها ٢١ شهرا هذا هو أقلها الذي لا بدّ منه شرعا واكثرها سنتان كما في آية ٢٣٣ من سورة البقرة ولذلك قال فيها (والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) وقد ذكرنا في تفسيرها قول بعض المفسرين انه يستنبط من مجموع الآيتين أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لانها هي التي تبقى بعد طرح ٢٤ شهرا مدة الرضاعة التامة من ٣٠ شهرا مدة الحمل والفصال (راجع ص ٤٠٨ ج ٢ تفسير) فاذا عاش الولد الذي تلقيه امه بعد تمام ستة أشهر من حمله كالشهر السابع اوالثامن فينبغي أن يكون حظه من الرضاع اكثر من حظ من يولد لتسعة أشهر ليكون غذاؤه من اللبن عوضا عما فاته من التغذي بالدم في رحم امه فلاتقل مدة الحمل والفصال عن ثلاثين شهرا وهي حكمة ظاهرة فان زادت ثلاثة اشهر كان ذلك من تمام العناية بالولد . واذا جرينا على ذلك في جميع الاحكام الشرعية المتعلقة بالحمل نكون موافقين لاقوال اطباء هذا العصر واستقرائهم واختبارهم لان تحديد القرآن الحكيم لمدة الحمل والرضاعة لم ينقصه من اقوالهم شيء بل لا يزداد القرآن بازدياد علوم البشر الاقوة وظهورا

واذا قلنا ان هذه مسألة دنيوية وما يتعلق منها بالمعاملات الشرعية لا يكتفى فيه بظواهر الكتاب أو السنة وما يتبادر من معنى النصوص بل يجب أن يضم الى ذلك اختبار الناس ومايصلون اليه من معرفة الواقع بطريق الاستقراء والبحث ، قلنا حينئذ ان ما قاله العلماء الذين بحثوا في المسألة من قبل كالائمة الثلاثة الذين ذكرت أقوالهم في السؤال ليس نصا دينيا يجب التعبد به وعدم اعتبار بحث غيرهم واستقرائه بل يعمل اهل كل عصر بما يصل اليه علمهم واستقراؤهم ، وقد وقفنا على طريقة بحث الاوائل في مثل هذه المسألة وهو انهم كانوا يسألون العجائز ويصدقونهن كما سأل عمر (رض) العجائز الجاهليات في واقعة المرأة التي نقلت في السؤال عن الموطإ وكما كان الشافعي (رح) يسأل العجائز عن مدة الحيض والطهر ومن الجائز أن يكذب بعضهن ويجيب بعضهن عن جهل ، وثقة بعض أئمة الفقه بما سمعه من عجائز زمانه لا يوجب أن يكون ذلك دينا متبعا لكل من يعمل بفقهه وان ظهر له استقراء أتم وعلم أصح

نعم ان ماقاله الفقهاء غير محال عقلا ولا طبعا فاذا فرضنا ان ما نقل اليهم من مكث الجنين في الرحم أربع سنين أو خمسا قد وقع شذوذا كما نقل مثل ذلك الى ابن سينا فهل يصح ان يجعل قاعدة مطردة تبنى عليها الاحكام الكثيرة لمجرد احتمال تعدد ذلك الشذوذ الذي يسميه أهل هذا العصر فلتة طبيعة كولادة حيوان أوإنسان برأسين ؟ أم القواعد تبنى على الغالب المألوف . وما جاء على خلاف الاصل وخلاف الغالب لا يقاس عليه ؟

اذا نحن بنينا أحكام الحمل على ماصدقه بعض أولئك الفقهاء من أقوال النساء نكون قد خالفنا إطلاق القرآن وقيدناه بقيد لاثقة لاحد من المتعلمين به في هذا العصر ، وخالفنا الثابت المطرد في مدة حمل المرأة وهي انها لاتكاد تبلغ سنة واحدة فضلا عن عدة سنين وخالفنا القياس الفقهي على تقدير صدق أولئك العجائز فيما أخبرن به الأئمة من ان ذلك قد وقع شذوذا فكيف اذا لم نصدقهن ، وخالفنا ماقرره أطباء هذا العصر من جميع الملل والنحل على سعة علمهم بالطب والتشريح وعلم وظائف الاعضاء (physiologie) واستعانتهم في بحثهم واختبارهم بالآلات والمجسات والمسابير والاشعة التي تخترق الجلد واللحم فتجعل البدن شفافا يظهر مافي داخله ويرى بالعينين ، وعلى بناء علمهم على التجربة والاستقراء واستعانة بعضهم في ذلك ببعض على اختلاف الاقطار بسهولة المواصلة البريدية والبرقية ، وعلى كثرة النساء اللواتي على حرية القول وعدم الخجل من إظهار مالم يكن يظهره أمثالهن في بلادهن أوغيرها من قبل ومالا يظهره غيرهن من سائر البلاد التي لاحرية فيها كحرية بلادهن

ثم اننا نكون مع هذه المخالفات ، اللواتي نحملها لتصديق اولئك النساء المتهمات قد تعرضنا لمفاسد كثيرة (منها) طعن الاجانب في شريعتنا مبنيا على العلم والاختبار لا على التحامل والتعصب وذلك منفر عن الدخول في ديننا ومانع من ظهور حقيته لمن لا يعرف منشأ هذه الاقوال عندنا (ومنها) تشكيك الكثير من المسلمين في حقية شريعتنا وكونها إلهية ، وأعني بالكثير جميع الذين يتعلمون الطب والذين يقفون على أقوال أطباء وعلماء هذا العصر وتطمئن قلوبهم بأقوالهم في مدة الحمل مع مخالفته لما يظنون انه هو الشريعة المقررة الثابتة بالكتاب اوالسنة (ومنها) إلحاق الاولاد بغير آبائهم

وهي مفسدة يترتب عليها مفاسد كثيرة في الارث والنكاح وغير ذلك

(ومنها) انه يجرئ المرأة الفاجرة اذا طلقها زوجها أو مات عنها ان تدعي انها حامل منه وان الولد راقد في بطنها ويكون لديها وقت واسع تستبضع فيه ولدا من غيره بالزنا ثم تلحقه وتستولي على جميع ماله إن لم يكن له وارث آخر او على أكثره (ومنها) ان تصدق من يغيب زوجها عنها من سنة الى خمس سنين فيما تأتي به من ولد في هذه المدة انه منه ، وللفقهاء في أمثال هذه المسألة كلام لا محل هنا لذكره ولا للاشارة اليه باحتراز أو غيره ، فمنهم من يقول ان هذه المرأة تصدق في الحاق ما تأتي به من ولد بزوجها الغائب وان كانت غيبته أطول من أكثر مدة الحمل مهما كانت المسافة بعيدة كأن تكون هي في تونس وهو في داخل بلاد الصين التي ليس فيها سكك حديدية وذلك الاحتمال ان تطوى له الارض كرامة فيجيء من الصين الى تونس فيغشاها و يعود الى مكانه في ليلة واحدة !! . أكثر مثل هذا بعض الحنفية الذين قال بعضهم بأن مدعي طي المسافة يكفر !

واذا نحن بينا أحكام الحمل على الظاهر من اطلاق القرآن الحكيم المطابق للواقع المعروف عند كل الناس ولما يقرره الاطباء وقلنا إذا ثبت غير ذلك في حق بعض النساء يكون من الشاذ النادر الذي لا يبني عليه حكم فاننا نسلم من كل تلك المخالفات والمفاسد ولا نكون قد خرجنا عن هدي أئمتنا فانهم إنما كانوا يتبعون الدليل القوي اذا ظهر لهم ولكن المقلدين المنسوبين اليهم يفضلون العمل بما في هذه الكتب التي بين أيديهم مهما ترتب على ذلك فلا فائدة من مخاطبتهم بالدليل والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ،

• • •

﴿ اسئلة من جاوه ﴾

(س ٣٩) من (وطني) في تلو سماوي . جنوب اسيه (سمترا)

مولاي الاستاذ الحكيم .

نرى امراء واغنياء هذه البلاد الوطنيين منهم يتهافتون تهافت الفراش على ادخال

أولادهم مدارس الحكومة لتعليمهم لغة أوربا . ولم يفكروا يوما ان تعليم اللغة العربية من الامور المطلوبة شرعا لانها لغة القرآن . وان من المصلحين من يرى ان لا رجوع للاسلام الى مركزه الاول الا بعد تعميم هذه اللغة الشريفة بين أتباعه . واذا جئت تقول لهم ان الواجب الاهم على المسلمين القادرين إقامة مدارس عربية لتعليم أولادهم وأولاد الفقهاء العاجزين لغة القرآن قبل تعلم أي لغة كانت : قالوا ليس المطلوب شرعا هذا . وانما المطلوب هو تعلم الاولاد ما يجب عليهم من مبادي الدين فقط !! .

واستشهد بعضهم بدولة الخلافة الجديدة من انها لم تجعل لهذه اللغة مقاما في بروجرام مدارسها واشتهر انها جعلت التركية إلزامية ثم بعض لغات أوربا كالانكليزية والفرنسية . ولو كانت دولة الخلافة مع وجود كثير من رجال الاصلاح الاسلامي في مجلسها ترى بعض ما يراه رجال الاصلاح من ضرورة تعميم هذه اللغة بين المسلمين لكانت دولة الاسلام الكبرى هي القدوة للمسلمين في المعمورة . فماذا تقول أيها الاستاذ في هؤلاء ؟ وهل توجد طريقة لاقناعهم ؟ وهل عندكم علم بما قررته الدولة العثمانية تجاه هذه اللغة الشريفة ؟ وهل صحيح من ان الدولة قررت جعل لغة محاكم بلاد سورية والعرب تركية وألزمت المترافعين بذلك ؟ فادركونا بالخبر اليقين متع الله بوجودكم المسلمين . فنحن على أحر من الجمر والسلام .

(ج) انني أعتقد منذ سنين كثيرة بعد طول البحث في حال المسلمين انهم لا حياة لهم الا بالاهتداء بالقرآن الحكيم سواء منهم من يؤثر الاستقلال في فهم الاسلام ومن يؤثر تقليد بعض الأئمة والعلماء . ذلك بأن هداية القرآن التي أنزل لاجلها ليست محصورة في الاحكام العملية التي أباح جمهور المسلمين من الخلف التقليد فيها بل هذه الاحكام أقلها وأدناها مرتبة فان فوقها آيات العقائد وصفات الله تعالى وسننه في خلقه وأسرار دينه ، والعبر بسيرة رسله في أممهم ، والآداب العالية ، والاخلاق الفاضلة ، وأصول الاجتماع البشري ، والسياسة ، والترغيب في رضوان الله تعالى في الدار الآخرة ، والترهيب من عقابه ، وغير ذلك من الحكم المؤثرة في النفوس ، المصلحة للقلوب ،

ولا يمكن ان يستغني المسلم عن القرآن بغيره في ذلك ، بل أقول ان تفسيره وترجمته لا يغنيان في ذلك عن تلاوته وتدبره لان لا ساو به من التأثير في النفوس ما حير البلغاء والعقلاء من المسلمين وغير المسلمين من المتقدمين والمتأخرين حتى قال فيه بعض المشركين في زمن التنزيل « ان هذا الا سحر يؤثر » وقال بعض فلاسفة فرنسا المتأخرين « ان محمدا (ص) كان يقرأ القرآن في حال مؤثرة من الوله والخشوع فيجذب قلوب السامعين الى الايمان به جذبا خارقا للعادة أغناه عن جذبهم بالخوارق والآيات الكونية التي بامثالها آمن الناس بالانبياء من قبله »

يجب على كل مسلم ان يأخذ عقيدته من القرآن أو أن تكون عقيدته مطابقة للقرآن ، ومن قال من المتكلمين ان مسائل الاعتقاد المتعلقة بالالهيات مقدمة على مسائل الايمان بالوحي والرسل وما انزل اليهم من ربهم فانما يراد بهذا الترتيب ما يحتج به على غير المتدين فمن كان لا يؤمن بوجود الله عز وجل لا يدعى أولا الى تطبيق عقيدته على القرآن أو أخذها منه فانه ليس له عقيدة ، و إنما يبدأ في دعوته باثبات وجود الله وصفاته بالدلائل التي جاء بها القرآن والتي هدى اليها من حيث هي براهين لا من حيث هي وحي ، ويثني بالوحي مطلقا ويثلث بالرسول والقرآن ، ولا يراعى هذا الترتيب فيمن ينشأ على الاسلام بل يؤخذ بعقيدة القرآن من أول وهلة . وقد ذهب جماهير المحققين من العلماء الى وجوب معرفة الدليل على العقيدة وامتناع التقليد فيها ، والايمان بالقرآن من أصول العقيدة وإنكار شيء منه كفر باجماع المسلمين ، فكيف يستغني مسلم منهم عن معرفته و يعد نفسه من أهل الدليل في اعتقاده ؟ ومن المعلوم في كتب العقائد أن إيمان المقلد مختلف في صحته بل نقل السنوسي في الكبرى وغيره الاجماع على عدم الاعتداد بإيمانه أي على كفره ، و بعضهم قال بصحة إيمانه اذا كان مطابقا للحق وكان هو جازما به ومن أكبر هؤلاء ابو حامد الغزالي وهو قد صرح في كتاب إلجام العوام عن علم الكلام بوجوب الايمان بصفات الله تعالى كما جاءت في القرآن وانه لا يجوز ترجمتها لان الترجمة لا يمكن أن تؤدي معنى الاصل تماما وفي الانحراف عن الاصل خطر الكفر لا خطأ المعصية فقط

انا قد أفتينا في المنار من قبل بوجوب تعلم اللغة العربية على كل مسلم ، وقول

الغزالي هذا يؤيد فتوانا بل قال لنا أحد علماء الشافعية المدرسين في الازهر انه رأى نصا للامام الشافعي في ذلك وما جرى عليه الخلفاء الراشدون وعمالهم ومن بعدهم من الفاتحين الامويين والعباسيين يدل على ذلك . فانهم نشروا لغة الدين في جميع البلاد التي فتحوها مع بعدهم عن العصبية الجنسية وعدم التفاتهم اليها في معاملاتهم الاجتماعية والدولية . وجميع المجتهدين والقائلين بوجوب الاجتهاد في الدين يجزمون بوجوب معرفة اللغة العربية لان الاجتهاد يتوقف على ذلك كما هو مصرح به في كتب الاصول .

وانا نذكر مسلمي جاوة بالبينات الآتية على وجوب تعلم العربية :

(١) ان القرآن هو آية الله الكبرى على صدق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى النبوة والرسالة ، وطريق العلم الصحيح بكونه آية معجزة هو فهمه الذي يعرف به وجه إعجازه وكونه آية تشتمل على آيات كثيرة . وان جماهير علماء العقائد قد قرروا ان أقوى وجوه الإعجاز فيه هي بلاغته وأسلوبه ، وهل يعرف هذا الا من يتقن العربية إتقانا ؟

(٢) ان الله قد أنزل القرآن هدى للمتقين ورحمة لقوم يؤمنون ولا يهتدي به الا من يفهمه كما هو بديهي ولا يفهمه من لا يعرف العربية

(٣) ان الله تعالى قد حث على تدبر القرآن في آيات كثيرة « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم » « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » ؟ ولا يمكن تدبره الا بفهم لغته

(٤) ان الله قد أوعد من يعرض عن القرآن بترك تدبره والاهتداء به أشد الوعيد كقوله « ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » الخ الآيات ، ومن البديهي ان ترك تدبره والاهتداء به هو عين الاعراض عنه والهجر له الذي يخشى ان يدخل صاحبه في زمرة من اشتكى منهم الرسول (ص) الى ربه عز وجل كما قال تعالى في سورة الفرقان « قال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » وقد بالغ بعض علماء الحنفية في التوقي من الدخول في زمرة هؤلاء حتى قالوا انه يكره ان يواظب المرء على قراءة سورتي الم السجدة والانسان في صلاة فجر الجمعة لما في ذلك من هجر غيرهما من القرآن ! . فاذا قالوا في قراءة سورتين وردت

قراءتهما في السنة فماذا يقولون فيمن لاحظ له من فهم شيء من القرآن لعدم معرفة لغته ؟؟

(٥) ما تقدم شرحه في وجوب اخذ العقيدة من القرآن أو مطابقتها له على الاقل

(٦) ان الصلاة وهي عماد الدين المفروضة على كل مسلم ومسلمة لا تصح الا بقراءة شيء من القرآن فيها و بأركان أخرى كالتكبير والتشهد كلها عربية والمقصود منها فهمها لان فهمها هو الذي يؤثر في النفس ويذكرها بعظمة الله تعالى ومراقبته فتكون جديرة بأن تنهاه عن الفحشاء والمنكر كما وصفها الذي فرضها بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وبأن تكون عونا للعبد على مقاومة المصائب والنوائب كما قال تعالى « واستعينوا بالصبر والصلاة » وبأن تحول بينه و بين الهلع كما جاء في سورة المعارج ومن لا يعرف العربية لا يستفيد من صلاته ذلك ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا كما ورد

(٧) ان الخطب المشروعة في الاسلام من مفروضة ومسنونة كخطبة الجمعة والعيدين وعرفة كلها تؤدى باللغة العربية لغة الدين ، فمن لا يعرف العربية من المسلمين لا يستفيد منها بل تكون هذه العبادة كسائر عباداته العربية رسوما وتقاليد صورية والاسلام أجل وأكبر من ذلك

(٨) ان الاسلام قد جاء بدعوة جميع البشر الى ترك الشقاق والعداوات الجنسية والدخول في السلم كافة ليكونوا أمة واحدة ويتآخوا في هذا الاصلاح فلا يتعصب أحد لجنس على جنس كما ثبت في آيات واحاديث كثيرة . ولا يتم هذا الارتباط والتآخي بين الداخلين في هذا السلم الا اذا كان لهم لغة واحدة يتعارفون بها ، وهل توجد لغة لهذا الجمع الكبير من الاخوة يتعارفون بها غير لغة الدين الذي يتعرفون به الى ربهم عز وجل ويرجون رحمته ويخشون عذابه ؟؟

هذا ما اتسع له الوقت القصير من البينات على وجوب تعلم المسلمين لغة دينهم كتبته في أحد الاندية العامة في القسطنطينية على عجل وقد قرب الوقت الذي اودعه فيه بالبريد فاكتفي به لاشير الى شبهة ترد عليه وهي :

ينكر علينا ما تقدم بعض المتفرنجين من المسلمين ، الذين غلبت في نفوسهم نزعة الجنسية الجاهلية على نزعة الدين ، فهم يحاولون مقاومة ما يجدونه في العالم الاسلامي

من الشعور بخطر التفريق والميل الى التعارف وإحياء ما اندرس من معالم الاسلام فيقول هؤلاء المنكرون إن الاسلام ليس له لغة فيمكن لكل جنس من الاجناس التي دخلت في الاسلام ان يترجم القرآن والاحاديث الى لغته ويستغني بها عن الاصل العربي وقد بينا في المنار من قبل ان ترجمة القرآن ترجمة تقوم مقام الاصل متعذرة فان القرآن معجزة تشتمل على معجزات كثيرة ولا يمكن ان تكون الترجمة كذلك . وان القرآن مؤثر بأسلوبه في القلوب ولا تكون الترجمة كذلك كما بينا ذلك بالايجاز في أول هذه الفتوى وسنزيد ذلك بيانا في وقت آخر

واما زعم اولئك الجاويين أن دولة الخلافة الجديدة لم تجعل لهذه اللغة مقاما في بروجرام مدارسها الخ ما قالوه فهو زعم باطل وكدنا نغتر بمثله اذ أطلعنا بعض الناس هنا على آخر بروجرام المدارس الاعدادية فرأينا فيه عدد الدروس العربية مساويا في بعض السنين للغة الارمن ولغة البلغار الاختياريتين ، وقد اشرنا إلى هذا في مقالنا « العرب والترك » الذي كتبناه ونشرناه في بعض جرائد العاصمة نصيحة لأولي الامر ثم راجعنا البروجرام كله فوجدنا ان دروس العربية في النحو الصرف وحفظ بعض المنثور والمنظوم قد قررت فيه تقريرا . نعم ان ما هو مقرر غير كاف وان هذه البروجرامات والقوانين لا تنفذ كما يجب ولكن كان هذا من طبيعة الخلل الذي جرت عليه الدولة في دور الاستبداد الطويل العريض ونرجو ان يصلح الحال في دور الدستور وان كان يوجد في بعض رجال الحكومة الآن أفراد كثيرون متعصبون للجنسية التركية تعصبا ضارا وهؤلاء هم الذين حاولوا جعل المرافعات في محاكم البلاد العربية بالتركية وترون بيان ذلك مفصلا في مقال « العرب والترك » من هذا الجزء ، ونحن ساعون في تدارك ذلك والله الموفق

***

﴿ الزكاة في القراطيس المالية ﴾

(س ٤٠) من صاحب التوقيع الرمزي في (سمبس برنيو)

حكيم الاسلام والمسلمين ، سعد الملة والدين ، حضرة سيدي الاستاذ السيد

محمد رشيد رضا صاحب المنار الاغر متعني الله بعزيز وجوده آمين

بعد إهدائكم عظيم تحيتي واحترامي جزاكم الله عنا جزاء موفورا وجعل سعيكم سعيا مشكورا على فتياكم في حكم القراطيس المالية بوجوب الزكاة فيها . وهي التي نعتمد عليها ونتمسك بها غير اني أرجو من فضيلة سيدي الجواب عما سألت عنه وهو : من أي طريق عدت هذه القراطيس من النقود الذهبية ؟ واستمهلت حتى أرفعه الى حضرة سيدي فوضحوه لي أشكركم

وأرجو أيضا سيدي أن تنظروا الى أقوال القائلين في هذه القراطيس منهم من قال أنها لا تجب فيها الزكاة الا زكاة التجارة وأنها كفلوس النحاس في عدم وجوب زكاة العين فيها اه ومنهم من قال انها في حكم السندات تجب فيها الزكاة على قدر الدراهم التي بها من فضة أو ذهب اه

فهل هذان القولان لهما وجه صحيح أم لا ؟ تفضلوا سيدي بزيادة الايضاح في هذه المسألة حتى لا أعيد ذكرها بعد . ولكم من الله جزيل الاجر ومني جميل الحمد والشكر

ملتمس الدعاء

م . ب .

(ج) ان هذه القراطيس لا يفرق بينها و بين نقد الذهب أحد من الماليين كما هو معروف للمتعاملين بها وهناك اوراق أخرى تسمى سندات مالية تؤخذ في مقابلة حصة معينة بالسهام من شركة مالية وهي أشبه بعروض التجارة لان ثمنها يزيد في السوق وينقص وتباع كذلك وتشرى ولكنها لا قيمة لها في ذاتها

وقد يفتي بعض الفقهاء في المسائل المالية المستحدثة في هذا الزمن وهو على غير بينة من انواعها وعرف الناس فيها ومن كان عارفا منهم بذلك يقيس عرف الحادث على ما يراه اشبه به في عرف سابق مما تكلم عنه الفقهاء فبعضهم يرجح في ذلك جانب المعنى أو المقصد ومنهم من يرجح جانب اللفظ أو الصورة فمن قال ان القراطيس المالية التي تدعى «بنك نوت» و يطلق عليها بعض العرب لفظ «الانواط» هي من عروض التجارة وجعل التعامل بها كبيع العرض بمثله أو بالنقد فقد بالغ في الوقوف عند ظاهر الصورة ، فالعروض قيمتها ذاتية وهذه لا قيمة لها في ذاتها ومن

قال انها في حكم السندات والسفاتج راعى الصورة ايضا من جهة والمعنى من أخرى ووجه قوله انها اوراق تؤخذ في مقابلة نقد ويسترجع مثل ذلك النقد باعادتها ، وغفل عن الفرق الكبير بينها و بين السندات بالمعنى الفقهي وهو ان السند يكون بدين على شخص معين وهذه القراطيس تروج في الاسواق المالية فيشترى بها من كل احد كالنقدين بلا فرق . . .

هذان القولان يتفقان مع قولنا في غايته من حيث الزكاة إلا عند من يقول ان الدين لا زكاة فيه قبل قبضه و يترتب على الخلاف من المسائل المهمة ان جعل القراطيس المالية كالنقدين يقتضي وقوع الربا فيها وهو مانجزم به ومن قال إنها عروض تجارة منع الربا فيها وحينئذ يسهل على كل أحد أن يأكل الربا أضعافا مضاعفة بهذه الاوراق التي لا فرق بينها و بين الذهب عند أحد من الماليين ، وكذلك القول بانها في حكم السندات قد يكون موصلا لاكل الربا ولمنع الزكاة ولا حاجة الى تفصيل فمن نظر الى حقيقة المسألة في الواقع واحتاط لدينه اخذ بما قلناه والسلام

***

﴿ الاحاديث الموضوعة في كتاب الاحياء وروايتها ﴾

(س ٤١) ومنه أيضا

حضرة العلامة المفضال سيدي الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء متعني الله بعزيز وجوده آمين

بعد اهداء أزكى السلام والتحيات العظام: تعجب بعض الافاضل مما ذكر في كتاب أسنى المطالب ونصه « اعلم ان كتاب الاحياء لسيدنا الغزالي مع جلالة قدره وعلو مرتبته ورسوخ قدمه في العلم لا يعتمد عليه في الحديث لذكره في كتابه المذكور جملة من الاحاديث الموضوعة » اه (ص ٢٦٨) فهل يتصور أن حجة الاسلام شحن كتابه الجليل بالموضوعات ؟ خصوصا وقد زينت مجلة المنار بترجمة صاحب ذلك الكتاب وقد قلتم : وانما صرحت بهذا ليعلم من يقرأ ترجمة حجة الاسلام في

المنار — الى قولكم — ولعل ذلك يكون مشوقا لهم (أي طلاب العلوم والازهريين) الى مطالعة الاحياء وغيره من كتبه (٨٥١ — ١٠ ص ٥٩٥)

وعليه فهل يجوز لمن لا يتميز له الصحيح من الضعيف أو نحوه رواية أو قراءة ما فيه من الاحاديث احتياطا أم لا؟ تفضلوا سيدي ببيان الحق لئلا نكون في ريب مما أتى به حجة الاسلام من أحاديث سيد الانام لا زلتم في اجلال واكرام

(ج) ان ماقاله صاحب كتاب أسنى المطالب حق وسنذكر ذلك في ترجمته التي ننشرها في المنار فان لها بقية صالحة، وان أبا حامد الغزالي رحمه الله تعالى لم يعن في أول امره برواية الحديث وحفظه وكذلك كان الكثيرون من الفقهاء والمتكلمين والصوفية ولا سيما في عصره و بعد عصره، وانما عني بالحديث في آخر عمره . وقد جمع التاج السبكي في ترجمته هذه الاحاديث المطعون في روايتها في عدة صحائف من طبقات الشافعية الكبرى ووضع الحافظ العراقي كتابا خاصا في تخريج أحاديث الاحياء وهوالذي اعتمد عليه الزبيدي في شرحه للاحياء وزاد عليه مباحث وفوائد واذا كان الامر كذلك فلا يجوز لغير العارف بالحديث المطلع على تخريج تلك الاحاديث ان يعتمد عليها في الاستدلال أو يجزم برفعها الى النبي صلى الله عليه وسلم الا ما اسنده الغزالي الى الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث المعتبرة وهو يفعل ذلك كثيرا في مقام الاحتجاج والاستدلال بعزو الحديث الى الصحيحين أو كتب السنن، واكثر ما فيه من الاحاديث الضعيفة والموضوعة قد ذكر في مقام الترغيب في العبادات والفضائل (كصلاة الرغائب في رجب وصلاة شعبان) أو الترهيب والتنفير عن المعاصي والرذائل، وهم يتساهلون في مثل هذا المقام بتأييد كلامهم بالروايات الضعيفة على مافي ذلك من الخلاف والتفصيل في شروط جوازه عند من أجازه .

وحاش للغزالي من تعمد ايراد الموضوعات وانما نقل ما نقله منها من الكتب التي أحسن الظن بمؤلفيها كقوت القلوب لأبي طالب المكي فمعظم الاخبار والآثار الضعيفة والمنكرة والموضوعة في كتاب الاحياء منقولة من ذلك الكتاب

العرب والترك (*)

٤

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

قد انشق ليل الاستبداد عن صبح الدستور والعثمانيون الذين في بلادهم نيام يقظون: بعضهم يرى احلاما مخيفة، و بعضهم يرى احلاما سخيفة، والذين في بلاد الحرية قيام يرقبون: بعضهم يتعلل بالآمال القوية، و بعضهم يلهو بالاماني الضعيفة، فاستيقظ بصوت مؤذنه النائمون، وحمد غب سراهم المجدّون، وعاود الرجاء نفوس اليائسين، وغادر العداء قلوب المتدابرين، واقبل المسلم بوجهه على النصراني، والتركي على الارمني، وعانق الشيوخ القسوس، وصافحت الشعوب الشعوب، واذن مؤذن بينهم (عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام)

هكذا كان العثمانيون في نشوة من السرور العام، الذي كاد يكون من اضغاث الاحلام، أو من خوارق العادات، بعد انقضاء زمن المعجزات، لتأليف الدستور بين الشعوب الكثيرة المختلفة في الاديان والمذاهب والمشارب والعادات واللغات والبقاع والتربية والتعليم، وهي ضروب من الاختلاف لم تعهد في أمة ولا مملكة، و بعضها كاف لاستمرار الاختلاف والافتراق، ومنع الاتحاد والاتفاق، وانهم لكذلك واذا بنبأة من بعض الترك بمصر، ونبآت من كتابهم بالاستانة، قد اجفلت الوادعين الساكنين، وروعت الآمنين المستبشرين،

كتب أحد شبان الترك المقيمين في القطر المصري مقالات في جريدة الاهرام

(*) تابع لما نشر في ص ٨١٨ ج ١١ من هذا المجلد

يفاخر فيها العرب بقومه وجنسه معبرا عنهم بالملة المالكة، متبجحا بزعمه انهم هم وحدهم الذين أزالوا الحكومة الاستبدادية، وأدالوا منها الدستور والحرية، وانهم هم وحدهم الذين لهم الحق بالتمتع بثمرات الدستور الكاملة، وليس للعرب ولا لغيرهم من الاجناس ان يطمعوا في مساواتهم في مناصب الدولة وأعمالها لأن ولاياتهم مستعمرات أو مستملكات للترك! فيجب ان يكون قصارى حظ العرب من الدستور ان يستريحوا من اعباء الظلم ويتذوقوا طعم العدل فيكونوا من الترك كأهل الجزائر من فرنسا أو أهل الهند من انكلترا!!

هذه المعاني العالية كانت تصخ مسامع العرب أحيانا في عصر الاستبداد، وقلما كانت تكتب ولا سيما في مثل مصر التي هي أرقى من جميع الولايات التركية علما وعملا وثروة وحرية، وفيها الاقلام المرهفة، والالسنة الذلقة، والقلوب الجريئة، ثم كانت كتبت منذ بضع سنين في جريدة «ترك» التي كانت تصدر في القاهرة محررة بأقلام نفر من أذكياء الترك كعلي كمال بك وجلال الدين بك عارف. أسرفت تلك الجريدة في الفخر بجنس الترك معبرة عنهم بالملة المالكة وحقرت العرب في سياق الكلام عن مراكش ونصبت الميزان للترجيح بين الترك والعرب والخلافة العربية فجعلت العرب كلهم بمنزلة قبائل المغرب الاقصى وفاخرتهم بالترك في مدارسهم ودواوينهم وقصورهم وجيوشهم وملأت مواضعها بالفخر والتبجح ناسية مايكتب فيها وفي غيرها من الجرائد العثمانية في البلاد الحرة في وصف مظالم خليفتهم عبد الحميد خان وافساده للمملكة وتخريبه للولايات التركية والعربية والكردية والالبانية والرومية ومنعه للعلم وعيثه حتى في الجيش وفرار كتاب جريدة «ترك» وغيرهم من ظلمه الى مصر العربية. ولا أقول ان كاتب تلك التبجحات الغثة الباردة نسي عدل الخلفاء الراشدين وعلوم العباسيين في الشرق والامويين في الغرب بل أقول انه عمي عن البلاد التي أوى اليها والمدينة التي يطبع جريدته فيها وهو يرى العرب فيها أرقى من قومه علما وثروة ومدنية. ولكنني ذكرت تلك الجريدة يومئذ بخطأها في تحريك العصبية الجنسية التي أماتها الاسلام وبوجوب اتحاد العرب والترك وضرر تفرقهم باختلاف الجنس وبأن العرب اذا فاخروا أي جنس بجنسهم فانهم يفخرونه ويذونه:

هم الاولى ان فاخروا قال العلا … بفي امرىء فاخركم عفر الثرى
هم الاولى جوهرهم اذا اعتزوا … من جوهر منه النبي المصطفى

وانما كتبت ذلك الرد في المنار على جريدة ترك، لئلا يغريها السكوت عنها بالتمادي في ذلك التبجح الذي يولد الاضغان ويورّث الاحقاد وينفر المصريين وغيرهم من الدولة العلية، ويفتح في المسلمين باب الشقاق باختلاف الجنسية، ولكن كتاب تلك الجريدة صاحوا بعد ردي صيحة أخرى ثم خفت صوتهم لانني لم أشأ أن تستمر المناظرة في ذلك. ثم قام أحدهم جلال الدين بك عارف يوم احتفالنا باعلان الدستور خطيبا فقال: اننا اليوم قد تنازلنا عن كلمة «ترك» وهي محبوبة لنا فكلنا عثمانيون لافرق عندنا بين الترك والعرب والروم والارمن وغيرهم، فصفقت الجماهير المختلفة لقوله هذا تصفيقا وكذلك قال غيره من سائر الخطباء العثمانيين ونادى لسان الحال والمقال الدستور يجبُّ ماقبله كما ورد في الحديث الشريف «الاسلام يجبُّ ماقبله»

فلما انبرى ذلك الكاتب التركي بعد ذلك لكتابة ماذكرنا تذكر الناس ماكان كتب من قبل وما كان يقال، وأقبل العثمانيون بعضهم على بعض يتساءلون: قال أكثر من واحد منهم ان القوم لايتركون ماياًلفون وانهم سيستبدون مجتمعين كما استبد آحادهم (كعبد الحميد) منفردين، وربما كان استبداد الجماعة أشد وأبقى من استبداد الواحد. وقال الاكثرون: إنْ هذا إلا شاب مغرور لايزال جذعا في السياسة وان القرّح والبزّل من ساسة الترك المحنكين لايقولون بقوله، ولا يدينون برأيه، ولكن لم يلبثوا ان سمعوا تلك النبآت الاخرى من جرائد العاصمة (الآستانة) ورأوا اعمالا من الحكومة الجديدة استدلوا بها على التحامل على العرب وهضم حق العربية فنفرت القلوب وساءت الظنون

قامت بعض جرائد الآستانة تضرب على نغمة التغاير بين الترك والعرب وتلفظ بتلك الكلمات المنفرة «ملة مالكة، مستملكات، استقلال العرب، الخلافة العربية، بغض العرب للترك، فضل الترك على العرب، عجز العرب عن تدوين لغتهم، ونشر الاسلام خارج جزيرتهم» - الى غير ذلك من الكلم الدال على الجهل بالتاريخ أو تعمد العبث به فيما يضر ولا ينفع. وكان من أشهر هذه المباحث التي حركت التغاير،

واحدثت التنافر، مانشر في جريدة (اقدام) من اقتراح تنقية اللغة التركية من الالفاظ العربية، وما أودعه بعض الكتاب في مقالات نشرت فيها عن السنوسية، ومنها طعن بعض الجرائد في المصريين وفي الدمشقيين خاصة، وأهل هذين المصرين هم اعظم العرب حضارة وأوسعهم مدنية وفيهما السراة والاباة والعلماء والكتاب

رب قول يصدر عن حسن نية ويكون جديرا بأن يحترم وان كان خطأ يحدث من الاثر السيء مالم يكن يراد به، ويتفاقم ذلك بمقتضى الحال وطبيعة الزمان، وطريقة الاداء والتعبير، وكذلك كان حظ اقتراح صاحب (اقدام) بدعواه في تنقية التركية من الالفاظ العربية - يقول هو ان هذا بحث فني محض وان الغرض منه الاستغناء عن الالفاظ العربية التي يوجد في التركية مايقوم مقامها، ولكن لماذا طلب هذا المصلح اللغوي تطهير لغته من العربية دون الفارسية والفرنسية!؟ ونقول ان هذه فلسفة مبتسرة كان يجب عدم الخوض فيها الآن وان الكلام عندما ينقل من لغة الى أخرى ويتحدث به الخاص والعام يعرض له التحريف والتبديل ويفسر بحسب الحال الغالبة فقد شاع في بلاد سورية ومصر وغيرهما من البلاد أن بعض كتاب الترك يدعون قومهم الى الابتعاد عن العرب حتى في ترك الالفاظ العربية المستعملة في لغتهم وانهم يعبرون عن ذلك بلفظ التطهير كأنهم يرون اللغة العربية نجسة قد تدنست بها التركية !! وانتقل بعض الناس من الملزوم الى اللازم فقالوا إن هذا الكلام يعد طعنا في كتاب الله عز وجل وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم وان هذه الدعوى قد تكون مقدمة لدعوة أخرى تترتب عليها اذا أجيبت وعمل بها وهي الدعوة الى الارتداد عن دين الاسلام لأن أصله وأساسه من الكتاب العزيز والسنة السنية، وانما هما باللغة العربية، والرسول الذي جاء به عربي (صلى الله عليه وسلم)

الى هذا الحد البعيد وصل سوء تأثير ذلك الاقتراح الفني لنشره في هذا الوقت النحيف (أو النازك كما تقول الترك) الذي يجرحه مر النسيم، ويدميه لمس الحرير، وقد ردت بعض الجرائد العربية على هذا الرأي فعرفه الناس وعدوه ذنبا للترك ولم يعلم السواد الاعظم منهم ان من كتاب الترك انفسهم من رد على مقترحه بأوسع مما رد به كتاب العرب

وقد سمع أيضا من جريدة طنين كلام في غمص العرب لم يكن كطنين الذباب

فيناسب اسم الجريدة بل كان كدوي المدافع وقصف الرعود لاشتهار هذه الجريدة بأنها لسان جمعية الاتحاد والترقي ومظهر سياستها ومكان الجمعية من سياسة الدولة معروف ولاسيما في اوائل العهد بالانقلاب — فهذا من الاسباب القولية في سوء التفاهم والتنافر بين الترك والعرب الذي نجم قرنه بعد الدستور فزلزل الآمال الجميلة وأساء تعبير الاحلام اللذيذة، وقد سمع شيء منها من بعض رجال الحكومة الدستورية كطعن سليمان بك نظيف والي البصرة في الحزب الوطني المصري وهو في مصر اثناء مروره بها في سفره الى البصرة وقد اشتهر هذا لرد جريدة اللواء عليه ولكنه قال قولا آخر شرًا منه وأسوأ تأويلا : قال في سياق الكلام على الفتن التي تحدث في جزيرة العرب ما مآله : ان الدولة مستعدة لسحق أولئك العرب بالقوة القاهرة فان عندها سبعة فيالق من الابطال !!! فهل يصح أن يقال مثل هذا القول بمصر أو بغير مصر ؟ وهل تدرب الدولة الجند من ابناء الامة لاجل سحقها وتدميرها !؟ أم لاجل حمايتها وتعزيزها ؟ أما كان ينبغي له أن يقول ان أولئك العربان وغيرهم كانوا مرهقين بالظلم وسوء الادارة وسنريهم العدل والنظام فنجعلهم بذلك يتفانون في حب الدولة وطاعة الحكومة ؟؟

ومن أسباب سوء التفاهم ان كثيرًا من احرار العرب الذين جاهدوا في سبيل الدستور حق الجهاد (ومنهم من هو معروف الاسم أو الشخص عند اكثر احرار الترك) وكثيرا من الفضلاء والكتاب الذين أظهروا الاحتفال بالدستور بخطبهم ومقالاتهم جاؤا الاستانة زائرين ومختبرين، واكثرهم كانوا ممنوعين منها ومحرومين، فلم يعبأ بهم احرار الترك ولا رأوا منهم عواطف الاخاء كما رأى الارمن مثلا!

وأما الاسباب المتعلقة بحكومة العاصمة فمنها اسرافها في عزل ابناء العرب من وظائفهم حتى انها عزلت في وقت قصير زهاء بضعة عشر متصرفا منهم، ومنها بخلها بالوظائف على طلابها منهم وجودها بها على غيرهم من العناصر الاخرى، ومنها تعجلها بأمور تشعر بتعمد اضعاف اللغة العربية كجعل المرافعات في محاكم الولايات العربية باللغة التركية مع علمها بأن الناس يجهلونها في الغالب حتى وكلاء الدعاوي (المحامين) — وكجعل الكشوف (البيانانامه) التي يقدمها التجار من ابناء العرب

في بلادهم الى ادارة المكس (الجمرك) باللغة التركية أو الفرنسية مع تعسر ذلك أو تعذره عليهم واقتضائه نفقات كانوا في غنى عن بذلها — وكعدم قبول عرائض الشكوى بالعربية حتى في مجلس الامة مع ان المشتكين من الامة وهي ذات لغات متعددة للعربية منها مكانة خاصة من حيث هي لغة الدين الرسمي الذي يكفله مقام الخلافة كما سنبين ذلك بعد

ومنها ما يتعلق بنظارة المعارف خاصة كالغاء الدروس العربية من المكتب الملكي في العام الماضي (ولكنهم أعادوها في هذا العام) وكجعل العربية في المدارس الاعدادية اختيارية كاللغة الارمنية واللغة الرومية وعدد دروسها كعدد دروسهما مع كون العربية اصلا من اصول اللغة الرسمية يحتاج اليها في اتقانها اكثر مما يحتاج الى اللغة اللاتينية لاتقان الفرنسية ، وكونها ينطق بها اكثر العناصر العثمانية عددا وأقلهم لها معرفة ، وكونها لغة الدين الاسلامي الذي هو الدين الرسمي للدولة — وكارسال النظارة خمسة وسبعين تلميذا من مكاتبها الى أوربا لتحصيل العلوم العالية ليس فيهم غير اثنين من ابناء العرب — وكارسالها معلمين من الترك الى مدارس البلاد العربية لأجل تعليم العربية نفسها وهم يجهلونها — وكتعصب بعض المعلمين في المكاتب العالية على ابناء العرب واسماعهم ما يجرح عواطفهم حتى في الدروس

ومنها ما يتعلق بنظارة الحربية كاستحضارها الضباط ولا سيما اركان الحرب منهم من الولايات العربية الى سلانيك والآستانة ثم تفريقهم في البلاد التركية — وكاخراجها بعض التلاميذ العرب من المكتب الحربي حتى بصورة ادارية كما أشيع في مصر وغيرها . ولعل الشبهة او الشبه المتعلقة بنظارة الحربية اضعف من الشبه المتعلقة بغيرها ولا أرى شيطان التفريق بين العنصرين يقبل وسواسه فيها فالحربية في دولتنا هي أرقى ما فيها فنسأل الله تعالى لها ولسائر النظارات اكمل التوفيق وأتم النظام

ومنها ما يتعلق بمجلس الاعيان فقد كان ينتظر أن يكون فيه اعضاء من العرب ولو بعدد ولاياتهم ان لم تقل بحسب عدد نفوسهم ولكن ذلك لم يكن

ومنها ما يتعلق بمجلس المبعوثين وهو المظهر الاكمل للمساواة والاخاء ولكن

اخباره في السنة الماضية لم تكن تدل على ما نحب من توثيق الرابطة بين العرب والترك كسائر العناصر بل وجد العرب امورًا منتقدة ، ووجوها متجهمة ، وسمعوا من بعض اخوانهم كلاما لا نحب أن يكتب ويطبع ونرجو أن يكون هذا العام خيرا من سابقه وأن يكون مجلسنا وسائر امورنا العامة في ارتقاء دائم بالاخاء الصحيح والمساواة مع الاخلاص بسعي الفضلاء محبي الوفاق من العنصرين وسائر العناصر

تلك كليات من اسباب ما سميناه سوء التفاهم بين الترك والعرب وفي ضمن تلك الكليات جزئيات كثيرة

لا أقول ان كل ما روي من ذلك صحيح المتن والسند ، ولا أقول ان ما صح منها كان بسوء النية وتعمد هضم حقوق العرب ، ولكنني لا أستطيع أن أنكر قول من يقول انها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم ، وانه تتوقف عليه حياة الدولة العثمانية وبقاؤها وان هذا الاتحاد تقتضيه طبيعة العنصرين الاجتماعية وان دار الخلافة والسلطنة هي الآلة التي يكون بها التركيب والتحليل ، وان الكيماويين الاجتماعيين الذين يحركون هذه الآلة هم رجال الحكومة ورجال الصحافة ، وانه يجب في هذا الدور — دور الانقلاب والتحول من الاستبداد الى الدستور — أن يؤخذ على أيدي المحللين بسوء القصد أو بسوء الفهم حتى لا ينقل عن العاصمة الا ما يدل على ارادة المزج والتركيب والاعتصام والتأليف . ولكن وجود هؤلاء الجاهلين بهذه الحقائق والمسيئين الى العرب بأقوالهم وأفعالهم لا ينافي كون العنصر التركي أخا للعنصر العربي ومحبا له كما يحبه هو ، ولذلك قلنا فيما سبق من نُبذ مقالنا هذا ان التغاير والتنافر محصور بين المتزاحمين على اعمال الدولة ومناصبها وبين رجال الصحافة وحملة الاقلام وسأبين طريقة تداركه مع حفظ حرية الصحافة وتنفيذ قوانين الحكومة ولو بترجيح الترك في المناصب ترجيحا مقرونا بالحكمة والذوق

ان ما أشرت اليه من اسباب سوء التفاهم قد سرى في اكثر البلاد العربية ولا سيما أرقاها وهي المصرية والسورية بسرعة الكهرباء وكثر حديث الناس فيه

وخاضت فيه الجرائد ولها العذر وتبارت فيه اقلام الكتاب والشعراء فيجب تداركه قبل أن يعم نشره فيصل الى سائر البلاد والبوادي وقبل أن تضعف حجة امثالنا من محبي الوفاق والساعين في الاتحاد الذين اجتهدوا ولا يزالون يجتهدون في الاعتذار عن الحكومة ، وما كل عذر يقبل ولا سبيل الى ايصال الاعذار الى الملايين

اذا قلنا ان الحكومة عزلت الجم الغفير من عمالها العرب لانها تظن انهم من صنائع أبي الهدى وعزت العابد يقال لنا ولماذا لم تعزل جميع رجال الدور السابق وهم صنائع عبد الحميد وبقية رجاله من الترك وقد ثبت بالعيان والبرهان انهم خربوا المملكة لان العمل كان في أيديهم ؟! وكم سألنا وسأل غيرنا من الناس : ماذا ثبت على أبي الهدى وعزت العابد من الخيانات والاعمال المخربة للدولة ؟ أما أنا فلا أعرف لهما ذنبا خاصا وراء ثقة عبد الحميد بهما وما نالا بها من مال وجاه الا أن الاول آذاني وآذى اهل بيتي بسعيه او سعايته والثاني اذا كان لم يوافق على ذلك فانه لم يعارض فيه ، فانا على عدم حمدي لاحد منهما وعدم دفاعي عنهما لا أرى من العدل عزل كل من نال عملا في الحكومة بجاههما ، وأعلم ان كثيرا ممن عزل من العرب لم يكن له صلة باحد منهما ، وان بعض المتهمين بهما لا يزالون في اعمالهم . وانما اعذر الحكومة بعض العذر بأن اكثارها من عزل العرب وغيرهم كان من بعض الاضطراب الذي جاءت به طبيعة الانقلاب ، وقد آن أن أبين شيئا من ضرر التنافر ، وطريقة ازالة سوء التفاهم ، وقطع عروق التقاطع والتدابر ، وهو موضوع النبذتين التاليتين

٥

ما كاد ليل الاستبداد ينجلي بصبح الدستور ، وتنقضي أيام الاحتفال بعيده في فرح وسرور ، الا وبادر كاتب هذا المقال الى زيارة القطر السوري زائرا ومختبرا للبلاد التي نشأ فيها وحجبه الظلم الحميدي عنها احدى عشرة سنة ، فطفت المعاهد ، وبلوت الافكار والسرائر ، فما رأيت فيها للنزعة الجنسية العربية حركة ، ولا سمعت فيما سمعت لها دعوة ، اللهم الا نبأ لداعية الجمعية العربية العثمانية ، منعكسا عن الآستانة العلية ، لم يفهم منه معنى التفرقة ، ولم تشتد من الجمهور فيه الرغبة ، وكنت

مع هذا انفر الناس عن هذه الجمعية ، وأتشاءم من تسميتها بالعربية ، لئلا يفهم منها إخواننا الترك معنى العصبية الجنسية . بل أقول طالبا السماح والعفو من مؤسسيها أنني لم أكن أحسن الظن فيهم ، ولا أبرئهم من الاغراض الشخصية - دون الجنسية - في عملهم ،

وكنت أقول في خطبي ودروسي في البلاد انه يجب على كل بلد أو ولاية عثمانية أن تُعنى بترقية نفسها بالعلم والثروة ، لتكون عضوا قويا عاملا في بنية الامة ، ومددا عظيما لتعزيز الدولة ، لا لأجل انفراد أهلها بنفسهم ، أو اعتصامهم بأبناء جنسهم ، (اي الجنسية اللغوية لا السياسية) فان الامم المستقلة في أحكامها المختلفة في لغاتها ومذاهبها ومواقعها ، يتحد بعضها ببعض ليقوى الجميع بالمحالفة ، فكيف تضعف الشعوب العثمانية نفسها وهي أمة واحدة - بالتفرق والمخالفة ؟! نعم ان على العرب ان يحبوا لغتهم ، وان يطالبوا الدولة بمساعدتهم ، لان لغتهم في الدرجة العليا من الارتقاء ، ولها في العلوم والآداب أفضل تُراث ، وهي لغة الاسلام ، التي يتدارسها المسلمون من جميع الشعوب والاقوام ، فهي رابطة الاخاء والمودة المعنوية ، بين الملايين المذعنين للديانة والخلافة الاسلامية ، فترقية هذه اللغة خدمة للدولة العلية وترقية لها - فكنت أرى الجماهير يتقبلون كلامي بقبول حسن وما كنت أرى أحدا يعارضني بتوهم الفصل بين الترك والعرب ،

هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي وكانت قد نجمت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمهور فلما كثرت وكبرت كما بينا في النبذة الرابعة تنكّر الناس في سورية ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية حتى في أمريكا وتبارت فيها قرائح الشعراء وتجاوبت فيها الاصوات ، حتى عمت البلاد والجهات ، فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازا شديدا ، وصبغها بعضهم بصبغة الدين فكان تأثيرها عظيما ، ومن المعاني التي نظمها الشعراء وخطب بها الخطباء ونشرت في الجرائد المصرية : ان الترك جاروا على لغة القرآن وعدوها من النجاسات !! فانفطرت القلوب ، وفاضت العيون ، وضج البيت والحرم ، وكاد الركن يتحطم ، وشكا القبر المعظم ، وغضب الرب عز وجل ، ...

فهل نظن حكومتنا العليا ، وأصحاب الجرائد التركية في عاصمتنا ، ان هذه الغارة الشعواء هين أمرها ، خفيف وزرها ، مأمونة عواقبها ، اذا ألقي حبلها على غاربها ؟؟

كلا ان من عرف حقيقتها ، وتفكر في عواقبها ، يعلم ان الامر إدّ ، والخطب جدّ ، وانه يجب اخذه برُبَّانه ، وتداركه في إبَّانه ، قبل ان يستقر في نفوس العامة ، وتقتنع به الحاضرة والبادية

ان لهذا العاجز على ضعفه صوتا مسموعا في البلاد العربية ، وفي غيرها من البلاد الاسلامية ، وقد دافع بقدر طاقته ، عن الدستور والقائمين به ، حتى أزال كثيرا من شبهات المشتبهين ، ومكّن الثقة في نفوس الجماهير من المتزلزلين ، وهو على ذلك وعلى حرصه على الاتحاد والاعتصام بين جميع العناصر العثمانية لم يستطع ان يقف في مجرى التيار الذي حركته تلك الاقوال والافعال التي أشرنا اليها في نفوس العرب كما وقف في مجرى التيار الذي حركه خلع عبد الحميد في بلاد الهند وفي غيرها من البلاد ، بل رأيت ان هذا التيار قد تدفق من (الدردنيل) فلا بد من السعي الى قطعه من هناك ؛ فكان أحد باعثين بعثاني على ترك عملي بمصر فى مثل هذا الوقت ، وتيممي عاصمة الملك كما سبق القول ، (وأما الباعث الآخر فسأبينه في مقال آخر انشره في بعض الصحف التركية ان شاء الله تعالى)

أحمد الله ان كانت هذه الحركة محصورة في دائرة الغيرة على اللغة العربية والمزاحمة في الوظائف والمناصب ، وصفوف المدارس والمكاتب ، وأنها لم تتعد الى مقام الخلافة ، ولا الى اساس الحكم والسلطة ، ولم يجر على لسان منتقد ولا خطيب ولا من قلم كاتب ولا شاعر دعوة الى الانفصال من الترك ، أو الاستقلال في الحكم ، ولهذا كان التدارك سهلا ، وحسن التفاهم ميسورا ،

مارأيت خطأ بعيدا عن السياسة المثلى خارجا عن قواعد علم الاجتماع ، مثل خطأ رجال السياسة في الآستانة الذين يلغطون في الجرائد بذكر استقلال العرب والدولة العربية والخلافة العربية ، يتهمون العرب بطلب ذلك و يعدونه جهلا منهم لانه محال لتوقفه على المحال وهو اتفاق زعماء جزيرة العرب وشرفائها من جهة وعلى مساعدة أوربا

من جهة أخرى ، وما كان خطأ الحكومة في الاصغاء الى الواشي والتحقيق في مسألة الشام في هذا العام الا كخطإ الجرائد أو أشد

ذلك بأن هذه الاقوال والاعمال هي التي تشغل الافكار بما كانت خالية منه ، ويخشى ان توجه النفوس الى ما كانت غافلة عنه ، وتعدها لما لم تكن مستعدة له ، ألم ترَ أن علماء التربية يحرمون ذكر الالفاظ التي تدل على الرذائل وتثير كوامن الشهوات لئلا يدعو التفكر فيها الى الاقدام عليها ، حتى ان بعض الاوربيين حذفوا من معاجم اللغة ولا سيما التي يراجع فيها التلاميذ مثل لفظ الخيانة والسرقة كما اجمعوا على حذف ألفاظ الرَّفث ، وعلى هذه القاعدة جرى عبدالحميد في منع الجرائد من كثير من الالفاظ التي توجه النفوس الى مايراه مخالفا لسياسته ، ولا نجيز للحكومة الدستورية ان تحذو حذوه ولكن يجب عليها أن لاتكون هي المثيرة لتلك الافكار الضارّة كما يجب مثل ذلك على الجرائد من غير ان يمنعها منه القانون ـ فهذا هو مدرك قولي في النبذة الاولى من هذا المقال انني لم أذكر مسألة اقتراح شيخ الحج على امراء العرب في المنار ولا في غيره من الصحف «لاعتقادي انه لاضرر فيها وإنما الضرر في نشرها ، وخوض العامة بذكرها ، لما سأبينه بعد» وهذا بيانه :

ان عظمة الدولة العثمانية وعزتها وسائر مايرجى لها في مستقبلها الدستوري يتوقف على العنصر العربي مالايتوقف على عنصر آخر من العناصر التي نطلب اتحادها كلها حتى التركي منها فان البلاد العربية المحضة أوسع من البلاد التركية المحضة مساحة وأغزر ثروة وأحسن موقعا وأشرف بقعة من حيث هي مهبط الوحي ومثابة الامم الاسلامية والنصرانية تهوي الى زيارتها من كل فج عميق . وأهلها أقدر على الزراعة والصناعة والتجارة فمن تجارهم في الصين والهند وجاوة واستراليا وأمريكا من يملكون الملايين . وأما ذكاؤهم واستعدادهم للعلم فهو اشهر من ان يوصف . وأما القوة الحربية فيمكن للدولة ان تجند منهم مليونا أو أكثر من أشجع خلق الله وأصبرهم على القتال ناهيك بفرسان العرب وخيولهم اذا تدربوا على الفنون العسكرية الحديثة ، وهل تكون الدولة بأمن من مطامع أوربا في العراق اذا أصلحت أرض الجزيرة (بين

النهرين)الا بتجنيد أولئك الاسود الذين يهابهم الموت ولايهابونه، ولاتحتاج الدولة الى نفقة كبيرة في تجهيزهم عند الحاجة»؟؟

إن قوام الدول وعظمتها في هذا العصر على مقدار ثروتها ، وانما ثروتها مستمدة من الامة وان أرجى عناصر الامة العثمانية لثروتها هو العنصر العربي وان مابين النهرين (دجلة والفرات)من بلاده هو أخصب البقاع تربة وأوفرها غلة حتى قال هيرودتس شيخ المؤرخين انها كانت تؤتي غلاتها مضاعفة من مئة ضعف الى مئتي ضعف ثم كانت بعده هي ينبوع ثروة الدولة العباسية ، ولا يكون اشتغالها وحفظها للدولة في هذا العصر الا بالعرب وان شاركهم غيرهم في اصلاحها وثمرتها

مركز الدولة في أوربا محفوف بالمشاكل والقلاقل ، مضطرب بالمطامع والفتن ، ومركزها في الاناضول عرضة للفتن أيضا فليس في ولاياتها اهدأ من الولايات العربية الحضرية كبيروت وفلسطين والشام وحلب ، واما ما كان يجري في الولايات التي تغلب عليها البداوة كاليمن فسببه سوء الادارة وفساد السياسة التي كانت عليها الدولة الى آخر يوم من أيام الاستبداد ولم تصلح الحكومة الدستورية من ذلك الفساد شيئا بل لم تتق أسباب سوء التفاهم الذي تنتشر أسبابه في ظل الحرية بسرعة البرق ، فعليها ان تتدبر وتعلم علم اليقين انه لم يجر الى هذا اليوم شيء من السعي ولا من التدبير لانفصال العرب من الترك ولم يمل الى ذلك أحد من المشتغلين بالسياسة العامة من العرب وانه لايوجد سبب من الاسباب يوجههم الى هذا الا هضم اخوانهم في العاصمة لحقوقهم وأهمها التعالي عليهم بالجنسية التركية ، والتقصير في حفظ لغتهم العربية ،

***

سوء التفاهم محصور الآن في هذين الامرين : تعالي التركي على العربي بجنسه وإيثار نفسه عليه بأعمال الدولة ومكاتبها ، والتقصير في نشر اللغة العربية ، فأما الاول فانني أعذر الترك فيه من جهة وأعذل المتعصبين منهم على غيرهم من جهة اخرى : اعذرهم من حيث ان المتعلمين منهم قد جروا على اتخاذ اعمال الحكومة معاشا وموردا للرزق وهم قلما يحسنون عملا آخر كما جروا على حسبان ذلك حقا خالصا لهم من دون سائر العثمانيين الذين اذا نالوا منه شيئا فانما يكون من إيثار الترك لهم

على انفسهم درءا لمفسدة اوجلبا لمصلحة ، فان كان الدستور قد ساوى بينهم وبين سائر العناصر في كل شيء فلا ننسى ان تطبيق الدستور على الامة ، يجب أن تراعى فيه الحكمة ، ومنها أن يكون بالتدريج ولا سيما فيما يتعلق بتغيير العرف والمعاملات المتبعة والعادات المألوفة ومن هذا الباب نلوم الحكومة في بعض المعاملات المخالفة للعرف التي يمكن تطبيقها على القانون اذا أسرعت فيها قبل اعداد الامة لها . فاذا نحن طالبنا الحكومة أن تجعل اعمال الحكومة مشتركة بين العناصر العثمانية على نسبة عدد كل عنصر منها نكون قد طلبنا الطفرة في التغيير وقطعنا على متعلمي الترك اوسع ابواب الرزق التي ألفوا الدخول فيها ، وجعلناهم دون سائر الشعوب العثمانية بعد أن كانوا فوقها من هذه الجهة التي هي اشرف الجهات في نظرهم ، فهل من الحكمة أن يكون أول حظهم من الدستور خسران اعظم شيء عندهم ؟ كلا انني أرى جميع عقلاء العرب يفهمون هذا و يقدرونه قدره و إنما ينكره و يتألم منه من هم مثل الترك في قصر هممهم على خدمة الحكومة واتخاذ ذلك وسيلة للمعيشة ، وهذه هي الجهة التي اعذل الحكومة على عدم مراعاتها وأطالبها بان تعدل في هؤلاء المتنظمين في سلكها والمرشحين انفسهم لذلك وان لا تشعر احدا منهم بان جنسه علة للتحامل عليه رفقا بهم واقناعا لهم ولغيرهم بانها تنفذ الدستور بالعدل والمساواة بقدر الاستطاعة وتفاديا من سوء التفاهم في هذا الدور الخطر - دور التحول والانقلاب

وليعلم الفريقان ان الحكومة الدستورية لا تكون موردا واسعا للرزق ولاينبغي ان تطلب وظائفها لأجل المعيشة لان المرتبات الكبيرة فيها قليلة جدا ، وما عداها لا يكاد يصل الى درجة الكفاف ولاسيما مع نفقات الاسفار في هذه المملكة البعيدة الارجاء اذا بطلت الرشوة كما هو المنتظر من الاصلاح في عهد الدستور وانما كانت الحكومة بابا من ابواب الثروة ايام كان الحاكم مستبدا نهابا مستبيحا لجميع ما تصل اليه يده من اموال الامة لايخاف في ذلك دركا ولايخشى . وانني لاشفق على اخواننا من الترك وأخشى ان يكونوا في عهد الدستور وراء الروم والارمن المزاحمين لهم في عقر دارهم وفي عاصمة الملك اذا لم ينزعوا من اذهان نابتتهم فكرة الارتزاق من الحكومة . وقد كان المتعلمون من المصريين على رأي المتعلمين من الترك في ايام

الاستبداد المحض والظلم ، وفي اوائل العهد بالحرية والعدل ، ثم لما عمرت البلاد صرنا نرى بعض عمال الحكومة الذين ياخذون في كل شهر عدة الوف من القروش راتبا معينا لا يتخلف قبضه عن اليوم الاول من الشهر يستقيلون راغبين عن خدمة الحكومة الى الاعمال الحرة التي هي اوفر كسبا واوسع بابا لتحصيل الثروة ، ونرى الذي يتقاضى من الحكومة في كل شهر ثمانية آلاف وعشرة آلاف قرش يعد فقيرا اذا لم يكن له مورد آخر من الزراعة مثلا

واما التقصير في نشر اللغة العربية فلا أرى للحكومة فيه عذرا معقولا فان قيل ان اللغة التركية هي اللغة الرسمية فما عداها من اللغات تجب فيه المساواة فاذا رجحت الحكومة اللغة العربية على غيرها قام سائر العناصر يطالبونها بمساواة لغتهم لها ويعدونها مقصرة معهم غير عادلة فيهم! فالجواب عنه يعلم مما أشرنا الى بعضه قبل من مزايا العربية وخصائصها التي يمكن للحكومة أن تحتج بها على أي عنصر يطلب مساواة لغته بها في المكاتب الرسمية ونزيده ايضاحا بالتفصيل بخمسة أمور :

(١) ان العربية هي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهما اصل الدين الاسلامي الذي هو الدين الرسمي للمملكة الذي يجب على خليفة المسلمين أن ينشره ويحميه

(٢) ان السواد الاعظم من اهل المملكة مسلمون يحتاجون الى العربية في فهم دينهم وطاعة ربهم فيما حث عليه من تدبر القرآن وليس لهم جمعيات دينية تنشئ لهم المدارس كالنصارى فالحكومة الوارثة لهم هي المطالبة بتعليمهم

(٣) ان الشريعة الاسلامية هي الينبوع الذي تستمد منه الاحكام التي يحكم بها في الاحوال الشخصية والمدنية وتطبق عليها القوانين ومعظم كتبها التي عليها الاعتماد في ذلك والتي يرجع اليها عند المشكلات هي باللغة العربية فالدولة محتاجة في ذلك الى تعليم هذه اللغة

(٤) ان العنصر العثماني العربي هو اكبر العناصر وابعدها عن معرفة اللغة الرسمية للدولة ولا يتيسر تعميم هذه اللغة فيهم إلا بعد اتساع مالية الدولة بعشرات من السنين . فاذا لم تعلم الحكومة اللغة العربية لمن تعدهم في مكاتبها للوظائف كان

نتيجة ذلك ان اكثر عمال الدولة في اوسع ولاياتها لا يعرفون لغة الاهالي فيتعذر عليهم اقامة العدل والنظام . ولا يقال انهم يستعينون على ذلك بالمترجمين لانها لا تجد الذين يحسنون الترجمة في كل مكان وان وجدتهم كانت في حاجة الى نفقات كثيرة لهم لا تحتاج الى اكثر منها لتعليم العربية ولا مندوحة عن أحد هذين الامرين الا بابقاء الحكومة كما كانت في شر ايام الاستبداد جمعيات نهب وسلب لا يهمها الا ملء الجيوب ، واما الروم والارمن وغيرهما من العناصر فاللغة الرسمية منتشرة بينهم لا تحتاج الحكومة الى المترجمين الا في القليل من بلادهم وما ذلك بالامر الشاق ولا المتوقف على النفقات الكثيرة

(٥) ان اللغة العربية اصل من أصول اللغة التركية الرسمية يقرب أن يكون ثلث مفرداتها أو نصفها مستمدا منها ولا سيما المفردات في علوم الطب والتشريح والنبات والحيوان، فتعليم العربية في مكاتب الدولة يقوي تعليم اللغة الرسمية ويمدها فالتركية أحوج الى العربية من اللغة الفرنسية الى اللغة اللاتينية وانا نرى الافرنج يعلمون اللغة اللاتينية التي لا يوجد عندهم شعب يتكلم بها لانها من اصول لغاتهم فاعراض الترك عن تعليم العربية على كونهم أحوج اليها من هذه الجهة وعلى ما لهم فيها من الفوائد الدينية والمدنية لا يظهر تعليله الا بتعمد اضعاف العربية وهذا شيء لا يرضى به جمهورهم وان نزع اليه بعض المتفرنجين المتعصبين ، الذين ليس لهم رأي ولا دين

٦

زبدة المقال وخاتمته

(١) إن الجواذب التي تجذب الترك الى العرب والعرب الى الترك وتمزج احدهما بالآخر فيكونان عنصرا واحدا قويا نافعا كالماء والهواء في كونه علة للحياة والبقاء هي قوية جدا لانها جامعة بين الاخوة الدينية والمصالح المدنية والسياسية التي لا قوام للدولة بدونها

(٢) ان الحوادث السابقة واللاحقة أعدت المشتغلين بالسياسة والبحث في

الامور العامة والمتزاحمين في المكاتب والمناصب الى شيء من سوء الفهم والارتياب والظنة قواها في نفوس بعض الترك شبهات أوهمتهم ان العرب يريدون الانفصال من الدولة العثمانية والاستقلال بأنفسهم ، وقواها في نفوس بعض العرب أقوال منكرة قالها وكتبها بعض المشهورين من الترك وأعمال مستنكرة من الحكومة لا يصح ان تعد أصلا راسخا في الدولة لأنها حدثت في عهد الانقلاب والفتن التي اضطرت الدولة الى الاحكام العرفية مع تبدل الوزارات وعدم انتظام الاحزاب في مجلس المبعوثين الذي يرجع اليه الامر كله

(٣) انه يمكن ان تنهض حجة قيمة على التباغض بين الترك والعرب اذا وقع الشقاق بين المبعوثين في مسألة تعليم اللغة العربية أو مسألة المساواة بين العنصرين المحتمة في القانون الاساسي ولكن هذا الشقاق ما وقع ولن يقع ان شاء الله تعالى . وقد حضرت مذاكرة بين فاضلين من المبعوثين أحدهما عربي والآخر تركي فقال هذا اني أحب العرب أكثر من الترك لان الذي يجبب الي الترك هو النزعة الجنسية الدنيوية وأما الذي يحبب الي العرب فهو ديني الذي عليه مدار سعادتي الأبدية ، - أوما هذا مؤداه

(٤) ان الذين قد بدت البغضاء من أفواههم للعرب في معاهد السياسة والحكومة ومكاتب التعليم هم على قلتهم ليسوا من العنصر التركي باليقين وإنما أكثرهم أوشاب وأوزاع من عناصر شتى قد تتركوا وأسلموا من زمن بعيد أو قريب لأجل مناصب الدولة فهم لاحظ لهم من الحياة الا فيها فلا عجب اذا أبغضوا كل من يزاحمهم عليها

(٥) يجب على العقلاء السعي في إزالة سوء التفاهم وسد منافذه مهما كان سببه لئلا يتمكن في نفوس العامة فيتعذر نزعه وتسوء مغبته .

مابه يكون التأليف بين العنصرين

يجب أن يتعاون على هذا التأليف الذي تتوقف عليه حياة الدولة كل من عقلاء الامة وعقلاء الحكومة ويجب ان تكون العاصمة هي البادئة بذلك صحافتها وحكومتها العليا فأما الصحافة فيجب عليها أن تترك الخوض في مسألة الجنسية النسبية واللغوية ،

الى الجنسية السياسية المعبر عنها بالعثمانية ، فتجعل هذه هجيرها بكرة وعشيا ، وتجعل تلك نسيا منسيا ، ولا تذكر لفظ الترك والعرب ، ولا اسم غيرهما من العناصر الاخر ، بكلمة تشعر بالترجيح أو التفضيل ، أو عصبية العنصر والقبيل ، ولعمري ان أولئك الرجال الذين تبدلوا كلمة العثمانية « بكلمة تركية » فصاروا يقولون ويكتبون « لغة عثمانية وولايات عثمانية » ، لهم اعلى في السياسة رأيا ، وأصح في علم الاجتماع حكما ، من هؤلاء الذين يقرعون الاسماع كل يوم بكلمة « تركلر تركلر » (١) متوهمين انه يمكن تحويل العناصر العثمانية الى التركية ، أو انهم يمكن ان يتحدوا بشعوب التتار الروسية وتركستان الصينية ، ومن الذين يريدون ازالة الالفاظ العربية ، من هذه اللغة الرسمية ، قال كامل بك زعيم النهضة الحديثة : اننا اخترنا أحاسن الكلم من أرقى اللغات الشرقية ، وهي العربية والفارسية والتركية ، فألفنا منها لغتنا العثمانية ، فهذه اللغة هي لغة العثمانيين المشتركة ، ليس للترك حق الاختصاص بها والأثرة ، كما ان العربية هي اللغة الاسلامية المشتركة بين العرب وبين الترك والفرس وأهل الهند والصين والملاو وغيرهم من المسلمين ، فنحن العثمانيين لا نسمح لاحد ان يعبث بلغتنا العثمانية ، ومن شاء ان يتعلم لغة تركستان فليتعلمها وهي غير لغتنا الرسمية ، والأمة كلها تطالب مبعوثيها بصيانتها وحفظها لسهولة نشرها وكون أكثر كتبنا ودفاترنا بها .

ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام اتقاء عزو ذنب بعض الافراد الى الشعب أو العنصر على الاطلاق فاذا رأينا بعض الترك أو العرب أو الارمن - مثلا - يعيب عنصرا آخر أو يدعو الى استقلال قومه فعلى الجرائد أن تنسب الذنب اليه لا الى جميع قومه . وعلى هذه الطريقة جرينا في مقالنا هذا فقد برأنا العنصر التركي الاسلامي من بغض العرب والتحامل عليهم وحصرنا ذلك في فئة من الترك المشتركين في الغالب لا الخلص

كذلك يجب على الجرائد ان تحول قراءها بالمقالات الداعية الى اتحاد العناصر العثمانية مع بيان فوائدها للجميع . واذا اهتدت جرائد الآستانة الى هذا الصراط

(١) كتب بعضهم في هذه الايام مقالة في جريدة صباح بهذا العنوان يحرك بها النعرة الجنسية

المستقم تبعتها الجرائد السورية والمصرية وكان تأثير ذلك عظيما واحكم على العكس بحكم الطرد ، وينبغي لاصحاب الجرائد التركية ان يُعنوا بالاطلاع على الجرائد العربية المنتشرة ويترجموا المهم من مقالاتها في سياسة الدولة العلية وادارتها ويعلقون عليها مايرون فيه المصلحة للتأليف ، وكذلك المهم من أخبارها فمن العار على جرائد العاصمة ان لايذكر فيها شيء عن الولايات العربية ، الامايكون من صُبابة الشركات البرقية ، أو الاخبار الرسمية ، وكل من هذا وذاك رموز لانعرف حقائق الاحوال ، ولاتبنى على مثلها الاحكام ، ولو قامت هذه الجرائد بوظيفتها حق القيام لجعلت لها مراسلين في تلك الولايات فوق تتبع الجرائد العربية وترجمة أخبارها

وأما مايجب على الحكومة فأهونه وأقربه أن تنصف الواقفين على أبوابها من العرب طلاب الوظائف – وقليل ماهم – فتساوي بينهم و بين اخوانهم الكثيرين من الترك وترقي بعضهم من رتبة القائمقام الى رتبة المتصرف ومن هذه الى رتبة الولاية ، وأن تزيد أعضاءهم في مجلس الاعيان . وأهمه وأعظمه ينحصر في امور :

(أحدها) قطع عروق العصبية الجنسية من مكاتب الحكومة واستئصال جذورها فانني اسمع كل يوم من أخبار هذه المكاتب مايشعر بأن فيها كياويين معنويين يحللون عناصر الوحدة العثمانية ويفرقون بعضها من بعض حتى بلغ ببعض المعلمين الجهل أو سوء القصد أن قال بعضهم في الدرس ان العرب كانوا يجهلون علم الفلك وان الترك هم الذين علموهم ذلك وهم الذين بنوا لهم المراصد! وقال بعضهم إنهم كانوا يجهلون فن الإحصاء حتى علمهم الترك إياه في زمن المأمون! وقال بعضهم انهم كانوا يجهلون الفلسفة وجل ما كتب بالعربية في الفلسفة فهو من الترك!! فصار بعض الطلاب من العرب يترحمون على فيلسوفهم المعري ويتناشدون لاميته المشهورة . بل سمعت عن معلمي بعض المكاتب ماهو شر من ذلك وأضر ، وأدهى وأمر ، فيجب على نظارة المعارف أن تختار لمكاتبها من المفتشين المنصفين المهذبين من يكشف لها الحقيقة في ذلك وان تعنى أشد العناية بتطهير معاهد العلم من هذه المفسدة التي لاأرى شيئا أضر على الدولة منها

انه يسهل تقرير كل حقيقة فيها فضيلة لفرد أو أفراد من عنصر من العناصر

مع تحامي اهانة غيره لا سيما اذا كانت تلك العناصر قد وحدت بينها جنسية أخرى أوسع من جنسية النسب واللغة كما جمع الاسلام العرب والفرس والترك وغيرهم فجعلهم امة واحدة . فهل جهل أولئك المعلمون المفرقون المحللون انهم يجنون بتلك النزغات على دولتهم المؤلفة من عدة اجناس اكبرها وأعظمها عنصرا العرب والترك فاذا هما انحلا تنحل والعياذ بالله ، ويجنون أيضا على ملتهم الاسلامية ، أم هم يرمون الى ذلك ؟ ؟ وكذلك يجب أن تتيقظ سائر النظارات لمثل ذلك فقلما يخلو شيء منها من افراد متعصبين الا باب المشيخة الاسلامية

(ثانيها) العناية بتعليم اللغة العربية في مكاتبها وفي المدارس الدينية في العاصمة وغيرها فان هذا يرضي العرب عامة ويسر جميع المسلمين ولا يضر الترك ولا يضعف جنسيتهم كما انه لم يضر الفرس ولم يضعف جنسيتهم وهم اكثر عناية من الترك بهذه اللغة من حيث انها لغة الدين وليسوا بمحتاجين اليها لأجل الادارة والسياسة اذ ليس فى مملكتهم ولايات عربية .

ألا ان من المحال في هذا العصر تحويل عنصر الى عنصر أصغر منه أو اكبر فالحر يصر على جنسيته النسبية او اللغوية في هذه الامة العثمانية يجب أن يكون امينا مطمئنا عليها والطامع من الترك في تحويل أضعف عنصر من العثمانيين الى العنصر التركي وادغامه فيه انما هو طامع في المحال ، والمتوسل الى مطمعه بتعظيم قومه وتحقير غيرهم ، والتعصب لهم على سواهم ، انما يطلب الشيء من ضده أو من نقيضه ، ولولا ان كلا من امتنا ودولتنا لا يقوى على مثل هذه التجارب الاجتماعية لما كنت شديد الخوف من هذه النزعة الجنسية فيها فان من يكون له ولد عزيز هو محل رجائه في ارث مجده وماله لا يسمح باختياره أن تجرب في جسمه الادوية التي تجهل عاقبتها ، بَلْهَ الادوية التي يترجح خطرها ، وسوف يعلم المجربون أنهم هم الخاسرون ، اذا ظلوا في طريقهم يهرعون ، وأخشى أن لا يظهر خطأهم الاحيث يعز تلافيه وتداركه

(ثالثها) العناية بنشر العلوم والمعارف واسباب العمران في الولايات العربية كغيرها من الولايات من غير أدني فرق يمكن أن يفسر بالتعصب الجنسي وأرى

أن تكثر الدولة من المدارس الصناعية والزراعية وتكتفي من المدارس التي يتخرج فيها عمال الحكومة بقدر الحاجة

(رابعها) الاخلاص التام في تنفيذ القانون الاساسي . والقيام بهذا يجمع كل مايراد من اعطاء كل عنصر حقه فان لم تفعل الحكومة هذا فانها تهيج عصبية جميع العناصر عليها حتي العرب الذين هم أشد ارتباطا بالترك واخلاصا لهم ممن سواهم وذلك هو البلاء المبين

قد استخف الدستور اهل البلاد العربية فقاموا يطرون الترك ويحثون الناس على تعظيم شأنهم والاتحاد بهم وتهافتوا على جمعية الاتحاد والترقي في كل مكان حتى ان اهل لبنان أخذوا يتحدثون بالسعي الى الغاء امتيازهم بل كتب أدباؤهم كثيرا من المقالات في وجوب اتحادهم بسائر العثمانيين ، ومشاركتهم في مجلس المبعوثين ، على ان بعض الاتحاديين قد شوهوا بعض تلك الاحتفالات بعيد الدستور اذ نفثوا فيها بشيء من سموم التعصب كذلك الضابط الذي خطب في حلب خطبة حقر بها العرب تحقيرا ، وشهر بهم تشهيرا ، ولكن اكثر الناس لم يفهمها حق الفهم ، ولو ألقاها في بيروت او الشام لكان مالا خير فيه

ظهرت أريحية العرب بسورية ومصر وغيرتهم في مقاطعة النمسا في تجارتها وفي الاحتفالات بالدستور وقد ألفنا بمصر لجنة لاجل جمع الاعانات الكبيرة للاسطول العثماني وضعت لذلك قانونا ليكون جمع المال عاما ولكن تلك النبآت التعصبية التي سمعت من دار السلطنة أضعفت الهمم . فاذا طال العهد على هذا التنافر فان خسارته المالية والمعنوية تكون اول بوادر شؤمه ونعوذ بالله من أواخره

ويسرني أن أبشر العرب بانني رأيت من كبراء العاصمة ارتياحا الى حسن التفاهم وازالة اسباب التنافر ولا سيما من الصدر الاعظم حسين حلمي باشا والعلماء الاعلام فأنصح لهم أن يكونوا عونا لاخوانهم على هذا الزمان كما نصحت للآخرين « إنْ أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

اسباب سقوط الدولة الاموية (*

سادتي

وعدتكم يوم الخطبة الغراء التي خطبها فينا الاستاذ الخضري في ترجمة أبي مسلم الخراساني أن أقول كلمة ألمُّ فيها بشيء من الاسباب التي دعت الى ضعف الدولة الاموية وتيسر قيام الدعوة العباسية وانتشارها في المملكة الاموية بواسطة أبي مسلم وأضرابه من رجال الدعوة ثم نجاحهم في الامر وقلبهم الدولة الاموية وثلّ عرشها وقيام الدولة العباسية مقامها

ولما هممت بتتبع التاريخ من اجل هذه الغاية عذرت الاستاذ الخضري لاكتفائه بايراد سيرة أبي مسلم وما كان من انتشار الدعوة العباسية لانه لو أراد أن يطرق هذا البحث ويتبسط في مناحيه لاحتاج الى الوقوف أمامكم ساعات وانا بعده كذلك ومع هذا فلا نكون وفينا هذا البحث حقه من البيان لذا ألتمس من حضراتكم المعذرة فيما سأتلوه عليكم مختصرا في هذا الباب ولو اضعت وقتا ما في تمهيد الكلام ببحث في الخلافة لارتباط هذا البحث بسقوط بني امية وقيام دولة العباسيين

تمهيد

تعلمون ايها السادة أن السلف اختلفوا في : هل الخلافة واجبة شرعا اوعقلا ؟ والذين قالوا انها واجبة عقلا قالوا انها وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم و يفصل بينهم في التنازع والتخاصم الى آخر ماقالوه وتعلمون ان ما وجب بالعقل وجب تحكيم العقل فيه ولما كان تعريف الخلافة

*) خطبة لرفيق بك العظم المؤرخ المشهور القاها على اعضاء نادي دار العلوم بمصر

انها حمل الكافة على الشرع وانما تحمل الكافة على الشرع بمن تتوفر فيه شروط اللياقة لتولي امور الامة أيا كان من المسلمين فقد ترك الشارع صلى الله عليه وسلم أمر الخلافة لرأي الامة تحكم فيه ضمائرها وعقولها دون أن ينص على شخص بعينه

ومما يدلنا على أنه ليس هناك نص ديني من قِبَل الشارع على تخصيص الخلافة بعلي او العباس وآلهما أو غيرهم من المسلمين ان أبا بكر لما احتج على الانصار يوم السقيفة لم يحتج عليهم بخبر عن الرسول بل بالكفاءة والاستحقاق ورضا الامة فيمن تختاره اميرا عليها حيث قال :

« يا معشر الانصار : انكم لا تذكرون فضلا الا وانتم له اهل وان العرب لا تعرف هذا الامر إلا لقريش . هم اوسط العرب دارا ونسبا . قدرضيت لكم احد هذين الرجلين » واخذ بيدي عمر بن الخطاب وابي عبيدة بن الجراح . فكثر اللغط بين الانصار حتى بادر عمر بن الخطاب وقال : ابسط يدك ابايعك . فبسط يده فسبقه بشير بن سعد من الانصار فبايعه و بايعه سائر الناس

ولو كان هناك نص على علي لمـا فات ابا بكر وسائر الناس ولما قال الانصار منا امير ومنكم امير وهم اول من نصر رسول الله في حياته فلا يعدلون عما امر به بعد وفاته وعلي نفسه اعترف بصحة خلافة ابي بكر ولم ينازعه عليها باسم الدين اذ خطب مرة فقال :

« لقد امر النبي ابا بكر أن يصلي بالناس و إني شاهد وما أنا بغائب ومابي مرض فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي لديننا »

توفي ابو بكر فولي الخلافة بعهد منه عمر بن الخطاب ثم توفي عمر فصرفتها الشورى الى عثمان وعلي معروف المكانة من الدين والقرابة من رسول الله فلم يقل فريق منهم بصرفها اليه باسم الدين وكل ماقيل وكتب بعد ذلك من المغامز التي غمزت بها الشورى أو غمزت بها ولاية أبي بكر وعمر ليست بصحيحة وما جاء من اخبار الخلاف على الخلافة بين الصحابة لا يحمل على غير ما يقع عادة من النزاع بين المتنافسين على الامارة في كل امة وجيل لكن صوره الامامية بعد

بالصورة التي توافق مذاهبهم السياسية والدينية حتى تمكنوا من صبغه بصبغة الدين والقول بوجوب الامامة شرعا لعلي وآله وسوقها بعد ذلك في بنيه أو بني عمه العباس باسم الدين

علمتم أيها السادة من هذه المقدمة ان الخلافة صارت الى ابي بكر ثم الى عمر ثم الى عثمان رضي الله عنهم ولم يقم بين العرب من أجلها أدنى نزاع باسم الدين بل كان العقل هو الحكم والمصلحة رائد جمهور العقلاء من الامة بقطع النظر عما اذا كان علي (رض)حقيقا بالخلافة فانه حقيق بها بلا شك ولا ريب وانما كانت هناك ظروف وأحوال اذا وصل الينا خبر بعضها فانا نجهل بعضها الآخر بتاتا وقد راعى جمهور الصحابة تلك الظروف والاحوال مماشاة لسنة الطبيعة والعقل فقدموا عليه الثلاثة الكرام ولو كان للدين حكم باستخلاف علي لما عدلوا عنه الى العقل ومكانتهم من الدين سامية شهد لهم بها القرآن الكريم والنبي العظيم

إذًا فمن أين دخلت السياسة في الدين فجعلت الخلافة حقا شرعيا من حقوق آل البيت ؟ ومتى ظهر النزاع عليها باسم الدين وظهرت مقالة الامامية التي تلتها بدع كانت آفة المجتمع الاسلامي ومنها مسألة المهدوية التي عانى ويعاني المسلمون مضضها الى اليوم ؟ .. الجواب عن هذا يعرفه كل مطلع على التاريخ وكلكم مطلع عليه : دخلت السياسة في الدين وظهرت مقالة الامامية لما دخل الاعاجم في الاسلام وظهر هـذا الدين وأهله على الامم وذلك بعد مضي صدر من خلافة عثمان

وأول من قام بهذه الدعوة عبد الله بن سبأ واخوانه من الموالي وأبناء الملل الاخرى الذين دخلوا في الاسلام، وابن سبأ هذا هو من الذين أحرقهم عليّ (رض) لغلوهم فيه

تلك البذرة الصغيرة التي بذرها ابن سبأ واخوانه من جمعية الدعوة العلوية انبتت ذلك النبات العظيم الذي قوي فيما بعد على ماحوله فأكل دولة الامويين في المشرق أكلا بعد أن دخلها الضعف من جهات أخرى وهذا موضوع البحث وهاأناذا متكلم فيه

الموضوع

تولى عثمان (رض) الخلافة بانتخاب أهل الشورى وعمل فيها ست سنين لاينقم المسلمون منه شيئا وانما اضطرب أمره في السنين الست التالية من خلافته حيث اتسعت دائرة الفتح وكثر الموالي اللاجئون الى المدينة من الاطراف ودخل في الاسلام أو تحت سلطته أقوام لم يكن لهم ماللعرب يومئذ من العصبية والقوة والاخلاق الحربية العالية فخضعوا لجيوش العرب طوعا أو كرها وكان استغراقهم في الحضارة جعل فارقا عظيما بينهم وبين العرب الذين كانوا على جانب عظيم من سلامة الفطرة والاخلاق الثابتة المستقيمة فكان ذلك من الوسائل التي جعلت أولئك الاقوام يأتون العرب من جهة العقائد تارة والسياسة أخرى فألقوا بينهم أول بذرة من بذار التفريق في الدين والسياسة بواسطة الدعاة منهم كعبدالله بن سبأ المذكور وحمران بن سودان والاول لم يترك مصراً من الامصار الكبيرة كالشام ومصر والبصرة والمدينة الادخله لاجل بث الدعوة وزرع هذه البذار الجديدة في النفوس

والارض البكر الصالحة سريعة الإنبات بالضرورة ولاسيما إن العرب مجبون بطبعهم للتحزب ميلا مع العصبيات التي كانت تتنازعهم في عصر الجاهلية فتقبلوا الدعوة الى نصرة علي وانه أحق بالخلافة دينا بشيء من القبول وأخذت تتمكن من نفوس بعضهم هذه المقالة الجديدة حتى أفضت الى انقسامهم الى حزبين ينتصر أحدهما لعلي والآخر لعثمان

قامت الفتنة من ثم على الوجه الذي عرفناه في التاريخ وانتهت بقتل عثمان (رض) وقيام علي ومعاوية يتنازعان امارة المؤمنين وانقسم يومئذ هذان الحزبان الى أحزاب أخرى سياسية ودينية كانت الغلبة فيها للقسم الذي شايع معاوية باسم القوة والعصبية لاباسم الدين والشريعة لان الشريعة نفسها تحتاج في تنفيذها واستمرارها الى القوة كما تعلمون

لما تطاحن العرب من أجل النزاع على الخلافة بتلك الروح الدينية التي بثها بينهم دعاة الفتنة ورأى فريق منهم ان عاقبة هذه الحرب الآكلة ربما أتت على

العرب ودينهم وملكهم من أجل الامارة أجمعوا رأيهم على الخروج عن جماعة المتقاتلين وألفوا لأنفسهم حزبا سياسيا برآسة عبدالله بن وهب الراسبي غايته نسف الخلافة وطلابها من قريش نسفا وان يقام الامام من غير قريش على شرط أن يحكم برأيهم وعلى مايشيرون به أو ينتهجون له من طرائق العدل والا عزل ونصب غيره والافلا لزوم لامام أصلا . ومعناه أن تكون الحكومة جمهورية بالضرورة واليكم ماقاله عن هذا الحزب صاحب الملل والنحل قال :

« انهم جوزوا أن تكون الامارة في غير قريش وكل من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على مامثلوا له من العدل واجتناب الجور كان اماما ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه وإن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله وهم أشد الناس قولا بالقياس وجوزوا أن لايكون في العالم إمام أصلا وان احتيج اليه فيجوز أن يكون عبداً أوحراً أو نبطيا أو قرشيا »

هذا رأيهم الذي أورده صاحب الملل والنحل ومنه تعلمون أن مبدأهم جمهوري بحت لاسيما في التشريع يظهر لنا ذلك كل الظهور من قوله : من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على مامثلوا له أي على ماسنوا وشرعوا له بالضرورة. وقوله: وكانوا أشد الناس قولا بالقياس . وكلكم يعلم ماهو القياس بالنسبة لمن يريد التوسع في الاحكام بمايدور مع الزمان والحاجة . ولذا فقد جاز لنا أن نسمي هذا الحزب أول حزب جمهوري في مباديه ومراميه ظهر في الاسلام . ولولم يعجل باستعمال السلاح لتأييد مباديه وحمل الامة عليها بالقوة وانتظر ريثما تسأم جماعة معاوية الحرب القائمة من أجل الخلافة كما سئمتها جماعة علي لكانت مباديه هي السائدة الى ماشاء الله في الامة الاسلامية ولانقطع النزاع على الخلافة منذ ذلك الحين

ولكن من الاسف أن ذلك الحزب لما عجل باستعمال القوة بعد مؤتمرهم الذي عقدوه في حروراء خارج الكوفة ودعوا من أجله بالحرورية اضطر أمير المؤمنين علي لقتالهم وقاتلهم في النهروان وكانوا نحو عشرة آلاف فقتلهم جميعا الا عشرة منهم أفلتوا من القتل وتفرقوا في البلاد وأخذوا يبثون دعوتهم سراً فكان من ذلك ماذا؟

كان من ذلك ان انقلبوا الى جمعية سرية أقرت على الفتك بعلي ومعاوية وعمرو بن العاص قائلة فلنرح البلاد منهم كما ذكر ذلك المؤرخون لتبقى امارة المؤمنين شاغرة للأمة من المتنازعين عليها من قريش وتختار الامة اميرا عليها من شاءت من عامة المسلمين أو خاصتهم كما هو من مقتضى مباديهم التي مر ذكرها

انتدب لهذا الغرض ثلاثة منهم هم عبد الرحمن بن ملجم المرادي للفتك بعلي، وعمرو بن بكر التميمي لعمرو بن العاص، والبرك بن عبدالله الصريمي لمعاوية. واتعدوا لسبع عشرة من رمضان فقتل ابن ملجم عليا ولم يتمكن الاثنان الآخران من معاوية وعمرو كما هو معروف في التاريخ

وكانت هذه الجمعية السرية ثانية جمعية تألفت في الاسلام بعد الجمعية السبئية التي تأسست في خلافة عثمان للدعوة الى علي كما تقدم في صدر البحث ومباديهما متباينة بل متضادة كما تعلمون

بعد ذلك استصفى معاوية الخلافة لنفسه وأدالها عن آل علي باستنزال الحسن (رض) عنها وان يترك منازعته عليها فتم له الامر بهذا وجمع كلمة العرب عليه واستمالهم اليه فكانت له منهم عصبية كبيرة احتمى عنها بها وضرب ضعيفها بقويها وقبض على زمام الخلافة بيد من حديد وحماها بلسان من سكر واستمال بدهائه بني هاشم والمهاجرين وابناء المهاجرين وجلة الصحابة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب حتي ملك السنتهم وقلوبهم فانفرط عقد الناس الا عن بني أمية واجتمعت كلمتهم على تأييد هـذه الدولة ايما تأييد

لكن هل زالت تلك الروح التي بثها دعاة الامامية من الوجود ؟ وهل امكن لمعاوية ومن خلفه أن يقتلعوا ذلك الغرس الذي غرسه خصومهم بالامس ؟

كلا ان تلك الروح باقية وذلك الغرس كان ينمو ليثمر ويأكل منه غارسوه من غير العرب ولو بعد قرن وما القرن من أعمال الدول والامم الا كيوم مما تعدون

اغتصب الامويون الخلافة اغتصابا والغاصب خائف كما يقولون وهم اذا تدرعوا بالقوة والعصبية فخصومهم من بني هاشم متدرعون بالدين والمكانة الادبية التي لهم بين المسلمين والعواطف الدينية اذا تكونت ونمت واندفعت بأهلها تدك العروش

وتزلزل قوات الدول فاضطر الامويون بعد معاوية الى مطاردة بني هاشم والتنكر لهم وفعل يزيد فعلته الشنعاء بأبناء فاطمة فكان ذلك داعيا الى حذر بني هاشم وسكونهم الى حين وتستر شيعتهم وعملهم في الخفاء الى أن قامت دولة بني مروان وآلت الخلافة الى عبد الملك فتولاها والفتنة مستعرة في الاطراف: فالخوارج يريدون محو الخلافة، وشيعة المختار بن أبي عبيد الثقفي يطالبون بدم الحسين، وعبدالله بن الزبير ينازع الامويين على الخلافة، وعمرو بن سعيد الاشدق يريدها لنفسه . فماذا يصنع خليفة يستقبل مثل هذه العواطف ؟ و بماذا تعيش دولة قامت في بحر من الدم؟

لا جرم انها تلجأ الى أقصى ماعندها من القوة، وتستعمل منتهى القسوة، والقسوة تملأ الصدور حفيظة وتلجيء الخصم إلى استعمال أساليب الختل والتحيُّل على أخذ الخصم على غِرَّة منه

ذلك مادعا عبد الملك الى استعمال منتهى القسوة في اخماد هذه الفتن وألجأ الخلفاء الا قليلا منهم الى انتهاج منهجه في معاملة الخارجين عليهم واستعمال مثل الحجاج بن يوسف في الامصار النائية و إشتداد هؤلاء العمال على الناس حتى كان ذلك من جملة الاسباب التي أوغرت على الامويين الصدور ومهدت للدعوة الهاشمية سبيل الانتشار في الخفاء وعجلت على دولة بني أمية بالدمار

بلغ من قسوة عبد الملك و إظهاره الشدة في تهديد من يناوئه ان خطب بعد قتل الزبير عام خمس وسبعين خطبة قال فيها :

« أما بعد فلست الخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا الخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد) الا و إن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون و يطعمون من هذه الاموال . الا واني لا اداوي ادواء هذه الامة الا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم . تكلفوننا أعمال المهاجرين ولا تعملون مثل أعمالهم فلن تزدادوا الا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا و بينكم ! هذا عمرو بن سعيد قرابته قرابته وموضعه موضعه قال برأسه هكذا فقلنا بأسيافنا هكذا، ألا و إنا نحمل منكم كل شيء الا وثوبا على أمير أو نصب راية . الا وان الجامعة (أي القيد) التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد

عندي والله لايفعل أحد فعله الاجعلتها في عنقه، والله لايأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه!!! » ثم نزل

ثم ان السيوطي أوهن سندهذه الخطبة بقوله : في اسنادها الكريمي وهو متهم بالكذب ، لكن من درس أخلاق عبدالملك بن مروان لايستبعد عليه النطق بهذه الخطبة اللهم الا الفقرة الاخيرة فربما كانت مدسوسة عليه ومن أجلها شكك السيوطي في صحة الخطبة والا فان قساوة الطبع التي عرف بها عبد الملك لا يحتاج اثباتها الى كثير امعان فان تطبعه بالقساوة اكسبه خلق الثبات و الجلد حتى ما يعبأ بالمصائب اذا توالت عليه

ففي رواية لابن عساكر عن ابراهيم بن عدي قال : رأيت عبد الملك بن مروان وقد أتته امور اربعة في ليلة فما تنكر ولا تغير : قتل عبيدالله بن زياد ، وقتل حبيش بن دلجة بالحجاز ، وانتقاض ما كان بينه و بين ملك الروم ، وخروج عمرو بن سعيد الى دمشق ، يعني مشاقا

ولكي ينهج ابنه الوليد في الشدة منهجه ولا تأخذه هوادة في امر الملك او الخلافة اوصاه قبل وفاته بوصية قال فيها :

« ياوليد اتق الله فيمن أخلفك فيه ـ الى أن قال ـ وانظر الحجاج فاكرمه فانه هو الذي وطأ لكم المنابر وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناوأك فلا تسمعنّ فيه قول احد وانت اليه احوج منه اليك ، وادع الناس اذا مت الى البيعة فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا ! »

على أن الوليد مع استعماله منتهى اليقظة في ولايته لم يسلك في الشدة مسلك ابيه بل عدل عنها الى الفتح والاحسان الى الناس وشغل المسلمين بالفتوح والعمران فشيد المصانع والمستشفيات والمساجد الكبيرة كمسجد دمشق والمسجد الاقصى وكتب الى البلاد باصلاح الطرق وجعل لكل اعمى قائدا ولكل زمن خادما وأقام الفنادق فيما بين البلدان تسهيلا على ابناء السبيل وامر بحفر الآبار في الحجاز الى غير ذلك من الاعمال النافعة

و بالجملة فقد كان عمرانيا محبا لرقي البلاد حتى كان الناس على عهده لايتكلمون بغير العمران ووجه همه الى انتقاء العمال فولى خالد بن عبد الله القسري مكة وعمر بن عبد العزيز المدينة وموسى بن نصير بلاد المغرب ففتح الاندلس كما هو معروف وكثر الفتح في زمنه ففتح قتيبة بن مسلم ما وراء النهر الى بخارى وسمرقند أي التركستان ، وتجاوزها إلى بلاد التبت ففتح عاصمتها كاشغر ، واوغل مسلمة بن عبدالملك من جهة ارمينيا في جبال القفقاس

وهكذا انتهت مدة خلافة الوليد على احسن حال رآها الامويون اذ استفحل ملكهم وعلا شأنهم وشأن دولتهم واحبهم العرب حتى اذا ولي الخلافة سليمان بن عبد الملك اراد قتيبة بن مسلم ان يخلع طاعته لاسباب لا محل لذكرها فلم يوافقه على ذلك جند خراسان ووقع بينه و بينهم خصام افضى الى قتله فخسرت الدولة فاتحا من أكبر الفاتحين في الاسلام وسار سليمان في الناس سيرة حسنة أيضا لم تجعل للناقمين من دولته سبيلا اليها وختم أعماله بأحسن عمل له وهو عهده بالخلافة الى عمر بن عبد العزيز وكلكم يعرف من هو عمر بن عبد العزيز

الا ان سليمان غرس بيده غرس الدولة العباسية وقد سبقني الاستاذ الخضري فذكر لكم في خطبته الماضية كيفية تسميم أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذي كان الشيعة يدعون اليه وعهده بالامر بعده إلى محمد بن علي بن عبدالله بن عباس فلا لزوم للاعادة هنا

كان الامويون شديدي الحذر من آل علي كما ذكرنا وكان هؤلاء بعد نكبتهم في خلافة يزيد قليلي الجرأة على الظهور لشدة العمال عليهم ومراقبتهم لحركاتهم وسكناتهم ولان الخلفاء من بني امية كانوا مع شدة حذرهم منهم يراعون مكانتهم ويحسنون اليهم فلم ينزع أحد منهم الى الخروج عليهم لضعفهم الا زيد بن علي فقد خرج في خلافة هشام فقتل في الكوفة وقُتل ابنه يحيى في خراسان أما تسميم أبي هاشم فقد كان بامر سليمان بن عبد الملك لانه خاف جانبه لما رأى فيه من النجابة والذكاء

وربما كان هناك سبب آخر لضعف آل علي من بني فاطمة وهو أن الذين بقوا منهم احياء بعد نكبتهم في كربلاء كانوا اطفالا لايصلحون لقيادة الناس فالتف الشيعة حول محمد بن علي المعروف بابن الحنفية من غير ولد فاطمة وهكذا ساقوا

الامامة في بنيه من بعده كما ساقها غيرهم الى بني فاطمة ايضا وانتقلت من ثَمَّ الى أبي هاشم الى بني العباس .

لاجرم أن سليمان بن عبد الملك جنى على دولته بقتل أبي هاشم لان آل علي كانوا لشدة ما عانوا من المراقبة والاضطهاد شديدي الحذر بطيئي الخطى في الوثوب على الخلافة الاموية والظهور لمنازعة الامويين عليها فتلقى العهد بها آل العباس وهم بعيدون عن سوء الظن والمراقبة لم يعانوا مشاق الدعوة ولم يذوقوا طعم الاضطهاد فيخافوا الوقوع فيه . ولذا مالبث ان عهد الى محمد بن علي بالامر حتى نهضوا باعباء الدعوة بجرأة عظيمة وكان لابراهيم بعد موت اخيه محمد ما كان مع أبي مسلم بتفويض امر الزعامة اليه وقيام هذا ببث الدعوة احسن قيام حتى استفحل امرها وظهرت على خصومها

أحس الامويون بهذا الخطر السريع فبادروا ابراهيم الامام بالقتل فنهض ابو العباس السفاح بعد قتل اخيه ابراهيم وعاجل الامويين بالوثوب عليهم قبل أن يدب الفشل في اهله وشيعته منتهزا فرصة وقوع الشقاق بين الاخوة وابناء الاعمام من آل مروان وتلظي المملكة الاموية بنار الفتن وظفر بما أراد وقضى على دولة الامويين في المشرق فذهبت كأن لم تكن بالامس

على ان ظفر العباسيين على هذا الوجه وبهذه السرعة له بواعث واسباب اخرى كاختلال نظام الدولة وغيره أرى أن ألمّ بها على قدر ما يمكنني من الاختصار

تعلمون أن الدولة تموت برجل وتحيا بآخر وان الرجال في الدول قليل والدولة الاموية لما فقدت رجالها فقدت جانبا عظيما من قوتها وأعني بأولئك الرجال الرجال المخلصين الذين يخدمون الدولة بمنتهى الصداقة بقطع النظر عما ينسب الى افراد منهم من القسوة فيتهمونهم من اجل ذلك بالظلم اذ الرجال يصطبغون بصبغة الدولة ويتشكلون بشكلها والدولة الاموية لما كانت دولة مطلقة لزم أن يسير عمالها على سنتها

من رجال الدولة الاموية المخلصين : موسى بن نصير ، والحجاج بن يوسف وخالد بن عبدالله القسري ، ويزيد بن المهلب ، وقتيبة بن مسلم واضرابهم ، ومن

خطأ الخلفاء الامويين انهم لم ينصفوا امثال هؤلاء الرجال فاحرجوا من احرجوه منهم حتى اخرجوه فقتلوه كخالد بن عبدالله وقتيبة بن مسلم ويزيد بن المهلب الذين ذهبوا ضحايا سوء الظن او سوء التفاهم ، وموسى بن نصير الذي زج به في السجن في نظير فتحه الاندلس ومات اقبح ميتة فقدت الدولة بفقد هؤلاء الرجال وامثالهم جانبا لا يقدر من قوتها واخذت تنحط من ثم هيبتها أما الحجاج فموته في الحقيقة مبدأ افول نجم الدولة لانه كان يدها التي بها تضرب وعينها التي بها تبصر فانه بعد ان اخمد لهم فتنة ابن الزبير كان واليا على الكوفة واليه ولاية خراسان وكلا المكانين عش الفتنة ومنبع الدعوة الامامية ومع هذا قد ضبط البلاد وارهب ببطشه المنازعين للدولة والنازعين الى الشغب . وأحسن في انتقاء العمال والقواد فامتد ملك الامويين على عهده الى كابل من بلاد الافغان شرقا والتركستان الصينية شمالا ولو وجد بعد من يخلص من الولاة للدولة اخلاصه ويكون في مثل حزمه وعزمه لطال عمر الدولة الاموية بلا ريب

ولعل نوابغ الرجال يكثرون في مبدأ نشوء الدولة وإن كانت هذه النظرية تحتاج الى تمحيص

ومما ساعد أيضا على اختلال نظام الدولة الاموية تباعد أطراف المملكة بما صار اليهم من الفتح الى عهد هشام بن عبدالملك اذ اتسعت دائرة ملكهم الى مالم تبلغه قبلهم غير دولة الرومان

فما بين النهرين المعروف بالجزيرة وايران وقسم من الافغان والتركستان والتبت والقوقاس وارمينيا وشبه جزيرة العرب وسورية ومصر والمغرب والاندلس كل هذه الممالك دخلت في حوزتهم وأصبحت خاضعة لسلطانهم . وضبط مثل هذا الملك المترامي الاطراف مع صعوبة المسالك والمواصلات لذلك العهد متعذر جدا ولا سيما على أمة حديثة عهد في سياسة الامم . ولذا قد كانت تكون الفتنة في طرف من أطراف المملكة بين الجنود والامراء المتنازعين على الولاية وتنتهي بقتل الوالي وقيام غيره وربما انتهت بغلبة المشاغب أو النازع وضم البلاد الى حوزته واستقلاله

بالولاية عليها دونه وفصلها عن جسم الدولة والخليفة لا يعلم ذلك أولا تصل قدرته الى اخماد نار الفتنة في تلك البلاد النائية

مثاله ماوقع في المغرب في خلافة الوليد بن يزيد سنة سبع وعشرين ومئة اذ تنازع عبد الرحمن بن حبيب من ولد عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقية مع حنظلة بن صفوان والي إفريقية فكانت الغلبة للاول واستأثر بالسلطة على البلاد و بقيت إفريقية مستقلة عن الخلافة الاموية حتى قيام الدولة العباسية

ومثل هذا وقع في الاندلس وفي بعض الاطراف السحيقة ولا يخفى مافي هذا من الوهن والخطر على المملكة

ثم ان من الامور الثابتة في الاجتماع ان الدول الحربية الفاتحة لاتزال في أفق مجدها مادامت على الخشونة وما دام الراعي والرعية مترفعين عن الانغماس في الترف والاستغراق في ملاذ الحضارة . قد عرفنا هذا في كثير من الدول البائدة كدولة اليونان وخلفاء دارا والاسكندر (أي البطالسة)والرومان حتى لقد قال مونتسكيو في تاريخه أسباب صعود الرومان وهبوطهم : «ان دخول الرومانيين إلى الشام كان مبدأ ضعفهم بسبب ما كان متسلطا على أهلها وملوكها من الرخاوة والترف »

والدولة الامويه انما هلكت في نفس تلك البيئه التي هلك بها الرومان من قبل ، و بعد أن حافظت على خشونتها الاولى الى خلافة هشام بدأت في خلافة الوليد بن يزيد المعروف بالتهتك تنحط عن خشونتها التي عرفت بها واخذ الخلفاء من ثم يميلون الى الترف والراحة والاستغراق في الملاذ تبعا لاحوال البيئة التي نشأوا فيها وهذا بالضرورة كان من الاسباب التي عجلت على دولتهم يضاف اليه انقسام العرب في خراسان التي هي منبع الدعوة العلوية والعباسية الى مضرية و يمانية وتنازع رؤسائهم على الولاية في ابان استفحال الدعوة

مثاله ماوقع بين الحارث بن سريج والكرماني و بين هذا وقحطبة و بينهما و بين نصر بن سيار حتى ملت نفوس العرب هذه الحال وسئمت ممارسة الحرب ورأوا أنفسهم تباع ضحايا لقحطان وعدنان وتزهق في سبيل المتنازعين على الخلافة من قريش حتى قال قائلهم :

تولت قريش لذة العيش واتقت ... بنا كل فج من خراسان أغبرا
فليت قريشا اصبحوا ذات ليلة ... يعومون في لج من البحر اخضرا

لاجرم أن الذي بث روح الشقاق بين العرب في خرسان انما هم أهل الدعوة الهاشمية من علويين وعباسيين والذي أنجح قصد أبي مسلم في نشر الدعوة العباسية وقلب الدعوة الاموية تواطؤ سكان البلاد الاصليين على قهر الامويين وفل عصبيتهم العربية وقد عرف ابراهيم الامام منازع الفرس وعلم ان دولته تقوم بغير العرب من الناقمين منهم وان العرب شديدو العصبة للامويين لاصطباغهم بالصبغة العربية الخالصة فكتب فيما كتب الى أبي مسلم أن لايبقي في خراسان ان استطاع فجعل رجال الدعوة يضربون العرب بعضهم ببعض لان قسما كبيرا منهم ممن نقم من الامويين كما تقدم في صدر الكلام قبل الدعوة وصار من القائمين بها العاملين على تشييد دعائمها تعبداً واعتقادا

هكذا أثمر الغرس الديني الذي غرسه قبل ذلك بقرون ابن سبأ واضرابه من الموالي الناقمين من الدولة السائدة واستحال على العرب في المشرق استبقاء السلطة خالصة لهم من دون الامم الاخرى المحكومة منهم وقد جرت سنة الوجود هذا المجرى في كثير من الامم من قبل

قال مونتسكيو : اقتضت الحكمة الالهية أن يكون للممالك حدود طبيعية تمسك بأعنة الملوك عن تجاوز هذه الحدود وتعدي بعضهم على بعض ولما تجاوز هذه الحدود الرومانيون أهلكهم البرث أي قدماء الفرس و بددوا شملهم ولما تجاوزها البرث أنفسهم اضطروا لاول أمرهم للرجوع الى أراضيهم

وأقول إن العرب أصيبوا بما أصيب به الرومان والبرث وطبائع الاجتماع تعذر أولئك الاقوام على مافعلوه مع العرب وحسب العرب أن نشروا بينهم دين الاسلام فلا مؤاخذة ولا ملام ولا سيما أن الاسلام يرمي بطبيعته الى محو الحدود والسياسة الجنسية بين الشعوب كما ترمي الى مثل هذا مبادي جماعات السوسيالست أو الاشتراكيين أو الاجتماعيين لهذا العهد

ورب قائل يقول ان هذا الانقلاب أي انقلاب الدولة الاموية الى عباسية

لم تكن نتيجته كلها كما يريد أولئك الاقوام المغلوبون للعرب إذ دولة الامويين عربية قرشية ودولة العباسيين كذلك

الجواب عن هذا يأتي من وجهين: الوجه الاول ان أمم المشرق لذلك العهد قلما كانت تقدر قيمة الحرية الكاملة لفنائها في وجود زعماء الاجتماع الشرقي أو كما قال مونتسكيو «ان أمم آسيا لم يكن ميلهم الى الحرية كميل أمم أوربا اليها اليوم - أي لعهده - ليحملهم على الخروج من الاسر والاستعباد وانما كان ميلهم الى تغيير الملك ولا صبر لهم على بقائه طويلا»

وسواء صحت هذه النظرية أولم تصح فانه يجوز لنا تطبيقها على الامم التي دخلت تحت حكم العرب لذلك العهد باعتبار ان الاسلام جمع بينهم جميعا فلا فرق عند الفرس وغيرهم أن يكون الخليفة أو الملك عربيا أو غير عربي مادام الملك آئلا الى غير الدولة التي نقموا منها وما دام مصير أكثر السلطة اليهم بعد فل حد العصبية العربية التي كانت قائمة في دولة الامويين متسلطة بقوتها على كل شيء

وقد كان ماأرادوه بقيام الدولة العباسية التي لم يكن لها من العربية الا الاسم وهي مصطبغة بالصبغة الاعجمية مشتبكة مع العناصر الاخرى بالنسب والصهر مشاركة لهم بمصالح الدولة كما تعلمون

هذا الوجه الاول ، أما الوجه الثاني فانتظار النتيجة الطبيعية لمثل هذا الانقلاب ولو في المستقبل البعيد وتلك النتيجة هي أن اصطباغ الدولة أو الامة السائدة بصبغة اهل البلاد يحيلها مع الزمن الى عنصر هذه الصبغة والعكس بالعكس اذ من الشعوب من اصطبغوا بصبغة العرب بعد الفتح فاندمجوا فيهم ومن الشعوب من اصطبغ العرب بصبغتهم فاندمج هؤلاء فيهم وهذا ما وقع لسكان آسيا الوسطى بعد قيام الدولة العباسية ثم سقوطها وقيام غيرها من الحكومات الوطنية على انقاضها وهكذا رأينا دولة الفرس وغيرها من الدول الاسلامية المختلفة جنسا قد عادت الى أصلها وهي قائمة الى الآن وستبقى قائمة عزيزة الجانب منيعة الجناب الى الابد ان شاء الله

وهكذا نرى الخلافة الاسلامية التي سالت من اجلها أو باسمها تلك الدماء الغزيرة صارت الى غير العرب اليوم وفي دولة هي اعز دول الاسلام مكانا واجدرها

بحفظ بيضة الخلافة ولم يمنع الدين أن تكون اليها الخلافة كما لم يمنع أن تكون فيمن يقع عليه اختيار الامة ورضاها في عهد الصحابة الكرام ولو من غير بني هاشم والتاريخ يعيد نفسه

هذا ما أمكنني ايراده من اسباب انحطاط الدولة الاموية ثم انقراضها تلوته عليكم ايها السادة بوجه الاختصار لان الاستقصاء والتتبع وبسط كل الاسباب والنتائج لا تقوم به خطبة لانه تاريخ دولة باكلها

أما ما يقوله بعض المؤرخين من ظلم الدولة الاموية ويعزي اليه دمارها فبالغ فيه وما كان منه صحيحا فهو في نظري ثانوي بالنسبة للاسباب التي ذكرتها وتكاد تكون نتائجها طبيعية وليس من دولة في الارض قائمة بالعدل المحض حتى الدول المقيدة ناهيك بالمطلقة

ومن قال إن دولة الامويين كانت ظالمة وان ظلمها هو الذي جر عليها الدمار فجاهل باحوال الاجتماع او متعصب لدولة اخرى ولو طولب بالدليل على أن الدول التي قامت دولة الامويين على انقاضها كالفرس والروم والقوط وغيرهم كانت اعدل منها لما استطاع اليه سبيلا

والحقيقة ان الخلفاء الامويين كانوا اشداء على خصومهم دون سائر الناس وكانوا في منزلة من العناية بالرعية والاهتمام بالعدل بين الناس فوق منزلة كثير من الحكومات المطلقة وحسبك ان اشدهم قسوة وهو عبد الملك بن مروان استهل وصيته لابنه الوليد حين الاحتضار بقوله : ياوليد اتق الله فيمن اخلفك فيهم ! والشواهد على مثل هذا كثيرة لا يسعها المقام وحسب تلك الدولة فضلا فتوحها العظيمة التي سودت دين العرب ولسانهم على احسن اجزاء المعمور الى اليوم وتلك الايام نداولها بين الناس

وبعد فاني لست في مقام الجرح او التعديل وانما انا باحث في التاريخ اقول ما تبادر الى فهمي وما بلغ اليه علمي من غير أن اقصد التحيز الى فئة دون اخرى او شخص دون آخر وكل ما بسطته لديكم لم ارد به غير الوجهة التاريخية فارجو تمام الصفح عما اذا كان زل لساني بخطأ سمعتموه اذ الانسان محل الخطأ والنسيان والسلام عليكم

المطبوعات الجديدة

كانت كثرة مواد أجزاء المنار في هذا العام تحول دون ذكر المطبوعات التي أهديت اليه ، وان سنة المنار في هذا الشأن عسى لا تتفق مع سنة الصحف الاخرى فالمنار لا يبدي رأيه في المطبوعات الا بعد تلاوتها واذا لم يتسن له ذلك أشار الى موضوعاتها بالجملة

ونحن اتباعا لهذه السنة وجريا على هذا السنن نذكر الكتب المهداة بالاختصار ، والرجاء أننا نوفق لقراءة ما يستحق العناية والاعتبار ، فنكتب عنه في العام القابل للمنار

الكتب

بلاغة الغرب

يكاد يكون هذا الكتاب جديدا في موضوعه فلقد عمد محمد كامل افندي حجاج من موظفي المحكمة المختلطة بمصر الى اختيار قطع ونقرات من أحاسن كلام مشهوري رجال القلم في فرنسا كهوجو (Hugo) ولامارتين (Lamartine) وراسين (Racine) وأضرابهم وترجمها بالعربية ترجمة ممتازة بالاسلوب البليغ مع المحافظة على الاصل جهد الطاقة فجاء ذلك كتابا شعريا في مئتي صفحة مطبوعا طبعا متقنا على ورق جيد وهو يطلب من مؤلفه ومن المكتبات المشهورة في مصر

تاريخ الفنون الجميلة عند قدماء المصريين

هذا الكتاب فريد في بابه ، فريد في طبعه والعناية به ، جميل بصوره ورسومه جمع فيه مؤلفه شكري افندي صادق ناموس نادي الفنون الجميلة المصرية ما وعاه التاريخ لقدماء المصريين من العناية بالنقش والحفر والموسيقى واثبت فيه رسوم كثير من الآثار التي لم تقو عوادي الايام على محوها ، فجدير بعشاق الفنون الجميلة اقتناء هذا الكتاب ، والتوفر على مطالعته . وهو يباع بمكتبة المعارف بالفجالة وثمنه ١٥ قرشا

روح الاجتماع

مؤلفه الدكتور جوستاف لوبون من مشهوري علماء فرنسا ، وقد عني بترجمته بالعربية احمد فتحي باشا زغلول وكيل نظارة الحقانية المشهور بتأليفاته النافعة، وحسن اختياره لترجمة الكتب المفيدة، وهذا الكتاب يعد منها ، ومثل هذا الكتاب جدير بأن يفرد له فصل خاص وهذا ما سنقوم به في احد اجزاء السنة القابلة للمنار

ومارأيت فيما رأيت من المطبوعات العربية كتابا أتقن منه طبعا أوأجود ورقا فكان بذلك طابعه خليل بك صادق صاحب مسامرات الشعب خليقا بالشكر والثناء . ويباع بمكتبة الشعب وادارة المنار وثمنه عشرون قرشا واجرة البريد قرشان

فك التقليد

كتاب في علم الصرف يقع في نيف ومئتي صفحة مطبوع طبعا نظيفا مضبوط كلمه بالشكل وهو تأليف صديقينا جبر أفندي ضومط و بولس أفندي الخولي من أساتذة كلية الامريكان في بيروت المشهورين بخدمتها اللغة العربية

والاول منهما معروف عند قراء المنار بما ذكر له فيه من التأليفات المفيدة وقد تصفحنا صفحات من هذا الكتاب فوجدناه من أحكم كتب هذا الفن وضعا وأجمعها مادة وأسهلها أسلوبا ، ونتمنى أن يتاح لنا قراءته فنكتب فيه كلمة نقد كما رغب الينا مؤلفاه الفاضلان

كتاب الفوائد

هذا الكتاب « المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان » من تأليفات الامام ابن قيم الجوزية وكفى بذلك تعريفا بمكانة الكتاب ودلالة على نفعه وقد طبعه محمد افندي الخانجي الكتبي وهو يطلب منه بشارع الحلوجي بمصر

الاسعافات الطبية

كتاب يقع في ٢٧٠ صفحة بالقطع الصغير، يصف فيه مؤلفه الادوية اللازمة للادواء الطارئة باسلوب سهل ، ورسوم كثيرة تعين على الفهم ، وقد استهله بكلام في وظائف الاعضاء (physiologie) والتشريح وهو من خيرة الكتب في هذا

الموضوع بل انه لانظيرله في بابه ، وهذا النوع من الكتب من الضروريات لكل منزل فنثني على مؤلفه الدكتور محمد بك رشدي رئيس حكماء محافظة مصر أطيب الثناء ، ونحث قراء المنار على اقتنائه

زهرة الصبا

مجموع مقالات وقصائد لعبد العزيز افندي صبري من شبان مصر الاذكياء اكثرها في الوصف و بيان بعض وظائف الاعضاء وما ينتابها من الاعراض ، والالمام بذكر أسباب ذلك ، وصفحات الكتاب ٢٢١ بالقطع الصغير وهو يباع بخمسة قروش في سائر المكتبات

اثر حسن

هو مجموع تأبين ورثاء في الدكتور سليمان الخوري الحمصي المتوفى من بضع سنين مع ترجمة حفيلة له واثبات شهادات رجال الطب والحكومة بحذقه ومكانته من الاطباء لجامعه رزق الله افندي نعمة الله عبود أحد اساتذة المدرسة الارثوذكسية بحمص وهذا العمل من أسطع دلائل البر وأحسن الوسائل لتخليد الذكر

* * *

﴿ الدواوين الشعرية والقصص والرسائل ﴾

خمسة دواوين العرب

عنيت المكتبة الاهلية في بيروت بطبع المأثور من شعر النابغة الذبياني وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائي وعلقمة الفحل وجمعت شعرهم في كتاب واحد سمته خمسة دواوين العرب

وكل واحد من هؤلاء غني بشهرته عن التقريظ ، ولاسيما بعد أن طفحت كتب الادب - منذ اشتغل مؤلفو العرب بوضعها - بذكرهم ، وتخليد مقدرتهم في شعرهم ، ومنهم مثل النابغة الذي فضل شعره كثير من أئمة الادب على كل شعر قيل ، في كل زمن وجيل ، وهو زعيم سوق عكاظ الذي كان يجلس فيه من الشعراء مجلس الرئيس المقدم والعليم المحكم ، ومنهم مثل الفرزدق وهو من فحول الشعراء الاسلاميين الذي قيل فيه « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب »

وديوان النابغة أثبت في طبعه شرح البطليوسي المشهور فزاد ذلك في حسنه وكذلك ديوان عروة قد طبع بشرح ابن السكيت وكلا الشارحين من أئمة الادب ويباع الكتاب بثمانية قروش صحيحة بادارة المنار و بالمكتبة الاهلية في بيروت وأجرة البريد قرش ونصف وثمن كل ديوان على حدة قرشان الا ديوان الفرزدق والنابغة فثمن كل واحد منهما ثلاثة

بدائع الشعر في الحماسة والفخر

كتاب يقع في ٢٥٤ صفحة بالقطع الصغير لجامعه بشير افندي رمضان من مشهوري أدباء بيروت وهو مجموع القصائد التي وقع عليها اختياره مما قيل في الحماسة والفخر من الشعراء الجاهليين والاسلاميين والمحدثين وقد علق عليه الشيخ عبد الرحمن سلام حواشي حلّ بها غريبه وأوضح مبهمه فجاء كتابا جديرا بالاقبال عليه من الادباء دالا على ذوق جامعه في الشعر ، وحسن اختياره للحماسة والفخر ، والمرء يعرف باختياره كما يعرف بنظيمه ونثاره كما قال الشاعر

قد عرفناك باختيارك اذ كا ... ن دليلا على اللبيب اختياره

وثمنه ثمانية قروش صحيحة ويطلب من جميع المكتبات المشهورة

مناجاة الحبيب في الغزل والنسيب

هذا الكتاب هو صنو « بدائع الشعر » في حجمه وعدد صفحاته وكون جامع ذاك هو جامع هذا الا ان هذا خاص بالنسيب والغزل ، واذا كان ذاك ممتازا بالبلاغة والجزالة ، فان هذا ممتاز بالرقة والسلاسة ، ومن دلائل الاقبال عليه انه صار مطبوعا خمس مرات وهو يباع بخمسة قروش بسائر المكتبات

ديوان عبد الرحمن شكري

طبع عبد الرحمن افندي شكري شعره في كتيب بلغت صفحاته الثمانين بالقطع الصغير وهو في اغراض مختلفة أكثرها في الغزل والوصف وقد قال فيه حافظ افندي ابراهيم مقرظا :

شهدت بأن شعرك لايجارى ... وزكيت الشهادة باعترافي !

كشف الغمة في مدح خير الامة

كان المرحوم محمود سامي باشا البارودي أمير الشعراء في هذا العصر غير منازع، وأقدرهم على التفنن في مناحي الشعر غير مدافع، ولقد كان الادباء ومازالوا أسفين لحرمانهم من مأثور منظومه و بدائع آياته ، متمنين ان يمثل ديوانه للطبع لتعم به الفائدة والنفع ، ولقد طبع له في هذا العام قصيدته الميمية المشهورة « راجع (ص ٢٨٩ م ٧) من المنار » وهي تتضمن سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذا عن سيرة ابن هشام، وانها لمن الشعر الذي لايطاول بلاغة وجزالة ، ولايتحدى اسلوبا ومنحى ، وقد عني بتصحيحها وحل غريبها الشيخ ياقوت المرسي « كاتب يد الناظم في سنيه الاخيرة » والقصيدة تطلب من ادارة الجريدة بمصر وصفحاتها ٤٨

مقالات النديم

انتخب « ابن منتصر ! » بضع مقالات من مجلة « الاستاذ » التي كان يكتبها فقيد الصحافة المرحوم عبد الله النديم وطبعها في كتيب صغير والمقالات في أغراض شتى سياسية واجتماعية ولا بد ان يقبل على هذه المقالات عشاق أدب النديم

كلمة حول الشورى

رسالة ضمت بضع مقالات وقصيدتين للدكتور أيوب ثابت كان نشرها في جريدتي « الوطن » و « الثبات » البيروتيتين وقد جمعها منهما صديقه نجيب افندي شوشاني . والدكتور صاحب هذه المقالات معروف بتحري النفع والافاضة فيما يكتب

برنامج جمعية الاعمال الخيرية الاسلامية في بيروت

أصدرت هذه الجمعية النافعة برنامجا أودعته مقاصدها ونظامها وأعمالها وذكر رئيسها وأعضائها والمتبرعين لها ، وقد بلغ مجموع نفقات ماقامت به من الاعمال الخيرية ١٢٥٤٥ قرشا و ٣٥ بارة في تسعة أشهر، وهذا المبلغ انفق على تطبيب المرضى ودفن الموتى واطعام المعدمين وتسفير المنقطعين وغير ذلك من صنائع البر والخير فنشكر لرئيسها صديقنا الشيخ محيي الدين الخياط ولاعضائها الكرام تمحضهم لهذه الخدمة العظيمة جزاهم الله افضل مايجازي به المحسنين

﴿ الجرائد ﴾

(لسان الشرق) — جريدة يومية أصدرها في مدينة حماه الشيخ احمد افندي الصابوني وهي من الجرائد المثليات في سورية ، ولها عناية خاصة بالالتفات الى تاريخ الشرق المجيد والحث على التربية والتعليم ، وقيمة اشتراكها أربعة ريالات في حماه وليرة عثمانية في الخارج فنتمنى لها النجاح والفلاح

(الاصلاح) — جريدة اسبوعية لمنشئها الشيخ كرامة بلدرم في سنغافورة ولم تصدر قبلها جريدة عربية هنالك فيما نعلم ولذلك جعلها الادباء ميدانا تتسابق فيه قرائحهم ولقد سررنا سروراً عظيما بصدور هذه الجريدة العربية في تلك الاصقاع فعسى أن يكثر مشتركوها و ينمي قارئوها

(الحرية) — جريدة أسبوعية أنشأها في بيروت صديقنا داود افندي مجاعص ، وقد دلت أعدادها التي صدرت منها على انها حرية باسمها وما أقل الحريات بين الرصيفات ! ونحن نقول اننا عرفنا داود افندي حراً من صميم الاحرار في الزمن الذي كان كثير من أحرار اليوم يتجسون علينا أو يفرون منا ! فلا غرو اذا أقبل على الكتابة فيها الادباء وتهافت على طلابها القراء وقيمة اشتراكها ثمانية فرنكات في الخارج

حسين وصفي رضا

(جمع النفائس) — لم يتسع هذا الجزء لابداء رأينا في هذه الرسالة وموعدنا « ج ١ م ١٣ »

تصحيح — في (س ٢٣ ص ٧٤٠) كلمة « بالدخول فيهن » وهي زائدة يجب ترميجها

﴿ التفرق والخلاف بين المسلمين في سنغافورة ﴾

الحمد لله ، الى حضرة أخي العلامة السيد محمد رشيد رضا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قد قرأت بمناركم الاغر في العدد الاخير المحرر آخر شعبان رسالة مصطنعة من بتاوى يقول كاتبها في اثنائها انها نبغت في هذه السنين رجال يدعون الى الكتاب الى أن قال وقد غاظ أمرهم هذا أناسا عاشوا بترويج الرابطة والتوجه وآخرين جمدوا على ماقاله بعض مصنفي المتأخرين كابن حجر المكي فاتخذوهم أرباباً من دون الله الى آخره. فيا أيها السيد رشيد اني سأخبرك بالحق والواقع ان ذلك الكلام لاوجود له مطلقا بهذه الديار والناس في جهل لا يعرفون معنى التقليد ولا الاجتهاد وانما ظهر واحد جاهل مبتدع فجعل يتذرع بذكر الكتاب والسنة كذبا وماذلك الا ليطعن على المصلحين. اني لاأعرف أحداً بهذه الديار يعرف الشيخ ابن تيمية وأولئك الذين يدعون بفضل ابن تيمية هم اول من يرمون بقوله عرض الحائط فيما اذا لم يوافق هواهم واني شارع في جمع رسالة اعتمدت فيها على ما يقوله ابن تيمية مما هم مجاهرون باقوال لا يرضى ابن تيمية بها وهاهنا المحك فان أذعنوا واعترفوا وسلموا لاقوال ابن تيمية وحفظه ونقله عرفنا ان ضالتهم المنشودة الحق والافاليك مايقولونه واستمع به. تأمل أيها الاخ أولئك الذين يدعون انهم يذبون عن ابن تيمية ونحن نعترف بجلالة ابن تيمية والذي أعتقده انهم جعلوا ذبهم عن ابن تيمية ذريعة للطعن على من يذب عن معاوية وكل منهما جدير بأن يذب عنه ومعاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه أولى بالذب ان كانوا عبيداً للحق ونحن لانرضى لهم أن يلبسوا على صاحب المنار فان السائل

أسير المسؤل « ؟ » ليس هنا شيء مما يزعمونه الا الطعن على معاوية وجواز لعنه وسبه بل كفره ولم يعرضوا بالشيخ ابن حجر الا لاجل كتابيه تطهير الجنان والصواعق المحرقة. هذا هو الحق الذي ندين الله به ونرفعه الى صاحب المنار لينشره على صفحات المنار اعلاء للحق وان لم يكن ما أقوله فليتفضلوا وليبينوا ماهي المسائل التي اتخذنا فيها ابن حجر رباً سبحانك هذا بهتان عظيم وانه لايجوز التلاعب بالدين والتغرير بالمسلمين ليطعنوا على ابن حجر ولا ابن تيمية ولا غيرهم والكل ليسوا بمعصومين من الخطأ ولو عرف حقيقة مغزى ذلك الكاتب أخونا السيد محمد رشيد لما أجابه مطلقا وأنى له ان يعرف ذلك وها أنا أشرح باسمي أسفل ما أكتبه لمعرفتي ببضاعتي . حسن بن علوي بن شهاب

(المنار) جاءنا من هذا الكاتب رسالة أخرى في هذا الموضوع أيضا أسهب فيها بما لايخرج عن معنى رسالته هذه فاخترنا المختصرة . ومما صرح به في الاخرى انه لاغرض لمن كتبوا الينا ما كتبوا الا الاحتجاج بقول المنار على عدم الاعتماد على كلام ابن حجر لاجل كتابيه اللذين ذكرهما لا لأجل الانتصار للكتاب والسنة قال « وقد أطال صاحب المنار في الرد ظنا بأن الحرب قائمة على قدم وساق في المباحث العلمية العملية النافعة المفيدة وأضاعوا عليه وقته وان كان كلامه لايخلو من فائدة » ثم قال « ان تطويله وتعريفه في محله ولكن أولئك يتخذونه حجة على لعن معاوية وسبه فقط فلا علم ولا بحث ولا خالد ولا بكر الا معاوية فقط » وطلب ان يبينوا مسألة غلط فيها ابن حجر فخالف الكتاب أو السنة وقلدوه فيها . فظهر انه من الذين يعرضون فيهم وطلب منا فصل النزاع في ذلك وذكر ان الذي قوى الخوض في هذه المسألة هو كتاب النصائح الكافية لمن يتولى معاوية الذي ألفه ونشره صديقه وصديقنا السيد محمد بن عقيل

أما ماكتبناه في منار شعبان فلا وجه فيه للاحتجاج على لعن معاوية وهو يعلم انهم كانوا استفتونا في لعن معاوية فلم نفت بالجواز ولم ترض تلك الفتوى السيد محمد بن عقيل وربما كانت من أسباب تأليفه لذلك الكتاب الذي لم نفرغ لقراءته لكثرة الاعمال والاسفار ، ونحن من أولياء علي عليه السلام والرضوان ، لامن أولياء معاوية وفئته الباغية عليهم من الله مايستحقون ، ولكننا لسنا بسبابين ولا لعانين كما ورد في وصف المؤمن وقد ذكرت في ترجمة الوالد رحمه الله تعالى من المجلد الثامن انه كان يقول « لانحب معاوية ولا نسبه » وكيف نحب من بغى على جدنا وخرج عليه وكان سببا في تلك الفتن التي كانت نكتة سوداء في تاريخ عصر النور وهو القرن الاول لنور الاسلام ،

وبه تحول شكل الحكومة الاسلامية عن القاعدة التي وضعها لها الله تعالى في كتابه بقوله في المؤمنين (٤٢ : ٣٧ وأمرهم شورى بينهم) الى حكومة شخصية استبدادية جعلت مصالح الامة كالمال يرثه الاقرب فالاقرب الى المالك وان كرهت الامة كلها . فكان هذا أصل جميع مصائب الامة الاسلامية في دينها ودنياها

وأما الذي انصح به الآن لاخواني المسلمين في سنغافورة وجاوة وحضرموت كما انصح به لسائر الناس : فهو ان لايتفرقوا ولا يتعادوا لاجل الاختلاف في هذه المسألة ولا في غيرها ، وان يتأدب بعضهم مع بعض في الخطاب والكتاب ، وان يعلموا ان التفرق والتعادي أشد ضررا في الدين والدنيا من الخطإ الذي يتفرقون ويتعادون لاجله ، وان المخلص في بحثه عن الحق وبيانه له لايعادي اخوانه الذين لم يظهر لهم ماظهر له بل يعذرهم ويرفق بهم وإنما يؤذي ويعادي صاحب الهوى ، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يكره التفرق والخلاف أشد من كراهته لسائر المعاصي حتى انه كان يريد ان يرشد أصحابه الى شيء فيتركه اذا رآهم تماروا واختلفوا كما فعل يوم خرج ليعين لهم ليلة القدر ، ويوم أراد أن يكتب لهم كتابا لايضلون بعده ، والحديثان في صحيح البخاري . واني لا أخشى أن تزيد الرسالة التي يؤلفها أخونا السيد حسن بن شهاب هذا الخلاف والشقاق لان الغرض منها هو الافحام والالزام

وقد ذكر السيد حسن في هامش رسالته السيد عثمان بن عقيل واثنى عليه بالدين والتقوى وحسن النية على كونه من المقلدين . وهذا ماأشرنا اليه في جزء شعبان فاننا شممنا رائحة الاخلاص بما رأيناه من رسالته فرجحنا حسن الظن فيه على ما كتب الينا مرارا منذ سنين من الطعن فيه بكونه آلة في يد الحكومة أو حساما تقابل به المسلمين من طريق الاسلام نفسه ولذلك لم ننشر شيئا من تلك المطاعن الكثيرة ، ولكن لايجوز لنا السكوت عنه اذا هو قاوم دعوة الاصلاح ونفر المسلمين من المنار ومن كتب ابن تيمية على الإطلاق ولو كان يخطئنا أو يخطيء ابن تيمية في مسألة أو مسائل معينة بأن يطلع على المسألة في كلامنا أو كلامه وعلى دليلها ثم يقرع الدليل بالدليل لاحترمنا قوله مطلقا فان رأيناه صوابا اذعنا له وان رأيناه خطأ بينا ذلك بالدليل مع الادب والثناء

رحلة هذا العام الى القسطنطينية

(١)

رحلت في العام الماضي — وهو العام الاول للدستور — الى الديار السورية لصلة الرحم التي قطعها الاستبداد على احدى عشرة سنة، ولاختبار حال البلاد، بعد ماعاثت به فيها حكومة الاستبداد، وللوعظ والارشاد، والحث على الاتفاق والاتحاد، وبيان مزايا الدستور وفوائده، وما يجب على الامة من العمل للتقدم في عهده، وقد نشرت في المنار ملخص تلك الخطب والدروس فعرفها قراؤه

ورحلت في هذا العام — وهو العام الثاني للدستور — الى القسطنطينية عاصمة الدولة لاسعى في أمرين عظيمين أحدهما وهو أجلها خدمة للدين الاسلامي ولجميع المسلمين وثانيهما خدمة للدولة العلية من حيث هي حكومة الدستور القائم على أساس العدل والمساواة ولعنصري الامة العثمانية الكبيرين

اما الاول فهو انشاء معهد ديني علمي في العاصمة للتربية الاسلامية الصحيحة الكاملة بالتزام آداب الاسلام العالية واخلاقه الفاضلة وعبادته المطهرة للارواح من الفرائض والنوافل كالقيام والصيام وكثرة ذكر الله عز وجل — والجمع بين هذه التربية والتعليم الاسلامي الذي يكون وسيلة لسعادة الدنيا والآخرة كالتفسير والحديث والتوحيد وحكمة التشريع والاخلاق والسيرة النبوية الشريفة وتاريخ الاسلام وأصول الفقه وفروعه ووسائل ذلك من اللغة وفنونها وكالفنون الرياضية والطبيعية والصحية والاقتصادية التي هي وسائل عمران الدنيا وتقوية الملة والدولة

من منافع المعهد الاسلامي تعزيز دولة الخلافة وتأييدها بجعل عاصمتها ينبوعا للاسلام وكعبة معنوية لطلاب علومه وآدابه . ومنها تخريج العلماء الذين يقدرون على الدفاع عن الدين على النحو الذي كان يدافع به الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده رحمه الله) مثل (رنان) و(هانوتو) وما أشد الحاجة الى مثل هذا الدفاع في عهد الحرية والدستور — ومنها تخريج الدعاة الى الخير والمرشدين للامة الذين يقومون بما فرضه الله تعالى على المسلمين من الدعوة والارشاد وحرمه عليهم من التفرق في مثل قوله عز وجل (٣: ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) وأقرب فوائد المرشدين ارسالهم الى البلاد التي فشا فيها الجهل وكثرت المشاغب (كاليمن والعراق والاناضول) للوعظ والارشاد الذي ينفر عن الشرور والفتن، والفواحش ماظهر منها وما بطن، ويرغب في البر والتعاون بين جميع أهل الوطن، والاخلاص للدولة العلية في السر والعلن، وتعليم أحكام الدين بأسلوب يكون في منتهى السهولة، مع مبادي حفظ الصحة والثروة ، فهؤلاء الوعاظ الذين يمكن تخريج طائفة منهم في مدة أربع سنين أو خمس سنين هم الذين يطهرون البلاد بتأثير الدين من الثورات والقلاقل، ويؤلفون بين جميع الطوائف والعناصر، ويفعلون بالتصرف في القلوب والسرائر، مايعجز عن بعضه من لاتأثير لهم الا في الظواهر، كأصحاب الجرائد والحكام والعساكر،

ليس الغرض الذي أسعى اليه أن تكون الحكومة العثمانية هي التي تنشيء هذا المعهد الاسلامي فإن الحكومات تعجز عن مثل هذه الاعمال، وان كانت قادرة على بذل المال واستخدام الرجال، لان الحكام رسميون فأعمالهم كلها رسوم لايمس شيء منها سواد القلوب، ولأن ماتقوم به الحكومة تدخل فيه السياسة والسياسة مادخلت في شيء الا افسدته كما قال الاستاذ الامام . وانما الغرض ان تقوم بهذا العمل جمعية من محبي الاصلاح العلماء الصلحاء وان تساعدهم الحكومة بما يمكن من الاوقاف الخيرية وبغير ذلك كاستثناء طلاب العلم من الخدمة العسكرية واتخاذ الوعاظ منهم بالمرتبات الشهرية

عرضت هذا المشروع على رئيس حكومتنا الصدر الاعظم حسين حلمي باشا وعلى بعض أعضاء وزارته وعلى بعض الكبراء والعلماء هنا ومنهم محمود شوكت باشا وعلى بعض أعضاء مجلس الامة العمومي من الاعيان والمبعوثين وعلى أشهر رجال جمعية الاتحاد والترقي فكلهم أظهروا الاعجاب به والاعتراف بفوائده ومنافعه وشدة الحاجة اليه وقال بعضهم إنه فكر في مثله من قبل . وكذلك قال من ذاكرتهم فيه بمصر

وسورية وقد وعدت بالمساعدة الممكنة من كثيرين وسأبين ذلك في وقته ان شاء الله تعالى

وأما الامر الثاني الذي سعيت اليه فهو ازالة ماوقع أخيرا من سوء التفاهم بين عنصري الدولة الاكبرين ـ العرب والترك ـ وقد شرحت هذا في مقال مطول مؤلف من ست نبذ أو فصول نشرت في جريدة (إقدام) مترجمة بالتركية فصادفت استحسانا عند فضلاء الترك . وسيراه قراء المنار مجموعا في الجزئين الاخيرين ـ ١١ و ١٢

المشهور عندنا عن ساسة الترك انهم يخافون ويحذرون من قيام العرب بتكوين دولة عربية أو خلافة عربية في جزيرتهم وان هذا الخوف قديم فيهم ولكن أليس قد مرت القرون ولم تظهر من زعمائهم الدعوة الى ذلك حتى في الازمنة الاخيرة التي كاد اليأس من الدولة يستولى فيها عليهم؟ بلى! فأي حجة لهم على استمرار هذا الخوف والحذر وبناء الاعمال عليه وكثرة الكلام فيه ؟

يقول بعضهم ان هذا غير ممكن ولذلك لم يتشبثوا به ولم يحاولوا تنفيذه ونرد عليهم بأن العرب اذا كانوا يعلمون ان هذا غير ممكن فكيف يريدونه والارادة لا تتعلق بالمحال كما هو معلوم واذا كانوا لا يعلمونه فلماذا لم يسعوا اليه سعيه ؟

هذه وساوس وأوهام يجب أن لا تذكر ولا يبنى عليها قول ولا عمل في هذا العصر لئلا يصير الوهم حقيقة! . وان جميع من أعرف من عقلاء العرب متفقون معي على وجوب تدارك ما قوي الآن من سوء التفاهم ولما جئت الاستانة رأيت كثيرا من عقلاء الترك يميلون الى هذا ولكن العقلاء من الفريقين يرتابون في سياسة بعض الزعماء في العاصمة !

بلغ من سوء ظن بعض ساسة الترك بالعرب ما أشرنا الى بعضه في المقالات التي نشرناها هنا مترجمة بالتركية ولاسيما مسألة الشام . وهناك أمور كثيرة لم نكتب فيها شيئا كاهتمام الكثيرين بحج الخديو ، وبما يتعجب المصريون من ادخاله في باب السياسة كحضور عزت العابد دعوة الشيخ علي يوسف اليوم الاربعين لابنته الجديدة ، و بلغ من سوء ظن العرب بالترك أن قال لي اكثر من واحد من أذكيائهم وأهل الرأي فيهم بمصر والاستانة ان وزراء الدولة ورجال جمعية الاتحاد والترقي لا يقدرون مشروعك الاصلاحيين حق قدرهما ولا يعرفون لك قيمة اخلاصك وغيرتك

فيهما لانك عربي . . . فلما رأيت من عناية بعض الوزراء ولا سيما رئيسهم الصدر الاعظم وعناية كبراء رجال الجمعية ما رأيت وسمعت من الوعود المؤكدة منهم ما سمعت ذكرت ذلك لبعض الظانين ظن السوء فقالوا ان الاعمال بالخواتيم وسترى هل أنت المخطئ أم نحن المصيبون ، وإني لارجو أن تطيش هذه الاوهام بما أنتظر من محاسن الاعمال ، وعلى الله الاتكال في تصديق الآمال

صاحب جريدة وطن الهندية وتفسير القرآن

جرى ذكر صاحبنا (مولوي محمد إنشاء الله) صاحب جريدة (وطن) الهندية في بعض المجالس فرأيت القوم يسيئون به الظن فذكرت لهم ما أعرف من فضله وغيرته على الاسلام ودولته وأهله ، حتى انني ذكرت للصدر الاعظم ولبعض الكبراء وأصحاب الجرائد انه لم يدفعه الى جمع تلك الاموال الكثيرة للسكة الحجازية إلا غيرته وان من دلائل غيرته الدينية انه كتب اليّ قبل الدستور كتابا قال فيه ان هذا التفسير الذي تنشرونه في المنار هو أنفع ما كتب للمسلمين وانه لا شيء يرشدهم الى ما يحييهم مثله فأقترح عليكم أن تتركوا كل عمل وتصرفوا همتكم الى إتمامه وأنا أرتب على نفسي مساعدة مالية أقدمها لكم في كل شهر إلي أن يتم التفسير. هذا معنى ما كتبه فأجبته بأنني لا أقبل على خدمة الدين مالا من أحد وإنني أجتهد في إتمام التفسير ما استطعت . فكتب إليّ ثانيا يشكر لي ذلك ويطلب الاشتراك بمئة نسخة من كل جزء يصدر من التفسير بجلد ويوزع على المساجد في البلاد العربية لاجل أن يرشد الخطباء والمدرسون الامة به ، ويطلب أيضا أن يرسل اليه عدة نسخ من كل جزء لاجل أن ينشرها في الهند ويبيعها لنا . وقد أرسل عدة حوالات مالية من ثمن النسخ التي اشترك فيها

ذكرت هذا للصدر الاعظم ولغيره فأعجبوا بفضل الرجل وغيرته وترجح عندهم صدق قولي في اخلاصه فيما كتبه بشأن الانقلاب العثماني وستريهم الايام اكثر من ذلك متى ظهر للناس كلهم اصلاح الحكومة الدستورية للدولة العلية مع محافظتها على الدين الذي يكفله مقام الخلافة الاسلامية على ماقرره القانون الاساسي



﴿ خاتمة السنة الثانية عشرة ﴾

قد تمت السنة الثانية عشرة للمنار بتوفيق الله تعالى وعنايته فله الحمد والشكر والثناء الحسن أولا وآخراً وظاهراً وباطناً، ونسأله تعالى أن يوفقنا دائماً لاتمام عملنا ويلهمنا الحكمة والسداد فيه

كان من قضاء الله وقدره أن كتبت الاجزاء الاوائل والاواخر من منار هذا العام في السفر، ففي أوله كنا في سورية، ويرى القارىء في جزئي المحرم وصفر شيئاً يتعلق بأهلها وحكومتها، وفي آخره صرنا الى القسطنطينية، ويرى القارىء في جزئي ذي القعدة وذي الحجة كلاماً في سياستها وحكومتها، والكلام في سياسة الدولة وشئونها كثير في سائر الاجزاء، لما تقتضيه من النصيحة طبيعة الانقلاب،

(المشتركون) لايزال المثون من المشتركين يلوون ويمطلون كما تعودوا وقد بينا درجاتهم في المطل والوفاء من قبل، فلا يزال جمهور أهل القطر التونسي أشد مطلا من غيرهم بل زادهم تماديا فيه عدم وجود وكيل يتقاضاهم على اننا وكلنا وكيلا منهم ووفانا الحساب، حتى الوكيل الاخير على مكانته في الآداب، ومنهم أفراد هم خير الناس وفاء، وأحسنهم أداء، كالا فاضل عبد الجليل الزاوش ومحمد بن الخوجه في الحاضرة ومحمد المزيو في سفاقس وحموده بوتيتي في قفصه، — ولا يزال العرب في جزيرتهم وفي جاوة وسنغافورة والجزائر والمغرب الاقصى في الذروة العليا من الوفاء فالماطل منهم قليل ولكن مسلمي روسيا قد نزلوا الى الدرجة الثانية فكثر فيهم الماطلون . وأما أهل البلاد السورية فكان أحسنهم وفاء في هاتين السنتين أهل حمص فأهل دمشق وللوكلاء الكملة الفضل الاول في ذلك وسنبين درجات سائر البلاد في ذلك بعد

(الانتقاد على المنار) نشرنا ما انتقده بعض القراء على المنار ومنه ما كان الانتقاد موجها الينا كانتقاد احمد بدوي افندي ومنه ما كان موجها الى كلام نشرناه لغيرنا كانتقاد الاستاذ اليافعي على الدكتور محمد توفيق افندى صدقي . وبقي منه شيء لم ننشره فقد بعثت الينا ادارة المجلة بانتقاد لبعض أصدقائنا من علماء تونس على ما كتبناه في تفسير الآية الاولى من سورة النساء في أبوة آدم عليه السلام، وبانتقاد لبعض أصدقائنا في مكة المكرمة على ما كتبناه منذ بضع سنين في مسألة المتعة، فأما هذا الانتقاد فقد أودع في رسالة طويلة جداً والمسألة لاتحتمل ذلك كله، نجزم بذلك وان لم نجد وقتاً لقراءتها لكثرة شغلنا في الاستانة، ونحن قد أشرنا الى ما ينتقد به على هذه المسألة في هامش الصفحة ١٢٨ من الكتاب الذي طبعنا فيه تلك المحاورات وسنزيد ذلك بيانا في تفسير « فما استمتعتم به منهن » الآية وقد قرب مجيئها في التفسير فان لم يكتف المنتقد بذلك فليختصر رسالته ويجعلها صفحة واحدة ان أمكن والا فصفحتين من صفحات المنار بأن لايزيد على دليل تحريم المتعة شيئا ولاسيما اذا كانت تلك الزيادة في بعض كلام المقلد مطلقا أو كلام المصلح في موضع آخر

وأما رسالة الانتقاد على مسألة أبوة آدم فقد بحثت عنها فيما عندي من الاوراق اكثر من مرة فلم أجدها حتى ظننت أنها فقدت ثم تذكرت اليوم أني كنت أطلعت عليها صديقي الشيخ محمد مكي بن عزوز في اليوم الثاني من أيام التشريق وظننت أنها بقيت معه ولم أره بعد ذلك ولا هو أعادها الي ثم وجدتها بعد كتابة هذه الخاتمة وقرب سفر البريد بها وسننشرها مع الجواب عنها ان شاء الله تعالى في الجزء الاول من سنة ١٣٢٨ واننا نشكر للمنتقدين فضلهم عسى أن يكون الشكر مدعاة المزيد وأن يكون صاحب المنار وقراؤه أسوة حسنة للناس في انتقاد بعضهم على بعض من غير مراء ولا تحامل بل مع ازدياد المحبة والاعتصام برابطة الاخوة

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا في المستقبل الى خير ما وفقنا لمثله في الماضي وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين . وكتب في القسطنطينية في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٢٧